الإلمام بعلوم الإمام ابن قيم الجوزية (٢)

جهود الإمام ابن قيم الجوزية
في تقرير
توحيد الأسماء والصفات

تأليف
الدكتور وليد بن محمد بن عبد الله العلي

الجزء الأول

الناشر
المبرة الخيرية لعلوم القرآن والسنة
دولة الكويت

أصل هذا الكتاب:

رسالة علمية؛ وأطروحة جامعية نال بها المؤلف درجة العالمية العالية (الدكتوراه) من قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقد منح الدرجة بتقدير: (ممتاز مرتفع مع مرتبة الشرف الأولى). وذلك في يوم الأربعاء ٢٠/ ٧/ ١٤٢٤هـ؛ الموافق ١٧/ ٩/ ٢٠٠٣م.

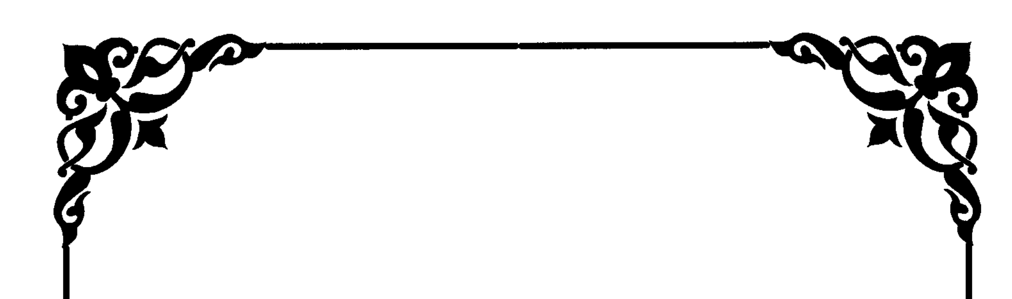
المبرة الخيرية
لعلوم القرآن والسنّة

دولة الكويت ـ القادسية ـ ق ٦ ـ شارع القادسية ـ م ٤
تلفاكس ٢٥٧٢٥٠٠ ـ نقال ٧٩١٠٠٠٦ ـ ٩٣٩٨٢٢٢
بيجر ٩١٥٠٢٢٢ ـ ص. ب ٢٠٧ الضاحية ـ الكويت ـ
البريد الإلكتروني: E-mail: al-mabarah@hotmail.com _ www.almabara.com


جهود الإمام ابن قيم الجوزية
في تقرير
توحيد الأسماء والصفات
١

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧
فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣ e-mail: bashaer@cyberia.net.lb



المقـدّمـة

* فاتحة البحث .
* أهمية البحث .
* سبب اختيار البحث .
* خطة البحث .
* منهج البحث .
* أهمّ الصعوبات التي واجهتني في البحث .
* الشكر والتقدير .



فاتحة البحث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[2]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[3].

أما بعد[4]:

فإن (كمال الإنسان: إنما هو بالعلم النافع؛ والعمل الصالح،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠ ـ ٧١.

(٤) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، وقد أخرج طرفاً منها: مسلم في صحيحه [كتاب الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة ـ الحديث رقم (٨٦٨) ـ ٢/ ٥٩٣ ـ ٥٩٤] من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. =

وهما الهدى ودين الحقِّ)[1]، وهذا الكمال هو الذي يُكسب العبدَ: (عزًّا ومهابة؛ وخلافةَ نبوةٍ؛ ومنشورَ صديقيَّةٍ، وأثره يُورثه: حلاوة وسكينة؛ وأنساً للقلوب به؛ وهوى الأفئدة إليه)[2].

وعلماء الأمة الربَّانيون ــ الذين جمعوا بين العلم النافع؛ والعمل به؛ والدعوة إليه[3]ــ : هم شامة الإسلام، والسفراء بين الأنام وبين ربِّهم الملك

= وأخرجها بتمامها: الخمسة؛ أحمد في مسنده [الحديث رقم (٣٧٢٠) ــ ٦/ ٢٦٢ ــ ٢٦٣]، وأبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب الرجل يخطب على قوس ــ الحديث رقم (١٠٩٧) ــ ١/ ٦٥٩]، والترمذي في جامعه [أبواب النكاح/ باب ما جاء في خطبة النكاح ــ الحديث رقم (١١٠٥) ــ ٢/ ٣٩٨]، والنسائي في سننه [كتاب النكاح/ باب ما يستحب من الكلام عند النكاح ــ الحديث رقم (٣٢٧٧) ــ ٦/ ٣٩٧ ــ ٣٩٨]، وابن ماجه في سننه [كتاب النكاح/ باب خطبة النكاح ــ الحديث رقم (١٨٩٢ ــ ١٨٩٣) ــ ٢/ ٤٣٤ ــ ٤٣٦] من حديث عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ .

وقد أفرد المحدث الألباني ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الخطبة الشريفة برسالة لطيفة، وسمها بـ : (خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلِّمها أصحابه)، وقد جمع فيها طرقها ورواياتها.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١١ .

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٧٦ .

(٣) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ١٠]: (إن السلف مجمعون على أن العالِمَ لا يستحقُّ أن يُسمَّى ربَّانياً حتى: يعرف الحقَّ؛ ويعمل به؛ ويُعلِّمه، فمن عَلِمَ وعَمِل وعَلَّم: فذاك يُدعى عظيماً في ملكوت السماوات).

كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ في كتابه: [مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤٠٥ ــ ٤١١]: ما ورد في معنى (الربَّاني) على لسان سلف الأمة المتقدمين؛ ولسان الأئمة النحويين.

القدُّوس السلام، فهم المُفتون في مسائل الحلال والحرام؛ والموقِّعون عن ربِّ العالمين في باب الشرائع والأحكام، فهم كالعافية للأجسام؛ وكالمصابيح في الظلام[١].

فـ (الحمد لله الذي جعل في كلِّ زمان فترةٍ من الرُّسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلَّ إلى الهدى؛ ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله الموتى؛ ويُبصِّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه؛ وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس؛ وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين؛ وانتحال المبطلين؛ وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة؛ وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب؛ مخالفون للكتاب؛ مُجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله؛ وفي الله؛ وفي كتاب الله بغير علمٍ، ويتكلَّمون بالمتشابه من الكلام؛ ويخدعون جُهَّال الناس بما يُشبِّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتنة المضلين)[٢].

---

(١) عقد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في كتابه: [مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢١٩ ــ ٥٤١] أصلاً في العلم وفضله وشرفه؛ وبيان عمومِ الحاجة إليه؛ وتوقُّف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه، وذكر فيه مائة وثلاثة وخمسين وجهاً من وجوه فضل العلم وأهله.
كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ في مواضع متفرِّقةٍ من كتبه: أن العلم أفضل ما اكتسبته النفوس؛ وحصَّلته القلوب؛ ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة؛ كما في: الفوائد ص١١٧ ــ ١٢٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٧٣ ــ ٢٧٤.

(٢) تضمين من خطبة الإمام الرباني أحمد بن حنبل الشيباني ــ إمام أهل السنة والجماعة ــ التي افتتح بها مُصنَّفه الذي صنَّفه في محبسه؛ في الردِّ على الزنادقة والجهمية فيما شكَّت فيه من متشابه القرآن؛ وتأولته على غير تأويله، ولقد أحسن =

وإن من بين من أُقيمَ في أزمنة فترات القرون الماضية ليكون ببيان سنة خاتم الأنبياء والمرسلين كفيلاً؛ فأوضح للأمة الحجة وبيَّن لهم المحجة ولم يـزل علـى ذلـك حتـى تـوَّفتـه رسـل الله تعـالـى لا يـروم عـن ذلـك انتقـالاً ولا تحويلاً: أبا عبد الله محمد بن أبـي بكر بن سعد الدمشقيَّ ـ المعروف بابن قيِّم الجوزية رحمه الله تعالى ـ.

فهو العالم الربَّانيُّ الذي حَسُنَ ذكره في حياته؛ وجَمُلَ الحديث عنه بعد وفاته، أثره باقٍ ما بَقِيَ الدهر ـ بإذن الله تعالى ـ وعينه مفقودةٌ، وآثاره العلميَّة وسيرته المثاليَّة في القلوب محفوظةٌ وموجودةٌ[1].

= ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله في خطبته؛ وإن كانت مأثورة عمن تقدَّم.

وقد ضمَّن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الخطبة في مواضع من كتبه؛ كما في كتاب: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٢٠٢، إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٩، رسالة ابن قيم الجوزية إلى أحد إخـوانـه ص٢٣ ـ ٢٤، مفتـاح دار السعـادة ومنشـور ولايـة أهـل العلـم والإرادة ١/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

وكذا ضمَّنها ـ رحمه الله تعالى ـ في مواضع أخرى من كتبه ـ مشيراً إلى أن ابن وضاح أسندها في كتابه: (البدع والنهي عنها) إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ؛ كما في كتاب: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٥٨٢ ـ ٥٨٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٢٧ ـ ٩٢٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٦٣٥، الفوائد ص١٢١.

وانظر: البدع والنهي عنها لابن وضاح [رقم (٣) ـ ص٢٦ ـ ٢٧]، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية ٥/ ٢٧٣، النبوات له ١/ ٥٦١.

(١) معاني مستفادةٌ من وصف العالم الربَّاني؛ كما جاء في وصيَّة أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب ـ رضي الله عنه ـ لزياد بن كميل النخعي، وقد أفاض الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في شرح هذه الوصية في كتابه: [مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤٠٣ ـ ٤٧٤].

وقد خلَّف الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعد وفاته للأمة تراثاً تليداً؛ وعلماً فريداً، فمن ــ وفَّقه الله تعالى ــ لورود مائه المعين؛ والاستسقاء والنهل من زلال علمه الذي لم يأسن ولم يتغيَّر طعمه بل هو مُصفًّى لذَّة للشاربين: فقد أخذ من ميراثه بعد موته بحظٍ وافرٍ، وتعزَّى به عن مُصابه بفقده وكان لكسره جابر.

ولا غَرْوَ ولا غُلُوَّ في ذلك؛ لأن الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ قد عُنِيَ أيما عنايةٍ بالتقرير والتقريب؛ والتحرير والتهذيب لشتى العلوم النقليَّة المستقيمة، وتصفيتها وتنقيتها مما لحقها من البدع العقليَّة الذميمة، وكان من أبرز هذه العلوم؛ التي أنار في توضيحها وتصحيحها الفهوم: ركن الإسلام الأوَّل؛ وأساس الإيمان الذي عليه المُعوَّل؛ وهو: الشهادة لله ــ سبحانه وتعالى ــ بالتوحيد؛ ولنبيه ﷺ بالإرسال للعبيد، لأنها العهد والميثاق الذي يدخل به العبد في رِبْقَة الإسلام، وينعم بعصمة دمه وماله أن يُنتهك بالعدوان والآثام.

ولما كان معرفة الله تعالى بما له من أسماء الجمال وصفات الكمال ونعوت الجلال: هو الصراط المستقيم والطريق القويم إلى تحقيق هذه الشهادة الجليلة؛ وفهم معانيها النبيلة، فقد رأيت أن أجمع ما في هذا الباب مما هو مُتفرِّقٌ في كتب الإمام؛ ومُودَعٌ فيما له من بديع الكلام، وأن ألقُط ما هو مُتناثرٌ من درره النظام، فجاءت تقريراته وتحريراته ــ بحمد الله تعالى ــ : مُقرَّبةً مُهذَّبةً في هذا البحث؛ الذي وسمته بـ :

«جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير توحيد الأسماء والصفات».



أهميّة البحث

إذا عُلِمَ أن موضوع البحث: متعلِّقٌ بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى: فإن ذلك يُغني ويكفي عن عدِّ مناقبه؛ وسرد عجائبه، إلا أن هذا البحث إنما تتجلَّى أهميته في:

١ ــ أن العلم بأسماء الله تعالى وصفاته وسيلةٌ جليلةٌ إلى غايةٍ نبيلةٍ؛ وهي: معرفة الله ــ سبحانه وتعالى ــ؛ التي لا سعادة للعبد ولا فلاح ولا نعيم ولا صلاح في دُنياه وأُخراه إلا بهذه المعرفة؛ والتعبد لله ــ تبارك وتعالى ــ بها.

٢ ــ أن أشرف علمٍ يناله العبد في هذه الدار: هو علمه بأسماء الله تعالى وصفاته، لأنه أصلُ كلِّ علمٍ ومنشؤه، فهو علمٌ مطلوبٌ لنفسه مُرادٌ لذاته، والعمل بهذا العلم هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر.

٣ ــ أن الكتب الإلـٰهية عامَّة؛ والكتاب المنزل بالحقِّ المُصدِّق لما بين يديها والمُهيمن عليها خاصَّة: اشتملت نصوصها على الإخبار عن أسماء الله تعالى وصفاته أكثر من اشتمالها على ما عداها.

٤ ــ أن الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ عامَّة؛ وخاتمهم وإمامهم ﷺ خاصَّة: جُعِلَ مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم ومطالب نُبوَّتهم وأساس ملَّتهم: تعريف أممهم بأسماء الله تعالى وصفاته، والدعوة إلى إخلاص الدين له.

٥ ــ أنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ يُحبُّ أن يُحمد ويُمجَّد ويُثنى عليه بما هو أهله، وأحبُّ الحمد والمجد والثناء الحسن إلى الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ : ذكره بأسماء جماله وصفات كماله ونعوت جلاله.

وبالعموم؛ فأهمية هذا البحث المتعلِّق بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى: (أعظم مما يخطر بالبال؛ أو يدور بالخيال)[1]، وما ذُكِرَ غيضٌ من فيضٍ ما سيمرُّ بك ــ بمشيئة الله تعالى ــ من كلام الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في فاتحة أبواب هذا البحث؛ عند بيان جهوده في تقرير أهمية توحيد الأسماء والصفات.



(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٣.

سبب اختيار البحث

١ ـ أهمية هذا البحث ـ المُشار إلى طرفٍ يسيرٍ منه آنفاً ـ : دفعتني لمطالعة أبواب توحيد الأسماء والصفات السَّنيَّة؛ والوقوف على فصوله البهيَّة؛ والنظر في مباحثه المرضيَّة، رغبة في الكتابة في مسائله المُضيَّة.

٢ ـ شهرة الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في العالمين؛ وما جُعِلَ له من لسان صدقٍ في الآخِرين: زَرَعَتْ حبَّه ووُدَّه في الجنان؛ فشغفه مطالعة مجموع مؤلفاته لتقرَّ بهما العينان.

٣ ـ الرغبة في تحقيق سُؤْلِ الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لربِّه ـ تبارك وتعالى ـ ؛ في الإعانة والتوفيق للشرح والتعليق على أسماء الله الحسنى وصفاته العلى[١].

٤ ـ متابعة بعض الباحثين ومشاركتهم في سلسلة بحوثهم العلمية؛ التي تناولت بيان جهود بعض الأئمة من علماء الأمة في تقرير مباحث العقيدة الإسلامية على وجه العموم؛ أو بعض مفرداتها على وجه

---

(١) سأل الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإعانة على تعليق شرحٍ على أسماء الله تعالى وصفاته في موضعين من كتابه: [بدائع الفوائد ١/ ١٥٤؛ ٢/ ١١٨].

الخصوص، و (نحن أبناء الزمان، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، ولكلِّ زمانٍ دولةٌ ورجالٌ)[1].

٥ ـ الاستجابة لمتطلَّبات برنامج الدراسات العليا في الجامعات؛ التي نصَّت في لائحتها الموحَّدة على ضرورة التقدُّم بمشروع البحث العلميِّ، وذلك لنيل درجة العالمية العالية (الدكتوراة).

فهذه الأسباب وغيرُها مما حدى وحثَّ؛ إلى اختيار هذا البحث، فأثارت ـ بحمد الله تعالى ـ العزم الساكن في سُبات؛ إلى إبراز جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في توحيد الأسماء والصفات.



(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٢٠١.

خطة البحث

قد اهتديتُ ـ بتوفيق الله تعالى ومنِّه ـ إلى تقسيم هذا البحث إلى: مقدمة؛ وتمهيد؛ وثلاثة أبواب؛ وخاتمة.

أولاً: المقدمة. وتشتمل على سبعة أمور:

١ ـ فاتحة البحث.

٢ ـ أهمية البحث.

٣ ـ سبب اختيار البحث.

٤ ـ خطة البحث.

٥ ـ منهج البحث.

٦ ـ أهم الصعوبات التي واجهتني في البحث.

٧ ـ الشكر والتقدير.

ثانياً: التمهيد: شرح عنوان البحث. ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: شرح مفردات العنوان. وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف كلمة (جهود) لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تعريف كلمة (تقرير) لغة واصطلاحاً.

المطلب الثالث: تعريف كلمة (توحيد) لغة.

المطلب الرابع: تعريف كلمة (الأسماء) لغة.

المطلب الخامس: تعريف كلمة (الصفات) لغة.

المطلب السادس: تعريف كلمة (توحيد الأسماء والصفات) شرعاً.

المبحث الثاني: تعريف بالإمام ابن قيِّم الجوزية رحمه الله تعالى. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف بسيرة الإمام ابن قيِّم الجوزية.

المطلب الثاني: تعريف بمنهج الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير توحيد الأسماء والصفات.

الباب الأول:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير أهمية توحيد الأسماء والصفات وبيان معتقد أهل السنة والجماعة فيه،

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير أهمية توحيد الأسماء والصفات ومقتضياته وآثاره وثمراته، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير أهمية توحيد الأسماء والصفات. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: جهوده في تقرير أن معرفة الله تعالى إنما تكون بمعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

المطلب الثاني: جهوده في تقرير أن توحيد الأسماء والصفات أشرف العلوم.

المطلب الرابع : جهوده في تقرير دلالة العقل الصريح على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى بأدلة التنزيه والكمال.

المطلب الخامس : جهوده في تقرير دلالة العقل الصريح على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى بالمثل الأعلى.

المطلب السادس : جهوده في تقرير موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح في إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ ودرء تعارضهما.

الفصل الثالث :

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات وبيان مجمل معتقدهم فيه، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، وبيان عنايتهم به. وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : جهوده في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة وأنها بين الفِرَق نظير وسطية الأمة بين الأمم.

المطلب الثاني : جهوده في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات بين أهل التعطيل وأهل التمثيل.

المطلب الثالث : جهوده في تقرير عناية أهل السنة والجماعة بتوحيد الأسماء والصفات.

المبحث الثاني : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في إثبات توحيد الأسماء الحسنى والصفات العلى. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول : جهوده في تقرير موافقة أهل السنة والجماعة للرسل ــ عليهم السلام ــ فيما جاءت به من الإثبات المفصل في الأسماء الحسنى والصفات العلى.

المطلب الثاني : جهوده في تقرير إثبات أهل السنة والجماعة للأسماء الحسنى والصفات العلى كما جاءت في الكتاب والسنة.

المطلب الثالث : جهوده في تقرير إيمان أهل السنة والجماعة بمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى على الوجه اللائق بالله تعالى.

المطلب الرابع : جهوده في تقرير إثبات أهل السنة والجماعة لكمال الله تعالى المتضمن لنفي ضدِّه.

المبحث الثالث : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في تنزيه توحيد الأسماء الحسنى والصفات العلى. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول : جهوده في تقرير موافقة أهل السنة والجماعة للرسل ـ عليهم السلام ـ فيما جاءت به من النفي المجمل في الأسماء الحسنى والصفات العلى.

المطلب الثاني : جهوده في تقرير نفي أهل السنة والجماعة لجميع ما نفاه الله تعالى عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ.

المطلب الثالث : جهوده في تقرير نفي أهل السنة والجماعة لجميع النقائص والعيوب عن الله تعالى.

المطلب الرابع : جهوده في تقرير نفي أهل السنة والجماعة المتضمن إثبات كمال ضد المنفي.

المطلب الخامس : جهوده في تقرير حكم أهل السنة والجماعة فيما لم يرد نفيه ولا إثباته.

المبحث الرابع : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في وجوب قطع الطمع عن إدراك الكيفية. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول : جهوده في تقرير علم أهل السنة والجماعة أن الله تعالى لم يُطْلِع الخلق على ذاته.

المطلب الثاني : جهوده في تقرير علم أهل السنة والجماعة أن العقول قاصرة عن معرفة كيفية أسماء الله تعالى وصفاته.

المطلب الثالث : جهوده في تقرير معنى قول السلف: بلا كيف.

المطلب الرابع : جهوده في تقرير أن عدم علم أهل السنة والجماعة بالكيفية لا يقدح في حقيقة الإيمان بالأسماء والصفات ومعرفة معانيها.

الباب الثاني:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قواعد الأسماء الحسنى والصفات العلى وأدلتهما، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير القواعد المشتركة بين الأسماء الحسنى والصفات العلى، وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى وصفاته العلى توقيفية).

المبحث الثاني : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى وصفاته العلى قديمة).

المبحث الثالث : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (تعدُّد الأسماء الحسنى والصفات العلى كمال).

المبحث الرابع : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (باب الأسماء الحسنى أخصُّ من باب الصفات العلى).

المبحث الخامس: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (الأسماء والصفات التي تُطلق على الله تعالى وعلى العبد ثابتة لهما على الحقيقة).

المبحث السادس: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (كل كمال ثبت للمخلوق لا نقص فيه فالخالق أحقُّ به وأولى).

المبحث السابع: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (أفعال الله تعالى صادرة عن أسمائه الحسنى وصفاته العلى).

المبحث الثامن: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (امتناع التمثيل والتعطيل في أسماء الله الحسنى وصفاته العلى).

الفصل الثاني:
جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير القواعد المختصة بالأسماء الحسنى، وفيه تسعة مباحث:

المبحث الأول: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله تعالى كلها حسنى).

المبحث الثاني: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تُحَدُّ بعدد).

المبحث الثالث : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى منها ما يُطلق عليه ـ سبحانه ـ مفرداً ومقترنا بغيره، ومنها ما لا يطلق عليه إلا مقروناً بمقابله).

المبحث الرابع : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى إن دلت على وصف متعد تضمنت ثبوت الاسم لله عزَّ وجلّ، وثبوت الصفة التي تضمنها، وثبوت حكمها ومقتضاها).

المبحث الخامس: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (إذا كان الاسم من أسماء الله الحسنى دالاً على عدة صفات فإنه يتناولها جميعها تناول الاسم الدال على صفة واحدة).

المبحث السادس: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (دلالة أسماء الله الحسنى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن وبالالتزام).

المبحث السابع : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (دلالة أسماء الله الحسنى على العلمية والوصفية).

المبحث الثامن : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى لها اعتبار من حيث الذات واعتبار من حيث الصفات).

المبحث التاسع : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (وجوب مجانبة الإلحاد في أسماء الله الحسنى).

الفصل الثالث:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير القواعد المختصة بالصفات العلى، وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (صفات الله العلى كلها صفات كمال).

المبحث الثاني : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (القول في الصفات كالقول في الذات).

المبحث الثالث : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر).

المبحث الرابع : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (الفرق بين الوصف والنعت).

المبحث الخامس: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها إلى ذلك المحل، فكان هو الموصوف بها).

المبحث السادس: جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (المضاف إلى الله سبحانه وتعالى نوعان: إضافة عين قائمة بنفسها، وإضافة صفة إلى موصوفها).

المبحث السابع : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (تنزيه صفات الله العلى عن مشابهة صفات المخلوقين).

الفصل الرابع :

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قواعد أدلة الأسماء الحسنى والصفات العلى، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (الأدلة التي تثبت بها أسماء الله تعالى وصفاته هي: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ).

المبحث الثاني : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (الواجب في أدلة الأسماء والصفات الواردة في القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف).

المبحث الثالث : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار، ومجهولة باعتبار آخر).

المبحث الرابع : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (ظواهر نصوص الصفات ما يتبادر منها من المعاني).

الباب الثالث:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى على وجه التفصيل، وفيه فصلان :

الفصل الأول :

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير إثبات الأسماء الحسنى على وجه التفصيل، وفيه أربعة مباحث :

المطلب الثالث : جهوده في تقرير اسمي الله تعالى: الحيِّ؛ القيُّوم.

المطلب الرابع : جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الغنيِّ؛ الواجد؛ الحميد؛ المجيد.

المطلب الخامس: جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الجليل؛ الجميل؛ الطيِّب؛ النور.

المطلب السادس: جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الكريم؛ الأكرم؛ الأعلى؛ المتعال؛ العليِّ؛ العظيم.

المطلب السابع : جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الواسع؛ العليم؛ العالِم؛ الخبير؛ السميع؛ البصير.

المطلب الثامن : جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: المُؤمن؛ الشهيد؛ الرَّقيب؛ الحفيظ؛ الحسيب.

المطلب التاسع : جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: القادر؛ القدير؛ الجامع؛ القويِّ؛ القهَّار؛ القاهر؛ الوالي.

المطلب العاشر : جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: العزيز؛ الحكيم؛ الحكم؛ العدل؛ الملك؛ الحقِّ؛ الرَّشيد؛ المُقسط.

المطلب الحادي عشر : جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: القدُّوس؛ السَّلام؛ الجبَّار؛ الكبير؛ المُتكبِّر.

المطلب الثالث : جهوده في تقرير أن الصفات تنقسم باعتبار تعلقها بأدلة ثبوتها إلى صفات سمعية عقلية وصفات سمعية خبرية.

المبحث الثالث : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير تعيين الصفات العلى وذكر أدلة ثبوتها وبيان معانيها. وفيه تسعة مطالب:

المطلب الأول : جهوده في تقرير صفة الله تعالى: العُلُوِّ والفوقيَّة.

المطلب الثاني : جهوده في تقرير صفة الله تعالى: الاستواء.

المطلب الثالث : جهوده في تقرير صفة الله تعالى: النزول.

المطلب الرابع : جهوده في تقرير صفتي الله تعالى: المجيء والإتيان؛ المعيَّة.

المطلب الخامس : جهوده في تقرير صفة الله تعالى: الرؤية.

المطلب السادس : جهوده في تقرير صفة الله تعالى: الكلام.

المطلب السابع : جهوده في تقرير صفات الله تعالى: الوجه؛ العين؛ اليد؛ الرِّجْل.

المطلب الثامن : جهوده في تقرير صفات الله تعالى: المحبة؛ الرِّضى؛ الفرح؛ الضَّحك.

المطلب التاسع : جهوده في تقرير صفات الله تعالى: الغضب؛ الغيرة؛ العتب؛ الكيد والمكر والخداع.

المبحث الرابع : جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير تفاضل الصفات العلى.

الخاتمة:

وتشتمل على: ثمرة البحث ومحصِّلته، مع توضيح وبيان أهم النتائج التي توصَّلتُ إليها في البحث.

❑ ❑ ❑

منهج البحث

قمت ـ بحمد الله تعالى ـ بقراءة مجموع مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ المطبوعة؛ وهي:

١ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية.

٢ ـ أحكام أهل الذمة.

٣ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين.

٤ ـ إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان.

٥ ـ إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان.

٦ ـ بدائع الفوائد.

٧ ـ التبيان في أقسام القرآن.

٨ ـ تحفة المودود بأحكام المولود.

٩ ـ تهذيب مختصر سنن أبي داود.

١٠ ـ جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام.

١١ ـ جواب في صيغ الحمد.

١٢ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

١٣ ـ الداء والدواء.

١٤ ـ رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه.

١٥ ــ الرسالة التبوكية.

١٦ ــ الروح.

١٧ ــ روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

١٨ ــ زاد المعاد في هدي خير العباد.

١٩ ــ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

٢٠ ــ الصلاة وحكم تاركها.

٢١ ــ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

٢٢ ــ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٢٣ ــ طريق الهجرتين وباب السعادتين.

٢٤ ــ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

٢٥ ــ الفروسية.

٢٦ ــ الفوائد.

٢٧ ــ فوائد حديثية في الكلام على حديث الغمامة وحديث الغزالة والضب وغيره.

٢٨ ــ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

٢٩ ــ كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء.

٣٠ ــ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

٣١ ــ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة.

٣٢ ــ المنار المنيف في الصحيح والضعيف.

٣٣ ــ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

٣٤ ــ الوابل الصيب من الكلم الطيب.

وقد قمت ــ بحمد الله تعالى ــ بقراءة مُصنَّفات الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الماتعة؛ ومؤلَّفاته الرائعة بأناةٍ وتؤدةٍ ــ التي ارتضعتُ

العلم منها حولين كاملين؛ إرادة إتمام الرَّضاعة ـ : ملاحظاً أثناء قراءتي لها ما يأتي:

أولاً: استخراج مسائل توحيد الأسماء والصفات من مثاني كتبه؛ وإيداعها في مواضعها المناسبة لها من الأبواب والفصول والمباحث والمطالب.

ثانياً: الاقتصار على كلامه المُقرِّر لمعتقد أهل السنة والجماعة في إثبات توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته، والإعراض عمَّا سواه من كلامه المُتضمن لنقض وردٍّ قول أهل البدعة والشناعة في هذا الباب، إلا ما ورد اضطراراً واستطراداً في مثاني كلامه؛ مع تضمنه لتقرير معتقد أهل السنة والجماعة(١).

ثالثاً: تكرار كلامه الواحد في عِدَّة مواطن من البحث، إذا دعت الحاجة إلى الاستفادة منه في مكانٍ آخر يُناسبه.

رابعاً: العناية بتبويب كلامه وترتيبه؛ وتهذيبه وتقريبه، وصَرْفُ جِدِّي واجتهادي في ذلك؛ ضارباً صفحاً عن التَّمحُّل في الإكثار والتكرار من تقديم تمهيدٍ بين يديه؛ أو تأخير خاتمةٍ في التعليق عليه، وذلك لأمورٍ عِدَّةٍ؛ من أهمِّها ما يأتي:

---

(١) وقد أفرد لبيان جهود الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في ردٍّ ونقض قول أهل البدعة والشناعة في هذا الباب وغيره من أبواب الاعتقاد: رسالةٌ جامعيةٌ بعنوان: (موقف ابن القيم من آراء المتكلِّمين)، وقد تقدَّم بها الباحث: محمد سعيد صبري صباح؛ لنيل درجة العالمية العالية (الدكتوراة) من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وتمَّت مناقشتها في عام (١٤١٦هـ).

انظر: دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية [رقم (٩٨١٩) ـ ٢/ ١٩٣].

١ ـ أن كلامه غايةٌ في الوضوح، ولا يخفى على أحدٍ (أن بيان الواضحات: نوعٌ من العيِّ)[1].

٢ ـ أن كلامه قد اتَّسم بسلامة المبنى؛ وسلاسة المعنى، فهو (مستغنٍ بمشاهدة المدلول عليه عن طلب الدليل، فإن طالب الدليل إنما يطلبه ليصل به إلى معرفة المدلول، فإذا كان مُشاهِداً للمدلول: فما له ولطلب الدليل؟

وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهارُ إلى دليلِ[2])[3].

٣ ـ أنه في تقريراته لمسائل العلم على وجه العموم؛ ولمسائل هذا الباب على وجه الخصوص: يُطلق عنان قَلَمِه؛ فيجري في ميدان كَلِمِه، فتراه إذا تناول مسألة: أمتع وأقنع؛ وأفاد وأجاد؛ وحقَّق ودقَّق؛ وهذَّب ورتَّب.

فلم يكن لمُتناوِلِ مُصنَّفاته ومُؤلفاته من بعده بُدٌّ من صرف الهِمَّة إلى ما هو أجدى وأحرى؛ من العناية بما سبقت الإشارة إليه من التبويب والترتيب؛ والتهذيب والتقريب.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٧٢.

(٢) القائل هو: أبو الطيب المتنبي، يردُّ على بعض الحاضرين؛ ممن أنكر عليه قوله بين يدي سيف الدولة أبي الحسن علي بن عبد الله العدوي.
انظر: ديوان أبي الطيب المتنبي ٣/ ٩٢.
وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا البيت في مواطن من كتبه؛ ولم يعزه لقائلٍ.
انظر: التبيان في أقسام القرآن ص٥٣٩، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٢١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧١؛ ٢/ ٣٦٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤٩٣.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٤٠.

خامساً: نسبتُ جميع كلام الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ المقرر لمسائل هذا التوحيد إليه، سوى كلامه المُضمَّن في مثاني كلامي[1]: فإني لم أنسبه إليه في المتن، لأن مرادي بتضمينه انتقاء جمال مبناه لا تقرير جلال معناه.

سادساً: قمت بعد تبويب كلامه وترتيبه؛ وتهذيبه وتقريبه بالعناية بنصِّه؛ متَّبعاً ما يأتي:

١ ـ الآيات القرآنية الكريمة، وقد قمت فيها بما يأتي:

(أ) عزوت الآيات القرآنية الكريمة إلى مواضعها في المصحف الشريف، مع ذكر اسم السورة؛ ورقم الآية.

(ب) كتبت الآيات القرآنية الكريمة بخطٍّ مُغايرٍ؛ تمييزاً لها عن سائر النصوص.

(ج) جعلت الآيات القرآنية الكريمة بين ﴿قوسين مزهرين﴾.

٢ ـ الأحاديث النبوية الشريفة، وقد قمت فيها بما يأتي:

(أ) إذا كان الحديث الشريف في الصحيحين؛ أو في أحدهما: فإني أكتفي بالعزو إليه[2].

---

(١) وقد التزمتُ بتوثيق جميع كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ المُضمَّن في مثاني كلامي ـ قلَّ منه أو كَثُر ـ ؛ لسببين:

السبب الأول: حتى لا أتشبَّع بما لم أُعط؛ فأكن كلابس ثَوْبَيْ زُور.

السبب الثاني: أنَّ الأمانة العلمية تقتضي نسبة الكلام إلى قائله؛ كما قال طرفة بن العَبْدِ في ديوانه [ص٦٤]:

(ونُصَّ الحديثَ إلى أهله ... فإن الوثيقة في نصه)

(٢) انظر في مطابقة هذا المنهج لطريقة المحدثين: الفتح السماوي بتخريج أحاديث البيضاوي ١/ ٦٩.

(ب) إذا كان الحديث الشريف في غير الصحيحين أو أحدهما: فإني أُخرِّجه من مظانِّه من كتب السنة، مبتدئاً بالكتب الخمسة ــ مسند الإمام أحمد والسنن الأربعة ــ، ثم بغيرها من أمهات كتب الحديث، مع العناية ــ قدر المستطاع ــ بحكاية كلام المحدِّثين ــ المتقدِّمين والمتأخِّرين ــ في بيان درجة الحديث الشريف من حيث الصحة أو الحسن أو الضعف.

(ج) أذكر في تخريج الحديث الشريف اسم الصحابي الراوي للحديث؛ إن كان اسمه مغفلاً في النصِّ.

(د) أنصُّ في تخريج الحديث الشريف على اسم المُؤَلِّفِ الحديثيِّ المُخرَّجِ منه، مع ذكر اسم الكتاب والباب ورقم الحديث والصفحة.

(هـ) أُخرِّج الحديث الشريف في أول موطن يرد ذكره فيه، مع الإشارة إلى أوَّله.

(و) إذا تكرَّر ذكر الحديث الشريف في مواطن لاحقة، فإني أكتفي بالإشارة إلى تقدُّمه، مع الاستغناء عن الإشارة إلى موضع تخريجه، اكتفاءً بفهرس الأحاديث الشريفة.

(ز) إذا تعذَّر عليَّ تخريج الحديث الشريف ــ بعد استفراغ الجهد في البحث عنه ــ قلت: لم أقف عليه.

(ح) جعلت الأحاديث الشريفة بين «قوسين هلاليين مزدوجين».

٣ ـ الآثار والأقوال، وقد قمت فيها بما يأتي:

(أ) خرَّجت الآثار ووثَّقت الأقوال الواردة من مظانِّها.

(ب) أُخرِّج الأثر وأُوثِّق القول في أول موطن يرد ذكره فيه.

(ج) إذا تكرَّر ذكر الأثر أو القول في مواطن لاحقة، فإني أكتفي بالإشارة إلى تقدُّمه، مع الاستغناء عن الإشارة إلى موضع تخريجه، اكتفاءً بفهرس الآثار والأقوال.

(د) إذا تعذَّر عليَّ تخريج الأثر أو توثيق القول ـ بعد استفراغ الجهد في البحث عنه ـ قلت: لم أقف عليه.

(هـ) جعلت الآثار والأقوال بين (قوسين هلاليين).

٤ ـ الأعلام، وقد قمت فيها بما يأتي:

(أ) أترجم لكافة الأعلام الوارد ذكرهم، مستثنياً من ذلك مشاهير الأعلام، كالأنبياء والمرسلين، والملائكة، والصحابة، وأئمة المذاهب الفقهية، وأصحاب المصنَّفات الحديثية.

(ب) أترجم للأعلام في أول موضع يرد فيه ذكرهم، مستغنيا عن الإشارة إلى ذلك فيما تكرَّر من المواضع اللاحقة، اكتفاءً بفهرس الأعلام المترجمين.

(ج) تتضمن ترجمة العلم ـ غالباً ـ الإفادة عن: اسمه، وكنيته، ولقبه، وما اشتهر به، وسنة ولادته ووفاته.

(د) أبين ـ قدر المستطاع ـ المهمل من الأسماء والكنى الواردة الذكر.

(هـ) إذا تعذَّر عليَّ ترجمة العلم ـ بعد استفراغ الجهد في البحث عنه ـ قلت: لم أقف عليه.

٥ ــ المذاهب والفرق، وقد قمت فيها بما يأتي:

(أ) أعرِّف بكافة المذاهب والفرق الوارد ذكرها، مع الإفادة ــ غالباً ــ عن: نسبتها، ونشأتها، وما اشتهرت به.

(ب) أعرِّف بكافة المذاهب والفرق في أول موضع يرد فيه ذكرها، مستغنيا عن الإشارة إلى ذلك فيما تكرَّر من المواضع اللاحقة، اكتفاءً بفهرس المذاهب والفرق.

(ج) حرصت ــ قدر المستطاع ــ على نقل كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ المُعرِّف ببعض المذاهب والفرق.

٦ ــ الكلمات الغريبة والأمثال العربية والمصطلحات العلميَّة، وقد قمت فيها بما يأتي:

(أ) شرحت الكلمات الغريبة؛ وبيَّنت الأمثال العربية؛ وفسَّرت المصطلحات العلميَّة الوارد ذكرها، مع ذكر توثيقها من المصادر الأصيلة المعتبرة.

(ب) شرحت الكلمات الغريبة والأمثال العربية والمصطلحات العلميَّة في أول موضع يرد فيه ذكرها، مستغنيا عن الإشارة إلى ذلك فيما تكرَّر من المواضع اللاحقة، اكتفاءً بفهرس الكلمات الغريبة والأمثال العربية والمصطلحات العلميَّة.

(ج) إذا ورد في النصِّ شرحٌ لغوامض الكلمات؛ وبيانٌ للأمثال العربية؛ وتوضيحٌ لمعاني المصطلحات العلميَّة: فإني أكتفي بتوثيق الشرح والبيان والإيضاح من المصادر الأصيلة المعتبرة.

(د) حرصت ـ قدر المستطاع ـ على نقل كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ المُعرِّف ببعض الكلمات الغريبة والمصطلحات العلميَّة.

٧ ـ الأبيات الشعرية، وقد قمت فيها بما يأتي:

(أ) اجتهدت في نسبة الأبيات الشعرية الواردة الذكر إلى منشئيها، مع إحالتها إلى دواوينها الأصيلة؛ أو المصادر الأدبية المعتبرة.

(ب) إذا تعذَّر عليَّ تخريج البيت ـ بعد استفراغ الجهد في البحث عنه ـ قلت: لم أقف عليه.

(ج) حرصت ـ قدر المستطاع ـ على ذكر المواطن التي تكرَّر فيها البيت في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ.

٨ ـ المسائل العلمية، وقد قمت فيها بما يأتي:

(أ) اعتنيت ـ غالباً ـ بتوثيق المسائل العلمية الواردة من مصادرها المختصَّة.

(ب) علَّقت على بعض المسائل العلمية التي تحتاج إلى بيان وإيضاح، مع الإشارة إلى المصادر المعنية بالمسألة المشار إليها.

٩ ـ مصادر التوثيق العلمية، وقد قمت فيها بما يأتي:

(أ) رتبت المصادر العلمية الوارد ذكرها في الحاشية حسب وفيات مؤلفيها.

(ب) قمت بالإشارة إلى المصادر العلمية بذكر رقم الجزء والصفحة، مستغنيا عن الإشارة إلى ما يتعلق

بطبعها وتحقيقها، اكتفاءً بفهرس المراجع والمصادر العلميَّة.

(ج) قسمت فهرس المراجع والمصادر العلمية إلى قسمين؛ أولهما لكتب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ، وثانيهما لسائر الكتب المستفاد منها في البحث، وقد رتَّبت كلا القسمين ترتيباً هجائياً وفق حروف المعجم.

١٠ ــ الفهارس العامة. وقد ختمت البحث بفهارس نظريَّة وعلميَّة متنوعة، تسهيلاً للوقوف على جزئيات البحث المتناثرة، وهي:

(أ) فهرس الآيات القرآنية.

(ب) فهرس الأحاديث النبوية.

(ج) فهرس الآثار والأقوال.

(د) فهرس الأعلام المترجمين.

(هـ) فهرس المذاهب والفرق.

(و) فهرس الكلمات الغريبة والأمثال العربية والمصطلحات العلمية.

(ز) فهرس الأبيات الشعرية.

(ح) فهرس المراجع والمصادر العلمية.

(ط) فهرس الموضوعات التفصيلي.

(ي) فهرس الموضوعات الإجمالي.

هذا هو المنهج العلميُّ الذي سلكته في كتابة مسائل البحث وجزئياته، وقد حرصت على الالتزام به في جميع مواطن البحث؛ سوى بعض المواطن التي قد أخرج عنها لسببين:

السبب الأول: الخروج عن هذا المنهج لملحظٍ خاصٍّ؛ أو ملاحظةٍ يقتضيها المقام.

السبب الثاني: الخروج عن هذا المنهج لسهوٍ ونسيانٍ، فإن السهو والنسيان (عرضةٌ للإنسان، وربُّ العالمين هو الذي لا يضلُّ ولا ينسى)[1]، والمنصف (الفاضلُ العالِمُ مَنْ إذا ذُكِّر: ذَكَرَ ورَجَعَ)[2].

❑ ❑ ❑

---

(١) أحكام أهل الذمة ٢/ ٦١٩.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٥/ ٥٣٧.

أهمُّ الصعوبات التي واجهتني في البحث

إن كتب الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ وإن كان الواصل إليها؛ والمطَّلع عليها: قد (استلان ما يستوعره المترفون، وأَنِسَ مما يستوحش منه الجاهلون)[1]، إلا أن صعوبة هذا البحث كامنةٌ في كون بعض مسائله مُخدَّرة في بيوتاتها، ومنثورة في غير مظناتها، وهو الأمر الذي استدعى مني عند قراءتها: مطالعتها بعين البصيرة؛ بعد النظر إليها بعين البصر القريرة.

وبما أن فلك كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ مشحونٌ بالنقل عمن تقدَّمه من القرون، فإني وجدتُ صعوبة ـ في بعض المواطن ـ في الالتزام بمنهج البحث المشار إليه آنفاً، حيث تعذَّر عليَّ تخريج بعض الأحاديث النبوية والآثار السلفية؛ لكونها في غالبها مَحْكِيَّة بمعناها مع تصرُّفٍ بمبناها، كما تعذَّر عليَّ توثيق بعض الأقوال والأعلام والفرق والمصطلحات والأشعار؛ لكونها في غالبها غير منسوبة إلى أصحابها.

ولا أُبَرِّىء نفسي من الفتور والنقص في عدم الالتزام بمنهج البحث في بعض هذه المواطن، فإن تخلُّل الفترات وتولُّد النقصان لازمٌ لطبيعة الإنسان،

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤٦٤.

كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ :

(وتخلُّل الفتراتِ للعزمات أَمْـ ـرٌ لازمٌ لطبيعة الإنسانِ
وتولُّد النُّقْصَانِ من فَتَرَاتِه أَوَ لَيْسَ سَائِرُنا بني النُّقْصَانِ)[1].

وبالعموم؛ فالباحث يخوض غمار البحث وهو يُدْرِكُ أن بساط البحث وموضوعه (غاية معارف العلماء: الدُّنوُّ من أول حواشيه وأطرافه)[2]؛ وما تعدَّى أحدٌ ما قُسِمَ له فيه من المعرفة إلا بسبب غُلُوِّه وإسرافه، فما للباحث إلا أن ينطق بلسان الحال: ما نطق به الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بلسان المقال؛ فقال: (وقد كان الأولى بنا الإمساك عن ذلك، لأن ما يصفه الواصفون منه وتنتهي إليه علومهم: هو كما يُدخل الرجلُ أُصبعه في اليمِّ؛ ثم ينزعها، فهو يصف البحر بما يعلق على أُصبعه من البلل، وأين ذلك من البحر؟ فيظنُّ السامع أن تلك الصفة أحاطت بالبحر، وإنما هي صفة ما علق بالأُصبع منه، وإلا فالأمر أجلُّ وأعظم وأوسع من أن تُحيط عقول البشر بأدنى جزءٍ منه، وماذا عسى أن يصف به الناظر إلى قرص الشمس من ضوئها وقدرها وحسنها وعجائب صنع الله فيها؟

ولكن قد رضي الله من عباده بالثناء عليه وذكر آلائه وأسمائه وصفاته وحكمته وجلاله، مع أنه لا يُحصى ثناء عليه أبداً؛ بل هو كما أثنى على نفسه، فلا يبلغ مخلوقٌ ثناء عليه ــ تبارك وتعالى ــ ؛ ولا وَصْفَ كتابه ودينه بما ينبغي له، بل لا يبلغ أحدٌ من الأمة ثناء على رسوله كما هو أهلٌ أن يُثنى

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٤٢٠٨ ــ ٤٢٠٩) ــ ص٣٠٣].

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ١٦١.

عليه؛ بل هو فوق ما يُثنون به عليه، ومع هذا فإن الله تعالى يُحبُّ أن يُحمد ويُثنى عليه وعلى كتابه ودينه ورسوله.

فهذه مقدمةُ اعتذارٍ بين يدي القصور والتقصير من راكب هذا البحر الأعظم، والله عليمٌ بمقاصد العباد ونيَّاتهم، وهو أولى بالعذر والتجاوز)[1].

❑ ❑ ❑

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣١٠.

الشكر والتقدير

وختاماً: فعملاً بقول الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1]. وامتثالاً لقول رسوله ﷺ: «لا يشكرُ الله مَن لا يشكرُ الناسَ»[2].

فإني أحمد ربِّي البَرَّ الجواد، الذي جلَّت نعمه عن الإحصاء والتعداد، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[3].

(الحمد لله الذي لا يُؤَدَّى شكر نعمةٍ من نعمه؛ إلا بنعمةٍ منه تُوجب على مُؤدِّي شكر ماضي نعمه بأدائها: نعمة حادثة يجب عليه شكره بها، ولا يبلغ الواصفون كُنْهَ عظمته؛ الذي هو كما وصف نفسه؛ وفوق ما يصفه به خلقه، أحمدُه حمداً كما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله)[4].

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب في شكر المعروف ــ الحديث رقم (٤٨١١) ــ ٥/ ١٥٧ ــ ١٥٨]، والترمذي في جامعه [أبواب البرِّ والصلة/ باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ــ الحديث رقم (١٩٥٤) ــ ٣/ ٣٠٥] من حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، واللفظ لأبـي داود.
وصححه الألباني في [صحيح سنن أبـي داود: ٣/ ١٨٢].

(٣) سورة النحل: الآية ١٨.

(٤) تضمين من خطبة رسالة الإمام محمد بن إدريس الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ ص٧ ــ ٨. =

ثم أُثَنِّي بالشكر الجزيل والعرفان الجليل والثناء الجميل ــ من قرن الله تعالى شكرهما بشكره ــ : والديَّ الكريميْن؛ وأبويَّ الحليميْن؛ ومربِّيَّـيَّ الرحيميْن، اللَّذيْن ربياني صغيراً؛ وأحسنا إليَّ كبيراً، وشجَّعاني على لزوم صراط الله المستقيم؛ ورغَّباني في سلوك طريق العلم القويم، وما انفكَّت أياديهما البيضاء عن الإحسان والفضل والعطاء؛ والتوجيه والنصح والدعاء، مع جميل صبرهم على طول غربتي؛ وبعدي عنهما مُدَّة غيبتي.

فجزاهما الله تعالى عنِّي خير ما جزى والداً عن وليده؛ ومُربِّياً عن مريده، وأعظم لهما الأجر والثواب؛ وأحسن لهما العاقبة والمآب، وأسبل عليهما لباس التقوى والعافية؛ وأسكنهما جنة الفردوس العالية.

ثم أتقدَّم بالشكر والتقدير للقائمين المخلصين على هذه الجامعة الإسلامية المباركة ــ منارة العلم المنيفة؛ في المدينة النبوية الشريفة ــ ، وفَّق الله تعالى القائمين عليها ــ مديراً ووكلاء وعمداء ورؤساء ــ للمُضيِّ في نشر رسالتهم النبيلة؛ المعنيَّة بخدمة علوم الشريعة الجليلة، وحماية العقيدة الإسلامية الأصيلة؛ من الأفكار الهدَّامة الدخيلة.

والشكر موصولٌ لجامعتي الموقَّرة ــ جامعة الكويت ــ ؛ مُمثَّلة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، على تفضُّلهم بمنحي فرصة الابتعاث للحصول على الدرجتين العلميتين العاليتين: (درجة الماجستير؛ ودرجة الدكتوراة).

وأخصُّ ببالغ الشكر والامتنان؛ وعظيم التقدير والعرفان: شيخي الأريب؛ وأستاذي الأديب؛ ومشرفي اللبيب: فضيلة الشيخ الدكتور:

= وقد ضمَّن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الخطبة في موضعٍ واحدٍ من كتبه؛ وهو: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٥٢ ــ ١٥٤.

محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الجهنيَّ حفظه الله ورعاه؛ وأسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة وعفى عنه وعافاه، وبارك له في عمره وعلمه وعمله وذريته لتقرَّ بهم عيناه.

فقد تفضَّل عليَّ بقبول الإشراف؛ وأكرمني بالتُّحف والإلطاف، وأحاطني بتوجيهاته العلميَّة؛ وأتحفني بملحوظاته المنهجيَّة.

فجزاه الله تعالى عني خير ما جزى شيخاً عن طلابه؛ ومُحباً عن أحبابه، وأجزل له المثوبة والعطاء والمنَّة؛ وأدخله ووالديه وذريته بمنِّه وفضله الجنَّة.

ـ وخاتمة الشكر والتقدير لكلِّ من أفادني وأعانني بإشارةٍ أو إعارةٍ، وأخصُّ بالذكر والشكر: من تفضل بإفادتي في تقويم هذا العمل، وإصلاح ما فيه من الزلل والخلل والخطل، وهما المناقشان الجليلان؛ والشيخان النبيلان: الأستاذ الدكتور/ محمد بن عبد الرحمن الخميس، والأستاذ الدكتور/ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر.

سائلاً المولى الكريم: أن يحسن لي ولهما العاقبة في الأمور كلها؛ وأن يجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

كما أخصّ بالذكر والشكر: من تفضَّل بالعناية والرعاية لهذا العمل بالطبع والنشر، وهي: المبرة الخيرية لعلوم القرآن والسنَّة؛ في دولة الكويت.

سائلاً العزيز الغفور: أن يبارك لهم في كل عمل صالح مبرور، وأن يأجرهم على كل سعي طيب مشكور.

وأخيراً: فهذا الجهد القليل: محض منةٍ الربِّ الجليل، فإن كنتُ قد أصبتُ فيه وقدَّمتُ ما يُحقِّقُ الغرض المنشود: فذلك من فضل الله تعالى

عليَّ فهو وحده المحمود، وما كان من خطلٍ أو خللٍ أو زللٍ: مما سها به القلمُ؛ أو طغى فيه الكلمُ: فإني أبرأ إلى الله تعالى وأَسْتَغْفِرُه منه، وأتوب إليه وأُعرض عنه.

فالله ــ سبحانه وتعالى ــ أبى (أن يكسو ثوب العصمة لغير الصادق المصدوق؛ الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ[1]، لأن (الغلط من لوازم الطبيعة)[2]؛ لا ينفكُّ عنها بحالٍ من الأحوال؛ أو بوجهٍ من الوجوه، (ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

والنَّقْصُ في أصل الطبيعة كامنٌ فبنو الطبيعة نقصهم لا يُجحد.

وكيف يُعصم من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً؟ ولكن من عُدَّت غلطاتُه: أقربُ إلى الصواب ممن عُدَّت إصاباتُه)[3].

وهذا حين الشروع في التمهيد ثم (الأبواب، والله ــ سبحانه ــ الفاتح من الخير كلَّ باب)[4].

❑ ❑ ❑

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤١٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٠١.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٥٤٥.

(٤) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٢٩.




التمهيد:
شرح عنوان البحث

* تعريف بمفردات عنوان البحث .
* تعريف بالإمام ابن قيم الجوزية .



إنَّ باب الحدود والتعريفات: (بابٌ عظيم من أبواب المعرفة)[1]؛ ما استفتحه أحد من الناس: إلا استنار فهمه؛ واتَّسع علمه، لذا (يجب الاعتناء بشأنه؛ وأن لا نضرب عنه صفحاً)[2].

وإن من المستحسن قبل الشروع في تعلُّم علمٍ من العلوم: أن يُحيط طالبه علماً بحدِّه وتعريفه، حتى يَصون هذا العلمَ ويحوطه، فلا يُقحم فيه ما هو دخيلٌ؛ ولا يُخرج منه ما هو أصيلٌ.

فمقصود الحدود والتعريفات: هو تصوُّر المحدود والمُعرَّف؛ والتمييز بينه وبين غيره، لأنه لا يصحُّ الحكم على الشيء قبل تصوُّره، لذا أجمع العلماء على أنه لا يجوز حدُّ المحدود بغيره؛ بل لا يُحدُّ إلا بنفسه[3].

وعن منزلة هذا العلم السنيَّة ودرجته العليَّة: قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (من أشرف العلوم وأنفعها: علم الحدود، ولا سيَّما حدود المشروع المأمور والمنهي.

فأعلم الناس: أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يُدْخِلَ فيها ما ليس

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٥٦.
(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٣/ ٢٤.
(٣) انظر في منفعة الحدود والتعريفات: الواضح في أصول الفقه لابن عقيل ١/ ١٣ ــ ١٥، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣/ ٣١٩ ــ ٣٢١، التوضيح والبيان لشجرة الإيمان للسعدي ص٨٩ [رسالة مودعة ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ــ العقيدة الإسلامية].

منها؛ ولا يُخْرِجَ منها ما هو داخلٌ فيها، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾[1].

فأعدل الناس: من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات ــ معرفة وعلماً ــ، وبالله التوفيق)[2].

فمن المناسب جداً قبل الولوج في الأبواب: أن أُمَهِّدَ بتمهيدٍ يرفع عن عنوان البحث النقاب؛ ويكشف عن مضمونه الحجاب.

وبعد النظر في عنوان البحث: رأيتُ أنه مُركَّبٌ ومُؤلَّفٌ من ستِّ مُفرداتٍ وهي: (**جهود؛ الإمام ابن قيم الجوزية؛ في تقرير؛ توحيد؛ الأسماء؛ والصفات**)، فكانت الوجهة إلى تقسيم هذا التمهيد إلى مبحثين:

المبحث الأول: تعريفٌ بمفردات عنوان البحث. وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف كلمة (جهود) لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تعريف كلمة (تقرير) لغة واصطلاحاً.

المطلب الثالث: تعريف كلمة (توحيد) لغة.

المطلب الرابع: تعريف كلمة (الأسماء) لغة.

المطلب الخامس: تعريف كلمة (الصفات) لغة.

المطلب السادس: تعريف كلمة (توحيد الأسماء والصفات) شرعاً.

المبحث الثاني: تعريفٌ بالإمام ابن قيم الجوزية. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريفٌ بسيرة الإمام ابن قيم الجوزية.

المطلب الثاني: تعريفٌ بمنهج الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير توحيد الأسماء والصفات.



(١) سورة التوبة: الآية ٩٧.

(٢) الفوائد ص١٥٨.

المبحث الأول:
تعريفٌ بمفردات عنوان البحث

المطلب الأول:
تعريف كلمة (جهود) لغة واصطلاحاً

إنَّ كلمة (جَهْد) تُطلق في لغة العرب على: بلوغك غاية الأمر الذي لا تألو عن الجهد فيه، تقول: جَهَدْتُ جَهْدِي؛ واجْتَهَدْتُ رأيي ونفسي حتى بلغتُ مجهودي، وكلُّ من بالغ في شيءٍ: فقد جَهَدَ واجْتَهَد[1].

ومعنى كلمة (الجَهْد) المُتقدِّم في اللغة يُوحي بأن كلمة (جهود) يُراد بها في الاصطلاح: المُبالغة في الشيء وبذل الوسع فيه؛ للبلوغ في تحقيقه غايتَه.



(١) انظر: العين للفراهيدي ٣/ ٣٨٦، تهذيب اللغة للأزهري ٦/ ٣٧، المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٣/ ٣٧٠ [مادة: جهد].

المطلب الثاني:

تعريف كلمة (تقرير) لغة واصطلاحاً

إنَّ كلمة (قَرَّ) تُطلق في لغة العرب على معانٍ؛ منها قولهم: قرَّ الكلامَ في أُذُنه يَقُرُّه قَراً: إذا وضع فاه على أُذُنه فأسمعه، ومنه: قرَّ الماء في الإناء؛ إذا صبَّه فيه[(١)].

قال ابن الأعرابيُّ[(٢)]: (القرُّ: ترديدُك الكلامَ في أُذُن الأبكم حتى يفهمه)[(٣)].

ومعنى كلمة (القرِّ) المُتقدِّم في اللغة يُوحي بأن كلمة (تقرير) يُراد بها في الاصطلاح: تكرير الكلام وترديده حتى يُفهم.



---

(١) انظر: المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٥/ ٢٠٧، الصحاح للجوهري ٢/ ٧٩٠، أساس البلاغة للزمخشري ص٥٠١ [مادة: قر].

(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن زياد الكوفي؛ مولى بني هاشم، أحفظ الناس للغة العرب وأيامهم وأنسابهم وأشعارهم، ولد لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة خمسين ومائة ــ في الليلة التي مات فيها أبو حنيفة ــ، وتوفي بسُرَّ من رأى سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥/ ٢٨٢ ــ ٢٨٥، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي [حوادث ووفيات ٢٣١ ــ ٢٤٠] ص٣٢٠ ــ ٣٢١، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ١/ ١٠٥ ــ ١٠٦.

(٣) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٨/ ٢٧٦ [مادة: قر].

المطلب الثالث:

تعريف كلمة (توحيد) لغة

إنَّ كلمة (وَحَدَ) تُطلق في لغة العرب بمعنى: الانفراد، تقول العرب: رجلٌ وَحِدٌ؛ أي: لا يُعرف له أصلٌ، ومنه قولهم: نسيج وَحْده؛ أي: لا ثاني له، وأصله الثوب الذي لا يُسْدَى على سَداه غيره من الثياب لنفاسته(١)، ومنه قول القائل:

يا واحدَ العُرْبِ الذي أمسى(٢) وليس له نظيرُ(٣).

قال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني(٤): (التوحيد: على وزن

---

(١) انظر: العين للفراهيدي ٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢، تهذيب اللغة للأزهري ٥/ ١٩٢ ـ ٢٠٠، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦/ ٩٠ ـ ٩١ [مادة: وحد].

(٢) في قصيدة ابن المولى: (أضحى).

(٣) ذكر أبو الفرج الأصفهاني هذا البيت في موضعين من كتابه الأغاني [٣/ ١٢٤؛ ٢٠٢]، نسبه في أولهما إلى بشار بن برد في قصيدة يمدح بها عقبة بن سَلْم؛ فوهبه ألفي درهم، ونسبه في الموضع الآخر إلى ابن المولى في قصيدة يمدح بها يزيد بن حاتم؛ فوهبه كلَّ ما في بيت ماله.

(٤) هو: إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني؛ المُلقَّب بـ: قوام السنة الجُوزي ـ بضم الجيم ـ؛ ومعناه: الطائر الصغير، العلامة الحافظ، ولد سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وتوفي بأصبهان يوم الأضحى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة.

=

التفعيل، وهو مصدر وحَّدتُه توحيداً، كما تقول: كلَّمتُه تكليماً، وهذا النوع من الفعل يأتي متعدِّياً؛ إلا أحرفاً جاءت لازمة. . .

ولهذا الفعل معنيان: أحدهما: تكثير الفعل وتكريره والمبالغة فيه، كقولهم: كسَّرتُ الإناء، وغلَّقتُ الأبواب وفتَّحتُها.

والوجه الثاني: وقوعه مرَّة واحدة، كقولهم: غدَّيتُ فلاناً وعشَّيتُه، وكلَّمتُه.

ومعنى وحَّدتُه: جعلتُه مُنفرداً عما يُشاركه أو يُشبهه في ذاته وصفاته، والتشديد فيه للمبالغة، أي: بالغتُ في وصفه بذلك.

وقيل: الواو فيه مُبدلةٌ من الهمزة، والعرب تُبدل الهمزة من الواو؛ وتُبدل الواو من الهمزة، كقولهم: وشاحٌ وإشاحٌ. . .

وتقول العرب: واحدٌ وأحدٌ ووحدٌ ووحيدٌ، أي: مُنفردٌ، فالله تعالى واحدٌ؛ أي: مُنفردٌ عن الأنداد والأشكال في جميع الأحوال.

فقولهم: وحَّدتُ الله من باب عظَّمتُ الله وكبرَّتُه، أي: عَلِمْتُه عظيماً وكبيراً، فكذلك وحَّدتُه؛ أي: عَلِمْتُه واحداً؛ مُنزَّهاً عن المثل في الذات والصفات)[1].



= انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠/ ٨٠ ــ ٨٨، الوافي بالوفيات للصفدي ٩/ ٢١١، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ١١٤ ــ ١١٥.

(١) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني ١/ ٣٠٥ ــ ٣٠٦ باختصار.

المطلب الرابع:
تعريف كلمة (الأسماء) لغة

اختلف النحويُّون في أصل اشتقاق (اسم) على قولين، فذهب البصريون إلى أنه مُشتقٌّ من السُّمُوِّ، وهو بمعنى: العُلُوِّ، فيكون المحذوف عندهم لام الفعل.

وذهب الكوفيون إلى أنه مُشتقٌّ من الوسم، وهو بمعنى: العلامة، فيكون المحذوف عندهم فاء الفعل[1].

قال ابن يعيش[2]: (وكلاهما حسنٌ من جهة المعنى، إلا أن اللفظ

---

(١) انظر: المخصص لابن سيده ١٧/ ١٣٤، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لابن الأنباري ١/ ٦ ــ ١٦، التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين لأبي البقاء العكبري ص١٣٢ ــ ١٣٨.

(٢) هو: أبو البقاء موفق الدين يعيش بن محمد بن علي بن يعيش الأسدي؛ الموصليُّ الأصل؛ الحلبيُّ مولداً ومنشأ ووفاة؛ المعروف بابن الصائغ، الإمام النحويُّ، ولد لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وتوفي في سحر الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

انظر في ترجمته: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٧/ ٤٦ ــ ٥٣، تتمة المختصر في تاريخ البشر لابن الوردي ٢/ ٢٥٣، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي ص٢٤٣ ــ ٢٤٤.

يشهد مع البصريين، ألا ترى أنك تقول: أسميته؛ إذا دعوته باسمه، أو جعلت له اسماً، والأصل: أسموته، فقلبوا الواو ياء؛ لوقوعها رابعة، على حدِّ أدعيت وأغزيت، ولو كان من السمة لقيل: أوسمته، لأن لام السمو واو تكون آخراً، وفاء السمة واو تكون أولاً)[1]، وذكر وجوهاً أُخرى من وجوه ترجيح قول البصريين على قول الكوفيين.



(١) شرح المُفصَّل لابن يعيش ١/ ٢٣.

المطلب الخامس:
تعريف كلمة (الصفات) لغة

إن كلمة (وَصَفَ) تُطلق في لغة العرب على: تَحْلِيَة الشيء ونَعْتِه، يقال: وَصَفْتُ الشيء وَصْفاً وصِفَة ــ الهاء فيه: عوضٌ من الواو ــ: إذا أخبرت عن أمارته اللازمة لحليته ونعته[1]، ومنه قول طرفة بن العَبْد[2]:

(إني كفانيَ من أَمْرٍ هممتُ به جارٌ كجارِ الحُذاقيِّ الذي اتَّصفا)[3].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٢/ ٢٤٨، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦/ ١١٥، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده ٨/ ٢٥٣ [مادة: وصف].

(٢) هو: عمرو بن سفيان بن سعد بن مالك؛ وأمه وردة من رهط أبيه، سُمِّي طرفة بسبب بيتٍ قاله، كان أحدث الشعراء سناً وأقلُّهم عمراً، قُتِلَ وهو ابن ستٍّ وعشرين سنة.

انظر في ترجمته: طبقات فحول الشعراء للجمحي ١/ ١٣٧ ــ ١٣٨، الشعر والشعراء لابن قتيبة ص١٠٨ ــ ١١٥، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي ١/ ٣٦٤ ــ ٣٦٨.

(٣) لم أقف عليه في ديوانه.

وانظر في توثيق نسبته إليه: الصحاح للجوهري ٤/ ١٤٣٨ ــ ١٤٣٩، أساس البلاغة للزمخشري ص٦٧٨، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ٩/ ٥٩١.

أي: صار هذا الجار موصوفاً ومنعوتاً بحسن الجوار، فهو كما في مثل العرب:

(جارٌ كجار أبـي دُوَادٍ)[1].

❑ ❑ ❑

(١) مثلٌ تضربه العرب على الرجل الموصوف بحسن الجوار، وذلك أن الشاعر أبا دُوَادٍ الحُذاقيَّ كان مُجاوراً لكعب بن مَامَة، وكان كعبٌ إذا جاوره رجلٌ فمات: وَدَاه، وإن هلك له بعيرٌ أو شاةٌ: أخلف عليه، فضربت العرب به المثل في حُسْنِ الجوار.
انظر: مجمع الأمثال للميداني ١/ ٢٨٩، المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ١/ ٥٥.

المطلب السادس:

تعريف كلمة (توحيد الأسماء والصفات) شرعاً

إنَّ حقيقة (توحيد الأسماء والصفات) هي: الإيمان والتصديق الجازم بانفراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بجميع ما سمَّى به نفسه وسمَّاه به رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى؛ وبجميع ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من الصفات العلى، إثباتاً ونفياً، إثباتاً بلا تمثيل؛ ونفياً بلا تعطيل[1].

فزبدة هذا التوحيد وحقيقته: ما ذكره الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (**حقيقته**: إثبات صفات الكمال لله، وتنزيهه عن أضدادها)[2].

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر ٧/ ١٣٧، الرسالة التدمرية لابن تيمية ٣/ ٣ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، اختيار الأولى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى لابن رجب ص٢٢ ـ ٢٣، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية للسفاريني ١/ ١٢٩، لوائح الأنوار السَّنية ولواقح الأفكار السُّنية له ١/ ٢٥٧، التحف في الإرشاد إلى مذهب السلف للشوكاني ١/ ٢٥٩ ـ ٢٦١ [رسالة مودعة ضمن الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني]، سؤال وجواب في أهم المهمات للسعدي ص٦١ [رسالة مودعة ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ العقيدة الإسلامية]، معارج القبول بشرح سلم الوصول للحكمي ١/ ٩٨.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٢٩.

وأمـا تفصيلـه ــ رحمـه الله تعـالـى ــ لهـذه الحقيقـة : فسيمـرُّ بـك ــ بمشيئة الله تعالى ــ ما هو قرَّة عينٍ للموحِّدين، وسُخْنة عينٍ للمُلحدين .

ويُخْلَصُ فـي خاتمة المبحث إلى أنَّ المُستفاد مما تقدَّم من المعاني : أن المُراد بعنوان البحث هـو : مُبالغة الإمـام ابـن قيم الجوزية وبَذْلُ وُسْعِه فـي تـكـريـر الـكـلام وتـرديده فـي تحقـيـق انفراد الله ــ سبحانه وتعالى ــ بالأسـمـاء الحسنى والصفات العـلى، مـع بـلوغـه الغاية في ذلك حتى يُفهم عنه .



المبحث الثاني:
تعريفٌ بالإمام ابن قيم الجوزية

المطلب الأول:
تعريفٌ بسيرة الإمام ابن قيم الجوزية[1]

هو: شمس الدين؛ أبو عبد الله؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حَرِيز الزُّرعيُّ؛ ثم الدمشقيُّ، إمام الجوزيَّة؛ وابن قيِّمها.

ولد في سابع صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة.

وتلقى العلم والمعرفة عن كوكبة نيِّرة من أئمة عصره؛ وعلماء دهره، حتى غدا عارفاً بالتفسير لا يُجارى فيه؛ وبأصول الدين؛ وإليه فيهما المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه؛ ودقائق الاستنباط منه؛ لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية، وتعلَّم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالماً بعلم السُّلوك، له في كل فنٍّ من هذه الفنون: اليد الطولى، حتى إن

---

(١) أفردت السيرة العملية؛ والمسيرة العلمية للإمام ابن قيم الجوزية ــ التي اهتديت في تقريرها من وحي قلمه؛ واستضأت في تحريرها من مشكاة كلمه ــ بالنشر والطبع؛ لتعم بها الاستفادة والنفع ــ مقتصراً في هذا المقام على مقتضب الكلام ــ ، وقد وسمتها بـ : (الإمام ابن قيِّم الجوزية: كلمات من وحي قلمه؛ وومضات من مشكاة كلمه).

تصانيفه مرغوبٌ فيها بين الطوائف؛ لما فيها من العذوبة الزائدة؛ وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين، بحيث تعشق الأفهام كلامه؛ وتميل إليه الأذهان؛ وتُحبُّه القلوب.

ومن نظر في مؤلفاته الماتعة النافعة؛ ومصنَّفاته الذائعة الشائعة: علم أن غالب أبحاثه: الإنصاف والميل مع الدليل حيث مال؛ وعدم التعويل على القيل والقال، وإذا استوعب الكلام في بحثٍ وطوَّل ذيوله: أتى بما لم يأت به غيرُه، وساق ما ينشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل.

وكتب ـ رحمه الله تعالى ـ بخطِّه ما لا يُوصف كثرة، وصنَّف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلم، وكان شديد المحبة للعلم؛ وكتابته ومطالعته وتصنيفه، وكان مغرى بجمع الكتب، فحصَّل منها ما لا يُحصر، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهراً طويلاً؛ سوى ما اصطفوه لأنفسهم.

وقد توفي الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعد سيرةٍ عَطِرةٍ؛ وحياةٍ نَضِرةٍ، وكان هُوُيُّ نجمِه وغيابُ رسمِه وقَبْضُ علمِه في وقت عشاء الآخرة؛ ليلة الخميس؛ ثالث عشر رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وقد صُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي، ودُفِنَ عند والدته بمقابر الباب الصغير، وكانت جنازته ـ رحمه الله تعالى ـ حافلة؛ شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصَّة والعامَّة، وتزاحم الناس على حمل نعشِه، وقد كمل له من العمر: ستون سنة؛ وخمسة أشهرٍ؛ وستة أيامٍ.

فغفر الله تعالى للإمام ابن قيم الجوزية ذنبه؛ وستر عيبه، ووضع عنه وزره؛ ورفع له ذكره، وجعل له لسان صدقٍ في الآخِرين، وجعله من ورثة جنة النعيم.



المطلب الثاني:

تعريفٌ بمنهج الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير توحيد الأسماء والصفات

سلك الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير توحيد الأسماء والصفات فجاجاً سُبَلاً، وقد اتَّسمت جميع الطرق التي سلكها بكونها ذُلُلاً، لا ترى فيها أَمْتاً ولا عِوَجاً، بل هي عَوَانٌ لا تُنكر منها فارضاً ولا خِدْجاً.

وهذا المنهج الذي اتَّبعه في تقرير توحيد الأسماء والصفات: مُتنوِّع المشارب؛ مُتعدِّد المطالب، إلا أن من أوضح هذه المشارب التي تسرُّ الناظرين؛ وأصحِّ هذه المطالب التي هي آياتٌ للمتوسِّمين: استدلاله على توحيد الأسماء والصفات بدلالاتٍ عشرٍ، وفيما يأتي ذكر مثالٍ واحدٍ على كلِّ دلالة من هذه الدلالات؛ التي استدلَّ ببعضها على إثبات هذا التوحيد، واستدلَّ ببعضها الآخر على فهمه، وهي:

أولاً: الاستدلال بآيات الكتاب الحكيم.

إنَّ منهج الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في الاستدلال بآيات الكتاب الحكيم على إثبات هذا التوحيد: قد تكرَّر في مواضع كثيرةٍ من كتبه، فمنها على سبيل المثال قوله: (قد نبَّه ــ سبحانه ــ على إثبات صفاته

وأفعاله بطريق المعقول، فاستيقظت لتنبيهه العقول الحيَّة، واستمرَّت على رقدتها العقول الميتة، فقال الله تعالى في صفة العلم: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾(١)، فتأمَّل صحَّة هذا الدليل؛ مع غاية إيجاز لفظه واختصاره.

وقال ــ سبحانه ــ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾(٢). فما أصحَّ هذا الدليل وما أوجزه.

وقال تعالى في صفة الكلام: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾(٣). نبَّه بهذا الدليل على أن من لا يُكلِّم ولا يهدي: لا يصلح أن يكون إلهاً.

وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾(٤). فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم؛ وعدم ملك الضرِّ والنفع: دليلاً على عدم الإلـٰهية، وهذا دليلٌ عقليٌّ سمعيٌّ على أن الإلـٰه لا بُدَّ أن يُكلِّم ويتكلَّم، ويملك لعابده الضرَّ والنفع، وإلا لم يكن إلـٰهاً.

وقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾(٥). نبَّهك بهذا الدليل العقليِّ القاطع: أن الذي جعلك تُبصر وتتكلَّم وتعلم أولى أن يكون بصيراً مُتكلِّماً عالماً، فأيُّ دليلٍ عقليٍّ قطعيٍّ أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى المعقول؟

---

(١) سورة الملك: الآية ١٤.

(٢) سورة النحل: الآية ١٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

(٤) سورة طه: الآية ٨٩.

(٥) سورة البلد: الآيات ٨ ــ ١٠.

وقال تعالى في آلهة المشركين المعطلين: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[1]. فجعل ـ سبحانه ـ عدم البطش والمشي والسمع والبصر دليلاً على عدم إلهية من عُدِمَتْ فيه هذه الصفات)[2].

ثانياً: الاستدلال بأحاديث النبـي الكريم ﷺ.

إنَّ منهج الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في الاستدلال بأحاديث النبـي الكريم ﷺ على إثبات هذا التوحيد: قد تكرَّر في مواضع كثيرةٍ من كتبه، فمنها على سبيل المثال قوله: (قوله: «إنكم ترون ربكم عياناً؛ كما ترون القمر ليلة البدر صحواً؛ ليس دونه سحاب»[3].

تحقيقاً لثبوت الرؤية؛ ونفياً لاحتمال ما يوهم خلافها، فأتى بغاية البيان والإيضاح.

وكذلك قوله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم أضل راحلته بأرض دوية مهلكة؛ عليها طعامه وشرابه، فطلبها حتى يئس منها، فاضطجع في أصل شجرة، فرأى راحلته عليها طعامه وشرابه، فقام فأخذها، فجعل يقول من شدة الفرح: اللّٰهُمَّ أنت عبدي؛ وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٥.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٤ ـ ٩١٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأذان/ باب فضل السجود ـ الحديث رقم (٨٠٦) ـ ١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب معرفة طريق الرؤية ـ الحديث رقم (١٨٢ ـ ١٨٣) ـ ١/ ١٦٣ ـ ١٧١] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «هل تمارون في القمر ليلة البدر؟».

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الدعوات/ باب التوبة ـ الحديث رقم =

هذه ألفاظ رسول الله ﷺ، ثم قال: «كيف ترون فرح هذا براحلته؟ قالوا: عظيماً يا رسول الله. قال: فوالله؛ لله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته»[1].

فهذا الكشف والبيان والإيضاح لا مزيد عليه: تقرير لثبوت هذه الصفة؛ ونفي الإجمال والاحتمال عنها.

وكذلك قوله في حديث النداء: «فيناديهم بصوت»[2].

فذكر الصوت تحقيقاً لصفة النداء وتقريراً، ولو لم يذكره لدل عليه لفظ النداء، كما لو قيل: يعلم بعلم؛ ويقدر بقدرة؛ ويبصر ببصر،

= (٦٣٠٩) ـ ٤/ ١٩٨٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب في الحض على التوبة والفرح بها ـ الحديث رقم (٢٧٤٧) ـ ٤/ ٢١٠٤ ـ ٢١٠٥] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، واللفظ لمسلم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب في الحض على التوبة والفرح بها ـ الحديث رقم (٢٧٤٦) ـ ٤/ ٢١٠٤] من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ ، ولفظه: «كيف تقولون بفرح رجلٍ».

(٢) أخرجه البخاري ـ معلقاً ـ في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ ـ ٥/ ٢٣٣٥]؛ و ـ مسنداً ـ في الأدب المفرد [باب المعانقة ـ الحديث رقم (٩٩٩) ـ ص٢٠٩]؛ وفي خلق أفعال العباد ص٩٢، وأحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦٠٤٢) ـ ٢٥/ ٤٣١ ـ ٤٣٢] من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ ، وأوله: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت».

وحسنه الألباني في [صحيح الأدب المفرد: الحديث رقم (٧٤٦) ـ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢].

وانظر: تغليق التعليق على صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٥/ ٣٥٣ ـ ٣٥٦.

وهـذا ونحـوه إنمـا يُـراد بـه تحقيـق الصفـة وإثبـاتهـا؛ لا تشبيـه المـوصـوف وتمثيله)[1].

ثالثاً: الاستدلال بإجماع الأمة.

إنَّ منهج الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في الاستدلال بإجماع الأمة ــ التي عُصِمَتْ من الاجتماع على ضلالة ــ على إثبات هذا التـوحـيـد: قـد تـكـرَّر فـي مـواضع كثيرةٍ من كتبه، فمنها على سبيل المثال قوله: (انعقاد الإجـمـاع المـعـلـوم المُتيقَّن عـلـى قـبـول هـذه الأحاديث؛ وإثبات صفات الربِّ تعالى بها، فهذا لا يشكُّ فيه من له أقلُّ خبرةٍ بالمنقول، فإن الصحابة هم الذين رَوَوْا هـذه الأحـاديث؛ وتلقَّاهـا بعضُهم عـن بعضٍ بالقبول، ولـم يُنكر أحدٌ منهم على مَنْ رواها، ثم تلقَّاها عنهم جميع التابعين من أولهم إلى آخرهم، ومن سمعها منهم تلقَّاها بالقبول والتصديق لهم، ومـن لـم يسمعها منـهـم تلقَّاها عن التابعين كذلك، وكذلك تابع التابعين مع التابعين.

هذا أمرٌ يعلمه ضرورة أهل الحديث؛ كما يعلمون عدالة الصحابة وصدقهم وأمانتهم؛ ونقلهم ذلك عن نبيهم ﷺ، كنقلهم الوضوء والغسل من الجنـابـة؛ وأعـداد الصلـوات وأوقـاتهـا؛ ونقـل الأذان والتشهـد والجمعـة والعيدين، فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا أحاديث الصفات، فإن جاز عليهم الخطأ والكذب في نقلها: جاز عليهم ذلك في نقل غيرها مما ذكرنا، وحينئذٍ فلا وثوق لنا بشيءٍ نُقِلَ لنا عن نبينا ﷺ ألبتة، وهذا انسلاخٌ من الدين والعلم والعقل)[2].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥١٤ ــ ٥١٥.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٧٧.

رابعاً: الاستدلال بالفطرة السليمة.

إنَّ منهج الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في الاستدلال بالفطرة السليمة ــ التي لم تنتكس بالشبهات؛ ولم ترتكس بالشهوات ــ على إثبات هذا التوحيد: قد تكرَّر في مواضع كثيرةٍ من كتبه، فمنها على سبيل المثال قوله: (إن في الفطرة: الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه للخالق ــ سبحانه ــ، ولكن معرفة هذا الكمال على التفصيل مما يتوقَّف على الرسل، وكذلك تنزيهه عن النقائص والعيوب: هو أمرٌ مستقرٌّ في فطر الخلائق)[1].

خامساً: الاستدلال بالعقول المستقيمة.

إنَّ منهج الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في الاستدلال بالعقول المستقيمة ــ الموافقة للنقول القويمة ــ على إثبات هذا التوحيد: قد تكرَّر في مواضع كثيرةٍ من كتبه، فمنها على سبيل المثال قوله: (العقل الصريح يُصدِّق السمع الدالَّ على إثبات صفات الربِّ ــ سبحانه ــ ومباينته لمخلوقاته، والعقل أثبت موجوداً واجباً بنفسه غنياً عما سواه، وأما كون ذلك الموجود مُجرَّداً عن الصفات الثبوتية؛ لا يوصف إلا بالسُّلوب والإضافات العدمية: فالعقل لا يدلُّ على ذلك؛ بل يدلُّ على خلافه كما يدلُّ السمع)[2].

سادساً: الاستدلال بالآثار المروية عن خير القرون.

إنَّ منهج الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في الاستدلال بالآثار المروية عن القرون التي شهد لها النبي ﷺ بالخيريَّة على فهم

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٨٢١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣٧.

هـذا التـوحيـد: قـد تكـرَّر فـي مـواضـع كثيـرةٍ مـن كتبـه، فمنهـا علـى سبيـل المثـال قـولـه: (الـرؤيـة والإدراك كـلٌّ منهمـا يُـوجـد مـع الآخـر وبـدونـه، فـالربُّ تعالى يُـرى ولا يُـدرك؛ كمـا يُعلـم ولا يُحـاط بـه، وهـذا هـو الذي فهمـه الصحـابـة والأئمـة مـن الآيـة. قـال ابـن عبـاس: (﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1]: لا تُحيط به الأبصار)[2].

قال قتادة[3]: (هو أعظم من أن تُدركه الأبصار)[4].

وقال عطية[5]: (ينظرون إلى الله ولا تُحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يُحيط بهم)[6])[7].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٢) أخرجه الطبري في جامعه [٧/ ٢٩٩] بلفظٍ نحوه، وذكره بلفظه: ابن الجوزي في [زاد المسير في علم التفسير: ٣/ ٩٨].

(٣) هو: أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي؛ البصري، حافظ زمانه؛ ومفسر أوانه، وكان مع ذلك رأساً في العربية وأيام أهلها، ولد أكمهاً سنة ستين، وتوفي سنة سبع عشرة ومائة بواسط.
انظر في ترجمته: معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٧/ ٩ ـ ١٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٢٦٩ ـ ٢٨٣، طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٤٧ ـ ٤٨.

(٤) أخرجه الطبري في جامعه [٧/ ٢٩٩].

(٥) هو: أبو الحسن العوفي الجدلي القيسي الكوفي، من مشاهير ضعفاء التابعين، توفي سنة إحدى عشرة ومائة.
انظر في ترجمته: الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ٢/ ١٨٠، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٠/ ١٤٥ ـ ١٤٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٦) أخرجه الطبري في جامعه [٧/ ٢٩٩].

(٧) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧٠ ـ ٣٧١.

سابعاً: الاستدلال بالكتب الإلـهية المُنزَّلة.

إنَّ منهج الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في الاستدلال بالنصوص المأثورة عن الكتب الإلـهية المُنزَّلة التي لم تعتد عليها يد التحريف الآثمة على فهم هذا التوحيد: قد تكرَّر في مواضع كثيرةٍ من كتبه، فمنها على سبيل المثال قوله عن المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: (قال: (ويُعرِّفكم جميع ما للربِّ)[1].

فبيَّن أنه يُعرِّف الناس جميع ما لله، وذلك يتناول ما لله من الأسماء والصفات، وما له من الحقوق، وما يجب من الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله، بحيث يكون ما يأتي به جامعاً لما يستحقه الرب ـ سبحانه وتعالى ـ.

وهذا لم يأت به غير محمد ﷺ، فإنه تضمن ما جاء به من الكتاب والحكمة)[2].

ثامناً: الاستدلال بأشعار العرب.

إنَّ منهج الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في الاستدلال بأشعار العرب ـ أهل السليقة المُحتجِّ بلسانهم ـ على فهم هذا التوحيد: قد تكرَّر في مواضع كثيرةٍ من كتبه، فمنها على سبيل المثال قوله: (الصَّمد: السيِّد الذي كَمُلَ في سُؤدده، ولهذا كانت العرب تُسمِّي أشرافها بهذا الاسم؛ لكثرة الصفات المحمودة في المُسمَّى به. قال شاعرهم:

---

(١) الكتاب المقدس: يوحنا ١٦/٧ ـ ١٦.

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٣٣١.

ألا بكـــر النـــاعـــي بخيـــري بنـــي أســـد
بعمرو بـن مسعود وبالسيِّـد الصَّمد[1])[2].

تاسعاً: الاستدلال بأقوال علماء أهل السنّة والجماعة.

إنَّ منهج الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في الاستدلال بأقوال علماء أهل السنّة والجماعة ــ المشهود لهم بالفهم السَّديد؛ والرأي الرَّشيد ــ على فهم هذا التوحيد: قد تكرَّر في مواضع كثيرةٍ من كتبه، فمنها على سبيل المثال قوله: (إنَّ الإجماع منعقدٌ على أن الله ــ سبحانه ــ استوى على عرشه؛ حقيقة لا مجازاً، قال الإمام أبو عمر الطلمنكي[3] ــ أحد أئمة المالكية؛ وهو شيخ أبي عمر ابن عبد البر[4] ــ في كتابه الكبير الذي سماه:

---

(١) البيت لامرأة من بني أسد؛ وهي هند بنت معبد بن نضلة، ضمن أبيات لها ترثي بها عمرو بن مسعود وخالد بن المضلل؛ وكانا نديمين للمنذر ابن ماء السماء، فراجعاه بعض القول على سكره: فغضب، فأمر بقتلهما، فلما أصبح سأل عنهما: فأُخبر خبرهما: فندم على فعله.
انـظر: إصلاح المنطـق لابن السكيت ص٤٩، الأغاني لأبـي الفـرج الأصفهـاني ٢٢/ ٣٣٢، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ١١/ ٢٦٩.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٤ ــ ١٠٢٥.

(٣) هو: أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري؛ الأندلسي، المقرىء الحافظ، ولد سنة أربعين وثلاثمائة، وتوفي في ذي الحجة سنة تسع وعشرين وأربعمائة.
انـظر في ترجمتـه: جذوة المقتبس في ذكـر ولاة الأنـدلس للحميـدي ص١١٤، معرفة القـراء الكبـار على الطبقـات والأعصـار للذهبـي ١/ ٣٨٥ ــ ٣٨٧، غايـة النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ١/ ١٢٠.

(٤) هو: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النمري؛ الأندلسي القرطبـي؛ المالكي، حافظ المغرب، ولـد سنة ثمان وستين وثلاثمائة، وتوفي بشاطبـة ليلة الجمعة سلخ ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وأربعمائة؛ واستكمل خمساً وتسعين سنة وخمسة أيام.
انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض=

(الوصول إلى معرفة الأصول)؛ فذكر فيه من أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ وأقوال مالك وأئمة أصحابه؛ ما إذا وَقَفَ عليه الواقفُ: علم حقيقة مذهب السلف، وقال في هذا الكتاب: (أجمع أهل السنة على أن الله تعالى على عرشه؛ على الحقيقة لا على المجاز))[1].

عاشراً: الاستدلال بأقوال أئمة التفسير والحديث والفقه واللغة والفلسفة.

إنَّ منهج الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في الاستدلال بأقوال أئمة التفسير والحديث والفقه واللغة ـ ممن عُرِفوا بالإنصاف؛ وعدم الإجحاف، وإن كانوا ممن تأثَّروا بالمناهج الكلامية؛ أو تدثَّروا بالمسالك الصوفية ـ على فهم هذا التوحيد: قد تكرَّر في مواضع كثيرةٍ من كتبه، فمنها على سبيل المثال قوله عن أبي الوليد بن رشد[2]: (فقد حكى لك هذا المُطلِّع على مقالات القوم الذي هو أعرف بالفلسفة من ابن سينا[3]

= ٤/٨٠٨ ـ ٨١٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/ ١٥٣ ـ ١٦٣، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ٢/ ٣٦٧ ـ ٣٧٠.

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٥٧.

(٢) هو: محمد بن أحمد بن محمد القرطبي ـ الشهير بابن رشد الحفيد ـ ، فيلسوف الوقت، ولد سنة عشرين وخمسمائة ـ قبل موت جدِّه أبي الوليد بن رشد شيخ المالكية بشهر ـ ، مات محبوساً بداره ـ من جهة الخليفة ـ بمراكش في صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة.
انظر في ترجمته: التكملة لوفيات النقلة للمنذري ١/ ٣٢١ ـ ٣٢٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ٢١/ ٣٠٧ ـ ٣١٠، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ٦/ ١٥٤.

(٣) هو: أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن سينا البلخي؛ البخاري، الرئيس؛ صاحب الفلسفة، ولد في صفر سنة سبعين وثلاثمائة، ومات بهمذان يوم الجمعة =

وأضرابه: إجماعَ الحكماء على أن الله ــ سبحانه ــ في السماء فوق العالم.

والمتطفلون[1] في حكايات مقالات الناس لا يحكون ذلك؛ إما جهلاً وإما عمداً، وأكثر من رأيناه يحكي مذاهبهم ومقالات الناس متطفلٌ.

وكذلك الأساطين[2] منهم متفقون على إثبات الصفات والأفعال

= في رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة.

انظر في ترجمته: وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ١٥٧ ــ ١٦٢، تاريخ الإسلام للذهبي [حوادث ووفيات ٤٢١ ــ ٤٤٠] ص٢١٨ ــ ٢٣٢، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي ٣/ ٤٧ ــ ٥١.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٣٨٠]: (كان ابن سينا كما أخبر عن نفسه قال: أنا وأبـي من أهل دعوة الحاكم. فكان من القرامطة الباطنية الذين لا يُؤمنون بمبدأ ولا معادٍ؛ ولا ربٍّ خالقٍ ولا رسولٍ مبعوثٍ جاء من عند الله تعالى، وكان هؤلاء زنادقةً يتستَّرون بالرفض؛ ويبطنون الإلحاد المحض، وينتسبون إلى أهل بيت الرسول ﷺ؛ وهو وأهل بيته بُرآء منهم نسباً وديناً).

(١) الطفيلي: الذي يدخل المآدب ولم يُدع إليها، وهو منسوبٌ إلى طُفيلٍ ــ رجل من بني عبد الله بن غطفان من أهل الكوفة ــ؛ كان يأتي الولائم دون أن يُدعى إليها، ثم صرفوا منه فعلاً؛ فقالوا: قد طفَّل عليه تطفيلاً؛ وتطفَّل عليه.

انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٣/ ٣٤٩، لسان العرب لابن منظور ١١/ ٤٠٤، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٢٩/ ٣٧٤ ــ ٣٧٥ [مادة: طفل].

قلت: كأنهم أطلقوا لفظ المتطفل على من يُدخل نفسه مع أرباب فنٍ من الفنون؛ ولم يَدْعُه إلى تصدي التصنيف فيه: صحةُ فهمه ورسوخُ قدمه؛ تشبيهاً له بالطفيلي.

(٢) الأسطوان: الرجل الطويل الرِّجْلين والظهر، وهو مُسَطَّن كمُعَظَّم، ويقال للعلماء: أساطين؛ على التشبيه.

انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٢/ ٣٣٨، لسان العرب لابن منظور ١٣/ ٢٠٨ ــ =

وحدوث العالم وقيام الأفعال الاختيارية بذاته ــ سبحانه ــ ؛ كما ذكره فيلسوف الإسلام[1] في وقته أبو البركات البغدادي[2] ؛ وقرَّره غاية التقرير)[3] .

تلك عشرةٌ كاملةٌ ؛ اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في منهجه في تقرير توحيد الأسماء والصفات بالاستدلال بها، إما استدلالاً على إثبات هذا التوحيد ؛ أو استدلالاً على فهمه، وسيأتي لها ــ بمشيئة الله تعالى ــ مزيدٌ من الأمثلة المُقرِّرة والموضِّحة لوجه الاستدلال بها .

= ٢٠٩، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٣٥/ ١٨٨ [مادة: سطن].

(١) الفلسفة: هو علمٌ يبحث في علل الأشياء ومبادئها الأولى، أو يبحث في الوجود من حيث هو وجود، والفيلسوف عند اليونان: هو صاحب الحكمة ؛ الذي ينظر في طبائع الأشياء بفكره لمعرفة عللها الخفية وراء ظواهرها.
انظر: الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٣١٠، معجم ألفاظ العقيدة لعامر فالح ص٣٠٧، قول الفلاسفة اليونان الوثنيين في توحيد الربوبية للدكتور الخلف ص٢٠٣ ــ ٢٠٤ [بحث مودع ضمن مجلة الجامعة الإسلامية: العدد(١٢٠)].
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في [الرد على المنطقيين ص١٩٩] في بيان المراد من إضافة الفيلسوف إلى الإسلام: (أعني: الفيلسوف الذي في الإسلام، وإلا فليس الفلاسفة من المسلمين، كما قالوا لبعض أعيان القضاة الذين كانوا في زماننا: ابن سينا من فلاسفة الإسلام؟ فقال: ليس للإسلام فلاسفة).

(٢) هو: هبة الله بن علي بن ملكا البلدي، كان يهودياً ؛ فأسلم في أواخر عمره، الفيلسوف ؛ شيخ الطب ؛ وأوحد الزمان، توفي سنة نيف وخمسين وخمسمائة ؛ وعاش نحو الثمانين سنة ؛ وأضر في آخر عمره.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠/ ٤١٩، نكت الهميان في نكت العميان للصفدي ص٣٠٤، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين للبغدادي ٢/ ٥٠٥ ــ ٥٠٦.

(٣) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٣٧٠.

وقد سبك الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ مسلكه في التقرير؛ وحبك طرقه في التحرير: بسحر بيانه وحُجَّة لسانه وبراعة بنانه، حيث برع في تقريره وأبدع أيّما إبداع، وأقنع بتحريره أشدَّ الإقناع، فمَلَكَ القلوب والأسماع، فأسرعت إلى قبول كلامه أيّما إسراع، وهذا الأسلوب الذي سلكه في التقرير يندرج تحته عِدَّة أنواعٍ، أذكر منها ــ على سبيل المثال ــ عشرة أنواعٍ:

أولاً: أسلوب تنزيه الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، وقد تكرَّر هذا الأسلوب كثيراً في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ، فتارة يرد التنزيه بأسلوب التسبيح، ومن أمثلة ذلك قوله: (وسبحان الله؛ كم زلَّت في هذا المقام أقدامٌ؛ وضلَّت فيه أفهامٌ، وتكلَّم فيه الزنديق بلسان الصديق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين: لنُبُوِّ الأفهام عنه؛ وعِزَّة تخلُّص الحقِّ من الباطل فيه؛ والتباس ما في الذهن بما في الخارج؛ إلا على من رزقه الله بصيرة في الحقِّ؛ ونوراً يُميِّز به بين الهدى والضلال؛ وفرقاناً يُفرِّق به بين الحقِّ والباطل، ورُزِقَ مع ذلك اطلاعاً على أسباب الخطأ وتفرُّق الطرق ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحقِّ والباطل، و ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾[1])[2].

وتارة يرد التنزيه بأسلوب التحميد، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (هل قدر الرسول حقَّ قدره؛ أو مُرسله حقَّ قدره: من نسب كلامه ــ سبحانه ــ أو كلام رسوله إلى مثل ذلك؟ ففصاحة الرسول وبيانه وعلمه ومعرفته ونصحه وشفقته يُحيل عليه أن يكون مراده من كلامه ما يحمله عليه المُحرِّفون للكلم عن مواضعه؛ المُتأوِّلون له غير تأويله، وأن يكون

(١) سورة الحديد: الآية ٢١، سورة الجمعة: الآية ٤.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٠.

كلامه من جنس الألغاز والأحاجي، والحمد لله رب العالمين)[1].

وتارة يرد التنزيه بأسلوب التهليل، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (كلُّ من له مسكةٌ من عقلٍ يعلم: أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي؛ والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلبٍ إلا استحكم هلاكه؛ وفي أمةٍ إلا فسد أمرها أتمَّ فسادٍ.

فلا إلـٰه إلا الله؛ كم نُفِيَ بهذه الآراء من حقٍّ؛ وأُثبت بها من باطلٍ، وأُميت بها من هدى؛ وأُحيِيَ بها من ضلالةٍ؟ وكم هُدِمَ بها من معقل الإيمان؛ وعُمِرَ بها من دين الشيطان؟)[2].

وتارة يرد التنزيه بأسلوب التكبير، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيَّته:

(فجحدت أوصاف الكمال مخافة التـ ـجسيم والتشبيه بالإنسان
ووقعت في تشبيهه بالجامدا ت الناقصات وذا من الخذلان
الله أكبر هُتِّكتْ أستارُكم حتى غدوتم ضحكة الصبيان)[3].

وتارة يرد التنزيه بأسلوب الحوقلة، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (هذه المسألة: قطب رحى الدين الذي عليه مداره، وإذا صحَّت: صحَّ بها كلُّ مسألةٍ وحالٍ وذوقٍ، وإذا لم يصحِّحها العبد: فالفساد لازمٌ له في علومه وأعماله وأحواله وأقواله، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[4].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٢٥.
(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/٦٨.
(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٧١١ ـ ٧١٣) ـ ص٧٧ ـ ٧٨].
(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧٧ ـ ٥٧٨.

ثانياً: أسلوب الترغيب والترهيب، وقد تكرَّر هذا الأسلوب كثيراً في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ، فتارة يرد كلامه بأسلوب الترغيب، ومن أمثلة ذلك قوله: (احرص على أن يكون همُّك واحداً؛ وأن يكون هو الله وحده، فهذا غاية سعادة العبد، وصاحب هذا الحال في جنةٍ مُعجَّلةٍ قبل جنة الآخرة، وفي نعيمٍ عاجلٍ)(١).

وتارة يرد كلامه بأسلوب الترهيب، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (معلوم أن حاجتهم إلى معرفة ربِّهم وفاطرهم ومعبودهم ـ جلَّ جلاله ـ : فوق مراتب هذه الحاجات كلِّها، فإنه لا سعادة لهم ولا فلاح ولا صلاح ولا نعيم إلا بأن يعرفوه ويعبدوه، ويكون هو وحده غاية مطلوبهم؛ ونهاية مرادهم، وذِكْره والتقرُّب إليه قُرَّة عيونهم؛ وحياة قلوبهم، فمتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالاً من الأنعام بكثيرٍ، وكانت الأنعام أطيب عيشاً منهم في العاجل؛ وأسلم عاقبة في الآجل)(٢).

ثالثاً: أسلوب ضرب الأمثال، وقد تكرَّر هذا الأسلوب كثيراً في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ، ومن أمثلة ذلك قوله: (اعلم أن الله تعالى خلق في صدرك بيتاً وهو القلب، ووضع في صدره عرشاً لمعرفته يستوي عليه المثل الأعلى، فهو مستوٍ على عرشه بذاته بائنٌ من خلقه، والمثل الأعلى من معرفته ومحبته وتوحيده مستوٍ على سرير القلب، وعلى السرير بساطٌ من الرِّضا، ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره، وفتح إليه باباً من جنة رحمته والأنس به والشوق إلى لقائه، وأمطره من وابل كلامه ما أنبت فيه أصناف الرياحين والأشجار المُثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس، وجعل في وسط البستان

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٣٠ ـ ٣١.
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٣٦٦.

شجرة المعرفة؛ فهي تُؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربها من المحبة والإنابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه، وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من تدبُّر كلامه وفهمه والعمل بوصاياه، وعلَّق في ذلك البيت قنديلاً أسرجه بضياء معرفته والإيمان به وتوحيده، فهو يستمدُّ من ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[1]، ثم أحاط عليه حائطاً يمنعه من دخول الآفات والمُفسدين ومن يُؤذي البستان فلا يلحقه أذاهم، وأقام عليه حرساً من الملائكة يحفظونه في يقظته ومنامه، ثم أعلم صاحب البيت والبستان بالساكن فيه، فهو دائماً همُّه: إصلاح السكن ولَمُّ شعثه ليرضاه الساكن منزلاً، وإذا أحسَّ بأدنى شعثٍ في السَّكن: بادر إلى إصلاحه ولـمِّه خشية انتقال الساكن منه، فنِعْمَ الساكن ونِعْمَ المسكن)[2].

رابعاً: أسلوب التقسيم والتنويع والتفريع، وقد تكرَّر هذا الأسلوب كثيراً في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ، ومن أمثلة ذلك قوله: (ذكر الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن؛ وهي عشرة أقسام:

القسم الأول: تعريفه ــ سبحانه ــ نفسه لعباده بأسمائه وصفات كماله، ونعوت جلاله وأفعاله، وأنه واحد لا شريك له، وما يتبع ذلك.

القسم الثاني: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته وآثار حكمته؛ فيما خلق وذرأ في العالم الأعلى والأسفل من أنواع بريته وأصناف خليقته، محتجاً بـه عـلى مـن ألحـد في أسمائه وتوحيـده، وعطله عن صفات كماله وعن أفعـاله، وكـذلك البراهيـن العقليـة التي أقامهـا على ذلك، والأمثـال المضروبة والأقيسة العقلية التي تقدمت الإشارة إلى الشيء اليسير منها)[3].

---

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

(٢) الفوائد ص١٩٨ ــ ١٩٩.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٨٤.

ثم ذكر بقية الوجوه العشرة التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن الكريم[١].

خامساً: أسلوب الدعوة إلى العلم والتأمُّل والتدبُّر والنَّظَر والتَّقدير والفَرْض والاعتبار، وقد تكرَّر هذا الأسلوب كثيراً في كلام الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ، فتارة ترد الدعوة إلى العلم، ومن أمثلة ذلك قوله: (اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتمَّ اشتمالٍ؛ وتضمنتها أكمل تضمُّنٍ، فاشتملت على التعريف بالمعبود ــ تبارك وتعالى ــ بثلاثة أسماءٍ ــ مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها؛ ومدارها عليها ــ ، وهي: الله؛ والربُّ؛ والرحمن)[٢].

وتارة ترد الدعوة إلى التأمُّل، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (وهذا برهانٌ قاطعٌ من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمَّله فإنه في غاية الظهور والقوة.

ونظير هذا: القهر المطلق مع الوحدة، فإنهما مُتلازمان، فلا يكون القهَّار إلا واحداً، إذ لو كان معه كفؤٌ له فإن لم يقهره: لم يكن قهَّاراً على الإطلاق، وإن قهره: لم يكن كفؤاً؛ وكان القهَّارُ واحداً.

فتأمَّل كيف كان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٣]؛ وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٤]: من أعظم الأدلَّة على ثبوت صفات كماله ــ سبحانه ــ)[٥].

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٨٤ ــ ٦٨٦.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٣.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٣٠ ــ ١٠٣٢.

وتارة ترد الدعوة إلى التدبُّر، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (فإذا أحطتَّ بهذه القاعدة خبراً؛ وعقلتَها كما ينبغي: خَلَصْتَ من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل؛ وآفة التشبيه، فإنك إذا وفَّيْتَ هذا المقام حقَّه من التصوُّر: أَثْبَتَّ لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة؛ فخَلَصْتَ من التعطيل، ونَفَيْتَ عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم؛ فخَلَصْتَ من التشبيه.

فتدبَّر هذا الموضع؛ واجعله آخيتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب)[1].

وتارة ترد الدعوة إلى النظر، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (انظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله؛ ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته: مودعاً في الفطرة مركوزاً فيها، فلو خُلِّيَتْ على ما خُلِقَتْ عليه: لم يعرض لها ما يُفسدها ويُحوِّلها ويُغيِّرها عما فُطِرَتْ عليه؛ ولأقرَّت بوحدانيته؛ ووجوب شكره وطاعته؛ وبصفاته وحكمته في أفعاله؛ وبالثواب والعقاب، ولكنَّها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خُلِقَتْ عليه: أنكرت ما أنكرت؛ وجحدت ما جحدت، فبعث الله رسله مُذكِّرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة فانقادوا طوعاً واختياراً ومحبة وإذعاناً بما جُعِلَ من شواهد ذلك في قلوبهم)[2].

وتارة ترد الدعوة إلى التقدير، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا شئت زيادة تعريف بهذا المثل الأعلى: فقدِّر قِوَى جميع

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٥٠.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٤٤.

المخلوقات اجتمعت لواحد منهم؛ ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإذا نسبت قوته إلى قوة الرب ـ تبارك وتعالى ـ لم تجد لها نسبة وإياها ألبتة؛ كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد.

فإذا قدَّرت علوم الخلائق اجتمعت لرجل واحد؛ ثم قدرت جميعهم بهذه المثابة: كانت علومهم بالنسبة إلى علمه تعالى كنقرة عصفور من بحر.

وإذا قدَّرت حكمة جميع المخلوقين على هذا التقدير: لم يكن لها نسبة إلى حكمته.

وكذلك إذا قدَّرت كل جمال في الوجود اجتمع لشخص واحد؛ ثم كان الخلق كلهم بذلك الجمال: كان نسبته إلى جمال الرب تعالى وجلاله دون نسبة السراج الضعيف إلى جرم الشمس.

وقد نبهنا الله ـ سبحانه ـ على هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[(١)].

فقدِّر البحر المحيط بالعالم مداداً؛ ووراءه سبعة أبحرٍ تُحيط به؛ كلُّها مداد تكتب به كلمات الله: نفدت البحار وفنيت الأقلام ـ التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلى آخر الدنيا ـ ؛ ولم تنفد كلمات الله)[(٢)].

وتارة ترد الدعوة إلى الفَرْض، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (أنتَ إذا فرضتَ الحيوان بجملته معدوماً: فمن يرزق الرزَّاقُ ـ سبحانه ـ ؟

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٣٠ ـ ٤٣١.

وإذا فرضتَ المعصية والخطيئة منتفية من العالم: فلمن يغفر؛ وعمَّن يعفو؛ وعلى من يتوب ويحلم؟

وإذا فرضتَ الفاقات كلَّها قد سُدَّت؛ والعبيد أغنياء معافون: فأين السؤال والتضرع والابتهال والإجابة؛ وشهود الفضل والمنة والتخصيص بالإنعام والإكرام؟)[1].

وتارة ترد الدعوة إلى الاعتبار، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا اعتبرت المخلوقات والمأمورات: وجدتها بأسرها كلَّها دالة على النعوت والصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمى بمكابرة، ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[2])[3].

سادساً: أسلوب النصح والإرشاد، وقد تكرَّر هذا الأسلوب كثيراً في كلام الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ، فتارة يرد النصح والإرشاد بأسلوب التحسُّر وعظم الغبن على من أفنى أوقاته في طلب العلم؛ ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق هذا التوحيد الذي دلَّت عليه آيات القرآن المجيد؛ ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (تأمَّل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[4]؟ والتنزيل يستلزم عُلُوَّ المُنزل من عنده، لا تعقل العرب من لغتها؛ بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك، وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه، فهذا يدلُّ على شيئين: أحدهما: عُلُوِّه تعالى على خلقه. والثاني: أنه هو المُتكلِّم

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٠.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٢١.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٢.

(٤) سورة غافر: الآية ٢.

بالكتاب المُنزل من عنده لا غيره. فإنه أخبر أنه منه، وهذا يقتضي أن يكون منه قولاً؛ كما أنه منه تنزيلاً، فإن غيره لو كان هو المُتكلِّم به: لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام إنما يُضاف إلى المُتكلِّم به. ومثل هذا: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾[1]. ومثله: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾[2]. ومثله: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾[3]. فاستمسك بحرف (من) في هذه المواضع؛ فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية، وتأمل كيف قال: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ﴾؛ ولم يقل: تنزيله؟

فتضمنت الآية إثبات عُلُوِّه ومكانه؛ وثبوت الرسالة.

ثم قال: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٩٦﴾[4]، فتضمن هذان الاسمان صفتي القدرة والعلم؛ وخلق أعمال العباد؛ وحدوث كلِّ ما سوى الله، لأن القدر: هو قدرة الله؛ كما قال أحمد بن حنبل[5]، فتضمنت إثبات القدر، ولأن عِزَّته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه؛ أو أن يشاء ما لا يكون، فكانت عِزَّته تُبطل ذلك، وكذلك كمال قدرته تُوجب أن يكون خالق كلِّ شيء، وذلك ينفي أن يكون في العالم شيءٌ قديمٌ لا يتعلَّق به خلقه، لأن كمال قدرته وعِزَّته يُبطل ذلك.

ثم قال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[6]. والذنب: مخالفة شرعه

(١) سورة السجدة: الآية ١٣.
(٢) سورة النحل: الآية ١٠٢.
(٣) سورة فصلت: الآية ٤٢.
(٤) سورة غافر: الآية ٢.
(٥) انظر: مسائل الإمام أحمد بن حنبل من رواية ابن هانىء [باب السنة والردِّ على أهل الأهواء ــ رقم (١٨٦٨) ــ ٢/ ١٥٥].
(٦) سورة غافر: الآية ٣.

وأمره، فتضمن هذان الاسمان: إثبات شرعه وإحسانه وفضله.

ثم قال: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]، وهذا جزاؤه للمذنبين، وذو الطول: جزاؤه للمحسنين، فتضمنت الثواب والعقاب.

ثم قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾[2]. فتضمن ذلك التوحيد والمعاد.

فتضمنت الآيتان: إثبات صفة العُلُوِّ؛ والكلام؛ والقدرة؛ والعلم؛ والقدر؛ وحدوث العالم؛ والثواب والعقاب؛ والتوحيد؛ والمعاد، وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله يتضمن: الرسالة والنبوة.

فهذه عشرة قواعد الإسلام والإيمان؛ تُجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة، ولكن خُود[3] تُزفُّ إلى ضريرٍ مُقعدٍ. فهل خطر ببالك قطُّ أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف؛ مع كثرة قراءتك لها وسماعك إياها؛ وهكذا سائر آيات القرآن؟

فما أشدَّها من حسرةٍ؛ وأعظمها من غبنةٍ على من أفنى أوقاته في طلب العلم؛ ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن؛ ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه، فالله المستعان)[4].

وتارة يرد النصح والإرشاد بأسلوب شحذ الهمم إلى الرُّسوخ في هذا العلم، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ: (ولا يعلم ما في هذه

---

(١) سورة غافر: الآية ٣.

(٢) سورة غافر: الآية ٣.

(٣) الخود: هي الفتاة الشابة الحسنة الخَلْق، والجمع: خوداتٌ وأخوادٌ.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٧/ ٥١٠، مختصر العين للزبيدي ١/ ٤٦٩، المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٤/ ٣٩٣ [مادة: خود].

(٤) بدائع الفوائد ١/ ١٧٢ ــ ١٧٣.

الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته؛ ومعرفة عبوديته، وأشرنا إلى شيءٍ يسيرٍ من معناها، ولو استقصينا شرحها لقام منه سفر ضخم؛ ولكن قد فتح لك الباب؛ فإن دخلت رأيت ما لا عين رأت؛ ولا أذن سمعت؛ ولا خطر على قلب بشر)[١].

وتارة يرد النصح والإرشاد بأسلوب إيجاب مراعاة ما وردت به النصوص الشرعية، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (عليك بمراعاة ما أطلقه ــ سبحانه ــ على نفسه من الأسماء والصفات؛ والوقوف معها؛ وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه؛ ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته)[٢].

وتارة يرد النصح والإرشاد بأسلوب الدلالة على ما يضرُّ وما ينفع، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (فلا تشتغل بأقوال المتأخرين؛ الذين غشت بصائرهم عن معرفة ذلك، فخذ العلم عن أهله، فهذا تفسير الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ)[٣].

وتارة يرد النصح والإرشاد بأسلوب الإعلام بما يُسهِّل الفهم ويُيسِّره، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (والذي يُسهِّل عليك فهم هذا: معرفة عظمة الربِّ؛ وإحاطته بخلقه، وأن السموات السبع في يده كخردلة في يد العبد، وأنه ــ سبحانه ــ يقبض السماوات بيده والأرض بيده الأخرى؛ ثم يهزهنَّ، فكيف يستحيل في حقِّ مَنْ هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه؛ ويقرب من خلقه كيف شاء وهو على العرش؟)[٤].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٧٩.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٤ ــ ٥٩٦.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩١.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٠.

وتارة يرد النصح والإرشاد بأسلوب تذكير من أنعم الله تعالى عليه بالنجاة من سلوك وادي الإلحاد في هذا التوحيد، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن كنت ممن غلظ حجابه؛ وكثفت نفسه وطباعه: فعليك بوادي الخفا ــ وهو وادي المُحرِّفين للكلم عن مواضعه؛ الواضعين له على غير المراد منه ــ ، فهو وادٍ قد سلكه خلقٌ؛ وتفرَّقوا في شعابه وطرقه ومتاهاته؛ ولم تستقرَّ لهم فيه قدمٌ؛ ولا لجأوا منه إلى ركنٍ وثيقٍ، بل هم كحاطب الليل؛ وحاطم السيل.

وإن نجَّاك الله من هذا الوادي: فتأمَّل هذه الألفاظ النبوية المعصومة؛ التي مقصود المُتكلِّم بها غاية البيان؛ مع مصدرها عن كمال العلم بالله وكمال النصيحة للأمة)[1].

وتارة يرد النصح والإرشاد بأسلوب الإخبار عمَّا يجده مَنْ أَجَارَ هذا التوحيد من التحريف، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (وأنت إذا أجرتَ هذه الآية من تحريفها عن مواضعها؛ والكذب على المُتكلِّم بها ــ سبحانه ــ فيما أراده منها: وجدتها منادية نداء صريحاً: أن الله ــ سبحانه ــ يُرى عياناً بالأبصار يوم القيامة.

وإن أبيتَ إلا تحريفها ــ الذي يُسميه المحرفون: تأويلاً ــ : فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب: أسهل على أربابه من تأويلها، وتأويل كلِّ نصٍّ تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مُبطلٌ على وجه الأرض أن يتأوَّل النصوص ويُحرِّفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأوِّل مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا)[2].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٢٤ ــ ٤٢٥.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧٢.

وتارة يرد النصح والإرشاد بأسلوب التخيير في سلوك إحدى النَّجْدَيْن؛ مع ما في حشو هذا النصح والإرشاد من التهديد والوعيد من سلوك الطريق المُعارض للوحي، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (تأمَّل شبههم الباطلة وخيالاتهم الفاسدة التي عارضوا بها الوحي: هل تُقاوم هذا الدليل الدالَّ على إثبات الصفات والأفعال للربِّ ـ سبحانه ـ ؟ ثم اختر لنفسك بعدُ ما شئتَ)[1].

وتارة يرد النصح والإرشاد بأسلوب سؤال الله تعالى الهداية والسَّداد، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (أهل السنة وسطٌ في النحل؛ كما أن أهل الإسلام وسطٌ في الملل، تُوقد مصابيح معارفهم ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾[2].

فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره؛ ويُسهِّل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله، إنه قريبٌ مجيبٌ)[3].

سابعاً: أسلوب الإقناع، وقد تكرَّر هذا الأسلوب كثيراً في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ، فتارة يرد الإقناع بأسلوب الإعلام بظهور الوجه المُقرِّر؛ وغناه بنفسه عن التأمُّل، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (ما عُلِمَ بالاضطرار: امتنع أن يقوم على بطلانه دليلٌ، وامتنع أن يكون له معارضٌ صحيحٌ، إذ لو جاز أن يكون له معارضٌ صحيحٌ لم يبق لنا وثوقٌ بمعلومٍ أصلاً؛ لا حسيٍّ ولا عقليٍّ، وهذا يُبطل

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٤ ـ ٩١٧.
(٢) سورة النور: الآية ٣٥.
(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٥٤.

حقيقة الإنسانيَّة؛ بل حقيقة الحيوانيَّة المشتركة بين الحيوانات، فإن لها تميزاً وإدراكاً للحقائق بحسبها، وهذا الوجه في غاية الظهور؛ غنيٌّ بنفسه عن التأمَّل)[1].

وتارة يرد الإقناع بأسلوب الإيجاب لاعتقاد ما هو مُقرَّرٌ لموافقته لكتاب الله تعالى، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (يجب على المسلم الذي لله ولكتابه وقارٌ وعظمةٌ في قلبه أن يعتقد هذا؛ وإن لم يظهر له تفصيله، فإذا ظهر له تفصيله كان نوراً على نور.

فإن الله ــ سبحانه ــ أقام الحجة على الخلق بكتابه ورسوله، فلا يمكن أن يكون

فيهما ما يظهر منه خلاف الحقِّ؛ ولا ما يخالف العقل، ولا يمكن أن يُحيل الرسول الناس في الهدى والعلم وصفاته وأفعاله على ما يُناقض كلامه من عقلياتهم، وهذا واضح ولله الحمد)[2].

وتارة يرد الإقناع بأسلوب الإخبار عن مطابقة ما هو مُقرَّرٌ لكتاب الله تعالى، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (وإذا تتبَّع المُتتبِّع ما في كتاب الله ــ مما حاجَّ به عباده في إقامة التوحيد؛ وإثبات الصفات؛ وإثبات الرسالة والنبوة؛ وإثبات المعاد وحشر الأجساد؛ وطرق إثبات علمه بكل خفيٍّ وظاهرٍ؛ وعموم قدرته ومشيئته؛ وتفرُّده بالملك والتدبير؛ وأنه لا يستحق العبادة سواه ــ : وَجَدَ الأمر في ذلك على ما ذكرناه؛ من تصرُّف المخاطبة منه ــ سبحانه ــ في ذلك على أجلِّ وجوه الحِجَاج؛ وأسبقها إلى القلوب؛ وأعظمها ملاءمةً للعقول؛ وأبعدها من الشُّكوك والشُّبه، في أوجز

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٠٧.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٨٠.

لفظٍ وأبينه؛ وأعذبه وأحسنه وأرشقه؛ وأدلّه على المراد)[1].

وتارة يرد الإقناع بأسلوب الفرض على تعلُّم العبد لهذه المسألة، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (وليست هذه المسألة من المسائل التي للعبد عنها غنى أو منها بُدٌّ ــ كدقائق العلم والمسائل التي يختص بها بعض الناس دون بعض ــ ، بل هذه مسألة تفرض على العبد، وهي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها؛ ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها، فليشتغل بها العبد أو ليعرض عنها، ومن لم يتحقق بها علماً وحالاً وعملاً: لم يتحقق بشهادة: (أن لا إلـه إلا الله)، فإنها سرها وحقيقتها ومعناها؛ وإن أبـى ذلك الجاحدون؛ وقصر عن علمه الجاهلون.

فإن الإلـه: هو المحبوب المعبود؛ الذي تألهه القلوب بحبها؛ وتخضع له وتذلُّ له؛ وتخافه وترجوه؛ وتُنيب إليه في شدائدها وتدعوه في مُهِمَّاتها؛ وتتوكلً عليه في مصالحها وتلجأ إليه؛ وتطمئنُّ بذكره وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا الله وحده، ولهذا كانت (لا إلـه إلا الله): أصدق الكلام، وكان أهلها: أهل الله وحزبه، والمنكرون لها: أعداؤه وأهل غضبه ونقمته.

فهذه المسألة: قطب رحى الدين؛ الذي عليه مداره، وإذا صحَّت: صحَّ بها كلُّ مسألة وحال وذوق، وإذا لم يُصحِّحها العبد: فالفساد لازم له في علومه وأعماله وأحواله وأقواله، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[2].

وتارة يرد الإقناع بأسلوب التنبيه على أن من له أدنى بصيرة يُمكنه إدراك علم ما هو مُقرَّرٌ، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (من له

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٠.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧٧ ــ ٥٧٨.

أدنى بصيرةٍ: يعلم أنه لا شيء في النصوص أظهر ولا أبين دلالة من مضمون هذه النصوص، فإذا كانت متشابهة: فالشريعة كلُّها متشابهة؛ وليس فيها شيءٌ محكمٌ ألبتة، ولازم هذا القول لزوماً لا محيد عنه: أن ترك الناس بدونها خيرٌ لهم من إنزالها إليهم، فإنها أوهمتهم وأفهمتهم غير المراد؛ وأوقعتهم في اعتقاد الباطل؛ ولم يتبيَّن لهم ما هو الحقُّ في نفسه، بل أُحيلوا فيه على ما يستخرجونه بعقولهم وأفكارهم ومقاييسهم.

فنسأل الله مثبت القلوب ـ تبارك وتعالى ـ أن يُثبِّت قلوبنا على دينه؛ وما بعث به رسوله من الهدى ودين الحقِّ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، إنه قريبٌ مُجيبٌ)[1].

وتارة يرد الإقناع بأسلوب القطع، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ: (نحن نعلم قطعاً أن الرسل لا يُخبرون بمُحال العقول؛ وإن أخبروا بمحارات العقول، فلا يُخبرون بما يُحيله العقل؛ وإن أخبروا بما يحار فيه العقل ولا يستقلُّ بمعرفته)[2].

وتارة يرد الإقناع بأسلوب النفي؛ وأن خلاف ما هو مُقرَّرٌ لم يقع ولا يقع، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ في الفرق المعارضة للمنقول بالمعقول: (زعمها أن نصوص الوحي تُخالف العقل المتفق عليه بين العقلاء، فهذا لم يقع ولا يقع؛ ما دامت السماء سماء؛ والأرض أرضاً، بل تزول السماء والأرض وهذا لا يكون)[3].

وتارة يرد الإقناع بأسلوب حكاية الفرق الواسع والبون الشاسع بين

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٣٠٤.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٢٩ ـ ٨٣٠.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٣٤.

الحالين، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (فشتَّان ما بين من يتلقَّى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات؛ وبين من يتلقَّاها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم؛ أو عن مُجرَّد ذوقه ووجده، إذا استحسن شيئاً قال: هذا هو الحقُّ)(١).

وتارة يرد الإقناع بأسلوب دفع إيهام التنافي بين الأمرين، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (قد عُلِمَ بالفطرة والشرع أن الله تعالى فوق العالم؛ محيطٌ بالمخلوقات؛ عالٍ عليها بكلِّ اعتبارٍ، فمن استقبل وجهة من الشرق إلى الغرب؛ أو الشمال أو الجنوب؛ أو بين ذلك: فإنه مُتوجِّهٌ إلى ربِّه حقيقة، والله تعالى قِبَلَ وجهه إلى أي جهةٍ صلَّى، وهو مع ذلك فوق سماواته؛ عالٍ على عرشه.

ولا يُتوهَّم تنافي هذين الأمرين، بل اجتماعهما هو الواقع)(٢).

ثامناً: أسلوب المجادلة والمناظرة، وقد تكرَّر هذا الأسلوب كثيراً في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ، فتارة ترد المجادلة والمناظرة بأسلوب إيراد السؤال على لسان المُعارِض والجواب عليه، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن قلت: قد فهمتُ الاستدلال بكلماته؛ والاستدلال بمخلوقاته: فبيِّن لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته؛ فإن ذلك أمرٌ لا عَهْدَ لنا به في تخاطبنا وكتبنا؟

قلت: أجل؛ هو لعمر الله كما ذكرتَ؛ وشأنه أجلُّ وأعلى، فإن الربَّ تعالى هو المدلول عليه؛ وآياته هي الدليل والبرهان، فاعلم أن الله ــ سبحانه ــ في الحقيقة هو الدالُّ على نفسه بآياته، فهو الدليل لعباده في

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣٩٤.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٧.

الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات، وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود أنه ـ سبحانه ـ الكامل في أسمائه وصفاته؛ وأنه الموصوف بكلِّ كمالٍ؛ المُنزَّه عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ)[1].

وتارة ترد المجادلة والمناظرة بأسلوب ذكر المُقدِّمات التي تلزم المُعارض؛ وذكر النتائج التي تترتَّب عليها، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (أعظم ثمرة العقل: معرفته لخالقه وفاطره، ومعرفة صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وصدق رسله، والخضوع والذُّلِّ والتعبُّد له.

فإذا أقررتم على العقل بأنه لا يُدرك ذلك ولا يُصدِّق ذلك به؛ بل يُعارضه ويُكذِّبه ويردُّه: فقد نسبتموه إلى أقبح الجهل وأعظم شهادة الزور، وما كان هكذا فلا تُقبل له شهادةٌ في شيءٍ؛ فضلاً عن تقديم شهادته على ما شهد الله به لنفسه؛ وشهدت له به رسله ـ من أولهم إلى آخرهم ـ)[2].

وتارة ترد المجادلة والمناظرة بأسلوب التحدِّي للمُعارِض، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (نسبة ما يُدركه العقلاء قاطبة بعقولهم إلى ما جاءت به الرسل كنسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى ضوء الشمس، ولا تجد ولو عُمِّرت عمر نوح مسألة واحدة أصلاً اتفق فيها العقلاء كلُّهم على خلاف ما جاءت به الرسل في أمرٍ من الأمور ألبتة)[3].

وتارة ترد المجادلة والمناظرة بأسلوب تعجيز المُعارض؛ وبيان

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٨٦.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٣٦.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٢١١ ـ ٢١٢.

استحالة ما يعتقد، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (من المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها؛ وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال؛ وتعطيل الأفعال عن المفعولات.

كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله؛ وأفعاله عن صفاته؛ وصفاته عن أسمائه؛ وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته، وإذا كانت أوصافه صفات كمال؛ وأفعاله حكماً ومصالح؛ وأسماؤه حسنى: ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقّه)[1].

وتارة ترد المجادلة والمناظرة بأسلوب التنزُّل مع المُعارِض، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن هذه المعارضة بين الوحي والعقل نتيجةُ جهلين عظيمين: جهلٍ بالوحي، وجهلٍ بالعقل.

أما الجهلُ بالوحي: فإن المُعارض لم يفهم مضمونه وما دلَّ عليه، بل فهم منه خلاف الحقِّ الذي دلَّ عليه وأُريد به، ثم عارض ما دلَّ عليه بالرأي والمعقول.

ونحن ننزل معه درجة؛ ونُبيِّن أن المعقول الذي ذكره: لا يصلح لمعارضة المعنى الباطل الذي فهمه من الوحي؛ فضلاً عن المعنى الصحيح الذي دلَّ عليه الوحي.

فإنه يستحيل أن يُعارض معارضة صحيحة ألبتة، بل هو الحقُّ الذي ليس بعده إلا الضَّلال)[2].

وتارة ترد المجادلة والمناظرة بأسلوب التسليم للمُعارِض، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (فَهَبْ أن هذا كذلك في هذا الموضع؛

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٠.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٠٧.

فهل يصحُّ أن يُقال ذلك في غيره)[1].

وتارة ترد المجادلة والمناظرة بأسلوب إنصاف المُعارِض، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (لا يُتصوَّر أن يجتمع لهذا المُعارض علمٌ بالوحي والعقل أصلاً، بل إما أن يكون جاهلاً بهما ــ وهو الأغلب على هؤلاء ــ أو بأحدهما.

ولسنا ندفع معرفتهم ببعض العقليات المشتركة بين المسلمين واليهود والنصارى والمجوس وعباد الأصنام، بل ولا ندفع تبريزهم فيها وحذقهم بها، وإنما نُبيِّن بالبراهين الواضحة: أنهم من أجهل الناس بالعقليات المتعلِّقة بأسماء الربِّ وصفاته وأفعاله، كما هم جهالٌ بوحيه وبما جاءت به رسله)[2].

وتارة ترد المجادلة والمناظرة بأسلوب الحكم على المُعارض، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (أيُّ دليلٍ في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومُدبِّره؛ وملك السموات والأرض وقيُّومها؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع أنواع الكمال له؛ فأي قضية تصح في العقل بعد هذا؟

ومن شكَّ في أنَّ صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضا والفرح والرحمة والرأفة كمالٌ: فهو ممن سُلِبَ خاصَّة الإنسانية؛ وانسلخ من العقل، بل من شكَّ أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمالٌ: فهو مؤوفٌ[3] مصابٌ في عقله، ومن شكَّ أن كونه يفعل

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٢.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٠٨.

(٣) المؤوف: الأحمق الخفيف الرأي. =

باختياره ما يشاء ويتكلم إذا شاء وينزل إلى حيث شاء ويجيء إلى حيث شاء كمالٌ: فهو جاهلٌ بالكمال، والجامد عنده أكمل من الحيِّ الذي تقوم به الأفعال الاختيارية، كما أن عند شقيقه الجهمي: أن الفاقد لصفات الكمال أكملُ من الموصوف بها، كما أن عند أستاذهما وشيخهما الفيلسوف: أن من لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم؛ ولا له حياةٌ ولا قدرةٌ ولا إرادةٌ ولا فعلٌ ولا كلامٌ؛ ولا يُرسل رسولاً ولا يُنزل كتاباً؛ ولا يتصرَّف في هذا العالم بتحويل وتغيير وإزالة ونقل وإماتة وإحياء: أكملُ ممن يتَّصف بذلك.

فهؤلاء كلُّهم قد خالفوا صريح المعقول؛ وسلبوا الكمال عمَّن هو أحقُّ بالكمال من كلِّ ما سواه، ولم يكفهم ذلك حتى جعلوا الكمال: نقصاً؛ وعدمه: كمالاً، فعكسوا الأمر؛ وقلبوا الفطر؛ وأفسدوا العقول)[1].

تاسعاً: أسلوب الاعتذار، وقد تكرَّر هذا الأسلوب كثيراً في كلام الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ، فتارة يرد الاعتذار عن عدم توفية المقام حقَّه، ومن أمثلة ذلك قوله: (وهذا قطرةٌ من بحرٍ؛ نبَّهنا به تنبيها يعلم به اللبيب ما وراءه، وإلا فلو أعطينا هذا الموضع حقَّه ــ وهيهات أن يصل إلى ذلك علمُنا أو قدرتُنا ــ لكتبنا فيه عدَّة أسفارٍ، وكذا كلُّ وجهٍ من هذه الوجوه؛ فإنه لو بُسط وفُصِّلَ: لاحتمل سِفْراً أو أكثر، والله المستعان؛ وبه التوفيق)[2].

وتارة يرد الاعتذار عن عدم التفصيل لوضوح الأمر، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (ومن له أدنى إلمام بالسنة والتفاتٍ إليها يعلم

= انظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ١٢/ ١٩٦، لسان العرب لابن منظور ٩/ ٨، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٢٣/ ٢٦ [مادة: أفف].

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٦.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٧.

ذلك، ولولا وضوح الأمر في ذلك: لذكرنا أكثر من مائة موضعٍ)[1].

وتارة يرد الاعتذار عن عدم التفصيل خشية الإطالة، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (ولولا الإطالة لذكرنا ذلك على التفصيل ــ وقد تقدمت الإشارة إلى اليسير منه ــ)[2].

وتارة يرد الاعتذار عن الإطالة لشدَّة الحاجة إليها، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (ولا تستطل هذا الفصل؛ فان الحاجة إليه شديدةٌ لكلِّ أحدٍ، فَفَرْق بين حُسْن الظنِّ بالله؛ وبين الغِرَّة به)[3].

عاشراً: الأسلوب البلاغي، وقد تكرَّر هذا الأسلوب كثيراً في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ، فتارة ترد البلاغة بأسلوب السجع، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (أفيظنُّ الجاهلون أنا نجحد صفات ربِّنا؛ وعُلُوِّه على خلقه؛ واستواءه على عرشه، وتكلُّمه بالقرآن العربي؛ وتكليمه لموسى حقيقة كلاماً أسمعه إياه بغير واسطةٍ، ونُنكر سمعه وبصره، وعلمه وقدرته، وحياته وإرادته، ووجهه الكريم ويديه ــ كلتا يديه يمينٌ ــ اللتين يقبض سماواته بإحداهما والأرض بالأخرى، ورؤية وجهه الكريم في جنات عدن، ومحبته ورضاه، وفرحه بتوبة التائبين، ونزوله إلى سماء الدنيا حين يمضي شطر الليل، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق؛ لأسماءٍ سمَّوها هم وسلفهم ما أنزل الله بها من سلطان، وألقابٍ وضعوها من تلقاء أنفسهم لم يأت بها سنةٌ ولا قرآن، وشبهاتٍ قذفت بها قلوبٌ ما استنارت بنور الوحي ولا خالطتها بشاشةُ الإيمان، وخيالاتٍ هي بتخييلات الممرورين وأصحاب الهوس أشبه منها بقضايا العقل

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٢٨.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٧٩ ــ ٦٨٠.

(٣) الداء والدواء ص٣٧.

والبرهان، ووهمياتٍ نسبتها إلى العقل الصحيح كنسبة السراب إلى الإبصار في القيعان، وألفاظٍ مجملةٍ ومعانٍ مشتبهةٍ قد لُبِّسَ فيها الحقُّ بالباطل فصار داحضاً وكتمان، فدعونا من هذه الدعاوي الباطلة التي لا تُفيد إلا إتعاب الإنسان وكثرة الهذيان، وحاكمونا إلى الوحي والميزان، لا إلى منطق يونانٍ ولا إلى قول فلانٍ ورأي فلانٍ، فهذا كتاب الله ليس فوق بيانه مرتبةٌ في البيان، وهذه سنة رسوله مطابقةٌ له أعظم من مطابقة البنان للبنان، وهذه أقوال أعقل الأمم بعده والتابعين لهم بإحسان، لا يختلف منهم في هذا الباب إثنان، ولا يوجد عنهم فيه قولان متنافيان، بل قد تتابعوا كلُّهم على إثبات الصفات وعُلُوِّ الله على خلقه واستوائه على عرشه وإثبات تكلُّمه وتكليمه وسائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله كتتابع الأسنان، وقالوا للأمة: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم وإلى من بعدكم إلى آخر الزمان، وهذا هو الذي نادى به المنادي وأذَّن به على رؤوس الملأ في السرِّ والإعلان، فحيَّ على الصلاة وراء هذا الإمام يا أهل الإيمان، وحيَّ على الفلاح بمتابعته يا أهل القرآن، والصلاة خيرٌ من النوم في ظلمة ليلة الشُّكوك والإفك والكفران، فلا تصحُّ القدوة بمن أقرَّ على نفسه وصدَّقه المؤمنون بأنه تائهٌ في بيداء الآراء والمذاهب حيران، وأنه لم يصل إلى اليقين بشيءٍ منها لا هو ولا من قبله من أمثاله على تطاول الأزمان، وأن غاية ما وصلوا إليه الشُّك والتشكيك والحيرة ولقلقة اللسان، فالحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وخصَّهم بكمال العقول وصحة الفطر ونور البرهان، وجعلهم هداة مهتدين مستبصرين مبصرين أئمة للمتقين يهدون بأمره ويُبصرون بنوره ويدعون إلى داره ويُحاربون كلَّ مُفتن فتَّان، فحيَّ على خير العمل بمتابعة المبعوث بالفرقان، وتحكيمه وتلقي حكمه بالتسليم والقبول والإذعان، ومقابلة ما خالف حكمه بالإنكار والردِّ والهوان، ومطاعنة المعارضين له

بعقولهم بالسيف والسِّنان؛ وإلا فبالقلم واللسان، فالعقول السليمة والفطر المستقيمة لنصوص الوحي يسجدان، ويُصدِّقان بما شهدت به ولا يُكذِّبان، ويُقـرَّان أن لهـا عليهمـا أعظـم السلطـان، وأنهمـا إن خـرجـا عنهـا غُلبـا ولا ينتصران)[1].

وتارة ترد البلاغة بأسلوب التعجُّب والاستفهام، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (ويا لله العجب؛ كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين ــ التي أتى الله بنيانها من القواعد ــ ؛ وقبل استخراج هذه الآراء والمقاييس والأوضاع؟ أَهَلْ كانوا مهتدين مكتفين بالنصوص؟ أم كانوا على خلاف ذلك حتى جاء المتأخرون؛ فكانوا أعلم منهم وأهدى وأضبط للشريعة منهم؛ وأعلم بالله وأسمائه وصفاته وما يجب له وما يمتنع عليه منهم؟)[2].

وتارة ترد البلاغة بأسلوب اللَّفِّ والنَّشر[3]، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : في العقل الذي يُعارض الإجماع المعلوم المُتيقَّن عنـد جميـع أهـل السنة والحـديث: (غايـته أن يـكـون عقـلُ فرقةٍ من الفرق اشتـقـت لأنفسـهـا مـذهبـاً؛ وادَّعـت لـه معـقـولاً، فلمـا صـالت عليـهـا نصـوص الـوحـي: التجـأت إلـى العقـل؛ وادَّعـت أنـه يخـالفهـا؛ وصـدقـت وكذبت.

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٥٢ ــ ٩٥٥.
(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٣٧٧.
(٣) قال الجرجاني في [التعريفات ص٢٤٧]: (اللَّفُّ والنَّشْر: هو أن تلفَّ شيئين، ثم تأتي بتفسيرهما جملة؛ ثقة بأن السامع يرد إلى كلٍّ واحدٍ منهما ما له، كقوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٣]).

أما صدقها: فإن نصوص الوحي تخالف معقولها هي، وذلك من أدلِّ دليلٍ على فساده في نفسه إذ شهدت له نصوص الوحي بالبطلان.

وأما كذبها: فزعمها أن نصوص الوحي تخالف العقل المتفق عليه بين العقلاء)[1].

وتارة ترد البلاغة بأسلوب التشبيه، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (الذكر للقلب كالماء للزرع؛ بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به[2])[3].

وتارة ترد البلاغة بأسلوب الكناية، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (فيا فوزك ويا سعادتك إن اطلع ـ سبحانه ـ على ذلك من قلبك؛ ماذا يُفيض عليك من ملابس نعمه وخِلَع إفضاله؟)[4].

وتارة ترد البلاغة بأسلوب الإيجاز والإطناب، ومن أمثلة ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (أما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال؛ والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دلَّ على هذا شيئان: مجملٌ ومفصلٌ.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٣٣ ـ ٨٣٤.

(٢) تأمل هذا الإضراب الوارد في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ؛ وما ينطوي عليه من معنى بديع، فإن حاجة الزرع إلى الماء دون حاجة السمك إليه، فإن الزرع يحتاج إلى الماء بقدر معلوم، بخلاف السمك فإنه لا غنى عنه طرفة عين. وقد قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٦٣]: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: (الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء)).

(٣) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٦٢٠.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٥ ـ ٥٦.

أما المجمل: فإثبات الحمد له ــ سبحانه ــ .

وأما المفصل: فذكر صفة الإلـٰهية والربوبية والرحمة والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات)[1].

وتارة ترد البلاغة بأسلوب الاقتباس، ومن أمثلة ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا كان القرآن كلامه ــ وهو صفة من صفاته ــ : فهو متضمنٌ لأسمائه الحسنى، فإذا كان القرآن غير مخلوق؛ ولا يقال: إنه غير الله؛ فكيف يقال: إن بعض ما تضمنه وهو أسماؤه مخلوقة؛ وهي غيره؟

فقد ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[2] بحمد الله؛ وانحسم الإشكال، وأن أسماءه الحسنى التي في القرآن من كلامه؛ وكلامه غير مخلوق، ولا يقال: هو غيره؛ ولا هو هو.

وهذا المذهب مخالفٌ لمذهب المعتزلة؛ الذين يقولون: أسماؤه تعالى غيره؛ وهي مخلوقةٌ، ولمذهب من ردَّ عليهم؛ ممن يقول: اسمه نفس ذاته؛ لا غيره، وبالتفصيل تزول الشبه؛ ويتبيَّن الصواب، والحمد لله)[3].

فهذا (بابٌ واسعٌ جداً؛ وإنما ذكرنا منه جزءاً يسيراً لتعرف به)[4]: المنهج الذي اتَّبعه الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ للاهتداء إلى تقرير توحيد الأسماء والصفات ــ إثباتاً وفهماً ــ ، ولتُدرك به أسلوب قلمه البارع وبدر فهمه الساطع الذي قرَّر به هذا التوحيد.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٣.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥١.

(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٨.

(٤) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص٤٢.

وأما تفصيل هذا المنهج العلميِّ النافع المُدبَّج بهذا الأسلوب الأدبيِّ البارع: فهذا: (بابٌ يطول استقصاؤه، ويكفي المستبصر: التنبيه عليه)[1] في هذا المطلب؛ لأن تفاصيله (يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم)[2]، وستقرُّ العين ـ بمشيئة الله تعالى ـ بتفصيل ذلك في مثاني هذا البحث.

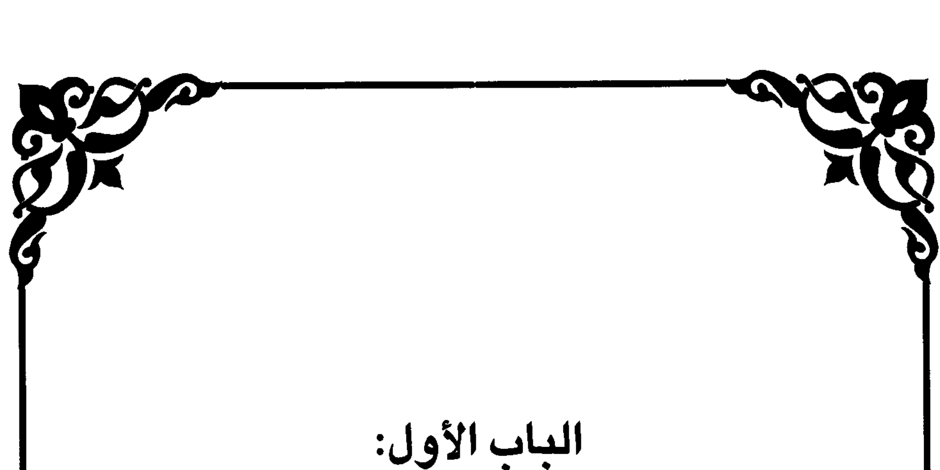
❑ ❑ ❑

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٢٢٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٢٦.





الباب الأول:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية
في تقرير أهمية توحيد الأسماء والصفات
وبيان معتقد أهل السنة والجماعة فيه






الفصل الأول:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أهمية توحيد الأسماء والصفات ومقتضياته وآثاره وثمراته



المبحث الأول:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية
في تقرير أهمية توحيد الأسماء والصفات

إنَّ لتوحيد الله ــ تبارك وتعالى ــ: منزلة سنيَّة بديعة؛ ودرجة بهيَّة رفيعة، ولهذا القسم ــ على وجه الخصوص ــ من أقسام توحيد الله تعالى؛ وهو توحيد الله ــ سبحانه وتعالى ــ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى: أهمية عظيمة؛ وضرورة جسيمة، إذ هو المدخل القويم؛ والصراط المستقيم إلى معرفة العبد بربه ــ تبارك وتعالى ــ؛ وما يجب له ويمتنع عليه.

والعلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ والتفقه فيهما: أشرف ما صُرِفَت فيه الأنفاس؛ وكَدَّ في تحصيله والاشتغال في طلبه الناس، فهو (الغاية التي تسابق إليها المتسابقون، والنهاية التي تنافس فيها المتنافسون)[1].

وما مثل هذا العلم العظيم بين سائر العلوم: إلا كالكوكب الساطع؛ والنجم اللامع، لذا نجد أن كتب الله السماوية المنزلة على أنبياء الله تعالى ورسله ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ قد تضمنت بين دفَّتيها من التعريف بالله تعالى؛ والإخبار عن أسمائه الحسنى وصفاته العلى النصيب الأكبر؛

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٩٠.

والحظ الأوفر، كما أن كلمة أنبياء الله ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قد اجتمعت على الإقرار به؛ وتظافرت على تقريره لأُممهم بأحسن تقرير؛ وأوضح تعبير.

ثم جاء إمام أنبياء الله ورسله وخاتمهم: محمد ﷺ بما لم يأت به أحدٌ قبله من الأنبياء والمرسلين، فعرَّف أمته بهذا التوحيد أعظم تعريفٍ؛ وصرَّف وجوه الدلالة عليه أحسن تصريفٍ، فكفى الله تعالى به العائل المحتاج؛ وأغناه أن يطلب بعده دلائل الاحتجاج، فاستبان بتعريف النبي ﷺ (الصبح لمن له عينان ناظرتان، وتبين الرشد من الغيِّ لمن له أذنان واعيتان)[1].

وقد أحسن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ غاية الإحسان؛ وقرَّر في كتبه أهمية توحيد الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى بأوضح معاني البيان.

وقد اجتهدتُ في إبراز تقريره لأهمية توحيد الأسماء والصفات؛ وقمتُ بتقسيم هذا المبحث ـ بالنظر إلى منصوص كلامه الذي ظفرتُ به في مثاني كتبه ـ إلى خمسة مطالب:

المطلب الأول: تقريره أن معرفة الله تعالى إنما تكون بمعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

المطلب الثاني: تقريره أن توحيد الأسماء والصفات أشرف العلوم.

المطلب الثالث: تقريره أنَّ الكتب الإلـٰهية اشتملت على توحيد الأسماء والصفات أكثر من اشتمالها على ما عداه.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٩٠.

المطلب الرابع: تقريره إجماع الرسل ـ عليهم السلام ـ على توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته.

المطلب الخامس: تقريره أنَّ الرسول ﷺ عرَّف الأمة توحيد الأسماء والصفات أتمَّ تعريفٍ.

وبيان تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذه المطالب فيما يأتي:



المطلب الأول:

جهوده في تقرير أنَّ معرفة الله تعالى إنّما تكون بمعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العُلى

إنَّ الإنسان: هو صفوة الله تعالى من خلقه، وقد خلقه الله تعالى لغايةٍ جليلةٍ؛ ومُهمَّةٍ نبيلةٍ، وكمال الإنسان المنشود؛ الذي ينال به النعيم الموعود: مُترتِّبٌ على الوصول إلى هذه الغاية؛ وهي كون الإنسان (عارفاً بربه؛ محبًّا له؛ قائماً بعبوديته.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1]. وقال: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾[2]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٩٧﴾[3].

فهذه المعرفة وهذه العبودية: هما غاية الخلق والأمر؛ وهما أعظم كمال الإنسان، والله تعالى من عنايته به ورحمته له: عرَّضه لهذا الكمال؛ وهيَّأ له أسبابه الظاهرة والباطنة؛ ومكَّنه منها)[4].

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٢) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٩٧.

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٢٧.

ولمعرفة العبد بربِّه تعالى ــ من بين سائر المعارف ــ : أهمية عظمى، وهذه المعرفة إنما تتحقَّق ــ لمن رام طلبها من العباد ــ : بالتعرُّف على أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ والتبصُّر بالطرق الموصلة إلى تحصيلها.

فمتى ما استمسك العبد بعروة المعرفة الوثقى التي ليس لها انفصام؛ واستظلَّ بشجرتها الظليلة وعلَّق عليها الخطام: فقد أنس بقطف ثمارها النضيجة؛ واتخذ من معرفة الله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وليجة.

ومتى ما حيل بين العبد وبين مأموله؛ وذهبت نفسه حسرات على عدم وصوله:

فلا تسأل عن حرمانه من كنوز المعرفة والذخائر؟ وماذا فاته من حياة القلوب واسْتِنارة البصائر؟

وقد برزت جهود الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ جلية واضحة في تقرير هذا الأصل العظيم والأُسِّ الجسيم؛ وهو معرفة الله تعالى؛ الذي هو أجلُّ المطالب؛ وأنجح الرغائب، ونيل العبد له وظفره به أشرف المواهب، حيث بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ بأتمِّ البيان؛ وأوضحَ بغاية الإيضاح والبرهان: أن هذه المعرفة أجلُّ معارف الدين؛ وإرادتها أعظم مقاصد الشرع المبين، وأن التعبُّد لله تعالى بها أشرف الأعمال؛ والثناء عليه بها أفضل الأقوال.

ويمكن بيان ما تضمنه منثور كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المطلب؛ وتجليته وتقريبه بالمسائل الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أهمية معرفة العبد لأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى.

اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مواطن متعددةٍ من كتبه: ببيان أهمية معرفة الله ــ سبحانه وتعالى ــ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهذا البيان منه ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه الأهمية؛ مع الإبداء فيها والإعادة: تقريرٌ لحاجة العباد إلى هذه المعرفة؛ وأن لها في الدين منزلة سنيَّة ورتبة عليَّة.

وكان من تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لأهمية هذه المعرفة: بيانه لحاجة الإنسان إلى هذه المعرفة، وأنه لاحياة لقلبه وروحه إلا بمعرفة الله ــ سبحانه ــ؛ ومعرفة أسمائه وصفاته، كما قال: (من كمال حكمة الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ وتمام نعمته وإحسانه: أنه كلما كانت حاجة العباد إلى الشيء أقوى وأتم كان بذله لهم أكثر؛ وطرق وصولهم إليه أكثر وأسهل، وهذا في الخلق والأمر، فإن حاجتهم لمَّا كانت إلى الهواء أكثر من الماء والقوت: كان موجوداً معهم في كلِّ مكانٍ وزمانٍ؛ وهو أكثر من غيره، وكذلك لمَّا كانت حاجتهم بعده إلى الماء شديدة ــ إذ هو مادة أقواتهم ولباسهم وفواكههم وشرابهم ــ: كان مبذولاً لهم أكثر من غيره، وكذلك حاجتهم إلى القوت لمَّا كانت أشد من حاجتهم إلى الإيواء: كان وجود القوت أكثر، وهكذا الأمر في مراتب الحاجات.

ومعلوم أنَّ حاجتهم إلى معرفة ربِّهم وفاطرهم ومعبودهم ــ جلَّ جلاله ــ فوق مراتب هذه الحاجات كلِّها، فإنه لا سعادة لهم ولا فلاح ولا صلاح ولا نعيم إلا بأن يعرفوه ويعبدوه، ويكون هو وحده غاية مطلوبهم؛ ونهاية مرادهم، وذِكْره والتقرُّب إليه قرة عيونهم؛

وحياة قلوبهم، فمتى فقدوا ذلك: كانوا أسوأ حالاً من الأنعام بكثيرٍ، وكانت الأنعام أطيب عيشاً منهم في العاجل؛ وأسلم عاقبة في الآجل.

وإذا علم أنَّ ضرورة[1] العبد إلى معرفة ربِّه ومحبته وعبادته والتقرب إليه فوق كل ضرورة: كانت الطرق المعرِّفة لهم ذلك أيسر طرق العلم على الإطلاق؛ وأسهلها وأهداها وأقربها، وبيان الربِّ تعالى لها فوق كلِّ بيان)[2].

وقال ــ رحمه الله تعالى ــ في موطن آخر: (من في قلبه أدنى حياةٍ أو محبةٍ لربِّه؛ وإرادةٍ لوجهه؛ وشوقٍ إلى لقائه: فطلبه لهذا الباب وحرصه على معرفته؛ وازدياده من التبصر فيه؛ وسؤاله واستكشافه عنه هو أكبر مقاصده؛ وأعظم مطالبه؛ وأجلُّ غاياته.

وليست القلوب الصحيحة والنفوس المطمئنة إلى شيءٍ من الأشياء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر، ولا فرحها بشيءٍ أعظم من فرحها بالظَّفَر بمعرفة الحقِّ فيه)[3].

---

(١) الضرورة: هي الاحتياج؛ مشتقةٌ من الضرر، وهو الأمر النازل الذي يقصد الإنسان الامتناع منه؛ ولا مدفع له.
قال الأزهري في [تهذيب اللغة ١١/ ٤٥٨]: (قال الليث: الضرورة: اسم لمصدر الاضطرار، تقول: حملتني الضرورة على كذا، وقد اضطر فلانٌ إلى كذا وكذا).
وانظر: الفروق اللغوية للعسكري ص١٠٧ ــ ١٠٨، التعريفات للجرجاني ص١٨٠، الكليات للكفوي ص٥٧٦.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٥ ــ ٣٦٧.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٦١.

ولما كانت لمعرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى هذه الأهمية: كانت من أعظم أمور الدين؛ ومن أجل مقاصد دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (الرسول إذا لم يُبيِّن للناس أصول إيمانهم؛ ولا عرَّفهم عِلْماً يهتدون به في أعظم أمور الدين، وأصل مقاصد الدعوة النبوية، وأجلِّ ما خُلِقَ الخلق له، وأفضل ما أدركوه وحصَّلوه وظفروا به ــ وهو معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله وما يجب له ويمتنع عليه ــ ، بل إنما يُبيِّن لهم الأمور العملية: كانت رسالته مقصورة على أدنى المقصودَيْن.

فإن الرسالة لها مقصودان عظيمان:

أحدهما: تعريف العباد ربَّهم ومعبودهم بما هو عليه من الأسماء والصفات.

والثاني: محبته وطاعته والتقرُّب إليه.

فإذا لم يكن الرسول قد بيَّن للأمة أجلَّ المقصودَيْن وأفضلهما: كانت رسالته قاصرة جداً، فكيف إذا أخبرهم فيه بما تُحيله عقولُهم وأذهانُهم؟)[1].

إلى غير ذلك من المواضع المثبتة في مثاني كتبه؛ والتي ذكر فيها ــ رحمه الله تعالى ــ أهمية هذه المعرفة[2].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٥٤ ــ ١١٥٥.

(٢) انظر: الداء والدواء ص١٣٢ ــ ١٣٣، الفوائد ص٩٥، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٢١.

المسألة الثانية:

تقريره حقيقة معرفة الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ وأنها إنما تتحقَّق للعبد بمعرفته لأسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ حقيقة معرفة الله تعالى؛ ومعرفة أسمائه وصفاته ــ التي هي أجلُّ المعارف؛ وإرادتها أفضل المقاصد، والتعبد لله تعالى بها أشرف الأعمال؛ والثناء عليه بها أفضل الأقوال ــ ، وأنها متى ما قامت بالعبد: فقد أشرقت عليه شمس المعرفة؛ وتحققت فيه صفة العبودية والحنيفية، فقال: (إن محبة الله ــ سبحانه ــ ؛ والأنس به؛ والشوق إلى لقائه؛ والرِّضى به وعنه: أصل الدين؛ وأصل أعماله وإراداته، كما أن معرفته والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ علوم الدين كلِّها.

فمعرفته أجلُّ المعارف، وإرادة وجهه أجلُّ المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية مِلَّة إبراهيم، وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[1].

وكان النبي ﷺ يُوصي أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام؛ وكلمة الإخلاص؛ ودين نبينا محمدٍ؛ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً؛ وما كان من المشركين»[2].

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٥٣٦٠) ــ ٢٤/ ٧٧]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ ذكر ما كان النبي ﷺ يقول إذا أصبح ــ الحديث رقم (٩٧٤٣) ــ ٩/ ٥] من حديث عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي ــ رضي الله عنه ــ .

=

وذلك هو حقيقة شهادة أن لا إلـه إلا الله، وعليها قام دين الإسلام ـ الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين؛ وليس لله دين سواه؛ ولا يقبل من أحد ديناً غيره ـ ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[1].

فمحبته تعالى؛ بل كونه أحبَّ إلى العبد من كلِّ ما سواه على الإطلاق: من أعظم واجبات الدين؛ وأكبر أصوله؛ وأجلِّ قواعده، ومن أحبَّ معه مخلوقاً مثل ما يُحبُّه: فهو من الشِّرك الذي لا يُغفر لصاحبه؛ ولا يُقبل معه عملٌ، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[2].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان حتى يكون عبداً لله؛ ورسوله أحبَّ إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين ـ ومحبته تبعٌ لمحبة الله ـ ؛ فما الظنُّ بمحبته ـ سبحانه ـ ؟

وهو ـ سبحانه ـ لم يخلق الجنَّ والإنس إلا لعبادته التي تتضمن كمال محبته وكمال تعظيمه والذلِّ له، ولأجل ذلك أرسل رسله؛ وأنزل كتبه وشرع شرائعه، وعلى ذلك وُضع الثواب والعقاب؛ وأُسست الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد.

وكما أنه ـ سبحانه ـ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[3]: فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة وإجلال ومخافة، فالمخلوق كلما خِفْته: استوحشت منه وهربت منه، والله ـ سبحانه ـ كلما خِفْته: أَنِسْت به وفررت إليه،

= وصححه الألباني في [شرح العقيدة الطحاوية: ص٩٦ ـ ٩٧].

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٦.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

والمخلوق يُخاف ظلمه وعدوانه، والربُّ ــ سبحانه ــ إنما يُخاف عدله وقسطه، وكذلك المحبة، فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله: فهي عذابٌ للمحبِّ ووبالٌ عليه، وما يحصل له بها من التألُّم أعظم مما يحصل له من اللذة، وكلما كانت أبعد عن الله: كان ألمها وعذابها أعظم، هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك؛ والتجني عليك، وعدم الوفاء لك؛ إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه؛ وما هو أحبُّ إليه منك، وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الربِّ ــ سبحانه ــ : فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحبَّ إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها؛ ووليُّها ومولاها وربُّها؛ ومدبِّرها ورازقها؛ ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس؛ وحياة الأرواح؛ وسرور النفوس؛ وقوت القلوب؛ ونور العقول؛ وقرَّة العيون؛ وعمارة الباطن، فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أحلى ولا ألذَّ ولا أطيب ولا أسرَّ ولا أنعم من محبته والأنس به؛ والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كلِّ حلاوةٍ، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتمُّ من كلِّ نعيمٍ، واللذَّة التي تناله أعلى من كلِّ لذةٍ)[1].

وأوضح الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تفاصيل هذه المعرفة التي استقرَّت شواهدها في سويداء قلب العبد بقوله: (المثل الأعلى ــ وهو ما في قلوب أهل سماواته وأرضه من معرفته والإقرار بربوبيته وأسمائه وصفاته وذاته ــ ، فهذا المثل الأعلى: هو الذي آمن به المؤمنون، وأنس به العارفون، وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المكملة

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٢٨٠ ــ ٢٨٣.

بالكتب الإلـٰهية المقبولة بالبراهين العقلية، فاتفق على الشهادة بثبوته: العقل والسمع والفطرة.

فإذا قال المثبت: يا الله: قام بقلبه ربًّا قيُّوماً قائماً بنفسه، مستوياً على عرشه، مكلماً متكلماً، سامعاً رائياً، قديراً مريداً، فعّالاً لما يشاء، يسمع دعاء الداعين، ويقضي حوائج السائلين، ويُفرِّج عن المكروبين، تُرضيه الطاعات؛ وتُغضبه المعاصي، تعرج الملائكة بالأمر إليه؛ وتنزل بالأمر من عنده.

وإذا شئتَ زيادة تعريفٍ بهذا المثل الأعلى: فقدِّر قِوَى جميع المخلوقات اجتمعت لواحدٍ منهم؛ ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإذا نسبتَ قوته إلى قوة الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ : لم تجد لها نسبة وإياها ألبتة؛ كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد.

فإذا قدَّرتَ علوم الخلائق اجتمعت لرجلٍ واحدٍ؛ ثم قدَّرتَ جميعهم بهذه المثابة: كانت علومهم بالنسبة إلى علمه تعالى كنقرة عصفورٍ من بحرٍ.

وإذا قدَّرتَ حكمة جميع المخلوقين على هذا التقدير: لم يكن لها نسبة إلى حكمته.

وكذلك إذا قدَّرتَ كلَّ جمالٍ في الوجود اجتمع لشخصٍ واحدٍ؛ ثم كان الخلق كلُّهم بذلك الجمال: كان نسبته إلى جمال الربِّ تعالى وجلاله دون نسبة السراج الضعيف إلى جرم الشمس.

وقد نبَّهنا الله ــ سبحانه ــ على هذا المعنى بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

(١) سورة لقمان: الآية ٢٧.

فقدِّر البحر المحيط بالعالم مداداً؛ ووراءه سبعة أبحرٍ تُحيط به؛ كلُّها مدادٌ تُكتب به كلمات الله: نفدت البحار وفنيت الأقلام ــ التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلى آخر الدنيا ــ ؛ ولم تنفد كلمات الله.

وقد أخبر النبي ﷺ أن: «السموات السبع في الكرسي كحلقةٍ ملقاةٍ بأرض فلاةٍ، والكرسي في العرش كحلقةٍ ملقاةٍ في أرض فلاةٍ»[1].

والعرش لا يقدر قدره إلا الله، وهو سبحانه فوق عرشه يرى ما عباده عليه، فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المصدقين العارفين به ــ سبحانه ــ من المثل الأعلى، فعرفوه به، وعبدوه به، وسألوه به، فأحبوه وخافوه ورجوه، وتوكلَّوا عليه وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره، وأَنِسُوا بحبِّه؛ بواسطة هذا التعريف، فلم يصعب عليهم بعد ذلك فَهْم استوائه على عرشه؛ وسائر

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتابه العرش [الحديث رقم (٥٨) ــ ص٤٣٢ ــ ٤٣٣]، وابن جرير في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٣/ ١٠]، وابن حبان في صحيحه [كتاب البر والإحسان/ باب ما جاء في الطاعات وثوابها ــ ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كلِّ خيرٍ حظٌّ رجاء التخلُّص في العقبى بشيء منها ــ الحديث رقم (٣٦١) ــ ٢/ ٧٦ ــ ٧٩]، وأبو الشيخ في العظمة [ذكر عرش الربِّ تبارك وتعالى وكرسيه وعظم خلقهما وعُلُوِّ الرب تبارك وتعالى فوق عرشه ــ الحديث رقم (٢٠٦) ــ ٢/ ٥٦٩ ــ ٥٧٠]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب ما جاء في العرش والكرسي ــ الحديث رقم (٨٦١) ــ ٢/ ٢٩٩ ــ ٣٠٠] من حديث أبي ذر الغفاري ــ رضي الله عنه ــ ؛ بلفظ نحوه، وأوله: «ما السماوات السبع في الكرسي».
قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة [الحديث رقم (١٠٩) ــ ١/ ١٧٦] ــ عقب إيراده طرق الحديث ــ : (وجملة القول: أن الحديث بهذه الطرق صحيح).

ما وصف به نفسه من صفات كماله، إذ قد أحاط عليهم بأنه لا نظير لذلك؛ ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلته لشيءٍ من المخلوقات.

وقد أعلمهم ـ سبحانه ـ على لسان رسوله أنه: «يقبض سماواته بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن»(١).

وأنَّ: «السماوات السبع والأرضين السبع في كفِّه تعالى كخردلةٍ في كفِّ أحدكم»(٢).

وأنَّه: «يضع السماوات على أُصبع، والأرضين على أُصبع، والجبال على أُصبع، والشجر على أُصبع، وسائر الخلق على أُصبع»(٣).

فأيُّ أيدي للخلق؛ وأيُّ أُصبع تُشبه هذه اليد وهذه الأُصبع حتى يكون إثباتها تشبيهاً وتمثيلاً؟)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التفسير/ باب قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، الحديث رقم (٤٨١٢) ـ ٣/ ١٥٢٠]، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ الحديث رقم (٢٧٨٧) ـ ٤/ ٢١٤٨] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه: «يقبض الله الأرض ويطوي السماوات».

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة [الرد على الجهمية ـ الحديث رقم (١٠٩٠) ـ ٢/ ٤٧٦]، وابن جرير في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٢٤/ ٢٥] من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ موقوفاً، ولفظه: «ما السماوات السبع والأرضون».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التفسير/ باب ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، الحديث رقم (٤٨١١) ـ ٣/ ١٥١٩ ـ ١٥٢٠]، ومسلم في صحيحه [كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ الحديث رقم (٢٧٨٦) ـ ٤/ ٢١٤٧] من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «يا محمد؛ إن الله تعالى يمسك السماوات».

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٩ ـ ٤٣٣.

وللإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ نظير هذا الكلام في مقام آخر[1]؛ بيّن فيه حقيقة هذه المعرفة؛ وأنها لما قامت شواهدها في قلب العبد: آمن بحقائق أسماء الله وصفاته؛ وأثبتها لله تعالى على وجهٍ لا يُماثله شيءٌ من أسماء المخلوقات وصفاتهم.

وهذا التقرير منه لحقيقة هذه المعرفة: يقتضي ضرورة البحث عن الطرق الدالَّة عليها؛ والسبل المؤدية إليها، فكان من المناسب جداً: بيان طرق تحصيل العبد لمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

المسألة الثالثة:

تقريره طرق تحصيل العبد لمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى.

إن كمال حكمة الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده تقتضي: أنه كلما كانت حاجتهم إلى الشيء أقوى وأتم: كان بذله لهم أكثر؛ وطرق وصولهم إليه أسهل، وحاجة العبد لمعرفة ربِّه؛ ومعرفة جمال أسمائه وكمال أوصافه فوق جميع الحاجات.

ولذا نجد أن الله تعالى قد عدَّد سبل الوصول إليها؛ ويسَّر طرق الحصول عليها، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (تأمَّل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمَه بما فيه صلاح معاشه ومعاده؛ ومنع عنه علمَ مالا حاجة له به ـ فجهله به لا يضرُّ؛ وعلمه به لا ينتفع به انتفاعاً طائلاً ـ، ثم يسَّر عليه طرق ما هو محتاجٌ إليه من العلم أتمَّ تيسيرٍ، وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم: كان تيسيره إياه عليه أتم، فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه ـ سبحانه ـ والإقرار به؛ ويسَّر عليه طرق هذه المعرفة. فليس في العلوم ما هو أجلُّ منها؛ ولا أظهر عند

---

(١) انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥١١.

العقل والفطرة، وليس في طرق العلوم التي تُنال بها أكثر من طرقها؛ ولا أدلَّ ولا أبين ولا أوضح، فكلُّ ما تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك؛ وكلُّ ما يخطر ببالك؛ وكلُّ ما نالته حاسَّة من حواسِّك: فهو دليلٌ على الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ .

فطرق العلم بالصانع فطريةٌ ضروريةٌ؛ ليس في العلوم أجلى منها، وكلُّ ما استُدِلَّ به على الصانع: فالعلم بوجوده أظهر من دلالته، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]؟ فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شكٌّ ما في وجود الله ــ سبحانه ــ .

ونصب من الأدلَّة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله: الأدلة على اختلاف أنواعها، ولا يطيق حصرها إلا الله.

ثم ركز ذلك في الفطرة؛ ووضعه في العقل جملة.

ثم بعث الرسل مُذكِّرين به ــ ولهذا يقول تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[3]. وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[4]. وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾[5]. وهو كثير في القرآن ــ ، ومُفصِّلين لما في الفطرة والعقل: العلم به جملة.

فانظر كيف وُجِدَ الإقرارُ به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٠.
(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٥.
(٣) سورة الأعلى: الآية ٩.
(٤) سورة الغاشية: الآية ٢١.
(٥) سورة المدثر: الآية ٤٩.

وحكمته في خلقه وأمره ــ المقتضية إثبات رسالة رسله؛ ومُجازات المحسن بإحسانه والمُسيء بإساءته ــ مُودعاً في الفطرة مركوزاً فيها، فلو خُلِّيَتْ على ما خُلِقَتْ عليه: لم يعرض لها ما يُفسدها ويُحوِّلها ويُغيِّرها عما فُطِرَتْ عليه؛ ولأقرَّت بوحدانيته؛ ووجوب شكره وطاعته؛ وبصفاته وحكمته في أفعاله؛ وبالثواب والعقاب.

ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خُلِقَتْ عليه: أنكرت ما أنكرت؛ وجحدت ما جحدت، فبعث الله رسله مُذكِّرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة، فانقادوا طوعاً واختياراً ومحبة وإذعاناً بما جُعِلَ من شواهد ذلك في قلوبهم، حتى إن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق؛ بل علم صحة الدعوة من ذاتها، وعلم أنها دعوة حقٍّ برهانها فيها، ومُعذرين ومُقيمين البيِّنة على أصحاب الفطر الفاسدة لئلا تحتجَّ على الله بأنه ما أرشدها ولا هداها؛ فيحقَّ القول عليها بإقامة الحجة، فلا يكون ــ سبحانه ــ ظالماً لها بتعذيبها وإشقائها، وقد بين ذلك ــ سبحانه ــ في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[1].

فتأمَّل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد وإثبات أسمائه وصفاته ورسالة رسله والبعث للجزاء مسطورة مُثبتة في الفطر، ولم يكن ليُعرف بها أنها ثابتةٌ في فطرته، فلما ذكَّرته الرسل ونبَّهته: رأى ما أخبروه به مُستقراً في فطرته شاهداً به عقله؛ بل وجوارحه ولسان حاله، وهذا أعظم ما يكون من الإيمان، وهو الذي كتبه ــ سبحانه ــ في قلوب أوليائه وخاصَّته، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[2].

---

(١) سورة يس: الآيتان ٦٩ ــ ٧٠.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

فتدبَّر هذا الفصل؛ فإنه من الكنوز في هذا الكتاب، وهو حقيقٌ بأن تُثنى عليه الخناصر، ولله الحمد والمنة.

والمقصود: أنَّ الله ــ سبحانه ــ أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسَّرها عليه ما لم يُعطه من غيرها؛ لعظم حاجته في معاشه ومعاده إليها، ثم وضع في العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه ــ الذي هو ظِلُّه في أرضه؛ وعدله بين عباده؛ ونوره في العالم ــ ما لو اجتمعت عقول العالمين كلهم ــ فكانوا على عقلِ أعقلِ رجلٍ واحدٍ منهم ــ لما أمكنهم أن يقترحوا شيئاً أحسن منه ولا أعدل ولا أصلح ولا أنفع للخليقة في معاشها ومعادها، فهو أعظم آياته وأوضح بيِّناته وأظهر حججه، على أنه الله الذي لا إلـٰه إلا هو؛ وأنه المتَّصف بكلِّ كمالٍ؛ المُنزَّه عن كلِّ عيبٍ ومثالٍ؛ فضلاً عن أن يحتاج إلى إقامة شاهدٍ من خارجٍ عليه بالأدلَّة والشواهد لتكثير طرق الهدى وقطع المعذرة وإزاحة العلة والشبهة، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[(1)](2).

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ طرق تحصيل العبد لهذه المعرفة؛ والأسباب المؤدية إليها، وهي:

أولاً: تقريره أنَّ الله تعالى عرَّف نفسه لعباده في كتابه العزيز؛ بذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى، كما قال في بيان الأوجه التي تنقسم إليها معاني القرآن الكريم؛ وأن من أولِّها وأولاها: تعريف الله تعالى نفسه لعباده بأسمائه الحسنى وصفاته العلى: (ذكر الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن؛ وهي عشرةُ أقسامٍ:

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٤٢ ــ ٢٤٥.

القسم الأول: تعريفه ــ سبحانه ــ نفسه لعباده بأسمائه وصفات كماله، ونعوت جلاله وأفعاله، وأنه واحدٌ لا شريك له، وما يتبع ذلك.

القسم الثاني: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته وآثار حكمته؛ فيما خلق وذرأ في العالم الأعلى والأسفل من أنواعِ بريَّته وأصناف خليقته، محتجاً به على من ألحد في أسمائه وتوحيده، وعطَّله عن صفات كماله وعن أفعاله، وكذلك البراهين العقلية التي أقامها على ذلك، والأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تقدمت الإشارة إلى الشيء اليسير منها)[1].

إلى أن ختم ــ رحمه الله تعالى ــ الوجوه بقوله: (فهذه عشرة أقسام عليها مدار القرآن)[2].

وقد فصَّل الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ما أجمله في كلامه المتقدم حول ما تضمنته ألفاظ القرآن الكريم من تعريفه ــ سبحانه ــ نفسه لعباده بأسمائه وصفاته في مواطن متعددةٍ من كتبه، فمن ذلك إشارته إلى تضمن فاتحة الكتاب الدلالة على معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، حيث قال: (قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[3] يتضمن: الأصل الاول؛ وهو: معرفة الربِّ تعالى؛ ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله)[4].

كما قرر ــ رحمه الله تعالى ــ أن العبد إذا تلى القرآن حقَّ تلاوته: فإنه يُشهده معرفة الله بأسماء الجمال؛ وصفات الكمال؛ ونعوت الجلال، حيث

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٨٤.
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٨٦.
(٣) سورة الفاتحة: الآيات ٢ ــ ٤.
(٤) الفوائد ص٢٧.

قال: (القرآن كلام الله، وقد تجلَّى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلَّى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلَّى في صفات الجمال والكمال؛ وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدالُّ على كمال الذات، فيستنفد حبُّه من قلب العبد قوةَ الحبِّ كلِّها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغاً إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يُعلِّق تلك المحبة به: أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كلَّ الإباء، كما قيل[1]:

يُرادُ من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل[2].

فتبقى المحبة له طبعاً لا تكلُّفاً، وإذا تجلَّى بصفات الرحمة والبرِّ واللطف والإحسان: انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله وقوي طمعه، وسار إلى ربِّه؛ وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء: جدَّ في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغل غلَّق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصَّر في البذر.

---

(١) القائل هو: أبو الطيب المتنبي، يمدح سيف الدولة أبا الحسن علي بن عبد الله العدوي، ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود من الأسر.
انظر: ديوان أبي الطيب المتنبي ٣/ ٢٢.

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في مواطن من كتبه ولم يعزه لقائل.
انظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٦١٧، الداء والدواء ص٢٨٦، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٣٧، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٤، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص١٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٣٢٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤٦٨، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٦.

وإذا تجلَّى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة: انقمعت النفس الأمارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المُحرَّمات، وانقبضت أعنَّة رعوناتها، فأحضرت المطية حظَّها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلَّى بصفات الأمر والنهي؛ والعهد والوصية؛ وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع: انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها والتواصي بها، وذكرها وتذكُّرها، والتصديق بالخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنهي.

وإذا تجلَّى بصفة السمع والبصر والعلم: انبعث من العبد قوة الحياء، فيستحي من ربِّه أن يراه على ما يكره؛ أو يسمع منه ما يكره؛ أو يُخفي في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونةٌ بميزان الشرع؛ غير مهملةٍ ولا مرسلةٍ تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلَّى بصفات الكفاية والحسب؛ والقيام بمصالح العباد وسَوْقِ أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيَّته الخاصَّة لهم: انبعثت من العبد قوة التوكُّل عليه والتفويض إليه والرضا به؛ وبكلِّ ما يُجريه على عبده ويُقيمه مما يرضى به هو ــ سبحانه ــ .

والتوكُّل: معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلَّى بصفات العزِّ والكبرياء: أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذُّلِّ لعظمته والانكسار لعِزَّته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحِدَّته.

وجماع ذلك: أنه ــ سبحانه ــ يتعرَّف إلى العبد بصفات إلـٰهيته تارة؛ وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلـٰهية: المحبة الخاصة والشوق إلى لقائه والأنس والفرح به والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه والتودُّد إليه بطاعته، واللَّهج بذكره والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همَّه دون ما سواه.

ويوجب له شهود صفات الربوبية: التوكُّل عليه والافتقار إليه والاستعانة به، والذلّ والخضوع والانكسار له.

وكمال ذلك: أن يشهد ربوبيته فى إلـٰهيته؛ وإلـٰهيته في ربوبيته؛ وحمده في ملكه؛ وعِزَّه في عفوه؛ وحكمته في قضائه وقدره؛ ونعمته في بلائه؛ وعطاءه في منعه؛ وبِرَّه ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته؛ وعدله في انتقامه؛ وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه؛ وعِزَّه في رضاه وغضبه؛ وحلمه في إمهاله؛ وكرمه فى إقباله؛ وغناه في إعراضه.

وأنتَ إذا تدبَّرتَ القرآنَ ــ وأجرتَه من التحريف؛ وأن تقضي عليه بآراء المُتكلِّمين وأفكار المُتكلِّفين ــ : أشهدكَ ملكاً قيوماً فوق سماواته على عرشه، يُدبِّر أمر عباده، يأمر وينهى، ويُرسل الرسلَ ويُنزل الكتبَ، ويرضى ويغضب، ويُثيب ويُعاقب، ويُعطي ويمنع، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السرَّ والعلانية، فعَّال لما يُريد، موصوفٌ بكلِّ كمالٍ، مُنزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ، لا تتحرك ذرةٌ فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقةٌ إلا بعلمه، ولا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه وليٌّ ولا شفيعٌ)[١].

---

(١) الفوائد ص٨٠ ــ ٨٢.

ولـه ــ رحمـه الله تعـالـى ــ نظيـر هـذا الكـلام المتعلِّق بتعـريـف الله ــ سبحانه وتعالى ــ نفسه لعباده بأسمائه وصفاته بواسطة كتابه الكريم في مواضع متفرقةٍ من كتبه[١].

ثـانيـاً: تقـريـره أنَّ الله تعـالـى عـرَّف نفسـه لعبـاده علـى ألسنـة رسلـه ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ ؛ الذين دارت دعوتهم على التعريف بالربِّ تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، كما قال: (إنَّ دعوة الرسل تدور على ثلاثة أمورٍ: تعريف الربِّ المدعوِّ إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله.

الأصل الثاني: معرفة الطريق الموصلة إليه؛ وهي ذكره وشكره وعبادته، التي تجمع كمال حبِّه وكمال الذلِّ له.

الأصل الثالث: تعريفهم ما لهم بعد الوصول إليه في دار كرامته من النعيـم الـذي أفضلـه وأجلـه: رضـاه عنهـم، وتجلِّيـه لهـم، ورؤيتهـم وجهـه الأعلى، وسلامه عليهم، وتكليمه إياهم، ومحاضرتهم في مجالسهم)[٢].

كما قرر ــ رحمه الله تعالى ــ ما تضمنته دعوة خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين من تعريف الناس بأسماء الله وصفاته وأفعاله تعريفاً شفى به داء العليل؛ وأروى به رمق الغليل، (فإن كلماته الجوامع النوافع في هذا الباب ــ وفي غيره ــ : كفت وشفت؛ وجمعت وفرَّقت؛ وأوضحت وبيَّنت، وحلَّت محل التفسير والبيان لما تضمنه القرآن)[٣]، فقال: (إن رسالـته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عبَّاد أوثان؛ وعبَّاد صلبان؛ وعبَّـاد نيـران؛ وعبَّـاد الكـواكـب؛ ومغضـوب عليهـم ــ قـد بـاؤوا بغضـب

---

(١) انظر: الفوائد ص٢٨؛ ٢٠٠ ــ ٢٠١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٨٥ ــ ٤٨٧.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٨٩.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤٦.

من الله ــ ؛ وحيران لا يعرف رباً يعبده؛ ولا بماذا يعبده؟ والناس يأكل بعضهم بعضاً، من استحسن شيئاً: دعا إليه؛ وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضعُ قدمٍ مُشرقٌ بنور الرسالة.

وقد نظر الله ــ سبحانه ــ حينئذ إلى أهل الأرض فمقتهم ــ عربهم وعجمهم ــ ؛ إلا بقايا على آثارٍ من دينٍ صحيحٍ، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظُلَم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة، وعَلَّم به من الجهالة، وكَثَّر به بعد القلَّة، وأَعَزَّ به بعد الذِّلَّة، وأغنى به بعد العَيْلَة، وفتح به أعيناً عُمْياً؛ وآذاناً صُمَّاً وقلوباً غُلْفاً.

فعَرَّف الناس ربَّهم ومعبودهم غاية ما يُمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ وأعاد، واختصر وأطنب في ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله، حتى تجلَّت معرفته ــ سبحانه ــ في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت[1] سحائب الشكِّ والرَّيْب عنها؛ كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف لا إلى من قبله ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كلٍّ من تكلَّم في هذا الباب، ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[2])[3].

فهذان هما الطريقان الشرعيان اللذان يسرَّ الله تعالى بهما للعباد معرفته؛ ومعرفة أسمائه وصفاته؛ وهما الوحي المنزل؛ والنبي المرسل،

---

(١) انجاب الشيء ينجاب انجياباً: إذا انشقَّ وانكشف.

انظر: جمهرة اللغة لابن دريد ٢/١٠١٧، الصحاح للجوهري ١/١٠٤، لسان العرب لابن منظور ١/٢٨٥ [مادة: جوب].

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٥١.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٥ ــ ٢٨٦.

وهذا من رحمة الله بعباده؛ وتيسيره لهم سبل المعرفة، وإلا فلو خلَّى الله تعالى العباد على ما فُطروا عليه؛ وهُدوا إليه من التعرُّف عليه ـ سبحانه ـ والوصول إليه بواسطة العقول السليمة والفطر المستقيمة: لكان له ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده بذلك الحجة البالغة؛ والنعمة السابغة، لأن (الخلق مفطورون على معرفته وتوحيده)[1]، إلا أن رحمة الله تعالى بعباده اقتضت تنويع طرق المعرفة؛ واستخراجها من الدلائل الشرعية؛ والقرائن النفسية.

ثالثاً: تقريره أنَّ الله تعالى عرَّف نفسه لعباده بما أخذه عليهم من الميثاق والعهد المتضمن التعريف بنفسه المقدسة؛ وبأسمائه وصفاته، كما قال: (إذا بلغ العبدُ: أُعْطِيَ عهده الذي عهده إليه خالقه ومالكه، فإذا أخذ عهده بقوة وقبول وعزم على تنفيذ ما فيه: صلح للمراتب والمناصب التي يصلح لها الموفون بعهودهم، فإذا هزَّ نفسه عند أخذ العهد وانتخاها[2]؛ وقال: قد أُهِّلتُ لعهد ربِّي؛ فمن أولى بقبوله وفهمه وتنفيذه مني؟ فحرص أولاً على فهم عهده وتدبُّره وتعرُّفه وصايا سيِّده له، ثم وطَّن نفسه على امتثال ما في عهده والعمل به وتنفيذه حسبما تضمنه عهده)[3].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (وإذا كانت همَّته أعلى من ذلك؛ ونفسه أشرف؛ وقدره أعلى: أقبل على حفظ عهده وفهمه وتدبُّره، وعلم أن لصاحب العهد شأناً ليس كشأن غيره، فأخذ نفسه بمعرفته من نفس العهد، فوجده قد تعرَّف إليه وعرَّفه نفسه وصفاته وأسماءه وأفعاله وأحكامه، فعَرَفَ من ذلك العهد: قيوماً بنفسه؛ مقيماً لغيره، غنياً عن كلِّ ما سواه؛ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، مستو على عرشه؛ فوق جميع خلقه، يرى ويسمع، ويرضى

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٩١.

(٢) في المعجم الوسيط [٢/ ٩٤٦]: (النخوة: الحماسة، والمروءة).

(٣) الفوائد ص١٨٤ ـ ١٨٥.

ويغضب، ويُحِبُّ ويُبغض، ويُدبِّر أمر مملكته؛ وهو فوق عرشه، مُتكلِّمٌ آمرٌ ناهٍ، يُرسل رسله إلى أقطار مملكته بكلامه الذي يسمعه من يشاء من خلقه، وأنه قائمٌ بالقسط، مُجازٍ بالإحسان والإساءة، وأنه حليم غفور شكور جواد محسن، موصوفٌ بكلِّ كمالٍ؛ مُنزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وأنه لا مثل له، ويشهد حكمته في تدبير مملكته؛ وكيف يُقدِّر مقاديره بمشيئةٍ غير مُضادَّةٍ لعدله وحكمته؟

وتظاهر عنده العقل والشرع والفطرة؛ فصدَّق كلٌّ منهما صاحبيه، وفهم عن الله ــ سبحانه ــ ما وصف به نفسه في كتابه من حقائق أسمائه التي بها نزل الكتاب وبها نطق ولها أثبت وحقَّق؛ وبها تعرَّف إلى عباده حتى أقرَّت به العقول وشهدت به الفطر.

فإذا عرف بقلبه وتيقَّن صفات صاحب العهد؛ وأشرقت أنوارُها على قلبه ــ فصارت له كالمعاينة ــ ، فرأى حينئذٍ تعلُّقها بالخلق والأمر وارتباطهما بها وسريان آثارهما في العالم الحسيِّ والعالم الروحيِّ، ورأى تصرُّفها في الخلائق؛ كيف عمَّت وخصَّت؛ وقرَّبت وأبعدت؛ وأعطت ومنعت؟

فشاهد بقلبه مواقع عدله ــ سبحانه ــ وقسطه وفضله ورحمته، واجتمع له الإيمان بلزوم حجته مع نفوذ أقضيته؛ وكمال قدرته مع كمال عدله وحكمته؛ ونهاية عُلوِّه على جميع خلقه مع إحاطته ومعيَّته؛ وعظمته وجلاله وكبريائه وبطشه وانتقامه مع رحمته وبِرِّه ولطفه وجوده وعفوه وحلمه، ورأى لزوم الحجة مع قهر المقادير التي لا خروج لمخلوقٍ عنها؛ وكيف اصطحاب الصفات وتوافقها وشهادة بعضها لبعض؟ وانعطاف الحكمة التي هي نهايةٌ وغايةٌ على المقادير التي هي أولٌ وبدايةٌ، ورجوع فروعها إلى أصولها؛ ومبادئها إلى غاياتها، حتى كأنه مشاهدٌ مبادىء الحكمة

وتأسيس القضايا على وفق الحكمة والعدل والمصلحة والرحمة والإحسان؛ لا تخرج قضيةٌ عن ذلك إلى انقضاء الأكوان وانفصال الأحكام يوم الفصل بين العباد، وظهور عدله وحكمته وصدق رسله وما أخبرت به عنه لجميع الخليقة ــ إنسها وجنها؛ مؤمنها وكافرها ــ ، وحينئذ يتبين من صفات جلاله ونعوت كماله للخلق ما لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك.

حتى إن أعرف خلقه به في الدنيا يُثني عليه يومئذٍ من صفات كماله ونعوت جلاله ما لم يكن يُحسنه في الدنيا، وكما يظهر ذلك لخلقه: تظهر لهم الأسباب التي بها زاغ الزائغون وضلَّ الضالُّون وانقطع المنقطعون، فيكون الفرق بين العلم يومئذٍ بحقائق الأسماء والصفات والعلم بها في الدنيا: كالفرق بين العلم بالجنة والنار ومشاهدتهما؛ وأعظم من ذلك.

وكذلك يفهم من العهد كيف اقتضت أسماؤه وصفاته لوجود النبوة والشرائع؛ وأن لا يترك خلقه سدى؟ وكيف اقتضت ما تضمنته من الأوامر والنواهي؟ وكيف اقتضت وقوع الثواب والعقاب والمعاد؛ وأن ذلك من موجبات أسمائه وصفاته؛ بحيث يُنزَّه عما زعم أعداؤه من إنكار ذلك؟

ويرى شمول القدرة وإحاطتها بجميع الكائنات؛ حتى لا يشذَّ عنها مثقالُ ذرةٍ، ويرى أنه لو كان معه إلـٰه آخر لفسد هذا العالم؛ فكانت تفسد السماوات والأرض ومن فيهن، وأنه ــ سبحانه ــ لو جاز عليه النوم أو الموت لتدكدك هذا العالم بأسره؛ ولم يثبت طرفة عينٍ.

ويرى ذلك الإسلام والإيمان اللَّذَيْنِ تعبَّد الله بهما جميع عباده؛ كيف انبعاثهما من الصفات المقدسة؟ وكيف اقتضيا الثواب والعقاب عاجلاً وآجلاً؟

ويرى مع ذلك أنه لا يستقيم قبول هذا العهد والتزامه لمن جحد صفاته

وأنكر عُلوَّه على خلقه وتكلُّمه بكتبه وعهوده؛ كما لا يستقيم قبوله لمن أنكر حقيقة سمعه وبصره وحياته وإرادته وقوته، وأن هؤلاء هم الذين ردُّوا عهده وأَبَوْا قبوله، وأن من قبله منهم لم يقبله بجميع ما فيه، وبالله التوفيق)[1].

فهـذا تقرير حسنٌ مـن الإمام ابن قيـم الجوزيـة ـ رحمه الله تعالى ـ لإحدى الطرق الموصلة إلى معرفة الله تعالى؛ ومعرفة أسمائه وصفاته وهو: طريق الفطرة السويَّة، ثم يعقب هذا الطريق: طريق العقل المستنير بالوحي المنير؛ الموصل إلى معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، فتتظاهر عند العبد ـ الموفَّق لمعرفة الله تعالى ـ : طرق الشرع والفطرة والعقل، ويُصدِّق كلُّ طريق من هذه الطرق الثلاثة صاحبيه.

رابعاً: تقريره أن الله تعالى عرَّف نفسه لعباده بما ركبه فيهم من العقول؛ التي بها يعرفون كمال ذاته وأسمائه وصفاته، كما قال: (إن الله ـ سبحانه ـ ركب العقول في عباده ليعرفوا بها صدقه وصدق رسله، ويعرفوه بها، ويعرفوا كماله وصفاته وعظمته وجلاله وربوبيته وتوحيده؛ وأنه الإلـه الحقُّ وما سواه باطلٌ.

فهذا هو الذي أعطاهم العقل لأجله بالذات والقصد الأول، وهداهم به إلى مصالح معاشهم التي تكون عوناً لهم على ما خُلقوا لأجله وأُعطوا العقول له.

فأعظم ثمرة العقل: معرفته لخالقه وفاطره، ومعرفة صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وصدق رسله، والخضوع والذلّ والتعبُّد له)[2].

---

(١) الفوائد ص١٨٥ ـ ١٨٧.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٣٦.

فهذا تقريرٌ لطريق العقل القويم الهادي إلى صراط المعرفة المستقيم، وهذا بخلاف العقل الذي (أعرض عن النص الصريح؛ وقابله بالرأي الفاسد القبيح)[١]: فإن الطريق بينه وبين هذه المعرفة مسدودٌ، وقلبه عن التنعم بها مطرودٌ ومصدودٌ.

خامساً: تقريره أنَّ الله تعالى عرَّف نفسه لعباده بما غرسه في نفوسهم من الهمم العلية المُتطلِّعة لمعرفة أسماء الله وصفاته؛ لتزداد بمعرفتها محبة وإرادة، كما قال: (الهمَّة العليَّة لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء: تعرُّفٍ لصفةٍ من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبة وإرادة، وملاحظةٍ لمِنَّةٍ تزداد بملاحظتها شكراً وطاعة، وتذكُّرٍ لذنبٍ تزداد بتذكره توبة وخشية.

فإذا تعلَّقت الهمة بسوى هذه الثلاثة: جالت فى أودية الوساوس والخطرات)[٢].

وهذه الهمة العليَّة التي أشار إليها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : هي التي تحدو بين يدي القلب السليم؛ وتحثُّه على التعرف على أسماء الله وصفاته؛ وعلى عقل معانيها وتدبُّرها والاشتغال بها، وهو طريق آخر من الطرق الموصلة إلى معرفة الله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته؛ والتي غرسها الله تعالى في نفس العبد.

سادساً: تقريره أنَّ الله تعالى عرَّف نفسه لعباده بما أودعه فيهم من القلوب التي تعقل عنه أسماءه وصفاته وأحكامه، كما قال: (القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والأنس به لا يمكن شغله بمحبَّة الله وإرادته وحبِّه والشوق إلى لقائه ــ لا بتفريغه من تعلُّقه بغيره؛ ولا حركة

---

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٢٨٩.

(٢) الفوائد ص١١٣.

اللسان بذكره والجوارح بخدمته ــ إلا إذا فرَّغها من ذكر غيره وخدمته.

فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التي لا تنفع: لم يبق فيها موضعٌ للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه.

وسرُّ ذلك: أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن، فإذا صغى إلى غير حديث الله: لم يبق فيه إصغاءٌ ولا فهمٌ لحديثه، كما إذا مال الى غير محبة الله: لم يبق فيه ميلٌ إلى محبته، فإذا نطق القلب بغير ذكره: لم يبق فيه محلٌّ للنطق بذكره؛ كاللسان)[1].

فهذه بعض الطرق والسبل التي يسَّر الله بها لعباده معرفته؛ ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله؛ مما تضمنه كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ.

وكثرة هذه الطرق وتعدُّدها: تُوحي بأهمية هذه المعرفة؛ وأنه لا غنى للعبد عنها طرفة عين، ولو لم يبذل الله ــ سبحانه وتعالى ــ لعباده من هذه الطرق المتعددة والسبل المتنوعة إلا واحدة: لقامت على عباده حجته؛ وبانت لهم محجته، فكيف وقد نوَّع الدلالة عليها؛ وذلَّل وصولهم إليها؟

ولا بد أن يعلم العبد أن هذه الطرق المؤدية إلى معرفة الله تعالى منوطةٌ بتجرد نفسه؛ واستعداده لقبولها وتلقيها من مشكاتها، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن تجرُّد النفس يُطلعها على علومٍ ومعارفَ لا تحصل بدون التجرُّد، لكن لو تجرَّدت كلَّ التجرُّد: لم تطلع على علم الله الذي بعث به رسوله؛ وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والأمم الخالية؛ وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة؛ وتفاصيل الأمر والنهي والأسماء والصفات والأفعال؛ وغير ذلك مما لا يُعلم إلا بالوحي،

---

(١) الفوائد ص٣٨.

ولكن تجرد النفس عونٌ لها على معرفة ذلك، وتلقِّيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنغمسة في الشواغل البدنية)[1].

فمتى ما أيقن العبد بأهمية هذه المعرفة؛ وسعى في تحصيلها: فقد مُكِّنَ له حرمٌ من المعرفة آمنٌ؛ يُجبى إليه ثمرات كل شيء.

المسألة الرابعة:

تقريره ثمرة معرفة العبد لأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى.

بعد ذكر تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ للطرق المعرِّفة للعباد بربهم وأسمائه وصفاته: ناسب ذكر منثور كلامه المتضمن لذكر شجرة المعرفة الطيبة؛ التي تُؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربها، وهي ثمرات حسانٌ؛ (جديرة بأن تُثنى عليها الخناصر؛ ويُعض عليها بالنواجذ)[2].

حيث ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ في مواطن متعددة من كتبه: الثمرات التي يجنيها العبد إذا قامت شواهد المعرفة في سماوة فؤاده؛ حتى ترتفع وتشمخ في سمائه، فمن هذه الثمرات ما يناله العبد في الدار العاجلة؛ ومنها ما يُدخر له لينالها في الدار الآجلة، وهذه الثمرات (أمرٌ لا تُدركه العبارة؛ ولا قليلاً من كثيرٍ، فهذا صوتٌ لا يلج كلَّ أذنٍ؛ وصيِّبٌ لا تحيى به كلُّ أرضٍ؛ وعينٌ لا يشرب منها كلُّ واردٍ؛ وسماعٌ لا يطرب عليه كلُّ سامعٍ؛ ومائدةٌ لا يجلس عليها طفيليٌّ)[3].

---

(١) الروح ص١٠٦ ــ ١٠٧.

(٢) تهذيب مختصر سنن أبي داود ١/ ١٧.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٢٣.

فمن ثمرات هذه الدار العاجلة التي قرَّرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ :

أولاً: تقريره أن المعرفة تُوثِّق أساس إيمان العبد وتُحكم بنيانه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (من أراد عُلوَّ بنيانه: فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه؛ وشدَّة الاعتناء به، فإن عُلوَّ البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه، فالأعمال والدرجات بنيانٌ؛ وأساسها الإيمان.

ومتى كان الأساس وثيقاً: حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدَّم شيءٌ من البنيان: سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيقٍ: لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدَّم شيءٌ من الأساس: سقط البنيان؛ أو كاد.

فالعارف همَّته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس؛ فلا يلبث بنيانه أن يسقط، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾[1].

فالأساس لبناء الأعمال: كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية: حملت البدن؛ ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة: ضعف حملها للبدن؛ وكانت الآفات إليه أسرع شيءٍ.

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعَّث شيءٌ من أعالي البناء وسطحه: كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس.

وهذا الأساس أمران: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٩.

فـهـذا أوثق أساسٍ أَسَّسَ العبـد عـليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء مـا شاء)[1].

ثانياً: تقريره أن المعرفة تُورث العبد كمال قوته العلمية، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (للإنسان قوتان: قوةٌ علميةٌ نظريةٌ، وقوةٌ عمليةٌ إراديةٌ، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه: العلمية والإرادية.

واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه؛ ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي تُوصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسـه، ومعـرفـة عيـوبهـا، فبهـذه المعـارف الخمسـة يحصـل كمـال قـوتـه العلمية)[2].

ثالثاً: تقريره أنَّ المعرفة تُرسِّخ قدم العبد في مقام التوكُّل، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إنَّ التوكُّل: حالٌ مُركَّبةٌ من مجموع أمورٍ؛ لا تتمُّ حقيقة التوكُّل إلا بها، وكلٌّ أشار إلى واحدٍ من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر.

فأوَّلُ ذلك: معرفةٌ بالربِّ وصفاته؛ من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة: أول درجةٍ يضع بها العبد قدمه في مقام التوكُّل.

قال شيخنا ـ رضي الله عنه ـ : (ولذلك لا يصحُّ التوكُّل ولا يُتصوَّر من فيلسوفٍ؛ ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه: يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيـم أيضـاً مـن الجهميـة[3] النفـاة لصفـات الـربِّ ـ جـلَّ جـلالـه ـ ،

---

(١) الفوائد ص١٧٥.

(٢) الفوائد ص٢٦ ـ ٢٧.

(٣) الجهمية: اسم يُطلق على معنى خاص ومعنى عام، أما إطلاقه على المعنى الخاص: فهو اسم يُطلق على كلِّ من انتسب إلى معتقد جهم بن صفوان الذي تلقَّاه عن الجعد بن درهم؛ عن أبان بن سمعان؛ عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم =

ولا يستقيم التوكُّل إلا من أهل الإثبات)[1].

فأيُّ توكُّلٍ لمن يعتقد أنَّ الله لا يعلم جزئيات العالم ــ سفليه وعلويه ــ ؛ ولا هو فاعل باختياره؛ ولا له إرادةٌ ومشيئةٌ؛ ولا يقوم به صفةٌ؟ فكلُّ من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف: كان توكُّله أصحَّ وأقوى،

= اليهودي ــ الذي سحر النبي ﷺ ــ ، والذي يقوم على نفي جميع أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله.

وأما إطلاقه على المعنى العام: فهو اسم يُطلق على كلِّ من اتبع الجهمية في معتقدهم في باب الأسماء والصفات كالمعتزلة، وعلى كلِّ من ورث هذا المعتقد من المعتزلة كالأشاعرة.

وفي بيان متابعة المعتزلة للجهمية في مذهبهم في باب أسماء الله تعالى وصفاته: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في [الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/ ١٦١ ــ ١٦٢]: (وهذا أول ما ابتدعه في الإسلام: الجهمية، وإنما ابتدعوه بعد انقراض عصر الصحابة وأكابر التابعين لهم بإحسان، وكان مُقدَّمهم رجلٌ يقال له: الجهم بن صفوان، فنُسِبَتْ الجهمية إليه، ونفوا الأسماء والصفات، واتبعتهم المعتزلة وغيرهم؛ فنفوا الصفات دون الأسماء).

وفي بيان وراثة الأشاعرةِ المعتزلةَ وأشياخهم الجهمية في مذهبهم في باب أسماء الله تعالى وصفاته: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في [نقض تأسيس الجهمية ١/ ٢٥٧ ــ ٢٥٨]: (أما المعتزلة: فطريقتهم هي طريقة الأعراض؛ هم أهل هذه الطريقة وأشهر الطوائف بها، وعنهم تلقاها) أي: أبا الحسن الأشعريَّ (من المعتزلة، وبمثل هذه الطريقة ولوازمها كثر ذم السلف والأئمة لهم) أي: للأشاعرة (فيما ذمُّوه من الكلام ومن الجهمية، فإنهم من أشهر الطوائف بهذا الكلام المبني على هذه الطريقة ــ طريقة الأعراض والجواهر ــ ومذهب الجهمية الذي هو نفي الصفات، إذ البدع المضافة إلى الأشعرية: هي تعلُّماً من أصولهم، وبذلك نعتهم من نعتهم من أهل الحديث والفقهاء والصوفية والفلاسفة).

(١) لم أقف عليه.

والله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم)[١].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (التوكُّل من أعمِّ المقامات تعلُّقاً بالأسماء الحسنى، فإن له تعلُّقاً خاصاً بعامَّة أسماء الأفعال وأسماء الصفات، فله تعلُّقٌ باسم الغفار والتواب والعفوِّ والرؤوف والرحيم، وتعلُّقٌ باسم الفتاح والوهاب والرزَّاق والمعطي والمحسن.

وتعلُّقٌ باسم المُعِزِّ المُذِلِّ الخافض الرافع المانع من جهة توكُّله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم؛ ومنعهم أسباب النصر. وتعلُّقٌ بأسماء القدرة والإرادة.

وله تعلُّقٌ عامٌّ بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسَّره من فسَّره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد: يصحُّ له مقام التوكُّل، وكلما كان بالله أعرف: كان توكُّله عليه أقوى)[٢].

رابعاً: تقريره أن المعرفة تبعث العبد على قوة الرجاء بالله؛ وحسن الظن به، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ عن الرَّجاء: (هو عبوديةٌ وتعلُّقٌ بالله من حيث اسمه: المحسن البرُّ.

فذلك التعلُّق والتعبُّد بهذا الاسم والمعرفة بالله: هو الذي أوجب للعبد الرجاء ــ من حيث يدري؛ ومن حيث لا يدري ــ.

فقوَّة الرَّجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته؛ وغلبة رحمته غضبَه، ولولا روح الرَّجاء: لعُطِّلَتْ عبودية القلب والجوارح؛ و ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[٣].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٢٣.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٣٠.

(٣) سورة الحج: الآية ٤٠.

بل لولا روح الرَّجاء لما تحرَّكت الجوارح بالطاعة؛ ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات)[١].

خامساً: تقريره أن المعرفة تُثمر للعبد اللَّذة التامَّة، والفرح والسرور، وطيب العيش والنعيم، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (اللَّذَّة التامَّة، والفرح والسرور، وطيب العيش والنعيم؛ إنما هو في معرفة الله وتوحيده، والأُنس به، والشوق إلى لقائه، واجتماع القلب والهمَّة عليه، فإنَّ أنكد العيش: عيشُ من قلبُه مُشتَّتٌ؛ وهمُّه مُفرَّقٌ، فليس لقلبه مستقرٌّ يستقرُّ عنده؛ ولا حبيبٌ يأوي إليه، كما أفصح القائل عن ذلك بقوله:

وما ذاق طعم العيش من لم يكن له ... حبيــبٌ إليــه يطمئــنُّ ويسكــن[٢].

فالعيش الطيِّب؛ والحياة النافعة؛ وقرَّة العين: في السكون والطمأنينة إلى الحبيب الأوَّل، ولو تنقَّل القلب في المحبوبات كلِّها لم يسكن ولم يطمئن ولم تقرَّ عينه حتى يطمئن إلى إلهه وربِّه ووليِّه؛ الذي ليس له من دونه وليٌ ولا شفيعٌ، ولا غنى له عنه طرفة عين، كما قال القائل[٣]:

نَقِّلْ فؤادك حيث شئتَ من الهوى[٤] ... مــا الـحــبُّ إلا للـحـبـيــب الأوَّلِ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٣ ــ ٤٤.

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في مواطن من كتبه ولم يعزه لقائل، ولم أقف عليه.
انظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ١٩١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٢٦.

(٣) هو: أبو تمام حبيب بن أوس الطائي.

(٤) ضمَّن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ صدر هذا البيت ومعناه في نونيته فقال:

(نقل فؤادك حيث شئتَ من الهوى ... واختــر لنفســك أحســن الإنســانِ=

كـم منـزلٍ فـي الأرض يـألفـه الفتـى وحنينـــه أبـــداً لأوّلِ منـــزلِ[1].

فاحرص على أن يكون همُّك واحداً؛ وأن يكون هو الله وحده، فهذا غاية سعادة العبد، وصاحب هذا الحال في جنةٍ معجَّلةٍ قبل جنة الآخرة، وفي نعيـمٍ عاجلٍ، كمـا قال بعض الواجدين[2]: (إنـه ليمرُّ بالقلب أوقاتٌ أقول:

= فـالقلـب مُضطـرٌّ إلـى محبـوبـه الـ أعلـــى فـــلا يُغنيـــه حـــبٌّ ثـــانِ
وصـــلاحـــه وفـــلاحـــه ونعيمـــه تجـــريـــد هـــذا الحـبِّ للـــرحمٰـــنِ
فـــإذا تخلَّـــى منـــه أصبـــح حـــائـــراً ويعـــود فـــي ذا الكـــون ذا هيمـــانِ).
انظـر: الكـافيـة الشـافيـة فـي الانتصـار للفـرقـة النـاجيـة [الأبيـات رقـم (٥٦٧٦ ـ ٥٦٧٩) ـ ص٤٠٠].

(١) ديوان أبـي تمام ٢/ ٤٤٧.
وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذين البيتين في مواطن من كتبه ولم يعزهما لقائل.
انظر: الداء والدواء ص٢٨٨ ـ ٢٨٩، الرسالة التبوكية ص١٥٣، مدارج السالكين بيـن منـازل إيـاك نعبـد وإيـاك نستعيـن ٣/ ٣٨؛ ٢٨٦؛ ٣٢٧، مفتـاح دار السعـادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٢٢؛ ٤٦٧.

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٧٠]: (الوجد: هو ما يصادف القلب؛ ويرد عليه من واردات المحبة والشوق، والإجلال والتعظيم، وتوابع ذلك).
فالواجد: هو من وجد حقيقة الإيمان؛ وذاق حلاوته؛ وخالطت بشاشتُه قلبَه، وقد أُخِذَ هذا الاسم واشتقَّ من قول النبي ﷺ: «ثلاث من كنَّ فيه: وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرء لا يُحِبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه؛ كما يكره أن يُقذف في النار» أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب حلاوة الإيمان ـ الحديث رقم (١٦) ـ ١/ ٣٠]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب بيان خصالٍ من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ـ الحديث رقم (٤٣) ـ ١/ ٦٦] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، واللفظ لمسلم.

إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيّبٍ).

وقال آخر: (إنه ليمرُّ بالقلب أوقاتٌ يرقص فيها القلب طرباً).

وقال آخر: (مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: معرفة الله ومحبته، والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه)[1].

وليس في الدنيا نعيمٌ يُشبه نعيمَ أهل الجنة إلا هذا)[2].

سادساً: تقريره أنَّ المعرفة تكسو العبد بالنور التام في الظاهر والباطن، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: في تقرير المثال الذي ضربه الله تعالى للمؤمن الذي استنار ظاهره وباطنه بمعرفة الله تعالى: (قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[3].

فالأول: هو المؤمن استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره.

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الأقوال في مواطن متعددةٍ من كتبه ــ مع زيادة في بعضها أو نقصان ــ ولم يعزها لقائليها، ولم أقف عليهم.
انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/ ١١٨؛ ٢/ ٢٨٣ ــ ٢٨٤، الداء والدواء ص١٢٣؛ ١٨٦؛ ٣٨٥، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص١٨٠ ــ ١٨١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٨٨ ــ ٤٨٩؛ ٢/ ٧٠؛ ٣/ ٢٧٠ ــ ٢٧١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٨٣ ــ ١٨٤، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٧٠.

(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٢٩ ــ ٣١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

والآخر: هو الغافل عن الله تعالى؛ المُعرض عن ذكره ومحبته.

والشأن كلُّ الشأن؛ والفلاح كلُّ الفلاح في النور، والشقاء كلُّ الشقاء في فواته.

ولهذا كان النبي ﷺ يُبالغ في سؤال ربِّه ـ تبارك وتعالى ـ حين يسأله أن يجعله في لحمه وعظامه؛ وعصبه وشعره وبشره؛ وسمعه وبصره، ومن فوقه ومن تحته؛ وعن يمينه وعن شماله؛ وخلفه وأمامه، حتى يقول: «واجعلني نوراً»[١].

فسأل ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ أن يجعل النور في ذرَّاته الظاهرة والباطنة، وأن يجعله مُحيطاً به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته وجملته نوراً)[٢].

سابعاً: تقريره أن المعرفة تملؤ قلب العبد بتعظيم الربِّ تعالى، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (على قدر المعرفة يكون تعظيم الربِّ تعالى في القلب، وأعرف الناس به: أشدُّهم له تعظيماً وإجلالاً.

وقد ذمَّ الله تعالى من لم يُعظِّمه حقَّ عظمته؛ ولا عرفه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الدعوات/ باب الدعاء إذا انتبه بالليل ـ الحديث رقم (٦٣١٦) ـ ٤/ ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨]، ومسلم في صحيحه [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ـ الحديث رقم (٧٦٣) ـ ١/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦] من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، وأوله: «اللَّهُمَّ اجعل في قلبي نوراً».

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٧٣.

حقَّ معرفته؛ ولا وصفه حقَّ صفته، وأقوالهم تدور على هذا، فقال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[1].

قال ابن عباس ومجاهد[2]: (لا ترجون لله عظمة)[3].

وقال سعيد بن جبير[4]: (ما لكم لا تُعظِّمون الله حقَّ عظمته)[5].

---

(١) سورة نوح: الآية ١٣.

(٢) هو: أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي، شيخ القراء والمفسرين، توفي وهو ساجدٌ سنة ثنتين ومائة؛ وقد نيَّف على الثمانين.
انظر في ترجمته: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ٣/ ٢٧٩ ـ ٣١٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٤٤٩ ـ ٤٥٧، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٤١ ـ ٤٢.

(٣) أخرجه ابن جرير في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٢٩/ ٩٤] عن ابن عباس ومجاهد ـ رضي الله عنهما ـ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم [رقم (١٨٩٩٣ ـ ١٨٩٩٥) ـ ١٠/ ٣٣٧٥]، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان [باب في الخوف من الله تعالى/ رقم (٧١٦) ـ ٣/ ١٠] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.
وانظر: تغليق التعليق على صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٤/ ٣٤٩، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٦/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

(٤) هو: أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الأسدي؛ الوالبي مولاهم؛ الكوفي، الحافظ المقرىء، ولد في خلافة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وكان قَتْله في شعبان سنة خمس وتسعين على يد الحجاج؛ وله بضعٌ وخمسون سنة، وكان قد دعا الله تعالى أن لا يُسلِّطه على أحد بعده؛ فعاش بعد قتله عِدَّة ليال ثم هلك.
انظر في ترجمته: أخبار القضاة لوكيع ٢/ ٤١١ ـ ٤١٢، ذكر أخبار أصبهان لأبي نعيم ١/ ٣٢٤، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٣٢١ ـ ٣٤٣.

(٥) أخرجه ابن جرير في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٢٩/ ٩٥] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

وقال الكلبيُّ[1]: (لا تخافون لله عظمة)[2].

قال البغوي[3]: (والرَّجاء: بمعنى الخوف، والوقار: العظمة؛ اسمٌ من التوقير وهو التعظيم)[4].

وقال الحسن: (لا تعرفون لله حقًّا؛ ولا تشكرون له نعمة)[5].

وقال ابن كيسان[6]: (لا ترجون في عبادة الله أن يُثيبكم على

(١) هو: أبو عبد الله إبراهيم بن خالد الكلبي؛ البغدادي، الحافظ المجتهد؛ فقيه العراق، ويعرف بأبي ثور، ولد في حدود سنة سبعين ومائة، وتوفي في صفر سنة أربعين ومائتين.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢/ ٨٠ ـ ٨٣، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢/ ٧٢ ـ ٧٦، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ٩.

(٢) قال البيهقي في [الجامع لشعب الإيمان ٣/ ١٠]: (هكذا فسَّره الكلبي فيما رواه عن أبي صالح؛ عن ابن عباس).

(٣) هو: محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، الحافظ المفسر، توفي بمر الرُّوذ ـ إحدى مدن خراسان ـ في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة، وعاش بضعاً وسبعين سنة.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩/ ٤٣٩ ـ ٤٤٣، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي ٣/ ٢١٣، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٧/ ٧٥ ـ ٨٠.

(٤) معالم التنزيل للبغوي ٨/ ٢٣١.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ١٩٦، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٦/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

(٦) هو: أبو محمد الحسن بن محمد بن أحمد بن كيسان الحربي، المعمَّر النحوي، توفي لأيام خلون من شوال سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.
انظر في ترجمته: إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ١/ ٣٥٤، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٦/ ١٣٦، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ٤/ ٢٨.

توقيركم إياه خيراً)[1] [2].

وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلَّى أحدهما عن الآخر: فسدت، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المُعظَّم: فذلك حقيقة الحمد، والله ـ سبحانه ـ أعلم)[3].

ثامناً: تقريره أنَّ المعرفة تُودع في قلب العبد خشية الله تعالى، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (قوله: ﴿فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾[4]: أي إذا اهتديتَ إليه وعرفته: خشيتَه، لأن من عرف الله: خافه، ومن لم يعرفه: لم يخفه، فخشيته تعالى مقرونةٌ بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية)[5].

تاسعاً: تقريره أنَّ المعرفة تملؤ قلب العبد بالغنى، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (إذا قَوِيَتْ موادُّ الإيمان؛ ومعرفة الله وأسمائه وصفاته؛ ومحبته والشَّوْقَ إلى لقائه في القلب: استغنى بها العبد عن كثيرٍ من الغذاء، ووجد لها قوة تزيد على قوة الغذاء الحيواني.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ١٩٦.

(٢) نقل الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الأقوال بلفظها من (معالم التنزيل) للبغوي ٨/ ٢٣١.
قال إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ في [جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٩/ ٩٥]: (وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: مالكم لا تخافون لله عظمة. وذلك أن الرَّجاء قد تضعه العرب إذا صحبه الجحد في موضع الخوف، كما قال أبو ذؤيب:
إذا لسعته النحل لم يرج لسعها   وخالفها في بيت نوب عواسل.
يعني بقوله: لم يرج: لم يخف).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٥١٦ ـ ٥١٧.

(٤) سورة النازعات: الآية ١٩.

(٥) التبيان في أقسام القرآن ص١٨٠.

فإن كثف طباعك عن هذا؛ وكنت عنه بمعزلٍ: فتأمَّل حال الفرح والسرور بتجدُّد نعمة عظيمة؛ واستغناؤك مُدَّة عن الطعام والشراب؛ مع وفور قوتك وظهور الدموية على بَشْرَتك؛ وتغذِّيه بالسُّرور والفرح، ولا نسبة لذلك إلى فرح القلب ونعيمه وابتهاج الروح بقربه تعالى ومحبته ومعرفته[1]، كما قيل[2]:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الطعام وتُلهيها عن الزادِ[3][4].

---

(١) وحقيقة هذا الاستغناء: يبين مراد رسول الله ﷺ بقوله: «إني أبيتُ يُطعمني ربي ويسقين»، كما في حديث النهي عن الوصال؛ المخرج في صحيح البخاري: [كتاب الصوم/ باب التنكيل لمن أكثر الوصال ــ الحديث رقم (١٩٦٦) ــ ٢/ ٥٨٤]، وصحيح مسلم: [كتاب الصيام/ باب النهي عن الوصال ــ الحديث رقم (١١٠٣) ــ ٢/ ٧٧٤ ــ ٧٧٥] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ .
وانظر: الداء والدواء ص٣٠٣ ــ ٣٠٤، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٢ ــ ٣٣، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤٦٨.

(٢) القائل هو: أبو سليمان إدريس بن أبي حفصة سليمان الأموي، قاله في إسحاق بن إبراهيم المصعبي، وقبله:
لما أتتك وقد كلت منازعة دانى الرضا بين أيديها بإقياد
لها أمامك نور تستضيء به ومن رجائك في أعقابها حاد
انظر: ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١/ ٦٣، الوافي بالوفيات للصفدي ٨/ ٣١٥.

(٣) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في مواطن من كتبه ولم يعزه لقائل، ويليه:
لها بوجهك نورٌ تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شكت من كلال السير أوعدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد
انظر: الداء والدواء ص٣٠٤، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨٩، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٣.

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص٤٨١.

عاشراً: تقريره أنَّ المعرفة تزرع في نفس العبد محبة الله؛ والفرح به، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن اللَّذَّة والفرح تابعةٌ للمحبة في الكمال والقوة، والمحبة تابعةٌ لمعرفة المُحبِّ بصفات المحبوب وجماله، فكلما كان العلم به أكمل: كانت محبته أقوى، وكلما كانت المحبة أقوى: كانت اللذة والفرح به أكمل وأتمُّ.

وإذا ثبت هذا؛ فإذا كان العباد يحصل لهم بمعرفته وذكره ورؤيته واستماع كلامه منه ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ، وهو ــ سبحانه ــ أعلم بنفسه من غيره، وكذلك كان حمده لنفسه وثناؤه على نفسه أعظم من حمد الحامدين له وثناء المثنين عليه، فإن الحمد والثناء تابعٌ للمعرفة والعلم بصفات المحمود.

ولهذا كان النبي ﷺ أعظمَ الناس حمداً لربِّه وثناء عليه؛ لما كان أعلم الخلق به، فثناء الربِّ ــ سبحانه ــ على نفسه وحمده لنفسه وتمجيده لنفسه ومحبته لنفسه ورضاه عن نفسه: فوق ما يخطر ببال الخلق؛ أو يدور في قلوبهم؛ أو تجري به ألسنتهم، كما قال النبي ﷺ: «لا أُحصي ثناء عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك»[(١)])[(٢)].

الحادي عشر: تقريره أنَّ المعرفة تثمر للعبد اليقين بقضاء الله تعالى وقدره، فيصبر على المصائب ويرضى بها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ فيما ينفع العبد: (أنفع الأشياء له على الإطلاق: طاعة ربِّه بظاهره وباطنه، وأضرُّ الأشياء عليه على الإطلاق: معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب ما يقال في الركوع والسجود ــ الحديث رقم (٤٨٦) ــ ١/ ٣٥٢] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ ، وأوله: «اللَّـهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٥٥ ــ ١٤٥٦.

وعبوديته مُخلصاً له: فكلُّ ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له، وإذا تخلَّى عن طاعته وعبوديته: فكلُّ ما هو فيه من محبوبٍ هو شرٌّ له.

فمن صحَّت له معرفة ربِّه؛ والفقه في أسمائه وصفاته: علم يقيناً أن المكروهات التي تُصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروبٌ من المصالح والمنافع التي لا يُحصيها علمُه ولا فكرتُه، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يُحِبُّ)[1].

الثاني عشر: تقريره أن المعرفة تُكسب العبد الأدب مع ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الأدب مع الله ــ تبارك وتعالى ــ : هو القيام بدينه؛ والتأدُّب بآدابه ظاهراً وباطناً، ولا يستقيم لأحدٍ قطُّ الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفتِه بأسمائه وصفاته، ومعرفتِه بدينه وشرعه وما يُحبُّ وما يكره، ونفس مُستعدَّةٍ قابلةٍ ليِّنةٍ مُتهيِّئةٍ لقبول الحقِّ ــ علماً وعملاً وحالاً ــ ، والله المستعان)[2].

الثالث عشر: تقريره أنَّ المعرفة تزرع في قلب العبد مراقبة الله تعالى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا بلغ العبد في مقام المعرفة إلى حدٍّ كأنه يُطالع ما اتَّصف به الربُّ ــ سبحانه ــ من صفات الكمال ونعوت الجلال، وأَحَسَّتْ روحه بالقرب الخاصِّ ــ الذي ليس هو كقربٍ من المحسوس ــ ؛ حتى يُشاهد رفع الحجاب بين روحه وقلبه وبين ربه، فإن حجابه هو نفسه، وقد رفع الله ــ سبحانه ــ عنه ذلك الحجاب بحوله وقوته: أفضى القلب والروح حينئذٍ إلى الربِّ؛ فصار يعبده كأنه يراه، فإذا تحقَّق بذلك وارتفع عنه حجاب النفس؛ وانقشع عنه ضبابُها ودخانُها وكشطت عنه سحبها وغيومها:

---

(١) الفوائد ص١٠٤.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٠٣.

فهنالك يُقال له:

بـدا لـك سـرٌّ طـال عنـك اكتتـامُـه ... ولاح صبـاحٌ كنـت أنـت ظـلامُـه

فأنت حجاب القلب عن سرِّ غيبهِ ... ولـولاك لـم يُطبـع عليـه ختـامُـه

فـإن غبـتَ عنـه حـلَّ فيـه وطنَّبـت ... على منكب الكشف المصون خيامُه

وجـاء حـديـثٌ لا يُمـلُّ سمـاعُـه ... شهـيٌّ إلينـا نثـره ونظـامُـه

إذا ذكـرتـه النفـسُ زال عنـاؤُهـا ... وزال عن القلب الكئيب قتامُه[1])[2].

الرابع عشر: تقريره أنَّ المعرفة تُوجب حياء العبد من ربِّه؛ والمحبة له، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (معرفة الله ــ سبحانه ــ نوعان:

معرفة إقرارٍ؛ وهي التي اشترك فيها الناس ــ البَرُّ والفاجر؛ والمطيع والعاصي ــ .

والثاني: معرفةٌ تُوجب الحياء منه والمحبة له؛ وتعلُّق القلب به والشوق إلى لقائه؛ وخشيته والإنابة إليه؛ والأنس به والفرار من الخلق إليه.

وهذه هي المعرفة الخالصة الجارية على لسان القوم، وتفاوتهم فيها لا يُحصيه إلا الذي عرَّفهم بنفسه؛ وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم، وكلٌّ أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه؛ وما كُشِفَ له منها.

وقد قال أعرف الخلق به: «لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[3]، وأخبر أنه ــ سبحانه ــ يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن.

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الأبيات في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢١٣] ولم يعزها لقائل، ولم أقف عليها.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٣٢.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

ولهذه المعرفة بابان واسعان:

باب التفكُّر والتأمُّل في آيات القرآن كلِّها؛ والفهم الخاصّ عن الله ورسوله.

والباب الثاني: التفكُّر في آياته المشهودة؛ وتأمُّل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط على خلقه.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها؛ وتفرُّده بذلك؛ وتعلُّقها بالخلق والأمر.

فيكون فقيهاً في أوامره ونواهيه؛ فقيهاً في قضائه وقدره؛ فقيهاً في أسمائه وصفاته؛ فقيهاً في الحكم الدينيِّ الشرعيِّ والحكم الكونيِّ القدريِّ، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[1])[2].

الخامس عشر: تقريره أنَّ المعرفة تُبصِّر العبد بنقائص نفسه وعيوبها؛ فيجتهد في إصلاحها وتقويمها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في أركان الكفر الأربعة: الكبر والحسد والغضب والشهوة: (منشأ هذه الأربعة من جهله بربِّه وجهله بنفسه، فإنه لو عرف ربَّه بصفات الكمال ونعوت الجلال؛ وعرف نفسه بالنقائص والآفات: لم يتكبَّر ولم يغضب لها ولم يحسد أحداً على ما أتاه الله.

فإنَّ الحسد في الحقيقة نوعٌ من معاداة الله، فإنه يكره نعمة الله على عبده؛ وقد أحبَّها الله، وأحبَّ زوالها عنه؛ والله يكره ذلك، فهو مضادٌّ لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته، ولذلك كان إبليس عدوَّه حقيقة؛ لأن ذنبه

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢١.

(٢) الفوائد ص١٩٠.

كان عن كبرٍ وحسدٍ، فقَلْعُ هاتين الصفتين بـ : معرفة الله وتوحيده؛ والرضا به وعنه؛ والإنابة إليه.

وقَلْعُ الغضب بـ : معرفة النفس؛ وأنها لا تستحقُّ أن يُغضب لها ويُنتقم لها، فإن ذلك إيثارٌ لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها، وأعظم ما تُدفع به هذه الآفة: أن يُعوِّدها أن تغضب له ـ سبحانه ـ وترضى له، فكلما دخلها شيءٌ من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها، وكذا بالعكس.

وأما الشهوة فدواؤها: صحة العلم والمعرفة بأن إعطاءها شهواتها: أعظم أسباب حرمانها إياها، ومنعها منها وحميتها: أعظم أسباب اتصالها إليها، فكلما فَتَحْتَ عليها باب الشهوات: كنتَ ساعياً في حرمانها إياها، وكلما أَغْلَقْتَ عنها ذلك الباب: كنتَ ساعياً في إيصالها إليها على أكمل الوجوه)[1].

وقد زاد ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المقام بياناً وتوضيحاً في موطنٍ آخر؛ بيَّن فيه تأويل الأثر المشهور: (من عرف نفسه عرف ربه)[2]، حيث قال

---

(١) الفوائد ص١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) أفرد هذا الأثر بالشرح: الحافظ السيوطي؛ في رسالة صغيرة جداً وسمها بـ : (القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه) ـ وهي مودعة ضمن كتاب [الحاوي للفتاوي ٢/ ٤٥١ ـ ٤٥٥] ـ قال في أولها: (إن هذا الحديث ليس بصحيح، وقد سُئِلَ عنه النوويُّ في فتاويه فقال: إنه ليس بثابت. وقال ابن تيمية: موضوعٌ. وقال الزركشي في الأحاديث المشتهرة: ذكر ابن السمعاني: أنه من كلام يحيى بن معاذ الرازي).
وانظر: موضوعات الصغاني ص٣٥، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي ص٤١٦، الدرر المنتشرة في =

في مشهد العجز والضعف: (في هذا المشهد يعرف نفسه حقًّا؛ ويعرف ربه. وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور: (من عرف نفسه عرف ربَّه).

وليس هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ؛ إنما هو أثرٌ إسرائيليٌّ بغير هذا اللفظ أيضاً: (يا إنسان اعرف نفسك: تعرف ربَّك). وفيه ثلاث تأويلات:

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف: عرف ربَّه بالقوة، ومن عرفها بالعجز: عرف ربَّه بالقدرة، ومن عرفها بالذُّلِّ: عرف ربَّه بالعزِّ، ومن عرفها بالجهل: عرف ربَّه بالعلم.

فإنَّ الله ــ سبحانه ــ استأثر بالكمال المطلق والحمد والثناء والمجد والغنى؛ والعبد فقيرٌ ناقصٌ محتاجٌ، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه: ازدادت معرفته لربِّه بأوصاف كماله.

التأويل الثاني: أنَّ من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة: عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به، فمعطي الكمال أحقُّ بالكمال، فكيف يكون العبد حيًّا متكلماً سميعاً بصيراً مريداً عالماً يفعل باختياره؛ ومن خلقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال، بل من جعل العبد متكلماً: أولى أن يكون هو متكلماً؛ ومن جعله حيًّا عليماً سميعاً بصيراً فاعلاً قادراً: أولى أن يكون كذلك، فالتأويل الأول من باب الضدِّ؛ وهذا من باب الأولوية.

والتأويل الثالث: أنَّ هذا من باب النفي، أي كما أنك لا تعرف نفسك

= الأحاديث المشتهرة للسيوطي ص١٧٣، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة للقاري ص٣٣٧، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني ٢/ ٣٤٣ ــ ٣٤٤.

ـ التي هي أقرب الأشياء إليك؛ فلا تعرف حقيقتها ولا ماهيتها ولا كيفيتها ـ ؛ فكيف تعرف ربَّك وكيفية صفاته؟)[1].

السادس عشر: تقريره أنَّ المعرفة تكسو العبد بلباس التواضع، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن التواضع يتولَّد من بين العلم بالله ـ سبحانه ـ ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله؛ ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها.

فيتولَّد من بين ذلك كلِّه خلقٌ هو التواضع؛ وهو: انكسار القلب لله؛ وخفض جناح الذلِّ والرحمة بعباده، فلا يَرى له على أحدٍ فضلاً؛ ولا يَرى له عند أحدٍ حقاً، بل يَرى الفضل للناس عليه؛ والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خُلُقٌ إنما يُعطيه الله ـ عزَّ وجلّ ـ من يُحبُّه ويُكرمه ويُقرِّبه)[2].

وأما الثمرات التي تُدَّخر للعبد في حياته الآجلة بسبب تحقيقه لهذه المعرفة: فأجلُّ مما أبصره النظر؛ أو خطر على قلب البشر، إذ أن أعظم نعيم الآخرة ولذَّته هو: النظر إلى وجه الله الكريم؛ وسماع كلامه، وذلك إنما يُنال بأعظم نعيم الدنيا ولذَّته وهو: معرفة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (أعظم نعيم الآخرة؛ ولذَّاتها: النظر الى وجه الله ـ جلَّ جلاله ـ ، وسماع كلامه، والقرب منه، كما ثبت في الصحيح ـ في حديث الرؤية ـ : «فوالله ما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه»[3]، وفي حديث آخر: «إنه إذا تجلَّى لهم ورأوه: نسوا ما

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٢) الروح ص٥٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ـ الحديث رقم (١٨١) ـ ١/ ١٦٣] من حديث صهيب الرومي ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ».

هم فيه من النعيم»[1].

وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ في دعائه: «وأسألك اللَّـهُمَّ لذَّةَ النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك»[2].

وفي كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ــ مرفوعاً[3] ــ: «كأنَّ الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن، فإذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك»[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه [المقدمة/ باب فيما أنكرت الجهمية ــ الحديث رقم (١٨٤) ــ ١/ ١١٩ ــ ١٢٠] من حديث جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ، وأوله: «بينا أهل الجنة في نعيمهم».
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن ابن ماجه: الحديث رقم (٣٣) ــ ص١٧].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٨٣٢٤) ــ ٣٠/ ٢٦٤ ــ ٢٦٥]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب المساجد/ أبواب صفة الصلاة ــ الدعاء بعد الذكر ــ الحديث رقم (١٢٢٩) ــ ٢/ ٨١ ــ ٨٢]، وفي المجتبى [كتاب السهو/ باب (٦٢) ــ الحديث رقم (١٣٠٤) ــ ٣/ ٦٢]، وأوله: «اللَّـهُمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق».
وصححه الألباني في [صحيح سنن النسائي: ١/ ٤١٨ ــ ٤١٩].

(٣) جزم الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا الموطن بأن الحديث مرفوعٌ، بينما تردَّد في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٢٩] في الحكم عليه؛ هل هو مرفوعٌ أو موقوفٌ؟ كما قال: (ذكر عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة أثراً ــ لا يحضرني الآن؛ هل هو موقوفٌ أو مرفوعٌ؟ ــ: (إذا سمع الناس القرآن يوم القيامة من الرحمن ــ عزَّ وجلّ ــ؛ فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك)، والصواب: أنه موقوفٌ ــ كما سيأتي تخريجه ــ.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة [باب قول العلماء في القرآن ومن حُفِظَ لنا عنه =

فإذا عُرِفَ هذا؛ فأعظم الأسباب التي تُحصِّل هذه اللَّذَّة: هو أعظم لذَّات الدنيا على الإطلاق، وهي لذَّة معرفته ــ سبحانه ــ ؛ ولذَّة محبته، فإن ذلك هو لذَّة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذَّاتها الفانية إليه كتفلةٍ في بحرٍ، فإن الروح والقلب والبدن إنما خُلِقَ لذلك.

فأطيب ما في الدنيا: معرفته ــ سبحانه ــ ؛ ومحبته، وألذُّ ما في الجنة: رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرَّة العيون؛ ولذَّة الأرواح؛ وبهجة القلوب؛ ونعيم الدنيا وسرورها، بل اللَّذَّة القاطعة عن ذلك تنقلب آلاماً وعَذاباً، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك، فليس الحياة الطيبة إلا بالله)[1].

وهذه الثمرات المقتطفة من شجرة المعرفة ــ والتي ذكر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى بعضها ــ : ما هي إلا محض فضل الله تعالى ومنته، (فهو المانُّ بفضله، وأهل سماواته وأهل أرضه في محض مِنَّته عليهم)[2]، فهو ــ سبحانه وتعالى ــ المتفضل على عباده بتعريفهم بنفسه المقدسة، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (الربُّ ــ تبارك اسمه؛ وتعالى جدُّه؛ ولا إله غيره ــ : هو المُنعم على الحقيقة بصنوف النِّعم التي لا يُحصيها أهل سماواته وأرضه، فإيجادهم نعمة منه، وجعلهم أحياء ناطقين نعمة منه، وإعطائهم الأسماع والأبصار والعقول نعمة منه، وإدرار الأرزاق عليهم ــ على اختلاف أنواعها وأصنافها ــ نعمة منه، وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله نعمة منه، وإجراء ذكره على ألسنتهم

= أنه قال: كلام الله ليس بمخلوق ــ رقم (١٢٣) ــ ١/ ١٤٧ ــ ١٤٨]، وهو موقوفٌ على محمد بن كعب القرظي.

(١) الداء والدواء ص ٣٥٧ ــ ٣٥٨.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢١٣.

ومحبته ومعرفته على قلوبهم نعمة منه، وحفظهم بعد إيجادهم نعمة منه، وقيامه بمصالحهم ـ دقيقها وجليلها ـ نعمة منه، وهدايتهم إلى أسباب مصالحهم ومعايشهم نعمة منه، وذكر نعمه على سبيل التفصيل لا سبيل إليه؛ ولا قدرة للبشر عليه)(١).

والعبد يستديم فضل الله تعالى ومنته عليه بشكره، لأن بالشكر: (تُجْلَب النعم؛ وتُدْفَع النقم)(٢)، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما تفضَّل على عبده بهذه العطايا: فهو قادرٌ على سلبها منه؛ وإجرائها على غيره من عباده.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى بقوله: (إن الربَّ ـ سبحانه ـ ما أَطْلَعَه) أي: ما أطلع العبد (على معرفته إلا بشواهد منه ـ سبحانه ـ ؛ وبوسائط ليست من العبد، فهو قادرٌ على قبض تلك الشواهد والوسائط؛ وعلى إجرائها على غيره، فإن الأمر كلَّه له، وتلك الوسائط لا تُوجب بنفسها شيئاً. قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾(٣).

وقال للأمة على لسانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾(٤). وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾(٥).

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٤٥.
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ١٧٨.
(٣) سورة الإسراء: الآيتان ٨٦ ـ ٨٧.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٤٦.
(٥) سورة يونس: الآية ١٦.

ويعلم العبد أن ما أخبر به الربُّ تعالى على لسان رسوله من شواهد معرفته والإيمان به: هي معالم يهتدي بها عباده إليه؛ ويعرفون بها كماله وجلاله وعظمته، فإذا تيقَّنوا صدقه ولم يشكُّوا فيه؛ وتفطنوا لآثار أسمائه وصفاته في أنفسهم وفي سواهم: انضمَّ شاهد العقل والفطرة إلى شاهد الوحي والشرع؛ فانتقلوا حينئذٍ من الخبر إلى العيان، فالعبارات معالم على الحقائق المطلوبة، والمعالم هي الأمارات التي يُعلم بها المطلوب، فإذا أوصل العارف كلَّ معنى مما تقدم ذكره على مقصوده؛ وصرف همَّته إلى مُجريه وناصبه ومصدره: اجتمع همُّه عليه؛ وتمكَّن في معرفة الذَّات التي لها صفات الكمال ونعوت الجلال)[1].

وما ذكر في هذه المسألة من ثمرات المعرفة ـ العاجلة والآجلة ـ : (قطرةٌ من بحرٍ لا ساحل له؛ فلا تستطله، فإنه كنزٌ من كنوز العلم؛ لا يُلائم كلَّ نفسٍ، ولا يقبله كلُّ محرومٍ، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾[2])[3].

وقد أسهب الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في مواضع متفرقةٍ من كتبه[4] في ذكر ثمرات هذه المعرفة وتعدادها، وذلك مما يحمل العبد على تطلُّب هذه المعرفة وتحقيقها؛ والقيام بها حتى يظفر بنيلها، فإن

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٨١ ـ ٣٨٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٥.

(٣) بدائع الفوائد ٤/ ١٤٠.

(٤) انظر: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٥٣، زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٧؛ ٢٠٣ ـ ٢٠٤، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣٠ ـ ٣٣٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣٣٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٨٢، الفوائد ص٦٢؛ ١١٢؛ ١٦٩؛ ٢١٩؛ ٢٢٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٧٢؛ ٣/ ٢٥٠؛ ٢٦٩ ـ ٢٧١؛ ٣٢٥؛ ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

أمراً (هذا شأنه: حقيقٌ بأن تنعقد عليه الخناصر؛ ويُعضُّ عليه بالنواجذ؛ ويُقبض فيه على الجمر، ولا يُؤخذ بأطراف الأنامل؛ ولا يُطلب على فَضْلَةٍ، بل يُجعل هو المطلب الأعظم، وما سواه إنما يُطلب على الفَضْلَة، والله الموفِّق، لا إلـه غيره؛ ولا رب سواه)[1].

المسألة الخامسة:

تقريره أثر فقد العبد لمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى.

وذِكْرُ الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ للثمرات الحسان التي يجنيها العبد إثر تحقيقه مراتب المعرفة: كافٍ لبيان العذاب الوبيل؛ والعناء الطويل الذي يتكبَّده العبد بسبب فقده لهذه المعرفة، إلا أنا نجده ــ رحمه الله تعالى ــ قد أبرز في مواضع متفرقةٍ من كتبه أثر فقد العبد لمعرفة الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، لأن العبد إذا (ذاق مرارة الفقد: عرف حلاوة الوجود، فإن الأشياء تتبيَّن بأضدادها)[2].

وشتان بين عبدٍ رَقِيَ في درجات نعيم المعرفة وريحانها؛ وبين عبدٍ شَقِيَ في دركات جحيم فَقْدِها وحرمانها، (وهيهات؛ أين الظلام من الضياء؟ وأين الثرى من كواكب الجوزاء؟ وأين الحرور من الظِلال؟ وأين طريقة أصحاب اليمين من طريقة أهل الشمال؟)[3].

وقد قرر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ أثرَ فَقْدِ هذه المعرفة في حياة الإنسان في مواضع متعددةٍ؛ وأن من بعض نتائج ذلك الفقد المقرَّرة ما يأتي:

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٣٥.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٩٨.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٩٠.

أولاً: تقريره أن العبد إذا فاتته معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: (فقد فاز بالحرمان، ورضي لنفسه بغاية الخسران)[1]، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (أيُّ شيءٍ عَرَفَ من لم يعرف الله ورسله؟ وأيُّ حقيقةٍ أَدْرَكَ من فاتته هذه الحقيقة؟ وأيُّ علمٍ أو عمل حَصَلَ لمن فاته العلم بالله والعمل بمرضاته؛ ومعرفة الطريق الموصلة إليه؛ وما له بعد الوصول إليه؟)[2].

ثانياً: تقريره أن الخير يترحَّل عن العبد إذا فقد هذه المعرفة وحُرِمَها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته؛ وعبادته وحده والإنابة إليه؛ والطمأنينة بذكره والأنس بقربه، ومن فَقَدَ هذه الحياة: فَقَدَ الخير كله؛ ولو تعوَّض عنها بما تعوَّض في الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة، فمِنْ كُلِّ شيء يَفُوتُ العبدَ عِوَضٌ، وإذا فاته الله لم يُعوَّض عنه شيءٌ ألبتة، وكيف يُعوَّض الفقير بالذات عن الغني بالذات؛ والعاجز بالذات عن القادر بالذات؛ والميِّت عن الحيِّ الذي لا يموت؛ والمخلوق عن الخالق؛ ومن لا وجود له ولا شيء له من ذاته ألبتة عَمَّن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته؟ وكيف يُعوَّض من لا يملك مثقال ذرةٍ عمَّن له ملك السموات والأرض؟)[3].

ثالثاً: تقريره أنَّ العبد لا يزال منقطعاً في سيره إلى الله تعالى حتى تتصل إرادته بمعرفة الله تعالى؛ وتتعلَّق به وحده لا شريك له، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (لا يزال العبد منقطعاً عن الله حتى تتصل إرادته ومحبته بوجهه الأعلى.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٩٨.
(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٩١.
(٣) الداء والدواء ص١٣٢ ــ ١٣٣.

والمراد بهذا الاتصال: أن تُفضي المحبة إليه وتتعلّق به وحده؛ فلا يحجبها شيءٌ دونه، وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فلا يَطْمِس نورَها ظلمةُ التعطيل؛ كما لا يَطْمِس نورَ المحبة ظلمةُ الشرك، وأن يتصل ذكره به ـ سبحانه ـ فيزول بين الذاكر والمذكور حجابُ الغفلة؛ والتفاته في حال الذكر إلى غير مذكوره، فحينئذٍ يتصل الذكر به ويتصل العمل بأوامره ونواهيه، فيفعل الطاعة لأنه أُمِرَ بها وأحبَّها، ويترك المناهي لكونه نُهِيَ عنها وأبغضها)[1].

فوا رحمتا لعبد حُرِمَ نعيم المعرفة وروحها وريحانها، (كيف ينقضي الزمان؛ وينفد العمر: والقلب محجوب؛ ما شمَّ لهذا رائحة؟ وخرج من الدنيا كما دخل إليها؛ وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش عيشة البهائم؛ وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزاً؛ وموته كمداً؛ ومعاده حسرة وأسفاً)[2].

وبعد ذكر هذه المسائل الخمس المتعلقة بمعرفة الله تعالى؛ التي دار كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ حول حماها: يتبين جلياً جهد هذا الإمام المشكور؛ وعمله الصالح المبرور في تقريرها، حيث أبدأ في تجليتها وأعاد، وأجاد في تقريرها وأفاد، فتراه يستفتح كتابه تارة بذكرها؛ وربما ختمه بها، وكثيراً ما يُشير إليها عند عرضه لإحدى المسائل؛ أو يُعرِّج عليها عند بيانه معنى من المعاني.

والحرُّ اللبيب يكتفي من ذلك: بإشارة إلى (لفظاتٍ تُشير إلى ما وراءها)[3]، فمن ذلك افتتاحه ـ رحمه الله تعالى ـ لإحدى مصنفاته بقوله:

---

(١) الفوائد ص٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣٨٥.

(٣) بدائع الفوائد ٣/ ١٣٥.

(الحمد لله الذي ظهر لأوليائه بنعوت جلاله، وأنار قلوبهم بمشاهدة صفات كماله، وتعرَّف إليهم بما أسداه إليهم من إنعامه وإفضاله.

فعلموا أنه الواحد الأحد الفرد الصمد؛ الذي لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به أحد من خلقه في إكثاره وإقلاله، لا يُحصي أحدٌ ثناء عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه على لسان من أكرمهم بإرساله.

الأول الذي ليس قبله شيءٌ؛ والآخر الذي ليس بعده شيءٌ؛ والظاهر الذي ليس فوقه شيءٌ؛ والباطن الذي ليس دونه شيءٌ؛ ولا يحجب المخلوق عنه تستُّره بسرباله.

الحيُّ القيوم الواحد الأحد الفرد الصمد المنفرد بالبقاء؛ وكلُّ مخلوقٍ منتهي إلى زواله.

السميع الذي يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات؛ فلا يشغله سمعٌ عن سمعٍ؛ ولا تغلطه المسائل؛ ولا يتبرَّم بإلحاح المُلحِّين في سؤاله.

البصير الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء؛ حيث كانت من سهله أو جباله، وألطف من ذلك رؤيته لتقلُّب قلب عبده ومشاهدته لاختلاف أحواله.

فإن أقبل إليه تلقَّاه؛ وإنما إقبال العبد عليه من إقباله، وإن أعرض عنه لم يكله إلى عدوِّه؛ ولم يدعه في إهماله، بل يكون أرحم به من الوالدة بولدها؛ الرفيقة به في حمله ورضاعه وفصاله، فإن تاب فهو أفرح بتوبته من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدويَّة المهلكة إذا وجدها؛ وقد تهيَّأ لموته وانقطاع أوصاله، وإن أصرَّ على الإعراض ولم

يتعرَّض لأسباب الرحمة؛ بل أصر على العصيان في إدباره وإقباله، وصالح عدوَّ الله وقاطع سيِّده فقد استحقَّ الهلاك؛ ولا يهلك على الله إلا الشقيُّ الهالك لعظيم رحمته وسعة إفضاله.

وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له إلـٰهاً واحداً أحداً فرداً صمداً جلَّ عن الأشباه والأمثال؛ وتقدس عن الأضداد والأنداد والشركاء والأشكال، لا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع؛ ولا رادَّ لحكمه ولا معقِّب لأمره: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾[1])[2].

(فليتأمَّل من يُريد نصح نفسه وسعادتها وفلاحها هذا الموضع في نفسه؛ وفي غيره)[3]، وليعلم أن المشار إليه في هذا المطلب: (قليلٌ من كثيرٍ؛ وغيضٌ من فيضٍ)[4] كلامه ـ رحمه الله تعالى ـ ، ولو ذهبتُ استقصي جميع مواضع المعرفة من كتبه[5] لطال المقام؛ وكثر الكلام، إذ

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ص١/ ٣ ـ ٤.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٨٥.

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٤١٤.

(٥) انظر: أحكام أهل الذمة ٢/ ٥٦٣، إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٥١؛ ٣/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧، إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص١٩، بدائع الفوائد ٤/ ١٣٨، التبيان في أقسام القرآن ص٩٠؛ ٤٧٢، الداء والدواء ص١٩٧؛ ٣٥٠ ـ ٣٥١، رسالة ابن القيم إلى بعض إخوانه ص٤٢ ـ ٤٥، الروح ص٤٧٥، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٢٦؛ ٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠؛ ٢٤١؛ ٣١٢؛ ٤/ ٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٨٨؛ ٩٤؛ ١١٤؛ ١٤٩؛ ١٦٥؛ ٢٨٦؛ ٢٩٠؛ ٣٢٩؛ ٣٣٠ ـ ٣٣٢؛ ٢/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦؛ ٦١٩؛ ٦٦٧ ـ ٦٦٨؛ ٦٨٠، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٨٤؛ ٣/ ٩٠٩ ـ ٩١٠؛ ٩٢١؛ ٣/ ٨١١؛ ١٠٨٢ ـ ١٠٨٤؛ ١٢٠٠ ـ =

المعرفة بحرٌ لا ساحل له، (ولكن قد فُتِحَ لك الباب، فإن دخلت رأيتَ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب)[1] أحد من الأنام، وإن لم تدخل (فرُدَّ الباب؛ وارجع بسلام)[2].

❑ ❑ ❑

= ١٢٠٦، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص٧٤، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٤٣؛ ٢٥٣ ـ ٢٥٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص١٨٥ ـ ١٨٦، الفروسية ص٨٢، الفوائد ص٢٩؛ ٣٧؛ ٧٨؛ ١٧٨؛ ٢٠٢ ـ ٢٠٣، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص١٦ ـ ١٩، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٢٨٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٣؛ ٢٤٦؛ ٢/ ٥؛ ٥٤٠؛ ٣/ ١٦ ـ ١٨؛ ٣٤ ـ ٣٥؛ ٩٧؛ ٢٢٣؛ ٢٣٣؛ ٣٧٥ ـ ٣٧٦؛ ٣٨١؛ ٣٨٣؛ ٣٨٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٢٣ ـ ١٢٤؛ ١٥٦ ـ ١٥٧؛ ٢٦٩ ـ ٢٧٠؛ ٣/ ٢٢، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥١١؛ ٥٨٧.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٧٩.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٠.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير أن توحيد الأسماء والصفات أشرف العلوم

هذا مطلب (عظيم النفع؛ لا يُلقَّاه: إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العالية)[1]، كيف لا؟ وهو يتضمن بيان شرف العلم بأسماء الله وصفاته؛ وما يُحصِّل تلقِّيه من تكميل درجات دين الإنسان؛ وترسيخ قدمه في ميدان الإيمان والإحسان، فهو أساس التوحيد؛ والعروة الوثقى التي لا انفصام لها بين الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ والعبيد، وهو أصل المعارف والعلوم؛ وبه تزكو المدارك والفهوم.

وقد نَزَلَتْ بالدلالة على فضل هذا العلم: الكتب المنزلة، وجاءت بالتنويه بشرفه: الأنبياء المرسلة، وهو أشرف ما وُهبت في تحصيله مُهج العباد؛ وبذلوا في التفقه فيه الجدَّ والاجتهاد، و (أولى ما صُرِفَتْ إليه العناية، وجَرَى المتسابقون في ميدانه إلى أفضل غاية)[2].

ولما كان الأمر إنما تشرف منزلته؛ وتعلو درجته بمتعلقه: كانت (معرفة الله بأسمائه وصفاته؛ ومعرفة ما ينبغي لجلاله وما يتعالى ويتقدَّس

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٠٥.

(٢) تهذيب مختصر سنن أبي داود ١/ ١١.

عنه؛ ومعرفة أمره ودينه)[1] هي أشرف المعارف والعلوم.

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في كتبه بتقرير شرف العلم بالله تعالى وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وبيان أنه أفضل العلوم والإدراكات؛ وأسمى المطالب والغايات، حيث جلَّى ــ رحمه الله تعالى ــ معاني هذا المطلب بأحسن دلائل التقرير وأسناها؛ وأنظر وجوه التعبير وأبهاها، واجتهد في إبراز فضل توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته، وشرف منزلته؛ وعلو درجته، فأقام (الدليل؛ وأنار السبيل، وأوضح الحجة؛ وبيَّن المحجة)[2]، فجزاه الله تعالى على ذلك خير الجزاء.

وشرف توحيد الأسماء والصفات جليٌّ لمن له عينان ناظرتان، وقدره عليٌّ لمن له أذنان واعيتان، وبيان ذلك الشرف والقدر من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ مُضمَّنٌ في المسائل الخمس الكبار ــ التي يندرج تحتها جملة من الأوجه المبينة لها ــ، وهي كالآتي:

المسألة الأولى:

تقريره شرف هذا العلم من جهة تعلُّقه بتكميل أعلى درجات الدين.

(لما كان العلم للعمل قريناً وشافعاً؛ وشرفه لشرف معلومه تابعاً: كان أشرف العلوم على الإطلاق: علم التوحيد، وأنفعها: علم أحكام أفعال العبيد[3])[4]، وكان العبد المسلم كلما ازداد معرفة بالله ــ سبحانه

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٣/ ٢٦.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٩٨.

(٣) وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في كتابه: [التبيان في أقسام القرآن ص٢٩٦ ــ ٢٩٧] إلى نكتة لطيفة وفائدة منيفة؛ وهي الاستدلال بالفقه الأكبر في باب الأسماء والصفات على الفقه الأصغر في باب الأمر والنهي.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٥.

وتعالى ـ ؛ وتفقهاً في أسمائه الحسنى وصفاته العلى: اكتملت له مراتب الدين الرضيّة؛ وترقّى في درجاته السنيّة، فتجده متنقِّلاً في خمائل الإيمان وميادينها؛ متنعِّماً في رياض الإحسان وبساتينها.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ من أوجهٍ متعددةٍ تعلُّقَ علمِ العبد بأسماء الله تعالى وصفاته بتكميل درجات الدين، وأن (من ظفر به: فقد فاز وغَنِمَ؛ ومن صُرِفَ عنه: فقد خسر وحُرِمَ، لأنه قطب السعادة الذي مدارها عليه؛ وآخية الإيمان الذي مرجعه إليه، فالوصول إلى الله تعالى وإلى رضوانه بدونه محال؛ وطلب الهدى من غيره هو عين الضلال، وكيف يوصل إلى الله من غير الطريق التي جعلها هو ـ سبحانه ـ موصلة إليه؛ ودالَّة لمن سلك فيها عليه؟ بعث رسوله بها منادياً؛ وأقامه على أعلامها داعياً؛ وإليها هادياً، فالباب عن السالك في غيرها مسدودٌ؛ وهو عن طريق هداه وسعادته مصدودٌ)[(١)].

ومن أبرز الأوجه المتضمنة للدلالة على شرف توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ وأنه أشرف العلوم؛ ـ المستفادة من كلام الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ـ ما يأتي:

أولاً: تقريره أن درجة الإحسان ـ التي هي أعلى درجات الدين ـ إنما ينالها العبد بكمال علمه بالله وأسمائه وصفاته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (مشهد الإحسان: ـ وهو مشهد المراقبة، وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه»[(٢)] ـ ، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه

---

(١) تهذيب مختصر سنن أبي داود ١/ ١١ ـ ١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ـ الحديث رقم (٥٠) ـ ١/ ٤٠ ـ ٤١]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب بيان الإيمان والإسلام =

وصفاته، حتى كأنه يرى الله ــ سبحانه وتعالى ــ فوق سمواته؛ مستوياً على عرشه، يتكلَّم بأمره ونهيه، ويُدبِّر أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه، وتُعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه.

فيشهد ذلك بقلبه، ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قيوماً حياً، سميعاً بصيراً عزيزاً حكيماً، آمراً ناهياً، يُحِبُّ ويغضب، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال العباد؛ ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾[1].

ومشهد الإحسان: أصل أعمال القلوب كلِّها، فإنه يُوجب الإجلال والتعظيم، والخشية والمحبة، والإنابة والتوكُّل، والخضوع لله ــ سبحانه ــ والذلَّ له، ويقطع الوساوس وحديث النفس، ويجمع القلب والهمَّ على الله، فحظُّ العبد من القُرْب من الله على قَدْر حظِّه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة؛ حتى يكون بين صلاة الرجلين في الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحدٌ)[2].

ثانياً: تقريره أنَّ الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته بالحقِّ المحض: هو أول درجات الإيمان، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الآيات والبراهين اليقينية والأدلة القطعية قد دلَّت على صدق الرسل؛ وأنهم لا يُخبرون عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه إلا بالحقِّ المحض. فهم صادقون فيما

= والإحسان ــ الحديث رقم (٩) ــ ١/ ٣٩] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، وانفرد مسلم بتخريجه في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ــ الحديث رقم (٨) ــ ١/ ٣٦ ــ ٣٨] من حديث عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «الإيمان: أن تؤمن بالله».

(١) سورة غافر: الآية ١٩.

(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٣٨ ــ ٣٩.

يُبلِّغونه عن الله في الطلب والخبر، وهذا أول درجات الإيمان)[1].

ثالثاً: تقريره أنَّ توحيد الله بأسمائه وصفاته: من أعظم أبواب الإيمان، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ فيما يُشاهده العباد: (إن ما يشاهدونه من مخلوقاته: شاهدٌ بما أخبرت به رسله عنه من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته. وهذا بابٌ عظيمٌ من أبواب الإيمان؛ إنما يفتحه الله على من سبقت له منه سابقة السعادة، وهذا أشرفُ علمٍ يناله العبد في هذه الدار)[2].

رابعاً: تقريره أنَّ ما أخبر الله تعالى به عن نفسه؛ أو أخبر به رسوله ﷺ عنه من أسمائه وصفاته ونعوت كماله هي أجلُّ الأخبار وأشرفها، والإيمان بها أصل الإيمان بما عداها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن أصول الإيمان خمسةٌ؛ وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

وأصول الإسلام خمسة؛ وهي: كلمة الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

فعمد أرباب التأويل[3] إلى أصول الإيمان والإسلام فهدموها

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٥٥ ــ ٨٥٦.

(٢) بدائع الفوائد ٤/ ١٣٧.

(٣) التأويل لغة: هو تفسير ما يؤول إليه الشيء، وأوَّل الكلام وتأوَّله: دبَّره وقدَّره، وأوَّله وتأوَّله: فسَّره، والتأويل: عبارة الرؤيا.
انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ١٦٢، الصحاح للجوهري ٤/ ١٦٢٧، لسان العرب لابن منظور ١١/ ٣٣ ــ ٣٥ [مادة: أول].
وأما اصطلاحاً: فهو منقسمٌ إلى تأويلٍ صحيحٍ وتأويلٍ فاسدٍ، وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة =

بالتأويل، وذلك أن معقد هذه الأصول العشرة: تصديق الرسول فيما أخبر، وطاعته فيما أمر.

فعمدوا إلى أجلِّ الأخبار ــ وهو ما أُخبر به عن الله من أسمائه وصفاته ونعوت كماله ــ فأخرجوه عن حقيقته وما وضع له.

وهذا القسم من الأخبار: أشرف أنواع الخبر، والإيمان به أصل الإيمان بما عداه، واشتمال القرآن؛ بل والكتب الإلـٰهية عليه أكثر من اشتمالها على ما عداه، وتنوُّع الدلالة بها على ثبوت مُخْبِرِه أعظم من تنوُّعها في غيره، وذلك لشرف مُتعلَّقه وعظمته وشدَّة الحاجة إلى معرفته، وكانت الطرق إلى تحصيل معرفته أكثر وأسهل وأبين من غيره، وهذا من كمال حكمة الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ وتمام نعمته وإحسانه)[1].

المسألة الثانية:

تقريره شرف هذا العلم من جهة دلالته على الإيمان بالكتب المنزلة؛ والأنبياء المرسلة.

لمَّا كان علم العبد قاصراً عن معرفة ما لله ــ تبارك وتعالى ــ من الأسماء الحسنى والصفات العلى: اقتضت رحمة الله تعالى أن أرسل إلى عباده رسله؛ وأنزل عليهم كتبه؛ ليُعرِّفوهم بربِّهم ومعبودهم.

= ١/ ١٨٧] إلى الفرق بين صحيح التأويل وفاسده بقوله: (التأويل الذي يوافق ما دلَّت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها: هو التأويل الصحيح. والتأويل الذي يخالف ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة: هو التأويل الفاسد. ولا فرق بين باب الخبر والأمر في ذلك، وكلُّ تأويلٍ وافق ما جاء به الرسول: فهو المقبول، وما خالفه: فهو المردود).

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٥.

ومن أوجه شرف هذا العلم: تضمنه للدلالة على الإيمان بالكتب المنزلة التي نزلت بشرفه؛ والأنبياء المرسلة التي جاءت بالتعريف به.

وقد تضمن كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تقرير هذا الأمر في أوجهٍ متعددةٍ؛ منها:

أولاً: تقريره أنَّ العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته هو مفتاح الدعوة الإلـٰهية؛ وزبدة الرسالات السماوية، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (اقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به مُعرِّفين؛ وإليه داعين، ولمن أجابهم مُبشِّرين؛ ولمن خالفهم مُنذرين.

وجعل مفتاح دعوتهم؛ وزبدة رسالتهم: معرفة المعبود ـ سبحانه ـ بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعها.

وإن الخوف والرجاء والمحبة والطاعة والعبودية تابعةٌ لمعرفة المرجوِّ المخوف المحبوب المطاع المعبود.

ولما كان مفتاح الدعوة الإلـٰهية: معرفة الربِّ تعالى: قال أفضل الداعين إليه ـ سبحانه ـ لمعاذ بن جبل ـ وقد أرسله إلى اليمن ـ: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة ألا إلـٰه إلا الله؛ وأن محمداً رسول الله، فإذا عرفوا الله: فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة» وذكر باقي الحديث، وهو في الصحيحين، وهذا اللفظ لمسلم[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الزكاة/ باب وجوب الزكاة ـ الحديث رقم (١٣٩٥) ـ ١/ ٤١٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ـ الحديث رقم (١٩) ـ ١/ ٥٠ ـ ٥١] من حديث عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

فأساس دعوة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ : (معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله)[1].

ثانياً: تقريره أن أهمَّ ما خُلق له الخلق؛ وأُرسلت به الرسل؛ وأُنزلت به الكتب؛ ونُصِبَتْ عليه القبلة؛ وأُسِّسَتْ عليه الملة: هو معرفة الله بأسمائه وصفاته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن الله ـ سبحانه ـ قد أخبر أنه أكمل له ـ أي: للنبي ﷺ ـ ولأمته به دينهم، وأتم عليهم به نعمته، ومحالٌ مع هذا أن يَدَعَ أهمَّ ما خُلق له الخلق؛ وأُرسلت به الرسل؛ وأُنزلت به الكتب؛ ونُصِبَتْ عليه القبلة؛ وأُسِّسَتْ عليه الملَّة ـ وهو باب الإيمان به ومعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ـ مُلتبساً مُشتبهاً حقُّه بباطله، لم يتكلَّم فيه بما هو الحقُّ؛ بل تكلَّم بما ظاهره الباطل؛ والحقُّ في إخراجه عن ظاهره.

وكيف يكون أفضل الرسل وأجلُّ الكتب غيرَ وافٍ بتعريف ذلك على أتمِّ الوجوه؛ مُبيِّنٍ له بأكمل البيان؛ مُوَضِّحٍ له غاية الإيضاح؟)[2].

ثالثاً: تقريره أنَّ باب أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله أعظم الأقسام التي اشتمل عليها القرآن الكريم وأظهرها وأكثرها وروداً فيه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ في إبطال قول القائلين: إن نصوص الوحي أدلةٌ لفظيةٌ؛ وهي لا تفيد اليقين: (الظاهر والله أعلم: أنكم تريدون أن كلام الله ورسوله لا يُستفاد منه علمٌ ولا يقينٌ في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وإثبات ملائكته وصفاتهم وأنواعهم، وإذا لم يُفد اليقينَ في ذلك ـ وهو

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٥٧.

أعظم أقسام القرآن وأظهرها وأكثرها وروداً فيه ــ فكيف يُفيد في باب المعاد والأحكام؟)[1].

وقد أبان ــ رحمه الله تعالى ــ عن هذا المعنى في غير هذا الموضع[2]، منها: ما تقدم في الوجوه العشرة التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن الكريم؛ وأن القسم الأول والثاني منها مُحِّضا بذكر توحيد الأسماء والصفات[3].

رابعاً: تقريره أنَّ أجلَّ ما في القرآن المبين؛ وأشرفه وأفضله: توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (من زعم أن أجلَّ ما فيه وأشرفه وأفضله ــ وهو قسم التوحيد المتضمن للأسماء والصفات ــ : مجازات واستعارات وتشبيهات؛ لا حقائق: ففي صدره منه أعظم حرج)[4].

خامساً: تقريره أنَّ توحيد الأسماء والصفات هو الغاية التي شمَّر إليها المُشمِّرون؛ وتنافس فيها المتنافسون؛ وجرى إليها المتسابقون، وأن الصادقين في إثباته هم أتباع إمام المثبتين: إبراهيم ــ عليه السلام ــ ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن القلب إذا كان خالياً من معرفة الحقِّ واعتقاده والتصديق به ومحبته: كان مُعَرَّضاً لاعتقاد نقيضه والتصديق به؛ لا سيَّما في الأمور الإلٰهية ــ التي هي غاية مطالب البرية، وهي أفضل العلوم وأعلاها؛ وأشرفها وأسماها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون؛

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٦٩.

(٢) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٧.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٨٤ ــ ٦٨٦.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥١٩.

وتنافس فيها المتنافسون؛ وجرى إليها المتسابقون، فإلى نحوها تمتدُّ الأعناق؛ وإليها تتَّجه القلوب الصحيحة بالأشواق ــ .

فالصادقون فيها أهل الإثبات أئمة الهدى كـ : إبراهيم ــ خليل الرحمن ــ وأهل بيته، والكاذبون فيها أهل النفي والتعطيل كـ : فرعون وقومه.

وقال تعالى في أئمة الهدى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[1].

وقال في أئمة الضلال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾[2].

فمن لم يكن فيها على طريق أئمة الهدى: كان على طريق أئمة الضلال، إذ كان ثغر[3] قلبه مفسوحاً لهم؛ يُلقون فيه أنواع الضلال، ويصدُّونهم ﴿عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[4])[5].

سادساً: تقريره أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ خصَّ بيت إبراهيم ــ عليه السلام ــ بخصائص لم يخصَّ بها أهل بيتٍ من العالمين؛ منها: مزيد العلم

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

(٢) سورة القصص: الآية ٤١.

(٣) أصل الثغر: الكسر والثلم والانفراج، ومنه أُطلق على الفرجة التي في جبلٍ أو بطنِ وادٍ أو طريقٍ مسلوكٍ: الثغر.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٨/ ٨٩، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٣٧٨ ــ ٣٧٩، لسان العرب لابن منظور ٤/ ١٠٣ [مادة: ثغر].

(٤) سورة الزخرف: الآية ٣٧.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٣٢ ــ ١١٣٣.

به وبأسمائه وصفاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (لما كان هذا البيت المبارك المُطهَّر أشرف بيوت العالم على الإطلاق: خصَّهم الله ــ سبحانه ــ منه بخصائص، منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم ــ عليه السلام ــ نبيٌّ إلا من أهل بيته)[1].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (ومنها: أنه ــ سبحانه ــ خصَّهم من العلم بما لم يخصَّ به أهل بيتٍ سواهم من العالمين، فلم يَطْرُق العالَمَ أهلُ بيتٍ أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكامه وأفعاله، وثوابه وعقابه وشرعه، ومواقع رضاه وغضبه، وملائكته ومخلوقاته منهم، فسبحان من جمع لهم علم الأولين والآخرين.

ومنها: أنه ــ سبحانه ــ خصَّهم من توحيده ومحبته، وقربه والاختصاص به بما لم يخصَّ به أهلَ بيتٍ سواهم)[2].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (وحُقَّ لأهل بيتٍ هذا بعض فضائلهم وخصائصهم أن لا تزال الألسن رطبة بالصلاة عليهم والسلام؛ والثناء والتعظيم، والقلوب ممتلئة من تعظيمهم ومحبتهم وإجلالهم.

وأن يعرف المُصَلِّي عليهم أنه لو أنفق أنفاسه كلَّها في الصلاة عليهم: ما وفَّى القليل من حقِّهم، فجزاهم الله عن بريَّته أفضل الجزاء، وزادهم في الملأ الأعلى تعظيماً وتشريفاً وتكريماً، وصلَّى الله عليهم صلاة دائمة لا انقطاع لها، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين)[3].

---

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام محمد على خير الأنام ص٤٣٨.
(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام محمد على خير الأنام ص٤٤٢.
(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام محمد على خير الأنام ص٤٤٥.

المسألة الثالثة:

تقريره شرف هذا العلم من جهة كونه الأساس الذي يقوم عليه التوحيد العلميُّ.

لمَّا كان مدار ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه على توحيد الله تعالى، وكان توحيد الله تعالى على قسمين: التوحيد العلميُّ: المتضمن إثبات صفات الكمال لله تعالى؛ وتنزيهها عما يضادها، والتوحيد العمليُّ: المتضمن عبادة الله وحده لا شريك له، وكان هذان التوحيدان هما قطب رحى القرآن وعليهما مداره: كان ذلك من أعظم الدلالة على شرف هذا العلم؛ وشرف العناية بتعلُّمه.

وقد أبرز الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في مواضع متعددةٍ الأوجهَ الدالَّة على شرف العلم من جهة كونه أحد قسمي توحيد الله تعالى، من ذلك:

أولاً: تقريره أن العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته هو أساس التوحيد العلميِّ، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (التوحيد العلميُّ أساسه: إثبات صفات الكمال للربِّ تعالى؛ ومباينته لخلقه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل)[1].

ثانياً: تقريره أن مدار ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه على التوحيد العلميِّ ـ المتضمن لأسماء الله وصفاته ـ والتوحيد العمليِّ، فهذان الأصلان هما قطب رحى القرآن وعليهما مداره، وأقرب الخلق إلى الله تعالى: أقومهم بهما علماً وعملاً، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ :

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(مدار ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه على هذين التوحيدين، وأقرب الخلق إلى الله أقومهم بهما ــ علما وعملاً ــ .

ولهذا كانت الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ أقرب الخلق إلى الله، وأقربهم إليه وسيلة: أولوا العزم، وأقربهم: الخليلان، وخاتمهم: سيد ولد آدم وأكرمهم على الله؛ لكمال توحيده وعبوديته لله.

فهذان الأصلان: هما قطب رحى القرآن؛ وعليهما مداره، وبيانهما من أهمِّ الأمور.

والله ــ سبحانه ــ بيَّنهما غاية البيان؛ بالطرق الفطرية والعقلية والنظرية والأمثال المضروبة، ونوَّع ــ سبحانه ــ الطرق في إثباتهما أكمل التنويع، بحيث صارت معرفة القلوب الصحيحة والفطر السليمة لها بمنزلة رؤية الأعين المبصرة ــ التي لا آفة بها ــ للشمس والقمر والنجوم والأرض والسماء، فذاك للبصيرة بمنزلة هذا للبصر)[١].

ثالثاً: تقريره أنَّ ملاك سعادة العبد في الدنيا؛ ونجاته في الآخرة؛ وفوزه بالجنة: إنما هو بتحقيق قسمي التوحيد: العلميِّ والعمليِّ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (ملاك السعادة والنجاة والفوز بـ : تحقيق التوحيدين اللَّذيْن عليهما مدار كتاب الله تعالى، وبتحقيقهما بعث الله ــ سبحانه وتعالى ــ رسوله ﷺ، وإليهما دعت الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ من أولهم إلى آخرهم.

أحدهما: التوحيد العلميُّ الخبريُّ الاعتقاديُّ؛ المتضمن إثبات صفات الكمال لله تعالى، وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل، وتنزيهه عن صفات النقص.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٣.

والتوحيد الثاني: عبادته وحده لا شريك له، وتجريد محبته والإخلاص له، وخوفه ورجاؤه والتوكُّل عليه، والرضى به رباً وإلهاً وولياً، وأن لا يجعل له عدلاً في شيءٍ من الأشياء.

وقد جمع ـ سبحانه وتعالى ـ هذين النوعين من التوحيد في سورتَيْ الإخلاص؛ وهما: سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]؛ المتضمن للتوحيد العمليِّ الإراديِّ، وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2]؛ المتضمنة للتوحيد العلميِّ الخبريِّ.

فسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: فيها بيان ما يجب لله تعالى من صفات الكمال، وبيان ما يجب تنزيهه من النقائص والأمثال.

وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فيها إيجاب عبادته وحده لا شريك له، والتبرؤ من عبادة كلِّ ما سواه، ولا يتمُّ أحد التوحيدين إلا بالآخر.

ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في: سنة الفجر[3]، والوتر[4] ـ اللَّتين هما فاتحة العمل وخاتمته ـ، ليكون مبدأ النهار

---

(١) سورة الكافرون: الآية ١.

(٢) سورة الإخلاص: الآية ١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب استحباب ركعتي سنة الفجر ـ الحديث رقم (٧٢٦) ـ ١/ ٥٠٢] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر».

(٤) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٥٣٥٤ ـ ١٥٣٥٩) ـ ٢٤/ ٧٢ ـ ٧٦]، وأبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب ما يقرأ في الوتر ـ الحديث رقم (١٤٢٣) ـ ٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣] من حديث عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي ـ رضي الله عنه ـ، والترمذي في جامعه [أبواب الوتر/ باب ما جاء ما يقرأ في الوتر ـ الحديث رقم (٤٦٢ ـ ٤٦٣) ـ ١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨] من حديث عبد الله بن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ، والنسائي في سننه [كتاب قيام الليل وتطوع =

توحيداً؛ وخاتمته توحيداً[1].

فالتوحيد العلميُّ الخبريُّ له ضِدَّان: التعطيل؛ والتشبيه والتمثيل، فمن نفى صفات الربِّ ـ عزَّ وجلّ ـ وعطلَّها: كَذَّب تعطيلُه توحيدَه، ومن شبَّهه بخلقه ومثلَّه بهم: كَذَّب تشبيهُه وتمثيلُه توحيدَه.

والتوحيد الإراديُّ العمليُّ له ضِدَّان: الإعراض عن محبته والإنابة إليه والتوكُّل عليه؛ والإشراك به في ذلك واتخاذ أوليائه شفعاء من دونه.

وقد جمع ـ سبحانه وتعالى ـ بين التوحيدين في غير موضع من القرآن، فمنها: قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢ ﴾[2].

= النهار/ باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أبـي بن كعب في الوتر؛ وذكر الاختلاف على أبـي إسحاق في حديث سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في الوتر ـ الحديث رقم (١٦٩٨ ـ ١٧٠٢) ـ ٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٣] من حديث أبـي بن كعب وعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، وابن ماجه في سننه [كتاب إقامة الصلاة/ باب ما جاء فيما يقرأ في الوتر ـ الحديث رقم (١١٧١ ـ ١١٧٣) ـ ٢/ ٤٦ ـ ٤٧] من حديث أبـي بن كعب وعبد الله بن عباس وعائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وأوله: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر». وصححه الألباني في [صحيح سنن أبـي داود ١/ ٣٩٢]

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٣١٦]: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل؛ والوتر خاتمته، ولذلك كان النبـي ﷺ يصلي سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص؛ وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل؛ وتوحيد المعرفة والإرادة؛ وتوحيد الاعتقاد والقصد. انتهى).

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٢١ ـ ٢٢.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[1].

ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾[2])[3].

وله ــ رحمه الله تعالى ــ نظير هذه المباني؛ الموضحة لهذه المعاني في غير هذا الموطن[4]، كما أنه قد أحكم نظمها وقرَّب فهمها في نونيته؛ فقال:

(توحيدُه نوعان علميٌّ وقصـ ... ـديٌّ كما قد جُرِّد النوعانِ
في سورة الإخلاص مع تال لنَصْـ ... ـر الله قل يا أيُّها ببيانِ
ولذاك قد شُرِعَا بسنَّة فجرنا ... وكذاك سنَّةُ مغربٍ طرفانِ
فيكون مُفْتَتَحُ النهار وخَتْمُه ... تجريدُك التوحيدَ للديَّانِ

(١) سورة غافر: الآيات ٦١ ــ ٦٥.
(٢) سورة السجدة: الآيات ٤ ــ ٦.
(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٩٣ ــ ٩٥.
(٤) انظر: بدائع الفوائد ١/ ١٢٥ ــ ١٢٦، زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٣١٦ ــ ٣١٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٦٨ ــ ٤٦٩.

وكـذاك قـد شُـرِعَـا بخـاتـم وِتْـرِنـا | خَتْمـاً لسَعْـي الليـلِ بـالآذانِ
وكـذاك قـد شُـرِعَـا بـركعتـي الطَّـوا | ف وذاك تحقيـقٌ لهـذا الشـانِ
فهمـا إذاً أَخَـوَان مُصْطَحِبَـان لا | يتفـارقـان وليـس ينفصـلانِ
فمُعَطِّـلُ الأوصـاف ذو شِـرْكٍ كـذا | ذو الشِّـرك فهـو معطـلُ الـرحمـنِ
أو بعض أوصاف الكمال له فحَقِّـ | ـق ذا ولا تُسْـرِعِ إلـى النُّكْـرانِ)[1].

المسألة الرابعة:

تقريره شرف هذا العلم من جهة الكمال الذي يلحق العبد بتعلُّمه.

إنَّ تعلُّم العبد لهذا العلم الشريف: يورثه القدر المنيف، ويُكسبه من الكمال بقدر عنايته بتحصيله والتفقه فيه، وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بذكر الأوجه المتضمنة للكمال الذي يكتسبه العبد؛ ويحظى به بسبب تفقهه في باب توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومن ضمن الأوجه المنتقاة من كلامه ـ رحمه الله تعالى ـ ما يأتي:

أولاً: تقريره أنَّ العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته: هو أقرب الطرق إلى تحصيل أعظم اللَّذَّات؛ وهو النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن اللَّذَّة بالمحبوب تَضْعُفُ وتَقْوَى بحسب قوَّة الحبِّ وضعفه، فكلما كان الحبُّ أقوى: كانت اللَّذَّة أعظم.

ولهذا تعظم لذَّة الظمآن بشرب الماء البارد بحسب شِدَّة طلبه للماء؛ وكذلك الجائع، وكذلك من أحبَّ شيئاً: كانت لذَّته على قدر حبِّه إياه.

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٤٧٦٤ ـ ٤٧٧٢) ـ ص٣٠٣].

والحبُّ تابعٌ للعلم بالمحبوب؛ ومعرفة جماله الظاهر والباطن، فلذَّة النظر إلى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وإرادته، وذلك بحسب العلم به وبصفات كماله، فإذاً العلم: هو أقرب الطرق إلى أعظم اللّذّات)[1].

ثانياً: تقريره أنَّ العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته إنما يُعنى به: الراسخون في العلم؛ لأنه أشرف العلوم على الإطلاق، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (قال الترمذيُّ: حدثنا محمد بن بشار[2]؛ حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار[3]؛ حدثنا أبو نعامة[4]؛ عن أبي عثمان[5]؛

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣١٣.

(٢) هو: أبو بكر محمد بن بشار بن عثمان العبدي البصري، وكان يلقب ببندار وهو الحافظ، وكان حائكاً، ولد سنة سبع وستين ومائة، وتوفي في رجب سنة ثنتين وخمسين ومائتين.
انظر في ترجمته: الكنى والأسماء لمسلم بن الحجاج ١/ ١٣٤، تاريخ الثقات للعجلي ص٤٠١، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٤/ ٥١١ ـ ٥١٨.

(٣) هو: أبو محمد؛ ويقال: أبو عبد الله مرحوم بن عبد العزيز بن مهران العطار القرشي الأموي البصري من موالى آل معاوية، ولد سنة ثلاث ومائة، وتوفي سنة ثمان وثمانين ومائة.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٤٣٦، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٧/ ٣٦٦ ـ ٣٧٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٣٣٠ ـ ٣٣٢.

(٤) هو: عبد ربه السعدي البصري.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/ ٤١، الثقات لابن حبان ٧/ ١٥٥، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٣٤/ ٣٤٩.

(٥) هو: عبد الرحمن بن مل بن عمرو النهدي الكوفي، أدرك الجاهلية وأسلم على عهد النبي ﷺ ولم يلقه، وتوفي سنة مائة. =

عن أبـي سعيد[1] قال: خرج معاوية إلى المسجد فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ــ عزَّ وجلّ ــ . قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ حديثاً عنه مني، إن رسول الله ﷺ خرج على حلقةٍ من أصحابه؛ قال: «ما يُجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام؛ ومنَّ علينا بك. قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، إنه أتاني جبريل فأخبرني: أن الله تعالى يُباهي بكم الملائكة»[2].

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب؛ لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأبو نعامة السعدي اسمه: عمرو بن عيسى[3]، وأبو عثمان النهدي اسمه: عبد الرحمن بن مل.

فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه؛ ويُثنون عليه بذلك، ويذكرون حسن الإسلام؛ ويعترفون لله بالفضل العظيم إذ هداهم له؛ ومنَّ عليهم برسوله، وهذا أشرف علمٍ على الإطلاق؛ ولا يُعنى به إلا الراسخون في العلم.

= انظر في ترجمته: الكنى والأسماء لمسلم بن الحجاج ١/ ٥٤٢، تاريخ الثقات للعجلي ص٥٠٥، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٧/ ٤٢٤ ــ ٤٣٠.

(١) هو: سعد بن مالك بن سنان الخدري ــ رضي الله عنه ــ .

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله عزَّ وجلّ ما لهم من الفضل ــ الحديث رقم (٣٣٧٩) ــ ٥/ ٣٩٠ ــ ٣٩١].

وصححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي ٣/ ٣٨٧].

(٣) قال المزي في [تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ٨/ ٤٤٠]: (كذا قال؛ وهو وهم، إنما هو عبد ربه).

فإنه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله؛ ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به، وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يُباهي الله بهم الملائكة.

وقد بشَّر النبي ﷺ الرجلَ الذي كان يُحِبُّ سورة الإخلاص ـ وقال: أُحبُّها لأنها صفةُ الرحمن عزَّ وجلّ ـ ؛ فقال: «حبُّك إياها أدخلك الجنة»[1]. وفي لفظ آخر: «أخبروه أن الله يُحِبُّه»[2].

فدلَّ على أن من أحبَّ صفات الله: أحبَّه الله؛ وأدخله الجنة)[3].

ثالثاً: تقريره أنَّ كمال العبد بالعلم، وأفضل العلم: العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (كمال العبد بحسب هاتين القوتين: العلم والحبِّ، وأفضل العلم: العلم بالله، وأعلى الحبِّ: الحبُّ له، وأكمل اللَّذَّة بحسبهما، والله المستعان)[4].

ويزيد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المقام بياناً وبرهاناً بقوله في موطن آخر: (إن الكمال الانساني في ثلاثة أمور: علوم يعرفها؛ وأعمال يعمل بها؛ وأحوال تُرَتَّبُ له على علومه وأعماله.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٢٤٣٢) ـ ١٩/ ٤٢١]، والترمذي في جامعه [أبواب فضائل القرآن/ باب ما جاء في سورة الإخلاص ـ الحديث رقم (٢٩٠١) ـ ٥/ ٢٤ ـ ٢٦] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.
وحسنه الألباني في [صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٦٠].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ـ الحديث رقم (٧٣٧٥) ـ ٥/ ٢٣٠٢]، ومسلم في صحيحه [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ـ الحديث رقم (٨١٣) ـ ١/ ٥٥٧] من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢.

(٤) الفوائد ص٦٢.

وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ والعمل بمرضاته؛ وانجذاب القلب إليه بالحبِّ والخوف والرجاء، فهذا أشرف ما في الدنيا، وجزاؤه أشرف ما في الآخرة.

وأجلُّ المقاصد: معرفة الله ومحبته؛ والأنس بقربه والشوق إلى لقائه؛ والتنعُّم بذكره، وهذا أجلُّ سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التى تُطلب لِذَاتِها، وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء؛ وفارق الدنيا ودخل الآخرة، وإلا فهو في الدنيا؛ وإن شعر بذلك بعض الشعور؛ فليس شعوره به كاملاً للمعارضات التي عليه؛ والمحن التي امتحن بها، وإلا فليست السعادة في الحقيقة سوى ذلك.

وكلُّ العلوم والمعارف تبعٌ لهذه المعرفة؛ مرادةٌ لأجلها، وتفاوت العلوم في فضلها بحسب إفضائها إلى هذه المعرفة وبُعْدِها، فكلُّ علمٍ كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته: فهو أعلى مما دونه، وكذلك حال القلب؛ فكلُّ حالٍ كان أقرب إلى المقصود الذى خُلِقَ له: فهو أشرف مما دونه، وكذلك الأعمال؛ فكلُّ عملٍ كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود: كان أفضل من غيره.

ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال؛ لقرب إفضائها إلى المقصود؛ وهكذا يجب أن يكون، فإنه كلَّما كان الشيء أقرب إلى الغاية: كان أفضل من البعيد عنها، فالعملُ المُعَدُّ للقلب؛ المُهَيَّأُ له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك، وإذا اشتركت عِدَّة أعمال في هذا الإفضاء؛ فأفضلها: أقربها إلى هذا المفضي، ولهذا اشتركت الطاعات في هذا الإفضاء؛ فكانت مطلوبة لله، واشتركت المعاصي في حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية؛ فكانت منهياً عنها، وتأثير

الطاعات والمعاصي بحسب درجاتها)[1].

رابعاً: تقريره أنَّ العلم بأسماء الله وصفاته: هو العلم الذي يُكرم الله تعالى عبده بمعرفته وتعلُّمه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن الله جلَّ ثناؤه؛ وتقدَّست أسماؤه إذا أراد أن يُكرم عبده بمعرفته؛ ويجمع قلبه على محبته: شرح صدره لقبول صفاته العلى؛ وتلقِّيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيءٌ منها: قابله بالقبول؛ وتلقاه بالرضى والتسليم؛ وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه؛ واتَّسع له صدره؛ وامتلأ به سروراً ومحبة، فعَلِمَ أنه تعريفٌ من تعريفات الله تعالى؛ تعرَّف به إليه على لسان رسوله.

فإن نزَّل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة؛ ومنزلة الشفاء أشدَّ ما كان إليه حاجة؛ فاشتدَّ بها فرحه؛ وعظم بها غناؤه؛ وقويت بها معرفته؛ واطمأنت إليها نفسه؛ وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة في ميادينها؛ وأسام عين بصيرته في رياضها وبساتينها، لتيقنه بأن شرف العلم تابعٌ لشرف معلومه، ولا معلوم أعظم وأجلَّ ممن هذه صفته، وهو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن شرفه أيضاً بحسب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح قطُّ إلى شيءٍ أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها؛ ومحبته وذكره؛ والابتهاج به وطلب الوسيلة إليه؛ والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه.

فكلما كان العبد بها أعلم: كان بالله أعرف؛ وله أطلب؛ وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر: كان بالله أجهل؛ وإليه أكره؛ ومنه أبعد، والله يُنزل العبد من نفسه حيث يُنزله العبد من نفسه)[2].

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص١٨٥ ــ ١٨٦.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص١٦ ــ ١٧.

خامساً: تقريره أنَّ شرف العلم بحسب شرف معلومه؛ وشدَّة الحاجة إليه، وليس ذلك إلا العلم بالله وأسمائه وصفاته وتوابعه، فهو العلم الذي يشرف بتعلُّمه العبد، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (العلم: نقل صورة المعلوم من الخارج؛ وإثباتها في النفس. والعمل: نقل صورة علمية من النفس؛ وإثباتها في الخارج. فإن كان الثابت في النفس مطابقاً للحقيقة في نفسها؛ فهو علمٌ صحيحٌ، وكثيراً ما يثبت ويتراءى في النفس صورٌ ليس لها وجودٌ حقيقيٌّ؛ فيظنها الذي قد أثبتها في نفسه علماً؛ وإنما هي مقدرة لا حقيقة لها.

وأكثر علوم الناس من هذا الباب، وما كان منها مطابقاً للحقيقة في الخارج فهو نوعان:

نوعٌ: تكمل النفس بإدراكه والعلم به؛ وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وكتبه وأمره ونهيه.

ونوعٌ: لا يحصل به للنفس كمالٌ؛ وهو كلُّ علمٍ لا يضرُّ الجهل به؛ فإنه لا ينفع العلم به.

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله «من علم لا ينفع»[1].

وهذا حال أكثر العلوم الصحيحة المطابقة؛ التي لا يضرُّ الجهل بها شيئاً، كالعلم بالفلك ودقائقه ودِرجاته وعدد الكواكب ومقاديرها، والعلم بعدد الجبال وألوانها ومساحتها ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ــ الحديث رقم (٢٧٢٢) ــ ٤/ ٢٠٨٨] من حديث زيد بن أرقم ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «اللَّـهُمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل».

فشرف العلم بحسب شرف معلومه وشدَّة الحاجة إليه، وليس ذلك إلا العلم بالله؛ وتوابع ذلك)[1].

سادساً: تقريره أنَّه بالعلم بالله وأسمائه وصفاته تكمل للعبد مراتب العبودية، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (للعبودية مراتب بحسب العلم والعمل، فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله، والثانية العلم بدينه.

فأما العلم به ــ سبحانه ــ : فخمس مراتب: العلم بذاته؛ وصفاته؛ وأفعاله؛ وأسمائه؛ وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان: إحداهما: دينه الأمريُّ والشرعيُّ؛ وهو الصراط المستقيم الموصل إليه. والثانية: دينه الجزائيُّ المتضمن ثوابه وعقابه.

وقد دخل في هذا العلم: العلم بملائكته وكتبه ورسله)[2].

سابعاً: تقريره أنَّ العلم بالله وأسمائه وصفاته هو العلم الذي يأخذ بزمام العبد إلى الدار الآخرة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (وقد ذكرنا فصلاً مختصراً في دلالة خلقه على وحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله وأسمائه الحسنى، وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب، ثم رأينا أن نُتبعه فصلاً في دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفات كماله.

إذ هذا من أشرف العلوم التي يكتسبها العبد في هذه الدار؛ ويدخل بها إلى الدار الآخرة)[3].

---

(١) الفوائد ص٩٧.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٢١ ــ ١٢٢.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣٠٩ ــ ٣١٠.

ثامناً: تقريره أنَّ العلم الذي يُعرِّف العبد بالله تعالى وأسمائه وصفاته هو المُستثنى من اللعنة، واللعنة واقعةٌ على ما عداه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (روى الترمذي من حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها؛ إلا ذكرُ الله وما والاه، وعالِمٌ ومتعلمٌ». قال الترمذي: هذا حديث حسن[1].

ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا تُساوي لديه جناح بعوضة: كانت وما فيها في غاية البعد منه، وهذا هو حقيقة اللعنة، وهو ــ سبحانه ــ إنما خلقها مزرعة للآخرة؛ ومعبراً إليها يَتزَوَّد منها عبادُهُ إليه، فلم يكن يُقرِّب منها إلا ما كان مُتضمناً لإقامة ذكره؛ ومُفضياً إلى محابِّه؛ وهوالعلم الذي به يُعرِّف الله؛ ويعبد ويذكر ويثنى عليه ويُمجَّد، ولهذا خلقها وخلق أهلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[2]. وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾[3].

فتضمنت هاتان الآيتان أنه ــ سبحانه ــ إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليُعرف بأسمائه وصفاته وليُعبد؛ فهذا المطلوب، وما كان طريقاً إليه من العلم والتعلُّم فهو المُستثنى من اللعنة، واللعنة واقعةٌ على ما عداه، إذ هو بعيدٌ عن الله وعن محابِّه وعن دينه، وهذا هو متعلَّق العقاب في

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الزهد/ باب (١٤) ــ الحديث رقم (٢٣٢٢) ــ ٤/ ١٥١]، وكذا ابن ماجه في سننه [كتاب الزهد/ باب مثل الدنيا ــ الحديث رقم (٤١١٢) ــ ٤/ ٤٢٨].
وحسنه الألباني في [صحيح سنن الترمذي ٢/ ٥٣٣].

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) سورة الطلاق: الآية ١٢.

الآخرة، فإنه كما كان مُتعلَّق اللعنة ــ التي تتضمن الذمَّ والبغض ــ فهو متعلَّق العقاب، والله ــ سبحانه ــ إنما يُحِبُّ من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته؛ ولوازم ذلك وما أفضى إليه، وما عداه فهو مبغوضٌ له؛ مذمومٌ عنده)[1].

تاسعاً: تقريره أنَّ العلم بالله وأسمائه وصفاته أعظم الحسنات عند الله تعالى؛ وأنه قول الصدق، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (أعظم الذنوب عند الله: إساءة الظنِّ به، فان المسيء به الظنَّ قد ظنَّ به خلاف كماله المقدس، فظنَّ به ما يُناقض أسماءه وصفاته.

ولهذا توعَّد الله ــ سبحانه ــ الظانين به ظنَّ السوء بما لم يتوعَّد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾[2].

وقال تعالى ــ لمن أنكر صفة من صفاته ــ : ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾[3].

وقال تعالى ــ عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه ــ : ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾[4].

أي: فما ظنكم أن يُجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وماذا ظننتم به حتى عبدتم معه غيره؟ وماظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟

فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنه غنيٌّ عن كلِّ ما سواه؛ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، وأنه قائمٌ بالقسط

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٦٩ ــ ٢٧٠.

(٢) سورة الفتح: الآية ٦.

(٣) سورة فصلت: الآية ٢٣.

(٤) سورة الصافات: الآيات ٨٥ ــ ٨٧.

على خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره، والعالِم بتفاصيل الأمور؛ فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معينٍ، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء؛ فإنهم مُحتاجون إلى من يُعرِّفهم أحوال الرعية وحوائجهم، وإلى من يُعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم، فأما القادر على كلِّ شيءٍ، الغني بذاته عن كلِّ شيءٍ، الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كلَّ شيءٍ؛ فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه نقصٌ بحقِّ ربوبيته وإلـٰهيته وتوحيده، وظنٌّ به ظنَّ سوءٍ، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع فى العقول والفطر، وقبحه مستقرٌّ في العقول السليمة فوق كلِّ قبيحٍ)[1].

ولما كان منطوق كلامه ــ رحمه الله تعالى ــ دالاً على أن أعظم الذنوب: هو إساءة الظنِّ بالله بما يُناقض أسماءه وصفاته؛ دلَّنا مفهومه على أن أعظم الحسنات: هو إحسان الظنِّ بالله بما هو عليه من أسماء الجلال وصفات الكمال، وهذا من أوجه الدلالة على كون توحيد الأسماء والصفات أشرف العلوم وأسماها.

المسألة الخامسة:

تقريره شرف هذا العلم من جهة كونه أصل العلوم؛ وشدّة الحاجة إليه.

إنَّ العلم بالله وأسمائه وصفاته: هو أصل العلوم كلِّها، وأساس أعظم العلوم؛ وهو علم التوحيد، إذ العلم بالله وأسمائه وصفاته علمٌ مطلوبٌ لنفسه مرادٌ لذاته، وهذا العلم المبارك هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر، والعلم

---

(١) الداء والدواء ص٢١١ ــ ٢١٢.

به من أعظم أمور الدين؛ وأصل مقاصد الدعوة النبوية، ولذا جاءت نصوصه محكمة غاية الإحكام؛ لا تشابه فيها.

وقد كشف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اللِّثام عن هذه المعاني في تقريره هذه المسألة بالأوجه الآتية الذكر:

أولاً: تقريره أن العلم بالله وأسمائه وصفاته: مطلوبٌ لنفسه مرادٌ لذاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (كلٌّ من العلم والعمل ينقسم قسمين: منه ما يكون وسيلة؛ ومنه ما يكون غاية.

فليس العلم كلُّه وسيلة مرادة لغيرها، فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق؛ وهو مطلوبٌ لنفسه مرادٌ لذاته.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾[1].

قد أخبر ــ سبحانه ــ أنه خلق السموات والأرض؛ ونَزَّلَ الأمر بينهن ليَعْلَمَ عبادُه أنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ؛ وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2].

العلم بوحدانيته تعالى؛ وأنه لا إله إلا هو: مطلوبٌ لذاته، وإن كان لا يُكتفى به وحده؛ بل لا بُدَّ معه من عبادته وحده لا شريك له.

فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يُعْرَفَ الربُّ تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يُعْبَدَ بموجبها ومقتضاها.

فكما أن عبادته مطلوبةٌ مرادةٌ لذاتها؛ فكذلك العلم به ومعرفته)[3].

---

(١) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٢) سورة محمد: الآية ١٩.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٥٣٥.

ثانياً: تقريره أنَّ علم العباد بربِّهم؛ وأسمائه وصفاته: هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (ــ سبحانه ــ أخبر أنه خلق الخلق؛ ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد: ليَعْلَمَ عبادُه أنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ؛ وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾[1].

فدلَّ على أن علم العباد بربِّهم وصفاته وعبادته وحده: هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر)[2].

ثالثاً: تقريره أنَّ العلم بالله وأسمائه وصفاته: أصلُ كلِّ العلوم، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن شرف العلم تابعٌ لشرف معلومه، لوثوق النفس بأدلَّة وجوده وبراهينه؛ ولشدَّة الحاجة إلى معرفته؛ وعظم النفع بها.

ولا ريب أن أجلَّ معلومٍ وأعظمه وأكبره: فهو الله الذي لا إلـٰه إلا هو ربُّ العالمين؛ وقيوم السماوات والأرضين؛ الملك الحقُّ المبين؛ الموصوف بالكمال كله؛ المُنزَّه عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ؛ وعن كلِّ تمثيلٍ وتشبيهٍ في كماله.

ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله: أجلُّ العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبةِ معلومةٍ إلى سائر المعلومات، وكما أن العلم به أجلُّ العلوم وأشرفها؛ فهو أصلُها كلِّها، كما أن كلَّ موجودٍ فهو مستندٌ في وجوده إلى الملك الحقِّ المبين؛ ومفتقرٌ إليه في تحققِّ ذاته وأَيْنِيَّته، وكلُّ علمٍ فهو تابعٌ للعلم به؛ مفتقرٌ في تحققِّ ذاته إليه، فالعلم به: أصلُ كلِّ علمٍ؛ كما أنه ــ سبحانه ــ ربُّ كلِ شيءٍ ومليكه ومُوجِدُه.

---

(١) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٢٦ ــ ٢٢٧.

ولا ريب أن كمال العلم بالسبب التامِّ وكونه سبباً: يستلزم العلم بمُسبَّبه، كما أن العلم بالعلَّة التامَّة ومعرفة كونها علَّة: يستلزم العلم بمعلوله، وكلُّ موجودٍ سوى الله: فهو مستندٌ في وجوده إليه؛ استناد المصنوع إلى صانعه والمفعول إلى فاعله.

فالعلم بذاته ـ سبحانه ـ وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه، فهو في ذاته ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، والعلم به أصلُ كلِ علمٍ ومنشؤه.

فمن عرف الله: عرف ما سواه، ومن جهل ربَّه فهو لما سواه أجهل. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(١).

فتأمَّل هذه الآية؛ تجد تحتها: معنى شريفاً عظيماً؛ وهو أن من نسي ربَّه: أنساه ذاته ونفسه؛ فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار مُعطَّلاً مُهملاً بمنزلة الأنعام السائمة؛ بل ربما كانت الأنعام أخبرَ بمصالحها منه، لبقائها على هداها التامِّ الذي أعطاها إياه خالقُها، وأما هذا فخرج عن فطرته التي خُلِقَ عليها؛ فنسي ربَّه فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكو به وتسعد به في معاشها ومعادها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾(٢).

فغفل عن ذكر ربِّه؛ فانفرط عليه أمرُه وقلبُه، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسُه وقلبُه؛ بل هو مُشتَّتُ القلب مُضيَّعُه؛ مُنْفَرِطُ الأمر؛ حيرانُ لا يهتدي سبيلاً.

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٩.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٨.

والمقصود: أن العلم بالله: أصلُ كلِّ علمٍ، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به: مستلزمٌ للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به، فالعلم به: سعادة العبد، والجهل به: أصل شقاوته)[1].

رابعاً: تقريره أنَّ إثبات الأسماء والصفات: هو أساس علم التوحيد، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الوقوف على ما قام بالحقِّ ــ سبحانه ــ من أسمائه وصفاته وأفعاله ــ وهو علم التوحيد ــ الذي أساسه: إثبات الأسماء والصفات، وضدُّه: التعطيل والنفي والتجهُّم.

فهذا التوحيد يُقابله: التعطيل، وأما التوحيد القصديُّ الإراديُّ ــ الذي هو: إخلاص العمل لله وعبادته وحده ــ فيُقابله: الشرك.

والتعطيل شرٌّ من الشرك، فإن المُعطِّل: جاحدٌ للذات أو لكمالها، وهو جَحْدٌ لحقيقة الإلـٰهية، فإن ذاتاً لا تسمع ولا تُبصر ولا تتكلَّم ولا ترضى ولا تغضب ولا تفعل شيئاً؛ وليست داخل العالم ولا خارجه؛ ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة؛ ولا مجانبة له ولا مباينة له؛ ولا مجاورة ولا مجاوزة؛ ولا فوق العرش ولا تحت العرش؛ ولا خلفه ولا أمامه؛ ولا عن يمينه ولا عن يساره: سواءٌ هي والعدم، والمشرك: مُقِرٌّ بالله وصفاته؛ لكن عَبَدَ معه غيره، فهو خيرٌ من المُعطِّل للذات والصفات.

فاليقين: هو الوقوف على ما قام بالحقِّ من أسمائه وصفاته ونعوت كماله وتوحيده.

وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق: علم الأمر والنهي، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد، وعلم المعاد واليوم الآخر، والله أعلم)[2].

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣١١ ــ ٣١٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤١٩ ــ ٤٢٠.

خامساً: تقريره أنَّ معرفة الله بأسمائه وصفاته: هو أعظم أمور الدين؛ وأصل مقاصد الدعوة النبوية، وهو أجلُّ ما خُلق الخلق له؛ وأفضل ما أدركوه وحصَّلوه وظفروا به، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الرسول إذا لم يُبَيِّن للناس أصول إيمانهم؛ ولا عرَّفهم علماً يهتدون به في أعظم أمور الدين، وأصل مقاصد الدعوة النبوية، وأجلِّ ما خُلق الخلق له، وأفضل ما أدركوه وحصَّلوه وظفروا به؛ وهو معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله؛ وما يجب له ويمتنع عليه، بل إنما يُبَيِّن لهم الأمور العملية: كانت رسالته مقصورة على أدنى المقصودَيْن)[1].

سادساً: تقريره أنَّ نصوص الأسماء والصفات محكمةٌ غاية الإِحكام؛ لا تشابه فيها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن آيات الصفات محكمةٌ، فإنها من أبين الكتاب إحكاماً، وإن ما تضمنته من الإِحكام أعظم مما تضمنه ما عداها)[2].

فهذا تقريرٌ لإِحكام نصوص الأسماء والصفات وتنزُّهها عن الالتباس، ووضوح معناها وعدم وقوع الخلف فيها بين الناس، لذا نجد أن الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ قد وقع بينهم النزاع في كثير من أبواب الأمر والنهي، ولم يُحفظ عنهم في باب الأسماء والصفات خلافٌ يُذكر، وهذا مما يدلُّ على فضيلة هذا الباب من أبواب العلم، وأنه أفضل العلوم وأحكمها وأسلمها، كما قرَّر الإِمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك الإِحكام بقوله: (قد تنازع الناس في المحكم والمتشابه تنازعاً كثيراً[3]،

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٥٤ ــ ١١٥٥.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٧٩٥.

(٣) أورد الزركشي والسيوطي ــ رحمهما الله تعالى؛ وهما من أشهر من ألف في علوم القرآن ــ للمحكم والمتشابه أقوالاً كثيرة؛ تقرب من =

ولم يُعرف عن أحدٍ من الصحابة قطُّ أن المتشابهات: آياتُ الصفات، بل المنقول عنهم يدلُّ على خلاف ذلك.

فكيف تكون آيات الصفات متشابهة عندهم وهم لا يتنازعون في شيءٍ منها، وآيات الأحكام هي المحكمة وقد وقع بينهم النزاع في بعضها؟!)[1].

وبذا يتبين أن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ قد اعتنى ببيان شرف العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته أيَّما عناية؛ وأولى تقريره الجهد والرعاية، وأظهر فضيلته وجميل ذكره؛ وسمو درجته وعظيم قدره، (فوا رحمتا لعبدٍ شقي في طلب العلم واستفرغ فيه قواه؛ واستنفد فيه أوقاته؛

= العشرة، ولم يرجحا منها شيئاً.

وقد حكى الإمام ابن جرير الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ في [جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/ ١٧٤] عن بعضهم قوله: (المحكم من آي القرآن: ما عرف العلماء تأويله؛ وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل؛ مما استأثر الله بعلمه دون خلقه).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في [تفسير: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾: رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧/ ٤١٩)]: (مأثور عن جابر بن عبد الله أنه قال: المحكم: ما علم العلماء تأويله، والمتشابه: ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل، كقيام الساعة. ومعلوم أن وقت قيام الساعة: مما اتفق المسلمون على أنه لا يعلمه إلا الله، فإذا أريد بلفظ التأويل هذا: كان المراد به: لا يعلم وقت تأويله إلا الله؛ وهذا حق، ولا يدل ذلك على أنه لا يعرف معنى الخطاب بذلك، وكذلك إذا أريد بالتأويل: حقائق ما يوجد).

وانظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣/ ٣ ـ ٤، علوم القرآن بين البرهان والإتقان للدكتور حازم حيدر ص٢٧٣ ـ ٢٧٦.

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

وآثره على ما الناس فيه: والطريق بينه وبين)[1] هذا العلم مسدودٌ؛ وقلبه عن التنعُّم به والسرور بفهمه مطرودٌ ومصدودٌ.

والكلام في شرف العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته؛ وأنه أفضل العلوم: بحرٌ لا ساحل له، ولعلَّ ما ذُكِرَ في هذا المطلب: (يكون مُنبِّهاً على ما وراءه، ومن أراد الوقوف عليه: فهذه)[2] إشارة إلى مواطن ذكره في كتب الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ[3]، فمن طلبها وجدها.



(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٨٩.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٢٤٩.

(٣) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٣٨؛ ٤٣؛ ٣٣٤؛ ٢/ ١٨٤؛ ٤/ ١٧٤؛ ٤٠١ ـ ٤٠٣، بدائع الفوائد ٤/ ١٢٥؛ ١٤٧، التبيان في أقسام القرآن ص١٩؛ ٨٥ ـ ٨٦؛ ٢٩٤ ـ ٢٩٧؛ ٥٣٨، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٥ ـ ٢٨٦، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص١٢٥، الداء والدواء ص٢١٩ ـ ٢٢١، زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٣١٦ ـ ٣١٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧؛ ٢/ ٦٨٤؛ ٤/ ١٢١١ ـ ١٢١٢، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٤٢٣٨ ـ ٤٢٤١)]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٢٦؛ ٢/ ٢٨٤.

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير أنَّ الكتب الإلـٰهية اشتملت على توحيد الأسماء والصفات أكثر من اشتمالها على ما عداه

إنَّ إفراد الله ــ سبحانه وتعالى ــ بالعبادة؛ والكفر بما سواه: هو المقصد العظيم الذي (نطقت به الكتب الإلـٰهية ــ من أولها إلى آخرها ــ؛ وأخبرت به جميع الرسل ــ من أولهم إلى آخرهم ــ)[1]، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[2].

وهذا المقصد العظيم لا يتأتَّى للعبد تحقيقه إلا بمعرفة أسماء المعبود ــ تبارك وتعالى ــ وأوصافه؛ حتى يدين له بالحبِّ بواسطة تعبُّده لربِّه تعالى بأسماء الجمال؛ ويخضع له بالذلِّ بواسطة تعبده لربِّه تعالى بصفات الكمال، لذا نجد أن مقصود الكتب الإلـٰهية الأوَّل؛ وعمدتها الذي عليه المعوَّل: هو (الإخبار عن صفات الربِّ ــ سبحانه ــ وأسمائه وأفعاله؛ وأنواع حمده والثناء عليه؛ والإنباء عن عظمته وعِزَّته وحكمته وأنواع صنعه)[3].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٦٤.

(٢) سورة النحل: الآية ٣٦.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٦٤.

وإنَّ اشتمال الكتب الإلـهية على ذكر الله ــ تبارك وتعالى ــ بأسماء الجمال؛ ونعته بأوصاف الكمال أكثر مما عداه؛ وأظهر مما سواه، لذا نجد أن نصوص توحيد الأسماء والصفات إذا ما قيست إليها نصوص ما عداها من القصص والأحكام: تبلغ أضعاف أضعافها.

وهناك ثمّة تطابقٌ وتوافقٌ في نصوص الأسماء والصفات التي تضمنتها الكتب الإلـهية يُشْعِر أنها جميعاً خرجت من مشكاةٍ واحدةٍ، وإنما يعرف حقيقة ذلك وغَوْرَه؛ ويُدرك بعده وطَوْرَه: من له سابقُ اطلاعٍ في كتب الله المنزلة، كما أفصح عن ذلك ورقة بن نوفل ــ رضي الله عنه ــ بقوله للنبـي ﷺ ــ بعد أن قصَّ عليه خبر ما رأى ــ: «هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى»[1].

وقد جاءت كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله مقررة لما فطر الله عليه القلوب؛ وأسكنه في الألباب من الإقرار بأسماء الله تعالى وصفاته.

وقد جاء القرآن الكريم خاتماً للكتب الإلـهية؛ ومصدقاً لها؛ ومهيمناً عليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[2].

فجاءت نصوصه في باب أسماء الله تعالى وصفاته على أتمِّ وجوه البيان وأكملها؛ وأوسعها دلالة وأشملها، فنصوص هـذا الباب فيه: واضحة البرهان؛ فصيحة البيان.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب بدء الوحي/ باب (٣) ــ الحديث رقم (٣) ــ ١/ ٢٢]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ــ الحديث رقم (١٦٠) ــ ١/ ١٣٩ ــ ١٤٣] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ، وأوله: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي».

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير أهمية توحيد الله تعالى بأسماء الجلال وصفات الكمال؛ مُجلِّياً هذه الأهمية بما تضمنته الكتب الإلـٰهية من ذكر أسماء الله تعالى وصفاته؛ وأنه أكثر مما عداها.

ويمكن بيان ما تضمنه كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المطلب؛ وتجليته بالمسائل الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أن أعظم الأقسام التي اشتملت عليها الكتب الإلـٰهية وأظهرها وأكثرها وروداً فيها هي: نصوص توحيد الأسماء والصفات.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ فيما أخبر به رسول الله ﷺ عن الله تعالى من أسمائه وصفاته ونعوت كماله: (وهذا القسم من الأخبار أشرف أنواع الخبر، والإيمان به أصل الإيمان بما عداه، واشتمال القرآن؛ بل والكتب الإلـٰهية عليه أكثر من اشتمالها على ما عداه، وتنوُّع الدلالة بها على ثبوت مخبره أعظم من تنوُّعها في غيره، وذلك لشرف متعلَّقه وعظمته وشدَّة الحاجة إلى معرفته)[1].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (فإن القرآن؛ بل الكتب المنزلة مملوءةٌ بذكر الفوقية؛ وعُلُوِّ الله على عرشه، وأنه تكلَّم ويتكلَّم، وأنه موصوفٌ بالصفات، وأن له أفعالاً تقوم به؛ هو بها فاعلٌ، وأنه يُرى بالأبصار، إلى غير ذلك من نصوص الصفات؛ التي إذا قيس إليها نصوص حشر هذه الأجساد؛ وخراب هذا العالم؛ وإعدامه وإنشاء عالَمٍ آخر: وُجِدَتْ

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٥.

نصوص الصفات أضعاف أضعافها)[1].

وكلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الآنف الذكر متضمنٌ للدلالة على أن الكتب الإلـٰهية المنزلة على رسل الله ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ فيها من تقرير توحيد الأسماء والصفات أضعاف أضعاف ما فيها من تقرير الأحكام.

وقد علَّل ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك مُبيِّناً أن الله تعالى يقرن ذكر أسمائه وصفاته عند إرادة إثبات توحيده؛ وعند فرض الأحكام والأوامر والنواهي، وعند ذكر ما يُرغِّبُ النفوس ويُرهِّبُها؛ ليُبيِّن أن مصدر ذلك كله: أسماؤه الحسنى وصفاته العلى، كما قال: (كثيراً ما يذكرها عند ذكر آلهتهم التي عبدوها من دونه وجعلوها شركاء له، فيذكر ــ سبحانه ــ من صفات كماله وعُلُوِّه على عرشه؛ وتكلُّمه وتكليمه؛ وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته؛ ما هو منتفٍ عن آلهتهم، فيكون ذلك من أدلِّ الدليل على بطلان إلـٰهيتها؛ وفساد عبادتها من دونه.

ويذكر ذلك عند دعوته عباده إلى ذكره وشكره وعبادته، فيذكر لهم من أوصاف كماله ونعوت جلاله ما يجذب قلوبهم إلى المبادرة إلى دعوته؛ والمسارعة إلى طاعته؛ والتنافس في القرب منه.

ويذكر صفاته أيضاً عند ترغيبه لهم وترهيبه وتخويفه؛ ليُعَرِّف القلوب من تخافه وترجوه؛ وترغب إليه وترهب منه.

ويذكر صفاته أيضاً عند أحكامه وأوامره ونواهيه، فقَلَّ أن تجد آية حكمٍ من أحكام المُكلَّفين: إلا وهي مختتمةٌ بصفةٍ من صفاته أو صفتين، وقد يذكر الصفة في أول الآية ووسطها وآخرها، كقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٣٦٨.

﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾[1].

فيذكر صفاته عند سؤال عباده لرسوله عنه، ويذكرها عند سؤالهم له عن أحكامه، حتى إن الصلاة لا تنعقد إلا بذكر أسمائه وصفاته، فذكر أسمائه وصفاته: روحها وسِرُّها؛ يصحبها من أولها إلى آخرها، وإنما أُمر بإقامتها لِيُذكر بأسمائه وصفاته)[2].

المسألة الثانية:

تقريره للتطابق والتوافق بين الكتب الإلهية في باب توحيد الأسماء والصفات؛ وأنها تخرج من مشكاةٍ واحدةٍ.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝١١٤﴾[3].

وذلك أن الكتاب الأول مُصَدِّقٌ للقرآن، فمن نظر فيه: علم علماً يقيناً أنَّ هذا وهذا من مشكاةٍ واحدةٍ؛ لا سيَّما في باب التوحيد والأسماء والصفات.

فإن التوراة مطابقةٌ للقرآن في ذلك موافقةٌ له[4]، وهذا يدلُّ على أن ما

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٠ ـ ٩١١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٤.

(٤) وهذا بخلاف الإنجيل، فإنه لما كان تابعاً للتوراة ومتمماً لها؛ وأهله مطالبون بالعمل به إزاء عملهم بالتوراة ـ كما قال الله تعالى على لسان نبيهم عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٠] ـ: جاء ذكر صفات الله تعالى فيه مُجملاً؛ اكتفاء بذكرها مُفصلة في التوراة. =

في التوراة من ذلك ليس هو من المُبدَّل المُحرَّف الذي أنكره الله عليهم؛ بل هو من الحقِّ الذي شهد للقرآن وصدَّقه.

ولهذا لم يُنكر النبي ﷺ عليهم ما في التوراة من الصفات؛ ولا عابهم به؛ ولا جعله تشبيهاً وتجسيماً وتمثيلاً كما فعل كثيرٌ من النفاة؛ وقالوا: اليهود أمة التشبيه والتجسيم. ولا ذنب لهم في ذلك، فإنهم فسَّروا ما في التوراة.

فالذي عابهم الله به من تأويل التحريف والتبديل: لم يُعبهم به المعطلة النفاة؛ بل شاركوهم فيه[1]، والذي استشهد الله ــ سبحانه ــ على نبوَّة

= وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ إلى ذلك في [هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٣٣٠] بقوله: (ليس في الإنجيل من صفات الله تعالى وصفات ملكوته وصفات اليوم الآخر إلا أمور مجملة).

(١) مثال ما عاب الله تعالى به الأمة الغضبية من تأويل التحريف والتبديل: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٤].

وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٠ ــ ١٠١١] إلى شيء من تأويلهم، فقال: (اتفقت الأمم على أن الله ــ سبحانه ــ موصوفٌ بالكمال؛ مُنزَّهٌ عن أضداده، وإن تنازعوا في كون الصفة المعينة والفعل المعين كمالاً أو ليس بكمال، والذين نفوه تخيَّلوا أن إثباته يستلزم النقص والحدوث، وأن الكمال في نفيه، وإن كان كثيرٌ من طوائف بني آدم يستجيزون وصفه بالنقائص والعيوب؛ مع علمهم بأنها نقائص وعيوب، كما صرَّحت به اليهود من قولهم: إنه فقير، وإنه تعب لما خلق العالم، وإنه بكى على الطوفان حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة، وإنه ندم على خلق آدم وذريته ندماً عظيماً حتى عضَّ أنامله. ويقولون في صلاتهم: يا إلهنا: انتبه من رقدتك، كم تنام؟ ونحو ذلك). =

رسوله به من موافقة ما عندهم من التوحيد والصفات عابوهم به؛ ونسبوهم فيه إلى التجسيم والتشبيه.

وهذا ضدُّ ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، فإنهم كانوا إذا ذكروا له شيئاً من هذا الذي تُسمِّيه المعطلة تجسيماً وتشبيهاً: صدَّقهم عليه أو أقرَّهم ولم يُنكره، كما صدَّقهم في خبر الحَبْر المتفق على صحته من حديث عبد الله بن مسعود[1]، وضحك تعجباً وتصديقاً له، وفي غير ذلك)[2].

المسألة الثالثة:

تقريره أن الكتب الإلـٰهية جاءت مقررة لما جُبلت عليه الفطر المستقيمة؛ وأقرت به العقول السليمة من إثبات أسماء الله تعالى وصفاته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (قد دلَّ العقل والفطرة وجميع كتب الله السماوية على أن الله تعالى عالٍ على خلقه؛ فوق جميع المخلوقات، وهو مستوٍ على عرشه، وعرشه فوق السماوات كلِّها.

فهو ــ سبحانه ــ محيطٌ بالعالم كلِّه، فأينما ولَّى العبد: فإن الله مستقبله، بل هذا شأن مخلوقه المحيط بما دونه)[3].

وبعد بيان ما تضمنه كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ من اشتمال الكتب الإلـٰهية جميعها على تقرير توحيد الله تعالى؛ وإفراده بأسماء الجمال وصفات الكمال، وأنها أكثر مما عداه: يحسن بيان ما تضمنه كلامه ــ رحمه الله تعالى ــ في خاتم الكتب الإلـٰهية ــ والمصدق لما بين

= وانظر في تأويلهم: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٨٦ ــ ٥٩١.

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «يا محمد؛ إن الله تعالى يمسك السماوات».

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٤٤ ــ ١٠٤٥.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٥ ــ ٣٩٦.

يديه منها؛ والمهيمن عليها ــ ، وأنه قد أحكم باب الأسماء والصفات غاية الإحكام.

المسألة الرابعة:

تقريره أنَّ القرآن الكريم قد تضمن الدلالة على أسماء الله تعالى وصفاته أكثر من الدلالة على ما سواه.

قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ما تضمنه القرآن الكريم ــ على وجه العموم ــ ؛ وبعض سوره الكريمة ــ على وجه الخصوص ــ من إثبات أسماء الله تعالى وصفاته، وأنه إنما أُنزل على العباد ليُذكِّرهم (بالربِّ تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ وحقوقه على عباده)[1]، فقال في وصف خطاب القرآن الكريم: (تأمَّل خطاب القرآن: تجد مَلِكاً له الملك كلُّه، وله الحمد كلُّه، أزمة الأمور كلُّها بيده، ومصدرها منه ومردُّها إليه، مستوياً على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالِماً بما في نفوس عبيده؛ مُطَّلِعاً على أسرارهم وعلانيتهم، مُنْفَرِداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويُعطي ويمنع، ويُثيب ويُعاقب، ويُكرم ويُهين، ويخلق ويرزق، ويُميت ويُحيي، ويُقدِّر ويقضي ويُدبِّر، الأمور نازلةٌ من عنده ــ دقيقها وجليلها ــ وصاعدة إليه، لا تتحرَّك ذرةٌ إلا بإذنه، ولا تسقط ورقةٌ إلا بعلمه.

فتأمَّل كيف تجده يُثني على نفسه ويُمجِّد نفسه ويحمد نفسه؛ وينصح عباده ويدلُّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويُرغِّبهم فيه ويُحذِّرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرَّف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبَّب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم؛ ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذِّرهم من

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص١٦٥.

نقمه، ويذكِّرهم بما أعدَّ لهم من الكرامة إن أطاعوه؛ وما أعدَّ لهم من العقوبة إن عصوه، ويُخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه؛ وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء؟ ويُثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذمُّ أعداءه بسيِّء أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، ويُنوِّع الأدلَّة والبراهين، ويُجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويُصدِّق الصادق؛ ويُكذِّب الكاذب، ويقول الحقَّ ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام؛ ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويُحذِّر من دار البوار؛ ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويُذكِّر عباده فقرهم إليه؛ وشدَّة حاجتهم إليه من كلِّ وجهٍ، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عينٍ، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات؛ وأنه الغنيُّ بنفسه عن كلِّ ما سواه؛ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحدٌ ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشرِّ فما فوقها إلا بعدله وحكمته.

ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتابٍ، وأنه مع ذلك مُقيل عثراتهم؛ وغافر زلاتهم؛ ومُقيم أعذارهم؛ ومُصلح فسادهم؛ والدافع عنهم والمحامي عنهم والناصر لهم؛ والكفيل بمصالحهم؛ والمُنجي لهم من كلِّ كربٍ؛ والمُوفي لهم بوعده؛ وأنه وليُّهم الذي لا وليَّ لهم سواه، فهو مولاهم الحقُّ ونصيرهم على عدوهم؛ فنعم المولى ونعم النصير.

فإذا شهدت القلوبُ من القرآن مَلِكاً عظيماً رحيماً جواداً جميلاً هذا شأنه: فكيف لا تُحبُّه؛ وتُنافس في القرب منه؛ وتُنفق أنفاسها في التودُّد إليه؛ ويكون أحبَّ إليها من كلِّ ما سواه؛ ورضاه آثر عندها من رضا كلِّ ما سواه؟ وكيف لا تلهج بذكره؛ ويصير حبُّه والشوق إليه والأنس به هو غذاءها وقوتها ودواءها؛ بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت؛ ولم تنتفع بحياتها؟)[١].

---

(١) الفوائد ص٣٧ ــ ٣٨.

فهذا وصف من الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لخطاب القرآن الكريم، وأما وصفه لشفائه فهو في قوله: (القرآن متضمنٌ لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه، قال الله ــ عزَّ وجلّ ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

وقد تقدَّم أن جماع أمراض القلب هي: أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاءٌ للنوعين، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يُبيِّن الحقَّ من الباطل؛ فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصوُّر والإدراك؛ بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وليس تحت أديم السماء كتابٌ متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات وردِّ النِّحَل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن، فإنه كفيلٌ بذلك كلِّه؛ متضمنٌ له على أتمِّ الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول؛ وأفصحها بياناً.

فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوفٌ على فهمه ومعرفة المراد منه، فمن رزقه الله تعالى ذلك: أبصر الحقَّ والباطل عياناً بقلبه كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم: بين علومٍ لا ثقة بها؛ وإنما هي آراءٌ وتقليدٌ، وبين ظنونٍ كاذبةٍ لا تُغني عن الحقِّ شيئاً، وبين أمورٍ صحيحةٍ لا منفعة للقلب فيها، وبين علومٍ صحيحةٍ قد وعَّروا الطريق إلى تحصيلها؛ وأطالوا الكلام في إثباتها ــ مع قلَّة نفعها ــ ، فهي: «لحم جملٍ غثٍّ؛ على رأس جبلٍ

(١) سورة يونس: الآية ٥٧.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

وَعْرٍ، لا سهل فيُرتقى؛ ولا سمين فيُنتقل»[1].

وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم: فهو في القرآن أصحُّ تقريراً وأحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكلُّف والتطويل والتعقيد)[2].

ولم يكتف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير ما تضمنه القرآن الكريم من إثبات أسماء الله تعالى وصفاته على وجه العموم، وإنما قرَّر في مواطن من كتبه بعض ما تضمنته سوره الكريمة ــ على وجه الخصوص ــ من إثبات هذا الباب، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ في وصف سورة (ق)؛ وما حوته آياتها وجمعته ألفاظها: (قد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي، ويُغني عن كلام أهل الكلام؛ ومعقول أهل المعقول.

فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد، والتوحيد والنبوة، والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلى هالكٍ شقيٍّ؛ وفائزٍ سعيدٍ؛ وأوصاف هؤلاء وهؤلاء.

وتضمنت إثبات صفات الكمال لله؛ وتنزيهه عما يُضادُّ كماله من النقائص والعيوب)[3].

---

(١) قطعة من حديث أم زرع الطويل، وقد أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب النكاح/ باب حسن المعاشرة مع الأهل ــ الحديث رقم (٥١٨٩) ــ ٤/١٦٦٨ ــ ١٦٦٩]، ومسلم في صحيحه [كتاب فضائل الصحابة/ باب ذكر حديث أم زرع ــ الحديث رقم (٢٤٤٨) ــ ٤/١٨٩٦ ــ ١٩٠١] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ .

(٢) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٧٣ ــ ٧٤.

(٣) الفوائد ص١١.

وقال ـــ رحمه الله تعالى ـــ في وصف سورة (البروج): (قد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على: وصفه ـــ سبحانه ـــ بالعِزَّة؛ المتضمنة للقدرة والقوة وعدم النظير، والحمد المتضمن لصفات الكمال والتنزيه عن أضدادها؛ مع محبته وإلٰهيته، وملكه السماوات والأرض المتضمن لكمال غناه وسعة ملكه، وشهادته على كلِّ شيءٍ المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها، وإحاطة بصره بمرئياتها؛ وسمعه بمسموعاتها؛ وعلمه بمعلوماتها.

ووصفه بشدَّة البطش المتضمن لكمال القوة والعِزَّة والقدرة، وتفرُّده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته؛ وتصرُّفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة؛ وانقيادها لقدرته فلا يستعصي عليه منها شيءٌ.

ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته، ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيباً إلى عباده؛ مُحبًّا لهم.

ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه؛ وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوي عليه.

ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم، وكونه فعالاً لما يريد؛ المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته، وغير ذلك من أوصاف كماله.

فهذه السورة: كتابٌ مستقلٌّ في أصول الدين؛ تكفي من فهمها، فـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[1].

---

(١) سورة الكهف: الآية ١.

و ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[1])[2].

وغير ذلك من سور القرآن الكريم ـ التي تضمن سياقها الدلالة على تفرُّد الله تعالى بأسماء الجلال؛ وصفات الكمال؛ ونعوت الجمال ـ التي أشار الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى بعضها في مصنفاته تصريحاً[3]؛ وأشار إلى بعضها تلميحاً بقوله: (قد أفصح القرآن عن هذا النوع جدَّ الإفصاح، كما في أول سورة الحديد؛ وسورة طه؛ وآخر سورة الحشر؛ وأول سورة تنزيل السجدة؛ وأول سورة آل عمران؛ وسورة الإخلاص بكمالها؛ وغير ذلك)[4].

فالعبد متى ما وُفِّقَ للإقبال (على القرآن وتفهُّمه وتدبُّره، واستخراج كنوزه؛ وإثارة دفائنه، وصَرَفَ العناية إليه؛ والعكوف بالهمَّة عليه: فإنه الكفيل)[5] بترسيخ قواعد (التوحيد ـ الذي دعت إليه رسل الله؛ ونزلت به كتبه ـ)[6] في نفسه.

ومن هذه الأحرف ـ وغيرها مما استغني عن ذكره اكتفاء بما

---

(١) سورة الفرقان: الآية ١.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص١٢٨ ـ ١٢٩.

(٣) انظر في وصف سورة (الفاتحة): زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٣٤٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٢٧، وفي وصف سورة (القيامة): التبيان في أقسام القرآن ص١٩٨ ـ ٢٠١، وفي وصف سورة (التين): التبيان في أقسام القرآن ص٨٠، وفي وصف سورة (التكاثر): عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٣٠٩، وفي وصف سورة (الإخلاص): زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٢٠٦؛ ٣١٦؛ ٤/ ١٨٠ ـ ١٨١.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٦٨.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١١.

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٦٨.

نُقِلَ[1] ـ : يتبيَّن عناية الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بتقرير أهمية توحيد الأسماء والصفات؛ وذلك ببيان اشتمال الكتب الإلـٰهية على هذا التوحيد أكثر من اشتمالها على ما عداه، إذ على هذا التوحيد تنبني مطالب الرسالات جميعها.

❑ ❑ ❑

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ١٨٢ ـ ١٨٣، التبيان في أقسام القرآن ص٢٣٧ ـ ٢٣٨؛ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، الروح ص٤٦٠، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٩٣؛ ٢/ ٥٣١، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤٢٧٢ ـ ٤٢٧٩)]، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٣٨.

المطلب الرابع:

جهوده في تقرير إجماع الرسل ـ عليهم السلام ـ على توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خصَّ أنبياءه ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بخصائص لم يخصَّ بها سواهم؛ أوجبت لهم زكاة النفوس؛ وشرف الأخلاق؛ وكمال العلم والعمل؛ وعظيم المحبة والقبول في قلوب الناس، ومن هذه الخصائص: أن جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته؛ وتعريف أسمائه وصفاته.

وقد انعقد إجماع أنبياء الله تعالى ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ على الإقرار بباب أسماء الله تعالى وصفاته، حيث اتفقت كلمتهم؛ وتواطأت مقالتهم ـ فلم يختلف منهم في ذلك اثنان ـ على إثبات أسماء الجلال وصفات الكمال لله ـ عزَّ وجلّ ـ؛ وتنزيهها عما يُنافيها، وكان ذلك هو مدار الحقِّ الذي بعثوا به.

وجاء إجماع أنبياء الله تعالى ورسله ـ عليهم السلام ـ معزِّزاً لدلالة الشرع القويم؛ الموافق للعقل السليم؛ والمقرر لما فُطِرَ عليه الطبع المستقيم، فجاء إجماعهم متنوِّع الدلالات؛ ومتعدِّد البيِّنات.

وقد قام سوق دعوة أنبياء الله ورسله ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ على الدعوة إلى الله تعالى؛ وتعريف المدعوِّين بأسماء المدعوِّ المعبود وصفاته، فكان ذلك هو مفتاح دعوتهم؛ وزبدة رسالتهم.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير أهمية توحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ موضحاً إجماع رسل الله تعالى من أولهم إلى آخرهم ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ في باب توحيد الله بأسمائه وصفاته، وبيان ذلك وإيضاحه مُضمَّنٌ في المسائل الآتية الذكر:

المسألة الأولى:

تقريره أنَّ الله تعالى فضَّل رسله ـ عليهم السلام ـ بجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في تعريفهم أسماءه وصفاته.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنَّ أفضل منازل الخلق عند الله: منزلة الرسالة والنبوة، فـ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[1]).

وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته؛ وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ومراضيه ومساخطه وثوابه وعقابه؟ وخصَّهم بوحيه؛ واختصَّهم بتفضيله؛ وارتضاهم لرسالته إلى عباده، وجعلهم أزكى العالمين نفوساً؛ وأشرفهم أخلاقاً؛ وأكملهم علوماً وأعمالاً؛ وأحسنهم خلقة؛ وأعظمهم محبة وقبولاً في قلوب الناس، وبرَّأهم من كلِّ وَصْمٍ وعَيْبٍ وكلِّ خلقٍ دنيءٍ، وجعل أشرف مراتب

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٥.

الناس بعدهم: مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم، فإنهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم؛ من نصيحتهم للأمة، وإرشادهم الضال؛ وتعليمهم الجاهل، ونصرهم المظلوم؛ وأخذهم على يد الظالم، وأمرهم بالمعروف وفعله؛ ونهيهم عن المنكر وتركه، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين؛ والموعظة الحسنة للمُعرضين الغافلين؛ والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين، فهذه حال أتباع المرسلين؛ وورثه النبيين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[1])[2].

المسألة الثانية:

تقريره لإجماع الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ على ما تضمنته الآيات والأخبار من نصوص الأسماء والصفات؛ واتفاق كلمتهم؛ وتواطؤ خبرهم على ذلك.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (الرسل ـ من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ أُرسلوا بالدعوة إلى الله؛ وبيان الطريق الموصل إليه؛ وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه، فهذه القواعد الثلاث ضروريةٌ في كلِّ ملةٍ على لسان كلِّ رسولٍ.

فعرَّفوا الربَّ المدعوَّ إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفاً مُفصَّلاً؛ حتى كأن العباد يُشاهدونه ـ سبحانه ـ؛ وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يُكلِّم ملائكته؛ ويُدبِّر أمر مملكته؛ ويسمع أصوات خلقه؛ ويرى أفعالهم وحركاتهم؛ ويشاهد بواطنهم كما يُشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى؛ ويرضى ويغضب؛ ويُحِبُّ ويسخط؛ ويضحك من قنوطهم

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

وقرب غِيَرِه[1]؛ ويُجيب دعوة مُضطرِّهم؛ ويُغيث ملهوفهم؛ ويُعين محتاجهم؛ ويجبر كسيرهم؛ ويُغني فقيرهم؛ ويُميت ويُحيي؛ ويمنع ويُعطي، ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾[2]، ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[3]؛ يُؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء؛ ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء؛ بيده الخير وهو على كلِّ شيء قدير، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾[4]؛ يغفر ذنباً؛ ويُفرِّج كرباً؛ ويفكُّ عانياً؛ وينصر مظلوماً؛ ويقصم ظالماً؛ ويرحم مسكيناً؛ ويُغيث ملهوفاً، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها؛ ويُجريها على نظامها، ويُقدِّم ما يشاء تقديمه؛ ويُؤخِّر ما يشاء تأخيره، فأزمة الأمور كلِّها بيده؛ ومدار تدبير الممالك كلِّها عليه، وهذا مقصود الدعوة؛ وزبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه؛ وهو صراطه المستقيم الذي نصبه لرسله وأتباعهم؛ وهو امتثال أمره واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار؛ وما قبل ذلك من الحساب والحوض والميزان والصراط)[5].

---

(١) الغِيَر: هو اسم من غيَّرت الشيء فتغيَّر، أي تغيُّر الحال وانتقالها عن حالٍ إلى حالٍ.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٤٠١، غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ١٦٩، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للفتني ٤/ ٨٥ [مادة: غير].

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

(٤) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

وقال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الآيات والأخبار الدالَّة على عُلُوِّ الربِّ تعالى علـى خلقـه؛ وفوقيتـه؛ واستوائـه عـلى عرشه؛ قـد قيل: إنها تُقارب الألف[1]).

---

(١) يريد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : عموم الأدلة السمعية والعقلية والفطرية وغيرها.
وهو ــ رحمه الله تعالى ــ كثيراً ما يتحدى خصومه في مسألة العلو؛ وغيرها من مسائل الأسماء والصفات بوفرة الأدلة وكثرتها، وأنها تقرب من الألف دليل؛ أو تزيد عليها، وذلك مما يحيل على منكرها ردَّها؛ أو تأويلها.
انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٣٠٣، بدائع الفوائد ١/ ١٣٤، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٤٥٠، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٥؛ ٤/ ١٢٢٢.
وقد صنف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ كتاب: (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية)؛ وحشد فيه جيوش الأدلة النقلية؛ وعساكر القواطع العقلية؛ وكتائب الدلائل الفطرية على إثبات مسألة علو الله تعالى على خلقه، وضمنه: آي الكتاب العزيز، وأحاديث النبي ﷺ، وما حفظ عن أصحاب رسول الله ﷺ؛ والتابعين؛ والأئمة الأربعة؛ وأتباعهم ممن يقتدى بأقوالهم، وأقوال أئمة الحديث؛ وأئمة التفسير؛ وأئمة اللغة العربية ــ الذين يحتج بقولهم ــ ؛ والزهاد والصوفية ــ أهل الاتباع ــ ؛ والشارحين لأسماء الله الحسنى؛ وأهل الكلام ــ من أهل الإثبات ــ ؛ وشعراء الإسلام؛ والفلاسفة المتقدمين والحكماء الأولين، ثم ختم ــ رحمه الله تعالى ــ كتابه بذكر أقوال الجن المؤمنين، ثم أتبعه بذكر أقوال الحيوانات.
وقال ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ــ الأبيات رقم (١٥١٣ ــ ١٥١٨) ــ ص١٣١]:
(يا قوم والله إن لقولنا ... ألفٌ تدل عليه بل ألفان
عقلاً ونقلاً مع صريح الفطرة الـ ... أولى وذوق حلاوة الإيمان
كلٌ يدل بأنه سبحانه ... فوق السماء مباين الأكوان=

وقد أجمعت عليها الرسل ــ من أولهم إلى آخرهم ــ)[1].

المسألة الثالثة:

تقريره لإجماع الأنبياء ـ من أولهم إلى آخرهم ـ على بطلان المحذور الذي نفاه العقل والشرع والفطرة عن أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ ونزَّهه عنه.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (المحذور الذي نفاه العقل والشرع والفطرة وأجمعت الأنبياء ــ من أولهم إلى آخرهم على بطلانه ــ : أن يكون مع الله آلهة أخرى، لا أن يكون إلـه العالمين الواحد القهَّار: حيًّا قيوماً، سميعاً بصيراً متكلماً، آمراً ناهياً، فوق عرشه، له الأسماء الحسنى والصفات العلى.

فلم ينف العقل والشرع والفطرة أن يكون للإله الواحد صفات كمال ونعوت جلال يختصُّ بها لذاته)[2].

وقال ــ رحمه الله تعالى ــ : (معلومٌ أن هذه النقائص: هي التي دلَّ العقل الصريح واتفاق المرسلين ــ من أولهم إلى آخرهم ــ على نفيها عن الله؛ وتنزيهه عنها)[3].

= أترون أنا تاركوا ذا كله — لجعاجع التعطيل والهذيان
يا قوم ما أنتم على شيء إلى — أن ترجعوا للوحي بالإذعان
وتحكموه في الجليل ودقِّه — تحكيم تسليم مع الرضوان).

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٨.
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٣٨.
(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١١.

المسألة الرابعة:

تقريره أن توحيد الأسماء والصفات ـ الذي هو من أسس الإيمان بالله تعالى ـ أحد الأصول الثلاثة التي اتفق الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على المجيء بها.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (الأصول الثلاثة التي اتفق عليها جميع الملل وجاءت بها جميع الرسل وهي: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والأعمال الصالحة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[١])[٢].

وقد بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ في موطن آخر: أن من أصول الإيمان بالله تعالى ــ التي اتفقت عليها جميع الرسل ــ : إثبات أسماء الله وصفاته؛ فقال: (هل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين؟ فدلَّ هذا كلُّه على إثبات الخالق وصفات كماله وصدق رسله ووعده. وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل ــ من أولهم إلى آخرهم ــ)[٣].

كما بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ في موطن آخر: أنَّ توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته: هو أحد أقسام التوحيد الثلاثة ــ المندرجة تحت أصول الإيمان بالله تعالى ــ التي اتفقت عليه الرسل؛ فقال في سورة (الفاتحة): (اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ)[٤].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦٢.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٩٦.

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص٦٢.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٣.

المسألة الخامسة:

تقريره أن أساس دعوة الرسل جميعهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ؛ ومفتاحها؛ وزبدتها هو: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (اقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به مُعرِّفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مُبشِّرين، ولمن خالفهم مُنذرين، وجعل مفتاح دعوتهم؛ وزبدة رسالتهم: معرفة المعبود ـ سبحانه ـ بأسمائه وصفاته وأفعاله.

إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعها.

وإن الخوف والرجاء والمحبة والطاعة والعبودية: تابعةٌ لمعرفة المرجوِّ المخوف المحبوب المطاع المعبود.

ولما كان مفتاح الدعوة الإلٰهية: معرفة الربِّ تعالى: قال أفضل الداعين إليه ـ سبحانه ـ لمعاذ بن جبل ـ وقد أرسله إلى اليمن ـ: «إنك ستأتي قوماً أهل كتابٍ، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة ألا إلٰه إلا الله؛ وأن محمداً رسول الله، فإذا عرفوا الله؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلواتٍ في اليوم والليلة» وذكر باقي الحديث، وهو في الصحيحين، وهذا اللفظ لمسلم[١].

فأساس دعوة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ: معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله)[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٥٠ ـ ١٥١.

المسألة السادسة:

تقريره أن مدار الحقِّ الذي اتفقت عليه الرسل ـ عليهم السلام ـ أن يُثبت لله تعالى حقائق الأسماء والصفات؛ وأن يُنفى عنه مشابهة المخلوقات.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في بيان توحيد الرسل وتوحيد من خالفهم: (مدار الحقِّ الذي اتفقت عليه الرسل على: أن يُوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ؛ ومن غير تشبيهٍ ولا تمثيلٍ، إثبات الصفات؛ ونفي مشابهة المخلوقات.

فمن شبَّه الله بخلقه: فقد كفر، ومن جحد حقائق ما وصف الله به نفسه: فقد كفر، ومن أثبت له حقائق الأسماء والصفات ونفى عنه مشابهة المخلوقات: ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾[1])[2].

ولما كانت هذه النقول السالفة الذكر متضمنة للإجماع المنافي للاختلاف: زاد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في المسألة التي تليها هذا الأمر تأكيداً؛ مبيناً انتفاء وقوع الخلاف بين أحد من المرسلين في باب توحيد الأسماء والصفات.

المسألة السابعة:

تقريره أنَّ الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لم يختلف اثنان منهم في باب الأسماء والصفات.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الرسل ــ من أولهم إلى آخرهم ــ ليس بينهم اختلافٌ في أسماء الربِّ وصفاته وأفعاله؛

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠١.

(٢) الروح ص٥٧٩.

وإن تنوَّعت شرائعهم العملية بحسب المصلحة.

فلم يختلف منهم اثنان في باب الأسماء والصفات، وإن كان في الكتابَيْنِ ــ اللَّذين لم ينزل من السماء كتابٌ أهدى منهما ــ من ذلك ما ليس في غيرهما(١)، حتى زعمت أئمة المعطلة أنهما كتابا تشبيهٍ؛ ومن جاء بهما إماما المُشبِّهة.

وقال بعض من تتبع النصوص النبوية في ذلك والآثار السلفية: إنه وجدها تزيد على ألفٍ، وقال غيره: إنها تزيد على مائة ألف، ولا تنافي بينهما، فإن **الأول**: أراد ما يدلُّ على نصوص العُلُوِّ والاستواء، **والثاني**: أراد ما يدلُّ على المباينة؛ وأن الله ــ سبحانه ــ بائن من خلقه)(٢).

وفي خاتمة هذا المطلب يتضح جلياً من تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ المشار إليه وغيره(٣): أن أتباع الرسل

---

(١) أي: التوراة والقرآن، ولعل ذلك الأمر: يُفسِّر كثرة ورودهما مقترنين في كتاب الله الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة الأنعام: الآيتان ٩١ ــ ٩٢].

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٧٩.

(٣) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٢٤٩، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٩٣؛ ٢/ ٤٥٦؛ ٥٣١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٧٢ ــ ٨٧٣؛ ٩٣٣ ــ ٩٣٤، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٦٦٦؛ ١٢٩٥ ــ ١٣١٦؛ ٣٠٨٩؛ ٣١٨٥ ــ ٣٤٥٦؛ ٣٩٢٦ ــ ٣٩٢٨؛ ٤٥٩٣ ــ ٤٦٢٥؛ ٥٤٦١)]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٧٤ ــ ٤٧٥.

ـ عليهم السلام ـ حقاً؛ والموافقين لهم صدقاً: هم أهل السنة والجماعة؛ المثبتون لله ـ عزَّ وجلّ ـ ما يليق به، والنافون عنه ما يتنزَّه عنه. وأن المناوئين لهم من سائر طوائف المعطلة: هم أتباع أعداء الرسل؛ المخالفين لهم.

فعرَّف ـ رحمه الله تعالى ـ (عساكر الإسلام والسنة وأمراءها، وعساكر البدع والتجهم، ليتحيَّز المقاتل إلى إحدى الفئتين على بصيرة من أمره، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[1])[2].

❑ ❑ ❑

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٣٣١.

المطلب الخامس:

جهوده في تقرير أنَّ الرسول ﷺ عرَّف الأمة توحيد الأسماء والصفات أتمَّ تعريف

إنَّ الله تعالى قد سدَّ ببعثة النبـي ﷺ حاجة العباد وفاقتهم إلى معرفة ربِّهم؛ والتعبُّد له بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وجعل رسوله ﷺ (واعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيباً يبرىء بإذنه من أنواع الألم)[1].

وقد قام رسول الله ﷺ بأعباء هذه البعثة حقَّ القيام؛ فبلَّغ الرسالة؛ وأدى الأمانة؛ ونصح الأمة، فكان في تعريفه ﷺ الأمة بربِّها ـ تبارك وتعالى ـ ؛ وأسمائه وصفاته: (أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً؛ وأسرعهم أداءً؛ وأحلاهم منطقاً، حتى إن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب؛ ويسبي الأرواح)[2].

وإن من تمام تحقيق الشهادة للنبـي ﷺ بالرسالة: أن يعتقد العباد كمال نصح الرسول ﷺ، وأن العباد قد نالوا (ببركة رسالته؛ ويمن سفارته)[3]: معرفة ربِّهم وبارئهم ـ سبحانه وتعالى ـ والفقه في أسمائه وصفاته، وأنه ﷺ قد جمع في تعريفه بين (كمال بيان المتكلم وفصاحته

(١) التبيان في أقسام القرآن ص٢٥٧.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ١٨٢.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٦٢.

وحسن تعبيره، وكمال معرفته وعلمه بما يُعبِّر عنه، وكمال نصحه وإرادته لهداية الخلائق)[1].

فمن قدح بعد ذلك في نصح الرسول ﷺ؛ وتعريفه لأمته بمعبودها الحقِّ وأسمائه وصفاته: فقد قطع سبب التعريف الذي جعله الله تعالى (بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول فلا يُغلق إذا غُلِّقت الأبواب)[2].

وقد برزت جهود الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير أهمية توحيد الله تعالى بأسماء الجلال وصفات الكمال؛ مقرراً تعريف رسول الله ﷺ لهذا التوحيد؛ وأنه وقع منه على أتم الوجوه، ومبيناً أن رسول الله ﷺ قد أوضح لأمته توحيد الأسماء والصفات غاية الإيضاح؛ وبينّه لهم بياناً شافياً لا لبس فيه ولا إشكال ولا اشتباه، حتى لم يدع بعد تعريفه لقائلٍ مقالاً.

وبيان ما تضمنه هذا المطلب من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ وتفصيله مودعٌ في النقول الكثيرة؛ والأوجه الوفيرة التي تضمنتها المسائل الآتية الذكر:

المسألة الأولى:

تقريره أنَّ الله تعالى سدَّ حاجة العباد وفاقتهم إلى معرفة ربّهم؛ والتعبُّد له بأسمائه وصفاته: ببعثة النبي ﷺ.

إنَّ من رحمة الله ــ تبارك وتعالى ــ ؛ وتمام منته على عباده: أن أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، يتلو عليهم آيات ربهم؛ ويعلمهم

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٢٥.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧.

ما يحتاجون إليه في أمور معاشهم ومعادهم، فهدى الله بنبيه ورسوله ﷺ الناس من الضلالة، وعَلَّم به من الجهالة، وفتح به أعيناً عمياً؛ وآذاناً صُمّاً؛ وقلوباً غلفاً، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[1].

ولقد أحسن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في بيان حاجة الناس إلى رسالة النبي ﷺ؛ وفاقتهم إلى بعثته، فقال: (إن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عُبَّاد أوثانٍ؛ وعُبَّاد صلبانٍ؛ وعُبَّاد نيرانٍ؛ وعُبَّاد الكواكب؛ ومغضوبٍ عليهم ـ قد باؤوا بغضب من الله ـ ؛ وحيران لا يعرف ربًّا يعبده؛ ولا بماذا يعبده؟

والناس يأكل بعضهم بعضاً، من استحسن شيئاً دعا إليه؛ وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضعُ قدمٍ مُشرقٌ بنور الرسالة.

وقد نظر الله ـ سبحانه ـ حينئذٍ إلى أهل الأرض فمقتهم ـ عربهم وعجمهم ـ ؛ إلا بقايا على آثارٍ من دينٍ صحيحٍ، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظُلَم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة؛ وعَلَّم به من الجهالة؛ وكَثَّر به بعد القلة؛ وأَعَزَّ به بعد الذِلَّة؛ وأغنى به بعد العَيْلَة، وفتح به أعيناً عُمْياً؛ وآذاناً صُمّاً؛ وقلوباً غُلْفاً.

فعَرَّف الناس ربَّهم ومعبودهم غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ وأعاد؛ واختصر وأطنب في ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله، حتى تجلَّت معرفته ـ سبحانه ـ في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشكِّ والرَّيْب عنها؛ كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف لا إلى من قبله ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كلِّ من تكلَّم في هذا الباب، ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[1])[2].

المسألة الثانية:

تقريره أنَّ الرسول ﷺ بلَّغ الرسالة؛ وأدّى الأمانة؛ ونصح الأمة في التعريف بالله ـ سبحانه ـ وأسمائه وصفاته.

إنَّ نبي الله ﷺ كان أعلم الناس بربِّه ومولاه، كما قال ﷺ: «والله إني لأعلمهم بالله؛ وأشدهم له خشية»[3].

وكان من كمال رأفته ورحمته بأمته ـ التي امتدحه الله تعالى بها بقوله: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[4] ـ: أن عرَّفهم جميع ما لله ـ سبحانه وتعالى ـ من الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ وما له من الحقوق على عباده.

وقد جاء تعريف النبي ﷺ لأمته ببيان شافٍ؛ وإيضاح كافٍ، لا لبس فيه ولا إشكال؛ ولا غموض ولا مِحال، بل كان النبي ﷺ يُجيب من سأله

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٥١.

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأدب/ باب من لم يواجه الناس بالعتاب ـ الحديث رقم (٦١٠١) ـ ٤/ ١٩٢٤] من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وأوله: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه».

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

من أصحابه ــ رضي الله عنهم ــ عن أسماء الله تعالى وصفاته: بتقريرها وتقريبها من أفهامهم بالأمثال والمقاييس.

وقد كان النبي ﷺ يُبدىء في تعريف الناس بربِّهم ويعيد، ويُعرِّفهم ما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، بل كان مدار خطبه ﷺ في الجوامع الكبار على الثناء على الله تعالى بأسماء الجلال وصفات الكمال ونعوت الجمال.

وقد وقع تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه المسألة على أحسن الوجوه وأبهاها؛ وأبينها وأهداها، حيث أوضح ــ رحمه الله تعالى ــ في مواضع متفرقةٍ: نصح النبي ﷺ لأمته في تعريفهم ربَّهم ومعبودهم ــ سبحانه وتعالى ــ ، ومن هذه المواضع ما يأتي:

أولاً: تقريره أن رسول الله ﷺ أعلم الناس بتفاصيل الأسماء والصفات؛ وأفصحهم في التعبير عنها وإيضاحها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (كان أعلمَ الناس بتفاصيل الأسماء والصفات؛ وحقائقها.

وكان أفصحَ الناس في التعبير عنها؛ وإيضاحها وكشفها بكلِّ طريقٍ، كما يفعله بإشارته وحاله.

كما في الصحيح عن ابن عمر قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وهو يقول: «يقبض الله سماواته بيده والأرض باليد الأخرى. وجعل رسول الله ﷺ يقبض يده ويبسطها؛ يحكي ربَّه ــ تبارك وتعالى ــ »[1]. تحقيقاً لإثبات

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ــ الحديث رقم (٧٤١٢) ــ ٥/ ٢٣١٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب صفة القيامة والجنة والنار ــ الحديث رقم (٢٧٨٨) ــ ٤/ ٢١٤٨ ــ ٢١٤٩]، وأوله: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرض».

اليد؛ وصفة القبض والبسط؛ لا تشبيهاً وتمثيلاً)[1].

ولما كان رسول الله ﷺ أعلم الخلق بتفاصيل الأسماء والصفات: كان أكملهم ذكراً لله ــ عزَّ وجلّ ــ بها؛ وأرشدهم إلى تعريف الناس بجميع ما لله تعالى من الأسماء والصفات، فكان ﷺ أعلمَ الخلق وأكملَهم وأرشدَهم ــ اعتقاداً وقولاً وعملاً ــ في معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته. وإلى ذلك المعنى وقعت الإشارة في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في الوجهين الآتيين.

ثانياً: تقريره أن النبي ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله تعالى وثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله ــ عزَّ وجلّ ــ ، بل كان كلامه كلُّه في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الربِّ وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكراً منه له، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكراً منه، وسكوته وصمته ذكراً منه له بقلبه.

فكان ذاكراً لله في كلِّ أحيانه؛ وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه: قائماً وقاعداً وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه؛ ومسيره ونزوله؛ وظعنه وإقامته)[2].

ثالثاً: تقريره أن الرسول ﷺ عرَّف أمته توحيد الأسماء والصفات بما لم يُعرِّف به نبيٌّ أمتَه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن محمداً ﷺ أرشد الناس إلى جميع الحقِّ؛ حتى أكمل الله به الدين؛ وأتمَّ به النعمة، ولهذا كان خاتم الأنبياء، فإنه لم يبق شيءٌ يأتي به غيرُه، وأخبر محمد ﷺ بكلِّ ما يأتي

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥١٢.
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٦٥.

من أشراط الساعة؛ والقيامة والحساب والصراط ووزن الأعمال؛ والجنة وأنواع نعيمها؛ والنار وأنواع عذابها)[١].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (فأخبر من الأمور التي تأتي في المستقبل بما لم يأت به نبيٌّ من الأنبياء؛ كما نَعَتَهُ المسيح ﷺ حيث قال: (إنه يُخبركم بكلِّ ما يأتي)[٢].

ولا يوجد مثل هذا أصلاً عن نبيٍّ من الأنبياء قبل محمد ﷺ؛ فضلاً عن أن يُوجد في شيءٍ أُنزل على قلب بعض الحواريين، وأيضاً فإنه قال: (ويُعرِّفكم جميع ما للربِّ)[٣].

فبيَّن أنه يُعرِّف الناس جميع ما لله، وذلك يتناول ما لله من الأسماء والصفات، وما له من الحقوق، وما يجب من الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله، بحيث يكون ما يأتي به جامعاً لما يستحقه الربُّ ـ سبحانه وتعالى ـ .

وهذا لم يأت به غيرُ محمد ﷺ، فإنه تضمن ما جاء به من الكتاب والحكمة)[٤].

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٣٣٠.

(٢) الكتاب المقدس: يوحنا ١٦/ ٧ ـ ١٦.

ولفظه فيما يرويه يوحنا عن المسيح ـ عليه السلام ـ قال: (إن خيراً لكم أن أنطلق، لأني إن لم أذهب لم يأتيكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء فهو يُوبِّخ العالم على الخطيئة، وإن لي كلاماً كثيراً أريد قوله؛ ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحقِّ: ذاك الذي يُرشدكم إلى جميع الحقِّ، لأنه ليس ينطق من عنده؛ بل يتكلَّم بما يسمع، ويُخبركم بكلِّ ما يأتي، ويُعرِّفكم جميع ما للأب).

(٣) الكتاب المقدس: يوحنا ١٦/ ٧ ـ ١٦.

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٣٣١.

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (ومن الذي عَرَّف الأمةَ ما ينبغي لله حقَّ التعريف غيرُه؟ ومن الذي يتكلَّم في هذا الباب بما لم يطق أكثر العالم أن يقبلوه غيرُه؛ حتى عجزت عنه عقولٌ كثيرةٌ ممن صدَّقه وآمن به؟ فساموه أنواع التحريف والتأويل بعجز عقولهم عن حمله؛ كما قال أخوه المسيح ــ صلوات الله عليهما وسلامه ــ .

ومن الذي أُرسل إلى جميع الخلق ــ قولاً وعملاً واعتقاداً ــ في معرفة الله وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله وقضائه وقدره غيرُه ﷺ؟)[1].

رابعاً: تقريره أن رسالته ﷺ أُخلصت في تعريف الربِّ تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله للأمة؛ والتعريف بحقوق هذه المعرفة ومتعلَّقاتها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ إنما جاء بتعريف الربِّ تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتعريف بحقوقه على عباده.

فمن أنكر رسالته: فقد أنكر الربَّ الذي دعا إليه؛ وحقوقه التي أمر بها، بل نقول: لا يمكن الاعتراف بالحقائق على ما هي عليه مع تكذيب رسوله ﷺ)[2].

خامساً: تقريره أن الرسول ﷺ بيَّن للأمة توحيد الأسماء والصفات بياناً شافياً؛ لا يقع فيه لبس ولا إشكال ولا اشتباه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ عن الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ : لم يتنازعوا في تأويل آيات الصفات وأخبارها في موضعٍ واحدٍ، بل اتفقت كلمتهم وكلمة التابعين بعدهم على إقرارها وإمرارها؛ مع فهم معانيها وإثبات حقائقها.

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٣٣٧.

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٨٤.

وهذا يدلُّ على أنها أعظم النوعين بياناً، وأن العناية ببيانها أهمُّ؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد.

فبيَّنها الله ورسوله بياناً شافياً لا يقع فيه لبسٌ؛ ولا إشكالٌ يوقع الراسخين في العلم في منازعةٍ؛ ولا اشتباهٌ)[1].

سادساً: تقريره أن كشف رسول ﷺ وبيانه وإيضاحه لثبوت أسماء الله تعالى وصفاته؛ ونفي الإجمال والاحتمال عنها: لا مزيد عليه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله: «إنكم ترون ربكم عياناً؛ كما ترون القمر ليلة البدر صحواً؛ ليس دونه سحاب»[2]: تحقيقاً لثبوت الرؤية؛ ونفياً لاحتمال ما يوهم خلافها، فأتى بغاية البيان والإيضاح.

وكذلك قوله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم أضل راحلته بأرضٍ دوِّيةٍ مُهلكةٍ؛ عليها طعامه وشرابه، فطلبها حتى يئس منها، فاضطجع في أصل شجرةٍ، فرأى راحلته عليها طعامه وشرابه، فقام فأخذها، فجعل يقول من شدة الفرح: اللَّهُمَّ أنت عبدي؛ وأنا ربُّك. أخطأ من شدَّة الفرح»[3].

هذه ألفاظ رسول الله ﷺ، ثم قال: «كيف ترون فرح هذا براحلته؟ قالوا: عظيماً يا رسول الله. قال: فوالله؛ لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته»[4].

فهذا الكشف والبيان والإيضاح الذي لا مزيد عليه: تقريرٌ لثبوت هذه الصفة؛ ونفي الإجمال والاحتمال عنها.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢١٠.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «هل تمارون في القمر ليلة البدر».

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه، ولفظه: «كيف تقولون بفرح رجلٍ».

وكذلك قوله في حديث النداء: «فيناديهم بصوت»[1].

فذكر الصوت تحقيقاً لصفة النداء وتقريراً، ولو لم يذكره لدلَّ عليه لفظ النداء، كما لو قيل: يعلم بعلمٍ؛ ويقدر بقدرةٍ؛ ويُبصر ببصرٍ.

وهذا ونحوه إنما يُراد به تحقيق الصفة وإثباتها؛ لا تشبيه الموصوف وتمثيله، كما أن قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[2]، إنما سيق لإثبات الصفات وعظمتها؛ لا لنفيها.

كما قال عثمان بن سعيد الدارمي[3] في قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[4]، قال: (معناه: هو أحسن الأشياء وأجملها. وقالت الجهمية: معناه: ليس هناك شيءٌ)[5].

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت».
(٢) سورة الشورى: الآية ١١.
(٣) هو: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد التميمي الدارمي السجستاني، ولد قبل المائتين بيسير، وتوفي في ذي الحجة سنة ثمانين ومائتين.
وصفه الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٢٢٨] بقوله: (الإمام؛ حافظ أهل المشرق؛ وشيخ الأئمة).
انظر في ترجمته: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٢٢١، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣/ ٣١٩ ــ ٣٢٦، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ٢/ ١٧٦.
(٤) سورة الشورى: الآية ١١.
(٥) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افتراه على الله عزَّ وجلّ من التوحيد ٢/ ٩٠٩.
ولفظه في نقضه: (فقولنا: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾: أنه شيء أعظم الأشياء؛ وخالق الأشياء؛ وأحسن الأشياء، نور السماوات والأرض. وقول الجهمية: =

ومن هذا حديث الصورة؛ وقوله: «خلق آدم على صورة الرحمن»[1].

لم يرد به تشبيه الربِّ وتمثيله بالمخلوق؛ وإنما أراد به تحقيق الوجه وإثبات السمع والبصر والكلام ـ صفة ومحلاً ـ ، والله أعلم)[2].

سابعاً: تقريره أن مدار خطب النبي ﷺ على الثناء على الله تعالى بآلائه وأسماء جلاله وأوصاف كماله؛ التي تُحبِّبه إلى خلقه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (كان مدار خطبِهِ على حمد الله؛ والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجنة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد

= ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: يعنون به أنه لا شيء، لأنهم لا يثبتون في الأصل شيئاً؛ فكيف المثل؟ وكذلك صفاته: ليس عندهم شيء).

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٢٣١] في وصف كتابي الدارمي ـ النقض والرد على الجهمية ـ : (وكتاباه من أجلِّ الكتب المصنفة في السنة وأنفعها، وينبغي لكلِّ طالب سنةٍ ـ مراده الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة ـ : أن يقرأ كتابيه. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يُوصي بهذين الكتابين أشدَّ الوصية؛ ويُعظِّمهما جداً. وفيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات ـ بالعقل والنقل ـ ما ليس في غيرهما).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الاستئذان/ باب بدء السلام ـ الحديث رقم (٦٢٢٧) ـ ٤/١٩٥٩]، ومسلم في صحيحه [كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ـ الحديث رقم (٢٨٤١) ـ ٤/ ٢١٨٣ ـ ٢١٨٤] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥١٤ ـ ٥١٥.

غضبه ومواقع رضاه، فعلى هذا كان مدار خطبِهِ)[1].

وقال ــ رحمه الله تعالى ــ : (كانت خطبته ﷺ إنما هي تقريرٌ لأصول الإيمان؛ من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وذكر الجنة والنار، وما أعدَّ الله لأوليائه وأهل طاعته؛ وما أعدَّ لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوبَ من خطبته إيماناً وتوحيداً؛ ومعرفة الله وأيامه.

لا كخطب غيره التي إنما تُفيد أموراً مشتركة بين الخلائق؛ وهي: النَّوْح على الحياة؛ والتخويف بالموت، فإن هذا أمر لا يُحصِّل في القلب إيماناً بالله؛ ولا توحيداً له ولا معرفة خاصة به؛ ولا تذكيراً بأيامه؛ ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه.

فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة؛ غير أنهم يموتون؛ وتُقسَّم أموالهم؛ ويُبْلِي الترابُ أجسامَهم، فيا ليت شعري؛ أيُّ إيمانٍ حَصَلَ بهذا؟ وأيُّ توحيدٍ ومعرفةٍ وعلمٍ نافعٍ حَصَلَ به؟

ومن تأمَّل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه: وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد، وذكر صفات الربِّ ــ جل جلاله ــ ؛ وأصول الإيمان الكلية، والدعوة إلى الله، وذكر آلائه تعالى التي تُحبِّبه إلى خلقه؛ وأيامه التي تُخوِّفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يُحبِّبهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يُحبِّبه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يُحبِّبهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبُّوه وأحبَّهم.

ثـم طال العهد وخفي نور النبوة؛ وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تُقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها؛ وزيَّنوها بما زيَّنوها به، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها، وأخلوا

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ١٨٨.

بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصَّعوا[1] الخطب بالتسجيع[2] والفِقَر[3] وعلم البديع[4]، فنقص؛ بل عدم حظُّ القلوب منها؛ وفات المقصود بها)[5].

ثامناً: تقريره أن النبي ﷺ كان يُجيب صحابته ــ رضي الله عنهم ــ عما يُشكل عليهم من أسماء الله تعالى وصفاته بتقريرها؛ لا بتحريفها وتأويلها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنهم يسألونه عما يُشكل عليهم

---

(١) قال الكفوي في كتابه [الكليات ص٣١٢]: (الترصيع: هو توازن الألفاظ، مع توافق الأعجاز؛ أو تقاربها).
وانظر: التعريفات للجرجاني ص٧٨، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي ص٤٠٦.

(٢) قال الجرجاني في كتابه [التعريفات ص١٥٦]: (السجع: هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد في الآخر).
وانظر: الكليات للكفوي ص٥٠٩، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي ص٤٠٤، المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عوني ١/١٨٨.

(٣) قال الجرجاني في كتابه [التعريفات ص٢١٦]: (الفقرة في اللغة: اسمٌ لكلِّ حُلِيٍّ يُصاغ على هيئة فقار الظهر، ثم استعير لأجود بيتٍ في القصيدة: تشبيهاً له بالحُلِيِّ، ثم استعير لكلِّ جملةٍ مختارةٍ من الكلام: تشبيها لها بأجود بيتٍ في القصيدة).
وانظر: الكليات للكفوي ص٥١٠.

(٤) قال الجرجاني في كتابه [التعريفات ص٢٠٠]: (علم البديع: هو علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة، أي: الخلوّ عن التعقيد المعنويِّ).
وانظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي ص٣٦٠ ــ ٣٦١، المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عوني ١/ ١٦٢.

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٤٢٣ ــ ٤٢٤.

من الصفات، فيُجيبهم بتقريرها؛ لا بالمجاز[1] والتأويل الباطل.

كما سأله أبو رزين العقيلي عن صفة الضحك[2]؛ لما قال: «ينظر إليكم أزلين مشفقين؛ فيظلُّ يضحك، يعلم أن فرجكم قريب»[3].

---

(١) الجوز لغة: هو قطع الشيء، جاز الطريق: سار فيه وسلكه، وأجازه خلَّفه وقطعه.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١١/١٤٨، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/٤٩٤، لسان العرب لابن منظور ٥/٣٢٦ [مادة: جوز].
وأما اصطلاحاً: فهو مُضَمَّنٌ في قول الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٢٧٣]: (إن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز: ليس تقسيماً شرعيًّا ولا عقليًّا ولا لغويًّا، فهو اصطلاحٌ محضٌ؛ حدث بعد القرون الثلاثة المُفضَّلة بالنص، وكان منشؤه من جهة المعتزلة والجهمية؛ ومن سلك طريقهم من المتكلمين. وأشهر ضوابطهم قولهم: إنَّ الحقيقة: هي اللفظ المستعمل فيما وضع له أوَّلاً، والمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وُضع له أولاً. ثم زاد بعضهم: في العرف الذي وقع به التخاطب؛ لتدخل الحقائق الثلاث؛ وهي: اللغوية والشرعية والعرفية).

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/٦٧٧] في وصف حديث أبي رزين لقيط بن عامر بن المنتفق العقيلي ـ رضي الله عنه ـ : (هذا حديثٌ كبيرٌ جليلٌ، تُنادي جلالتُه وفخامتُه وعظمتُه على أنه قد خرج من مشكاة النبوة).
كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ـ الأبيات رقم (٤٩٦٠ ـ ٤٩٦١) ـ ص٣٥٠] في وصفه:
(هذا حديث لقيط المعروف بالـ ... ـخبر الطويل وذا عظيم الشانِ
وعليه كلُّ جلالة ومهابةٍ ولكم ... حــواه بعـد مـن عـرفـانِ).
وانظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (١٧٤٠ ـ ١٧٤٤) ـ ص١٤٦].

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦٢٠٦) ـ ٢٦/١٢١ ـ ١٢٨]، وأوله: «أيها الناس؛ ألا إني قد خبَّأتُ لكم صوتي».

«فتعجب أبو رزين من ضحك الربِّ تعالى؛ وقال: يا رسول الله، أو يضحك الربُّ؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: لن نعدم من ربٍّ يضحك خيراً»[1].

والجهميُّ لو سُئِلَ عن ذلك؛ لقال: لا يجوز عليه الضحك؛ كما لا يجوز عليه الاستواء والنزول والإتيان والمجيء.

وكذلك لما أخبرهم رسول الله عن رؤية الربِّ تعالى: فهموا منها رؤية العيان؛ لا مزيد العلم، كما استشكل بعضهم ذلك؛ وقال: يا رسول الله، كيف يسع الخلائق؛ وهو واحدٌ ونحن كثيرٌ؟ ـ وهذا السائل أبو رزين أيضاً ـ ، فقرَّر رسول الله ﷺ فهمَه؛ وقال: «سأُخبرك بمثل ذلك في آلاء الله، أليس كلُّكم يرى القمر مخلياً به؟ قال: بلى. قال: فالله أكبر»[2].

وهذا يدلُّ على أن القوم إنما أُحيلوا في إثبات ذلك على ما دلَّ عليه اللفظ؛ وعلى ما بيَّنه لهم من أُنزل عليه الوحي؛ لا على رأي جهمٍ[3]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦١٨٧) ـ ٢٦/ ١٠٦]، وابن ماجه في سننه [المقدمة/ باب فيما أنكرت الجهمية ـ الحديث رقم (١٨١) ـ ١/ ١١٦]، وأوله: «ضحك ربُّنا من قنوط عباده».
وحسنهما الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (٢٨١٠) ـ ٦/ ٧٣٢ ـ ٧٣٩].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦١٨٦) ـ ٢٦/ ١٠٥]، وأبو داود في سننه [كتاب السنة/ باب في الرؤية ـ الحديث رقم (٤٧٣١) ـ ٥/ ٩٩ ـ ١٠٠]، وابن ماجه في سننه [المقدمة/ باب فيما أنكرت الجهمية ـ الحديث رقم (١٨٠) ـ ١/ ١١٦]، وأوله: «يا أبا رزين؛ أليس كلكم يرى القمر».
وحسنه الألباني في [صحيح سنن ابن ماجه: الحديث رقم (١٥٠) ـ ١/ ٧٨].

(٣) هو: أبو محرز جهم بن صفوان الراسبي مولاهم السمرقندي، أسُّ الضلالة؛ ورأس الجهمية، قُتل على يد سالم بن أحوز سنة ثمان وعشرين ومائة. =

وجعـدٍ[1] والنظـام[2] . . . .

= انظر في ترجمته: الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥/ ٣٤٢ ــ ٣٤٤، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام للذهبي [حوادث ووفيات ١٢١ ــ ١٤٠] ص٦٥ ــ ٦٨، البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٢٨.

(١) هو: الجعد بن درهم؛ مؤدب مروان الحمار، أول من ابتدع: بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلاً؛ ولا كلم موسى تكليماً، قُتل في مدينة واسط بالعراق في أوائل المائة الثانية على يد الأمير أبي الهيثم خالد بن عبد الله القسري.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٥٦]: (ضحى خالد بن عبد الله القسري بشيخ المعطلة الفرعونية: جعد بن درهم، فإنه خطبهم في يوم أضحى، فلما أكمل خطبته قال: (أيها الناس ضحوا؛ تقبَّل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يكلِّم موسى تكليماً؛ ولم يتخذ إبراهيم خليلاً ــ تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ــ)، ثم نزل فذبحه، فكان ضحيته).

وانظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٧١؛ ٤/ ١٣٩٦، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٨.

وقال ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية/ الأبيات رقم (٥٠ ــ ٥٢) ــ ص٣٤]:

(ولأجل ذا ضحى بجعدٍ خالدُ الـ ... ـقسري يوم ذبائح القربانِ
إذ قال إبراهيم ليس خليله ... كلا ولا موسى الكليم الداني
شكر الضحيَّة كلُّ صاحب سنةٍ ... لله درُّك من أخي قربانِ).

انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٤٣٣، البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٣٦٤ ــ ٣٦٥، مقالة التعطيل والجعد بن درهم للدكتور التميمي ص١٢٥ ــ ١٦١.

(٢) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن سيار، مولى آل الحارث بن عباد الضبعي البصري، شيخ المعتزلة، وكان ظهوره سنة عشرين ومائتين، وكان يُدمن شرب الخمر؛ وله فيها أشعارٌ، حتى ورد في سبب موته: أنه سقط من غرفة وهو سكران؛ فمات سنة بضع وعشرين ومائتين. =

والعلاف[1] والمريسي[2] وتلامذتهم، ولا على غير ما يتبادر إلى أفهامهم من لغاتهم وخطابهم.

كان يقرر لهم ذلك؛ ويُقرِّبه من أفهامهم بالأمثال والمقاييس العقلية؛ تقريراً لحقيقة الصفة)[3].

تاسعاً: تقريره أن الله تعالى جعل من صلاته وصلاة أهل سماواته وأرضه على رسوله ﷺ ما يكون تنويهاً به وتشريفاً له؛ جزاء تعريفه الناس بأسماء الله تعالى وصفاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض يُصلُّون على مُعلِّم الناس الخير»[4].

= انظر في ترجمته: اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير ٣/ ٣١٦، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٥٤١ ــ ٥٤٢، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ٢/ ٢٣٤.

(١) هو: أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبيد الله البصري العلاف، رأس الاعتزال، مات سنة ست وعشرين ومائتين؛ وقد قارب المائة سنة، وكان قد كُفَّ بصره؛ وخرف في آخر عمره.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ١١/ ١٧٣ ــ ١٧٤، نكت الهميان في نكت العميان للصفدي ٢٧٧ ــ ٢٧٩، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ٢/ ٨٥.

(٢) هو: أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم البغدادي المريسي، رأس الجهمية في زمانه، وهو وإن لم يدرك جهماً؛ إلا أنه تلقَّف مقالاته من أتباعه، مات في آخر سنة ثماني عشرة ومائتين؛ وقد قارب الثمانين.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٧/ ٥٦ ــ ٦٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ١٩٩ ــ ٢٠٢، الوافي بالوفيات للصفدي ١٠/ ١٥١ ــ ١٥٢.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥١٥ ــ ٥١٦.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب العلم/ باب ما جاء في فضل الفقه على =

لما كان تعليمه للناس الخير سبباً لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم: جازاه الله من جنس عمله؛ بأن جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سبباً لنجاته وسعادته وفلاحه.

وأيضاً فإن مُعلِّم الناس الخير لما كان مُظهراً لدين الربِّ وأحكامه؛ ومُعرِّفاً لهم بأسمائه وصفاته: جعل الله من صلاته وصلاة أهل سماواته وأرضه عليه ما يكون تنويهاً به وتشريفاً له؛ وإظهاراً للثناء عليه بين أهل السماء والأرض)(١).

وقال ــ رحمه الله تعالى ــ في الصلاة على النبي ﷺ: إنها متضمنةٌ لذكر الله تعالى؛ وشكره؛ ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله.

فالمُصلِّي عليه ﷺ قد تضمنت صلاته عليه: ذكر الله؛ وذكر رسوله؛ وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله؛ كما عرَّفنا ربَّنا وأسماءه وصفاته، وهدانا إلى طريق مرضاته، وعرَّفنا مالنا بعد الوصول إليه والقدوم عليه.

فهي متضمنةٌ لكل الإيمان، بل هي متضمنة للإقرار بوجود الربِّ المدعوِّ وعلمه وسمعه وقدرته وإرادته وحياته وكلامه؛ وإرسال رسوله؛ وتصديقه في أخباره كلِّها؛ وكمال محبَّته.

ولا ريب أن هذه هي أصول الإيمان، فالصلاة عليه ﷺ متضمنةٌ لعلم العبد ذلك؛ وتصديقه به؛ ومحبته له، فكانت من أفضل الأعمال)(٢).

= العبادة ــ الحديث رقم (٢٦٨٥) ــ ٤/٤١٦] من حديث أبي أمامة الباهلي ــ رضي الله عنه ــ، وأوله: «فضل العالِم على العابد».
وصححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي ٣/٧٢].

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/٢٥٣.

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٦٢٤.

المسألة الثالثة:

تقريره وجوب اعتقاد العبد لكمال نصح الرسول ﷺ؛ وتمام تعريفه الأمة بربّها ـ سبحانه وتعالى ـ وأسمائه وصفاته.

إنَّ الواجب على العبد أن يُحقِّق معنى شهادة: (أنَّ محمداً رسول الله)؛ والتي تقتضي أن يُصدِّق رسول الله ﷺ فيما أخبر؛ وأن يُطيعه فيما أمر؛ وأن يجتنب ما نهى عنه وزجر؛ وأن لا يعبد الله ـ تبارك وتعالى ـ إلا بما شرع.

وإن من حسن متابعة الرسول النبيِّ الأميِّ ﷺ: الإيمان به وتعزيره وتوقيره ونصرته واتباع النور الذي أُنزل معه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1].

وإن من تمام ذلك: أن يعتقد العبد اعتقاداً لا يُداخله ريبٌ ولا شكٌّ: أن تعريف الرسول ﷺ الأمةَ بربِّها ـ تبارك وتعالى ـ وأسمائه وصفاته وقع على أكمل وجوه البيان وأبهاها، وأعلى منزلة النصح وأسناها، وأنه ﷺ بلَّغ في تعريفه رسالة ربِّه؛ وأدَّى الأمانة؛ ونصح لأمته.

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بتقرير هذا الأمر؛ وأن الواجب فيه على العبد اعتقاد أن الحقَّ في باب أسماء الله تعالى وصفاته: هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وجاء به، وأن الإيمان لا يُخالط بشاشة قلب العبد إلا باعتقاد ذلك وتيقُّنه، وذلك أن تعريف النبي ﷺ أسماء الله تعالى وصفاته لأمته من الأمور المعلومة بالدين بالضرورة،

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

فالواجب على العبد أن يقطع بوقوع هذا التعريف على أتمِّ وجهٍ وأكمله؛ كما يقطع بوقوع تعريفه ﷺ سائر أحكام الدين وواجباته لأمته، وأن الأمة لا تحتاج بعد بيانه وتعريفه إلى سواه؛ بل قد كفاها رسولها ﷺ بهذا التعريف وشفاها، واعتقاد ذلك: هو حقيقة الرضى بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، والعبد متى عقد قلبه على ذلك: فقد نجى ــ بمشيئة الله تعالى ــ من فتنة الشبهات.

وجميع ما سبقت الإشارة إليه: يتضح جلياً في تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الآتي الذكر:

أولاً: تقريره أن الحقَّ في باب أسماء الله وصفاته: هو ما كان عليه رسول الله ﷺ؛ وجاء به ــ علماً وعملاً ــ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (الحقُّ هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه؛ وما جاء به ــ علماً وعملاً ــ في باب صفات الربِّ ــ سبحانه ــ وأسمائه وتوحيده وأمره ونهيه ووعده ووعيده؛ وفي حقائق الإيمان التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى.

وكلُّ ذلك مُسَلَّمٌ إلى رسول الله ﷺ دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم، فكلُّ علمٍ أو عملٍ أو حقيقةٍ أو حالٍ أو مقامٍ خرج من مشكاة نبوته؛ وعليه السُّكة المحمدية ــ بحيث يكون من ضرب المدينة ــ: فهو من الصراط المستقيم، وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال)[1].

ثانياً: تقريره أن الإيمان لا تُخالط بشاشته القلوب إلا باعتقاد أن الرسول ﷺ بيَّن للأمة توحيد الأسماء والصفات على أتمِّ الوجوه، وأوضحه غاية الإيضاح، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (من أبين المحال أن يكون أفضل الرسل قد علَّم أمته آداب البول ــ قبله وبعده ومعه ــ؛ وآداب الوطء؛

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٦٩ ــ ٧٠.

وآداب الطعام والشراب، ويترك أن يُعلِّمهم ما يقولونه بألسنتهم وتعتقده قلوبهم في ربِّهم ومعبودهم ـ الذي معرفته غاية المعارف؛ والوصول إليه أجلُّ المطالب؛ وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل ـ ، ويُخبرهم فيه بما ظاهره باطلٌ وإلحادٌ، ويُحيلهم في فهم ما أخبرهم به على مستكرهات التأويلات؛ ومستنكرات المجازات، ثم يُحيلهم في معرفة الحقِّ على ما تحكم به عقولهم وتُوجبه آراؤهم، هذا وهو القائل: «تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»(١).

وهو القائل: «ما بعث الله من نبيٍّ إلا كان حقًّا عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شرِّ ما يعلمه لهم»(٢).

وقال أبو ذرٍ: «لقد تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ؛ وما طائرٌ يُقلِّب جناحيه في السماء إلا ذكَّرَنا منه علماً»(٣).

وقال عمر بن الخطَّاب: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فذكر بدء الخلق؛ حتى دخل أهل الجنة منازلهم؛ وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٧١٤٢) ـ ٢٨/ ٣٦٧]، وابن ماجه في سننه [المقدمة/ باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ـ الحديث رقم (٤٣) ـ ١/ ٣٢] من حديث العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ .
وصححه الألباني في [سلسة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (٩٣٧) ـ ٢/ ٦١٠ ـ ٦١١].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الإمارة/ باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ـ الحديث رقم (١٨٤٤) ـ ٣/ ١٤٧٣] من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ ، ولفظه: «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقاً عليه».

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢١٤٣٩) ـ ٣٥/ ٣٤٦]، ولفظه: «لقد تركنا رسول الله ﷺ».

حفظه؛ ونسيه من نسيه» ذكره البخاري[1].

و: «صلَّى بهم رسول الله ﷺ صلاة الظهر؛ ثم خطبهم حتى حضرت العصر، فصلى العصر؛ ثم خطب بهم حتى غربت الشمس، فلم يدع شيئاً كان ولا يكون من خلق آدم إلى قيام الساعة حتى أخبرهم به، حفظه من حفظه؛ ونسيه من نسيه»[2].

فكيف يَتَوَهَّم من لله ولرسوله ودينه في قلبه وقارٌ أن يكون رسول الله ﷺ قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم؛ ولم يتكلَّم فيه بالصواب؛ بل تكلَّم بما ظاهره خلاف الصواب؟

بل لا يتمُّ الإيمان إلا باعتقاد أنَّ بيان ذلك قد وقع من الرسول على أتمِّ الوجوه، وأوضحه غاية الإيضاح، ولم يدع بعده لقائلٍ مقالاً، ولا لمتأولٍ تأويلاً)[3].

ثالثاً: تقريره أن تعريف رسول الله ﷺ أمته توحيد الأسماء والصفات من الأمور المعلومة بالضرورة من دينه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (المُثبتون لعُلُوِّ الله على خلقه؛ واستوائه على عرشه، وتكلُّمه بالقرآن حقيقة، وتكليمه لعبده موسى حقيقة منه إليه بلا واسطة؛ كلاماً أسمعه إياه، وتكليم

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ـ الحديث رقم (٣١٩٢) ـ ٢/٢٨٦].

(2) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الفتن/ باب ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ـ الحديث رقم (٢١٩١) ـ ٤/٥٨] من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «إن الدنيا حلوةٌ خضرةٌ».
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي ص٢٣٨ ـ ٢٣٩].

(3) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/١٥٨ ـ ١٦٠.

عباده في الآخرة؛ وتكليمه ملائكته، وإثبات صفاته، ورؤية المؤمنين له في الجنة من فوقهم عياناً جهرة بأبصارهم: يعلمون أن نبيهم جاء بذلك ضرورة؛ كما أنه جاء بالوضوء والغسل من الجنابة، والصلاة وصوم رمضان والحج والزكاة، وتحريم الظلم والفواحش)(١).

وقال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن ما جاء به الرسول من الإثبات معلومٌ بالضرورة من دينه؛ كما هو معلومٌ بالأدلة اليقينية، فلا يُمكن مع تصديق الرسول مخالفة ذلك)(٢).

رابعاً: تقريره أن الرِّضى بنبوة محمد ﷺ ورسالته يتضمن ألا يرضى في باب أسماء الربِّ وصفاته وأفعاله إلا بحكمه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (أما الرِّضى بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له؛ والتسليم المطلق إليه؛ بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يُحاكم إلا إليه؛ ولا يُحكِّم عليه غيره؛ ولا يرضى بحكم غيره ألبتة؛ لا فى شىءٍ من أسماء الربِّ وصفاته وأفعاله؛ ولا في شيءٍ من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته؛ ولا في شيءٍ من أحكام ظاهره وباطنه، ولا يرضى في ذلك بحكم غيره؛ ولا يرضى إلا بحكمه.

فإن عجز عنه: كان تحكيمه غيره من باب غذاء المُضطرِّ إذا لم يجد ما يُقيته إلا من الميتة والدم، وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب؛ الذي إنما يُتيمَّم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور)(٣).

خامساً: تقريره أن ما جاء به الرسول ﷺ في باب أسماء الله تعالى

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٦٥.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٣٧.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٨٠.

وصفاته: هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلى سواه، وإنما يحتاج إلى غيره من قلَّ نصيبُه من معرفته وفهمه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (القياس الصحيح: هو معقول النصوص، والقياس الباطل المخالف للنصوص: مُضادٌّ للشرع، فهذا الفصل: هو فَرْقُ ما بين ورثة الأنبياء وغيرهم، وأصله مبنيٌّ على حرفٍ واحدٍ وهو: عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كلِّ ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم التي بها صلاحهم في معاشهم ومعادهم، وأنه لا حاجة إلى أحدٍ سواه ألبتة؛ وإنما حاجتنا إلى من يُبلِّغنا عنه ما جاء به.

فمن لم يستقرَّ هذا في قلبه: لم يُرسِّخ قدمَه في الإيمان بالرسول، بل يجب الإيمان بعموم رسالته في ذلك؛ كما يجب الإيمان بعموم رسالته بالنسبة إلى المُكلَّفين، فكما لا يخرج أحدٌ من الناس عن رسالته ألبتة؛ فكذلك لا يخرج حقٌّ من العلم به والعمل عما جاء به، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلى سواه، وإنما يحتاج إلى غيره من قلَّ نصيبه من معرفته وفهمه، فبحسب قلَّة نصيبه من ذلك تكون حاجته.

وإلا فقد تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ وما من طائرٍ يُقلِّب جناحيه في السماء إلا وقد ذكر للأمة منه علماً، وعلَّمهم كلَّ شيءٍ؛ حتى آداب التخلِّي وآداب الجماع والنوم والقعود والأكل والشرب والركوب والنزول.

ووصف لهم العرش والكرسيَّ والملائكة والجنة والنار ويوم القيامة وما فيه؛ حتى كأنه رأي عينٍ، وعرَّفهم بربِّهم ومعبودهم أتمَّ تعريفٍ؛ حتى كأنهم يرونه بما وصفه لهم به من صفات كماله ونعوت جلاله.

وعرَّفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم معهم؛ حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرَّفهم من طرق الخير والشرِّ ــ دقيقها وجليلها ــ ما لم يُعرِّفه نبيٌّ لأمته قبله.

وعرَّفهم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما جلّى لهم ذلك؛ حتى كأنهم يُعاينوه.

وكذلك عرَّفهم من أدلَّة التوحيد والنبوة والمعاد؛ والردِّ على جميع طوائف أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عَرَفَه حاجة إلى كلام أحدٍ من الناس ألبتة.

وكذلك عرَّفهم من مكايد الحروب ولقاء العدوِّ وطرق الظفر به ما لو علموه وفعلوه لم يقم لهم عدوٌّ أبداً، وكذلك عرَّفهم من مكائد إبليس طرقه التي يأتيهم منها ويحترزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شرَّه ما لا مزيد عليه، وبذلك أرشدهم في معاشهم إلى ما لو فعلوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة.

وبالجملة: فقد جاءهم رسول الله ﷺ بخير الدنيا والآخرة بحذافيره، ولم يجعل الله بهم حاجة إلى أحدٍ سواه، ولهذا ختم الله به ديوان النبوة؛ فلم يجعل بعده رسولاً لاستغناء الأمة به عمن سواه.

فكيف يُظنُّ أن شريعته الكاملة المكملة محتاجةٌ إلى سياسةٍ خارجةٍ عنها؛ أو إلى حقيقةٍ خارجةٍ عنها؛ أو إلى قياسٍ خارجٍ عنها؛ أو إلى معقولٍ خارجٍ عنها؟

فمن ظنَّ ذلك: فهو كمن ظنَّ أن بالناس حاجة إلى رسولٍ آخر بعده، وسبب هذا كلِّه: خفاءُ ما جاء به على من ظنَّ ذلك، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٥١.

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[3].

وكيف يشفي ما في الصدور كتابٌ لا يفي بعشر معشار ما الناس محتاجون إليه ــ على زعمهم الباطل ــ ؟

ويا لله العجب، كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين؛ واستخراج هذه الآراء والمقاييس والأقوال؟ أَهَلْ كانوا مهتدين بالنصوص؛ أم كانوا على خلاف ذلك حتى جاء المتأخرون ــ أعلم منهم وأهدى منهم ــ ؟

هذا ما لا يظنه من به رَمَقٌ من عقلٍ أو حياءٍ، نعوذ بالله من الخذلان، ولكن من أُوتي فهماً في الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ: استغنى بهما عن غيرهما؛ بحسب ما أُوتيه من الفهم، و ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾[4].

وهذا الفصل لو بُسِطَ كما ينبغي: لقام منه عِدَّة أسفارٍ، ولكن هذه لفظاتٌ تُشير إلى ما وراءها)[5].

سادساً: تقريره أن الذي يُنجي العبد من فتنة الشبهات: تجريد متابعة الرسول؛ وتحكيمه في إثبات ما أثبته لله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ أو نفاه عنه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في فتنة الشبهات:

---

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٣) سورة يونس: الآية ٥٧.

(٤) سورة الجمعة: الآية ٤.

(٥) بدائع الفوائد ٣/ ١٣٣ ــ ١٣٥.

(لا يُنجِّي مـن هـذه الفتنة إلا: تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في دقِّ الدين وجلِّه؛ ظاهره وباطنه؛ عـقـائده وأعماله؛ حقائقه وشرائعه، فيتلقَّى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام وما يُثبته لله من الصفات والأفعال والأسماء وما ينفيه عنه؛ كما يتلقَّى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها ومقادير نصب الزكاة ومستحقِّيها ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة وصوم رمضان.

فـلا يجعله رسولاً في شيءٍ دون شيءٍ من أمور الدين، بل هو رسولٌ في كلِّ شيءٍ تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل؛ لا يُتلقى إلا عنه ولا يُؤخد إلا منه، فالهدى كلُّه دائرٌ على أقواله وأفعاله، وكلُّ ما خرج عنها: فهو ضلالٌ.

فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض عمَّا سواه ووزنه بما جاء به الرسول؛ فإن وافقه: قبله؛ لا لكون ذلك القائل قاله بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رده؛ ولو قاله من قاله، فهذا الذي يُنجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك: أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه)(١).

المسألة الرابعة:

تقريره بطلان القدح في نصح الرسول ﷺ؛ وتعريفه لأمته بمعبودها الحقّ وأسمائه وصفاته؛ ببيان لوازمه الباطلة.

إنَّ اعتقاد العبد في حقِّ رسوله ﷺ غير الواجب الذي سبقت الإشارة إليه: يترتَّب عليه القدح في أحد أمرين: إما القدح في الكتاب المنزل؛ أو القدح في النبـي المرسل.

---

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٢٣٩ ــ ٢٤٠.

فإما أن يكون أشرف الكتب السماوية وخاتمها والمهيمن عليها قد خَلَى من بيان ما به حياة قلوب العباد ورَوْحها وريحانها؛ وهو معرفة ربِّهم بأسماء الجلال وصفات الكمال، أو أن يكون أشرف الكتب السماوية قد اشتمل عليها غاية الاشتمال؛ إلا أن بلاغ النبيِّ ﷺ ما أُنزل إليه من ربه لم يقع على الوجه الأكمل؛ والبيان الأجمل.

وهناك ثَمَّ احتمال يتطرق إليه القدح: وهو أن يكون الرسول الكريم ﷺ قد بلَّغ الأمة ما أُنزل إليه من ربِّه؛ إلا أن صدر هذه الأمة الأوَّل؛ والذي على نقلهم وعلمهم المعوَّل: لم ينقلوا تعريف نبيها ﷺ لأمته نقلاً يحصل به العلم الضروريُّ.

ومعلوم أنَّ الأمة قد نقلت هذا نقلاً عاماً متواتراً ــ خلفاً عن سلفٍ ــ، وحَصَلَ لمن بعدهم العلم الضروريُّ بذلك؛ والذي هو بمنزلة الأخبار المتواترة، فالقدح في العلم الضروريِّ؛ وأنه لا يفيد اليقين: كالقدح في الأخبار المتواترة وأنها لا تفيد اليقين؛ سواءٌ بسواءٍ.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا الأمر أحسن تقرير وأوضحه، وبيَّن اللوازم الفاسدة؛ والترتبات الكاسدة الناجمة عن هذا الاعتقاد، وفيما يأتي نص كلامه:

أولاً: تقريره أن القدح في تعريف النبي ﷺ يلزم منه أن يكون أشرف الكتب وأشرف الرسل قد قَصَّر في توحيد الأسماء والصفات غاية التقصير، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في قول المعطلين النفاة: (من لوازمه أن يكون أشرف الكتب وأشرف الرسل قد قَصَّر في هذا الباب غاية التقصير؛ بل أفرط في التجسيم والتشبيه غاية الإفراط،

وتنوَّع فيه غاية التنوُّع، فمرَّة يقول: أين؟ ومرَّة يُقرُّ عليها لمن سأله ولا يُنكرها، ومرَّة يُشير بأُصبعه، ومرَّة يضع يده على عينه وأذنه حين يخبر عن سمع الربِّ وبصره، ومرَّة يصفه بالنزول والمجيء؛ والإتيان والانطلاق؛ والمشي والهرولة، ومرَّة يُثبت له الوجه والعين؛ واليد والأُصبع؛ والقدم والرِّجْل؛ والضَّحك والفرح؛ والرِّضى والغضب؛ والكلام والتكليم؛ والنداء بالصوت والمناجاة، ورؤية أهل الجنة له مواجهة عياناً بالأبصار من فوقهم؛ ومحاضرته لهم محاضرة، ورفع الحجب بينه وبينهم؛ وتجلِّيه لهم، واستدعائهم لزيارته وسلامه عليهم سلاماً حقيقياً قولاً من ربٍّ رحيمٍ، واستماعه وأَذِنِه لحسن الصوت إذا تلا كلامه، وخلقه ما شاء بيده، وكتابة كلامه بيده، ويصفه بالإرادة والمشيئة؛ والقوة والقدرة؛ والحياة والحياء؛ وقبض السماوات؛ وطيِّها بيده والأرض بيده الأخرى، ووضعه السماوات على أُصبع؛ والأرض على أُصبع؛ والجبال على أُصبع؛ والشجر على أُصبع، وأضعاف ذلك مما إذا سمعه المعطلة سبحوا الله ونزهوه ــ جحوداً وإنكاراً؛ لا إيماناً وتصديقاً ــ .

فما ضحك منه رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً لقائله: يعبس منه هؤلاء إنكاراً وتكذيباً، وما شهد لقائله بالإيمان: شهد هؤلاء له بالكفر والضلال، وما أُوحي بتبليغه إلى الأمة وإظهاره: يُوصي هؤلاء بكتمانه وإخفائه، وما أطلقه على ربِّه ــ لئلا يُطلق عليه ضدُّه ونقيضُه ــ : يُطلق هؤلاء عليه ضدَّه ونقيضَه؛ لئلا يُطلق هو عليه، وما نزَّه ربَّه عنه من العيوب والنقائص: يُمسكون عن تنزيهه عنه؛ وإن اعتقدوا أنه مُنزَّهٌ عنه، ويُبالغون في تنزيهه عما وصف به

نفسه)[1].

ثانياً: تقريره أن القدح في تعريف النبي ﷺ توحيد الأسماء والصفات لأمته وأنه لا يُفيد اليقين؛ كالقدح في مخبر الأخبار المتواترة وأنه لا يُفيد اليقين، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن القرآن تضمَّن الأمر بأوامر ظاهرةٍ وباطنةٍ، والنهي عن مَناهٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، ورسول الله ﷺ بيَّن مقادير الصلوات ومواقيتها وصفاتها، والزكوات ونصبها ومقاديرها، وكذلك سائر العبادات.

وعامة هذه الأمور نقلتها الأمة نقلاً عامًّا متواتراً؛ خلفاً عن سلفٍ، وحصل العلم الضروريُّ للخلق بذلك؛ كما حصل لهم العلم الضروريُّ بأنه بلَّغهم ألفاظها، وأنه قاتل المشركين وأهل الكتاب، وأنه بُعِثَ بمكة؛ وهاجر إلى المدينة، وأنه دعا الأمة إلى أن شهدوا أن لا إلـه إلا الله؛ وأن محمداً رسول الله، وأخبرهم أن هذا القرآن كلامُ الله الذي تكلَّم به؛ لا كلامه ولا كلام مخلوقٍ، وأنه ليس قول البشر، وأنه علمهم أن ربَّه فوق سماواته؛ على عرشه، وأن الملك نزل من عنده إليه؛ ثم يعرج إلى ربِّه، وأن ربَّه يسمع ويرى؛ ويتكلَّم ويُنادي؛ ويُحِبُّ ويُبغض؛ ويرضى ويغضب، وأن له يدين ووجهاً، وأنه يعلم السرَّ وأخفى؛ فلا يخفى عليه خافيةٌ في السماء ولا في الأرض، وأنه يُقيمهم من قبورهم أحياء بعدما مزَّقهم البِلَى؛ إلى دار النعيم أو إلى الجحيم.

فالعلم الضروريُّ بأنه جاء بذلك وأراده كالعلم الضروريِّ بوجوده ومبعثه ومخرجه وقتاله لمن خالفه، فالقدح فيما أخبر به من ذلك وأنه لا يفيد اليقين: كالقدح في مخبر الأخبار المتواترة

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٥٠ ـ ١١٥٢.

وأنه لا يفيد اليقين[1])[2].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (فإن الأمة كلَّها تنقل عمن قبلها؛ ومن قبلها عمن قبلها؛ حتى ينتهي الأمر إلى الرسول: أن الله يرى ويسمع؛ ويتكلَّم ويعلم، وأنه فوق السماوات السبع على العرش، وأنه يُرى يوم القيامة جهرة.

وعلم الأمة بمراد الرسول من ذلك فوق علمهم بمراده من أحاديث الشفعة والربا والحيض والفرائض ونحوها[3].

---

(١) وكلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في سياق كسر طاغوت المتكلمين الأول وهو قولهم: إن كلام الله وكلام رسوله ﷺ أدلةٌ لفظيةٌ لا تُفيد علماً، ولا يحصل منها يقينٌ.
وهذا الطاغوت هدم به أربابُه قواعد الدين، وأسقطوا حرمة النصوص من قلوب العالمين، وعبَّدوا طريق الطعن فيها للزنادقة والملحدين، وحامل لواء هذا الطاغوت؛ والمتولي كبره: هو فخر الدين الرازي؛ المسمى بـ : ابن خطيب الريِّ.
قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٤٠]: (ولا يُعرف أحدٌ من فرق الإسلام قبل ابن الخطيب وضع هذا الطاغوت؛ وقرَّره وشيَّد بنيانه وأحكمه مثله، بل المعتزلة والأشعرية والشيعة والخوارج وغيرهم يقولون بفساد هذا القانون، وإن اليقين يُستفاد من كلام الله ورسوله، وإن كان بعض هذه الطوائف يوافقون صاحب هذا القانون في بعض المواضع؛ فلم يقل أحدٌ منهم قطُّ: إنه لا يحصل اليقين من كلام الله ورسوله ألبتة).
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٥٣ ــ ٦٥٤.
(٣) عِلْم الأمة بمراد الرسول ﷺ من باب الأسماء والصفات فوق علمهم بمراده من باب الأحكام، وذلك لأن نصوص الأسماء والصفات: محكمةٌ لا اشتباه فيها، وهي مبينةٌ لا إجمال فيها، ولا يتطرَّق إليها النسخ، ولا تقبل الاجتهاد، ولا يجوز=

فكيف يُقال: حصل لهم اليقين بمراده من ذلك دون هذا؟ وهل هذا إلا من أقبح المكابرة؟)[1].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (والفقهاء وأهل الحديث يعلمون بالاضطرار: أن النبي ﷺ سجد سجدتي السهو في الصلاة، وقضى بالشفعة، وجعل الدِّية على العاقلة، وأخبر أن الله ينزل إلى سماء الدنيا كلَّ ليلةٍ، وأنه يُرى بالأبصار جهرة يوم القيامة، وأنه يُدْخِلُ النارَ قوماً من أهل التوحيد؛ ثم يُخرجهم بالشفاعة، وأنه أخبر بخروج الدجال، ونزول المسيح من السماء، وطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك مما يجهله كثيرٌ من الناس، ومن أقرَّ به فهو عنده ظنيٌّ.

وأهل الحديث جازمون به، متيقِّنون له كتيقُّنهم أنه بُعث من مكة؛ وهاجر إلى المدينة؛ ومات بها)[2].

= فيها القياس، وأما نصوص الأحكام: فيتخلَّلها الاشتباه والإجمال، ويتطرَّق إليها النسخ، وتقبل الاجتهاد، ويجوز فيها القياس.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢١٠] في دلالة آيات الأسماء والصفات: (إن دلالتها على معانيها أظهرُ من دلالة كثيرٍ من آيات الأحكام على معانيها، ولهذا آيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصَّة من الناس، وأما آيات الأسماء والصفات فيشترك في فهمها الخاصُّ والعامُّ، أعني: فهمَ أصل المعنى؛ لا فهم الكنه والكيفية، ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]، ولم يُشكل عليه ولا على غيره قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦]، وأمثالها من آيات الصفات).

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٥٥.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٦١.

وختاماً: يتضح جلياً مما تضمنه تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ المشار إليه وغيره(١): رأفة النبي ﷺ ورحمته بأمته؛ حيث اشتملت رسالته على تعريف البرية بربِّها ومعبودها ــ الذي معرفته غاية المعارف؛ والوصول إليه أجلُّ المطالب؛ وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل ــ ، (فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله والصالحون من خلقه عليه؛ كما عرَّفنا بالله وأسمائه وصفاته، ووحَّده ودعا إليه، وآتاه الوسيلة والفضيلة، وبعثه المقام المحمود الذي وعده في دار السلام)(٢).

فهذا ختام هذا المبحث المتعلق بتقرير أهمية توحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ــ وقد (اتضح ــ بحمد الله ــ وجهه؛ وأسفر صبح معناه)(٣)ــ ؛ فتأمله، (فإنه من المباحث العزيزة الغريبة؛ التي يُثنى على مثلها الخناصر، والله الموفق المعين)(٤).



---

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٣٧٥ ــ ٣٧٦، بدائع الفوائد ٤/ ١١٥ ــ ١١٦، التبيان في أقسام القرآن ص٦٠، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٥، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٣٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٢٤ ــ ٤٢٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٤، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (١٦٠٧ ــ ١٦١٩)]، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٥٢.

(٢) الفروسية ص٨٣.

(٣) تهذيب مختصر سنن أبي داود ١٢/ ١٨١.

(٤) بدائع الفوائد ٢/ ٩.

المبحث الثاني:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية
في تقرير اقتضاء الأسماء والصفات لمسمياتها ومتعلقاتها

إنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد أظهر من آياته الشرعية والكونية الدالَّة على اقتضاء أسمائه وصفاته لمسمياتها ومتعلقاتها: ما تُطالعه العيون بأبصارها؛ والقلوب ببصائرها، ولو لم تكن هذه الأسماء والصفات مقتضية لمسمياتها ومتعلقاتها: لَمَا صحَّ استدلال الله ــ جلَّ جلاله ــ بها في القضايا العظام والمسائل الجسام؛ ولَمَا وقع الاستدلال بها على أعظم أمرٍ أَمَرَ الله تعالى به؛ وهو إفراده بالعبادة دون من سواه؛ الذي هو زبدة ما اشتملت عليه الكتب المطهرة؛ وجاءت بالدعوة إليه الرسل البررة.

واقتضاء أسماء الله الحسنى وصفاته العلى لمسمياتها ومتعلقاتها: هو الفقه الأكبر، ومطالعة العبد له؛ وتفقهه فيه؛ وتعبده لله تعالى به: مما يُرسِّخ في الإسلام قدمَه؛ ويُصوِّب في الأحكام فهمَه.

فتأمَّل هذا الفقه الأكبر (تأمَّل فقيه في باب أسماء الله وصفاته؛ يفتح لك باباً من أبواب معرفته ومحبته)[1]، ويُطلعك على (العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون؛ وفيها تنافس المتنافسون)[2].

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٧.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٦٩.

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير اقتضاء الأسماء والصفات لمسمياتها ومتعلقاتها عناية بارعة، وتجلت جهوده في إبراز هذه المقتضيات في مواضع شتى من كتبه النافعة، وهذه العناية تبرز أهمية هذا الباب وخطره؛ وعظم قدره.

وقد قسَّمتُ كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المبحث إلى قسمين؛ وجعلتُه في مطلبين:

المطلب الأول: جهوده في تقرير اقتضاء الأسماء والصفات لمسمياتها.

المطلب الثاني: جهوده في تقرير اقتضاء الأسماء والصفات لمتعلقاتها.



المطلب الأول:

جهوده في تقرير اقتضاء الأسماء والصفات لمسمياتها

إنَّ أسماء الله الحسنى وصفاته العلى مقتضية لمسمياتها أتمَّ اقتضاءٍ وأحسنه، فليست هي أسماءٌ وصفاتٌ مجرَّدةٌ عن مُسمَّاها ــ تعالى من تسمَّى بها واتصف علواً كبيراً ــ ، بل لهذه الأسماء الحسنى والصفات العلى ارتباطٌ وثيقٌ واتصالٌ عميقٌ بمسمياتها(١).

ولذا نجد أن الله تعالى ــ المُتسمِّي بأسماء الجلال والمتصف بصفات الكمال ــ يُقيم أعلام توحيده في قلوب عباده؛ ويُنكِّس رايات الشرك به؛

(١) هذا هو الذي عقد عليه أهل السنة والجماعة قلوبهم السليمة في هذا الباب، وهو خلاف ما عقدت عليه المعتزلة قلوبهم السقيمة في هذا الباب، حيث سلبوا هذه الأسماء حسنها، وجعلوها أعلاماً جامدة لا معاني لها إلا العلمية المحضة المترادفة، وقولهم هذا في غاية الفساد والتناقض.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية في [النبوات ١/ ٢٦٥]: (إن المعتزلة لما رأوا الجهمية قد نفوا أسماء الله الحسنى: استعظموا ذلك؛ وأقروا بالأسماء، ولما رأوا هذه الطريق تُوجب نفي الصفات: نفوا الصفات؛ فصاروا متناقضين، فإن إثبات حيٍّ عليمٍ قديرٍ حكيمٍ سميعٍ بصيرٍ؛ بلا حياةٍ ولا علمٍ ولا قدرةٍ ولا حكمةٍ ولا سمعٍ ولا بصرٍ: مكابرةٌ للعقل، كإثبات مُصَلٍّ بلا صلاةٍ؛ وصائمٍ بلا صيامٍ؛ وقائمٍ بلا قيامٍ، ونحو ذلك من الأسماء المشتقة كأسماء الفاعلين؛ والصفات المعدولة عنها).

بذكر أسمائه وصفاته والاستدلال بها، كما نلحظ أن الله تعالى يُعلِّل أحكامه وأوامره ونواهيه بذكرها؛ مُدلِّلاً على صحَّتها، وكذا يذكرها عندما يتحبَّب ــ سبحانه ــ إلى عباده؛ ويُرغِّبهم في ذكره وشكره وعبادته؛ ويُرهِّبهم ويُخوِّفهم من شديد عذابه وأليم عقابه؛ فتُسرع نفوسهم إلى فعل الخيرات؛ وترك المنكرات.

ولو لم تكن أسماء الله ــ عزَّ وجلّ ــ وصفاته مقتضية لمسمياتها: لَمَا صحَّ استدلال الله ــ جلَّ جلاله ــ بها في القضايا العَلِيَّة والمسائل السَّنِيَّة، فلما وقع الاستدلال بها علمنا أن المقصود بها: هو التنبيه على عظم شأنها؛ وعُلُوِّ منزلتها، إذ إن اقتضاء هذه الأسماء والصفات لمسمياتها: موجبٌ للثناء على المتصف بها ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ ومستلزمٌ للتألُّه له مع كمال الحبِّ وكمال الذُّلِّ.

ومطالعة العبد بعين قلبه لهذه المقتضيات: يُرسِّخ قدمَه؛ ويُصوِّب فهمَه في باب أسماء الله تعالى وصفاته، ويوُرثه مقام العبودية، ولا تزال مطالعته تنقله في منازلها العليَّة؛ ودرجاتها البهيَّة: حتى تقوده تلك المطالعة بزمامه إلى منزلة الصديقية وأبوابها، وتُوقِفُه على شُرُفِها وأعتابها.

وفي هذا الباب: نجد أن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ قد اعتنى بتقرير اقتضاء الأسماء والصفات لمسمياتها بأحسن دليلٍ وأوضح سبيلٍ؛ موضحاً بمسائل كثيرةٍ وأوجهٍ وفيرةٍ اقتضاء الأسماء والصفات لمسمياتها أتمَّ اقتضاءٍ.

وقد انتخبتُ من كلامه ــ رحمه الله تعالى ــ بعض المواطن للدلالة على جهده في هذا الباب، وهي مودعةٌ في المسائل الآتية الذكر:

المسألة الأولى:

تقريره أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الحقيقة هو الدالُّ على نفسه بآياته، فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (ـ سبحانه ـ أخبر ـ وخبرُه الصدق؛ وقوله الحقُّ ـ: أنه لا بُدَّ أن يُري العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يُبيِّن لهم أن الوحي الذي بلَّغته رسله حقٌّ، فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1] ـ أي: القرآن، فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾[2] ـ، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[3].

فشهد ـ سبحانه ـ لرسوله بقوله أن ما جاء به حقٌّ، ووَعَدَه أن يُري العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضاً، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجلُّ؛ وهو شهادته ـ سبحانه ـ على كلِّ شيءٍ، فإن من أسمائه: الشهيد الذي لا يغيب عنه شيءٌ؛ ولا يعزب عنه ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[4]؛ بل هو مُطَّلعٌ على كلِّ شيءٍ؛ مشاهدٌ له؛ عليمٌ بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته؛ والأول استدلال بقوله وكلماته، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية: استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمتُ الاستدلال بكلماته؛ والاستدلال بمخلوقاته:

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٢.

(٣) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٤) سورة يونس: الآية ٦١.

فبيِّن لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته؛ فإن ذلك أمرٌ لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا؟

قلت: أَجَلْ؛ هو لعمر الله كما ذكرتَ؛ وشأنه أجلُّ وأعلى، فإن الربَّ تعالى هو المدلول عليه؛ وآياته هي الدليل والبرهان، فاعلم أن الله ـ سبحانه ـ في الحقيقة هو الدالُّ على نفسه بآياته، فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات، وقد أودع في الفطر ـ التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود ـ : أنه ـ سبحانه ـ الكامل في أسمائه وصفاته؛ وأنه الموصوف بكلِّ كمالٍ؛ المُنزَّهُ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، فالكمال كلُّه والجمال والجلال والبهاء والعِزَّة والعظمة والكبرياء كلُّه من لوازم ذاته؛ يستحيل أن يكون على غير ذلك، فالحياة كلُّها له؛ والعلم كلُّه له؛ والقدرة كلُّها له؛ والسمع والبصر والإرادة والمشيئة والرحمة والغنى والجود والإحسان والبِرُّ كلُّه خاصٌّ له قائمٌ به، وما خفي على الخلق من كماله: أعظم وأعظم مما عرفوه منه؛ بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه.

ومن كماله المقدس: اطلاعه على كلِّ شيءٍ؛ وشهادته عليه، بحيث لا يغيب عنه وجهٌ من وجوه تفاصيله؛ ولا ذرةٌ من ذراته ـ باطناً وظاهراً ـ ، ومَنْ هذا شأنه؛ كيف يليق بالعباد أن يُشركوا به؛ وأن يعبدوا معه غيره؛ وأن يجعلوا معه إلـٰهاً آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يُقرَّ من يكذب عليه أعظمَ الكذب؛ ويُخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه؛ ثم ينصره على ذلك؛ ويُؤيِّده ويُعلي كلمته؛ ويرفع شأنه ويُجيب دعوته؛ ويهلك عدوَّه؛ ويُظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلَّة ما تعجز عن مثله قوى البشر؛ وهو مع ذلك كاذبٌ عليه مفترٍ ساعٍ في الأرض بالفساد؟

ومعلومٌ أن شهادته ـ سبحانه ـ على كلِّ شيءٍ؛ وقدرته على كلِّ شيءٍ؛ وحكمته وعِزَّته وكماله المقدس: يأبى ذلك كلَّ الإباء، ومن ظنَّ

ذلك به وجوَّزه عليه: فهو من أبعد الخلق من معرفته؛ وإن عرف منه بعض صفاته؛ كصفة القدرة وصفة المشيئة، والقرآن مملوءٌ من هذه الطريق، وهي طريق الخاصَّة، بل خاصَّةُ الخاصَّةِ هم الذين يستدلُّون بالله على أفعاله؛ وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله.

وإذا تدبَّرت القرآن: رأيتَه يُنادي على ذلك؛ فيُبديه ويُعيده لمن له فهمٌ وقلبٌ واعٍ عن الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾[(١)].

أفلا تراه كيف يُخبر ـ سبحانه ـ أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يُقرَّ من تقوَّل عليه بعض الأقاويل؟ بل لا بُدَّ أن يجعله عبرة لعباده؛ كما جرت بذلك سنَّتُه في المتقوِّلين عليه.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾. ههنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبر خبراً جازماً غير متعلِّقٍ: أنه ﴿يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ﴾[(٣)]. فأخبر أن من نفى عنه الإرسالَ والكلامَ: لم يقدره حقَّ قدره؛ ولا عرفه كما ينبغي؛ ولا عظَّمه كما يستحقُّ، فكيف من ظنَّ أنه ينصر الكاذب المفتري عليه؛ ويُؤيِّده ويُظهر على يديه الآيات والأدلَّة؟

وهذا في القرآن كثيرٌ جدًّا، يستدلُّ بكماله المقدَّس وأوصافه وجلاله على صدق رسله؛ وعلى وعده ووعيده، ويدعو عباده إلى ذلك، كما يستدلُّ

---

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤٤ ـ ٤٧.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٤.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩١.

بأسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشرك، كما في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]. وأضعاف ذلك في القرآن.

ويستدلُّ ــ سبحانه ــ بأسمائه وصفاته على بُطلان ما نُسِبَ إليه من الأحكام والشرائع الباطلة؛ وأن كماله المقدس يمنع من شرعها، كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2]، وقوله عَقِيبَ ما نهى عنه وحرَّمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾[3].

فأعلمك أن ما كان سيئة في نفسه فهو يكرهه؛ وكماله يأبى أن يجعله شرعاً له وديناً، فهو ــ سبحانه ــ يدلُّ عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به؛ وما يُحبُّه ويُبغضه؛ ويُثيب عليه ويُعاقب عليه، ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلا خاصَّةُ الخاصَّةِ، فلذلك كانت طريقة الجمهور: الدلالات بالآيات المشاهدة، فإنها أوسع وأسهل تناولاً، والله ــ سبحانه ــ يُفضِّل بعض خلقه على بعضٍ؛ ويرفع درجات من يشاء وهو العليم الحكيم.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنه هو الدعوة والحجة؛ وهو الدليل والمدلول عليه؛ وهو الشاهد والمشهود له؛ وهو

(١) سورة الحشر: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٨.

الحكم والدليل؛ وهو الدعوة والبيِّنة، قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[1] ــ أي: من ربِّه؛ وهو القرآن ــ.

وقال تعالى لمن طلب آية تدلُّ على صدق رسوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2].

فأخبر ــ سبحانه ــ أن الكتاب الذي أنزله على رسوله يكفي عن كلِّ آيةٍ، ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله؛ وأن الله ــ سبحانه ــ أرسل به رسوله، وفيه بيان ما يُوجب لمن اتَّبعه السعادة؛ ويُنجيه من العذاب، ثم قال: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾[3].

فإذا كان الله ــ سبحانه ــ عالماً بجميع الأشياء: كانت شهادتُه أصدقَ شهادةٍ وأعدلها، فإنها شهادة بعلمٍ تامٍّ مُحيطٍ بالمشهود به، فيكون الشاهدُ به أعدلَ الشهداء وأصدقَهم، وهو ــ سبحانه ــ يذكر علمه عند شهادته؛ وقدرته وملكه عند مجازاته؛ وحكمته عند خلقه وأمره؛ ورحمته عند ذكر إرسال رسوله؛ وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم؛ وسمعه عند ذكر دعائهم ومسألته؛ وعِزَّته وعلمه عند قضائه وقدره.

فتأمَّل ورود أسمائه الحسنى في كتابه؛ وارتباطها بالخلق والأمر والثواب والعقاب)[4].

---

(١) سورة هود: الآية ١٧.

(٢) سورة العنكبوت: الآيتان ٥١ ــ ٥٢.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٥٢.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٨٥ ــ ٤٨٩.

وقد تضمن كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تقرير استدلالِ الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ واقتضائها لمسمياتها، ونَصْبِه ــ سبحانه ــ لعباده من الدلالات والآيات ــ المُودعة في الفطر ــ ما يستدلُّون به على أفعال الله تعالى؛ وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله.

فما تضمنته هذه المسألة من الفقه في اقتضاء أسماء الله تعالى وصفاته لمسمياتها: (نبذٌ تَسِير بك إلى ما وراءها؛ تُرْشِدُك وأنت صحيحٌ)[1]، وما يليها من المسائل الآتية متضمنةٌ لمزيد من بيانها وإيضاحها.

المسألة الثانية:

تقريره تمدُّح الله ـ سبحانه ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ لتضمنها توحيده واستحالة إثبات شريك له.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (ــ سبحانه ــ يُعلِّلُ أحكامه وأفعاله بأسمائه، ولو لم يكن لها معنى لما كان التعليل صحيحاً، كقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾[3].

فختم حكم الفيء ــ الذي هو الرجوع؛ والعود إلى رضى الزوجة، والإحسان إليها ــ بأنه غفورٌ رحيمٌ، يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه ــ والجزاء من جنس العمل ــ، فكما رجع إلى التي هي أحسن:

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٦١.

(٢) سورة نوح: الآية ١٠.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ٢٢٦ ــ ٢٢٧.

رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة)[1].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (والقرآن مملوءٌ من هذا، والمقصود: التنبيه عليه، وأيضاً فإنه ــ سبحانه ــ يستدلُّ بأسمائه على توحيده؛ ونفي الشرك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها: لم تدل على ذلك، كقول هارون لعبدة العجل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[2]. وقوله ــ سبحانه ــ في القصة: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾[4]. وقوله ــ سبحانه ــ في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾[5].

فسبح: نَزَّه نفسه عن شرك المشركين به؛ عَقِبَ تَمَدُّحِه بأسمائه الحسنى المقتضية لتوحيده؛ واستحالة إثبات شريكٍ له.

ومن تدبَّر هذا المعنى في القرآن: هَبَطَ به على رياضٍ من العلم؛ حماها الله عن كلِّ أفَّاكٍ مُعرضٍ عن كتاب الله؛ واقتباس الهدى منه)[6].

---

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٠.
(٢) سورة طه: الآية ٩٠.
(٣) سورة طه: الآية ٩٨.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٦٣.
(٥) سورة الحشر: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.
(٦) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٢ ــ ٢٨٣.

المسألة الثالثة:

تقريره ذكر الله تعالى لأسمائه الحسنى وصفاته العلى عند سؤال عباده لرسوله ﷺ عن الله تعالى؛ أو عن أحكامه.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في صفات الله تعالى: (كثيراً ما يذكرها عند ذكر آلهتهم التي عبدوها من دونه وجعلوها شركاء له، فيذكر ـ سبحانه ـ من صفات كماله وعُلُوِّه على عرشه؛ وتكلُّمه وتكليمه؛ وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته: ما هو منتفٍ عن آلهتهم، فيكون ذلك من أدلِّ الدليل على بطلان إلـٰهيتها؛ وفساد عبادتها من دونه.

ويذكر ذلك عند دعوته عباده إلى ذكره وشكره وعبادته، فيذكر لهم من أوصاف كماله ونعوت جلاله ما يجذب قلوبهم إلى المبادرة إلى دعوته؛ والمسارعة إلى طاعته؛ والتنافس في القرب منه، ويذكر صفاته أيضاً عند ترغيبه لهم وترهيبه وتخويفه؛ ليُعَرِّف القلوب من تخافه وترجوه؛ وترغب إليه وترهب منه، ويذكر صفاته أيضاً عند أحكامه وأوامره ونواهيه.

فقَلَّ أن تجد آية حكمٍ من أحكام المُكلَّفين إلا وهي مختتمةٌ بصفةٍ من صفاته أو صفتين، وقد يذكر الصفة في أول الآية ووسطها وآخرها، كقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾[1].

فيذكر صفاته عند سؤال عباده لرسوله عنه، ويذكرها عند سؤالهم له عن أحكامه، حتى إن الصلاة لا تنعقد إلا بذكر أسمائه وصفاته، فذِكْرُ أسمائه وصفاته: روحُها وسِرُّها؛ يصحبها من أولها إلى آخرها، وإنما أَمَرَ بإقامتها لِيُذكر بأسمائه وصفاته)[2].

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٠.

المسألة الرابعة:

تقريره أن ما للربّ ـ تبارك وتعالى ـ من الأسماء الحسنى والصفات العلى: يستلزم الثناء عليه ـ سبحانه وتعالى ـ؛ والتألّه له بكمال الحبّ مع كمال الذلّ.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (الحمد والمجد: إليهما يرجع الكمال كلُّه.

فإن الحمد: يستلزم الثناء والمحبة للمحمود، فمن أحببتَه ولم تُثْنِ عليه لم تكن حامداً له؛ وكذا من أثنيتَ عليه لغرضٍ ما ولم تُحبه لم تكن حامداً له؛ حتى تكون مُثنياً عليه مُحباً.

وهذا الثناء والحبُّ تبعٌ للأسباب المقتضية له؛ وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير، فإن هذه هي أسباب المحبة، وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل: كان الحمد والحبُّ أتمَّ وأعظمَ.

والله ــ سبحانه ــ له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجهٍ ما، والإحسان كلُّه له ومنه، فهو ــ سبحانه وتعالى ــ أحقُّ بكلِّ حمدٍ وبكلِّ حبٍ من كلِّ جهةٍ، فهو أهلٌ أن يُحبَّ لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه ولكلِّ ما صدر منه ــ سبحانه ــ .

وأما المجد: فهو مُستلزمٌ للعظمة والسعة والجلال؛ كما يدلُّ عليه موضوعه في اللغة[1]، فهو دالٌّ على صفات العظمة والجلال.

والحمد: يدلُّ على صفات الإكرام، والله ــ سبحانه وتعالى ــ ذو الجلال والإكرام.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٠/ ٦٨٢، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٢٩٧، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٧/ ٢٤٧ [مادة: مجد].

وهذا معنى قول العبد: لا إلـه إلا الله؛ والله أكبر.

فلا إلـه إلا الله: دالٌّ على ألوهيته وتفرُّده فيها، فألوهيته: تستلزم محبته التامة. والله أكبر: دالٌّ على مجده وعظمته؛ وذلك يستلزم تمجيده وتعظيمه وتكبيره.

ولهذا يقرن ــ سبحانه ــ بين هذين النوعين في القرآن كثيراً، كقوله: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾[2]. فأمَرَ بحمده وتكبيره.

وقال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[4].

وفي المسند وصحيح أبي حاتم وغيره من حديث أنس ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ أنه قال: «ألِظُّوا بـ : يا ذا الجلال والإكرام»[5].

---

(١) سورة هود: الآية ٧٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١١١.

(٣) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

(٤) سورة الرحمن: الآية ٢٧.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٧٥٩٦) ــ ٢٩/١٣٨]، والبخاري في تاريخه الكبير [٣/ ٢٨٠]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب النعوت/ باب ذوالجلال والإكرام ــ الحديث رقم (٧٦٦٩) ــ ٧/ ١٤٧ ــ ١٤٨] من حديث ربيعة بن عامر ــ رضي الله عنه ــ ، وكذا أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٩١) ــ الحديث رقم (٣٥٢٤ ــ ٣٥٢٥) ــ ٥/ ٤٩٧ ــ ٤٩٨] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ ، ولم أقف عليه في صحيح أبي حاتم ابن حبان. =

يعني: الزموها وتعلَّقوا بها[١].

فالجلال والإكرام: هو الحمد والمجد.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾[٥]، وهو كثيرٌ في القرآن.

وفي الحديث الصحيح ـ حديث دعاء الكرب ـ: «لا إلـه إلا الله العظيم الحليم، لا إلـه إلا الله رب العرش العظيم، لا إلـه إلا الله رب السماوات ورب الأرض؛ ورب العرش الكريم»[٦])[٧].

= وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٥٣٦) ـ ٤/ ٤٩ ـ ٥١].

(١) انظر: غريب الحديث للهروي ٢/ ١٩٥، غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ٣٢٣، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ٢٥٢.

(٢) سورة النمل: الآية ٤٠.

(٣) سورة النساء: الآية ٩٩.

(٤) سورة الممتحنة: الآية ٧.

(٥) سورة البروج: الآيتان ١٤ ـ ١٥.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الدعوات/ باب الدعاء عند الكرب ـ الحديث رقم (٦٣٤٥ ـ ٦٣٤٦) ـ ٤/ ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦]، ومسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب دعاء الكرب ـ الحديث رقم (٢٧٣٠) ـ ٤/ ٢٠٩٢ ـ ٢٠٩٣] من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٧) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٨ ـ ٤٥٠.

المسألة الخامسة:

تقريره أن ظهور الأسباب التي يُحمد عليها الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ من مقتضى كونه محموداً، فلا بُدَّ من ظهور هذه الأسباب ليترتَّب عليها كمال الحمد الذي هو أهله.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن الله ـ سبحانه ـ له الحمد المطلق الكامل؛ الذي لا نهاية بعده، وكان ظهور الأسباب التي يُحمد عليها من مقتضى كونه محموداً، وهي من لوازم حمده تعالى.

وهي نوعان: فضلٌ وعدلٌ، إذ هو ـ سبحانه ـ المحمود على هذا وعلى هذا، فلا بُدَّ من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسمياتها ليترتَّب عليها كمال الحمد الذي هو أهله.

فكما أنه ـ سبحانه ـ محمودٌ على إحسانه وبِرِّه وفضله وثوابه: فهو محمودٌ على عدله وانتقامه وعقابه، إذ مصدر ذلك كلِّه عن عِزَّته وحكمته.

ولهذا نبَّه ـ سبحانه ـ على هذا كثيراً؛ كما في سورة الشعراء، حيث يذكر في آخر كلِّ قصةٍ من قصص الرسل وأممهم: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾[1].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن ذلك صادرٌ عن عِزَّته المتضمنة كمال قدرته؛ وحكمته المتضمنة كمال علمه؛ ووضعه الأشياء مواضعها اللائقة بها.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٨ ـ ٩؛ ٦٧ ـ ٦٨؛ ١٠٣ ـ ١٠٤؛ ١٢١ ـ ١٢٢؛ ١٣٩ ـ ١٤٠؛ ١٥٨ ـ ١٥٩؛ ١٧٤ ـ ١٧٥؛ ١٩٠ ـ ١٩١.

فما وضع نعمته ونجاته لرسله ولأتباعهم؛ ونقمته وإهلاكه لأعدائهم إلا في محلِّها اللائق بها؛ لكمال عِزَّته وحكمته[1].

ولهذا قال ـ سبحانه ـ عقيب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة والشقاوة؛ ومصير كلٍّ منهم إلى ديارهم التي لا يليق بهم غيرها؛ ولا تقتضي حكمته سواها: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[2].

وأيضاً فإنه ـ سبحانه ـ اقتضت حكمته وحمده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوتٍ وأبينه؛ ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله؛ ويعرف أنه قد حُبِيَ بالإنعام؛ وخُصَّ دون غيره بالإكرام، ولو تساووا جميعُهم في النعمة والعافية: لم يعرف صاحبُ النعمة قدرَها؛ ولم يبذل شكرَها، إذ لا يرى أحداً إلا في مثل حاله)[3].

---

(١) إن آيات سورة الشعراء التي ختمت بها قصص الرسل مع أممهم: إنما تضمنت ختمها بالاسمين الكريمين: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ لحكمٍ عظيمةٍ، منها: بيان أن نجاة رسل الله ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم صادرٌ عن كمال رحمة الله تعالى؛ وهلاك أعدائهم صادرٌ عن كمال عِزَّة الله تعالى.
قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٥١٤]: (ـ سبحانه ـ يذكر في سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات؛ ويذكر إنجاءه لأهل التوحيد، ثم يقول: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾. فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقُّوا به الهلاك؛ وتوحيد هؤلاء الذين استحقُّوا به النجاة، ثم يُخبر أن في ذلك آية وبرهاناً للمؤمنين، ثم يذكر مصدر ذلك كلِّه؛ وأنه عن أسمائه وصفاته، فصدور هذا الإهلاك عن عِزَّته؛ وذلك الإنجاء عن رحمته).

(٢) سورة الزمر: الآية ٧٥.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١١٤ ـ ١١٥.

المسألة السادسة:

تقريره لاحتجاج الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى على علمه بخلقه وإحاطته بهم؛ وعدم خروجهم عن مقدوره ومعلومه.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (احتجاجه ـ سبحانه ـ على إثبات علمه بالجزئيات كلِّها بأحسن دليلٍ وأوضحه وأصحَّه، حيث يقول: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾[1]. ثم قرر علمه بذلك بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[2].

وهذا من أبلغ التقرير، فإن الخالق لا بُدَّ أن يعلم مخلوقه؛ والصانع يعلم مصنوعه، وإذا كنتم مُقرِّين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته؛ فكيف تخفى عليه وهي خلقه؟)[3].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها وهما:

اللطيف: الذي لطف صنعه وحكمته ودقَّ؛ حتى عجزت عنه الأفهام.

والخبير: الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها.

فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تحويه الضمائر وتخفيه الصدور؟)[4].

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ

---

(١) سورة الملك: الآية ١٣.

(٢) سورة الملك: الآية ١٤.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٩١.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٩٢.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾[1]: (وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق؛ فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة؛ فلا يُعاقب عليها.

فتضمنت الآية: سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية[2].

وتأمَّل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم. وقَدَّموا بين يدي استغفارهم: توسُّلَهم إلى الله ـ سبحانه ـ بسعة علمه وسعة رحمته.

فسعة علمه: تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها، وضعفهم عن العصمة، واستيلاء عدوِّهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم، وما زُيِّن لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم؛ إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنةٌ في بطون أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لا بُدَّ أن يعصوه، وأنه يُحِبُّ العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يُحيط به أحدٌ سواه.

---

(١) سورة غافر: الآيات ٧ ـ ٩.

(٢) أي: الظرف: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يُقيِّد الجملة الشرطية: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ لا الجملة الطلبية: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وسؤال الملائكة ربَّهم بقولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: يتضمن نوعي الوقاية، وعليه فلا يصح الاعتراض بالقيد الوارد في قولهم: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، فإنه قيدٌ للشرط في قولهم: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ وليس قيداً للطلب في قولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

وسعة رحمته: تتضمن أنه لا يهلك عليه أحدٌ من المؤمنين من أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة، لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كلَّ شيءٍ.

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتَّبعوا سبيله ــ وهو صراطه الموصل إليه الذى هو: معرفته ومحبته وطاعته ــ فتابوا مما يكره؛ واتَّبعوا السبيل التي يُحبُّها.

ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يُدخلهم والمؤمنين ــ من أصولهم وفروعهم وأزواجهم ــ جنات عدن التي وعدهم بها.

وهو ــ سبحانه ــ وإن كان لا يخلف الميعاد فإن وعدهم بها بأسباب، من جملتها: دعاء الملائكة لهم بأن يُدخلهم إياها، يدخلونها برحمته؛ التي منها أن وفَّقهم لأعمالها، وأقام ملائكتَه يدعون لهم بدخولها.

ثم أخبر ــ سبحانه ــ عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]. أي: مصدر ذلك وسَبَبُه وغايتُه صادرٌ عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة: كمال القدرة. والحكمة: كمال العلم.

وبهاتين الصفتين يقضي ــ سبحانه وتعالى ــ ما شاء، ويأمر وينهى، ويُثيبُ ويُعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر)[2].

فبين ــ رحمه الله تعالى ــ أن من آثار اقتضاء صفتي العلم والرحمة لمسماهما: علم الله ــ سبحانه ــ بذنوب عباده وأسبابها، وأنه لا يهلك عليه أحدٌ منهم؛ ممن كان من أهل توحيده، وأن من آثار اقتضاء صفتي العزة والحكمة لمسماهما: كمال القدرة وكمال العلم؛ وهما مصدر الخلق والأمر.

---

(١) سورة غافر: الآية ٨.

(٢) الداء والدواء ص١٧٩ ـ ١٨٠.

المسألة السابعة:

تقريره أن محبّة الله تعالى للإفضال والإنعام على عباده تستلزم أن يُقدِّر لها أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (ــ سبحانه ــ يُحبُّ أن يتفضَّل عليهم) أي: على عباده (ويُتِمَّ عليهم نعمه ويُريهم مواقع بِرِّه وكرمه.

فلمحبته الإفضال والإنعام: يُنوِّعه عليهم أعظم الأنواع وأكثرها في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة.

ومن أعظم أنواع الإحسان والبِرِّ: أن يُحسن إلى من أساء؛ ويعفو عمن ظلم؛ ويغفر لمن أذنب؛ ويتوب على من تاب إليه؛ ويقبل عذر من اعتذر إليه.

وقد ندب عباده إلى هذه الشِّيَم الفاضلة والأفعال الحميدة؛ وهو أولى بها منهم وأحقُّ، وكان له في تقدير أَسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يُبهر العقول، فسبحانه وبحمده)(١).

المسألة الثامنة:

تقريره أن مطالعة العبد لاقتضاء أسماء الله تعالى وصفاته لمسمياتها: ينقله في منازل العبودية مرتبةً تلو مرتبةٍ؛ حتى يبلغ منزلة الصديقية.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الصادق يعمل على رضى الحقِّ تعالى ومحابِّه، فإذا كانت الرُّخَصُ أحبَّ إليه تعالى من العزائم: كان التفاته إلى ترفيهها؛ وهو عين صدقه.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٥٩.

فإذا أفطر في السفر؛ وقَصَرَ وجَمَعَ بين الصلاتين عند الحاجة إليه؛ وخَفَّفَ الصلاة عند الشُّغْل؛ ونحو ذلك من الرُّخَصِ التي يُحبُّ الله تعالى أن يُؤخذ بها: فهذا الالتفات إلى ترفيهها لا يُنافي الصدق.

بل ههنا نكتةٌ: وهي أنه فرقٌ بين أن يكون التفاته إليها ترفُّهاً وراحة؛ وأن يكون متابعة وموافقة، ومع هذا فالالتفات إليها ترفُّهاً وراحة لا يُنافي الصدق؛ فإن هذا هو المقصود منها.

وفيه شهود نعمة الله على العبد؛ وتَعَبُّدٌ باسمه البَرِّ اللطيف المحسن الرفيق، فإنه رفيقٌ يُحبُّ الرِّفق، وفي الصحيح: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما؛ ما لم يكن إثماً»[(١)].

لما فيه من روح التعبُّد باسم الرفيق اللطيف؛ وإجمام القلب به لعبودية أخرى، فإن القلب لا يزال يتنقَّل في منازل العبودية، فإذا أخذ بترفيه رخصة محبوبه: استعدَّ بها لعبوديةٍ أخرى، وقد تقطعه عزيمتُها عن عبوديةٍ هي أحبُّ إلى الله منها، كالصائم في السفر الذي ينقطع عن خدمة أصحابه؛ والمفطر الذي يضرب الأخبية[(٢)] ويسقي الرِّكاب ويضمُّ المتاع، ولهذا قال فيهم النبي ﷺ: «ذهب المُفطرون اليوم بالأجر»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب المناقب/ باب صفة النبي ﷺ ـ الحديث رقم (٣٥٦٠) ـ ٣/ ١١٠٢]، ومسلم في صحيحه [كتاب الفضائل/ باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله ـ الحديث رقم (٢٣٢٧) ـ ٤/ ١٨١٣] من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ .

(٢) الأخبية: جمع خباء، وهو: من أبنية الأعراب التي تتخذ من الوبر أو الصوف؛ لا من الشعر، وإذا كان أكبر من الخباء: فهو بيتٌ.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٧/ ٦٠٤ ـ ٦٠٥، المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٤/ ٤٢٧، لسان العرب لابن منظور ١/ ٦٣ [مادة: خبأ].

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الجهاد والسير/ باب فضل الخدمة في =

أما الرخص التأويلية المستندة إلى اختلاف المذاهب والآراء التي تُصيب وتُخطىء: فالأخذ بها عندهم عين البطالة؛ منافٍ للصدق)[1].

فهذه جملةٌ منتقاةٌ من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ المودع في مواضع متفرقةٍ من كتبه، وقد تضمن تقرير اقتضاء أسماء الله تعالى وصفاته لمسمياتها، وهو دالٌّ بمعناه عما اسْتُغْنِيَ عن ذكره من سائر كلامه[2].



= الغزو ــ الحديث رقم (٢٨٩٠) ــ ٢/ ٨٩١]، ومسلم في صحيحه [كتاب الصيام/ باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل ــ الحديث رقم (١١١٩) ــ ٢/ ٧٨٨] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ .

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٩٤.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص٢٦، التبيان في أقسام القرآن ص١٠١، الداء والدواء ص٣٤ ــ ٣٥؛ ٢١١ ــ ٢١٢، الروح ص٢٠٤؛ ٣١٦ ــ ٣١٧، زاد المعاد في هدي خير العباد ٥/ ٣٤٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٩٦؛ ٣٢٢ ــ ٣٢٣؛ ٢/ ٥٦١ ــ ٥٦٢؛ ٦٠٧ ــ ٦٠٩؛ ٦٥٢ ــ ٦٥٥؛ ٦٦٢ ــ ٦٦٣؛ ٧١٩ ــ ٧٢٠، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٠٠؛ ٢١٠؛ ٢/ ٤٧٤؛ ٣/ ١٠٩٢، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٦٧ ــ ٢٦٨، الفوائد ص١٣؛ ١٤؛ ٢٢؛ ١٨٧، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٢١، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤٦٩٠ ــ ٤٦٩٥)]، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١١٩؛ ٢/ ٣٦٤، المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص٢٥ ــ ٢٦.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير اقتضاء الأسماء والصفات لمتعلقاتها

إنَّ حسن أسماء الله تعالى وجمالها؛ وجلال صفاته العلى وكمالها؛ يوجب محبة الله تعالى ــ المُتسمِّي بها والمُتصف بها ــ لها؛ ومحبَّة من يُحبُّها من عباده ويتصف بمقتضاها، والله تعالى لا يخرج في جميع خلقه وأمره عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العلى، وذلك مما يُوجب كمال الحمد له والثناء عليه.

والله ــ عزَّ وجلّ ــ يُحِبُّ من عباده أن يُطالعوا كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العلى؛ ويتفقَّهوا في تعلُّق ما في الوجود من خلقٍ وأمرٍ بأسمائه وصفاته.

وإن مطالعة العبد لهذه المسألة ــ التي هي (من أشرف المسائل لمن عرف قدرها؛ ورعاها حقَّ رعايتها)[1]ــ مما يُوجب له: كمال المعرفة؛ التي هي أفضل مكتسبٍ؛ وأشرف نسبٍ يحصل للعبد في هذه الدار، كما يوجب له: محبة الله؛ وحمده واللهج بالثناء عليه بالأذكار.

كما أن مطالعة العبد لاقتضاء أسماء الله تعالى وصفاته لمتعلَّقاتها: يُوجب له الإقرار بتسمي الله تعالى بأسماء الجلال؛ واتصافه بصفات الكمال

(١) الداء والدواء ص٢٨.

على الحقيقة، وأنها أسماء وصفات حقيقيةٌ قائمةٌ بذات الله تعالى المقدسة؛ على كَيْفٍ يليق بجلال الله وعظمته[1]، وفق قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[2].

وقد تجلَّت جهود الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ؛ وعنايته بتقرير اقتضاء الأسماء والصفات لمتعلَّقاتها في مواضع متعددةٍ من كتبه، **وقد أبرزتُ دفائن تقريراته؛ وأخرجتُ كمائن تحريراته في المسائل الآتية:**

المسألة الأولى:

تقريره أنَّ استلزام محالٍّ وتعلُّقاتٍ تتعلَّق بها الأسماء والصفات ويظهر فيها آثارها: أمرٌ ضروريٌ لها.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (ظهور هذه الصفات والأسماء: تستلزم محالٍّ وتعلقاتٍ تتعلَّق بها؛ ويظهر فيها آثارها، وهذا أمرٌ ضروريٌّ للصفات والأسماء، إذ العلم لا بُدَّ له من معلومٍ، وصفة الخالقية والرازقية تستلزم وجود مخلوقٍ ومرزوقٍ، وكذلك صفة الرحمة والإحسان والحلم والعفو والمغفرة والتجاوز تستلزم محالٍّ تتعلَّق بها ويظهر فيها آثارها، فالأسباب والوسائط مظهر الخلق والأمر، فكيف يكون تعليق

---

(١) هذا هو الذي عقد عليه أهل السنة والجماعة قلوبهم السليمة في هذا الباب، وهو خلاف ما عقدت عليه المعطلة قلوبهم السقيمة، حيث سلبوا حقائق هذه الأسماء والصفات، وعطَّلوا الربَّ ـ تبارك وتعالى ـ عن كماله المقدس؛ بتعطيل أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فلم يُثبتوا له على الحقيقة اسماً ولا صفة، بل جعلوا عبده المخلوق أكمل منه، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها.
وانظر: الداء والدواء ص١٩٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

الأحكام والثواب والعقاب بها تلبيساً؟ وهل ذلك إلا حكمة بالغة باهرة؛ وآيات ظاهرة؛ وشواهد ناطقة بربوبية مُنشئها وكماله وثبوت أسمائه وصفاته؟

فإن الكون كما هو محلُّ الخلق والأمر؛ ومظهر الأسماء والصفات؛ فهو بجميع ما فيه: شواهدُ وأدلةٌ وآياتٌ دعا الله ــ سبحانه ــ عباده إلى النظر فيها؛ والاستدلال بها على وجود الخالق، والاعتبار بما تضمنته من الحكم والمصالح والمنافع على علمه وحكمته ورحمته وإحسانه؛ وبما تضمنته من العقوبات على عدله؛ وأنه يغضب ويسخط؛ ويكره ويمقت، وبما تضمنته من المثوبات والإكرام؛ على أنه يُحِبُّ ويرضى ويفرح.

فالكون بجملة ما فيه: آياتٌ وشواهدُ وأدلةٌ؛ لم يخلق الله فيه شيئاً تلبيساً؛ ولا وَسَطِه عبثاً؛ ولا خلقه سدى، فالأسباب والوسائط والعلل محلُّ استذكار المُتفكِّرين؛ واعتبار الناظرين؛ ومعارف المُستدلِّين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[1].

وكم في القرآن من الحثِّ على النظر؛ والاعتبار بها والتفكُّر فيها؛ وذمِّ من أعرض عنها، والإخبار بأن النظر فيها والاستدلال يُوجب العلم والمعرفة بصدق رسله، فهو آياتٌ كونيةٌ مُشاهدةٌ؛ تُصدِّق الآيات القرآنية، فما عُلِّق بها آثارها سدى؛ ولا رُتِّب عليها مقتضياتها وأحكامها باطلاً؛ ولا جُعِل توسيطها تلبيساً ألبتة، بل ذلك موجب كماله؛ وكمال نعوته وصفاته؛ وبها عُرِفَت ربوبيته وإلٰهيته وملكه وصفاته وأسماؤه، هذا ولم يخلقها ــ سبحانه ــ عن حاجةٍ منه إليها؛ ولا توقُّفاً لكماله المقدس عليها، فلم يتكثَّر بها من قلَّة؛ ولم يتعزَّز بها من ذلَّة، بل اقتضى كماله أن يفعل ما يشاء؛ ويأمر ويتصرَّف ويُدبِّر كما يشاء، وأن يُحمد ويُعرف ويُذكر ويُعبد؛ ويُعرِّف

(١) سورة الحجر: الآية ٧٥.

الخلق صفات كماله ونعوت جلاله، ولذلك خلق خلقاً يعصونه ويُخالفون أمره؛ لتعرف ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه كمال مغفرته وعفوه وحلمه وإمهاله، ثم أقبل بقلوب من شاء منهم إليه؛ فظهر كرمه في قبول توبته وبِرِّه ولطفه في العود عليه بعد الإعراض عنه، كما قال النبي ﷺ: «لو لم تذنبوا؛ لذهب الله بكم؛ ولجاء بقوم يذنبون؛ ثم يستغفرون؛ فيغفر لهم»[(١)].

فلِمَنْ كانت تكون مغفرته لو لم يخلق الأسباب التي يعفو عنها ويغفرها؛ والعبد الذي له يغفر؟ فخَلْقُ العبد المغفور له؛ وتقدير الذنب الذي يُغفر؛ والتوبة التي يَغْفِرُ بها: هو نفس مقتضى العِزَّة والحكمة؛ وموجب الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ ليس من التلبيس في شيء، فتعليق الكوائن بالأسباب: كتعليق الثواب والعقاب بالأسباب)[(٢)].

المسألة الثانية:

تقريره أنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ يُحِبُّ أسماءه الحسنى وصفاته العلى، وهو ـ سبحانه ـ لا يخرج في خلقه وأمره عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (الدين دينان: دينٌ شرعيٌّ أمريٌّ، ودينٌ حسابيٌّ جزائيٌّ، وكلاهما لله وحده، فالدين كلُّه لله ــ أمراً وجزاءً ــ ، والمحبة أصلُ كلِّ واحدٍ من الدينين، فإن ما شرعه ــ سبحانه ــ وأمر به: فإنه يُحبُّه ويرضاه، وما نهى عنه: فإنه يكرهه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب سقوط الذنب بالاستغفار ــ الحديث رقم (٢٧٤٩) ــ ٤/٢١٠٦] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «والذي نفسي بيده؛ لو لم تذنبوا».

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤١٦ ــ ٤١٧.

ويُبغضه؛ لمنافاته لما يُحبُّه ويرضاه، فهو يُحِبُّ ضدَّه، فعاد دينه الأمريُّ كلُّه الى محبته ورضاه.

ودينُ العبدِ لله به إنما يُقبل: إذا كان عن محبةٍ ورضى، كما قال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا؛ وبالإسلام ديناً؛ وبمحمد رسولاً[1]»[2].

فهذا الدين قائمٌ بالمحبة، وبسببها شُرع؛ ولأجلها شُرع؛ وعليها أُسِّسَ، وكذلك دينه الجزائيُّ فإنه يتضمن مجازات المحسن بإحسانه؛ والمسيء بإساءته، وكلٌّ من الأمرين محبوبٌ للربِّ، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله، وهو ــ سبحانه ــ يُحبُّ صفاته وأسماءه؛ ويُحبُّ من يُحبُّها.

وكلٌّ واحدٍ من الدينين: فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه، فهو ــ سبحانه ــ على صراطٍ مستقيمٍ في أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، كما قال تعالى ــ إخباراً عن نبيه هود عليه السلام[3] أنه قال لقومه ــ :

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٩٣]: (هذه الثلاثة: هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا بها وعليها).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من رضي بالله رباً؛ وبالإسلام ديناً؛ وبمحمد ﷺ رسولاً: فهو مؤمن؛ وإن ارتكب المعاصي الكبائر ــ الحديث رقم (٣٤) ــ ١/ ٦٢] من حديث العباس بن عبد المطلب ــ رضي الله عنه ــ .

(٣) تكرر الاستشهاد بهذه الآية الكريمة ــ المتضمنة قول نبي الله الكريم: هود عليه السلام ــ في مواضع متعددةٍ من كتب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ، وقد وقع في بعضها وهمٌ ــ فات محقِّقيها التنبُّه له والتنبيه عليه ــ ، حيث نُسِبَ هذا القول ــ المُضمَّن في الآية الكريمة ــ في بعضها إلى خطيب =

﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ ﴾[1].

ولما علم نبي الله هود ـ عليه السلام ـ أنَّ ربَّه على صراطٍ مستقيمٍ في خلقه وأمره ونهيه؛ وثوابه وعقابه؛ وقضائه وقدره؛ ومنعه وعطائه؛ وعافيته وبلائه؛ وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته؛ من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب في موضعه؛ والعقوبه في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان؛ والعطاء والمنع؛ والهداية والإضلال؛ كلُّ ذلك في أماكنه ومحالِّه اللائقة به؛ بحيث يستحقُّ على ذلك كمال الحمد والثناء: أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادى على رؤوس الملأ من قومه بجنانٍ ثابتٍ؛ وقلبٍ غيرِ خائفٍ؛ بل متجرِّدٍ لله:

﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ ﴾[2].

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره بكلِّ ما سواه، وذلِّ كلِّ شيء لعظمته، فقال: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾[3].

= الأنبياء شعيب ـ عليه السلام ـ ، لذا اقتضى التنبيه والتنويه.

انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦٢؛ ١٦٣، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٧٧، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤٨٥.

(١) سورة هود: الآيات ٥٤ ـ ٥٦.

(٢) سورة هود: الآيات ٥٤ ـ ٥٦.

(٣) سورة هود: الآية ٥٦.

فكيف أخاف مَنْ ناصيتُه بيد غيره، وهو في قبضته وتحت قهره، وسلطانه دونه؟ وهل هذا الأمر إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم؟

ثم أخبر أنه ـ سبحانه ـ على صراطٍ مستقيمٍ في كلِّ ما يقضيه ويُقدِّره، فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه؛ فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره وظلمه؛ فإنه على صراطٍ مستقيم، وهو ـ سبحانه ـ ماضٍ في عبده حُكْمُهُ، عدلٌ فيه قضاؤُه، له الملك وله الحمد، لا يخرج في تصرُّفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطى وأكرم؛ وهدى وَوَفَّق: فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان؛ وأضلَّ وخذل وأشقى: فبعدله وحِكْمَتِه، وهو على صراطٍ مستقيمٍ في هذا وهذا)[1].

ومسألة محبة الله تعالى لأسمائه وصفاته؛ ومحبة ظهور آثارها في خلقه: مسألةٌ جليلةُ القدر؛ رفيعةُ الذكر، قد فتح الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بابها في موطن آخر بقوله: (هذا بابٌ واسعٌ قد فُتِحَ لك؛ فادخل منه يُطلعك على رياضٍ من المعرفة مونقةٍ ـ ماتَ من فاتَتْهُ بحسرتها ـ، وبالله التوفيق.

وهذا موضعٌ يضيق عنه عدَّة أسفارٍ، واللبيب يدخل إليه من بابه، وسرُّ هذا الباب: أنه ـ سبحانه ـ كاملٌ في أسمائه وصفاته، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه؛ الذي لا نقص فيه بوجهٍ ما، وهو يُحبُّ أسماءه وصفاته؛ ويُحبُّ ظهور آثارها في خلقه، فإن ذلك من لوازم كماله، فإنه ـ سبحانه ـ وترٌ يُحبُّ الوتر؛ جميلٌ يُحبُّ الجمال؛ عليمٌ يُحبُّ العلماء؛ جوادٌ يُحبُّ الأجواد؛ قويٌّ والمؤمن القوي أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف؛ حَيِيٌّ يُحبُّ أهل الحياء؛ وَفِيٌّ يُحبُّ أهل الوفاء؛ شكورٌ يُحبُّ الشاكرين؛ صادقٌ يُحبُّ الصادقين؛ مُحسنٌ يُحبُّ المحسنين.

---

(١) الداء والدواء ص٣١٦ ـ ٣١٨.

فإذا كان يُحبُّ العفو والمغفرة والحلم والصفح والستر: لم يكن بدٌّ من تقديره للأسباب التي تظهر آثار هذه الصفات فيها؛ ويستدلُّ بها عباده على كمال أسمائه وصفاته، ويكون ذلك أدعى لهم إلى محبته وحمده وتمجيده والثناء عليه بما هو أهله، فتحصل الغاية التي خُلِقَ لها الخلق، وإن فاتت من بعضهم فذلك لفوات سببٍ لكمالها وظهورها، فتضمن ذلك الفوات المكروه له أمراً هو أحبُّ إليه من عدمه. فتأمَّل هذا الموضع حقَّ التأمُّل)[1].

المسألة الثالثة:

تقريره أن ظهور آثار أسماء الله وصفاته في العالم؛ مما يُوجب تعرُّف الخلق على ربِّهم؛ واستدلالهم عليه.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن أسماءه الحسنى تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها، فاسم السميع البصير: يقتضي مسموعاً ومُبْصَراً، واسم الرزَّاق: يقتضي مرزوقاً، واسم الرحيم: يقتضي مرحوماً، وكذلك أسماء الغفور والعفوِّ والتوَّاب والحليم: يقتضي من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه ويحلم.

ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات؛ إذ هي أسماءٌ حسنى وصفاتُ كمالٍ ونعوتُ جلالٍ وأفعالُ حكمةٍ وإحسانٍ وجودٍ، فلا بُدَّ من ظهور آثارها في العالم.

وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث يقول: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم؛ ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون؛ فيغفر لهم»[2].

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨٠ ـ ٨٢.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «والذي نفسي بيده؛ لو لم تذنبوا».

وأنتَ إذا فرضتَ الحيوان بجملته معدوماً؛ فمن يرزق الرزَّاقُ ــ سبحانه ــ؟ وإذا فرضتَ المعصية والخطيئة منتفية من العالَم؛ فلمن يغفر؛ وعمَّن يعفو؛ وعلى من يتوب ويحلم؟ وإذا فرضتَ الفاقات كلَّها قد سُدَّت؛ والعبيدُ أغنياء معافون: فأين السؤال والتضرُّع والابتهال والإجابة؛ وشهود الفضل والمنة والتخصيص بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرَّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرُّفات؛ ودلَّهم عليه بأنواع الدلالات؛ وفتح لهم إليه جميع الطرقات، ثم نصب إليه الصراط المستقيم؛ وعرَّفهم به ودلَّهم عليه، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[(١)])[(٢)].

المسألة الرابعة:

تقريره أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يُحبُّ من عباده أن يتعرّفوا على كمال أسمائه وصفاته؛ ويفقهوا تعلُّقها بمتعلّقاتها واقتضاءها لآثارها وموجباتها.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن الله ــ سبحانه ــ يُحبُّ أن تُعرف سبيل أعدائه لتُجتنب وتُبغض، كما يُحبُّ أن تُعرف سبيل أوليائه لتُحبَّ وتُسلك.

وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله؛ من معرفة عموم ربوبيته ــ سبحانه ــ وحكمته وكمال أسمائه وصفاته؛ وتعلُّقها بمتعلَّقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلـٰهيته؛ وحبِّه وبغضه؛ وثوابه وعقابه، والله أعلم)[(٣)].

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٠.

(٣) الفوائد ص١٢٦.

المسألة الخامسة:

تقريره أن مطالعة العبد لاقتضاء الأسماء والصفات لمتعلّقاتها: يُوجب له معرفة الله؛ ومحبته والثناء عليه، وهذا من أجلّ المشاهد للخليقة؛ وأشرفها قدراً وأرفعها ذكراً.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (مشهد الأسماء والصفات: وهو من أجلِّ المشاهد؛ وهو أعلى مما قبله وأوسع.

والمَطْلَعُ على هذا المشهد: معرفة تعلُّق الوجود ــ خلقاً وأمراً ــ بالأسماء الحسنى والصفات العلى؛ وارتباطه بها ــ وإن كان العالَم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها ــ ، وهذا من أجلِّ المعارف وأشرفها.

وكلُّ اسم من أسمائه ــ سبحانه ــ له صفةٌ خاصةٌ، فإن أسماءه أوصافُ مدحٍ وكمالٍ، وكلُّ صفةٍ لها مقتضٍ وفعلٌ ــ إما لازمٌ وإما متعدٍ ــ ، ولذلك الفعل تعلُّق بمفعولٍ هو من لوازمه، وهذا في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، كلُّ ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها؛ وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله؛ وأفعاله عن صفاته؛ وصفاته عن أسمائه؛ وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته، وإذا كانت أوصافه صفات كمالٍ؛ وأفعاله حكماً ومصالح؛ وأسماؤه حسنى: ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيلٌ في حقِّه.

ولهذا يُنكر ــ سبحانه ــ على من عطَّله عن أمره ونهيه؛ وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى ما لا يليق به؛ وإلى ما يتنزَّه عنه، وأن ذلك حكمٌ سيءٌ ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حقَّ قدره؛ ولا عظَّمه حقَّ تعظيمه، كما قال تعالى ــ في حقِّ منكري النبوة وإرسال

الرسل وإنزال الكتب ــ : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[1].

وقال تعالى ــ في حقِّ منكري المعاد والثواب والعقاب ــ : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[2].

وقال ــ في حقِّ من جوَّز عليه التسوية بين المختلفَيْن؛ كالأبرار والفجار؛ والمؤمنين والكفار ــ : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[3].

فأخبر أن هذا حكم سيء لا يليق به؛ تأباه أسماؤه وصفاته، وقال ــ سبحانه ــ : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾[4]: عن هذا الظنِّ والحسبان؛ الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرةٌ، ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته، إذ ذلك مستلزمٌ تعطيلَها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه الحميد المجيد: يمنع ترك الإنسان سدى مهملاً معطلاً؛ لا يُؤمر ولا يُنهى؛ ولا يُثاب ولا يُعاقب، وكذلك اسمه الحكيم: يأبى ذلك، وكذلك اسمه الملك، واسمه الحي: يمنع أن يكون معطلاً من الفعل، بل حقيقة الحياة: الفعل، فكل حي: فعالٌ.

وكونه ــ سبحانه ــ خالقاً قيوماً من موجبات حياته ومقتضياتها،

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٧.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٢١.

(٤) سورة المؤمنون: الآيتان ١١٥ ــ ١١٦.

واسمه السميع البصير: يُوجب مسموعاً ومرئياً، واسمه الخالق: يقتضي مخلوقاً، وكذلك الرزَّاق، واسمه الملك: يقتضي مملكة وتصرُّفاً وتدبيراً؛ وإعطاء ومنعاً؛ وإحساناً وعدلاً؛ وثواباً وعقاباً، واسم البَرِّ المُحسن المُعطي المنان ونحوها: تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عُرِفَ هذا: فمن أسمائه ــ سبحانه ــ الغفَّار التوَّاب العفوُّ، فلا بُدَّ لهذه الأسماء من متعلَّقاتٍ، ولا بُدَّ من جنايةٍ تُغفر؛ وتوبةٍ تُقبل؛ وجرائمَ يُعفى عنها، ولا بُدَّ لاسمه الحكيم: من متعلَّقٍ يظهر فيه حكمه، إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم الخالق الرزَّاق المُعطي المانع للمخلوق والمرزوق والمُعطى والممنوع، وهذه الأسماء كلُّها حسنى، والربُّ تعالى يُحبُّ ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو عفوٌّ يُحبُّ العفو؛ ويُحبُّ المغفرة؛ ويُحبُّ التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرحٍ يخطر بالبال، وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله ويحلم عنه ويتوب عليه ويُسامحه من موجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يُحبُّه ويرضاه من ذلك، وما يحمد به نفسه ويحمده به أهل سماواته وأهل أرضه ما هو من موجبات كماله؛ ومقتضى حمده.

وهو ــ سبحانه ــ الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما، ومن آثارهما: مغفرة الزلات؛ وإقالة العثرات؛ والعفو عن السيئات؛ والمسامحة على الجنايات؛ مع كمال القدرة على استيفاء الحقِّ؛ والعلم منه ــ سبحانه ــ بالجناية ومقدار عقوبتها، فحلمه بعد علمه؛ وعفوه بعد قدرته؛ ومغفرته عن كمال عِزَّته وحكمته، كما قال المسيح ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[١].

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٨.

أي: فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، لستَ كمن يغفر عجزاً؛ ويسامح جهلاً بقدر الحقِّ، بل أنت عليمٌ بحقِّك؛ قادرٌ على استيفائه؛ حكيمٌ في الأخذ به.

فمن تأمَّل سريان آثار الأسماء والصفات في العالَم وفي الأمر: تبيَّن له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال، وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده؛ كما هو مقتضى ربوبيته وإلـٰهيته.

فله في كل ما قضاه وقدَّره: الحكمة البالغة؛ والآيات الباهرة؛ والتعرُّفات إلى عباده بأسمائه وصفاته؛ واستدعاء محبتهم له وذكرهم له وشكرهم له وتعبُّدهم له بأسمائه الحسنى.

إذ كلُّ اسم فله تعبُّدٌ مُختصٌّ به ـ علماً ومعرفة وحالاً ـ ، وأكمل الناس عبودية: المُتعبِّد بجميع الأسماء والصفات التي يطَّلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر؛ كمن يحجبه التعبُّد باسمه القدير عن التعبُّد باسمه الحليم الرحيم، أو يحجبه عبودية اسمه المُعطي عن عبودية اسمه المانع، أو عبودية اسمه الرحيم والعفوِّ والغفور عن اسمه المُنتقم، أو التعبُّد بأسماء التودُّد والبِرِّ واللطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء؛ ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقةٌ مشتقةٌ من قلب القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1].

والدعاء بها يتناول: دعاء المسألة؛ ودعاء الثناء؛ ودعاء التعبُّد. وهو ـ سبحانه ـ يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته؛ ويُثنوا عليه بها؛

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

ويأخذوا بحظِّهم من عبوديتها، وهو ــ سبحانه ــ يُحبُّ موجب أسمائه وصفاته، فهو عليمٌ يُحبُّ كلَّ عليم؛ جوادٌ يُحبُّ كلَّ جوادٍ؛ وترٌ يُحبُّ الوتر؛ جميلٌ يُحبُّ الجمال؛ عفوٌّ يُحبُّ العفو وأهله؛ حَيِيٌّ يُحبُّ الحياء وأهله؛ بَرٌّ يُحبُّ الأبرار؛ شكورٌ يُحبُّ الشاكرين؛ صبورٌ يُحبُّ الصابرين؛ حليمٌ يُحبُّ أهل الحلم.

فلمحبته ــ سبحانه ــ للتوبة والمغفرة والعفو والصفح: خَلَقَ من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه، وقدَّر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له؛ ليترتَّب عليه المحبوب له المرضيَّ له، فتوسُّطه كتوسُّط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب.

فربما كان مكروه العباد إلى ... محبوبها سببٌ ما مثله سبب[1])[2].

المسألة السادسة:

تقريره أن للعبد سعاية في تحصيل مقتضيات أسماء الله وصفاته؛ وإيثارها.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (العبد استدعى العقوبة وأَخْذَ الحقِّ منه؛ لشركه بالله وكفره به؛ واجتهاده في غضبه.

ولغضبه موجباتٌ وآثارٌ ومقتضياتٌ، والعبد مُؤثرٌ لها؛ ساعٍ في تحصيلها؛ عاملٌ عليها بإيثاره إياها وسعيه في أسبابها، فهو المُهلك لنفسه،

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في مواطن من كتبه ولم يعزه لقائل، ولم أقف عليه.

انظر: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ١٤٦، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٢٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٩٥.

ولفظه فيها:

(وربما كان مكروه النفوس إلى ... محبوبها سببا ما مثله سبب).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٤٩ ــ ٤٥٣.

وربُّه يُحذِّره ويُبصِّره ويُناديه: هلمَّ إليَّ أَحْمِك وأَصُنْك وأُنْجِك مما تحذر؛ وأُؤَمِّنُك من كلِّ ما تخاف، وهو يأبى إلا شروداً عليه؛ ونفاراً عنه؛ ومصالحة لعدوِّه ومظاهرة له على ربِّه، مُتطلِّبٌ لمرضاة خلقه بمساخطه، رضى المخلوق آثر عنده من رضى خالقه؛ وحقُّه آكد عنده من حقِّه؛ وخوفه ورجاؤه وحبُّه في قلبه أعظم من خوفه من الله ورجائه وحبِّه.

فلم يدع لفضل ربِّه وكرامته وثوابه إليه طريقاً؛ بل سدَّ دونه طرق مجاريها بجهده، وأعطى بيده لعدوه فصالحه؛ وسمع له وأطاع وانقاد إلى مرضاته، فجاء من الظلم بأقبحه وأشدِّه، فهو الذي عارض مراده به منه بمراده وهواه وشهوته، واعترض لمحابِّه ومراضيه بالدفع؛ ولم يأذن لها في الدخول عليه، فأضاع حظَّه وبخس حقَّه وظلم نفسه؛ وعادى حبيبه ووالى عدوَّه، وأسخط مَن حياتُه في رضاه؛ وأرضى مَن حياتُه في سخطه، وجاد بنفسه لعدوِّه؛ وبخل بها عن حبيبه ووليِّه.

والربُّ ـ تبارك وتعالى ـ ليس له ثأرٌ عند عبده فيدركه بعقوبته؛ ولا يتشفَّى بعقابه؛ ولا يزيد ذلك في ملكه مثقالُ ذرةٍ؛ ولا يُنقص مغفرته؛ ولو غفر لأهل الأرض كلِّهم لما نقص مثقالُ ذرةٍ من ملكه، كيف والرحمة أوسع من العقوبة؛ وأسبق من الغضب؛ وأغلب له؟

وهو قد كتب على نفسه الرحمة، فرجاء العبد له لا يُنقص شيئاً من حكمته؛ ولا يُنقص ذرة من ملكه؛ ولا يُخرجه عن كمال تصرُّفه؛ ولا يُوجب خلاف كماله؛ ولا تعطيل أوصافه وأسمائه.

ولولا أن العبد هو الذي سدَّ على نفسه طرق الخيرات؛ وأغلق دونها أبواب الرحمة بسوء اختياره لنفسه: لكان ربُّه له فوق رجائه؛ وفوق أمله)[١].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٦.

المسألة السابعة:

تقريره أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يُحبُّ من اتصف من عباده بمقتضيات أسمائه وصفاته، وأن معاملته ـ سبحانه ـ لهم بموجب الصفة التي يُعاملون بها عباده.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (السخاء نوعان: فأشرفهما: سخاؤك عما بيد غيرك. والثاني: سخاؤك ببذل ما في يدك.

فقد يكون الرجل من أسخى الناس وهو لا يعطيهم شيئاً؛ لأنه سخى عما في أيديهم، وهذا معنى قول بعضهم: السخاء أن تكون بمالك مُتبرِّعاً؛ وعن مال غيرك متورعاً.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: (أوحى الله إلى إبراهيم ﷺ: (أتدري لم اتخذتك خليلاً؟[1] قال: لا. قال: لأني رأيتُ العطاء أحبَّ إليك من الأخذ)[2])[3].

وهذه صفةٌ من صفات الربِّ ـ جلَّ جلاله ـ، فإنه يُعطي ولا يأخذ، ويُطْعِم ولا يُطْعَم، وهو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأحبُّ الخلق

---

(١) ذكر ابن الجوزي في [زاد المسير في علم التفسير ٢/ ٢١٢] في سبب اتخاذ الله تعالى إبراهيم ـ عليه السلام ـ خليلاً: ثلاثة أقوال، منها ما تضمنه المعنى المشار إليه.

(٢) عزا المنذري في [الترغيب والترهيب ٣/ ٣٨٤] هذا الحديث القدسيَّ إلى عمر بن الخطاب مرفوعاً، وأشار إلى ضعفه بقوله: (رُوِيَ).
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (٥٢٤٥) ـ ١١/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧].

(٣) السياسة الشرعية لابن تيمية ٢٨/ ٢٩٥ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

إليه من اتصف بمقتضيات صفاته، فإنه كريمٌ يُحبُّ الكريم من عباده، وعالِمٌ يُحبُّ العلماء، وقادرٌ يُحبُّ الشجعان، وجميلٌ يُحبُّ الجمال.

وروى الترمذي في جامعه قال: (حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عامر[1]، أخبرنا خالد بن إلياس[2]، عن صالح بن أبي حسان[3] قال: سمعت سعيد بن المسيِّب[4] يقول: «إن الله طيبٌ يُحبُّ الطيِّب، نظيفٌ يُحبُّ النظافة، كريمٌ يُحبُّ الكرم، جوادٌ يُحبُّ الجود، فنظِّفوا أخبيتكم؛

---

(١) هو: عبد الملك بن عمرو القيسي العقدي البصري، ثقة مأمون، توفي في جمادى الأولى سنة خمس ومائتين.
انظر في ترجمته: الطبقات لخليفة بن خياط ص٢٢٧، الثقات لابن حبان ٨/ ٣٨٨، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٨/ ٣٦٤ ــ ٣٦٩.

(٢) هو: خالد بن إلياس؛ وقيل: إياس؛ القرشي العدوي المدني، معدودٌ في طبقات الضعفاء والمتروكين.
انظر في ترجمته: الضعفاء الصغير للبخاري ص٤٢، الضعفاء والمتروكين للنسائي ص١٧٢، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ١/ ٢٤٥.

(٣) هو: صالح بن أبي حسان المدني، مختلف في جرحه وتعديله.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/ ٣٩٩، ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ٢/ ٢٩٢، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٤/ ٣٥١.

(٤) هو: أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن القرشي المخزومي، سيد التابعين؛ وأحد من وردت عنه الرواية في حروف القرآن الكريم، ولد لسنتين مضتا من خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ ؛ وقيل: لأربع، وتوفي سنة أربع وتسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك؛ وهو ابن خمس وسبعين سنة، وهي السنة التي يُقال لها: سنة الفقهاء؛ لكثرة من مات منهم فيها.
انظر في ترجمته: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني ٢/ ١٦١ ــ ١٧٥، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١١/ ٦٦ ــ ٧٥، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٣٠٨.

ولا تشبَّهوا باليهـود». قال: فذكرت للمهاجر بـن مسمار[١] فقـال: حدثنيه عامر بن سعـد[٢] عن أبيه ــ رضي الله تعالى عنـه ــ ، عن النبـي ﷺ، إلا أنه قال: «فنظفُّوا أفنيتكم». هذا حديثٌ غريبٌ، خالد بن إلياس: يُضعَّف)[٣].

وفـي الـتـرمـذي أيـضـاً فـي كتـاب البِرِّ قـال: (حـدثـنـا الحسـن بـن عـرفـة[٤]، حـدثنـا سعيـد بـن محمـد الـوراق[٥]، عـن يحيـى بـن

(١) هو: مهاجر بن مسمار القرشي الزهري؛ المدني.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ٣٨١، الثقات لابن حبان ٧/ ٤٨٦، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٨/ ٥٨٣ ــ ٥٨٤.

(٢) هو: عامر بن سعد بن أبـي وقاص القرشي الزهري المدني، كان ثقة كثير الحديث، توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة أربع ومائة.
انظر في ترجمته: الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد الذين أخرج لهم البخاري في جامعه للكلاباذي ٢/ ٥٥٥ ــ ٥٥٦، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٤/ ٢١ ــ ٢٣، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٤/ ٣٤٩.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الأدب/ باب ما جاء في النظافة ــ الحديث رقم (٢٧٩٩) ــ ٤/ ٤٩٥].
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي ص٣١٣ ــ ٣١٤].

(٤) هو: أبو علي الحسن بن عرفة بن يزيد العبدي البغدادي المؤدب، الإمام المحدث الثقة؛ مسند وقته، ولد سنة خمسين ومائة، وتوفي بسامراء لأربع بقين من ذي الحجة سنة سبع وخمسين ومائتين.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٧/ ٣٩٤ ــ ٣٩٦، سير أعلام النبلاء للذهبـي ١١/ ٤٥٧ ــ ٥٥١، الوافي بالوفيات للصفدي ١٢/ ١٠٣.

(٥) هو: أبو الحسن سعيد بن محمد الوراق الثقفي الكوفي، سكن بغداد ومات بها.
انظر في ترجمته: الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/ ١٢٣٨ ــ ١٢٣٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١١/ ٤٧ ــ ٥٠، ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبـي ٢/ ١٥٦.

سعيد[1]، عن الأعرج[2]، عن أبـي هريرة، عن النبـي ﷺ قال: «السخيُّ: قريبٌ من الله؛ قريبٌ من الجنة؛ قريبٌ من الناس؛ بعيدٌ من النار، والبخيل: بعيدٌ من الله؛ بعيدٌ من الجنة؛ بعيدٌ من الناس؛ قريبٌ من النار، ولجاهلٌ سخيٌ أحبُّ إلى الله تعالى من عابدٍ بخيلٍ»[3].

وفي الصحيح: «إنَّ الله تعالى وترٌ يُحبُّ الوتر»[4].

---

(١) هو: أبو سعيد يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري الخزرجي النجاري المدني، قاضي المدينة وعالمها في زمانه؛ وتلميذ الفقهاء السبعة، ولد قبل السبعين في زمن ابن الزبير، وتوفي سنة ثلاث وأربعين ومائة.
انظر في ترجمته: تاريخ خليفة بن خياط ص٤٢٠، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٣١/٣٤٦ ـ ٣٥٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/٤٦٨ ـ ٤٨١.

(٢) هو: أبو داود عبد الرحمن بن هرمز المدني الأعرج، الإمام الحافظ الحجة المقرىء، أول من وضع العربية بالمدينة، وكان أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش، توفي سنة سبع عشرة ومائة.
انظر في ترجمته: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي ١/٧٧ ـ ٧٨، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي ١/ ٢٥٠، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي٢/ ٩١.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب البر والصلة/ باب ما جاء في البخيل ـ الحديث رقم (١٩٦١) ـ ٣/ ٥١٠].
قال الترمذي: (هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه من حديث يحيى بن سعيد عن الأعرج عن أبـي هريرة؛ إلا من حديث سعيد بن محمد، وقد خُولف سعيد بن محمد في رواية هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، إنما يُروى عن يحيى بن سعيد عن عائشة شيءٌ مرسلٌ).
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (١٥٤) ـ ١/ ٢٨٥].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الدعوات/ باب لله مائة اسم غير واحدة ـ =

وهو ــ سبحانه وتعالى ــ رحيمٌ يُحبُّ الرحماء؛ وإنما يرحم من عباده الرحماء، وهو ستِّيرٌ يُحبُّ من يستر على عباده، وعفوٌ يُحبُّ من يعفو عنهم، وغفورٌ يُحبُّ من يغفر لهم، ولطيفٌ يُحبُّ اللطيف من عباده؛ ويُبغض الفظَّ الغليظ القاسي الجعظريَّ[1] الجوَّاظ[2]، ورفيقٌ يُحبُّ الرِّفق، وحليمٌ يُحبُّ الحلم، وبَرٌّ يُحبُّ البِرَّ وأهله، وعَدْلٌ يُحبُّ العدل، وقابلُ المعاذير يُحبُّ من يقبل معاذير عباده، ويُجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه ــ وجوداً وعدماً ــ ، فمن عفا: عفا عنه، ومن غفر: غفر له، ومن سامح: سامحه، ومن حاقق: حاققه، ومن رفق بعباده: رفق به، ومن رحم خلقه: رحمه، ومن أحسن إليهم: أحسن إليه، ومن جاد عليهم: جاد عليه، ومن نفعهم: نفعه، ومن سترهم: ستره، ومن صفح عنهم: صفح عنه، ومن تتبَّع عورتهم: تتبَّع عورته، ومن هتكهم: هتكه وفضحه، ومن منعهم خيره: منعه خيره، ومن شاقَّ: شاقَّ الله تعالى به، ومن مكر: مكر به، ومن خادع: خادعه، ومن عامل خلقه بصفة: عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا

= الحديث رقم (٦٤١٠) ــ ٤/ ٢٠١٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها ــ الحديث رقم (٢٦٧٧) ــ ٤/ ٢٠٦٢ ــ ٢٠٦٣] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «لله تسعة وتسعون اسماً».

(١) الجعظريُّ: هو الفظُّ الغليظ المُتكبِّر.
انظر: غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ١٥٩، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٢٧٦، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للفتني ١/ ٣٦٠.

(٢) الجوَّاظ: هو الضخم. وقيل: الجموع المنوع. وقيل: القصير البطين.
انظر: غريب الحديث للخطابي ٢/ ٤٥١، الفائق في غريب الحديث للزمخشري ١/ ٢٤٧، غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ١٨٠.

والآخرة، فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه.

ولهذا جاء في الحديث: «من ستر مسلماً: ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومن نفَّس عن مؤمنٍ كربةً من كرب الدنيا: نفَّس الله تعالى عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعْسِرٍ: يسَّر الله تعالى حسابه»[١]، و «من أقال نادماً: أقال الله تعالى عثرته»[٢]. و «من أنظر معسراً أو وضع عنه: أظلَّه الله تعالى في ظلِّ عرشه»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ــ الحديث رقم (٢٦٩٩) ــ ٤/ ٢٠٧٤] من حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ بلفظه، وكذا أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب المظالم/ باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه ــ الحديث رقم (٢٤٤٢) ــ ٢/ ٧٣٢]، ومسلم في صحيحه [كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الظلم ــ الحديث رقم(٢٥٨٠) ــ ٤/ ١٩٩٦] من حديث عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ بلفظ نحوه، وأوله: «من نفَّس عن مؤمن كربة».

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه [كتاب البيوع/ باب الإقالة ــ ذكر إقالة الله جلَّ وعلا في القيامة عثرة من أقال نادماً بيعته ــ الحديث رقم (٥٠٢٩) ــ ١١/ ٤٠٤]، والبيهقي في سننه الكبرى [كتاب البيوع/ باب من أقال المسلم إليه بعض السلم وقبض بعضاً ــ ٦/ ٢٧] بلفظه، وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٧٤٣١) ــ ١٢/ ٤٠٠ ــ ٤٠١]، وأبو داود في سننه [كتاب البيوع والإجارات/ باب فضل الإقالة ــ الحديث رقم (٣٤٦٠) ــ ٣/ ٧٣٨]، وابن ماجه في سننه [كتاب التجارات/ باب الإقالة ــ الحديث رقم (٢١٩٩) ــ ٣/ ٣٦ ــ ٣٧] من حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، بلفظ: «من أقال مسلماً».

وصححه الألباني في [صحيح سنن أبـي داود: ٢/ ٣٦٤].

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٨٧١٢) ــ ١٤/ ٣٢٩] من حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ بلفظه، وكذا أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب =

لأنه لما جعله في ظلِّ الإنظار والصبر؛ ونجَّاه من حرِّ المطالبة وحرارة تكلُّف الأداء مع عسرته وعجزه: نجَّاه الله تعالى من حرِّ الشمس يوم القيامة إلى ظل العرش.

وكذلك الحديث الذي في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته يوماً: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ إلى قلبِه: لا تؤذوا المسلمين؛ ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه: يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه؛ ولو في جوف بيته»[1].

فكما تدين تُدان، وكُنْ كيف شئت؛ فإن الله تعالى لك كما تكون أنت لعباده، ولما أظهر المنافقون الإسلام وأسرُّوا الكفر: أظهر الله تعالى لهم يوم القيامة نوراً على الصراط، وأظهر لهم أنهم يجوزون الصراط، وأسرَّ لهم أن يُطفىء نورهم، وأن يُحال بينهم وبين الصراط؛ من جنس أعمالهم.

وكذلك من يُظهر للخلق خلاف ما يعلمه الله فيه: فإن الله تعالى يُظهر له في الدنيا والآخرة أسباب الفلاح والنجاح والفوز، ويُبطن له خلافها، وفي الحديث: «من راءى: راءى الله به، ومن سمَّع: سمَّع الله به»[2].

= الزهد والرقاق/ باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ــ الحديث رقم (٣٠٠٦) ــ ٤/ ٢٣٠١ ــ ٢٣٠٢] من حديث جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ بلفظ نحوه.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب البر والصلة/ باب ما جاء في تعظيم المؤمن ــ الحديث رقم (٢٠٣٢) ــ ٣/ ٥٥٤ ــ ٥٥٥] من حديث عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٩٧٧٦) ــ ٣٣/ ٢٠]، وأبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب في الغيبة ــ الحديث رقم (٤٨٨٠) ــ ٥/ ١٩٤ ــ ١٩٥] من حديث أبي برزة الأسلمي ــ رضي الله عنه ــ.
وحسنه الألباني في [صحيح سنن الترمذي ٢/ ٣٩١].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الزهد والرقائق/ باب من أشرك في عمله =

والمقصود: أن الكريم المُتصدِّق يُعطيه الله ما لا يُعطي البخيل المُمسك، ويُوسِّع عليه في ذاته وخلقه ورزقه ونفسه وأسباب معيشته؛ جزاء له من جنس عمله)[1].

المسألة الثامنة:

تقريره أن موافقة العبد لربّه ـ تبارك وتعالى ـ في صفةٍ من صفاته: تُقرّبه من رحمة ربّه؛ وتُصيّره محبوباً له.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (كان النبيُّ ﷺ أَغْيَرَ الخلق على الأُمّة، والله ـ سبحانه ـ أشدُّ غيرة منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني»[2].

وفي الصحيح أيضاً عنه أنه قال ـ في خطبة الكسوف ـ: «يا أمة محمدٍ؛ ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني

= غير الله ـ الحديث رقم (٢٩٨٦) ـ ٤/٢٢٨٩] من حديث عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وكذا أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الرقاق/ باب الرياء والسمعة ـ الحديث رقم (٦٤٩٩) ـ ٤/٢٠٣٨]، ومسلم في صحيحه [كتاب الزهد والرقائق/ باب من أشرك في عمله غير الله ـ الحديث رقم (٢٩٨٧) ـ ٤/٢٢٨٩] من حديث جندب بن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنه ـ بلفظ نحوه، ولفظ مسلم الذي انفرد به: «من سمع سمَّع الله به، ومن رائى رائى الله به».

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٣ ـ ٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول النبي ﷺ: «لا شخص أغير من الله» ـ الحديث رقم (٧٤١٦) ـ ٥/٢٣١٤]، ومسلم في صحيحه [كتاب اللعان/ الحديث رقم (١٤٩٩) ـ ٢/١١٣٦] من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ.

أمته[1]»[2].

وفي الصحيح أيضاً عنه أنه قال: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبَّ إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحبَّ إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه»[3].

فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها؛ وبين محبة العذر الذي يُوجب كمال العدل والرحمة والإحسان.

والله ــ سبحانه ــ مع شدَّة غيرته يُحبُّ أن يعتذر إليه عبدُه، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وأنه لا يُؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٣٠٢]: (في ذكر هذا الذنب بخصوصه في خطبة الكسوف سرٌّ بديعٌ؛ ــ قد نبهنا عليه ــ في باب غضِّ البصر: وأنه يُورث نوراً في القلب، ولهذا جمع الله ــ سبحانه وتعالى ــ بين الأمر به وبين ذكر آية النور، فجمع الله ــ سبحانه ــ بين نور القلب بغضِّ البصر وبين نوره الذي مثَّله بالمشكاة؛ لتعلُّق أحدهما بالآخر، فجمع النبي ﷺ بين ظلمة القلب بالزنا وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس؛ وذكر أحدهما مع الآخر).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الكسوف/ باب الصدقة في الكسوف ــ الحديث رقم (١٠٤٤) ــ ١/ ٣١٢]، ومسلم في صحيحه [كتاب الكسوف/ باب صلاة الكسوف ــ الحديث رقم (٩٠١) ــ ٢/ ٦١٨] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التفسير/ باب: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ــ الحديث رقم (٤٦٣٧) ــ ٣/ ١٤١٨]، ومسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش ــ الحديث رقم (٢٧٦٠) ــ ٤/ ٢١١٣ ــ ٢١١٤] من حديث عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ.

إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله؛ وأنزل كتبه ـ إعذاراً وإنذاراً ـ ، وهذا غاية المجد والإحسان؛ ونهاية الكمال.

فإن كثيراً ممن تشتدُّ غيرته من المخلوقين: تحمله شدَّة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة؛ من غير إعذارٍ منه، ومن غير قبول العذر ممن اعتذر اليه، بل قد يكون له فى نفس الأمر عذرٌ؛ ولا تدعه شدَّة الغيرة أن يقبل عذره.

وكثيرٌ ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها: قلَّة الغيرة؛ حتى يتوسَّع في طريق المعاذير، ويرى عذراً ما ليس بعذرٍ، حتى يعتذر كثيرٌ منهم بالقدر.

وكلٌ منهما غير ممدوحٍ على الإطلاق، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من الغيرة ما يُحبُّها الله، ومنها ما يُبغضها الله، فالتي يُبغضها الله: الغيرة من غير ريبةٍ» وذكر الحديث[1].

وإنما الممدوح: اقتران الغيرة بالعذر، فيغار في محلِّ الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا: فهو الممدوح حقًّا.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٣٧٤٧) ـ ٣٩/ ١٥٦]، وأبو داود في سننه [كتاب الجهاد/ باب الخيلاء في الحرب ـ الحديث رقم (٢٦٥٩) ـ ٣/ ١١٤ ـ ١١٥]، والنسائي في سننه [كتاب الزكاة/ باب الاختيال في الصدقة ـ الحديث رقم (٢٥٥٧) ـ ٥/ ٨٢] من حديث جابر بن عتيك ـ رضي الله عنه ـ .
وحسنه الألباني في [صحيح سنن النسائي ٢/ ٢١٤].
وأخرجه ابن ماجه في سننه [كتاب النكاح/ باب الغيرة ـ الحديث رقم (١٩٩٦) ـ ٢/ ٤٨٨] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ .
وصححه الألباني في [صحيح سنن ابن ماجه: الحديث رقم (١٦٣٥) ـ ٢/ ١٦٣].

ولما جمع ـ سبحانه ـ صفات الكمال كلَّها: كان أحقَّ بالمدح من كلِّ أحدٍ، ولا يبلغ أحدٌ أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه؛ وأثنى على نفسه.

فالغيور قد وافق ربَّه ـ سبحانه ـ في صفةٍ من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته: قادته تلك الصفة إليه بزمامه؛ وأدخلته على ربِّه؛ وأدنته منه؛ وقرَّبته من رحمته؛ وصيَّرته محبوباً له، فإنه ـ سبحانه ـ رحيمٌ يُحبُّ الرحماء، كريمٌ يُحبُّ الكرماء، عليمٌ يُحبُّ العلماء، قويٌّ يُحبُّ المؤمن القويَّ؛ وهو أحبُّ اليه من المؤمن الضعيف، حَيِيٌّ يُحبُّ أهل الحياء، جميلٌ يُحبُّ أهل الجمال، وترٌ يُحبُّ أهل الوتر)[١].

المسألة التاسعة:

تقريره أن العبودية كلَّها ترجع إلى مقتضى الأسماء والصفات.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (الأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضيةٌ لآثارها من العبودية والأمرِ اقتضاءَها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكلِّ صفةٍ عبوديةٌ خاصةٌ هي من موجباتها ومقتضياتها؛ أعني: من موجبات العلم بها؛ والتحقُّق بمعرفتها، وهذا مُطَّردٌ في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح.

فعِلْمُ العبد بتفرُّد الربِّ تعالى بالضرِّ والنفع؛ والعطاء والمنع؛ والخلق والرزق؛ والإِحياء والإِماتة: يُثمر له عبودية التوكُّل عليه باطناً؛ ولوازم التوكُّل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه؛ وأنه لا يخفى عليه مثقالُ ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض؛ وأنه ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٢]؛

---

(١) الداء والدواء ص١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) سورة طه: الآية ٧.

و ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[1]: يُثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كلِّ ما لا يُرضي الله؛ وأن يجعل تعلُّق هذه الأعضاء بما يُحبُّه الله ويرضاه؛ فيُثمر له ذلك الحياء باطناً؛ ويُثمر له الحياء اجتناب المُحرَّمات والقبائح، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبِرِّه وإحسانه ورحمته: تُوجب له سعة الرَّجاء؛ وتُثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعِزِّه: تُثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة؛ وتُثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يُوجب له محبة خاصَّة بمنزلة أنواع العبودية.

فرجعت العبودية كلُّها إلى مقتضى الأسماء والصفات؛ وارتبطت بها ارتباطَ الخلقِ بها، فخلقه ــ سبحانه ــ وأمره: هو موجب أسمائه وصفاته في العالَم؛ وآثارها ومقتضاها، لأنه لا يتزيَّن من عباده بطاعتهم؛ ولا تُشينه معصيتُهم.

وتأمَّل قوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه عن ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ : «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضرُّوني؛ ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني». ذكر هذا عقب قوله: «يا عبادي إنكم تُخطئون بالليل والنهار؛ وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم»[2].

فتضمن ذلك: أن ما يفعله تعالى بهم في غفران زلاتهم وإجابة دعواتهم وتفريج كرباتهم ليس لجلب منفعةٍ منهم؛ ولا لدفع مضرَّةٍ يتوقَّعها

---

(١) سورة غافر: الآية ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الظلم ــ الحديث رقم (٢٥٧٧) ــ ٤/ ١٩٩٤] من حديث أبـي ذر الغفاري ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي».

منهم؛ كما هو عادة المخلوق الذي ينفع غيره ليُكافئه بنفعٍ مثله؛ أو ليدفع عنه ضرراً، فالربُّ تعالى لم يُحسن إلى عباده ليُكافئوه؛ ولا ليدفعوا عنه ضرراً، فقال: «لن تبلغوا نفعي فتنفعوني؛ ولن تبلغوا ضُرِّي فتضرُّوني».

إني لستُ إذا هديتُ مُستهديكم؛ وأطعمتُ مُستطعمكم؛ وكسوتُ مُستكسيكم؛ وأرويتُ مُستسقيكم؛ وكفيتُ مُستكفيكم؛ وغفرتُ لمُستغفركم: بالذي أطلبُ منكم أن تنفعوني؛ أو تدفعوا عني ضرراً، فإنكم لن تبلغوا ذلك؛ وأنا الغنيُّ الحميد، كيف والخلق عاجزون عما يقدرون عليه من الأفعال إلا بإقداره وتيسيره وخلقه؟ فكيف بما لا يقدرون عليه؟ فكيف يبلغون نفع الغنيِّ الصمد؛ الذي يمتنع في حقِّه أن يستجلب من غيره نفعاً؛ أو يستدفع منه ضرراً؟ بل ذلك مستحيلٌ في حقِّه.

ثم ذكر بعد هذا قوله: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً».

فبين ــ سبحانه ــ أن ما أمرهم به من الطاعات؛ وما نهاهم عنه من السيئات لا يتضمن استجلاب نفعهم؛ ولا استدفاع ضررهم، كأمر السيِّدِ عبدَه؛ والوالدِ ولدَه؛ والإمامِ رعيتَه بما ينفع الآمر والمأمور، ونهيهم عما يضرُّ الناهي والمُنهى، فبيَّن تعالى أنه المُنزَّه عن لحوق نفعهم وضرِّهم به في إحسانه إليهم بما يفعله بهم؛ وبما يأمرهم به، ولهذا لما ذكر الأصلين بعد هذا؛ وأن تقواهم وفجورهم ــ الذي هو طاعتهم ومعصيتهم ــ لا يزيد في ملكه شيئاً ولا يُنقصه؛ وأن نسبة ما يسألونه كلُّهم إياه فيعطيهم إلى ما عنده: كَلا نسبةٍ، فتضمَّن ذلك أنه لم يأمرهم ولم يُحسن إليهم بإجابة الدعوات وغفران الزلات وتفريج الكربات لاستجلاب منفعةٍ ولا لاستدفاع مضرَّةٍ؛

وأنهم لو أطاعوه كلُّهم لم يزيدوا في ملكه شيئاً؛ ولو عصوه كلُّهم لم يُنقصوا من ملكه شيئاً؛ وأنه الغنيُّ الحميد، ومن كان هكذا؛ فإنه لا يتزيَّن بطاعة عباده؛ ولا تُشينه معاصيهم، ولكن له من الحكم البوالغ في تكليف عباده وأمرهم ونهيهم ما يقتضيه ملكه التامُّ وحمده وحكمته، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التي لا تُحصى ــ بحسب قواهم وطاقتهم؛ لا بحسب ما ينبغي له؛ فإنه أعظم وأجلُّ من أن يقدر خلقُه عليه؛ ولكنه سبحانه يرضى من عباده بما تسمح به طبائعهم وقواهم ــ ، فلا شيء أحسن في العقول والفطر من شكر المُنعم؛ ولا أنفع للعبد منه. فهذان مسلكان آخران في حسن التكليف والأمر والنهي:

أحدهما: يتعلَّق بذاته وصفاته؛ وأنه أهلٌ لذلك، وأن جماله تعالى وكماله وأسماءه وصفاته تقتضي من عباده غاية الحبِّ والذُّلِّ والطاعة له.

والثاني: مُتعلِّقٌ بإحسانه وإنعامه؛ ولا سيَّما مع غناه عن عباده، وأنه إنما يُحسن إليهم رحمة منه وجوداً وكرماً؛ لا لمعاوضةٍ ولا لاستجلاب منفعةٍ ولا لدفع مضرةٍ.

وأيُّ المسلكين سلكه العبد: أوقفه على محبَّته وبذل الجهد في مرضاته، فأين هذان المسلكان من ذَيْنِك المسلكَيْن؟ وإنما أُتي القوم من إنكارهم المحبَّة؛ وذلك الذي حَرَمَهم من العلم والإيمان ما حَرَمَهم؛ وأوجب لهم سلوك تلك الطرق المسدودة، والله الفتَّاح العليم)[1].

فهذا تقريرٌ لمرجع العبودية ــ الظاهرة والباطنة ــ ؛ وأنه إلى مقتضى أسماء الله تعالى وصفاته، وأن لله تعالى حِكَمٌ بوالغُ ــ تقتضيها أسماؤه وصفاته ــ في تكليف عباده وأمرهم ونهيهم.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥١٠ ــ ٥١٣.

وثمة نكتةٌ لطيفةٌ تتضمن الفرق بين متعلَّق الأمر ومتعلَّق النهي؛ نبَّه عليها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في موطنٍ آخر؛ فقال: (إن المأمورات مُتعلِّقةٌ بمعرفة الله وتوحيده؛ وعبادته وذكره وشكره؛ ومحبته والتوكُّل عليه والإنابة اليه، فمُتعلَّقها: ذات الربِّ تعالى وأسماؤه وصفاته، ومُتعلَّق المنهيات: ذوات الأشياء المنهيِّ عنها، والفرق من أعظم ما يكون)[1].

المسألة العاشرة:

تقريره أن اقتضاء أسماء الله تعالى وصفاته لمتعلّقاتها يستلزم ـ ولا بدّ ـ ظهور آثارها في الوجود:

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الربَّ ــ سبحانه وتعالى ــ له الأسماء الحسنى، وأسماؤه متضمنةٌ لصفات كماله، وأفعاله ناشئةٌ عن صفاته.

فإنه ــ سبحانه ــ لم يستفد كمالاً بأفعاله، بل له الكمال التامُّ المطلق، وفِعَالُه عن كماله، والمخلوق كماله عن فِعَالِه، فإنه فَعَل: فكَمُلَ بفعله.

وأسماؤه الحسنى تقتضي آثارها؛ وتستلزمها استلزام المُقتضي المُوجب لمُوجبه ومُقتضاه، فلا بُدَّ من ظهور آثارها في الوجود، فإن من أسمائه: الخلاق المُقتضي لوجود الخلق، ومن أسمائه: الرزَّاق المُقتضي لوجود الرِّزْق والمرزوق، وكذلك الغفَّار والتوَّاب والحكيم والعفوُّ، وكذلك الرحمن الرحيم، وكذلك الحكم العدل، إلى سائر الأسماء، ومنها: الحكيم المُستلزم لظهور حكمته في الوجود، والوجود مُتضمنٌ لخلقه وأمره،

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٦٨.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1].

فخلقُه وأمرُه صدرا عن حكمته وعلمه، وحكمتُه وعلمُه اقتضيا ظهور خلقه وأمره، فمصدر الخلق والأمر عن هذين المُتضمنين لهاتين الصفتين، ولهذا يقرن ـ سبحانه ـ بينهما عند ذكر إنزال كتابه، وعند ذكر ملكه وربوبيته، إذ هما مصدر الخلق والأمر.

ولما كان ـ سبحانه ـ كاملاً في جميع أوصافه ـ ومن أجلِّها حكمته ـ : كانت عامَّة التعلُّقِ بكلِّ مقدورٍ، كما أن علمه عامُّ التعلُّق بكلِّ معلومٍ، ومشيئته عامَّةُ التعلُّقِ بكلِّ موجودٍ، وسمعه وبصره عامُّ التعلُّقِ بكلِّ مسموعٍ ومرئيٍّ، فهذا من لوازم صفاته، فلا بُدَّ أن تكون حكمته عامَّةَ التعلُّقِ بكلِّ ما خلقه وقدَّره؛ وأمر به ونهى عنه، وهذا أمرٌ ذاتيٌ للصفة؛ يمتنع تخلُّفه وانفكاكه عنها، كما يمتنع تخلُّف الصفة نفسها وانفكاكها عنه.

وهذا وحده برهانٌ كافٍ شافٍ في إبطال تلك الأسولة كلِّها، وأنه يكفي في إبطالها: إثباتُ عموم تعلُّق صفاته، وذلك يستلزم إثبات الصفات، وهي تستلزم إثبات الذات)[2].

المسألة الحادية عشر:

تقريره أن لكلِّ اسمٍ من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته تعلُّقاً لا بُدَّ من ترتُّبه عليه.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (ـ سبحانه ـ له الأسماء الحسنى؛ ولكلِّ اسم من أسمائه: أثرٌ من الآثار في الخلق والأمر لا بُدَّ من ترتُّبه عليه، كترتُّب المرزوق والرِّزق على الرازق؛ وترتُّب المرحوم

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٣ ـ ١٥٦٥.

وأسباب الرحمة على الراحم؛ وترتُّب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير، ونظائر ذلك في جميع الأسماء.

فلو لم يكن في عباده من يُخطيء ويُذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه: لم يظهر أثرُ أسمائه الغفور والعفوّ والحليم والتوّاب وما جرى مجراها، وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلّقاتها في الخليقة: كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلّقاتها.

فكما أن اسمه الخالق يقتضي مخلوقاً؛ والباريء يقتضي مبروءاً؛ والمُصوِّر يقتضي مُصوَّراً ولا بُدَّ: فأسماؤه الغفَّار التوَّاب تقتضي مغفوراً له؛ وما يغفره له، وكذلك من يتوب عليه؛ وأموراً يتوب عليه من أجلها، ومن يحلم عنه ويعفو عنه، وما يكون مُتعلَّق الحلم والعفو، فإن هذه الأمور متعلقةٌ بالغير؛ ومعانيها مستلزمةٌ لمتعلَّقاتها.

وهذا بابٌ أوسع من أن يُدرك، واللبيب يكتفي منه باليسير، وغليظ الحجاب في وادٍ ونحن في وادٍ.

وإن كان أثل الواد يجمع بيننا فغير خفيٍّ شيحُه من خزامه[1].

فتأمَّل ظهور هذين الاسمين ـ اسم الرزَّاق واسم الغفَّار ـ في الخليقة: ترى ما يُعجب العقول، وتأمَّل آثارهما حقَّ التأمل في أعظم مجامع الخليقة؛ وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته؟

ولولا ذلك لما كان له من قيامٍ أصلاً، فلكلٍّ منهم نصيبٌ من الرزق والمغفرة؛ فإما مُتصلاً بنشأته الثانية، وإما مُختصاً بهذه النشأة)[2].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢.

المسألة الثانية عشر:

تقريره أن الله تعالى خلق ما يكره من الأسباب لظهور آثار أسمائه ومتعلّقاته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (ـ سبحانه ـ خلق إبليس الذي هو مادةٌ لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات؛ وهو سبب شقاوة العبيد وعملهم بما يُغضب الربَّ ـ تبارك وتعالى ـ؛ وهو الساعي في وقوع خلاف ما يُحبُّه الله ويرضاه بكلِّ طريقٍ وكلِّ حيلةٍ؛ فهو مبغوضٌ للربِّ ـ سبحانه وتعالى ـ مسخوطٌ له؛ لعنه الله ومقته وغضب عليه.

ومع هذا فهو: وسيلةٌ إلى محابٍّ كثيرةٍ للربِّ تعالى ترتَّبت على خلقه؛ وجودُها أحبُّ إليه من عدمها:

منها: أن تظهر للعباد قدرة الربِّ تعالى على خلق المُتضادَّات المُتقابلات، فخلق هذه الذات ـ التي هي أخبث الذوات وشرُّها؛ وهي سبب كلِّ شرٍّ ـ في مقابلة ذات جبريل ـ التي هي أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها؛ وهي مادَّة كلِّ خيرٍ ـ، فتبارك الله خالق هذا وهذا، كما ظهرت لهم قدرته التامَّة في خلق الليل والنهار؛ والضياء والظلام؛ والداء والدواء؛ والحياة والموت؛ والحرِّ والبرد؛ والحسن والقبيح؛ والأرض والسماء؛ والذكر والأنثى؛ والماء والنار؛ والخير والشرِّ، وذلك من أدلِّ الدلائل على كمال قدرته وعِزَّته وسلطانه وملكه، فإنه خلق هذه المُتضادَّات؛ وقابل بعضها ببعض؛ وسلَّط بعضها على بعضٍ؛ وجعلها محالَّ تصرُّفه وتدبيره وحكمته، فخلوُّ الوجود عن بعضها بالكلية: تعطيلٌ لحكمته وكمال تصرُّفه وتدبير مملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية؛ مثل القهَّار والمُنتقم والعدل والضارِّ وشديد العقاب وسريع الحساب وذي البطش الشديد والخافض

والمُذلّ، فإن هذه الأسماء والأفعال كمالٌ؛ فلا بُدَّ من وجود مُتعلَّقها، ولو كان الخلق كلُّهم على طبيعة المَلَك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المُتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقِّه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكره من الأسباب المُفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء: لتعطَّلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم؛ ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله؛ فيغفر لهم»[1].

ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه ــ سبحانه ــ الحكيم الخبير؛ الذي يضع الأشياء مواضعها؛ ويُنزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه؛ ولا يُنزله غير منزلته التي يقتضيها كمالُ علمه وحكمته وخبرته، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل؛ ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع؛ ولا الثواب موضع العقاب؛ ولا العقاب موضع الثواب؛ ولا الخفض موضع الرفع؛ ولا الرفع موضع الخفض؛ ولا العِزَّ مكان الذُّلِّ؛ ولا الذُّلَّ مكان العِزِّ، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه؛ ولا ينهى عما ينبغي الأمر به، فهو: ﴿أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2]، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه ووصولها؛ وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها؛ وأن يضعها عند غير أهلها، فلو قُدِّر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له: لتعطَّلت هذه الآثار ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكم والمصالح المُترتبة عليها، وفواتها شرٌّ من حصول تلك الأسباب، فلو عُطِّلت تلك الأسباب لما فيها من الشرِّ: لتعطَّل الخير الذي هو أعظم من الشرِّ الذي في تلك الأسباب،

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «والذي نفسي بيده؛ لو لم تذنبوا».
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

وهذا كالشمس والمطر والرياح ـ التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشرِّ والضرر ـ ؛ فلو قُدِّر تعطيلها ـ لئلا يحصل منها ذلك الشرُّ الجزئيُّ ـ : لتعطَّل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشرِّ؛ بما لا نسبة بينه وبينه)[1].

وجميع ما تقدم بيانه ـ من كلام الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى السالف الذكر ـ في المسائل الآنفة: مقرِّرٌ لاقتضاء أسماء الله وصفاته لمتعلَّقاتها، وهذا الأمر يُوجب إثبات حقائق الأسماء والصفات لله تعالى؛ ويمنع تعطيلها، وهذا المُوجب مُضمَّنٌ في المسألة الآتية:

المسألة الثالثة عشر:

تقريره أن وجود أثرٍ لكلّ اسمٍ وصفةٍ لا بُدّ من ظهوره فيه واقتضائه له: يمتنع به تعطيل آثار أسمائه وصفاته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن تنويع المخلوقات واختلافها: من لوازم الحكمة والربوبية والملك، وهو أيضاً من موجبات الحمد، فله الحمد على ذلك كلِّه أكمل حمدٍ وأتمَّه أيضاً، فإن مخلوقاته هي موجبات أسمائه وصفاته، فلكلِّ اسمٍ وصفةٍ أثرٌ لا بُدَّ من ظهوره فيه واقتضائه له.

فيمتنع تعطيل آثار أسمائه وصفاته؛ كما يمتنع تعطيل ذاته عنها، وهذه الآثار لها مُتعلَّقاتٌ ولوازمُ يمتنع أن لا تُوجد)[2].

فليتأمَّل العبد اقتضاء هذه الأسماء والصفات لمتعلَّقاتها حقَّ التأمُّل؛ وليُمعن فيها النظر، فإنه (كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً: زادها

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٢٦.

هداية وتبصيراً، وكلما بجَّست معينه: فجَّر لها ينابيع الحكمة تفجيراً)[1].

وهذه المسائل ـ وإن تعدَّدت مبانيها؛ وتكرَّرت معانيها ـ: فلا ينبغي أن يستكثرها (من يعلم شدَّة الحاجة إليها؛ وضرورة النفس إليها، فلو تكرَّرت فالحاجة إليها في محلِّ الضرورة، والله المستعان)[2].

فهذه شذراتٌ مُنتقاةٌ من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ يُكتفى بها عن نظائرها المثبتة في مثاني كتبه[3]، وقد انتظمتْ تقرير اقتضاء أسماء الله تعالى وصفاته لمتعلَّقاتها وضبط معاقده، وتشييد بنيانه وتوطيد أركانه وإحكام قواعده.



(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٧.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٠٩.

(٣) انظر: أحكام أهل الذمة ٢/٥٦٤؛ ٦٥٦، إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/٢١٨؛ ٢/١١٣ ـ ١١٤؛ ١٨٠، التبيان في أقسام القرآن ص٦٠ ـ ٦١؛ ٨٠؛ ٩٥؛ ١١٣؛ ٢٠٤ ـ ٢٠٥؛ ٢٢٦ ـ ٢٢٧؛ ٣٣٨؛ ٤١١، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص١٢٦ ـ ١٢٧؛ ٤٣١؛ ٤٥٧؛ ٤٦٦، الروح ص٣٣٠؛ ٤٨٢؛ ٥٤١، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٧٧ ـ ٧٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٨٨؛ ١٧٠؛ ٢/٥٩٨؛ ٦٦٢ ـ ٦٦٣؛ ٦٦٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٦ ـ ١١٧؛ ١٧٦؛ ١٧٨ ـ ١٨٥ ـ ١٨٦؛ ١٨٩ ـ ١٩٠؛ ١٩٤ ـ ١٩٦؛ ٢٠٣؛ ٢٢٨ ـ ٢٣٩؛ ٤٣٣، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٧٠؛ ٧٤؛ ٨١؛ ٣٩٢؛ ٣٩٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/٢٠٣ ـ ٢٠٤؛ ٣/٤١٦ ـ ٤١٧، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/٢٥٥.



المبحث الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس والكون

إنَّ لأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى آثاراً حميدة وترتُّبات مجيدة في النفس؛ وفي الكون الذي تعيش فيه، وهذه الآثار من موجب أسماء الله وصفاته، وسريان آثارها في النفس وفي الكون يستوجب حمد الله ومجده؛ والثناء عليه بما هو أحقُّ به وأهلُه.

وإن من جلال أسماء الله تعالى وكمال صفاته: أن سرت آثارها إلى النفس البشرية؛ وتعدَّتها إلى جميع ذرَّات الكون، ولو حَبَسَ الله ــ سبحانه وتعالى ــ هذه الآثار عنها: لتعطلت المصالح؛ وفسدت المعايش.

وهذه الآثار ــ السارية في النفس والكون ــ: أعلامٌ دالَّةٌ على ثبوت حقائق الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ وشواهد على قيامها بالله ــ سبحانه وتعالى ــ[1].

---

(١) هذا معتقد أهل السنة والجماعة ــ المؤسَّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ــ؛ وهم: أصحاب سواء السبيل، وأما معتقد أهل البدعة والشناعة ــ المؤسس بنيانه على شفا جرف هار ــ؛ وهم: الضالون عن سواء السبيل: فهو ما بين تأويل؛ وتخييل؛ وتجهيل؛ وتمثيل. =

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ببيان منزلة توحيد الأسماء والصفات؛ وآثارها على النفس والكون.

وقد اشتمل هذا المبحث على مطلبين:

المطلب الأول: جهوده في تقرير آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس.

المطلب الثاني: جهوده في تقرير آثار توحيد الأسماء والصفات على الكون.



= انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٤١٨ ــ ٤٣٤.

المطلب الأول:

جهوده في تقرير آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس

إنَّ لأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى أثراً عظيماً على النفس البشرية ــ التي هي أكرم مخلوقات الله تعالى ــ ، إذ أن هذا الأثر يُورث النفس كمال المعرفة بربِّها وبارئها ــ سبحانه وتعالى ــ ، ويحمل النفس على كمال الخضوع والذُّلِّ لمعبودها ــ جلَّ وعلا ــ مع كمال محبته ــ التي هي حقيقة العبودية له ــ ، ومتى ما كُسيت النفس بحُلَّة العبودية: فإنها تجمل بالأخلاق الجليلة؛ وتكمل بالشيم النبيلة.

ولمَّا كان قضاء الوطر بنيل هذا الأثر ليس للنفس البشرية في إدراكه حولٌ ولا قوة، (ولكن التوفيق والرشد بيد الله ــ لا مانع لما أعطى؛ ولا معطي لما منع، فما كلُّ أحدٍ يُوَفَّق لهذا لا معرفة به؛ ولا إرادة له؛ ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله ــ)[1]: فقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير أثر توحيد الأسماء والصفات على النفس من أوجهٍ عديدةٍ، وقد أدرجت هذه الأوجه تحت ثلاث مسائل؛ وهي:

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٠٧.

المسألة الأولى:

آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس بتحقيق كمال معرفة الله تعالى.

إنَّ النفس البشرية إنما تكمل بحسب كمال معرفتها بربِّها وبارئها وفاطرها ـ سبحانه وتعالى ـ ، وإن من الآثار العظيمة لتوحيد الأسماء والصفات على النفس: أنها تغرس فيها معرفة الله تعالى؛ ومعرفة أسمائه وصفاته، وقد قرر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ مسألة آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس؛ وما يُقارنها من كمال معرفة الله تعالى من أوجهٍ متعددةٍ؛ منها ما يأتي:

أولاً: تقريره أن كمال علم العبد ومعرفته تكون بمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته؛ ورؤيتها بعين بصيرته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (كمال عبودية العبد: موافقته لربِّه في محبته ما أحبَّه؛ وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه؛ وبذل الجهد في تركه، وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة؛ لا للأمَّارة ولا للوَّامة.

فهذا كمالٌ من جهة الإرادة والعمل، وأما من جهة العلم والمعرفة: فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهودٌ خاصٌّ فيها مطابقٌ لما جاء به الرسول ﷺ؛ لا مخالفٌ له، فإن بحسب مخالفته له في ذلك: يقع الانحراف، ويكون مع ذلك قائماً بأحكام العبودية الخاصَّة التي تقتضيها كلُّ صفةٍ بخصوصها.

وهذا سلوك الأَكْيَاس ـ الذين هم خلاصة العالَم ـ ، والسالكون على هذا الدرب أفرادٌ من العالم، طريقٌ سهلٌ قريبٌ موصلٌ، طريقٌ آمنٌ؛ أكثر السالكين في غفلةٍ عنه، ولكن يستدعي رسوخاً في العلم؛ ومعرفة تامة به؛ وإقداماً على ردِّ الباطل المخالف له؛ ولو قاله من قاله.

وليس عند أكثر الناس سوى رسوم تلقَّوْها عن قومٍ مُعظَّمين عندهم، ثم لإِحسان ظنِّهم بهم: قد وقفوا عند أقوالهم؛ ولم يتجاوزوها، فصارت حجاباً لهم؛ وأيُّ حجابٍ؟

فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه ــ حتى خرقها؛ وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل ــ : ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]، ولا يُخاف عليه إلا من ضَعْف هِمَّته، فإذا انضاف إلى ذلك الفتح هِمَّةٌ عاليةٌ: فذاك السابق حقاً؛ واحدُ الناس بزمانه، لا يُلحق شَأْوُه[2]؛ ولا يُشَقُّ غُبَارُه.

فشتَّان ما بين من يتلقَّى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات؛ وبين من يتلقَّاها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم؛ أو عن مُجرَّد ذوقه ووجده، إذا استحسن شيئاً قال: هذا هو الحقُّ.

فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عَجَبٌ؛ وفتحه عَجَبٌ، صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلقٍ على فراشه ــ غير تَعِبٍ ولا مكدودٍ، ولا مُشَتَّتٍ عن وطنه؛ ولا مُشَرَّدٍ عن سكنه ــ ، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[3])[4].

ثانياً: تقريره أنَّ أعرف الناس بالله تعالى وبأسمائه وصفاته: من شهدت نفسه حدوث المحدثات والكائنات؛ والنظر فيها؛ والاعتبار بها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن العبد مأمورٌ أن يشهد أن لا إلـه إلا الله؛

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

(٢) الشَّأْو: السَّبْق، يقال: شأوته؛ أي: سبقته.

انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٢٣٨، أساس البلاغة للزمخشري ص٣١٨، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص١٦٧٤ [مادة: شأو].

(٣) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣٩٣ ــ ٣٩٤.

وأن محمداً رسول الله، ويشهد أن الجنة حقٌّ؛ والنار حقٌّ؛ والساعة حقٌّ؛ والنبيين حقٌّ، ويشهد حدوث المحدثات[1] بإحداث الربِّ تعالى لها بمشيئته وقدرته؛ وبما خلقه من الأسباب؛ ولما خلقه من الحكم.

ولم يُأمر العبد؛ بل لم يُرَد منه أن لا يشهد حادثاً ولا حدوث شيءٍ، وهذا لا كمال فيه ولا معرفة؛ فضلاً عن أن يكون غاية العارف؛ وأن يكون توحيد الخاصَّة.

والقرآن من أوله إلى آخره صريحٌ في خلافه، فإنه أمر بشهود الحادثات والكائنات؛ والنظر فيها والاعتبار بها؛ والاستدلال بها على وحدانية الله ـ سبحانه ـ وعلى أسمائه وصفاته.

فأعرف الناس به وبأسمائه وصفاته: أعظمهم شهوداً لها ونظراً فيها واعتباراً بها، فكيف يكون لبُّ التوحيد وقلبه وسرُّه إسقاطَها من الشهود؟)[2].

ثالثاً: تقريره أن دوام تأمُّل النفس في معاني أسماء الله وصفاته يُثمر لها معرفته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (الخوفُ يُثمر: الورعَ والاستعانةَ وقصرَ الأمل، وقوةُ الإيمان باللقاء تُثمر: الزهدَ، والمعرفةُ تُثمر: المحبةَ والخوفَ والرجاءَ، والقناعةُ تُثمر: الرضا، والذكرُ يُثمر: حياةَ القلب، والإيمانُ بالقدر يُثمر: التوكُّلَ، ودوامُ تأمُّل الأسماء والصفات يُثمر: المعرفةَ، والورعُ يُثمر: الزهدَ أيضاً، والتوبةُ تُثمر: المحبةَ أيضاً، ودوامُ الذكر يُثمرها، والرضا يُثمر: الشكرَ، والعزيمةُ والصبرُ يُثمران: جميعَ الأحوال والمقامات، والإخلاصُ والصدقُ كلٌّ منهما يُثمر الآخر ويقتضيه،

---

(١) قال الجرجاني في [التعريفات ص ١١٠]: (الحادث: ما يكون مسبوقاً بالعدم).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

والمعرفةُ تُثمر: الخُلُقَ، والفكرُ يُثمر: العزيمةَ، والمراقبةُ تُثمر: عمارةَ الوقت وحفظَ الأيام والحياءَ والخشيةَ والإنابةَ، وإماتةُ النفس وإذلالُها وكسرُها يُوجب: حياةَ القلب وعِزَّه وجبره، ومعرفةُ النفس ومقتُها يُوجب: الحياءَ من الله ــ عزَّ وجلّ ــ واستكثارَ ما منه؛ واستقلالَ ما منك من الطاعات؛ ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان، وصحةُ البصيرة تُثمر: اليقينَ، وحسنُ التأمُّل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يُثمر: صحةَ البصيرة.

وملاك ذلك كلِّه أمران: أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا؛ فتُسكنه في وطن الآخرة، ثم تُقبل به كلَّه على معاني القرآن واستجلائها وتدبُّرها؛ وفهم ما يُراد منه وما نزل لأجله؛ وأخذ نصيبك وحظِّك من كلِّ آيةٍ من آياته؛ تُنزلها على داء قلبك.

فهذه طريقٌ مُختصرةٌ قريبةٌ سهلةٌ؛ موصلةٌ إلى الرفيق الأعلى؛ آمنةٌ لا يَلحق سالكها خوفٌ ولا عطبٌ ولا جوعٌ ولا عطشٌ؛ ولا فيها آفةٌ من آفات سائر الطريق ألبتة؛ وعليها من الله حارسٌ وحافظٌ يكلأ السالكين فيها؛ ويحميهم ويدفع عنهم، ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطَّاعها، والله المستعان)[1].

رابعاً: تقريره أن العبد متى ما صدق في معاملته لربِّه تعالى بمقتضى أسمائه وصفاته فإنه يظفر بمعرفة الله تعالى وبمعرفة نفسه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن التائب الصادق في توبته إذا تاب إليه وجده: غفوراً رحيماً، والمتوكِّل إذا صدق في التوكُّل عليه وجده: حسيباً كافياً، والداعي إذا صدق في الرغبة إليه وجده: قريباً مُجيباً، والمحبُّ إذا صدق في

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٩.

محبته وجده: ودوداً حبيباً، والملهوف إذا صدق في الاستغاثة به وجده: كاشفاً للكَرْب؛ مُخلِّصاً منه، والمضطر إذا صدق في الاضطرار إليه وجده: رحيماً مغيثاً، والخائف إذا صدق في اللجأ إليه وجده: مُؤَمِّناً من الخوف، والراجي إذا صدق في الرجاء وجده: عند ظنِّه به.

فمحبُّه وطالبه ومريده ـ الذي لا يبغي به بدلاً؛ ولا يرضى بسواه عوضاً ـ إذا صدق في محبته وإرادته وجده أيضاً: وجوداً أخصَّ من تلك الموجودات، فإنه إذا كان المريد منه يجده؛ فكيف بمريده ومُحبِّه؟

فيظفر هذا الواجد بنفسه وبربِّه، أما ظفره بنفسه: فتصير مُنقادة له؛ مُطيعة له تابعة لمرضاته، غير آبيةٍ ولا أمَّارةٍ؛ بل تصير خادمة له مملوكة بعد أن كانت مخدومة مالكة.

وأما ظفره بربِّه: فقربه منه؛ وأُنْسُه به وعمارة سرِّه به، وفرحه وسروره به أعظم فرحٍ وسرورٍ، فهذا حقيقة اتصال الوجود، والله المستعان)[1].

خامساً: تقريره أنه بحسب استعداد العبد وقوة بصيرته وكمال معرفته بالله وأسمائه وصفاته يكون حظ نفسه من مطالعة ما يختصُّ بحكمة الله المحيطة بالخلق، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (أولياؤه المتقون إذا شاهدوا أحوال أعدائه؛ ومقته لهم وغضبه عليهم وخذلانه لهم: ازدادوا خضوعاً وذلاً وافتقاراً وانكساراً؛ وبه استعانة؛ وإليه إنابة وعليه توكُّلاً؛ وفيه رغبة ومنه رهبة، وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يُعيذهم من بأسه إلا هو؛ ولا يُنجيهم من سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولاً وآخراً.

وهذه قطرةٌ من بحر حكمته المحيطة بخلقه، والبصير يُطالع ببصيرته ما وراءه؛ فيُطلعه على عجائب من حكمته لا تبلغها العبارة؛ ولا تنالها الصفة.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٣٩.

وأما حظُّ العبد في نفسه وما يخصُّه من شهود هذه الحكمة: فبحسب استعداده وقوة بصيرته؛ وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته؛ ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكلُّ مؤمنٍ له من ذلك شِرْبٌ معلومٌ؛ ومقامٌ لا يتعدَّاه ولا يتخطَّاه، والله المُوفِّق والمُعين)[1].

سادساً: تقريره أن استغراق العبد في مُطالعة شواهد أسماء الله وصفاته يُخلِّص نفسه من همم المخلوقين المتعلقة بالأدنى؛ ويُصيِّر لها همة عالية مُتعلقة بمعرفة ربِّه تعالى؛ والأنس به، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (استغراق شواهد الأسماء والصفات في الذات الجامعة لها، فإن الذات جامعةٌ لأسمائها وصفاتها، فإذا استغرق العبد في حضرة الجمع: غابت الشواهد في تلك الحضرة.

وأكمل من ذلك: أن يشهد كثرةً في وحدةٍ؛ ووحدةً في كثرةٍ، بمعنى: أن يشهد كثرة الأسماء والصفات في الذات الواحدة؛ ووحدة الذات مع كثرة أسمائها وصفاتها)[2].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (نظر بالله لا بنفسه، واستمدَّ من فضله وتوفيقه؛ لا من معرفته وتحقيقه، فشاهد سبق الله ــ سبحانه وتعالى ــ لكلِّ شيءٍ؛ وأوليته قبل كلِّ شيءٍ.

فتخلَّص من همم المخلوقين المتعلِّقة بالأدنى؛ وصارت له هِمةٌ عاليةٌ مُتعلِّقةٌ بربِّه الأعلى تسرح في رياض الأنس به ومعرفته؛ ثم تأوي إلى مقاماتها تحت عرشه؛ ساجدة له خاضعة لعظمته مُتذللة لعِزَّته، لا تبغي عنه حولاً؛ ولا تروم به بدلاً)[3].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٤٢.
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢١٩.
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢١٩.

فهذه بعض آثار توحيد أسماء الله تعالى وصفاته على النفس؛ وما تشرف به من كمال معرفتها بربِّها ــ جلَّ جلاله ــ ؛ ومعرفتها بأسماء جلاله وصفات كماله ونعوت جماله، وهذه الآثار الحميدة متى ما شاهدت النفس لوائحها السنيَّة؛ وأبصرت لوامعها البهيَّة: فإنها تسرح في ميادين الأنس وروضاتها؛ وتتنعَّم في جنات المعرفة وغرفاتها.

المسألة الثانية:

آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس في تدرُّجها في منازل العبودية.

إنَّ النفس البشرية متى ما غُرست شجرة المعرفة في باطنها: فإنه سرعان ما تُؤتي أُكُلَها من ثمار العبودية والحنيفية لربِّها ومولاها ــ سبحانه وتعالى ــ ، ولا تزال النفس يأتيها من روح آثار أسماء الله تعالى وصفاته وريحانها حتى ترسخ في مقام العبودية قدمُها؛ وتشمخ في سمائها هامتُها، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ مسألة آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس؛ وما يصحبها من تدرُّجٍ في منازل العبودية من أوجهٍ متعددةٍ؛ منها ما يأتي:

أولاً: تقريره أن علم العبد بأسماء الله وصفاته يُرسِّخ النفس في درجة العلم؛ ويُرقِّيها إلى أعلى مراتب العبودية، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (القرآن مملوءٌ بذكر سخطه وغضبه على أعدائه، وذلك صفةٌ قائمةٌ به؛ ويترتَّب عليها العذاب واللعنة؛ لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة؛ بل هما أثر السخط والغضب وموجبهما؛ ولهذا يُفرِّق بينهما، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

ففرَّق بين عذابه وغضبه ولعنته؛ وجعل كلَّ واحدٍ غير الآخر، وكان من دعاء النبـي ﷺ: «اللَّـٰهُمَّ إني أعوذ برضاك من سخطك؛ وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك؛ وأعوذ بك منك»[١].

فتأمَّل ذكر استعاذته ﷺ بصفة الرضى من صفة السخط؛ وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول للصفة؛ والثاني لأثرها المُترتِّب عليها، ثم ربط ذلك كلَّه بذاته ـ سبحانه ـ ؛ وأن ذلك كلَّه راجعٌ إليه وحده؛ لا إلى غيره.

فما أعوذ منه: واقعٌ بمشيئتك وإرادتك؛ وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك: هو بمشيئتك وإرادتك؛ إن شئتَ أن ترضى عن عبدك وتُعافيه؛ وإن شئتَ أن تغضب عليه وتُعاقبه، فإعاذتي مما أكره وأحذر؛ ومنعه أن يحلَّ بـي: هو بمشيئتك أيضاً، فالمحبوب والمكروه كلُّه بقضائك ومشيئتك، فعياذي بك منك: عياذي بحولك وقوتك وقدرتك ورحمتك وإحسانك؛ مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك، ولا أستعيذ إلا بك من شيءٍ هو صادرٌ عن مشيئتك وخلقك؛ بل هو منك، ولا أستعيذ بغيرك من شيءٍ هو صادرٌ عن مشيئتك وقضائك؛ بل أنتَ الذي تُعيذني بمشيئتك مما هو كائنٌ بمشيئتك، فأعوذ بك منك.

ولا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته؛ ومعرفة عبوديته، وأشرنا إلى شيءٍ يسيرٍ من معناها، ولو استقصينا شرحها: لقام منه سفرٌ ضخمٌ؛ ولكن قد فُتحَ لك الباب؛ فإن دخلتَ: رأيتَ ما لا عينٌ رأت؛ ولا أذنٌ سمعت؛ ولا خطر على قلب بشرٍ)[٢].

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـٰهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٢٧٨ ـ ٢٧٩.

فعلماء الأمة الربَّانيون الراسخون في العلم والمعرفة والعبودية ــ ورثة الأنبياء والمرسلين ــ هم الذين يعقلون حقيقة توحيد الأسماء والصفات؛ وأثرها على النفس، لذا فهم لا يزالون في سلكوهم إلى الله تعالى يتعبَّدون له بهذه الحقيقة والمعرفة، قد جمعوا قلوبهم عليها، لا يلتفتون إلى غيرها؛ ولا يشتغلون بسواها، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثانياً: تقريره أن السالك إلى الله تعالى قد شغل نفسه بالتعبُّد بمقتضى أسماء الله تعالى وصفاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن المُتكلِّم يُفني زمانه في تقرير حدوث العالم وإثبات وجود الصانع، وذلك أمرٌ مفروغٌ منه عند السالك الصادق ــ صاحب اليقين ــ ، فالذي يطلبه هذا الاستدلال ــ الذي هو عرضة الشبه والأسئلة والإيرادات التي لا نهاية لها ــ : هو كشفٌ ويقينٌ للسالك، فتقيُّده في سلوكه بحال هذا المتكلم: انقطاع وخروجٌ عن الفُتوَّة؛ وهذا حقٌّ لا يُنازع فيه عارفٌ.

فترى المتكلم يبحث في الزمان والمكان والجواهر والأعراض[1] والأكوان؛ وهمَّته مقصورةٌ عليها لا يعدوها ليصل منها إلى المُكوِّن وعبوديته.

والسالك قد جاوزها إلى جمع القلب على المُكوِّن وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته؛ لا يلتفت إلى غيره؛ ولا يشتغل قلبُه بسواه.

---

(١) الجواهر: جمع جوهر؛ وهو: ما قام بنفسه، ويقابله العرض ــ واحد الأعراض ــ ؛ وهو: معنى زائدٌ على ذات الجوهر، يحتاج في وجوده إلى محلٍّ يقوم به.
انظر: التعريفات للجرجاني ص١٩٢، الكليات للكفوي ص٦٢٤، المعجم الوسيط ١/ ١٥٤.

فالمتكلم متفرقٌ مشتغلٌ في معرفة حقيقة الزمان والمكان، والعارف قد شحَّ بالزمان أن يذهب ضائعاً في غير السير إلى ربِّ الزمان والمكان)[1].

فالسالكون إلى الله تعالى لا يزالون يتعبَّدون لله ــ عزَّ وجلّ ــ بمقتضى أسمائه وصفاته؛ ويقطعون في سيرهم المراحل حتى يصلوا إلى الله تعالى، وهم يعلمون أن هذا الوصول ليس مما يستغنى به عن السير إلى الله ــ جلَّ جلاله ــ بالكليَّة؛ فإن ذلك عين المحال، ولكن بِحَسْبِ العبد أن يشتدَّ سيره إلى ربِّه ومولاه بِحَسَب ملاحظته لأسمائه وصفاته؛ وآثارها في نفسه، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثالثاً: تقريره أن النفس كلما زادت ملاحظتها لأسماء الله وصفاته كلما اشتدَّ سيرُها إلى ربِّها وبارئها ــ تبارك وتعالى ــ ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (لا يصل العبد ما دام حيًّا إلى الله وصولاً يستغني به عن السير إليه ألبتة، وهذا عين المحال، بل يشتدُّ سيره إلى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده وأسمائه وصفاته.

ولهذا كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق اجتهاداً وقياماً بالأعمال ومحافظة عليها إلى أن توفَّاه الله، وهو أعظم ما كان اجتهاداً وقياماً بوظائف العبودية.

فلو أَتَى العبدُ بأعمال الثقلين جميعها: لم تُفارقه حقيقة السير إلى الله؛ وكان بَعْدُ في طريق الطلب والإرادة)[2].

والعبد كلما اشتدَّ سيره إلى الله تعالى ــ بملاحظته لتوحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته ــ : كلما تَرَقَّى في سُلَّم مجاهدة نفسه للقيام بفرائض الله

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٣٦٢ ــ ٣٦٣.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٢٢.

تعالى وواجباته ـ التي هي أحبُّ ما تقرَّب به العبد إلى ربِّه تعالى ـ ؛ واستفرغ وسعه في التقرُّب إليه بالنوافل بعد تكميل الفرائض ـ الموجبة لمحبَّة الله تعالى للعبد ـ ، كما هو مُقرَّرٌ في:

رابعاً: تقريره أن مشاهدة ما لله ـ سبحانه ـ من الأسماء الحسنى والصفات العلى يجمع هَمَّ النفس على الله تعالى؛ وعلى قيامها بفرائضه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (المُوحِّد يشاهد بإيمانه ويقينه ذاتاً جامعة للأسماء الحسنى والصفات العلى، لها كلُّ صفةِ كمالٍ؛ وكلُّ اسمٍ حسنٍ، وذلك يجذبه إلى نفس اجتماع همِّه على الله؛ وعلى القيام بفرائضه.

والطريق بمجموعها لا تخرج عن هذين السببين ـ وإن طوَّلوا العبارات؛ ودقَّقوا الإشارات ـ ، فالأمر كلُّه دائرٌ على: جمع الهِمَّة على الله؛ واستفراغ الوسع بغاية النصيحة في التقرُّب إليه بالنوافل؛ بعد تكميل الفرائض، فلا تُطَوِّل؛ ولا يُطَوَّل عليك)[1].

فالنفس التي جمعت الهمَّ على القيام بفرائض الله تعالى؛ واستفرغت الوسع في التقرُّب إليه بالنوافل: لا تزال تترقَّى في درجات العبودية ـ درجةً بعد درجةٍ ـ ؛ وتتعبَّد لله تعالى بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العلى: حتى تبلغ كمال العبودية، كما هو مُقرَّرٌ في:

خامساً: تقريره أن التعبُّد لله تعالى بجميع أسمائه وصفاته: يُكَمِّل للنفس عبوديتها، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (له في كلِّ ما قضاه وقدَّره: الحكمة البالغة؛ والآيات الباهرة؛ والتعرُّفات إلى عباده بأسمائه وصفاته؛ واستدعاء محبَّتهم له وذكرهم له وشكرهم له وتعبُّدهم له بأسمائه الحسنى.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٥٤.

إذ كلُّ اسمٍ فله تعبُّدٌ مختصٌّ به ــ علماً ومعرفة وحالاً ــ ، وأكمل الناس عبودية: المتعبِّد بجميع الأسماء والصفات التي يطَّلع عليها البشر.

فلا تحجبه عبودية اسمٍ عن عبودية اسمٍ آخر؛ كمن يحجبه التعبُّد باسمه القدير عن التعبُّد باسمه الحليم الرحيم، أو يحجبه عبودية اسمه المُعطي عن عبودية اسمه المانع، أو عبودية اسمه الرحيم والعفوِّ والغفور عن اسمه المُنتقم، أو التعبُّد بأسماء التودُّد والبِرِّ واللطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء؛ ونحو ذلك، وهذه طريقة الكمَّل من السائرين إلى الله)[1].

فالنفس المتعبدة لله تعالى بجميع أسمائه وصفاته ــ التي تليق بها ــ : قد أخذت بحظِّها من عبودية الله تعالى؛ فلم تحجبها عبوديةُ اسمٍ عن عبودية اسمٍ آخر، وهذا مما يُورث النفس الرِّضى بقضاء الله تعالى؛ والتسليم لقدره، كماً هو مُقرَّرٌ في:

سادساً: تقريره أن تيقُّن العبد بأن الله مُتفرِّدٌ بالأسماء الحسنى والصفات العلى يُورث نفسه الرِّضى بقضاء الله وقدره، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (ــ سبحانه ــ هو الأول قبل كلِّ شيءٍ؛ والآخر بعد كلِّ شيءٍ؛ والمظهر لكلِّ شيءٍ؛ والمالك لكلِّ شيءٍ، وهو الذي ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[2]؛ وليس للعبد أن يختار عليه؛ وليس لأحدٍ معه اختيارٌ، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾[3].

والعبد لم يكن شيئاً مذكوراً، فهو ــ سبحانه ــ الذي اختار وجوده؛

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٢.
(٢) سورة القصص: الآية ٦٨.
(٣) سورة الكهف: الآية ٢٦.

واختار أن يكون كما قدَّره له وقضاه: من عافيةٍ وبلاءٍ؛ وغنى وفقرٍ؛ وعِزٍّ وذُلٍّ؛ ونباهةٍ وخمولٍ، فكما تفرَّد ــ سبحانه ــ بالخلق: تفرَّد بالاختيار والتدبير، وليس للعبد شيءٌ من ذلك، فإن الأمر كلَّه لله، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1].

فإذا تيقَّن العبد أن الأمر كلَّه لله؛ وليس له من الأمر قليلٌ ولا كثيرٌ: لم يكن له مُعوَّلٌ بعد ذلك غير الرِّضى بمواقع الأقدار؛ وما يجري به من ربِّه الاختيار)[2].

فرؤية العبد لأسماء الله تعالى وصفاته؛ وإيمانه بمعانيها: تُورثه الإيمان بقضاء الله تعالى؛ والرضى بقدره، كما أن إيمانه بحكمة الله تعالى في قضائه؛ ورؤيته للطفه في قدره: يُلبسه كساء العبودية؛ ويُنزله في أشرف منازل الولاية، كما هو مُقرَّرٌ في:

سابعاً: تقريره أن مطالعة العبد لحكمة الله تعالى البالغة في منعه ما هو محتاجٌ إليه: يُلبسه خلعة العبودية؛ ويُولِّيه أشرف الولايات، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (لم يمنع الربُّ عبدَه ما العبدُ محتاجٌ إليه بخلاً منه؛ ولا نقصاً من خزائنه؛ ولا استئثاراً عليه بما هو حقٌّ للعبد، بل منعه ليردَّه إليه؛ وليُعِزَّه بالتذلُّل له؛ وليُغنيه بالافتقار إليه؛ وليُجبره بالانكسار بين يديه، وليُذيقه بمرارة المنع: حلاوة الخضوع له ولذة الفقر إليه، وليُلبسه خلعة العبودية؛ ويُولِّيه بعزله أشرف الولايات، وليُشهده حكمته في قدرته؛ ورحمته في عِزَّته؛ وبِرَّه ولطفه في قهره، وأن منعه: عطاءٌ؛ وعزله: توليةٌ؛ وعقوبته: تأديبٌ؛ وامتحانه: محبةٌ وعطيةٌ؛ وتسليط أعدائه عليه: سائقٌ يسوقه به إليه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٨.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٢٥ ــ ٢٢٦.

وبالجملة؛ فلا يليق بالعبد غير ما أُقيم فيه، وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه؛ ولا يحسن أن يتخطاه، والله أعلم حيث يجعل مواقع عطائه وفضله، و ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1]. ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

فهو ــ سبحانه ــ أعلم بمواقع الفضل ومحالِّ التخصيص ومحالِّ الحرمان، فبحمده وحكمته أعطى؛ وبحمده وحكمته حرم، فمن ردَّه المنع إلى الافتقار إليه والتذلُّل له وتملُّقه: انقلب المنع في حقِّه عطاء، ومن شغله عطاؤه وقطعه عنه: انقلب العطاء في حقِّه منعا، فكلُّ ما شغل العبد عن الله: فهو مشؤومٌ عليه، وكلُّ ما ردَّه إليه: فهو رحمةٌ به)[3].

ثامناً: تقريره أن العبد إذا اعتبر كلَّ كمالٍ في الوجود: وجده من آثار كمال الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ، وذلك مما يُورث النفس كمال محبته ــ سبحانه ــ ؛ الذي هو أصل عقد الإيمان، ومن لم يتحقَّق بها علماً وحالاً وعملاً: لم يتحقَّق بشهادة: (أن لا إلــه إلا الله)، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (هل تعلَّقت المحبة بوجود محدثٍ إلا الكمال في وجوده بالنسبة إلى غيره؟ وهل ذلك الكمال إلا من آثار ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[4]؟ وهل الكمال كلُّه إلا له؟

فكلُّ من أحبَّ شيئاً لكمال ما يدعوه إلى محبته: فهو دليلٌ وعبرةٌ على محبة الله؛ وأنه أولى بكمال الحبِّ من كلِّ شيءٍ، ولكن إذا كانت النفوس

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٣.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٦٠ ــ ٣٦١.

(٤) سورة النمل: الآية٨٨.

صغاراً: كانت محبوباتها على قدرها، وأما النفوس الكبار الشريفة: فإنها تبذل حبَّها لأجلِّ الأشياء وأشرفها[1].

والمقصود: أن العبد إذا اعتبر كلَّ كمالٍ في الوجود: وجده من آثار كماله ـ سبحانه ـ، فهو دالٌّ على كمال مُبْدِعه؛ كما أن كلَّ علمٍ في الوجود: فمن آثار علمه؛ وكلَّ قدرةٍ: فمن آثار قدرته.

ونسبة الكمالات الموجودة في العالم العلويِّ والسفليِّ إلى كماله: كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم إلى علمه ـ سبحانه ـ وقدرته وقوته وحياته، فإذاً لا نسبة أصلاً بين كمالات العالَم وكمال الله ـ جل جلاله ـ؛ فيجب أن لا يكون بين محبته تعالى ومحبة غيره من الموجودات نسبة، بل يكون حبُّ العبد له: أعظم من حبِّه لكلِّ شيءٍ بما لا نسبة بينهما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2].

فالمؤمنون أشدُّ حباً لربِّهم ومعبودهم من كلِّ مُحبٍّ لكلِّ محبوبٍ، هذا مقتضى عقد الإيمان؛ الذي لا يتمُّ إلا به.

---

(١) كما قال أبو الطيب المتنبي ـ في قصيدته الرائقة؛ وفقرتها الفائقة، وهو مما استحسنه له الحافظ ابن الجوزي؛ وحكاه عنه الحافظ ابن كثير ـ، يمدح سيف الدولة أبا الحسن علي بن عبد الله العدوي؛ وقد عزم على الرحيل من أنطاكية:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام.

انظر: ديوان أبي الطيب المتنبي ٣/ ٣٤٥، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ١٤/ ١٦٨، البداية والنهاية لابن كثير ١٥/ ٢٧٨.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا البيت في [مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣٤٨]، وعزاه لقائله.

(٢) سورة البقرة: الآية١٦٥.

وليست هذه المسألة من المسائل التي للعبد عنها غنى أو منها بُدٌّ ــ كدقائق العلم والمسائل التي يختصُّ بها بعض الناس دون بعضٍ ــ ، بل هذه مسألةٌ تُفرض على العبد، وهي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها؛ ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها، فليشتغل بها العبد؛ أو ليُعرض عنها، ومن لم يتحقَّق بها ــ علماً وحالاً وعملاً ــ : لم يتحقَّق بشهادة: (أن لا إلـه إلا الله)، فإنها سِرُّها وحقيقتها ومعناها؛ وإن أبـى ذلك الجاحدون؛ وقَصَرَ عن علمه الجاهلون.

فإنَّ الإلـه: هو المحبوب المعبود؛ الذي تألهه القلوب بحبِّها؛ وتخضع له وتذلُّ له؛ وتخافه وترجوه؛ وتُنيب إليه في شدائدها وتدعوه في مُهِمَّاتها؛ وتتوكَّل عليه في مصالحها وتلجأ إليه؛ وتطمئنُّ بذكره وتسكن إلى حبِّه، وليس ذلك إلا الله وحده، ولهذا كانت (لا إلـه إلا الله): أصدق الكلام، وكان أهلُها: أهلَ الله وحزبَه، والمنكرون لها: أعداؤه وأهل غضبه ونقمته.

فهذه المسألة: قطب رحى الدين الذي عليه مداره، وإذا صحَّت: صحَّ بها كلُّ مسألةٍ وحالٍ وذوقٍ، وإذا لم يُصحِّحها العبد: فالفساد لازمٌ له في علومه وأعماله وأحواله وأقواله، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

فهذا تقريرٌ لهذه الحقيقة العظيمة؛ وهي محبة الله تعالى المغروسة في نفس العبد؛ والتي هي أصل عقد الإيمان، وبيان أن السبيل إليها: أن يعتبر العبد كلَّ جمالٍ وكمالٍ في الوجود هو من آثار جمال أسماء الله تعالى وكمال أوصافه، وذلك مما يُوجب للنفس محبة ذات الله تعالى الجامعة للأسماء الحسنى والصفات العلى؛ وهو أشرف ما تتحلَّى به النفس، كما هو مُقرَّرٌ في:

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧٦ ــ ٥٧٨.

تاسعاً: تقريره أن مطالعة العبد أسماء الله وصفاته يُورث نفسه محبة الله تعالى؛ وهي أشرف كسوةٍ يتسربل بها العبد على الإطلاق، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (لما كان كلُّ حيوانٍ مُتنفِّساً ــ فإن النَفَسَ مُوجب الحياة وعلامتها ــ : كانت أنفاس الحياة المشار إليها ثلاثة أنفاس:

نَفَسُ الخوف؛ ومصدره: مطالعة الوعيد وما أعدَّ الله لمن آثر الدنيا على الآخرة؛ والمخلوق على الخالق؛ والهوى على الهدى؛ والغيَّ على الرشاد.

ونَفَسُ الرجاء؛ ومصدره: مطالعة الوعد وحسن الظنِّ بالربِّ تعالى؛ وما الله أعدَّ لمن آثر الله ورسوله والدار الآخرة، وحَكَّم الهدى على الهوى؛ والوحي على الآراء؛ والسنة على البدعة؛ وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه على عوائد الخلق.

ونَفَسٌ بالمحبة؛ مصدره: مطالعة الأسماء والصفات؛ ومشاهدة النعماء والآلاء.

فإذا ذكر ذنوبه: تنفَّس بالخوف، وإذا ذكر رحمة ربِّه وسعة مغفرته وعفوه: تنفَّس بالرجاء، وإذا ذكر جماله وجلاله وكماله وإحسانه وإنعامه: تنفَّس بالحبِّ.

فليزن العبد إيمانه بهذه الأنفاس الثلاثة؛ ليعلم ما معه من الإيمان، فإن القلوب مفطورةٌ على حبِّ الجمال والإجمال.

والله ــ سبحانه ــ جميلٌ؛ بل له الجمال التامُّ الكامل من جميع الوجوه: جمالُ الذات؛ وجمالُ الصفات؛ وجمالُ الأفعال؛ وجمالُ الأسماء، وإذا جُمِعَ جمالُ المخلوقات كلُّه على شخصٍ واحدٍ؛ ثم كانت جميعها على جمال ذلك الشخص؛ ثم نُسب هذا الجمال إلى جمال الربِّ

ـ تبارك وتعالى ـ : كان أقلَّ من نسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى عين الشمس.

فالنَّفَسُ الصادرُ عن هذه الملاحظة والمطالعة: أشرفُ أنفاس العبد على الاطلاق، فأين نَفَسُ المشتاق المحبِّ الصادق إلى نَفَسِ الخائف الراجي؟

ولكن لا يحصل له هذا النَّفَسُ إلا بتحصيل ذَيْنِكِ النَّفَسَيْن، فإن أحدَهما: ثمرةُ تركه للمخالفات؛ والثاني: ثمرةُ فعله للطاعات، فمن هذين النَّفَسَيْن يصل إلى النَّفَس الثالث)[1].

فمصدر محبة العبد لربِّه ـ تبارك وتعالى ـ : هو مطالعته لأسماء الله تعالى وصفاته؛ ومشاهدة نعمائه وآلائه، وهذا الحبُّ لا تنتفع به النفس كمال الانتفاع ما لم يوجب لها تعظيم محبوبها ـ سبحانه ـ وإجلاله ومهابته، كما هو مُقرَّرٌ في:

عاشراً: تقريره أن الحبَّ الناشىء عن شهود النفس لجمال أسماء الله تعالى وجلال أوصافه هو الحبُّ النافع الموجب للتعظيم والإجلال والمهابة؛ الذي هو غاية كمال العبد، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إذا قارن المحبةَ مهابةُ المحبوب وإجلالُه وتعظيمُه وشهودُ عِزِّ جلاله وعظيم سلطانه: انكسرت نفسُه له؛ وذلَّت لعظمته؛ واستكانت لعزَّته؛ وتصاغرت لجلاله؛ وَصَفَت من رعونات النفس وحماقاتها ودعاويها الباطلة وأمانيها الكاذبة، ولهذا في الحديث: «يقول الله ـ عزَّ وجلّ ـ : أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظلُّهم في ظلِّي؛ يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي»[2].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب البر والصلة والآداب/ باب فضل الحب في الله ـ حديث رقم (٢٥٦٦) ـ ٤/ ١٩٨٨] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ .

فقال: «أين المتحابون بجلالي؟»، فهو حبٌّ بجلاله وتعظيمه ومهابته؛ ليس حباً لمجرَّد جماله، فإنه ــ سبحانه ــ الجليل الجميل، والحبُّ الناشىء عن شهود هذين الوصفين: هو الحبُّ النافع الموجب لكونهم في ظلِّ عرشه يوم القيامة، فشهود الجلال وحده: يُوجب خوفاً وخشية وانكساراً، وشهود الجمال وحده: يُوجب حباً بانبساطٍ وإذلالٍ ورعونةٍ، وشهود الوصفين معاً: يُوجب حبًّا مقروناً بتعظيمٍ وإجلالٍ ومهابةٍ، وهذا هو غاية كمال العبد، والله أعلم)[1].

وكما أن مشاهدة النفس للجلال والجمال تُوجب لها محبة ربِّها ــ تبارك وتعالى ــ: فكذلك مُشاهدتها لنعماء وآلاء الموصوف بها؛ والتحدُّث بجلال أسمائه وكمال أوصافه، فإنه يوجب لها أيضاً محبَّته؛ الذي هو غاية كمال العبد، كما هو مُقرَّرٌ في:

الحادي عشر: تقريره أن في تحدُّث العبد بنعمة الله؛ ومدحه والثناء عليه بها: بعثاً للنفس على الطلب منه دون غيره؛ وعلى محبته ورجائه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن المُتحدِّث بالنعمة: مخبرٌ عن صفات وليِّها؛ ومَحْضِ جوده وإحسانه، فهو مُثْنٍ عليه بإظهارها والتحدُّث بها، شاكراً له؛ ناشراً لجميع ما أولاه.

ومقصوده بذلك: إظهار صفات الله ومدحه والثناء عليه؛ وبعث النفس على الطلب منه دون غيره وعلى محبته ورجائه، فيكون راغباً إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدُّث بها)[2].

وما في توحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى من بعثِ

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٢٩.

(٢) الروح ص٥٥١.

للنفس على المحبة: بابٌ عظيمٌ إلى الله ـ جلَّ جلاله ـ ؛ يدخل منه خواصُّ عباد الله المؤمنين وأوليائه المتقين؛ لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحدٌ منهم، وهو باب المحبين حقاً؛ المتعبِّدين لله بأسمائه وصفاته صدقاً، كما هو مُقرَّرٌ في:

الثاني عشر: تقريره أن باب الأسماء والصفات إنما يدخل منه إلى الله تعالى: خواصُّ عباده وأوليائه؛ الذين امتلأت نفوسهم بالمحبة الصادقة، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليجعلون له الولد؛ وهو يرزقهم ويعافيهم»[1].

وفي بعض الآثار: (يقول الله: ابن آدم؛ خيري إليك نازلٌ؛ وشرُّك إليَّ صاعدٌ، كم أتحبَّب إليك بالنعم؛ وأنا غنيٌّ عنك؟ وكم تتبغَّض إليَّ بالمعاصي؛ وأنت فقيرٌ إليَّ؟ ولا يزال المَلَكُ الكريم يعرج إليَّ منك بعملٍ قبيحٍ)[2].

ولو لم يكن من تحبُّبه إلى عباده وإحسانه إليهم وبِرِّه بهم: إلا أنه خلق

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأدب/ باب الصبر على الأذى ـ حديث رقم (٦٠٩٩) ـ ٤/ ١٩٢٤]، ومسلم في صحيحه [كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله عزَّ وجلّ ـ حديث رقم (٢٨٠٤) ـ ٤/ ٢١٦٠] من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر [رقم (٤٣) ـ ٣/ ٢٥] [ضمن موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا]، وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [٢/ ٣٧٧]، والبيهقي في شعب الإيمان [باب في تعديد نعم الله عزَّ وجلّ وما يجب من شكرها ـ رقم (٤٢٦٩) ـ ٨/ ٤٧٣]، وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة [١/ ١٩٤] عن مالك بن دينار؛ أنه قرأه في بعض الكتب.

لهم ما في السماوات والأرض؛ وما في الدنيا والآخرة، ثم أهَّلهم وكرَّمهم؛ وأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وشرع لهم شرائعه.

وأذن لهم في مناجاته كلَّ وقتٍ أرادوا، وكتب لهم بكلِّ حسنةٍ يعملونها عشرة أمثالها؛ إلى سبعمائة ضعفٍ؛ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وكتب لهم بالسيئةِ واحدةً؛ فإن تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة، وإذا بلغت ذنوب أحدهم عنان السماء ثم استغفره غفر له، ولو لقيه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه بالتوحيد لا يُشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة، وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب؛ فوفَّقهم لفعلها؛ ثم قبلها منهم، وشرع لهم الحجَّ ـ الذي يهدم ما قبله ـ ؛ فوفَّقهم لفعله وكفَّر عنهم سيئاتهم به.

وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات، وهو الذي أمرهم بها؛ وخلقها لهم؛ وأعطاهم إياها؛ ورتَّب عليها جزاءها، فمنه السبَّب ومنه الجزاء ومنه التوفيق ومنه العطاء أولاً وآخراً؛ وهُم محلُّ إحسانه كلِّه منه أولاً وآخراً، أعطى عبده المال؛ وقال: تقرَّب بهذا إليَّ أقبله منك، فالعبد له والمال له والثواب منه؛ فهو المُعطي أولاً وآخراً، فكيف لا يُحبُّ مَنْ هذا شأنه؟ وكيف لا يستحي العبد أن يصرف شيئاً من محبته إلى غيره؟ ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه؟ ومن أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده؛ لا إلـه إلا هو العزيز الحكيم.

ويفرح ـ سبحانه وتعالى ـ بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرحٍ وأكمله؛ ويُكفِّر عنه ذنوبه؛ ويُوجب له محبته بالتوبة، وهو الذي ألهمه إياها؛ ووفَّقه لها؛ وأعانه عليها، وملأ ـ سبحانه وتعالى ـ سماواته من ملائكته؛ واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين؛ والاستغفار لذنوبهم؛ ووقايتهم عذاب الجحيم؛ والشفاعة إليه بإذنه أن يُدخلهم جناته.

فانظر إلى هذه العناية؛ وهذا الإحسان؛ وهذا التحنُّن والعطف والتحبُّب إلى العباد واللُّطف التامِّ بهم، ومع هذا كلِّه بعد أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وتعرَّف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه: ينزل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا؛ يسأل عنهم ويستعرض حوائجهم بنفسه؛ ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مُسيئهم إلى التوبة؛ ومريضهم إلى أن يسأله أن يشفيه؛ وفقيرهم إلى أن يسأله غناه؛ وذا حاجتهم يسأله قضاءها؛ كلَّ ليلة.

ويدعوهم إلى التوبة؛ وقد حاربوه وعذَّبوا أولياءه وأحرقوهم بالنار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾[1].

وقال بعض السلف: (انظروا إلى كرمه؛ كيف عذَّبوا أولياءه وحرَّقوهم بالنار؛ ثم هو يدعوهم إلى التوبة؟)[2].

فهذا الباب يدخل منه كلُّ أحدٍ إلى محبته ـ سبحانه وتعالى ـ، فإن نعمته على عباده مشهودةٌ لهم؛ يتقلبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات.

وقد رُوِيَ في بعض الأحاديث مرفوعاً: «أحبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبُّوني بحبِّ الله»[3].

---

(١) سورة البروج: الآية١٠.

(٢) ذكره ابن كثير في [تفسير القرآن العظيم ٦/ ٩٤؛ ٧/ ١٠٧؛ ٨/ ٣٧١] عن الحسن البصري؛ بلفظ نحوه.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب المناقب/ باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ ـ حديث رقم (٣٧٨٩) ـ ٦/ ١٢٦] من حديث عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي ص٤٦١ ـ ٤٦٢].

فهذه محبةٌ تنشأ من مطالعة المنن ورؤية النعم والآلاء.

وكلما سافر القلب فيها: ازدادت محبته وتأكَّدت، ولا نهاية لها فيقف سفر القلب عندها، بل كلَّما ازداد فيها نظراً: ازداد فيها اعتباراً؛ وعجزاً عن ضبط القليل منها، فيستدلُّ بما عرفه على ما لم يعرفه.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ دعا عباده إليه من هذا الباب، حتى إذا دخلوا منه: دعوا من الباب الآخر؛ وهو باب الأسماء والصفات؛ الذي إنما يدخل منه إليه: خواصُّ عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقاً؛ الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحدٌ منهم، بل كلَّما بدا له منه عَلَمٌ: ازداد شوقاً ومحبة وظمأ، فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال: لم يتخلَّف عن محبة مَن هذا شأنه إلا أردأُ القلوب وأخبثُها؛ وأشدُّها نقصاً؛ وأبعدُها من كلِّ خيرٍ.

فإن الله فطر القلوب على محبة المُحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه.

وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده: فمِنَ المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكلُّ كمالٍ وجمالٍ في المخلوق من آثار صنعه ـ سبحانه وتعالى ـ ، وهو الذي لا يُحدُّ كمالُه ولا يُوصف جلالُه وجمالُه؛ ولا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناء عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله؛ بل هو كما أثنى على نفسه.

وإذا كان الكمال محبوباً لذاته ونفسه: وجب أن يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته، إذ لا شيء أكمل منه، وكلُّ اسمٍ من أسمائه وصفةٍ من صفاته وأفعاله دالَّةٌ عليها، فهو المحبوب المحمود على كلِّ ما فعل؛ وعلى كلِّ ما أمر، إذ ليس في أفعاله عبثٌ ولا في أوامره سفهٌ؛ بل أفعاله كلُّها

لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكلٌّ واحدٍ من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه، وكلامه كلُّه صدقٌ وعدلٌ؛ وجزاؤه كلُّه فضلٌ وعدلٌ، فإنه إن أعطى فبفضله ورحمته ونعمته؛ وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته.

ما للعباد عليه حقٌّ واجبٌ كلا ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا فبفضله وهو الكريم الواسعُ[1])[2].

فهذا حال خواصِّ أولياء الله ومحبيه، وهؤلاء هم المقربون من عباده، الذين ينظرون ببصائرهم ـ قبل النظر بأبصارهم ـ إلى آثار توحيد الله بأسمائه وصفاته على النفس، كما هو مُقرَّرٌ في:

الثالث عشر: تقريره أن نفوس المُقرَّبين من عباد الله تعالى تنظر بعين بصائرها إلى جمال أسماء الله وكمال صفاته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ في المُقرَّبين: (هم أعلم به وأعرف بأسمائه وصفاته من أن يتَّهموه في تدبيره؛ أو يظنُّوا به الإخلال بمقتضى حكمته وعدله، بل هو ناظرٌ بعين قلبه إلى بارىء الأشياء وفاطرها؛ ناظرٌ إلى إتقان صنعه؛ مشاهدٌ لحكمته فيه؛ وإن لم يخرج ذلك على مكاييل عقول البشر وعوائدهم ومألوفاتهم)[3].

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذين البيتين في مواضع متعددة من كتبه؛ ولم يعزهما لقائل، ولم أقف عليه.
انظر: بدائع الفوائد ٢/ ١٣٩، التبيان في أقسام القرآن ص٧٦، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٣٥٣، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٠.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧١ ـ ٥٧٥.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣٩٦.

فعباد الله المُقرَّبون؛ لكمال علمهم وحصافة أذهانهم وسلامة أفهامهم جُعِلَ لبصائرهم فرقانٌ يُوجب لهم التمييز بين صراط الله المستقيم وما انحرف عنه من السبل المتفرقة عن سبيله، وهذا الفرقان من آثار كونهم أعلم بالله تعالى؛ وأعرف بأسمائه وصفاته، كما هو مُقرَّرٌ في:

الرابع عشر: تقريره أن تفكُّر النفس في أسماء معبودها ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته يُوجب لها التمييز بين الإيمان والكفر؛ والتوحيد والشرك، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (أما الفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه[1]: فتُوجب له التمييز بين الإيمان والكفر؛ والتوحيد والشرك؛ والإقرار والتعطيل؛ وتنزيه الربِّ عمَّا لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام.

ومجاري هذه الفكرة: تدبُّر كلامه وما تعرَّف به ـ سبحانه ـ إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله؛ وما نزَّه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به ـ سبحانه ـ ، وتدبُّر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصَّها على عباده وأشهدهم إيَّاها؛ ليستدلُّوا بها على أنه إلههم الحقُّ المبين الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدلُّوا بها على أنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ وأنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ؛ وأنه شديد العقاب؛ وأنه غفورٌ رحيمٌ؛ وأنه العزيز الحكيم؛ وأنه الفعَّال لما يُريد؛ وأنه الذي وسع كلَّ شيءٍ رحمة وعلماً؛ وأن أفعاله كلَّها دائرةٌ بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة لا يخرج شيءٌ منها عن ذلك.

---

(١) المراد بالفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه: ما فسَّره الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعد ذلك بأنه: التدبُّر لكلام الله تعالى؛ والنظر في آثار أفعاله. وليس مراده بالفكرة: تكلُّف معرفة ذاته؛ والبحث عن كيفية صفاته.

وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبُّر كلامه؛ والنظر في آثار أفعاله.

وإلى هذين الأصلين ندب عباده في القرآن، فقال في الأصل الأول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[1]، ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾[2]، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[3]، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[4]، ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾[5].

وقال في الأصل الثاني: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[6]، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[7]، ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾[8]، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[9]، ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾[10]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٢؛ وسورة محمد: الآية ٢٤.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٦٨.
(٣) سورة ص: الآية ٢٩.
(٤) سورة يوسف: الآية ٢.
(٥) سورة فصلت: الآية ٣.
(٦) سورة يونس: الآية ١٠١.
(٧) سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠ ــ ١٩١.
(٨) سورة الجاثية: الآيات ٣ ــ ٥.
(٩) سورة غافر: الآية ٢١.
(١٠) سورة الروم: الآية ٤٢.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾[1])[2].

فهذا الفرقان والتمييز بين الهدى والهوى؛ والرَّشاد والفساد: من آثار أسماء الله تعالى وصفاته على النفس، وهو مما يُوجب للنفس السكينة والطمأنينة، كما هو مُقرَّرٌ في:

الخامس عشر: تقريره أن طمأنينة العبد إلى أسماء الربِّ تعالى وصفاته تُوجب للنفس طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها؛ وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتُوجبه من آثار العبودية، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الطمأنينة إلى أسماء الربِّ تعالى وصفاته نوعان: طمأنينةٌ إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينةٌ إلى ما تقتضيه وتُوجبه من آثار العبودية.

مثاله: الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به: يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يُؤمر العبد بدفعها؛ ولا قدرة له على دفعها، فيُسلِّم لها ويرضى بها؛ ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانُه، فلا يأسى على ما فاته؛ ولا يفرح بما أتاه، لأن المصيبة فيه مُقدَّرة قبل أن تصل إليه؛ وقبل أن يُخلق، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾[3].

---

(١) سورة الروم: الآيات ٢٠ ــ ٢٥.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٥٥٠ ــ ٥٥٢.

(٣) سورة الحديد: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.

وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾[1].

قال غير واحدٍ من السلف: (هو العبد تُصيبه المصيبة؛ فيعلم أنها من عند الله؛ فيرضى ويُسلِّم)[2].

فهذه طمأنينةٌ إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدرٌ زائدٌ على الطمأنينة بمجرَّد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلَّقاتها كالسمع والبصر والرضى والغضب والمحبة، فهذه طمأنينة الإِيمان)[3].

فهذه بعض الأوجه المُقرِّبة لمعنى هذه المسألة؛ والتي قرَّر بها الإِمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى على النفس؛ وما يصحبها من تدرُّجٍ في منازل العبودية.

---

(١) سورة التغابن: الآية ١١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٢٨/ ١٢٣]، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان [باب في الصبر على المصائب وعما تنزع إليه النفس من لذة وشهوة/ فصل في ذكر ما في الأوجاع والأمراض والمصيبات من الكفارات ـ رقم (٩٩٧٦) ـ ٧/ ١٩٦ ـ ١٩٧]، وسننه الكبرى [كتاب الجنائز/ باب الرغبة في أن يتعزى بما أمر الله تعالى به من الصبر والاسترجاع ـ ٤/ ٦٦] عن علقمة بن قيس، بلفظ نحوه.
وقد رُوِيَ عن علقمة قوله: (شهدنا عنده) أي: عند عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عرض المصاحف، فأتى على هذه الآية ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ قال: . . .) وذكر نحوه.
انظر: الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ٧/ ١٩٧، السنن الكبرى له ٤/ ٦٦، تغليق التعليق لابن حجر العسقلاني ٤/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٣) الروح ص٤٩٨ ـ ٤٩٩.

المسألة الثالثة:

آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس بتحصيل الأخلاق الحميدة والخصال الرشيدة.

إنَّ تدبُّر النفس البشرية لأسماء الله تعالى وصفاته يُسبل عليها إزار الأخلاق الحميدة؛ ويُدثِّرها برداء الخصال الرشيدة؛ ويكسوها بحُلَّة الشيم المجيدة، ويجعل النفس تحيى في هذه الدار حياة طيبة سعيدة، وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بتقرير هذه المسألة المتضمنة لجملةٍ من الآثار السَّنِيَّة؛ وأوجهٍ من الموجبات البَهِيَّة على النفس البشريَّة، وهي كما سيأتي:

أولاً: تقريره أن معرفة العبد بأسماء الله تعالى وصفاته يُعينه على محاسبة نفسه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ فيما يُعين العبد على محاسبة نفسه: (يُعينه عليها أيضاً: معرفته أن ربح هذه التجارة: سكنى الفردوس؛ والنظر إلى وجه الربِّ ـ سبحانه ـ، وخسارتها: دخول النار؛ والحجاب عن الربِّ تعالى، فإذا تيقنَّ هذا: هان عليه الحساب اليوم.

فحقٌّ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر: أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكلُّ نَفَس من أنفاس العمر جوهرةٌ نفيسةٌ لا حظَّ لها يُمكن أن يُشترى بها كنزٌ من الكنوز لا يُتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسرانٌ عظيمٌ؛ لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً.

وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[1])[2].

فهذا أحد آثار أسماء الله تعالى وصفاته على النفس؛ والذي يحملها على التحلِّي بهذا الخلق الكريم ألا وهو محاسبة النفس؛ وملاحظة حركاتها وسكناتها؛ ومتابعة خطراتها وخطواتها، والنفس متى ما راقبت الله تعالى في كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ؛ وحاسبتها في كلِّ قطميرٍ ونقيرٍ: أوجب لها ذلك خلق الحياء من الله تعالى؛ الذي هو شعبة من شعب الإيمان، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثانياً: تقريره أن مراقبة العبد لربِّه ــ عزَّ وجلّ ــ تبعث في نفسه شدَّة الحياء منه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن العبد متى علم بنظره) أي نظر الله تعالى (إليه ومقامه عليه؛ وأنه بمرأى منه ومسمعٍ؛ وكان حَيِيّاً: استحيى من ربِّه أن يتعرَّض لمساخطه)[3].

وخلق الحياء الذي يقتبسه العبد من آثار أسماء الله تعالى وصفاته: يحمل نفسه على التحلِّي بالفضيلة؛ والتخلِّي عن الرذيلة، وهو خلقٌ كريمٌ متى ما استوطن في النفس واستقرَّ بها: فإنه يُوجب لها السكينة والطمأنينة، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثالثاً: تقريره أن سكون النفس إلى الله تعالى؛ وتصديقها بحقائق أسمائه وصفاته يُورثها الطمأنينة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (النفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه وأنست بقربه: فهي مطمئنةٌ، وهي التي يُقال لها عند الوفاة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

(٢) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ١٣٣ ــ ١٣٤.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٨٥.

﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[1].

قال ابن عباس: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾: يقول: (المُصدِّقة)[2].

وقال قتادة: (هو المؤمن اطمأنَّت نفسه إلى ما وعد الله)[3].

وقال الحسن: (المُطمئنَّة بما قال الله؛ والمصدقة بما قال)[4].

وقال مجاهد: (هي المُنيبة المُخبتة؛ التي أيقنت أن الله ربُّها، وضربت جانباً لأمره وطاعته، وأيقنت بلقائه)[5].

وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربِّها وطاعته وأمره وذكره؛ ولم تسكن إلى سواه.

فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرِّضى به رباً وبالاسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحسبه وضمانه.

فاطمأنت بأنه وحده ربُّها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كلِّه، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عينٍ)[6].

---

(١) سورة الفجر: الآيتان ٢٧ ــ ٢٨.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٣٠/ ١٩٠].
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٣٠/ ١٩٠].
(٤) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن [٢/ ٣٧٢]، والطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٣٠/ ١٩٠].
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٣٠/ ١٩٠].
(٦) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ١٢٦ ــ ١٢٧.

فطمأنينة النفس: هي من آثار أسماء الله تعالى وصفاته، وهذه الطمأنينة والاستقرار مما يُوجب للنفس الأُنس بربِّها وبارئها وفاطرها ـ عزَّ وجلّ ـ ؛ والأُنس بعبادته؛ والأُنس بالتخلُّق بالأخلاق الكريمة التي يُحبُّها ويرضاها، كما هو مُقرَّرٌ في:

رابعاً: تقريره أن كشف النفس عن معاني أسماء الله تعالى وصفاته يُكسبها الأُنس، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن هذا الأُنس المذكور يكون مبدؤه الكشف عن أسماء الصفات التي يحصل عنها الأُنس؛ ويتعلَّق بها، كاسم الجميل والبَرِّ واللَّطيف والودود والحليم والرحيم ونحوها، ثم يقوى التعلُّق بها إلى أن يستغرق العقل فيما زجَّه[1] نوعٌ من الأسماء؛ فيقهر العقل بصولته[2])[3].

---

(١) الزاي والجيم أصلٌ يدلُّ على رقَّةٍ في شيءٍ، والزج ـ بالضم ـ : طرف المرفق؛ والحديدة في أسفل الرمح، يقال: زججته بالرمح: زرقته به، وزج بالشيء: رمى به عن نفسه.

انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٧، أساس البلاغة للزمخشري ص٢٦٧، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص٢٤٤ ـ ٢٤٥ [مادة: زجج].

(٢) الصاد والواو واللام: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على القهر والعُلُوِّ، فالصول: هو السَّطو، والصَّولة: هي الحملة والوثبة، ومنه الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ بك أحول؛ وبك أصول؛ وبك أقاتل»؛ أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٣٩٢٨) ـ ٣٩/ ٣٥٠] من حديث صهيب بن سنان الرومي ـ رضي الله عنه ـ .

انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٣٢٢، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٦١، لسان العرب لابن منظور ١١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨ [مادة: صول].

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٣٦ .

ومجموع هذه الأخلاق الكريمة؛ والخصال العظيمة ــ التي تقدَّم ذكر بعضها؛ وأنها من آثار أسماء الله وصفاته ــ : إذا تسربلت بها النفس فإنها تُورثها البركة؛ وتجعلها مباركة، لأنها تعلَّقت بالله تعالى وبأسمائه وصفاته، كما هو مُقرَّرٌ في:

خامساً: تقريره أن ذكر أسماء الله تعالى يكسو النفس بالبركة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل: لأن الشيطان مُوكَّلٌ بها وبأصحابها، فسلطانه عليهم، وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه، وكلُّ شيءٍ يتَّصل به الشيطان ويُقارنه: فبركته ممحوقةٌ.

ولهذا شُرِعَ ذكرُ اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللُّبس والرُّكوب والجماع؛ لما في مقارنة اسم الله من البركة، وذكر اسمه يطرد الشيطان؛ فتحصل البركة، ولا مُعارض لها.

وكلُّ شيءٍ لا يكون لله: فبركته منزوعةٌ، فإن الربَّ هو الذي يُبارك وحده، والبركة كلُّها منه، وكلُّ ما نُسِبَ إليه مباركٌ)[١].

والنفس المباركة ــ التي لحقتها البركة من آثار أسماء الله وصفاته ــ تحملها الهمة العالية على التعـرُّف على الله تعالى بالأفعال الرشيدة والأقوال السديدة التي تُناسب أسماءه الحسنى؛ وتُشاكل صفاته العلى، لا تبغي عن رضاه حولاً؛ ولا تروم بعبادته بدلاً، كما هو مُقرَّرٌ في:

سادساً: تقريره أن تعرُّف العبد على أسماء الله تعالى وصفاته يحمل النفس عـلـى التعرُّف عـلى الله تعالى بالأفعال والأقوال التي تُناسبها، كما قـال ــ رحمـه الله تعـالـى ــ فـي قـول النبـي ﷺ: «إن الله جميـل يُحـبُّ

(١) الداء والدواء ص١٣٣.

الجمال»[1]: (إن هذا الحديث الشريف مُشتملٌ على أصلين عظيمين: فأوَّله: معرفةٌ، وآخره: سلوكٌ.

فيُعْرَف الله ـ سبحانه ـ بالجمال الذي لا يُماثله فيه شيءٌ، ويُعْبَد بالجمال الذي يُحبُّه من الأقوال والأعمال والأخلاق.

فيُحبُّ من عبده أن يُجمِّل لسانه بالصدق؛ وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكُّل؛ وجوارحه بالطاعة؛ وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان وتقليم الأظفار.

فيَعْرِفه بصفات الجمال؛ ويَتَعَرَّف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه؛ ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه.

فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة؛ والسلوك)[2].

وجميع الخصال الحميدة والخلال المجيدة ـ التي زكت بها النفس وجملت ـ: هي من آثار أسماء الله تعالى وصفاته؛ ليس للنفس في اكتسابها حولٌ ولا قوةٌ، إنما الحول والقوة بيد الله ـ تبارك وتعالى ـ، كما هو مُقرَّرٌ في:

سابعاً: تقريره أن النفوس إنما لحقتها صفات الكمال من آثار صفات الربِّ تعالى، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (ذات الربِّ ـ سبحانه ـ مستلزمةٌ للحكمة والخير والجود، وذات العبد مستلزمةٌ للجهل والظلم،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر وبيانه ـ حديث رقم (٩١) ـ ١/٩٣] من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

(٢) الفوائد ص٢٠٧.

وما فيـه من العلم والعدل: فإنما حصل لـه بفضل الله عليه؛ وهو أمرٌ خارجٌ عن نفسه.

فمن أراد الله به خيراً: أعطاه هذا الفضل؛ فصدر منه الإحسان والبِرُّ والطـاعـة، ومـن أراد بـه شـرًّا: أمسكـه عنـه؛ وخـلاه ودواعـي نفسـه وطبعـه وموجبها؛ فصدر منه مُوجب الجهل والظلم من كلِّ شرٍّ وقبيحٍ، وليس منعه لذلك ظلماً منه ــ سبحانه ــ، فإنه فضله، وليس من مَنَعَ فضلَه ظالماً؛ لا سيَّما إذا منعه عن محلٍّ لا يستحقُّه ولا يليق به)[1].

فصفات الكمال التي في العبد ــ والتي هي من آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ــ: إنما لحقت نفسه بفضل الله تعالى عليه؛ فهو مُعطي الكمال وواهبه؛ المُتجمِّل بأسماء الجلال والمُنعوت بصفات الكمال؛ الذي كلُّ جمالٍ وكمالٍ في النفس إنما هو من عطيته وهبته، ورؤية النفس لهذا الفضل: يُطلعها على مكامن النقص ودفائن العيب التي جُبِلَتْ عليه، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثامناً: تقريره أن مطالعة العبد لجلال أسماء الله تعالى وكمال صفاته: يُشهدها صفات النقص والعيب التي جُبلت عليها نفسه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن العبد نفسه أولى بالتقصير والذمِّ والعيب والظلم والحاجة، وكلما ازداد شهودُه لذُلِّه ونقصه وعيبه وفقره: ازداد شهوده لعِزَّة الله وكماله وحمده وغناه؛ وكذلك العكس، فنقص الذنب وذلَّتُه يُطلعه على مشهد العِزَّة.

ومنها: أن العبد لا يُريد معصية مولاه من حيث هي معصية، فإذا شهد جريان الحكم؛ وجعله فاعلاً لما هو مختارٌ له؛ مريدٌ بإرادته ومشيئته

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٨١.

واختياره، فكأنه مختارٌ غيرَ مختارٍ؛ مريدٌ غيرَ مريدٍ؛ شاءٍ غيرَ شاءٍ، فهذا يُشهد عِزَّة الله وعظمته وكمال قدرته.

ومنها: أن يعرف بِرَّه ــ سبحانه ــ في ستره عليه حال ارتكاب المعصية؛ مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلقه؛ فحَذَرُوه، وهذا من كمال بِرِّه.

ومن أسمائه: البَرُّ، وهذا البِرُّ من سيده كان عن كمال غناه عنه؛ وكمال فقر العبد إليه.

فيشتغل بمطالعة هذه المنة؛ ومشاهدة هذا البِرِّ والإِحسان والكرم فيذهل عن ذكر الخطيئة، فيبقى مع الله ــ سبحانه ــ؛ وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته؛ وشهود ذُلِّ معصيته، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه: هو المطلب الأعلى؛ والمقصد الأسنى، ولا يُوجب هذا نسيان الخطيئة مُطلقاً؛ بل في هذه الحال، فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة؛ وذكر الجناية، ولكلِّ وقتٍ ومقامٍ عبوديةٌ تليق به.

ومنها: شهود حلم الله ــ سبحانه وتعالى ــ في إمهال راكب الخطيئة؛ ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنه الحليم الذي لا يعجل، فيُحدث له ذلك معرفة ربِّه ــ سبحانه ــ باسمه الحليم؛ ومشاهدة صفة الحلم؛ والتعبُّد بهذا الاسم، والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسُّط الذنب أحبُّ إلى الله؛ وأصلح للعبد؛ وأنفع من فوتها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنعٌ.

ومنها: معرفة العبد كرم ربِّه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدَّم من الاعتذار؛ لا بالقدر، فإنه مخاصمةٌ ومحاجَّةٌ كما تقدَّم، فيقبل عذره بكرمه وجوده، فيُوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره؛ ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به؛ ثم غفر لك إساءتك ولم يُؤاخذك بها: أضعاف محبتك على شكر الإِحسان

وحده، والواقع شاهدٌ بذلك، فعبودية التوبة بعد الذنب لونٌ؛ وهذا لونٌ آخر.

ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته، فإن المغفرة فضلٌ من الله، وإلا فلو أخذك بمحض حقِّه كان عادلاً محموداً، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك، فيُوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة وإنابة إليه وفرحاً وابتهاجاً به؛ ومعرفة له باسمه الغفَّار؛ ومشاهدة لهذه الصفة؛ وتعبُّداً بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن يكمل لعبده مراتب الذُّلِّ والخضوع والانكسار بين يديه والافتقار إليه، فإن النفس فيها مضاهاةٌ للربوبية، ولو قدرت لقالت كقول فرعون، ولكنه قَدَر فأظهر؛ وغيره عَجَز فأضمر، وإنما يُخلِّصها من هذه المضاهاة: ذلُّ العبودية)[1].

فشهود العبد لذُلِّ نفسه ونقصها وفقرها: يُوجبُ له زيادة شهوده لما يُقابل ذلك من عِزَّة المعبود ــ تبارك وتعالى ــ وكماله وغناه، فهذه صفاتٌ ذاتيةٌ للخالق ــ سبحانه وتعالى ــ؛ كما أن تلك صفاتٌ ذاتيةٌ للمخلوق، وإن من تمام إنصاف العبد في معاملته لمعبوده ــ تبارك وتعالى ــ: أن لا ينازعه صفاته التي لا تليق إلا به ــ سبحانه وتعالى ــ، كما هو مُقرَّرٌ في:

تاسعاً: تقريره أن عين الإنصاف في العبودية أن لا تُنازع نفس العبد ربَّه في أسمائه وصفاته التي لا تليق بها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (أما الإنصاف في معاملة الله: فأن يُعطي العبودية حقَّها؛ وأن لا يُنازع ربَّه صفات إلٰهيته التي لا تليق بالعبد ولا تنبغي له؛ من العظمة والكبرياء والجبروت)[2].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٢٧ ــ ٢٢٨.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٩٨.

فهذه خاتمة تقرير آثار التوحيد العظيمة؛ وموجباته الكريمة على النفس البشرية، فهي مُنعَّمة في هذه الدار العاجلة ـ قبل الدار الآجلة ـ في رياض من المعرفة والعبودية والأخلاق، فمن شاء فليُنَزِّه (بصيرته في هذه الرياض المُونقة المُعْجِبة؛ التي ترقص القلوب لها فرحاً، ويُتغذى بها عن الطعام والشراب، والحمد لله الفتاح العليم)(١).

ومن فَقَه مسائل هذا المطلب (وتأمَّلها حقَّ التأمُّل: انتفع بها غاية)(٢) الانتفاع، ومَن كُشف له القناع ـ بعد فقدها وحرمانها ـ: (عَلِمَ أيَّ بضاعة أضاع؟ وأنه لا خير له في حياته وهو معدودٌ من سقط المتاع)(٣).

وفيما ذُكِرَ من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس دلالةٌ وإشارةٌ عمَّا لم يُذكر منه(٤).



---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) الداء والدواء ص٢٧.

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٨.

(٤) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٧، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٩؛ ٤٣١ ـ ٤٣٢؛ ٤٣٥؛ ٥٦٩، ٥٨١، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٩٩، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٢٨٤؛ ١٠٢، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٤٢؛ ٢/ ٢٠٩؛ ٣٣٣؛ ٣/ ١٦٢؛ ٢٥٢؛ ٣٨٨ ـ ٣٨٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٠٦ ـ ١٠٧؛ ٥٤٨ ـ ٥٤٩، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص١١٩.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير آثار توحيد الأسماء والصفات على الكون

إنَّ جميع ما في هذا الكون من كائناتٍ ومُحدَثاتٍ: إنما هو موجب أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

وسريان آثار هذه الأسماء والصفات في الكون ـ في عالمه الحسيِّ والروحيِّ ـ: إنما هو مقتضى حمد الله تعالى ومجده، لأن هذه الأسماء والصفات لا بُدَّ لها من آثار تتحقَّق بها؛ وإلا تجرَّدت تلك الأسماء عن حسنها؛ وتلك الأوصاف عن كمالها.

وقد تجلت جهود الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير توحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ وما فيه من الآثار الحميدة على الكون؛ والتي هي بمثابة ظلال (يأوي إليها اللَّهفان، ومناهل يردها الظمآن)[1].

ويمكن إبراز جهوده ـ رحمه الله تعالى ـ وبيانها في المسائل الثلاث الآتية:

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١٢٨.

المسألة الأولى:

تقريره سريان آثار توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته على جميع ما في الكون، وأنّ ذلك مقتضى حمده ومجده.

إنَّ لآثار أسماء الله وصفاته سرياناً في جميع ذرَّات الكون، فجميع ما في هذا الكون ــ من كائناتٍ وحادثاتٍ؛ ومن خلق وأمر ــ: لا يخرج عن موجب أسماء الله وصفاته؛ إذ هو مقتضى حمد الله تعالى ومجده والثناء عليه، فللّه ــ سبحانه ــ في كلِّ ما قضاه في هذا الكون وقدَّره: الحكمة البالغة؛ والنعمة السابغة.

وقد أوضح الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ما تضمنته هذه المسألة من المعاني في تقريراته الآتية:

أولاً: تقريره سريان آثار أسماء الله وصفاته في العالم الحسيِّ والعالم الروحيِّ؛ وتصرُّفها في الخلائق، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في العبد: (إذا عرف بقلبه وتيقَّن صفات صاحب العهد؛ وأشرقت أنوارها على قلبه ــ فصارت له كالمعاينة ــ: فرأى حينئذٍ تعلُّقها بالخلق والأمر؛ وارتباطهما بها وسريان آثارهما في العالَم الحسيِّ والعالَم الروحيِّ، ورأى تصرُّفها في الخلائق، كيف عمَّت وخصَّت؛ وقرَّبت وأبعدت؛ وأعطت ومنعت؟

فشاهد بقلبه مواقع عدله ــ سبحانه ــ وقسطه وفضله ورحمته، واجتمع له الإيمان بلزوم حجَّته مع نفوذ أقضيته؛ وكمال قدرته مع كمال عدله وحكمته؛ ونهاية عُلوِّه على جميع خلقه مع إحاطته ومعيَّته؛ وعظمته وجلاله وكبريائه وبطشه وانتقامه مع رحمته وبِرِّه ولطفه وجوده وعفوه وحلمه، ورأى لزوم الحجَّة مع قهر المقادير التي لا خروج لمخلوقٍ عنها؛

وكيف اصطحاب الصفات وتوافقها وشهادة بعضها لبعض؟)[1].

ثانياً: تقريره تعلُّق أسماء الله وصفاته بأنواع الكائنات؛ وارتباطها بجميع الحادثات، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ في شهود معنى الأزل: (أين هذا من مشهد تنوُّع الأسماء والصفات؟ وتعلُّقها بأنواع الكائنات؛ وارتباطها بجميع الحادثات، وإعطاء كلٍّ اسمٍ منها وصفة حقَّها من الشهود والعبودية والنظر إلى سريان آثارها في الخَلق والأمر؛ والعالم العلويِّ والسفليِّ؛ والظاهر والباطن؛ ودار الدنيا ودار الآخرة، وقيامه بالفرق والجمع في ذلك علماً ومعرفة وحالاً، والله المستعان)[2].

فهذا تقريرٌ لآثار أسماء الله تعالى وصفاته في الكون، فإن تعلُّقها بجميع ذرَّات الكون من دلائل وموجبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثالثاً: تقريره أن جميع ما في الكون فهو موجب أسماء الله تعالى وصفاته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن جميع ما في الكون أوجبته مشيئة الله وحكمته وملكه، فهو موجب أسمائه وصفاته، فمن لم يرض بما رضي به ربُّه: لم يرض بأسمائه وصفاته؛ فلم يرض به ربًّا)[3].

فعدم خروج جميع ما في الكون عن مشيئة الله تعالى القاهرة وحكمته البالغة الباهرة: مما يُفضي إلى حمد الله تعالى ومجده والثناء عليه، كما هو مُقرَّرٌ في:

---

(١) الفوائد ص١٨٦.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٧٢.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٢١.

رابعاً: تقريره أن سريان آثار أسماء الله وصفاته في الكون هو مقتضى حمد الله تعالى ومجده، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (من تأمَّل سريان آثار الأسماء والصفات في العالَم وفي الأمر: تبيَّن له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال، وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده؛ كما هو مقتضى ربوبيته وإلـٰهيته، فله في كلِّ ما قضاه وقدَّره الحكمة البالغة؛ والآيات الباهرة)[1].

فسريان آثار أسماء الله تعالى وصفاته في الكون مما يقتضي حمد الله تعالى ومجده، فلو لم تسر هذه الآثار في الكون وتظهر: لبطلت أسماء الجلال؛ وتعطَّلت أوصاف الكمال، كما هو مُقرَّرٌ في:

خامساً: تقريره أن إنكار آثار أسماء الله تعالى وصفاته في الكون: إبطالٌ للأسماء الحسنى وتعطيلٌ للأوصاف العلى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الربَّ ــ سبحانه ــ كاملٌ في أوصافه وأسمائه وأفعاله، فلا بُدَّ من ظهور آثارها في العالَم، فإنه مُحسنٌ؛ ويستحيل وجود الإحسان بدون من يُحسن إليه، ورزَّاق فلا بُدَّ من وجود من يرزقه، وغفَّارٌ وحليمٌ؛ وجوادٌ وبرٌّ ولطيفٌ بعباده؛ ومنَّانٌ ووهَّابٌ؛ وقابضٌ وباسطٌ؛ وخافضٌ ورافعٌ؛ ومعزٌّ ومذلٌّ.

وهذه الأسماء تقتضي مُتعلَّقاتٍ تتعلَّق بها؛ وآثاراً تتحقَّق بها، فلم يكن بُدٌّ من وجود مُتعلَّقاتها؛ وإلا تعطَّلت تلك الأوصاف وبطلت تلك الأسماء، فتوسُّط تلك الآثار لا بُدَّ منه في تحقُّق معاني تلك الأسماء والصفات، فكيف يقال: إنه عبث لا فائدة فيه؟ وبالله التوفيق)[2].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٢.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٩٨.

المسألة الثانية:

تقريره أنّ بركة الله على الكون إنما هي من آثار أسمائه وصفاته.

إنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ وَحْدَه الذي يُبارِكُ على ما شاء من خلقه، وكلُّ ذرةٍ من ذرَّات الكون إنما تلحقها بركة الله تعالى على حسب قُرْبِها منه، فاسمه ــ سبحانه ــ لا يُذكر على شيءٍ من ذرَّات هذا الكون إلا وفَّره وكثَّره، ولا على خيرٍ إلا زاده وأنماه، ولا على آفةٍ إلا محقها وأذهبها، وقد برزت جهود الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في بيان هذه المسألة وإيضاحها، وكان تقريره لها على النحو الآتي:

أولًا: تقريره أن كل ما نُسِبَ إلى الله تعالى وإلى محبته ورضاه في هذا الكون فهو مُباركٌ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن الربَّ هو الذي يُبارك وحده، والبركة كلُّها منه، وكلُّ ما نُسب إليه مُبارك، فكلامه مُباركٌ؛ ورسوله مُباركٌ؛ وعبده المؤمن النافع لخلقه مُباركٌ؛ وبيته الحرام مُباركٌ؛ وكنانته من أرضه ــ وهي الشام ــ أرض البركة؛ وصفها بالبركة في ستِّ آياتٍ من كتابه[1].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في [تفسير سورة الأعراف ١٥/ ٣٢]: (قد أخبر الله بأنه بارك في أرض الشام في آياتٍ؛ منها: قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٣٧]. ومنها قوله: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧١]. ومنها قوله: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨١]. ومنها قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ [سورة سبأ: الآية ١٨]، وهي قرى الشام، وتلك قرى اليمن، والتي بينهما قرى الحجاز ونحوها وبادت. ومنها قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [سورة الإسراء: الآية١]) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

فـلا مُبارِكَ إلا هـو وحـده، ولا مُبارَكَ إلا مـا نُسب إليـه ــ أعني: إلى ألوهيته ومحبته ورضاه، وإلا فالكون كلُّه منسوبٌ إلى ربوبيته وخلقه ــ .

وكلُّ ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال: فلا بركة فيه؛ ولا خير فيه، وكلُّ ما كان قريباً من ذلك: ففيه من البركة على حسب قربه منه)[1].

فكلُّ ما نُسبَ من أعيان هذا الكون إلى الله تعالى وإلى محبته ورضاه: فهو مُبارَكٌ، لأنَّ الله تعالى موصوفٌ بالبركة، وهو ــ سبحانه ــ يُحلُّ بركته على كلِّ ما نُسِبَ إليه، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثانياً: تقريره أن ذكر اسم الله تعالى على كلِّ شيءٍ من محالِّ هذا الكون يُباركه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (تبارك اسمه، فلا يُذكر على قليلٍ إلا كثَّره، ولا علـى خيـرٍ إلا أنمـاه وبـارك فيـه، ولا علـى آفـةٍ إلا أذهبهـا، ولا على شيطانٍ إلا ردَّه خاسئاً داحراً.

وكمال الاسم من كمال مُسمَّاه، فإذا كان هذا شأن اسمه ــ الذي لا يضـرُّ معـه شـيءٌ فـي الأرض ولا فـي السمـاء ــ : فشـأنُ المُسمَّـى أعلـى وأجلُّ)[2].

المسألة الثالثة:

تقريره آثار آحاد أسماء الله تعالى وصفاته على الكون.

إنَّ لأسمـاء الله وصفـاتـه جميعهـا آثـاراً عظيمـة؛ ومنـافـع جسيمـة علـى الكـون، وإن لبعـض آحـاد هـذه الأسمـاء الحسنـى والصفـات العلـى آثـاراً مشاهدة: تسبي القلوب؛ وتسترق الألباب، وقد أوضح الإمام ابن قيم

(١) الداء والدواء ص١٣٣ .

(٢) كتاب الصلاة ص١٧١ .

الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ما لبعض هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى من آثار حميدة على الكون، وقرر ذلك فيما يأتي:

أولاً: تقريره أن جميع ما في الكون هو من آثار رحمة الله تعالى الخاصَّة والعامَّة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن ظهور آثار هذه الصفة في الوجود كظهور أثر صفة الربوبية والملك والقدرة، فإن ما لله على خلقه من الإحسان والإنعام شاهدٌ برحمة تامَّة وَسِعَت كلَّ شيءٍ، كما أن الموجودات كلَّها شاهدةٌ له بالربوبية التامَّة الكاملة، وما في العالَم من آثار التدبير والتصريف الإلـٰهيِّ شاهدٌ بملكه ــ سبحانه ــ ، فجَعْل صفة الرحمة واسم الرحمة مجازاً: كجَعْل صفة الملك والربوبية مجازاً، ولا فرق بينهما في شرعٍ ولا عقلٍ ولا لغةٍ.

وإذا أردتَ أن تعرف بُطلان هذا القول: فانظر إلى ما في الوجود من آثار رحمته الخاصَّة والعامَّة، فبرحمته أرسل إلينا رسوله ﷺ؛ وأنزل علينا كتابه؛ وعصمنا من الجهالة؛ وهدانا من الضلالة؛ وبصَّرنا من العمى؛ وأرشدنا من الغي، وبرحمته عرَّفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرَّفنا به أنه ربُّنا ومولانا.

وبرحمته علَّمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لمصالح ديننا ودنيانا، وبرحمته أطلع الشمس والقمر؛ وجعل الليل والنهار؛ وبسط الأرض؛ وجعلها مهاداً وفراشاً وقراراً وكفاتاً للأحياء والأموات، وبرحمته أنشأ السحاب؛ وأمطر المطر؛ وأطلع الفواكه والأقوات والمرعى.

ومن رحمته سخَّر لنا الخيل والإبل والأنعام؛ وذلَّلها منقادة للركوب والحمل والأكل والدرِّ.

وبرحمته وضع الرحمة بين عباده ليتراحموا بها؛ وكذلك بين سائر

أنواع الحيوان، فهذا التراحم الذي بينهم: بعض آثار الرحمة ــ التي هي صفته ونعمته ــ ، واشتقَّ لنفسه منها: اسم الرحمن الرحيم، وأوصل إلى خلقه معاني خطابه برحمته، وبصَّرهم ومكَّن لهم أسباب مصالحهم برحمته.

وأوسع المخلوقات: عرشُه، وأوسع الصفات: رحمتُه، فاستوى على عرشه ــ الذي وسع المخلوقات ــ بصفة رحمته ــ التي وسعت كلَّ شيء ــ ، ولما استوى على عرشه بهذا الاسم ــ الذي اشتقَّه من صفته؛ وتسمَّى به دون خلقه ــ : كتب بمقتضاه على نفسه ــ يوم استوائه على عرشه؛ حين قضى الخلق ــ كتاباً فهو عنده؛ وضعه على عرشه: أن رحمته سبقت غضبه.

وكان هذا الكتاب العظيم الشأن كالعهد منه ــ سبحانه ــ للخليقة كلِّها بالرحمة لهم؛ والعفو عنهم؛ والمغفرة والتجاوز؛ والستر والإمهال؛ والحلم والأناة، فكان قيام العالَم العلويِّ والسفليِّ بمضمون هذا الكتاب؛ الذي لولاه لكان للخلق شأنٌ آخر.

وكان عن صفة الرحمة: الجنة؛ وسكَّانها؛ وأعمالها، فبرحمته خُلِقَتْ؛ وبرحمته عُمِرَت بأهلها؛ وبرحمته وصلوا إليها؛ وبرحمته طاب عيشُهم فيها، وبرحمته احتجب عن خلقه بالنور؛ ولو كُشِفَ ذلك الحجابُ: لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه، ومن رحمته أنه يُعيذ من سخطه برضاه؛ ومن عقوبته بعفوه؛ ومن نفسه بنفسه.

ومن رحمته أن خلق للذكر من الحيوان أنثى من جنسه؛ وألقى بينهما المحبة والرحمة ليقع بينهما التواصل الذي به دوام التناسل؛ وانتفاع الزوجين، ويُمَتَّع كلٌّ واحدٍ منهما بصاحبه.

ومن رحمته أحوج الخلق بعضَهم إلى بعضٍ؛ لتتمَّ مصالحُهم،

ولو أغنى بعضَهم عن بعضٍ: لتعطَّلت مصالِحُهم؛ وانحلَّ نظامُها، وكان من تمام رحمته بهم أن جعل فيهم الغنيَّ والفقير؛ والعزيز والذليل؛ والعاجز والقادر؛ والراعي والمرعي، ثم أفقر الجميع إليه، ثم عمَّ الجميع برحمته.

ومن رحمته أنه خلق مائة رحمةٍ؛ كلُّ رحمةٍ منها طباق ما بين السماء والأرض، فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة ــ نشرها بين الخليقة ــ ليتراحموا بها، فبها تعطف الوالدة على ولدها؛ والطير والوحش والبهائم، وبهذه الرحمة قِوامُ العالَم ونظامُه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾[1]. كيف جعل الخلق والتعليم ناشئاً عن صفة الرحمة؛ مُتعلِّقاً باسم الرحمن؟ وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾[2].

فالاسم الذي تبارك: هو الاسم الذي افتتح به السورة، إذ مجيء البركة كلِّها منه، وبه وُضعت البركة في كلِّ مُبارَكٍ، فكلُّ ما ذُكِرَ عليه: بُورك فيه، وكلُّ ما أُخلِيَ منه: نُزعت منه البركة، فإن كان مُذَكًّى وخلا منه اسمه: كان ميتة، وإن كان طعاماً: شارك صاحبَه فيه الشيطانُ، وإن كان مدخلاً دخل معه فيه، وإن كان حدثاً لم يُرفع عند كثير من العلماء، وإن كان صلاة: لم تصحَّ عند كثيرٍ منهم.

ولما خلق الله الرحم؛ واشتق لها اسماً من اسمه؛ فأراد إنزالها إلى الأرض: تعلَّقت به ــ سبحانه ــ، فقال: «مَهْ»[3]. فقالت: هذا مقام العائذ

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١ ــ ٤.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

(٣) قال ابن الجوزي في [غريب الحديث ٢/ ٣٧٩]: (مه: كلمةٌ تقال للكفِّ عن الشيء). =

بـك مـن القطيعـة. فقـال: ألا تـرضيـن أن أقطـع مـن قطعـك؛ وأَصِـلَ مـن وصلك؟»[1].

وهي متعلقةٌ بالعرش؛ لها حَنْحَنَةٌ[2] كحنحنة المغزل، وكان تعلُّقها بالعرش رحمة منه بها؛ وإنزالها إلى الأرض رحمة منه بخلقه، ولما علم ـ سبحانه ـ ما تَلْقَاه من نزولها إلى الأرض ومفارقتها لِمَا اشْتُقَّت منه: رَحِمَها بتعلُّقها بالعرش؛ واتصالها به؛ وقوله: «ألا ترضين أن أصل من وصلك؛ وأقطع من قطعك؟».

ولذلك كان من وصل رَحِمَه ـ لقُرْبه من الرحمن؛ ورعاية حُرْمَة الرَّحِم ـ: قد عَمَرَ دنياه؛ واتسعت له معيشتُه؛ وبُورِكَ له في عُمُره؛ ونُسِىء له في أثره، فإن وصل ما بينه وبين الرحمن ـ جلَّ جلاله ـ مع ذلك وما بينه وبين الخلق بالرحمة والإحسان: تمَّ له أمر دنياهُ وأُخراه، وإن قطع ما بينه وبين الرحم؛ وما بينه وبين الرحمن: أفسد عليه أمر دنياه وآخرته؛ ومحق

= وانظر: الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣/ ٣٩٥، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ٣٧٧، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للفتني ٤/ ٦٥٢ [مادة: مهه].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التفسير/ باب تفسير سورة محمد ﷺ ـ حديث رقم (٤٨٣٠ ـ ٤٨٣٢) ـ ٣/ ١٥٣٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب البر والصلة والآداب/ باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ـ حديث رقم (٢٥٥٤) ـ ٤/ ١٩٨٠ ـ ١٩٨١] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه».

(٢) حكى الأزهري في [تهذيب اللغة ٣/ ٤٤٩] عن ابن الأعرابي قوله: (حَنْحَنَ: إذا أشفق).
وانظر: لسان العرب لابن منظور ١٣/ ١٣٣، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٣٤/ ٤٦٦ [مادة: حنن].

بركة رحمته ورزقه وأثره، كما قال ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعجَّل لصاحبه العقوبة في الدنيا؛ مع ما يُدَّخر له من العقوبة يوم القيامة: من البغي وقطيعة الرحم»[1].

فالبغي: معاملة الخلق بضدِّ الرحمة، وكذلك قطيعة الرحم، وإن القوم ليتواصلون ــ وهم فجرةٌ ــ : فتكثر أموالهم ويكثر عددهم، وإن القوم ليتقاطعون: فتقلُّ أموالهم ويقلُّ عددهم، وذلك لكثرة نصيب هؤلاء من الرحمة؛ وقلَّة نصيب هؤلاء منها، وفي الحديث: «إن صلة الرحم تزيد في العمر»[2].

وإذا أراد الله بأهل الأرض خيراً: نَشَرَ عليهم أَثَراً من آثار اسمه الرحمن؛ فعَمَرَ به البلاد؛ وأحيا به العباد، وإذا أراد بهم شراً: أمسك عنهم

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد [باب عقوبة عقوق الوالدين ــ حديث رقم (٢٩) ــ ص١٨]، وأحمد في مسنده [حديث رقم (٢٠٣٧٤) ــ ٣٤/٨ ــ ٩]، وأبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب في النهي عن البغي ــ حديث رقم (٤٩٠٢) ــ ٢٠٨/٥]، والترمذي في جامعه [أبواب صفة القيامة والرقائق والورع/ باب (٥٧) ــ حديث رقم (٢٥١١) ــ ٤/ ٢٨١]، وابن ماجه في سننه [كتاب الزهد/ باب البغي ــ حديث رقم (٤٢١١) ــ ٤٧٣/٤] من حديث أبي بكرة ــ رضي الله عنه ــ .
وصححه الألباني في [صحيح الأدب المفرد: الحديث رقم (٢٣) ــ ص٤٢ ــ ٤٣]

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط [حديث رقم (٩٤٧) ــ ١/ ٥١٣] من حديث معاوية بن حيدة ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «إن صدقة السرِّ تطفىء غضب الربِّ».
قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٨/ ١٩٤]: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: أصبغ: غير معروف، وبقية رجاله وثقوا، وفيهم خلاف).

ذلك الأثر؛ فحلَّ بهم من البلاء بحسب ما أمسك عنهم من آثار اسمه الرحمن، ولهذا إذا أراد الله ـ سبحانه ـ أن يُخرِّب هذه الدار؛ ويُقيم القيامة: أمسك عن أهلها أثر هذا الاسم؛ وقبضه شيئاً فشيئاً، حتى إذا جاء وعدُه: قبض الرحمة التي أنزلها إلى الأرض، فتضع لذلك الحواملُ ما في بطونها، وتذهل المراضعُ عن أولادها، فيضيف ـ سبحانه ـ تلك الرحمة التي رفعها وقبضها من الأرض إلى ما عنده من الرحمة، فيكمل بها مائة رحمة، فيرحم بها أهل طاعته وتوحيده وتصديق رسله وتابعهم.

وأنت لو تأملت العالَم بعين البصيرة: لرأيتَه مُمتلئاً بهذه الرحمة الواحدة كامتلاء البحر بمائه؛ والجوِّ بهوائه، وما في خلاله من ضدٍّ ذلك: فهو مُقتضى قوله: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

فالمسبوق لا بُدَّ لاحقٌ؛ وإن أبطأ، وفيه حكمةٌ لا تناقضها الرحمة، فهو أحكم الحاكمين؛ وأرحم الراحمين، فسبحان من أعمى بصيرةَ من زعم أن رحمة الله مجازٌ!)[2].

ثانياً: تقريره أنَّ الله ـ سبحانه ـ طيِّبٌ، وأن طِيْبَ كلِّ ما في هذا الكون إنما هو من آثار طيبته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ في العبدِ المصلِّي في تشهُّده: (قوله والطيِّبات: فهي صفةُ الموصوف المحذوف، أي: الطيِّبات من الكلمات والأفعال والصفات والأسماء لله وحده.

فهو طيِّبٌ، وأفعاله طيِّبةٌ، وصفاته أطيب شيءٍ، وأسماؤه أطيب

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ـ حديث رقم (٢٧٥١) ـ ٢١٠٨/٤] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «قال الله ـ عزَّ وجلّ ـ : سبقت رحمتي غضبي».

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣٤٨/٢ ـ ٣٥١.

الأسماء، واسمه: الطيِّبُ؛ ولا يصدر عنه إلا طيِّبٌ، ولا يصعد إليه إلا طيِّبٌ، ولا يقرب منه إلا طيِّبٌ، و ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[1]، وفعله طيِّبٌ، والعمل الطيِّب يعرج إليه، فالطيِّبات كلُّها له؛ ومضافة إليه؛ وصادرة عنه؛ ومنتهية إليه.

قال النبي ﷺ: «إن الله طيِّبٌ؛ لا يقبل إلا طيِّباً»[2].

وفي حديث رقية المريض الذي رواه أبو داود وغيره: «أنت رب الطيِّبين»[3].

ولا يُجاوره من عباده إلا الطيِّبون، كما يُقال لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[4].

وقد حكم ــ سبحانه: شرعُه وقدرُه ــ أن الطيِّبات للطيِّبين، فإذا كان هو ــ سبحانه ــ الطيِّب على الإطلاق: فالكلمات الطيِّبات والأفعال الطيِّبات والصفات الطيِّبات والأسماء الطيِّبات كلُّها له ــ سبحانه ــ؛ لا يستحقُّها

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الزكاة/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ــ الحديث رقم (١٠١٥) ــ ٢/ ٧٠٣] من حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الطب/ باب كيف الرقى ــ الحديث رقم (٣٨٩٢) ــ ٤/ ٢١٨] من حديث أبـي الدرداء ــ رضي الله عنه ــ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٣٩٥٧) ــ ٣٩/ ٣٧٩] من حديث فضالة بن عبيد ــ رضي الله عنه ــ، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ باب ما يقول من كان به أُسْرٌ ــ الحديث رقم (١٠٨٠٧) ــ ٩/ ٣٨١] من حديث رجلٍ لم يسمِّه، وأوله: «ربنا الله الذي في السماء».
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن أبـي داود ص٣١٣ ــ ٣١٤].

(٤) سورة الزمر: الآية ٧٣.

أحدٌ سواه، بل ما طاب شيءٌ قطُّ إلا بطيبته ــ سبحانه ــ ، فطِيبُ كلِّ ما سواه من آثار طيبته، ولا تصلح هذه التحية الطيِّبة إلا له)[1].

(وها هنا سرٌّ لطيفٌ يجب التنبيه عليه؛ والتنبُّه له ــ والتوفيق له بِيَد مَن أزمَّة التوفيقِ بِيَده ــ ، وهو)[2] أثر ذكر اسم الله تعالى على الذبيحة؛ وما يُكسبها اسمُه ــ جلَّ جلاله ــ من الطِيْبِ، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (لا يُنْكر أن يكون ذكرُ اسم الأوثان والكواكب والجنِّ على الذبيحة يُكسبها خُبْثاً؛ وذكرُ اسم الله وحده يُكسبها طيباً: إلا من قلَّ نصيبُه من حقائق العلم والإيمان وذوق الشريعة، وقد جعل الله ــ سبحانه ــ ما لم يُذكر اسم الله عليه من الذبائح فسقاً؛ وهو الخبيث.

ولا ريب أن ذكر اسم الله على الذبيحة يُطيِّبها؛ ويطرد الشيطانَ عن الذابح والمذبوح، فإذا أخلَّ بذكر اسمه: لابَسَ الشيطانُ الذابحَ والمذبوحَ؛ فأثَّر ذلك خُبْثاً في الحيوان، والشيطانُ يجري في مجاري الدم من الحيوان؛ والدم مركبه وحامله، وهو أخبث الخبائث، فإذا ذكر الذابحُ اسمَ الله: خرج الشيطانُ مع الدم؛ فطابت الذبيحة، فإذا لم يذكر اسم الله: لم يخرج الخبث، وأما إذا ذكر اسم عدوِّه من الشياطين والأوثان: فإن ذلك يُكسب الذبيحة خُبْثاً آخر.

يُوضِّحه: أن الذبيحة تجري مجرى العبادة، ولهذا يقرن الله ــ سبحانه ــ بينهما، كقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾[3]. وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ

---

(١) كتاب الصلاة ص١٨٣.

(٢) الروح ص٥٠٠.

(٣) سورة الكوثر: الآية ٢.

صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[2].

فأخبر أنه إنما سخَّرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه إنما يناله التقوى؛ وهو: التقرُّب إليه بها وذِكْر اسمه عليها، فإذا لم يذكر اسمه عليها: كان ممنوعاً من أكلها؛ وكانت مكروهة لله، فأكسبتها كراهيته لها ــ حيث لم يُذكر عليها اسمُه؛ أو ذُكِرَ عليها اسمُ غيره ــ: وصفَ الخُبْث؛ فكانت بمنزلة الميتة.

وإذا كان هذا في متروك التسمية؛ وما ذُكر عليه اسم غير الله: فما ذبحه عدوُّه المشركُ به ــ الذي هو من أخبث البريَّة ــ أولى بالتحريم، فإن فِعْل الذابح وقَصْده وخُبْثه لا يُنكَر أن يُؤثِّر في المذبوح؛ كما أن خُبْث الناكح ووصفه وقصده يُؤثِّر في المرأة المنكوحة.

وهذه أمورٌ إنما يُصدِّق بها من أشرق فيه نورُ الشريعة وضياؤُها، وباشر قلبَه بشاشةُ حكمها وما اشتملت عليه من المصالح في القلوب والأبدان، وتلقَّاها صافيةً من مشكاة النبوة، وأَحْكَمَ العقد بينها وبين الأسماء والصفات؛ التي لم يطمس نورَ حقائقها ظلمةُ التأويل والتحريف)[3].

ثالثاً: تقريره عناية الخالق ــ سبحانه ــ بخلقه؛ وهدايته العامَّة لهم، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن الله ــ سبحانه ــ هدى البهائم والطير أن

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.

(٢) سورة الحج: الآيتان ٣٦ ــ ٣٧.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ١٧٣ ــ ١٧٤.

يُعـرِّف بعضُها بعضاً مُـرادَها بـأصواتـها؛ كـما يُشاهـد فـي أجناس الحيوان والطـيور، فـالـديك يُصوِّت فيـعرف الدجاج مرادَه، والفرس يصهل فيعرف الخيـل مـرادَه، والكلـب ينبـح فتعـرف الكـلاب مـرادَه، والهـرُّ تنـوء فتعـرف أولادُهـا مـرادَهـا، والـدجـاجـة تُـعـرِّف أفراخها مـرادَها بصوتها، وهذا من تمام عناية الخالق ــ سبحانه ــ بخلقه؛ وهـدايته العـامَّـة، كمـا قال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[1]. وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[2])[3].

ومن منظوم كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في بيان آثار أسماء الله تعالى وصفاته على جميع ما في الكون عامَّة؛ وعلى لُبِّه خاصَّة ــ وهي النفس البشرية ــ قوله:

(يكفيك من وَسِعَ الخلائق رحمة ... وكفـايـة ذو الفضـل والإحسـان
يكفيـك مـن لـم تخـل مـن إحسـانـه ... فـي طـرفـة بتقلُّـب الأجفـان
يكفيـك ربٌّ لـم تـزل ألطـافـه ... تـأتـي إليـك بـرحمـة وحنـان
يكفيـك ربٌّ لـم تـزل فـي ستـره ... ويـراك حيـن تجـيء بـالعصيـان
يكفيـك ربٌّ لـم تـزل فـي حفظـه ... ووقـايـة منـه مـدى الأزمـان
يكفيـك ربٌّ لـم تـزل فـي فضلـه ... مُتقلِّبـا فـي السِّـرِّ والإعـلان
يدعوه أهل الأرض مع أهل السما ... ءِ فكـلَّ يـومٍ ربُّـنـا فـي شـان
وهـو كفيـلٌ بكـلِّ مـا يـدعـونـه ... لا يعتـري جدواه مـن نقصـان)[4].

(١) سورة طه: الآية ٥٠.
(٢) سورة الأعلى: الآيات ١ ــ ٣.
(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٤٤.
(٤) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤٨١٠ ــ ٤٨١٧) ــ ص٣٤٠ ــ ٣٤١].

وهذه خاتمة تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـــ رحمه الله تعالى ـــ لآثار أسماء الله وصفاته على الكون؛ وما فيه من الكائنات والمحدثات، وأن جميع ذلك من آثار ربوبية الله لخلقه، وهدايته لهم، وعنايته بهم، وهذه الآثار (لا سبيل للخلق ـــ ولو تناهوا في العلم والمعرفة ـــ إلى الإحاطة بها، ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عليهم: كنقرة عصفورٍ في بحرٍ)(١).

وفيما تقدم من كلامه ـــ رحمه الله تعالى ـــ إشارةٌ تُعَبِّر عما وراءها من الكلام المودع في مثاني مصنفاته(٢).

❑ ❑ ❑

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٣١٨.

(٢) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٥٥٦؛ ٣/٦٠٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/١١٩٧ ـــ ١١٩٨.

المبحث الرابع:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير ثمرات توحيد الأسماء والصفات في قلب العبد وجوارحه

إنَّ العبد ــ الفقيه في توحيد الأسماء والصفات؛ المُتعبِّد لله تعالى بما يستلزمه من المقتضيات ــ متى ما طالع بعين بصيرته معاني الأسماء والصفات؛ ورأى بعين بصره آثارها في نفسه وفي المخلوقات: أنتج له ذلك ثمرات كثيرة؛ لا مقطوعة ولا ممنوعة، (قد ذُلِّلت قطوفها تذليلاً؛ وسُهِّلت لمتناولها تسهيلاً)[1]، وهذه الثمرات متى ما امتزجت حلاوتها بشغاف القلب: ابتهج بالغبطة والسرور؛ وأنس باللذة والحبور.

ولما كان القلب للجوارح (كالملك المُتصرِّف في الجنود؛ الذي تصدر كلُّها عن أمره؛ ويستعملها فيما شاء، فكلُّها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحلُّه)[2]: كانت لهذه الثمرات التي يجنيها القلب من توحيد الله بأسمائه وصفاته سريان إلى الجوارح؛ ولا بُدَّ، فكلَّما (قوي سراج

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٢٩.
(٢) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٦.

الإيمان في القلب؛ وأضاءت جهاته كلُّها به؛ وأشرق نوره في أرجائه: سرى ذلك النور إلى الأعضاء؛ وانبعث إليها؛ فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان؛ وانقادت له طائعة مُذللة؛ غير متثاقلةٍ ولا كارهةٍ، بل تفرح بدعوته حين يدعوها)[1].

فكلُّ ثمرة يجنيها ملك الجوارح من قطوف هذا التوحيد الدانية: فإن بركة رزقها الرغد تلحق رعيَّته وجنده وخدمه[2].

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ عناية بالغة بتقرير ثمرات توحيد الأسماء والصفات؛ مُبيناً عَوْدَها الحميد على قلب العبد وجوارحه، فجزاه الله خير الجزاء على حسن تقريره لهذا المبحث، فما أحلى ما أودعه فيه من ألفاظ؛ (وما ألصقها بالقلوب، وما أعظمها جذباً لها؛ وتسييراً إلى ربِّها، وما ألطف موقعها من قلب كلِّ مُحبٍّ، وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تُباشره معانيها، فنسأل الله من فضله، إنه جوادٌ كريمٌ)[3].

وتمام بيان جهود الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٩٥.

(٢) انظر في الإشارة إلى استواء القلب على عرش مملكة الجسد؛ والجوارح بين يديه كالخدم والجند والرعية: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/١٢٣، بدائع الفوائد٣/١٦٣، التبيان في أقسام القرآن ص٤٤١؛ ٤٦١، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص١٢٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٢٩٣، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٦٩، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/١٢٧؛ ٥٦٤، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/١٧.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٦٣٨.

المبحث؛ وما تضمَّنه كلامه من التقريرات الجليلة بالتعبيرات الجميلة يتضح بالمطلبين الآتيين:

المطلب الأول: جهوده في تقرير ثمرات توحيد الأسماء والصفات في قلب العبد.

المطلب الثاني: جهوده في تقرير ثمرات توحيد الأسماء والصفات في جوارح العبد.



المطلب الأول:

جهوده في تقرير ثمرات توحيد الأسماء والصفات في قلب العبد

إنَّ لأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى ثماراً مُستطابة على قلب العبد المؤمن.

وهذا القلب كلما انطرح في بيداء المطالعة والتبصُّر والاعتبار؛ وتعرض لشمس التوحيد التي أشرقت عليه: توالت عليه بشائر المعرفة، فانصبغ القلب بصبغتها، وعُمِرَ باطنه وظاهره بالعبودية، وسَلِمَ من أدواء الشبهات وأمراض الشهوات، فغشيته السكينة؛ ونزلت عليه الطمأنينة، ورزق ـ بإذن بارئه وفاطره ـ الثبات حتى الممات.

وجهود الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير ثمرات توحيد الأسماء والصفات في قلب العبد يمكن بيانها؛ وتجليتها بستِّ مسائل (تُذَكِّر قلوب السائرين إلى الله، وأما أهل البطالة الثَّكْلة: فليس عندهم من ذلك خبر)[1]، والله المستعان.

وهذه المسائل هي:

---

(١) الرسالة التبوكية ص١٥٠.

المسألة الأولى:

ما يُثمره توحيد الأسماء والصفات في القلب من التبصُّر في الشواهد؛ والاستنارة بها.

إنَّ من الثمرات التي يجنيها العبد من توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته: ما يُشرق فيه من شمس التبصُّر في شواهد أسماء الله تعالى وصفاته؛ والاستنارة بها، وقد جلَّى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ معالم هذه المسألة من أوجهٍ متعدِّدةٍ؛ منها:

أولاً: تقريره أن استغراق القلب في شهود الذات المقدسة وصفاتها استغراقاً علمياً أرفع من العلم المُجرَّد، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن التجلِّي الذاتيَّ والصفاتيَّ لا يقع في هذا العالم؛ ولا تثبت له القوى البشرية.

والحقُّ: أنه إشراقُ نور المعرفة والإيمان؛ واستغراقُ القلب في شهود الذات المقدسة وصفاتها استغراقاً علمياً، نعم هو أرفع من العلم المُجرَّد[1]؛ لأسبابٍ:

منها: قوته، فإن المعارف والعلوم تتفاوت.

ومنها: صفاء المحلِّ ونقاؤه من الكدر المانع من ظهور العلم والمعرفة فيه.

(١) الشهود: هو فكرة القلب في صفات المعبود القائمة بالذات المقدسة، والمراد باستغراق القلب في شهود الذات المقدسة وصفاتها استغراقاً علمياً: ما ذكره الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ آنفاً من: تدبُّر القلب لكلام الله تعالى؛ ونظره في آثار أفعاله، وليس المراد بشهود القلب: إدراك كيفية الذات المقدسة؛ وما هي عليه من الصفات العليَّة، لذا كان هذا الاستغراق العلميُّ أرفع من العلم المُجرَّد؛ وهو: العلم المُجرَّد عن التفكُّر والتدبُّر، والله أعلم.

ومنها: التجرُّد عن الموانع والشواغل.

ومنها: كمال الالتفات والتحديق نحو المعروف المشهود.

ومنها: كمال الأُنس به والقرب منه.

إلى غير ذلك من الأسباب؛ التي تُوجب للقلب شهوداً وكشفاً وراء مُجرَّد العلم)[1].

فتعرُّف القلب على أسماء الله تعالى وصفاته والعمل بها: يُوجب له كمال الإيمان، وهذا التعرُّف المصاحب لهذا العمل: أرفع من العلم المُجرَّد عن العمل، والقلب متى ما استغرق في هذه المعرفة: أثمر له تعظيم من قامت به هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثانياً: تقريره أن مشاهدة القلب للصفات؛ والنظر في مُتعلَّقاتها يُكسبه التعظيم للمُتَّصف بها، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن النعت صفةٌ، ومن شاهد الصفة فلا بُدَّ أن يُشاهد مُتعلَّقاتها، فإن النظر في مُتعلَّقاتها يُكسبه التعظيم للمُتَّصف بها.

فإن من شاهد العلم القديم الأزلي مُتعلِّقاً بسائر المعلومات التي لا تتناهى من واجبٍ[2] وممكنٍ[3] ومستحيلٍ؛ ومن شاهد الإرادة الموجبة لسائر الإرادات على تنوُّعها من الأفعال والأعيان والحركات والأوصاف التي لا تتناهى؛ وشاهد القدرة التي هي كذلك؛ وشاهد صفة الكلام ـ الذي

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٠٠.

(٢) قال الجرجاني في [التعريفات ص٣٢٢]: (الواجب لذاته: هو الموجود الذي يمتنع عدمه امتناعاً ليس الوجود له من غيره؛ بل من نفس ذاته، فإن كان وجوب الوجود لذاته: سُمِّيَ واجباً لذاته، وإن كان لغيره: سُمِّيَ واجباً لغيره).

(٣) قال الجرجاني في [التعريفات ص٢٩٦]: (الممكن بالذات: ما يقتضي لذاته أن لا يقتضي شيئاً من الوجوب والعدم، كالعلم).

لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحرٍ؛ وأشجار العالَم كلّها أقلام يُكتب بها كلام الربِّ جلَّ جلاله؛ لفنيت البحار ونفدت الأقلام؛ وكلام الله عزَّ وجلّ لا ينفد ولا يفنى ـ ، فمن شاهد الصفات كذلك؛ وجال قلبه في عظمتها: فهو مشغولٌ بالصفات؛ ومُتفرِّقٌ قلبه في مُتعلَّقاتها وتنوُّعها في أنفسها.

بخلاف من قصر نظره على نفس الذات؛ وشاهد قِدَمَها وبقاءها، واستغرق قلبه في عظمة تلك الذات؛ بقطع النظر عن صفاتها، فهو مُشاهدٌ للعين؛ والأول مُشاهدٌ للصفات)[1].

فالقلب الزَّكيُّ الذي شُغِلَ بمطالعة أسماء الله تعالى وصفاته؛ وتفرَّق في مُتعلَّقاتها، إذا قام فيه تعظيم الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ : أثمر له إثبات ما لله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلى على الوجه اللائق به ـ سبحانه وتعالى ـ ، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثالثاً: تقريره أن القلب متى ما قام به تعظيم الحقِّ ـ جلَّ جلاله ـ وحُسْن النظر في الشواهد والتبصُّر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوت مشهودة للقلب قِبْلة له، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ في العبد: (يُدرك الصفات بذلك النور القائم في سرِّه وطيب حياة عقله؛ التي طيبها زرع الفكر الصحيح المُتعلِّق بما دعا الله ـ سبحانه ـ عباده إلى الفكر فيه بقوله: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2]. وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[3]. وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ ﴾[4].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٤٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

(٣) سورة الروم: الآية ٨.

(٤) سورة البقرة: الآيتان ٢١٩ ـ ٢٢٠.

فيتفكرون في الآيات التي بيَّنها لهم؛ فيستدلُّون بها على توحيده وصفات كماله وصدق رسله والعلم بلقائه، ويتفكَّرون في الدنيا وانقضائها واضمحلالها وآفاتها؛ والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها.

وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

فالفكر الصحيح ـ المُؤيَّد بحياة القلب ونور البصيرة ـ : يدلُّ على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وأما فِكْرٌ مصحوبٌ بموت القلب وعمى البصيرة: فإنما يُعطي صاحبه نفيها وتعطيلها)[2].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إنه ينضاف إلى نور البصيرة وطيب حياة العقل: حياة القلب بحسن النظر الدائر بين تعظيم الخالق ـ جلَّ جلاله ـ ؛ وحسن الاعتبار بمصنوعاته الدالَّة عليه، فلا بُدَّ من الأمرين، فإنه إن غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار: لم يحصل له الاستدلال على الصفات، وإن حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق ـ سبحانه ـ : لم يستفد به إثبات الصفات، فإذا اجتمع له تعظيم الخالق وحسن النظر في صنعه: أثمرا له إثبات صفات كماله؛ ولا بُدَّ.

والاعتبار: هو أن يَعْبُر نظره من الأثر إلى المُؤثِّر؛ ومن الصنعة إلى الصانع؛ ومن الدليل إلى المدلول، فينتقل إليه بسرعةِ لطفِ إدراكٍ، فينتقل ذهنُه من الملزوم إلى لازمه، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الروم: الآية ٢١.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٣.

(٣) سورة الحشر: الآية ٢.

والاعتبار: افتعالٌ من العبور، وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمه؛ ومن النظير إلى نظيره، وهذا الاعتبار يضعف ويقوى حتى يستدلَّ صاحبُه بصفات الله تعالى وكماله على ما يفعله؛ لحسن اعتباره وصحة نظره، وهو اعتبار الخواصِّ واستدلالهم، فإنهم يستدلُّون بأسماء الله وصفاته وأفعاله؛ وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا، فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده؛ ولا يفعل ما يُناقض ذلك.

وقد ذكر ـ سبحانه ـ هذين الطريقين في كتابه فقال تعالى في الطريق الأولى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

ثم قال في الطريق الثانية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾[2].

فمخلوقاته دالَّةٌ على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالَّةٌ على ما يفعله ويأمر به؛ وما لا يفعله ولا يأمر به.

مثال ذلك: أن اسمه الحميد ـ سبحانه ـ: يدلُّ على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر، واسمه الحكيم: يدلُّ على أنه لا يخلق شيئاً عبثاً، واسمه الغني: يدلُّ على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، واسمه الملك: يدلُّ على ما يستلزم حقيقة ملكه من قدرته وتدبيره وعطائه ومنعه وثوابه وعقابه؛ وبثِّ رسله في أقطار مملكته؛ وإعلام عبيده بمراسيمه وعهوده إليهم؛ واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد.

فمتى قام بالعبد تعظيم الحقِّ ـ جلَّ جلاله ـ؛ وحُسْن النظر في الشواهد والتبصُّر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه؛

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

قِبْلة له)[1].

فهذه خاصيَّةٌ للقلب المُعظِّم لله ــ عزَّ وجلّ ــ ؛ الذي قام به شاهدٌ من الاعتبار وحسن النظر، فهو يستدل بالأسماء الحسنى والصفات العلى على كمال الله تعالى؛ وعلى كمال ما يفعله، والقلب متى ما ترقَّى إلى هذه الدرجة السَّنيَّة: فقد أصبح ذا بصيرة مُنيرة، كما هو مُقرَّرٌ في:

رابعاً: تقريره أن البصيرة في الأسماء والصفات أن يشهد القلب ما للربِّ ــ تبارك وتعالى ــ من أسماء الجلال وصفات الكمال ونعوت الجمال، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (البصيرة على ثلاث درجاتٍ؛ مَنْ استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرةٌ في الأسماء والصفات، وبصيرةٌ في الأمر والنهي، وبصيرةٌ في الوعد والوعيد.

فالبصيرة في الأسماء والصفات: أن لا يتأثَّر إيمانك بشبهةٍ تُعارض ما وصف الله به نفسه؛ ووصفه به رسوله، بل تكون الشُّبَهُ المعارضةُ لذلك عندك بمنزلة الشُّبَهِ والشكوك في وجود الله، فكلاهما سواءٌ في البلاء عند أهل البصائر.

وعقد هذا: أن يشهد قلبُك الربَّ ــ تبارك وتعالى ــ مستوياً على عرشه؛ متكلماً بأمره ونهيه؛ بصيراً بحركات العالَم ــ علويِّه وسفليِّه ــ وأشخاصه وذواته؛ سميعاً لأصواتهم؛ رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم، وأَمْر الممالك تحت تدبيره؛ نازلٌ من عنده وصاعدٌ إليه، وأملاكه بين يديه؛ تنفذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفاً بصفات الكمال؛ منعوتاً بنعوت الجلال؛ مُنزَّهاً عن العيوب والنقائص والمثال، هو كما وصف نفسه في كتابه؛ وفوق ما يصفه به خلقه.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٣ ــ ٣٧٥.

حيٌّ لا يموت؛ قيُّومٌ لا ينام؛ عليمٌ لا يخفى عليه مثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض؛ بصيرٌ يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء؛ سميعٌ يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، تمَّت كلماته صدقاً وعدلاً؛ وجَلَّت صفاته أن تُقاس بصفات خلقه شَبَهاً ومِثْلاً؛ وتعالت ذاته أن تُشبه شيئاً من الذوات أصلاً؛ ووسعت الخليقةَ أفعالُه عدلاً وحكمة ورحمة وإحساناً وفضلاً، له الخلق والأمر؛ وله النعمة والفضل؛ وله الملك والحمد؛ وله الثناء والمجد، أَوَّلٌ ليس قبله شيءٌ؛ وآخرٌ ليس بعده شيءٌ؛ ظاهرٌ ليس فوقه شيءٌ؛ باطنٌ ليس دونه شيءٌ.

أسماؤه كلُّها أسماء مدحٍ وحمدٍ وثناءٍ وتمجيدٍ؛ ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلُّها صفات كمالٍ؛ ونعوته كلُّها نعوت جلالٍ؛ وأفعاله كلُّها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، كلُّ شيءٍ من مخلوقاته دالٌّ عليه؛ ومرشدٌ لمن رآه بعين البصيرة إليه.

لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً؛ ولا ترك الإنسان سدى عاطلاً، بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته؛ وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته.

تعرَّف إلى عباده بأنواع التعرُّفات؛ وصرف لهم الآيات؛ ونوَّع لهم الدلالات، ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب؛ ومدَّ بينه وبينهم مِن عهده أقوى الأسباب، فأتمَّ عليهم نعمه السابغة؛ وأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة؛ وكتب على نفسه الرحمة؛ وضمَّن الكتاب الذي كتبه: أن رحمته تغلب غضبه.

وتفاوُتُ الناس في هذه البصيرة: بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها؛ والعلم بفساد الشُبَهِ المخالفة لحقائقها، وتجد أضعف الناس

بصيرة: أهل الكلام الباطل المذموم ـ الذي ذمَّه السلف ـ لجهلهم بالنصوص ومعانيها؛ وتمكُّن الشُبَه الباطلة من قلوبهم.

وإذا تأمَّلت حال العامَّة الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم: رأيتهم أتمَّ بصيرة منهم؛ وأقوى إيماناً؛ وأعظم تسليماً للوحي وانقياداً للحقِّ)[1].

فهذه دلالةٌ على ما أُودع في قلب المثبت من البصيرة في أسماء الله وصفاته، وهي أشرف خلعة يخلعها الله على قلبه، والناس متفاوتون في هذه البصيرة أعظم تفاوتٍ، وتفاوتهم فيها بحسب الإيمان بالنصوص الشرعية ومعرفتها؛ وتعظيمها والانقياد لها، وكلما زادت بصيرة القلب بأسماء الله وصفاته: كلما اشتدَّ سيره إلى الله تعالى؛ واتسعت خطوته في ذلك السير، كما هو مُقرَّرٌ في:

خامساً: تقريره أن مطالعة معاني أسماء الله وصفاته تحدو بالقلب في السير إلى الله تعالى، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ في العبد: (إذا سمع خطاب الترغيب والتشويق واللطف والإحسان: لا يفنى به عمَّا يجيء بعده من خطاب التخويف والترهيب والعدل، بل يسمع الخطاب الثاني مُستصحباً لحكم الخطاب الأول؛ ويمزج هذا بهذا، ويسير بهما ومعهما جميعاً؛ عاكفاً بقلبه على المُتكلِّم وصفاته ـ سبحانه ـ ، وهذا سيرٌ في الله، وهو نوعٌ آخر أعلى وأرفع من مُجرَّد المسير إليه، ولا ينقطع بذلك سيره إليه؛ بل يُدرج سيره، فإن سير القلب في معاني أسمائه وصفاته وتوحيده ومعرفته.

ومتى بقيت للقلب في ذلك ملكة واشتدَّ تعلُّقه به: لم تحجبه معانى المسموع وصفات المُتكلِّم بعضها عن بعض، ولكن في الابتداء يَعْسُر عليه ذلك، وفي التوسُّط يهون عليه، ولا انتهاء ههنا ألبتة، والله المستعان.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٣٩ ـ ١٤١.

فهذه كلماتٌ تشير إلى معاني سماع أهل المعرفة والإيمان والأحوال المستقيمة)[1].

فهذا حال القلب في سيره في معاني أسماء الله تعالى وصفاته، فالقلب كلما آوى إلى ركن الله الشديد: كلما بسط الله تعالى عليه من بركاته وفضله ورحمته ورزقه، وفتح له من الفتوح في معرفة أسمائه وصفاته ما لا يدور بالبال؛ ولا يخطر بالخيال، كما هو مُقرَّرٌ في:

سادساً: تقريره أن ما يستره الله تعالى عن العبد ويكشفه له من لذَّة الحياة الطيبة يفتح على القلب من معرفة أسماء الله تعالى وصفاته أموراً عظيمة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الربُّ تعالى يستر عنهم) أي: عن عباده (ما يستره رحمة بهم؛ ولطفاً بضعيفهم، إذ لو دام له حال الكشف لمَحَقَه[2]، بل من رحمة ربِّه أن ردَّه إلى أحكام البشرية ومقتضى الطبيعة.

وأيضاً ليتزايد طلبُه ويقوى شوقُه، فإنه لو دامت له تلك الحال لأَلِفَها واعتادها؛ ولم يقع منه موقع الماء من ذي الغلَّة الصادي؛ ولا موقع الأمن من الخائف؛ ولا موقع الوصال من المهجور، فالربُّ ــ سبحانه ــ واراها عنه ليكمل فرحه ولذته وسروره بها.

وأيضاً فليُعرِّفه ــ سبحانه ــ قدر نعمته بما أعطاه وخلع عليه، فإنه لما ذاق مرارة الفقد: عرف حلاوة الوجود، فإن الأشياء تتبيَّن بأضدادها.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٣٢ ــ ٤٣٣.

(٢) المراد بما يستره الله تعالى عن عباده ويكشفه لهم: ما فسَّره الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ قبل هذا بأنه: دوام الحياة الطيبة ولذتها ونعيمها، والفرح والسرور بالظفر بالمحبوب.

وأيضاً فليُعرِّفه فقره وحاجته وضرورته إلى ربِّه؛ وأنه غير مستغنٍ عن فضله وبِرِّه طرفة عينٍ، وأنه إن انقطع عنه إمداده: فَسَدَ بالكُلِّيَّة.

وأيضاً فليُعرِّفه أن ذلك الفضل والعطاء ليس لسببٍ من العبد؛ وأنه عاجزٌ عن تحصيلها بكسبٍ واختيارٍ، وأنها مجرَّد موهبةٍ وصدقةٍ تصدَّق الله بها عليه؛ لا يبلغها عملُه ولا ينالها سعيُه.

وأيضاً فليُعرِّفه عِزَّه في منعه؛ وبِرَّه في عطائه؛ وكرمه وجوده في عَوْدِه عليه بما حجب عنه، فينفتح على قلبه من معرفة الأسماء والصفات بسبب هذا الاستتار والكشف بعده أمورٌ غريبةٌ عجيبةٌ يعرفها الذائق لها، ويُنكرها من ليس من أهلها.

وأيضاً فإن الطبيعة والنفس لم يموتا ولم يُعْدَما بالكلية، ولولا ذلك لما قام سوق الامتحان والتكليف في هذا العالَم، بل قُهِرَا بسلطان العلم والمعرفة والإيمان والمحبة، والمقهور المغلوب لا بُدَّ أن يتحرَّك أحياناً؛ وإن قَلَّت، ولكن حركة أسيرٍ مقهورٍ؛ بعد أن كانت حركته حركة أميرٍ مُسَلَّطٍ.

فمن تمام إحسان الربِّ إلى عبده وتعريفه قدر نعمته: أن أراه في الأعيان ما كان حاكماً عليه قاهراً له؛ وقد تقاضى ما كان يتقاضاه منه أولاً، فحينئذٍ يستغيث العبدُ بربِّه ووليِّه ومالك أمره كلِّه: «يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»[1]، «يا مُصرِّف

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٢١٠٧) ــ ١٩/ ١٦٠]، والبخاري في أدبه المفرد [باب دعوات النبي ﷺ ــ الحديث رقم (٧٠٤) ــ ص١٤٧]، والترمذي في جامعه [أبواب القدر/ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ــ الحديث رقم (٢١٤٠) ــ ٤/ ١٩]، وابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب دعاء رسول الله ﷺ ــ الحديث رقم (٣٨٣٤) ــ ٤/ ٢٦٥] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ . =

القلوب صرِّف قلبي على طاعتك»[1].

وأيضاً فإنه يُزيل من قلبه آفة الركون إلى نفسه أو عمله أو حاله، كما قيل: (إن ركنتَ إلى العلم أنسيناكَه؛ وإن ركنتَ إلى الحال سلبناكَ إياه؛ وإن ركنتَ إلى المعرفة حجبناها عنكَ؛ وإن ركنتَ إلى قلبكَ أفسدناه عليكَ)[2].

فلا يركن العبد إلى شيءٍ سوى الله ألبتة، ومتى وَجَدَ من قلبه ركوناً إلى غيره: فليعلم أنه قد أُحيل على مُفْلِس؛ بل مُعْدِمٍ، وأنه قد فُتِحَ له البابُ مكراً؛ فليحذر وُلُوجَه، والله المستعان)[3].

فالله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم بمواقع العطاء ومحالِّ المنع، فعطاؤه ومنعه عن حمده وحكمته، لذا فالقلب متى ما فتح الله تعالى له برحمته باب معرفة أسمائه وصفاته؛ والفقه في معانيها؛ والإيمان بحقائقها: فقد فتح له فتحاً مبيناً، وكان من آثار هذا الفتح المبارك: إشراقة شمس ثمراتها في سماء القلب، وأخوف ما يُخاف على القلب أن يُمسك الله تعالى عنه هذا الفتح بسبب ركونه إلى مُفلسٍ مثله؛ وعدم وثوقه برحمة الله تعالى، فإن أمسك العزيز الحكيم ــ سبحانه ــ عنه هذا الفتح فلا مرسل له من بعده، فلا تسأل حينئذٍ عن قلب استبدل ــ بسبب ضعفه وعورته وذنبه وخطيئته ــ العِزَّة بالذلَّة؛ والغنى بالفقر؛ والجبر بالكسر، وتقرير ذلك في:

= وصححه الألباني في [صحيح الأدب المفرد: الحديث رقم (٥٢٦) ــ ص٢٥٣].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء ــ الحديث رقم (٢٦٥٤) ــ ٤/ ٢٠٤٥] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنهما ــ، ولفظه: «اللَّـٰهُمَّ مُصرِّف القلوب».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٩٧ ــ ١٩٩.

سابعاً: تقريره أن القلب إذا أشرقت عليه أنوار أسماء الله تعالى وصفاته: اضمحلَّ عندها كلُّ نورٍ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الله ــ عزَّ وجلّ ــ لا يصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح: إلا ما كان منها نوراً؛ أقربهم إليه وأكرمهم عليه.

وفي المسند من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمةٍ؛ وألقى عليهم من نوره، فمن أصاب من ذلك النور اهتدى؛ ومن أخطأه ضلَّ، فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله تعالى»[1].

وهذا الحديث العظيم: أصلٌ من أصول الإيمان؛ وينفتح به بابٌ عظيمٌ من أبواب سرِّ القدر وحكمته، والله تعالى المُوفِّق.

وهذا النور الذي ألقاه عليهم ــ سبحانه وتعالى ــ : هو الذي أحياهم وهداهم؛ فأصابت الفطرةُ منه حظَّها، ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله: أكمله لهم؛ وأتمَّه بالروح الذي ألقاه على رسله ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ، والنور الذي أوحاه إليهم؛ فأدركته الفطرةُ بذلك النور السابق الذي حصل لها يوم إلقاء النور، فانضاف نورُ الوحي والنبوة إلى نور الفطرة، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[2]، فأشرقت منه القلوب؛ واستنارت به الوجوه؛ وحَيِيَت به الأرواح؛ وأذعنت به الجوارح للطاعات طوعاً واختياراً.

فازدادت به القلوب الصفات العليا؛ الذي يضمحلُّ فيه كلُّ نورٍ سواه؛ فشاهدته ببصائر الإيمان مشاهدةً نسبتُها إلى القلب نسبةَ المرئيات إلى العين،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٦٦٤٤) ــ ١١/ ٢١٩ ــ ٢٢٠]، وكذا أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الإيمان/ باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ــ الحديث رقم (٢٦٤٢) ــ ٤/ ٣٨٢].
وصححه الألباني في [مشكاة المصابيح: الحديث رقم (١٠١) ــ ١/ ٣٧].

(٢) سورة النور: الآية ٣٥.

ذلك لاستيلاء اليقين عليها؛ وانكشاف حقائق الإيمان لها؛ حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن ــ تبارك وتعالى ــ بارزاً؛ وإلى استوائه عليه؛ كما أخبر به ــ سبحانه وتعالى ــ في كتابه؛ وكما أخبر به عنه رسوله ﷺ.

يُدبِّر أمر الممالك؛ ويأمر وينهى؛ ويخلق ويرزق؛ ويُميت ويُحيي؛ ويقضي ويُنفِّذ؛ ويُعزُّ ويُذلُّ؛ ويُقلِّب الليل والنهار؛ ويداول الأيام بين الناس؛ ويُقلِّب الدُوَل فيذهب بدولةٍ ويأتي بأخرى، والرسل من الملائكة ــ عليهم الصلاة والسلام ــ بين صاعدٍ إليه بالأمر ونازلٍ من عنده به، وأوامره ومراسيمه متعاقبةٌ على تعاقب الآيات؛ نافذةٌ بحسب إرادته، فما شاء كما شاء في الوقت الذي يشاء؛ على الوجه الذي يشاء؛ من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ؛ ولا تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ.

وأمره وسلطانه نافذٌ في السماوات وأقطارها؛ وفي الأرض وما عليها وما تحتها؛ وفي البحار والجو؛ وفي سائر أجزاء العالم وذرَّاته، يُقلِّبها ويُصرِّفها؛ ويُحدث فيها ما شاء، وقد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً؛ وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً؛ ووسع كلَّ شيءٍ رحمة وحكمة، ووسع سمعه الأصوات؛ فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه؛ بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها؛ على كثرة حاجاتها، لا يُشغله سمعٌ عن سمعٍ؛ ولا تُغلطه كثرة المسائل؛ ولا يتبرَّم بإلحاح ذوي الحاجات.

وأحاط بصره بجميع المرئيات، فيرى دبيب النملة السوداء؛ على الصخرة الصماء؛ في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة؛ والسرُّ عنده علانية، يعلم السرَّ؛ وأخفى من السرِّ ــ فالسرُّ: ما انطوى عليه ضمير العبد؛ وخطر بقلبه ولم تتحرَّك به شفتاه، وأخفى منه: ما لم يخطر بعد، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا؛ في وقت كذا وكذا ــ .

له الخلق والأمر؛ وله الملك والحمد؛ وله الدنيا والآخرة؛ وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، له الملك كلُّه؛ وله الحمد كلُّه؛ وبيده الخير كلُّه؛ وإليه يرجع الأمر كلُّه، شملت قدرته كلَّ شيءٍ؛ ووسعت رحمته كلَّ شيءٍ؛ وسَعَت نعمته إلى كلِّ حيٍّ، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾[1].

يغفر ذنباً؛ ويُفرِّج هماً؛ ويكشف كرباً؛ ويجبر كسيراً؛ ويُغني فقيراً؛ ويُعلِّم جاهلاً؛ ويهدي ضالاً؛ ويُرشد حيراناً؛ ويُغيث لهفاناً؛ ويفكُّ عانياً؛ ويُشبع جائعاً؛ ويكسو عارياً؛ ويشفي مريضاً؛ ويُعافي مُبتلاً؛ ويقبل تائباً؛ ويجزي مُحسناً؛ وينصر مظلوماً؛ ويقصم جبَّاراً؛ ويقيل عثرة؛ ويستر عورة؛ ويُؤمِّن من روعةٍ؛ ويرفع أقواماً ويضع آخرين.

«لا ينام؛ ولاينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار؛ وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[2].

و «يمينه ملآى؛ لا تغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أُنفق منذ خلق الخلق؛ فإنه لم يغض ما في يمينه»[3].

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام» ــ الحديث رقم (١٧٩) ــ ١/ ١٦١ ــ ١٦٢] من حديث أبـي موسى الأشعري ــ رضي الله عنه ــ ، ولفظه: «إن الله لا ينام».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التفسير/ باب تفسير سورة هود ــ الحديث رقم (٤٦٨٤) ــ ٣/ ١٤٤٠]، ومسلم في صحيحه [كتاب الزكاة/ باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف ــ الحديث رقم (٩٩٣) ــ ٢/ ٦٩٠ ــ ٦٩١]؛ واللفظ له من حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، ولفظه: «يمين الله ملآى لا تغيضها نفقة».

قلوب العباد ونواصيهم بيده؛ وأزمَّة الأمور معقودةٌ بقضائه وقدره، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[1].

يقبض سماواته كلَّها بيده الكريمة؛ والأرض باليد الأخرى؛ ثم يهزُّهنَّ؛ ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، أنا الذي بدأتُ الدنيا ولم تكن شيئاً؛ وأنا الذي أُعيدها كما بدأتُها.

لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره؛ ولا حاجةٌ يُسألها أن يُعطيها، لو أن أهل سماواته وأهل أرضه؛ وأول خلقه وآخرهم؛ وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجلٍ منهم: ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن أول خلقه وآخرهم؛ وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجلٍ منهم: ما نقص ذلك من ملكه شيئاً، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه؛ وإنسهم وجنهم؛ وحيَّهم وميِّتهم؛ ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوه؛ فأعطى كلاً منهم ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقالُ ذرةٍ.

ولو أن أشجار الأرض كلها ــ من حين وُجدت إلى أن تنقضي الدنيا ــ أقلامٌ؛ والبحر وراءه سبعة أبحرٍ تمدُّه من بعده مدادٌ؛ فكُتِبَ بتلك الأقلام وذلك المداد: لفنيت الأقلام ونفد المداد؛ ولم تنفد كلمات الخالق ــ تبارك وتعالى ــ، وكيف تفنى كلماتُه ــ عزَّ وجلّ جلاله ــ وهي لا بداية لها ولا نهاية؛ والمخلوق له بدايةٌ ونهايةٌ، فهو أحقُّ بالفناء والنفاد، وكيف يُفني المخلوقُ غيرَ المخلوقِ؟

هو الأول الذي ليس قبله شيءٌ؛ والآخر الذي ليس بعده شيءٌ؛ والظاهر الذي ليس فوقه شيءٌ؛ والباطن الذي ليس دونه شيءٌ ــ تبارك وتعالى ــ.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٧.

أحقُّ مَن ذُكِرَ؛ وأحقُّ مَن عُبِدَ؛ وأحقُّ مَن حُمِدَ؛ وأولى مَن شُكِرَ؛ وأَنْصَرُ مَن ابْتُغِي؛ وأَرْأَفُ مَن مَلَكَ؛ وأجودُ مَن سُئِلَ؛ وأعفى مَن قَدر؛ وأكرمُ مَن قُصِدَ؛ وأعدلُ مَن انتقم، حلمُه بعد علمِه؛ وعفوُه بعد قدرتِه؛ ومغفرتُه عن عِزَّته؛ ومنعُه عن حكمتِه؛ وموالاتُه عن إحسانه ورحمته.

ما للعباد عليه حقٌّ واجبُ ... كلا ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا ... فبفضله وهو الكريمُ الواسعُ.

وهو الملك لا شريك له؛ والفرد فلا ندَّ له؛ والغنيُّ فلا ظهير له؛ والصمد فلا ولد له ولا صاحبة؛ والعليُّ فلا شبيه له ولا سميَّ له، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1]؛ وكل ملكٍ زائلٌ إلا ملكه؛ وكل ظلٍّ قالصٌ إلا ظلُّه؛ وكل فضلٍ منقطعٌ إلا فضله، لن يُطاع إلا بإذنه ورحمته؛ ولن يُعصى إلا بعلمه وحكمته، يُطاع فيشكر؛ ويُعصى فيتجاوز ويغفر، كلُّ نقمةٍ منه عدلٌ؛ وكلُّ نعمةٍ منه فضلٌ، أقرب شهيدٍ؛ وأدنى حفيظٍ، حال دون النفوس؛ وأخذ بالنواصي؛ وسجَّل الآثار؛ وكتب الآجال، فالقلوب له مفضيةٌ؛ والسرُّ عنده علانيةٌ؛ والغيب عنده شهادةٌ، عطاؤه كلام؛ وعذابه كلام، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[2].

فإذا أشرقت على القلب أنوارُ هذه الصفات: اضمحلَّ عندها كلُّ نورٍ، ووراء هذا ما لا يخطر بالبال؛ ولا تناله عبارةٌ)[3].

فللَّه درُّ ما خطَّه هذا البنان؛ وأفصح عنه هذا اللسان، فما أسحر هذا البيان؟ فكلماته تملك الجنان؛ و (تلج الأسماع بلا استئذان؛ وتحلُّ من

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.
(٢) سورة يس: الآية ٨٢.
(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٨٧ ـ ٩١.

العقول محلَّ الماء الزلال من الصادي الظمآن)[1]، وما أجلَّ هذا التقرير؛ وأجمل هذا التعبير؛ المتضمن لبيان أنوار الإيمان بأسماء الله وصفاته؛ وإشراقتها على قلب المؤمن الصادق.

ولما كانت هذه الأنوار الساطعة؛ والإشراقات اللامعة: موافقة للأنوار المُستجنَّة في العقول السليمة والفطر المستقيمة: ازداد القلب بذلك نوراً إلى نوره، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثامناً: تقريره أن نور الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته في القلب مُوافقٌ لنور العقل والفطرة التي بها يُبصر نور الإيمان، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (قال: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

فأخبر ــ سبحانه ــ عن مَثَل نور الإيمان به وبأسمائه وصفاته وأفعاله؛ وصِدْق رسله في قلوب عباده؛ وموافقة ذلك لنور عقولهم وفطرهم التي أبصروا بها نور الإيمان بهذا المثل المتضمن لأعلى أنواع النور المشهود، وأنه نورٌ على نورٍ: نور الوحي ونور العقل، نور الشرعة ونور الفطرة، نور الأدلة السمعية ونور الأدلة العقلية)[3].

فالقلب الموقن متى ما أبصر حقيقة أسماء الله تعالى وصفاته؛ وطالع معانيها؛ وشاهد مُتعلَّقاتها: فإنه يتقلَّب في أنوارٍ شتى، وهذه الأنوار

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٩٩.

(٢) سورة النور: الآية ٣٥.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٥١ ــ ٨٥٢.

المتـلألأة فـي القلـب إنمـا هـي أنـوار قـربـه مـن ربِّـه ــ تبـارك وتعـالـى ــ ؛ واستغراقه في محبته؛ وأنسه بذكره، وتوهُّج نور القلب وخَبْوَتُه: بحسب ما يبدو له من الشواهد، فمتى ما بدت له الشواهد الإيمانية واستنار بها: استقام سيرُه إلى الله تعالى والدار الآخرة، كما هو مُقرَّرٌ في:

تاسعاً: تقريره أن شاهد النور في القلب هو ثمرة قربه من الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ ومطالعته لأسمائه وصفاته، وعلى حسب الشواهد يكون العمل، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن شَاهِدَ نور جلال الذات في قلب العبد ليس هو نفس نور الذات الذي لا تقوم له السماوات والأرض، فإنه لو ظهر لها: لتَدَكْدَكَتْ؛ ولأصابها ما أصاب الجبل، وكذلك شاهد نور العظمة في القلب: إنما هو نور التعظيم والإجلال؛ لا نور نفس المُعظَّم ذي الجلال والإكرام.

وليس مع القوم إلا الشواهد والأمثلة العلمية والرقائق؛ التي هي ثمرة قرب القلب من الربِّ وأنسه به؛ واستغراقه في محبته وذكره؛ واستيلاء سلطان معرفته عليه، والربُّ ــ تبارك وتعالى ــ وراء ذلك كلِّه؛ مُنزَّهٌ مُقدَّسٌ عن اطلاع البشر على ذاته أو أنوار ذاته أو صفاته أو أنوار صفاته، وإنما هي الشواهد التي تقوم بقلب العبد؛ كما يقوم بقلبه شاهدٌ من الآخرة والجنة والنار؛ وما أعدَّ الله لأهلهما.

وهذا هو الذي وجده عبد الله بن حرام الأنصاري[1] يوم أحدٍ لما قال:

---

(١) وإنما القائل هو: أنس بن النضر؛ عم أنس بن مالك ــ رضي الله عنهما ــ ؛ كما ذكره الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مواضع أخر.
انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢١٣ ــ ٢١٤، زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/١٩٨؛ ٢٠٦.
وأما عبد الله بن حرام الأنصاري ــ رضي الله عنه ــ : فقد جاء عن ابنه جابر =

«واهاً لريح الجنة[1]، إني أجد ـ والله ـ ريحها دون أحد»[2].

ومن هذا قوله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حِلَق الذِّكْر»[3]. ومنه قوله: «ما بين بيتي ومنبري روضةٌ

= ـ رضي الله عنهما ـ قال: «جيء بأبي يوم أحد قد مُثِّل به؛ حتى وُضِعَ بين يدي رسول الله ﷺ؛ وقد سُجِّي ثوباً، فذهبت أُريد أن أكشف عنه؛ فنهاني قومي، ثم ذهبت أكشف عنه؛ فنهاني قومي، فأمر رسول الله ﷺ فرُفع، فسمع صوت صائحةٍ، فقال: من هذه؟ فقالوا: ابنة عمرو؛ أو أخت عمرو، قال: فلم تبكي؟ ـ أو لا تبكي ـ، فما زالت الملائكة تُظلُّه بأجنحتها حتى رُفع»، كما أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الجنائز/ باب (٣٤) ـ الحديث رقم (١٢٩٣) ـ ١/ ٣٨٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام؛ والد جابر رضي الله عنهما ـ الحديث رقم (٢٤٧١) ـ ٤/ ١٩١٧ ـ ١٩١٨]، واللفظ للبخاريِّ.

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢١٣ ـ ٢١٤]: (ريح الجنة نوعان: ريح يُوجد في الدنيا، تشمُّه الأرواح أحياناً؛ ولا تُدركه العبارة. وريح يُدرك بحاسَّة الشمِّ للأبدان، كما يُشمُّ روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة ـ من قربٍ وبعدٍ ـ، وأما في الدنيا: فقد يُدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله. وهذا الذي وجده أنس بن النضر: يجوز أن يكون من هذا القسم، وأن يكون من الأول، والله أعلم).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الجهاد والسير/ باب قول الله عزَّ وجلّ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ ـ الحديث رقم (٢٨٠٥) ـ ٢/ ٨٦٨]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإمارة/ باب ثبوت الجنة للشهيد ـ الحديث رقم (١٩٠٣) ـ ٣/ ١٥١٢]؛ واللفظ له من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٢٥٢٣) ـ ١٩/ ٤٩٨]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٨٢) ـ الحديث رقم (٣٥٠٩) ـ ٥/ ٤٨٧ ـ =

من رياض الجنة»[1].

فهو روضةٌ لأهل العلم والإيمان لِمَا يقوم بقلوبهم من شواهد الجنة؛ حتى كأنها لهم رأي عينٍ، وإذا قعد المنافق هناك لم يكن ذلك المكان في حقِّه روضة من رياض الجنة، ومن هذا قوله ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف»[2].

فالعمل إنما هو على الشواهد، وعلى حسب شاهد العبد يكون عملُه)[3].

ثم أشار ـ رحمه الله تعالى ـ إلى هذه الشواهد الإيمانية؛ التي تُسيِّر القلب إلى ربِّه ـ تبارك وتعالى ـ ؛ وتحثُّ به الخطى، فقال: (ونحنُ نُشيرُ بعون الله وتوفيقه إلى الشواهد إشارة يُعلم بها حقيقة الأمر، فأول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة: أن يقوم به شاهدٌ من الدنيا وحقارتها؛ وقلَّة وفائها؛ وكثرة جفائها؛ وخسَّة شركائها؛ وسرعة انقضائها، ويرى أهلها

= ٤٨٨] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ .
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (١١٥٠) ـ ٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة/ باب فضل ما بين القبر والمنبر ـ الحديث رقم (١١٩٦) ـ ١/ ٣٥٤] من حديث أبـي هريرة ـ رضي الله عنه ـ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الجهاد والسير/ باب الجنة تحت بارقة السيوف ـ الحديث رقم (٢٨١٨) ـ ٢/ ٨٧٢]، ومسلم في صحيحه [كتاب الجهاد والسير/ باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء ـ الحديث رقم (١٧٤٢) ـ ٣/ ١٣٦٢ ـ ١٣٦٣]؛ واللفظ له من حديث عبد الله بن أبـي أوفى ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدوِّ».

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٦٠.

وعشّاقها صرعى حولها قد بدَّعت[1] بهم؛ وعذَّبتهم بأنواع العذاب؛ وأذاقتهم أمرَّ الشراب، أضحكتهم قليلاً وأبكتهم طويلاً، سقتهم كؤوس سُمِّها بعد كؤوس خمرها؛ فسكروا بحبها وماتوا بهجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها: ترحَّل قلبُه عنها؛ وسافر في طلب الدار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهدٌ من الآخرة ودوامها؛ وأنها هي الحيوان حقًّا، فأهلها لا يرتحلون منها ولا يظعنون عنها؛ بل هي دار القرار ومحطُّ الرحال ومنتهى السير، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدُكم أُصبعَه في اليمِّ؛ فلينظر بم ترجع؟»[2].

وقال بعض التابعين: (ما الدنيا في الآخرة إلا أقلَّ من ذرةٍ واحدةٍ في جبال الدنيا)[3].

ثم يقوم بقلبه: شاهدٌ من النار وتوقُّدها واضطرامها؛ وبُعْد قعرها؛ وشدَّة حرِّها؛ وعظيم عذاب أهلها، فيُشاهدهم وقد سيقوا إليها سود

---

(١) قال الأزهري في [تهذيب اللغة ٢/ ٢٤٢]: (قال اللحياني: يقال أبدع فلانٌ بفلان: إذا قطع به وخذله ولم يقم بحاجته؛ ولم يكن عند ظنِّه به).
وانظر: أساس البلاغة للزمخشري ص٣٢، لسان العرب لابن منظور ٨/ ٧، تاج العروس في جواهر القاموس للزبيدي ٢٠/ ٣١١ [مادة: بدع].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ـ الحديث رقم (٢٨٥٨) ـ ٤/ ٢١٩٣] من حديث المستورد بن شداد ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه: «والله؛ ما الدنيا في الآخرة».

(٣) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٩٧]: (قال مطرف بن عبد الله ـ أو غيره ـ: (نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة: أقلُّ من ذرةٍ في جنب جبال الدنيا))، ولم أقف عليه.

الوجوه؛ زرق العيون؛ والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلما انتهوا إليها: فُتحت في وجوههم أبوابُها؛ فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع؛ وقد تقطَّعت قلوبهم حسرة وأسفاً، ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾[1].

فأراهم شاهد الإيمان وهم إليها يُدفعون، وأتى النداء من قبل رب العالمين: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2]. ثم قيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[3].

فيراهم شاهد الإيمان وهم في الحميم على وجوههم يُسحبون؛ وفي النار كالحطب يُسجرون، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ﴾[4]، فبئس اللحاف وبئس الفراش، وإن استغاثوا من شدة العطش: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ﴾[5]. فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم في أجوافهم؛ وصهر ما في بطونهم، شرابُهم الحميم؛ وطعامُهم الزقوم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾[6].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع

---

(١) سورة الكهف: الآية ٥٣.

(٢) سورة الصافات: الآية ٢٤.

(٣) سورة الطور: الآيات ١٤ ــ ١٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٤١.

(٥) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٦) سورة فاطر: الآيتان ٣٦ ــ ٣٧.

الشهوات؛ ولبس ثياب الخوف والحذر؛ وأخصب قلبَه من مطر أجفانه؛ وهان عليه كلُّ مصيبةٍ تُصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بُعْدُه من المعاصي والمخالفات، فيُذيب هذا الشاهدُ من قلبه الفضلات والمواد المهلكة؛ ويُنضجها؛ ثم يُخرجها، فيجد القلب لذَّة العافية وسرورها، فيقوم به بعد ذلك: شاهدٌ من الجنة وما أعدَّ الله لأهلها فيها مما «لا عينٌ رأت؛ ولا أذنٌ سمعت؛ ولا خطر على قلب بشر»(1)؛ فضلاً عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصَّل؛ الكفيل بأعلى أنواع اللذَّة من المطاعم والمشارب والملابس والصور والبهجة والسرور.

فيقوم بقلبه: شاهدُ دارٍ قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها، تربتها: المسك، وحصباؤها: الدرُّ، وبناؤها: لَبِن الذهب والفضة وقصب اللؤلؤ، وشرابها: أحلى من العسل؛ وأطيب رائحة من المسك؛ وأبرد من الكافور؛ وألذَّ من الزنجبيل، ونساؤها: لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس، ولباسهم: الحرير من السندس والإستبرق، وخدمهم: ولدان كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم: دائمة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾(2)، وغذاؤهم: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾(3)، وشرابهم

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في صفة الجنة؛ وأنها مخلوقة ـ الحديث رقم (٣٢٤٤) ـ ٢/ ١٠٠٢] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ؛ واللفظ له، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب أدنى الجنة منزلة فيها ـ الحديث رقم (١٨٩) ـ ١/ ١٧٦] من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين».

(2) سورة الواقعة: الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.

(3) سورة الواقعة: الآية ٢١.

عليه: خمرة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[1]، وخضرتهم: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾[2]، وشاهدهم: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾[3]، فهم ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[4]، وفي تلك الرياض يُحبرون، وفيها ما تشتهي ﴿الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾[5] وهم فيها خالدون.

فإذا انضم إلى هذا الشاهد شاهدُ يوم المزيد؛ والنظر إلى وجه الربِّ ــ جلَّ جلاله ــ ؛ وسماع كلامه منه بلا واسطةٍ، كما قال النبي ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم؛ إذ سطع لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الربُّ تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة؛ سلام عليكم. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[6]. ثم يتوارى عنهم؛ وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»[7].

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله: فهناك يسير القلب إلى ربِّه أسرع من سير الرياح في مهابِّها، فلا يلتفت في طريقه يميناً ولا شمالاً.

هذا وفوق ذلك شاهدٌ آخر؛ تضمحل فيه هذه الشواهد؛ ويغيب به العبد عنها كلها، وهو شاهد جلال الربِّ تعالى وجماله وكماله؛ وعِزِّه وسلطانه؛ وقيوميَّته وعُلوِّه فوق عرشه؛ وتكلُّمه بكتبه وكلمات تكوينه وخطابه لملائكته وأنبيائه، فإذا شاهده: شَاهَدَ بقلبه قيوماً قاهراً فوق عباده؛

---

(١) سورة الصافات: الآية ٤٧.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٢٠.

(٣) سورة الواقعة: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.

(٤) سورة يس: الآية ٥٦.

(٥) سورة الزخرف: الآية ٧١.

(٦) سورة يس: الآية ٥٨.

(٧) تقدم تخريجه.

مستوياً على عرشه؛ منفرداً بتدبير مملكته؛ آمراً ناهياً؛ مُرسلاً رسله ومُنزلاً كتبه؛ يرضى ويغضب؛ ويُثيب ويُعاقب؛ ويُعطي ويمنع؛ ويُعزُّ ويُذلُّ؛ ويُحبُّ ويُبغض؛ ويرحم إذا اسْتُرحم؛ ويغفر إذا اسْتُغفر؛ ويُعطي إذا سُئل؛ ويُجيب إذا دُعي؛ ويُقيل إذا اسْتُقيل، أكبر من كلِّ شيءٍ؛ وأعظم من كلِّ شيءٍ؛ وأعزُّ من كلِّ شيءٍ؛ وأقدر من كلِّ شيءٍ؛ وأعلم من كلِّ شيءٍ؛ وأحكم من كلِّ شيءٍ.

فلو كانت قوى الخلائق كلِّهم على واحدٍ منهم؛ ثم كانوا كلُّهم على تلك القوة؛ ثم نسبت تلك القوى إلى قوته تعالى: لكانت أقلَّ من قوة البعوضة بالنسبة إلى قوة الأسد، ولو قُدِّر جمال الخلق كلِّهم على واحدٍ منهم؛ ثم كانوا كلُّهم بذلك الجمال؛ ثم نُسب إلى جمال الربِّ تعالى لكان: دون سراجٍ ضعيفٍ بالنسبة إلى عين الشمس، ولو كان علم الأولين والآخرين على رجلٍ منهم؛ ثم كان كلُّ الخلق على تلك الصفة؛ ثم نُسِبَ إلى علم الربِّ تعالى؛ لكان ذلك بالنسبة إلى علم الربِّ: كنقرةِ عصفورٍ في بحرٍ، وهكذا سائر صفاته؛ كسمعه وبصره وسائر نعوت كماله.

فإنه يسمع ضجيج الأصوات؛ باختلاف اللغات؛ على تفنن الحاجات، فلا يُشغله سمعٌ عن سمعٍ؛ ولا تُغلطه المسائل؛ ولا يتبرَّم بإلحاح المُلحِّين، سواءٌ عنده ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾[1]، فالسرُّ عنده علانيةٌ؛ والغيب عنده شهادةٌ، يرى دبيب النملة السوداء؛ على الصخرة الصماء؛ في الليلة الظلماء، ويرى نياط عروقها؛ ومجاري القوت في أعضائها[2]، يضع

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٠.

(٢) ومن أبدع وأبرع وأروع ما أُنشد في هذا المعنى: ما قاله الزمخشري في [الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ١/١١٦] ــ عند قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [سورة =

السماوات على أُصبع من أصابع يده؛ والأرض على أُصبع؛ والجبال على أُصبع؛ والشجر على أُصبع؛ والماء على أُصبع، ويقبض سماواته بإحدى يديه؛ والأرضين باليد الأخرى، فالسماوات السبع في كَفِّه كخردلةٍ في كَفِّ العبد، ولو أن الخلق كلَّهم من أولهم إلى آخرهم قاموا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله ــ عزَّ وجلّ ــ ، لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاتُه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

= البقرة: الآية ٢٦] ــ : (أنشدتُ لبعضهم:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليلِ
ويرى عروق نياطها في نحرها ... والمخَّ من تلك العظام النُّحَّلِ
اغفر لعبد تاب من فرطاته ... ما كان منه في الزمان الأول).

ونُسبت إليه هذه الأبيات في: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٥/ ١٧٢ ــ ١٧٣، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي ٣/ ٢٧٠ ــ ٢٧١، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ٤/ ١٢١. وحكاها عنه الأبشيهي في [المستطرف في كل فن مستظرف ٢/ ٢٢٥] مع زيادة، فقال: (قال الزمخشري في تفسير سورة البقرة في ذلك:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليلِ
ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخَّ من تلك العظام النُّحَّلِ
ويرى خرير الدم في أوداجها ... مُتنقِّلا من مفصل في مفصلِ
ويرى وصول غذا الجنين ببطنها ... في ظلمة الأحشا بغير تمقُّلِ
ويرى مكان الوطء من أقدامها ... في سيرها وحثيثها المستعجلِ
ويرى ويسمع حسَّ ما هو دونها ... في قاع بحرٍ مُظلمٍ مُتَهَوِّلِ
امنن عليَّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأوَّلِ).

كما نُسبت هذه الأبيات إلى أبي العلاء بن سليمان المعري؛ كما في: [التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص١٩٣].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: اضمحلَّت فيه الشواهد المتقدِّمة من غير أن تُعْدَم؛ بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد؛ وتندرج فيه الشواهدُ كلُّها، ومَنْ هذا شاهدُه: فله سلوكٌ وسيرٌ خاصٌ ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلةٍ؛ أو معرفةٍ مُجْمَلَةٍ، فصاحب هذا الشاهد: سائرٌ إلى الله في يقظته ومنامه؛ وحركته وسكونه؛ وفطره وصيامه، له شأنٌ وللناس شأنٌ، هو في وادٍ والناس في وادٍ.

خليلــيَّ لا والله مــا أنــا منكمــا إذا علــمٌ مــن آل ليلــى بَــدَا لِيــا[1].

والمقصود: أن العيان والكشف والمشاهدة في هذه الدار إنما تقع على الشواهـد والأمثلة العلميـة، وهو المثـل الأعلى الذي ذكره ــ سبحانه ــ في ثلاثـة مواضع مـن كتابه؛ فـي سورة النحل[2]؛ وسـورة الروم[3]؛ وسـورة الشورى[4]، وهو ما يقوم بقلوب عابديه ومُحبِّيه والمُنيبين إليه من هذا الشاهد، وهو الباعث لهم على العبادة والمحبة والخشية والإنابة، وتفاوتهم فيه لا ينحصر طرفاه، فكلٌّ منهم له مقامٌ معلومٌ لا يتعدَّاه، وأعظم الناس حظاً في ذلك معترفٌ بأنه لا يُحصي ثناء عليه ــ سبحانه ــ ؛ وأنه فوق ما يُثني عليه المثنون؛ وفوق ما يحمده الحامدون، كما قيل:

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في [الفوائد ص٤٧] ولم يعزه لقائلٍ، وذكره قبله ابن الجوزي في [المدهش ص٢١٤]؛ ولم يعزه أيضاً لقائل، ولم أقف عليه.

(٢) قوله تعالى في [الآية ٦٠]: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

(٣) قوله تعالى في [الآية ٢٧]: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

(٤) قوله تعالى في [الآية ١١]: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

وما بلغ المُهدون نحوك مدحة ... وإن أطنبوا إن الذي فيك أعظمُ
لك الحمد كل الحمد لا مبدا له ... ولا منتهى والله بالحمد أعلمُ[(١)].

وطهارة القلب ونزاهته من الأوصاف المذمومة والإرادات السفلية؛ وخُلوُّه وتفريغه من التعلُّق بغير الله ــ سبحانه ــ : هو كرسيُّ هذا الشاهد الذي يجلس عليه؛ ومقعده الذي يتمكن فيه، فحرامٌ على قلب مُتلوِّثٍ بالخبائث والأخلاق الرديئة والصفات الذميمة؛ متعلِّقٍ بالمرادات السافلة أن يقوم به هذا الشاهد؛ وأن يكون من أهله.

نَزِّه فؤادك عن سوانا وائتنا ... فجنابنا حلٌّ لكل مُنَزِّهِ
والصبر طِلْسَمٌ لكنز لقائنا ... مَن حلَّ ذا الطِلْسَم فاز بكنزهِ[(٢)].

إذا طلعت شمس التوحيد؛ وباشرت جوانبُها الأرواحَ؛ ونُورُها البصائرَ: تجلَّت بها ظلمات النفس والطبع؛ وتحرَّكت بها الأرواح في طلب من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[(٣)].

فسافر القلب في بيداء الأمر؛ ونزل منازل العبودية منزلاً منزلاً، فهو ينتقل من عبادةٍ إلى عبادةٍ؛ مُقيمٌ على معبودٍ واحدٍ، فلا تزال شواهد الصفات

---

(١) لم أقف عليهما، ونحوهما: قول الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد ــ رضي الله عنها ــ في [ديوانها ص١٨٦] في مرثيتها لأخيها صخر:
(فما بَلَغَتْ كفُّ امرىء مُتناولٍ ... بها المجدَ إلا حيثُ ما نلتَ أطولُ
ولا بلغ المهدون في القول مدحة ... ولو أطنبوا إلا الذي فيك أفضلُ).
وانظر: ديوان المعاني للعسكري ١/ ٢٩، لسان العرب لابن منظور ٩/ ٣٠٢.

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذين البيتين في مواطن من كتبه ولم يعزهما لقائل، ولم أقف عليه.
انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٧٧، الفوائد ص٣٩؛ ٩٠.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

قائمة بقلبه؛ تُوقظه إذا رقد؛ وتُذكِّره إذا غفل؛ وتحدو به إذا سار؛ وتُقيمه إذا قعد، إن قام بقلبه شاهدٌ من الربوبية والقيومية: رأى أن ﴿ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾[1]، ليس لأحدٍ معه من الأمر شيءٌ، ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾[2]. ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾[3]. ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾[4]. ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ۝٨٩﴾[5].

وإن قام بقلبه شاهدٌ من الإلـٰهية: رأى في ذلك الشاهد الأمر والنهي؛ والنبوات والكتب والشرائع؛ والمحبة والرضى؛ والكراهة والبغض؛ والثواب والعقاب، وشاهد الأمر نازلاً ممن هو مستوٍ على عرشه؛ وأعمال العباد صاعدةٌ إليه ومعروضةٌ عليه، يجزي بالإحسان منها في هذه الدار؛ وفي

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.
(٢) سورة فاطر: الآيتان ٢ ـ ٣.
(٣) سورة يونس: الآية ١٠٧.
(٤) سورة الزمر: الآية ٣٨.
(٥) سورة المؤمنون: الآيات ٨٤ ـ ٨٩.

العقبـى نضرة وسروراً، ويَقْدُمُ إلى ما لم يكن عن أمره وشرعه منها فيجعله هباءً منثوراً.

وإن قام بقلبه شاهدٌ من الرحمة: رأى الوجود كلَّه قائماً بهذه الصفة، قد وَسَعَ من هي صفته كلَّ شيء رحمة وعلماً، وانتهت رحمته إلى حيث انتهى علمه، فاستوى على عرشه برحمته لِتَسَعَ كلَّ شيء؛ كما وَسِعَ عرشُه كلَّ شيء.

وإن قام بقلبه شاهدُ العِزَّة والكبرياء والعظمة والجبروت: فله شأنٌ آخر، وهكذا جميع شواهد الصفات.

فما ذكرناه إنما هو أدنى تنبيهٍ عليها، فالكشف والعيان والمشاهدة لا تتجاوز الشواهد ألبتة)[1].

فهذا تقريرٌ للشواهد الإيمانية التي متى ما خالط القلبَ بشاشتُها؛ واكتحلت بحقيقتها عين بصيرته: استنار بمعرفة الله تعالى؛ ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

المسألة الثانية:

ما يُثمره توحيد الأسماء والصفات في القلب من المعرفة.

إنَّ الله ــ عزَّ وجلّ ــ خلق الإنسان؛ وجعل قلبه محلاً لغرس شجرة المعرفة في سويدائه، وهذه الشجرة الطيبة متى ما رسخ في سماوة القلب أسفلُها؛ وبسق في سمائه أعلاها: أينعت ــ بإذن الله تبارك وتعالى ــ ثمارُها وصنوفُها؛ وذُلِّلت للآكلين أغصانُها وقطوفُها، وإن من تلكم الثمرات التي يجنيها القلب من مطالعته لأسماء الله وصفاته: أن يُعمر بمعرفة الله تعالى؛

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٦٠ ــ ٢٦٧.

حتى يغمره ذكر الله تعالى ومشاهدته بأسماء الجلال وصفات الكمال، ويسقط منه ذكر غير الله تعالى، وبذلك يحصل للقلب الغنى التام، ويمتلىء برجائه وحسن الظنِّ به، فقالبه بين الخليقة والبرية؛ وقلبه قد آوى إلى خالقها وبارئها.

وإيضاح الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه المسألة يتجلّى في الوجوه الآتية الذكر:

أولاً: تقريره أن الله تعالى خلق القلوب؛ وجعلها محلاً لمعرفته ومحبته وإرادته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (خلق الله القلوب وجعلها محلاً لمعرفته ومحبته وإرادته، فهي عرش المثل الأعلى الذي هو معرفته ومحبته وإرادته، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾[3]. فهذا من المثل الأعلى.

وهو مستوٍ على قلب المؤمن؛ فهو عرشه، وإن لم يكن أطهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها من كلِّ دنسٍ وخبثٍ: لم يصلح لاستواء المثل الأعلى عليه ــ معرفة ومحبة وإرادة ــ ، فاستوى عليه مثل الدنيا الأسفل ومحبتها وإرادتها والتعلُّق بها، فضاق وأظلم وبَعُدَ من كماله وفلاحه، حتى تعود القلوب على قلبين:

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

قلب: هو عرش الرحمن؛ ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير.

وقلب: هو عرش الشيطان؛ فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغمُّ والهمُّ، فهو حزينٌ على ما مضى؛ مهمومٌ بما يستقبل؛ مغمومٌ في الحال.

وقد روى الترمذي(١) وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل النورُ القلبَ: انفسح وانشرح. قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»(٢).

---

(١) مراد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بالترمذي: أبا عبد الله الحكيم الترمذي ــ صاحب: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ــ، وقوله موهمٌ، لأن هذا اللفظ ــ أعني: الترمذي ــ لا يتبادر إلى الذهن عند إطلاقه إلا على: أبي عيسى محمد الترمذي ــ صاحب الجامع الكبير ــ، لذا قال الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (٩٦٥) ــ ٢/ ٣٨٧]: (ابن القيم في الفوائد؛ وعزاه للترمذي فجاء بوهم آخر، والعصمة لله وحده).

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول [الأصل السادس والثمانون ــ ١/ ٥٢٨].
وفي نسخة الكتاب الخطيَّة [ج١: ق١١٥/ ب] ــ وقد سقط من نسخة الكتاب المطبوعة ــ ما نصُّه: (ثنا إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي، قال: ثني أبو سهيل بن أنس، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر قال: «يا نبي الله؛ أي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم ذكراً للموت؛ وأحسنهم له استعداداً، وإذا دخل النور في القلب: انفسح واستوسع. قالوا: فما آية ذلك يا نبي الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت». ثنا عبد الجبار، ثنا سفيان، عن خالد بن أبي كريمة، عن أبي جعفر عبد الله بن المسور عن رسول الله ﷺ نحوه) [نسخة خطية مودعة في مكتبة شيخنا=

والنور الذي يدخل القلب: إنما هو آثار المثل الأعلى، فلذلك ينفسح وينشرح، وإذا لم يكن فيه معرفة الله ومحبته: فحظُّه الظلمة والضيق)[1].

= أبي عبد اللطيف حماد بن محمد الأنصاري ـ رحمه الله تعالى ـ].

وللحديث عدة طرقٍ، فمنها ما أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل [باب المبادرة بالعمل ـ الحديث رقم (١٣١) ـ ص٩٩ ـ ١٠٠]، والطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٨/ ٢٧]، والحاكم في مستدركه [كتاب الرقاق/ الحديث رقم (٧٨٦٣) ـ ٤/ ٣٤٦]، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان [باب في الزهد وقصر الأمل ـ الحديث رقم (١٠٠٦٨) ـ ١٩/ ١٤٦ ـ ١٤٧]؛ وفي الزهد الكبير [الحديث رقم (٩٧٤) ـ ص٣٥٦] من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وكذا أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٨/ ٢٧]، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم [رقم (٧٨٧٣) ـ ٤/ ١٣٨٤] من حديث عبد الله بن المسور ـ رضي الله عنه ـ، وكذا أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن [٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨]، وابن أبي شيبة في مصنفه [الحديث رقم (٣٤٣١٤) ـ ٧/ ٧٦ ـ ٧٧]، والطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٨/ ٢٦ ـ ٢٧]، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم [رقم (٧٨٧٢) ـ ٤/ ١٣٨٤]، من حديث رجلٍ يكنى أبا جعفر؛ كان يسكن المدائن.

وقال ابن كثير في [تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٣٦] ـ بعد ذكره لطرق هذا الحديث ـ: (فهذه طرقٌ لهذا الحديث ـ مرسلةٌ ومتصلةٌ ـ؛ يشدُّ بعضها بعضاً، والله أعلم).

وقد تعقَّبه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (٩٦٥) ـ ٢/ ٣٨٧] بقوله: (وجملة القول: أن هذا الحديث ضعيفٌ؛ لا يطمئنُّ القلب لثبوته عن رسول الله ﷺ لشدَّة الضعف الذي في جميع طرقه، وبعضها أشدُّ ضعفاً من بعضٍ، فليس فيها ما ضعفه يسيرٌ يمكن أن ينجبر، خلافاً لما ذهب إليه ابن كثير؛ وإن قلَّده في ذلك جماعةٌ ممن ألفوا في التفسير).

(١) الفوائد ص٣٦.

فالنور الذي ينصبغ به القلب: هو من ثمرات معرفة الله تعالى؛ ومعرفة أسمائه وصفاته، فلذلك ينفسح القلب لذلك النور وينشرح، وهذا النور متى ما توالى على القلب: سقط منه ذكر ما سوى الله تعالى، واستوت معرفة الله تعالى وذكره على القلب؛ وصار عرشاً لها، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثانياً: تقريره أن القلب متى ما توالى عليه العلم بأسماء الله تعالى وصفاته؛ وصَفَت له معرفتها: سقط منه ذكر غير الله تعالى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا عَلِم العبــدُ انـفـرادَ الربِّ ــ سبحانه ــ بالأزل والبقاء والفعل؛ وعَجْز من سواه عن القدرة على إيجاد ذرةٍ أو جزءٍ من ذرةٍ؛ وأنه لا وجود له من نفسه ــ فوجوده ليس له ولا به ولا منه ــ ، وتوالي هذا العلم عن القلب: يُسقط ذكر غيره ــ سبحانه ــ عن البال والذِكْر؛ كما سقط غناه وربوبيته وملكه وقدرته.

فصار الربُّ ــ سبحانه ــ وحده هو المعبود والمشهود والمذكور؛ كما كان وحده هو الخالق المالك الغني الموجود بنفسه أزلاً وأبداً، وأمّا ما سواه فوجوده وتوابع وجوده عارية ليست له.

وكلما فَنِيَ العبدُ عن ذكر غيره وشهوده: صَفَتْ هذه المعرفة في قلبه)[1].

فهذا حال القلب المطمئن بذكر الله تعالى ومطالعة أسمائه وصفاته، قد صفت له معرفته بربِّه ــ تبارك وتعالى ــ ؛ وبانت له معالمها، وهذه المعرفة تحدو بين يديه في سيره نحو العبودية المحضة؛ التي بها يتم غناه بربِّه ومعبوده ــ سبحانه وتعالى ــ ، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثالثاً: تقريره أن القلب يستغني بأسماء الله وصفاته على قَدْر حَظِّه من

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٨٠.

العلم بها؛ وقَسْمه من معرفتها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (جميع ما يبدو للقلوب من صفات الربِّ ــ سبحانه ــ يستغني العبد بها بقدر حَظِّه وقَسْمِه من معرفتها؛ وقيامه بعبوديتها.

فمن شهد مشهد عُلُوِّ الله على خلقه وفوقيَّته لعباده واستوائه على عرشه ــ كما أخبر به أعرفُ الخلق؛ وأعلمُهم به؛ الصادقُ المصدوقُ ــ ؛ وتعبَّد بمقتضى هذه الصفة؛ بحيث يصير لقلبه صَمَدٌ يعرج القلب إليه؛ مناجياً له مُطْرِقاً؛ واقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعر بأن كَلِمَه وعَمَلَه صاعدٌ إليه؛ معروضٌ عليه مع أَوْفَى خاصَّته وأوليائه؛ فيستحي أن يصعد إليه من كَلِمِه ما يُخزيه ويَفضحه هناك، ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلـٰهية إلى أقطار العوالِم كلَّ وقتٍ بأنواع التدبير؛ والمُصرِّف من الإماتة والإِحياء والتَّوْلِية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلُّب الدُّول ومداولة الأيام بين الناس؛ إلى غير ذلك من التصرُّفات في المملكة التي لا يتصرَّف فيها سواه، فمراسمه نافذة فيها كما يشاء، ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾[1]، فمن أعطى هذا المشهد حقَّه ــ معرفة وعبودية ــ : استغنى به.

وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقالُ ذرةٍ في الأرض ولا في السماوات؛ ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال؛ بل أحاط بذلك علمه علماً تفصيلياً؛ ثم تعبَّد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه: علم أن حركاته الظاهرة والباطنة؛ وخواطره وإراداته؛ وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه؛ علانية له؛ بادية لا يخفى عليه منها شيءٌ.

---

(١) سورة السجدة: الآية ٥.

وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه ـ سبحانه ـ لأصوات عباده على اختلافها؛ وجهرها وخفائها؛ سواء عنده ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾[1]؛ لا يشغله جَهْرُ من جَهَرَ عن سمعه لصوت من أسرَّ؛ ولا يشغله سمعٌ عن سمعٍ؛ ولا تُغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها؛ بل هي عنده كلُّها كصوتٍ واحدٍ؛ كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفسٍ واحدةٍ.

وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير ـ جلَّ جلاله ـ ؛ الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في حُنْدُس الظلماء؛ ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها؛ ويرى مدَّ البعوضة جناحها في ظلمة الليل؛ وأعطى هذا المشهد حقَّه من العبودية؛ بحَرْسِ حركاتها وسكناتها؛ وتيقَّن أنها بمرأى منه ـ سبحانه ـ ومشاهدة لا يغيبَ عنه منها شيءٌ.

وكذلك إذا شهد مشهد القيوميَّة ـ الجامع لصفات الأفعال ـ ؛ وأنه قائم على كلِّ شيءٍ؛ وقائم على كلِّ نفسٍ؛ وأنه تعالى هو القائم بنفسه؛ المُقيم لغيره؛ القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره؛ وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه؛ وأنه بكمال قيوميَّته: «لا ينام؛ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويُرفع إليه عمل الليل قبل النهار؛ وعمل النهار قبل الليل»[2]. ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[3]. ولا يضلُّ ولا ينسى.

وهذا المشهد: من أرفع مشاهد العارفين؛ وهو مشهد الربوبية، وأعلى منه: مشهد الإلـٰهية ـ الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء ـ ، وهو:

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٠.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله لا ينام».

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

شهادة أن لا إلـه إلا هو؛ وأن إلهية ما سواه باطلٌ ومحالٌ؛ كما أن ربوبية ما سواه كذلك.

فلا أحد سواه يستحقُّ أن يُؤَلَّه ويُعبد؛ ويُصلى له ويُسجد؛ ويستحق نهاية الحبِّ مع نهاية الذُّلِّ ـ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله ـ ، فهو المطاع وحده على الحقيقة؛ والمألوه وحده؛ وله الحكم وحده، فكلُّ عبوديةٍ لغيره: باطلةٌ وعناءٌ وضلالٌ، وكلُّ محبةٍ لغيره: عذابٌ لصاحبها، وكلُّ غنى لغيره: فقرٌ وضلالٌ، وكلُّ عِزٍّ بغيره: ذلٌّ وصغارٌ، وكلُّ تكثُّرٍ بغيره: قلةٌ وفاقةٌ.

فكما استحال أن يكون للخلق ربٌّ غيره: فكذلك استحال أن يكون لهم إلـه غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات؛ وتوجَّهت نحوه الطلبات، ويستحيل أن يكون معه إلـه آخر، فإن الإلـه على الحقيقة: هو الغنيُّ الصمد؛ ولا حاجة به إلى أحد، وقيام كلُّ شيءٍ به؛ وليس قيامه بغيره.

ومن المحال أن يحصل في الوجود اثنان كذلك، ولو كان في الوجود إلهان: لفسد نظامه أعظم فسادٍ؛ واختلَّ أعظم اختلالٍ، كما يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان؛ كلٌّ منهما مستقلٌّ بالفعل، فإن استقلالهما: يُنافي استقلالهما، واستقلال أحدهما: يمنع ربوبية الآخر.

فتوحيد الربوبية: أعظم دليلٍ على توحيد الإلـهية، ولذلك وقع الاحتجاج به في القرآن أكثر مما وقع بغيره؛ لصحة دلالته وظهورها وقبول العقول والفطر لها؛ ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبية.

وكذلك كان عُبَّاد الأصنام يُقرُّون به؛ ويُنكرون توحيد الإلـهية، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[1]. مع اعترافهم بأن الله وحده هو الخالق لهم؛ وللسماوات والأرض وما بينهما؛ وأنه المنفرد بملك ذلك كلِّه،

---

(١) سورة ص: الآية ٥.

فأرسل الله تعالى يُذكِّرهم بما في فطرهم الإقرار به من توحيده وحده لا شريك له؛ وأنهم لو رجعوا إلى فطرهم وعقولهم لدلَّتهم على امتناع إلـٰه آخر معه واستحالته وبطلانه.

فمشهد الألوهية: هو مشهد الحنفاء، وهو مشهدٌ جامعٌ للأسماء والصفات، وحظُّ العباد منه بحسب حظِّهم من معرفة الأسماء والصفات، ولذلك كان الاسم الدالُّ على هذا المعنى: هو اسم (الله) ــ جلَّ جلاله ــ، فإن هذا الاسم: هو الجامع، ولهذا تُضاف الأسماء الحسنى كلُّها إليه، فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفَّار القهَّار: من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1].

فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلُّها، وكلُّ مشهدٍ سواه: فإنما هو مشهدٌ لصفة من صفاته، فمن اتَّسَعَ قلبُه لمشهد الإلـٰهية؛ وقام بحقِّه من التعبُّد ــ الذي هو كمال الحبِّ بكمال الذُّلِّ والتعظيم ــ والقيام بوظائف العبودية: فقد تمَّ له غناه بالإلـٰه الحقِّ؛ وصار من أغنى العباد، ولسان حال مثل هذا يقول:

غنيت بلا مالٍ عن الناس كلِّهم ... وإن الغنى العالي عن الشيء لا به[2].

فيا له من غنى ما أعظم خطره وأجلَّ قدره، تضاءلت دونه الممالك فما دونها، وصارت بالنسبة إليه كالظلِّ من الحامل له؛ والطَّيف الموافي في المنام الذي يأتي به حديث النفس؛ ويطرده الانتباه من النوم)[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في مواطن من كتبه ولم يعزه لقائل، ولم أقف عليه.
انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٨٨، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤١٩.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٥ ــ ٨٨.

فهذا بعض ما تُثمره معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته من غنى القلب بمعبوده الحقِّ؛ الذي لا يعدله غنى، والقلب كلما امتلأت أرجاؤه بالله تعالى وبأسمائه وصفاته ــ علماً ومعرفة ــ ؛ وأشرقت في جنباته أنوار الغنى: كلَّما عظم رجاؤه بربِّه ــ تبارك وتعالى ــ ؛ وازداد حسن ظنِّه به، كما هو مُقرَّرٌ في:

رابعاً: تقريره أن القلب الممتلىء بأسماء الله تعالى وصفاته ــ علماً ومعرفة ــ يضع الرجاء بالله تعالى وحسن الظنِّ به في محلِّه اللائق به، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (حسن الظنِّ: إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك: فلا يتأتَّى إحسان الظنِّ.

فإن قيل: بل يتأتَّى ذلك؛ ويكون مستند حسن الظنِّ: سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده؛ وأن رحمته سبقت غضبه؛ وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضرُّه العفو.

قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجلُّ وأكرم؛ وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محلِّه اللائق به، فإنه ــ سبحانه ــ موصوفٌ بالحكمة والعِزَّة والانتقام وشِدَّة البطش؛ وعقوبة من يستحقُّ العقوبة، فلو كان مُعَوَّل حسن الظنِّ على مجرَّد صفاته وأسمائه: لاشترك في ذلك البرُّ والفاجر؛ والمؤمن والكافر؛ ووليُّه وعدوُّه.

فما ينفع المجرمَ أسماؤُه وصفاتُه وقد باء بسخطه وغضبه؛ وتَعَرَّض لِلَعْنَتِه؛ وأوقع في محارمه؛ وانتهك حرماته؟ بل حسن الظنِّ ينفع من تاب وندم وأقلع، وبَدَّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقيَّة عُمُره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظنَّ، فهذا حُسْنُ ظنٍّ، والأول غرورٌ، والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل؛ فان الحاجة إليه شديدةٌ لكلِّ أحدٍ، فَفَرْق بين

حُسْن الظنِّ بالله؛ وبين الغِرَّة به، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾(١).

فجعل هؤلاء: أهل الرجاء؛ لا الظالمين والفاسقين. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾(٢).

فأخبر ــ سبحانه ــ أنه بعد هذه الأشياء: غفورٌ رحيمٌ لمن فعلها، فالعالِم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغترُّ يضعه في غير مواضعه)(٣).

فالقلب الذي استنار بالعلم بالله تعالى وبمعرفة أسمائه وصفاته: يضع الرجاء بالله تعالى مواضعه، ويُنزل حسن الظنِّ منزلته اللائقة بها، فلا تسأل عن هذا القلب وقد انصبغ ظاهره بالمعرفة والغنى؛ وعمر باطنه بالرجاء وحسن الظن بربِّه ــ تبارك وتعالى ــ، فهو قلبٌ سليمٌ؛ سالمٌ من أهواء الشبهات وأدواء الشهوات، كما هو مُقرَّرٌ في:

خامساً: تقريره أن القلب السليم هو من سلم من شبهةٍ أو شهوةٍ أو إرادةٍ تُعارض الإيمان بما أخبر الله تعالى به عن نفسه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (اعلم أن التسليم: هو الخلاص من شبهةٍ تُعارض الخبر؛ أو شهوةٍ تُعارض الأمر؛ أو إرادةٍ تُعارض الإخلاص؛ أو اعتراضٍ يُعارض القدر والشرع.

وصاحب هذا التخلُّص: هو صاحب القلب السليم ــ الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به ــ، فإن التسليم: ضدُّ المنازعة، والمنازعة

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٨.

(٢) سورة النحل: الآية ١١٠.

(٣) الداء والدواء ص٣٦ ــ ٣٧.

إما بشبهةٍ فاسدةٍ تُعارض الإيمان بالخبر عما وصف الله به نفسه من صفاته وأفعاله؛ وما أخبر به عن اليوم الآخر وغير ذلك؛ فالتسليم له: ترك منازعته بشبهات المتكلمين الباطلة.

وإما بشهوةٍ تُعارض أمر الله ـ عزَّ وجلّ ـ ؛ فالتسليم للأمر بالتخلُّص منها، أو إرادةٍ تُعارض مراد الله من عبده؛ فتعارضه إرادةٌ تتعلَّق بمراد العبد من الربِّ؛ فالتسليم بالتخلُّص منها.

أو اعتراضٍ يُعارض حكمته في خلقه وأمره؛ بأن يظنَّ أن مقتضى الحكمة خلافُ ما شرع وخلافُ ما قضى وقدَّر، فالتسليم: التخلُّص من هذه المنازعات كلِّها.

وبهذا يتبين أنه من أجلِّ مقامات الإيمان؛ وأعلى طرق الخاصة، وأن التسليم: هو محض الصديقيَّة ـ التي هي بعد درجة النبوة ـ ، وأن أكمل الناس تسليماً: أكملهم صديقيَّة)[1].

فسلامة القلب لا تتحقق إلا بالاستسلام ـ الذي هو محض الصديقية ـ لخبر الله تعالى وخبر رسوله ﷺ في وصف ما لله تعالى من أسماء الجلال وصفات الكمال.

فلو رأيتَ هذا الصدِّيقَ ـ صاحبَ القلب السليم ـ ؛ وقد اجتمعت هِمَّته على عبودية ربِّه ـ تبارك وتعالى ـ ؛ ومطالعة أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ والأُنس بها، قد شغلت محبته ـ سبحانه ـ كلَّ جزءٍ من أجزائه، فبينما القلب مستوياً على عرش مملكته؛ وجنده وخدمه ورعيته من حوله: إذ هبَّ من بينهم مسرعاً إلى مناجاة ربِّه ومعبوده؛ وخلَّفهم وراءه ظهرياً؛ رجاء أن يُرفع إلى ربِّه مكاناً علياً، ولسان حاله يقول ـ وهو يأوي إلى مولاه

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٥٣ ـ ١٥٤.

وحبيبه ـ : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴿٨٤﴾﴾[1]، كما هو مُقرَّرٌ في:

سادساً: تقريره أن القلب إذا انصبغ بمعرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته: بات جسمُه في فراشه يتجافى عن مضجعه؛ وقلبُه قد آوى إلى مولاه وحبيبه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ في السابقين المُقرَّبين: (إذا وَضَع أحدُهم جَنْبَه على مضجعه: صعدت أنفاسُه إلى إلهه ومولاه؛ واجتمع همُّه عليه؛ مُتذكِّراً صفاته العلى وأسماءه الحسنى؛ ومشاهداً له في أسمائه وصفاته، قد تجلَّت على قلبه أنوارُها؛ فانصبغ قلبُه بمعرفته ومحبَّته، فبات جسمُه في فراشه يتجافى عن مضجعه؛ وقلبُه قد آوى إلى مولاه وحبيبه، فآواه إليه وأسجده بين يديه؛ خاضعاً خاشعاً ذليلاً منكسراً من كلِّ جهةٍ من جهاته، فيا لها سجدةً ما أشرفها من سجدةٍ؛ لا يرفع رأسَه منها إلى يوم اللقاء.

وقيل لبعض العارفين[2]: (أيسجد القلبُ بين يدي ربِّه؟ قال: إي والله؛ بسجدة لا يرفع رأسَه منها إلى يوم القيامة).

فشتَّان بين قلبٍ يبيت عند ربِّه؛ قد قطع في سفره إليه بيداء الأكوان؛ وخرق حجب الطبيعة؛ ولم يقف عند رسمٍ ولا سَكَنَ إلى علمٍ؛ حتى دخل على ربِّه في داره، فشاهد عِزَّ سلطانه وعظمة جلاله؛ وعُلُوَّ شأنه وبهاء كماله؛ وهو مستوٍ على عرشه، يُدبِّر أمر عباده؛ وتصعد إليه شؤون العباد؛ وتُعرض عليه حوائجُهم وأعمالُهم؛ فيأمر فيها بما يشاء؛ فينزل الأمر من عنده نافذاً.

---

(١) سورة طه: الآية ٨٤.

(٢) هو: سهل بن عبد الله التستري؛ كما نسبه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في سؤال عما تجب له الطهارتان: الغسل والوضوء؛ وجوابه ٢١/٢٨٧؛ وسجود القرآن ٢٣/١٣٨ [رسالتان مودعتان ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

فيشاهدُ المَلِكَ الحقَ قيُّوماً بنفسه؛ مُقيماً لكلِّ ما سواه؛ غنياً عن كلِّ من سواه؛ وكلُّ من سواه فقير إليه. ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾[1]. يغفر ذنباً؛ ويُفرِّج كرباً؛ ويفكُّ عانياً؛ وينصر ضعيفاً؛ ويجبر كسيراً؛ ويُغني فقيراً، ويُميت ويُحيي؛ ويُسعد ويُشقي؛ ويُضلُّ ويهدي، ويُنعم على قومٍ ويسلب نعمته عن آخرين؛ ويُعزُّ أقواماً ويُذلُّ آخرين؛ ويرفع أقواماً ويضع آخرين.

ويشهده كما أخبر عنه أعلمُ الخلق به؛ وأصدقُهم في خبره حيث يقول في الحديث الصحيح: «يمين الله ملآى لا يغيضها نفقة؛ سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أُنفق منذ خلق الخلق؛ فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى الميزان؛ يخفض ويرفع»[2].

فيشاهده كذلك يقسم الأرزاق؛ ويُجزل العطايا؛ ويمنُّ بفضله على من يشاء من عباده بيمينه؛ وباليد الأخرى الميزان يخفض به من يشاء ويرفع به من يشاء ـ عدلاً منه وحكمة ـ، لا إلـه إلا هو العزيز الحكيم.

فيشهده وحده القيُّوم بأمر السماوات والأرض ومن فيهن؛ ليس له بوَّابٌ فيُستأذن؛ ولا حاجبٌ فيُدخل عليه؛ ولا وزيرٌ فيُؤتى؛ ولا ظهيرٌ فيُستعان به؛ ولا وليٌ من دونه فيشفع به إليه؛ ولا نائبٌ عنه فيُعرِّفه حوائج عباده؛ ولا معينٌ له فيعاونه على قضائها، أحاط ـ سبحانه ـ بها علماً؛ ووسعها قدرة ورحمة، فلا تزيده كثرة الحاجات إلا جوداً وكرماً، ولا يُشغله منها شأنٌ عن شأنٍ، ولا تُغلطه كثرة المسائل؛ ولا يتبرَّم بإلحاح المُلحِّين، لو اجتمع أول خلقه وآخرهم؛ وإنسهم وجنهم؛ وقاموا في صعيدٍ واحدٍ؛ ثم سألوه؛

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

(٢) تقدم تخريجه.

فأعطى كلاً منهم مسألته: ما نقص ذلك مما عنده ذرةٌ واحدةٌ؛ إلا كما يُنقص المخيطُ البحرَ إذا غُمِسَ فيه، ولو أنَّ أولهم وآخرهم؛ وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منهم: ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ذلك بأنه الغنيُّ الجواد الماجد، فعطاؤه كلام؛ وعذابه كلام، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[1].

ويشهده كما أخبر عنه أيضاً الصادقُ المصدوقُ حيث يقول: «إن الله لا ينام؛ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار؛ وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابُه النور؛ لو كشفه لأحرقت سُبحاتُ وجهه ما أدركه بصره من خلقه»[2].

وبالجملة: فيشهده في كلامه، فقد تجلَّى ــ سبحانه وتعالى ــ لعباده في كلامه؛ وتراءى لهم فيه؛ وتعرَّف إليهم فيه، فبُعْداً وتبَّاً للجاحدين والظالمين، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[3]. لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

فإذا صارت صفاتُ ربِّه وأسماؤُه مشهداً لقلبه: أَنْسَتْهُ ذكر غيره؛ وشغلته عن حبِّ من سواه، وحدَّث دواعي قلبه إلى حبِّه تعالى بكلِّ جزءٍ من أجزاء قلبه وروحه وجسمه، فحينئذ يكون الربُّ ــ سبحانه ــ سمعَه الذي يسمع به؛ وبصرَه الذي يُبصر به؛ ويدَه التي يبطش بها؛ ورجلَه التي يمشي بها، فبه يسمع؛ وبه يُبصر؛ وبه يبطش؛ وبه يمشي، كما أخبر عن نفسه على لسان رسوله[4].

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ١٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الرقاق/ باب التواضع ــ الحديث =

والمعرفةُ تُثمر: الخُلُقَ، والفكرُ يُثمر: العزيمةَ، والمراقبةُ تُثمر: عمارةَ الوقت وحفظَ الأيام والحياءَ والخشيةَ والإنابةَ، وإماتةُ النفس وإذلالُها وكسرُها يُوجب: حياةَ القلب وعِزَّه وجبره، ومعرفةُ النفس ومقتُها يُوجب: الحياءَ من الله ــ عزَّ وجلّ ــ واستكثارَ ما منه؛ واستقلالَ ما منك من الطاعات؛ ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان، وصحةُ البصيرة تُثمر: اليقينَ، وحسنُ التأمُّل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يُثمر: صحةَ البصيرة.

وملاك ذلك كلِّه أمران: أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا؛ فتُسكنه في وطن الآخرة، ثم تُقبل به كلَّه على معاني القرآن واستجلائها وتدبُّرها؛ وفهم ما يُراد منه وما نزل لأجله؛ وأخذ نصيبك وحظِّك من كلِّ آيةٍ من آياته؛ تُنزلها على داء قلبك.

فهذه طريقٌ مُختصرةٌ قريبةٌ سهلةٌ؛ موصلةٌ إلى الرفيق الأعلى؛ آمنةٌ لا يَلحق سالكها خوفٌ ولا عطبٌ ولا جوعٌ ولا عطشٌ؛ ولا فيها آفةٌ من آفات سائر الطريق ألبتة؛ وعليها من الله حارسٌ وحافظٌ يكلأ السالكين فيها؛ ويحميهم ويدفع عنهم، ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطَّاعها، والله المستعان)[1].

رابعاً: تقريره أن العبد متى ما صدق في معاملته لربِّه تعالى بمقتضى أسمائه وصفاته فإنه يظفر بمعرفة الله تعالى وبمعرفة نفسه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن التائب الصادق في توبته إذا تاب إليه وجده: غفوراً رحيماً، والمتوكِّل إذا صدق في التوكُّل عليه وجده: حسيباً كافياً، والداعي إذا صدق في الرغبة إليه وجده: قريباً مُجيباً، والمحبُّ إذا صدق في

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٩.

محبته وجده: ودوداً حبيباً، والملهوف إذا صدق في الاستغاثة به وجده: كاشفاً للكَرْب؛ مُخلِّصاً منه، والمضطر إذا صدق في الاضطرار إليه وجده: رحيماً مغيثاً، والخائف إذا صدق في اللجأ إليه وجده: مُؤمِّناً من الخوف، والراجي إذا صدق في الرجاء وجده: عند ظنِّه به.

فمحبُّه وطالبه ومريده ـ الذي لا يبغي به بدلاً؛ ولا يرضى بسواه عوضاً ـ إذا صدق في محبته وإرادته وجده أيضاً: وجوداً أخصَّ من تلك الموجودات، فإنه إذا كان المريد منه يجده؛ فكيف بمريده ومُحبِّه؟

فيظفر هذا الواجد بنفسه وبربِّه، أما ظفره بنفسه: فتصير مُنقادة له؛ مُطيعة له تابعة لمرضاته، غير آبيةٍ ولا أمَّارةٍ؛ بل تصير خادمة له مملوكة بعد أن كانت مخدومة مالكة.

وأما ظفره بربِّه: فقربه منه؛ وأُنْسُه به وعمارة سرِّه به، وفرحه وسروره به أعظم فرحٍ وسرورٍ، فهذا حقيقة اتصال الوجود، والله المستعان)[1].

خامساً: تقريره أنه بحسب استعداد العبد وقوة بصيرته وكمال معرفته بالله وأسمائه وصفاته يكون حظ نفسه من مطالعة ما يختصُّ بحكمة الله المحيطة بالخلق، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (أولياؤه المتقون إذا شاهدوا أحوال أعدائه؛ ومقته لهم وغضبه عليهم وخذلانه لهم: ازدادوا خضوعاً وذلاً وافتقاراً وانكساراً؛ وبه استعانة؛ وإليه إنابة وعليه توكُّلاً؛ وفيه رغبة ومنه رهبة، وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يُعيذهم من بأسه إلا هو؛ ولا يُنجيهم من سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولاً وآخراً.

وهذه قطرةٌ من بحر حكمته المحيطة بخلقه، والبصير يُطالع ببصيرته ما وراءه؛ فيُطلعه على عجائب من حكمته لا تبلغها العبارة؛ ولا تنالها الصفة.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٣٩.

وأما حظُّ العبد في نفسه وما يخصُّه من شهود هذه الحكمة: فبحسب استعداده وقوة بصيرته؛ وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته؛ ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكلُّ مؤمنٍ له من ذلك شِرْبٌ معلومٌ؛ ومقامٌ لا يتعدَّاه ولا يتخطَّاه، والله المُوفِّق والمُعين)[1].

سادساً: تقريره أن استغراق العبد في مُطالعة شواهد أسماء الله وصفاته يُخلِّص نفسه من همم المخلوقين المتعلقة بالأدنى؛ ويُصيِّر لها همة عالية مُتعلقة بمعرفة ربِّه تعالى؛ والأنس به، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (استغراق شواهد الأسماء والصفات في الذات الجامعة لها، فإن الذات جامعةٌ لأسمائها وصفاتها، فإذا استغرق العبد في حضرة الجمع: غابت الشواهد في تلك الحضرة.

وأكمل من ذلك: أن يشهد كثرةً في وحدةٍ؛ ووحدةً في كثرةٍ، بمعنى: أن يشهد كثرة الأسماء والصفات في الذات الواحدة؛ ووحدة الذات مع كثرة أسمائها وصفاتها)[2].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (نظر بالله لا بنفسه، واستمدَّ من فضله وتوفيقه؛ لا من معرفته وتحقيقه، فشاهد سبق الله ــ سبحانه وتعالى ــ لكلِّ شيءٍ؛ وأوليته قبل كلِّ شيءٍ.

فتخلَّص من همم المخلوقين المتعلِّقة بالأدنى؛ وصارت له هِمةٌ عاليةٌ مُتعلِّقةٌ بربِّه الأعلى تسرح في رياض الأنس به ومعرفته؛ ثم تأوي إلى مقاماتها تحت عرشه؛ ساجدة له خاضعة لعظمته مُتذللة لعِزَّته، لا تبغي عنه حولاً؛ ولا تروم به بدلاً)[3].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٤٢.
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢١٩.
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢١٩.

فهذه بعض آثار توحيد أسماء الله تعالى وصفاته على النفس؛ وما تشرف به من كمال معرفتها بربِّها ــ جلَّ جلاله ــ ؛ ومعرفتها بأسماء جلاله وصفات كماله ونعوت جماله، وهذه الآثار الحميدة متى ما شاهدت النفس لوائحها السنيَّة؛ وأبصرت لوامعها البهيَّة: فإنها تسرح في ميادين الأنس وروضاتها؛ وتتنعَّم في جنات المعرفة وغرفاتها.

المسألة الثانية:

آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس في تدرُّجها في منازل العبودية.

إنَّ النفس البشرية متى ما غُرست شجرة المعرفة في باطنها: فإنه سرعان ما تُؤتي أُكُلَها من ثمار العبودية والحنيفية لربِّها ومولاها ــ سبحانه وتعالى ــ ، ولا تزال النفس يأتيها من روح آثار أسماء الله تعالى وصفاته وريحانها حتى ترسخ في مقام العبودية قدمُها؛ وتشمخ في سمائها هامتُها، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ مسألة آثار توحيد الأسماء والصفات على النفس؛ وما يصحبها من تدرُّجٍ في منازل العبودية من أوجهٍ متعددةٍ؛ منها ما يأتي:

أولاً: تقريره أن علم العبد بأسماء الله وصفاته يُرسِّخ النفس في درجة العلم؛ ويُرقِّيها إلى أعلى مراتب العبودية، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (القرآن مملوءٌ بذكر سخطه وغضبه على أعدائه، وذلك صفةٌ قائمةٌ به؛ ويترتَّب عليها العذاب واللعنة؛ لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة؛ بل هما أثر السخط والغضب وموجبهما؛ ولهذا يُفرِّق بينهما، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك؛ والدعوة إليه والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره؛ وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له والتوكُّل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء له وإخلاص الدين له؛ والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره؛ والرِّضى به وعنه؛ والموالاة فيه والمعاداة فيه؛ والذُّلِّ له والخضوع والإخبات إليه والطمأنينة به؛ وغير ذلك من أعمال القلوب؛ التي فَرْضُها أَفْرَضُ من أعمال الجوارح، ومستحبُّها أحبُّ إلى الله من مستحبِّها، وعمل الجوارح بدونها: إما عديمُ المنفعة؛ أو قليلُ المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد؛ ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات؛ ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق؛ ونحو ذلك.

فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[(١)]: التزامٌ لأحكام هذه الأربعة وإقرارٌ بها، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾[(٢)]: طلبٌ للإعانة عليها والتوفيق لها، و ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾[(٣)]: متضمنٌ للتعريف بالأمرين على التفصيل؛ وإلهام القيام بهما؛ وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما)[(٤)].

فأساس قواعد العبودية: هو قول القلب؛ وهو اعتقاد ما لله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وما قول اللسان وعمل القلب والجوارح إلا ترجمة لما نطق به القلب واعتقده؛ مما هو ثابتٌ ومودعٌ في العقول السليمة والفطر المستقيمة، وهو الموجب لعبادة الله تعالى بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ وسؤاله بها؛ وطمأنينته بذكرها؛ والأنس بحبِّها، كما هو مُقرَّرٌ في:

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ٥.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٦.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١١٣ ـ ١١٤.

ثانياً: تقريره أن قيام شواهد توحيد الأسماء والصفات في القلب يبعثه على تحقيق مراتب العبودية من المحبة والخوف والرجاء والتوكُّل والإنابة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (المثل الأعلى: هو الذي آمن به المؤمنون؛ وأنس به العارفون، وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المُكمَّلة بالكتب الإلـٰهية المُقبولة بالبراهين العقلية، فاتفق على الشهادة بثبوته العقل والسمع والفطرة.

فإذا قال المثبتُ: يا الله: قام بقلبه ربًّا قيوماً قائماً بنفسه، مستوياً على عرشه، مُكلِّماً مُتكلِّماً، سامعاً رائياً، قديراً مريداً، فعّالاً لما يشاء، يسمع دعاء الداعين، ويقضي حوائج السائلين، ويُفرِّج عن المكروبين، تُرضيه الطاعات؛ وتُغضبه المعاصي، تعرج الملائكة بالأمر إليه؛ وتنزل بالأمر من عنده)[1].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المُصدِّقين العارفين به ــ سبحانه ــ من المثل الأعلى، فعرفوه به، وعبدوه به، وسألوه به، فأحبوه وخافوه ورجوه، وتوكَّلوا عليه وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره، وأَنِسُوا بحبه؛ بواسطة هذا التعريف)[2].

فالقلب كلَّما أدام النظر في مقتضى أسماء الله تعالى وصفاته؛ وحسنت مطالعتُه لها: ترقَّى في منازل العبادة العليَّة؛ وصعد إلى درجاتها السَّنِيَّة، وإن من أجلِّ منازل عبودية القلب: محبة الله الصادقة؛ الموجبة لتقديم محبته على محبة كلِّ من سواه، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثالثاً: تقريره أن إدامة النظر إلى مظاهر أسماء الله تعالى وصفاته يدعو

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٩ ــ ٤٣٠.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٣١ ــ ٤٣٢.

القلب إلى محبة الله تعالى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة؛ وفي آياته المسموعة، وكلٌّ منهما داعٍ قوي إلى محبته ــ سبحانه ــ ، لأنها أدلَّةٌ على صفات كماله ونعوت جلاله؛ وتوحيد ربوبيته وإلـٰهيته؛ وعلى حكمته وبِرِّه وإحسانه ولطفه وجوده وكرمه؛ وسعة رحمته وسبوغ نعمته.

فإدامة النظر فيها داعٍ لا محالة إلى محبته؛ وكذلك الارتياض بالمقامات، فإن من كانت له رياضة وملكة في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان: كانت محبته أقوى، لأن محبة الله له أتمُّ، وإذا أحبَّ الله عبداً: أنشأ في قلبه محبته)[1].

فتعبُّد القلب لله تعالى بعبودية المحبة: هي أعظم المنازل وأجلُّها، وهذه العبودية متى ما قامت في القلب: فإنها توجب له المهابة من الله تعالى؛ والثناء عليه بآلائه وأسمائه وأوصافه، كما هو مُقرَّرٌ في:

رابعاً: تقريره أن مناجاة الله تعالى؛ والثناء عليه بآلائه وأسمائه وصفاته توجب للقلب الهيبة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن أكثر ما تكون الهيبة: أوقات المناجاة، وهو وقتُ تملُّقِ العبد لربِّه؛ وتضرُّعه بين يديه واستعطافه؛ والثناء عليه بآلائه وأسمائه وأوصافه؛ أو مناجاته بكلامه.

هذا هو مراد القوم بالمناجاة، وهذه المناجاة تُوجب كشف الغطاء بين القلب وبين الربِّ؛ ورفع الحجاب المانع من مكافحة القلب لأنوار أسمائه وصفاته وتجلِّيها عليه، فتُعارضه الهيبة في خلال هذه الأوقات؛ فيفيض من عنان مناجاته بحسب قوة وَارِدِها)[2].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٠.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٥٥٣ ــ ٥٥٤.

فالهيبة التي تستولي على القلب: هي من أثر مطالعته لأسماء الله تعالى وصفاته، وهذه المطالعة إذا اقترن بها التدبُّر لمعاني أسماء الله تعالى وصفاته؛ والتعبُّد بمقتضاها: فإنها تُقوِّي القلبَ؛ وتُورثه الحياءَ من الله تعالى، كما هو مُقرَّرٌ في:

خامساً: تقريره أن مشاهدة القلب لمعاني أسماء الله وصفاته تُثمر له الحياء من الله تعالى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (أما الحياء: فيبعث عليه قوة المعرفة؛ ومشاهدة معاني الأسماء والصفات)[1].

وهذا الحياء من الله تعالى متى ما قويت جذور شجرته في قلب العبد المؤمن: فإنها تُثمر له مراقبة الله تعالى في السرِّ والعلن، كما هو مُقرَّرٌ في:

سادساً: تقريره أن المراقبة هي ثمرة علم القلب بأن الله ــ سبحانه ــ رقيبٌ عليه؛ ناظرٌ إليه؛ سامعٌ لقوله؛ مطلعٌ على عمله، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[6]. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[7]، إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٧٢.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٥.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٢.
(٤) سورة الحديد: الآية ٤.
(٥) سورة العلق: الآية ١٤.
(٦) سورة الطور: الآية ٤٨.
(٧) سورة غافر: الآية ١٩.

وفي حديث جبريل ـ عليه السلام ـ أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال له: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

المراقبة: دوام علم العبد وتيقُّنه باطلاع الحقِّ ـ سبحانه وتعالى ـ على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي المراقبة؛ وهي ثمرة علمه بأن الله ـ سبحانه ـ رقيبٌ عليه؛ ناظرٌ إليه؛ سامعٌ لقوله؛ وهو مطلعٌ على عمله كلَّ وقتٍ وكلَّ لحظةٍ وكلَّ نَفَسٍ وكلَّ طرفةِ عينٍ.

والغافل عن هذا بمعزلٍ عن حال أهل البدايات؛ فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟)[٢].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأرباب الطريق مُجمعون على: أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سببٌ لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سرِّه: حفظه الله في حركاته في سرِّه وعلانيته.

والمراقبة: هي التعبُّد باسمه الرقيب الحفيظ العليم السميع البصير، فمن عَقَل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها: حصلت له المراقبة، والله أعلم)[٣].

فعبودية المراقبة: هي ثمرة عَقْلِ القلب لأسماء الله تعالى وصفاته؛ وتعبُّده بمقتضاها، وهذه العبودية تستوجب من القلب الذُّلَّ والانكسار بين يدي الله تعالى؛ والتعبُّد له بالمسكنة، كما هو مُقرَّرٌ في:

سابعاً: تقريره أن المسكنة التي يُحبُّها الله تعالى من عبده: هي انكسار قلبه لله تعالى ولأسمائه وصفاته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته».

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٦٩.

المسكنة التي يُحبُّها الله من عبده ليست فقر المال، بل مسكنة القلب؛ وهي: انكساره وذلُّه وخشوعه وتواضعه لله، وهذه المسكنة لا تُنافي الغنى؛ ولا يُشترط لها الفقر.

فإن انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته: أفضل وأعلى من مسكنة عدم المال، كما أن صبر الواجد عن معاصي الله ــ طوعاً واختياراً وخشية من الله ومحبة له ــ: أعلى من صبر الفقير العاجز)[١].

فتعبُّد القلب بالمسكنة لله ــ تبارك وتعالى ــ يوُجب له: غنىً بعد فقرٍ؛ وتواضعاً بعد كبرٍ؛ وعِزَّة بعد ذِلَّةٍ؛ وجبراً بعد كسرٍ، وهي عبوديةٌ تَعْمُرُ الباطن بالإحسان؛ وتَغْمُر الظاهر بالإسلام، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثامناً: تقريره أن شهود القلب لمعاني أسماء الله تعالى وصفاته يعمر الباطن بالإحسان؛ ويغمر الظاهر بالإسلام، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (من أعظم الستر والإخفاء: أن يستر الله ــ سبحانه وتعالى ــ حال عبده ويُخفيه عنه ــ رحمة به ولطفاً ــ؛ لئلا يُساكنه وينقطع به عن ربِّه، فإن ذلك خِلْعَة من خِلَع الحقِّ تعالى، فإذا سترها صاحبُها ومُلْبِسُها عن عبده: فقد أراد به أن لا يقف مع شيءٍ دونه.

وقد يكون ذلك الستر مما يشتغل به العبد عن مشاهدة جلال الربِّ تعالى وكماله وجماله؛ أعني: مشاهدة القلب لمعاني تلك الصفات؛ واستغراقه فيها.

وعلامة هذا الشهود الصحيح: أن يكون باطنه معموراً بالإحسان؛

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٨٦ ــ ٢٨٧.

وظاهره مغموراً بالإسلام، فيكون ظاهره عنواناً لباطنه؛ مُصدِّقاً لما اتَّصف به، وباطنه مُصحِّحاً لظاهره)[1].

فالقلب متى ما كان ظاهره ترجماناً لباطنه؛ وعنواناً له: نبتت في أرضه المباركة شجرة طيبة؛ أصلها ثابت في سماوته؛ وفرعها في سمائه؛ تُؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ ــ بإذن ربِّه تبارك وتعالى ــ من القيام بعبودية الله تعالى؛ وأدائها علـى الوجه المرضيِّ، وهذا بخلاف ما سواه من القلوب الخربة، فإن شجرتـهـا الخبيثة: اجْتُثَّت من فوق أرضها؛ ما لها من قرارٍ، كما هو مُقرَّرٌ في:

تاسعاً: تقريره أن حظَّ القلب العامر بالإيمان بالله وبأسمائه وصفاته من الصلاة ليس كحظِّ القلب الخالي الخراب من ذلك، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (ليس حظُّ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة؛ كحظِّ القلب الخالي الخراب من ذلك.

فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصلاة؛ وقف هذا بقلب مُخْبِتٍ، خاشعٍ له قريبٍ منه، سليمٍ من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة، وسطع فيه نور الإيمان، وكُشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات، فيرتع في رياض معاني القرآن، وخالط قلبَه بشاشةُ الإيمان بحقائق الأسماء والصفات؛ وعلوِّها وجمالها وكمالها الأعظم، وتفرُّد الربِّ ــ سبحانه ــ بنعوت جلاله وصفات كماله، فاجتمع همُّه على الله، وقرَّت عينه به، وأحسَّ بقربه من الله قرباً لا نظير له، ففرَّغ قلبه له، وأقبل عليه بكلِّيَّته، وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربِّه، فإنه ــ سبحانه ــ أقبل عليه أولاً: فانجذب قلبُه إليه بإقباله، فلما أقبل على ربِّه: حظي منه بإقبالٍ آخر أتمَّ من الأول.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٩٠ ــ ١٩١.

وها هنا عجيبةٌ من عجائب الأسماء والصفات تحصل لمن تفقَّه قلبه في معاني القرآن، وخالط بشاشةُ الإيمان بها قلبَه، بحيث يرى لكلِّ اسمٍ وصفةٍ موضعاً من صلاته؛ ومحلاً منها.

فإنه إذا انتصب قائماً بين يدي الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ : شاهد بقلبه قيُّوميَّته. وإذا قال: (الله أكبر): شاهد كبرياءه. وإذا قال: «سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»[1]: شاهد بقلبه ربًّا مُنَزَّهاً عن كلِّ عيبٍ، سالماً من كلِّ نقصٍ، محموداً بكلِّ حمدٍ، فحمده: يتضمن وصفه بكلِّ كمالٍ، وذلك يستلزم براءته من كلِّ نقصٍ.

تبارك اسمه: فلا يُذكر على قليلٍ إلا كثَّره، ولا على خيرٍ إلا أنماه وبارك فيه، ولا على آفةٍ إلا أذهبها، ولا على شيطانٍ إلا ردَّه خاسئاً داحراً، وكمال الاسم من كمال مُسمَّاه، فإذا كان هذا شأن اسمه ــ الذي لا يضرُّ معه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ــ : فشأن المسمى أعلى وأجلُّ.

وتعالى جَدُّه؛ أي: ارتفعت عظمته وجلَّت فوق كلِّ عظمةٍ، وعلا شأنه على كلِّ شأنٍ، وقهر سلطانه على كلِّ سلطانٍ، فتعالى جدُّه أن يكون معه شريكٌ في ملكه وربوبيته؛ أو في إلـٰهيته أو في أفعاله أو في صفاته، كما قال

---

(١) المسمى بـ: دعاء الاستفتاح، وقد أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١١٤٧٣) ــ ١٨/ ٥١ ــ ٥٢]، والترمذي في جامعه [أبواب الصلاة/ باب ما يقول عند افتتاح الصلاة ــ الحديث رقم (٢٤٢ ــ ٢٤٣) ــ ١/ ٢٨٢ ــ ٢٨٣]، وابن ماجه في سننه [كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها/ باب افتتاح الصلاة ــ الحديث رقم (٨٠٤) ــ ١/ ٤٤٢] من حديث أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ .
وصححه الألباني في [إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: الحديث رقم (٣٤٠ ــ ٣٤١) ــ ٢/ ٤٨ ــ ٥٣].

مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾[1]. فكم في هذه الكلمات من تجلٍّ لحقائق الأسماء والصفات في قلب العارف بها؛ غير المعطل لحقائقها؟

وإذا قال: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم): فقد آوى إلى ركنه الشديد، واعتصم بحوله وقوته من عدوِّه الذي يُريد أن يقطعه عن ربِّه، ويُباعده عن قربه؛ ليكون أسوأ حالاً. فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[2]: وقف هُنَيْهَة يسيرة ينتظر جواب ربِّه له بقوله: «حمدني عبدي». فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾[3]: انتظر الجواب بقوله: «أثنى عليَّ عبدي». فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[4]: انتظر جوابه: «يُمجِّدني عبدي»[5].

فيا لذَّة قلبه وقرَّة عينه وسرور نفسه بقول ربِّه: عبدي ـ ثلاث مرات ـ، فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لاسْتُطِيرت فرحاً وسروراً بقول ربِّها وفاطرها ومعبودها: «حمدني عبدني»، و«أثنى عليَّ عبدي»، و«مجدَّني عبدي».

ثم يكون لقلبه مجالٌ من شهود هذه الأسماء الثلاثة ـ التي هي أصول الأسماء الحسنى ـ وهي: الله؛ والرب؛ والرحمن، فشاهد قلبه من ذكر

---

(١) سورة الجن: الآية ٣.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٣.

(٤) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ـ الحديث رقم (٣٩٥) ـ ١/٢٩٦] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ ولعبدي ما سأل».

اسم: (اللّه) ـ تبارك وتعالى ـ : إلـهاً معبوداً موجوداً مخوفاً لا يستحقُّ العبادة غيره؛ ولا تنبغي إلا لـه، قـد عنت لـه الـوجـوه، وخضعـت لـه الموجودات، وخشعت له الأصوات، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾[1]. ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]. وكذلك خلقَ السماوات والأرض وما بينهما، وخلقَ الجن والإنس والطير والوحش والجنة والنار، وكذلك أرسلَ الرسل، وأنزلَ الكتب، وشرعَ الشرائع، وألزمَ العبادَ الأمرَ والنهيَ.

وشاهد من ذكر اسمه: (ربِّ العلمين): قيُّوماً قام بنفسه؛ وقام به كلُّ شيءِ، فهو قائمٌ على كلِّ نفس بخيرها وشرِّها، قد استوى على عرشه، وتفرَّد بتدبير ملكه، فالتدبير كلُّه بيديه، ومصير الأمور كلُّها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرِّين، ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ ﴾[3]. لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا مُعقِّب لحكمه، ولا رادَّ لأمره، ولا مُبدِّل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتعـرض الأعمـال ـ أول النهـار وآخـره ـ عليـه، فيُقـدِّر المقـاديـر ويُـوقِّـت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائماً بتدبير ذلك كلِّه وحفظه ومصالحه.

ثم يشهد عند ذكر اسم: (الرحمن) ـ جلَّ جلاله ـ : رباً مُحسناً إلى خلقه بأنواع الإحسان، مُتحبِّباً إليهم بصنوف النعم، وسع كلَّ شيء رحمة

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.
(٢) سورة الروم: الآية ٢٦.
(٣) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

وعلماً، وأوسع كلَّ مخلوق نعمة وفضلاً، فوسعت رحمتُه كلَّ شيءٍ، ووسعت نعمتُه كلَّ حيٍّ، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار أيضاً برحمته، فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويُطهِّر بها أدران الموحِّدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فتأمَّل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة والنعمة السابغة، وما في حشوها من الرحمة والنعمة، فالرحمة: هي السبب المتصل منه بعباده؛ كما أن العبودية: هي السبب المتصل منهم به، فمنهم إليه العبودية؛ ومنه إليهم الرحمة.

ومن أخصِّ مشاهد هذا الاسم: شهود المُصلِّي نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي ربِّه؛ وأهَّله لعبوديته ومناجاته، وأعطاه ومنع غيره، وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به.

فإذا قال: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[1]: فههنا شهد المجد الذي لا يليق بسوى الملك الحقِّ المبين، فيشهد مَلِكاً قاهراً قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلَّت لعظمته الجبابرة، وخضع لعِزَّته كلُّ عزيزٍ، فيشهد بقلبه مَلِكاً على عرش السماء مُهَيْمِناً، لعِزَّته تعنو الوجوه وتسجد.

وإذا لم تُعَطَّل حقيقة صفة الملك: أَطْلَعَتْه على شهود حقائق الأسماء والصفات؛ التي تعطيلها تعطيلٌ لملكه وجحدٌ له، فإن المَلِكَ الحقَّ التامَّ المُلْك: لا يكون إلا حيًّا قيُّوماً، سميعاً بصيراً، مُدبراً قادراً مُتكلِّماً، آمراً ناهياً، مُستوياً على سرير مملكته، يُرسل إلى أقاصي مملكته بأوامره، فيرضى

(١) سورة الفاتحة: الآية ٤.

على من يستحقُّ الرضى؛ ويُثيبه ويُكرمه ويُدنيه، ويغضب على من يستحقُّ الغضب؛ ويُعاقبه ويُهينه ويُقصيه، فيُعذِّب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويُعطي من يشاء، ويُقرِّب من يشاء، ويُقصي من يشاء، له دار عذابٍ وهي النار، وله دار سعادةٍ عظيمةٍ وهي الجنة، فمن أبطل شيئاً من ذلك أو جحده؛ وأنكر حقيقته: فقد قدح في ملكه ـ سبحانه وتعالى ـ، ونفى عنه كماله وتمامه، وكذلك من أنكر عموم قضائه وقدره: فقد أنكر عموم ملكه وكماله، فيشهد المُصلِّي مجد الربِّ تعالى في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[1])[2] إلى آخر كلامه ـ رحمه الله تعالى ـ الذي ختمه بذكر خاتمة الصلاة؛ وهي التسليم[3].

ففقه العبد لمعاني أسماء الله تعالى وصفاته يُثمر له: رؤيته لهذه المعاني وتجلِّيها له حال وقوفه بين يدي ربِّه ومولاه؛ وانتصاب قدمه أمامه، فتصير صلاته ـ التي هي عمود العبادات ـ : (ربيعاً لقلبه، وحياة له وراحة، وقُرَّة لعينه، وجلاءً لحزنه، وذهاباً لهمِّه وغمِّه، ومَفْزَعاً له إليه في نوائبه ونوازله)[4].

وهذا القلب ـ الذي آتت شجرة معرفته بالله تعالى وبأسمائه وصفاته هذه الثمار ـ : هو قلب خواصِّ عباد الله المخلصين، الذين شهدوا سرَّ العبودية لله تعالى، وشاهدوا ما لله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ وعرفوا معانيها، كما هو مُقرَّرٌ في:

عاشراً: تقريره أن حقيقة أسماء الله تعالى وصفاته شهدتها قلوب

---

(1) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(2) يستدل بـ: الصلاة وحكم تاركها، ص ١٦٩ ـ ١٧٤.

(3) انظر: الصلاة وحكم تاركها، ص ١٨٦.

(4) الصلاة وحكم تاركها، ص ١٦٩.

خواصِّ العباد، فازدادت به معرفة لربِّها ومحبة له؛ ومطالعة لسرِّ العبودية، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (السرُّ الأعظم الذي لا تقتحمه العبارة؛ ولا تجسر عليه الإشارة، ولا يُنادي عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد؛ بل شهدتُه قلوب خواصِّ العباد، فازدادت به معرفة لربِّها ومحبة له؛ وطمأنينة به وشوقاً إليه ولهجاً بذكره؛ وشهوداً لبرِّه ولطفه وكرمه وإحسانه؛ ومطالعة لسرِّ العبودية؛ وإشرافاً على حقيقة الإلـٰهية: وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «للَّهُ أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم؛ كان على راحلةٍ بأرضٍ فلاةٍ فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه؛ فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلِّها؛ قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده؛ فأخذ بخطامها، ثم قال ــ من شدَّة الفرح ــ : اللَّـٰهُمَّ أنت عبدي؛ وأنا ربك، أخطأ من شدَّة الفرح» هذا لفظ مسلم[1].

وفي الحديث من قواعد العلم: أن اللفظ الذي يجري على لسان العبد خطأ من فرحٍ شديدٍ؛ أو غيظٍ شديدٍ ونحوه: لا يُؤاخذ به، ولهذا لم يكن هذا كافراً بقوله: «أنت عبدي؛ وأنا ربُّك»)[2].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (والقصد: أن هذا الفرح له شأنٌ لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطَّلع عليه إلا من له معرفةٌ خاصةٌ بالله وأسمائه وصفاته؛ وما يليق بعزِّ جلاله، وقد كان الأولى بنا طيُّ الكلام فيه إلى ما هو اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم؛ ونهاية إقدامهم من المعرفة وضعف عقولهم عن احتماله، غير أنا نعلم أن الله ــ عزَّ وجلّ ــ سيسوق هذه البضاعة إلى تُجَّارها؛ ومن هو عارف بقدرها ــ وإن وقعت في الطريق بيد من

---

(١) تقدم تخريجه، ولفظه: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده».

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٠ ــ ٢٣١.

ليس عارفاً بها ـ ، «فربَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه، وربُّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه»[1])[2].

فهذا حال قلوب المصطفين الأخيار؛ والمقربين الأبرار، الذين اطلعوا بمعرفة الله تعالى على سرِّ العبودية؛ فازدادوا بذلك محبة وطمأنينة بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ وشوقاً إلى لقاء الله تعالى.

وهذه العبودية الصادقة تُوجب لخواصِّ القلوب ـ التي شهدت أسماء الله وصفاته ـ : إسقاط حظِّها من اقتضاء المجازاة على عبوديتها، وتنظر إلى عملها وحالها بعين الصغار والمهانة، كما هو مُقرَّرٌ في:

الحادي عشر: أن تمكن شهود أسماء الله وصفاته في القلب: يُثمر احتقار العبد لأعماله في جنب الله تعالى؛ وقلَّتها عنده؛ وصغرها في عينه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن من تمكَّن في قلبه شهود الأسماء والصفات؛ وصَفَا له علمُه وحالُه: اندرج عملُه جميعُه ـ وأضعافُه؛ وأضعافُ أضعافِه ـ في حقِّ ربِّه تعالى؛ ورآه في جنب حقِّه أقلَّ من خردلةٍ بالنسبة إلى جبال الدنيا، فسقط من قلبه اقتضاء حظِّه من المجازاة عليه؛ لاحتقاره له وقلَّته عنده وصِغَره في عينه.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢١٥٩٠) ـ ٣٥/ ٤٦٧]، وأبو داود في سننه [كتاب العلم/ باب فضل نشر العلم ـ الحديث رقم (٣٦٦٠) ـ ٤/ ٦٨ ـ ٦٩]، والترمذي في جامعه [أبواب العلم/ باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ـ الحديث رقم (٢٦٥٦) ـ ٤/ ٣٩٣]، من حديث زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ ، وابن ماجه في سننه [المقدمة/ باب من بلغ علماً ـ الحديث رقم (٢٣١؛ ٢٣٦) ـ ١/ ١٥٢ ـ ١٥٥] من حديثي جبير بن مطعم وأنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ ، وأوله: «نضر الله امرأً سمع منا حديثاً». وصححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود ٢/ ٤١١].

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم[1]؛ حدثنا صالح[2]؛ عن أبـي عمران الجوني[3]؛ عن أبـي الجلد[4]: (أن الله تعالى أوحى إلى داود: يـا داود أنـذر عبـادي الصـادقيـن، فـلا يُعْجَبُـنَّ بـأنفسهـم؛ ولا يَتَّكِلُـنَّ علـى أعمالهم، فإنه ليس أحدٌ من عبادي أنصبه للحساب؛ وأقيم عليه عدلي: إلا عذَّبتُه من غير أن أظلمه، وبَشِّر عبادي الخطَّائين: أنه لا يتعاظمني ذنبٌ أن أغفره وأتجاوز عنه)[5].

---

(١) هو: أبو النضر هاشم بن القاسم الليثي البغدادي؛ خراسانيُّ الأصل، كان من الآمرين بالمعروف؛ والناهين عن المنكر، وكان أهل بغداد يفخرون به، توفي في ذي القعدة سنة خمس ومائتين.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٨/ ٢٣٤، الثقات لابن حبان ٩/ ٢٤٣، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٣٠/ ١٣٠ ــ ١٣٦.

(٢) هو: أبو بشر صالح بن بشير المري، واعظ أهل البصرة، منكر الحديث، توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة.
انظر في ترجمته: الضعفاء الصغير للبخاري ص٦١، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبـي نعيم الأصفهاني ٦/ ١٦٥ ــ ١٧٧، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٨/ ٤٦ ــ ٤٨.

(٣) هو: عبد الملك بن حبيب البصري، الإمام الثقة، كان يغلب على كلامه الحِكَم، توفي سنة ثلاث وعشرين ومائة؛ عن سنٍّ عالية.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٨/ ٢٩٧ ــ ٣٠٠، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٥/ ٢٥٥ ــ ٢٥٦، شذرات الذهب لابن العماد ١/ ١٧٥.

(٤) هو: جيلان بن أبـي فروة الأسدي البصري.
انظر في ترجمته: الكنى والأسماء لمسلم بن الحجاج ١/ ١٩٦، الثقات لابن حبان ٤/ ١١٩، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبـي نعيم الأصفهاني ٦/ ٥٤ ــ ٥٩.

(٥) أخرجه أحمد في الزهد [ص٩٢].

وقال الإمام أحمد: وحدثنا سيَّار[1]؛ حدثنا جعفر[2]؛ حدثنا ثابت البناني[3] قال: (تعبَّد رجلٌ سبعين سنة، وكان يقول في دعائه: ربِّ اجزني بعملي، فمات فأُدخل الجنة، فكان فيها سبعين عاماً، فلما فرغ وقتُه قيل له: اخرج فقد استوفيتَ عملك. فقلَّب أمره: أيُّ شيء كان في الدنيا أوثق في نفسه؟ فلم يجد شيئاً أوثق في نفسه من دعاء الله؛ والرغبة إليه، فأقبل يقول في دعائه: ربِّ سمعتك وأنا في الدنيا؛ وأنت تُقيل العثرات، فأقِلَّ اليوم عثرتي. فتُرِكَ في الجنة)[4].

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا هاشم؛ حدثنا صالح؛ عن أبـي عمران الجوني؛ عن أبـي الجلد قال: (قال موسى: إلـٰهي؛ كيف أشكرك وأصغر نعمةٍ وضعتَها عندي من نعمتك لا يُجازيها عملي كلُّه؟ فأوحى الله تعالى

---

(١) هو: أبو سلمة سيار بن حاتم العنزي البصري، صاحب القصص والرقائق، توفي سنة تسع وتسعين ومائة.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ١٦١، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٢/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨، العبر في خبر من غبر للذهبـي ١/ ٢٥٩.

(٢) هو: أبو سليمان جعفر بن سليمان الضبعي البصري، كان من عباد الشيعة وعلمائهم، توفي في رجب سنة ثمان وسبعين ومائة.
انظر في ترجمته: مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار لابن حبان ص٢٥٢، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٥/ ٤٣ ـ ٥٠، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٨/ ١٩٧ ـ ٢٠٠.

(٣) هو: أبو محمد ثابت بن أسلم البناني مولاهم البصري، كان من أئمة العلم والعمل، توفي سنة سبع وعشرين ومائة؛ وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبـي حاتم ٢/ ٤٤٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٤/ ٣٤٢ ـ ٣٤٩، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٥/ ٢٢٠ ـ ٢٢٥.

(٤) أخرجه أحمد في الزهد [ص١٢١].

إليه: يا موسى الآن شكرتني)[1].

فهذا المعنى الصحيح من اندراج حظِّ العبوديَّة في حقِّ الربوبية. وله محملٌ آخر صحيحٌ أيضاً: وهو أن ذات العبد وصفاته وأفعاله وقواه وحركاته كلَّها مفعولةٌ للربِّ؛ مملوكةٌ له، ليس يملك العبد منها شيئاً، بل هو محض ملك الله، فهو المالك لها؛ المُنعم على عبده بإعطائه إياها، فالمال ماله؛ والعبد عبده؛ والخدمة مستحقَّة عليه بحقِّ الربوبية ــ وهي من فضل الله عليه ــ، فالفضل كلُّه لله؛ ومن الله؛ وبالله)[2].

فهذا حال القلوب المنعم عليها؛ وكيف حملها شهودها لأسماء الله تعالى وصفاته على احتقار أعمالها في جنب الله تعالى، وهذا الشهود أوجب لهذه القلوب أن تبتعد عن مساخط الله تعالى ومعاصيه؛ كما بَعُدَ المشرق عن المغرب، وأن تقوم بما افترض الله عليها؛ وأن تعتزل ما نهاها الله عنه، كما هو مُقرَّرٌ في:

الثاني عشر: تقريره أن مطالعة القلب لأسماء الله تعالى وصفاته يمنع العبد من الإقامة على مساخط الله تعالى؛ وتضييع أوامره؛ وتعطيل حقوقه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (كيف يجتمع في قلب العبد: تيقُّنه بأنه ملاقي الله؛ وأن الله يسمع ويرى مكانه، ويعلم سرَّه وعلانيته، ولا يخفى عليه خافيةٌ من أمره، وأنه موقوفٌ بين يديه، ومسؤولٌ عن كل ما عمل، وهو

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد [ص٨٥]، وكذا أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر [رقم (٦) ــ ٣/ ١٢] [ضمن موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا]، وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [٦/ ٥٦]، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان [باب في تعديد نعم الله عزَّ وجلّ وما يجب من شكرها ــ الحديث رقم (٤١٠١) ــ ٨/ ٣٦٠].

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٥٩ ــ ١٦٠.

مُقيمٌ على مساخطه؛ مُضيِّعٌ لأوامره؛ مُعطِّلٌ لحقوقه، وهو مع هذا يُحسن الظنَّ به، وهل هذا إلا من خِدَع النفوس وغرور الأمانيِّ؟

وقد قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف(١): دخلتُ أنا وعروةُ بن الزبير(٢) على عائشة ــ رضي الله عنها ــ فقالت: «لو رأيتُما رسولَ الله ﷺ في مرضٍ له، وكانت عنده ستةُ دنانير أو سبعةٌ، فأمرني رسول الله ﷺ أن أُفَرِّقَها. قالت: فشغلني وجعُ رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها فقال: ما فعلتِ؟ أكنتِ فرقتِ الستة الدنانير؟ فقلت: لا والله؛ لقد شغلني وجعُك. قالت: فدعا بها فوضعها في كفِّه، فقال: ما ظنُّ نبيِّ الله لو لقي الله وهذه عنده؟»(٣). وفي لفظٍ: «ما ظنُّ محمدٍ بربِّه لو لقي الله وهذه

(١) هو: أبو أمامة بن سهل بن حنيف الأنصاري الأوسي، الفقيه المُعمَّر، قيل: اسمه أسعد، سمي باسم جده؛ وكني بكنيته، ولد في حياة النبي ﷺ، ورآه فيما قيل، واتفقوا على وفاته في سنة مائة.
انظر في ترجمته: الكنى والأسماء لمسلم بن الحجاج ١/ ١٠٣، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢/ ٥٢٥ ــ ٥٢٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ٥١٧.

(٢) هو: أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، عالم المدينة وأحد الفقهاء السبعة، توفي سنة أربع وتسعين، ويقال لهذه السنة: سنة الفقهاء.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ٣١ ــ ٣٢، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٠/ ١١ ــ ٢٥، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٤٢١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٤٧٣٣) ــ ٤١/ ٢٥٤]، وابن حبان في صحيحه [كتاب الزكاة/ باب جمع المال من حله وما يتعلق به ــ ذكر خبر أوهم من لم يحكم صناعة الحديث أن جمع المال من حله غير جائز ــ الحديث رقم (٣٢١٢) ــ ٨/ ٨].
قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٠/ ٢٤٠]: (رواه كلَّه أحمد بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح).

عنـده؟»[1])[2].

فهذه خاتمة تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لتوحيد أسماء الله وصفاته؛ وما أثمره على القلب من التدرُّج في منازل العبودية الخاصَّة به.

ومتى ما نظر القلب بعين بصيرته إلى هذه العبوديات؛ وقام بها على وجه التشريف؛ لا التكليف: أثمر له ذلك النظر: همَّة عالية؛ تشمخ بهامتها إلى معالي الأمور ونفائسها الرفيعة؛ وتستعلي عن سفسافها وخسائسها الوضيعة.

المسألة الرابعة:

ما يُثمره توحيد الأسماء والصفات في القلب من معالي الأمور.

إنَّ دوام مطالعة القلب لأسماء الله تعالى وصفاته؛ ومشاهدتها وتأمُّلها يُشعل فتيل العزم والجدِّ في القلب، ويُكسبه همة عالية؛ يستسهل القلبُ أمامها كلَّ الصعاب؛ وتلين له جميع الشدائد الصلاب، وهذا مما يُثمر في القلب تتبع معالي الأمور ونفيسها؛ والنأي عن سافلها وخسيسها، وإيضاح هذه المسألة وتقريرها مودع في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الآتي الذكر:

أولاً: تقريره أن القلب متى ما انطرح لأشعة أنوار الأسماء والصفات: ارتفعت همَّته وعلت نفسه عن خطفات المدح والذمِّ، كما قال ــ رحمه الله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٥٤٩٢) ــ ٤٢/ ٣١٤ ــ ٣١٥].
وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٠١٤) ــ ٣/ ١٢].

(٢) الداء والدواء ص ٣٥.

تعالى ـ : (اعلم أنه متى استقرَّت قدمُ العبد في منزلة الإخبات؛ وتمكَّن فيها: ارتفعت همَّته وعلت نفسه عن خطفات المدح والذمِّ؛ فلا يفرح بمدح الناس ولا يحزن لذمِّهم.

وهذا وصف من خرج عن حظِّ نفسه؛ وتأهَّل للفناء في عبودية ربِّه، وصار قلبه مُطَّرحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات؛ وباشر حلاوةُ الإيمان واليقين قلبَه.

والوقوف عند مدح الناس وذمِّهم: علامة انقطاع القلب؛ وخلوِّه من الله، وأنه لم تُباشره روحُ محبته ومعرفته؛ ولم يذق حلاوةَ التعلُّق به والطمأنينة إليه)[1].

فالقلب متى ما استنار بأسماء الله تعالى وصفاته: علت همَّتُه عن استراق السمع؛ فلم ينقطع قلبه فرحاً بالمدح؛ ولا ترحاً بالقدح، وهذا مما تقوى به عزيمة القلب؛ فيشدُّ مِئزره لطلب معالي الأمور، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثانياً: تقريره أن من أشرقت على قلبه أنوار آثار أسماء الله تعالى وصفاته أثمرت له العزيمة، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (العزائم لا تصحُّ إلا لمن أشرق على قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات؛ وتجلَّت عليه معانيها؛ وكافح قلبه حقيقة اليقين بها)[2].

وعزيمة القلب: تهون عندها جميع الأوامر والنواهي، فتجد صاحبها عند قيامه بأوامر ربِّه ـ تبارك وتعالى ـ : مُتذوِّقاً لحلاوة الإيمان، ولا تجده عند تركه ما نهى عنه: مُتجرِّعاً لمرارة الحرمان، كما هو مُقرَّرٌ في:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٦.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٦.

ثالثاً: تقريره أن مطالعة أسماء الله تعالى وصفاته تُوقظ القلب لاستهانة المجاهدات الشاقَّة، وتعوِّضه عما يُقاسيه من كدِّها وتعبها، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (الناظر إلى الواحد الفرد؛ الأول الذي ليس قبله شيءٌ؛ الآخر الذي ليس بعده شيءٌ؛ الظاهر الذي ليس فوقه شيءٌ؛ الباطن الذي ليس دونه شيءٌ، سبق كلَّ شيءٍ بأوَّليَّته؛ وبقي بعد كلِّ شيءٍ بآخريَّته؛ وعلا فوق كلِّ شيءٍ بظهوره؛ وأحاط بكلِّ شيءٍ ببطونه، فالنظر بهذه العين: يُوقظ قلبه لاستهانته بالمجاهدات.

ومعنى ذلك: أن السالك في مبدأ أمره له شِرَةٌ[1]؛ وفي طلبه حِدَّةٌ تحمله على أنواع المجاهدات؛ وترميه عليها لشدَّة طلبه، ففتوره نائمٌ؛ واجتهاده يقظانٌ.

فإذا وصل إلى هذه الدرجة: استهان بالمجاهدات الشاقَّة في جنب ما حصل له من مقام الجمع على الله؛ واستراح من كدِّها.

فإن ساعة من ساعات الجمع على الله: أنفع وأجدى عليه من القيام بكثيرٍ من المجاهدات البدنية التي لم يفرضها الله عليه، فإذا جمع همَّه وقلبه كلَّه على الله؛ وزال كلُّ مُفرِّقٍ ومُشتِّتٍ: كانت هذه هي ساعات عمره في الحقيقة، فتعوَّض بها عمَّا كان يُقاسيه من كدِّ المجاهدات وتعبها)[2].

فهذه إحدى ثمرات أسماء الله تعالى وصفاته على القلب؛ التي تُورثه الهمم العظيمة؛ والعزائم الجسيمة، فيتنعَّمُ صاحب هذا القلب بحياةٍ طيِّبةٍ ليس وراءها إلا نعيم أهل الجنان؛ وقرة عيونهم برؤية ربِّهم الرحمن.

---

(١) قال أبو جعفر الطحاوي في [شرح مشكل الآثار ٣/ ٢٧٠]: (هي الحِدَّة في الأمور التي يُريدها المسلمون من أنفسهم في أعمالهم التي يتقرَّبون بها إلى ربهم ـ عزَّ وجلّ ـ).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١١٧ ـ ١١٨.

المسألة الخامسة:

ما يُثمره توحيد الأسماء والصفات في القلب من اللّذّة والنعيم.

إنَّ قلب العبد لا يزال يهيم على وجهه في أودية القلق؛ وتعصف به رياح الاضطراب حتى يخالط الإيمانُ بأسماء الربِّ تعالى وصفاته بشاشةَ قلبه، فحينئذ يبتهج قلبه؛ ويأنس بقربه من معبوده ــ جلَّ جلاله ــ، ويحيى حياة طيبة، ويُصبح فارغاً إلا من ذكر الله تعالى؛ وذكر أسمائه وصفاته، ويأتيه من روح اللّذّة والنعيم والسرور؛ وريحان الأمان والطمأنينة والحبور: ما يعجز عن ذكره التعبيرُ؛ ويقصر عن بيانه التقريرُ.

وإنَّ من أفضل ما يُعطاه القلب ويُكرم به: هو الثبات والأمان والتجرُّد لله تعالى، وهذا هو حقيقة القلب السليم؛ الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من قدم على الله تعالى به.

وإيضاح هذه المسألة؛ وبيان ما تضمنته من تقريرٍ يتجلّى فيما يأتي من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ :

أولاً: تقريره أن القلب لا يزال في أعظم القلق والاضطراب حتى يُخالط الإيمانُ بأسماء الربِّ تعالى وصفاته بشاشةَ قلبه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (حقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة: أن تطمئنَّ في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه؛ وأخبرت به عنه رسله، فتتلقَّاه بالقبول والتسليم والإذعان؛ وانشراح الصدر له وفرح القلب به، فإنه مُعرِّف من مُعرِّفات الربِّ ــ سبحانه ــ إلى عبده على لسان رسوله.

فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب؛ حتى يخالط الإيمانُ بأسماء الربِّ تعالى وصفاته وتوحيده وعُلُوِّه على عرشه

وتكلُّمه بالوحي: بشاشةَ قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزُّلال على القلب الملتهب بالعطش؛ فيطمئنُّ إليه ويسكن إليه ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله؛ حتى كأنه شاهدَ الأمرَ كما أخبرت به الرسل؛ بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه.

فلو خالفه في ذلك مَن بين شرق الأرض وغربها: لم يلتفت إلى خلافهم؛ وقال إذا استوحش من الغربة: قد كان الصدِّيق الأكبر مُطمئناً بالإيمان وحده؛ وجميع أهل الأرض يُخالفه، وما نقص ذلك من طمأنينته شيئاً.

فهذا أول درجات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوى كلَّما سمع بآيةٍ مُتضمِّنةٍ لصفةٍ من صفات ربِّه، وهذا أمرٌ لا نهاية له، فهذه الطمأنينة: أصلُ أصولِ الإيمان التي قام عليه بناؤه.

ثم يطمئنَّ إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة؛ حتى كأنه يُشاهد ذلك كلَّه عياناً، وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به ــ سبحانه وتعالى ــ أهلَ الإيمان؛ حيث قال: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾[1].

فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئنَّ القلبُ إلى ما أخبر الله ــ سبحانه ــ به عنها طمأنينتَه إلى الأمور التي لا يُشكُّ فيها ولا يُرتاب، فهذا هو المؤمن حقاً باليوم الآخر، كما في حديث حارثة: «أصبحت مؤمناً حقاً. فقال رسول الله ﷺ: إن لكلِّ حقٍّ حقيقة، فما حقيقةُ إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا وأهلها، وكأني أنظر إلى عرش ربِّي بارزاً؛ وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها؛ وأهل النار يُعذَّبون

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤.

فيها. فقال: عبدٌ نوَّر الله قلبه»[1])[2].

فالقلب لا يلحقه الاطمئنان؛ ولا يسكن قلقه ويهدأ اضطرابه إلا بالإيمان بأسماء الربِّ تعالى وصفاته، فإنه متى ما آمن بالله تعالى؛ واطمأنَّ بذكر أسمائه وصفاته: طابت حياته، ونعمت معيشته، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثانياً: تقريره أنه لا حياة للقلب ولا نعيم إلا بأن يعرف ربَّه ومعبوده بأسمائه وصفاته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (لا حياة للقلوب ولا نعيم، ولا لذة ولا سرور، ولا أمان ولا طمأنينة؛ إلا بأن تعرف ربَّها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون أحبَّ إليها مما سواه، ويكون سَعْيها في ما يُقرِّبها إليه؛ ويُدنيها من مرضاته)[3].

فمعرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى تُحيي القلوب من بعد موتها؛ وتبعثها من قبور غفلتها، وهذا أعظم النِّعم وأجلُّ المنن التي يكرم الله تعالى بها عباده، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثالثاً: تقريره أن ابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله تعالى وأسمائه وصفاته: أفضل ما يُعطاه العبد، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب، وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان [الحديث رقم (١١٥) ـ ص٤٣]، والطبراني في معجمه الكبير [الحديث رقم (٣٣٦٧) ـ ٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧]، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان [باب في الزهد وقصر الأمل ـ الحديث رقم (١٠١٠٦) ـ ١٩/ ١٩٣ ـ ١٩٤]؛ والزهد الكبير [الحديث رقم (٩٧٣) ـ ص٣٥٥].
قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١/ ٥٧]: (رواه الطبراني في الكبير؛ وفيه: ابن لهيعة، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه).

(٢) الروح ص٤٩٦ ـ ٤٩٧.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٥٠.

فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه: محضُ الإيمان وصفوته ولبُّه، وله عبوديةٌ عجيبةٌ؛ وأثرٌ في القلب لا يُعبَّر عنه.

فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه: أفضل ما يُعطاه؛ بل هو جُلُّ عطاياه، والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا.

فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها، فهذا شأنُ فرح القلب)[1].

ففرح القلب بالظفر بمعرفة محبوبه ومعرفة أسمائه وصفاته: هو الفرح الذي يغتبط به القلب في هذه الدنيا، وهو صراطه المستقيم إلى فرحه في الآخرة بلقاء الله تعالى؛ والتنعُّم برؤيته، كما هو مُقرَّرٌ في:

رابعاً: تقريره أن القلب ليس له لذَّة أعظم من الشوق إلى لقاء الله تعالى؛ والتنعُّم برؤيته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنه ليس للقلب والروح ألذُّ ولا أطيب ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله؛ والإقبال عليه وعبادته وحده؛ وقُرَّة العين به والأنس بقربه؛ والشوق إلى لقائه ورؤيته.

وإن مثقال ذرةٍ من هذه اللّذّة لا يعدل بأمثال الجبال من لذَّات الدنيا، ولذلك كان مثقال ذرةٍ من إيمان بالله ورسوله: يُخلِّص من الخلود في دار الآلام؛ فكيف بالإيمان الذي يمنع دخولها؟)[2].

فالقلوب المطمئنة بذكر الله؛ وذكر أسمائه وصفاته: تحملها هذه الطمأنينة على الإقبال على ربِّها ومعبودها ــ سبحانه وتعالى ــ وعبادته وحده دون من سواه؛ حتى تقرَّ عين بصيرته بالأنس بقربه؛ والشوق إلى

---

(١) الروح ص٥٥٢ ــ ٥٥٣.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص١٨٠.

لقائه، كما هو مُقرَّرٌ في:

خامساً: تقريره أن استحضار القلب لمعاني أسماء الله تعالى وصفاته تُوجب له الأُنس؛ الذي هو ثمرة الطاعة والمحبة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (استحضار القلب هذا البِرَّ والإِحسان واللُّطف: يُوجب قُرْبَه من الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ ، وقُرْبُه منه يُوجب له الأُنْسَ.

والأُنْسُ: ثمرة الطاعة والمحبة، فكلُّ مطيعٍ مُستأنسٌ؛ وكلُّ عاصٍ مُستوحشٌ. كما قيل:

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب ... فدعها إذا شئت واستأنس[1].

والقُرْبُ يوجب الأُنْس والهيبة والمحبة)[2].

فالقلب ــ المستحضر لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ المُقرَّب من ربِّه جلَّ وعلا ــ ؛ المنصبغ في يَمِّ المحبة: كلَّما أقبل على مطالعة أسماء الله تعالى وصفاته؛ واستحضار معانيها التي تعرَّف الله تعالى بها إلى عباده في كتابه الكريم: زاد أُنْسه؛ وعظمت لذَّته، كما هو مُقرَّرٌ في:

سادساً: تقريره أن من أقرَّ بأن القرآن الكريم كلامُ الله تعالى فقد التذَّ به، ومن لم يُؤمن بذلك ففي قلبه منه حرجٌ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في القرآن الكريم: (إنه لا يلتذُّ به وبقراءته وفهمه وتدبُّره: إلا من شهد أنه كلام الله؛ تكلَّم به حقاً؛ وأنزله على رسوله وحياً، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرجٌ منه بوجهٍ من الوجوه.

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في موضعين من كتابه [الداء والدواء ص٨٧؛ ١٢١] ولم يعزه لقائل، ولم أقف عليه.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٢٣.

فمن لم يؤمن بأنه حقٌّ من عند الله: ففي قلبه منه حرجٌ، ومن لم يؤمن بأن الله ـ سبحانه ـ تكلَّم به وحياً؛ وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته: ففي قلبه منه حرجٌ)[1].

فالقلب الذي شغلته مطالعة أسماء الله تعالى وصفاته: ملتذٌّ بقراءة كتاب الله تعالى؛ وتفهُّمه وتدبُّره، وهذا بخلاف من عَمِيَ قلبه عن هذه المطالعة، فإنه في أعظم الحرج والضيق منه.

وكلما قَرُبَ القلب من معبوده ـ عزَّ وجلّ ـ ؛ ومشاهدة أسمائه وصفاته؛ ومطالعة معانيها؛ التي تجلَّى بها في كتابه الكريم: استنفد منه جميع المعارف والشواهد والمطالعات، فيصبح القلبُ فارغاً إلا من معرفة الله تعالى، كما هو مُقرَّرٌ في:

سابعاً: تقريره أن الله تعالى إذا تجلَّى لعبده بكمال أسمائه الحسنى وجمال صفاته العلى أصبح فؤاده فارغاً إلا منه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (القرآن كلام الله، وقد تجلَّى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلَّى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلَّى في صفات الجمال والكمال؛ وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدالُّ على كمال الذات، فيستنفد حبُّه من قلب العبد قوةَ الحبِّ كلِّها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيُصبح فؤادُ عبده فارغاً إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يُعلِّق تلك المحبة به: أبى قلبُه وأحشاؤُه ذلك كلَّ الإباء، كما قيل:

يُراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقلِ.

---

(1) التبيان في أقسام القرآن ص٢٩٢.

فتبقى المحبة له طبعاً لا تكلفاً. وإذا تجلَّى بصفات الرحمة والبِرِّ واللُّطف والإحسان: انبعثت قوَّةُ الرجاء من العبد، وانبسط أملُه وقَوِيَ طمعُه، وسار إلى ربِّه؛ وحادي الرجاء يحدو رِكَاب سيره، وكلَّما قَوِيَ الرجاء جدَّ في العمل، كما أنَّ الباذر كلما قَوِيَ طَمَعُه في المَغَلِّ غلَّق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قَصَّر في البذر.

وإذا تجلَّى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة: انقمعت النفس الأمارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المُحرَّمات، وانقبضت أعنَّة رعوناتها، فأحضرت المطيَّة حظَّها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلَّى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصيَّة؛ وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع: انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها والتواصي بها، وذِكْرِها وتَذَكُّرِها، والتصديق بالخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنهي.

وإذا تجلَّى بصفة السمع والبصر والعلم: انبعثت من العبد قوَّة الحياء، فيستحي من ربِّه أن يراه على ما يكره؛ أو يسمع منه ما يكره؛ أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع؛ غير مُهملةٍ ولا مُرسلةٍ تحت حُكْم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلَّى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيَّته الخاصة لهم: انبعثت من العبد قوة التوكُّل عليه والتفويض إليه والرضا به؛ وبكلِّ ما يجريه على عبده ويُقيمه مما يرضى به هو ـ سبحانه ـ .

والتوكُّل: معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلَّى بصفات العِزِّ والكبرياء: أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذُّلِّ لعظمته والانكسار لعِزَّته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسَمْتِه، ويذهب طيشُه وقُوَّتُه وحِدَّتُه)[1].

فهذا الخشوع الذي خيَّم على أجواء القلب: هو من ثمرة مطالعته لأسماء الله وصفاته، وكذا السكينة التي علته؛ والوقار الذي كُسي به، فالقلب كلما أمعن النظر في أسماء الله تعالى وصفاته؛ ومشاهدة معانيها: انصبغ بهذه الثمرات؛ واستغنى بها عما سواها، فزالت عنه بهذا الغنى كلُّ حسرةٍ وترحٍ؛ وحضره كلُّ سرورٍ وفرحٍ، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثامناً: تقريره أن القلب إذا استغنى بالله تعالى ترحَّلت عنه جميع الحسرات؛ ونزلت بساحته جميع المسرَّات، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الغنيُّ إنما يصير غنياً: بحصول ما يسدُّ فاقته ويدفع حاجته، وفي القلب فاقةٌ عظيمةٌ؛ وضرورةٌ تامةٌ؛ وحاجةٌ شديدةٌ لا يسدُّها إلا فوزه بحصول الغنيِّ الحميد؛ الذي إن حصل للعبد: حصل له كلُّ شيءٍ، وإن فاته: فاته كلُّ شيءٍ.

فكما أنه ــ سبحانه ــ الغنيُّ على الحقيقة؛ ولا غنيَّ سواه: فالغنيُّ به هو الغنيُّ في الحقيقة؛ ولا غنى بغيره ألبتة، فمن لم يستغن به عما سواه: تقطَّعت نفسه على السِّوى حسراتٍ، ومن استغنى به: زالت عنه كلُّ حسرةٍ؛ وحضره كلُّ سرورٍ وفرحٍ، والله المستعان)[2].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (فإذا استغنى القلب بهذا الغنى

---

(١) الفوائد ص٨٠ ــ ٨١.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٦٩.

ـ الذي هو غاية فقره ـ : استغنت النفس غنى يُناسبها، وذهبت عنها البرودة التي تُوجب ثقلها وكسلها وإخلادها إلى الأرض، وصارت لها حرارة تُوجب حركتها وخفَّتها في الأوامر وطلبها الرفيق الأعلى، وصارت برودتها في شهواتها وحظوظها ورعوناتها.

وذهبت عنها أيضاً اليبوسة المضادة لِلِينها وسرعة انفعالها وقبولها، فإنها إذا كانت يابسة قاسية: كانت بطيئة الانفعال؛ بعيدة القبول؛ لا تكاد تنقاد، فإذا صارت يبوستها حرارة؛ وبرودتها رطوبة؛ وسُقِيَتْ بماء الحياة ـ الذي أنزله الله عزَّ وجلّ على قلوب أنبيائه؛ وجعلها قراراً ومعيناً له؛ ففاض منها على قلوب أتباعهم؛ فأنبتت من كلِّ زوجٍ كريم ـ : فحينئذٍ انقادت بزمام المحبة إلى مولاها الحقِّ؛ مؤديَّة لحقوقه؛ قائمة بأوامره؛ راضية عنه؛ مرضية له بكمال طمأنينتها، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[(1)])[(2)].

فما يلحق القلب من الغنى بالله ـ سبحانه وتعالى ـ : يسدُّ فاقته؛ ويدفع حاجته، فيظفر حينئذٍ بكلِّ مطلوبٍ؛ ويُحفظ من كلِّ مرهوبٍ.

وإن من أجلِّ ما يظفر به القلب: الرقَّة الناشئة من إيمانه بصفة الرحمة؛ وفقهه في معناها، فإن ظفر القلب بهذه الخصلة الحميدة؛ والخلَّة الرشيدة: يُقرِّبه من ربِّه ومولاه ـ تبارك وتعالى ـ ، وهذا القرب هو أحد الأسباب الموجبة لغنى القلب؛ واستغنائه عما سوى الله تعالى، كما هو مُقرَّرٌ في:

تاسعاً: تقريره أن أقرب القلوب من الله تعالى القلبُ الرقيقُ؛ الناشئة رقَّته من مطالعة صفة الرحمة، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (متى آمن

---

(١) سورة الفجر: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٧١.

العبد بالقدر؛ وعلم أن المصيبة مُقدَّرةٌ في الحاضر والغائب: لم يجزع ولم يفرح.

ولا ينافي هذا رِقَّة القلب؛ فإنها ناشئةٌ من صفة الرحمة ــ التي هي كمال ــ ، والله ــ سبحانه ــ إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول الله ﷺ أَرَقَّ الناس قلباً؛ وأبعدَهم من الجزع[1].

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/٢١٨]: (إن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالباً عند السَّخط والشهوة، فهناك يصطاده؛ ولا سيَّما إذا استحكم سخطه، فإنه يقول ما لا يُرضي الربَّ؛ ويفعل ما لا يُرضيه؛ وينوي ما لا يُرضيه، ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: «يحزن القلب وتدمع العين؛ ولا نقول إلا ما يُرضي الربَّ». ــ أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الجنائز/ باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون» ــ الحديث رقم (١٣٠٣) ــ ١/٣٨٨ ــ ٣٨٩]، ومسلم في صحيحه [كتاب الفضائل/ باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ــ الحديث رقم (٢٣١٥) ــ ٤/١٨٠٧] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ــ . فإن موت البنين: من العوارض التي تُوجب للعبد السخط على القدر، فأخبر النبي ﷺ أنه لا يقول في مثل هذا المقام ــ الذي يسخطه أكثر الناس؛ فيتكلَّمون بما لا يُرضي الله؛ ويفعلون ما لا يُرضيه ــ إلا ما يُرضي ربَّه ــ تبارك وتعالى ــ . ولهذا لما مات ابنُ الفضيل بن عياض: رُؤي في الجنازة ضاحكاً، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله قضى بقضاءٍ؛ فأحببتُ أن أرضى بقضائه. فأَنْكَرَتْ طائفةٌ هذه المقالة على الفضيل؛ وقالوا: رسول الله ﷺ بكى يوم مات ابنه؛ وأخبر أن القلب يحزن والعين تدمع؛ وهو في أعلى مقامات الرِّضى، فكيف يُعدُّ هذا من مناقب الفضيل؟ والتحقيق: أن قلب رسول الله ﷺ اتسع لتكميل جميع المراتب من الرِّضى عن الله؛ والبكاء رحمة للصبي، فكان له مقام الرِّضى ومقام الرحمة ورِقَّة القلب، والفضيل لم يتَّسع قلبُه لمقام الرِّضى ومقام الرحمة؛ فلم يجتمع له الأمران).

فرِقَّة القلب: رأفةٌ ورحمةٌ، وجزعه: مرضٌ وضعفٌ. فالجزع: حالُ قلبٍ مريضٍ بالدنيا، قد غشيه دخانُ النفس الأمارة؛ فأخذ بأنفاسه وضَيَّق عليه مسالك الآخرة، وصار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضَيِّق الأرجاء؛ مُظلم المسلك.

فانحصار القلب وضيقه يُجَزِّع مِن أدنى ما يُصيبه ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد؛ وامتلأ من محبة الله وإجلاله: رقَّ؛ وصارت فيه الرأفةُ والرحمةُ، فتراه رحيماً؛ رقيقَ القلب بكلِّ ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في جحرها؛ والطير في وكره؛ فضلاً عن بني جنسه، فهذا أقرب القلوب من الله، قال أنس: «كان رسول الله ﷺ أرحمَ الناس بالعيال»[1].

والله ــ سبحانه ــ إذا أراد أن يرحم عبداً: أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يُعذِّبه: نزع من قلبه الرحمة والرأفة؛ وأبدله بهما الغلظة والقسوة.

وفي الحديث الثابت: «لا تُنزع الرحمةُ إلا من شقيٍّ»[2]. وفيه: «من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الفضائل/ باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ــ الحديث رقم (٢٣١٦) ــ ٤/ ١٨٠٨]، ولفظه: «ما رأيتُ أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٨٠٠١) ــ ١٣/ ٣٧٨]، والبخاري في الأدب المفرد [باب أرحم من في الأرض ــ الحديث رقم (٣٧٩) ــ ص٨٧]، وأبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب في الرحمة ــ الحديث رقم (٤٩٤٢) ــ ٥/ ٢٣٢]، والترمذي في جامعه [كتاب البر/ باب ما جاء في رحمة المسلمين ــ الحديث رقم (١٩٢٣) ــ ٣/ ٤٨٢ ــ ٤٨٣] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ .

وحسنه الألباني في [صحيح سنن أبي داود ٣/ ٢١٢].

لا يرحم لا يُرحم»(١). وفيه: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(٢).

وفيه: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطانٍ مُقسطٌ مُتصدقٌ، ورجلٌ رحيمٌ رقيقُ القلب بكلِّ ذي قربى، ومسلمٌ عفيفٌ مُتعفِّف ذو عيالٍ»(٣).

والصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ إنما فَضَل الأمة بما كان في قلبه من الرحمة العامة؛ زيادة على الصديقيَّة، ولهذا أظهر أثرها في جميع مقاماته؛ حتى في الأُسارى يوم بدرٍ؛ واستقرَّ الأمر على ما أشار به، وضرب له ﷺ مثلاً بعيسى وإبراهيم(٤)، والربُّ تعالى هو الرءوف الرحيم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأدب/ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ـ الحديث رقم (٥٩٩٧) ـ ٤/١٨٩٨]، ومسلم في صحيحه [كتاب الفضائل/ باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ـ الحديث رقم (٢٣١٨) ـ ٤/١٨٠٨ ـ ١٨٠٩] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٦٤٩٤) ـ ١١/ ٣٣]، وأبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب في الرحمة ـ الحديث رقم (٤٩٤١) ـ ٥/ ٢٣١]، والترمذي في جامعه [كتاب البر/ باب ما جاء في رحمة المسلمين ـ الحديث رقم (١٩٢٤) ـ ٣/ ٤٨٣] من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ، وأوله: «الراحمون يرحمهم الرحمن».
وصححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي ٢/ ٣٥٠].

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ـ الحديث رقم (٢٨٦٥) ـ ٤/ ٢١٩٧ ـ ٢١٩٨] من حديث عياض بن حمار ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «ألا إن ربي أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم».

(٤) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٣٦٣٢) ـ ٦/ ١٣٨ ـ ١٤٠] من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى». =

وأقرب الخلق إليه: أعظمُهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه: من اتَّصف بضدِّ صفاته، وهذا باب لا يَلِجُه إلا الأفراد في العالم)[1].

فهذه اللذات والنِّعم ــ التي هي بعض ثمرات توحيد الأسماء والصفات في القلب ــ متى ما تجلَّت (رافلة في حللها: فإنها تسبي القلوب؛ وتأخذ بمجامعها، ومن لم يصادف من قلبه حياة: فهي خُودٌ تُزَفُّ إلى ضريرٍ مقعدِ، فالحمد لله على مواهبه التي لا تنتهي، ونسأله إتمام نعمته)[2].

والعبد متى ما سلم لقلبه هذا النور ــ المستجنُّ في هذه الثمرات ــ؛ ولم تطفئه رياح الغفلة والإعراض عن ذكر الله بأسمائه وصفاته: فإنه يُرتجى له ثبات القول في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويأنس حين دُنُوِّ أجله وقرب موته بمُبشِّرات حسن الخاتمة.

المسألة السادسة:

ما يُثمره توحيد الأسماء والصفات في القلب من الثبات وحسن الخاتمة.

إنَّ مشاهدة القلب لأسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ ومطالعته لمعانيها؛ وتعبُّده لله تعالى بمقتضاها: تزرع في سويدائه قُرَّة العين بربِّه ومعبوده ــ جلَّ جلاله ــ، ويحدو الشوق رِكَاب سيره إلى محبَّة لقاء ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ؛ والتلذُّذ برؤية وجهه الكريم، ويحمله الجِدُّ في المسير على التخفُّف من أوزار هذه الدار؛ حتى يُلقي عصى ترحاله عند أعتاب باب ربه تعالى في دار القرار.

= قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/ ٨٧]: (فيه أبو عبيدة) أي: ابن عبد الله بن مسعود (ولم يسمع من أبيه، ولكن رجاله ثقات).

(١) الروح ص٥٥٦ ــ ٥٥٧.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٢٧.

ولا تزال شمس الشوق والأمل تشرق في سماء هذا القلب حتى تعمره السكينة؛ وتغشاه الطمأنينة؛ وينيره اليقين، وهذا القلب المؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته؛ المُصدِّق بمعانيها لا تزال قدمُه تثبت وترسخ في هذا الميدان حتى تنزل بساحته سكرات الموت، فتأتيه رسل ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ فتُأمِّنه مما يستقبله أمامه؛ وتُطمئنه مما يتركه وراءه، وتحفظه من كلاليب الشكِّ وشوك الرَّيْب وحسك الحيرة التي تتخطف القلوب السقيمة عند موتها؛ فتهوي بها في مكان سحيق.

وإيضاح هذه المسألة يتجلَّى بتقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ؛ وبيانه للأوجه الآتية الذكر:

أولاً: تقريره أن القلب إنما تحصل له الطمأنينة بالإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته، وهذه الطمأنينة تُثبِّت القلب عند الممات، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الله ــ سبحانه ــ أخبر أن قلوب المؤمنين مطمئنةٌ بذكره؛ وهو كتابه الذي هدى به عباده، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

أجابهم ــ سبحانه ــ عن سؤالهم ترك إنزال آيات الاقتراح بجوابين:
أحدهما: أنها لا تُوجب إيماناً، بل الله هو الذي يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء؛ لا الآيات التي اقترحتموها.

الثاني: أنه نبَّههم على أعظم الآيات وأشدِّها اقتضاء للإيمان؛ وأنها في اقتضائها للإيمان أبلغ من الآيات التي تقترحونها، وهي كتابه الذي هو ذِكْرُه؛ وما تضمَّنه من الحقِّ الذي تطمئنُّ إليه القلوب، وتسكن إليه النفوس،

---

(١) سورة الرعد: الآيتان ٢٧ ــ ٢٨.

ولو كان باطلاً لم يزد القلوب إلا شكاً وريباً، فإن الكذب ريبةٌ؛ والصدق طمأنينةٌ، فلو كانت كلماته وألفاظه لا تُفيد اليقين بمدلولها: لم تطمئنَّ به القلوب، فإن الطمأنينة: هي سكون القلب إلى الشيء؛ ووثوقه به، وهذا لا يكون إلا مع اليقين؛ بل هو اليقين بعينه.

ولهذا تجد قلوب أصحاب الأدلَّة السمعية مطمئنة بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته واليوم الآخر؛ لا يضطربون في ذلك؛ ولا يتنازعون فيه، ولا يعرض لهم الشكُّ عند الموت، ولا يشهدون على أنفسهم ويشهدون على غيرهم بالحيرة والوقوف والشكِّ[1]، فيكفي في صحة مدلول الأدلَّة اللفظية؛ وبطلان مدلول الشُبَه العقلية التي تُخالفها: هذا القدر وحده.

فمتى رأيت أصحاب الأدلة السمعية يقول أحدهم[2] عند الموت:

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: البيتين رقم (٤١٧٢ ـ ٤١٧٣) ـ ص٣٠١]:

(هذي شهادتهم على محصولهم   عند الممات وقولهم بلسانِ
والله يشهد أنهم أيضاً كذا   تكفي شهادة ربنا الرحمنِ).

(٢) وهو: فخر الدين الرازي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: [منهاج السنة النبوية ٥/ ٢٧٠]: (أما الرازي: فهو في الكتاب الواحد؛ بل في الموضع الواحد منه ينصر قولاً، وفي موضعٍ آخر منه؛ أو من كتابٍ آخر ينصر نقيضه، ولقد استقرَّ أمرُه على الحيرة والشكِّ).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: [الروح ص٤٢١]: (جمهور الخلق الذي عرف الرازيُّ أقوالَهم: من أهل البدع وغيرهم من المضلين، وأما أقوال الصحابة والتابعين وأهل الحديث: فلم يكن له بها شعورٌ ألبتة).

=

(نهـايـةُ إقـدام العقـولِ عقـالُ ....)[1].

أو يقول[2]: (العمري:

لقـد طفـتُ المعـاهـدَ كلَّهـا ....)[3].

= وانظر في وصفه: الفرقان بين الحقِّ والباطل لابن تيمية ١٣/١٣٩ ـ ١٤١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٤٠؛ ٣/ ١١٧٠؛ ٤/ ١٢٢٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: [اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٣٠٤ ـ ٣٠٥]: (ذكر قول الإمام فخر الدين الرازي في آخر كتبه؛ وهو كتاب: (أقسام اللذات)؛ الذي صنفه في آخر عمره، وهو كتابٌ مفيدٌ، ذكر فيه أقسام اللذات؛ وبين أنها ثلاثةٌ: الحسية؛ كالأكل والشرب والنكاح واللباس، واللَّذَّة الخيالية الوهمية؛ كلذَّة الرئاسة والأمر والنهي والترفُّع ونحوها، واللَّذَّة العقلية؛ كلذَّة العلوم والمعارف، وتكلَّم عن كلِّ واحدٍ من هذه الأقسام. إلى أن قال: وأما اللَّذَّة العقلية: فلا سبيل إلى الوصول إليها؛ والتعلُّق بها، فلهذا السبب نقول: يا ليتنا بقينا على العدم الأول، وليتنا ما شهدنا هذا العالَم، وليتَ النفس لم تتعلَّق بهذا البدن، وفي هذا المعنى قلتُ:

نهـايـة إقـدامِ العقـولِ عقـالُ ... وأكثـر سعـي العـالميـن ضـلالُ

وأرواحنـا فـي وحشةٍ من جسومنـا ... وحـاصـل دنيـانـا أذى ووبـالُ

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سـوى أن جمعنـا فيـه قيـلَ وقـالـوا

وكـم قـد رأينـا مـن رجـالٍ ودولـة ... فبـادوا جميعـاً مُسـرعيـن وزالـوا

وكـم مـن جبالٍ قـد علـت شُرفـاتها ... رجـالٌ فـزالـوا والجبـال جبـالُ).

انظر: وفيـات الأعيان لابـن خلكان ٤/ ٢٥٠، طبقـات الشافعية الكبرى للسبكي ٨/ ٩٦.

(٢) وهو: عبد الكريم الشهرستاني.

(٣) وهذه الأبيات في فاتحة كتابه (نهاية الإقدام في علم الكلام) حيث قال: (قد أشار =

أو يقول[1]:

(فيــكَ يــا أُغلــوطــة الفكــرِ ....)[2].

أو يقول: (والله؛ ما أدري على أيِّ عقيدةٍ أموتُ؟)[3].

إلــى أضعــاف ذلــك مــن أحــوال أصحــاب الشُّبَــهِ العقليــة[4]،

= عليَّ من إشارته غُنْمٌ؛ وطاعته حَتْمٌ: أن أذكر له من مشكلات الأصول ما أشكل على ذوي العقول، ولعلَّه استسمن ذا ورمٍ؛ ونفخ في غير ضرمٍ، لعمري:

لقــد طفــتُ المعــاهــدَ كلَّهــا ... وسيَّرتُ طرفي بيـن تلك المعـاهـدِ

فلــم أر إلا واضعــا كــفَّ حــائــرٍ ... علـى ذَقَـنٍ أو قـارعـاً سـنَّ نـادمٍ).

(١) وهو: ابن أبـي الحديد البغدادي.

(٢) وتمام الأبيات:

فيــكَ يــا أُغلــوطــة الفكــرِ ... ضــاع دهــري وانقضــى عمــري

سَــافَــرَتْ فيــك العقــولُ فمــا ... ربحــــت إلا أذى السفــــرِ

قــاتــلَ الله الأولــى زعمــوا ... أنــك المعــروف بــالنظــرِ

كــذبــوا إن الــذي ذكــروا ... خــارج عــن قــوة البشــرِ.

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ في [درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٦٢]: (الخونجي: المصنف في أسرار المنطق؛ الذي سمى كتابه: (كشف الأسرار) يقول لما حضره الموتُ: (أموتُ ولم أعرف شيئاً؛ إلا أن الممكن يفتقر إلى الممتنع)، ثم قال: (الافتقار: وصفٌ سلبي، أموتُ ولم أعرف شيئاً). حكاه عنه التلمساني، وذكر أنه سمعه منه وقت الموت).
وانظر: الرد على المنطقيين لابن تيمية ص١١٤.

(٤) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٦٩]: (قال شيخنا: وكيف يكون هؤلاء المحجوبون المنقوصون الحيارى المُتهوِّكون أعلم بالله وصفاته وأسمائه وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذي اتبعوهم بإحسان ــ ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل؛ ومصابيح الدُّجى وأعلام الهدى ــ ؟ الذي بهم قام الكتاب وبه قاموا، =

وبالله التوفيق[1])[2].

فقلوب العباد على قلبين: قلبٍ موقنٍ؛ مؤسَّسٍ بنيانُه على تقوى من الله ورضوان، منشرحٍ للإيمان بالله تعالى؛ والتصديقِ بمعاني أسمائه وصفاته، ومستبشرٍ بذكرها، فهذا القلب: على نورٍ من ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ؛ قد علم ما فيه؛ فأنزل السكينة عليه؛ وأثابه فتحاً قريباً.

وقلبٍ شاكٍّ متردِّدٍ في ريبه، مؤسَّسٍ بنيانه على شفا جرفٍ هارٍ، قاسٍ من ذكر الله؛ ومشمئزٍّ من ذكر أسمائه وصفَاته، فهذا القلب: لم يُرِد الله تعالى أن يُطهِّره؛ فأضلَّه وجعله ضيِّقاً حرجاً كأنَّما يصعَّد في السماء.

= وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة مابرزوا به على سائر أتباع الأنبياء، وأحاطوا من حقائق المعارف بما لو جُمعت حكمةُ من عداهم وعلومهم إليه: لاستحى من يطلب المقابلة. ثم كيف يكون أفراخ المتفلسفة؛ وأتباع الهند واليونان؛ وورثة المجوس والمشركين؛ وضُلال الصابئين وأشباههم وأشكالهم أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟).

وقد نقل الإمام ابن قيم الجوزية كلام شيخه ــ رحمهما الله تعالى ــ من الفتوى الحموية الكبرى ٥/ ١١ ــ ١٢ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ١٥٨ ــ ١٦٣، منهاج السنة النبوية له ٥/ ٢٦٩ ــ ٢٧٢، سؤال في الصواب من مذهب السلف في الاعتقاد ومذهب غيرهم من المتأخرين وجوابه ٤/ ٧١ ــ ٧٤، الفتوى الحموية الكبرى ٥/ ١٠ ــ ١١ [رسالتان مودعتان ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٧٤ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٦٦ ــ ١٦٧؛ ٢/ ٢٦٣ ــ ٦٧٠؛ ٣/ ٨٤٠ ــ ٨٤٤؛ ١١٦٦؛ ٤/ ١٢٦٣، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤٥٥ ــ ٤٥٦.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٤١ ــ ٧٤٢.

ثانياً: تقريره أن مطالعة القلب لكمال الله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته يُورث صاحبه ثبات الجنان؛ ورباطة الجأش، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قال تعالى ــ إخباراً عن نبيه هود ــ عليه السلام ــ أنه قال لقومه ــ : ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦ ﴾[1].

ولما علم نبيُّ الله هود ــ عليه السلام ــ أن ربَّه على صراطٍ مستقيمٍ في خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته؛ من العدل والحكمة والرحمة، والإحسان والفضل، ووضع الثواب في موضعه؛ والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان؛ والعطاء والمنع؛ والهداية والإضلال؛ كلٌّ ذلك في أماكنه ومحالِّه اللائقة به ــ بحيث يستحقُّ على ذلك كمال الحمد والثناء ــ : أوجب له ذلك العلمَ والعرفانَ، إذ نادى على رؤوس الملأ من قومه بجنانٍ ثابتٍ؛ وقلبٍ غيرِ خائفٍ؛ بل متجرِّدٍ لله: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦ ﴾[2])[3].

فهذا بعض ما يُثمره توحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى على القلب من النعيم والسرور؛ واللذة والحبور؛ الموجب لحسن الخاتمة عند الموت.

---

(١) سورة هود: الآيات ٥٤ ــ ٥٦.

(٢) سورة هود: الآيات ٥٤ ــ ٥٦.

(٣) الداء والدواء ص٣١٧ ــ ٣١٨.

فهذا ختام تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لسفر القلب إلى فاطره وبارئه ومولاه، (فيا له من سَفَرٍ ما أبركه وأروحه؛ وأعظم ثمرته وربحه؛ وأجلَّ منفعته؛ وأحسن عاقبته، سَفَرٌ هو حياة الأرواح؛ ومفتاح السعادة؛ وغنيمة العقول والألباب)(١).

وله ــ رحمه الله تعالى ــ نظير هذا التقرير والبيان لهذه الثمرات في مواطن أُخر من كتبه(٢).



(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣٠.

(٢) انظر: بدائع الفوائد ٢/١٦٨ ــ ١٦٩، التبيان في أقسام القرآن ص٤٧٨، الداء والدواء ص١٣٢ ــ ١٣٣، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٢٧ ــ ٦٢٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٩١، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٧٠؛ ٨٤؛ ٤٢٢؛ ٤٩٥؛ ٥٠١؛ ٥١٥؛ ٥٧٥؛ ٦١٤، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٩٣، الفوائد ص٢٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٥؛ ٥٣ ــ ٥٤؛ ٥٤٢ ــ ٥٤٣؛ ٣/ ١٨؛ ٥٩ ــ ٦٠؛ ١٠٥؛ ١١٥؛ ١٦٠ ــ ١٦١؛ ١٩٢؛ ٢٣٠ ــ ٢٣١؛ ٢٣٩ ــ ٢٤٠؛ ٢٨٠ ــ ٢٨٤؛ ٣١٦ ــ ٣١٧؛ ٣٧٢ ــ ٣٧٣؛ ٣٩٦ ــ ٤٠٠؛ ٤٠١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٩ ــ ٣٠.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير ثمرات توحيد الأسماء والصفات في جوارح العبد

لمَّا كان صلاحُ الراعي له الأثر الحميد في صلاح الرعية ــ وكان القلب هو الراعي لمملكة الإنسان؛ والجوارح في هذه المملكة تبعٌ له ــ : كان بركةُ صلاحِ القلبِ واستقامته عائدةً على الجوارح، فجميع ما تقدم من الثمرات التي أَنس بها القلب وتنعَّم ــ والتي هي من آثار مطالعته لتوحيد الأسماء والصفات؛ ومشاهدته لمعانيها ــ : فإن للجوارح منها النصيب الأكبر؛ والحظ الأوفر.

والله ــ عزَّ وجلّ ــ قد عهد إلى عبده عهداً تقدَّم إليه فيه بالتعريف بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأعلمه في عهده بأنه ــ سبحانه وتعالى ــ لعبده على حسب ما يكون هو لخلقه، فيُعامل الله تعالى عبده في الدنيا والآخرة بعين الصفة التي يُعامل فيها خلقه: إن خيراً فخيرٌ؛ وإن شراً فشرٌّ.

فالعبد متى ما قابل إساءة الخلق بالعفو والغفران: قابل الله تعالى إساءته بمغفرة منه ورضوانٍ، وهذا بخلاف من آذى خلقه بتتبع عوارتهم؛ وهتك أستارهم: فإن الله تعالى يتبع عورته؛ ويفضحه ولو في جوف داره.

والعبد متى ما قام بما عهد إليه الله تعالى حقَّ القيام: أثمر له ذلك صلاح الجوارح، فلم تنظر عينه؛ ولم تسمع أذنه؛ ولم ينطق لسانه إلا بما يُرضي الله تعالى، ولم تبطش يده؛ ولم تمش رجله إلا فيما يُرضي الله

تعالى، وهذه حقيقة صفات العبد الربانيِّ؛ الذي لهج لسانه بحمد الله تعالى على أسماء الجلال وصفات الكمال ونعوت الجمال، وقامت جوارحه بواجبها من شكر الله تعالى على ما عهد إليه؛ مما فيه نجاحها في العاجلة؛ وفلاحها في الآجلة.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير ثمرات توحيد الأسماء والصفات في جوارح العبد، وبيان أثرها الحميد عليها، وإيضاح ذلك وتجليته مُضمَّنٌ في المسائل الثلاث الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أن مطالعة العبد لما عهد إليه ربُّه ـ تبارك وتعالى ـ في عهده؛ وتعرّف إليه فيه بأسمائه وأوصافه يُثمر في جوارحه الثمار المُستطابة؛ والمغانم المُطابة.

إنَّ مِن رحمة الله تعالى بعباده أن أرسل إليهم رسله؛ وأنزل عليهم كتبه، وعرَّفهم بنفسه المقدسة؛ وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذه الكرامة التي خصَّ الله تعالى بها خيار بريَّته؛ وأزكى بشريَّته: تُوجب على العبد المؤمن أن يتتبع معاني أسماء الله تعالى وصفاته؛ ويُزكِّي جوارحه للعمل بمقتضاها؛ ليسبغ الله عليه النعمة، ويتم عليه المنة، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (اعلم أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ اختصَّ نوع الإنسان من بين خلقه؛ بأن كرَّمه وفضَّله وشرَّفه وخلقه لنفسه، وخلق كلَّ شيءٍ له، وخصَّه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يُعْطِه غيره، وسخَّر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما؛ حتى ملائكته ــ الذين هم أهل قُرْبِه ــ استخدمهم له؛ وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته؛ وظعنه وإقامته.

وأنزل إليه وعليه كتبه؛ وأرسله وأرسل إليه؛ وخاطبه وكلَّمه منه إليه، واتَّخذ منهم الخليل والكليم والأولياء والخواصَّ والأحبار، وجعلهم معدن أسراره ومحلَّ حكمته وموضع حُبِّه، وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر؛ والثواب والعقاب: مداره على النوع الإنساني؛ فإنه خلاصة الخلق، وهو المقصود بالأمر والنهي؛ وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأنٌ ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيده؛ ونفخ فيه من روحه؛ وأسجد له ملائكته؛ وعلَّمه أسماء كلِّ شيء؛ وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد إبليس عن قُرْبه؛ وأبعده عن بابه إذ لم يسجد له مع الساجدين؛ واتخذه عدوًّا له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البريَّة على الإطلاق؛ وخيرة الله من العالمين، فإنه خلقه ليُتِمَّ نعمته عليه؛ وليتواتر إحسانه إليه، وليخصَّه من كرامته وفضله بما لم تَنَلْهُ أمنيته؛ ولم يخطر على باله ولم يشعر به؛ ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة؛ العاجلة والآجلة التي لا تُنال إلا بمحبته، ولا تُنال محبته إلا بطاعته؛ وإيثاره على ما سواه.

فاتخذه محبوباً له؛ وأعدَّ له أفضل ما يُعِدُّه محبٌ غنيٌ قادرٌ جوادٌ لمحبوبه إذا قدم عليه، وعهد إليه عهداً تقدَّم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يُقرِّبه إليه ويزيده محبة له وكرامة عليه؛ وما يُبعده منه ويُسخطه عليه ويُسقطه من عينه.

وللمحبوب عدوٌ هو أبغض خلقه إليه؛ قد جاهره بالعداوة؛ وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له دون وليِّهم ومعبودهم الحق، واستقطع عباده؛ واتَّخذ منهم حزباً ظاهروه ووالوه على ربِّهم؛ وكانوا أعداء له مع هذا العدوِّ، يدعون إلى سخطه؛ ويطعنون في ربوبيته وإلٰهيته ووحدانيته؛ ويسبُّونه ويُكذِّبونه؛ ويفتنون أولياءه ويُؤذونهم بأنواع الأذى؛

ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم؛ ومحو كلِّ ما يُحبِّه الله ويرضاه وتبديله بكلِّ ما يسخطه ويكرهه، فعرَّفه بهذا العدوِّ وطرائقهم وأعمالهم ومآلهم؛ وحذَّره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم.

وأخبره في عهده أنه: أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وأنه سبقت رحمتُه غضبَه؛ وحلمُه عقوبتَه؛ وعفوُه مؤاخذتَه، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة؛ وكتب على نفسه الرحمة.

وأنه يُحب الإحسان والجود والعطاء والبرَّ، وأن الفضل كلَّه بيده؛ والخير كلَّه منه؛ والجود كلَّه له، وأحبُّ ما إليه: أن يجود على عباده ويُوسِعَهم فضلاً؛ ويَغْمُرَهم إحساناً وجوداً؛ ويُتِمَّ عليهم نعمته؛ ويضاعف لديهم مِنَّته؛ ويتعرَّف إليهم بأوصافه وأسمائه؛ ويتحبَّب إليهم بنعمه وآلائه، فهو الجواد لذاته، وجود كلِّ جوادٍ خلقه الله ويخلقه أبداً: أقل من ذرَّة بالقياس إلى جوده، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو، وجود كلِّ جواد فمن جوده، ومحبَّته للجود والإعطاء والإحسان والبرِّ والإنعام والإفضال فوق ما يخطر ببال الخلق؛ أو يدور في أوهامهم، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشدَّ من فرح الآخذ بما يُعطاه ويأخذه ــ أحوج ما هو إليه؛ وأعظم ما كان قدراً ــ ، فإذا اجتمع شدَّةُ الحاجة وعظمُ قدر العطيَّة والنفع بها: فما الظنُّ بفرح المُعطَى؟ ففرح المُعطِي ــ سبحانه ــ بعطائه أشدُّ وأعظم من فرح هذا بما يأخذه.

ولله المثل الأعلى، إذ هذا شأن الجواد من الخلق؛ فإنه يحصل له من الفرح والسرور والابتهاج واللَّذَّة بعطائه وجوده فوق ما يحصل لمن يُعطيه، ولكن الآخذ غائبٌ بلذَّة أخذه عن لذَّة المُعطِي وابتهاجه وسروره، هذا مع كمال حاجته إلى ما يُعطيه وفقره إليه؛ وعدم وثوقه باستخلاف مثله؛ وخوف

الحاجة إليه عند ذهابه والتعرُّض لذُلِّ الاستعانة بنظيره ومن هو دونه؛ ونفسه قد طُبِعَت على الحرص والشُّحِّ، فما الظنُّ بمن تقدَّس وتنزَّه عن ذلك كلِّه؟

ولو أنَّ أهل سماواته وأرضه؛ وأول خلقه وآخرهم؛ وإنسهم وجنَّهم؛ ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوه؛ فأعطى كلَّ واحدٍ ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقالُ ذرةٍ، وهو الجواد لذاته؛ كما أنه الحيُّ لذاته؛ العليمُ لذاته؛ السميعُ البصيرُ لذاته، فجوده العالي من لوازم ذاته، والعفوَ أحبَّ إليه من الانتقام؛ والرحمةَ أحبَّ إليه من العقوبة؛ والفضلَ أحبَّ إليه من العدل؛ والعطاءَ أحبَّ إليه من المنع.

فإذا تعرَّض عبده ومحبوبه ــ الذي خلقه لنفسه؛ وأعدَّ له أنواع كرامته؛ وفضَّله على غيره؛ وجعله محلَّ معرفته؛ وأنزل إليه كتابه وأرسل إليه رسوله؛ واعتنى بأمره ولم يُهمله ولم يتركه سدى ــ، فتعرَّض لغضبه؛ وارتكب مساخطه وما يكرهه؛ وأبق منه؛ ووالى عدوَّه وظاهره عليه؛ وتحيَّز إليه وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه ــ التي هي أحبُّ شيءٍ إليه ــ؛ وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبِرِّ، وتعرَّض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه؛ وأن يصير غضبُه وسخطُه في موضع رضاه وانتقامه، وعقوبتُه في موضع كرمه وبِرِّه وعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحبُّ إليه منه؛ وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المُقرَّب المخصوص بالكرامة: إذ انقلب آبقاً شارداً؛ راداً لكرامته؛ مائلاً عنه إلى عدوِّه ــ مع شدَّة حاجته إليه؛ وعدم استغنائه عنه طرفة عينٍ ــ، فبينما ذلك الحبيب مع العدوِّ في طاعته وخدمته؛ ناسياً لسيِّده؛ مُنْهَمِكاً في موافقة عدوِّه؛ قد استدعى من سيِّده خلاف ما هو أهله: إذ عرضت له فكرةٌ؛ فتذكَّر بِرَّ سيِّده وعطفه وجوده وكرمه؛ وعلم أنه لا بُدَّ له

منه؛ وأنَّ مصيره إليه وعرضه عليه؛ وأنَّه إن لم يقدم عليه بنفسه: قُدِمَ به عليه على أسوأ الأحوال، ففرَّ إلى سيِّده من بلد عدوِّه؛ وجدَّ في الهرب إليه، حتى وصل إلى بابه؛ فوضع خدَّه على عتبة بابه؛ وتوسَّد ثرى أعتابه، متذلِّلاً متضرِّعاً خاشعاً باكياً آسفاً، يتملَّق سيِّده ويسترحمه؛ ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقى بيده إليه؛ واستسلم له، وأعطاه قياده؛ وألقى إليه زمامه، فعلم سيِّدُه ما في قلبه؛ فعاد مكان الغضب عليه رضى عنه؛ ومكان الشدَّة عليه رحمةً به؛ وأبدله بالعقوبة عفواً؛ وبالمنع عطاء؛ وبالمؤاخذة حلماً، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيِّده ما هو أهله؛ وما هو موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فكيف يكون فرح سيِّده به؛ وقد عاد إليه حبيبه ووليُّه طوعا واختياراً؛ وراجع ما يُحبّه سيِّده منه برضاه؛ وفتح طريق البِرِّ والإِحسان والجود ــ التي هي أحبُّ إلى سيِّده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة ــ ؟

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه حصل له شرودٌ وإباقٌ من سيِّده، فرأى في بعض السِكَك باباً قد فُتح وخرج منه صبيٌ؛ يستغيث ويبكي؛ وأمُّه خلفه تطرده؛ حتى خرج فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبيُّ غير بعيدٍ؛ ثم وقف مُفكِّراً فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أُخرج منه؛ ولا من يُؤويه غيرُ والدته، فرجع مكسورَ القلب حزيناً، فوجد الباب مرتجاً[1]؛ فتوسَّده ووضع خدَّه على عتبة الباب ونام، فخرجت أمُّه؛ فلما رأته على تلك الحال: لم تملك أن رمت نفسها عليه؛ والتزمته تقبِّله وتبكي؛ وتقول: يا ولدي أين تذهب عني؛ ومن يُؤويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تُخالفني؛ ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما

---

(١) الرِّتاج: الباب المغلق، وقد أرتج الباب: إذا أغلقه إغلاقاً وثيقاً.

انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ٤، المحيط في اللغة ٧/ ٥٨، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده ٧/ ٢٤٩ [مادة: رتج].

جُبلتُ عليه من الرحمة بك؛ والشفقة عليك؛ وإرادتي الخير لك، ثم أخذتُه ودخلت.

فتأمَّل قول الأم: لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلتُ عليه من الرحمة والشفقة، وتأمَّل قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»[1]، وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كلَّ شيء؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته: فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهلُه وأولى به.

فهذه نبذةٌ يسيرةٌ تُطلعك على سرٍّ فرح الله بتوبة عبده؛ أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة بعد اليأس منها، ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة؛ وتدقُّ عن إدراكه الأذهان.

وإياكَ وطريقة التعطيل والتمثيل؛ فإن كلاًّ منهما منزلٌ ذميمٌ؛ ومرتعٌ على علاته وخيمٌ، ولا يحلُّ لأحدهما أن يجد روائح هذا الأمر ونَفَسَه، لأن زُكَام التعطيل والتمثيل مفسدٌ لحاسَّة الشَّمِّ؛ كما هو مفسدٌ لحاسَّة الذَوْق، فلا يذوق طعم الإيمان؛ ولا يجد ريحه.

والمحروم كلَّ المحروم: من عُرِضَ عليه الغنى والخير؛ فلم يقبله، فلا مانع لما أعطى الله؛ ولا مُعطي لما منع، و ﴿ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾[2][3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأدب/ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ــ الحديث رقم (٥٩٩٩) ــ ٤/١٨٩٨ ــ ١٨٩٩]، ومسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله تعالى ــ الحديث رقم (٢٧٥٤) ــ ٤/٢١٠٩] من حديث عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «أترون هذه طارحة ولدها في النار».

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٩.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٢ ــ ٢٣٦.

فهذا بسطٌ وتقريرٌ للعهد الذي تقدَّم الله تعالى به لعبده؛ وتعرَّف إليه فيه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، والعبد متى ما عقل عن ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ هذا الخطاب، ووطَّن جوارحه للعمل بمقتضاها؛ طلباً للثواب: فقد ظفر من ربِّه تعالى بحسن العاقبة والمآب، كما هو مُقرَّر في:

المسألة الثانية:

تقريره أن إيمان العبد بأسماء الله تعالى وصفاته يُثمر في جوارحه الأعمال الصالحة التي يُحبُّ الله تعالى منه العمل بها في خاصَّة نفسه؛ ومع عامَّة عباده.

إنَّ الكياسة تدعو العبد إلى أن يُعمل جوارحه فيما يُرضي الله تعالى، وأحبُّ الأعمال إلى الله تعالى: ما عمل العبد فيها بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذه المسألة؛ مبيناً محبة الله تعالى لأسمائه الحسنى وصفاته العُلى؛ ومحبة من اتصف بها؛ ومحبة من عمل بها، فمن ذلك:

أولاً: تقريره أن إيمان العبد بالله تعالى وما يختصُّ به ــ سبحانه وتعالى ــ من أسماء الجلال وأوصاف الجمال يُثمر في جوارحه العمل بموجب ما يليق به من هذه الأسماء والصفات، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (في الصحيح: «إنَّ الله تعالى وترٌ يُحبُّ الوتر»[1].

وهو ــ سبحانه وتعالى ــ رحيمٌ يُحبُّ الرحماء؛ وإنما يرحم من عباده الرحماء، وهو ستِّيرٌ يُحبُّ من يستر على عباده، وعفوٌ يُحبُّ من يعفو عنهم، وغفورٌ يُحبُّ من يغفر لهم، ولطيفٌ يُحبُّ اللطيف من عباده؛ ويُبغض الفظَّ

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «لله تسعة وتسعون اسماً».

الغليظ القاسي الجعظريَّ الجوَّاظ، ورفيقٌ يُحبُّ الرفق، وحليمٌ يُحبُّ الحلم، وبَرٌّ يُحبُّ البِرَّ وأهله، وعدلٌ يُحبُّ العدل، وقابلٌ المعاذير يُحبُّ من يقبل معاذير عباده، ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه ــ وجوداً وعدماً ــ .

فمن عفى: عفى عنه، ومن غفر: غفر له، ومن سامح: سامحه، ومن حاقق: حاققه، ومن رفق بعباده: رفق به، ومن رحم خلقه: رحمه، ومن أحسن إليهم: أحسن إليه، ومن جاد عليهم: جاد عليه، ومن نفعهم: نفعه، ومن سترهم: ستره، ومن صفح عنهم: صفح عنه، ومن تتبع عورتهم: تتبع عورته، ومن هتكهم: هتكه وفضحه، ومن منعهم خيره: منعه خيره، ومن شاقَّ: شاقَّ الله تعالى به، ومن مكر: مكر به، ومن خادع: خادعه، ومن عامل خلقه بصفة: عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه.

ولهذا جاء في الحديث: «من ستر مسلماً: ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومن نفَّس عن مؤمنٍ كربةً من كرب الدنيا: نفَّس الله تعالى عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسرٍ: يسَّر الله تعالى حسابه»[١]. و «من أقال نادما: أقال الله تعالى عثرته»[٢]. و «من أنظر معسراً؛ أو وضع عنه: أظلَّه الله تعالى في ظلِّ عرشه»[٣])[٤].

فمن ثمرة إيمان العبد بتوحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته: أن ذلك الإيمان يكسو جوارح العبد بالأعمال الصالحة الموافقة في مسمَّاها وأوصافها

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤ ــ ٥٥.

لما يُحبُّ الله تعالى من عبده العمل به، فالعبد المؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته يستدعي من الله تعالى من معاملته نظير ما يُعامل به عباده، فإن عامل عباد الله تعالى بالإحسان: فله من الله تعالى الحسنى، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾[1]، وإن عاملهم بضدِّ ذلك: فلا يلومنَّ إلا نفسه، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[2]، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثانياً: تقريره أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُعامل عبده بمثل ما يُعامل به عباده، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن الجزاء من جنس العمل، فمن عفى: عفى الله عنه؛ ومن سامح أخاه في إساءته إليه: سامحه الله في سيئاته؛ ومن أغضى وتجاوز: تجاوز الله عنه؛ ومن استقصى: استقصى عليه.

ولا تنس حال الذي «قبضت الملائكة روحه؛ فقيل له: هل عملتَ خيراً؛ هل عملتَ حسنة؟ قال: ما أعلمه. قيل: تذكَّر. قال: كنتُ أبايعُ الناسَ، فكنتُ أُنْظِرُ المُوسر؛ وأتجاوزُ عن المُعسر، أو قال: كنتُ آمر فتياني أن يتجاوزوا في السِّكَّة. فقال الله: نحنُ أحقُّ بذلك منك، وتجاوز الله عنه»[3].

فالله ـ عزَّ وجلّ ـ يعامل العبد في ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس في ذنوبهم)[4].

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٦٠.

(٢) سورة فاطر: الآية ٤٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الاستقراض/ باب حسن التقاضي ـ الحديث رقم (٢٣٩١) ـ ٢/ ٧١٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب المساقاة/ باب فضل إنظار المعسر ـ الحديث رقم (١٥٦٠) ـ ٣/ ١١٩٤] من حديث حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ، واللفظ لمسلم، وأوله: «تلقت الملائكة روح رجلٍ ممن كان قبلكم».

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٧٥.

فإيمان العبد بأسماء الله تعالى وصفاته يبعث جوارحه على التحلية والتخلية، تحليتها بما يُوجب حمد الله تعالى والثناء عليه؛ وتخليتها من أضدادها، كما هو مُقرَّرٌ في:

المسألة الثالثة:

تقريره أن الجوارح تقوم بواجبها من حمد الله تعالى وتمجيده بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

إنَّ جوارح العبد تبعٌ لقلبه؛ منوطةٌ به، ولما كان القلب الصادق قائماً بواجبه حقَّ القيام؛ حامداً لله تعالى على ما له من أسماء الجلال وصفات الكمال؛ شاكراً نِعَمَه الظاهرة والباطنة عليه؛ والتي من أجلِّها ما أودعه فيه من معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته: كان الواجب على الجوارح أن تشدَّ أزر القلب؛ وتشركه فيما يجب على معبودها ــ جلَّ جلاله ــ من الحمد والتمجيد، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأفصح عنه فيما يأتي:

أولاً: تقريره أن الجوارح تُؤازر القلب واللسان في شكرها لله تعالى على آلائه ونعمائه، كما أن اللسان يُشارك القلب في حمد الله تعالى على أسمائه الحسنى وصفاته العلى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (ما يُحمد الربُّ تعالى عليه أعمُّ مما يُشكر عليه، فإنه يُحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه؛ ويُشكر على نعمه.

وما يُحمد به أخصُّ مما يُشكر به، فإنه يُشكر بالقلب واللسان والجوارح؛ ويُحمد بالقلب واللسان)[1].

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٥٢.

فتوحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى: يُثمر للجوارح حمد الله تعالى وشكره؛ الموجب لمحبته وتعظيمه، وإن من تمام محبة الله تعالى وتعظيمه: أن يصون العبد لسانه؛ فلا يذكر غير الله تعالى؛ ولا يعقد الأيمان والنذور إلا بأسمائه الحسنى؛ ولا يحلف إلا على أمرٍ يُقرِّبه من ربِّه؛ ويُدنيه من مولاه، وهذا هو تمام التوحيد والتمجيد، كما هو مُقرَّرٌ في:

ثانياً: تقريره أن اللسان لا يحلف إلا باسم الله تعالى تعظيما وتوحيداً، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (وأما الأيمان والنذور: فعقودٌ يعقدها العبد على نفسه؛ يُؤكِّد بها ما ألزم به نفسه من الأمور بالله؛ ولله، فهي تعظيمٌ للخالق ولأسمائه ولحقِّه؛ وأن تكون العقود به وله؛ وهذا غاية التعظيم.

فلا يُعقد بغير اسمه؛ ولا لغير القُرْب إليه، بل إن حلف: فباسمه تعظيماً وتبجيلاً وتوحيداً وإجلالاً، وإن نذر: فله توحيداً وطاعة ومحبة وعبودية، فيكون هو المعبود وحده؛ والمستعان به وحده)[1].

فهذا ختام هذا المطلب المتضمن لذكر بعض ثمرات توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته على الجوارح، تلك الثمرات التي لمثلها: ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ۝٦١﴾[2]، ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ۝٢٦﴾[3]، فهذا هو العَلَم الذي شمَّر إليه أولو الهمم والعزائم، واستبق إليه أصحاب الخصائص والمكارم.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣٢٥.

(٢) سورة الصافات: الآية ٦١.

(٣) سورة المطففين: الآية ٢٦.

تلـك المكـارمُ لا قعبـانَ مـن لبـنٍ   شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالاً[1])[2].

وبختام هذا المطلب: يُختتم هذا المبحث النفيس المتضمن لثمرات توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته على قلب العبد وجوارحه، (فبؤساً وتعساً للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يهزُّها الشَّوق إلى ذلك طرباً، ولا تتَّقد نار إرادتها لذلك رغباً، ولا تبعد عما يصدُّ عن ذلك رهباً، فبصائرها كما قيل:

خفـافيـشُ أعشـاهـا النهـارُ بضـوئـه   ولاءَهمـا قِطَـعٌ مـن الليـل مظلمُ[3].

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في [التبيان في أقسام القرآن ص٣٣٠] ولم يعزه لقائل.
واختُلف في صاحب هذا البيت، فمِن قائلٍ: إنه أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ــ أبو أمية بن أبي الصلت ــ، أنشده بين يدي سيف بن ذي يزن؛ يمدحه بعد قتله الحبشة، وذلك بعد مولد النبي ﷺ بسنتين، كما قال الجمحي في [طبقات فحول الشعراء ١/ ٥٨ ــ ٥٩]: (ترويه عامر للنابغة، والرواة مجمعون على أن أبا الصلت بن أبي ربيعة قاله).
وانظر: طبقات فحول الشعراء للجمحي ١/ ٢٦٢، تاريخ الأمم والملوك للطبري ١/ ٤٤٩، العقد الفريد لابن عبد ربه ٢/ ٢٠ ــ ٢١، الأغاني للأصفهاني ٩/ ١٩٩، البدء والتاريخ للمقدسي ٣/ ١٩٤، البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ١٤٧.
ومِن قائلٍ: إنه للنابغة الجعدي؛ في قصيدة له، كما قال ابن هشام في [السيرة النبوية ١/ ٧٩] ــ بعد ذكر أبيات لأبي الصلت ــ: (هذا ما صحَّ له مما روى ابن إسحاق منها؛ إلا آخرُها بيتاً ــ قوله: تلك المكارم لا قعبان من لبن ــ، فإنه للنابغة الجعدي).
وانظر: الأغاني للأصفهاني ٣/ ١٥.
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٠٧.
(٣) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في مواطن من كتبه ــ مع اختلاف في بعضها ــ ولم يعزه لقائل، ولم أقف عليه.
انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٥٨، الصواعق =

تجول حول الحشِّ؛ إذا جالت النفوس العلويَّة حول العرش، وتندسُّ في الأحجار؛ إذا طارت النفوس الزكيَّة إلى أعلى الأوكار.

فلم تَرَ أمثالَ الرجالِ تفاوتوا إلى الفضلِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ[1])[2].

وبختام هذا المبحث: يُختتم الفصل الأول ــ المُتعلِّق بتقرير أهمية توحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ وما يتبع ذلك من المقتضيات والآثار والثمرات ــ، (ولا تستطل هذا الفصل؛ فلعلَّه من أنفع فصول الكتاب، والحاجة إليه شديدةٌ، فإن رزقك الله فيه بصيرة: خرجت منه إلى فرقانٍ أعظم منه)[3]، لذا فهو حريٌّ أن (يُعضُّ عليه بالنواجذ؛ وتُثنى عليه الخناصر، فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله، والله المُوفِّق للصواب)[4].



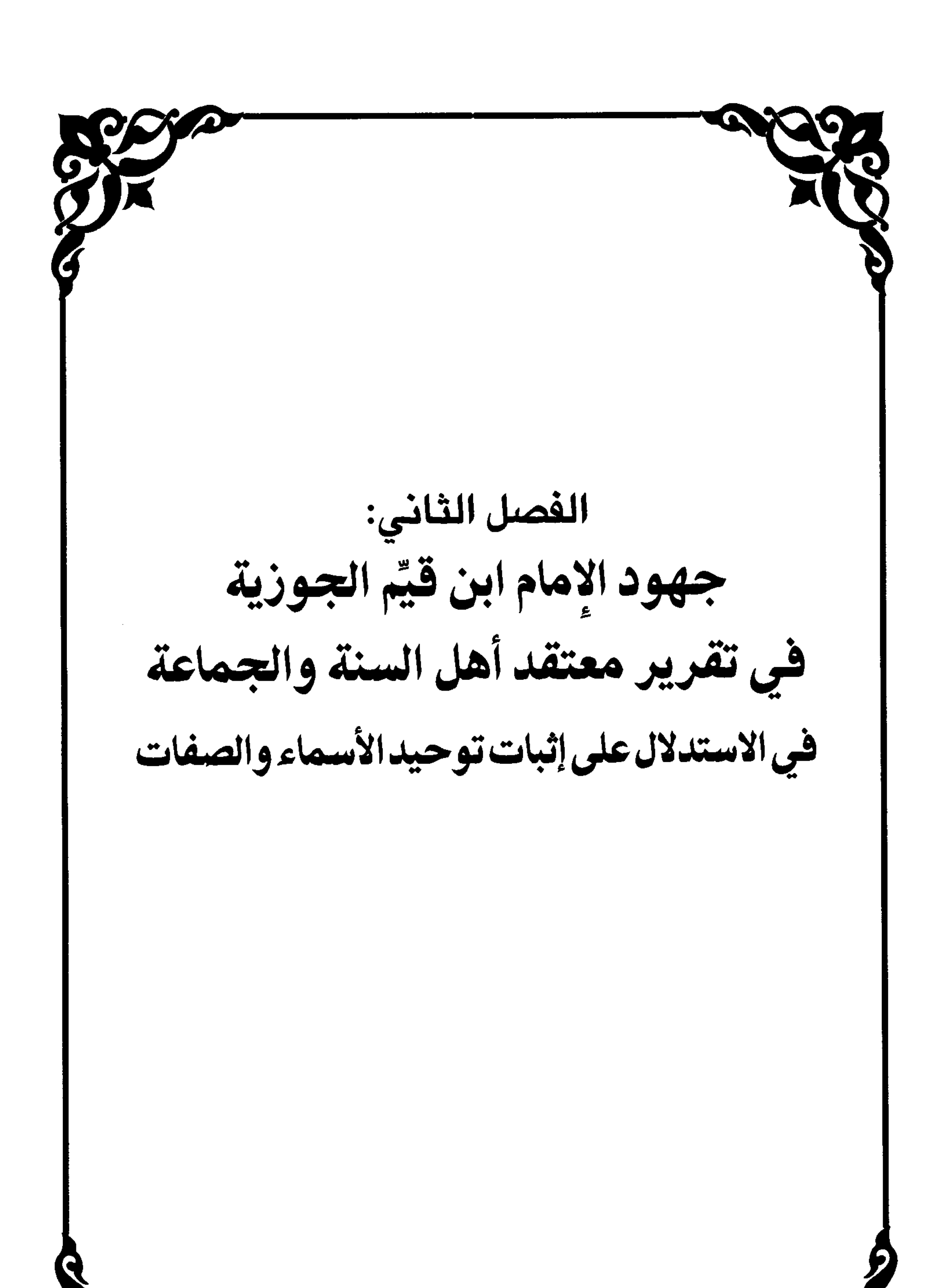
= المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٢، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ١٧٩.

(١) لم أقف عليه.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص١٧٦.

(٣) الروح ص٥٧٥.

(٤) بدائع الفوائد ١/ ١٠٨.



الفصل الثاني:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية
في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة

في الاستدلال على إثبات توحيد الأسماء والصفات



المبحث الأول:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في الاستدلال بالكتاب العزيز والسنة النبوية على إثبات توحيد الأسماء والصفات

إنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد أكرم أهل السنَّة والجماعة بمعتقدٍ سديدٍ ومنهج رشيدٍ؛ أُسِّسَ بنيانه على ركن شديدٍ، حيث إن أصحاب هذا المعتقد القويم والمنهج السليم قد اعتمدوا في إثبات أسماء الله تعالى وصفاته على ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه العظيم؛ وأثبته له رسوله الكريم ﷺ؛ من دون تفريق في الاستدلال بين نصوص الكتاب والسنة؛ ومن دون تمييز منهم في الاستدلال بين ما صحَّ من متواتر الأخبار أو آحادها[1].

(١) الخبر المتواتر: هو ما أفاد العلم؛ وأوجب العمل، والعلم المفيد به لا يحصل بعددٍ مُعيَّنٍ؛ بل يحصل بكثرة المُخبرين تارة؛ وبصفاتهم تارة أخرى. ويقابله: الخبر الآحاد، والصحيح فيه: أنه يُفيد العلم؛ ويُوجب العمل إذا احتفَّت به القرائن.

وقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية عن [سؤال في معنى قولهم: حديث حسنٌ أو مرسلٌ أو غريبٌ ١٨/ ٤٠]؛ بقوله: (الصواب الذي عليه الجمهور: أن المتواتر ليس له عددٌ محصورٌ، بل إذا حصل العلم عن إخبار المُخبرين: كان الخبر =

وإنَّ مِن أركان معتقدهم الرصين؛ وأساسهم المتين: حفظهم لحرمة النصوص الشرعية؛ وعدم انتهاكها، فلم يعرضوها على العقول القاصرة العاجزة؛ ويُقدِّموها عليها، كما أنهم لم يهتكوا سترها المُقدَّس؛ فيُسلِّطوا عليها التأويلات الفاسدة؛ ويسومونها بسوء عذاب المجازات الكاسدة، وهذا كلُّه من تمام إحكام أهل السنة والجماعة لهذا الباب العظيم؛ وحفظهم له من تسلُّل كلِّ دخيلٍ وزنيمٍ، ذي لُبٍّ عقيمٍ وعقلٍ سقيمٍ، فتراهم يُبالغون في تعظيم نصوص الوحيين؛ والعض عليها بالناجذين؛ والثني عليها بالخُنصرين.

وأما حال المحرومين من أهل البدعة والشناعة ـ الذي خرجوا عن هديهم ونهجهم ـ: فإنهم أسقطوا حرمة هذه النصوص الشرعية من القلوب؛ وحكموا على متواترها بأنها: أدلة لفظية لا تُفيد علماً ولا يحصل منها يقينٌ، وأنها مجازاتٌ لا حقيقة لها، وأما آحادها: فحكموا عليها بأنها لا تُفيد علماً؛ وغايتها أن تُفيد الظنَّ الذي لا يُغني من الحقِّ شيئاً، كما أنهم تجرَّؤوا على إسقاط حرمة جميع النصوص الشرعية الصحيحة؛ إذا عارضت عقولهم البشريَّة القبيحة[1]، فلا تسأل بعد ذلك عن جنايتهم على نصوص

= متواتراً. وكذلك الذي عليه الجمهور: أن العلم يختلف باختلاف حال المُخبرين به، فرُبَّ عددٍ قليلٍ أفاد خبرُهم العلم بما يُوجب صدقهم، وأضعافُهم لا يُفيد خبرُهم العلم، ولهذا كان الصحيح: أنَّ خبر الواحد قد يُفيد العلم إذا احتفَّت به قرائن تُفيد العلم) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].
وانظر: معاني لفظ المتواتر لابن تيمية ١٨/٤٨ ـ ٥١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(١) هذه هي: الطواغيت الأربعة التي هدم بها أهل البدعة والشناعة معاقل الدين؛ وانتهكوا بها حرمة الكتاب المبين، ومحوا بها رسوم الإيمان والإسلام؛ وأبطلوا بها دلائل التوحيد والأحكام. =

السنة والكتاب؛ وصرفهم لها عن وجه الصواب، ولا تسأل عن الفتنة التي أحدثوها في البلاد؛ والبليَّة التي ألحقوها بالعباد.

ومستصغر الشرر في هذه الفتنة: هو الألفاظ المحدثة المبتدعة التي اصطلح عليها المحدثون في هذا الباب العظيم.

وهذا الإِحداث مستلزمٌ لأمرين؛ أحدُهما مُترتبٌ على الآخر:

الأول: تنقُّص نصوص الوحي المُطهَّر المتضمنة لإِثبات أسماء الله تعالى وصفاته.

الثاني: إسقاط حرمة هذه النصوص من القلوب؛ والذي يترتَّب عليه الفساد الكبير؛ والخطر المستطير.

وفي الأمر الأول يقول الإِمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (المُتنقِّصون المنقوصون عند الله تعالى ورسوله وأوليائه: هم أهل الشرك والبدعة؛ ولا سيَّما مَن بَنَى دينه على أن كلام الله ورسوله: أدلةٌ لفظيةٌ لا تُفيد اليقين؛ ولا تُغني من اليقين والعلم شيئاً، فيا لله للمسلمين؛ أيُّ شيءٍ فات من هذا التنقُّص؟

وكذلك مَن نفى صفات الكمال عن الربِّ تعالى خشية ما يتوهَّمه من التشبيه والتجسيم: فقد جاء من التنقُّص بضدِّ ما وصف الله ـ سبحانه ـ به نفسه من الكمال)[1].

وفي الأمر الثاني ـ المُترتِّب على الأمر الأول ـ يقول ـ رحمه الله تعالى ـ في الألفاظ المكروهة: (ومنها أن يُسمِّي أدلة القرآن والسنة: ظواهر

= ولهدم هذه الطواغيت الأربعة: نصب الإِمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ منجنيقه المسمى بـ: (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة).

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ١٠٢.

لفظية ومجازات، فإن هذه التسمية تُسقط حرمتها من القلوب؛ ولا سيَّما إذا أضاف إلى ذلك: تسمية شبه المتكلمين والفلاسفة: قواطع عقلية.

فلا إله إلا الله؛ كم حصل بهاتين التسميتين من فساد في العقول والأديان؛ والدنيا والدين؟)[1].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في الاستدلال بنصوص الوحيين المُطهَّرين على إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

وقد دارت حول رحى تقريره لهذا المبحث أربعة مطالب:

المطلب الأول: جهوده في تقرير الاستدلال بالكتاب والسنة؛ وعدم التفريق بينهما في ذلك.

المطلب الثاني: جهوده في تقرير الاستدلال بمتواتر الأخبار وآحادها؛ وعدم التفريق بينهما في ذلك.

المطلب الثالث: جهوده في تقرير عدم تقديم العقل على الكتاب والسنة في الاستدلال.

المطلب الرابع: جهوده في تقرير رفض التأويل الفاسد في الاستدلال.



(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٧٣.

المطلب الأول:

جهوده في تقرير الاستدلال بالكتاب والسنة وعدم التفريق بينهما في ذلك

إنَّ أهل السنَّة والجماعة قد أسَّسوا بنيان معتقدهم في توحيد الأسماء والصفات على تقوى من الله ورضوان، واعتمدوا في إثباتهم لأسماء الله تعالى وصفاته على ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه العظيم؛ وأثبته له رسوله الكريم ﷺ؛ من دون تفريقٍ في الاستدلال بين نصوص كتاب الله تعالى ونصوص سنة رسوله ﷺ، لأنهم رأوا أن كِلا النَّصيْن وحيٌ منزلٌ من عند الله تعالى، (فالسنة: تُفسِّر القرآن وتُبيِّنه؛ وتدلُّ عليه وتُعبِّر عنه، وما وصف الرسول ﷺ به ربَّه ـ عزَّ وجلّ ـ من الأحاديث الصِّحاح التي تلَّقاها أهل المعرفة بالقبول: وجب الإيمان بها كذلك)[1].

فالسنة: وحيٌ من الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ أوحاها إلى نبيه ﷺ؛ كما أوحى إليه كتابه الكريم، وقد أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالنجم عند هُوِيِّه على تنزيه رسوله ﷺ، فبرَّأه مما نسبه إليه أعداؤه من الضَّلال والغيِّ، وسلَّم نطقه أن يكون صادراً عن هوى؛ بل هو وحيٌ أوحاه الله تعالى إليه[2]،

(١) العقيدة الواسطية لابن تيمية ٣/١٣٨ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) انظر: التبيان في أقسام القرآن ص٣٠٨ ـ ٣١٥.

فقال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾(١).

وقد اشتدَّ نكير نبـي الله ﷺ على مَن فرَّق بين كتاب الله تعالى وسنته في الاستدلال؛ وعَظُم زجره له، فقال: «ألا إني أوتيتُ الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيتُ القرآن ومثله معه، ألا يُوشك رجلٌ ينثني شبعاناً على أريكته(٢) يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلُّوه، وما وجدتم فيه من حرامٍ فحرِّموه»(٣).

وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى هذه الحقيقة الشرعية ـ وهي تفسير السنة للقرآن وتبيينه؛ والدلالة عليه والتعبير

---

(١) سورة النجم: الآيات ١ ـ ٤.

(٢) الأريكة: السرير في الحجلة من دونه سترٌ، وقيل: هو كلُّ ما اتُّكِيء عليه من سريرٍ أو فراشٍ أو منصةٍ، وجمعها: أرائك، وتسميتها بذلك إما: لكونها في الأرض متخذةٌ من شجرة الأراك، وإما: لكونها مكاناً للإقامة.

انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٧٣، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/٤٠، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للفتني ١/٦٨ [مادة: أرك].

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٧١٧٤) ـ ٢٨/ ٤١٠ ـ ٤١١]، وأبو داود في سننه [كتاب السنة/ باب في لزوم السنة ـ الحديث رقم (٤٦٠٤) ـ ٥/ ١٠ ـ ١٢]، والترمذي في جامعه [أبواب العلم/ باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ ـ الحديث رقم (٢٦٦٣) ـ ٤/٣٩٨ ـ ٣٩٩]، وابن ماجه في سننه [المقدمة/ باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ـ الحديث رقم (١٢) ـ ١/ ١٥ ـ ١٦] من حديث المقدام بن معدي كرب ـ رضي الله عنه ـ.

وصححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود ٣/ ١١٧ ـ ١١٨].

عنه ــ بقوله ــ نظماً ــ :

(ولذاك مَن عَرَفَ الكتابَ حقيقةً   عَـرَفَ الـوجـودَ جميعَـهُ ببيـانِ
وكـذاك يَعْـرِفُ جملـةَ الشَّـرْعِ الـذي   يحتـاجُـه الإِنسـانُ كـلَّ زمـانِ
عِلْمـاً بتفصيـلٍ وعِلْمـا مجمـلاً   تفصيلُـهُ أيضـاً بـوحـيٍ ثـانِ
وكـلاهُمـا وَحْيَـان قـد ضَمِنَـا لنـا   أعلـى العلـومِ بغـايـة التِّبْيـان)[1].

وقد اجتهد الإِمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في بيان معتقد أهل السنة والجماعة في الاستدلال بالكتاب والسنة المُطهَّرين على إثبات توحيد الأسماء والصفات؛ وبيان عدم الفرق بينهما في هذا الباب، فمن ذلك ما قرّره في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أنّ أهل السنّة والجماعة إنما يتلقّون أخبارهم عن الله ــ سبحانه وتعالى ــ؛ وعن أسمائه الحسنى وصفاته العلى: من مشكاة الوحيين المُطهّرين.

قال الإِمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (قال بعض السلف: (ليتَّق أحدُكم أن يقول: أحلَّ الله كذا؛ أو حرَّم كذا، فيقول الله له: كذبت، لم أحل كذا؛ ولم أحرمه[2])[3].

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤٢٦٨ ــ ٤٢٧١) ــ ص٣٠٦].

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/٤٧٣] في الألفاظ المكروهة: (ومنها أن يقول المفتي: أحلَّ الله كذا؛ وحرَّم الله كذا في المسائل الاجتهادية، وإنما يقوله فيما ورد النصُّ بتحريمه).

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير [رقم (٨٩٩٥) ــ ٩/٢٠٤] من حديث =

وهكذا لا يسوغ أن يقول: قال رسول الله ﷺ لما لا يُعلم صحته؛ ولا ثقة رواته، بل إذا رأى أيَّ حديث كان في أيِّ كتابٍ يقول: لقوله ﷺ؛ أو لنا قوله ﷺ، وهذا خطر عظيم؛ وشهادة على الرسول بما لا يعلم الشاهد.

وكذلك لا يسوغ له أن يُخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله بما لم يُخبر به ــ سبحانه ــ عن نفسه ولا أخبر به رسوله عنه؛ كما يستسهله أهل البدع، بل لا يُخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله إلا بما أخبر به عن نفسه؛ وأخبر به رسوله عنه)[1].

فحال أهل السنة والجماعة: مضادٌّ من كلِّ وجهٍ لحال أهل البدعة والشناعة، فهم يتلقَّون الأخبار عن الله ــ سبحانه وتعالى ــ؛ وعن أسمائه الحسنى وصفاته العلى من مشكاة الوحيين المُطهَّرين، ويستنيرون في إثبات ما لله تعالى؛ أو نفيه من الأسماء الحسنى والصفات العلى: بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فهم لا يتجرؤون على اقتحام هذا الباب العظيم بالإثبات والنفي ــ كحال أهل الزيغ والضلال ــ؛ بل يحفظون لهذا الباب حرمته وقدسيَّته، ولا يتكلمون فيه إلا بأثارة من علم مُقتبس من مشكاة الوحيين المُنيرين.

واستدلال أهل السنة والجماعة بحديث المصطفى ﷺ في باب الأسماء والصفات: فيه دلالةٌ على أحد معالم معتقدهم المُسدَّد في هذا الباب؛ وهو عدم تفريقهم في الاستدلال بين نصوص الوحيين المُطهَّرين.

= عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ؛ بلفظ نحوه، وفي إسناده من لم يُسم.

انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (١/ ١٧٧).

(١) أحكام أهل الذمة ١/ ٢٠.

المسألة الثانية:

تقريره أنَّ أهل السنَّة والجماعة يبنون معتقدهم في باب الأسماء والصفات على أركان الأخبار الصحيحة الصريحة التي يستقونها بصدرٍ منشرحٍ من سنة رسوله ﷺ؛ من دون تفريقٍ في الاستدلال بينها وبين ما تضمنته آي الكتاب العزيز.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (لا ريب أن كلَّ من له التفاتٌ إلى سنة رسول الله ﷺ؛ واعتناء بها: يشهد شهادة جازمة أنَّ المؤمنين يرون ربهم عياناً يوم القيامة، وأنَّ قوماً من أهل التوحيد يدخلون النار ثم يخرجون منها بالشفاعة، وأنَّ الصراط حقٌّ، وتكليم الله لعباده يوم القيامة كذلك، وأنَّ الولاء لمن أعتق؛ إلى أضعاف أضعاف ذلك، بل يشهد بكل خبر صحيح؛ متلقى بالقبول ـ لم ينكره أهل الحديث ـ شهادة لا يشك فيها)[1].

فأهل السنة والجماعة ـ أهل الحديث والأثر ـ : يُولون سنة رسول الله ﷺ اهتماماً منقطع النظير، ويعتنون بكلِّ ما يتعلق بها من كبير وصغير، فهم يشهدون شهادة لا يخالطها ريبٌ؛ ولا يداخلها شكٌّ: أن رسول الله ﷺ عرَّف أمته بأسماء الله تعالى وصفاته أتمَّ تعريف، وأن حواريِّيه من صحابته الكرام ـ رضي الله عنهم ـ فهموا عنه مراده؛ ونقلوا للأمة ما تكلَّم به النبي ﷺ في هذا الباب، وتلقَّته الأمة منهم بالقبول الحسن؛ ولم يُنكروا منه شيئاً.

وقبول أهل السنة والجماعة ـ بصدرٍ منشرحٍ ـ للأخبار الصحيحة الصريحة التي استقوها من سنة رسوله ﷺ: يدلُّ على عدم تفريقهم في

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٥٣.

الاستدلال بينها وبين ما تضمنته آي الكتاب العزيز من نصوص باب الأسماء والصفات، وأن كلاً منهما يُفيد العلم اليقيني الذي تحصل به الطمأنينة في هذا الباب العظيم.

وهذا بخلاف أهل الكلام الباطل المذموم، فإنهم لم يزالوا (موكَّلين بردِّ أحاديث رسول الله ﷺ التي تُخالف قواعدهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة، كما ردُّوا أحاديث الرؤية؛ وأحاديث علو الله على خلقه؛ وأحاديث صفاته القائمة به؛ وأحاديث الشفاعة؛ وأحاديث نزوله إلى سمائه ونزوله إلى الأرض للفصل بين عباده؛ وأحاديث تكلُّمه بالوحي كلاماً يسمعه من شاء من خلقه حقيقة، إلى أمثال ذلك)[1].

المسألة الثالثة:

تقريره أنَّ كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ يُفيد العلم اليقينيّ في مسألة الأسماء والصفات ـ التي هي أعظم مسائل أصول الدين ـ.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (استدلال النبي ﷺ على مسائل أصول الدين بالقرآن؛ وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه، خلافاً لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يُفيد العلم بشيءٍ من أصول الدين؛ ولا يجوز أن تُستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه؛ وعبَّر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تُفيد اليقين)[2].

فأهل السنة والجماعة ـ المُتَّبعون لهدي رسول الله ﷺ وهدي أصحابه في باب الأسماء والصفات ـ : يستدلون في جميع مسائل أصول الدين ـ على وجه العموم ـ ؛ ومسألة الأسماء والصفات ـ على وجه

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٩١.

الخصوص ــ بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ويعتقدون إفادتهما للعلم اليقينيِّ الذي تحصل به الطمأنينة.

وإذا كان الوحي المصون لم يفِ بإفادة اليقين في هذا الباب: فكيف يكون شافياً لما في صدور المؤمنين؛ وهدى ورحمة لهم؟

والقائلون بأن الأدلة المثبتة لأسماء الله تعالى وصفاته إنما تُتَلقَّى من الكتاب العزيز دون السنة المطهرة ــ على زيغهم وضلالهم ــ : أحسن حالاً من إخوانهم الذين أسقطوا حرمة كِلا الوحيين؛ وقالوا بأنها: ظواهر لفظية؛ لا تُفيد اليقين، ولا تحصل الطمأنينة بها في هذا الباب.

المسألة الرابعة:

تقريره أنَّ كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ إذا لم يفيا بإفادة اليقين في مسألة معرفة الله بأسمائه وصفاته: لم يحصل بهما الشفاء والهدى والرحمة.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1].

وكيف يشفي ما في الصدور: كتابٌ لا يفي هو وما تُبيِّنه السنة بعُشْرِ مِعْشَار الشريعة؟ أم كيف يشفي ما في الصدور: كتابٌ لا يُستفاد منه اليقين في مسألةٍ واحدةٍ من مسائل معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أوعامَّتها ظواهر لفظية دلالتها موقوفةٌ على انتفاء عشرة أمور لا يُعلم انتفاؤُها؟ سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ.

ويالله العجب؛ كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين ــ التي أتى الله بنيانها من القواعد ــ ؛ وقبل استخراج هذه الآراء والمقاييس

---

(١) سورة يونس: الآية ٥٧.

والأوضاع؟ أَهَلْ كانوا مهتدين مكتفين بالنصوص؛ أم كانوا على خلاف ذلك حتى جاء المتأخرون؛ فكانوا أعلم منهم وأهدى وأضبط للشريعة منهم؛ وأعلم بالله وأسمائه وصفاته وما يجب له وما يمتنع عليه منهم؟)[1].

فهذا بعض ما تضمنه كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ من بيانٍ وتقريرٍ لمعتقد أهل السنة والجماعة؛ وما هم عليه من إثبات أسماء الله تعالى وصفاته من نصوص الوحيين ـ الكتاب والسنة المُطهَّرين ـ ؛ من غير تفريقٍ بينهما في الاستدلال.

وهذا المعتقد السديد أوجب لأهل السنة والجماعة ـ أهل الحديث والأثر ـ العناية البالغة بسنة رسول الله ﷺ؛ حتى غدت عنايتُهم فيها فائقة لعناية من عداهم، وصاروا يستدلُّون في هذا الباب بكلِّ ما صحَّ عن رسول الله ﷺ؛ من متواتر الأخبار وآحادها.



---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٣٧٧.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير الاستدلال بمتواتر الأخبار وآحادها وعدم التفريق بينهما في ذلك

إنَّ الأخبار الواردة في باب أسماء الله تعالى وصفاته عند أهل السنة والجماعة على أَضْرُبٍ: فَمِنْ متواتر هذه الأخبار: ما تواتر لفظُهُ ومعناهُ، ومنها ما انفرد بالتواتر معناهُ دون لفظِه، ومن هذه الأخبار: ما استفاض الخبرُ به عن النبي ﷺ استفاضةً تلقَّتها الأمةُ بينها بالقبول والرِّضى، وأدنى هذه الأخبار منزلة ـ وليس فيها دنيٌّ ـ ما صحَّ نقل العدول الضابطين لها.

لذا نجد أن أهل السنة والجماعة قد جعلوا أخبار الآحاد الصحيحة بمنزلة أخبار التواتر في الاستدلال؛ وأن كلاً منهما حجةٌ في باب أسماء الله تعالى وصفاته، فهم متوافرون على قبول أخبار الآحاد؛ والاحتجاج بها، ولم يُنقل عن أحدٍ منهم التفريقَ بينهما في الاحتجاج؛ وأنه يُحتجُّ بأخبار الآحاد في باب الأحكام؛ دون باب الأسماء والصفات.

وقد أجمع المسلمون على وجوب الردِّ إلى حكم رسول الله ﷺ في حياته، واتفقوا على أنَّ فرض هذا الردِّ لم يسقط بموته؛ بل الواجب الردُّ إلى سنَّته بعد مماته، فإذا كانت أحاديث الآحاد لا تُفيد في باب الأسماء والصفات علماً ولا يقيناً: لم يكن للردِّ إلى السنة المطهرة وجهٌ.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في الاستدلال بمتواتر الأخبار وآحادها على إثبات توحيد الأسماء والصفات؛ وبيان أنه لا فرق بينهما في هذا الباب، وبيان ذلك في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أن أخبار الآحاد أحدُ أقسام الأخبار المقبولة في باب الأسماء والصفات؛ والمفيدة للعلم واليقين.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (الأخبار المقبولة في باب الأمور الخبرية العلمية: **أربعة أقسام**:

أحدها: متواترٌ لفظاً ومعنى.

والثاني: أخبارٌ متواترةٌ معنى؛ وإن لم تتواتر بلفظٍ واحدٍ.

الثالث: أخبارٌ مستفيضةٌ متلقاةٌ بالقبول بين الأمة.

الرابع: أخبارُ آحادٍ مرويةٌ بنقل العدل الضابط؛ عن العدل الضابط؛ عن مثله؛ حتى تنتهي إلى رسول الله ﷺ.

فأما القسمان الأولان: فالأخبار الواردة في عذاب القبر؛ والشفاعة والحوض؛ ورؤية الربِّ تعالى وتكليمه عباده يوم القيامه؛ وأحاديث عُلُوِّه فوق سماواته على عرشه؛ وأحاديث إثبات العرش؛ والأحاديث الواردة في إثبات المعاد والجنة والنار؛ ونحو ذلك مما يُعلم بالاضطرار أن الرسول جاء بها؛ كما يُعلم بالاضطرار أنه جاء بالتوحيد وفرائض الإسلام وأركانه؛ وجاء بإثبات الصفات للرب تعالى.

فإنه ما من باب من هذه الأبواب إلا وقد تواتر فيه المعنى المقصود عن النبي ﷺ تواتراً معنويًّا لنقل ذلك عنه بعباراتٍ متنوعةٍ من وجوهٍ متعددةٍ؛ يمتنع في مثلها في العادة التواطؤ على الكذب ــ عمداً أو سهواً ــ .

وإذا كانت العادة العامَّة والخاصَّة المعهودة من حال سلف الأمة وخلفها تمنع التواطؤ على الاتفاق على الكذب في هذه الأخبار؛ ويمتنع في العادة وقوع الغلط فيها: أفادت العلم واليقين)[1]، إلى آخر كلامه ــ رحمه الله تعالى ــ .

فهذا أحد الأركان الذي أُسِّس عليه معتقد سلف الأمة ومن تبعهم بإحسان؛ وهو: تلقِّي الأخبار الواردة في أبواب الدين ــ متواترها وآحادها ــ بالقبول والتسليم، والقطع بإفادتها للعلم واليقين، وهذا القبول: ينتظم ما يتعلَّق منها بالأحكام الخبرية العلمية؛ كما ينتظم ما يتعلق منها بالأحكام الطلبية العملية.

المسألة الثانية:

تقريره أن أهل السنة والجماعة أجمعوا على الاحتجاج بأخبار الآحاد في إثبات الأسماء والصفات كما وقع الاحتجاج بها في إثبات الأحكام.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في أخبار الآحاد: (هذه الأخبار لو لم تُفد اليقين: فإن الظنَّ الغالب حاصلٌ منها، ولا يمتنع إثبات الأسماء والصفات بها كما لا يمتنع إثبات الأحكام الطلبية بها، فما الفرق بين باب الطلب وباب الخبر؛ بحيث يُحتج بها في أحدهما دون الآخر؟

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٢٣ ــ ٥٢٤.

وهذا التفريق باطلٌ بإجماع الأمة، فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث في الخبريات العلميات؛ كما يُحتج بها في الطلبيات العمليات، ولا سيما والأحكام العملية تتضمن الخبر عن الله بأنه شرع كذا وأوجبه ورضيه ديناً بشرعه، ودينه راجع إلى أسمائه وصفاته.

ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم ينقل عن أحد منهم ألبتة: أنه جَوَّز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام؛ دون الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته)[1].

فأهل السنة والجماعة قبلوا أخبار الآحاد؛ وأجمعوا على الاحتجاج بها في الأحكام الخبرية العلمية؛ كما وقع منهم الاحتجاج بها في الأحكام الطلبية العملية.

وكيف يقع التفريق في الاحتجاج بأخبار الآحاد بين الحكم الخبريِّ العلميِّ وبين الحكم الطلبيِّ العمليِّ ـ وأحدهما دليلٌ والآخر مدلولٌ عليه ـ؟ هل هذا إلا أبين المحال؛ بل هو عين الضلال؟ فما حقيقة الأحكام الشرعية لمن أبصرها بعين بصيرته إلا (استدلالٌ بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العمليِّ في باب الأمر والنهي)[2].

وأبطل من هذا القول ـ أي: الاحتجاج بأخبار الآحاد في الحكم الطلبيِّ العمليِّ؛ دون الحكم الخبريِّ العلميِّ ـ: قول من قال: إن متواتر الأخبار وآحادها لا تُفيد علماً ولا يقيناً في باب الأحكام الخبرية العلمية، ولا يُثبت بها الأسماء والصفات.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٦٣.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٢٩٦ ـ ٢٩٧.

المسألة الثالثة:

تقريره أن من لم يستفد العلم واليقين في باب الأسماء والصفات من متواتر الأخبار وآحادها: فهو بمعزلٍ عن تحكيم الرسول ﷺ والتسليم له.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

وفرض تحكيمه لم يسقط بموته؛ بل ثابتٌ بعد موته كما كان ثابتاً في حياته، وليس تحكيمه مختصاً بالعمليات دون العلميات؛ كما يقوله أهل الزيغ والإلحاد.

وقد افتتح ـ سبحانه ـ هذا الخبر بالقسم المُؤكَّد بالنفي قبله، وأقسم على انتفاء الإيمان منهم حتى يُحكِّموا رسوله ﷺ في جميع ما تنازعوا فيه من دقيق الدين وجليله؛ وفروعه وأصوله، ثم لم يكتف منهم بهذا التحكيم حتى ينتفي الحرج ـ وهو الضيق ـ مما حَكَم به، فتنشرح صدورهم لقبول حُكْمِه؛ انشراحاً لا يبقى معه حرجٌ، ثم يسلموا تسليماً، أي: ينقادوا لحكمه[2].

والله يشهد ورسوله وملائكته والمؤمنون أن من قال: أدلة القرآن والسنة لا تُفيد اليقين؛ وأن أحاديث الأسماء والصفات أخبارُ آحادٍ لا تُفيد العلم: بمعزلٍ عن هذا التحكيم، وهو يشهد على نفسه بذلك، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ الآية[3].

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٢) انظر في فقه هذا القَسَم الإلـهي الكريم: التبيان في أقسام القرآن ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

وأجمع المسلمون أن الردَّ إليه: هو الرجوع إليه في حياته؛ والرجوع إلى سنَّته بعد مماته، واتفقوا أنَّ فرض هذا الردِّ لم يسقط بموته، فإن كان متواترُ أخباره وآحادُها لا تُفيد علماً ولا يقيناً: لم يكن للردِّ إليه وجهٌ)[1].

فهذا تقريرٌ لفساد قول من قال: إن متواتر الأخبار وآحادها لا تُفيد علماً ولا يقيناً في باب أسماء الله تعالى وصفاته، وأن القول به مُفضٍ إلى إبطال سنة رسول الله ﷺ، وعدم انشراح الصدر لها؛ وتحكيمها عند التنازع والاختلاف.

فهذا ما تضمنه كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ من بيانٍ وتقريرٍ لمعتقد أهل السنة والجماعة في تعظيمهم لسنة رسول الله ﷺ؛ وتلقِّي أخبارها المتواترة والآحاد في باب الأسماء والصفات على حدٍ سواء.

وإن من دلائل هذا التعظيم وأماراته: حفظ أهل السنة والجماعة لحرمة نصوص الوحيين الشريفين وتقديسها، وعدم تقديم شيءٍ من العقول والآراء والمذاهب والأفكار عليها، بل جعلها حاكمة على ما سواها؛ ومهيمنة على ما عداها.



(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٢٠.

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير
عدم تقديم العقل على الكتاب والسنة في الاستدلال

إنَّ العقل البشريَّ لا يزال رفيعاً منيعاً ما كان تابعاً للنقل الشرعيِّ؛ محكوماً بأمره، فمتى ما أقدم على الابتداع وترك الاتباع؛ وخرج عن حكم النقل: فقد أصبح مهيناً وضيعاً.

وإنَّ من معالم منهج أهل السنة والجماعة الساطعة؛ وأنوار معتقدهم اللامعة: وجوب تقديم النقل الصحيح من الكتاب والسنة على العقل الصريح، فهم مجمعون على أن مخالفة ذلك عملٌ وبيلٌ؛ وخروجٌ عن سواء السَّبيل.

وذلك أن النقل الصحيح دليلٌ مستقلٌ في نفسه له كامل السِّيادة، وهو غير محتاجٍ إلى تزكية علوم البشر ولا عقولهم حتى تكون له الرِّيادة، إذ إن تقديم النقل على العقل في هذا الباب: هو محض الصدق والصواب، وهو الموجب لطمأنينة الفؤاد، وما خالف ذلك: فهو محض الرِّيبة والفساد.

ولما كان تقديم العقل على النقل مستلزماً للوازم باطلة ونتائج فاسدة: أغنى ذلك عن مؤنة التدليل على سوء هذه الطريقة الكاسدة، ولو لم يكن في هذه الطريقة الوعرة إلا كفر صاحبها بنعم الله تعالى وأياديه؛ والطعن في أمانة رسوله ﷺ وبلاغه ومساعيه: لكفى، كيف وهي مستلزمة لأن ينصب المُقدِّم نفسه عدواً للمرسلين، ويوجب عليها الحرمان من ميراث النبيين؟

وقـد اجتهـد الإمـام ابـن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ **في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في تقديم النقل على العقل في الاستدلال على إثبات توحيد الأسماء والصفات**، حيث تضمَّن كلامه بيان بعض المُقدِّمات؛ واللوازم والنتائج التي تُدلِّل على صحة معتقد أهل السنة والجماعة في تقديم النقل على العقل في الاستدلال؛ وسلامة منهجهم في ذلك، وتُبيِّن بطلان معتقد من خالفهم؛ ووعورة مسلكه وبُعْد مَدْرَكِه، **وجماع ذلك يتبين بتقرير المسائل الآتية:**

المسألة الأولى:

تقريره لاستدلال أهل السنة والجماعة على رفض تقديم العقل على النقل بالمُقدّمات المُسلّمات.

قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض المقدِّمات المسلَّمات المستفاد منها في الاستدلال على رفض تقديم العقل على النقل، فمن ذلك:

المقدمة الأولى: تقريره أن العلم بأسماء الله تعالى وصفاته غير مُتوقِّفٍ فـي ثبـوتـه علـى إدراك العقـول لـه؛ وعلمهـا بـه؛ وتصـديقهـا لـه، كمـا قـال ـ رحمه الله تعالى ـ : (ما هو ثابتٌ في نفس الأمر ليس موقوفاً على علمنا به، فعدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في نفس الأمر، فما أخبر به الصادق المصدوق: هو ثابتٌ في نفسه؛ سواءٌ علمناه بعقولنا أو لم نعلمه، وسواءٌ صدَّقه الناس أو لم يُصدِّقوه.

كما أن رسول الله حقٌّ؛ وإن كذَّبه من كذَّبه، كما أن وجود الربِّ تعالى وثبوت أسمائه وصفاته حقٌّ؛ سواءٌ علمناه بعقولنا أو لم نعلمه، فلا يتوقف ذلك على وجودنا؛ فضلاً عن علومنا وعقولنا.

فالشرع المنزل من عند الله مستغنٍ في نفسه عن علمنا وعقلنا، ولكن نحن مُحتاجون إليه؛ وإلى أن نعلمه بعقولنا، فإذا عَلِم العقلُ ذلك: حَصَل له كمالٌ لم يكن قبل ذلك، وإذا فقده: كان ناقصاً جاهلاً)[1].

فالدليل الشرعيُّ مُستغنٍ بنفسه عن تزكية علوم البشر وعقولهم، وهذا مما يُوجب الصدق والطمأنينة؛ وينفي الكذب والريبة، كما هو مُقرَّر في:

المقدمة الثانية: تقريره أن العقل هو موطن الريبة، والنقل هو موطن الطمأنينة، فكيف يُقدَّم موطن الريبة على موطن الطمأنينة؟ كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (السمع دليلٌ مستقلٌ بنفسه، بل الطمأنينة إليه في هذا الباب) أي: باب الأسماء والصفات (أعظم من الطمأنينة إلى مجرَّد العقل)[2].

المسألة الثانية:

تقريره لاستدلال أهل السنة والجماعة على رفض تقديم العقل على النقل باللّوازم الفاسدة التي تلزم المُقدّمين العقلَ على النقل.

قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض اللوزام الفاسدة التي تلزم كلَّ من قدَّمَ العقلَ على النقل، فمن ذلك:

اللازم الأول: تقريره أن شكر مِنَّة الرسالة ونعمة التزكية إنما تحصل لمن آمن بالوحي الذي جاء به الرسول ﷺ في باب أسماء الله تعالى وصفاته؛ لا لمن قابله بالعقل وقدَّمه عليه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن العلم في الحقيقة: ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته؛ وهدى به أنبياءه ورسله وأتباعهم به؛ وامتنَّ عليهم، فقال:

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٧٩٩.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٤.

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢ ﴾[1].

وقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣ ﴾[2].

وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤ ﴾[3].

وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾[4].

فهذه النعمة والمنة والتزكية: إنما هي لمن عَرَف أنَّ ما جاء به الرسول وأخبر به عن الله وصفاته وأفعاله: هو الحقُّ كما أخبر به، لا كَمَنْ زعم أنَّ ذلك مخالفٌ لصريح العقل؛ وأن العقول مُقدَّمةٌ عليه، والله المستعان)[5].

فمنَّة الله ــ سبحانه وتعالى ــ ونعمته وتزكيته على هذه الأمة: إنما هو بالكتاب المنزل والحكم المرسل، فالله ــ تبارك وتعالى ــ لم يمتنَّ عليهم بالعقل؛ لأن العقل في باب الأسماء والصفات ــ الذي جاء به الكتاب المنزل؛ وعرَّفه النبي المرسل ﷺ ــ: تابعٌ لا متبوعٌ؛ مُطيعٌ لا مُطاعٌ، فمن رام تقديم العقل على النقل: فقد كفر بنعمة الله تعالى المسداة؛ وبدَّل مِنَّته

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٥١ ــ ١٥٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٤) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٧٩ ــ ٨٨٠.

المهداة، وطعن في أمانة الرسول الأمين ﷺ؛ واتهمه بالتقصير في بلاغه المبين، وقائل هذا قد أحلَّ نفسه دار البوار؛ ولبئس المهاد والقرار، كما هو مُقرَّر في:

اللازم الثاني: تقريره أن النبي ﷺ قد أكمل الله تعالى به الدين؛ وأتمَّ به النعمة على عباده المؤمنين، ولم يُحوج الأمة بعده في دينها إلى عقل ولا رأي، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الله ــ سبحانه ــ قد تَمَّم الدين بنبيه ﷺ؛ وأكمله به، ولم يُحوجه ولا أمته بعده إلى عقلٍ ولا نقلٍ سواه، ولا رأيٍ ولا منامٍ ولا كشوفٍ، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1].

وأنكر على من لم يكتف بالوحي عن غيره فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[2].

ذَكَرَ هذا جواباً لطلبهم آيةً تدلُّ على صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كلِّ آيةٍ، فلو كان ما تضمَّنه من الإخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يُناقض العقل: لم يكن دليلاً على صدقه؛ فضلاً عن أن يكون كافياً)[3].

فالله ــ تبارك وتعالى ــ قد ختم الرسالات السماوية بمبعث النبي ﷺ، فهو لم ينتقل ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ إلى الرفيق الأعلى حتى أكمل الله تعالى على يديه الدين؛ وأتم به النعمة؛ وارتضى لخليقته دين الإسلام الذي جاء به.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٥١.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٢٦ ــ ٨٢٧.

فمن زعم بعد ذلك أن دين الله تعالى بحاجة إلى عقلٍ راجحٍ يُوزن به؛ أو رأيٍ حاكمٍ يُرجع إليه؛ أو فكرٍ ثاقبٍ يُعوَّل عليه: فقد طعن في بلاغ النبي ﷺ وأمانته، ونصب نفسه خصماً للرسول الأمين ﷺ؛ بل وعدواً لسائر إخوانه الأنبياء والمرسلين، لأن من طعن برسولٍ من رسل الله تعالى: فقد طعن بالمُرْسِل ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ وطعن بسائر المُرْسَلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ، ونظيره من كفر برسول من رسل الله تعالى: فقد كفر بمُرْسِله ورُسُلِه، كما هو مُقرَّر في:

اللازم الثالث: تقريره أنه لا أظلم ولا أشدَّ عدواة للمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ممن قدَّم العقل على النقل الذي جاءت به، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (فمن أظلم وأشدُّ عداوة للرسل ممن جوَّز لكلِّ طائفةٍ من طوائف العقلاء: أن تُقدِّم عقولها على ما جاءت به الرسل؟

فإن قالوا: إنما نُقدِّم العقل الصريح الذي لم يختلف فيه اثنان على نصوص الأنبياء: فقد رموا الأنبياء بما هم أبعد الخلق منه؛ وهو أنهم جاءوا بما يُخالف العقل الصريح الذي لا يختلف فيه اثنان.

وهذا وقد شهد الله ـ وكفى به شهيداً ـ ؛ وشهد بشهادته الملائكة وأولو العلم: أن طريقة الرسل هي الطريقة البرهانية المتضمنة للحكمة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[1]. وقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[2].

فالطريقة البرهانية: هي الواردة بالوحي؛ الناطقة بالرشد؛ الداعية إلى الخير؛ الواعدة بحسن المآب؛ المُبيِّنة لحقائق الأنبياء؛ المُعرِّفة بصفات

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧٤.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٣.

رب الأرض والسماء)[1].

فالله ــ عزَّ وجلّ ــ قد برَّأ صفوة خلقه ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ من أن يأتوا إلى قومهم بوحيٍ تُعارضه العقول، ومن جوَّز ذلك عليهم: فقد افترى عليهم إثماً عظيماً، وحَرِيٌّ به أن يُحرم الاستنارة بنور الوحي الذي جاؤوا به، كما هو مُقرَّر في:

اللازم الرابع: تقريره أن الأمر آل بمن قدَّم عقله على النقل الذي جاء به الرسول ﷺ: أن يُحرم الاستفادة من الهدى والنور الذي أُوحي إليه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ فيمن سلك طريق تقديم العقل على النقل: (آل الأمر بمن سلك هذه الطريق إلى أنهم لا يستفيدون من جهة الرسول شيئاً من الأمور الخبرية المتعلقة بصفات الله ــ سبحانه ــ وأفعاله؛ بل وباليوم الآخر عند بعضهم، لاعتقادهم أن هذه الأخبار على ثلاثة أنواع: نوعٍ يجب ردُّه وتكذيبه. ونوعٍ يجب تأويله وإخراجه عن حقيقته. ونوعٍ يُقَرُّ.

وليس لهم في ذلك أصلٌ يرجعون إليه)[2].

المسألة الثالثة:

تقريره لاستدلال أهل السنة والجماعة على رفض تقديم العقل على النقل بالنتائج السيّئة التي تتحتّم على المُقدّمين العقلَ على النقل.

قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض النتائج السيِّئة التي تتحتَّم على كلٍّ من قدَّم العقل على النقل، فمن ذلك:

النتيجة الأولى: تقريره أن تقديم العقل على النقل: مستوجبٌ للقدح في العقل، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (الأدلة السمعية نوعان: نوعٌ دلَّ

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨١٧ ــ ٨١٨.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٠٣ ــ ٨٠٤.

بطريق التنبيه والإرشاد على الدليل العقلي؛ فهو عقليٌ سمعيٌ، ومِن هذا غالبُ أدلَّةِ النبوة والمعاد والصفات والتوحيد ــ ما تقدَّم التنبيه على اليسير جدًّا منه ــ .

وإذا تدبَّرت القرآن: رأيتَ هذا أغلب النوعين عليه، وهذا النوع يمتنع أن يقوم دليلٌ صحيحٌ على مُعارضته لاستلزامه مدلوله، وانتقالُ الذهن فيه من الدليل إلى المدلول: ضروريٌ، وهو أصلٌ للنوع الثاني الدالِّ بمجرَّد الخبر.

فالقدح في النوعين بالعقل: ممتنعٌ بالضرورة، أما الأول: فَلِمَا تقدَّم، وأما الثاني: فلاستلزام القدح فيه القدح في العقل الذي أثبته، وإذا بطل العقل الذي أثبت السمع: بطل ما عارضه من العقليَّات)[1].

فهذا بيانٌ لحال الطرق الكلامية الطويلة؛ التي آل أمرها إلى النتائج الوبيلة، فكان عاقبة السوء المُترتِّب على تقديم العقل على النقل: الطعن في العقل والقدح فيه، فارْتدَّتْ على الرامي سِهامُه؛ وكان في ذلك حَتْفُه وحِمَامُه، فلم يبقى مع المُقدِّم العقلَ على النقل: لا عقلٌ صريحٌ؛ ولا نقلٌ صحيحٌ.

وليس كمال عقل المرء وقوَّته ورجاحته في مناوءته للنقل، وأن يُلقي بينهما لظى العداء؛ ويُوقد عليهما شظى البغضاء، وإنما هو متوقفٌ على متابعته للنقل؛ والعمل بما جاء به، ولذا كان من عَدْل الله تعالى وحكمته: أن عُوقِبَ المُقدِّمُ عقلَه على النقل؛ وأُعْقِبَ ضعفاً في العقل؛ وأُورِثَ خوراً في الفِكْر؛ وعدم سدادٍ ورشادٍ في الأمر، حتى ظنَّ التعارض بين العقل والنقل حقًّا؛ وحِمَى الوطيس بينهما صدقاً، فتجرَّأ على تقديم العقل الإنسانيِّ على الوحي الربانيِّ؛ مع ما بينهما من البون الشاسع؛ والتفاوت الواسع، كما هو مُقرَّر في:

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٠٨ ــ ٩٠٩.

النتيجة الثانية: تقريره أن تقديم العقل على النقل: جهلٌ عظيمٌ بالتفاوت ما بين ثُرَيا النقل وثرى العقل، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ فيما بين الرسل وأرباب المعقولات: (إن التفاوت الذي بينهما في العلم والمعرفة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ودينه: أعظم بكثيرٍ كثيرٍ من التفاوت الذي بين من لا خبرة له بصناعة الطب ومن هو أعلم أهل زمانه بها)(١).

فكيف يجترىء ــ مع هذا ــ أهل المعقولات على رسل الله تعالى ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ؛ فيُقدِّموا ظلمة عقولهم المجثوثة؛ على نور نقولهم الموروثة، وهل هذا إلا من أزِّ أفكارهم الموكوسة؛ وسفاهة أرائهم المنكوسة؟

وكيف تُقدَّم المعقولات الظنية؛ التي هي عرضة للخطأ والصواب: على النصوص المعصومة الموروثة من مشكاة الكتاب؟ وهل يُقْدِم على هذا إلا كلُّ حائرٍ مرتابٍ؛ مَكْرُهُ كُبَّارٌ وكيدُه في تبابٍ.

وهذا التقديم ــ في حقيقة الأمر ــ : إنما نشأ من الجهل بحكم العقل، والقصور في معرفة مقتضى النقل، فترتَّب من هذا الجهل وذاك القصور: الزعم بوجوب تقديم العقل على النقل، كما هو مُقرَّر في:

النتيجة الثالثة: تقريره أن تقديم العقل على النقل: مستوجبٌ لقصور الفهم في العقل والنقل، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الذين زعموا من قاصري العقل والسمع: أنَّ العقل يجب تقديمه على السمع عند تعارضهما: إنما أُتوا من جهلهم بحكم العقل ومقتضى السمع؛ فظنُّوا ما ليس بمعقولٍ معقولاً، وهو في الحقيقة شبهاتٌ تُوهم أنه عقلٌ صريحٌ؛ وليست كذلك.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٢٢.

أو من جهلهم بالسمع؛ إما لنسبتهم إلى الرسول ما لم يُرِدْه بقوله، وإما لعدم تفريقهم بين ما لا يُدْرَك بالعقول وبين ما تُدْرَك استحالتُه بالعقول.

فهذه أربعة أمور أوجبت لهم ظنَّ التعارض بين السمع والعقل:

أحدها: كون القضيّة ليست من قضايا العقول.

الثاني: كون ذلك السمع ليس من السمع الصحيح المقبول.

الثالث: عدم فهم مراد المتكلم به.

الرابع: عدم التمييز بين ما يُحيله العقل وما لا يُدركه)[١].

فقاصروا العقل والنقل: إنما أُتوا من جهلهم بحكم العقل ومقتضى النقل، فأوجب لهم هذا القصور: ظنَّ التعارض بين النقل والعقل.

وهذا الظنُّ الذي أوجبه ذلك القصور: يقلب الحقائق أمام ناظريْ من ابتُلي بتقديم العقل البدعيِّ الحقير على النقل الشرعيِّ المنير، فتراه يظنّ ـ بعد ذلك ـ الريبة: طمأنينة وصدقاً؛ والوهم: علماً وحقًّا، كما هو مُقرَّر في:

النتيجة الرابعة: تقريره أن تقديم العقل على النقل: تقديمٌ للظنِّ على الحقيقة؛ والعجز على القدرة؛ والخطأ على الصواب، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن قضايا المعقول: مشتملةٌ على العلم والظنِّ والوهم، وقضايا الوحي: كلُّها حقٌّ.

فأين قضايا مأخوذة عن عقل قاصر عاجز؛ عرضة للخطأ، من قضايا مأخوذة عن خالق العقول وواهبها؛ هي كلامه وصفاته؟)[٢].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥٩.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٩٤.

فهذا بيانٌ وإيضاحٌ من مسائل منتقاة من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ؛ قرَّر فيها معتقد أهل السنة والجماعة في الاستدلال على إثبات توحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ؛ وذِكْرِ إجماعهم على حرمة تقديم العقل على النقل ؛ واتفاقهم على بطلان ذلك .

ومتى ما صحَّ النقل ؛ وسَلِمَ من المعارض : فقد حيل بينه وبين تطرُّق التأويلات الفاسدة إليه ؛ وتسلُّط المجازات الكاسدة عليه .



المطلب الرابع:

جهوده في تقرير رفض التأويل الفاسد في الاستدلال

إنَّ معرفة الفرق الصريح بين التأويل الصحيح والتأويل الفاسد القبيح: ضروريٌّ لفقه أبواب الدين؛ لا سيَّما باب توحيد الأنبياء والمرسلين.

فمعرفة العبد بحدِّ التأويل الصحيح؛ وأنه: (حقيقة المعنى وما يؤول إليه في الخارج، أو تفسيره وبيان معناه)[1]، وحدِّ التأويل الفاسد القبيح؛ وأنه: (صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يُخالف ظاهره)[2]: تمنحه الفقهَ الأكبر في استحسان صحيحه؛ واستهجان قبيحه، ومن لم يُميِّز بينهما: (فليسأل ربَّه بصدقِ رغبته إليه: أن يُحيِـيَ له قلبه الميِّت، وأن يجعل له نوراً يمشي به في الناس؛ ويفرِّق به بين الحقِّ والباطل، فإنه قريبٌ مجيبٌ)[3].

وإنَّ من معتقد أهل السنة والجماعة في الاستدلال على إثبات توحيد الأسماء الحسنى والصفات العلى: استهجان التأويل الفاسد؛ والقطع بأنه لا يتطرَّق ـ بحمد الله تعالى ـ إلى دلالة نصوص الكتاب والسنة بحال، لأن

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٨١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٧٨.

(٣) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١١٠.

نصوصهما المطهرة محفوفةٌ بقرائن تمنعِ تطرُّقه إليها، إضافة إلى أن وفرتها وكثرتها وشهرتها في هذا الباب؛ واطِّراد استعمالها في مواردها: يُحيل تأويلها؛ وصرفها عن ظاهرها.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير معتقدهم؛ مبيناً بالمُقدِّمات والدلائل والنتائج استحالة تطرُّق التأويل الفاسد إلى نصوص الكتاب والسنة التي استدلوا بها على إثبات أسماء الله وصفاته[(١)]، وبيان ذلك وتقريره يتضح بالمسائل الثلاث الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره لاستدلال أهل السنة والجماعة على رفض التأويل الفاسد دون غيره.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (تأويل ما أخبر الله به من صفاته وأفعاله: نفس ما هو عليه ــ سبحانه ــ ؛ وما هو موصوفٌ به من الصفات العلى)[(٢)].

فأهل السنة والجماعة لا يقبلون التأويل مطلقاً ولا يردُّونه مطلقاً؛ بل يقبلون صحيحه ويردُّون قبيحه.

---

(١) عقد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في كتابه [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٧٠ ــ ٢/ ٦٣١]: ثلاثاً وعشرين فصلاً في التأويل، وجعلها مقدمة بين يدي الفصل الرابع والعشرين: في ذكر الطواغيت الأربعة التي هدم بها أصحاب التأويل الباطل معاقل الدين؛ وانتهكوا بها حرمة الكتاب المبين.
كما وعد ــ رحمه الله تعالى ــ بإفراد كتابٍ في ذلك؛ يذكر فيه: جناية التأويل الفاسد فقال في كتابه [شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٧١]: (وتأويل التحريف الذي سلكته هذه الطوائف: أصل فساد الدنيا والدين وخراب العالم، وسنفرد إن شاء الله كتاباً نذكر فيه: جناية المتأولين على الدنيا والدين).

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٧٧.

وإن أمارة التأويل الصحيح المقبول عند أهل السنة والجماعة هو: ما كان حقيقةً لما أخبر الله تعالى به وأخبر به رسوله ﷺ؛ من إثبات ما لله ـ سبحانه وتعالى ـ من أسماء الجلال وصفات الكمال ونعوت الجمال.

وأما أمارة التأويل القبيح المرذول عندهم فهو: ما قامت على بطلانه واستحالته قواطع الأدلة والبراهين.

وإنَّ مما يُبطل التأويل الفاسد ويرفضه: ما اعتضد بالنصوص الشرعية من القرائن والمُؤكِّدات المُحتفَّة بها؛ والتي يستحيل معها صرف ألفاظها ومعانيها عن مواردها التي اطَّرد استعمالها فيها، كما هو مُقرَّر في:

المسألة الثانية:

تقريره لاستدلال أهل السنة والجماعة على رفض التأويل الفاسد بما حُفّ بالنصوص من القرائن التي تُحيله.

قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض ما يقترن بالنصوص ويحتفُّ بها مما يُحيل التأويل ويُبطله ويرفضه، فمن ذلك:

أولاً: تقريره أن النصوص المتضمنة لإثبات أسماء الله تعالى وصفاته قد حُفَّت ـ بحمد الله تعالى ـ بما ينفي عنها التأويل الفاسد، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (شأن أكثر نصوص الصفات إذا تأمَّلها من شرح الله صدره لقبولها؛ وفرح بما أنزل على الرسول منها: يراها قد حُفَّت من القرائن والمُؤكِّدات بما ينفي عنها تأويل المتأول)[1].

فهذا أحد الأوجه التي يستدلُّ بها أهل السنة والجماعة على بطلان

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٩٧.

التأويل الفاسد في باب أسماء الله وصفاته؛ وهو ما احتفَّ بنصوص هذا الباب من القرائن والمُؤكِّدات التي يمتنع معها تأويل هذه النصوص؛ وصرفها عن ظاهر معناها الذي اطَّرد استعماله في جميع موارده.

لذا نجد أن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ قد اعتنى بذكر قاعدة؛ قرَّر فيها ما يمتنع تأويله من كلام المتكلم؛ وما يجوز تأويله، وقرَّبها إلى الأذهان بذكر بعض النصوص الدالة عليها من السنة والقرآن، كما هو مقرَّر في:

ثانياً: تقريره أن نصوص الوحي المتضمنة لإثبات أسماء الله تعالى وصفاته اطَّرد استعمالها في مواردها اطِّراداً يستحيل معه التأويل، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الظاهر في معناه إذا اطَّرد استعماله في موارده مستوياً: امتنع تأويله؛ وإن جاز تأويل ظاهر ما لم يطَّرد في موارد استعماله.

ومثال ذلك: اطِّراد قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾[1]؛ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[2] في جميع موارده ــ من أوَّلها إلى آخرها ــ على هذا اللفظ، فتأويله بـ(استولى): باطلٌ، وإنما كان يصح أن لو كان أكثر مجيئه بلفظ استولى؛ ثم يخرج موضعٌ عن نظائره ويَرِد بلفظ: استوى، فهذا كان يصح تأويله باستولى.

فتفطَّن لهذا الموضع؛ واجعله قاعدة فيما يمتنع تأويله من كلام المتكلم؛ وما يجوز تأويله.

---

(١) سورة طه: الآية ٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٤، سورة يونس: الآية ٣، سورة الرعد: الآية ٢، سورة الفرقان: الآية ٥٩، سورة السجدة: الآية ٤، سورة الحديد: الآية ٤.

ونظير هذا: اطِّراد النصوص بالنظر إلى الله هكذا: «ترون ربكم»(١)؛ «تنظرون إلى ربكم»(٢)؛ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾(٣). ولم يجئ في موضعٍ واحدٍ: ترون ثواب ربكم؛ فيُحمل عليه ما خرج عن نظائره.

ونظير ذلك: اطِّراد قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾(٤)؛ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾(٥)؛ ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾(٦)؛ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾(٧)؛ ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾(٨) ونظائرها. ولم يجئ في موضع واحد: أمرنا من يُناديه، ولا ناداه ملكنا، فتأويله بذلك: عين المحال والباطل.

ونظير ذلك: اطِّراد قوله: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا؛

---

(١) أخرجه بلفظه: أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٠٩٠٦) ـ ١٦/ ٥٢٦ ـ ٥٢٩] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب».
وقد اتفق الشيخان على إخراج نحوه في صحيحيهما، وقد تقدم تخريجه، وأوله: «هل تمارون في القمر ليلة البدر».

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة [الحديث رقم (٤٢٠) ـ ١/ ٢٣٢]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب التفسير/ قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩﴾ ـ الحديث رقم (١١٤٦٠) ـ ١٠/ ٢٧١]، والطبراني في معجمه الكبير [الحديث رقم (٢٢٣٥؛ ٢٢٩٢) ـ ٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧؛ ٣١٠ ـ ٣١١] من حديث جرير بن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) سورة القيامة: الآية ٢٣.

(٤) سورة مريم: الآية ٥٢، سورة الصافات: الآية ١٠٤.

(٥) سورة القصص: الآيات ٦٢؛ ٦٥؛ ٧٤، سورة فصلت: الآية ٤٧.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٢٢.

(٧) سورة القصص: الآية ٤٦.

(٨) سورة النازعات: الآية ١٦.

فيقول»[1] في نحو ثلاثين حديثاً؛ كلُّها مصرحةٌ بإضافة النزول إلى الربِّ، ولم يجيء موضعٌ واحدٌ بقوله: ينزل ملك ربنا؛ حتى يُحمل ما خرج عن نظائره عليه)[2].

فهذا بعض ما تضمنته نصوص الأسماء والصفات من الدلائل التي اطَّرد استعمالها في مواردها؛ فامتنع لأجلها تأويلها وصرفها عن ظاهرها.

وإن دلائل هذا الباب ــ التي يمتنع معها التأويل الفاسد؛ وصرفها عن ظاهر معناها الذي اطَّرد استعمالها فيها ــ : كثيرةٌ جداً، وهي غيرُ مقتصرةٍ على الدلائل الشرعية فحسب؛ بل تتجاوزها إلى الدلائل الفطرية والعقلية، كما هو مُقرَّر في:

ثالثاً: تقريره أن النصوص المتضمنة لإثبات أسماء الله تعالى وصفاته قد بلغت مبلغاً يستحيل معها أن يُدَّعى فيها التأويل الذي يُخرجها عن حقيقتها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (أدلة مباينة الرب لخلقه وعُلُوِّه على جميع مخلوقاته: أدلةٌ عقليةٌ فطريةٌ؛ تُوجب العلم الضروريَّ بمدلولها.

وأما السمعية: فتقارب ألف دليل، فعلى المُتأوِّل أن يجيب عن ذلك كلِّه، وهيهات له بجوابٍ صحيحٍ عن بعض ذلك، فنحن نُطالبه بجوابٍ صحيحٍ عن دليلٍ واحدٍ)[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التهجد/ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ــ الحديث رقم (١١٤٥) ــ ١/ ٣٤١]، ومسلم في صحيحه [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ــ الحديث رقم (٧٥٨) ــ ١/ ٥٢١ ــ ٥٢٣] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ .

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٥ ــ ٣٨٨.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٣ ــ ٢٩٤.

المسألة الثالثة:

تقريره لاستدلال أهل السنة والجماعة على رفض التأويل الفاسد بما يترتَّب عليه من النتائج السيِّئة.

قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض النتائج السيِّئة التي تترتَّب على التأويل الفاسد، فمن ذلك:

النتيجة الأولى: تقريره أن تسليط التأويل الفاسد على النصوص المثبتة لأسماء الله تعالى وصفاته: يهدم بنيان الدين؛ ويُقوِّض ركنه المتين، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (عَمَدَ أربابُ التأويل إلى أصول الإيمان والإسلام فهدموها بالتأويل، وذلك أن معقد هذه الأصول العشرة: تصديق الرسول فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فعمدوا إلى أجلِّ الأخبار ـ وهو ما أخبر به عن الله من أسمائه وصفاته ونعوت كماله ـ فأخرجوه عن حقيقته وما وضع له.

وهذا القسم من الأخبار: أشرف أنواع الخبر، والإيمان به: أصل الإيمان بما عداه، واشتمال القرآن؛ بل والكتب الإلـٰهية عليه أكثر من اشتمالها على ما عداه، وتنوُّع الدلالة بها على ثبوت مخبره أعظم من تنوُّعها في غيره، وذلك لشرف متعلَّقه وعظمته وشدَّة الحاجة إلى معرفته، وكانت الطرق إلى تحصيل معرفته أكثر وأسهل وأبين من غيره)[1].

فمن نتائج التأويل الفاسد: أنه سببٌ لهدم الأديان بسبب تسلط أعداء العقائد على الأحكام العلمية، وهو أيضاً مُتضمنٌ لفساد البلدان بسبب تسلط أعداء الشرائع على تأويل الأحكام العملية وإخراجها عن حقائقها، لأنه متى تسلَّط (التأويل على التوحيد الخبري العلمي: كان تسليطه على التوحيد

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٥.

العملـي القصـدي أسهـل، وانمحـت رسـوم التـوحيـد؛ وقـامـت معـالـم التعطيل)[1]، كما هو مُقرَّر في:

النتيجة الثانية: تقريره أن تسليط التأويل على نصوص الأحكام العلمية يُطرِّق لأهل البدعة والشقاق؛ والزيغ والنفاق: الطريق للطعن في نصوص الأحكام العملية، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (الربُّ تعالى لم يذكر للعباد من صفات ملائكته وشأنهم وأفعالهم وأسمائهم: عشر معشار ما ذكر لهم من نعوت جلاله وصفات كماله وأسمائه وأفعاله.

فإذا كانت هذه قابلةً للتأويل: فالآيات التي ذُكرت فيها الملائكة: أولى بقبوله)[2].

فهـذه نتيجـةٌ لفتـح بـاب التـأويـل الفـاسـد علـى النصـوص المحكمـة المتضمنة لإثبات الأسماء والصفات، وليس لهذا التأويل الفاسد مدى ينتهي إليه، لأن التأويل الفاسد لن يقتصر على نصوص الأسماء والصفات، بل سيتعدَّاها إلى آيات المعاد وأخبارها؛ ويتجاوزها إلى أدلة الأمر والنهي، فباب التأويل واحدٌ؛ ومقصوده واحدٌ وهو: (فساد الدنيا والدين؛ وخراب العالم)[3]، كما هو مُقرَّر في:

النتيجة الثالثة: تقريره أن تأويل آيات الأسماء والصفات وأخبارها بما يخرجها عن حقائقها: هو أصل فساد الدنيا والدين؛ وسبب خراب العالم وتعطيل الشرائع، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن إثبات الصفات: دلَّ عليها الوحيُ الذي جاء من عند الله على لسان رسوله؛ والحسُّ الذي شاهد به

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٣.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٧.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٧١.

البصيرُ آثارَ الصنعة فاستدلَّ بها على صفات صانعها؛ والعقلُ الذي طابت حياته بزرع الفكر؛ والقلبُ الذي حَيِيَ بحُسْنِ النَّظر بين التعظيم والاعتبار.

فأما الرسالة: فإنها جاءت بإثبات الصفات إثباتاً مفصلاً على وجه أزال الشبهة وكشف الغطاء؛ وحَصَّل العلم اليقيني؛ ورفع الشك والريب، فثلجت له الصدور؛ واطمأنَّت به القلوب؛ واستقرَّ به الإيمان في نصابه.

ففصلت الرِّسالة الصفات والنعوت والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقرَّرت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ؛ وأبعده من الإجمال والاحتمال؛ وأمنعه من قبول التأويل.

وكذلك كان تأويل آيات الصفات وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره؛ بل أبعد منه لوجوه كثيرة؛ ذكرتُها في كتاب: (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة)[1].

بل تأويل آيات الصفات بما يخرجها عن حقائقها: كتأويل آيات الأمر والنهي سواء، فالباب كلُّه: بابٌ واحدٌ؛ ومصدره واحدٌ؛ ومقصوده واحدٌ وهو: إثبات حقائقه والإيمان بها.

وكذلك سطا على تأويل آيات المعاد: قومٌ؛ وقالوا: فعلنا فيها كفعل المتكلمين في آيات الصفات؛ بل نحن أعذر، فإن اشتمال الكتب الإلـٰهيّة على الصفات والعُلُوِّ وقيام الأفعال: أعظم من نصوص المعاد للأبدان بكثيرٍ، فإذا ساغ لكم تأويلها: فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد؟

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥٢ ـ ٤٩٩، في الفصل العشرين: (في بيان أن أهل التأويل لا يمكنهم إقامة الدليل السمعي على مبطل أبداً).

وكذلك سطا قومٌ آخرون على تأويل آيات الأمر والنهي؛ وقالوا: فعلنا فيها كفعل أولئك في آيات الصفات ــ مع كثرتها وتنوُّعها ــ، وآيات الأحكام لا تبلغ زيادة على خمسمائة آية، قالوا: وما يُظنُّ أنه معارض من العقليات لنصوص الصفات: فعندنا معارضٌ عقليٌ لنصوص المعاد من جنسه؛ أو أقوى منه.

وقال متأولوا آيات الأحكام على خلاف حقائقها وظواهرها: الذي سوَّغ لنا هذا التأويل: القواعد التي اصطلحتموها لنا؛ وجعلتموها أصلاً نرجع إليه، فلما طردناها؛ كان طردها: أن الله ما تكلَّم بشيءٍ قط؛ ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى؛ ولا له صفةٌ تقوم به؛ ولا يفعل شيئاً، وطرد هذا الأصل: لزوم تأويل آيات الأمر والنهي؛ والوعد والوعيد؛ والثواب والعقاب.

وقد ذكرنا في كتاب: (الصواعق)[1]: أن تأويل آيات الصفات وأخبارها بما يخرجها عن حقائقها: هو أصل فساد الدنيا والدين؛ وزوال الممالك، وتسليط أعداء الإسلام عليه إنما كان بسبب التأويل، ويعرف هذا من له اطلاعٌ وخبرةٌ بما جرى في العالم، ولهذا يُحرِّم عقلاءُ الفلاسفةِ التأويلَ؛ مع اعتقادهم لصحته، لأنه سببٌ لفساد العالم وتعطيل الشرائع.

ومن تأمَّل كيفيَّة ورود آيات الصفات في القرآن والسنة: علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها، فإنها وردت على وجه لا يحتمل معه التأويل بوجه، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾[2]: هل يحتمل هذا التقسيم والتنويع تأويل

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٣٤٨ ــ ٣٨١، في الفصل الخامس عشر: (في جنايات التأويل على أديان الرسل، وأن خراب العالم وفساد الدنيا والدين بسبب فتح باب التأويل).

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

إتيان الرب ــ جل جلاله ــ بإتيان ملائكته أو آياته؟ وهل يبقى مع هذا السياق شبهةٌ أصلاً أنه إتيانه بنفسه؟

وكذلك قوله: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ ﴾[١]. ففرّق بين الإيحاء العام والتكليم الخاص؛ وجعلهما نوعين، ثم أكَّد فعل التكليم بالمصدر الرافع لتوهم ما يقوله المُحرِّفون.

وكذلك قوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا ﴾[٢]. فنوَّع تكليمه إلى: تكليم بواسطة؛ وتكليم بغير واسطة.

وكذلك قوله لموسى ــ عليه السلام ــ : ﴿ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾[٣]. ففرّق بين الرسالة والكلام، والرسالة إنما هي بكلامه.

وكذلك قول النبـي ﷺ: «إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو ليس دونه سحاب؛ وكما ترون الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب»[٤].

ومعلوم أن هذا البيان والكشف والاحتراز يُنافي إرادة التأويل قطعاً، ولا يرتاب في هذا من له عقلٌ ودينٌ)[٥].

فالرِّسالة السماوية الخاتمة تضمنت من تفصيل أدلة الأسماء والصفات ما يُقطع معه ببطلان تأويلها بما يُخرجها عن حقائقها، لأن أدلتها وردت على

---

(١) سورة النساء: الآيتان ١٦٣ ــ ١٦٤.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٤.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب».

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٦٨ ــ ٣٧٠.

وجه من البيان والكشف والاحتراز: يُنافي إرادة التأويل لها قطعاً، ولا يرتاب في ذلك أولو النُّهى.

ولا إلـه إلا الله؛ كم نُفي بهذه التأويلات الفاسدة الكاسدة (من حقٍ وأُثبت بها من باطل؛ وأُميت بها من هدى وأُحيِيَ بها من ضلالة؟ وكم هُدم بها من معقل الإيمان؛ وعُمِرَ بها من دين الشيطان)[1].

ولو جاز لهذه النصوص ــ مع دلالة الوحي والحسِّ والعقل والقلب ــ أن تتطرق إليها التأويلات الفاسدة؛ وتُخرجها عن حقائقها: ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾[2].

النتيجة الرابعة: تقريره أن تأويل آيات الأسماء والصفات وأخبارها يقطع على قلب المُؤوِّل طريق معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ ويصدَّه عن محبته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (من كان لذكر أسمائه وصفاته مُبْغِضاً؛ وعنها نافراً ومُنَفِّراً: فالله له أشدُّ بغضاً؛ وعنه أعظم إعراضاً؛ وله أكبر مقتاً، حتى تعود القلوب إلى قلبين:

قلب ذكرُ الأسماء والصفات: قوتُه وحياتُه ونعيمُه وقُرَّةُ عينه؛ لو فارقَه ذكرُها طرفة عين ومحبتُها لحظاتٍ لاستغاث: يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك، فلسان حاله يقول:

يُـــراد مـــن القلـــب نسيـــانكـــم وتـــأبـــى الطِّبـــاع علـــى النـــاقـــل.

ويقول:

وإذا تقـــاضيـــت الفـــؤاد تنـــاسيـــا ألفيت أحشائي بذاك شحاحا[3].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/٦٨.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٧١.

(٣) لم أقف عليه.

ويقول:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحياناً فننتكس[1].

ومن المحال: أن يذكر القلب من هو محاربٌ لصفاته؛ نافرٌ من سماعها؛ معرضٌ بكليَّته عنها؛ زاعمٌ أن السَّلامة في ذلك، كلا والله؛ إن هو إلا الجهالة والخذلان والإعراض عن العزيز الرحيم.

فليس القلب الصحيح قطُّ إلى شيءٍ أشوق منه إلى معرفة ربِّه تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه؛ ولا أفرح بشيءٍ قطُّ كفرحه بذلك، وكفى بالعبد عمىً وخذلاناً أن يُضرب على قلبه سُرادِق الإعراض عنها؛ والنفرة والتنفير والاشتغال بما لو كان حقاً لم ينفع إلا بعد معرفة الله والإيمان به وبصفاته وأسمائه.

والقلب الثاني: قلبٌ مضروبٌ بسياط الجهالة، فهو عن معرفة ربِّه ومحبَّته مصدودٌ؛ وطريق معرفة أسمائه وصفاته ــ كما أُنزلت ــ عليه مسدودٌ، وقد قمش شُبَهاً من الكلام الباطل؛ وارتوى من ماءٍ آجنٍ غير طائل، تعجُّ منه آيات الصفات وأحاديثها إلى الله عجيجاً؛ وتَضِجُّ منه إلى مُنزلها ضجيجاً، مما يسومها تحريفاً وتعطيلاً؛ ويُؤوِّل معانيها تحريفاً وتبديلاً. قد أعدَّ لدفعها أنواعاً من العُدَد، وهيَّأ لردِّها ضروباً من القوانين، وإذا دُعي إلى تحكيمها: أبى واستكبر؛ وقال: تلك أدلةٌ لفظيةٌ لا تُفيد شيئاً من اليقين، قد أعدَّ التأويل جُنَّةً يَتَتَرَّسُ بها من مواقع سِهَام السنة والقرآن، وجعل إثبات صفات ذي الجلال تجسيماً وتشبيهاً يَصِدُّ به القلوب عن طريق العلم والإيمان)[2].

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٤٠] ولم يعزه لقائل، ولم أقف عليه.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص١٦ ــ ١٩.

فهذا تقريرٌ لإحدى نتائج التأويل الذميمة؛ وعواقبه الوخيمة ــ نعوذ بالله من جهد البلاء؛ ودرك الشقاء؛ وسوء القضاء؛ وشماتة الأعداء ــ .

ونتائج التأويل ــ بجملتها ــ ؛ لا يعرف ضررها على الدين؛ ولا يتفطن لخطرها على المؤمنين: (إلا من في قلبه حياةٌ وطلبٌ، وإلا فـ :

. . . . ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ[1])[2].

وخاتمة القول: إنه لا تُعرف مصيبةٌ أُصيب بها الدينُ؛ أو بلاءٌ نزل بالمؤمنين: إلا وسببها التأويل وأربابه، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته:

(هذا وأصل بليَّة الإسلام من ... تأويل ذي التحريف والبطلانِ
وهو الذي قد فرَّق السبعين بل ... زادت ثلاثاً قول ذي البرهانِ)[3].

❑ ❑ ❑

---

(١) عجز بيتٍ لأبي الطيب المتنبي، يمدح فيه علي بن أحمد المري الخراساني، أوله:

من يهن يسهل الهوان عليه ... .

انظر: ديوان أبي الطيب المتنبي ٤/ ٩٤.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ عجز البيت في مواطن من كتبه ولم يعزه لقائل.

انظر: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ١١٤؛ ٣٠٤، زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٦٩؛ ٣/ ٥٧٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٠٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٠١؛ ٤٨٨.

(٢) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١١١.

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيتان رقم (١٧٥٧ ــ ١٧٥٨) ــ ص١٤٧].



المبحث الثاني:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في الاستدلال بالإجماع على إثبات توحيد الأسماء والصفات

تنوَّعت طرق الاستدلال التي أثبت بها أهل السنة والجماعة أسماء الجلال وصفات الكمال لله الكبير المتعال، فمن هذه الطرق: استدلالُهم على صحة معتقدهم بذكر إجماع مَن غَبَر من الأمم التالدة، وحكاية اتفاق من خَلَفَهم من هذه الأمة الخالدة[1].

وإنَّ إجماع الأمم المنعقد على إثبات توحيد الأسماء والصفات يُمثِّل في حقيقة الأمر: إجماع فطر الأمم السليمة التي سبقت تنزُّل الشرائع؛ وأنه لم يخرج عن إجماع عقلائهم وحكمائهم في إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى إلا مَن سَفِهَ نفسه.

---

(١) المراد بالإجماع المحكي في هذا المبحث: هو الإجماع بمعناه اللغوي العام؛ والذي يدلُّ على: التَّضام والاتفاق والعزيمة على الأمر.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٤٧٩، الصحاح للجوهري ٣/ ١١٩٨ [مادة: جمع].
وليس المراد منه: الإجماع بمعناه الاصطلاحي الخاص؛ وهو: اتفاق علماء العصر بعد وفاة رسول الله ﷺ على أمرٍ من أمور الدين.
انظر: المستصفى من علم الأصول للغزالي ١/ ٣٢٥، روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة ٢/ ٤٣٩، إرشاد الفحول إلى علم الأصول للشوكاني ١/ ٢٨٦.

ولما وقع الانحراف في عقائد الأمم: بعث الله تعالى رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ مُبشِّرين ومُنذرين؛ ومُذكِّرين لهم بما هو مُقرَّرٌ في فطرهم السليمة من إثبات أسماء الله تعالى وصفاته؛ وتنزيهها عما لا يليق بها من النقائص والعيوب.

وقد خُتم إجماع رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بمبعث النبي ﷺ؛ الذي بيَّن لأمته ـ التي هي خير الأمم وأوسطها وأعدلها ـ هذا الأمر أتمَّ البيان.

فورثت الأمة من نبيها ﷺ العلم بما تضمَّنه هذا الإجماع، ونَقَلَه صدرُها وصفوتُها وسلفُها إلى مَن بَعْدَهم من التابعين؛ حتى لم يُعرف عن واحدٍ منهم القول بخلافه، فصار إجماعهم حجة معتبرة، ولم يُخالفهم في ذلك ـ ممن جاء بعدهم ـ إلا من شاققهم واتَّبع غير سبيلهم؛ ممن لا تُعتبر في هذا الباب مخالفتُه لشذوذها.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير استدلال أهل السنة والجماعة في باب توحيد الأسماء والصفات بالإجماع، وبيان ذلك في المسائل الآتية الذكر:

المسألة الأولى:

تقريره إجماع الأمم السالفة على إثبات أسماء الله وصفاته.

إنَّ الأمم السالفة ـ التي لم تنتكس فطرها السليمة؛ ولم ترتكس عقولها المستقيمة ـ: متَّفقةٌ على إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ ومجمعةٌ على ما دلَّت عليه الفطر وأرشدت إليه العقول وجاءت به النقول، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ توافق الأمم واجتماعها في هذا الباب؛ وعدم خروجهم عن مقتضى العقل والفطرة الدالِّ عليه،

ويمكن بيان تقريره لهذه المسألة فيما يأتي:

أولاً: تقريره أن الأمم السالفة متَّفقةٌ على وصف الله ــ عزَّ وجلّ ــ بصفات الكمال؛ وتنزيهه عن صفات النقص، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (قد اتفقت الأمم على أن الله ــ سبحانه ــ موصوفٌ بالكمال؛ منزَّهٌ عن أضداده، وإن تنازعوا في كون الصفة المعينة والفعل المعين كمالاً أو ليس بكمالٍ)[1].

وهذا تقريرٌ للاتفاق المنعقد من الأمم في باب توحيد أسماء الله تعالى وصفاته، ووحدة كلمتهم فيه؛ وعدم وقوع الخُلْف بينهم، وأما اختلافهم في تعيين آحاد هذا الباب: فإنه ليس بناقضٍ لهذا الاتفاق، إذ إن التعيين مردُّه إلى السمع، والعقل مهما كانت استقامته وسلامته في هذا الباب: فإنه لا يستقلُّ بإثبات آحادها، وحسبه أن يُدرك قيام الأسماء الحسنى والصفات العلى بالذات العَلِيَّة.

وهذا لا ينفي وجود بعض الأسماء الحسنى والصفات العلى التي لو لم ترد دلالة السمع عليها: لاستقلَّ العقل بإثباتها؛ كعُلُوِّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ على خلقه؛ بأنواعه الثلاثة: عُلُوِّ الذات؛ وعُلُوِّ القدر؛ وعُلُوِّ القهر.

وإن كان عامَّة الأمم قد أجمعوا على إثبات أسماء الله وصفاته: فإن خاصَّتهم لم يخرجوا عن إجماعهم؛ بل وافقوهم فيه، كما هو مُقرَّر في:

ثانياً: ذكر إجماع الفلاسفة على تنزيه الله تعالى عمَّا لا يليق به من صفات النقص؛ ووصفه بضدِّها من صفات الكمال، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ عن أبي الوليد ابن رشد: (فقد حكى لك هذا المُطلِّع على مقالات

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٠.

القوم الذي هو أعرف بالفلسفة من ابن سينا وأضرابه: إجماعَ الحكماء على أن الله ــ سبحانه ــ في السماء فوق العالم.

والمتطفلون في حكايات مقالات الناس لا يحكون ذلك؛ إما جهلاً وإما عمداً، وأكثر من رأيناه يحكي مذاهبهم ومقالات الناس متطفلٌ.

وكذلك الأساطين منهم متفقون على إثبات الصفات والأفعال وحدوث العالم وقيام الأفعال الاختيارية بذاته ــ سبحانه ــ ؛ كما ذكره فيلسوف الإسلام في وقته أبو البركات البغدادي؛ وقرَّره غاية التقرير)[1].

فهذا تقريرٌ لإجماع خاصَّة الأمم وأساطينهم ومُقدَّميهم ــ وهم الفلاسفة والحكماء ــ على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته، وهذا يدلُّ على أن دلالة هذا الباب: دلالةٌ فطريةٌ عقليةٌ، وأن النفس البشريَّة مضطرةٌ أشدَّ الاضطرار إلى اعتقادها والتديُّن بها؛ موافقةً للرِّسالات السماوية التي نزلت بها؛ وجاءت مصدقةً لدلالة الفطرة والعقل، كما هو مُقرَّر في:

ثالثاً: تقريره أن اتفاق الأمم السالفة على وصف الله ــ عزَّ وجلَّ ــ بصفات الكمال؛ وتنزيهه عن صفات النقص: موافقٌ لوصف العقل والفطرة الإنسانية؛ ومطابقٌ لدعوة الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في احتجاج الجهميِّ على امتناع المحبة والبغض والكراهة على الله ــ سبحانه وتعالى ــ : (إن هذا يبطل محبته لطاعات المؤمنين وبغضه لمعاصي المخالفين وكراهته لظلم الظالمين إذا فعلوا ذلك، وهذا معلوم البطلان بالضرورة والعقل والفطرة الإنسانية واتفاق أهل الأديان كلهم وإطباق الرسل، بل هذا حقيقة دعوة الرسل بعد التوحيد)[2].

---

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٣٧٠.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٦٤.

فهذا تقريرٌ لتوافق أهل الأديان جميعهم مع دلالات العقل والفطرة؛ وإجماعهم على ما تضمنته الرِّسالات السماوية التي بُعث بها المرسلون، فإن رسل الله ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ مجمعون على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته إثباتاً لا تُنكره الفطر السليمة؛ ولا تُحيله العقول المستقيمة.

المسألة الثانية:

تقريره إجماع رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته.

إن الرِّسالات السماوية التي بُعث بها رسل الله ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ جاءت متوافقة في توحيد الله ــ تبارك وتعالى ــ ؛ وإن كان بينها تباين في الشرائع والأحكام، وقد قال النبي ﷺ: «الأنبياء إخوة من علات؛ وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد[1]»[2].

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [بدائع الفوائد ٣/ ١٧٠]: (إن النبي ﷺ شبَّه دين الأنبياء الذين اتفقوا عليه من التوحيد ــ وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ولقائه ــ بالأب الواحد؛ لاشتراك جميعهم فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم، فقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [سورة الشورى: الآية ١٣]. وقال البخاري في صحيحه: (باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد)؛ وذكر هذا الحديث. وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله ــ من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ ــ ، فهو بمنزلة الأب الواحد. وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف، فهي بمنزلة الأمهات الشتى؛ التي كان لقاح تلك الأمهات من أبٍ واحدٍ، كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دينٍ واحدٍ متفقٍ عليه).

(٢) أخرجه البخاري في [كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ــ الحديث رقم (٣٤٤٣) ــ ٢/ ١٠٧٢]، =

وإن مما توافقت عليه الكتب السماوية؛ وأجمعت عليه رسل الله ــ عليهم السلام ــ : إثبات أسماء الله تعالى وصفاته؛ وتنزيهها عما لا يليق بها من النقص والعيب، حيث جاءت رسل الله ــ عليهم السلام ــ بالإثبات على وجه لا تُنكره الفطر السليمة؛ ولا تُحيله العقول المستقيمة.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (المحذور الذي نفاه العقل والشرع والفطرة وأجمعت الأنبياء ــ من أولهم إلى آخرهم ــ على بطلانه: أن يكون مع الله آلهة أخرى، لا أن يكون إلـه العالمين الواحد القهار: حيًا قيُّوماً، سميعاً بصيراً متكلماً، آمراً ناهياً، فوق عرشه، له الأسماء الحسنى والصفات العلى.

فلم ينف العقل والشرع والفطرة أن يكون للإله الواحد صفات كمال ونعوت جلال يختص بها لذاته)[1].

وقد كان لحُسْن بيان خاتم الأنبياء والمرسلين ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ لهذا الباب أثرٌ في أمته؛ التي تلقَّته عنه بالقبول؛ وتتابعت على نقله القرون؛ قرناً بعد قرن؛ كما سيأتي تقريره وبيانه.

المسألة الثالثة:

تقريره إجماع الأمة على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته.

إنَّ الله ــ تبارك وتعالى ــ يخلق ما يشاء بقدرته، ويختار من خلقه ما يشاء بعلمه وحكمته، كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا

= ومسلم في صحيحه [كتاب الفضائل/ باب فضائل عيسى عليه السلام ــ الحديث رقم (٢٣٦٥) ــ ٤/ ١٨٣٧] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم».

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٣٨.

كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1].

فهو ـ سبحانه ـ لمَّا انفرد بالخلق وحده دون أن يشاركه فيه مشاركٌ: انفرد بالاختيار وحده ـ لمن هو أهلٌ لاختياره واختصاصه ـ دون أن يشترك معه أحدٌ باختيارٍ أو اقتراحٍ، وهذا الانفراد بالخلق والاختيار من أكبر الشواهد على وحدانية الله تعالى؛ وتفرُّده بصفات الكمال ونعوت الجلال[2].

وإنَّ مما اختاره الله ـ عزَّ وجلّ ـ واصطفاه: أمة نبيه محمد ﷺ؛ التي ختم بها الأمم؛ وجعلها خير أمةٍ أخرجت للناس؛ وأكرمها بالخصال الشريفة والخلال المنيفة، فهم (أصحُّ الأمم عقولاً وفطراً، وأعظمهم علماً، وأقربهم في كلِّ شيءٍ إلى الحقِّ، لأنهم خيرة الله من الأمم؛ كما أن رسولهم خيرته من الرسل)[3].

وقد أخبر نبي الأمة ﷺ بذلك في قوله: «ألا إنكم توفون[4] سبعين أمة؛ أنتم خيرها وأكرمها على الله»[5].

---

(١) سورة القصص: الآية ٦٨.

(٢) انظر في الإشارة إلى انفراد الله تعالى عن الشريك في الخلق والاختيار والتدبير؛ وتفضيله من كلِّ جنس من الأجناس أطيبه؛ وتخصيصه لنفسه؛ وارتضائه دون غيره: زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٤٢ ـ ٦٨.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٤١٥.

(٤) وفَى الشيء ووفَّى: إذا تمَّ وكمل.
انظر: غريب الحديث لابن الجوزي ٢/٤٧٨، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٥/٢١١، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للفتني ٥/ ٩٧.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٠٠٢٩) ـ ٣٣/ ٢٣١]، والترمذي في جامعه [أبواب تفسير القرآن/ باب ومن سورة آل عمران ـ الحديث رقم (٣٠٠١) ـ ٥/١٠٤]، وابن ماجه في سننه [كتاب الزهد/ باب صفة أمة =

وإنَّ مما أكرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ به أمة نبيه ﷺ: صيانتها عن أن تجتمع على الباطل والضلال؛ أو يلحقها في عصمتها الخطل والوبال، وعلى هذا: فإذا (ثبت إجماع الأمة على حكم من الأحكام: لم يكن لأحدٍ أن يخرج عن إجماعهم؛ فإن الأمة لا تجتمع على ضلالة)[1]، كما قال النبي ﷺ: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة»[2].

ولما كان (مبنى أحكام هذا الدين على ثلاثة أقسام: الكتاب؛ والسنة؛ والإجماع)[3]: جاءت النصوص الشرعية دالة على أن إجماع الأمة حجةٌ معتبرةٌ؛ يحرم الخروج عليه[4]، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[5].

= محمد ﷺ ـ الحديث رقم (٤٢٨٨) ـ ٤/ ٥١١] من حديث معاوية بن حيدة القشيري ـ رضي الله عنه ـ جد بهز بن حكيم.
وحسنه الألباني في [صحيح سنن الترمذي ص٢٠٥].

(١) سؤال عن معنى إجماع العلماء؛ وهل يسوغ للمجتهد خلافهم؟ وجوابه لابن تيمية ٢٠/ ١٠ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الفتن/ باب ما جاء في لزوم الجماعة ـ الحديث رقم (٢١٦٧) ـ ٤/ ٣٩ ـ ٤٠] من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.
قال الترمذي: (وتفسير الجماعة عند أهل العلم: هم أهل الفقه والعلم والحديث).
وصححه الألباني في [صحيح الجامع الصغير وزيادته: الحديث رقم (١٨٤٨) ـ ١/ ٣٧٨].

(٣) رسالة في اتفاق جميع الرسل في الدين الجامع في الأصول الاعتقادية والعلمية لابن تيمية ٢٠/ ٩ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٤) انظر: العدة في أصول الفقه لأبي يعلى ٤/ ١٠٥٨، روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة ٢/ ٤٤١، المسودة في أصول الفقه لآل تيمية ص٣١٥.

(٥) سورة النساء: الآية ١١٥.

وقد دلَّت هذه الآية الكريمة (على أن إجماع المؤمنين حجة من جهة أن مخالفتهم مستلزمةٌ لمخالفة الرسول، وأن كلَّ ما أجمعوا عليه فلا بُدَّ أن يكون فيه نصٌ عن الرسول[1].

فكلُّ مسألةٍ يُقطع فيها بالإجماع؛ وبانتفاء المنازع من المؤمنين: فإنها مما بيَّن الله فيه الهدى، ومخالفُ مثل هذا الإجماع: يكفر كما يكفر مخالف النصِّ البيِّن.

وأما إذا كان يظنُّ الإجماع ولا يقطع به: فهنا قد لا يقطع أيضاً بأنها مما تبيَّن فيه الهدى من جهة الرسول، ومخالف مثل هذا الإجماع قد لا يكفر، بل قد يكون ظنَّ الإجماع خطأ؛ والصواب في خلاف هذا القول.

وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الإجماع وما لا يكفر)[2].

وإنَّ من أبواب الدين العظيمة التي انعقد (إجماع الصحابة وأئمة الإسلام وأهل الحديث ـ عصابة الإسلام وبزل[3] الإيمان وخاصة

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [أحكام أهل الذمة ٢/ ٨١٤] في الحكم: (هذا من باب تعليق الحكم بالوصفين المتلازمين؛ الذي لا ينفك أحدهما عن الآخر، فمتى تحقق أحدهما تحقَّق الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٥]).

(٢) الإيمان لابن تيمية ٧/ ٣٨ ـ ٣٩ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) قال الأزهري في [تهذيب اللغة ١٣/ ٢١٧] حكاية عن الفراء: (إنه لذو بزلاء: أي ذو رأي وعقل).
وانظر: أساس البلاغة للزمخشري ص٣٨، لسان العرب لابن منظور ١١/ ٥٢، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٢٨/ ٧٨ ـ ٧٩ [مادة: بزل].

رسول الله ﷺ ـ)[1] عليها: باب الأسماء والصفات[2]، فإن (الأمة مجمعةٌ على انتفاء النقص عن الله، بل العلم بانتفائه عن الله تعالى: من أعلى العلوم الضرورية المستقرة في فطر الخلق)[3].

فالأمة الإسلامية لا تزال في عصورها المتأخرة تنقل عمن قبلها الإجماع على إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ وتنزيهها عن التمثيل والتعطيل، ومَن قَبْل هذه العصور ينقله عمن قبله؛ حتى تنتهي سلسلة هذا النقل الذهبية إلى أواخر القرون المفضلة؛ الذين نقلوا هذا الإجماع عن التابعين، والتابعون حكوه عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تلقوه من فِي النبي ﷺ؛ الذي ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[4].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير إجماع الأمة على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى لله ـ جلَّ وعلا ـ، وفيما يأتي بيان تقريره لهذه المسألة:

أولاً: تقريره إجماع خير قرون الأمة وصفوتها ـ المشهود لها بالفضل والخيرية؛ بدءاً من نبيِّها ﷺ؛ وصحابته ـ رضي الله عنهم ـ؛ وتابعيهم بإحسان ـ رحمهم الله تعالى ـ على إثبات الأسماء والصفات لله تعالى، كما

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٢٢.

(٢) حكى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ إجماع الأمة في هذا الباب في مواضع من نونيته.
انظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (١٢٢١؛ ٤١٦٦ ـ ٤١٦٧)].

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٨٠.

(٤) سورة النجم: الآيتان ٣ ـ ٤.

قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الأمة كلَّها تنقل عمَّن قَبْلها؛ ومَن قَبْلها عمَّن قَبْلها؛ حتى ينتهي الأمر إلى الرسول: أن الله يرى ويسمع، ويتكلم ويعلم، وأنه فوق السماوات السبع على العرش، وأنه يُرى يوم القيامة جهرة.

وعِلْمُ الأمة بمراد الرسول من ذلك فوق علمهم بمراده من أحاديث الشفعة والربا والحيض والفرائض ونحوها.

فكيف يقال: حصل لهم اليقين بمراده من ذلك دون هذا؟ وهل هذا إلا من أقبح المكابرة؟)[1].

فتسلسل النقل الذي انعقد به إجماع الأمة على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته؛ واتصال النقل دون انقطاعه إلى رسول الله ﷺ: موجبٌ للإجماع القطعيِّ الذي يحصل به العلم واليقين.

ثانياً: تقريره إجماع سلف الأمة من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وتابعيهم على وجوب قبول الأحاديث النبوية الشريفة المتضمنة لإثبات أسماء الله تعالى وصفاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (انعقاد الإجماع المعلوم المتيقن على قبول هذه الأحاديث؛ وإثبات صفات الربِّ تعالى بها، فهذا لا يشكُّ فيه من له أقلُّ خبرةٍ بالمنقول.

فإن الصحابة هم الذين رَوَوْا هذه الأحاديث؛ وتلقَّاها بعضُهم عن بعضٍ بالقبول، ولم يُنكر أحدٌ منهم على مَن رواها، ثم تلقَّاها عنهم جميع التابعين من أولِّهم إلى آخرهم، ومَن سمعها منهم تلقَّاها بالقبول والتصديق لهم، ومَن لم يسمعها منهم تلقَّاها عن التابعين كذلك، وكذلك تابع التابعين مع التابعين.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٥٥.

هذا أمرٌ يعلمه ضرورة أهل الحديث؛ كما يعلمون عدالة الصحابة وصدقهم وأمانتهم، ونقلهم ذلك عن نبيهم ﷺ: كنقلهم الوضوء والغسل من الجنابة؛ وأعداد الصلوات وأوقاتها؛ ونقل الأذان والتشهد والجمعة والعيدين.

فإن الذين نقلوا هذا: هم الذين نقلوا أحاديث الصفات، فإن جاز عليهم الخطأ والكذب في نقلها: جاز عليهم ذلك في نقل غيرها مما ذكرنا، وحينئذٍ فلا وثوق لنا بشيءٍ نُقل لنا عن نبينا ﷺ ألبتة، وهذا انسلاخٌ من الدين والعلم والعقل، على أنَّ كثيراً من القادحين في دين الإسلام: قد طردوا ذلك؛ وقالوا: لا وثوق لنا بشيء من ذلك ألبتة)[١].

وهذا تقريرٌ لإجماع الأمة على وجوب تلقِّي أحاديث الرسول ﷺ في باب أسماء الله تعالى وصفاته بالقبول والتسليم؛ والعمل بما دلَّت عليه.

وليس الإجماع منعقدٌ على قبول هذه الأحاديث النبوية الشريفة فحسب، بل منعقدٌ أيضاً على وجوب الإيمان بها؛ وعدم تكلُّف البحث عن كيفيتها، كما هو مُقرَّر في:

ثالثاً: تقريره إجماع سلف الأمة من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وتابعيهم على وجوب الإيمان بمعاني أسماء الله تعالى وصفاته؛ وعدم السؤال عن كيفيتها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (قال أبو العباس بن سريج[٢]: (وقد صحَّ عند جميع أهل الدِّيانة والسنة إلى زماننا: أن جميع

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٧٧.

(٢) هو: أحمد بن عمر بن سريج البغدادي؛ الشافعي، فقيه العِراقَيْن، ولد سنة بضع وأربعين ومائتين، وتوفي ببغداد لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثمائة؛ وعمره سبع وخمسون سنة وستة أشهر.

انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢/ ٢٥١ ــ ٢٥٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٤/ ٢٠١ ــ ٢٠٢، طبقات الشافعية للحسيني ص٤١ ــ ٤٢.

الآثار والأخبار الصادقة عن رسول الله ﷺ في الصفات؛ يجب على المسلم الإيمان بها، وأن السؤال عن معانيها: بدعةٌ[1]؛ والجوابَ: كفرٌ وزندقةٌ، مثل قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[2]. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢﴾[3]. ونظائرهما مما نطق به القرآن؛ كالفوقية والنفس واليدين؛ والسمع والبصر؛ وصعود الكلام الطيِّب إليه؛ والضحك والتعجُّب؛ والنزول كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا).

إلى أن قال: (واعتقادنا في الآي المتشابهة في القرآن نقلها، ولا نردُّها ولا نتأوَّلها بتأويل المخالفين، ولا نحملها على تشبيه المُشبِّهين، ولا نُترجم عن صفاته بلغةٍ غير العربية، ونُسلِّم الخبر لظاهر تنزيلها)[4])[5].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قال أبو عمر ابن عبد البر: (أجمع العلماء من الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل ــ يعني: تفسير القرآن ــ ؛ قالوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾[6]: هو على عرشه؛ وعلمه بكلِّ مكانٍ، وما خالفهم في ذلك من يُحتجُّ بقوله)[7].

---

(١) أي: السؤال عن معنى الكيفية، كما سيأتي تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لذلك في المبحث الرابع من الفصل الثالث من هذا الباب.

(٢) سورة طه: الآية ٥.

(٣) سورة الفجر: الآية ٢٢.

(٤) جزء فيه أجوبة الإمام العالم أبي العباس أحمد بن عمر بن سريج ــ رضي الله عنه ــ في أصول الدين ق٣٧ ــ ٤١ [نسخة خطية مكبرة مودعة في قسم المخطوطات في عمادة شؤون المكتبات في الجامعة الإسلامية تحت الرقم العام: (٤/١٦٩٤)].

(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٤٥.

(٦) سورة المجادلة: الآية ٧.

(٧) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر ٧/ ١٣٨ ــ ١٣٩.

وقال: (أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلِّها في القرآن والسنة؛ والإيمان بها؛ وحملها على الحقيقة لا على المجاز، لأنَّهم لا يُكيِّفون شيئاً من ذلك)[1])[2].

فالصحابة والتابعون: أجمعوا على تلقِّي أخبار الأسماء والصفات بالقبول؛ مع الإيمان بمعانيها؛ وعدم تكلُّف السؤال عن كيفيَّتها، وهذا هو الواجب في هذا الباب: أن تُقرَّ هذه النصوص الشرعية بإثبات حقائقها؛ وفهم معانيها، كما هو مُقرَّر في:

رابعاً: تقريره إجماع سلف الأمة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وتابعيهم على إقرار الآيات والأخبار الواردة في أسماء الله تعالى وصفاته وإمرارها؛ مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (وقد تنازع الصحابة في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[3]: هل هو الأب أو الزوج؟ وتنازعوا في تأويل قوله: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[4]: هل هو الجماع أو اللمس باليد أو القبلة ونحوها؟).

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأمثال ذلك، ولم يتنازعوا في تأويل آيات الصفات وأخبارها في موضعٍ واحدٍ، بل اتفقت كلمتهم وكلمة التابعين بعدهم على إقرارها وإمرارها ـ مع فهم معانيها، وإثبات حقائقها ـ ، وهذا يدلُّ على أنها أعظم النوعين بياناً، وأن العناية ببيانها أهمُّ: لأنها من تمام الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد)[5].

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر ٧/ ١٤٥.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٣٧.

(٤) سورة النساء: الآية ٤٣، سورة المائدة: الآية ٦.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٠٨ ـ ٢١٠.

فأهل القرون الفاضلة؛ والعقائد العادلة قد اعتنوا بهذا الباب أتمَّ العناية؛ ورعوه حقَّ الرعاية، فكلمتهم قد اتفقت على إثبات حقائق أسماء الله تعالى وصفاته؛ مع فهم معانيها.

خامساً: تقريره إجماع الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ والتابعين على إثبات آحاد الأسماء والصفات، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين كلَّهم وأهل السنة كلَّهم متفقون على إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة)[1].

فهذا تقريرٌ لبعض آحاد باب الأسماء والصفات التي انعقد إجماع الأمة على إثباتها، وقد أورد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المقام صفة الرؤية؛ مبيناً اتفاق كلمة الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وتابعيهم؛ ومن تبعهم بإحسان على وجوب الإيمان برؤية المؤمنين ربهم ــ عزَّ وجلّ ــ في الجنة؛ وأن ذلك أعظم نعيم يُعْطَوْنَه.

وإن من أمهات مسائل هذا الباب التي انعقد إجماع الأمة على إثباتها: مسألة عُلُوِّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ على خلقه[2]؛ كما حكى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن الإجماع منعقدٌ على أن الله ــ سبحانه ــ استوى على عرشه؛ حقيقة لا مجاز.

قال الإمام أبو عمر الطلمنكي ــ أحد أئمة المالكية؛ وهو شيخ أبي عمر ابن عبد البر ــ في كتابه الكبير الذي سماه: (الوصول إلى معرفة

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٤٥٣.

(٢) حكى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ إجماع أهل العلم على مسألة العُلُوِّ في نونيته بما يقرب من مائتي بيتٍ.
انظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (١٣٢٨ ــ ١٤٩٧) ــ ص١١٩ ــ ١٣٠].

الأصول)؛ فذكر فيه من أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ وأقوال مالك وأئمة أصحابه؛ ما إذا وَقَفَ عليه الواقفُ: علم حقيقة مذهب السلف.

وقال في هذا الكتاب: (أجمع أهل السنة على أن الله تعالى على عرشه؛ على الحقيقة لا على المجاز))[1].

وإن من لوازم إجماع أهل السنة والجماعة على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته: أن اليمين تنعقد بالحلف بآحادها، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (أجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله أو سمعه أو بصره أو قُوَّته أو عِزَّته أو عظمته: انعقدت يمينه وكانت مكفرة، لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه)[2].

فهذا تقريرٌ لبعض آحاد هذا الباب العظيم ـ باب أسماء الله وصفاته ـ الذي انعقد إجماع أهل السنة والجماعة على إثباته، وإن إجماع الأمة في إثبات سائر آحاد هذا الباب: كإجماعهم في إثبات نظائرها؛ مما تقدَّمت الإشارة إليها.

سادساً: تقريره أن إجماع الأمة على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته جاء موافقاً لدلالة القرآن والسنة على ذلك، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (دلَّ القرآن والسنة والإجماع على أنه ـ سبحانه ـ يجيء يوم القيامة؛ وينزل لفصل القضاء بين عباده؛ ويأتي في ظلل من الغمام والملائكة؛ وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا؛ وينزل عشية عرفة؛ وينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة؛ وينزل إلى أهل الجنة)[3].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٥٧.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥١.

ولا بُدَّ من بيان أن ما خرج عن مقتضى ما تضمنه إجماع الأمة على القول بموجب هذا الباب: لا يُؤثِّر فيه معارضة بعض العقول الفاسدة والأفكار الكاسدة؛ التي لم تُشرق عليها شمس الوحي، لأنه لا اعتبار بالعقول الصائلة على نصوص الوحي الشريف؛ والخارجة عن حكم العقول المستقيمة التي وافقت الشرع المنيف، وإنما الاعتبار بالعقول المستقيمة المؤيدة بالفطر السليمة؛ والتي دلَّت على صحة هذا الإجماع؛ وعلى بطلان ما قابله من نزاع، كما هو مُقرَّر في:

سابعاً: تقريره أن معارضة العقل الفاسد لإثبات أسماء الله تعالى وصفاته لا يُوجب خرق إجماع الأمة الإسلامية ــ أهل السنة والحديث ــ ؛ وتظافرها وتوافرها على القول بثبوته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنه لا يُعلم آيةٌ من كتاب الله ولا نصٌّ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ في باب أصول الدين اجتمعت الأمة على خلافه، وغاية ما يُقدَّر اختلاف الأمة في القول بموجبه.

ومن له خبرةٌ بمذاهب الناس وأقوال السلف: يعلم قطعاً أن الأمة اجتمعت على القول به قبل ظهور المخالف، كما اجتمعت بأن الله مستوٍ على عرشه فوق سماواته، وأن المؤمنين يرونه عيانا بالأبصار من فوقهم في الجنة، وأنه ــ سبحانه ــ كلَّم نبيه موسى ــ منه إليه بلا واسطة ــ تكليماً؛ سمع به كلامه ولم يشك أنه هو الذي كان يُكلِّمه، وأنه كتب مقادير الخلائق وقدَّرها قبل أن يخلقهم، وأنه علم ما هم عاملوه قبل أن يعملوه، وأنه يُحب ويُبغض، ويرضى ويغضب، ويضحك ويفرح، وأن له وجهاً ويدين، فهذا إجماعٌ معلومٌ متيقنٌ عند جميع أهل السنة والحديث)[1].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٣٣.

ثم بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ إثر حكاية هذا الإجماع أن ماوقع من بعض الفرق من انحرافات ومخالفات لا تقدح في ثبوت هذا الإجماع؛ ولا تمنع القول به، وأن هذه المعارضة بين هذا الإجماع وبين عقول أرباب هذه الفرق لا تنفي صحته، فقال: (فالعقل الذي يُعارض هذا: لم تُجمع عليه الأمة؛ ولم يُعرف عن رجلٍ واحدٍ من السلف والأئمة أنه قاله، وغايته أن يكون عقلُ فرقةٍ من الفرق اشتقت لأنفسها مذهباً؛ وادَّعت له معقولاً، فلما صالت عليها نصوص الوحي: التجأت إلى العقل؛ وادَّعت أنه يخالفها، وصَدَقَتْ وكَذَبَتْ.

أما صدقها: فإن نصوص الوحي تخالف معقولها هي، وذلك من أدلِّ دليلٍ على فساده في نفسه إذ شهدت له نصوص الوحي بالبطلان.

وأما كذبها: فزعمها أن نصوص الوحي تخالف العقل المتفق عليه بين العقلاء، فهذا لم يقع ولا يقع ما دامت السماء سماء؛ والأرض أرضاً، بل تزول السماء والأرض وهذا لا يكون.

فأي ذنب للنصوص إذا خالفت عقول بعض الناس؟ فقد وافقت عقول أصحِّ الناس عقلاً[1]، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[2])[3].

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: [الأبيات رقم (١٤٧٨ ــ ١٤٨١) ــ ص١٢٩]:

(يا قومِ والله العظيمِ أَسَأْتُمُ ... بأئمَّة الإسلام ظنَّ الشَّانِ
ما ذنبهم ونبيُّهم قد قال ما ... قالوا كذاك مُنْزِل الفرقانِ
ما الذَّنب إلا للنصوص لديكمُ ... إذ جسَّمت بل شبَّهت صنفانِ
ما ذنب من قد قال ما نطقت به ... من غير تحريفٍ ولا عدوانِ).

(٢) سورة الأنعام: الآيتان ٨٩ ــ ٩٠.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٣٣ ــ ٨٣٤.

ومما تقدم حكايته يتبين أن توحيد الأسماء والصفات من الأصول العظيمة والمباني الجسيمة التي انعقد الإجماع عليها، وأن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اعتنى بحكاية هذا الإجماع عناية بارعة؛ تمخَّضت عنها هذه المسائل النافعة.

❑ ❑ ❑



المبحث الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية
في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة
في الاستدلال بالفطرة السليمة على إثبات توحيد الأسماء والصفات

إنَّ (الله ــ سبحانه ــ خلق عباده حنفاء؛ وهي فطرة[1] الله التي فطر الناس عليها، فلو خُلُّوا وفطرهم لما نشؤوا إلا على التوحيد)[2].

وإنَّ مما فطر الله تعالى العباد عليه ــ فكان في سويداء أفئدتهم مستقرها ومستودعها ــ: إثبات أسماء الله تعالى وصفاته؛ والإيمان بمعانيها، فالإلحاد في شيءٍ من أسمائه الحسنى؛ أو تعطيل شيءٍ من صفاته العلى أو تمثيله: (من تبديل الدين؛ وتغيير فطرة الله التي فطر عليها عباده)[3].

وقد أضاف الله ــ سبحانه وتعالى ــ في كتابه الكريم الفطرة إليه؛

(١) الفَطْر ــ بفتح الفاء وسكون الطاء ــ يُطلق في لسان العرب على معانٍ؛ منها: الشق.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٣/ ٣٢٥، لسان العرب لابن منظور ٥/ ٥٥، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص٥٨٧ [مادة: فطر].
وانظر في بسط الكلام على الفطرة؛ واختلاف الناس في المراد بها: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر ١٨/ ٥٩ ــ ٩٧، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ١٨ ــ ٢١، درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية ٨/ ٣٦١ ــ ٤٦٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٧٥ ــ ٨٢٥، فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٣/ ٢٩٢ ــ ٢٩٤.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٤٩.

(٣) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٢٢٦.

إضافة تقتضي المدح؛ ويُعلم بها (أنها فطرةٌ محمودةٌ لا مذمومةٌ)[1]، فقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2].

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الآية الكريمة من المعاني العظيمة: (بيَّن ــ سبحانه ــ أن إقامة الوجه ــ وهو إخلاص القصد وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفاً مقبلاً عليه معرضاً عما سواه ــ: هو فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خُلُّوا ودواعي فِطَرِهم لما رغبوا عن ذلك؛ ولا اختاروا سواه، ولكن غُيِّرت الفطر وأُفسدت.

كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه، كما تُنْتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحسُّون فيها من جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها»[3].

ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾[4])[5].

---

(١) أحكام أهل الذمة ٢/ ٥٣٨.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي فمات: هل يُصلى عليه؟ وهل يُعرض على الصبي الإسلام؟ ــ الحديث رقم (١٣٥٧ ــ ١٣٥٨) ــ ١/ ٤٠٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب القدر/ باب معنى كلِّ مولودٍ يولد على الفطرة ــ الحديث رقم (٢٦٥٨) ــ ٤/ ٢٠٤٧ ــ ٢٠٤٨] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ، ولفظه: «ما من مولودٍ إلا يُولد على الفطرة».

(٤) سورة الروم: الآيتان ٣٠ ــ ٣١.

(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥٠٣ ــ ٥٠٤.

وقد كان رسول الله ﷺ مستشعراً نعمة الله ــ عزَّ وجلّ ــ عليه وعلى عباده إذ فطرهم على الحنيفية السمحاء ــ فطرة الإسلام ــ ، فكان يُترجم هذا الشعور بقوله: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملَّة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً؛ وما كان من المشركين»[1].

ومجيء الفطرة في لفظ الحديث الشريف مُطلقة مُعرَّفة باللام: دالة على أن المراد بها (فطرة التوحيد والإسلام؛ وهي الفطرة الممدوحة)[2]، لذا نجد أن لسان رسول الله ﷺ كان يلهج بالدعاء بذلك حين يُصبح وحين يُمسي، و (يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا)[3] ذلك الدعاء العظيم.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (تأمل هذه الألفاظ؛ كيف جعل الفطرة للإسلام، فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكلمة الإخلاص: هي شهادة أن لا إلـه إلا الله، والملة لإبراهيم ــ عليه السلام ــ ؛ فإنه صاحب الملة وهي: التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ ومحبته فوق كل محبة، والدين للنبي ﷺ؛ وهو دينه الكامل؛ وشرعه التام الجامع لذلك كله)[4].

إذا عُرِفَ هذا: فالفطرة السليمة ــ التي فطر الله تعالى الخلق عليها؛ فلم يلحقها تبديل ولم يطرأ عليها تحويل ــ : هي إحدى طرق الاستدلال التي يُستدل بها على إثبات توحيد الأسماء والصفات، وهي الإجماع الفطريُّ السابق انعقاده على مجيء الشرائع.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تهذيب مختصر سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته ١٢/٣١٨.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٣٩٠.

(٤) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٣٩٠ ــ ٣٩١.

لذا فإنا نجد أن أهل السنة والجماعة يستدلُّون بالفطرة السليمة في هذا الباب؛ مُدركين أن فطرة العبد السليمة (تستلزم: الإقرار بخالقه؛ ومحبته؛ وإخلاص الدين له.

وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئاً بعد شيءٍ؛ بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض)(١).

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير دلالة الفطرة الإنسانية على إثبات أسماء الجمال وصفات الكمال ونعوت الجلال لله الكبير المتعال؛ حيث أبرز ــ رحمه الله تعالى ــ أوجه الاستدلال بها في المسائل الثلاث الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أن الفطر مركوزٌ في أصلها معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ وتنزيهه عما لا يليق به، مع الإقرار بأنه المستحقُّ وحده للعبودية.

إنَّ الله ــ عزَّ وجلّ ــ غرس في فطر بني آدم الإقرار بوحدانيته؛ والإيمان بأسمائه وصفاته، وأودع فيها الفقر والفاقة والاضطرار إلى معرفته ــ سبحانه وتعالى ــ؛ ومعرفة جلاله وجماله وكماله الذي دلَّت عليه أسماؤه الحسنى وصفاته العلى.

وهذه الفطرة المركوزة في سويداء الفؤاد تدعو العباد دعاءَ صدقٍ إلى أن يُفردوا ربَّهم ــ تبارك وتعالى ــ بالألوهية والعبودية؛ وأن يظنوا به ما هو أهله، كما تدعوهم إلى أن يُنزِّهوا ربَّهم ــ تبارك وتعالى ــ عن الشَّريك والمثيل؛ أو أن يظنُّوا به ظنَّ السَّوء.

وقد كشف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقريره لهذه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية ٨/ ٣٨٣.

المسألة لِثامها؛ وأحسن تُمامها، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: تقريره أن الإنسان مركوزٌ في فطرته الإيمان بالله تعالى وبأسمائه وصفاته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (ذكرتُ في رسالةٍ إلى بعض الأصحاب بدليل واضح: أن الروح مركوزٌ في أصل فطرتها وخلقتها: شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزاً في نفس روحه وذاته وفطرته.

فلو تأمَّل العاقلُ الروحَ وحركتها فقط؛ لاستخرج منها: الإيمان بالله تعالى وصفاته؛ والشهادة بأنه لا إلـه إلا هو؛ والإيمان برسله وملائكته ولقائه.

وإنما يُصدِّق بهذا: من أشرقت شمس الهداية على أُفُق قلبه؛ وانجابت عنه سحائب غَيْبِه)[1].

فهذا تقريرٌ لأصل الفطرة التي فطر الله تعالى العباد عليها؛ من الإقرار له بالوحدانية، والإيمان به وبما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذا الأصل يصاحبه افتقار العباد وفاقتهم وضرورتهم إلى معرفة ربِّهم ومعبودهم ـ جلَّ جلاله ـ؛ الذي لا غنى لهم عنه طرفة عين، كما هو مُقرَّر في:

ثانياً: تقريره أن الروح مفطورةٌ على تَطَلُّب زيادة معرفة الله؛ ومعرفة كماله وجماله وجلاله، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (إذا كانت الروح مفطورةً على تألُّه فاطرها وخالقها ـ وهي فقيرة إليه أعظم الافتقار من جهة كونه ربها وخالقها، وممسكها وحافظها، ومغذيها وطبيبها ومداويها، ومن جهة كونه إلهها ومحبوبها ومطلوبها وغاية مناها ـ: فهي إلى معرفة هذا المطلوب ومعرفة كماله وجماله وأوصاف جلاله أشد شيء ضرورة، وكلما كانت معرفتها بذلك أوفر: كانت محبتها له أقوى؛ مالم يَعُقْها عائقٌ ويمنعها

---

(١) بدائع الفوائد ٤/ ١٣٧.

مانعٌ؛ من مرضٍ يتعطل به أو تضعف عن نهوضها بالجدِّ في طلب هذا المحبوب.

وهذا العائق شيئان: إما جهلٌ بهذا المطلوب؛ وكونه لم يقدره حقَّ قدره ولم تهتد من معرفة كماله وجماله وجلاله إلى ما يدعوها إلى طلبه وإيثاره على غيره.

وإما فسادٌ في إرادتها لَمَّا تعلَّقت بغيره وآثرته عليه، ففسدت فطرتها التي فُطِرَتْ عليها، فانتقلت بفسادها عنه إلى غيره.

وهذه مقدماتٌ فطريةٌ ضروريةٌ؛ لا يُنازع فيها سليم العقل والفطرة، وإذا عُرِفَ هذا: فالرُّسل جاؤوا بكمال الأمرين على أتمِّ الوجوه:

فإنهم ذكروا من صفات هذا الربِّ الذي تألهه القلوب؛ وتطمئنُّ إليه الأرواح ما يكون داعياً إلى محبته.

وأمروا الناس من توحيده وعبادته وحده لا شريك له بما إذا فعلوه: أحبَّهم عليه)[1].

فالروح مُفتقرةٌ ومُحتاجةٌ إلى معرفة ربِّها ـ تبارك وتعالى ـ ومعرفة جلال أسمائه وكمال صفاته وجمال نعوته؛ معرفةً توجب لها الطمأنينة؛ والمحبة الصادقة؛ والعبادة الخالصة، كما هو مُقرَّر في:

ثالثاً: تقريره أن الفطرة السويَّة تُقرُّ أن المستحقَّ بأن يُفرد بالألوهية والعبودية: هو الربُّ الموصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (قال تعالى ـ عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه ـ: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[2].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٥٥ ـ ١٣٥٦.

(٢) سورة الصافات: الآيات ٨٥ ـ ٨٧.

أي: فما ظنُّكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره؟ وماظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النَّقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟

فلو ظننتم به ما هو أهله من: أنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنه غنيٌ عن كلِّ ما سواه؛ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، وأنه قائمٌ بالقسط على خلقه، وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره، والعالِم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافيةٌ من خلقه، والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه.

وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء: فإنهم يُحتاج إلى من يُعرِّفهم أحوال الرعيَّة وحوائجهم، وإلى من يُعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم، وإلى من يستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم.

فأما القادر على كلِّ شيءٍ، الغنيُّ عن كلِّ شيءٍ، الرحمن الرحيم؛ الذي وسعت رحمته كلَّ شيء؛ فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه: نقصٌ بحقِّ ربوبيته وإلـٰهيته وتوحيده، وظنٌّ به ظنَّ سوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده؛ ويمتنع فى العقول والفطر، وقبحه مستقرٌ في العقول السليمة فوق كلِّ قبيحٍ)[1].

فهذا هو المستقرُّ في الفطر السليمة من الإقرار بأسماء الله تعالى وصفاته؛ واستحسان إفراده ـ سبحانه وتعالى ـ بالألوهية والعبودية والتوحيد، واستهجان أن يُشْرَك في عبادته وحكمه أحدٌ؛ أو أن يُعطَّل عن جلاله وكماله وجماله الواجب، كما هو مُقرَّر في:

رابعاً: تقريره أن فطرة العبد السليمة تبعثه على تنزيه الله

(١) الداء والدواء ص٢١٢.

ـ سبحانه وتعالى ـ وإجلاله عن أن يكون مُعطَّلاً عن أسماء الجلال وصفات الكمال، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (من المحال الممتنع عند كل ذي فطرةٍ سليمةٍ: أن يكون الملك الحقُّ عاجزاً، أو جاهلاً لا يعلم شيئاً، ولا يسمع ولا يُبصر، ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى، ولا يُثيب ولا يُعاقب، ولا يُعِزُّ من يشاء ولا يُذِلُّ من يشاء، ولا يُرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها، ولا يعتني بأحوال رعيَّته؛ بل يتركهم سدى؛ ويُخلِّيهم هملاً.

وهذا يقدح في مُلْك آحاد ملوك البشر؛ ولايليق به، فكيف يجوز نسبة الملك الحقِّ المبين إليه؟)[1].

وكما قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ أن الفطر السليمة مودعٌ فيها الدلالة على مجمل هذا الباب ـ باب أسماء الله وصفاته ـ : فإنه قرَّر تضمن الفطرة للدلالة على تفاصيله.

المسألة الثانية:

تقريره أنَّ القلوب مفطورةٌ على الإيمان بأسماء الله وصفاته إجمالاً وتفصيلاً.

إنَّ الفطر السليمة قد استقرَّ فيها إثبات أسماء الله تعالى وصفاته على وجه التفصيل؛ كما استقرَّ فيها الإثبات على وجه الإجمال، وإن من أمَّهات المسائل الكبار التي جاءت الفطرة بالإقرار بتفاصيلها: مسألة عُلُوِّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ على خلقه؛ ومباينته لهم.

وهذا الإقرار (أشهر وأعرف عند العامَّة والخاصَّة من أن يُحتاج إلى أكثر من حكايته؛ لأنه اضطرارٌ لم يُوقفهم عليه أحدٌ؛ ولا أنكره عليهم مسلمٌ، وهذا قليلٌ من كثيرٍ مِن كلام مَن ذكر أن مسألة العُلُوِّ فطريةٌ ضروريةٌ)[2].

---

(١) الداء والدواء ص٥٥ ـ ٥٦.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٨٣، نقلاً عن الحافظ ابن عبد البر =

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير دلالة الفطر السليمة على إثبات العُلُوِّ للعليِّ العظيم ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ حيث قال: (إنَّ الله فطر عباده على الإقرار بعُلُوِّه؛ كما فطرهم على الإقرار بأنه ربّهم وخالقهم)[1].

وقد ساق ــ رحمه الله تعالى ــ في مواضع متعددةٍ من مُصنَّفاته: (أدلة مباينة الربِّ لخلقه؛ وعُلُوِّه على جميع مخلوقاته)[2]؛ مُبيِّناً أنها (أدلةٌ عقليةٌ فطريةٌ؛ تُوجب العلمَ الضروريَّ بمدلولها)[3].

كما حكى قول شيخه ــ رحمهما الله تعالى ــ في بيان ما فطر الله تعالى عليه العباد من الإقرار بعُلُوِّه ومباينته لخلقه؛ فقال: (قال شيخ الإسلام: (والذي تقرَّر في قلوب العامَّة: هو ما فطر الله تعالى عليه الخليقة من توجُّهها إلى ربِّها تعالى عند النوازل والشدائد والدعاء والرغبات إليه نحو العُلُوِّ ــ لا يُلتفت يمنة ولا يسرة ــ ، من غير مُوقِفٍ وَقَفَهم عليه؛ ولكن فطرة الله التي فطر الناس عليها[4]، وما من مولودٍ إلا وهو يُولد على هذه الفطرة؛ حتى يُجَهِّمُه وينقله إلى التعطيل من يُقَيَّض له)[5])[6].

ومصداق ما حكاه الإمام ابن قيم الجوزية عن شيخه ابن تيمية

= في كتابه [التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٧/ ١٣٤].

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٤١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٣.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٣ ــ ٢٩٤.

(٤) للإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ نظير هذه المعاني في كتابه: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٢٧٠ ــ ٢٧١.

(٥) لم أقف على لفظه، وانظر في معناه: درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية ٦/ ٢٦٥.

(٦) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٢١٤.

ـ رحمهما الله تعالى ـ مِنْ توجُّه الخليقة إلى ربِّها ـ تبارك وتعالى ـ عند النوازل والشدائد والدعاء نحو العُلُوِّ: ما حكاه عن أبـي جعفر الهمداني[(١)] ـ رحمه الله تعالى ـ ؛ فقال: (إنه حضر مجلس أبـي المعالي الجويني[(٢)] وهو يقول: كان الله ولا عرش؛ وهو الآن على ما كان عليه ـ وكلاماً من هذا المعنى ـ . فقال: يا شيخ؛ دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا الله؛ إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العُلُوِّ؛ ولا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ قال: فصرخ أبو المعالي؛ ولطم على رأسه، وقال: حيَّرني الهمداني؛ حيَّرني الهمداني)[(٣)].

---

(١) هو: محمد بن الحسن بن محمد الهمداني، الحافظ الصدوق؛ أحد أئمة أهل الأثر، ولد بعد الأربعين وأربعمائة، وتوفي في نصف ذي القعدة سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبـي ٢٠/ ١٠١ ـ ١٠٢، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ٥/ ٢٦٠، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ٤/ ٩٧.

(٢) هو: ضياء الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري، إمام الحرمين؛ وشيخ الشافعية، ولد في ثامن عشر المحرم سنة تسع وأربعمائة، وتوفي في الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبـي ١٨/ ٤٦٨ ـ ٤٧٧، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/ ١٦٥ ـ ٢٢٢، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ٣/ ٣٥٨ ـ ٣٦٢.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٢٧٥.
وقد حكى هذه الحكاية: شيخه ابن تيمية ـ رحمهما الله تعالى ـ في مواضع من كتبه؛ منها: الاستقامة ١/ ١٦٧، نقض تأسيس الجهمية ٢/ ٤٤٦، منهاج السنة النبوية ٢/ ٦٤٢ ـ ٦٤٣، سؤال في مذهب السلف والاعتقاد ومذهب غيرهم من =

فهذا تقريرٌ لما استقرَّ في الفطر السليمة من الإقرار لله ــ سبحانه وتعالى ــ بمطلق الكمال والجمال ــ الذي لم يسبقه عدمٌ؛ ولا يلحقه فناءٌ؛ ولا يعتريه نقصٌ؛ ولا يطرأ عليه عيبٌ ــ .

والفطر السليمة وإن كانت مهتدية إلى معرفة مُجملات هذا الكمال والجمال الواجب لله ــ تبارك وتعالى ــ : إلا أنها لا تستغني عن الوحي المنزل على النبي المرسل؛ لتعريفها بتفاصيل هذا الكمال والجمال ــ بحسب ما تبلغه قواها من التعريف والتفصيل؛ لأسماء وصفات ربِّها الخالق الجليل ــ .

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن في الفطرة: الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه للخالق ــ سبحانه ــ ، ولكن معرفة هذا الكمال على التفصيل: مما يتوقَّف على الرسل، وكذلك تنزيهه عن النقائص والعيوب: هو أمرٌ مستقرٌ في فطر الخلائق، خلافاً لمن قال من المتكلمين: إنه لم يقم دليلٌ عقليٌ على تنزيهه عن النقائص، وإنما عُلِمَ بالإجماع.

قُبْحاً لهاتيك العقولِ فإنَّها عِقَالٌ على أصحابها وَوَبَالُ[1])[2].

فإقرار الفطر السليمة بكمال الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ وتنزُّهه عن النقائص والعيوب: لم تصل إلى إدراكه ومعرفته استناداً منها على علم الإجماع ــ المتقدم الذكر ــ فحسب؛ بل ناصرتها في ذلك العقول المستقيمة، فشدَّت للفطر السليمة أزرها؛ وشاركتها في أمرها.

= المتأخرين، والصواب منهما، وجوابه ٤/ ٤٤؛ ٦١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(١) لم أقف عليه.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٨٢١ ــ ٨٢٢.

المسألة الثالثة:

تقريره توافق الفطرة والعقل في إثبات أسماء الله تعالى وصفاته؛ وتنزيهها عما لا يليق بها؛ وتصديقهما ما جاء به الشرع.

إنَّ الفطر السليمة والعقول المستقيمة (أخوان نصيران، وَصَلَ الله بينهما؛ وقرن أحدهما بصاحبه)[1]، وقد تعاونا على البر والتقوى في إثبات أسماء الله تعالى وصفاته؛ كما أن الفطر المنكوسة والعقول الموكوسة تعاونا على الإثم والعدوان في الإلحاد في أسماء الله تعالى وتعطيل صفاته وتمثيلها، وقد جاءت الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالصدق في هذا التوحيد؛ وصدقت الشريعة القويمة التي شيَّدت بنيانه؛ وأحكمت أساسه.

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بتقرير هذه المسألة وإيضاحها، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: تقريره أن تنزيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العلى مستقرٌ في الفطر والعقول، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[2].

أي: لغير شيء لا تُؤمرون ولا تُنهون؛ ولا تُثابون ولا تُعاقبون، والعبث قبيحٌ، فدلَّ على أن قبح هذا مستقرٌ في الفطر والعقول؛ ولذلك أنكره عليهم إنكار مُنبِّهٍ لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرهم، وأنهم لو فكَّروا وأبصروا: لعلموا أنه لا يليق به ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثاً؛ لا لأمر ولا لنهي؛ ولا لثواب ولا لعقاب.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥٧.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

وهذا يدلُّ على أن حُسْن الأمر والنهي والجزاء: مستقرٌ في العقول والفطر، وأن من جَوَّز على الله الإخلال به: فقد نسبه إلى ما لا يليق به؛ وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا)[1].

فالفطر السليمة تتوافق مع العقول المستقيمة في إنكار ما تأباه أسماء الله تعالى وصفاته من النقص والعيب المنافي لجلالها وجمالها وكمالها الواجب، لأن الفطر السليمة والعقول المستقيمة إنما دلَّت على ما دلَّت عليه الشرائع القويمة من إثبات أسماء الله ــ عزَّ وجلّ ــ وصفاته على الوجه اللائق بكمال الله تعالى وجماله وجلاله، كما هو مُقرَّر في:

ثانياً: تقريره توافق الفطر السليمة مع العقول المستقيمة في تصديق ما جاءت به الشرائع القويمة من إثبات أسماء الله ــ عزَّ وجلّ ــ وصفاته؛ وتنزيهها عن النقص والعيب، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (المحذور الذي نفاه العقل والشرع والفطرة وأجمعت الأنبياء من أولهم إلى آخرهم على بطلانه: أن يكون مع الله آلهة أخرى، لا أن يكون إلٰه العالمين الواحد القهار: حيًّا قيوماً؛ سميعاً بصيراً متكلماً؛ آمراً ناهياً؛ فوق عرشه، له الأسماء الحسنى والصفات العلى.

فلم ينف العقل والشرع والفطرة أن يكون للإله الواحد صفات كمال ونعوت جلال يختصُّ بها لذاته)[2].

فهذا التوافق بين الفطر السليمة والعقول المستقيمة في تصديق ما جاءت به الشرائع القويمة: يتضمن إثبات الكمال الواجب لله ــ تبارك وتعالى ــ، وهذا هو الذي يستحقُّ عليه ــ سبحانه ــ كمال الحمد والمجد.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٦٠ ــ ٢٦١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٣٨.

ثالثاً: تقريره أن العقول المستقيمة توافق الفطر السليمة في تصديق ما جاءت به الشرائع القويمة من أن المستحقَّ للحمد: هو الموصوف بصفات الكمال؛ المنعوت بنعوت الجلال، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (معلومٌ بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلـٰهاً ولا مُدبِّراً ولا رباً؛ بل هو مذمومٌ معيبٌ ناقصٌ، ليس له الحمد لا في الأولى ولا في الآخرة، وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحقَّ الحمد.

ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة وإثبات صفات الربِّ وعُلُوِّه على خلقه وكلامه وتكليمه: توحيداً[1]، لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به: إنكارٌ للصانع وجحدٌ له، وإنما توحيده: إثبات صفات كماله؛ وتنزيهه عن التشبيه والنقائص.

فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها: توحيداً[2]؛ وجعلوا إثباتها لله: تشبيهاً وتجسيماً وتركيباً، فسموا الباطل باسم الحق

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٤٠٥]: (كان السلف يُترجمون الردَّ على الجهمية بـ : التوحيد والردِّ على الزنادقة والجهمية، كما ترجم البخاريُّ آخر كتاب الجامع بـ : (كتاب التوحيد والردِّ على الجهمية والزنادقة)، وكذلك ابن خزيمة؛ سمى كتابه: (التوحيد)، وهو في الردِّ على الجهمية).
قلتُ: وكذلك سمى ابن منده كتابه: (التوحيد ومعرفة أسماء الله عزَّ وجلّ وصفاته على الاتفاق والتفرد).

(٢) من أهل البدعة والشناعة: من صنَّف كتاباً مُفرداً بذلك في نصرة مذهبه، كما فعل ابن شاذان وابن بابويه ومحمد باقر المجلسي ـ الرافضة الإمامية ـ ؛ وأبو منصور الماتريدي؛ في كتبهم الموسومة بـ : (التوحيد).

ـ ترغيباً فيه وزُخْرَفاً ينفقونه به ـ ؛ وسموا الحق باسم الباطل ـ تنفيراً عنه ـ[1].

والناس أكثرهم مع ظاهر السِّكة[2] ؛ ليس لهم نَقْدُ النقَّاد، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾[3])[4].

ومما تقدَّم تقريره من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ يتبين أن أهل السنة والجماعة عُنُوا بتنوِّع طرق الاستدلال على إثبات

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠]: (من تأمَّل المقالات الباطلة والبدع كلَّها: وجدها قد أخرجها أصحابُها في قوالب مستحسنة؛ وكسوها ألفاظاً يقبلها بها من لم يعرف حقيقتها. ولقد أحسن القائل:

تقولُ هذا جَناءُ النَّحل تَمْدَحُهُ　　　وإن تشأْ قلتَ ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ
مدحاً وذمًّا وما جاوزتَ وصفَهما　　　والحقُّ قد يعتريه سوءُ تَعبيرِ).

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذين البيتين في مواطن من كتبه ولم يعزهما لقائل.

انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٤٤، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤٤٤.

وقد ذكر هذين البيتين؛ وعزَّزَهما بثالث: ابن خلكان في كتابه: [وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١/ ٣٣]؛ في ترجمة العراقيِّ الخطيب، حاكياً: أن شيخه أبا الحسن محمد بن المبارك بن خِل البغدادي كان يُنشدها؛ ولم يسم قائلها، وقد عزاها الدميري في كتابه [حياة الحيوان الكبرى ٢/ ١٣ ـ ١٤] إلى الشيخ زهيرالدين بن عسكر ـ قاضي السلامية ـ .

(٢) السِّكة ـ بالكسر ـ : حديدةٌ منقوشةٌ قد كُتِبَ عليها؛ وضُرِبَ عليها الدراهم.

انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٩/ ٤٣٠ ـ ٤٣١، لسان العرب لابن منظور ١٠/ ٤٤٠، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص١٢١٧ [مادة: سكك].

(٣) سورة الكهف: الآية ١٧.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٥.

أسماء الله ــ عزَّ وجلّ ــ وصفاته، وأنهم أسندوا في إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى: الدلائل الفطرية إلى الأدلة السمعية والقرائن العقلية، إذ (شريعته ــ سبحانه ــ موافقة لفطرته في ذلك)(١).

وما تقدَّم من النقول من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: فيه دلالةٌ وإشارةٌ عما وراءه من الكلمات المودعات في مثاني المصنفات(٢).



(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٨٨.

(٢) انظر: أحكام أهل الذمة ٢/ ٥٦٣، تحفة المودود بأحكام المولود ص٢١٦، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٥٣، الداء والدواء ص٥٦؛ ٢١٢؛ ٣٥٠ ــ ٣٥١، الروح ص٣١٦، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٩٣؛ ٢/ ٥٣١؛ ٥٣٧؛ ٦٩٠ ــ ٦٩١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٧٧ ــ ١٢٧٨؛ ١٣٣٨؛ ١٥٠٢، ومختصره ٢/ ٣٣٥، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٦١؛ ٣٦٦؛ ٥٠٩؛ ٨٩١؛ ٨٩٤؛ ١١٣٨؛ ١٥١٤؛ ٣٠٩١؛ ٤١٦٥)]، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣١٤؛ ٣/ ١٦؛ ١٧٧ ــ ١٧٨.

المبحث الرابع:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية
في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة
في الاستدلال بالعقل الصريح على إثبات توحيد الأسماء والصفات

إنَّ الاستدلال بالعقل في باب الاعتقاد: هو إحدى المسائل الكبار التي كثر حولها الجدال، واتسعت فيها رقعة الخلاف وكثر فيها القيل والقال، وقد تميَّز موقف أهل السنة والجماعة فيها ـ كغيرها من المسائل ـ بالوسطيَّة بين أهل الإفراط والتفريط، وبين أصحاب الغلو والجفاء، حيث أعطوا العقل حظَّه من النظر والتفكُّر، وأطلقوا له عِنان التأمُّل والتدبُّر؛ شريطة تقيُّده بالنقل؛ وكونه أَخِيَّة له، فالعقل الصريح مع النقل الصحيح كالمحكوم مع حاكمه، والتابع مع متبوعه.

وهذا بخلاف موقف مَن عداهم من فرق الزيغ والضلال؛ الذين تقاسموا طرفي النقيض، وجعلوا مواردهم التي يردون إليها؛ وموائدهم التي يجلسون عليها[1]: هي (الكلام الباطل؛ والآراء المتهافتة؛ والخيالات

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: البيتين رقم (٢٣٢١ ـ ٢٣٢٢) ـ ص١٨٣ ـ ١٨٤] في بيان مورد أهل السنة والجماعة العذب الطاهر؛ ومورد أهل البدعة =

المتناقضة، التي هي زبالة الأذهان؛ ونحاتة الأفكار)[1].

فوا عجباً لهذه الفرق؛ إذ (جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولم تقبل الاغتذاء بكلام الله تعالى ونص نبيه المرفوع.

وا عجباً؛ كيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ فيها والصواب، وعجزت عن الاهتداء بمطالع الأنوار ومشارقها من السنة والكتاب، فأقرَّت بالعجز عن تلقِّي الهدى والعلم من مشكاة السنة والقرآن، ثم تلقَّته من رأي فلان ورأي فلان[2])[3].

فكان من أرباب هذه الفرق ـ وهم المتكلمون ـ : من أسبل على العقل ثوب القدسيَّة؛ وجعله حاكماً على النقل، فما قَبِلَهُ العقل فهو المقبول، وما ردَّه فهو المرذول، وقابلهم: من اتخذ العقل وراءه ظهرياً؛ ولم يجعل له في ميدان التأمُّل والتفكُّر مجال؛ بل قيَّده بالآصار والأغلال ـ وهم المتصوِّفون ـ ، فشتَّان ما بين العقلِ البِدْعيِّ الخلفيِّ، وبين العقلِ السُّنِّيِّ السَّلفيِّ، فهما:

= والشناعة الأجاج الغائر:

(وردوا عِذَاب مناهل السنن التي ... ليست زبالة هذه الأذهانِ
ووردتم القلُّوط مجرى كلِّ ذي الـ ... أوساخ والأقذار والأنتانِ).

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ١٨٧.

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٢٤٣٤ ـ ٢٤٣٦) ـ ص١٩١] في بيان مصدر تلقِّي أهل السنة والجماعة؛ ومصدر تلقِّي أهل البدعة والشناعة:

(قومٌ هم بالله ثُمَّ رسوله ... أولى وأقرب منكَ للإيمانِ
شتَّان بين التَّاركين نصوصه ... حقًّا لأجل زبالة الأذهانِ
والتاركين لأجلها آراء مَنْ ... آراؤهم ضربٌ من الهذيانِ).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص ٩١.

(عقلان: عقلٌ بالنصوص مُؤيَّدٌ ومُؤيَّدٌ بالمنطق اليونانِ
والله ما استويا ولن يتلاقيا حتى تشيب مفارق الغربانِ)[1].

وقد خالف سبيل كلا الفئتين؛ واعتزل مسلك كلا الفريقين: أتباعُ أنبياء الله تعالى ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ ؛ الذين جاؤا (بتقرير ما في الفطر والعقول)[2] ــ من إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ــ (أحسن تقرير وأبينه وأبلغه وأوصله إلى العقول والفطر)[3].

وإنَّ من نجوم الاستدلال التي اهتدى بها أهل السنة والجماعة: ماشاهدوه من مِنَح الله تعالى وعطاياه لعباده؛ إذ وهبهم فطرة سليمة (لا تقبل سوى الحقِّ؛ ولا تُؤثر عليه غيره ــ لو تُرِكَت ــ ، وأيَّدها بعقولٍ تُفرِّق بين الحقِّ والباطل، وكمَّلها بِشِرْعَة تُفصِّل لها ما هو مستقرٌ في الفطرة وأدركه العقل مجملاً، فالفطرة قابلةٌ؛ والعقل مُزَكٍّ؛ والشرع مُبَصِّرٌ مفصلٌ لما هو مركوزٌ في الفطرة؛ مشهودٌ أصله دون تفاصيله بالعقل، فاتفقت فطرة الله المستقيمة والعقل الصريح والوحي المُبَصِّر المُكَمِّل على الإقرار)[4] بما لله تعالى من أسماء الجلال وصفات الكمال ونعوت الجمال.

وقد ركَّب الله ــ سبحانه وتعالى ــ العقول في بني آدم؛ وزيَّنهم بها: ليعرفوا بها ربَّهم ــ تبارك وتعالى ــ ؛ ويتعبَّدوا له بجلال أسمائه وكمال أوصافه، ثم زكَّى الله تعالى هذه العقول بالوحي المنزل والنبي المرسل، وجعل معهما من البراهين الدالَّة على إثبات كماله وتنزيهه عما لا يليق به: ما

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيتان رقم (١٤٦٣ ــ ١٤٦٤) ــ ص١٢٨].

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٣.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٨١.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٧٧ ــ ١٢٧٨.

تُقرُّ به العقول وتُوافقه ولا تُعارضة؛ وتُصادقه ولا تُناقضه، فجمعت أدلتها بين كونها أدلة لفظيَّة وعقليَّة.

وقد خصَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ العقل الصريح بخاصِّيَّة الاستدلال بآيات الله تعالى المشاهدة بالعيان ـ في الآفاق وفي الأنفس ـ ؛ والاعتبار بها، كما خصَّه بخاصِّيَّة الاستدلال بالمثل الأعلى على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته؛ مُدركاً به أن خالق الجمال وواهب الكمال: أحقُّ به من المخلوق والموهوب وأولى.

ولَمَّا تقدَّم في المبحث السابق ذكر استدلال أهل السنة والجماعة بالفطرة السليمة على إثبات أسماء الله وصفاته: ناسب أن يعقبه ذكر استدلالهم بالعقول المستقيمة على ذلك، وقد برزت جهود الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ جلية في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة؛ واستدلالهم بالعقل الصريح ـ الموافق للنقل الصحيح ـ على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى لله ـ جلَّ وعلا ـ .

وقد تعدَّدت طرق استدلال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بالعقل الصريح على إثبات توحيد الأسماء والصفات، ويمكن تجلية جهوده ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا المقام في المطالب الستة الآتية:

المطلب الأول: جهوده في تقرير أنَّ الله ـ سبحانه ـ ركَّب العقول في عباده ليعرفوا بها أسماءه الحسنى وصفاته العلى.

المطلب الثاني: جهوده في تقرير أن الأدلَّة العقليَّة الصحيحة: أدلةٌ شرعيَّةٌ.

المطلب الثالث: جهوده في تقرير دلالة العقل الصريح على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى بأفعال الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

المطلب الرابع: جهوده في تقرير دلالة العقل الصريح على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى بأدلَّة التنزيه والكمال.

المطلب الخامس: جهوده في تقرير دلالة العقل الصريح على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى بالمثل الأعلى.

المطلب السادس: جهوده في تقرير موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح في إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ ودرء تعارضهما.

وبسط كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه المطالب الستة فيما يأتي:



المطلب الأول:

جهوده في تقرير
أنَّ الله ـ سبحانه ـ ركَّب العقول في عباده
ليعرفوا بها أسماءه الحسنى وصفاته العُلى

اعتنى الإمام ابن قيِّم الجوزيـة ــ رحمه الله تعالى ــ بإبراز قضيَّـةٍ كلِّيَّـةٍ عامَّةٍ؛ ومسألةٍ أصيلةٍ هامَّةٍ؛ ألا وهـي: بيان وظيفـة العـقـل الشرعيَّـة، حيث قرَّر أن الله تعالى إنما أكرم الإنسان بالعقل؛ وفضَّله به على كثيرٍ مِمَّن خلقهم تفضيلاً لغاية عظيمة؛ وعاقبة جسيمة ــ بها يشرف للعقل قـدره؛ ويعظم لـه أمـره ــ وهي: استنارتـه بـه لمعرفة الله تعالى؛ والتفقُّـه في أسمائـه الحسنى وصفاته العلى، فإن الله تعالى إنما ركَّب العقول في بني آدم ليعرفوه بها؛ ويعـرفـوا بـها جـلال أسمائـه وكمال أوصافـه، وأودع ــ سبحانه وتعالى ــ فيهـا الاستـعـداد لمـعـرفـة مـا يـجـب ويمتـنـع عـلى الله تعـالى فـي بـاب الأسماء والصفات، وجعـل فيهـا خاصيَّـة التفـريق في هـذا الباب بين الحـقِّ والباطل.

وبيـان تقـريـر الإمـام ابـن قيـم الجـوزيـة ــ رحـمـه الله تعـالـى ــ لهـذا المـطـلـب يتَّـضـح جـلـياً بـذكـر نفيس كـلامـه المـودع فـي المسائل الثلاث الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أن القصد الذي من أجله أُعطي العباد العقول: هو معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن الله ـ سبحانه ـ ركَّب العقول في عباده: ليعرفوا بها صدقه وصدق رسله، ويعرفوه بها؛ ويعرفوا كماله وصفاته وعظمته وجلاله وربوبيته وتوحيده؛ وأنه الإلـه الحقُّ وما سواه باطلٌ.

فهذا هو الذي أعطاهم العقل لأجله بالذات والقصد الأول، وهداهم به إلى مصالح معاشهم التي تكون عوناً لهم على ما خُلقوا لأجله وأُعطوا العقول له.

فأعظم ثمرة العقل: معرفته لخالقه وفاطره، ومعرفة صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وصدق رسله، والخضوع والذُّلِّ والتعبُّد له.

فإذا أقررتم على العقل بأنه لا يُدرك ذلك ولا يُصدِّق ذلك به؛ بل يُعارضه ويُكذِّبه ويردُّه: فقد نسبتموه إلى أقبح الجهل وأعظم شهادة الزور، وما كان هكذا فلا تُقبل له شهادةٌ في شيءٍ؛ فضلاً عن تقديم شهادته على ما شهد الله به لنفسه؛ وشهدت له به رسله ـ من أولهم إلى آخرهم ـ)[1].

فهذه أعظم ثمرةٍ للعقل ـ الذي أكرم الله تعالى به خاصَّة خلقه ـ وهي: معرفته لربِّه ـ تبارك وتعالى ـ ؛ ومعرفة أسمائه وصفاته، إذ إن الله تعالى أودع فيه خاصيَّة التمييز بين ما يليق بالله تعالى فيجب إثباته له، وبين ما يتنزَّه عنه فيجب نفيه عنه، وهذا مما اتفق الناس عليه؛ وقالوا: إن معرفة الله ـ تبارك وتعالى ـ تُدرك (بالعقل؛ وإن كان ذلك مما نبَّهت الرسل

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٣٦.

عليه)[1]، وأما أسماؤه وصفاته: فإنها (تُعلم بالعقل؛ وتعلم بالسمع أيضاً)[2].

فمن سلب العقل خاصيَّته التي اختصَّه الله تعالى به؛ وادَّعى عليه معارضته لهذه الخاصيَّة: فقد سلبه ثمرته وكرامته التي بها (عُرِفَ الله ــ سبحانه وتعالى ــ وأسماؤُه وصفاتُ كماله ونعوتُ جلاله، وبه آمن المؤمنون بكتبه ورسله ولقائه وملائكته، وبه عُرِفَت آيات ربوبيته وأدلة وحدانيته ومعجزات رسله)[3].

المسألة الثانية:

تقريره أن خاصَّة العقل: التفريق بين ما يجب إثباته لله تعالى من الحقِّ؛ وبين ما يجب نفيه عنه من الباطل.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنَّ الله ــ سبحانه ــ نصب على الحقِّ الأدلة والأعلام الفارقة بين الحقِّ والباطل؛ والنور والظلام، وجعل فطر عباده مستعدة لإدراك الحقائق ومعرفتها.

ولولا ما في القلوب من الاستعداد لمعرفة الحقائق: لم يمكن النظر والاستدلال؛ والخطاب والكلام؛ والفهم والإفهام.

وكما أنه ــ سبحانه ــ جعل الأبدان مستعدة للاغتذاء بالطعام والشراب ــ ولولا ذاك لما أمكن تغذيتها وتربيتها ــ ؛ وكما أن في الأبدان قوة تُفرِّق بين الغذاء الملائم والمنافي: ففي القلوب قوة تُفرِّق بين الحقِّ والباطل أعظم من ذلك.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص٢٥.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٢٥.

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٢١.

فخاصَّة العقل: التفريق بين الحقِّ والباطل؛ وتمييز هذا من هذا، كما أن خاصَّة السمع: التمييز بين الأصوات ــ حسنها وقبيحها ــ ، وخاصَّة الشمِّ: التمييز بين أنواع الروائح ــ طيِّبها وخبيثها ــ ، وكذلك خاصَّة الذَوْقِ في الطُعوم.

فإذا ادَّعيتم على العقول أنها لا تقبل الحقَّ؛ وأنها لو صُرِّح لها به لأنكرته ولم تُذعن إلى الإيمان: فقد سلبتم العقول خاصَّتها؛ وقلبتم الحقيقة التي خلقها الله وفطرها عليه، وكان نفس ما ذكرتم ــ أن الرسل لو خاطبت به الناس لنفروا عن الإيمان ــ : من أعظم الحجج عليكم؛ وأنه مخالفٌ للعقل والفطرة كما هو مخالفٌ للسمع والوحي)[1].

فمن ادَّعى على العقل أنه لا يقبل الحقَّ الذي جاء به النقل الصحيح في باب أسماء الله تعالى وصفاته: فقد سلبه خاصيَّته التي أكرمه الله تعالى بها.

ونظير هذه المسألة: أن من ردَّ حكم النقل في هذا الباب: فقد ردَّ على العقل حكمه؛ وعاند النقل والعقل معاً.

المسألة الثالثة:

تقريره أن من لم يرض بحكم النقل الصحيح: فقد ردّ حكمه وحكم العقل الصريح معاً.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (جمع ــ سبحانه ــ بين السمع والعقل؛ وأقام بهما حجَّته على عباده، فلا ينفكُّ أحدهما عن صاحبه أصلاً.

فالكتاب المُنزل والعقل المُدرك: حجَّةُ الله على خلقه، وكتابه: هو الحجُّة العظمى، فهو الذي عرَّفنا ما لم يكن لعقولنا سبيلٌ إلى استقلالها

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٢ ــ ١١١٣.

بإدراكه أبداً، فليس لأحدٍ عنه مذهبٌ، ولا إلى غيره مفزعٌ في مجهولٍ يعلمه، ومشكلٍ يستبينه، وملتبسٍ يُوضِّحه.

فمن ذهب عنه: فإليه يرجع، ومن دفع حكمه: فبه يحاج خصيمه، إذ كان بالحقيقة هو المُرشد إلى الطرق العقليّة والمعارف اليقينيّة التي بالعباد إليها أعظم حاجة.

فمن ردَّ من مدعي البحث والنظر حكومته؛ ودفع قضيَّته: فقد كابر وعاند، ولم يكن لأحدٍ سبيلٌ إلى إفهامه ولا محاجَّته ولا تقرير الصواب عنده.

وليس لأحدٍ أن يقول: إني غير راضٍ بحكمه بل بحكم العقل، فإنه متى ردَّ حكمه: فقد ردَّ حكم العقل الصريح؛ وعاند الكتاب والعقل)[1].

فالتناقض بين السمع ــ الذي جاء بالتعريف بالله تعالى؛ وبأسمائه الحسنى وصفاته العلي ــ وبين العقل ــ الذي غُرس في أصل خلقته الاعتراف بالله تعالى؛ وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى ــ : منتفٍ، لأن السمع خبر الله تعالى؛ والعقل خلقه، فكيف يدَّعي المُدَّعي وقوع التناقض بينهما؟ ذلك لعمر الله مما يُنَزَّه الربُّ ــ تبارك وتعالى ــ عن وقوعه في فعله.



(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥٨ ــ ٤٥٩.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير أن الأدلَّة العقليَّة الصحيحة: أدلَّةٌ شرعيَّةٌ

إنَّ القرآن الكريم قد تضمَّن بين دفَّتيه كثيراً من الآيات والبيِّنات الدالَّة على الربِّ تعالى ـ الذي تكلَّم به وأنزله على رسوله ﷺ بواسطة الروح الأمين ـ ؛ والمعرِّفة بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقد تفرَّدت دلائل القرآن الكريم بوضوح نصوصها؛ وقلَّة مُقدِّماتها، فهي سهلة لمن رام فهمها؛ قريبة لمن أراد تناولها، تقطع ببراهينها شكوك المعاندين؛ وتُخمد بحججها شبه الجاحدين، فجمعت أدلة القرآن الكريم بين كونها: أدلةً شرعيَّةً سمعـيَّةً؛ وبراهين يقينيَّةً عقليَّةً، فلستَ تجد كتاباً قد تضمَّن من الدلائل والبراهين ما تضمَّنه القرآن الكريم.

وإن من طرق استدلال أهل السنة والجماعة على إثبات توحيد الأسماء والصفات: الاستدلال بدلائل العقل الصريح، لأنها دلائلُ شرعيَّةٌ؛ تضمنتها نصوص الكتاب المحكم، وجاءت بالدلالة عليها بطريق التنبيه والإرشاد، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (الأدلة السمعيَّة نوعان: نوعٌ دلَّ بطريق التنبيه والإرشاد على الدليل العقليِّ، فهو عقليٌّ سمعيٌّ، ومِنْ هذا غالب أدلة النبوة والمعاد والصفات والتوحيد ـ ما تقدم التنبيه على اليسير جداً منه ـ .

وإذا تدبَّرت القرآنَ: رأيتَ هذا أغلب النوعين عليه، وهذا النوع يمتنع أن يقوم دليلٌ صحيحٌ على معارضته؛ لاستلزامه مدلوله، وانتقالُ الذهن فيه من الدليل إلى المدلول: ضروريٌّ، وهو أصلٌ للنوع الثاني الدالِّ بمجرد الخبر.

فالقدح في النوعين بالعقل ممتنعٌ بالضرورة، أما الأول: فلما تقدَّم، وأما الثاني: فلاستلزام القدحِ فيه القدحَ في العقل الذي أثبته، وإذا بطل العقل الذي أثبت السمع: بطل ما عارضه من العقليَّات)[1].

ولما كانت نصوص القرآن الكريم جامعة بين كونها أدلَّةً شرعيَّةً وأدلَّةً عقليَّةً: جاءت متضمنة للحجج العقليّة التي حاجَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ بها عباده؛ وألزمهم فيها بإثبات القضايا التي أنكروها؛ مُبيِّناً أنها قضايا جاءت بها الشرائع القويمة؛ وأقرَّتها الفطر السليمة؛ ودلَّت عليها العقول المستقيمة، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (الله ــ سبحانه ــ حاجَّ عباده على ألسن رسله وأنبيائه فيما أراد تقريرهم به وإلزامهم إياه بأقرب الطرق إلى العقل؛ وأسهلها تناولاً؛ وأقلِّها تكلُّفاً؛ وأعظمها غناءً ونفعاً؛ وأجلِّها ثمرةً وفائدةً.

فحججه ــ سبحانه ــ العقليّة التي بيَّنها في كتابه: جمعت بين كونها عقليَّةً سمعيَّةً؛ ظاهرةً واضحةً، قليلةَ المُقدِّمات؛ سهلةَ الفَهْم؛ قريبةَ التناولِ؛ قاطعةً للشُّكوكِ والشُّبهِ؛ ملزمةً للمعاند والجاحد، ولهذا كانت المعارف التي اسْتُنْبِطَت منها: في القلوب أرسخ؛ ولعموم الخلق أنفع.

وإذا تتبَّع المُتتبِّع ما في كتاب الله ــ مما حاجَّ به عباده في إقامة التوحيد؛ وإثبات الصفات؛ وإثبات الرسالة والنبوة؛ وإثبات المعاد وحشر

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/٩٠٨ ــ ٩٠٩.

الأجساد؛ وطرق إثبات علمه بكل خفيٍّ وظاهرٍ؛ وعموم قدرته ومشيئته؛ وتفرُّده بالملك والتدبير؛ وأنه لا يستحق العبادة سواه ــ : وَجَدَ الأمر في ذلك على ما ذكرناه؛ من تصرُّف المخاطبة منه ــ سبحانه ــ في ذلك على أجلِّ وجوه الحِجَاج؛ وأسبقها إلى القلوب؛ وأعظمها ملاءمةً للعقول؛ وأبعدها من الشُّكوك والشُّبه، في أوجز لفظٍ وأبينه؛ وأعذبه وأحسنه وأرشقه؛ وأدلِّه على المراد)[1].

ومما سبق ذكره من تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ يتبيَّن مشروعية الاستدلال بالدلائل العقليَّة في إثبات القضايا الشرعيَّة، وأن الاستدلال بها ليس بدعاً من الأمر، وإنما هو أحد طرق الاستدلال الشرعيَّة الصحيحة التي تضمَّنها كتاب الله الكريم، فإن رُمت كتاباً يتضمن إثبات الحُجَّة وبيان المحجَّة بالأدلة العقلية: فلن (تجد كتاباً قد تضمَّن من البراهين والأدلة العقليَّة على هذه المطالب ما تضمنه القرآن، فأدلَّته لفظيَّةٌ عقليَّةٌ، فإن لم يُفد اليقين: ﴿  فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾[2])[3].

لذا فإنا نجد أن أهل السنة والجماعة قد عُنوا بالاستدلال بالعقل الصريح ــ الموافق للنقل الصحيح ــ في مسائل الاعتقاد عامَّة؛ ومسائل الأسماء والصفات خاصَّة.

❏ ❏ ❏

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٠.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٦.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٩٣ ــ ٧٩٤.

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير دلالة العقل الصريح على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى بأفعال الله سبحانه وتعالى

إنَّ مِن خاصَّة العقل الصريح التي اخْتُصَّ به: الاستدلال بآيات الله تعالى المشاهدة بالعيان ـ في الآفاق وفي الأنفس ـ؛ والاعتبار بها، تلك الآيات التي (إذا تأمَّلها صحيح التأمُّل والنظر: وجدها مؤسسة على غاية الحكمة، مُغَشَّاة بالحكمة، فقرأ سطور الحكمة على صفحاتها؛ ويُنادى عليها: هذا صنعُ العليم الحكيم؛ وتقديرُ العزيز العليم)[1].

والاستدلال بآيات الله تعالى المشهودة والاعتبار بها: هو إحدى الطرق الشرعيَّة التي جاء تقريرها في كتاب الله ـ عزَّ وجلّ ـ، لذا فقد مدح الله تعالى وأثنى (على عباده المتفكرين في مخلوقاته؛ بأن أوصلهم فكرهم فيها إلى)[2] الإقرار بالله تعالى وبوحدانيته وبتفرُّده بأسماء الجلال وصفات الكمال ونعوت الجمال.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ من أوجهٍ متعددةٍ

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٥٦٦ ـ ١٥٦٧.

(٢) بدائع الفوائد ٤/١٣٩.

دلالة العقل الصريح ـ الموافق للنقل الصحيح ـ على إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى بأفعال الله المحكمة؛ الظاهرة في خلقه وتدبيره، مُبيِّناً أن من (أعطى التأمَّل حقَّه: شهد بذلك فيما رآه وعلمه، واستدلَّ بما شاهده على ما خَفِيَ عنه)(١).

وقد برزت جوانب تقريره ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المطلب وبيانه له في المسائل الخمس الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أنَّ تفكُّر العبد في أفعال الله تعالى والاعتبار بها تستخرج من قلبه معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (أعلى الفِكَرِ وأجلُّها وأنفعها: ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

الأول: الفكرة فى آياته المُنزلة وتعقُّلها وفهمها وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالى؛ لا لمُجرَّد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة، قال بعض السلف: (أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً)(٢).

الثاني: الفكرة فى آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته؛ وحكمته وإحسانه؛ وبِرِّه وجوده، وقد حثَّ الله

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٦.

(٢) نسبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمهما الله تعالى ـ إلى الحسن البصري، ولم أقف عليه.

انظر: رسالة في الهلال لابن تيمية ٢٥/ ١٧٠ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٨٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٥٥٥.

ـ سبحانه ـ عباده على التفكُّر فى آياته وتدبُّرها وتعقُّلها، وذمَّ الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة فى آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النِّعم، وسعة مغفرته ورحمته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة: تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه، ودوام الفكرة فى ذلك مع الذكر: يصبغ القلب فى المعرفة والمحبة صبغةً تامَّةً)[1].

فمن أنواع الفكر الثلاثة: الفكرة في آيات الله المشهودة بالعيان والاعتبار بها، والاستدلال بها على إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، والعبد كلما أمعن النظر ببصره وأجال الفكر ببصيرته في مصنوعات الله تعالى ـ التي أحسن صنعها وأتمَّ إتقانها ـ: كلما استنار عقله واستضاء لبُّه؛ واستدلَّ بذلك على وجود الله تعالى ووحدانيته؛ وتفرُّده بأسماء الجلال وصفات الكمال ونعوت الجمال.

المسألة الثانية:

تقريره أن تدبُّر العبد في أفعال الله تعالى المحكمة وإتقان صنعه؛ ونظره في عجيب خلقه: يدلُّه على وجود الله تعالى، ويبعثه على توحيده بأسمائه وصفاته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (أجمع كلُّ من يُحفظ عنه من أهل العلم: أن المرأة إذا جاءت بولدٍ لأقلَّ من ستة أشهرٍ من يوم تزوَّجها الرجلُ: أن الولد غير لاحقٍ به، فإن جاءت به لستة أشهرٍ من يوم نَكَحَها: فالولد له.

---

(١) الداء والدواء ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

وهـذا وأمثـالـه يـدل علـى أن الطبيعـة ـ التـي هـي منتهـى سيـر الطبائعيين[1] ـ : لها ربٌّ قاهرٌ قادرٌ يتصرف فيها بمشيئته، وينوِّع فيها خلقه كما يشاء، ليدلَّ من له عقلٌ على وجوده؛ ووحدانيته؛ وصفات كماله؛ ونعوت جلاله)[2].

إلى أن قـال ـ رحـمـه الله تعالى ـ : (من أين في الطبيعة والقوَّة: هـذا التـركيـب والتقـديـر والتشكيـل؛ وهـذه الأعضـاء والـربـاطـات والقـوى والمنـافـذ والعجـائـب التي رُكِّبت فـي هـذه النطفـة المهينـة؟ لـولا بـدائـع صنع الله: ما وجدت تلك العجائب في مستقذر الماء، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾[3].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾[4].

لقد دلَّ ـ سبحانه ـ على نفسه أوضح دلالة بما أشهده كلَّ عبدٍ على نفسه من حاله وحدوثه، وإتقان صنعه وعجائب خلقه، وآيات قدرته وشواهد حكمته فيه.

ولقـد دعـا ـ سبحانـه ـ الإنسـانَ إلـى النظـر فـي مبـدأ خلقه وتمامه

---

(١) الطبائعيون: هم البـاحثون في العلـم الطبيعـي المتعلِّـق بأحـوال الأجسام الطبيعية بأنواعها.
انـظر: التعريفـات للجرجـاني ص٢٠١، الكليـات للكفـوي ص٥٨٤ ـ ٥٨٥، مفتـاح السعـادة ومصبـاح السيـادة فـي مـوضـوعـات العلـوم لطـاش كبـري زاده ١/ ٣٠١.

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود ص٢١٥.

(٣) سورة الانفطار: الآيات ٦ ـ ٨.

(٤) سورة آل عمران: الآيتان ٥ ـ ٦.

فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۞﴾[1] [2]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞﴾[4].

وهذا في القرآن كثيرٌ لمن تدبَّره وعَقَلَهُ، وهو شاهدٌ منك عليكَ)[5].

فالعبد إذا تدبَّر وتعقَّل ما يُشاهده من عجائب خلق الله تعالى وآيات قدرته وشواهد حكمته فيها: انبعثت من كوامن نفسه شواهد الاعتراف بوحدانية الله تعالى؛ والإقرار بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

وتفكُّر العبد وتأمُّله في نفسه؛ وعجيب خلق الله تعالى لها؛ وتطوُّر حاله من مبدأ كونه نطفة إلى حين كماله واستوائه: يُنير العقل ويُضيء الفؤاد

---

(١) سورة الطارق: الآيات ٥ ــ ٧.

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٤٥]: (لا خلاف أن المراد بالصلب: صلب الرجل، واختلف في الترائب، فقيل المراد به: ترائبه أيضاً؛ وهي: عظام الصدر ما بين الترقوة إلى الثندوة. وقيل: المراد ترائب المرأة. والأول: أظهر، لأنه ــ سبحانه ــ قال: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، ولم يقل: يخرج من الصلب والترائب، فلا بُدَّ أن يكون ماء الرجل خارجاً من بين هذين المختلفين).

(٣) سورة الحج: الآية ٥.

(٤) سورة الذاريات: الآيتان ٢٠ ــ ٢١.

(٥) تحفة المودود بأحكام المولود ص٢١٦ ــ ٢١٧.

بمعرفة الله الموصوف بصفات الكمال والمنعوت بنعوت الجلال، فهو ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[1].

المسألة الثالثة:

تقريره أن العبد لو تأمّل حاله حقّ التأمُل: لدلّه على توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا تأمّل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى حين كماله واستوائه: تبيَّن له أنَّ مَن عُنِيَ به هذه العناية؛ ونقله إلى هذه الأحوال؛ وصَرَّفه في هذه الأطوار: لا يليق به أن يُهمله ويتركه سدى، لا يأمره ولا ينهاه؛ ولا يُعرِّفه بحقوقه عليه؛ ولا يُثيبه ولا يُعاقبه.

ولو تأمَّل العبدُ حقَّ التأمُّل: لكان كلُّ ما يُبصره وما لا يُبصره دليلاً له على التوحيد والنبوة والمعاد؛ وأنَّ القرآنَ كلامُه.

وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب: (أيمان القرآن)[2] عند قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾[3].

وذكرنا طرفاً من ذلك عند قوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[4] [5]؛

---

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

(٢) المسمى: التبيان في أقسام القرآن ص٢٢١ ــ ٢٢٥، في الفصل السادس والثلاثين.

(٣) سورة الحاقة: الآيات ٣٨ ــ ٤٠.

(٤) سورة الذاريات: الآية ٢١.

(٥) التبيان في أقسام القرآن ص٣٨٢ ــ ٥٣٥، في الفصل الرابع والثمانين إلى الفصل الرابع والأربعين بعد المائة.
قال في خاتمته: (وهذا فصلٌ جرَّه الكلامُ في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾=

وأن الانسان دليلُ نفسِه على وجود خالقه وتوحيده؛ وصدق رسله؛ وإثبات صفات كماله)[1].

فالاستدلال بمخلوقات الله تعالى ومصنوعاته: استدلالٌ بالعقل الصريح بآيات الله الخلقيَّة على باب أسماء الله تعالى وصفاته، وهذا الاستدلال المشار إليه آنفاً: استدلالٌ شرعيٌّ، وهو نظير الاستدلال بآيات الله تعالى السمعيَّة على هذا الباب.

المسألة الرابعة:

تقريره أن العبد يستدلُّ بآيات الله تعالى الخلقيّة كما يستدلُّ بآياته السمعيّة على توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن دلالة الأدلَّة السمعيَّة على مدلولها: من جنس دلالة الآيات المعيَّنة على مدلولها، وهذان النوعان: هما أكمل الأدلة، وهما المستلزمان للعلم بالربِّ تعالى وأسمائه وصفاته؛ والمعاد؛ وإثبات صدق الرسل.

بخلاف الأدلة العقليَّة الكليَّة ــ التي طريقها صناعة المنطق[2] ــ ، فإنها

= ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، أشرنا إليه إشارة؛ ولو استقصيناه لاستدعى عدَّة أسفار، ولكن فيما ذكرناه تنبيهٌ على ما تركناه، وبالله التوفيق).

وللإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ نظير هذا الاستدلال من الآية الكريمة؛ وأن الانسان دليلُ نفسهِ على العلم بالله ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله في كتابه [مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥ ــ ٢٣؛ ١٨٣ ــ ٢٢٨].

(١) الداء والدواء ص٥٥ ــ ٥٦.

(٢) قال الجرجاني في [التعريفات ص٣٠١]: (المنطق: آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر، فهو عِلْمٌ عمليٌّ آليٌّ).

إذا صحَّت مقدماتها ــ وكانت يقينية وكانت منتجة ــ : فإنما تُنتج مطلوباً كلياً لا يحصل به إثبات ربٍّ مُعيَّنٍ ولا رسولٍ مُعيَّنٍ، ولا إثبات شيءٍ من أصول الإيمان ــ التي لا سعادة للعبد بدونها ــ)[1].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (وأما كونه الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، القاهر فوق عباده؛ الذي استوى على عرشه، يعلم ما تخفيه الضمائر، ويرى ويسمع، ويتكلم ويُكلِّم، ويرضى ويغضب، ويخلق ما يشاء: فهذا لا تدلُّ عليه مقدِّماتُهم المنطقيَّةُ وأدلتُهم الكليَّةُ، فلا تُفيد شيئاً من مطالب الإيمان المشتركة بين أهل الملل ألبتة.

وأما أدلة الربِّ ــ سبحانه ــ بآياته السمعيَّة والخلقيَّة: فهي التي دلَّت عباده على توحيده وصفات كماله ونعوت جلاله؛ وصدق رسله؛ وصحة معاد الأبدان وقيام الناس من قبورهم إلى دار شقاوة وسعادة، فلولا هذه الآيات السمعيَّة: لم يعرفوا شيئاً من ذلك.

وقد أخبر ــ سبحانه ــ عن هذه الآيات السمعيَّة والخلقيَّة بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾[2].

فبيَّن ــ سبحانه ــ أنه يُري عباده من الآيات المشهودة العيانيَّة ــ في الآفاق وفي أنفسهم ــ ما يُبيِّن لهم به أن آياته السمعيَّة القرآنيَّة: حقٌّ وصدقٌ، فآيات الربِّ تعالى العيانيَّة الأفقيَّة والنفسيَّة: مستلزمةٌ لإثبات الأدلَّة السمعيَّة)[3].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٦١ ــ ٧٦٢.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٦٢ ــ ٧٦٣.

فهذا تقريرٌ لصحة استدلال العقل بآيات الله السمعيَّة والخلقيَّة على توحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقد تنوَّعت في كتاب الله العزيز أوجه الاستدلال بالعقل الصريح على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته بالنظر في أفعال الله تعالى المشاهدة في الآفاق وفي الأنفس، وهذا مما يبيِّن أنها استدلالاتٌ شرعيَّةٌ صحيحةٌ.

المسألة الخامسة:

تقريره أن الله تعالى أرشد عباده في كتابه الكريم إلى التعرُّف عليه وعلى أسمائه وصفاته بواسطة النظر في آياته المشهودة والاعتبار بها.

إنَّ مِن كمال رحمة الله تعالى بعباده وتمام نعمته عليهم: أن أنزل عليهم كتاباً محكم الآيات واضح البيِّنات؛ دعا فيه عباده إلى التعرُّف عليه وعلى أسمائه وصفاته بواسطة التفكُّر في مفعولاته؛ والتأمُّل في مصنوعاته؛ والتدبُّر في مخلوقاته، فتارة بالنظر إلى الآيات البيِّنات التي أجراها الله تعالى على أيدي أنبيائه ورسله، وتارة بالدعوة إلى الاستدلال بالمصنوع على الصانع والمخلوق على الخالق، (فلا يتأمَّل العاقلُ المُستبصرُ مخلوقاً حقَّ تأمُّله إلا وجده دالاً على فاطره وبارئه؛ وعلى وحدانيته؛ وعلى كمال صفاته وأسمائه)[1]، لأن (مُعطي الكمال: أحقُّ بالكمال، وخالق الأسماع والأبصار والنطق: أحقُّ بأن يكون سميعاً بصيراً متكلماً، وخالق الحياة والعلوم والقدر والإرادات: أحقُّ بأن يكون هو كذلك في نفسه)[2].

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذه المسألة بتقرير ما أودعه الله ــ سبحانه وتعالى ــ في القرآن الكريم من أوجه

---

(١) بدائع الفوائد ٤/ ١٣٧.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧١.

الاستدلال العقليِّ بما هو مشاهدٌ في آيات الله تعالى؛ بطرقٍ عدَّةٍ ومسالك شتَّى، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: تقريره ما تضمَّنته الآيات البيِّنات التي أجراها الله تعالى على أيدي أنبيائه ورسله من الدَّلالة على الله تعالى وعلى أسمائه وصفاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في طريق الاستدلال بمقدمات النبوة ومعجزات الرسالة: (هذه الطريق من أقوى الطُّرق وأصحِّها وأدلِّها على الصانع وصفاته وأفعاله.

وارتباط أدلَّة هذه الطريق بمدلولاتها: أقوى من ارتباط الأدلَّة العقليَّة الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحسِّ والعقل، ودلالتها ضروريةٌ بنفسها، ولهذا يُسمِّيها الله ــ سبحانه ــ: ﴿ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾[1].

وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فإن انقلاب عصا تُقِلُّها اليد ثعباناً عظيماً ــ يبتلع ما يمرُّ به ثم يعود عصا كما كانت ــ: من أدلِّ الدَّليل على وجود الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليَّات والجزئيَّات؛ وعلى رسالة الرسول؛ وعلى المبدأ والمعاد، فكلُّ قواعد الدين في هذه العصا؛ وكذلك اليد؛ وفلق البحر طرقاً والماء قائمٌ بينهما كالحيطان)[2].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (وأمثال ذلك مما هو من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله وصدق رسله واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد إليها عباده ودلَّهم بها)[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٩٩، سورة آل عمران: الآية ٩٧، سورة الحج: الآية ١٦، سورة النور: الآية ١، سورة العنكبوت: الآية ٤٩، سورة الحديد: الآية ٩، سورة المجادلة: الآية ٥.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٩٧.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٩٨.

فهذا تقريرٌ للاستدلال بدلائل النبوات ومعجزات الرسالات على إثبات توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته، وهذه الدلائل هي إحدى مفعولات الله تعالى؛ التي يُورث النظر فيها بعين البصر والبصيرة: إثبات حقائق ومعاني هذا الباب العظيم، كما هو مُقرَّر في:

ثانياً: تقريره أن النظر في مفعولات الله تعالى والتأمل فيها: تُورث التبصير بالله تعالى؛ والتبصرة بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (الربُّ تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكُّر في آياته وتدبُّرها.

فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة، فالنوع الأول: كقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى آخرها[1]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[2]، وهو كثيرٌ في القرآن.

والثاني: كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[3]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾[4]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[5]، وهو كثيرٌ أيضاً.

فأما المفعولات: فإنها دالةٌ على الأفعال، والأفعال: دالةٌ على الصفات، فإن المفعول يدلُّ على فاعلٍ فعلَه، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختياريِّ من معدومٍ أو موجودٍ

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩٠.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٢، سورة محمد: الآية ٢٤.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٦٨.

(٥) سورة ص: الآية ٢٩.

لا قـدرة لـه ولا حيـاة ولا علـم ولا إرادة، ثُـمَّ مـا فـي المفعـولات مـن التخصيصات المتنوِّعة: دالٌ على إرادة الفاعل؛ وأنَّ فعله ليس بالطَّبع بحيث يكـون واحـداً غيـر متكـررٍ، ومـا فيهـا مـن المصـالـح والحكـم والغـايـات المحمودة: دالٌ على حكمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير: دالٌ على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة: دالٌ على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية: دالٌ على محبته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان: دالٌ على بغضه ومقته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته: دالٌ على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرُّف المياه: دليلٌ على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه: دليلٌ على صحة النبوات، وما فيها من الكمالات ــ التي لو عدمتها كانت ناقصة ــ: دليلٌ على أن مُعطي تلك الكمالات أحقُّ بها.

فمفعولاته من أدلِّ شيءٍ على صفاته؛ وصدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات شاهدةٌ تُصدِّق الآياتِ المسموعات؛ منبهةٌ على الاستدلال بالآيات المصنوعات، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

أي: أنَّ القرآن حقٌّ، فأخبر أنه لا بُدَّ من أن يُريهم من آياته المشهودة ما يُبيِّن لهم أن آياتِه المتلوَّةَ حقٌّ، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحَّة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدةٌ بصدقه، وهو شاهدٌ بصدق رسوله بآياته، فهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه، كما قال بعض العارفين: (كيف أطلب

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

الدليل على من هو دليلٌ على كلِّ شيءٍ؟)[1].

فأيُّ دليلٍ طَلَبْتَهُ عليه: فوجوده أظهر منه، ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾[2]، فهو أعرف من كلِّ معروفٍ، وأبين من كلِّ دليلٍ، فالأشياء عُرفت به في الحقيقة؛ وإن كان عَرَّف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه)[3].

فهذه إحدى طرق الاستدلال العقليِّ ــ التي يُهتدى بها لمعرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ــ ، ونظيرها في الاستدلال العقليِّ ــ التي أرشد إليها الله تعالى في كتابه الكريم ــ : الاستدلال بالمصنوع على الصانع؛ والمخلوق على الخالق، كما هو مُقرَّر في:

ثالثاً: تقريره أن التأمُّل في دلالة المصنوع على الصانع والمخلوق على الخالق: تهدي إلى إثبات أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (من استقرأ أحوال الناس: رأى أن كثيراً من أهل الإسلام؛ أو أكثرهم: أعظم توحيداً؛ وأكثر معرفة؛ وأرسخ إيماناً من أكثر المتكلمين وأرباب النظر والجدال، ويجد عندهم من أنواع الأدلة والآيات

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧١]: (سمعتُ شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول: كيف يُطلب الدليل على من هو دليلٌ على كلِّ شيءٍ؟ وكان كثيراً ما يتمثَّل بهذا البيت:

وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ ... إذا احتاج النهار إلى دليلِ.

ومعلومٌ أنَّ وجود الربِّ تعالى أظهرُ للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم يَرَ ذلك في عقله وفطرته: فليتَّهمهما).

(٢) سورة إبراهيم: الآية ١٠.

(٣) الفوائد ص٢٨ ــ ٢٩.

ـ التي يصحُّ بها إيمانهم ـ ما هو أظهر وأوضح وأصحُّ مما عند المتكلمين.

وهذه الآيات التي ندب الله عباده إلى النظر فيها والاستدلال بها على توحيده وثبوت صفاته وأفعاله وصدق رسله: هي آياتٌ مشهودةٌ بالحسِّ؛ معلومةٌ بالعقل؛ مستقرةٌ في الفطر، لا يحتاج الناظر فيها إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم ألبتة، وكلُّ من له حسٌّ سليمٌ؛ وعقلٌ يُميِّز به: يعرفها ويُقِرُّ بها؛ وينتقل من العلم بها إلى العلم بالمدلول.

وفي القرآن ما يزيد على عشرات ألوف من هذه الآيات البينات، ومن لم يحفظ القرآن فإنه إذا سمعها وفهمها وعقلها: انتقل ذهنه منها إلى المدلول أسرع انتقالٍ؛ وأقرَّ به.

وبالجملة: فما كلُّ من عَلِمَ شيئاً أمكنه أن يستدل عليه، ولا كلُّ من أمكنه الاستدلال عليه يُحسن ترتيب الدليل وتقريره والجواب عن المُعارض، والشواهد التي ذكرها: هي الأدلة، كالاستدلال بالمصنوع على الصانع؛ والمخلوق على الخالق، وهذه طريقة القرآن؛ الذي لا توحيد أكمل من توحيده)[1].

فالآيات البيِّنات التي ندب الله تعالى عباده إلى النظر فيها والاستدلال بها على توحيده بأسماء الجلال وصفات الكمال: هي آيات شرعيَّة عقليَّة فطريَّة؛ مودعةٌ في القرآن الكريم؛ الذي لا دلالة على التوحيد أكمل من دلالته.

وإن من أوجه الاستدلال اللطيفة المودعة في كتاب الله تعالى: الاستدلال بالزمان على الله تعالى وعلى أسمائه وصفاته، وهو استدلالٌ عقليٌّ شرعيٌّ صحيحٌ، كما هو مُقرَّر في:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٥٠٨.

رابعاً: تقريره أن الاستدلال بالزمان على أسماء الله تعالى وصفاته: من الاستدلالات العقليَّة الصحيحة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في سياق بيانه للأقسام الواردة في سورة الشمس: (يكون الإقسام بنفس فعله تعالى، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدالِّ عليه؛ وبصنعته الدالَّة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده، ولَمَّا كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً؛ ويعلمون أن الحادث لا بُدَّ له من مُحدثٍ: كان العلم بذلك مُنَزَّلاً منزلة ذكر المُحدث له لفظاً؛ فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة.

ولهذا سلك طائفة من النُّظَّار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع، وهو استدلالٌ صحيحٌ؛ قد نبَّه عليه القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1].

ولما كانت السماء والأرض ثابتتين ــ حتى ظنَّ من ظنَّ أنهما قديمتان ــ : ذكر مع الإقسام بهما بانِيهما ومُبْدِعهما، وكذلك النفس فإن حدوثها غير مشهود؛ حتى ظنَّ بعضُهم قدمها، فذكر مع الإقسام بها مُسَوِّيها وفاطرها، مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق.

فإن بناء السماء يدلُّ على أنها كالقُبَّة العالية على الأرض؛ وجعلها سقفاً لهذا العالم، والطحو: هو مدُّ الأرض وبسطها وتوسيعها[2]؛ ليستقرَّ عليها الأنام والحيوان؛ ويُمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمنٌ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٠.

(٢) انظر: غريب القرآن وتفسيره لليزيدي ص٤١٢، نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز للسجستاني ص٣١٥، تفسير المشكل من غريب القرآن العظيم للقيسي ص٣٩٠.

لنضوب الماء عنها؛ وهو مما حيَّر عقول الطبائعيين، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرَها كثرةُ الماء، فبروز جانبٍ منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة؛ وكونه هذا الجانب المُعيَّن دون غيره؛ مع استواء الجوانب في الشكل الكري: يقتضي تخصيصاً، فلم يجدوا بُداً أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك.

قلنا: فنعم إذاً، ولكن عناية من لا مشيئة له ولا إرادة ولا اختيار ولا علم بمُعيَّنٍ أصلاً ــ كما تقولونه فيه ــ: محالٌ، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله؛ وأنه الفاعل، يفعل باختياره ما يريد)[1].

ومما تقدَّم تقريره من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ يتبيَّن أنه قد أبرز أهمية الاستدلال بالعقل الصريح على توحيد الله تعالى، وبيَّن واجب العقل الشرعيِّ؛ وهو استدلاله بأفعال الله تعالى المحكمة التي أبصرها في خلقه وتدبيره؛ ليتعرَّف بها على الله ــ سبحانه وتعالى ــ بأسماء الجمال وصفات الكمال ونعوت الجلال، (فهي كلُّها تُشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها، وتُنادي عليها وتدلُّ عليها، وتُخبر بها بلسان النطق والحال، كما قيل:

تأمَّل سطور الكائنات فإنَّها ... من الملك الأعلى إليك رسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأمَّلت خطَّها ... ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ
تُشير بإثبات الصِّفات لربِّها ... فصامِتُها يهدي ومن هو قائلُ)[2].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص٣٩ ــ ٤١.

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الأبيات في مواطن من كتبه ولم يعزها لقائل.
انظر: بدائع الفوائد ٤/١٣٨، التبيان في أقسام القرآن ص٢١١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/٤٥٧؛ ٣/١٧٨. =

فلستَ ترى شيئاً أدلَّ على شيءٍ من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه)[1]، وعليه؛ (فإن وَجَدَتْ العقول أوفق من هذا فلتقترحه، أو رأت أحسن منه فلتُبده ولتُوضحه، ذلك صنع: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾[2].

ومن نظر في هذا العالم؛ وتأمَّل أمره حقَّ التأمُّل: عَلِمَ قطعاً أن خالقه أتقنه وأحكمه غاية الإتقان والإحكام)[3].

❑ ❑ ❑

= والقائل هو: ركن الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجعفري التونسي؛ الشهير بابن القويع المالكي.
انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ٤/١٨٣، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ١/٢٢٨.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٢.

(٢) سورة الملك: الآيتان ٣ ــ ٤.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٦ ــ ١٥٦٧.

المطلب الرابع:

جهوده في تقرير دلالة العقل الصريح على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى بأدلة التنزيه والكمال

إنَّ مِن الأدلَّة الشرعيَّة الصحيحة التي استنارت العقول الصريحة بالاستدلال بها على الإيمان بتوحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى: أدلة التنزيه والكمال، (ولأجل ذلك أقام الله ـ سبحانه ـ البراهين القاطعة والحجج الساطعة، والأدلة الظاهرة والآيات الباهرة)[1] عليها في آي كتابه العزيز، فجاءت نصوصه الكريمة متضمنة للأدلة المنزِّهة لله ـ سبحانه وتعالى ـ عما لا يليق به من صفات النقص والعيب والوبال، ومتضمنة للأدلة المثبتة ما يليق به ـ تبارك وتعالى ـ من صفات الكمال والجمال والجلال.

وقد أولى أهل السنة والجماعة هذين الدليلين الشرعيين العقليين اهتماماً بالغاً، فأثبتوا لله تعالى ما يجب له من صفات الكمال والجلال؛ الذي لا شبه له فيه ولا مثال؛ بل هو ـ سبحانه وتعالى ـ أحقُّ بالتفرُّد به من كلِّ ما سواه، كما نفوا عنه ما يمتنع عليه من صفات النقص والوبال؛ الذي لا يصلح قيامه بالمتفرِّد بالألوهيَّة.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٦٢.

وأما من لم يهتدوا بهما: فإنهم عكسوا الأمر، فجعلوا الكمال نقصاً؛ وعدمه كمالاً، وخالفوا المنقول؛ وأفسدوا العقول، ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[1].

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير دلالة العقل الصريح على إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى بأدلة التنزيه تارة؛ وبأدلة الكمال تارة أخرى، مبيِّناً أن الآيات الكريمة ــ على كثرتها وتفنُّنها واتساعها وتنوُّعها ــ جاءت مقرِّرة لتوحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته ــ وما يجب له وما يمتنع عليه ــ بهذين الدليلين، وبيان تقريره ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا الاستدلال موضَّحٌ في المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى:

تقريره دلالة العقل الصريح على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى بأدلّة التنزيه.

قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ إثبات ما يليق بالله ــ سبحانه وتعالى ــ مِن الكمال بالأدلة المتضمنة لتنزيه العقل الصريح للربِّ تعالى عما لا يليق به من صفات النقص والعيب، فإن العقل الصريح والنقل الصحيح متَّفقان على انتفاء الألوهية والربوبية في حقٍّ من عُدِمَتْ فيه صفات الكمال. وبيان تقريره لهذه المسألة فيما يأتي:

أولاً: تقريره دلالة العقل الصريح على توحيد الله ــ عزَّ وجلّ ــ بأسمائه وصفاته بالأدلة المتضمنة لتنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به من صفات النقص والعيب، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قد نبَّه ــ سبحانه ــ على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول؛ فاستيقظت لتنبيهه العقول الحيَّة،

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٤١.

واستمرَّت على رقدتها العقول الميتة.

فقال الله تعالى في صفة العلم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1]. فتأمل صحة هذا الدليل؛ مع غاية إيجاز لفظه واختصاره.

وقال ــ سبحانه ــ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[2]. فما أصحَّ هذا الدليل وما أوجزه.

وقال تعالى في صفة الكلام: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾[3]. نبَّه بهذا الدليل على أنَّ من لا يُكلِّم ولا يهدي: لا يصلح أن يكون إلـٰهاً.

وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾[4]. فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم؛ وعدم ملك الضر والنفع: دليلاً على عدم الإلـٰهية، وهذا دليلٌ عقليٌّ سمعيٌّ على أنَّ الإلـٰه لا بُدَّ أن يُكلِّم ويتكلم، ويملك لعابده الضر والنفع؛ وإلا لم يكن إلـٰهاً.

وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[5]. نبَّهك بهذا الدليل العقليِّ القاطع أن الذي جعلك تُبصر وتتكلم وتعلم: أولى أن يكون بصيراً متكلماً عالماً، فأيُّ دليلٍ عقليٍّ قطعيٍّ أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى المعقول؟

---

(١) سورة الملك: الآية ١٤.

(٢) سورة النحل: الآية ١٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

(٤) سورة طه: الآية ٨٩.

(٥) سورة البلد: الآيات ٨ ــ ١٠.

وقال تعالى في آلهة المشركين المعطلين: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[1]. فجعل ــ سبحانه ــ عدم البطش والمشي والسمع والبصر دليلاً على عدم إلهية من عُدِمَت فيه هذه الصفات، فالبطش والمشي: من أنواع الأفعال، والسمع والبصر: من أنواع الصفات.

وقد وصف نفسه ــ سبحانه ــ بضدِّ صفة أربابهم؛ وبضدِّ ما وصفه به المعطلة والجهمية، فوصف نفسه بالسمع والبصر؛ والفعل باليدين والمجيء والإتيان، وذلك ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات عليها منافياً لإلـٰهيتها.

فتأمَّل آيات التوحيد والصفات في القرآن ــ على كثرتها وتفنُّنها واتساعها وتنوُّعها ــ ؛ كيف تجدها كلَّها قد أثبتت الكمال للموصوف بها؛ وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبه ولا مثال؟ وأيُّ دليلٍ في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومُدبِّره؛ وملك السماوات والأرض وقيُّومها؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع أنواع الكمال له؛ فأي قضية تصح في العقل بعد هذا؟

ومن شكَّ في أنَّ صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضا والفرح والرحمة والرأفة كمالٌ: فهو ممن سُلِبَ خاصَّة الإنسانية؛ وانسلخ من العقل، بل من شكَّ أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمالٌ: فهو مؤوفٌ مصابٌ في عقله، ومن شكَّ أن كونه يفعل باختياره ما يشاء ويتكلم إذا شاء وينزل إلى حيث شاء ويجيء إلى حيث شاء كمالٌ: فهو جاهلٌ بالكمال، والجامد عنده أكمل من الحيِّ الذي تقوم به

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٥.

الأفعال الاختيارية، كما أن عند شقيقه الجهمي: أن الفاقد لصفات الكمال أكملُ من الموصوف بها، كما أن عند أستاذهما وشيخهما الفيلسوف: أن من لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم؛ ولا له حياةٌ ولا قدرةٌ ولا إرادةٌ ولا فعلٌ ولا كلامٌ؛ ولا يُرسل رسولاً ولا يُنزل كتاباً؛ ولا يتصرَّف في هذا العالم بتحويل وتغيير وإزالة ونقل وإماتة وإحياء: أكملُ ممن يتَّصف بذلك.

فهؤلاء كلهم قد خالفوا صريح المعقول؛ وسلبوا الكمال عمَّن هو أحقُّ بالكمال من كلِّ ما سواه، ولم يكفهم ذلك حتى جعلوا الكمال: نقصاً؛ وعدمه: كمالاً، فعكسوا الأمر؛ وقلبوا الفطر؛ وأفسدوا العقول.

فتأمَّل شُبَهَهُم الباطلة وخيالاتهم الفاسدة التي عارضوا بها الوحي: هل تُقاوم هذا الدليل الدالَّ على إثبات الصفات والأفعال للرب ــ سبحانه ــ؟ ثم اختر لنفسك بعدُ ما شئت.

وهذا قطرةٌ من بحرٍ؛ نبَّهنا به تنبيها يعلم به اللبيب ما وراءه، وإلا فلو أعطينا هذا الموضع حقَّه ــ وهيهات أن يصل إلى ذلك علمُنا أو قدرتُنا ــ لكتبنا فيه عدَّة أسفارٍ، وكذا كلُّ وجهٍ من هذه الوجوه؛ فإنه لو بُسط وفُصِّلَ: لاحتمل سِفْراً أو أكثر، والله المستعان؛ وبه التوفيق)[1].

فالعقل الصريح دلَّ على أن الإله الحقَّ المستوجب للألوهية والربوبية: هو من قامت فيه صفات الكمال؛ وعُدِمَتْ فيه صفات النقص والوبال، فأيُّ دليلٍ في العقل أوضح وأصرح من هذا؟

والله ــ سبحانه وتعالى ــ لما نفى عن نفسه المقدسة النقص من العدم أو ما يستلزمه: عُلِمَ أنه ــ سبحانه ــ أحقُّ بكلِّ كمالٍ وجمالٍ؛ وأحقُّ بكلِّ أمرٍ لا يستلزم عدماً ولا نقصاً ولا عيباً، وهذا هو الذي دلَّ عليه صريح العقل.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٤ ــ ٩١٧.

ثانياً: تقريره أنَّ ما نفاه الله تعالى عن نفسه ـ مما يناقض الإثبات ويضادُّ ثبوت الصفات العلى والأفعال المحكمة ـ : هو محض دلالة صريح العقل، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (الله ـ سبحانه ـ إنما نفى عن نفسه ما يُناقض الإثبات ويُضادُّ ثبوت الصفات والأفعال، فلم ينف إلا أمراً عدمياً؛ أو ما يستلزم العدم.

فنفى السِّنَة والنوم؛ المستلزم لعدم كمال الحياة والقيومية، ونفى العزوب والخفاء؛ المستلزم لنفي كمال العلم، ونفى اللغوب؛ المستلزم نفي كمال القدرة، ونفى الظلم؛ المستلزم لنفي كمال الغنى والعدل، ونفى العبث؛ المستلزم لنفي كمال الحكمة والعلم، ونفى الصاحبة والولد؛ المستلزمين لعدم كمال الغنى، وكذلك نفى الشريك والظهير والشفيع المُقدَّم بالشفاعة؛ المستلزم لعدم كمال الغنى والقهر والملك، ونفى الشبيه والمثيل والكفؤ؛ المستلزم لعدم التفرُّد بالكمال المطلق، ونفى إدراك الأبصار له وإحاطة العلم به؛ المستلزمين لعدم كمال عظمته وكبريائه وسعته وإحاطته، وكذلك نفى الحاجة والأكل والشرب عنه ـ سبحانه ـ ؛ لاستلزام ذلك عدم غناه الكامل.

وإذا كان إنما نفى عن نفسه العدم؛ أو ما يستلزم العدم: عُلِمَ أنه أحقُّ بكلِّ وجودٍ وثبوتٍ؛ وكلِّ أمرٍ وجودي لا يستلزم عدماً ولا نقصاً ولا عيباً، وهذا هو الذي دلَّ عليه صريح العقل)[1].

فهذا تقريرٌ لدلالة العقل الصريح على إثبات أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى، وهذا التقرير يتضمن أن إحدى الطرق التي يستدل بها العقل الصريح على الإثبات: هي أدلة التنزيه، وأنَّ النصوص الدالَّة على تنزيه الله

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٣ ـ ١٠٢٤.

تعالى عن الاتصاف بصفات النقص: تدلُّ بطريق اللزوم على اتصافه ــ سبحانه ــ بضدِّها من صفات الكمال، وأما النقائص: فقد (دلَّ العقل الصريح واتفاق المرسلين ــ من أولهم إلى آخرهم ــ على نفيها عن الله؛ وتنزيهه عنها)[1].

المسألة الثانية:

تقريره دلالة العقل الصريح على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى بأدلّة الكمال.

قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ دلالة العقل الصريح على إثبات صفات الكمال لله تعالى؛ وأنَّه ــ سبحانه ــ أحقُّ بكلِّ صفة كمالٍ من غيره. وبيان تقريره لهذه المسألة فيما يأتي:

أولاً: تقريره دلالة العقل الصريح على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته بأدلَّة الكمال؛ مُبيِّناً حُرْمَة تعطيل هذه الأدلَّة؛ وتأويلها بما يُبطل حقائقها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (كلُّ صفةٍ وَصَفَ الله بها نفسه ووصفه بها رسوله: فهي صفة كمال قطعاً، فلا يجوز تعطيل صفات كماله وتأويلها بما يبطل حقائقها.

فالدليل العقليُّ الذي دلَّ على ثبوت الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر: دلَّ نظيره على ثبوت الحكمة والرحمة والرضا والغضب والفرح والضحك، والذي دلَّ على أنه فاعل بمشيئته واختياره: دلَّ على قيام أفعاله به، وذلك عين الكمال المُقدَّس.

وكلُّ صفةٍ دلَّ عليها القرآن والسنة: فهي صفة كمالٍ، والعقلُ جازمٌ بإثبات صفات الكمال للربِّ ــ سبحانه ــ ، ويمتنع أن يَصِفَ نفسَه أو يَصِفَه

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١١.

رسولُه بصفة تُوهِم نقصاً)[1].

فدلالة العقل الصريح على إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى على وجه الكمال الذي لا نقص فيه ولا عيب: مُوافقة لما دلَّ عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من ذلك، فالعقل الصريح كما يدلُّ على إثبات الكمال للربِّ تعالى: فإنه ينفي عنه كلَّ وصف مبطلٍ لهذا الكمال، ويُقِرُّ بأنه ـ سبحانه ـ أحقُّ بكلِّ كمالٍ من غيره.

ثانياً: تقريره أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أحقُّ بكلِّ صفة كمالٍ من غيره، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (الدليل العقلي الصحيح إنما دلَّ على انتهاء المخلوقات إلى خالقٍ واحدٍ قديمٍ غير مخلوقٍ ولا مصنوعٍ ولا محتاجٍ إلى سواه بوجهٍ من الوجوه، وكلُّ ما عداه: محتاجٌ إليه من جميع الوجوه.

ولم يدلَّ على أن هذا الواحد ـ سبحانه ـ معطلٌ عن الأفعال والصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وأنَّ الدليل العقليَّ إنما دلَّ على خلاف ذلك؛ وأنَّه أحقُّ بكلِّ صفة كمالٍ من غيره)[2].

فهذه شذراتٌ من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ؛ قرَّر فيها دلالة العقل الصريح على توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته بأدلَّة الكمال؛ التي هو أحقُّ بالاتصاف بها ـ سبحانه ـ من كلِّ ما سواه، (فليس في العقول أبين ولا أجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم وتنزيهه عن العيوب والنقائص)[3].

❑ ❑ ❑

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٣.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٨.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٨٢٢.

المطلب الخامس:

جهوده في تقرير دلالة العقل الصريح على إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى بالمثل الأعلى

إنَّ مِن الدلائل العقليّة الصريحة التي جاءت بها النصوص الشرعيّة الصحيحة: هو الاستدلال على إثبات توحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى بالمثل الأعلى، وهذا المسلك الصحيح الصريح: هو الذي كان (السلف يسلكونه من القياس العقلي في أمر الربوبية، وهو الذي جاء به القرآن، وذلك أن الله ــ سبحانه ــ لا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قياس الشمول ــ الذي تستوي أفراده ــ ، ولا تحت قياس التمثيل ــ الذي يستوي فيه حكم الأصل والفرع ــ ، فإن الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]؛ لا في نفسه المذكورة بأسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، ولكن يُسلك في شأنه: قياسُ الأولى)[2]، وهو القياس الشرعيُّ العقليُّ المذكور في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[4].

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص٧٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٤) سورة الروم: الآية ٢٧.

وبيان حقيقة هذا المثل الشرعيِّ والقياس العقليِّ ـ الذي تضمنته نصوص الوحي المبين؛ ودرج على ألسنة سلف الأمة الصالحين ـ : (أن يُعلم أن كلَّ كمالٍ ثَبَتَ للممكن أو المحدث؛ لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه ـ وهو ما كان كمالاً للموجود غير مستلزم للعدم ـ : فالواجب القديم أولى به، وكلُّ كمالٍ لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق المربوب المعلول المُدبَّر: فإنما استفاده من خالقه وربِّه ومُدبِّره؛ فهو أحقُّ به منه، وأنَّ كلَّ نقصٍ وعيبٍ في نفسه ـ وهو ماتضمَّن سلب هذا الكمال إذا وجب نفيه عن شيءٍ ما من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات ـ : فإنه يجب نفيه عن الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بطريق الأولى، وأنه أحقُّ بالأمور الوجودية من كلِّ موجود، وأما الأمور العدمية: فالممكن المحدث بها أحقُّ ونحو ذلك.

ومثل هذه الطرق: هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب)[1].

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بتقرير ثبوت أسماء الجمال وصفات الكمال لله الكبير المتعال من الدلائل العقليَّة الصريحة؛ التي لم تفسد بمعارضة النقول الشرعيَّة الصحيحة، ومن تلك الدلائل العقليَّة المُعتنى بها: الاستدلال بالمثل الأعلى على إثبات توحيد الأسماء والصفات، وأن خالق الجمال وواهب الكمال أحقُّ به وأولى.

ويمكن إبراز جهود الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ؛ وتجلية تقريره لهذا المطلب في المسائل الآتية:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ٢٩ ـ ٣٠.

المسألة الأولى:

تقريره بالبرهان العقليّ القاطع ثبوت صفات الكمال لله تعالى؛ وأنه مستحقٌّ للمثل الأعلى، واستحالة التمثيل والتشبيه عليه؛ وأنه مُنزَّهٌ عن مثل السَّوء.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (ـ سبحانه ـ وصف نفسه بأنَّ له المثل الأعلى، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾[2].

فجعل مثل السَّوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلِّها له وحده، ولهذا كان المثل الأعلى، وهو أفعل تفضيل؛ أي: أعلى من غيره، فكيف يكون أعلى وهو عدمٌ محضٌ ونفيٌ صِرْفٌ؟ وأيُّ مثلٍ أدنى من هذا؟ تعالى الله عن قول المعطلين علوًّا كبيراً.

فمثل السَّوء لعادم صفات الكمال، ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده وكلامه وحكمته، لأنهم فقدوا الصفات التي من اتَّصف بها كان كاملاً؛ وهي: الإيمان والعلم، والمعرفة واليقين، والعبادة لله والتوكل عليه والإنابة إليه، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والصبر والرضا والشكر، وغير ذلك من الصفات التي اتصف بها من آمن بالآخرة، فلما سُلبت تلك الصفات عنهم ـ وهي صفات كمالٍ ـ: صار لهم مثل السَّوء.

(١) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٧.

فمن سَلَبَ صفات الكمال عن الله، وعُلُوَّه على خلقه وكلامه، وعلمه وقدرته ومشيئته وحياته، وسائر ما وصف به نفسه: فقد جعل له مثل السَّوء؛ ونزَّهه عن المثل الأعلى[1].

فإن مثل السَّوء: هو العدم وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى: وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية؛ التي كلَّما كانت أكثر في الموصوف وأكمل: كان أعلى من غيره.

ولما كان الربُّ تعالى هو الأعلى؛ ووجهه الأعلى؛ وكلامه الأعلى؛ وسمعه الأعلى؛ وبصره وسائر صفاته عليا: كان له المثل الأعلى، وكان أحقَّ به من كلِّ ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان، لأنهما إن تكافآ: لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ: فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده؛ يستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثلٌ أو نظيرٌ.

وهذا برهانٌ قاطعٌ من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمَّله فإنه في غاية الظهور والقوَّة.

---

(١) هذه ملاحظة من الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لدعوى المعطلة؛ وأن مرادهم من السلب: التنزيه، وإلا فتعطيل الله تعالى عن المثل الأعلى لا يُسمى تنزيهاً بحالٍ، بل هو: عدمٌ محضٌ ونفيٌ صِرْفٌ.
قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٣٨٢٩ ــ ٣٨٣١) ــ ص٢٨٠] في حقيقة تنزيه الجهمية؛ وعاقبته الوخيمة التي يؤول إليها:

(وكذلك الجهمي نزَّه ربَّه ... عن عرشه من فوق ذي الأكوانِ
حذراً من الحصر الذي في ظنِّه ... أو أن يُرى مُتحيِّزاً بمكانِ
فأصاره عدما وليس وجوده ... مُتحقِّقاً في خارج الأذهانِ).

ونظير هذا: القهر المطلق مع الوحدة، فإنهما متلازمان، فلا يكون القهَّار إلا واحداً، إذ لو كان معه كفؤٌ له فإن لم يقهره: لم يكن قهَّاراً على الإطلاق، وإن قهره: لم يكن كفؤاً؛ وكان القهَّارُ واحداً.

فتأمل كيف كان قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[1]؛ وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[2]: من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله ـ سبحانه ـ)[3].

وبعد فراغ الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ من بيان المثل الأعلى؛ وأنه الكمال المطلق، وأن ضده مثل السَّوء؛ وهو العدم: شرع يُبيِّن حقيقة المثل الأعلى؛ ويذكر كلام سلف الأمة ـ رحمهم الله تعالى ـ في تفسيره، فقال: (فإن قلتَ: قد فهمتُ هذا وعرفتُه، فما حقيقة المثل الأعلى؟

قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين؛ واستشكلوا قول السلف فيه، فإن ابن عباس وغيره قالوا: (﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ﴾[4]: العذاب والنار. ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[5]: شهادة أن لا إلـه إلا الله)[6].

وقال قتادة: (هو الإخلاص والتوحيد)[7].

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٣٠ ـ ١٠٣٢.

(٤) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٥) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٦) انظر: معالم التنزيل للبغوي ٥/ ٢٥، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/ ٧٩.

(٧) أخرجه الطبري في [جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٤/ ١٢٥].

وقال الواحدي[1]: (هذا قول المفسرين في هذه الآية، ولا أدري لم قيل للعذاب: مثل السَّوء، وللإخلاص: المثل الأعلى؟ قال: وقال قومٌ: المثل السَّوء: الصفة السَّوء من احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم للإناث خوف العَيْلَة والعار. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2]: الصفة العليا من تنزُّهه وبراءته عن الولد. قال: وهذا قولٌ صحيحٌ، فالمثل كثيراً ما يرد بمعنى الصفة، قاله جماعة من المتقدمين)[3].

وقال ابن كيسان: (﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾[4]: ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال. و﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[5]: نحو قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) هو: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي؛ النيسابوري؛ الشافعي، المفسر النحوي، توفي بنيسابور في جمادى الآخرة سنة ثمان وستين وأربعمائة.
انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/ ٣٣٩ ـ ٣٤٢، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي ص١٤٥ ـ ١٤٦، طبقات المفسرين للأدنه وي ص١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٣) قال القفطي في [إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢/ ٢٢٣] في مصنَّفات الواحدي: (صنَّف التفسير الكبير وسمَّاه: البسيط، وأكثر فيه من الإعراب والشواهد واللغة، ومن رآه: علم مقدار ما عنده من علم العربية. وصنَّف: الوسيط في التفسير أيضاً؛ وهو مختارٌ من البسيط أيضاً، غايةٌ في بابه. وصنَّف الوجيز، وهو عجيبٌ).
ولم أقف على النقل الذي أشار إليه الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير الواحدي المختصر: (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، ووقفت على نحوٍ منه في تفسيره المتوسط: (الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٣/ ٦٨)، ولعلَّ النقل المشار إليه: في تفسيره المُطوَّل: (البسيط في التفسير)؛ وهو مخطوط.

(٤) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٥) سورة النحل: الآية ٦٠.

﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾[1])[2].

وقال ابن جرير[3]: (﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾[4]: نحو قوله: هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إلـٰه غيره)[5])[6].

وبعد نقل الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لكلام سلف الأمة في تفسير المثل الأعلى: ذكر المعاني التي يدور عليها كلام سلف الأمة ـ رحمهم الله تعالى ـ في هذا المثل ولا يتجاوزه، فقال: (قلتُ: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلميُّ والخبر عنها، وذكرها وعبادة الربِّ ـ سبحانه ـ بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور:

ثبوت الصفات العليا لله ـ سبحانه ـ في نفس الأمر ـ عَلِمَها العباد أو جهلوها ـ، وهذا معنى قول من فسَّره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصوُّر، وهذا معنى قول من قال من

---

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/ ٧٩؛ غير معزوٍ إلى قائله.

(٣) هو: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، الإمام العلم المجتهد، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، وتوفي عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة. انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٨/ ٤٠ ـ ٩٤، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٤/ ٢٦٧ ـ ٢٨٢، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ١٠٦ ـ ١٠٨.

(٤) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٤/ ١٢٥.

(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٣٢ ـ ١٠٣٣.

السلف والخلف: (إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه)[1].

وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى: لا يشترك فيه غيره معه؛ بل يختصُّ به في قلوبهم كما اختصَّ في ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين: (أهل السماء يُعظِّمونه ويُحبّونه ويعبدونه، وأهل الأرض يُعظِّمونه ويُجلِّونه؛ وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحدها)[2].

فكلُّ أهل الأرض مُعظِّمون له مُجلِّون له، خاضعون لعظمته مُستكينون لعِزَّته وجبروته. قال تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[3].

فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه: إلا والله أكبر في صدره؛ وأكمل وأعظم من كلِّ ما سواه.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، وكلَّما كان الإيمان بالصفات أكمل: كان هذا الحبُّ والإخلاص أقوى.

فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها)[4].

ثم أخذ الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ يقرِّر المثلين اللذين ضربهما الله تعالى لنفسه ولأنداده، وأن له ـ سبحانه ـ المثل الأعلى؛

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) سورة البقرة: الآية ١١٦.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٣٤ ـ ١٠٣٥.

ولأنداده مثل السَّوء، فقال: (وقد ضرب الله ـ سبحانه ـ مثل السَّوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾[1].

فهذان مثلان ضربهما لنفسه وللأصنام، فللأصنام: مثل السَّوء؛ وله: المثل الأعلى[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[3][4].

فهذا المثل الأعلى الذي له ـ سبحانه ـ، والأول مثل السَّوء للصنم وعابديه)[5].

ثم ختم الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تقريره للمثل

---

(١) سورة النحل: الآيتان ٧٥ ـ ٧٦.
(٢) انظر في فقه هذين المثلين الإلهيين المضروبين: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦٠ ـ ١٦٤.
(٣) سورة الحج: الآيتان ٧٣ ـ ٧٤.
(٤) انظر في فقه هذا المثل الإلهي المضروب: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٨١ ـ ١٨٢.
(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٣٥ ـ ١٠٣٦.

الأعلى وحقيقته ومعانيه: ببيان أن الذين أقاموا العداوة بين الوحي وبين عقولهم؛ وفرضوا المعارضة بينهما: لهم ما للأنداد المعبودة من دون الله تعالى من مثل السَّوء، فقال: (وقد ضرب ـ سبحانه ـ للمعارضين بين الوحي وعقولهم مثل السَّوء بالكلب[1] تارة؛ وبالحمر[2] تارة؛ وبالأنعام[3] تارة؛ وبأهل القبور[4] تارة؛ وبالعُمْيِ الصُّمِّ[5] تارة، وغير ذلك من الأمثال

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف: الآيتان ١٧٥ ـ ١٧٦].

وانظر في فقه هذا المثل الإلـهي المضروب: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦٥ ـ ١٦٩.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٥]، وفي قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة المدثر: الآيتان ٥٠ ـ ٥١].

وانظر في فقه هذين المثلين الإلـهيين المضروبين: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الفرقان: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤].

وانظر في فقه هذا المثل الإلـهي المضروب: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٥٩.

(٤) وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة فاطر: الآيتان ٢٢ ـ ٢٣].

(٥) وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ =

السَّوء التي ضربها لهم ولأوثانهم، وأخبر عن مثله الأعلى بما ذكره من أسمائه وصفاته وأفعاله، وضرب لأوليائه وعابديه أحسن الأمثال.

ومن تدبَّر القرآن: فهم المراد بالمثل الأعلى ومثل السَّوء، وبالله التوفيق)[1].

فهذا تقريرٌ لما وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ به نفسه من أنَّ له المثل الأعلى الذي تهتدي به العقول المستقيمة لإثبات الكمالات كلِّها له وحده؛ ونفي جميع النقائص والعيوب عن ذاته المقدسة وصفاته العليَّة.

المسألة الثانية:

تقريره ما استنارت به عقول أهل الإثبات من كون الله تعالى موصوفٌ بصفات الكمال كلّها، وأنه فوق ما تفترضه عقولهم من الكمال.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (فللَّه ـ سبحانه ـ كلُّ صفة كمالٍ، وهو موصوفٌ بتلك الصفات كلِّها، ونذكر من ذلك صفةً واحدةً تُعتبر بها سائر الصفات: وهو أنَّك لو فرضت جمال الخلق كلِّهم ـ من أولهم إلى آخرهم ـ اجتمع لشخصٍ واحدٍ منهم، ثم كان الخلق كلُّهم على جمال ذلك الشخص: لكان نسبته إلى جمال الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ دون نسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى جُرْم الشمس.

وكذلك قوَّته ـ سبحانه ـ وعلمه، وسمعه وبصره وكلامه، وقدرته ورحمته وحكمته وجوده وسائر صفاته.

= ﴿يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة هود: الآية ٢٤].

وانظر في فقه هذا المثل الإلـٰهي المضروب: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٥٤.

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٣٦.

وهذا مما دلَّت عليه آياته الكونيَّة السمعيَّة، وأخبرت به رسله عنه، كما في الصحيح عنه ﷺ: «إن الله لا ينام؛ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1].

فإذا كانت سُبُحات وجهه الأعلى لا يقوم لها شيءٌ من خلقه؛ ولو كشف حجاب النور عن تلك السُبُحات لاحترق العالم العلويُّ والسفليُّ: فما الظنُّ بجلال ذلك الوجه الكريم وعظمته وكبريائه وكماله وجلاله؟

وإذا كانت السماوات مع عظمتها وسعتها يجعلها على أصبع من أصابعه، والأرض على أصبع، والجبال على أصبع، والبحار على أصبع: فما الظنُّ باليد الكريمة التي هي صفة من صفات ذاته؟

وإذا كان يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنُّن الحاجات في أقطار الأرض والسماوات، فلا يشتبه عليه ولا يختلط ولا يلتبس، ولا يُغلطه سمعٌ، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصَّمَّاء تحت أطابق الأرض في الليلة الظلماء، ويعلم ما تُسِرُّه القلوب وأخفى منه ـ وهو ما لم يخطر لها أنه سبحانه سيخطر لها ـ، ولو كان البحر المحيط بالعالم مداداً ويُحيط به من بعده سبعة أبحر كلِّها مداد، وجميع أشجار الأرض ـ وهو كلُّ نبتٍ قام على ساق مما يُحصد ومما لا يُحصد ـ أقلام يكتب بها: نفدت البحار والأقلام؛ ولم ينفد كلامه.

وهذا وغيره بعض ما تعرَّف به إلى عباده من كلامه، وإلا فلا يمكن

---

(١) تقدم تخريجه.

أحداً قطُّ أن يُحصي ثناء عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه، فكلُّ الثناء وكلُّ الحمد وكلُّ المجد وكلُّ الكمال له ــ سبحانه ــ .

هذا الذي وصلت إليه عقول أهل الإثبات وتلقَّوه عن الرسول؛ ولا يحتاجون في ثبوت علمهم وجزمهم بذلك إلى الجواب عن الشبه القادحة في ذلك، وإذا وردت عليهم لم تقدح فيما علموه وعرفوه ضرورة من كون ربهم ــ تبارك وتعالى ــ كذلك؛ وفوق ذلك)[1] .

فهذا تقريرٌ لما وصلت إليه عقول أهل الإثبات؛ وتلقَّوه عن الرسول ﷺ: من أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ موصوفٌ بكلِّ صفة كمالٍ، وأنه أحقُّ بها وأهلها من كلِّ ما سواه.

وهذه هي حقيقة المثل الأعلى؛ التي متى ما استوت معرفتها على عرش القلب: فإنه يستخرج ما فيه من الكنوز والذخائر؛ التي ينتفع بها العبد في حياته ونفسه.

المسألة الثالثة:

تقريره أن المثل الأعلى مستو على عرش القلب المؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (من لم يعرف نفسه كيف يعرف خالقه؟

فاعلم أن الله تعالى خلق في صدرك بيتاً وهو القلب، ووضع في صدره عرشاً لمعرفته يستوي عليه المثل الأعلى، فهو مستوٍ على عرشه بذاته بائنٌ من خلقه، والمثل الأعلى من معرفته ومحبته وتوحيده مستوٍ على سرير القلب،

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٨٢ ــ ١٠٨٤.

وعلى السرير بساطٌ من الرضا، ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره، وفتح إليه باباً من جنة رحمته والأنس به والشوق إلى لقائه، وأمطره من وابل كلامه ما أنبت فيه أصناف الرياحين والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس، وجعل في وسط البستان شجرةَ معرفةٍ؛ فهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من المحبة والإنابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه، وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من تدبُّر كلامه وفهمه والعمل بوصاياه، وعلَّق في ذلك البيت قنديلاً أسرجه بضياء معرفته والإيمان به وتوحيده، فهو يستمدُّ من ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾[1]، ثم أحاط عليه حائطاً يمنعه من دخول الآفات والمفسدين ومن يُؤذي البستان؛ فلا يلحقه أذاهم، وأقام عليه حرساً من الملائكة يحفظونه في يقظته ومنامه، ثم أعلم صاحب البيت والبستان بالساكن فيه، فهو دائما همُّه: إصلاح السكن ولَمُّ شعثه ليرضاه الساكن منزلاً، وإذا أحسَّ بأدنى شعث في السكن: بادر إلى إصلاحه ولمِّه خشية انتقال الساكن منه، فنعم الساكن ونعم المسكن.

فسبحان الله ربّ العالمين؛ كم بين هذا البيت وبيت: قد استولى عليه الخراب؛ وصار مأوى للحشرات والهوام؛ ومحلاً لإلقاء الأنتان والقاذورات فيه؟ فمن أراد التخلِّي وقضاء الحاجة: وجد خربة لا ساكن فيها ولا حافظ لها؛ وهي معدةٌ لقضاء الحاجة، مظلمةٌ الأرجاء منتنةٌ الرائحة، قد عمَّها الخراب؛ وملأتها القاذورات، فلا يأنس بها ولا ينزل فيها إلا من يُناسبه سُكناها من الحشرات والديدان والهوامِّ، الشيطان جالسٌ على سريرها، وعلى السرير بساطٌ من الجهل، وتخفق فيه

---

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

الأهواء، وعن يمينه وشماله مرافق الشهوات، وقد فُتح إليه بابٌ من حقل الخذلان والوحشة والركون إلى الدنيا والطمأنينة بها والزهد في الآخرة، وأُمطر من وابل الجهل والهوى والشرك والبدع ما أنبت فيه أصناف الشوك والحنظل والأشجار المثمرة بأنواع المعاصي والمخالفات؛ من الزوائد والتنديبات والنوادر والهزليَّات والمضحكات والأشعار الغزليَّات والخمريَّات ــ التي تُهيِّج على ارتكاب المُحرَّمات؛ وتُزهِّد في الطاعات ــ ، وجعل في وسط الحقل: شجرة الجهل به والإعراض عنه، فهي تُؤتي أكلها كل حينٍ من الفسوق والمعاصي واللهو واللعب والمجون؛ والذهاب مع كلِّ ريحٍ، واتباع كلِّ شهوةٍ، ومن ثمرها: الهموم والغموم والأحزان والآلام، ولكنها متوارية بإشغال النفس بلهوها ولعبها، فإذا أفاقت من سكرها: أُحضرت كلَّ همٍ وغمٍ وحزنٍ وقلقٍ ومعيشةٍ ضنكٍ، وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من اتِّباع الهوى وطول الأمل والغرور، ثم ترك ذلك البيت وظلماته وخراب حيطانه بحيث لا يُمنع منه مُفسدٌ ولا حيوانٌ ولا مؤذٍ ولا قذرٌ.

فسبحان خالق هذا البيت وذلك البيت، فمن عرف بيته وقدر الساكن فيه وقدر ما فيه من الكنوز والذخائر والآلات: انتفع بحياته ونفسه، ومن جهل ذلك: جهل نفسه وأضاع سعادته، وبالله التوفيق)[1].

فهذا حقيقة المثل الأعلى الذي له في قلب العبد الموقن بحقائق أسماء الله تعالى وصفاته؛ والمؤمن بمعانيها: مستقرٌ ومستودعٌ، وهذا المثل الأعلى يبعث من قلب العبد المؤمن الإقرار بأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ : أحقُّ بكلِّ صفة كمالٍ؛ وأولى بها من كلِّ ما سواه.

---

(١) الفوائد ص١٩٨ ــ ٢٠٠.

المسألة الرابعة:

تقريره أن الله ـ سبحانه ـ أولى وأحقُّ بصفات الكمال من كلّ ما عداه، وأنّ الكمال على الحقيقة لا يستحقُّه أحدٌ سواه.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في سياق تفسير التحية الواردة في تشهُّد الصلاة: (التحيَّة: هي تحيةٌ من العبد للحيِّ الذي لا يموت، وهو ـ سبحانه ـ أولى بتلك التحيَّات من كلِّ ما سواه، فإنها تتضمن الحياة والبقاء والدوام، ولا يستحقُّ أحدٌ هذه التحيات إلا الحيَّ الباقي الذي لا يموت ولا يزول ملكه)[1].



(١) الصلاة وحكم تاركها ص١٨٣.

المطلب السادس:

جهوده في تقرير
موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح
في إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى ودرء تعارضهما

إنَّ العقل الصريح يُوافق النقل الصحيح ولا يُناقضه، ويُصادقه ولا يُعارضه، وهذه قضيَّةٌ كليَّةٌ مطَّردةٌ في جميع أبواب الدين؛ لا سيَّما في أبواب توحيد ربِّ العالمين، لذا نجد أن أهل السنة والجماعة قد عُنُوا ـ أيَّما عنايةٍ ـ بالاستدلال بالدلائل العقليَّة المطابقة للحجج السمعيَّة والموافقة لها على: إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

فالسمع الصحيح لا ينفكُّ ـ بحالٍ من الأحوال ـ عن العقل الصريح؛ بل هما أخوان نصيران، وصل الله تعالى بينهما؛ وقرن أحدهما بصاحبه، وأنزل كتبه وبعث رسله بأحدهما ـ وهو المنقول الصحيح ـ إلى الآخر ـ وهو المعقول الصريح ـ.

فكيف يُدَّعى بعد ذلك تعارض النقل الصحيح والعقل الصريح وتناقضهما؟ وكيف تُجعل الحربُ بينهما سجالاً؟ وهل هذا إلا من أعظم الفرية عليهما؟ وهل وُجِدَتْ هذه المعارضة للنقل القويم؛ والخروج عن حكمه المستقيم: إلا مِنْ أفسد العقول وأسخفها وأشدِّها منافاة لصريح العقل

وصحيحه؟ وهل هذه المعارضة العقيمة والمناقضة الوخيمة إلا نتيجة جهلين عظيمين: جهلٍ بالنقل، وجهلٍ بالعقل؟

فالله ــ سبحانه وتعالى ــ أقام حجَّته البالغة ومحجَّته الدامغة على خلقه بكتابه العظيم ورسوله الكريم ــ اللَّذين جاءا بالنقل الصحيح ــ ، فلا يُمكن أن يكون فيهما ما يظهر منه خلاف الحقِّ؛ ولا ما يُخالف العقل، لأن النقل الصحيح لم يأت ــ في أمرٍ من الأمور ألبتة ــ بما يُخالف صريح العقل؛ وإن احْتُمل مجيئُه بما لا يُدركه العقل.

ومن ادَّعى مجيء صحيح النقل بما يُخالف صريح العقل: لم يقدر الله تعالى حقَّ قدره، وظنَّ به ــ سبحانه ــ وبكتابه المنزل ونبيه المرسل: ظنَّ السَّوء، وقدح في سلف الأمة ــ الذين هم أكمل الأمم عقولاً؛ وأوسطها منهجاً؛ وأزكاها شرعة ــ الذين تلقَّوا بالتسليم والقبول: صحيح المنقول، ولم يُعارضوه بصريح المعقول.

(فليتدبر اللبيب السالك هذا الموضع حق التدبر؛ وليعرف قدره، فإنه)[1] من المواضع العظيمة؛ والمباحث الجسيمة ــ التي هي مزلَّة أقدامٍ؛ ومضلَّة أفهامٍ؛ ومظنَّة أوهامٍ ــ ، وقد ضبط لك ــ بحمد الله تعالى ــ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ معاقده؛ وأحكم لك قواعده، حيث برزت جهوده جليةً في تقرير توافق العقل الصريح والنقل الصحيح؛ وعدم تعارضهما، فتارة يُعنى ببيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح وتوافقهما، وتارة يُعنى ببيان درء تعارضهما وتناقضهما، ونصوص كلامه ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المطلب مُضمَّنةٌ في المسألتين الآتيتين:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٧٨.

المسألة الأولى:

تقريره موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح في إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى.

قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ التوافق التام بين عقول العباد الصحيحة والنقول الشرعيَّة الصحيحة، وأن هذه العقول لا تخرج عن حكم هذه النقول؛ بل تُصدِّقها وتُؤمن بها وتُعزِّرها وتوقِّرها.

وأنَّ القائلين بتوافقهما: (للعقل والنقل مُوافقين، وللكتاب والسنة مُصدِّقين، ولسلف الأمة ـ وأعلمها بالله وصفاته وأسمائه ـ مُوافقين، وعن سبيل أهل الإلحاد والتعطيل عادلين)(١).

وقد ظهر لي بتأمل كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير هذه المسألة أوجهاً متنوعة؛ ودلائل متعددة، أذكرها فيما يأتي:

أولاً: تقريره أن المعقول الصريح يُوافق ما جاءت به الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ عن ربِّهم من المنقول الصحيح، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (العقل الصريح مع رسل الله؛ كما معهم الوحي الصحيح)(٢).

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ: (المعقول الصريح يوافق ما جاء به الرسول لا يعارضه)(٣).

فهذه الإشارة اللطيفة؛ المتضمنة أنه: (ليس في المعقول شيءٌ أصحُّ مما جاءت به الرسل عن الله)(٤): منبهةٌ على التوافق التام بين الوحي الشرعيِّ

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥١١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٢٣.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٣٧.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٧٨.

والعقل البشريِّ، كما أنها (مطلعةٌ على ما وراءها ــ لمن دقَّ نظره؛ وحسن تأمُّله ــ)[1] إلى ما دلَّ عليه البرهان السمعيُّ والدليل العقليُّ؛ وجاءت نصوص الأنبياء مفصِّلةٌ له: من أنه يمتنع أن يكون الكمالُ التامُّ إلا لواحدٍ، وهو من قامت فيه صفات الكمال ونعوت الجلال.

ثانياً: تقريره أن الأنبياء ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ جاؤوا بالوحي المُفصِّل لما في صريح العقل إدراكه قطعاً، فاتفق على ذلك العقل والنقل، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنه قد ثبت بالعقل الصريح والنقل الصحيح ثبوت صفات الكمال للربِّ ــ سبحانه ــ ، وأنه أحقُّ بالكمال من كلِّ ما سواه، وأنه يجب أن تكون القوَّة كلُّها له؛ والعِزَّة كلُّها له؛ والعلم كلُّه له؛ والقدرة كلُّها له؛ والجمال كلُّه له؛ وكذلك سائر صفات الكمال.

وقام البرهان السمعيُّ والعقليُّ على أنه يمتنع أن يشترك في الكمال التام اثنان، وأن الكمال التام لا يكون إلا لواحدٍ.

وهاتان مقدمتان يقينتان معلومتان بصريح العقل، وجاءت نصوص الأنبياء مفصِّلةٌ لما في صريح العقل إدراكه قطعاً، فاتفق على ذلك العقل والنقل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[2])[3].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قال تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾[4]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[5].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٦٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٨٠ ــ ١٠٨١.

(٤) سورة الرعد: الآية ٣١.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

وقال النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح: «لبَّيك وسعديك، والخير كلُّه بيديك»[1].

وفي الأثر الآخر: «اللَّهُمَّ لك الحمد كلُّه، ولك الملك كلُّه، وبيدك الخير كلُّه، وإليك يُرجع الأمر كلُّه»[2].

فللَّه ــ سبحانه ــ كل صفة كمال، وهو موصوفٌ بتلك الصفات كلِّها)[3].

فهذا تقريرٌ لما جاءت بتفصيله نصوص الأنبياء ــ عليهم السلام ــ؛ وصدَّقت به ألباب العقلاء، فاتفق على الإقرار به: النقل والعقل، فلا أدلَّ على توافق النقل الصحيح والعقل الصريح وتصادقهما من: موافقة عقول النبيين ــ التي هي أكمل عقول البريَّة؛ وأزكى أفئدة البشريَّة ــ للوحي المبين.

ثالثاً: تقريره أن نصوص الوحي وافقت عقول أصحِّ الناس عقلاً؛ وهم أنبياء الله تعالى ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في الإجماع المعلوم المتيقن عند جميع أهل السنة والحديث: (العقل الذي يعارض هذا لم تجمع عليه الأمة؛ ولم يُعرف عن رجلٍ واحدٍ من السلف والأئمة أنه قاله، وغايتهُ: أن يكون عقل فرقة من الفرق اشتقت

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ــ الحديث رقم (٧٧١) ــ ١/ ٥٣٤ ــ ٥٣٥] من حديث علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ، وأوله: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٣٣٥٥) ــ ٣٨/ ٣٧٨ ــ ٣٧٩] من حديث حذيفة بن اليمان ــ رضي الله عنه ــ.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٨١ ــ ١٠٨٢.

لأنفسها مذهباً؛ وادَّعت له معقولاً، فلما صالت عليها نصوص الوحي: التجأت إلى العقل؛ وادَّعت أنه يخالفها، وصدقت وكذبت.

أما صدقها: فإن نصوص الوحي تخالف معقولها هي، وذلك من أدلِّ دليلٍ على فساده في نفسه إذ شهدت له نصوص الوحي بالبطلان.

وأما كذبها: فزعمها أن نصوص الوحي تخالف العقل المتفق عليه بين العقلاء، فهذا لم يقع ولا يقع ما دامت السماء سماءً والأرض أرضاً، بل تزول السماء والأرض وهذا لا يكون.

فأي ذنبٍ للنصوص؟ إذا خالفت عقول بعض الناس، فقد وافقت عقول أصح الناس عقلاً، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝٨٩ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1])[2].

فهذا تقريرٌ لتزكية النصوص وتبرئتها من التعارض والتناقض، وأن الوحي المبين والشرع المستبين جاءا موافقين لعقول النبيين وحِجَى المرسلين، فالحمد لله رب العالمين.

والعقول مهما بلغت منزلتها؛ وعلت درجتها: فإنها لا تستقلُّ بإدراك جميع مُفصَّلات ومُجملات الوحي المبين الذي جاء به المرسلون في هذا الباب؛ وإن كانت لا تُحيله ولا تُنكره ولا تجد حرجاً مما جاءت به؛ بل تحكِّمه وتُسلِّم له تسليماً.

رابعاً: تقريره أن العقول السليمة وإن كانت لا تستقل بإدراك الوحي الذي بُعثت به الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ؛ إلا أنها لا تُحيله، بل تقبله وتنقاد إليه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (علوم الأنبياء

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٣٣ ـ ٨٣٤.

ومعارفهم من وراء طور العقل، والعقل وإن لم يستقل بإدراكها فإنه لا يُحيلها، بل إذا أُوردت عليه: أقرَّ بصحتها؛ وبادر إلى قبولها؛ وأذعن بالانقياد إليها، وعلم أن نسبة العلوم التي نالها الناس بأفكارهم إليها دون نسبة علوم الصبيان ومعارفهم إلى علوم هؤلاء بما لا يُدرك)[1].

فهذا تقريرٌ لما جاء به أنبياء الله تعالى ورسله ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ من النقول الصحيحة؛ وأن العقول الصريحة تبادر إلى قبولها والاستسلام لحكمها، وهذا التوافق والتصادق بين النقول الصحيحة والعقول الصريحة: يدلُّ على لُحْمَةِ الإخاء التي بينهما.

خامساً: تقريره أن الله ــ سبحانه ــ جمع بين السمع الصحيح والعقل الصريح؛ فلا ينفكُّ أحدهما عن صاحبه أصلاً، بل هما أخوان نصيران، وصل الله بينهما؛ وأقام بهما حجته على عباده، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (الحجج السمعية مطابقة للمعقول، والسمع الصحيح لا ينفكُّ عن العقل الصريح؛ بل هما أخوان نصيران، وصل الله بينهما؛ وقرن أحدهما بصاحبه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾[2]. فذكر ما يُنال به العلوم وهي: السمع والبصر والفؤاد ــ الذي هو محل العقل ــ.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[3]. فأخبروا أنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٤٤٨.
(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٦.
(٣) سورة الملك: الآية ١٠.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2]. وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾[3].

فدعاهم إلى استماعه بأسماعهم؛ وتدبره بعقولهم، ومثله قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[5].

فجمع ــ سبحانه ــ بين السمع والعقل؛ وأقام بهما حجته على عباده، فلا ينفك أحدهما عن صاحبه أصلاً)[6].

فهذا تقريرٌ للتآزر والتعاضد الذي بين النقول الصحيحة والعقول الصريحة؛ اللَّذيْن هما حجة الله تعالى على عباده، وهذا التوافق والتطابق والتصادق بين النقل والعقل ــ الذي رسخ أسفله؛ وبسق أعلاه ــ : يستحيل معه مكابرة التعارض؛ وادِّعاء التناقض.

سادساً: تقريره دلالة العقل والوحي معاً على إثبات توحيد الأسماء والصفات؛ بما لا يمكن المكابرة فيه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (المسلمون يقولون: قد دلَّ العقل والوحي معاً على إثبات علم الرب تعالى آمراً ناهياً، وعلى كونه فوق العالم كلِّه، وعلى كونه يفعل بقدرته ومشيئته،

---

(١) سورة يونس: الآية ٦٧.

(٢) سورة الرعد: الآية ٤.

(٣) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٦٨.

(٥) سورة ق: الآية ٣٧.

(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥٧ ــ ٤٥٨.

وعلى أنه يرضى ويغضب، ويُثيب ويُعاقب، ويُحبُّ ويُبغض، فقد شهد بذلك العقل والنقل.

أما النقل: فلا يمكنكم المكابرة فيه، وأما العقل: فلأنَّ ذات الربِّ أكمل من كلِّ ذات على الإطلاق، بل ليس الكمال المطلق التام من كلِّ وجهٍ إلا له وحده، فيستحيل وصفه بما يضاد كماله.

وكلُّ ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله: فهو صفة كمال، ثبوتها له أكمل من نفيها عنه)[1].

فهذا تقريرٌ لما تطابقت وتوافقت شهادة العقل والنقل على إثباته لله تعالى؛ وأنه مما يستحيل المكابرة فيه، وكلُّ ما اتفق على إثباته العقل والنقل: فهو الحقُّ المبين، وما خالفه: فهو الباطل المشين.

سابعاً: تقريره أن الله ــ سبحانه ــ فصَّل ــ بما لا يحتمل اللبس ــ قيام الأسماء الحسنى والصفات العلى بذاته المقدَّسة؛ وهو الذي جاء به السمع الصحيح الموافق للعقل الصريح، وما خالف ما جاء به فهو الباطل، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (ما أثبته الله لنفسه من صفاته وكلامه وتكليمه واستوائه على عرشه وعُلُوِّه على خلقه: هو الحقُّ عقلاً وسمعاً، وما خالفه: هو الباطل، والله ــ سبحانه ــ قد فصَّل لنا هذا من هذا؛ ولم يدعه ملتبساً، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[2])[3].

فهذا تقريرٌ لما يتعلَّق بإثبات الأسماء والصفات من الحقِّ والباطل، وأن الحقَّ فيه: هو ما دلَّ عليه النقل الصحيح والعقل الصريح، وأنَّ ما خالف ذلك من النفي: فهو الباطل.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢١٥.

فالنقل الصحيح والعقل الصريح متَّفقان على: الشهادة بصحة طريقة أهل السنة والجماعة المثبتة لباب الأسماء والصفات، كما أنهما متَّفقان على: الشهادة بفساد طريقة أهل البدعة والشناعة النافية لباب الأسماء والصفات.

ثامناً: تقريره أن طريقة أهل الإثبات هي الموافقة للسمع والعقل، وأن طريقة النفاة المعطلين هي المعارضة لهما، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (فحول الكلام وأئمة النظر والبحث ــ الذين سبروا[1] المقالات؛ وتبحَّروا في المعقولات ــ : قد شهدوا لطريقة النفاة المعطلة بمناقضتها للسمع والعقل، وأن السمع والعقل إنما يقتضيان الإثبات؛ وعُلُوَّ الربِّ على جميع المخلوقات؛ واستواءه على عرشه فوق سبع سماوات)[2].

فهذا تقريرٌ لما يقتضيه التوافق بين النقل والعقل في الإثبات من الرشاد، وما يقتضيه التناقض بينهما في الإثبات من الفساد، فموافقة العقل الصريح للنقل الصحيح في باب أسماء الله تعالى وصفاته: هو محض الإيمان والهدى، وإسعار الحرب الضروس بينهما: هو محض الخذلان والرَّدى.

تاسعاً: تقريره أن عقد المؤاخاة والموافقة بين السمع والعقل: هو أكمل الإيمان، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشُّبهِ الباطلة؛ التي يسميها أربابها: قواطع عقلية، وهي في الحقيقة: خيالات جهلية؛ ومحالات ذهنية، اعترضوا بها على أسمائه وصفاته ــ عزَّ وجلّ ــ ؛ وحكموا بها عليه؛ ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه

---

(١) السَّبْرُ: التجربةُ والحَزْرُ والخبرُ، واستخراج كنه الأمر.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٢/٤٠٩، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده ٨/ ٣٢٠، لسان العرب لابن منظور ٤/ ٣٤٠ [مادة: سبر].

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٤٣.

وأثبته له رسوله ﷺ؛ وأثبتوا ما نفاه؛ ووالوا بها أعداءه؛ وعادوا بها أولياءه؛ وحرفوا بها الكلم عن مواضعه؛ ونسوا بها نصيباً كثيرا مما ذكروا به؛ وتقطعوا لها ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝﴾[1].

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي، فإذا سلم القلب له: رأى صحة ما جاء به؛ وأنه الحق بصريح العقل والفطرة، فاجتمع له السمع والعقل والفطرة، وهذا أكمل الإيمان، ليس كمن الحرب قائم بين سمعه وعقله وفطرته)[2].

فهذا تقريرٌ وبيانٌ لشأن (العقول المؤيدة بالتوفيق: ترى أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحقُّ الموافق للعقل والحكمة، والعقول المضروبة بالخذلان: ترى المعارضة بين العقل والنقل؛ وبين الحكمة والشرع)[3].

وجميع ما تقدَّم من الأوجه المتنوعة؛ والدلائل المتعددة: تُنبؤك عن مدى عناية الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير توافق العقل الصريح والنقل الصحيح، وقد أحسن عمله المشكور؛ وأتمَّ سعيه المبرور بالمسألة الآتية ــ التي زادت التقريرَ بياناً وإيضاحاً ــ، حيث تضمنت تقرير درء تعارض العقل الصريح والنقل الصحيح.

المسألة الثانية:

تقريره درء معارضة العقل الصريح للنقل الصحيح في إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى.

إنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ أقام حجَّته على خلقه بكتابه المنزل وبنبيِّه المرسل، فليس في أمرٍ من أمور هذا الباب العظيم ــ الذي نزلت به الكتب؛

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٣.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٧١ ــ ٧٢.

(٣) الفوائد ص١٢٢.

وبُعثت به الرسل ــ : إلا وقد دلَّ العقل الصريح على إثباتها لله تعالى، فقد تواطأ عليه دليل العقل ودليل السمع، فكيف يُتوهَّم أن يكون فيهما ما يظهر منه خلاف الحقِّ؛ أو ما يخالف العقول التي أكرم الله تعالى بها خلقه ليعرفوه بها؟

بل يقطع المتأمِّل في مسائل هذا الباب: بأنه لا تُوجد مسألةٌ واحدةٌ أصلاً اتفق فيها العقلاء كلُّهم على خلاف ما نزلت به الكتب؛ أو جاءت به الرسل في أمرٍ من الأمور ألبتة، ويقطع بأنه لا يُعارض السمعَ الصحيحَ: إلا العقولُ المنكوسة الفاسدة؛ والأفهام الموكوسة الكاسدة، لأن هذه المعارضة بين السمع والعقل نتيجةٌ ومحصِّلةٌ لجهلين عظيمين: جهلٍ بالسمع الصحيح، وجهلٍ بالعقل الصريح.

فالمعارضة بين السمع الصحيح والعقل الصريح ــ إضافة إلى كون المُعارض لم يقدر الله تعالى حقَّ قدره؛ وأساء الظنَّ به وبكتابه العظيم وبرسوله الكريم ﷺ: لم تُبق للبشريَّة وثوقٌ بمعلومٍ أصلاً ــ لا حسيٍّ ولا عقليٍّ ــ ، كما أنها لم تُحصِّل للقلوب في باب أسماء الربِّ تعالى وصفاته الطمأنينة، بل أوقعتها في الحيرة والريبة.

وبعد أن قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ توافق العقل الصريح والنقل الصحيح على إثبات توحيد الأسماء والصفات: اعتنى ها هنا بحماية جناب المسألة السالفة الذكر، حيث قرَّر في هذه المسألة: درء المعارضة المدَّعاة بينهما.

وبتأمل كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه المسألة: ظهرت لي أوجهاً متعددة من الاستدلال؛ منها ما يأتي:

أولاً: تقريره أن العقل الصريح لم يُعلم به ثبوت نقيض توحيد الأسماء والصفات؛ حتى يُدَّعى معارضته للنقل الصحيح، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إنَّ العقل إنما يدل على نفي ما عُلِمَ ثبوت نقيضه بالعقل.

والعقل لم يُعلم به ثبوت نقيض الصفات العلى والأسماء الحسنى، واستواء الرب على عرشه، وتكلُّمه، ورؤية أوليائه له في الآخرة عياناً بالأبصار فوق رؤوسهم؛ حتى يكون نفي ذلك معلوماً بالعقل)(١).

فهذا تقريرٌ لاستحالة معارضة العقل الصريح لما جاء به النقل الصحيح في باب أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وكيف يُدَّعى على العقل الصريح دعوى معارضته للنقل الصحيح؛ ورسل الله تعالى ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ إنما جاؤوا بشريعة منزَّهة عن معارضة ومناقضة العقول الصحيحة؛ وإن أمكن معارضتها ومناقضتها من قِبَلِ أصحاب العقول الفاسدة القبيحة؟

ثانياً: تقريره أن الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بريئون من الإخبار بما يُحيله العقل الصريح؛ ويشهد ببطلانه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (أين العلم المُتلقَّى من الوحي النازل إلى الظنِّ المأخوذ عن الرأي الزائل؟ وأين العلم المأخوذ عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله ـ عزَّ وجلّ ـ إلى الظنِّ المأخوذ عن رأي رجلٍ لم يستنر قلبه بنور الوحي طرفة عين؛ وإنما معه حَدَسُه وتخمينه؟

ونسبة ما يدركه العقلاء قاطبة بعقولهم إلى ما جاءت به الرسل: كنسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى ضوء الشمس، ولا تجد ولو عُمِّرت عمر نوحٍ: مسألة واحدة أصلاً اتفق فيها العقلاء كلُّهم على خلاف ما جاءت به الرسل في أمرٍ من الأمور ألبتة.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٢.

فالأنبياء لم تأت بما يخالف صريح العقل ألبتة؛ وإنما جاءت بما لا يُدركه العقل، **فما جاءت به الرسل مع العقل: ثلاثة أقسام لا رابع لها ألبتة:**

قسـم: شهد به العقل والفطرة.

وقسم: يشهد بجملته ولا يهتدي لتفصيله.

وقسم: ليس في العقل قوة إدراكه.

وأما القسم الرابع: وهو ما يحيله العقل الصريح ويشهد ببطلانه؛ فالرسل بريئون منه.

وإن ظنَّ كثير من الجهال المُدَّعين للعلم والمعرفة أن بعض ما جاءت به الرسل يكون من هذا القسم: فهذا إما لجهله بما جاءت به، وإما لجهله بحكم العقل، أو لهما)[1].

فهذا تقريرٌ لموافقة العقول الصريحة لما جاءت به أنبياء الله تعالى ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وتطابقها، وتبرئة كلٍّ من النقل الصحيح والعقل الصريح من دعوى تعارضهما وتناقضهما.

وعليه فإن مدَّعي المعارضة بين النقل الصحيح والعقل الصريح ـ هو في حقيقة الأمر ـ : جاهلٌ بحكمهما، فكيف تُقبل دعواه في تعارضهما وتناقضهما.

ثالثاً: تقريره أن مُدَّعي المعارضة بين الوحي والعقل: جاهـلٌ بحقيقتهما، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن هذه المعارضة بين الوحي والعقل نتيجةُ جهلين عظيمين: جهلٍ بالوحي، وجهلٍ بالعقل.

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٢١١ ـ ٢١٢.

أما الجهلُ بالوحي: فإن المُعارض لم يفهم مضمونه وما دلَّ عليه، بل فهم منه خلاف الحقِّ الذي دلَّ عليه وأُريد به، ثم عارض ما دلَّ عليه بالرأي والمعقول.

ونحن ننزل معه درجة؛ ونبين أن المعقول الذي ذكره: لا يصلح لمعارضة المعنى الباطل الذي فهمه من الوحي؛ فضلاً عن المعنى الصحيح الذي دلَّ عليه الوحي.

فإنه يستحيل أن يُعارض معارضة صحيحة ألبتة، بل هو الحقُّ الذي ليس بعده إلا الضلال.

والله تعالى هو الحقُّ، وكلامه حقٌّ، ورسوله حقٌّ، ودينه حقٌّ، ووحيه حقٌّ، وما خالف ذلك فهو: الباطل المحض الذي لا يقوم على صحته دليلٌ، بل الأدلة الصحيحة التي تنتهي مقدماتها إلى الضروريات تدلُّ على بطلانه.

وأما الجهل بالعقل: فإنه لا يُتصوَّر أن يُعارض العقلُ الصحيحُ الوحيَ أبداً، ولكن الجاهل يظنُّ أن تلك الشبهة عقليةٌ؛ وهي جهليةٌ خياليةٌ من جنس شبه السوفسطائية[1].

فالحاصل أنه إن عارض ما فهمه من النص بما هو الباطل: كان جاهلاً بالوحي ومدلوله، وإن عارض مدلوله وحقيقته التي دلَّ عليها: فهو جاهلٌ بالعقل، فلا يُتصوَّر أن يجتمع لهذا المعارض علمٌ بالوحي والعقل أصلاً، بل إما أن يكون جاهلاً بهما ـ وهو الأغلب على هؤلاء ـ أو بأحدهما.

---

(١) السفسطة: هي قياسٌ مركبٌ من مقدماتٍ وهميةٍ شبيهة بالحق؛ الغرض منها: تغليط الخصم وإسكاته، وهي كلمةٌ يونانيةٌ.
انظر: التعريفات للجرجاني ص١٥٨، الكليات للكفوي ص٨٤٩، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ١٩/ ٣٥٣.

ولسنا ندفع معرفتهم ببعض العقليات المشتركة بين المسلمين واليهود والنصارى والمجوس وعباد الأصنام، بل ولا ندفع تبريزهم فيها وحذقهم بها، وإنما نُبيِّن بالبراهين الواضحة: أنهم من أجهل الناس بالعقليَّات المتعلقة بأسماء الربِّ وصفاته وأفعاله، كما هم جهالٌ بوحيه وبما جاءت به رسله)[1].

فيمتنع قبول دعوى المعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح؛ لجهله بحقيقتهما وحكمهما، كما يمتنع قبولها أيضاً لاستلزامها القدح في خبر رسول الله ﷺ وصدقه.

رابعاً: تقريره أن المعارض بين العقل والنقل يستحيل أن تكون معارضته صحيحة؛ لامتناع القدح فيما أخبر به الرسول ﷺ عن أسماء الله تعالى وصفاته؛ وامتناع القدح في صدقه ﷺ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الأمور السمعية التي يقال: إن العقل عارضها ــ كإثبات عُلُوِّ الله على خلقه؛ واستوائه على عرشه، وتكلُّمه، ورؤية العباد له في الآخرة، وإثبات الصفات له ــ : هي ما عُلِمَ بالاضطرار أن الرسول جاء بها، وعُلِمَ بالاضطرار صحة نبوته ورسالته.

وما علم بالاضطرار امتنع أن يقوم على بطلانه دليلٌ، وامتنع أن يكون له معارضٌ صحيحٌ، إذ لو جاز أن يكون له معارضٌ صحيحٌ: لم يبق لنا وثوقٌ بمعلومٍ أصلاً؛ لا حسيٍّ ولا عقليٍّ، وهذا يبطل حقيقة الإنسانيَّة؛ بل حقيقة الحيوانيَّة المشتركة بين الحيوانات، فإن لها تميزاً وإدراكاً للحقائق بحسبها، وهذا الوجه في غاية الظهور؛ غنيٌّ بنفسه عن التأمل، وهو مبنيٌّ على مقدمتين قطعيتين:

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٠٧ ــ ١٢٠٨.

إحداهما: أنَّ الرسول أخبر عن الله بذلك.

والثانية: أنه صادقٌ.

ففي أيِّ المقدمتين يقدح المعارض بين العقل والنقل؟)[1].

فهذا تقريرٌ لتوحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ وأنه مما عُلِمَ بالاضطرار مجيء السمع الصحيح بإثباته، وامتنع قيام دليلٍ عقليٍّ صريحٍ على بطلانه، لأن قيام أيِّ معارضة مدَّعاة بين النقل والعقل لا تخلوا من أمرين: إما أن يكون الخلل في الدليل السمعيِّ أو في الدليل العقليِّ، فإن كان الدليل (سمعيًّا: كان كذباً مفترى؛ أو مما أخطأ المعارض في فهمه، وإن كان عقلياً: فهو شبهٌ خياليةٌ وهميةٌ؛ لا دليلٌ عقليٌّ برهانيٌّ)[2].

خامساً: تقريره أن ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهاتٌ فاسدةٌ يُعلم بالعقل بُطلانها، بل يُعلم بالعقل الصريح ثبوت نقيضها الموافق للنقل الصحيح، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن ما علم بصريح العقل ــ الذي لا يختلف فيه العقلاء ــ لايتصور أن يعارضه الشرع ألبتة؛ ولا يأتي بخلافه.

ومن تأمَّل ذلك في ما يُنازع العقلاء فيه من المسائل الكبار: وجد ما خالفت النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بُطلانها، بل يُعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للنقل.

فتأمَّل ذلك في مسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والنبوات والمعاد؛ تجد ما يدلُّ عليه صريحُ العقل لم يُخالفه سمعٌ قطُّ، بل السمع الذي يُخالفه: إما أن يكون حديثاً موضوعاً؛ أو لا تكون دلالته مخالفة لما دل عليه العقل.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٠٦ ــ ٩٠٧.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٠٩.

ونحن نعلم قطعاً أن الرسل لا يُخبرون بمُحال العقول؛ وإن أخبروا بمحارات العقول، فلا يُخبرون بما يُحيله العقل؛ وإن أخبروا بما يحار فيه العقل ولا يستقلُّ بمعرفته.

ومن تأمَّل أدلَّة نفاة الصفات والأفعال والقدر والحكمة والمعاد؛ وأعطاها حقَّها من النظر العقلي: علم بالعقل فسادها وثبوت نقيضها، ولله الحمد)[١].

فإن قيل: ما الذي سوَّغ قبول هذه المعارضة المدَّعاة بين النقل والعقل؛ وحقيقة الأمر ما ذُكِرَ من كونها شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بُطلانها، بل يُعلم بالعقل الصريح ثبوت نقيضها الموافق للنقل الصحيح؟

قيل: الذي سوَّغ للعقول الضعيفة والأفهام السخيفة قبول هذه المعارضة: هو زخرفتها بالألفاظ المُحرَّفة، ونسجها بالشُّبه المُزيَّفة.

سادساً: تقريره أن كلَّ قولٍ خالف النقل الصحيح: فهو مخالفٌ للعقل الصريح، وهو في حقيقته بهتانٌ وزورٌ؛ وإن زُخرف بالقول الغرور، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (كيف يجد العقل الصريح أنا نشهد بما جاءت به الرسل: أن الله ــ سبحانه ــ تكلم بكلامٍ سمعه منه جبريل؛ وبلغه إلى من أُمِر بتبليغه، وكلَّم نبيه موسى، وكلَّم ملائكته بكلامٍ حقيقيٍّ سمعوه منه، وأنه يتكلم بمشيئته وإرادته؟

وكلُّ قولٍ خالف هذا: فهو خلاف العقل الصريح؛ وإن زُخرفت له الألفاظ، ونُسجت له الشبه.

وتأمَّل ما جاءت به النصوص أن كلماته لا نهاية لها، وهل يقتضي العقل الصريح غير ذلك؟

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٢٩ ــ ٨٣٠.

وتأمل ما جاءت به النصوص من شمول قدرته ومشيئته لجميع الكائنات ــ أعيانها وصفاتها وأفعالها ــ ، وما خالف ذلك فهو مخالفٌ لصريح العقل.

كما أن النصوص جاءت بأن أفعال العباد أعمالٌ لهم واقعة باختيارهم وإرادتهم ــ ليست أفعالاً لله؛ وإن كانت مفعولة له ــ ، تجد ما خالف ذلك مخالفاً لصريح العقل؟

وتأمل ما جاءت به النصوص أنه ــ سبحانه ــ لم يزل ملكاً رباً، غفوراً رحيماً محسناً، قادراً لا يُعجزه الفعل؛ ولا يمتنع عليه، وكيف لا تجد ما خالف ذلك مخالفاً لصريح العقل؟)[1].

فهذا تقريرٌ لامتناع قبول دعوى المعارضة بين النقل الصحيح والعقل الصريح بحجة زخرفتها بالقول الغرور؛ الذي هو في حقيقته بهتانٌ وزورٌ، فلو فُرِضَ قبول دعوى المعارض بسبب ذلك: لصارت أدلة الشرع القويم بمنزلة القول المبتدع الوخيم؛ في معارضة كلٍّ منهما لصريح العقل المستقيم.

سابعاً: تقريره استحالة كون النقول الصحيحة المتضمنة لإثبات توحيد الأسماء والصفات بمنزلة الأقوال المخالفة لصريح العقل، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (كيف يُجعل ما أثبته الله لنفسه في كتابه من صفاته وأفعاله؛ وما صحَّ عن رسوله أنه أثبته له؛ من عُلُوِّه فوق سماواته على عرشه واستوائه عليه؛ وتكلُّمه وتكليمه؛ وثبوت علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه الأعلى؛ ورحمته وغضبه ورضاه وفرحه وضحكه؛ ويديه التي يُمسك بإحداهما السماوات السبع وبالأخرى الأرضين السبع ثم

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٢٤.

يهزُّهنَّ؛ ونزوله كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا؛ ونحو ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله؛ كيف يُجعل هذا بمنزلة ذاك) أي: الأقوال المخالفة لصريح العقل (في مخالفة كل منهما لصريح العقل؟ ويجعل إثبات هذا كإثبات ذلك؛ ووصفه بهذا كوصفه بذاك؛ كما صرَّح به النفاة)(١).

فهذا تقريرٌ لامتناع المساواة الجائرة والمعادلة الفاجرة بين النقل الصادق الصحيح والنقل الكاذب القبيح في معارضة كلٍّ منهما ومناقضته للعقل الصريح، فلو كانت هذه الدعوى سائغة؛ والحجة بها دامغة: لبادر إلى إبداء المعارضة بها أعداء الملَّة؛ من الأديان المنحرفة والفرق المضلَّة.

ثامناً: تقريره أن كفار قريش مع حرصهم على معارضة الرسول ﷺ بكلِّ ما يقدرون عليه: لم يُنكروا عليه كلمة واحدة مما أخبر به عن أسماء الله تعالى وصفاته؛ ويُعارضوه بأنه يُخالف العقل الصريح، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (معلومٌ أن أخبار الرسول عنه ــ سبحانه ــ بما هو مستحيلٌ عليه: من أعظم المُنفِّرات عنه، ومعارضته فيه أسهل من معارضته فيما عداه، ولم يُعارضه أعداؤه في حرفٍ واحدٍ من هذا الباب؛ ولا أنكروا عليه كلمة واحدة منه ــ مع حرصهم على معارضته بكلِّ ما يقدرون عليه ــ .

فهلا عارضوه بما عارضته به الجهمية والنفاة؛ وقالوا: قد أخبرتنا بما يُخالف العقل الصريح، فكيف يُمكننا تصديقك؟

بل كان القوم على شركهم وضلالهم أعرف بالله وصفاته من النفاة الجهمية؛ وأقرب إلى إثبات الأسماء والصفات والقدر والمشيئة والفعل

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٣٢.

من شيوخ هؤلاء الفلاسفة وأتباعهم[1] من السيناوية[2] والفارابية[3] والطوسية[4]؛ الذين ليس للعالم عندهم ربٌّ يُعبد، ولا رسولٌ يُطاع، ولا معادٌ للخليقة، ولا يُزيل الله هذا العالم؛ ويأتي بعالمٍ اخرٍ.

فهذه الأصول قد اشتركت فيها أعداء الرسل؛ وامتازت كفار قريش

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ مذهب الفلاسفة وأتباعهم ــ في هذه المسائل وغيرها ــ في مواضع متعددة من نونيته، وقد جمع كبارهم الثلاثة المشار إليهم في موضع واحد؛ بعد قوله:
(ولنا الأئمة كالفلاسفة الألى لم يعبؤوا أصلاً بذي الديانِ).
انظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤٨٠ ــ ٥٠٥) ــ ص٦١ ــ ٦٣]، وشرحها لابن عيسى ١/ ٢٤٢ ــ ٢٥٢.

(٢) هم أتباع ــ رئيسهم ــ ابن سينا.

(٣) هم أتباع الفارابي، وهو: أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان التركي الفارابي، شيخ الفلاسفة ــ الذي تخرَّج من مصنَّفاته ابنُ سينا ــ، توفي في دمشق في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة.
انظر في ترجمته: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٥/١٥٣ ــ ١٥٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٥/٤١٦ ــ ٤١٨، الوافي بالوفيات للصفدي ١/١٠٦ ــ ١١٣.

(٤) هم أتباع الطوسي، وهو: أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسن الفيلسوف؛ الملقب بـ: نصير الدين الطوسي، ولد بطوس يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وتوفي في بغداد في ثامن عشر ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين وستمائة.
انظر في ترجمته: تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام للذهبي (حوادث ووفيات ٦٧١ ــ ٦٨٠) ص١١٣ ــ ١١٥، تتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي ٢/٣١٨، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ٧/ ٢٤٥.

بإثباتهم الربوبية والصفات والملائكة وخلق العالم وكون الرب فاعلاً بمشيئته وقدرته، ولهذا لم يعارضوا الرسول في شيءٍ من ذلك)[1].

فهذا تقريرٌ لما تمتنع من إبدائه العقول الصريحة تُجاه النقول الصحيحة، إذ لو كانت محتملة لأدنى معارضة؛ أو مستوجبة لأدنى مناقضة: لبادرت إلى إظهارها في الملى؛ وإشهارها بين الورى، فلم يبق بعد ذلك على من تجرَّأ على النقل الصحيح والعقل الصريح؛ وأضرم بينهما نار العداوة والشنآن: إلا أن يتبوَّأ مقعد الخيبة والخسران، لأنه لم يُسعف نفسه بنقلٍ يؤول إليه؛ ولا بعقلٍ يُعوِّل عليه.

تاسعاً: تقريره أن الله ــ سبحانه ــ نفى العقل والسمع عمن أعرض عن الوحي الذي جاءت به رسله؛ فكيف بمن عارضهم بمعقوله؟ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قد نفى الله ــ سبحانه ــ السمع والعقل عمَّن أعرض عن رسله؛ فكيف بمن عارض ما جاءوا به؟ وأخبر ــ سبحانه ــ أنه لا بُدَّ أن يُظهر لهم في معادهم: أنهم لم يكونوا من أهل السمع ولا من أهل العقل)[2].

فالمعارض الذي ليس لديه قوة من نقل صحيح؛ أو ركن شديد من عقل صريح يأوي إليه: لم يبق عنده إلا سوء ظنٍّ بربه ــ تبارك وتعالى ــ وبكتابه العظيم وبرسوله الكريم ﷺ.

عاشراً: تقريره أن أعظم ظنِّ السَّوء بالله تعالى وبكتابه ورسوله: أن يُظنَّ أن العقل الصريح مخالفٌ له، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن هؤلاء المعطلة النفاة المعارضين للوحي بآرائهم ومعقولاتهم: من الظانِّين

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٩٩ ــ ٩٠٠.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٠٧ ــ ١٢٠٨.

بالله وكتابه ورسوله ظنَّ السَّوء، ولم يجيء في القرآن وعيدٌ أعظم من وعيد من ظنَّ به ظنَّ السَّوء، قال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾[2].

فهؤلاء ظنوا أنه لا يعلم بعض الجزئيات، فكيف بمن ظنَّ أنه لا علم له، ولا سمع ولا بصر، ولا تكلَّم ولا يتكلَّم، ولا استوى على عرشه، ولا له فعلٌ حقيقة يُدبِّر به الأمر، ولا له حكمة يفعل ما يفعل لأجلها، وأولئك جوَّزوا عليه أن لا ينصر رسوله، وأن يجعل الدائرة عليه وعلى المؤمنين، ومنكروا الحكمة والتعليل يجوزون عليه أن يُعذب أنبياءه ورسله، قالوا: ولا نعلم تنزيهه عن ذلك بالعقل، وإنما نعلم بالخبر، ومن أعظم ظنِّ السَّوء به وبكتابه: أن يُظنَّ أن العقل الصريح مخالفٌ له، وأيُّ نقصٍ وعيبٍ أبلغ من نقص كلامٍ مخالفٍ لصريح المعقول؟ وأيُّ إساءة ظنٍّ أعظم من هذه الإساءة؟)[3].

فالمعارض أساء الظنَّ بربِّه ـ تبارك وتعالى ـ ؛ إذ ظنَّ به ظنَّ السَّوء أن يقع التناقض بين كتابه المنزل ورسوله المرسل ﷺ؛ وبين العقول البشريَّة التي هيَّأها لتلقِّي الحقِّ الذي جاءا به، وهل تصدر إساءة الظنِّ هذه إلا من مُعارض لم يقدر الله تعالى حقَّ قدره؛ ولم يرجو له وقاراً، وممن في قلبه أعظم الريب والحرج.

---

(١) سورة الفتح: الآيتان ٥ ـ ٦.

(٢) سورة فصلت: الآيتان ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٣٥٦ ـ ١٣٥٧.

الحادي عشر: تقريره أنَّ من ادَّعى معارضة العقل لِباب أسماء الله تعالى وصفاته: لم يقدره حقَّ قدره، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن من ادَّعى معارضة العقل لما جاءت به الرسل من صفاته وأفعاله وحقائق أسمائه: لم يقدره حقَّ قدره.

وقد ذمَّ الله تعالى من لم يقدره حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه، **أحدها**: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[1].

الثاني: قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[2].

الثالث: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[3].

فأخبر أنه لم يقدره حقَّ قدره من أنكر إرساله للرسل وإنزال كتبه عليهم، وهذا حقيقة قول من قال: إنه لا يتكلَّم، ولم ينزل له إلى الأرض كلامٌ، ولا كلَّم موسى تكليماً، ومعلومٌ أن هذا إنكارٌ لكمال ربوبيته وحقيقة إلـٰهيته ولحكمته، ولم يقدره حقَّ قدره من عبد من دونه إلـٰهاً غيره، ولم يقدره حقَّ قدره من جحد صفات كماله ونعوت جلاله)[4].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٢) سورة الحج: الآيتان ٧٣ ـ ٧٤.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٧.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٣٥٨ ـ ١٣٥٩.

الثاني عشر: تقريره أنه يجب على المسلم ــ الذي لله ولكتابه وقارٌ وعظمةٌ في قلبه ــ أن يعتقد أن السمع الصحيح لا يعارضه إلا أفسد العقول وأسخفها وأشدُّها منافاة لصريح العقل وصحيحه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (لا يُعارض السمع الصحيح الصريح: إلا معقولٌ فاسدٌ؛ تنتهي مقدماته إلى المكابرة أو التقليد أو التلبيس والإجمال.

وقد تدبَّر أنصار الله ورسوله وسنته هذا فما وجدوا ــ بحمد الله ــ العقل الصريح يُفارق النقل الصحيح أصلاً، بل هو خادمه وصاحبه والشاهد له، وما وجدوا العقل المعارض له إلا من أفسد العقول وأسخفها وأشدِّها منافاة لصريح العقل وصحيحه، ولولا الإطالة لذكرنا ذلك على التفصيل ــ وقد تقدمت الإشارة إلى اليسير منه ــ .

ويجب على المسلم الذي لله ولكتابه وقارٌ وعظمةٌ في قلبه أن يعتقد هذا؛ وإن لم يظهر له تفصيله، فإذا ظهر له تفصيله كان نوراً على نور.

فإنَّ الله ــ سبحانه ــ أقام الحجة على الخلق بكتابه ورسوله، فلا يمكن أن يكون فيهما ما يظهر منه خلاف الحق؛ ولا ما يخالف العقل، ولا يمكن أن يحيل الرسول الناس في الهدى والعلم وصفاته وأفعاله على ما يُناقض كلامه من عقلياتهم، وهذا واضح ولله الحمد)[1].

الثالث عشر: تقريره أنَّ صحيح النقل لو كان فيه ما يخالف صريح العقل: لكان فيه أعظم الريب، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الكذب في الأمور الجزئية: ريبةٌ، فكيف بالكذب في باب أسماء الرب وصفاته وشأنه؟ والصدق في الأمور الجزئية: طمأنينةٌ، فكيف بالصدق في هذا الباب؟ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٧٩ ــ ٦٨٠.

لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾[2]. وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[3].

فجعل ــ سبحانه ــ من أعظم أدلة صدقه: نفي الريب عنه في مثل هذه المطالب ــ التي هي أصل مطالب بني آدم، وأجلُّ معارفهم وعلومهم على الإطلاق ــ، فلو كان فيه ما يخالف صريح العقل لكان فيه أعظم الريب، ولَمَا اطمأنت به القلوب، ولا ثلجت به الصدور، وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾[4].

وذكره ها هنا: هو كناية، وهو الذكر الحكيم، فكيف يجوز على أعقل الأمم وأفضلها أن تطمئن قلوبهم بما يخالف العقل الصريح؟ وهل هذا إلا قدح في عقولهم؛ كما هو قدح في نبيهم وفي كتابهم ومن تكلم به وجعله هدى وشفاء ورحمة وعصمة ونوراً وروحاً؟)[5].

فَلْتَهْنِهِ المُقدِّم عقلَه البدعيَّ القبيح على النقل الشرعيِّ الصحيح؛ وَلْتَسَعْهُ هذه المآلات الوخيمة والنهايات الذميمة بسبب تجرُّؤه على تقديم عقله البائس الحقير على شرع الله الحكيم الخبير!!!

ومن هذه النقول المتعدِّدة والأوجه المتنوِّعة: يتَّضح جلياً مدى الجهد المبارك المشكور والعمل الصالح المبرور الذي سطَّره بنان الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في درء المعارضة الجائرة بين العقول الصريحة

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١ ــ ٢.

(٢) سورة يونس: الآية ٣٧.

(٣) سورة السجدة: الآيتان ١ ــ ٢.

(٤) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٥١٦ ــ ١٥١٧.

والنقول الصحيحة، وأن هذه الدعوى هي محض افتراض العقول الكاسدة والأهواء الفاسدة.

وقد اقتصرت في هذا المبحث ـ الذي هو خاتمة الفصل الثاني المتعلق بتقرير استدلال أهل السنة والجماعة على إثبات توحيد الأسماء والصفات ـ على ذكر أشمل النقول المتعلِّقة به؛ مستغنياً بها عمَّا سواها مما هو مُندرج تحت معنى ما تمَّ نقله[1] ـ، فلا (تستطل هذا الفصل وأمثاله؛ فإنه

---

(١) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٥٢ ـ ٥٣، إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٤٥؛ ١٤٩ ـ ١٥٠؛ ٢/ ٢٧، بدائع الفوائد ٢/ ٥؛ ٤/ ١٣٦ ـ ١٤٠، التبيان في أقسام القرآن ص٧٠ ـ ٧١؛ ١١٩؛ ١٤٣ ـ ١٤٤؛ ١٤٧ ـ ١٤٨؛ ١٧٨؛ ٢٠٧؛ ٢١٨؛ ٢٢٢؛ ٣٥٨؛ ٣٧٧ ـ ٣٧٨؛ ٤١٨ ـ ٤٢٠، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٥٣؛ ٤٣٢ ـ ٤٣٣، الداء والدواء ص٥٥ ـ ٥٦؛ ٢١٢، الروح ص٢٩١ ـ ٢٩٢؛ ٣١٦؛ ٣٦٢، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص١٤٠، زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٣٣؛ ٤٢؛ ٣/ ٦٨١؛ ٤/ ٣٩٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٩٣؛ ٢٦١؛ ٢/ ٥٣١؛ ٥٣٧؛ ٥٨٠؛ ٥٨١ ـ ٥٨٢؛ ٥٩٧؛ ٨٢٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤؛ ٣٤٣؛ ٢/ ٧٩٣ ـ ٧٩٤؛ ٣/ ٩٠٩؛ ٩٣٨؛ ٩٤٧؛ ٤/ ١٣٣٨؛ ١٣٥٠ ـ ١٣٥١؛ ١٣٥٥ ـ ١٣٥٦؛ ١٥٠٢؛ ١٥٦٥ ـ ١٥٦٨؛ ١٥٧٤ ـ ١٥٧٥، ومختصره ٢/ ٣٣٥؛ ٤٥١، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص٧٤، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٦٨، الفوائد ص١٦ ـ ١٧، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٥٠٩ ـ ٥١٠؛ ١٥١٤؛ ٣٠٧٢؛ ٣٠٩٢؛ ٣٩٣٧)]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٥؛ ٥٢ ـ ٥٣؛ ٧١؛ ١٣٢؛ ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ ٣/ ١٤٢؛ ٣٧٠ ـ ٣٧٢، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣١٤؛ ٥٠٣ ـ ٥٠٦؛ ٥٢٠؛ ٣/ ١٦؛ ١٧٧ ـ ١٧٨، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٣٢٩.

يُعطيك ميزاناً، ويُنهِّج لك طريقاً يُعينك على فهم الكتاب، والله المستعان)[1].

وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ إلى معتقد أهل السنة والجماعة؛ وقيامه على الأركان الأربعة ــ الشرع؛ والإجماع؛ والفطرة؛ والعقل ــ التي تضمنتها المباحث الأربعة من هذا الفصل؛ فقال في منظومته النونية:

(ولنا الحقيقة من كلام إلٰهنا ... ونصيبكم منه المجاز الثاني
وقواطع الوحيين شاهدة لنا ... وعليكم هل يستوي الأمران
وأدلة المعقول شاهدة لنا ... أيضاً فقاضونا إلى البرهان
وكذاك فطرة ربنا الرحمن شا ... هدة لنا أيضاً شهود بيان
وكذاك إجماع الصحابة والأُلى ... تبعوهم بالعلم والإحسان
وكذاك إجماع الأئمة بعدهم ... هذا كلامهم بكل مكان
هذي الشهود فهل لديكم أنتم ... من شاهد بالنفي والنُّكران)[2].

❑ ❑ ❑

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني وأوله

الفصل الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير وسطية أهل السنَّة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات وبيان مجمل معتقدهم فيه

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص٢٨٥.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤١٦٢ ــ ٤١٦٨) ــ ص٣٠٠ ــ ٣٠١].




الفصل الثالث:
جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات وبيان مجمل معتقدهم فيه



المبحث الأول:

جهود الإمام ابن قيّم الجوزية في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات وبيان عنايتهم به

إنَّ الوسطية: هي أمارة الخيرية وعنوان العدالة ـ كما يدلُّ على ذلك أصل مادتها اللغوية[1] ـ ، وهي أشرف سمات وخصائص هذه الأمة المباركة، وقد أثنى الله ـ تبارك وتعالى ـ على هذه الأمة بهذا الوصف العظيم؛ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[3].

ولما كانت هذه الأمة المحمودة وسطاً بين الأمم كلِّها: فقد ترسَّم أهل السنة والجماعة ـ الذين هم أبرُّ الفرق بأُمَّتهم؛ وأعظمهم قياماً بحقِّها ـ خطاها؛ وورثوا هداها، فاقتبسوا من مشكاتها هذه الوسطية، فصاروا وسطاً

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٣/ ٢٦، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦/ ١٠٨، الصحاح للجوهري ٣/ ١١٦٧ [مادة: وسط].

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

بين فرق الأمة من أهل البدعة والشناعة ــ الذين هم أعقُّ الفرق بأُمَّتهم؛ وأعظمهم هضماً لحقِّها ــ .

فالناظر إلى وسطية أهل السنة والجماعة بين فرق أهل البدعة والشناعة: يرى أنهم توسطوا بين الطائفتين اللَّتَيْن تتجاذبان طرفي قصد الأمور، فتحلوا بما عند كلِّ طائفةٍ من الحقِّ والهدى، وتخلوا عما عند كلِّ طائفةٍ من الباطل والردى.

وإن من أعظم أبواب الدين الحنيف التي تجلَّت فيها وسطية أهل السنة والجماعة: هو باب الأسماء والصفات، حيث توسَّطوا فيه بين أهل التعطيل وبين أهل التمثيل، وتلقَّوا مقامي الباب ــ اللَّذَيْن ضلَّ بسببهما هاتان الطائفتان ــ ؛ وهما (النفي والإثبات: من مشكاة الوحي؛ لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم ــ التي هي منشأ البدعة والضلالة ــ)[1] .

فأهل السنة والجماعة: يُثبتون لله ــ تبارك وتعالى ــ (الأسماء والصفات؛ وينفون عنه مشابهة المخلوقات، فيجمعون بين الإثبات ونفي التشبيه؛ وبين التنزيه وعدم التعطيل، فمذهبهم حسنةٌ بين سيئتين؛ وهدى بين ضلالتين، فصراطهم: صراط المُنعم عليهم، وصراط غيرهم: صراط المغضوب عليهم والضالين)[2] .

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات؛ وبيان عنايتهم البالغة به، ويمكن تجلية جهوده ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المبحث في المطالب الثلاثة الآتية:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٩٣.
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٥ ــ ٣٧٦.

المطلب الأول: جهوده في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة وأنها بين الفِرَق نظير وسطية الأمة بين الأمم.

المطلب الثاني: جهوده في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات بين أهل التعطيل وأهل التمثيل.

المطلب الثالث: جهوده في تقرير عناية أهل السنة والجماعة بتوحيد الأسماء والصفات.

وبيان مجمل هذه المطالب فيما يأتي:

* * *

المطلب الأول:

جهوده في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة وأنها بين الفِرَق نظير وسطية الأمة بين الأمم

إنَّ الله ــ عزَّ وجلّ ــ قد امتنَّ على هذه الأمة بالوسطية والخيرية من بين سائر الأمم، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1].

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (ووجه الاستدلال بالآية: أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم؛ وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقُّوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم؛ فهم شهداؤه، ولهذا نوَّه بهم ورفع ذكرهم وأثنى عليهم)[2].

وقد ورث أهل السنة والجماعة ــ ببركة برِّهم وإحسانهم ــ هذه الوسطية والخيرية من أمتهم، فلما وقعت الفرقة والخلاف في الأمة الإسلامية ــ فتمزَّق بسببها جسد الأمة إلى شيعٍ وأحزابٍ؛ و ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ١٣٢ ــ ١٣٣.

لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾[1]، ووقع مصداق ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ بقوله: «وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين ملَّة؛ كلُّها في النار إلا واحدة»[2]ـ كانت الفرقة الناجية: هي أوسط الفرق وخيرها؛ وهم أهل السنة والجماعة؛ من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فكلُّ وسطيةٍ وخيريةٍ فُضِّلت بها الأمة على سائر الأمم: فلأهل السنة والجماعة منها النصيب الأكبر والحظ الأوفر[3]، فهم (وسطٌ في النِّحل؛ كما أن ملَّة الإسلام وسطٌ في الملل)[4].

وهذه الوسطية والخيرية مصداقٌ لما قاله (بعض السلف: أهل السنة في الإسلام؛ كأهل الإسلام في الملل)[5].

وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى وسطية أهل السنة والجماعة بين فِرَق الأمة؛ وأنها نظير وسطية الأمة الإسلامية بين الأمم، فقال: (هدى الله أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط ـ الذي هو في

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٣، سورة الروم: الآية ٣٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦٩٣٧) ـ ٢٨/ ١٣٤ ـ ١٣٥]، وأبو داود في سننه [كتاب السنة/ باب شرح السنة ـ الحديث رقم (٤٥٩٧) ـ ٥/ ٥ ـ ٦] من حديث معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، وأوله: «إن أهل الكتابين افترقوا».
وحسنه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (٢٠٤) ـ ١/ ٤٠٤ ـ ٤١٤].

(٣) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق للدكتور با عبد الله ص١٥٥ ـ ١٥٧.

(٤) الوصية الكبرى لابن تيمية ٣/ ٣٧٠ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٥) سؤال في مذهب السلف في الاعتقاد ومذهب غيرهم من المتأخرين وجوابه لابن تيمية ٤/ ١٤٠ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

المذاهب كالإسلام في الملل ـ)[1].

وبيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ أن هذه الهداية ـ التي أوجبت لأهل السنة والجماعة الوسطية بين فرق الأمة الضالَّة المُضلَّة ـ هي محض فضل الله تعالى ومنَّته عليهم، فقال: (هدى الله أهل السنة ـ الذين هم وسطٌ في المقالات والنحل ـ لِمَا اختلف الفريقان ﴿فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾[2])[3].

وقد شبَّه ـ رحمه الله تعالى ـ وسطية أهل السنة والجماعة بين نحل البدع والشقاق بوسطية الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بين ملل الكفر والنفاق، فقال: (كُلَّما كان الرجل عن الرسول أبعد: كان عقله أقلَّ وأفسد، فأكمل الناس عقولاً: أتباع الرسل، وأفسدهم عقولاً: المُعرض عنهم وعما جاءوا به، ولهذا كان أهل السنة والحديث أعقل الأمة، وهم في الطوائف كالصحابة في الناس)[4].

فهذه الإشارة اللطيفة من الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تشبيهه وسطية أهل السنة والجماعة بين فِرَق الأمة بوسطية الأمة الإسلامية بين الأمم: هي قرعٌ لباب تقريره لوسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات بين أهل التعطيل وأهل التمثيل.



(١) الصلاة وحكم تاركها، ص٥٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٣.
(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤٤٧.
(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٦٤.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات بين أهل التعطيل وأهل التمثيل

لما كانت سنة الله تعالى في خلقه: أن دينه الحنيف (بين الغالي فيه والجافي عنه؛ والوادي بين الجبلين؛ والهدى بين الضلالتين، ـ وقد جعل الله هذه الأمة هي الأمة الوسط في جميع أبواب الدين؛ فإذا انحرف غيرها من الأمم إلى أحد الطرفين كانت هي في الوسط ـ)[1]: فقد تجلَّت وسطية أهل السنة والجماعة ـ تشبُّهاً بأمَّتهم في وسطيَّتها ـ في شتَّى شرائع الدين ومعالمه، فكان مذهبهم فيها (بين مذهبين؛ وهدى بين ضلالتين)[2].

فأهل السنة والجماعة متوسِّطون في كلِّ مسألةٍ من مسائل التوحيد وقضايا الاعتقاد ـ عامَّة ـ ؛ وفي مسألة الأسماء والصفات ـ خاصَّة ـ ، فهم فرقةٌ وسطٌ بين كلِّ فرقتين تقاسمتا (طرفي الإفراط والتفريط)[3]، وهم

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٣/ ٣٠٣.

(٢) سؤال هل الاستواء والنزول حقيقة أم لا؟ وجوابه لابن تيمية ٥/١٩٦ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥٤٣.

في الأمة عدلٌ خيارٌ (لا مع هؤلاء؛ ولا مع هؤلاء، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه؛ وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، فكلُّ حقٍّ مع طائفةٍ من الطوائف: فهم يُوافقونهم فيه؛ وهم بَرَاءٌ من باطلهم.

فمذهبهم: جمع حقَّ الطوائف بعضه إلى بعض؛ والقول به ونصره؛ وموالاة أهله من ذلك الوجه، ونفي باطل كلِّ طائفةٍ من الطوائف؛ وكسره؛ ومعاداة أهله من هذا الوجه.

فهم حكامٌ بين الطوائف؛ لا يتحيَّزون إلى فئةٍ منهم على الإطلاق، ولا يردُّون حقَّ طائفةٍ من الطوائف، ولا يُقابلون بدعةً ببدعةٍ؛ ولا يردُّون باطلاً بباطلٍ، ولا يحملهم شنآن قومٍ ــ يُعادونهم ويُكفِّرونهم ــ على أن لا يعدلوا فيهم؛ بل يقولون فيهم الحقَّ؛ ويحكمون في مقالاتهم بالعدل.

والله ــ سبحانه وتعالى ــ أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف فقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾[1].

فأمره ــ سبحانه ــ أن يدعو إلى دينه وكتابه؛ وأن يستقيم في نفسه كما أمره، وأن لا يتَّبع هوى أحدٍ من الفرق، وأن يُؤمن بالحقِّ جميعه؛ ولا يُؤمن ببعضه دون بعضٍ، وأن يعدل بين أرباب المقالات والديانات.

وأنتَ إذا تأملتَ هذه الآيةَ: وجدتَ أهلَ الكلام الباطل وأهلَ الأهواء والبدع من جميع الطوائف: أبخسَ الناس منها حظاً؛ وأقلَّهم نصيباً، ووجدت حزب الله ورسوله وأنصار سنَّته: هم أحقُّ بها وأهلها، وهم في هذه المسألة وغيرها من المسائل: أسعدُ بالحقِّ من جميع الطوائف)[2].

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٥.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٠٠.

أما في باب الأسماء والصفات ــ خاصَّة ــ فإنهم قد توسَّطوا: (بين أهل التعطيل؛ الذين يُلحدون في أسماء الله وآياته؛ ويُعطِّلون حقائق ما نعت الله به نفسه؛ حتى يُشبِّهوه بالعدم والموات، وبين أهل التمثيل؛ الذين يضربون له الأمثال؛ ويُشبِّهونه بالمخلوقات)[١].

فكلٌّ من طائفتي التعطيل والتمثيل: نظرت إلى مقامي النفي والإثبات في باب أسماء الله وصفاته (بعينٍ عوراء، وأهل العلم والاعتدال أَعْطَوْا كِلا المقامين حقَّه؛ ولم يُبطلوا أحدَ المقامين بالآخر، فاستقام لهم نظرهم ومناظرتهم)[٢].

فمُحصِّلة هذا الباب ونتيجته: أن (المُعطِّل جاحدٌ لكمال المعبود، والمُمثِّل مُشبِّهٌ له بالعبيد، والمُوحِّد مُبيِّنٌ لحقائق أسمائه وكمال أوصافه؛ وذلك قطب رحى التوحيد. فالمُعطِّل يعبد عدماً، والممثل يعبد صنماً، والموحد يعبد ربًّا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[٣]، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وسع ﴿كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[٤])[٥].

وقد برزت جهود الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ جليَّة في تقرير وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات بين أهل التعطيل وأهل التمثيل، حيث تنوَّعت طرق تقريره لهذه الوسطية، وبيان ذلك في المسائل الآتية الذكر:

---

(١) الوصية الكبرى لابن تيمية ٣/ ٣٧٣ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٩.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة غافر: الآية ٧.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٤٧ ــ ١٤٨.

المسألة الأولى:

تقريره وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات بضرب الأمثال الحسان بينهم وبين أهل التعطيل وأهل التمثيل.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (هذه أمثالٌ حسانٌ مضروبةٌ للمُعطِّل؛ والمُشبِّه؛ والمُوحِّد ـ ذكرتها قبل الشروع في المقصود ـ ، فإن ضرب الأمثال مما يأنس به العقل ـ لتقريبها العقول من المشهود ـ .

وقد قال تعالى ـ وكلامه المشتمل على أعظم الحجج وقواطع البراهين ـ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾[1] .

وقد اشتمل منها على بضعة وأربعين مثلاً ، وكان بعض السلف إذا قرأ مثلاً لم يفهمه: يشتد بكاؤه؛ ويقول: (لست من العالمين)[2] .

وسنفرد لها ـ إن شاء الله ـ كتاباً مستقلاًّ؛ مُتضمِّناً لأسرارها ومعانيها؛ وما تضمنه من كنوز العلم وحقائق الإيمان، وبالله المستعان؛ وعليه التكلان.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٣ .

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا الأثر في [مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٢٦] ولم يعزه لقائلٍ.
وقد أخرج ابن أبي حاتم في [تفسير القرآن العظيم: رقم (١٧٣٢٧) ـ ٩/ ٣٠٦٤] نظيره: (عن عمرو بن مرة قال: ما مررتُ بآيةٍ في كتاب الله لا أعرفها: إلا أحزنني، لأني سمعت الله يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾).
وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٢٨٠، الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ٥/ ٢٧٨ .

المثل الأول: ثياب المُعطِّل: ملطخةٌ بعذرة التحريف؛ وشرابه مُتغيِّرٌ بنجاسة التعطيل. وثياب المُشبِّه: مضمخةٌ بدم التشبيه؛ وشرابه مُتغيِّرٌ بدم التمثيل. والمُوحِّد: طاهرُ الثوب والقلب والبدن؛ يخرج شرابه ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾[1].

المثل الثاني: شجرة المُعطِّل: مغروسةٌ ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ﴾[2]. وشجرة المُشبِّه: قد ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦﴾[3]. وشجرة المُوحِّد: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾[4].

المثل الثالث: شجرة المُعطِّل: شجرة الزقوم؛ فالحلوق السليمة لا تبلعها. وشجرة المُشبِّه: شجرة الحنظل؛ فالنفوس المستقيمة لا تتبعها. وشجرة المُوحِّد: طوبى؛ يسير الراكب في ظلِّها مائة عام لا يقطعها.

المثل الرابع: المُعطِّل: قد أعدَّ قلبه لوقاية الحرِّ والبرد كبيت العنكبوت. والمُشبِّه: قد خُسِفَ بعقله؛ فهو يتجلجل في أرض التشبيه إلى البهموت[5]. وقلب المُوحِّد: يطوف حول العرش؛ ناظراً إلى الذي لا يموت.

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٩.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٦.

(٤) سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤ ــ ٢٥.

(٥) الباء والهاء والميم: تدل على الشيء الذي لا يُعرف المأتى إليه، ومنه: الأمر المبهم، يقال: أبهمتُ الباب: أغلقته وسددته.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٦/ ٣٣٧، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٣١١، لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٥٧ [مادة: بهم].
أي أن المراد: أن قلب المشبِّه منغلق ومسدود، فلا يتخلله وعظ ولا إنذار بل هو عن الحق مصدود.

المثل الخامس: مصباح المُعطِّل: قد عصفت عليه أهوية التعطيل؛ فطفىء وما أنار. ومصباح المُشبِّه: قد غرقت فتيلته في عكر[1] التشبيه؛ فلا تقتبس منه الأنوار. ومصباح المُوحِّد: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[2].

المثل السادس: قلب المُعطِّل: متعلقٌ بالعدم؛ فهو أحقر الحقير. وقلب المُشبِّه: عابدٌ للصنم الذي قد نُحِتَ بالتصوير والتقدير. والمُوحِّد قلبه: متعبدٌ لمن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[3].

المثل السابع: نقود المُعطِّل: كلها زيوفٌ؛ فلا تروج علينا. وبضاعة المُشبِّه: كاسدةٌ؛ فلا تنفق لَدَيْنَا. وتجارة المُوحِّد: يُنادى عليها يوم العرض على رؤوس الأشهاد: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾[4].

المثل الثامن: المُعطِّل: كنافخ الكير؛ إما أن يُحرق ثيابك؛ وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة. والمُشبِّه: كبائع الخمر؛ إما أن يُسكرك؛ وإما أن يُنجِّسك. والمُوحِّد: كبائع المسك إما أن يُحذيك؛ وإما أن يبيعك؛ وإما أن تجد منه رائحة طيبة.

المثل التاسع: المُعطِّل: قد تخلَّف عن سفينة النجاة ولم يركبها؛

---

(١) قال الرازي في [مختار الصحاح ص٤٤٨]: (العَكَر بفتحتين: دُرْدِيُّ الزيت وغيره، وقد عَكِرَتْ المسرجة من باب طرب: اجتمع فيها الدُّرْدِيُّ، وعَكَرُ الشراب والماء والدهن: آخره وخاثره، وقد عَكِرَ؛ فهو عَكِرٌ؛ وأَعْكَرَه غيرُه؛ وعَكَّرَه تَعْكِيراً: جعل فيه العَكَر).

(٢) سورة النور: الآية ٣٥.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة يوسف: الآية ٦٥.

فأدركه الطوفان. والمُشبِّه: قد انكسرت به في اللجة؛ فهو يشاهد الغرق بالعيان. والمُوحِّد: قد ركب سفينة نوح؛ وقد صاح به الرُّبَّان: ﴿ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١ ﴾[1].

المثل العاشر: منهل المُعطِّل: ﴿ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾[2]؛ فرجع خاسئاً حسيراً. ومشرب المُشبِّه: من ماءٍ قد تغير طعمه ولونه وريحه بالنجاسة تغييراً. ومشرب المُوحِّد: ﴿ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦ ﴾[3])[4].

فهذا تقريرٌ متضمنٌ لوسطية المُوحِّد بين المُعطِّل والمُمثِّل؛ ساقها إليك الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بأمثالٍ حسانٍ مضروبةٍ، فيها (تشبيه شيءٍ بشيءٍ في حكمه؛ وتقريب المعقول من المحسوس؛ أو أحد المحسوسين من الآخر؛ واعتبار أحدهما بالآخر)[5]، فللّه درُّه؛ ما أحسن جزالة أمثاله (وفصاحتها، وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة والاختصار التام، وندائها إلى معناها من أقرب مكان)[6].

وهذه الوسطية التي حظي بها أهل السنة والجماعة من بين فرقتي التعطيل والتمثيل: هي محض منة الله تعالى وإفضاله؛ وكرمه عليهم ونواله.

---

(١) سورة هود: الآية ٤١.
(٢) سورة النور: الآية ٣٩.
(٣) سورة الإنسان: الآيتان ٥ ــ ٦.
(٤) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص٢٦ ــ ٢٩.
(٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٥٠.
(٦) التبيان في أقسام القرآن ص٣٠٢.

المسألة الثانية:

تقريره أن هذه الوسطية: هي محض منَّة الله تعالى على أهل السنة والجماعة، إذ هداهم في هذا الباب لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (هدى الله أصحاب سواء السبيل للطريقة المثلى؛ فلم يتلوَّثوا بشيءٍ من أوضار هذه الفرق وأدناسها، وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات؛ ونفوا عنه مماثلة المخلوقات، فكان مذهبهم مذهباً بين مذهبين؛ وهدى بين ضلالتين، خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين والمجهلين والمشبهين؛ كما خرج اللبن ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾[1].

وقالوا: نصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات؛ ونفي مشابهة المخلوقات، فلا نُعطِّل ولا نُؤوِّل، ولا نُمثِّل ولا نُجهِّل.

ولا نقول: ليس لله يدان ولا وجهٌ، ولا سمعٌ ولا بصرٌ، ولا حياةٌ ولا قدرةٌ، ولا استوى على عرشه.

ولا نقول: له يدان كأيدي المخلوق، ووجهٌ كوجوههم، وسمعٌ وبصرٌ وحياةٌ وقدرةٌ واستواءٌ كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم.

بل نقول: له ذاتٌ حقيقةٌ ليست كالذوات، وله صفاتٌ حقيقةٌ لا مجازاً ليست كصفات المخلوقين، وكذلك قولنا في وجهه ـ تبارك وتعالى ـ ويديه وسمعه وبصره وكلامه واستوائه.

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٦.

ولا يمنعنا ذلك أن نفهم المراد من تلك الصفات وحقائقها؛ كما لم يمنع ذلك من أثبت لله شيئاً من صفات الكمال من فهم معنى الصفة وتحقيقها، فإن من أثبت له ـ سبحانه ـ السمعَ والبصرَ: أثبتهما حقيقة؛ وفهم معناهما.

فهكذا سائر صفاته المقدسة يجب أن تُجرى هذا المجرى، وإن كان لا سبيل لنا إلى معرفة كنهها وكيفيتها، فإن الله ـ سبحانه ـ لم يُكلِّف عباده بذلك؛ ولا أراده منهم؛ ولم يجعل لهم إليه سبيلاً)[1].

فهذا تقريرٌ لمنة الله تعالى على أهل السنة والجماعة بالوسطية في باب أسماء الله تعالى وصفاته بين أهل التعطيل وأهل التمثيل؛ الذين انحرفوا عن هذا الباب بسبب تطلُّعهم إلى معرفة ما حجب الله تعالى علمه عن عباده؛ وهو معرفة كنه الذات المقدسة وكيفيتها.

وقد عصم الله تعالى أهل السنة والجماعة في هذا الباب مما ابتُلِيَ به أهل التعطيل والتمثيل، فلم يقيسوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بخلقه؛ ولم يُشبِّهوه بهم في شيء من أسمائه وصفاته، ولم ينفوا ما أثبته لنفسه المقدسة من ذلك، بل أخبروا عنه بما أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ عن نفسه؛ وأخبر عنه رسوله ﷺ.

المسألة الثالثة:

تقريره أن أهل السنة والجماعة يشهدون انحراف المنحرفين في طرفي التعطيل والتمثيل؛ وهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بل هم إلى الله تعالى ورسوله مُتحيّزون، وإلى محض سنته مُنتسبون.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (هدى الله الأمة

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٥ ـ ٤٢٧.

الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فلم يقيسوه بخلقه؛ ولم يُشبِّهوه بهم في شيء من صفاته ولا أفعاله؛ ولم ينفوا ما أثبته لنفسه من ذلك؛ ولم يوجبوا عليه شيئاً ولم يُحرِّموا عليه شيئاً، بل أخبروا عنه بما أخبر عن نفسه؛ وشهدت قلوبهم ما في ضمن ذلك الإيجاب والتحريم من الحِكَم والغايات المحمودة التي يستحقُّ عليها كمال الحمد والثناء.

فإن العباد لا يُحصون ثناء عليه أبداً؛ بل هو كما أثنى على نفسه، وهذا بيِّنٌ ـ بحمد الله ـ عند أهل العلم والإيمان؛ مستقرٌ في فطرهم؛ ثابتٌ في قلوبهم، يشهدون انحراف المنحرفين في الطرفين؛ وهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بل هم إلى الله تعالى ورسوله متحيزون، وإلى محض سنته منتسبون، يدينون دين الحق أنَّى توجَّهت ركائبه؛ ويستقرُّون معه حيث استقرَّت مضاربه، لا تستفزُّهم بدوات[1] آراء المختلفين؛ ولا تُزلزلهم شبهات المبطلين، فهم الحكام على أرباب المقالات؛ والمُميِّزون لما فيها من الحقِّ والشبهات، يردُّون على كلٍّ باطله؛ ويوافقونه فيما معه في الحق، فهم في الحقِّ سِلْمُه؛ وفي الباطل حَرْبُه، لا يميلون مع طائفةٍ على طائفةٍ؛ ولا يجحدون حقَّها لما قالته من باطلٍ سواه، بل هم ممتثلون قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[2].

---

(١) بداوة الأمر: أول ما يبدو منه.

انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٤/ ٢٠٢، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص١٦٢٩، لسان العرب لابن منظور ١٤/ ٦٥ [مادة: بدا].

(٢) سورة المائدة: الآية ٨.

فـإذا كان قـد نهى عبـاده أن يحملهـم بغضهـم لأعدائـه أن لا يعدلـوا عليهـم ــ مـع ظهـور عـداوتهـم ومخـالفتهـم وتكـذيبهـم لله ورسـولـه ــ ؛ فكيـف يسوغ لمـن يـدَّعي الإيمـان أن يحملـه بغضـه لطائفـةٍ منتسبـةٍ إلـى الـرسـول ــ تُصيـب وتُخطـىء ــ علـى أن لا يعـدل فيهـم ؛ بـل يُجـرِّد لهـم العداوة وأنواع الأذى؟

ولعلَّه لا يدري أنهم أولى بالله ورسوله وما جاء به منه؛ علماً وعملاً؛ ودعوة إلى الله على بصيرة؛ وصبراً من قومهم على الأذى في الله؛ وإقامة لحجة الله؛ ومعذرة لمن خالفهم بالجهل، لا كمن نصب معالمه صادرة عن آراء الرجال، فدعا إليها؛ وعاقب عليها، وعادى من خالفها بالعصبية وحمية الجاهلية، والله المستعان؛ وعليه التكلان؛ ولا حول ولا قوة إلا به)[1].

فهـذا تقريـرٌ لمـا حبـى الله تعـالى بـه أهـل السنـة والجماعـة؛ مـن جـعلهـم حُـكَّـامـاً علـى أربـاب المـقـالات الفـاسـدة وأصحـاب الآراء الكاسـدة، فيشهـدون انحراف المنحرفين في الطرفين؛ ويُميِّزون ما معهما مـن الحـقِّ والباطـل، فيردُّون عـلى كـلٍّ بـاطـلـه؛ ويُوافقونه فيما معه في الحـقِّ.

فهذه حقيقة الوسطية التي ينعم بها أهل السنة والجماعة في هذا الباب؛ وهو: موقفهم الوسط من طرفي قصد الأمور الذي تتجاذبه الطائفتان المنحرفتان ــ المعطلة والممثلة ــ ، فهم يتبرَّأون من باطل الطائفتين؛ ويقرُّون بحقِّ الفريقين، فينقادون لما مع كلٍّ منهما من الحقِّ الواضح؛ ويُنكرون ما معهما من الباطل الفاضح.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١٤١ ــ ١٤٢.

المسألة الرابعة:

تقريره أن وسطية أهل السنة والجماعة ـ الموجبة للعدل والخيار ـ تقتضي تبرُّؤهم من باطل طائفتي التعطيل والتمثيل؛ والإقرار بحقّهما، والانقياد لما معهما من الحقّ؛ وإنكار ما معهما من الباطل.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (أما أهل الصراط المستقيم الوسط العدل الخيار: فيتبرَّأون من باطل الطائفتين؛ ويقرُّون بحقِّ الفريقين، وينقادون لما مع كلٍّ منهما من الحقِّ؛ ويُنكرون ما معهما من الباطل.

فمن قال: حيَّ على الهدى والفلاح: أجاب نداءه ولبى دعوته، ومن قال: حيَّ على البدعة واتباع ما لم يُنزل الله به سلطاناً: أعرض عنه وجاهده بحسب استطاعته.

وهذا دين الله الذي لا يقبل من أحدٍ ديناً سواه، وهو اتباع ما بعث الله به رسوله في جميع الأمور؛ وترك اتباع ما يخالف ذلك.

وإجماع القلوب على هذا الاتباع والترك، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(١).

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٠٣ ــ ١٠٧.

قال ابن عباس: (تبيَّض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودُّ وجوه أهل الفرقة والبدعة[1])[2].

فهذه نُقولٌ من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير حقيقة مذهب أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات؛ وبيان توسطهم بين طائفتي التعطيل والتمثيل المتناقضتين فيه، فأثبتوا لله تعالى (ما أثبته لنفسه من صفات الكمال، ونزَّهوه فيها عن الشَّبَه والمثال، فأثبتوا له المثل الأعلى ولم يضربوا له الأمثال، فكانوا أسعد الطوائف بمعرفته؛ وأحقَّهم بالإيمان به وبولايته ومحبته، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[3])[4].

فمذهبهم إذا ما وازنتَ بينه (وبين ما عداه من المذاهب: وجدتَّه هو المذهب الوسط والصراط المستقيم، ووجدتَ سائر المذاهب خطوطاً عن يمينه وعن شماله، فقريبٌ منه؛ وبعيدٌ؛ وبين ذلك)[5].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في [تفسير القرآن العظيم: رقم (٣٩٥٠) ــ ٣/ ٧٢٩]، واللالكائي في [أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: رقم (٧٤) ــ ١/ ٧١ ــ ٧٢]، والخطيب في [تاريخ بغداد: ٧/ ٣٧٩].
وانظر نظير هذا القول؛ وما في معناه في: معالم التنزيل للبغوي ٢/ ٨٧، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/ ٤٣٦، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ١٠٧ ــ ١٠٨، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٩٢، الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ٢/ ١١١ ــ ١١٢.

(٢) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٨٦ ــ ١٨٧.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥٤، سورة الحديد: الآية ٢١، سورة الجمعة: الآية ٤.

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥٤٤.

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٠١.

فحُقَّ لأهل السنة والجماعة بعد ذلك الفضل أن يلهجوا بلسان الحال ولسان المقال: (سبحان الله وتعالى عما يقول الفريقان علواً كبيراً، والحمد لله الذي هدانا لما أرسل به رسوله وأنزل به كتابه وفطر عليه عباده؛ وبرَّأنا من بدع هؤلاء وهؤلاء، فله الحمد والمنة والفضل والنعمة والثناء الحسن، ونسأله التوفيق لما يُحبُّه ويرضاه؛ وأن يُجنِّبنا مُضلات البدع والفتن)[1].

❑ ❑ ❑

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٦٦.

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير عناية أهل السنة والجماعة بتوحيد الأسماء والصفات

إنَّ أهل السنة والجماعة (هم أئمة الأنام؛ وزوامل[1] الإسلام، الذين حفظوا على الأمة معاقد الدين ومعاقله، وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله)[2]، ولما كانت حياة قلوبهم؛ ومحبتهم لمعبودهم ـ تبارك وتعالى ـ ؛ ومنافستهم في القرب منه فوق كلِّ حياةٍ ومحبةٍ ومنافسةٍ: كانت عنايتهم بباب الأسماء والصفات فوق كلِّ عنايةٍ؛ واهتمامهم به فوق كلِّ اهتمامٍ؛ حتى لم يُحفظ عنهم في ذاكرة التاريخ في هذا الباب خلافٌ ولا نزاعٌ، بل كانوا ذابِّين عن محارمه؛ منتصرين لحقِّه؛ معظِّمين لنصوصه؛ مقدِّمين لها على ما خالفها، فكانوا ـ بحمد الله تعالى ـ أحسن الطوائف ظناً (بربِّهم إذ وصفوه بما وصف به نفسه؛ ووصفه به رسوله، ووصفوه بكلِّ كمالٍ وجلالٍ؛ ونزَّهوه عن كلِّ نقصٍ، والله تعالى عند ظنِّ عبده به)[3].

---

(١) قال الأزهري في [تهذيب اللغة ١٣/ ٢٢٣] ـ حكاية عن ابن الأعرابي ـ : (يقال للرجل العالم بالأمر: هو ابن زوملتها؛ أي: عالمها).
وانظر: لسان العرب لابن منظور ١١/ ٣١٢، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٢٩/ ١٤٠ [مادة: زمل].

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٩.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٢٢٩.

فمسلك أهل السنة والجماعة في هذا الباب: (أصحُّ المسالك؛ وأسلم من التناقض والاضطراب)[1]، وهم (أعلم الناس بالله وصفاته وكلامه وكلام رسوله)[2]، فهم في الناس (بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء)[3].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير عناية أهل السنة والجماعة بتوحيد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، حيث أبرز عنايتهم بهذا الباب؛ مُبيِّناً أنهم كانوا مثبتين (لصفات كماله ونعوت جلاله؛ وعُلُوِّه على مخلوقاته؛ واستوائه على عرشه)[4].

فأهل السنة والجماعة في هذا الباب: قائلون بالحقِّ فيه؛ معتقدون له داعون إليه، ذابُّون عنه منتصرون له، مخالفون لأجله آراء الرجال؛ مُقدِّمون له على ما خالفه، فلسان حالهم فيه: كلسان مقال (إمام أهل السنة ــ باتفاق أهل السنة ــ : أحمد بن حنبل: (لا نُزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المُشنِّعين)[5])[6].

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٨٠.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٢٨.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٩.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٢١.

(٥) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في [بيان تلبيس الجهمية ١/ ٤٣١]؛ و[درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٣١]، والذهبي في [الأربعين في صفات رب العالمين: رقم (٩٠) ــ ص٨٦]، وابن قيم الجوزية في [اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٢١٢]، وهو من سؤالات تلميذه وابن عمه حنبل بن إسحاق.

(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٤٠.

وبيان نفيس كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المطلب يتجلَّى بالمسائل السبع الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أن أهل السنة والجماعة هم خير الأمة وأفضلها وأعلمها، وكانوا في باب الأسماء والصفات قائلين بالحقِّ؛ معتقدين له؛ داعين إليه، وأن عنايتهم به فوق كلِّ عنايةٍ، واهتمامهم به فوق كلِّ اهتمامٍ.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها، وأعلمها وأسبقها إلى كلِّ فضلٍ وهدى ومعرفةٍ: قصَّروا في هذا الباب) أي: باب الإيمان بالله تعالى ومعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله (فجفوا عنه؛ أو تجاوزوا فغلوا فيه، وإنما ابْتُلِيَ من خرج عن منهاجهم بهذين الداءين، وهُدُوا لأحد الانحرافين.

وبُزَّلُ الإسلام وعصابة الإيمان وحماة الدين: هم الذين كانوا في هذا الباب قائلين بالحقِّ؛ معتقدين له؛ داعين إليه.

فإن قيل: القوم كانوا عن هذا الباب معرضين؛ وبالزهد والعبادة والجهاد مشتغلين، لم يكن هذا الباب من همَّتهم ولا عنايتهم به.

قيل: هذا من أبين المحال وأبطل الباطل، بل كانت عنايتهم بهذا الباب فوق كلِّ عنايةٍ، واهتمامهم به فوق كلِّ اهتمامٍ؛ وذلك بحسب حياة قلوبهم، ومحبَّتهم لمعبودهم، ومنافستهم في القرب منه.

فمن في قلبه أدنى حياةٍ أو محبةٍ لربِّه؛ وإرادةٍ لوجهه؛ وشوقٍ إلى لقائه: فطلبه لهذا الباب؛ وحرصه على معرفته؛ وازدياده من التبصُّر فيه؛ وسؤاله واستكشافه عنه: هو أكبر مقاصده؛ وأعظم مطالبه؛ وأجلُّ غاياته.

وليست القلوب الصحيحة والنفوس المطمئنَّة إلى شيءٍ من الأشياء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر، ولا فرحها بشيءٍ أعظم من فرحها بالظَّفر بمعرفة الحقِّ فيه.

فكيف يمكن مع قيام هذا المقتضي ــ الذي هو من أقوى المقتضيات ــ أن يتخلَّف عنه أثره في خيار الأمة وسادات أهل العلم والإيمان؟ الذين هممهم أشرف الهمم، ومطالبهم أجلُّ المطالب، ونفوسهم أزكى النفوس.

فكيف يُظنُّ بهم الإعراض عن مثل هذا الأمر العظيم؛ أو الغفلة عنه؛ أو التكلُّم بخلاف الصواب فيه واعتقاد الباطل؟

ومن المحال أن يكون تلاميذ المعتزلة[1] . . . .

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ المعتزلة في مواضع متعددة من كتبه؛ ونعتهم: بالنعوت الشنيعة؛ والأوصاف الوضيعة، منها قوله في [شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٢٩ ــ ٧٣٠]: (طريقة أهل البدع من المعتزلة والقدرية؛ الذين يُوجبون على ربِّهم مراعاة الأصلح لكلِّ عبدٍ ــ وهو الأصلح عندهم؛ وفي ظنهم ــ، فيشرعون له شريعة بعقولهم؛ ويحجرون عليه ويحرمون عليه أن يخرج عنها؛ ويوجبون عليه القيام بها، ولذلك كانوا من أحمق الناس وأعظمهم تشبيهاً للخالق بالمخلوق في أفعاله؛ وأعظمهم تعطيلاً له عن صفات كماله، فنزَّهوه عن صفات الكمال؛ وشبَّهوه بخلقه في الأفعال، وأدخلوه تحت الشريعة الموضوعة بآراء الرجال، وسموا ذلك: عدلاً وتوحيداً ــ بالزور والبهتان ــ، وتلك تسمية ما أنزل الله بها من سلطان، فالعدل: قيامه بالقسط في أفعاله، والتوحيد: إثبات صفات كماله، ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾ [سورة آل عمران: الآيتان ١٨ ــ ١٩]. فهذا التوحيد والعدل الذي جاء به المرسلون، وذلك التوحيد والعدل الذي جاء به المعطلون). =

= انظر في نشأتهم؛ وسبب تسميتهم؛ وفرقهم؛ وأصول معتقدهم الخمسة: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري ١/ ٢٣٥ ـ ٢٤٩، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع للملطي ص٤٩ ـ ٥٦، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منهم للمعتق ص١٣ ـ ٢٨٠.

(١) عقد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [أحكام أهل الذمة ١/ ٩٢ ـ ٩٨] فصلاً في الصابئة؛ قال فيه: (الصابئة: أمةٌ كبيرةٌ؛ فيهم السعيد والشقيُّ، وهي إحدى الأمم المنقسمة إلى مؤمنٍ وكافرٍ، فإن الأمم قبل مبعث النبي ﷺ نوعان: نوعٌ كفار أشقياء كلُّهم ـ ليس فيهم سعيدٌ ـ؛ كعبدة الأوثان والمجوس، ونوعٌ منقسمون إلى سعيدٍ وشقيٍّ؛ وهم: اليهود والنصارى والصابئة. وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ النوعين في كتابه؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٢]. وكذلك قال في المائدة [الآية ٦٩]. وقال في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الآية ١٧]. فلم يقل هاهنا: من آمن منهم بالله واليوم الآخر؛ لأنه ذكر معهم المجوس والذين أشركوا، فذكر ستَّ أمم: منهم اثنتان شقيَّتان؛ وأربعٌ منهم منقسمةٌ إلى شقيٍّ وسعيدٍ، وحيث وَعَدَ أهل الإيمان والعمل الصالح منهم بالأجر: ذكرهم أربع أممٍ؛ ليس إلا، ففي آية الفصل بين الأمم: أدخل معهم الأمَّتين، وفي آية الوَعْد بالجزاء: لم يُدخلها معهم. فعُلِمَ أن الصابئين فيهم المؤمن والكافر؛ والشقيُّ والسعيد، وهذه أمةٌ قديمةٌ قبل اليهود والنصارى، وهم أنواعٌ: صابئةٌ حنفاء؛ وصابئةٌ مشركون، وكانت حران: دارَ مملكةِ هؤلاء قبل المسيح، ولهم كتبٌ وتآليف وعلومٌ، وكان في بغداد منهم طائفةٌ كبيرةٌ).

كما ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٣٥٩ ـ ٣٦٦] فصلاً في تلاعب الشيطان بالصابئة. =

وأفراخ اليونان[1] ــ الذين شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشكِّ وعدم العلم الذي يَطمئنُّ إليه القلبُ، وأشهدوا الله وملائكته عليهم به، وشهد به عليهم الأشهاد من أتباع الرسل ــ : أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأعرف به ممن شهد الله ورسوله لهم بالعلم والإيمان، وفضَّلهم على من سبقهم ومن يجيء بعدهم إلى يوم القيامة ــ ما خلا النبيين والمرسلين ــ .

وهل يقول هذا إلا غبيٌّ جاهلٌ؛ لم يقدر قدر السلف؛ ولا عرف الله ورسوله وما جاء به؟)[2].

فهذا تقريرٌ لعناية أهل السنة والجماعة بتوحيد الأسماء والصفات؛ وأنها فوق كلِّ عنايةٍ، وبيانٌ لاهتمامهم به؛ وأنه فوق كلِّ اهتمامٍ، وسرُّ ذلك:

= وانظر في وصفهم: الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٢٨٩، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان للسكسكي ص٩٢ ــ ٩٤، الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١١١٢.

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان٢/ ٣٧٧ ــ ٣٧٨] في وصف أمة اليونان: (هؤلاء أمةٌ من الأمم؛ لهم مملكةٌ وملوكٌ، وعلماؤهم: فلاسفتهم. ومن ملوكهم: الإسكندر المقدوني).
إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (وكان لليونانيين في دولته: عِزٌّ وسطوةٌ بسبب وزيره أرسطو ــ فإنه كان مشيره ووزيره ومُدبِّر مملكته ــ ، وكان بعده لليونان عِدَّة ملوكٍ يعرفون بالبطالسة؛ واحدهم: بطليموس ــ كما أن كسرى: ملك الفرس؛ وقيصر: ملك الروم ــ ، ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم؛ فصاروا رعية لهم، وانقرض ملكهم؛ فصارت المملكة للروم، وصارت المملكة واحدة، وهم على شركهم: من عبادة الأصنام؛ وهو دينهم الظاهر ودين آبائهم).
وانظر في حياة اليونان عامة؛ والنزاع بين الفلاسفة والدين خاصة: قصة الحضارة لديورانت ٧/ ١٩٥ ــ ٢٣٨.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٦٠ ــ ١٦٢.

هو حياة قلوبهم؛ ومحبَّتهم لمعبودهم ـ تبارك وتعالى ـ ؛ ومنافستهم في القرب منه، ومن ظنَّ بهم خلاف ذلك: لم يقدرهم حقَّ قدرهم.

ولما كانت همم أهل السنة والجماعة: أشرف الهمم؛ ومطالبهم: أجلُّ المطالب؛ ونفوسهم: أزكى النفوس ـ وانضاف إلى ذلك: حسنُ قصدهم وفهمهم ـ : لم يُحفظ عنهم في باب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته خلافٌ؛ لا مشهورٌ ولا شاذٌ، بل هم فيه (عنقٌ واحدٌ: أن الله فوق سماواته على عرشه؛ بائنٌ من خلقه، موصوفٌ بصفات الكمال ونعوت الجلال، وأنه كَلَّم عبده ورسوله موسى تكليماً، وتجلَّى للجبل فجعله دكًّا هشيماً، إلى أن جاء أول المائة الثالثة)[1]؛ فحدث الخلاف والنزاع بسبب من ساء فهمه وقصده.

المسألة الثانية:

تقريره أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان هم أعلم الأمة على الإطلاق في باب معرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله، ولم يُحفظ عنهم في هذا الباب خلافٌ؛ لا مشهورٌ ولا شاذٌ.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (كان الصحابة أعلم الأمة على الإطلاق، وبينهم وبين من بعدهم في العلم واليقين؛ كما بينهم وبينهم في الفضل والدين.

ولهذا كان ما فهمه الصحابة من القرآن: أولى أن يُصار إليه مما فهمه من بعدهم، فانضاف حسنُ قصدهم إلى حسنِ فهمهم؛ فلم يختلفوا في التأويل في باب معرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله واليوم الآخر، ولا يُحفظ عنهم في ذلك خلافٌ؛ لا مشهورٌ ولا شاذٌ.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٧٢.

فلما حدث بعد انقضاء عصرهم من ساء فهمه وساء قصده: وقعوا في أنواع من التأويل؛ بحسب سوء الفهم وفساد القصد، وقد يجتمعان وقد ينفردان، وإذا اجتمعا: تولَّد من بينهما جهلٌ بالحق ومعاداةٌ لأهله واستحلالُ ما حرَّم الله منهم)[1].

فهذا تقريرٌ لاجتماع سلف الأمة ـ من الصحابة ومن تبعهم بإحسانٍ ـ على كلمةٍ سواءٍ في باب أسماء الله تعالى وصفاته، فهم فيه على وفاقٍ؛ لم يُحفظ عنهم فيه أدنى شقاق.

وقد دفع الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ الإيهام والاضطراب عما يُظنُّ أنه من المواضع المختلف فيها بين أهل السنة والجماعة في آي الكتاب، فقال: (قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[2]، والصحابة متنازعون في تفسير الآية: هل المراد الكشف عن الشدة؛ أو المراد بها أنَّ الربَّ تعالى يكشف عن ساقه؟

ولا يُحفظ عن الصحابة والتابعين نزاعٌ فيما يذكر أنه من الصفات أم لا: في غير هذا الموضع، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله، لأنه ـ سبحانه ـ لم يضف الساق إليه؛ وإنما ذكره مجرداً عن الإضافة مُنكراً.

والذين أثبتوا ذلك صفةً ـ كاليدين والأصبع ـ : لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن؛ وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري ـ المتفق على صحته؛ وهو حديث الشفاعة الطويل ـ ؛ وفيه: «فيكشف الربُّ عن ساقه؛

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٠٩ ـ ٥١٠.

(٢) سورة القلم: الآية ٤٢.

فيخرُّون له سُجَّداً»[1].

ومن حمل الآية على ذلك قال: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾[2]: مطابق لقوله ﷺ: «فيكشف عن ساقه؛ فيخرون له سُجَّداً». وتنكيره للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يكشف عن ساقٍ عظيمةٍ؛ جلَّت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظيرٌ أو مثيلٌ أو شبيهٌ.

قالوا: وحمل الآية على الشدة لا يصحُّ بوجهٍ، فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال: كشفت الشدة عن القوم، لا كشف عنها[3]، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾[4]. وقال: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾[5].

فالعذاب والشدة: هو المكشوف؛ لا المكشوف عنه، وأيضاً فهناك تحدث الشدة وتشتد، ولا تُزال إلا بدخول الجنة، وهناك لا يُدعون إلى السجود؛ وإنما يُدعون إليه أشدَّ ما كانت الشدَّة)[6].

فهذا تقريرٌ لاتفاق أهل السنة والجماعة في باب معرفة الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ ـ الحديث رقم (٧٤٣٩) ـ ٥/ ٢٣٢١ ـ ٢٣٢٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب معرفة طريق الرؤية ـ الحديث رقم (١٨٣) ـ ١/ ١٦٧ ـ ١٧١]، وأوله: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر».

(٢) سورة القلم: الآية ٤٢.

(٣) انظر: إبطال التأويلات لأخبار الصفات لأبي يعلى ١/ ١٥٩ ـ ١٦٣.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٥٠.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٧٥.

(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٥٢.

وأسمائه وصفاته؛ وعدم وقوع أدنى نزاعٍ بينهم فيه، وهذا من أوجه الاستدلال على مدى عنايتهم الفائقة بهذا الباب.

والاختلاف في كون الآية المشار إليها: هل هي من آيات الصفات أو لا: لا يستلزم اختلاف أهل السنة والجماعة في إثبات تلك الصفة أم لا، بل كلُّهم متفقون فيما بينهم على إثبات هذه الصفة من دليلٍ خارجٍ عن موضع النزاع، وهذا يدلُّ على أنهم (ـ بحمد الله ـ لم يتنازعوا في مسألةٍ واحدةٍ من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلُّهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة ـ كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم ـ ؛ لم يسوموها تأويلاً، ولم يُحرِّفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يُبدوا لشيءٍ منها إبطالاً؛ ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحدٌ منهم: يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقَّوها بالقبول والتسليم؛ وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلَّها أمراً واحداً، وأجروها على سنن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين[1]، وأقرُّوا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقانٍ مبينٍ، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه: كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه)[2].

---

(١) اختلف في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [سورة الحجر: الآية ٩١]، فقيل: معناه فرقاً وأنواعاً، وقيل: معناه جعلوه مقسماً أقساماً؛ يؤمن ببعضه ويكفر بآخر.

انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٥٧١ ـ ٥٧٢، إيجاز البيان عن معاني القرآن للنيسابوري ١/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي ٣/ ١١١ ـ ١١٢.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٤٩.

المسألة الثالثة:

تقريره أن بعض آيات الأحكام أشكلت على الصحابة؛ ووقع بينهم التنازع فيها، وأما آيات الأسماء والصفات فلم يتنازعوا في شيءٍ منها.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في آيات الأسماء والصفات: (من شرح الله لها صدره؛ ونوَّر لها قلبه: يعلم أن دلالتها على معانيها أظهر من دلالة كثيرٍ من آيات الأحكام على معانيها.

ولهذا آيات الأحكام: لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصَّة من الناس، وأما آيات الأسماء والصفات: فيشترك في فهمها الخاصُّ والعامُّ ــ أعني: فهم أصل المعنى؛ لا فهم الكنه والكيفية ــ .

ولهذا أشكل على بعض الصحابة[1] قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾[2]، حتى بيُّن لهم بقوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، ولم يُشكل عليه ولا على غيره قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[3]؛ وأمثالها من آيات الصفات.

---

(١) هو: عدي بن حاتم ــ رضي الله عنه ــ ؛ حيث قال: «لما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ قال: يا رسول الله؛ إني جعلتُ تحت وسادتي عقالين: عقالاً أبيض وعقالاً أسود؛ أعرف الليل من النهار، فقال رسول الله ﷺ: إن وسادتك لعريضٌ، إنما هو سواد الليل وبياض النهار»، كما في صحيح البخاري [كتاب الصوم/ باب قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ ــ الحديث رقم (١٩١٦) ــ ٢/ ٥٦٩ ــ ٥٧٠]، وصحيح مسلم [كتاب الصيام/ باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر ــ الحديث رقم (١٠٩٠) ــ ٢/ ٧٦٦ ــ ٧٦٧]، واللفظ له.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

وأشكل على عمر بن الخطاب آية الكلالة[1]، ولم يشكل عليه أول الحديد[2] وآخر الحشر[3] وأول سورة طه[4] ونحوها من آيات الصفات)[5].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (قد تنازع الناس في المحكم والمتشابه تنازعاً كثيراً، ولم يُعرف عن أحدٍ من الصحابة قطُّ أن المتشابهات: آياتُ الصفات، بل المنقول عنهم يدلُّ على خلاف ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأشربة/ باب ما جاء في أن الخمر: ما خامر العقل من الشراب ـ الحديث رقم (٥٥٨٨) ـ ٤/ ١٧٩٣ ـ ١٧٩٤]، ومسلم في صحيحه [كتاب التفسير/ باب في نزول تحريم الخمر ـ الحديث رقم (٣٠٣٢) ـ ٤/ ٢٣٢٢] من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ ، وأوله: «خطب عمر على منبر رسول الله ﷺ».

(٢) قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝﴾ [الآيات ١ ـ ٥].

(٣) قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ [الآيات ٢٢ ـ ٢٤].

(٤) قوله تعالى: ﴿طه ۝ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۝ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۝ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۝﴾ [الآيات ١ ـ ٨].

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢١٠ ـ ٢١١.

فكيف تكون آيات الصفات: متشابهة عندهم؛ وهم لا يتنازعون في شيءٍ منها، وآيات الأحكام: هي المحكمة؛ وقد وقع بينهم النزاع في بعضها؟ وإنما هذا قول بعض المتأخرين[1])[2].

فهذا تقريرٌ لعظيم عناية أهل السنة والجماعة بهذا الباب وإحكامهم له، ولا أدلَّ على ذلك من اجتماع كلمتهم فيه؛ وعدم وقوع خلافٍ بينهم في شيءٍ من مسائله.

وقد عصم أهلَ السنة والجماعة في هذا الباب؛ وحال بينهم وبين وقوع الخلف فيه: تمسُّكُهم بالنصوص الشرعية؛ والنطقُ بما نطقت به.

المسألة الرابعة:

تقريره أن أهل السنة والجماعة هم أعلم الأمة بتوحيد الأسماء والصفات؛ وأشدُّهم له تعظيماً؛ وانتصاراً له؛ وذباً عنه، فلا ينطقون فيه إلا بما نطقت به النصوص.

لما كان أهل السنة والجماعة أعلمَ الأمة بربِّهم ــ تبارك وتعالى ــ؛ وأعرفَهم بمعاني أسمائه الحسنى وصفاته العلى: كانوا (أعظم الناس إثباتاً للصفات)[3]، وأبعدهم (عن أن يصفوا الله إلا بما وصف به نفسه؛ ووصفه به

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٤ ــ ٣٠٦] ثمانية عشر مثالاً ــ تشتدُّ حاجة كلِّ مسلم إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب ــ لحال أهل الأهواء والبدع؛ الذين يستمسكون بالمتشابه في ردِّ المحكم، فإن لم يجدوا لفظاً متشابهاً غير المحكم يردُّونه به: استخرجوا من المحكم وصفاً متشابهاً وردُّوه به.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢١٣ ــ ٢١٤.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٤٧.

رسوله)[1] ﷺ.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ مسألة علم أهل السنة والجماعة بأسماء الله تعالى وصفاته؛ وأنهم أعلم الأمة بنصوصها؛ وأشدُّهم لها تعظيماً وانتصاراً؛ وذبًّا عن حرماتها، وبيان تقريره فيما يأتي:

أولاً: تقريره أن أهل السنة والجماعة هم أعلم الأمة بربهم ــ تبارك وتعالى ــ وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ وما يجب له ويمتنع عليه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (السلف الماضين: الذين هم أعلم الأمة بهذا الشأن) أي: بما وصف الله تعالى به نفسه؛ وبما وصفه به رسوله ﷺ نفياً وإثباتاً، وأشدُّ تعظيماً لله وتنزيهاً له عما لا يليق بجلاله)[2].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (فما جاءهم من الصفات عن المعصوم: تلقَّوه بالقبول، وقابلوه بالمعرفة والإيمان والإقرار؛ لعلمهم بأنه صفةُ مَن لا شبيه لذاته ولا لصفاته)[3].

فهذا تقريرٌ لعناية أهل السنة والجماعة بباب أسماء الله تعالى وصفاته، وأن من أمارة هذه العناية: هو علمهم بما يجب ويمتنع على الله ــ سبحانه وتعالى ــ فيه، والعلم بحقائق هذا الباب ومعانيه: هو الذي يبعث في نفوس أهل السنة والجماعة التعظيم والإجلال لله ــ سبحانه وتعالى ــ؛ والنأي عن وصفه بغير كماله الواجب له.

ثانياً: تقريره أن الله ــ تبارك وتعالى ــ أجلُّ في صدور أهل السنة والجماعة من أن يصفوه بغير ما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٤٢.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٨ ــ ٢٢٩.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٩.

الجلال، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في المعارضين للوحي بعقولهم: (خصومكم من أهل السنة والحديث؛ فهم لا يقولون بتشبيهكم ولا بتشبيه إخوانكم) أي: المشبهة المحضة (وإن كان تشبيهُكم شراً من تشبيههم.

وإنما يصفون الله بصفات كماله ونعوت جلاله، ويثبتون أفعاله حقيقة لا مجازاً؛ كما يثبتون ذاته وصفاته، ولا يُشبِّهون الله بخلقه ولا يُمثِّلونه بهم.

والله ــ سبحانه ــ أجلُّ في صدورهم وأعظم في قلوبهم من أن يُشبِّهوه بخلقه؛ أو ينفوا عنه صفات كماله وأفعاله؛ فيُشبِّهونه بالجامدات العادمة للكمال وقبوله)[1].

فهذا تقريرٌ لعناية أهل السنة والجماعة بباب أسماء الله تعالى وصفاته؛ وأنه أجلُّ وأعظم في صدورهم من أن يُحرِّفوا كلمه عن مواضعه.

وحقيقة تعظيم أهل السنة والجماعة لهذا العلم وإجلالهم له: هو تقديسهم لنصوصه؛ وعملهم بما تُوجبه.

ثالثاً: تقريره أن أهل السنة والجماعة يدينون بنصوص الأسماء والصفات أنَّى توجَّهت ركائبها؛ ويستقرُّون معها حيث استقرَّت مضاربها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (ما ذنب أهل السنة والحديث إذا نطقوا بما نطقت به النصوص، وأمسكوا عما أمسكت عنه، ووصفوا الله بما وصف به نفسه ووصفه رسوله، وردُّوا تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين ــ الذين عقدوا ألوية الفتنة، وأطلقوا أعنَّة المحنة، وقالوا على الله وفي الله بغير علم ــ ؟

فردُّوا باطلهم، وبيَّنوا زيفهم، وكشفوا إفكهم، ونافحوا عن الله ورسوله)[2].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٣١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٦٢.

فهذا تقريرٌ لعناية أهل السنة والجماعة بنصوص هذا الباب؛ وتعظيمها وتقديسها ورعاية حقوقها، وإن من لوازم هذا التقديس والتعظيم لنصوص هذا الباب: الذبَّ عن حرماتها؛ والانتصار لها؛ والتعظيم لها؛ والتقديم لها على ما خالفها.

رابعاً: تقريره أن أهل السنة والجماعة هم الذابُّون عن حرمة نصوص الأسماء والصفات؛ المنتصرون لها، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (فيا لله العجب، أو لَيْسَ أهلُها) أي: أهلُ نصوص الوحي (والذابُّون عنها؛ والمنتصرون لها والمعظِّمون لها؛ والمخالفون لأجلها آراء الرجال؛ المقدِّمون لها على ما خالفها: أعرف بها أيضاً منك وممن اتبعته؟) أي: من ضعفاء البصائر وخفافيشها (فَلِمَ كان من خالفها وعزلها عن اليقين؛ وزعم أن الهدى والعلم لا يُستفاد منها؛ وأنها أدلَّةٌ لفظيةٌ لا تُفيد شيئاً من اليقين؛ ولا يجوز أن يُحتجَّ بها على مسألةٍ واحدةٍ من مسائل التوحيد والصفات؛ ويُسمِّيها الظواهر النقلية؛ ويُسمِّي ما خالفها القواطع العقلية؛ فَلِمَ كان هؤلاء أحقَّ بها وأهلها؟ وكان أنصارها والذابون عنها؛ والحافظون لها هم: أعداؤها ومحاربوها؟)[1].

فهذا تقريرٌ لمسألة علم أهل السنة والجماعة بأسماء الله تعالى وصفاته؛ وأنهم أعلم الأمة بنصوصها، وأشدُّهم لها تعظيماً وانتصاراً؛ وذباً عن حرماتها.

والعلم بنصوص أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ والتعظيم لها؛ والذبُّ عن حرماتها: هو من أمارات عناية أهل السنة والجماعة بهذا الباب، لذا فهم يُبادرون إلى تلقِّيه بالقبول والتسليم؛ ويُسارعون إلى العمل بما فيه والتحكيم.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٧٥.

المسألة الخامسة:

أن أهل السنة والجماعة يتلقّون حديث رسول الله ﷺ في باب الأسماء والصفات بالقبول، ويعتقدون حقيقة ما دلّ عليه على القطع واليقين.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ: (إنهم كانوا يجزمون بما يُحدِّث به أحدُهم عن رسول الله ﷺ، ولم يقل أحدٌ منهم لمن حدَّثه عن رسول الله ﷺ: خبرُك خبرٌ واحدٌ؛ لا يُفيد العلمَ حتى يتوافر، وتوقُّف من توقَّف منهم حتى عضده آخرٌ منهم: لا يدلُّ على ردِّ خبر الواحد عن كونه خبرٌ واحدٌ؛ وإنما كان يستثبت أحياناً نادرة جدًّا إذا اسْتُخبر.

ولم يكن أحدٌ من الصحابة ولا أهلُ الإسلام بعدهم يشكُّون فيما يُخْبِرُ به أبو بكرٍ الصديق عن رسول الله ﷺ؛ ولا عمرُ ولا عثمانُ ولا عليٌّ ولا عبد الله بن مسعود وأُبَيُّ بن كعب وأبو ذرٍّ ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمر وأمثالهم من الصحابة، بل كانوا لا يشكُّون في خبر أبي هريرة ــ مع تفرُّده بكثيرٍ من الحديث ــ، ولم يقل له أحدٌ منهم يوماً واحداً من الدهر: خبرك خبرٌ واحدٌ لا يفيد العلم.

وكان حديث رسوله ﷺ أجلَّ في صدورهم من أن يُقابل بذلك، وكان المُخبِرُ لهم أجلُّ في أعينهم وأصدق عندهم من أن يقول له مثل ذلك، وكان أحدهم إذا روى لغيره حديثاً عن رسول الله ﷺ في الصفات: تلقَّاه بالقبول، واعتقد تلك الصفة به على القطع واليقين؛ كما اعتقد رؤية الربِّ وتكليمه؛ ونداءه يوم القيامة لعباده بالصوت الذي يسمعه البعيد كما يسمعه القريب؛ ونزوله إلى سماء الدنيا كلَّ ليلةٍ؛ وضحكه وفرحه؛ وإمساك سماواته على أصبع من أصابع يده؛ وإثبات القدم له.

من سمع هذه الأحاديث ممن حدَّث بها عن رسول الله ﷺ؛ أو عن صاحبٍ: اعتقد ثبوت مقتضاها بمجرَّد سماعها من العدل الصادق، ولم يسترب فيها حق، حتى إنهم ربما تثبَّتوا في بعض أحاديث الأحكام؛ حتى يستظهروا بآخر، كما استظهر عمر ــ رضي الله عنه ــ برواية أبي سعيد الخدريِّ على خبر أبي موسى، كما استظهر أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ برواية محمد بن مسلمة على رواية المغيرة بن شعبة في توريث الجدَّة، ولم يطلب أحد منهم الاستظهار في رواية أحاديث الصفات ألبتة، بل كانوا أعظم مبادرة إلى قبولها وتصديقها؛ والجزم بمقتضاها؛ وإثبات الصفات بها من المخبر لهم بها عن رسول الله ﷺ.

ومن له أدنى إلمام بالسنة والتفاتٍ إليها يعلم ذلك، ولولا وضوح الأمر في ذلك: لذكرنا أكثر من مائة موضع.

فهذا الذي اعتمده نفاة العلم عن أخبار رسول الله: خرقوا به إجماع الصحابة ــ المعلوم بالضرورة ــ وإجماع التابعين وإجماع أئمة الإسلام، ووافقوا به المعتزلة والجهمية والرافضة[1]

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الرافضة في مواضع متعددة من كتبه؛ ووصفهم: بالخصال الذميمة؛ والخلال الوخيمة.
فمن ذلك: قوله في [إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣١٠]: (الرافضة: من أبعد الناس عن العلم والدين، عمروا المشاهد؛ وأخربوا المساجد). وقال في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٢١٦] ــ في شأن اليهود ــ: (وُصفوا بالتحريف في القرآن دون غيرهم من الأمم، ودرج على آثارهم: الرافضة، فهم أشبه بهم من القذة بالقذة). وقال في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٣٩٣]: (أما غالية الجهمية: فكغلاة الرافضة؛ ليس للطائفتين في الإسلام نصيبٌ، ولذلك أخرجهم جماعةٌ من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملَّة). وقال في [حادي الأرواح إلى بلاد =

والخوارج[1] ـــ الذين انتهكوا هذه الحرمة ـــ ، وتبعهم بعض الأصوليين

= الأفراح ص٣٦١]: (الرافضة: الذين هم بحبائل الشيطان متمسِّكون، ومن حبل الله منقطعون، وعلى مسبَّة أصحاب رسول الله عاكفون، و للسُّنَّة وأهلها محاربون، ولكلِّ عدوٍّ لله ورسوله ودينه مسالمون). وقال في [مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٧٨]: (تجد الرافضة: أبعد الناس من الإخلاص، وأغشُّهم للأئمة والأمة؛ وأشدُّهم بُعْداً عن جماعة المسلمين، فهؤلاء أشدُّ الناس غِلّاً وغِشاً بشهادة الرسول والأمة عليهم؛ وشهادتهم على أنفسهم بذلك، فإنهم لايكونون قطُّ إلا أعواناً وظهراً على أهل الإسلام، فأيُّ عدوٍّ قام للمسلمين: كانوا أعوان ذلك العدوِّ وبطانته، وهذا أمرٌ قد شاهدته الأمة منهم، ومن لم يشاهد: فقد سمع منه ما يُصِمُّ الآذان ويُشْجي القلوب).

وانظر في نشأتهم؛ وفرقهم؛ ومعتقدهم: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٣/ ١٧٩ ـــ ١٨٨، ذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين لليافعي ص٧١ ـــ ٨٨، رسالة في الردِّ على الرافضة لمحمد بن عبد الوهاب ص٥ ـــ ٥٢.

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـــ رحمه الله تعالى ـــ الخوارج في مواضع متعددة من كتبه؛ ووصفهم: بشنيع الخصال؛ ووضيع الخلال.

فمن ذلك: قوله في [إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٤٠٥]: (النبي ﷺ قد أمر بقتال الخوارج، وأخبر أنهم شرُّ قتلى تحت أديم السماء، وأنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السَّهْم من الرميَّة، ودينهم: تكفير المسلمين بالذنوب). وقال في [تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته ١٢/ ٢٩٨]: (الذي صح عن النبي ﷺ ذمُّهم من طوائف أهل البدع: هم الخوارج، فإنه قد ثبت فيهم الحديث من وجوهٍ كلِّها صحاح، لأن مقالتهم حدثت في زمن النبي ﷺ). وقال في [إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ١١٠]: (أخرجت الخوارج قتال الأئمة والخروج عليهم بالسيف في قالب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). وقال في [الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص٥٦]: (ردَّت الخوارج من الأحاديث الدالة على الشفاعة وخروج أهل الكبائر من الموحدين من النار؛ بما فهموه من ظاهر القرآن). =

والفقهاء، وإلا فلا يُعرف لهم سلفٌ من الأئمة بذلك، بل صرَّح الأئمة بخلاف قولهم)[1].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (من المعلوم لكل ذي حسٍّ سليم وعقلٍ مستقيم: استفاضة أحاديث الرؤية والنداء؛ والنزول والتكليم؛ وغيرها من الصفات، وتلقِّي الأمة لها بالقبول أعظم بكثير من استفاضة حديث اختلاف المتبايعين؛ وحديث: «لا وصية لوارث»[2]؛ وحديث فرض

= وانظر في نشأتهم؛ وفرقهم؛ ومعتقدهم: الفَرْق بين الفِرَق للبغدادي ص٩١ ــ ١٢٩، عقائد الثلاث والسبعين فرقة لليمني ١/ ١٦ ــ ٤٢، الخوارج: تأريخهم وآراؤهم الاعتقادية وموقف الإسلام منها للدكتور عواجي ص١٥ ــ ٥٤٥.

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٢٧ ــ ٥٢٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٧٦٦٦) ــ ٢٩/ ٢١٥]، والترمذي في جامعه [أبواب الوصايا/ باب ما جاء لا وصية لوارث ــ الحديث رقم (٢١٢١) ــ ٣/ ٦٢١ ــ ٦٢٢] والنسائي في سننه [كتاب الوصايا/ باب إبطال الوصية لوارث ــ الحديث رقم (٣٦٤٣) ــ ٦/ ٥٥٧]، وابن ماجه في سننه [كتاب الوصايا/ باب لا وصية لوارث ــ الحديث رقم (٢٧١٢) ــ ٣/ ٣١٠] من حديث عمرو بن خارجة ــ رضي الله عنه ــ .
وصححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: الحديث رقم (٢١٢١) ــ ٢/ ٤٣٠].
كما أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٢٢٩٤) ــ ٣٦/ ٦٢٨]، وأبو داود في سننه [كتاب الوصايا/ باب ما جاء في الوصية للوارث ــ الحديث رقم (٢٨٧٠) ــ ٣/ ٢٩٠ ــ ٢٩١]، والترمذي في جامعه [أبواب الوصايا/ باب ما جاء لا وصية لوارث ــ الحديث رقم (٢١٢٠) ــ ٣/ ٦٢٠ ــ ٦٢١]، وابن ماجه في سننه [كتاب الوصايا/ باب لا وصية لوارث ــ الحديث رقم (٢٧١٣) ــ ٣/ ٣١٠ ــ ٣١١] من حديث أبي أمامة الباهلي ــ رضي الله عنه ــ .
وصححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود: الحديث رقم (٢٨٧٠) ــ ٢/ ٢٠٧].
كما أخرجه ابن ماجه في سننه [كتاب الوصايا/ باب لا وصية لوارث ــ الحديث =

الجدَّة، بل لا نسبة بين استفاضة أحاديث الصفات واستفاضة هذه الأحاديث، فهل يسوغ لعاقلٍ أن يقول: إن هذه توجب العلم، وتلك لا توجبه؛ إلا أن يكون مُباهتاً؟)[1].

فهذا تقريرٌ لتلقِّي سلف الأمة ــ من الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ــ أخبار رسول الله ﷺ في هذا الباب بالقبول؛ مع القطع واليقين بما تضمنته، ويُصاحب هذا التلقِّي من سلف الأمة لنصوص هذا الباب: فهمُ حقائقها ومعرفة معانيها، فإذا ما أشكل عليهم فهم شيءٍ منها: راموا بسؤالهم النبي ﷺ معرفة الجواب؛ المتضمن لبيان وجه الحقِّ فيه والصواب، وقد أجابَ عن كلِّ ما سألوه: (النبي ﷺ بما شفى وكفى)[2].

المسألة السادسة:

تقريره أن أهل السنة والجماعة كانوا إذا استشكلوا شيئاً من باب الأسماء والصفات سألوا عن الجواب المُزيل للإشكال والمُبيِّن للصواب.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين، فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق، وكانوا إذا استشكلوا شيئاً سألوه عنه؛ وكان يُجيبهم بما يُزيل الإشكال ويُبيِّن الصواب[3]، فهم العارفون بأصول الدين حقاً؛ لا أهل البدع والأهواء من

= رقم (٢٧١٤) ــ ٣/ ٣١١] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «إن الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه».
وصححه الألباني في [صحيح سنن ابن ماجه: الحديث رقم (٢٢١١) ــ ٢/ ٣٦٧].

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٢٩.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ١٦.

(٣) تقدم تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لتعريف الرسول ﷺ أمته توحيد الأسماء والصفات أتمَّ تعريف، وبيانه ــ بضرب الأمثلة وذكر الأدلة ــ أن =

المتكلمين ومن سلك سبيلهم)[1].

فهذا تقريرٌ لعناية سلف الأمة من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ بباب الأسماء والصفات، وتناهيهم في معرفة جواب ما يُشكل عليهم من مسائله؛ وطلب وجه الصواب عليه من دلائله، حيث (كانوا يُوردون على رسول الله ﷺ ما يُشكل عليهم من الأسئلة والشبهات؛ فيجيبهم عنها بما يُثْلِجُ صدورهم)[2].

وقد ضرب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأمثلة على عناية الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ بهذا الباب؛ ومعرفتهم بحقائقه؛ وفقههم في معانيه، فمن ذلك قوله: (كان الصحابة يستدلُّون على إذن الربِّ تعالى وإباحته بإقراره وعدم إنكاره عليهم في زمن الوحي، وهذا استدلالٌ على المراد بغير لفظٍ؛ بل بما عُرِفَ من مُوجب أسمائه وصفاته؛ وأنه لا يُقرُّ على باطلٍ حتى يُبَيِّنه.

وكذلك استدلال الصديقة الكبرى أم المؤمنين خديجة بما عرفته من حكمة الربِّ تعالى وكمال أسمائه وصفاته ورحمته: أنه لا يُخزي محمداً ﷺ، فإنه يصل الرحم؛ ويحمل الكلَّ؛ ويُقري الضيف؛ ويُعين على نوائب الحق[3]، وأنَّ مَن كان بهذه المثابة: فإن العزيز الرحيم ــ الذي

= النبي ﷺ كان يُجيب صحابته عمَّا يُشكل عليهم من أسماء الله وصفاته.

(1) التبيان في أقسام القرآن ص٩١.

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٨٠.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب بدء الوحي/ باب (٣) ــ الحديث رقم (٣) ــ ١/ ٢٢]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ــ الحديث رقم (١٦٠) ــ ١/ ١٣٩ ــ ١٤٢] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ، وأوله: «أول ما بُدِىء به رسول الله ﷺ: من الوحي».

هو أحكم الحاكمين؛ وإله ربِّ العالمين ـ لا يُخزيه؛ ولا يُسلِّط عليه الشيطان.

وهذا استدلالٌ منها قبل ثبوت النبوة والرسالة؛ بل استدلالٌ على صحتها وثبوتها في حقٍّ من هذا شأنه، فهذا معرفة منها بمراد الربِّ تعالى؛ وما يفعله من أسمائه وصفاته وحكمته ورحمته وإحسانه؛ ومجازاته المحسن بإحسانه؛ وأنه لا يُضيع أجر المحسنين)[1].

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ: (في تفسير علي بن أبي طلحة[2] عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3]. قال: (الذين يقولون: إن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ)[4].

وهذا من فقه ابن عباس؛ وعلمه بالتأويل؛ ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات، فإن أكثر أهل الكلام لا يُوفون هذه الجملة حقَّها؛ وإن كانوا يُقرُّون بها.

فمنكروا القدر وخلق أفعال العباد: لا يُقرُّون بها على وجهها، ومنكروا أفعال الربِّ تعالى القائمة به: لا يُقرُّون بها على وجهها؛

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٢١٩.

(٢) هو: أبو الحسن علي بن سالم بن المخارق الهاشمي، توفي سنة ثلاث وأربعين ومائة.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٠/ ٤٩٠ ـ ٤٩٤، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي (حوادث ووفيات ١٤١ ـ ١٦٠هـ) ص١٢.

(٣) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٤) صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم ص٤١٤.

بل يُصرِّحون أنه لا يقدر على فعلٍ يقوم به، ومن لا يُقرُّ بأن الله ــ سبحانه ــ كلَّ يومٍ في شأن؛ يفعل ما يشاء: لا يُقِرُّ بأن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ومن لا يُقرُّ بأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء؛ وأنه ــ سبحانه ــ مُقلِّب القلوب حقيقة؛ وأنه إن شاء أن يُقيم القلب أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه: لا يُقرُّ بأن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ومن لا يُقرُّ بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السماوات والأرض؛ وأنه ينزل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا يقول: من يسألني فأعطيه؛ من يستغفرني فأغفر له؛ وأنه نزل إلى الشجرة فكلَّم موسى كليمه منها؛ وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها؛ وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده؛ وأنه يتجلَّى لهم يضحك؛ وأنه يُريهم نفسه المقدسة؛ وأنه يضع رجله على النار فتضيق بأهلها وينزوي بعضها إلى بعض؛ إلى غير ذلك من شؤونه وأفعاله؛ التي من لم يُقر بها: لم يُقر بأنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

فيا لها كلمةً من حبر الأمة وترجمان القرآن ــ رضي الله عنه ــ)[1].

فهذا تقريرٌ لعناية صحابة رسول الله ﷺ بهذا الباب العظيم؛ ومعرفتهم لحقائقه؛ وفقههم لمعانيه.

فكيف يسوغ للخلف أن يدَّعو: قصور أهل السنة والجماعة بهذا الباب؛ وأن غاية أحدهم: هي الإيمان بألفاظ نصوصه؛ والإعراض عن تدبُّر معانيها وتفقُّهها وتعقُّلها؟ وهل هذه الدعوى ــ العارية من البيِّنة ــ إلا بسبب جهلهم المُركَّب بعناية أهل السنة والجماعة بهذا الباب؟ وهل قُدِحَ زنادُ الخُلْف والنزاع في هذا الباب: إلا بسبب الجهل بحال السلف والأصحاب؟ فالله المستعان؛ وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٣٠ ــ ١٣١.

المسألة السابعة:

تقريره أن ما وقع في الأمة من البدع والضلال في باب الأسماء والصفات كان من أسبابه عدم معرفة طريقة السلف فيه، وتفضيل طريقة الخلف عليها؛ ووصفها بأنها أعلم وأحكم.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (ما وقع في هذه الأمة من البدع والضلال: كان من أسبابه التقصير في إظهار السنة والهدى.

فإنَّ الجهل المركب الذي وقع فيه أهل التعطيل والنفي في توحيد الله وأسمائه وصفاته كان من أعظم أسبابه: التقصير في إثبات ما جاء به الرسول عن الله؛ وفي معرفة معاني أسمائه وآياته.

حتى إن كثيراً من المنتسبين إلى السنة يعتقدون أن طريقة السلف: هي الإيمان بألفاظ النصوص؛ والإعراض عن تدبُّر معانيها وتفقُّهها وتعقُّلها، فلما أفهموا النفاةَ والمعطلةَ أن هذه طريقة السلف: قال من قال منهم: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

لأنه اعتقد أن طريقة الخلف متضمنة لطلب معاني نصوص الإثبات؛ ولنفي حقائقها وظواهرها ـ الذي هو باطل عنده ـ ، فكانت متضمنة للعلم والتنزيه، وكان فيها علمٌ بمعقولٍ وتأويلٌ لمنقولٍ، ومذهب السلف عنده: عدم النظر في النصوص؛ وفهم المراد منها دون النظر إلى التعارض والاحتمالات، وهذا عنده أسلم، لأنه إذا كان اللفظ يحتمل عدة معاني: فحمله على بعضها دون بعض: مخاطرة، وفي الإعراض عن ذلك: سلامة من هذه المخاطرة.

فلو تبيَّن لهذا البائس وأمثاله: أن طريقة السلف إنما هي: إثبات ما دلَّت عليه النصوص من الصفات وفهمها وتدبُّرها وتعقُّل معانيها، وتنزيه

الرب عن تشبيهه فيها بخلقه كما ينزهونه عن العيوب والنقائص، وإبطال طريقة النفاة المعطلة وبيان مخالفتها لصريح المعقول كما هي مخالفة لصحيح المنقول: علم أن طريقة السلف أعلم وأحكم وأسلم؛ وأهدى إلى الطريق الأقوم، وأنها تتضمن تصديق الرسول فيما أخبر؛ وفهم ذلك ومعرفته، ولا يناقض ذلك إلا ما هو باطلٌ وكذبٌ وخيالٌ.

ومن جعل طريقة السلف: عدم العلم بمعاني الكتاب والسنة، وعدم إثبات ما تضمناه من الصفات: فقد أخطأ خطأً فاحشاً على السلف، كما أن من قال على الرسول: إنه لم يُبعث بالإثبات؛ وإنما بُعث بالنفي: كان من أعظم الناس افتراء عليه.

فهؤلاء المعطلة مفترون على الله ورسوله؛ وعلى سلف الأمة؛ وعلى العقول والفطر وما نصبه الله من الأدلة العقلية والبراهين اليقينية)[1].

فهذه خاتمة كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المبحث العظيم، وهو حريٌّ بأن (يُعضَّ عليه بالنواجذ؛ وتُثنى عليه الخناصر، وتُعقد عليه القلوب والأفئدة)[2]؛ لما تضمَّنه من تقرير عناية أهل السنة والجماعة بهذا العِلْم الشريف والمقصد المنيف، وبيان أن عنايتهم بباب الأسماء والصفات ــ المتضمن إثبات حقائقه؛ وفهم معانيه ــ: هي منزلة أهل السنة والجماعة (الكبرى التي منها يتزوَّدون؛ وفيها يتَّجرون؛ وإليها دائماً يتردَّدون)[3].

فلا يزن العبد ــ الناصحُ نفسه؛ المريدُ نجاتها ــ مسائل هذا الباب

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٣٣ ــ ١١٣٤.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٢٩٨.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٤٠.

إلا بميزان أهل السنة والجماعة ـ المبني على فهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ـ ، فإنه (الميزان العادل؛ الذي وزنه غير عائل)[(١)].

ومن طفَّف في الميزان، واستبدل نصح نفسه بالغشِّ؛ ونجاتها بالهلكة والخسران: فقد رضي لنفسه (بالدُّون، وباع حظَّه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأخسِّ الثمن ـ صفقة خاسرٍ مغبون ـ ، فسيعلم أيَّ حظٍّ أضاع إذا فاز المُحبُّون؛ وخسر المبطلون؟)[(٢)].



(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٥٥.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٤.



المبحث الثاني:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في إثبات توحيد الأسماء الحسنى والصفات العُلى

إنَّ وسطية أهل السنّة والجماعة ـ المتقدِّمة الذِّكْر ـ في توحيد الأسماء والصِّفات لها علاماتٌ وأماراتٌ؛ منها: توسُّط أئمَّتُها في باب الإثبات بين من غلا فيه حتى شبَّه إلهه بالصنم؛ وبين من جفا عنه حتى شبَّه إلهه بالعدم، في حين نجد أن أهل السنة والجماعة قد توسَّطوا في مقام الإثبات؛ فأثبتوا لله ـ عزَّ وجلّ ـ كلَّ ما أثبته لنفسه المقدسة في كتابه المبين؛ وما أثبته له رسوله الأمين ﷺ في سنته المطهرة من الأسماء الحسنى والصفات العلى، مُقتفين في هذا المقام آثار الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فيما جاؤوا به من الإثبات المُفصَّل لهذا الباب.

كما نجد أن أهل السنة والجماعة قد تقيَّدوا بنصوص الوحيين المطهَّرين في مقام الإثبات؛ والتزموا النطق بما نطقت به، مع إيمانهم بحقائقها؛ وفقههم لمعانيها على وجه يتضمن ـ بإزاء إثبات الكمال اللائق بالله تعالى ـ نفي ضدِّه.

وقد كان للإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ جهدٌ مباركٌ في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في إثبات توحيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، حيث تضمن تقريره بيان جملة من المُتعلَّقات بمقام الإثبات؛ مما هو مودعٌ في المطالب الآتية الذكر:

المطلب الأول: جهوده في تقرير موافقة أهل السنة والجماعة للرسل ـ عليهم السلام ـ فيما جاءت به من الإثبات المفصل في الأسماء الحسنى والصفات العلى.

المطلب الثاني: جهوده في تقرير إثبات أهل السنة والجماعة للأسماء الحسنى والصفات العلى كما جاءت في الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: جهوده في تقرير إيمان أهل السنة والجماعة بمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى على الوجه اللائق بالله تعالى.

المطلب الرابع: جهوده في تقرير إثبات أهل السنة والجماعة لكمال الله تعالى المتضمن لنفي ضدِّه.

* * *

المطلب الأول:

جهوده في تقرير موافقة أهل السنة والجماعة للرسل ـ عليهم السلام ـ فيما جاءت به من الإثبات المُفصَّل في الأسماء الحسنى والصفات العلى

إنَّ تفصيل أهل السنّة والجماعة لباب الإثبات لم يكن بدعاً من الأمر، وإنما اتبعوا في ذلك سنن المرسلين؛ واقتفوا آثار النبيين، فأنبياء الله تعالى ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ جاؤوا عن الله ـ عزَّ وجلّ ـ بالإثبات المُفصَّل فيما يتعلّق بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهذا الإثبات المُفصَّل: هو فرقٌ ما بين رؤوس المثبتة: من أنبياء الله تعالى ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ؛ وأتباعهم البررة عبر القرون المُفضَّلة، وبين رؤوس النفاة: من أعداء الله تعالى وأعداء رسله وعباده المؤمنين؛ وأتباعهم الفجرة من أرباب العقول المُعطِّلة.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير موافقة أهل السنة والجماعة للرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في الإثبات المفصل للأسماء الحسنى والصفات العلى، وإيضاح جهده في تقرير هذا المطلب مضمَّنٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أن رؤوس المثبتة الذين جاؤوا بالإثبات المفصل: هم أنبياء الله تعالى وأتباعهم على ممر الأعصار وفي جميع الأمصار.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (رؤوس المثبتة: آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وإبراهيم الخليل وسائر الأنبياء من ذريته، وموسى الكليم وعيسى.

وجاء خاتمهم وآخرهم وأعلمهم بالله سيِّد ولد آدم: محمد بن عبد الله، عبد الله ورسولُه، فجاء بالإثبات المفصَّل الذي لم يأت رسولٌ بمثله، فصرَّح من إثبات الصفات والأفعال بما لم يُصرِّح به نبيٌّ قبله؛ وذلك لكمال عقول أمته؛ وكمال تصديقهم؛ وصحة أذهانهم.

فرسول الله ﷺ حامل لواء الإثبات، وتحت ذلك اللواء: آدم وجميع الأنبياء وأتباعهم، ثم المهاجرون والأنصار وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان وسائر الصحابة، ثم التابعون لهم بإحسان ممن لا يحصيهم إلا الله، ثم أتباع التابعين، ثم أئمة الفقه في الأعصار والأمصار ـ منهم الأئمة الأربعة ـ، ثم أهل الحديث قاطبة وأئمة التفسير والتصوُّف والزهد والعبادة المقبولون عند الأمة ممن لا يحصي عددهم إلا الله.

فهل سُمِعَ في الأولين والآخرين بمثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والعشرة المشهود لهم بالجنة وسائر المهاجرين والأنصار؟

وهل سُمِعَ بقوم أتمَّ عقولاً وأصحَّ أذهاناً وأكملَ علماً ومعرفة وأزكى قلوباً من هؤلاء؛ الذين قال الله فيهم: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[1]؟

---

(١) سورة النمل: الآية ٥٩.

قال غير واحد من السلف: (هم أصحاب محمد ﷺ)[1].

قال فيهم عبد الله بن مسعود: (من كان منكم مستناً: فليستنَّ بمن قد مات، فإن الحيَّ لا تُؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمدٍ، أبرُّ هذه الأمة قلوباً؛ وأعمقها علماً؛ وأقلّها تكلُّفاً[2]، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقَّهم، وتمسَّكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)[3]. فهؤلاء أمراء هذا الشأن.

وأما الجند والعساكر: فالتابعون كلُّهم، ثم الذين يلونهم، مثل: مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وعبد الله بن المبارك[4]،

---

(١) أخرجه الطبري في [جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٠/ ٢]، وابن أبي حاتم في [تفسير القرآن العظيم: رقم (١٦٤٩٥) ــ ٩/ ٢٩٠٦] عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ، كما أخرج الطبري في جامعه [٢٠/ ٢] نحوه عن سفيان الثوري.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في [منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ٢/ ٧٩]: (قول عبد الله بن مسعود: (كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً؛ وأعمقَها علماً؛ وأقلَّها تكلُّفاً): كلامٌ جامعٌ، بيَّن فيه حسن قصدهم ونيَّاتهم ببرِّ القلوب، وبيَّن فيه كمال المعرفة ودقَّتها بعمق العلم، وبيَّن فيه تيسُّر ذلك عليهم وامتناعهم من القول بلا علمٍ بقلَّة التكلُّف).

(٣) حكاه القرطبي في [الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٣] عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ.
وقد أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ١/ ٣٠٥ ــ ٣٠٦] عن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ، وكذا أخرجه ابن عبد البر في [جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٧] عن الحسن.

(٤) هو: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المروزي، أمير الأتقياء في وقته، ولد سنة ثمان عشرة ومائة، وتوفي لثلاث عشرة خلت من رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة؛ منصرفاً من الغزو، وهو ابن ثلاث وستين سنة. =

والليث بن سعد[1]، وإسحاق بن راهويه، والإمام أحمد، والشافعي، وعلي ابن المديني[2]، ويحيى بن معين[3]، والبخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، ومحمد بن أسلم الطوسي، وأبي حاتم[4]

= انظر في ترجمته: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ١/ ٣٠٠ ـ ٣٠٩، صفة الصفوة لابن الجوزي ٤/ ١٣٤ ـ ١٤٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٣٧٨ ـ ٤٢١.

(١) هو: أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، عالم الديار المصرية، ولد في شعبان سنة أربع وتسعين، وتوفي يوم الجمعة للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ١٣٦ ـ ١٦٣، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية لابن أبي الوفاء ٢/ ٧٢٠ ـ ٧٢١، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ٢/ ٨٢.

(٢) هو: أبو الحسن علي بن عبد الله بن جعفر السعدي مولاهم البصري، أمير المؤمنين في الحديث، ولد بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، وتوفي بسامراء ليومين بقيا من ذي القعدة سنة أربع وثلاثين ومائتين.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ٤٥٨ ـ ٤٧٣، طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٨، ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ٣/ ١٣٨ ـ ١٤١.

(٣) هو: أبو زكريا يحيى بن معين بن عون الغطفاني المري مولاهم البغدادي، شيخ المحدثين، ولد سنة ثمان وخمسين ومائة، وتوفي لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، ودفن بالبقيع.
انظر في ترجمته: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٤٠٢ ـ ٤٠٧، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٣١/ ٥٤٣ ـ ٥٦٨، سير أعلام النبلاء للذهبي ١١/ ٧١ ـ ٩٦.

(٤) هو: محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الغطفاني، شيخ المحدثين، ولد سنة خمس وتسعين ومائة، وتوفي في شعبان سنة سبع وسبعين ومائتين. =

وأبي زرعة[1] الرازيين، وأمثالهم.

وأما عامَّتهم: فأهل الدين والصدق والورع والزهد والعبادة والإخلاص؛ واجتناب المحارم وتوقي المآثم.

وأما رؤوس النفاة والمعطلين: ففرعون، إذ يقول: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾[2]؛ وجنوده كلُّهم، ونمرود بن كنعان، هذا خصم إبراهيم الخليل؛ وذاك خصم موسى الكليم.

وأرسطاطاليس[3] وبقراطيس[4] وأضرابهما، وطمطم

= انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/ ٣٤٩ ــ ٣٧٢، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ١٢/ ٢٨٤ ــ ٢٨٥، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣/ ٢٤٧ ــ ٢٦٣.

(١) هو: عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ، سيد الحفاظ، ولد سنة مائتين، وتوفي في آخر يوم من سنة أربع وستين ومائتين.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/ ٣٢٨ ــ ٣٤٩، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠/ ٣٢٦ ــ ٣٣٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣/ ٦٥ ــ ٨٥.

(٢) سورة غافر: الآيتان ٣٦ ــ ٣٧.

(٣) هو: أرسطاطاليس؛ أو أرسطو، فيلسوف يوناني، تتلمذ على أفلاطون، وربى الإسكندر الأكبر، عاش ما بين سنة أربع وثمانين وثلاثمائة إلى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة قبل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ.
انظر في ترجمته: قصة الحضارة لديورانت ٧/ ٤٩٢ ــ ٥١٥، المنجد في الأعلام ص٣٧، الموسوعة العربية الميسرة ١/ ١١٧.

(٤) هو: بقراطيس؛ أو أبقراط، أكبر الأطباء اليونانيين الأقدمين، عاش ما بين سنة ستين وأربعمائة إلى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة قبل ميلاد =

وتنكلوشا[1] وابن وحشيه[2] وأَضرابهم، وابن سينا والفارابي؛ وكلٌّ فيلسوفٍ لا يؤمن بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا لقائه.

وأمَّا عوامُّهم: فاعتبر عوامَّ النصيرية[3] ....

= المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ.
انظر في ترجمته: قصة الحضارة لديورانت ٧/ ١٨٤ ـ ١٩٤، المنجد في الأعلام ص٣، الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٧.

(١) هما طمطم الهندي؛ وتنكلوشا البابلي، ولم أقف عليهما.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية في [الرد على المنطقيين ص٢٨٦ ـ ٢٨٧]: (صنف تنكلوشا البابلي كتابه في درجات الفلك، وكذلك شرك الهند وسحرهم من هذا، مثل كتاب طمطم الهندي).
وقال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: البيت رقم (٣٥٤٢) ـ ص٢٦١]:
(أنَّى يُقاوم ذا العساكر طمطمٌ ... أو تنكلوشا أو أخو اليونان)
انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١/ ٤٤٨، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم لابن عيسى ٢/ ٢٧٤.

(٢) هو: أبو بكر أحمد بن علي بن المختار النبطي؛ المعروف بـ: ابن الوحشية الكلداني، من أهل العراق، اشتهر بتآليفه في علم الفلاحة والكيمياء، وله اشتغالٌ بالسحر والشعوذة، وهو من أعيان القرن الثالث الهجري.
انظر في ترجمته: الفهرست لابن نديم ص٣٧٨، معجم المطبوعات العربية والمعربة لسركيس ١/ ٢٨١، الإعلام للزركلي ١/ ١٧٠ ـ ١٧١.

(٣) النصيرية: هم أتباع: أبـي شعيب محمد بن نصير البصري النميري؛ المتوفى سنة سبعين ومائتين، وهي إحدى طوائف الشيعة التي آل بها الغلو في علي بن أبـي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى تأليهه.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ في جواب سؤالٍ وَرَدَ عليه في النصيرية القائلين باستحلال الخمر؛ وتناسخ الأرواح؛ وقدم العالَم؛ وإنكار البعث والنشور والجنة والنار وغير ذلك ـ: (هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية ـ هم وسائر أصناف =

والإسماعيلية(1) ....

= القرامطة الباطنية ــ : أكفر من اليهود والنصارى؛ بل وأكفر من كثيرٍ من المشركين، وضررهم على أمة محمدٍ: أعظم من ضرر الكفار المحاربين؛ مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جُهَّال المسلمين: بالتشيُّع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه؛ ولا بأمرٍ ولا نهيٍ ولا ثوابٍ ولاعقابٍ ولا جنةٍ ولا نارٍ؛ ولا بأحدٍ من المرسلين قبل محمد ﷺ؛ ولا بملةٍ من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأوَّلونه على أمورٍ يفترونها؛ يدَّعون أنها: علم الباطن) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٥/ ١٤٩ ــ ١٥٠].

وانظر في معتقدهم: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٩٢ ــ ١٩٣، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية لأبي زهرة ص٥٥ ــ ٥٦، دراسات في الفرق للدكتور طعيمة ص٣٨ ــ ٧١.

(1) الإسماعيلية: هم أتباع: محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وهي إحدى الطوائف التي أظهرت الرفض؛ وأبطنت الكفر المحض، وقد آل بها الغلو في إمامها إلى الزعم بأن أدوار الإمامة انتهت به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ في جواب سؤالٍ وَرَدَ عليه في حكم الدرزية والنصيرية ــ : (هم من الإسماعلية القائلين: بأن محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله؛ وهم: أعظم كفراً من الغالية، يقولون بقدم العالَم وإنكار المعاد وإنكار واجبات الإسلام ومحرماته، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب، وغايتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله؛ أو مجوساً، وقولهم مركبٌ من قول الفلاسفة والمجوس، ويُظهرون التشيُّع نفاقاً، والله أعلم) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٥/ ١٦٢].

وانظر في معتقدهم: فضائح الباطنية للغزالي ص٢١ ــ ٥٧، الإسماعيلية: تاريخ وعقائد لإحسان إلهي ظهير ص٢٦٧ ــ ٣٩٣، العقائد الباطنية وحكم الإسلام =

والـدُّرْزِيَّـة[1] والحـاكميـة[2] والطـرقيـة. . . . .

= فيها للدكتور طعيمة ص٩٣ ــ ١٣٤، أصول الإسماعيلية للدكتور السلومي ٢/ ٤١٣ ــ ٦٦٢.

(١) الدرزية: هم أتباع: محمد بن إسماعيل الدرزي ــ المعروف بـ: نشتكين ــ؛ المقتول سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وهي إحدى الطوائف الباطنية المؤلهة للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ في ردٍّ على نبذٍ لطوائف من الدروز ــ: (كفر هؤلاء: مما لا يختلف فيه المسلمون، بل من شكَّ فى كفرهم: فهو كافرٌ مثلهم، لا هُم بمنزلة أهل الكتاب ولا المشركين؛ بل هم الكفرة الضالُّون، فلا يُباح أكل طعامهم، وتُسبى نساؤُهم وتُؤخذ أموالُهم؛ فإنهم زنادقةٌ مرتدُّون، لا تُقبل توبتُهم؛ بل يُقتلون أينما ثُقِفَوا ويلعنون كما وصفوا، ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبَوَّابة والحِفَاظ، ويجب قتل علمائهم وصلحائهم؛ لئلا يضلُّوا غيرهم، ويحرم النوم معهم فى بيوتهم؛ ورفقتهم والمشي معهم؛ وتشييع جنائزهم إذا عُلِمَ موتها، ويحرم على ولاة أمور المسلمين إضاعة ما أمر الله من إقامة الحدود عليهم بأيِّ شيءٍ يراه المقيم لا المُقام عليه، والله المستعان؛ وعليه التكلان) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٥/ ١٦٢].

وانظر في معتقدهم: عقيدة الدروز: عرض ونقض للدكتور الخطيب ص١١٥ ــ ١٩٥، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين: الخوارج والشيعة للدكتور جلي ص٣٣٥ ــ ٣٥٤، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١/ ٤٠٠ ــ ٤٠٥.

(٢) الحاكمية: هم أتباع: أبي علي المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله العبيدي ــ الملقب بـ: الحاكم بأمر الله الفاطمي ــ؛ المقتول سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وهي إحدى الطوائف الباطنية المُؤلِّهة للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله؛ والمعتقدين حياته؛ والحالفين بغيبته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار =

والعرباء[1].

وعُبَّادهم: البخشية[2] والطوسية. وعلماؤهم: السحرة، وعساكرهم: المشركون والقرامطة[3] ـ الذين هم أعظم الأمم إفساداً للدنيا

= للفرقة الناجية: البيتان رقم (١٦٣٤ ـ ١٦٣٥) ـ ص١٣٨ ـ ١٣٩]:

(وكذاك أفراخ القرامطة الألى   قد جاهروا بعداوة الرحمنِ
كالحاكمية والألى وَالَوْهُمُ   كأبي سعيد ثم آل سنانِ).

قال ابن عيسى في [شرحه ١/ ٥٠٧]: (هم شيعة: الحاكم العبيدي؛ المعتقدون فيه الإلـٰهية، وهو: أبو علي منصور بن نزار العزيز بالله ابن معد المعز لدين الله العبيدي، لأتباعه فيه من الاعتقادات الخبيثة: ما تُصَمُّ عنه الآذان؛ ويقضي على معتقده بالزور والبهتان).

وانظر في معتقدهم: عقيدة الدروز: عرض ونقض للدكتور الخطيب ص٣٧ ـ ٧٤، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها لعواجي ١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٥.

(١) لم أقف على الطرقية والعرباء.

(٢) أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع من كتبه إلى: البخشية، ووصفهم بأنهم من علماء المشركين وشيوخهم وعبادهم الذين لم يدخلوا في الإسلام، وهم من الترك والهند وغيرهما، ولم يذكر شيئاً من معتقدهم، ولم أقف عليهم.

انظر: الصفدية ١/ ١٩١ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ٣/ ٤٤٦، النبوات ١/ ١٥٨، التوسل والوسيلة ١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤، الدعاء المذكور في آخر سورة البقرة ١٤/ ١٦٦ [رسالتان مودعتان ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) القرامطة: هم أتباع: حمدان بن الأشعث ـ الملقب بـ: القرمطي؛ لقصر قامته وساقيه ـ، وهي إحدى الطوائف الباطنية التي أظهرت تشيُّعها ومحبتها وموالاتها لأهل البيت؛ وأبطنت الإلحاد والإباحية والزندقة.

قال ابن الجوزي في [المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥]: (اعلم أن مذهبهم ظاهره: الرفض، وباطنه: الكفر، ومفتتحه: حصر مدارك =

والـديـن ـــ[1].

= العلوم في قول الإمام المعصوم؛ وعزل العقول أن تكون مدركة للحقِّ لما يعترضها من الشبهات، والمعصوم يطَّلع من جهة الله تعالى على جميع أسرار الشرائع، ولا بُدَّ في كلِّ زمانٍ من إمامٍ معصومٍ يُرجع إليه، هذا مبدأ دعوتهم. ثم يَبين أن غاية مقصدهم: نقض الشرائع، لأن سبيل دعوتهم ليس متعيِّناً في واحدٍ، بل يُخاطبون كلَّ فريقٍ بما يُوافق رأيه، لأن غرضهم: الاستتباع. وقد ثبت عنهم أنهم يقولون: بإلهين قديمين؛ لا أول لوجودهما من حيث الزمان؛ إلا أن أحدهما علَّةٌ لوجود الثاني) إلى آخر ما حكاه من معتقداتهم الكفرية؛ وآرائهم الإباحية.

انظر في معتقدهم: الكامل في التاريخ لابن الأثير ٧/ ٤٤٤ ــ ٤٤٩، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها لعواجي ١/ ٢٨٦ ــ ٢٩٣، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١/ ٣٨١ ــ ٣٨٥.

(١) وقـد تـوصلـت هـذه الفـرق البـاطنيـة إلـى إفسـاد الـدنيـا والـديـن؛ وتعطيـل شرائـع الأنبياء والمرسليـن: بإظهـار التشيُّـع لأهل البيت؛ ومحبتهـم وموالاتهم، كمـا قـال الإمام ابـن قيـم الجوزيـة ــ رحمه الله تعالى ــ في [الصواعـق المرسلة علـى الجهميـة والمعطلـة ٢/ ٤٤١ ــ ٤٤٣]: (إن مـن شـأن النـاس: تعظيـم كـلام مـن يَعْظُـم قـدره فـي نفـوسهـم؛ وأن يتلَّقـوه بـالقبـول والميـل إليـه، وكلَّمـا كـان ذلـك القـائـل أعظـم فـي نفـوسهـم: كـان قبـولهـم لكـلامـه أتـمَّ؛ حتى إنهم ليُقدِّمونه على كلام الله ورسولـه، ويقولون: هو أعلم بالله ورسوله مِنَّا. وبهـذه الطـريـق: تـوَّصـل الـرافضـة والبـاطنيـة والإسمـاعيليـة والنصيـريـة إلـى تنفيق باطلهم وتأويلاتهم؛ حتى أضافوها إلى أهل بيت رسول الله ﷺ لما علموا أن المسلميـن متفقـون علـى محبتهـم وتعظيمهـم ومـوالاتهـم وإجـلالهـم، فـانتمـوا إليهـم؛ وأظهـروا مـن محبتهـم ومـوالاتهـم واللهـج بـذكـرهـم وذكـر منـاقبهـم مـا خَيَّـل إلـى السـامـع أنهـم أوليـاؤهـم وأولـى النـاس بهـم، ثـم نفقـوا بـاطلهـم وإفكهـم بنسبتـه إليهـم. فـلا إلـه إلا الله؛ كـم مـن زنـدقـةٍ وإلحـادٍ =

فليعتبر العاقل خواصَّ هؤلاء وهؤلاء؛ وعوامَّ هؤلاء وهؤلاء، وليقابل بين الطائفتين، وحينئذ يتبين له: أنه ما كان ولا يكون ولي لله: إلا من أهل الإثبات، وما كان ولا يكون ولي للشيطان: إلا من أهل النفي والتعطيل)[1].

فرؤوس المثبتة الذين جاؤوا بالإثبات المفصل: هم أنبياء الله تعالى وأتباعهم، ورؤوس النفاة والمعطلين: هم أعداء أنبياء الله تعالى وأتباعهم؛ وذلك على ممر الأعصار وفي جميع الأمصار، ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾[2]؟

وقد بلَّغ أنبياء الله تعالى ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ما أُنزل إليهم من ربِّهم، فنطقوا في باب أسمائه وصفاته بالإثبات المُفصَّل؛ الذي نطق به الكتاب المُنزَّل.

= وبدعةٍ وضلالةٍ قد نفقت في الوجود بنسبتها إليهم؟ وهم براء منها براءة الأنبياء من التجهم والتعطيل؛ وبراءة المسيح من عبادة الصليب والتثليث؛ وبراءة رسول الله ﷺ من البدع والضلالات).

وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى إفساد الفرق الباطنية عامة؛ والقرامطة خاصة للدنيا والدين؛ وتأويلاتهم التي عطلَّت شرائع الأنبياء والمرسلين في مواضع متعددةٍ من كتبه، منها: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٣٣١؛ ٤/ ٢٥٠، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩؛ ٣٨٠؛ ٣٨٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠؛ ٣٦٩ ـ ٣٧٠؛ ٣/ ١٠٥٠؛ ١٠٧٤؛ ٤/ ١٤٠٦، المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص١٢١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٥١٨؛ ٣/ ٦٤.

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٧ ـ ١١٢١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٨١.

المسألة الثانية:

تقريره أن الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ نطقوا في باب الأسماء والصفات بالإثبات المُفصّل.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ (إنَّ الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ لم يسكتوا عن الكلام في هذا الباب) أي: باب الأسماء والصفات (بل تكلَّموا فيه بغاية الإثبات المناقض لما عليه الجهمية المعطلة.

وعند الجهمية: أن الساكت عنه خيرٌ من المتكلِّم فيه بالإثبات المناقض لتعطيلهم، والمتكلِّم فيه بالنفي والتعطيل ــ الذي يُسمُّونه تنزيهاً ــ خيرٌ من الساكت عنه، فجعلوا المُتكلِّم فيه بالإثبات آخرَ المراتب ــ وهو أحسنها ــ .

ولا ريب أن هذا يستلزم: غاية القدح في الرسل؛ والتنقُّص لهم، ونسبتهم إلى القبيح؛ ووصفهم بخلاف ما وصفهم الله به، ومضمون هذا: أنهم لم يهدوا الخلق؛ ولم يُعلِّموهم الحقَّ؛ بل لبَّسوا عليهم؛ ودلَّسوا وأضلُّوهم، وعرَّضوهم للجهل المركَّب، ولو تركوهم في جهلهم البسيط[1]: لكان خيراً لهم، بل تركوهم في حيرة مُذبذبين، لا يعرفون الحقَّ من الباطل؛ ولا الهدى من الضلال.

فعند هؤلاء الضالين: كلام الأنبياء لا يشفي عليلاً ولا يروي غليلاً، ولا يُبيِّن الحقَّ من الباطل؛ ولا الهدى من الضلال)[2].

---

(١) قال الجرجاني في [التعريفات ص١٠٨]: (الجهل البسيط: هو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالماً. الجهل المركب: هو عبارة عن اعتقادٍ جازمٍ غير مطابقٍ للواقع).

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٤٤ ــ ١١٤٥.

فهذا تقريرُ أن الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ نطقوا في باب الأسماء والصفات بالإثبات المُفصَّل؛ المُخالف لطريقة النفاة المعطلين؛ الذين قدحوا في رسل الله؛ وتنقَّصوهم؛ ونسبوهم إلى القبيح.

وأنبياء الله تعالى ورسله ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ إنما كانوا رؤوس المثبتة: لأنهم جاؤوا بالإثبات المفصَّل؛ الموافق لما جاء به الكتاب المُنزَّل، وأعداء الله تعالى وأعداء رسله وعباده المؤمنين إنما كانوا رؤوس النفاة: لأنهم (ينقمون من أهل الإثبات: إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله)[1]؛ المناقض لما جاؤوا به من النفي المفصَّل؛ المفارق لما جاء به الكتاب المُنزَّل.

المسألة الثالثة:

تقريره أن الإثبات المُفصّل: هو فَرْقُ ما بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين: أن توحيد الرسل: إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل؛ وعبادته وحده لا شريك له، فلا يُجعل له نداً في قصدٍ ولا حبٍّ ولا خوفٍ ولا رجاءٍ ولا لفظٍ ولا حلفٍ ولا نذرٍ، بل يرفع العبدُ الأندادَ له من قلبه وقصده ولسانه وعبادته؛ كما أنها معدومةٌ في نفس الأمر لا وجود لها ألبتة، فلا يجعل لها وجوداً في قلبه ولسانه.

وأما توحيد المعطلين: فنفي حقائق أسمائه وصفاته وتعطيلها، ومن أمكنه منهم تعطيلها من لسانه: عطَّلها؛ فلا يذكرها ولا يذكر آية تتضمنها ولا حديثاً يُصرِّح بشيءٍ منها، ومن لم يُمكنه تعطيل ذكرها: سطا عليها

(١) التبيان في أقسام القرآن ص١٢٣.

بالتحريف ونفي حقيقتها، وجعلها اسماً فارغاً لا معنى له؛ أو معناه من جنس الألغاز والأحاجي)(١).

فهذا تقريرُ أن الإثبات المُفصَّل: هو فَرْقُ ما بين توحيد الأنبياء والمرسلين وتابعيهم عبر القرون المُفضَّلة؛ وبين توحيد المناوئين لهم من أرباب العقول المُعطِّلة، فإن (الرسل جاءوا بالإثبات المفصل للأسماء والصفات والأفعال، فجاء أرباب هذا العقل بالنفي المُفصَّل لها؛ وادعوا التعارض بين دليل هذا الإثبات ودليل النفي)(٢).

وما حكاه الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ يُبيِّن مدى عناية أهل السنة والجماعة؛ وموافقتهم لرسل الله ـ عليهم السلام ـ في باب إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى(٣)، حيث جاؤوا في هذا الباب بالإثبات المفصل؛ تأسياً واقتداء بهم؛ وعملاً بقول ربِّهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾(٤).



---

(١) الروح ص٥٧٦ ـ ٥٧٧.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٠٩.

(٣) وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى موافقة أهل السنة والجماعة فيما جاؤوا به من الإثبات المفصل لأنبياء الله تعالى ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٢٧٤٥ ـ ٢٧٦٠؛ ٤٠٩٤ ـ ٤١٠٥؛ ٤٥٩٤)].

(٤) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير إثبات أهل السنة والجماعة للأسماء الحسنى والصفات العُلى كما جاءت في الكتاب والسنة

إنَّ أهل السنة والجماعة يقدرون حكم الشرع ـ المتضمن لقول الله تعالى وقول رسوله ﷺ ـ حقَّ قدره، ويُنزلونه المنزلة السنيَّة والدرجة العليَّة اللائقة به، فهو (العَلَم الذي شمَّر إليه المحبُّون، واللواء الذي أمَّه العارفون)[1]، لذا نجد أنهم في باب الأسماء والصفات: أثبتوا الله ـ عزَّ وجلّ ـ ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ دون عرضها على آراء الخلق الكاسدة ولا عقول البشر الفاسدة، بل جعلوا الميزان العادل في الإثبات: ما دلَّت عليه النصوص الشرعية مما هو لائقٌ بالله ـ سبحانه وتعالى ـ من الكمال والجمال والجلال، فهم لرسوخ قدمهم في العلم بالله ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى: كانوا هم القائمين بحقٍّ بواجب الشهادة لله تعالى بالوحدانية؛ المتوسِّطين بين طائفتي التعطيل والتمثيل.

وقد حرص الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ على تقرير

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٨٤.

هذا المنهج القويم والسلوك المستقيم الذي اعتقده أهل السنة والجماعة في مقام الإثبات، وبيان ذلك يتجلّى في المسائل الثلاث الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أنَّ أهل السنة والجماعة إنما يتلقَّون أسماء الله تعالى وصفاته من النصوص السمعية الصحيحة لا بآراء الخلق القبيحة.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (نزَّه ــ سبحانه وتعالى ــ نفسه عما يصفه به العباد؛ إلا ما وصفه به المرسلون، فقال: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾[١]. قال غير واحد من السلف: (هم الرسل)[٢].

وقال الله ــ سبحانه وتعالى ــ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾[٣].

فنزَّه نفسه عما يصفه به الخلق، ثم سلَّم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرُّده بالأوصاف التي يستحقُّ عليها كمال الحمد.

ومن ها هنا أخذ إمام أهل السنة محمد بن إدريس الشافعي ــ قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه ــ خطبة كتابه؛ حيث قال: (الحمد لله الذي هو كما وصف نفسه؛ وفوق ما يصفه به خلقه)[٤].

فأثبت في هذه الكلمة: أن صفاته إنما تُتَلقَّى بالسمع لا بآراء الخلق، وأن أوصافه فوق ما يصفه به الخلق، فتضمنت هذه الكلمة إثبات صفات

(١) سورة الصافات: الآيتان ١٥٩ ــ ١٦٠.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) سورة الصافات: الآيات ١٨٠ ــ ١٨٢.

(٤) الرسالة للشافعي ص٨.

الكمال الذي أثبته لنفسه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل، وأن ما وصف به نفسه: فهو الذي يُوصف به؛ لا ما وصفه به الخلق.

ثم قال[1]: (والحمد لله الذي لا يُؤدَّى شُكر نعمةٍ من نعمه؛ إلا بنعمةٍ منه تُوجب على مُؤدِّي شُكر ماضي نعمه بأدائها نعمةً حادثةً يجب عليه شكره بها)[2].

فأثبت في هذا القدر أن فعل الشكر إنما هو بنعمته على الشاكر، وهذا يدلُّ على أنه ــ رحمه الله ــ مثبت للصفات والقدر)[3].

فهذا تقريرُ أن حمد الله ــ سبحانه وتعالى ــ على تفرُّده بالأوصاف التي يستحقُّ عليها كمال الحمد والمجد: إنما يُتَلقَّى بالسمع لا بآراء الخلق، فما وصف الله تعالى به نفسه في كلامه أو كلام رسوله ﷺ: فهو الواجب وصفه به.

وهذا هو سبيل الراسخين في العلم بالله تعالى ومعرفته؛ الذين استحقَّوا سمة العدالة والخيرية والوسطية بين طائفتي التعطيل والتمثيل.

المسألة الثانية:

تقريره أنَّ إثبات ما دلَّت عليه النصوص السمعية من الكمال اللائق بالله ــ سبحانه وتعالى ــ؛ وتنزيهه عمَّا لا يليق به: هو شأن الراسخين في العلم والمعرفة بالله تعالى.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (إنَّ المسموع كلَّه يُعَرِّف به وبصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه؛ ووعده ووعيده؛ وأمره ونهيه؛

---

(١) هو: في ترتيب النسخة المطبوعة: قبل ذلك.

(٢) الرسالة للشافعي ص٧ ــ ٨.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٥٢ ــ ١٥٤.

وعدله وفضله، وهذا الشهود يُنال بالسماع بالله ولله وفي الله ومن الله.

أما السماع به: فأن لا يسمع وفيه بقيةٌ من نفسه، فإن كانت فيه بقيةٌ: قطعها كمالُ تعلُّقِه بالمسموع، فيكون سماعه بقيوميته مجرداً من التفاته إلى نفسه.

وأما السماع له: فأن يُجرِّد النفس في السماع من كلِّ إرادةٍ تُزاحم مراد الله منه؛ وتجمع قوى سمعه على تحصيل مراد الله من المسموع.

وأما السماع فيه: فشأنٌ آخر؛ وهو تجريد ما لا يليق نسبته إلى الحقِّ من وصفٍ أو سمةٍ أو نعتٍ أو فعلٍ مما هو لائقٌ بكماله، فيثبت له ما يليق بكماله من المسموع؛ ويُنزِّهه عمَّا لا يليق به.

وهذا الموضع لم يتخلَّص فيه إلا الراسخون في العلم والمعرفة بالله، وأضلَّ الله عنه أهل التحريف والتعطيل والتشبيه والتمثيل، وهدى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾[(1)])[(2)].

فهذا تقريرُ أن إثبات ما دلَّت عليه النصوص السمعية مما يليق بكمال الله تعالى: هو الموضع الذي هدى الله تعالى فيه أهل السنة والجماعة ــ الراسخين في العلم بالله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته ــ لما اختلف فيه أهل التعطيل والتمثيل.

لذا فإن أهل السنة والجماعة هم الطائفة الحقَّة التي قامت بواجب الشهادة لله ــ سبحانه وتعالى ــ بالوحدانية؛ دون ما سواها من سائر الطوائف.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٥٣٩ ــ ٥٤٠.

المسألة الثالثة:

تقريره أن القائمين بحقّ بواجب الشهادة لله تعالى بالوحدانية هم المثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه المقدسة وأثبته له رسوله ﷺ.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في الشهادة لله تعالى بالوحدانية؛ وموقف طوائف المعطلة منها: (هذه الشهادة العظيمة: كلٌّ هؤلاء هم بها غير قائمين، وهي متضمنةٌ لإبطال ما هم عليه وردِّه، كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون وردِّه، وهي مبطلةٌ لقول طائفتي الشرك والتعطيل، ولا يقوم بهذه الشهادة إلا أهل الإثبات؛ الذين يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات، ويعبدونه وحده لا يشركون به شيئاً.

وإذا كانت شهادته ـ سبحانه ـ تتضمن بيانه للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به؛ وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكَّنوا من العلم بها لم ينتفعوا ولم يقم عليهم بها الحجة، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يُبيِّنها؛ بل كتمها: لم ينتفع بها أحدٌ؛ ولم تقم بها حجةٌ، وإذا كان لا يُنتفع بها إلا ببيانها: فهو ـ سبحانه ـ قد بيَّنها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع؛ والبصر؛ والعقل.

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة القولية؛ المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله؛ وعُلُوِّه على عرشه فوق سبع سمواته؛ وتكلُّمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده تكلماً وتكليماً؛ حقيقة لا مجازاً، وفي هذا إبطال لقول من قال: إنه لم يرد من عباده ما دلَّت عليه آياته السمعية من إثبات معانيها وحقائقها التي وُضعت لها ألفاظها، فإن هذا ضدُّ البيان والإعلام؛ ويعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان، وقد ذم الله من

﴿كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾[1]، وأخبر أنه من أظلم الظالمين، فإذا كانت عند العبد شهادة من الله تُحقِّق ما جاء به رسوله من أعلام نبوته وتوحيد الرسل؛ وأن إبراهيم وأهل بيته كانوا على الإسلام كلهم؛ وكتم هذه الشهادة: كان من أظلم الظالمين، كما فعله أعداء رسول الله ﷺ من اليهود الذين كانوا ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾[2]، فكيف يُظنُّ بالله ــ سبحانه ــ أنه كتم شهادة الحقِّ التي يشهد بها الجهمية والمعتزلة والمعطلة؛ ولا يشهد بها لنفسه؛ ثم يشهد لنفسه بما يُضادُّها ويُناقضها ولا يُجامعها بوجهٍ ما؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

فإن الله ــ سبحانه ــ شهد لنفسه بأنه استوى على العرش؛ وبأنه القاهر فوق عباده؛ وبأن ملائكته يخافونه من فوقهم؛ وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر وتنزل من عنده به؛ وأن العمل الصالح يصعد إليه؛ وأنه يأتي ويجيء ويتكلم ويرضى ويغضب ويحب ويكره ويتأذى ويفرح ويضحك وأنه يسمع ويبصر؛ وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه؛ إلى غير ذلك مما شهد به لنفسه وشهد له به رسله، وشهدت له الجهمية بضد ذلك؛ وقالوا: شهادتنا أصحُّ وأعدل من شهادة النصوص، فإن النصوص تضمنت كتمان الحق وإظهار خلافه، فشهادة الرب تعالى تُكذِّب هؤلاء أشدَّ التكذيب؛ وتتضمن أن الذي شهد به قد بيَّنه وأوضحه وأظهره حتى جعله في أعلى مراتب الظهور والبيان؛ وأنه لو كان الحقُّ فيما يقوله المعطلة والجهمية: لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به ــ سبحانه ــ، فإن الحقَّ في نفس الأمر عندهم لم يشهد به لنفسه، والذي شهد به لنفسه وأظهره وأوضحه فليس يجوز بحقٍّ، ولا يجوز أن يُستفاد منه الحقُّ واليقين.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٦، سورة الأنعام: الآية ٢٠.

وأما آياته العيانية الخلقية والنظر فيها والاستدلال بها: فإنها تدلُّ على ما تدلُّ عليه آياته القولية السمعية، وآيات الربِّ: هي دلائله وبراهينه التي بها يعرفه العباد؛ وبها يعرفون أسماءه وصفاته وتوحيده وأمره ونهيه، فالرسل تُخبر عنه بكلامه الذي تكلَّم به؛ وهو آياته القولية، ويستدلُّون على ذلك بمفعولاته التي تشهد على صحة ذلك؛ وهي آياته العيانية، والعقل يجمع بين هذه وهذه، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل؛ فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة.

وهو ـ سبحانه ـ لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته؛ ومحبته للعذر وإقامته للحجة: لم يبعث نبياً من الأنبياء إلا ومعه آية تدلُّ على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾[5])[6].

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(٢) سورة النحل: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٤) سورة فاطر: الآية ٤.

(٥) سورة فاطر: الآية ٢٥.

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٨١ ـ ٤٨٤.

وما ذكره الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ يُبيِّن إيمان أهل السنة والجماعة بحقائق ما أُودع في الوحيين الشريفين من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن حقَّها: أن تُثبت ألفاظها؛ ويُؤمن بمعانيها.

❑ ❑ ❑

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير إيمان أهل السنة والجماعة بمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى على الوجه اللائق بالله تعالى

إنَّ معتقد أهل السنّة والجماعة في باب الأسماء والصفات يقوم بنيانه على تقوى من الله ورضوان، حيث تُتلقى أسماء الله تعالى وصفاته بالإيمان الصادق بمعانيها الجليلة اللائقة بالله ـ سبحانه وتعالى ـ .

فأهل السنة والجماعة صدَّقوا بحقائق الأسماء والصفات؛ وآمنوا بمعانيها، فكانت آيات بينات في صدورهم المطمئنة؛ لم يجدوا حرجاً وضيقاً من الأسماء ـ التي ما أنزل الله بها من سلطان ـ التي سمَّاها بها الجاهلون بهذا الباب من المعطلة والممثلة.

بل تضمن إيمانهم بها: إثباتها بلا تشبيه؛ وتنزيهها بلا تعطيل.

وقد قرر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في مثاني كتبه ما يتحلَّى به أهل السنة والجماعة من الإيمان بمعاني أسماء الله الحسنى وصفاته العلى على وجهٍ لا يليق إلا به ـ سبحانه وتعالى ـ ، ويتضح ذلك في المسائل الثلاث الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أن أهل السنة والجماعة اطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم إلى إثبات صفات الكمال لله تعالى بلا تشبيه؛ وتنزيهها بلا تعطيل، مع الإيمان بحقائقها.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في صفات الكمال: (بل هي آياتٌ بيناتٌ دالةٌ على أشرف المعاني وأجلِّها، قائمةٌ حقائقها في صدور الذين أوتوا العلم والإيمان ــ إثباتاً بلا تشبيهٍ، وتنزيهاً بلا تعطيلٍ ــ كما قامت حقائق سائر صفات الكمال في قلوبهم كذلك.

فكان الباب عندهم باباً واحداً.

قد اطمأنت به قلوبهم، وسكنت إليه نفوسهم، فأنسوا من صفات كماله ونعوت جلاله بما استوحش منه الجاهلون المُعطِّلون، وسكنت قلوبهم إلى ما نفر منه الجاحدون)[1].

فهذا تقريرُ أنَّ الإيمان بمعاني أسماء الله الحسنى وصفاته العلى على الوجه اللائق بالله تعالى ــ مع التبرىء من داءَي التعطيل والتمثيل ــ: هو الأمر الموجب لطمأنينة القلب؛ وسكون النفس.

وإنَّ كمال إيمان أهل السنة والجماعة بحقائق أسماء الله تعالى وصفاته ومعانيها: يُوجب لهم الأنس بكمالها وجمالها وجلالها؛ وعدم الوحشة من الأسماء المنفِّرة التي يُطلقها الجاهلون بحقائق هذا الباب؛ الجاحدون لمعانيه.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٩.

المسألة الثانية:

تقريره أنَّ أهل السنّة والجماعة يدينون لله تعالى بإثبات حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ والإيمان بمعانيها، ولا تُوحشهم المسمَّيات التي يبتدعها الجاهلون الجاحدون.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (ندين بإثبات الصفات وحقائق الأسماء؛ وإن سُمِّي تجسيماً، وندين بإثبات عُلُوِّ الله على عرشه فوق سماواته؛ وإن سُمِّي تحيزاً أو جهة، وندين بإثبات وجهه الأعلى ويديه المبسوطتين؛ وإن سُمِّي تركيباً، وندين بحبِّ أصحاب رسول الله ﷺ؛ وإن سُمِّي نصباً، وندين بأنه مُكلِّمٌ مُتكلِّمٌ حقيقة كلاماً يسمعه من خاطبه وأنه يُرى بالأبصار عياناً حقيقة يوم لقائه؛ وإن سُمِّي ذلك تشبيهاً)[1] .

فهذا تقريرُ أن أهل السنة والجماعة إنما ينطقون في مقام الإثبات بما نطقت به النصوص الشرعية، ولم يهولهم تشنيع المُشنِّعين لهم؛ وما يُحرِّفون به الكلم عن مواضعه .

وإن أهل السنة والجماعة إنما يُعوِّلون في فهم نصوص هذا الباب: على ما ساغ في لغة العرب ـ التي نطق بها الشارع الحكيم ـ واصْطُلِحَ عليه؛ ما لم يتضمن معنى مخالفاً لما عُلِمَ من إرادة الشارع الحكيم له .

المسألة الثالثة:

تقريره أنَّ أهل السنّة والجماعة إنما يفهمون معاني أسماء الله تعالى وصفاته بما ساغ من لغة العرب واصطلاحاتهم.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (ليس لأحدٍ أن يحمل كلام الله ورسوله على كلِّ ما ساغ في اللغة أو الاصطلاح لبعض

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٢٠ .

الشعراء أو الخطباء أو الكُتَّاب أو العامَّة؛ إلا إذا كان ذلك غير مخالفٍ لما عُلِمَ من وصف الربِّ تعالى وشأنه، وما تضافرت به صفاته لنفسه وصفات رسوله له، وكانت إرادة ذلك المعنى بذلك اللفظ مما يجوز ويصلح نسبتها إلى الله ورسوله)[1].

فهذا تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لإيمان أهل السنة والجماعة بمعاني أسماء الله تعالى وصفاته على الوجه اللائق به ـ سبحانه وتعالى ـ، وأن حقائق هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى ـ القائمة في صدورهم ـ: أوجبت لهم طمأنينة القلوب وسكن النفوس؛ فلم يستوحشوا بما استوحش منه المُعطِّلون والمُمثِّلون.



(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

المطلب الرابع:

جهوده في تقرير إثبات أهل السنّة والجماعة لكمال الله تعالى المتضمن لنفي ضدّه

إنَّ إثبات أهل السنّة والجماعة لأسماء الله وصفاته ـ المبني على موافقة الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ؛ والمُتلقَّى من الوحيين المطهرين: كتاب الله تعالى وسنة نبيّه ﷺ؛ والمستوجب إيمانهم بألفاظها ومعانيها ـ متضمنٌ لنفي ما يضادُّ هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ ويناقضها.

وقد بيَّن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقريره لمعتقد أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى: هذا الأمر العظيم؛ والأسَّ الجسيم، وأن إثبات أسماء الله تعالى وصفاته: (يتضمن وصفه بكلِّ كمالٍ، وذلك يستلزم براءته من كلِّ نقصٍ)[1].

وقد استفتح الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ كتابه: (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة) بتقرير هذا المطلب؛ فقال: (الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد ألا إلـه إلا الله وحده لا شريك له؛ الموصوف بصفات الجلال،

---

(١) الصلاة وحكم تاركها، ص١٧٢.

المنعوت بنعوت الكمال، المنزه عما يُضادُّ كماله من سلب حقائق أسمائه وصفاته؛ المستلزم لوصفه بالنقائص وشبه المخلوقين.

فنفي حقائق أسمائه: مُتضمنٌ للتعطيل والتشبيه، وإثبات حقائقها على وجه الكمال ــ الذي لا يستحقُّه سواه ــ : هو حقيقة التوحيد والتنزيه.

فالمعطل جاحدٌ لكمال المعبود، والممثل مُشبِّهٌ له بالعبيد، والمُوحِّد مُبيِّنٌ لحقائق أسمائه وكمال أوصافه)[1].

فقرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ أن إثبات ما يليق بالله تعالى من أسماء الجمال وصفات الكمال ونعوت الجلال: متضمنٌ لتنزيهه ــ سبحانه وتعالى ــ عما يُضادُّ كماله من سلب حقائق أسمائه وصفاته؛ المستلزم لوصفه بالنقائص والعيوب، وأن هذا الإثبات: هو حقيقة التوحيد والتنزيه.

ولما كان (إثبات صفات الكمال: أصل التوحيد، ومن تمام هذا الإثبات: تنزيهه ــ سبحانه ــ عن سمات المحدثين وخصائص المخلوقين)[2]: قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (ــ سبحانه ــ يستدلُّ بأسمائه على توحيده؛ ونفي الشرك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها: لم تدل على ذلك، كقول هارون لعبدة العجل: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[3]. وقوله ــ سبحانه ــ في القصة: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ۝٩٨﴾[4].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٤٧ ــ ١٤٨.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٦٦.

(٣) سورة طه: الآية ٩٠.

(٤) سورة طه: الآية ٩٨.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[1].

وقوله ــ سبحانه ــ في آخر سورة الحشر: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[2].

فسبَّح: نَزَّه نفسه عن شرك المشركين به؛ عقب تَمَدُّحِه بأسمائه الحسنى المقتضية لتوحيده؛ واستحالة إثبات شريكٍ له.

ومن تدبَّر هذا المعنى في القرآن: هبط به على رياضٍ من العلم حماها الله عن كلِّ أفاَّكٍ مُعرضٍ عن كتاب الله واقتباس الهدى منه، ولو لم يكن في كتابنا هذا إلا هذا الفصل وحده لكفى من له ذوقٌ ومعرفةٌ، والله الموفق للصواب)[3].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (وأيضاً فإنه ــ سبحانه ــ يجعل أسماءه دليلاً على ما يُنكره الجاحدون من صفات كماله، كقوله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[4])[5].

ومما تقدم ذكره؛ والإشارة إليه: يتَّضح جليًّا الجهد المشكور الذي بذله الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ وما تضمنه تقريره من

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٣.

(٢) سورة الحشر: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٢ ــ ٢٨٣.

(٤) سورة الملك: الآية ١٤.

(٥) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٣.

الإشارة إلى موافقة أهل السنة والجماعة للرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فيما جاؤوا به من الإثبات المفصل في هذا الباب، وأن إثباتهم له مبنيٌّ على ما تضمنته نصوص الكتاب والسنة، وأن إيمانهم بمعاني ما أثبتوه على وفق ما يليق بالله تعالى؛ مراعين في ذلك تضمن كمال الإثبات لنفي ضده من النقائص والعيوب.



المبحث الثالث:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في تنزيه توحيد الأسماء الحسنى والصفات العُلى

إنَّ معتقد أهل السنّة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات يقوم على قاعدتين عظيمتين؛ هما: الإثبات؛ والتنزية، وقد فارق أهل السنة والجماعة طريقة المشبهة؛ حيث خلى إثباتهم للأسماء الحسنى والصفات العلى من التشبيه، كما فارقوا طريقة المعطلة؛ حيث خلى تنزيههم للأسماء الحسنى والصفات العلى من التعطيل.

وقد تقدم في المبحث السابق معتقد أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى، ويليه في هذا المبحث: قسيمه المُتعلِّق بمعتقد أهل السنة والجماعة في تنزيه الأسماء الحسنى والصفات العلى.

وقد اعتنى أهل السنة والجماعة باقتفاء آثار أنبياء الله تعالى ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فيما جاؤوا به من النفي المجمل في الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ المتضمن لإثبات كمال ضدِّ المنفي، وخالفوا سبيل الذين أجرموا في هذا الباب من أهل البدعة والشناعة؛ الذين تنكَّبوا طريق أنبياء الله تعالى ورسله ـ عليهم السلام ـ وانحرفوا عنها، فجاؤوا في هذا الباب ببدعة مُضلَّة، حيث جاؤوا بالنفي المُفصَّل؛ الذي آل بهم إلى تشبيه ربِّهم بالعدم.

وكما أن أهل السنة والجماعة قد قدروا الله تعالى حقَّ قدره في مقام الإثبات؛ فلم يُثبتوا له من الأسماء والصفات إلا ما أثبته ــ سبحانه وتعالى ــ لنفسه؛ أو أثبته له رسوله ﷺ: فكذلك هم في مقام التنزيه؛ لم ينفوا عن الله تعالى إلا ما نفاه ــ سبحانه وتعالى ــ عن نفسه؛ أو نفاه عنه رسوله ﷺ، مع تضمن نفيهم للنقائص والعيوب عن الله تعالى: لإثبات كمال ضدِّ المنفي.

وقد أولى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا الجانب عناية بالغة، حيث قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ معتقد أهل السنة والجماعة في تنزيه الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ مبيناً مفارقة معتقدهم لأهل البدعة والشناعة.

وإيضاح كلامه ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المبحث يتجلَّى في المطالب الخمسة الآتية:

المطلب الأول: جهوده في تقرير موافقة أهل السنة والجماعة للرسل ــ عليهم السلام ــ فيما جاءت به من النفي المجمل في الأسماء الحسنى والصفات العلى.

المطلب الثاني: جهوده في تقرير نفي أهل السنة والجماعة لجميع ما نفاه الله تعالى عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ.

المطلب الثالث: جهوده في تقرير نفي أهل السنة والجماعة لجميع النقائص والعيوب عن الله تعالى.

المطلب الرابع: جهوده في تقرير نفي أهل السنة والجماعة المتضمن إثبات كمال ضدِّ المنفي.

المطلب الخامس: جهوده في تقرير حكم أهل السنة والجماعة فيما لم يرد نفيه ولا إثباته.

❑ ❑ ❑

المطلب الأول:

جهوده في تقرير موافقة أهل السنة والجماعة للرسل ـ عليهم السلام ـ فيما جاءت به من النفي المجمل في الأسماء الحسنى والصفات العُلى

إنَّ معتقد أهل السنّة والجماعة في النفي على وفق معتقدهم في الإثبات، فكما أنهم عنوا بموافقة أنبياء الله تعالى ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فيما جاؤوا به من الإثبات المفصل في باب الأسماء الحسنى والصفات العلى: فكذلك عنوا بموافقتهم فيما جاؤوا به من النفي المجمل في هذا الباب.

وقد أوضح الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقريره: معتقد أهل السنة والجماعة في مقام التنزيه؛ وأنهم يُوافقون أنبياء الله تعالى ورسله ـ عليهم السلام ـ فيما جاؤوا به من النفي المجمل؛ المتضمن لإثبات كمال ضدِّ المنفي، وأنه مناقضٌ ومعارضٌ من كلِّ وجهٍ لنفي أهل البدعة والشناعة؛ الذين جاؤوا بالنفي المفصَّل؛ الذي هو في حقيقته: نفيٌ صرفٌ وعدمٌ محضٌ؛ لا حمد فيه بوجهٍ، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: (الفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة: أن الرسل نزَّهوه ـ سبحانه ـ عن النقائص والعيوب التي نزَّه نفسه عنها؛ وهي المنافية لكماله وكمال ربوبيته وعظمته؛ كالسِّنة والنوم والغفلة والموت واللغوب؛ والظلم وإرادته والتسمِّي به؛ والشريك والصاحبة والظهير والولد؛ والشفيع بدون إذنه؛ وأن

يترك عباده سدى هملاً؛ وأن يكون خَلَقَهم عبثاً، وأن يكون خَلَقَ السماوات والأرض وما بينهما باطلاً لا لثوابٍ ولا عقابٍ؛ ولا أمرٍ ولا نهيٍ، وأن يُسوِّي بين أوليائه وأعدائه؛ وبين الأبرار والفجار؛ وبين الكفار والمؤمنين، وأن يكون في مُلكه ما لا يشاء أن يحتاج إلى غيره بوجهٍ من الوجوه، وأن يكون لغيره معه من الأمر شيءٌ؛ وأن يعرض له غفلةٌ أو سهوٌ أو نسيانٌ؛ وأن يُخلف وَعْدَه أو تُبدَّل كلماتُه، أو يُضاف إليه الشرُّ اسماً أو وصفاً أو فعلاً، بل أسماؤه كلُّها حسنى؛ وصفاته كلُّها كمالٌ؛ وأفعاله كلُّها خيرٌ وحكمةٌ ومصلحةٌ، فهذا تنزيه الرسل لربِّهم.

وأما المعطلون: فنزَّهوه عما وصف به نفسه من الكمال، فنزَّهوه عن أن يتكلَّم أو يُكلِّم أحداً، ونزَّهوه عن استوائه على عرشه؛ وأن تُرفع إليه الأيدي؛ وأن يصعد إليه الكلم الطيِّب؛ وأن ينزل من عنده شيءٌ؛ أو تعرج إليه الملائكة والروح؛ وأن يكون فوق عباده وفوق جميع مخلوقاته عالياً عليها، ونزَّهوه أن يقبض السماوات بيده والأرض باليد الأخرى؛ وأن يُمسك السماوات على أصبع والأرض على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع، ونزَّهوه أن يكون له وجهٌ؛ وأن يراه المؤمنون بأبصارهم في الجنة؛ وأن يُكلِّمهم ويُسلِّم عليهم ويتجلَّى لهم ضاحكاً؛ وأن ينزل كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا فيقول: «من يستغفرني فأغفر له؛ من يسألني فأعطيه»[1]، فلا نزول عندهم ولا قولٌ.

ونزَّهوه أن يفعل شيئاً لشيءٍ؛ بل أفعاله لا لحكمةٍ ولا لغرضٍ مقصودٍ، ونزَّهوه أن يكون تامَّ المشيئة نافذَ الإرادةِ؛ بل يشاء الشيء ويشاء عبادُه خلافه؛ فيكون ما شاء العبد دون ما شاء الربُّ؛ ولا يشاء الشيء فيكون ما لا يشاء

---

(١) تقدم تخريجه.

ويشاء ما لا يكون؛ وسموا هذا: عدلاً؛ كما سموا ذلك التنزيه: توحيداً.

ونزَّهوه عن أن يُحِبَّ أو يُحَبَّ، ونزَّهوه عن الرأفة والرحمة والغضب والرضا، ونزَّهه آخرون عن السمع والبصر؛ وآخرون عن العلم، ونزهه آخرون عن الوجود؛ فقالوا: الذي فرَّ إليه هؤلاء المُنزِّهون من التشبيه والتمثيل: يلزمنا في الوجود؛ فيجب علينا أن نُنزِّهه عنه.

فهذا تنزيه الملحدين؛ والأول تنزيه المرسلين)[1].

فهذا تقريرٌ للفرق الصريح والفيصل الصحيح بين تنزيه المرسلين؛ المتضمن لإثبات كمال ضدِّ المنفي لله ـ سبحانه وتعالى ـ، وبين تنزيه أعدائهم الملحدين في أسماء الله تعالى وصفاته؛ المتضمن لسلب الكمال والجمال والجلال عن الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ وتشبيهه بالعدم المحض.



---

(١) الروح ص٥٧٧ ـ ٥٧٩.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير نفي أهل السنّة والجماعة لجميع ما نفاه الله تعالى عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ

إنَّ معتقد أهل السنّة والجماعة في باب الأسماء والصفات يقوم على تحكيم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في مقامي الإثبات والتنزيه، فأهل السنة والجماعة كما أنهم لا يُثبتون لله ـ سبحانه وتعالى ـ من الأسماء والصفات إلا ما أثبته الله تعالى لنفسه المقدسة؛ أو أثبته له رسوله ﷺ، فكذلك هم في مقابله من النفي؛ لا ينفون عن الله تعالى إلا ما نفاه عن نفسه؛ أو نفاه عنه رسوله ﷺ.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ معتقد أهل السنة والجماعة في هذا المقام؛ وأنهم لا ينفون عن الله تعالى إلا ما نفاه عن نفسه؛ أو نفاه عنه رسوله ﷺ، وهم بذلك مخالفون للمعطلة الذين نفوا عن الله تعالى ما أثبته لنفسه؛ أو أثبته له رسوله ﷺ، فأهل السنة والجماعة: هم أهل الحقِّ؛ وأنصار كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ؛ فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن ما وصف الله ـ سبحانه ـ به نفسه من المحبة والرضى والفرح والغضب والبغض والسخط: من أعظم صفات الكمال.

إذ في العقول أنا إذا فرضنا ذاتين: إحداهما: لا تُحبُّ شيئاً ولا تُبغضه ولا ترضاه ولا تفرح به ولا تبغض شيئاً ولا تغضب منه ولا تكرهه ولا تمقته.

والذات الأخرى: تُحبُّ كلَّ جميلٍ من الأقوال والأفعال والأخلاق والشِيَم وتفرح بـه وترضى به، وتُبغض كلَّ قبيح يُسمَّى وتكرهه وتمقته وتمقت أهله وتصبر على الأذى ولا تجزع منه ولا تتضرر به: كانت هذه الذات أكمل من تلك الموصوفة بصفات العدم والموات والجهل؛ الفاقدة للحس.

فإن هذه الصفات لا تُسلب إلا عن الموات؛ أو عمَّن فقد حسَّه أو بلغ في النهاية والضعف والعجز والجهل إلى الغاية التي لم تدع له حباً ولا بغضاً ولا غضباً ولا رضى.

بل اليهود الذين وصفوه بالغمِّ والحزن والبكاء والندم[1]: أحسن حالاً من الذين سلبوه هذا الكمال، كما أن المشبهة المحضة: خيرٌ من المعطلة النفاة لصفات كماله وحقائق أسمائه الحسنى.

وأهـل الحـقِّ ــ أنصـار الله ورسـولـه وكتبـه والسنـة ــ: بـراءٌ مـن الفريقين)[2].

---

(١) أما وصف اليهود المغضوب عليهم لربِّهم ــ سبحانه وتعالى ــ بصفة الندم: فقد جاء في كتابهم المقدس: (فندم الربُّ على الشرِّ الذي قال إنه يفعله بشعبه) [خروج: إصحاح (٣٢)، فقرة (١٤)].
وانظر في وصفهم الربَّ ــ تعالى عما يقولون علوًّا كبيراً ــ بالبكاء والتعب والجهل والنسيان والمشي على الأرض ورؤيته في الدنيا والأكل واللعب والرقص ومصارعة نبيه يعقوب: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل لأبـي البقاء الهاشمي ٢/ ٥٥٧؛ ٥٦٣؛ ٥٦٩؛ ٥٧٢؛ ٥٧٥، دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية للدكتور الخلف ص٧٧ ــ ٨٠، تأثر اليهودية بالأديان الوثنية للدكتور فتحي الزغبـي ص٦٣٧ ــ ٦٨٣، العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها للدكتور أحمد الزغيبـي ٢/ ١٥٣ ــ ١٨١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٥١ ــ ١٤٥٢.

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ : (كلُّ ما أخبر به الرسول عن الله ـ سبحانه ـ إثباتاً ونفياً: فهو واجبٌ عليه وممتنعٌ عليه، أو ما أثبته له فهو كمالٌ؛ والكمال كلُّه واجبٌ له.

وما نفاه عنه: فهو نقصٌ؛ والنقائص كلُّها ممتنعةٌ عليه)[1].

فهذا تقريرٌ بيِّن الدلالة في أن معتقد أهل السنة والجماعة في مقام التنزيه يقوم على الاتباع لا على الابتداع، فهم يتَّبعون في نفيهم مادلَّت عليه نصوص الكتاب والسنة، فينفون عن الله تعالى صفات النقص؛ المستلزم نفيُها لإثبات ضدِّها من صفات الكمال، بخلاف المعطلة الذين يبتدعون في نفيهم، فينفون عن الله تعالى صفات الكمال؛ المستلزم نفيُها لإثبات ضدِّها من صفات العدم والموات.



(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١٧٩.

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير نفي أهل السنّة والجماعة لجميع النقائص والعيوب عن الله تعالى

إنَّ معتقد أهل السنّة والجماعة في التنزيه متضمنٌ للنفي القويم ــ الذي دلَّ عليه الشرع المستقيم؛ ووافقه العقل السليم ــ ، وهذا النفي تقوم حقيقته على: تنزيه الله تعالى (عن النقائص ومشابهة المخلوقات)[1]، وهذا بخلاف طريقة المعطلة الذين تضمن تنزيههم: نفي الصفات التي لا تُسلب إلا عن العدم والموات؛ وذلك مما نزَّه الله ــ سبحانه وتعالى ــ نفسه عنه، كما قال تعالى: (﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[2].

فنزَّه نفسه عما يصفه به الواصفون، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من كلِّ نقص وعيبٍ، وحمد نفسه؛ إذ هو الموصوف بصفات الكمال التي يستحقُّ لأجلها الحمد، ومُنزَّه عن كلِّ نقصٍ يُنافي كمال حمده)[3].

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦١٠.

(٢) سورة الصافات: الآيات ١٨٠ ــ ١٨٢.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٥ ــ ٢٧٦.

لذا فأهل السنة والجماعة: هم أهل الإثبات والتنزيه حقًّا، وهم (أولى بالله ــ سبحانه ــ ورسوله ﷺ والصحابة والتابعين وأئمة الإسلام وطبقات أهل العلم والدين من الجهمية والمعطلة)(١).

وقد أحسن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقريره لمعتقد أهل السنة والجماعة في تنزيههم؛ وبيانه أنه مُتضمنٌ لنفي جميع النقائص والعيوب(٢)، وإيضاح تقريره مُضمَّن في المسائل الثلاث الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أنَّ النفي الصحيح عائدٌ إلى نفي النقائص والعيوب، وأنه النفي الذي جاء في القرآن والسنة؛ ودلَّت عليه العقول الصريحة.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (ــ سبحانه ــ له الوجود الدائم القديم الواجب لنفسه الذي لم يستفده من غيره؛ ووجود كلِّ موجودٍ مفتقرٌ إليه ومتوقفٌ في تحقيقه عليه، والكمال: وجودٌ كلُّه، والعدم: نقصٌ كلُّه، فإن العدم كاسمه لا شيء.

فعاد النفي الصحيح: إلى نفي النقائص والعيوب؛ ونفي المماثلة في الكمال، وعاد الأمران إلى نفي النقص، وحقيقة ذلك: نفي العدم؛ وما يستلزم العدم.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٣٣١.

(٢) وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ إلى تضمن تنزيه أهل السنة والجماعة لنفي جميع النقائص والعيوب عن الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ في: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (١٥٧٠ ــ ١٥٨٣؛ ٣١٩٠ ــ ٣٢٠٤؛ ٤١٨٧؛ ٤٧٥٣ ــ ٤٧٥٥)].

فتأمَّل هل نفى القرآن والسنة عنه ــ سبحانه ــ سوى ذلك؟ وتأمَّل هل ينفي العقل الصحيح ــ الذي لم يفسد بشُبهِ هؤلاء الضُّلال الحيارى ــ غير ذلك؟

فالرسل جاءوا بإثبات ما يضادُّه، وهو ــ سبحانه ــ أخبر أنه: ﴿لَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[1]. بعد وصفه نفسه بأنه الصمد.

والصمد: السيد الذي كمل في سؤدده. ولهذا كانت العرب تُسمِّي أشرافها بهذا الاسم؛ لكثرة الصفات المحمودة في المُسمَّى به[2]. قال شاعرهم:

ألا بكر الناعي بخيري بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد.

فإنَّ الصَّمد: من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له.

ولهذا قال جمهور السلف ــ منهم عبد الله بن عباس ــ : (الصمد: السيد الذي كمل سؤدده، فهو العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، الحكيم الذي كمل حكمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده)[3].

---

(١) سورة الإخلاص: الآية ٤.

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٢/ ١٥٠ ــ ١٥١، الصحاح للجوهري ٢/ ٤٩٩، لسان العرب لابن منظور ٣/ ٢٥٨ ــ ٢٥٩ [مادة: صمد].

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٣٠/ ٣٤٦]، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم [رقم (١٩٥٣٥) ــ ١٠/ ٣٤٧٤]، وأبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة [رقم (٩٦) ــ ١/ ٣٨٣ ــ ٣٨٤]، والبيهقي في الأسماء والصفات [رقم (٩٨) ــ ١/ ١٥٦].

ومن قال[1]: (إنه الذي لا جوف له)[2]؛ فقوله: لا يناقض هذا التفسير، فإن اللفظ من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال؛ ولا جوف له.

فإنما لم يكن أحدٌ كفواً له: لما كان صمداً كاملاً في صمديَّته، فلو لم تكن صفاتُ كمالٍ ونعوتُ جلالٍ، ولم يكن له علمٌ ولا قدرةٌ، ولا حياةٌ ولا إرادةٌ ولا كلامٌ، ولا وجهٌ ولا يدٌ، ولا سمعٌ ولا بصرٌ، ولا فعلٌ يقوم به، ولا يفعل شيئاً ألبتة، ولا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق عرشه، ولا يرضى ولا يغضب، ولا يُحِبُّ ولا يُبغض، ولا هو فعالٌ لما يريد، ولا يُرى؛ ولا يمكن أن يُرى، ولا يُشار إليه؛ ولا يمكن أن يُشار إليه: لكان العدم المحض كفواً له.

فإن هذه الصفات منطبقةٌ على المعدوم، فلو كان ما يقوله المعطلون هو الحقُّ: لم يكن صمداً، وكان العدم كفواً له.

وكذلك قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾[3].

فأخبر أنه لا سمي له عقيب قول العارفين به: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ

---

(١) هو: بريدة بن الحصيب ـ رضي الله عنه ـ.
قال البيهقي في [الأسماء والصفات ١/١٥٦]: (روينا هذا القول عن سعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير ومجاهد والحسن والسدي والضحاك وغيرهم. وروي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه، يشكُّ راويه في رفعه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٣٠/٣٤٤ ـ ٣٤٥]، والبيهقي في الأسماء والصفات [رقم (١٠٠) ـ ١/١٥٦] موقوفاً، وأخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة [رقم (٩١) ـ ١/٣٧٨ ـ ٣٧٩] مرفوعاً.

(٣) سورة مريم: الآية ٦٥.

﴿ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥ ﴾(١).

فهذا الربُّ الذي له هذا الجند العظيم ولا ينزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك، فهو الذي قد كملت قدرته وسلطانه وملكه، وكمل علمه فلا ينسى شيئاً أبداً، وهو القائم بتدبير أمر السماوات والأرض وما بينهما؛ كما هو الخالق لذلك كلِّه، وهو ربُّه ومليكه، فهذا الربُّ هو الذي لا سميَّ له؛ لتفرُّده بكمال هذه الصفات والأفعال، فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه؛ إن هي إلا ألفاظٌ فارغةٌ من المعاني: فالعدم سميٌّ له.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾(٢). فإنه ــ سبحانه ــ ذكر ذلك بعد ذكر نعوت كماله وأوصافه، فقال: ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ ﴾(٣). إلى قوله: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ ﴾(٤).

فهذا الموصوف بهذه الصفات والنعوت والأفعال، والعُلُوِّ والعظمة، والحفظ والعزة والحكمة، والملك والحمد، والمغفرة والرحمة، والكلام

---

(١) سورة مريم: الآيتان ٦٤ ــ ٦٥.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) سورة الشورى: الآيات ١ ــ ٦.

(٤) سورة الشورى: الآية ١١.

والمشيئة والولاية، وإحياء الموتى، والقدرة التامة الشاملة، والحكم بين عباده، وكونه فاطر السماوات والأرض، وهو السميع البصير: فهذا هو الذي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]. لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله، وثبوتها له على وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء.

فالمثبت للصفات والعُلُوِّ والكلام والأفعال وحقائق الأسماء هو الذي يصفه ــ سبحانه ــ بأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وأما المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه فإن وصفه له بأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ مجاز لا حقيقة؛ كما يقول في سائر أوصافه وأسمائه.

ولهذا قال من قال من السلف: (إن النفاة جمعوا بين التشبيه والتعطيل[2])[3].

فسموا تعطيلهم: تنزيهاً، وسموا ما وصف به نفسه: تشبيهاً، وجعلوا ما يدلُّ على ثبوت صفات الكمال وكثرتها دليلاً على نفيها وتعطيلها، وراج ذلك على من لم يجعل الله له نوراً، واغترَّ به من شاء الله.

وهدى الله من اعتصم بالوحي والعقل والفطرة، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾[4])[5].

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) عقد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٣٨ ــ ٢٨٧]: فصلاً في بيان خطأ المتأولة في فهمهم من النصوص المعاني الباطلة التي تأوَّلوها لأجلها؛ وجمعهم بين التشبيه والتعطيل. وانظر: بدائع الفوائد ٢/ ٧٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٧٠.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢١٣، سورة النور: الآية ٤٦.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٤ ــ ١٠٣٠.

فهذا تقريرُ أنَّ الله ــ تبارك وتعالى ــ قد (فطر القلوب على محبته والإقرار به وإجلاله وتعظيمه، وإثبات صفات الكمال له؛ وتنزيهه عن صفات النقائص والعيوب)[1]، وهذا: هو النفي الصحيح الذي دلَّت عليه النصوص الحكيمة؛ التي هدى الله تعالى إلى العمل بها: من اعتصم بالشرعة القويمة؛ واسترشد بالفطر السلمية؛ واستنار بالعقول المستقيمة.

ولما كان تنزيه الله ــ سبحانه وتعالى ــ عن العيوب والنقائص واجبٌ لذاته ــ كما أن إثبات صفات الكمال والحمد واجبٌ لذاته ــ: كان هذا التنزيه أظهر في العقول والفطر وجميع الكتب الإلـٰهية وأقوال الرسل من كلِّ شيءٍ.

المسألة الثانية:

تقريره أن تنزيه الله ــ سبحانه وتعالى ــ عن العيوب والنقائص واجبٌ لذاته؛ وأنه أظهر في العقول والفطر وجميع الكتب الإلـٰهية وأقوال الرسل من كلِّ شيء.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (من أسباب عبادة الأصنام: الغلوُّ في المخلوق؛ وإعطاؤه فوق منزلته؛ حتى جُعل فيه حظٌّ من الإلـٰهية، وشبَّهوه بالله ــ سبحانه ــ.

وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم؛ الذي أبطله الله ــ سبحانه ــ، وبعث رسله؛ وأنزل كتبه بإنكاره؛ والردِّ على أهله.

فهو ــ سبحانه ــ ينفي وينهى أن يُجعل غيرُه مثلاً له ونداً له وشبهاً له؛ لا أن يُشبَّه هو بغيره، إذ ليس في الأمم المعروفة أمةٌ جعلته ــ سبحانه ــ مِثلاً لشيءٍ من مخلوقاته، فجعلت المخلوق أصلاً؛ وشبَّهت به الخالق، فهذا

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٨٣٣.

لا يُعرف في طائفةٍ من طوائف بني آدم، وإنما الأوَّل: هو المعروف في طوائف أهل الشرك؛ غلواً فيمن يُعظِّمونه ويُحبّونه؛ حتى شبَّهوه بالخالق؛ وأعطوه خصائص الإلـهية؛ بل صرَّحوا أنه إلهٌ، وأنكروا جعل الآلهة إلـهاً واحداً، وقالوا: ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾[1]. وصرَّحوا بأنه إلـه معبودٌ؛ يُرجى ويُخاف؛ ويُعظَّم ويُسجد له؛ ويُحلف باسمه؛ وتُقرَّب له القرابين، إلى غير ذلك من خصائص العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى.

فكلُّ مشركٍ: فهو مُشبِّهٌ لإلهه ومعبوده بالله ـ سبحانه ـ؛ وإن لم يُشبِّهه به من كلِّ وجهٍ، حتى إن الذين كفروا[2] وصفوه ـ سبحانه ـ بالنقائص والعيوب، كقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾[3]. وإن: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[4]. وإنه استراح لما فرغ من خلق العالم[5])[6].

وبعد بيانه ـ رحمه الله تعالى ـ للتشبيه؛ وأنه مُتضمنٌ لوصف الله بالنقائص والعيوب: شرع في بيان مفارقة أهل السنة والجماعة لمذهب أهل البدعة والشناعة في معتقدهم في نفي النقائص والعيوب عن الله تعالى، فقال: (والذين جعلوا له ولداً وصاحبة ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ لم يكن قصدهم أن يجعلوا المخلوق أصلاً ثم يُشبِّهون به الخالق، بل وصفوه

---

(١) سورة ص: الآية ٦.

(٢) هم اليهود؛ الشعب المحتار ـ بالحاء المهملة ـ، الذين ادعوا ـ زوراً وبهتاناً ـ: أنهم الشعب المختار.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨١.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٥) فأكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [سورة ق: الآية ٣٨].

(٦) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

بهذه الأشياء استقلالاً؛ لا قصداً أن يكون غيره أصلاً فيها وهو مُشبَّهٌ به، ولهذا كان وصفه ــ سبحانه ــ بهذه الأمور من أبطل الباطل؛ لكونها في نفسها نقائص وعيوباً، ليس جهة البطلان في اتصافه بها هو التشبيه والتمثيل؛ فلا يتوقف في نفيها عنه على ثبوت انتفاء التشبيه كما يفعله بعض أهل الكلام الباطل؛ حيث صرَّحوا بأنه لا يقوم دليلٌ عقليٌّ على انتفاء النقائص والعيوب عنه، وإنما تُنفى عنه لاستلزامها التشبيه والتمثيل.

وهؤلاء إذا قال لهم الواصفون لله ــ سبحانه ــ بهذه الصفات: نحن نُثبتها له على وجهٍ لا يُماثل فيها خلقه، بل نُثبت له فقراً وصاحبة وإيلاداً لا يُماثل فيه خلقه؛ كما تُثبتون أنتم له علماً وقدرة وحياة وسمعاً وبصراً لا يُماثل فيها خلقه، فقولنا في هذا كقولكم فيما أثبتموه سواء: لم يتمكَّنوا من إبطال قولهم؛ ويصيرون أكفاء لهم في المناظرة، فإنهم قد أعطوهم أنه لا يقوم دليلٌ عقليٌّ على انتفاء النقائص والعيوب، وإنما ننفي ما نُفي عنه لأجل التشبيه والتمثيل، وقد أثبتوا له صفاتٍ على وجهٍ لا يستلزم التشبيه، فقال أولئك: وهكذا نقول نحن. ولما عرف بعضهم أن هذا لازمٌ له لا محالة: استروح إلى دليل الإجماع، وقال: إنما نفينا النقائص والعيوب عنه بالإجماع، وعندهم أن الإجماع أدلته ظنيةٌ لا تُفيد اليقين، فليس عند القوم يقينٌ وقطعٌ بأن الله ــ سبحانه ــ مُنزَّهٌ عن النقائص والعيوب.

وأهل السنة يقولون: إن تنزيهه ــ سبحانه ــ عن العيوب والنقائص واجبٌ لذاته، كما أن إثبات صفات الكمال والحمد واجبٌ لذاته، وهو أظهر في العقول والفطر وجميع الكتب الإلـٰهية وأقوال الرسل من كلِّ شيءٍ.

ومن العجب أن هؤلاء جاءوا إلى ما عُلِمَ بالإضطرار أن الرسل جاءوا به؛ ووصفوا الله ــ سبحانه ــ به؛ ودلَّت عليه العقول والفطر والبراهين؛ فنفوه، وقالوا: إثباته يستلزم التجسيم والتشبيه، فلم يثبت لهم قدمٌ ألبتة فيما

يثبتونه له ــ سبحانه ــ ؛ وينفونه عنه. وجاءوا إلى ما عُلِمَ بالإضطرار والفطر والعقول وجميع الكتب الإلـٰهية من تنزيه الله ــ سبحانه ــ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، فقالوا: ليس في أدلة العقل ما ينفيه، وإنما ننفيه بما ننفي به التشبيه.

وليس في الخذلان فوق هذا، بل إثبات هذه العيوب والنقائص يُضادُّ كماله المقدس، وهو ــ سبحانه ــ موصوفٌ بما يضادُّها وينافيها من كلِّ وجهٍ، ونفيها أظهر وأبين في العقول من نفي التشبيه، فلا يجوز أن تُثبت له على وجهٍ لا يُشابه فيه خلقه.

والمقصود: أنه لم يكن في الأمم من مثَّله بخلقه؛ وجعل المخلوق أصلاً ثم شبَّهه به، وإنما كان التمثيل والتشبيه في الأمم حيث شبَّهوا أوثانهم ومعبوديهم به في الإلـٰهية، وهذا التشبيه: هو أصل عبادة الأصنام، فَأَعْرَضَ عنه وعن بيان بطلانه أهلُ الكلام، وصرفوا العناية إلى إنكار تشبيهه بالخلق ــ الذي لم تُعرف أمةٌ من الأمم عليه ــ، وبالغوا فيه حتى نفوا به عنه صفات الكمال.

وهذا موضعٌ مهمٌ نافعٌ جداً، به يُعرف الفرق بين ما نزَّه الربُّ ــ سبحانه ــ نفسه عنه؛ وذمَّ به المشركين المُشبِّهين العادلين به خلقه، وبين ما ينفيه الجهمية المعطلة من صفات كماله؛ ويزعمون أن القرآن دلَّ عليه وأُريد به نفيه)[(١)].

ثم أخذ ــ رحمه الله تعالى ــ يُبيِّن دلالة القرآن الكريم على إبطال مشابهة ومماثلة شيءٍ من المخلوقات للخالق ــ سبحانه وتعالى ــ، فقال: (والقرآن مملوءٌ من إبطال أن يكون في المخلوقات ما يُشبه الربَّ تعالى أو يماثله، فهذا هو الذي قُصِدَ بالقرآن؛ إبطالاً لما عليه المشركون

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٣٢٣ ــ ٣٢٥.

والمُشبِّهون العادلون بالله تعالى غيرَه. قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾[1]. وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[2]. فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلاً للخالق، فالندُّ: الشبه. يقال: فلانٌ ندُّ فلانٍ؛ ونديده: أي مثله وشبهه[3]. ومنه قول حسَّان بن ثابتٍ:

أتهجوه ولست له بندٍّ فشرُّكما لخيركما الفداء[4].

ومنه قول النبي ﷺ لمن قال له ما شاء الله وشئت: «أجعلتني لله ندًّا»[5].

وقال جرير[6]:

أتيماً تجعلون إليَّ ندًّا وما تَيْمٌ لذي حَسَبٍ نديدُ[7].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٣) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٤/ ٧١، لسان العرب لابن منظور ٣/ ٤٢٠ ـ ٤٢١، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٩/ ٢١٦ ـ ٢١٧ [مادة: ندد].

(٤) انظر: العقد الفريد لابن عبدربه ٥/ ٢٨١، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي ١/ ٢١١.

(٥) أخرجه البخاري في أدبه المفرد [باب قول الرجل: ما شاء الله وشئت ـ الحديث رقم (٨٠٤) ـ ص١٦٩ ـ ١٧٠].
وصححه الألباني في [صحيح الأدب المفرد: ص٢٩٢].

(٦) هو: أبو حزرة جرير بن عطية بن الخطفي التميمي البصري، شاعر زمانه، توفي باليمامة سنة عشرة ومائة؛ وعمِّر نيِّفاً وثمانين سنة.
انظر في ترجمته: الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٣٠٩ ـ ٣١٤، الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٨/ ٢٢٩ ـ ٢٨٧، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر به من حوادث الزمان لليافعي ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٨.

(٧) شرح ديوان جرير ص١٧٩.

قال ابن مسعود وابن عباس: (لا تجعلوا لله أكفاء من الرجال؛ تطيعونهم في معصية الله)[1].

وقال ابن زيد[2]: (الأنداد: الآلهة التي جعلوها معه)[3].

وقال الزجاج[4]: (أي لا تجعلوا لله أمثالاً)[5].

فالذي أنكره الله ــ سبحانه ــ عليهم هو تشبيه المخلوق به؛ حتى جعلوه ندًّا لله تعالى؛ يعبدونه كما يعبدون الله.

وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[6]. فأنكر هذا التشبيه عليهم؛ وهو أصل عبادة الأصنام.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [١/ ١٦٣].

(٢) هو: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولاهم المدني، صاحب التفسير، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٧/ ١١٤ ــ ١١٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٣٤٩، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ٢٧١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [١/ ١٦٣].

(٤) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السَّري البغدادي، كان يُلقَّب بالزجاج: لأنه كان يخرط الزجاج، نحويُّ زمانه، توفي في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة؛ وقد بلغ من العمر فوق الثمانين.
انظر في ترجمته: معجم الأدباء لياقوت الحموي ١/ ١٣٠ ــ ١٥١، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين لليماني ص١٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٤/ ٣٦٠.

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٩٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

ونظير هذا قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾[1]. أي: يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلاً وشبهاً.

قال ابن عباس: (يريد عدلوا بـي من خلقي الحجارة والأصنام بعد أن أقرُّوا بنعمتي وربوبيتي)[2].

وقال الزجاج: (أعلم الله ـ سبحانه ـ أنه خالق ما ذكر في هذه الآية، وأن خالقها لا شيء مثله، وأعلم أن الكفار يجعلون له عديلاً)[3].

والعدل: التسوية، يقال: عدل الشيءَ بالشيءِ إذا سوَّاه به[4].

ومعنى يعدلون به: (يُشركون به غيره) قاله مجاهد[5].

قال الأحمر[6]: (يقال: عدل الكافر بربه عدلاً وعدولاً: إذا سوَّى به غيره فعبده)[7].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٢٢٧.

(٤) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٢/ ٢٠٩، الصحاح للجوهري ٥/ ١٧٦١، لسان العرب لابن منظور ١١/ ٤٣٢ [مادة: عدل].

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٥/ ١٤٤]، وابن أبـي حاتم في تفسير القرآن العظيم [رقم (٧٠٨٨) ـ ٤/ ١٢٦٠].

(٦) هو: علي بن المبارك، شيخ العربية، توفي بطريق مكة سنة أربع وتسعين ومائة. انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/ ١٠٤ ـ ١٠٥، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٩/ ٩٢ ـ ٩٣، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٧) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٢/ ٢١٢، لسان العرب لابن منظور ١١/ ٤٣٦، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٢٩/ ٤٥٤ [مادة: عدل].

وقال الكسائي[1]: (عدلت الشيء بالشيء أعدله عدولاً: إذا ساويته بـه)[2].

ومثله قوله تعالى عن هؤلاء المُشبِّهين أنهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[3].

فاعترفوا أنهم كانوا في أعظم الضلال وأبينه؛ إذ جعلوا لله شبهاً وعدلاً من خلقه؛ سوَّوهم به في العبادة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾[4].

قال ابن عباس: (شبهاً ومثلاً)[5].

وهو من يُساميه، وذلك نفي عن المخلوق أن يكون مشابهاً للخالق ومماثلاً له؛ بحيث يستحقُّ العبادة والتعظيم، ولم يقل ــ سبحانه ــ هل تعلمه سميًّا أو مشبهاً لغيره، فإن هذا لم يقله أحدٌ، بل المشركون المُشبِّهون

---

(١) هو: أبو الحسن علي بن حمزة الأسدي مولاهم الكوفي، إمام النحو والقراءات، سمي بالكسائي: لأنه أحرم في كساء؛ وقيل: غير ذلك، توفي برنبويه ــ إحدى قرى الريِّ ــ سنة تسع وثمانين ومائة.
انظر في ترجمته: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٣/ ٢٩٥ ــ ٢٩٧، معرفة القراء الكبار للذهبي ١/ ١٢٠ ــ ١٢٨، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي ص١٥٢ ــ ١٥٣.

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٢/ ٢١٢.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ٩٧ ــ ٩٨.

(٤) سورة مريم: الآية ٦٥.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [١٦/ ١٠٦]، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم [رقم (١٣١٧٦) ــ ٧/ ٢٤١٤].

جعلوا بعض المخلوقات مشابهاً له مسامياً وندًّا وعدلاً، فأنكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل.

وكذلك قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1].

فنهاهم أن يضربوا له مثلاً من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلاً لخلقه، فإن هذا لم يقله أحدٌ، ولم يكونوا يفعلونه، فإن الله ـ سبحانه ـ أجلُّ وأعظم وأكبر من كلِّ شيءٍ في فطر الناس كلِّهم، ولكن المشبهون المشركون يغلون فيمن يُعظِّمونه فيشبِّهونهم بالخالق، والله تعالى أجلُّ في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلاً؛ ثم يُشبِّهونه ـ سبحانه ـ بغيره.

فالذي يُشبِّهه بغيره إن قصد تعظيمه: لم يكن في هذا تعظيمٌ، لأنه مَثَّل أعظم العظماء بما هو دونه؛ بل بما ليس بينه وبينه نسبةٌ وشَبَهٌ في العظمة والجلالة، وعاقلٌ لا يفعل هذا، وإن قصد التنقيص: شَبَّهَه بالناقصين المذمومين؛ لا بالكاملين الممدوحين.

ومن هنا يُعلم: أن إثبات صفات الكمال له لا يتضمَّن التشبيه والتمثيل؛ لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأن نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين.

فانظر إلى الجهمية وأتباعهم: جاءوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحاً، وجاءوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهاً وتمثيلاً، عكس ما يُثبته القرآن وجاء به من كلِّ وجهٍ.

---

(١) سورة النحل: الآيتان ٧٣ ـ ٧٤.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[1]: هو سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق ـ سبحانه ـ، ولم يقل: ولم يكن هو كفواً لأحدٍ، فينفي عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له، إذ كان ذلك أبين وأظهر من أن يُحتاج إلى نفيه.

وسرُّ ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يُماثله ـ سبحانه ـ في شيءٍ من صفاته وخصائصه، وأما كونه ـ سبحانه ـ هو لا يُماثل المخلوق ولا يُشابهه؛ ولا هو ندٌّ له ولا كفؤٌ: فليس فيه مدح له، فإنه لو مُدِحَ بعضُ الملوك أو غيرُهم بأنه لا يُشبه الحيوانات ولا الحجارة ولا الخشب ونحو ذلك: لم يُعدَّ هذا مدحاً ولا ثناء عليه ولا كمالاً له، بخلاف ما إذا قيل: لا تجعل للمَلِك ندًّا ولا كفؤاً ولا شبيهاً من رعيَّته؛ تُعظِّمه كتعظيمه وتُطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيَّته من يُساميه ولا يُماثله ولا يُكافئه: كان هذا غاية المدح.

وكذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[2]: إنما قُصِدَ به نفي أن يكون معه شريكٌ أو معبودٌ يستحق العبادة والتعظيم؛ كما يفعله المُشبِّهون والمشركون، ولم يُقصد به نفي صفات كماله؛ وعُلُوِّه على خلقه؛ وتكلُّمه بكتبه وتكليمه لرسله؛ ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما تُرى الشمسُ والقمرُ في الصحو، فإنه ـ سبحانه ـ إنما ذكر هذا في سياق ردِّه على المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء يوالونهم من دونه.

فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ

---

(١) سورة الإخلاص: الآية ٤.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[1].

فتأمَّل كيف ذكر هذا النفي تقريراً للتوحيد وإبطالاً لما عليه أهل الشرك من تشبيه آلهتهم وأوليائهم به حتى عبدوهم معه، فحرَّفها المحرفون؛ وجعلوها ترساً لهم في نفي صفات كماله وحقائق أسمائه وأفعاله.

وهذا التشبيه الذي أبطله الله ــ سبحانه ــ نفياً ونهياً: هو أصلُ شرك العالم وعبادة الأصنام، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يسجد أحد لمخلوقٍ مثله[2]؛

---

(١) سورة الشورى: الآيات ٦ ــ ١١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٢٦١٤) ــ ٢٠/ ٦٤ ــ ٦٥] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ، وكذا أخرجه في مسنده [الحديث رقم (١٩٤٠٣) ــ ٣٢/ ١٤٥] من حديث عبد الله بن أبي أوفى ــ رضي الله عنه ــ، وكذا أخرجه في مسنده [الحديث رقم (٢١٩٨٦) ــ ٣٦/ ٣١١ ــ ٣١٢] من حديث معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ، وكذا أخرجه في مسنده [الحديث رقم (٢٤٤٧٠) ــ ٤١/ ١٨ ــ ١٩]، وأبو داود في سننه [كتاب النكاح/ باب في حق الزوج على المرأة ــ الحديث رقم (٢١٤٠) ــ ٢/ ٦٠٤ ــ ٦٠٥] من حديث قيس بن سعد ــ رضي الله عنه ــ، وكذا أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الرضاع/ باب ما جاء في حق الزوج على المرأة ــ الحديث رقم (١١٥٩) ــ ٢/ ٤٥٣] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ، وكذا أخرجه النسائي في سننه الكبرى [كتاب عشرة النساء/ باب حق الرجل على المرأة ــ الحديث رقم (٩١٠٢) ــ ٨/ ٢٥٣] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ، وكذا أخرجه ابن ماجه في سننه [كتاب النكاح/ باب حق الزوج على المرأة ــ الحديث رقم (١٨٥٢ ــ ١٨٥٣) ــ =

أو يحلف بمخلوقٍ مثله[1]؛ أو يُصَلِّي إلى قبرٍ[2]؛ أو يتخذ عليه مسجداً[3]؛ أو يُعلِّق عليه قنديلاً[4]؛ أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء

= ٢/ ٤١١ ــ ٤١٢] من حديثي عبد الله بن أبي أوفى وعائشة ــ رضي الله عنهما ــ ، وأوله: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد: لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

وصححه الألباني في [إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: الحديث رقم (١٩٩٨) ــ ٧/ ٥٤ ــ ٥٨].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب مناقب الأنصار/ باب أيام الجاهلية ــ الحديث رقم (٣٨٣٦) ــ ٣/ ١١٧٢] من حديث عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ ، وأوله: «ألا من كان حالفاً: فلا يحلف إلا بالله».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الجنائز/ باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه ــ الحديث رقم (٩٧٢) ــ ٢/ ٦٦٨] من حديث أبي مرثد الغنوي ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «لا تجلسوا على القبور؛ ولا تصلُّوا إليها».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب الصلاة في البيعة ــ الحديث رقم (٤٣٥ ــ ٤٣٧) ــ ١/ ١٥٤]، ومسلم في صحيحه [كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور ــ الحديث رقم (٥٢٨ ــ ٥٣٢) ــ ١/ ٣٧٥ ــ ٣٧٨] من حديث عبد الله بن عباس وأبي هريرة وعائشة ــ رضي الله عنهم ــ ، وأوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

(٤) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٠٣٠) ــ ٣/ ٤٧١]، وأبو داود في سننه [كتاب الجنائز/ باب في زيارة النساء القبور ــ الحديث رقم (٣٢٣٦) ــ ٣/ ٥٥٨]، والنسائي في سننه [كتاب الجنائز/ باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور ــ الحديث رقم (٢٠٤٢) ــ ٤/ ٤٠٠]، والترمذي في جامعه [أبواب الصلاة/ باب ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجداً ــ الحديث رقم (٣٢٠) ــ ١/ ٣٥٢] من حديث عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ ، وأوله: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور». =

فلان[1]؛ ونحو ذلك حذراً من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك، وأما إثبات صفات الكمال: فهو أصلُ التوحيد.

فتبيَّن أن المشبهة: هم الذين يُشبِّهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع؛ والحلف به والنذر له؛ والسجود له والعكوف عند بيته؛ وحلق الرأس له والاستغاثة به؛ والتشريك بينه وبين الله في قولهم: ليس لي إلا الله وأنت؛ وأنا متّكلٌ على الله وعليك؛ وهذا من الله ومنك؛ وأنا في حسب الله وحسبك؛ وما شاء الله وشئت؛ وهذا لله ولك؛ وأمثال ذلك، فهؤلاء هم المُشبِّهه حقًّا؛ لا أهل التوحيد المثبتون لله ما أثبته لنفسه والنافون عنه ما نفاه عن نفسه؛ الذين لا يجعلون له ندًّا من خلقه ولا عدلاً ولا كفؤاً ولا سميًّا، وليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيعٌ.

فمن تدبَّر هذا الفصل حقَّ التدبُّر: تبيَّن له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الأصنام؟ وتبيَّن له سرُّ القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة؛ ولا سيما إذا جمعوا إلى هذا التشبيه: تعطيل الصفات والأفعال ــ كما هو الغالب عليهم ــ، فيجمعون بين تعطيل الربِّ ــ سبحانه ــ عن صفات كماله؛ وبين تشبيه خلقه به)[2].

= وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (٢٢٥) ــ ١/ ٣٩٣ ــ ٣٩٦].

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٣٢٦٥) ــ ٣٨/ ٢٩٩ ــ ٣٠٠]، وأبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب لا يقال خبثت نفسي ــ الحديث رقم (٤٩٨٠) ــ ٥/ ٢٥٩]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان ــ الحديث رقم (١٠٧٥٥) ــ ٩/ ٣٦١] من حديث حذيفة بن اليمان ــ رضي الله عنهما ــ، وأوله: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان».
وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٣٧) ــ ١/ ٢٦٣].

(٢) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٣٢٥ ــ ٣٤١.

فهذا تقريرٌ لحقيقة ما تضمنه التنزيه من نفي النقائص والعيوب عن الله تعالى؛ ونفي المماثلة له في الجمال والكمال والجلال.

وحقيقة هذا التنزيه: مما عُلِمَ بالاضطرار أن الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ جاءوا به؛ ووصفوا الله ـ سبحانه ـ به؛ ودلَّت عليه العقول والفطر والبراهين.

المسألة الثالثة:

تقريره أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر رسوله ﷺ أن يُنزِّه اسمه ـ تبارك وتعالى ـ عما يصفه به الكاذبون والجاحدون من النقائص والعيوب.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في أمر الله تعالى رسوله ﷺ: أمره أن يُنزِّه اسمه ـ تبارك وتعالى ـ عمَّا لا يليق به، وتنزيه الاسم: مُتضمنٌ لتنزيه المُسمَّى عمَّا يقوله الكاذبون والجاحدون)[1].

فهذا تقريرُ أن الله تعالى نزَّه نفسه في كتابه؛ وعلى ألسنة رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، فلذا استحقُّوا أن يُخصُّوا بمزيد سلام الله تعالى عليهم، كما (قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[2]. فنزَّه نفسه عما يصفه به الخلق، ثم سلَّم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرُّده بالأوصاف التي يستحقُّ عليها كمال الحمد)[3].

❑ ❑ ❑

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص٣٠٧.

(٢) سورة الصافات: الآيات ١٨٠ ـ ١٨٢.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٥٢ ـ ١٥٣.

المطلب الرابع:

جهوده في تقرير نفي أهل السنّة والجماعة المتضمن إثبات كمال ضد المنفي

إنَّ أهل السنّة والجماعة شادوا بنيان معتقدهم في باب الأسماء والصفات على قاعدتين عظيمتين؛ وركنين جسيمين، وهما: الإثبات والنفي.

ومذهبهم في الإثبات ــ المتقدم الذكر ــ: هو المراد بهذا الباب على وجه الأصالة، وأما مذهبهم في النفي: فإنه مراد على وجه التبعيّة، إذ هو جسر يُتوصَّل به إلى إثبات كمال ضدِّ ما نُفي، فإن كانت الصفاتُ المنفيّةُ عاريةً عن إثبات كمال ضدِّها: عاد النفيُ سلباً صرفاً وعدماً محضاً؛ لا كمال فيه.

ولما كان (النقص منتفٍ عن الله ــ عزَّ وجلّ ــ عقلاً؛ كما هو منتف عنه سمعاً، والعقل والنقل يُوجب اتصافه بصفات الكمال؛ والنقص: هو ما يُضادُّ صفات الكمال)[1]: وجب تنزيه الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ عن النقائص والعيوب المنافية لجمال أسمائه الحسنى؛ وكمال أوصافه العلى.

وهذا النفي للنقائص والعيوب عن الله ــ سبحانه وتعالى ــ إن لم يتضمن إثبات كمال ضدِّه: لم يكن تنزيهاً، وإلا فأيُّ (شيءٍ نَفَعَ المُعطِّلين لحقائق أسماء الله وصفاته تسمية ذلك: تنزيهاً)[2]؛ وقد خالفوا التنزيه الشرعيَّ ــ الموافق للتنزيه الفطريِّ والعقليِّ ــ، لأن (كلُّ سلبٍ في القرآن

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٨٠.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ١١٨.

حمد الله به نفسه: فلمضادَّته لثبوت ضدِّه؛ ولتضمنه كمال ثبوت ضدِّه)[1].

وقد أحسن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في النفي الوارد في باب الأسماء والصفات؛ وبيَّن أن نفيهم مضادٌّ من كلِّ وجهٍ لنفي أهل البدعة والشناعة، فنفي أهل السنة مُتضمنٌ للإثبات، ونفي أهل التعطيل مُتضمنٌ للسلب، فشتَّان بين نفي العسكرين: عسكر الإثبات؛ وعسكر التعطيل.

(شتَّان بين الحالتين فإن تُرد ... جمعاً فما الضِّدان يجتمعان)[2].

(شتَّان بين العسكرين فمن يكن ... مُتحيِّزاً فلينظر الفئتان)[3].

وقد تضمَّن كلام الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تقرير المسائل السبع الآتية؛ الموضِّحة لهذا المطلب، وهي:

المسألة الأولى:

تقريره أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يُثني على نفسه بفعل ما لو تُرِكَ كان تركه نقصاً؛ وبترك ما لو فُعِلَ كان فعله نقصاً.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن ما تمدَّح به ــ سبحانه ــ: فهو من خصائصه التي لا يُشركه فيها أحدٌ، وسلب فعله المستحيل الذي لا يدخل تحت القدرة ولا يُتصوَّر وقوعه: ليس من خصائصه؛ ولا هو كمالٌ في نفسه؛ ولا يستلزم كمالاً، فإذا مدح نفسه بكونه لا يجمع بين النقيضين[4]: كان كلُّ أحدٍ مشاركاً له في هذا المدح، بخلاف

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٦.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (١٢) ــ ص١٢].

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٢٠٠) ــ ص٤٤].

(٤) قال الجرجاني في [التعريفات ص ١٧٩]: (إن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان كالعدم والوجود، والضدين لا يجتمعان ولكن يرتفعان كالسواد والبياض).

ما إذا مدح نفسه بكونه لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يموت ولا ينسى ولا يخفى عليه شيءٌ ولا يظلم أحداً.

وهو ـ سبحانه ـ يُثني على نفسه بفعل ما لو تُرِكَ: كان تركه نقصاً؛ وبترك ما لو فعله: كان فعله نقصاً)[1].

فهذا تقريرٌ لما يُوجب ثناء الله تعالى على نفسه المقدسة؛ وأن الربَّ ـ تبارك وتعالى ـ لما كانت (أسماؤه كلُّها حسنى ـ ليس فيها اسم سوءٍ ـ، وأوصافه كلُّها كمالٌ ـ ليس فيها صفة نقصٍ ـ، وأفعاله كلُّها حكمةٌ ـ ليس فيها فعلٌ خالٍ عن الحكمة والمصلحة ـ، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[2]، موصوفٌ بصفة الكمال؛ مذكورٌ بنعوت الجلال؛ مُنزهٌ عن الشبيه والمثال؛ ومُنزهٌ عما يُضادُّ صفات كماله)[3]: كان ـ سبحانه وتعالى ـ محموداً على فعل ما يُحمد على فعله؛ ومحموداً على ترك ما يُحمد على تركه.

وإنما كان التركُ حمداً في حقِّه ـ سبحانه وتعالى ـ: لأنه يتضمَّن من أوصاف الكمال ونعوت الجلال ما يُباين الله تعالى بها غيره؛ ويتعالى عن أن يكون له نظيرٌ أو شبيهٌ أو مثيلٌ.

المسألة الثانية:

تقريره أن النفي ليس في نفسه صفة مدحٍ ولا كمالٍ إلا إذا تضمَّن كون من نُفي عنه ذلك قد اختصَّ من صفات الكمال بأوصافٍ باين بها غيره؛ وخرج بها عن أن يكون له نظيرٌ أو شبيهٌ.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نفي التشبيه

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٦.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢١٤.

والتمثيل: (ينبغي أن تعلم في هذا قاعدة نافعة جدًّا، وهي: أنَّ نفي الشَّبَه والمثل والنظير ليس في نفسه صفة مدحٍ ولا كمالٍ؛ ولا يُحمد به المنفي عنه ذلك بمجرَّده.

فإنَّ العدم المحض ـ الذي هو أخسُّ المعلومات وأنقصها ـ ينفى عنه الشِبه والمِثل والنظير، ولا يكون ذلك كمالاً ومدحاً إلا إذا تضمَّن كون من نُفي عنه ذلك قد اختصَّ من صفات الكمال ونعوت الجلال بأوصاف باين بها غيره؛ وخرج بها عن أن يكون له نظيرٌ أو شِبهٌ، فهو لتفرُّده بها عن غيره: صحَّ أن يُنفى عنه الشِبه والمِثل والنظير والكفؤ.

فلا يُقال لمن لا سمع له ولا بصر، ولا حياة ولا علم، ولا كلام ولا فعل: ليس له شِبهٌ ولا مِثلٌ ولا نظيرٌ؛ اللَّـهُمَّ إلا في باب الذمِّ والعيب، أي: قد سُلِبَ صفات الكمال كلِّها؛ بحيث صار لا شِبْه له في النقص، هذا الذي عليه فِطَرُ النَّاس وعقولُهم واستعمالهم في المدح والذمِّ)[1].

فهذا تقريرٌ لما غُرِسَ في فطر وعقول بني آدم من أن التنزيه الذي يُمدح به الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ ويُحمد عليه: هو ما كان متضمنا لإثبات كمال ضدِّ المنفي؛ ومستلزماً له، فإن تجرَّد النفي عن إثبات كمال ضدِّ المنفي عنه: كان في حقيقته قدحاً لا مدحاً؛ ومستهجناً لا مستحسناً.

المسألة الثالثة:

تقريره أنَّ الرَّبَّ ـ تبارك وتعالى ـ إنما يُمدح بنفي ما يستلزم إثبات كمالٍ يستحقُّ الحمد عليه.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن كلَّ ما يُنزَّه الربُّ عنه إن لم يكن مُتضمِّناً لإثبات كماله ومستلزماً لأمرٍ ثبوتيٍّ يُوصف به:

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٦٧.

لم يكن في تنزيهه عنه مدحٌ ولا حمدٌ ولا تمجيدٌ ولا تسبيحٌ.

إذ العدم المحض: كاسمه لا حمد فيه ولا مدح، وإنما يُمدح ـ سبحانه ـ بنفي أمورٍ تستلزم أموراً هي حقٌّ ثابتٌ موجودٌ يستحقُّ الحمد عليها، وذلك الحقُّ الموجود يُنافي ذلك الباطلَ المنفيَّ، فيُستدلُّ برفع أحدهما على ثبوت الآخر.

فتارة يُستدلُّ بثبوت تلك المحامد والكمالات على نفي النقائص التي تُنافيها، وتارة يُستدلُّ بنفي تلك النقائص على ثبوت الكمالات التي تُنافيها.

فهو ـ سبحانه ـ: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾[1] كما قال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[2]: لكمال حياته وقيوميته، و ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾[3]: لكمال علمه، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾[4]: لكمال قدرته، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[5]: لكمال عدله وغناه ورحمته، و ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[6]: لكمال علمه وحفظه، ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾[7]: لكمال قدرته وقوته، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[8]؛ و ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[9]: لكمال صمديته، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[10]: لتفرده بالكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
(٣) سورة سبأ: الآية ٣.
(٤) سورة ق: الآية ٣٨.
(٥) سورة الكهف: الآية ٤٩.
(٦) سورة طه: الآية ٥٢.
(٧) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
(٨) سورة الأنعام: الآية ١٤.
(٩) سورة الإخلاص: الآية ٣.
(١٠) سورة الإخلاص: الآية ٤.

غيره، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾[1]: لكمال عزته وسلطانه، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾[2]: فنفى عن نفسه خوف عاقبة ما فعله من إهلاك أعدائه، بخلاف المخلوق فإنه إذا انتقم من عدوِّه: يخاف عاقبة ذلك؛ إما من الله، وإما من المنتصرين لعدوِّه، وذلك على الله محالٌ)[3].

فهذا تقريرُ أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لا يحمد نفسه بعدمٍ؛ إلا إذا كان متضمناً لثبوت كمالٍ، لأن (المحمود لا يُحمد على العدم والسكوت ألبتة؛ إلا إذا كانت سلبَ عيوبٍ ونقائص تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه ولا مدح ولا كمال)[4].

ولما كانت (حقيقة الحمد تابعةٌ لثبوت أوصاف الكمال؛ وأن نفيها نفيٌ لحمده، ونفيُ الحمد مستلزمٌ لثبوت ضدِّه)[5]: اسْتُثْني من ذلك (صفات السلب المحض؛ فلا تدخل في أوصافه تعالى؛ إلا أن تكون متضمنة لثبوتٍ)[6].

المسألة الرابعة:

تقريره أنَّ كلَّ سلبٍ ونفيٍ لا يتضمن إثباتاً: فإن الله لا يُوصف به، لأنه لا يقتضي مدحاً ولا كمالاً ولا تعظيماً:

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (مما ينبغي أن يُعلم: أن كلَّ سلبٍ ونفيٍ لا يتضمَّن إثباتاً فإن الله لا يُوصف به، لأنه عدمٌ محضٌ ونفيٌ صِرْفٌ؛ لا يقتضي مدحاً ولا كمالاً ولا تعظيماً.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١١١.

(٢) سورة الشمس: الآية ١٥.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٤٣ ــ ١٤٤٥.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٥.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٦.

(٦) بدائع الفوائد ١/ ١٤٦.

ولهذا كان تسبيحه وتقديسه ـ سبحانه ـ مُتضمِّناً لعظمته، ومستلزماً لصفات كماله ونعوت جلاله.

وإلاَّ فالمدح بالعدم المحض: كَلا مدحٍ، والعدم في نفسه ليس بشيءٍ يُمدح به ويُحمد عليه، ولا يُكْسِبَ القلبَ علماً بالمذكور ولا محبة وقصداً له.

ولهذا كان عدم السِّنة والنوم مدحاً وكمالاً في حقه ـ سبحانه ـ : لتضمُّنه واستلزامه كمال حياته وقيوميَّته، ونفي اللغوب عنه كمالٌ: لاستلزامه كمال قدرته وقوَّته، ونفي النسيان عنه كمالٌ: لتضمُّنه كمال علمه، وكذلك نفي عزوبِ شيءٍ عنه، ونفي الصاحبة والولد كمالٌ: لتضمنه كمال غناه وتفرُّده بالربوبية؛ وأن من في السماوات والأرض عبيدٌ له، وكذلك نفي الكفؤ والسميِّ والمثل عنه كمالٌ: لأنه يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال له على أكمل الوجوه؛ واستحالة وجود مشاركٍ له فيها)[1].

فهذا تقريرُ أن النفي الموجب لتسبيح الله تعالى وتقديسه وتعظيمه: مستلزمٌ لإِثبات صفات كماله ونعوت جلاله، فإن تجرَّد عن ذلك: كان نفياً محضاً؛ لا مدح فيه ولا حمد.

المسألة الخامسة:

تقريره أنَّ المدح والثناء لا يحصلان بالنفي المحض إن لم يتضمن ثبوتاً.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن الأمر والنهي فى باب الطلب: نظير النفي والإِثبات فى باب الخبر.

والمدح والثناء لا يحصلان بالنفي المحض إن لم يتضمن ثبوتاً، فإن النفي كاسمه عدمٌ لا كمالَ فيه ولا مدحٌ، فإذا تضمَّن ثبوتاً: صحَّ المدح به،

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٣٦٩.

كنفي النسيان: المستلزم لكمال العلم وبيانه، ونفي اللغوب والإعياء والتعب: المستلزم لكمال القوة والقدرة، ونفي السِّنة والنوم: المستلزم لكمال الحياة والقومية، ونفي الولد والصاحبة: المستلزم لكمال الغنى والملك والربوبية، ونفي الشريك والولي والشفيع بدون الإذن: المستلزم لكمال التوحيد والتفرُّد بالكمال والإلـٰهية والملك، ونفي الظلم: المتضمن لكمال العدل، ونفي إدراك الأبصار له: المتضمن لعظمته؛ وأنه أجلُّ من أن يُدرك ـ وإن رأته الأبصار ـ، وإلا فليس فى كونه لا يُرى مدحٌ بوجهٍ من الوجوه، فإن العدم المحض كذلك.

وإذا عُرِفَ هذا: فالمنفِيُّ عنه إن لم يتضمن أمراً وجوديًّا ثبوتيًّا لم يُمدح بتركه؛ ولم يستحقَّ الثواب والثناء بمجرَّد الترك، كما لا يستحقُّ المدح والثناء بمجرَّد الوصف العدميِّ)[1].

فهذا تقريرُ أن النفي لا يدلُّ على المدح والحمد إلا إذا تجرَّد عن الوصف العدميِّ؛ وصار متضمناً لأمراً وجودياً ثبوتياً، لذا فأهل السنة والجماعة ـ القائمون بمقام التنزيه حقَّ القيام ـ قد تضمَّن نفيهم جميل المدائح؛ وجليل المحامد.

المسألة السادسة:

تقريره أنّ نفي أهل السنّة والجماعة: مدحٌ لله تعالى وثناءٌ عليه؛ لأنه متضمن لإثبات صفات الكمال.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (ـ سبحانه ـ وصف نفسه بأنه: ليس كمثله شيء، وأنه لا سمي له، ولا كفؤ له، وهذا

---

(١) الفوائد ص١٣٩ ـ ١٤٠.

يستلزم وصفه بصفات الكمال؛ التي فات بها شبه المخلوقين، واستحقَّ بقيامها به أن يكون: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1].

وهكذا كونه ليس له سميٌّ ـ أي: مثيلٌ يُساميه ـ[2] في صفاته وأفعاله، ولا من يُكافيه فيها.

ولو كان مسلوب الصفات والأفعال، والكلام والاستواء، والوجه واليدين، ومنفياً عنه مباينة العالم ومحايثته، واتصاله به وانفصاله عنه، وعُلُوَّه عليه، وكونه يمنته أو يسرته، وأمامه أو وراءه: لكان كلُّ عدمٍ مِثلاً له في ذلك، فيكون قد نفى عن نفسه مشابهة الموجودات؛ وأثبت لها مماثلة المعدومات.

فهذا النفي واقعٌ على أكمل الموجودات وعلى العدم المحض، فإن العدم المحض لا مِثل له ولا كفؤ ولا سميَّ.

فلو كان المراد بهذا نفي صفاته وأفعاله، واستوائه على عرشه، وتكلُّمه بالوحي وتكليمه لمن يشاء من خلقه: لكان ذلك وصفاً له بغاية العدم، فهذا النفي واقعٌ على العدم المحض وعلى من كثرت أوصاف كماله ونعوت جلاله وأسماؤه الحسنى؛ حتى تفرَّد بذلك الكمال فلم يكن له شبه في كماله ولا سميَّ ولا كفؤ.

فإذا أبطلتم هذا المعنى الصحيح: تعيَّن ذلك المعنى الباطل قطعاً، وصار المعنى أنه لا يُوصف بصفةٍ أصلاً ولا يفعل فعلاً، ولا له وجهٌ ولا يدٌ،

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) انظر: مختار الصحاح للرازي ص٣١٦، لسان العرب لابن منظور ١٤/ ٤٠٣، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٣٨/ ٣٠٨ [مادة: سمو].

ولا يسمع ولا يُبصر، ولا يعلم ولا يقدر، تحقيقاً لمعنى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1].

وقال إخوانكم من الملاحدة: ليس له ذاتٌ أصلاً؛ تحقيقاً لهذا النفي.

وقال غلاتهم: ولا وجود له؛ تحقيقاً لهذا النفي.

وأما الرسل وأتباعهم فقالوا: إنه حيٌّ وله حياة؛ وليس كمثله شيءٌ في حياته، وهو قويٌّ وله القوة؛ وليس كمثله شيءٌ في قوته، وهو سميعٌ بصيرٌ له السمع والبصر يسمع ويُبصر؛ وليس كمثله شيءٌ في سمعه وبصره، ومُتكلِّم ومُكلِّم؛ وليس كمثله شيءٌ في كلامه وتكليمه، وله وجهٌ ويدان؛ وليس كمثله شيءٌ، وهو مستوٍ على عرشه؛ وليس كمثله شيءٌ، وهذا النفي لا يتحقَّق إلا بإثبات صفات الكمال، فإنه مدحٌ له وثناءٌ أثنى به على نفسه، والعدم المحض لا يُمدح به أحدٌ ولا يُثنى به عليه، ولا يكون كمالاً له؛ بل هو أنقص النقص، وإنما يكون كمالاً: إذا تضمَّن الإثبات، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[2]: لكمال حياته وقيوميته.

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[3]: لكمال غناه وملكه وربوبيته.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[4]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[5]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾[6]: لكمال عدله وغناه ورحمته.

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٤) سورة فصلت: الآية ٤٦.

(٥) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٦) سورة غافر: الآية ٣١.

وقوله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[1]: لكمال قدرته.

وقوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾[2]، ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾[3]، ونظائر ذلك: لكمال علمه.

وقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾[4]: لعظمته وإحاطته بما سواه، وأنه أكبر من كلِّ شيءٍ، وأنه واسعٌ فيُرى؛ ولكن لا يُحاط به إدراكاً، كما يُعلم ولا يُحاط به علماً، فيُرى ولا يُحاط به رؤية، فهكذا: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[5]: هو متضمنٌ لإثبات جميع صفات الكمال على وجه الإجمال.

وهذا هو المعقول في نظر الناس وعقولهم، وإذا قالوا: فلانٌ عديمُ المِثْلِ، أو قد أصبح ولا مِثْلَ له في الناس، أو ما له شبيهٌ ولا له من يُكافيه: إنما يُريدون بذلك أنه تفرَّد من الصفات والأفعال والمجد بما لم يلحقه فيه غيره، فصار واحداً من الجنس لا مثيل له، ولو أطلقوا ذلك عليه باعتبار نفي صفاته وأفعاله ومجده: لكان ذلك عندهم غاية الذمِّ والتنقُّص له، فإذا أُطلق ذلك في سياق المدح والثناء: لم يشكَّ عاقلٌ في أنه إنما أراد كثرة أوصافه وأفعاله وأسمائه؛ التي لها حقائق تُحمل عليها.

فهل يقول عاقلٌ لمن لا علم له ولا قدرة؛ ولا سمع ولا بصر؛ ولا يتصرف بنفسه ولا يفعل شيئاً؛ ولا يتكلم ولا له وجهٌ ولا يدٌ؛ ولا قوةٌ ولا فضيلةٌ من الفضائل: إنه لا شبيه له ولا مِثْلَ له، وإنه وحيد دهره؛ وفريد عصره؛ ونسيج وحده؟

---

(١) سورة ق: الآية ٣٨.

(٢) سورة يونس: الآية ٦١.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٣٨.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٥) سورة الشورى: الآية ١١.

وهل فطر الله الأممَ وأطلق ألسنتهم ولغاتهم إلا على ضدِّ ذلك؟ وهل كان ربُّ العالمين أهلَ الثناء والمجد إلا بأوصاف كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه الحسنى؟ وإلا فبماذا يُثني عليه المثنون؟ وبماذا يُثني على نفسه أعظم مما يُثني به عليه جميع خلقه؟ ولأيِّ شيءٍ يقول أعرف خلقه به: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

ومعلوم أن هذا الثناء الذي أخبر أنه لا يحصيه لو كان بالنفي: لكان هؤلاء أعلم به منه وأشدَّ إحصاء له، فإنهم نفوا عنه حقائق الأسماء والصفات نفياً مفصلاً، وذلك مما يُحصيه المحصي بلا كُلْفَة ولا تَعَبٍ، وقد فصَّله النفاة وأحصوه وحصروه)[2].

فهذا تقرير أن أهل السنة والجماعة ــ وهم أتباع الرسل حقًّا؛ والموافقين لهم صدقاً ــ قد تضمَّن نفيهم في باب أسماء الله تعالى وصفاته: إثبات (عموم الملك وعموم الحمد؛ كما أثبته لنفسه، فله كمال الملك وكمال الحمد)[3].

لذا فإنَّ أهل السنة والجماعة: هم أعظم الناس مِدحة وثناء وذكراً لله ــ عزَّ وجلّ ــ بما هو أحقُّ به وأهله.

المسألة السابعة:

تقريره أن أهل السنة والجماعة لمّا تضمّن نفيهم إثبات الكمال: استحقوا بذلك أن يكونوا أعظم الناس تسبيحاً وتحميداً وثناء على الله ــ عزّ وجلّ ــ.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن السلب

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «اللّـٰهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٩ ــ ١٠٢٣.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٣٣٧.

إنَّ لم يتضمن إثباتاً: وإلاَّ لم يكن مدحاً ولا كمالاً.

فليس له من مُجرَّد كونه لا يُحبُّ ولا يرضى ولا يفرح ولا يضحك ولا يغضب: حمدٌ ولا كمالٌ، فإنه نفيٌ صرفٌ وعدمٌ محضٌ؛ فلا يُحمد به.

وهذا بخلاف نفي الغمِّ والهمِّ والحزن والندم عنه: فإنه يتضمن ثبوتاً؛ وهو كمال قدرته وعلمه، فإن أسباب هذه الأمور: إما عجزٌ منافٍ للقدرة، وإما جهلٌ منافٍ للعلم، وكمال قدرته وعلمه يناقض وصفه بذلك.

وهذا وغيره مما يُبيِّن أن النفاة والمعطلة: أقلُّ الناس تحميداً وتمجيداً وتسبيحاً وثناء على الله، وأن أهل الإثبات: أعظم تسبيحاً وتحميداً وثناء على الله)[1].



(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٥٢.

المطلب الخامس:

جهوده في تقرير حكم أهل السنة والجماعة فيما لم يرد نفيه ولا إثباته

إنَّ أهل السنّة والجماعة (يُراعون المعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل؛ ويُراعون أيضاً الألفاظ الشرعية، فيُعبِّرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، ومن تكلَّم بما فيه باطلٌ يُخالف الكتاب والسنة: ردُّوا عليه، ومن تكلَّم بلفظٍ مُبتدعٍ ـ يحتمل حقًّا وباطلاً ـ : نسبوه إلى البدعة)[1]، لأنه (قد صار كلُّ من أرادَ نفي شيءٍ مما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات: عبَّر بها عن مقصوده، فيتوهَّم من لا يعرف مراده أن المراد: تنزيه الربِّ)[2] ـ سبحانه وتعالى ـ ، فأراد أهل السنة والجماعة أن يحفظوا حدود هذا الباب العظيم، وأن يحموا جنابه حتى لا يتسلَّل لواذاً المُلحدون فيه ممن يُخشى أن تُصيبهم فتنةٌ أو عذابٌ أليم.

ومن تأمَّل وسطية أهل السنة والجماعة ـ المتقدمة الذكر ـ : رأى أنهم مُتوسِّطون في الحكم على القول المجمل المشتبه ـ مع الحكم ببدعة

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ٢٥٤.

(٢) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ١٧/ ٣٥١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

قائله من جهة إحداثه في هذا الباب ما ليس منه ـ ، فهم يقولون: (كلُّ لفظٍ أحدثه الناس؛ فأثبته قومٌ ونفاه آخرون: فليس علينا أن نُطلق إثباته ولا نفيه؛ حتى نفهم مراد المُتكلِّم، فإن كان مراده حقاً؛ موافقاً لما جاءت به الرسل والكتاب والسنة من نفيٍ أو إثباتٍ: قلنا به، وإن كان باطلاً؛ مخالفاً لما جاء به الكتاب والسنة من نفيٍ أو إثباتٍ: منعنا القول به)(١).

فعُلِمَ أن معتقدهم في هذه الألفاظ المجملة المحتملة في هذا الباب: هو التوسُّط بين من قَبِلَها دون تفصيلٍ؛ وبين من ردَّها دون تفصيلٍ، وأن قولهم في هذه الألفاظ: هو الوسط العدل الخيار، فليس (على أحدٍ أن يقول فيها بنفيٍ ولا إثباتٍ؛ حتى يستفسر المُتكلِّم بذلك، فإن بيَّن أنه أثبت حقًّا: أثبته؛ وإن أثبت باطلاً: ردَّه، وإن نفى باطلاً: نفاه؛ وإن نفى حقًّا: لم ينفه)(٢).

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير حكم أهل السنة والجماعة في الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها؛ مُبيِّناً أنهم يُفصِّلون النزاع في المعاني المحتملة للألفاظ المجملة، حيث قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ أن منشأ الزلل والخلل والخطل في باب الأسماء والصفات: إنما هو بسبب هذه الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها، وأن أهل السنة والجماعة مُتوسِّطون في هذا الباب، فلا يقبلون قولاً ولا يردُّونه إلا بعد تفصيل معانيه؛ وتنزيل ألفاظه عليه؛ فقال: (إن منشأ الغلط في هذا

(١) سؤال عمن يقول إن النصوص تظاهرت ظواهرها على ما هو جسمٌ أو يُشعر به؛ والعقل دلَّ على تنزيه الباريء ـ عزَّ وجلّ ـ عنه وجوابه لابن تيمية ٦/ ٣٦ ـ ٣٧ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) سؤال عن أبياتٍ في مباينة الله تعالى للعالَم وجوابه لابن تيمية ٥/ ٢٩٩ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

الباب: من إطلاق ألفاظٍ مجملةٍ محتملةٍ لمعنيين: صحيحٍ وباطلٍ، فلا ينفصل النزاع إلا بتفصيل تلك المعاني؛ وتنزيل ألفاظها عليها.

ولا ريب أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال؛ المشتقة أسماؤه منها، فلم يزل بأسمائه وصفاته؛ وهو إلـه واحدٌ؛ له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأسماؤه وصفاته داخلةٌ في مسمى اسمه؛ وإن كان لا يُطلق على الصفة أنها إلـه يخلق ويرزق، فليست صفاته وأسماؤه غيره؛ وليست هي نفس الإلـه.

وبلاء القوم من لفظة (الغير)، فإنه يراد بهما معنيين[1]:

أحدهما: المغاير لتلك الذات المسماة بالله، وكلُّ ما غاير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون إلا مخلوقاً.

ويُراد به مغايرة الصفة للذات إذا خرجت عنها.

فإذا قيل: علم الله وكلام الله غيرُه ـ بمعنى أنه غير الذات المجرَّدة عن العلم والكلام ـ: كان المعنى صحيحاً؛ ولكن الإطلاق باطلٌ، وإذا أُريد أن العلم والكلام مغايرٌ لحقيقته المختصَّة التي امتاز بها عن غيره: كان باطلاً ـ لفظاً ومعنى ـ.

وبهذا أجاب أهلُ السنة المعتزلةَ القائلين بخلق القرآن، وقالوا: كلامه تعالى داخلٌ في مسمى اسمه، فالله تعالى اسمُ الذات الموصوفة بصفات الكمال، ومن تلك الصفات: صفة الكلام، كما أن علمه وقدرته وحياته

---

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى ـ وأن لفظ (الغير) فيه إجمالٌ، وأن المعنى الحقَّ منه يُطلق على ذات الله تعالى وصفاته؛ وإن سمَّاها المُعطلة أغياراً ـ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٨٢ ـ ٩٨٣.

وسمعه وبصره غيرُ مخلوقة، وإذا كان القرآن كلامه ــ وهو صفة من صفاته ــ : فهو متضمنٌ لأسمائه الحسنى، فإذا كان القرآن غير مخلوقٍ؛ ولا يقال: إنه غير الله؛ فكيف يُقال: إن بعض ما تضمنه وهو أسماؤه مخلوقة؛ وهي غيره؟

فقد حصحص الحق ــ بحمد الله ــ ؛ وانحسم الإشكال، وأن أسماءه الحسنى التي في القرآن من كلامه؛ وكلامه غير مخلوق، ولا يقال: هو غيره؛ ولا هو هو.

وهذا المذهب مخالفٌ لمذهب المعتزلة؛ الذين يقولون: أسماؤه تعالى غيره؛ وهي مخلوقة، ولمذهب من ردَّ عليهم؛ ممن يقول: اسمه نفس ذاته؛ لا غيره، وبالتفصيل تزول الشُّبَهُ؛ ويتبين الصواب، والحمد لله)[1].

فحذارِ حذارِ؛ و (إياكَ ثمَّ إياكَ والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها؛ فإنها أصل البلاء، وهي مورد الصديق والزنديق، فإذا سمع الضعيف المعرفة والعلم بالله تعالى)[2] لفظاً من هذه الألفاظ ــ التي قد تكون في حقيقتها (ألفاظٌ مُجملةٌ ومعانٍ مُشتبهةٌ قد لُبِّس فيها الحقُّ بالباطل فصار ذا إخفاءٍ وكتمان)[3]ــ : اعتلَّ منه الجنان، فزلَّت قدمُه بعد ثُبُوتِها؛ واضطربت نفسُه بعد خُبُوتِها.

فالواجب على العبد: أن يُعظِّم ربَّه ــ تبارك وتعالى ــ ؛ وأن يقدره حقَّ قدره، فلا يُطلق عليه إلا ما أطلقه ــ سبحانه وتعالى ــ على نفسه من الأسماء والصفات، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (عليك بمراعاة ما أطلقه ــ سبحانه ــ على نفسه من الأسماء والصفات؛

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٧ ــ ١٨.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٥٨.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٥٣.

والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يُطلقه على نفسه؛ ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته، وحينئذ فيُطلق المعنى لمطابقته له؛ دون اللفظ، ولا سيما إذا كان مجملاً؛ أو منقسماً إلى ما يُمدح به وغيره، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيداً، وهذا كلفظ الفاعل والصانع؛ فإنه لا يُطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقاً مُقيّداً أطلقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾[1]. ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾[2]. وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[3].

فإن اسم الفاعل والصانع مُنقسمُ المعنى إلى: ما يُمدح عليه ويذمُّ، ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ: لم يجىء في الأسماء الحسنى: المريد؛ كما جاء فيها السميع البصير، ولا المتكلم ولا الآمر الناهي: لانقسام مسمى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها.

ومن هنا يُعلم غلط بعض المتأخرين؛ وزلقه الفاحش في اشتقاقه له ـ سبحانه ـ من كلِّ فعلٍ أخبر به عن نفسه: اسماً مطلقا؛ فأدخله في أسمائه الحسنى، فاشتقَّ له اسم الماكر والخادع والفاتن والمُضلِّ والكاتب؛ ونحوها من قوله: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾[4]. ومن قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[5]. ومن قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[6]. ومن قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾[7]. وقوله تعالى:

---

(١) سورة هود: الآية ١٠٧، سورة البروج: الآية ١٦.
(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.
(٣) سورة النمل: الآية ٨٨.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٠.
(٥) سورة النساء: الآية ١٤٢.
(٦) سورة طه: الآية ١٣١، سورة الجن: الآية ١٧.
(٧) سورة الرعد: الآية ٢٧، سورة النحل: الآية ٩٣، سورة فاطر: الآية ٨، سورة المدثر: الآية ٣١.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾[1]. وهذا خطأٌ من وجوهٍ)[2].

ويحسن في هذا المقام ذكر بعض الألفاظ المجملة المحتملة التي أوردها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ؛ مُبيناً حكم أهل السنة والجماعة فيها ــ من حيث القبول والردُّ ــ ، فمن ذلك:

١ ــ لفظ (التجسيم)، وقد فصَّل ــ رحمه الله تعالى ــ الحكم فيه بقوله: (قد ثبت بالعقل والنقل والفطرة: أنه ــ سبحانه ــ فوق سماواته؛ عالٍ على خلقه، فلا يجوز نفيه بتسميته: تجسيماً.

فإن كان التجسيمُ اللازمُ من ذلك كونه فوق سماواته على عرشه؛ بائناً من خلقه: فهذا اللازم حقٌّ، فسموها ما شئتم.

وإن كان المدعي لزوم تركيبه من الجواهر الفردة والمادة[3] والصورة؛ أو كونه مماثلاً للأجسام المخلوقة: فدعوى هذه الملازمة كذبٌ.

فلا يجوز أن ينفى عن الله ما دلَّ عليه العقل والنقل والفطرة بألفاظ مجملةٍ تنقسم معانيها إلى حقٍّ وباطلٍ)[4].

٢ ــ لفظ (المركب)، وقد فصَّل ــ رحمه الله تعالى ــ الحكم فيه بقوله: (إن (المُركَّب) لفظٌ مُجملٌ؛ يُراد به: ما ركبَّه غيرُه، وما كان متفرِّقاً فاجتمعت أجزاؤه، وما يمكن تفريق بعضه عن بعضٍ، والله ــ سبحانه ــ مُنزَّهٌ عن هذه التراكيب.

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٢١.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٥٩٥ ــ ٥٩٦.

(٣) قال الجرجاني في [التعريفات ص ٢٥٠]: (مادة الشيء: هي التي يحصل الشيء معها بالقوة، وقيل: المادة: الزيادة المتصلة).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥١.

ويُراد به في اصطلاح هؤلاء: ما له ماهيةٌ خاصَّةٌ يتميَّز بها عن سائر الماهيات، وما له ذاتٌ وصفاتٌ بحيث يتميَّز بعض صفاته عن بعض.

وهذا ثابتٌ له ـ سبحانه ـ ؛ وإن سماه هؤلاء تركيباً)[1].

٣ ـ لفظ (الافتقار)، وقد فصَّل ـ رحمه الله تعالى ـ الحكم فيه بقوله: (لفظ (الافتقار): لفظٌ مُجملٌ، يُراد به: فقر الماهية إلى مُوجدٍ غيرها بتحقيق وجودها به، والله ـ سبحانه ـ غنيٌّ عن هذا الافتقار.

ويُراد به: أن الماهية مفتقرةٌ في ذاتها إلى ذاتها، ولا قِوَامَ لذاتها إلا بذاتها، وأن الصفة لا تقوم بنفسها؛ وإنما تقوم بالموصوف.

وهذا المعنى حقٌّ؛ وإن سمَّاه هؤلاء الملبسون فقراً)[2].

وقد نفى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ دعوى أن يكون لفظ (الاستواء) من الألفاظ المجملة المحتملة؛ التي يُتذرَّع بنفيها إلى نفي عُلُوِّ الله تعالى على خلقه ومباينته لهم؛ فقال: (إنا لو فرضنا احتمال اللفظ في اللغة لمعنى الاستيلاء؛ والخمسة عشر معنى: فالله ورسوله قد عيَّن بكلامه منها معنى واحداً، ونوَّع الدلالة عليه أعظم تنويع؛ حتى يُقال بذلك: ألف دليل، فالصحابة كلُّهم متفقون لا يختلفون في ذلك المعنى؛ ولا التابعون وأئمة الإسلام، ولم يقل أحدٌ منهم: إنه بمعنى استولى؛ وإنه مجازٌ، فلا يضرُّ الاحتمال بعد ذلك في اللغة لو كان حقاً.

ولما سُئِلَ مالكٌ وسفيان بن عيينة ـ وقبلهما ربيعة بن أبي عبد الرحمن ـ عن الاستواء؟ فقالوا: (الاستواء معلومٌ)[3].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٨٢.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٨٢.

(٣) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الصواعق المرسلة على =

. . . .

= الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٠٤]: (وقد رُوِيَ هذا الكلام عن الإمام مالك من وجوهٍ متعددةٍ).

والأثر أخرجه: الدارمي في الرد على الجهمية [باب استواء الرب تبارك وتعالى على العرش ــ رقم (١٠٩) ــ ص٥٧ ــ ٥٨]، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [سياق ما روي في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ ــ رقم (٦٦٤) ــ ٣/ ٣٩٨]، وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [٦/ ٣٢٥ ــ ٣٢٦]، والصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث [استواء الله على عرشه ــ رقم (٢٥ ــ ٢٦) ــ ص٣٨ ــ ٤٠]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب ما جاء في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ ــ رقم (٨٦٦ ــ ٨٦٧) ــ ٢/ ٣٠٤ ــ ٣٠٦]، والاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد [باب القول في الاستواء ــ ص١١٩]، وابن عبد البر في التمهيد [٧/ ١٥١].

وانظر: الأثر المشهور عن مالك رحمه الله في صفة الاستواء للدكتور البدر ص٣٨ ــ ٥٠.

وأما أثر شيخه ربيعه فأخرجه: العجلي في تاريخ الثقات [ص١٥٨]، وابن بطة في الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة (الرد على الجهمية) [باب الإيمان بأن الله عزَّ وجلّ على عرشه بائن من خلقه؛ وعلمه محيط بجميع خلقه ــ رقم (١٢١) ــ ٣/ ١٦٣ ــ ١٦٤]، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [سياق ما روي في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ ــ رقم (٦٦٥) ــ ٣/ ٣٩٨]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب ما جاء في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ ــ رقم (٨٦٨) ــ ٢/ ٣٠٦]، وابن قدامة في إثبات صفة العلو [رقم (٧٤) ــ ص١٦٤].

قال الذهبي في [العلو للعلي العظيم ١/ ٦٣٠]: (هذا القول: محفوظٌ عن جماعة؛ كربيعة الرأي، ومالك الإمام، وأبي جعفر الترمذي. فأما عن أم سلمة: فلا يصحُّ، لأن أبا كنانة: ليس بثقة، وأبو عمير: لا أعرفه). =

تلقَّى ذلك عنهم جميع أئمة الإسلام، ولم يقل أحدٌ منهم: إنه يُحتاج إلى صرفه عن حقيقته إلى مجازه؛ ولا إنه مجمل؛ له مع العرش خمسة عشر معنى)[1].

فهذا ختام تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لمعتقد أهل السنة والجماعة وحكمهم في الألفاظ المجملة المحتملة التي لم تلهج بنفيها ولا إثباتها ألسنة السلف المتقدِّمين؛ وإنما هي من لغو ألسنة الخلف المتأخِّرين، وأن حكمهم فيها: هو من أمارة وسطيتهم في هذا الباب، (فليس على أحدٍ؛ بل ولا له أن يُوافق أحداً على إثبات لفظه أو نفيه؛ حتى يعرف مراده، فإن أراد حقاً: قُبِلَ، وإن أراد باطلاً: رُدَّ، وإن اشتمل كلامُه على حقٍّ وباطلٍ: لم يُقبل مطلقاً؛ ولم يُردَّ جميع معناه، بل يُوقف اللفظ؛ ويُفسَّر المعنى)[2]، والله أعلم.



= وانظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٦/ ٢٦٤ ــ ٢٦٥، الحموية الكبرى ٥/ ٤٠ ــ ٤١، سؤال في حديث النزول وجوابه ٥/ ٣٦٥ [رسالتان مودعتان ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، العرش للذهبي ٢/ ١٨٤.
ولم أقف عليه عن سفيان بن عيينة.

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٧٠.

(٢) القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/ ٤١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

المبحث الرابع :

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير معتقد أهل السنّة والجماعة في وجوب قطع الطمع عن إدراك الكيفية

إنَّ أهل السنّة والجماعة لم يحملهم الإثبات في باب الأسماء والصفات؛ والنفي المتضمن لإثبات كمال ضدِّه: على الخوض في كيفية الذات العليّة المُتسمِّية بأسماء الجلال والمتَّصفة بأوصاف الكمال، بل كانوا قاطعين للطمع عن إدراك ذلك؛ معتقدين أن معرفة هذه الذات المقدسة؛ وما تجلَّت به من الأسماء وكملت به من الصفات: لا يستلزم إدراك كيفيَّتها، إذ الإدراك أمرٌ وراء ذلك، فالله تعالى لم يُطلع أحداً من خلقه على حقيقة ذاته؛ لأن عقولهم قاصرةٌ عن معرفة كيفية أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

وقد كان أهل السنة والجماعة أعظمَ الناس بباب الأسماء والصفات عناية، وكان إيمانهم بحقائقه وسيلة إلى فهمهم معانيه التي هي عندهم أعظم غاية، وكانوا أجلَّ الناس حفظاً لحرمته، حيث سدُّوا جميع الطرق والسبل المؤدِّية إلى تحريفه، فتوسَّط أهل السنة والجماعة في باب توحيد الأسماء والصفات بين طوائف أهل البدعة والشناعة؛ الذين طمعوا في إدراك كيفية الله تعالى، فوقع بعضهم في مسلك التعطيل الذميم؛ ووقع بعضهم الآخر في مرتع التمثيل الوخيم.

وقد قيَّد أهل السنة والجماعة مقالتهم في هذا الباب بقولهم: (بلا كيف)، فمنعوا السؤال عن آيات الأسماء والصفات بـ: (كيف؟)، كما قال سفيان بن عيينة: (كلُّ شيءٍ وصف الله به نفسه في القرآن: فقراءته تفسيره، لا كَيْفَ؛ ولا مِثْلَ)[1].

كما منعوا السؤال عن أحاديث الأسماء والصفات بـ: (كيف؟)، كما قال وكيع[2]: (نُسلِّم هذه الأحاديث كما جاءت، ولا نقول: كيف هذا؟ ولم جاء هذا؟)[3].

وقد تضمنت مقالة أهل السنة والجماعة ــ التي صارت قاعدة مهمة من قواعد هذا الباب ــ أمرين اثنين:

الأمر الأول: المنع من السؤال بـ: (كيف؟).

الأمر الثاني: المنع من طلب معرفة كُنْهِ صفة الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ.

والله تعالى قد أمر عباده في باب الأسماء والصفات بـ: (ثلاث قواعد؛ من أهمِّ قواعد الإيمان والسلوك ــ فمن لم يَبْن عليها: فبناؤه على

---

(١) أخرجه الدارقطني في [كتاب الصفات: رقم (٦١) ــ ص٧٠].

(٢) هو: أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي؛ الكوفي، الإمام الحافظ؛ محدث العراق، ولد سنة ثمان وعشرين ومائة، وتوفي في يوم عاشوراء سنة ثمان وتسعين ومائة؛ وهو راجع من الحج، وقد عاش ثمانياً وستين سنة.
انظر في ترجمته: المعرفة والتاريخ للبسوي ١/١٧٥ ــ ١٧٦، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣/٤٦٧ ــ ٤٨١، سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/١٤٠ ــ ١٦٨.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في [كتاب السنة: رقم (٤٩٥) ــ ١/٢٦٧]، والدارقطني في [كتاب الصفات: رقم (٦٢) ــ ص٧١].

شفا جُرُفٍ هارٍ ـ)[1]:

القاعدة الأولى: التنزيه بلا تعطيل.

والقاعدة الثانية: الإثبات بلا تمثيل.

والقاعدة الثالثة: قطع الطمع عن إدراك الكيفيَّة.

أما القاعدتان الأوليان: فقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[2].

فأَوَّلُ الآية الكريمة: أمرٌ بالتنزيه العاري عن التعطيل، وآخرها: أمرٌ بالإثبات العاري عن التمثيل.

وأما القاعدة الثالثة: فهي مُضمَّنة في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[3].

فقطع الله تعالى طمع العباد عن إدراك حقيقة كيفيَّة ذاته المقدسة؛ وحقيقة أسمائه الحسنى وصفاته العلى بنفي الإحاطة به علماً.

فليتدبَّر المؤمن العِلْمَ بهذه القواعد الثلاث حقَّ التدبُّر؛ وليفهمها تمام الفهم، (فإنه من أعظم ما يَهدي به الله تعالى إلى الصراط المستقيم)[4].

ولا بُدَّ أن تعلم: أن قصور النظر؛ وقِلَّة علم البشر: لا يقدح في حقيقة إيمانك بهذه الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ ومعرفتك لمعانيها، (فأَقْبِل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس)[5]، ولا تتكلَّف البحث في هذا الباب

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٥٣١.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) سورة طه: الآية ١١٠.

(٤) نقض تأسيس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ١٩٩.

(٥) الفوائد ص١٦٨.

بما لم تُحِط به علماً، وانطق بما نَطَقَتْ به النصوص الشرعية، ولا تَقْفُ ما ليس لك به علمٌ؛ ولا تقل على الله تعالى ما لا تعلم، فإن ذلك من أعظم المحرمات؛ ومن أكبر الموبقات، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

والعقل الصريح قد دلَّ على انتفاء العلم بكيفية الذات المقدسة كما دلَّ عليه النقل الصحيح، وذلك أن العقل لا يستقلُّ بإدراك كيفية الشيء إلا بالعلم بأمور ثلاثة:

الأمر الأول: العلم بكيفية ذاته.

الأمر الثاني: العلم بنظيره المساوي له.

الأمر الثالث: العلم بالخبر الصادق عنه.

وكلُّ هذه الأمور الثلاثة منتفيةٌ في حقِّ الله تعالى، فعِلْمُنا قاصرٌ عن معرفة كيفية ذاته، وليس له ــ سبحانه وتعالى ــ نظيرٌ أو شبيهٌ أو مثيلٌ فيُقاس عليه، ولم يُخبر الله تعالى أو رسوله ﷺ عن كيفيّة نفسه المقدسة وكنهها؛ فتُعرف.

فعُلِمَ أن النقل الصحيح والعقل الصريح: قد تصادقا وتوافقا في الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ ومعرفة معانيها؛ مع قطع الطمع عن إدراك كيفيّتها[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٣) انظر: منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشنقيطي ص٤٣ ــ ٤٦، =

ولما كان ضرب الأمثال (مما يأنس به العقل؛ لتقريبها المعقول من المشهود)[1]: فقد حرص أهل العلم على تقريب هذه القاعدة إلى الأذهان، فضربوا لها الأمثال الحسان[2]، فتجلت حقيقتها حتى صارت كالعيان.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ معتقد أهل السنة والجماعة في قطع الطمع عن إدراك الكيفية في باب الأسماء والصفات أجمل تقرير وأحلاه؛ وأنضره وأبهاه، **وقد ضمَّنتُ تقريره لهذا المبحث في المطالب الأربعة الآتية:**

المطلب الأول: جهوده في تقرير عِلْم أهل السنة والجماعة أن الله تعالى لم يُطلع الخلق على ذاته.

المطلب الثاني: جهوده في تقرير عِلْم أهل السنة والجماعة أن العقول قاصرةٌ عن معرفة كيفية أسماء الله تعالى وصفاته.

المطلب الثالث: جهوده في تقرير معنى قول السلف بلا كيف.

= القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص٣٦ ـ ٣٧، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص ٣٠٣ ـ ٣١٨، معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات للدكتور التميمي ص١٢٩ ـ ١٣٧.

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص٢٦ ـ ٢٧.

(٢) وممن ضرب لهذه القاعدة أحسن الأمثلة وأبدعها؛ وأجلِّها وأروعها: شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ ، حيث ضرب لها مثلين بديعين ـ يقطع بهما العبد العاقل الطمع في إدراك كيفية الذات العلية؛ ويثبت بصدر منشرح ما أثبته الله تعالى لنفسه؛ وينفي عنه مماثلته لخلقه ـ وهما: الجنة، والروح.
انظر: القاعدة التدمرية ٣/٢٨ ـ ٣٤ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

المطلب الرابع: جهوده في تقرير أن عدم عِلْم أهل السنة والجماعة بالكيفية لا يقدح في حقيقة إيمانهم بالأسماء والصفات ومعرفة معانيها.

وإليك هذه المطالب الأربعة مصحوبة بكلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ المُقرِّر لها:

* * *

المطلب الأول:

جهوده في تقرير عِلْم أهل السنة والجماعة أنَّ الله تعالى لم يُطلع الخلق على ذاته

إنَّ الله ــ عزَّ وجلّ ــ قد حجب عن جميع خلقه معرفة كنه ذاته وكيفيتها، ولم يجعل إلى الوصول إلى ذلك سبيلاً، وأهل السنة والجماعة قد أيقنوا بحقيقة هذا الأمر؛ فلم يتكلَّفوا طلب معرفة كنه الذات وكيفيتها، بل أثبتوا لله ــ سبحانه وتعالى ــ حقيقة أسمائه وصفاته؛ وفقهوا معناها.

وقد تجلَّى تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لمعتقد أهل السنة والجماعة؛ وعلمهم أن الله تعالى لم يُطلع الخلق على ذاته في مسائل:

المسألة الأولى:

تقريره أنَّ الله تعالى لم يُكلِّف عباده معرفة كنه ذاته المقدسة وكيفيَّتها؛ ولا أراده منهم؛ ولم يجعل لهم إليه سبيلاً.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن من أثبت له ــ سبحانه ــ السمع والبصر: أثبتهما حقيقة؛ وفهم معناهما.

فهكذا سائر صفاته المقدسة يجب أن تُجرى هذا المجرى، وإن كان لا سبيل لنا إلى معرفة كنهها وكيفيَّتها.

فإن الله ــ سبحانه ــ لم يُكلِّف عباده بذلك؛ ولا أراده منهم؛ ولم يجعل لهم إليه سبيلاً)[1].

فهذا تقريرُ أن الله تعالى لم يُكلِّف أحداً من عباده بمعرفة كنه ذاته المقدسة وكيفيتها؛ وقطع سبيل الوصول إليها، حيث حَجَبَ الله تعالى عِلْمَ كيفيَّة ذاته عن العباد؛ وحال بينهم وبين معرفة كُنْهِهَا: لأنه ــ سبحانه وتعالى ــ أكبرُ من أن يُحاط به علماً وأجلُّ وأعظم، ولأن القُوَى البشريَّة عاجزة عن تحمُّل عظمة ذلك؛ وقاصرة عن الإحاطة به علماً.

فإن كان الله تعالى قد احتجب عن عباده في هذه الدنيا ــ رحمةً ورأفةً بهم ــ ؛ فلم يُمكِّن أحداً من رؤيته ــ مع نضرة الأبصار بالنظر في دار القرار إلى وجه الله الواحد القهار ــ : فما ظنُّك بالإحاطة به ــ سبحانه وتعالى ــ علماً.

المسألة الثانية:

تقريره أنَّ الله تعالى أكبر وأجلُّ وأعظم من أن يُحاط به علماً.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (إنَّ الله ــ سبحانه ــ لا يُحاط به علماً ولا معرفة ولا رؤية، فهو أكبر من ذلك وأجلُّ وأعظم، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[2])[3].

فهذا تقريرٌ لأحد سببي عدم إحاطة العلم بالله تعالى؛ وهو: أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لم يُكلِّف أحداً من عباده بمعرفة كنه ذاته وكيفيَّتها؛ ولا أراده منهم؛ ولم يجعل لهم إليه سبيلاً.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ٤٢٧.

(٢) سورة طه: الآية ١١٠.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٥٣.

والسبب الآخر: أنه لا سبيل للقوى البشرية إلى معرفة ذلك؛ والإحاطة به ــ معرفة وعلماً ــ .

المسألة الثالثة:

تقريره أنه لا سبيل للقُوَى البشرية إلى معرفة حقيقة الذات الإلٰهية وكنهها:

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنه لا سبيل للقوى البشرية إلى شهود الذات الإلٰهية ألبتة؛ ولا يقع الشهود على تلك الحقيقة؛ ولا جُعِلَ ذلك إليها، وإنما إليها: شهود الصفات والأفعال، وأما حقيقة الذات والعين: فغير معلومة للبشرية.

ولما سأل المشركون رسول الله ﷺ عن حقيقة ربِّه ــ سبحانه ــ : «من أيِّ شيءٍ هو؟ أنزل الله ــ عزَّ وجلّ ــ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1]»[2].

ولذلك لما سأل فرعون موسى عن حقيقة ربِّه بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ

---

(١) سورة الإخلاص: الآيات ١ ــ ٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢١٢١٩) ــ ٣٥/ ١٤٣ ــ ١٤٤]، والبخاري في تاريخه الكبير [الترجمة رقم (٧٧٨) ــ ١/ ٢٤٥]، والترمذي في جامعه [أبواب تفسير القرآن/ باب ومن سورة الإخلاص ــ الحديث رقم (٣٣٦٤ ــ ٣٣٦٥) ــ ٥/ ٣٨٠] من حديث أبي بن كعب ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد».
وحسنه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٣٧٨ ــ ٣٧٩].
وانظر: أسباب النزول للواحدي ص٤٧١ ــ ٤٧٢، لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص٢١٩، أسباب النزول عن الصحابة والتابعين للقاضي ص٢٥٢.

ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾؟[1] أجابه موسى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾[2].

إذ لا وصول للبشر إلى حقيقة ذاته، فدلهَّم على نفسه بصفاته الثبوتية؛ من كونه صمداً، وصفاته السلبية المتضمنة للثبوت؛ من كونه: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾[3]. لم يجعل لهم سبيلاً إلى معرفة الذات والكنه)[4].

فهذا تقريرُ أن القُوَى البشرية لما كانت قاصرة عن معرفة كنه الذات الإلٰهية؛ وعاجزة عن إدراك كيفيتها ــ حتى مع إمكانية رؤيتها في الآخرة ــ: فقد فتح الله تعالى لهم ــ برحمته بهم ورأفته بحالهم ــ: باب معرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ والفقه بمعانيها، فهذا مبلغهم من العلم والمعرفة، وما وراء ذلك من معرفة كنه الذات والعلم بكيفيتها: فهو من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وواجب العباد فيه: أن يقفوا عنده؛ ويقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾[5].

المسألة الرابعة:

تقريره أنّ الربّ ـ تبارك وتعالى ـ يستحيل إدراك كنه ذاته والإحاطة بكيفيتها حتى مع رؤية الأبصار له في دار القرار.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (لما تجلَّى ــ تبارك وتعالى ــ للجبل؛ وكشف من الحجاب شيئاً يسيراً: ساخ الجبل في الأرض؛ وتدكدك؛ ولم يقم لربِّه ــ تبارك وتعالى ــ.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٣.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٤.
(٣) سورة الإخلاص: الآيتان ٣ ــ ٤.
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٤٥.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٧.

وهذا معنى قول ابن عباس ــ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1] ــ قال: (ذلك الله ــ عزَّ وجلّ ــ إذا تجلَّى بنوره: لم يقم له شيء)[2].

وهذا من بديع فهمه ــ رضي الله تعالى عنه ــ ؛ ودقيق فطنته، كيف وقد دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله التأويل؟[3].

فالربُّ ــ تبارك وتعالى ــ يُرى يوم القيامة بالأبصار عياناً، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له، وإن رأته: فالإدراك أمرٌ وراء الرؤية.

وهذه الشمس ــ ولله المثل الأعلى ــ نراها ولا نُدركها كما هي عليه؛ ولا قريباً من ذلك.

ولذلك قال ابن عباس ــ لمن سأله وأورد عليه: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ــ فقال: (ألست ترى السماء؟ قال: بلى. قال: أفتدركها؟ قال: لا. قال: فالله ــ تعالى ــ أعظم وأجلُّ)[4][5].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب تفسير القرآن/ باب ومن سورة النجم ــ الحديث رقم (٣٢٧٩) ــ ٥/ ٣١٦].
وضعفه الألباني في [ظلال الجنة في تخريج السنة: الحديث رقم (٤٣٧) ــ ص١٩٠].

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٣٩٧) ــ ٤/ ٢٢٥] من حديث عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ ، وأوله: «اللَّـهُمَّ فقِّه في الدين».
وصححه الألباني في [شرح العقيدة الطحاوية: الحديث رقم (١٨٠) ــ ص٢١٤].

(٤) انظر: الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ٣/ ٦٩.
وقد أخرج ابن أبي حاتم نحو طرف الأثر الأول في تفسير القرآن العظيم [رقم (٧٧٣٧) ــ ٤/ ١٣٦٣] عن عكرمة مولى ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ .
كما أخرج الطبري نحو طرفه الآخر: في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٧/ ٢٩٩] عن قتادة.

(٥) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٧٤.

فهذا تقريرٌ لانتفاء إدراك العباد وإحاطتهم علماً بكنه الذات الإلـٰهية المقدسة وكيفيتها؛ حتى مع رؤيتهم للربِّ ــ تبارك وتعالى ــ يوم القيامة بالأبصار عياناً، لأن الإدراك أمرٌ وراء الرؤية.

وكيف يُعقل أن يُدرك المخلوقُ الضعيفُ حقيقةَ ذات الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ وماهيته؛ وهو جاهلٌ بحقيقة وماهية مخلوقٍ مثله؟

المسألة الخامسة:

تقريره أن العبد كما يجهل حقيقة المخلوقات وماهيتها وكيفيّتها: فجهله لحقيقة خالقها وماهيّة ذاته وكيفية أسمائه وصفاته أولى.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ عن أصحاب سواء السبيل: (نقول: له ذاتٌ حقيقةٌ ليست كالذوات، وله صفاتٌ حقيقةٌ لا مجازاً ليست كصفات المخلوقين، وكذلك قولنا في وجهه ــ تبارك وتعالى ــ ويديه وسمعه وبصره وكلامه واستوائه.

ولا يمنعنا ذلك أن نفهم المراد من تلك الصفات وحقائقها؛ كما لم يمنع ذلك مَن أثبت لله شيئا من صفات الكمال مِن فهم معنى الصفة وتحقيقها.

فإن من أثبت له ــ سبحانه ــ السمع والبصر أثبتهما حقيقة؛ وفهم معناهما، فهكذا سائر صفاته المقدسة يجب أن تُجرى هذا المجرى، وإن كان لا سبيل لنا إلى معرفة كنهها وكيفيتها.

فإن الله ــ سبحانه ــ لم يُكلِّف عباده بذلك؛ ولا أراده منهم؛ ولم يجعل لهم إليه سبيلاً، بل كثيرٌ من مخلوقاته أو أكثرها لم يجعل لهم سبيلاً إلى معرفة كنهه وكيفيته.

وهذه أرواحهم التي هي أدنى إليهم من كلِّ دانٍ: قد حجب عنهم

معرفة كنهها وكيفيتها؛ وما جعل لهم السبيل إلى معرفتها والتمييز بينها وبين أرواح البهائم.

وقد أخبرنا ــ سبحانه ــ عن تفاصيل يوم القيامة وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم ولم يعرفوا كيفيته وكنهه.

فلا يشكُّ المسلمون أن في الجنة أنهاراً من خمرٍ؛ وأنهاراً من عسلٍ؛ وأنهاراً من لبنٍ، ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته، إذ كانوا لا يعرفون في الدنيا الخمر إلا ما اعتُصر من الأعناب، والعسل إلا ما قذفت به النحل في بيوتها، واللبن إلا ما خرج من الضروع، والحرير إلا ما خرج من فم دود القزِّ، فهموا معاني ذلك في الجنة من غير أن يكون مماثلاً لما في الدنيا.

كما قال ابن عباس: (ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء)(1).

ولم يمنعهم عدم النظير في الدنيا من فَهْمِ ما أُخبروا به من ذلك، فهكذا الأسماء والصفات لم يمنعهم انتفاء نظيرها في الدنيا ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها، بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها.

وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته ــ سبحانه ــ لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن: **أحدها**: قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾(2).

---

(1) أخرجه هناد بن السري في الزهد [رقم (٣؛ ٨) ــ ١/ ٤٩؛ ٥١]، والطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [١/ ١٧٤]، وابن أبـي حاتم في تفسير القرآن العظيم [رقم (٢٦٠) ــ ١/ ٦٦].

(2) سورة النحل: الآية ٦٠.

الثاني: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[1].

الثالث: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2].

فنفى ـ سبحانه ـ المماثلة عن هذا المثل الأعلى)[3].

فهذا تقريرُ أن العبد كما يجهل حقيقة المخلوقات وماهيتها وكيفيَّتها: فجهله لحقيقة خالقها وماهيَّة ذاته وكيفية أسمائه وصفاته: أولى وأحرى، وقد قرَّب الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تقرير هذه المسألة بمثلين مضروبين:

المثل الأول: هو الجنة، ووجه دلالة هذا المثل على قطع الطمع عن إدراك حقيقة الله تعالى وماهيَّة ذاته وكيفية أسمائه وصفاته: أنه إذا كان معرفة الجنة المخلوقة على نعتها ممتنعاً؛ (فكيف بمعرفة ربِّ الأرض والسماء)[4]؟ فإذا كانت الحقائق التي في الجنة (موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا وليست مماثلة لها؛ بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله تعالى: فالخالق ـ سبحانه وتعالى ـ أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، ومباينته لمخلوقاته أعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا، إذ المخلوق أقرب إلى المخلوق الموافق له في الاسم من الخالق إلى المخلوق)[5].

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٦ ـ ٤٢٩.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٦٧.

(٥) القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/ ٢٨ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

وأما المثل الثاني: فهو الروح، ووجه دلالة هذا المثل على قطع الطمع عن إدراك حقيقة الله تعالى وماهيَّة ذاته وكيفية أسمائه وصفاته: أنكَ إذا كنتَ (لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك ــ فلا تعرف حقيقتها ولا ماهيتها ولا كيفيتها ــ ؛ فكيف تعرف ربَّك وكيفيَّة صفاته)[1]؟ فإذا كانت تلك الحقائق التي في الروح من كونها (موجودة حية؛ عالمة قادرة؛ سميعة بصيرة؛ تصعد وتنزل؛ وتذهب وتجيء؛ ونحو ذلك من الصفات، والعقول قاصرة عن تكييفها وتحديدها ــ لأنهم لم يُشاهدوا لها نظيراً، والشيء إنما تُدرك حقيقته: بمشاهدته؛ أو مشاهدة نظيره، فإذا كانت الروح متصفة بهذه الصفات؛ مع عدم مماثلتها لما يُشاهد من المخلوقات ــ : فالخالق أولى بمباينته لمخلوقاته؛ مع اتصافه بما يستحقُّه من أسمائه وصفاته، وأهل العقول: هم أعجز عن أن يُحدُّوه أو يُكيِّفوه منهم عن أن يُحدُّوا الروح أو يُكيِّفوها)[2].



(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٦١.

(٢) القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/ ٣٣ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير عِلْم أهل السنة والجماعة أن العقول قاصرة عن معرفة كيفية أسماء الله تعالى وصفاته

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل العقول البشرية وسيلة إلى معرفته ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ـ معرفة مجملة، وخاطبها على ألسنة رسله؛ وبواسطة كتبه، فصار لها مع الإيمان إيمانٌ، وبعد الإيقان إيقانٌ.

ومحال أن تستقلَّ العقول البشرية بمعرفة حقائق الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ وإدراكها على التفصيل، بل هي قاصرة ـ مهما ترقَّت في أوج العلم والمعرفة ـ عن إدراك كيفية أسماء الله تعالى وصفاته.

لذا فأهل السنة والجماعة قد أدركوا منزلة العقل التي أنزله الله تعالى إياها، فلم يروموا تكليفه فوق طاقته.

والإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ قد قرَّر عِلْمَ أهل السنة والجماعة بحقيقة العقول البشرية؛ وأنها قاصرةٌ عن معرفة كيفية أسماء الله تعالى وصفاته، وبيان ذلك في المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى:

تقريره استحالة استقلال العقول البشرية بمعرفة ربِّها بأسمائه وصفاته؛ وإدراكه على التفصيل.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في معرفة العقول بربِّها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله: (من المحال أن تستقلَّ العقول البشرية بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به مُعرِّفين؛ وإليه داعين؛ ولمن أجابهم مُبشِّرين؛ ومن خالفهم مُنْذِرين)[1].

فهذا تقريرٌ لاستحالة معرفة العقول البشرية بكنه الذات الإلـٰهية؛ وكيفيَّتها، وإنما غاية ما تبلغه هذه العقول من العلم والمعرفة: أن تتعرَّف على ربِّها تعالى ـ بواسطة الكتب المنزلة؛ والأنبياء المرسلة ـ من وجهٍ مجملٍ؛ أو مُفصَّلٍ تفصيلاً من بعض الوجوه.

وإن مما يُدرك بالعقل البشريِّ ـ المُبصَّر بالعلم الشرعيِّ ـ من وجهٍ مجملٍ؛ أو مُفصَّلٍ تفصيلاً من بعض الوجوه: فهم معاني أسماء الله تعالى وصفاته؛ والفقه فيها، وأما كيفيتها: فغير معقولةٍ، لأن تَعَقُّل الكيفية: فرعُ العلم بكيفية الذات وكنهها.

المسألة الثانية:

تقريره أنَّ معاني الأسماء والصفات كلّها مفهومة، وأما كيفيتها: فغير معقولةٍ؛ لأنها فرعُ العلم بكيفية الذات وكنهها.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (إنَّ حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات: بإجراء أخبارها على ظواهرها؛ وهو اعتقاد

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٥٠.

مفهومها المتبادر إلى أذهان العامة ــ ولا يُعنى بالعامة: الجهال؛ بل عامة الأمة ــ .

كما قال مالك ــ رحمه الله ــ وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[1]؟ فأطرق مالك؛ حتى علاه الرحضاء[2]، ثم قال: (الاستواء معلوم؛ والكيف غير معقول؛ والإيمان به واجب؛ والسؤال عنه بدعة)[3].

ففرّق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة؛ وبين الكيف الذي لا يعقله البشر. وهذا الجواب من مالك ــ رضي الله عنه ــ : شافٍ عامٌّ في جميع مسائل الصفات.

فمن سأل عن قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾[4]: كيف يسمع ويرى؟ أُجيب بهذا الجواب بعينه؛ فقيل له: السمع والبصر معلوم؛ والكيف غير معقول، وكذلك من سأل عن العلم والحياة والقدرة والإرادة والنزول والغضب والرضى والرحمة والضحك وغير ذلك: فمعانيها كلُّها مفهومة؛ وأما كيفيتها: فغير معقولة، إذ تَعَقُّل الكيفية: فرع العلم بكيفية الذات وكنهها، فإذا كان ذلك غير معقول للبشر؛ فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟

والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يُوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ؛ ومن غير تكييفٍ

---

(١) سورة طه: الآية ٥.

(٢) الرحضاء: العرق إثر الحُمَّى.

انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٤/٢٠٣، المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٢/٤٤١، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص٨٢٩ [مادة: رحض].

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) سورة طه: الآية ٤٦.

ولا تمثيلٍ، بل تُثبت له الأسماء والصفات؛ وتُنفى عنه مشابهة المخلوقات، فيكون إثباتك مُنزَّهاً عن التشبيه؛ ونفيك مُنزَّهاً عن التعطيل.

فمن نفى حقيقة الاستواء: فهو معطلٌ، ومن شبَّهه باستواء المخلوق على المخلوق: فهو ممثلٌ، ومن قال: استواء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]: فهو المُوحِّد المُنزِّه.

وهكذا الكلام في السمع والبصر والحياة والإرادة والقدرة واليد والوجه والرضى والغضب والنزول والضحك؛ وسائر ما وصف الله به نفسه)[2].

❑ ❑ ❑

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٨٩ ـ ٩٠.

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير معنى قول السلف بلا كيف

إنَّ سلف الأمة ــ رضوان الله عليهم ــ قد عُنُوا بباب الأسماء والصفات أيَّما عناية، وكان الإيمان بحقائقه وفهم معانيه عندهم أعظم غاية، وقد سدُّوا جميع الطرق والسبل المؤدِّية إلى تعطيله أو تحريفه بقولهم في هذا الباب: (بلا كيف)[1].

وهذا القول منهم: بيانٌ أن العقل قد يئس من تعرُّف كنه صفة الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ وكيفيتها، لأنه لا يعلم كيف الله: إلا الله تعالى، فكيف يسوغ لأرباب التعطيل: تأويل هذا الباب؛ وتحريف كلمه عن مواضعه؟

وأهل السنة والجماعة لا (ينفون الكيف مطلقاً ــ فإن كلَّ شيءٍ لا بُدَّ أن يكون على كيفيةٍ ما ــ، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف، إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو ــ سبحانه)[2] وتعالى ــ، (لأن الشيء لا تُعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته؛ أو العلم بنظيره المُساوي

---

(١) قال البغوي في [معالم التنزيل ٣/٢٣٦]: (رُوِيَ عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة: (أمرُّوها كما جاءت بلا كيف)).

(٢) شرح العقيدة الواسطية لهراس ص٦٩.

له؛ أو بالخبر الصادق عنه، وكلُّ هذه الطرق منتفية في ك
ـ عزَّ وجلّ ـ ، فوجب بطلان تكييفها)[1].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى
السلف: (بلا كيف)، وبيَّن مرادهم به، وبيان تقريره يتَّضح في المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى:

تقريره أن معنى قول السلف: (بلا كيف): أي بلا كيف يعقل به البشر كُنهَ ذات الربّ تعالى وكيفية أسمائه وصفاته.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن العقل قد يئس من تعرُّف كنه الصفة وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله: إلا الله، وهذا معنى قول السلف: (بلا كيف). أي: بلا كيف يعقله البشر، فإن من لا تُعلم حقيقةُ ذاته وماهيته: كيف تُعرف نعوته وصفاته؟

ولا يقدح ذلك في الإيمان بها؛ ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك، كما أنا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر ولا نعرف حقيقة كيفيته؛ مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق، فعَجْزُنا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته: أعظم وأعظم.

فكيف يطمع العقل المخلوق المحصور المحدود في معرفة كيفية مَن له الكمال كلُّه؛ والجمال كلُّه؛ والعلم كلُّه؛ والقدرة كلُّها؛ والكبرياء كلُّها؟ مَن لو كَشَفَ الحجاب عن وجهه: لأحرقت سبحاته السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وما وراء ذلك، الذي يقبض سماواته بيده؛ فتغيب كما تغيب الخردلة في كفِّ أحدِنا، الذي نسبة علوم الخلائق كلِّها إلى علمه: أقلُّ من

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص٣٦.

نسبة نقرة عصفورٍ من بحار العلم، الذي لو أنَّ البحر يمدُّه من بعده سبعة أبحرٍ مدادٍ؛ وأشجار الأرض من حين خُلقت إلى قيام الساعة أقلام؛ لفني المداد وفنيت الأقلام ولم تنفد كلماته، الذي لو أن الخلق من أول الدنيا إلى آخرها ـ إنسهم وجنهم؛ وناطقهم وأعجمهم ـ جُعلوا صفاً واحداً: ما أحاطوا به ـ سبحانه ـ ، الذي يضع السماوات على أصبع من أصابعه؛ والأرض على أصبع؛ والجبال على أصبع؛ والأشجار على أصبع؛ ثم يهزُّهنَّ؛ ثم يقول: أنا الملك.

فقاتل الله الجهمية والمعطلة؛ أين التشبيه ههنا؛ وأين التمثيل؟ لقد اضمحل ههنا كلُّ موجودٍ سواه؛ فضلاً عن أن يكون له ما يماثله في ذلك الكمال ويشابهه فيه، فسبحان من حجب عقول هؤلاء عن معرفته؛ وولاها ما تولَّت من وقوفها مع الألفاظ التي لا حُرْمَة لها والمعاني التي لا حقائق لها.

ولما فهمت هذه الطائفة من الصفات الإلـٰهية ما تفهمه من صفات المخلوقين: فرَّت إلى إنكار حقائقها وابتغاء تحريفها؛ وسمته: تأويلاً. فشبهت أوَّلاً؛ وعطَّلت ثانياً؛ وأساءت الظنَّ بربِّها وبكتابه وبنبيه وبأتباعه.

أما إساءة الظنِّ بالربِّ: فإنها عطَّلت صفات كماله؛ ونسبته إلى أنه أنزل كتاباً مشتملاً على ما ظاهره كفرٌ وباطلٌ؛ وأن ظاهره وحقائقه غير مرادة.

وأما إساءة ظنِّها بالرسول: فلأنه تكلَّم بذلك وقرَّره وأكَّده؛ ولم يُبيِّن للأمة أن الحقَّ في خلافه وتأويله.

وأما إساءة ظنِّها بأتباعه: فبنسبتهم لهم إلى التشبيه والتمثيل والجهل والحشو، وهم عند أتباعه أجهل من أن يُكفِّروهم؛ إلا من عاند الرسول وقصد نفي ما جاء به، والقوم عندهم في خفارة جهلهم، قد حُجبت قلوبُهم

عن معرفة الله؛ وإثبات حقائق أسمائه وأوصاف كماله)[1].

فهذا تقريرُ أن الواجب الشرعيَّ على العقل البشريِّ: هو الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته؛ والفقه في معانيها، وأما السؤال عن كنهها بـ: كيف؟ فليس هو من الواجب الشرعيِّ؛ بل هو مُحدثٌ بدعيٌّ، لأنه لا يعلم كيف الله: إلا الله تعالى.

وإذا عُلِمَ أنه لا يعلم كنه ذات الله تعالى؛ وكيفية أسمائه وصفاته إلا الله تعالى: تبيَّن مراد سلف الأمة ــ رحمهم الله تعالى ــ بقولهم: (بلا كيف)؛ وأنه ردٌّ على أهل التأويل الذين حرَّفوا ألفاظ هذا الباب؛ وعطَّلوا معانيه.

المسألة الثانية:

تقريره أن معنى قول السلف: (بلا كيف): نفيٌ للتأويل الفاسد في أسماء الله تعالى وصفاته.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (ومراد السلف بقولهم: (بلا كيف): هو نفي التأويل، فإنه التكييف الذي يزعمه أهل التأويل، فإنهم هم الذين يُثبتون كيفيةً تخالف الحقيقة، فيقعون في ثلاثة محاذير: نفي الحقيقة، وإثبات التكييف بالتأويل، وتعطيل الربِّ تعالى عن صفته التي أثبتها لنفسه.

وأما أهل الإثبات: فليس أحدٌ منهم يُكيِّف ما أثبته الله تعالى لنفسه ويقول: كيفية كذا وكذا؛ حتى يكون قول السلف: (بلا كيف) ردًّا عليه، وإنما ردُّوا على أهل التأويل الذي يتضمن التحريف والتعطيل: تحريف اللفظ؛ وتعطيل معناه)[2].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٦ ــ ٣٧٧.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص١٩٩.

المطلب الرابع:

جهوده في تقرير أن عدم عِلْم أهل السنة والجماعة بالكيفية لا يقدح في حقيقة الإيمان بالأسماء والصفات ومعرفة معانيها

إنَّ الله تعالى قد وَسِعَ كلَّ شيءٍ رحمة وعلماً، ومن تمام رحمته ــ سبحانه ــ بعباده أنه شرع لهم من الشرائع وكلَّفهم من الأعمال ما يُطيقون، فلم يُكلِّفهم ــ سبحانه ــ معرفة كنه ذاته وكيفيتها، إذ إن ذلك ليس بوسعهم، وليس ذلك بقادحٍ في إيمانهم بحقائق الأسماء والصفات.

وأهل السنة والجماعة مع إيمانهم بأن العقول قاصرةٌ عن إدراك كيفية أسماء الله تعالى وصفاته؛ إلا أنهم موقنون بأن هذا القصور لا يقدح في إيمانهم.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ معتقد أهل السنة والجماعة أحسن تقرير؛ مبيناً أنه لا تعارض بين الإيمان بحقائق الأسماء والصفات وفهم معانيها؛ وبين عدم إدراك الكيفية والعلم بها، وبيان ذلك في المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى:

تقريره أنَّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين قد اتفقت كلمتهم في باب الأسماء والصفات على فهم أصل معناها؛ لا فهم كنهها وكيفيتها.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ عن الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ: (لم يتنازعوا في تأويل آيات الصفات وأخبارها في موضعٍ واحدٍ، بل اتفقت كلمتهم وكلمة التابعين بعدهم على إقرارها وإمرارها ــ مع فهم معانيها، وإثبات حقائقها ــ.

وهذا يدلُّ على أنها أعظم النوعين بياناً، وأن العناية ببيانها أهمُّ: لأنها من تمام الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبيَّنها الله ورسوله بياناً شافياً لا يقع فيه لبسٌ؛ ولا إشكالٌ ــ يُوقع الراسخين في العلم في منازعةٍ ــ؛ ولا اشتباهٍ.

ومن شرح الله لها صدره، ونوَّر لها قلبه: يعلم أن دلالتها على معانيها أظهر من دلالة كثيرٍ من آيات الأحكام على معانيها، ولهذا آيات الأحكام: لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس، وأما آيات الأسماء والصفات: فيشترك في فهمها الخاص والعام ــ أعني: فهم أصل المعنى؛ لا فهم الكنه والكيفية ــ)[1].

فهذا تقرير أن سلف الأمة ــ رضي الله عنهم ــ لم يتنازعوا في باب أسماء الله تعالى وصفاته؛ بل اتفقوا على إقرار نصوص هذا الباب وإمرارها، مع فهمهم لأصل معناها؛ لا فهم كنهها وكيفيتها، لذا فقد فسَّر أهل السنة والجماعة كتاب الله تعالى؛ وعلموا المراد بآيات الأسماء والصفات ــ كما علموا المراد من آيات الأمر والنهي ــ؛ وإن لم يعلموا كيفيتها.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢١٠.

المسألة الثانية:

تقريره أن الصحابة والتابعين الذين فسّروا كلام الله تعالى علموا المراد بآيات الصفات؛ وإن لم يعلموا حقيقة كنهها وكيفيتها.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (تأويل الكلام الطلبي: هو نفس فعل المأمور به والمنهي عنه، كما قال ابن عيينة: (السنة: تأويل الأمر والنهي)[1].

وقالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: سبحانك اللّٰهُمَّ ربنا وبحمدك؛ يتأول القرآن»[2].

وأما تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر: فهو نفس الحقيقة التي أخبر الله عنها، وذلك في حقِّ الله: هو كنه ذاته وصفاته التي لا يعلمها غيره.

ولهذا قال مالك وربيعة[3]: (الاستواء معلوم، والكيف

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في: درء تعارض العقل والنقل ١/٢٠٦، تفسير سورة الإخلاص ١٧/٣٩٦ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، ولم أقف عليه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأذان/ باب التسبيح والدعاء في السجود ــ الحديث رقم (٨١٧) ــ ١/ ٢٥٠]، ومسلم في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب ما يقال في الركوع والسجود ــ الحديث رقم (٤٨٤) ــ ١/ ٣٥٠].

(٣) هو: أبو عثمان ربيعة بن فروخ القرشي التيمي مولاهم، مفتي المدينة؛ المشهور بـ: ربيعة الرأي، توفي سنة ست وثلاثين ومائة.
انظر في ترجمته: صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ١٤٨ ــ ١٥٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/ ٨٩ ــ ٩٦، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ١/ ١٩٤.

مجهول)[1].

وكذلك قال ابن الماجشون[2] والإمام أحمد وغيرهما من السلف: (إنا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به عن نفسه، وإن كنا نعلم تفسيره ومعناه)[3].

وقد فسر الإمام أحمد الآيات التي احتج بها الجهمية من المتشابه؛ وقال: (إنهم تأوَّلوها على غير تأويلها)[4]. وبيَّن معناها.

وكذلك الصحابة والتابعون: فسَّروا القرآن؛ وعلموا المراد بآيات الصفات؛ كما علموا المراد من آيات الأمر والنهي؛ وإن لم يعلموا الكيفية، كما علموا معاني ما أخبر الله به في الجنة والنار؛ وإن لم يعلموا حقيقة كنهه وكيفيته.

فمن قال من السلف: (إن تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله)[5]؛ بهذا المعنى: فهو حقٌّ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هو: أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن الماجشون التيمي مولاهم، مفتي المدينة، وكان ضرير البصر؛ ويقال: إنه عمي آخر عمره، توفي سنة اثنتي عشرة ومائتين؛ وقيل: ثلاث عشرة؛ وقيل: أربع عشرة؛ وهو ابن بضع وستين سنة.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٣٥٩ ــ ٣٦٠، نكت الهميان في نكت العميان للصفدي ص١٩٧، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ٢/ ٦ ــ ٧.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل ص١٠٤.

(٥) لم أقف عليه.

وأما من قال: (إن التأويل ـ الذي هو تفسيره وبيان المراد منه ـ لا يعلمه إلا الله)[1]: فهذا غلط، والصحابة والتابعون وجمهور الأمة على خلافه.

قال مجاهد: (عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته؛ أقفه عند كلِّ آيةٍ؛ وأسأله عنها)[2].

وقال عبد الله بن مسعود: (ما في كتاب الله آية؛ إلا وأنا أعلم فيما أنزلت)[3].

وقال الحسن البصري: (ما أنزل الله آية؛ إلا وهو يُحِبُّ أن يُعلم ما أراد بها)[4].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه [كتاب فضائل القرآن/ في درس القرآن وعرضه ـ رقم (٣٠٢٨٧) ـ ٦/ ١٥٤]، وأحمد في فضائل الصحابة [فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنه ـ رقم (١٨٦٦ ـ ١٨٦٨) ـ ٢/ ١٢١٥ ـ ١٢١٦]، والدارمي في سننه [كتاب الطهارة/ باب إتيان النساء في أدبارهن ـ رقم (١١٠٨) ـ ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١]، والخلال في السنة [رقم (٢٦٥) ـ ١/ ٢٣٣]، والحاكم في مستدركه [كتاب التفسير/ من سورة البقرة ـ رقم (٣١٠٥) ـ ٢/ ٣٠٧]، وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [٣/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠].

قال الذهبي في التلخيص: (على شرط مسلم).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب فضائل القرآن/ باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ـ الحديث رقم (٥٠٠٢) ـ ٤/ ١٦١٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل عبد الله بن مسعود ـ الحديث رقم (٢٤٦٣) ـ ٤/ ١٩١٣].

(٤) لم أقف عليه.

وقال مسروق[1]: (ما نسأل أصحاب محمدٍ عن شيءٍ: إلا وعِلْمُه في القرآن، ولكن عِلْمُنا قَصُرَ عنه)[2].

وقال الشعبي[3]: (ما ابتدع قومٌ بدعةً: إلا وفي كتاب الله بيانها)[4])[5].

فهذا المطلب ــ بحمد الله تعالى ــ قد تضمن تقرير عدم عِلْم أهل السنة والجماعة بالكيفية؛ مع عدم قدح ذلك في حقيقة إيمانهم بالأسماء الحسنى والصفات العلى؛ ومعرفة معانيها، لأن الله تعالى قد قطع الطمع عن إدراك كيفية ذاته وأسمائه وصفاته.

---

(١) هو: أبو عائشة مسروق بن الأجدع الهمداني الكوفي، الإمام القدوة، يقال: إنه سُرِقَ وهو صغيرٌ ثم وُجِدَ؛ فسمي مسروقاً، وعداده في كبار التابعين؛ وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ، توفي بالكوفة سنة ثلاث وستين؛ وله ثلاث وستون سنة.

انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣/ ٢٣٢ ــ ٢٣٥، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٥/ ١٥٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٦٣ ــ ٦٩.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) هو: أبو عمرو عامر بن شراحيل الهمداني ثم الشعبي، علامة العصر، ولد في إمرة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ؛ لست سنين خلت منها، توفي سنة أربع ومائة؛ وقد بلغ ثنتين وثمانين سنة.

انظر في ترجمته: أخبار القضاة لوكيع ٢/ ٤١٣ ــ ٤٢٨، طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص٧٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٢٩٤ ــ ٣١٩.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٢٣ ــ ٩٢٥.

قلت: نقل الإمام ابن قيم الجوزية هذا الكلام ــ مصحوباً بنقل الآثار ــ بتصرفٍ يسيرٍ من كتاب شيخه ابن تيمية ــ رحمهما الله تعالى ــ: درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٠٦ ــ ٢٠٨.

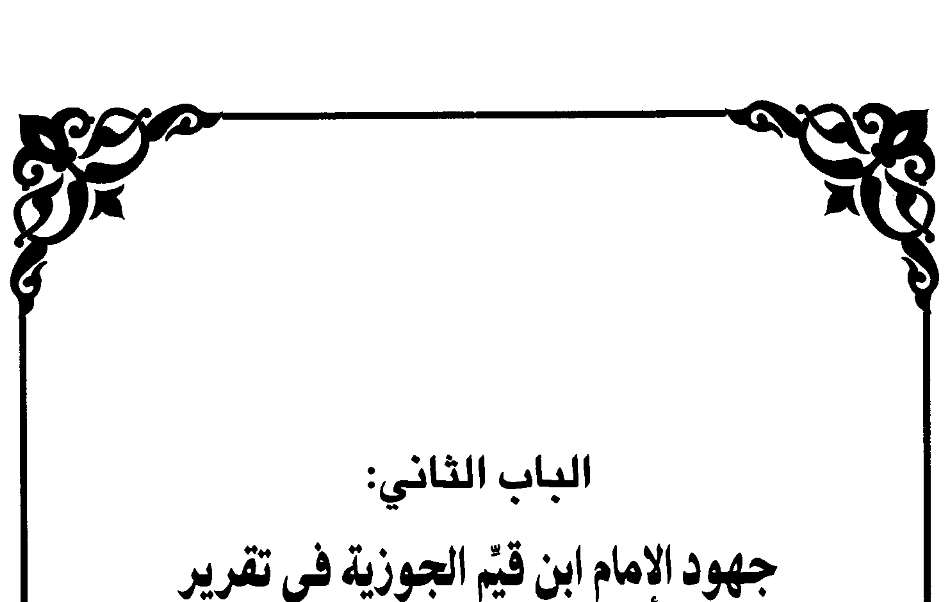
وبهذا يُختتم الفصل الثالث المتضمن لتقرير وسطية أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات؛ وبيان مجمل معتقدهم فيه، وهو آخر فصول الباب الأول المتضمن لتقرير أهمية توحيد الأسماء والصفات وبيان معتقد أهل السنة والجماعة فيه، وهو (بابٌ عظيمُ النفعِ، وإنما يعرفه أهلُه)[1].

والحمد لله ربِّ العالمين.

❑ ❑ ❑

---

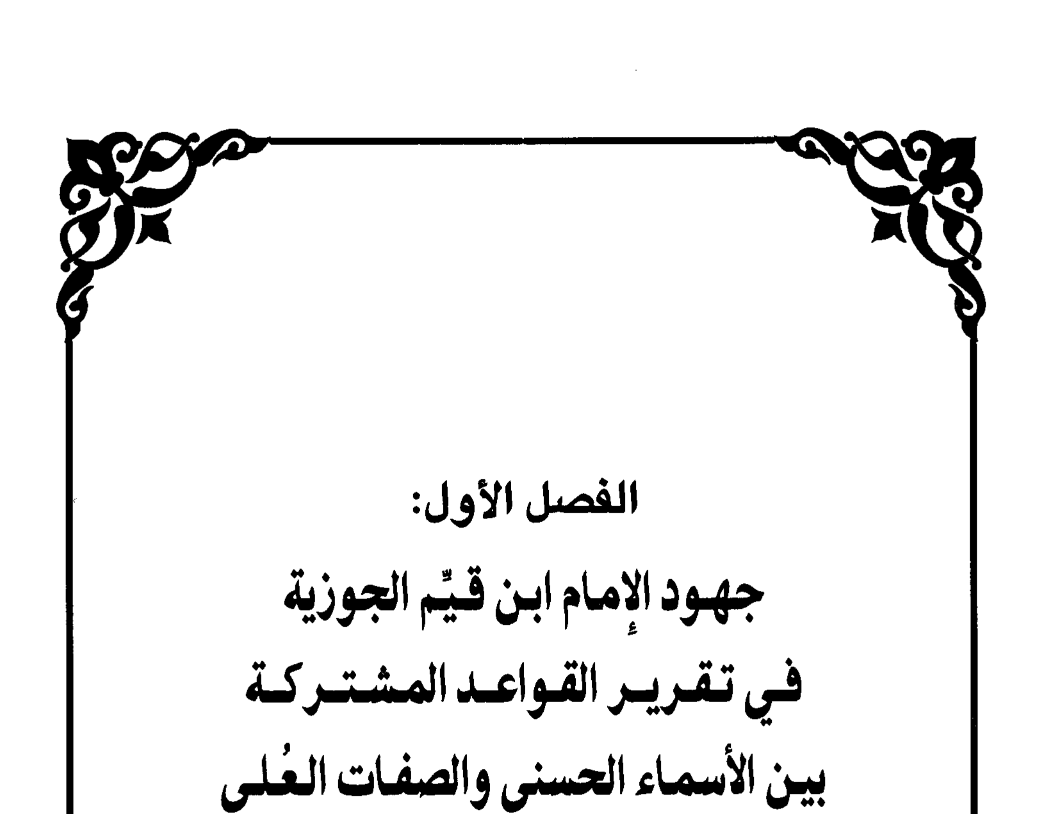
(١) بدائع الفوائد ٣/ ٤.



الباب الثاني:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قواعد الأسماء الحسنى والصفات العلى وأدلتهما





الفصل الأول:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير القواعد المشتركة بين الأسماء الحسنى والصفات العُلى



إنَّ ضبط مسائل العلم المتشعِّبة؛ وإحكام فروعه المتنوِّعة؛ وإدراج ذلك كلِّه تحت قواعد وضوابط متعددة: (هو أوعى لحفظها؛ وأدعى لضبطها)[1]، لأنها تَنْظِم لطالبها (منثور المسائل في سلكٍ واحدٍ، وتُقيِّد له الشوارد؛ وتُقرِّب عليه كلَّ متباعد)[2].

وهذا كلُّه مما أُودع في الشريعة الإسلامية من المحاسن والكمال؛ والجمال والجلال، حيث (إن أحكامها الأصولية والفروعية؛ والعبادات والمعاملات؛ وأمورها كلَّها لها أصولٌ وقواعدُ تضبط أحكامها؛ وتجمع متفرِّقاتها، وتنشر فروعها؛ وتردُّها إلى أصولها)[3].

وقبل البدء بذكر قواعد هذا الباب: يحسن بي أن أُمهِّد بتعريف القاعدة: لغة واصطلاحاً، وأبيِّن أهميَّتها ومنزلتها العلميَّة.

فالقواعد في لغة العرب: هي جمع قاعدة، ويُراد بها: أصل الأُسِّ، ومنه قواعد البيت: أي أساسه[4].

---

(١) المنثور في القواعد للزركشي ١/ ٦٥.

(٢) تقرير القواعد وتحرير الفوائد لابن رجب ١/ ٤.

(٣) الرياض الناضرة والحدائق الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة للسعدي ١/ ٥٢٢ [كتاب مودع ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: ثقافة إسلامية].

(٤) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢، الصحاح للجوهري ٢/ ٥٢٥، لسان العرب لابن منظور ٣/ ٣٦١ [مادة: قعد].

وفي الاصطلاح: تُطلق القاعدة ويُراد بها القضيَّة الكليَّة المنطبقة على جميع جزئياتها، والجامعة لفروعٍ عدةٍ من أبوابٍ شتى[1].

فهذا ما يتعلَّق بتعريف القاعدة ــ لغة واصطلاحاً[2] ــ، وأما ما يتعلَّق بأهميتها وبيان منزلتها العلميَّة[3]: فيتجلى ذلك في أن قواعد كلِّ علمٍ من العلوم؛ أو فنٍ من الفنون (بمنزلة الأساس للبنيان؛ والأصول للأشجار؛ لا ثبات لها إلا بها، والأصول تُبنى عليها الفروع، والفروع تثبت وتتقوى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى وينمى نماء مُطَّرداً، وبها تُعرف مآخذ الأصول، وبها يحصل الفرقان بين المسائل التي تشتبه كثيراً، كما أنها تجمع النظائر والأشباه التي من جمال العِلْم جَمْعُها)[4].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ أهمية القواعد؛ وأشاد بفائدتها ومنزلتها؛ فقال: (لا بُدَّ أن يكون مع الإنسان أصولٌ كليةٌ تُردُّ إليها الجزئيات؛ ليتكلَّم بعلمٍ وعدلٍ، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلا فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئيات؛ وجهلٍ وظلمٍ في الكليات، فيتولَّد

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ص٢١٩، الكليات للكفوي ص٧٢٨، كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ٣/ ٥٠٥ ــ ٥٠٦.

(٢) انظر: موسوعة القواعد الفقهية للدكتور البورنو ١/ ١٩ ــ ٢٤، قواعد التفسير للسبت ١/ ٢٢ ــ ٢٥، مقدمة كتاب القواعد للحصني للدكتور الشعلان ١/ ٢١ ــ ٢٣.

(٣) انظر: موسوعة القواعد الفقهية للدكتور البورنو ١/ ٨، قواعد التفسير للسبت ١/ ٣٦ ــ ٣٧، مقدمة كتاب القواعد للحصني للدكتور الشعلان ١/ ٣٦ ــ ٣٨.

(٤) طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول للسعدي ٢/ ٦ [كتاب مودع ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: ثقافة إسلامية].

فسادٌ عظيمٌ)[1].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في سائر مصنفاته بجمع الفوائد؛ وتقييد الشوارد؛ واقتناص الأوابد، وإدراجها جميعها في كليَّة القواعد[2]، وقد استفاد هذا المنهج من مُعلِّمه شيخ الإسلام ـ رحمهما الله تعالى ـ ، حيث سلك في تقعيد القواعد مسلكه (بالتحقيق للعلوم الأصولية والفروعية؛ والظاهرة والباطنة، وكان من أعظم من انتفع بشيخ الإسلام؛ وأقومهم بعلومه؛ وأوسعهم في العلوم العقلية والنقلية)[3].

وهذه العناية من الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ متعلِّقة بقواعد العلوم على وجه العموم، وأما عنايته ـ رحمه الله تعالى ـ بقواعد الأسماء والصفات على وجه الخصوص: فلم أر ـ حسب اطلاعي وبحثي

---

(١) قاعدة في تصويب المجتهدين وتخطئتهم وتأثيمهم لابن تيمية ٢٠٣/١٩ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) وقد سَمَتَ همة بعض الباحثين ـ في رسائلهم الجامعية ـ إلى العناية بجمع القواعد الفقهية من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ؛ وبيان منهجه فيها، كما قام ـ مشكوراً مأجوراً ـ الباحث: عبد المجيد جمعة الجزائري في بحثه الموسوم بـ : (القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين) ـ وهو مطبوعٌ ـ ، وكما قام ـ مشكوراً مأجوراً ـ الباحث: أنور أبو زيد اليمني في بحثه الموسوم بـ : (منهج ابن القيم في القواعد الفقهية).

انظر: دليل الرسائل العلمية بالجامعة الإسلامية [رقم (١٠٤٦) ـ ص٤١٩].

(٣) طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول للسعدي ٢١١/٢ [كتاب مودع ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: ثقافة إسلامية].

القاصر؛ وما لَمَحَتْه مني الأَعْيُنُ النواظر ــ مَنْ اعتنى بإفراد جملةٍ من هذه القواعد؛ وجَمْعِها وترتيبها وجَعْلِها فائدة من إحدى الفوائد قبل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ــ رحمهما الله تعالى ــ[١]، وإنما ذُكرت هذه القواعد ــ استطراداً ــ في كتب من سبقهما من الأئمة الأعلام.

وعليه؛ فكلُّ من صنَّف في قواعد هذا الباب ممن جاء بعدهما فهو عيالٌ عليهما؛ ومرجع كلامه ومآله إليهما.

ولا شكَّ أن لقواعد الأسماء والصفات خاصة: أهمية عظمى؛ ومنزلة كبرى، لأنها تُعين على فهم أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ وفقه معانيها: فهماً مُبَرَّءاً من الإلحاد؛ ومصوناً من التعطيل؛ ومعصوماً من التمثيل.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في قواعد هذا الباب: (عليك بمعرفتها ومراعاتها ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلباً عاقلاً؛ ولساناً قائلاً؛ ومحلاً قابلاً، وإلا فالسكوت أولى بك، فجناب الربوبية: أجلُّ وأعزُّ مما يخطر بالبال؛ أو يُعبِّر عنه المقال، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾[٢]. حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

---

(١) كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ في رسالته (التدمرية) سبع قواعد من قواعد الأسماء والصفات، وكما ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في كتابه [بدائع الفوائد ١/ ١٤٤ ــ ١٥٤]: فائدة جليلة في ما يجري صفة أو خبراً على الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ؛ وجعلها في ستة أقسام، ثم أتبعها بذكر عشرين قاعدة من قواعد الأسماء والصفات.
وهذه الفائدة قد أفردها ــ مشكوراً مأجوراً ــ بالطبع ــ مع العناية بمقارنتها بالنسخ الخطية ــ: الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر؛ ووسمها بـ: (فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى).

(٢) سورة يوسف: الآية ٧٦.

وعسى الله أن يُعين بفضله على تعليق شرح الأسماء الحسنى؛ مراعياً فيه أحكام هذه القواعد، بريئاً من الإلحاد في أسمائه؛ وتعطيل صفاته، فهو المانُّ بفضله، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾[1])[2].

❑ ❑ ❑

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٥، سورة آل عمران: الآية ٧٤، سورة الأنفال: الآية ٢٩، سورة الحديد: الآيتان ٢١؛ ٢٩، سورة الجمعة: الآية ٤.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٥٤.



المبحث الأول:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى وصفاته العلى توقيفية)

إنَّ باب الأسماء والصفات من الأبواب التوقيفيَّة؛ فلا يَحِلُّ لأحدٍ من المخلوقين (أن يُسمِّيَ الله ــ عزَّ وجلّ ــ بغير ما سمَّى به نفسه، ولا أن يَصِفَه بغير ما أخبر به تعالى عن نفسه)[1]، بل يجب عليهم جميعاً: (الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه في آياته وتنزيله؛ أو على لسان رسوله، من غير زيادةٍ عليها؛ ولا نقصٍ منها)[2].

وقد اختلفت طوائف المسلمين في باب الأسماء والصفات: هل هو توقيفيٌّ أو اجتهاديٌّ؟ فمعتقد أهل السنة والجماعة ــ الذي عليه المعتمد ــ : أن أسماء الله تعالى وصفاته (لا يُتجاوز فيها التوقيف، ولا يُستعمل فيها القياس)[3]، بل يجب الوقوف في أسماء الله تعالى وصفاته (على ما جاء به الكتاب والسنة؛ فلا يُزاد فيها ولا يُنقص، لأن العقل لا يُمكنه

---

(١) المحلى بالآثار لابن حزم ١/ ٤٩.

(٢) ذم التأويل لابن قدامة ص٩.

(٣) شأن الدعاء للخطابي ص١١١.

إدراك ما يستحقُّه تعالى من الأسماء، فوجب الوقوف في ذلك على النصِّ)[1] الشرعيِّ الحكيم، فيُثبت لله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلى: ما أثبته الله تعالى لنفسه؛ أو أثبته له رسوله ﷺ، ويُنفى عنه من الأسماء والصفات: ما نفاه الله تعالى عن نفسه؛ أو نفاه عنه رسوله ﷺ[2].

وقد خالفهم في ذلك أهل البدعة والشناعة؛ الذين أعملوا في هذا الباب القياس اللغويَّ؛ وجوَّزوا فيه الاستحسان العقليَّ، فأطلق بعضهم (ما لا نصَّ في إطلاقه ولا إجماع)[3] فيه للناس، وتجاوز بعضهم ذلك فأجازوا (إطلاق الأسماء عليه بالقياس)[4]، فهم لأجل خرصهم وسهوهم: في ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾[5] [6].

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص١٦.

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية للسفاريني ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي ص٤٣ ـ ٥٤، اسم الله الأعظم للدكتور الدميجي ص٤٧ ـ ٥١، صفات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الواردة في الكتاب والسنة للسقاف ص٢٠.

(٣) حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عن المتكلِّمين، كما في: مسألة في العقل والنفس ٩/ ٣٠٠ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٤) حكاه البغدادي عن المعتزلة البصرية، كما في: الفَرْق بين الفِرَق ص٣٦١.

(٥) سورة الذاريات: الآيتان ٨ ـ ٩.

(٦) انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري ١/ ٢٧٢، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للغزالي ص١٥٤ ـ ١٥٦، لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات للرازي ص٤٠، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية للسفاريني ١/ ١٢٥.

وقد أصاب أهلُ السنة والجماعة ـ بحمد الله تعالى ـ الحقَّ في هذه المسألة بقولهم: إن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية[1]، وقد دلَّ على رجحان مذهبهم على مذاهب أهل البدعة والشناعة: قول الله تعالى الفَصْل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[2].

فقول الله تعالى في أول الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: فيه دلالة على رجحان مذهب أهل السنة والجماعة؛ حيث منع الله ـ سبحانه وتعالى ـ (أن يُسمَّى إلا بأسمائه الحسنى، وأخبر أن من سمَّاه بغيرها: فقد ألحد، و ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ـ بالألف واللام ـ: لا تكون إلا معهودة، ولا معروفَ في ذلك إلا ما نصَّ الله تعالى عليه)[3]؛ ونصَّ عليه رسوله ﷺ.

وقول الله تعالى في آخر الآية: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[4]: فيه دلالة على رجحان مذهب أهل السنة والجماعة؛ حيث دلَّ على أن من (الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يُسَمِّ به ولم ينطق به كتاب الله؛ ولا سنة رسول الله ﷺ[5]).

---

(١) انظر: الصفدية لابن تيمية ٢/ ٨٥، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية له ٢/ ٥٤٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٣) المحلى بالآثار لابن حزم ١/ ٥٠.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٥) هذا قول أهل التفسير في تفسير الإلحاد في أسماء الله الحسنى؛ وأن منه: تسمية الله تعالى بما لم يرد في كتابه العظيم؛ أو على لسان رسوله الكريم ﷺ، كما حكاه عنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني في: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١١/ ٢٢٤.

وجملته: أن أسماء الله على التوقيف)[1].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في توضيح معتقد أهل السنة والجماعة ــ المشار إليه آنفاً ــ في هذا الباب، حيث قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة العظيمة من قواعد الأسماء والصفات في مواضع متعدِّدةٍ من كتبه، وبيَّن من أوجهٍ متنوِّعةٍ أن هذا الباب توقيفيٌّ؛ غير قابل لاجتهاد المجتهدين؛ أو إحداث المُحدثين.

وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ في إحدى هذه المواضع: نصَّ هذه القاعدة؛ فقال فيما يطلق على الله ــ سبحانه وتعالى ــ : (إن ما يُطلق عليه في باب الأسماء والصفات: توقيفيٌّ، وما يُطلق عليه من الإخبار: لا يجب أن يكون توقيفياً، كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب في مسألة: أسمائه هل هي توقيفية؛ أو يجوز أن يُطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع؟)[2].

ويرجع السبب فيما ذَكَرَه الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ من أنَّ ما يُطلق على الله تعالى من الإخبار لا يجب أن يكون توقيفياً: أن باب الأسماء والصفات أخصُّ من باب الإخبار؛ كما سيأتي تقريره ــ إن شاء الله تعالى ــ في المبحث الرابع من هذا الفصل، فمراده ــ رحمه الله تعالى ــ بتوقيف باب الأسماء والصفات: أن مردَّ الإثبات فيه والنفي إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؛ لا إلى عقول الآدميين وآرائهم.

وقد نبَّه ــ رحمه الله تعالى ــ على ذلك عند تناوله بالشرح والبيان لحديث: «أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك؛ سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك،

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٣/ ٣٠٧.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٤٧.

أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[1]؛ فقال: (قد دلَّ الحديث على أن أسماء الله: غيرُ مخلوقةٍ؛ بل هو الذي تكلَّم بها وسمَّى بها نفسه، ولهذا لم يقل: بكلِّ اسمٍ خلقته لنفسك، ولو كانت مخلوقة: لم يسأله بها، فإن الله لا يُقْسَم عليه بشيءٍ من خلقه.

فالحديث صريحٌ في أن أسماءه: ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم)[2].

فهذا وجهٌ من أوجه التقرير لتوقيف هذا الباب؛ وأن مردَّ التحاكم فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؛ لا إلى فعل المخلوقين وتسمياتهم ـ التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ـ .

والواجب الشرعيُّ على المخلوقين في أسماء الله تعالى وصفاته: أَنْ لا يتعدوا بها اسمها الخاصَّ الذي سمَّاها الله تعالى به؛ بل يحترمونه، فلا يُعطِّلونه ولا يُغيِّرونه، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (ثلاثة أشياء) أي: أركان المعرفة تقوم على ثلاثة أشياء (أحدها: إثبات تلك الصفة، فلا يُعاملها بالنفي والإنكار.

الثاني: أنه لا يتعدى بها اسمها الخاصَّ الذي سمَّاها الله به، بل يحترم الاسم كما يحترم الصفة، فلا يُعطِّل الصفة ولا يُغيِّر اسمها ويُعِيرُها اسماً آخر، كما تسمي الجهمية والمعطلة سمعه وبصره وقدرته وحياته وكلامه:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٣٧١٢) ـ ٦/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧] من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حزن».

وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٩٩) ـ ١/ ٣٨٣].

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٥٧.

أعراضاً، ويُسمُّون وجهه ويديه وقدمه ـ سبحانه ـ : جوارح وأبعاضاً، ويُسمُّون حكمته وغاية فعله المطلوبة: عللاً وأعراضاً، ويُسمُّون أفعاله القائمة به: حوادث، ويُسمُّون عُلُوَّه على خلقه واستواءه على عرشه: تحيزاً، ويتواصون بهذا المكر الكُبَّار إلى نفي ما دلَّ عليه الوحي والعقل والفطرة وآثار الصنعة من صفاته، فيسطون بهذه الأسماء التي سَمَّوْها هم وآباؤهم على نفي صفاته وحقائق أسمائه.

الثالث: عدم تشبيهها بما للمخلوق، فإن الله ـ سبحانه ـ ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾[1] لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فالعارفون به؛ المُصدِّقون لرسله؛ المُقرُّون بكماله: يُثبتون له الأسماء والصفات؛ وينفون عنه مشابهة المخلوقات، فيجمعون بين الإثبات ونفي التشبيه؛ وبين التنزيه وعدم التعطيل، فمذهبهم حسنةٌ بين سيئتين؛ وهدى بين ضلالتين، فصراطهم: صراط المنعم عليهم، وصراط غيرهم: صراط المغضوب عليهم والضالين.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : (لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين)[2].

وقال: (التشبيه أن تقول: يد كيدي)[3]. ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ)[4].

ولما كانت أسماء الله الحسنى وصفاته العلى توقيفية؛ والقول عليه ـ سبحانه وتعالى ـ فيها مناف لكماله وجماله وجلاله: فقد اشتدَّ نكير الله ـ عزَّ وجلّ ـ على من تقوَّل عليه فيها وفي غيرها بلا علم، فقال: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) انظر: إبطال التأويلات لأخبار الصفات لأبي يعلى [رقم (٣) ـ ١/ ٤٣].

(٣) انظر: إبطال التأويلات لأخبار الصفات لأبي يعلى [رقم (٦) ـ ١/ ٤٤].

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

﴿ حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[١] .

كما رهَّب ــ سبحانه وتعالى ــ من ذلك ؛ وأنه مما يُسأل عنه العبد إذا أُوقف بين يدي الله تعالى ؛ فقال : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[٢] .

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ خطورة القول على الله تعالى بلا علمٍ في أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ ووعورة هذا المسلك؛ فقال: (القول على الله بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله، ووصفه بضدِّ ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ: فهذا أشدُّ شيءٍ منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر، وقدح فى نفس الربوبية وخصائص الربِّ، فإن صدر ذلك عن علمٍ: فهو عنادٌ أقبح من الشرك؛ وأعظم إثماً عند الله، فإن المشرك المُقرَّ بصفات الربِّ: خيرٌ من المعطل الجاحد لصفات كماله)[٣] .

فهذه جملة القول في تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه القاعدة العظيمة من القواعد المشتركة بين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ والموضِّحة لحقيقتها وأنها: توقيفية .



---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٣) الداء والدواء ص٢١٩.



المبحث الثاني:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة:
(أسماء الله الحسنى وصفاته العلى قديمة)

إنَّ أسماء الله تعالى وصفاته قديمة قدم الذات المقدَّسة العليَّة؛ غير مُحدثةٍ ولا مخلوقة، بل لم يزل الله ــ سبحانه وتعالى ــ مُسمًّى بالأسماء الحسنى؛ موصوفاً بالصفات العلى، ولما كانت أسماء الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ مُشتقَّة له من صفاته؛ أو من أفعالٍ قائمةٍ به ــ وهي صفاتٌ وأفعالٌ قديمة؛ غير مخلوقة ــ : كانت أسماؤه الحسنى قديمة غير مخلوقة.

وهذا المعتقد المتقدم الذكر: هو الذي عقد أهل السنة والجماعة قلوبهم عليه؛ وانشرحت صدورهم له[(١)].

وقد اشتدَّ (عند أئمة السنة ــ أحمد وغيره ــ : الإنكار على الجهمية الذين يقولون: أسماء الله)[(٢)] تعالى وصفاته محدثة[(٣)]؛ وقالوا بكفرهم

---

(١) انظر: القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص١١٩ ــ ١٢٤، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي ص٣٤٣، اسم الله الأعظم للدكتور الدميجي ص٦٩ ــ ٧١.

(٢) قاعدة في الاسم والمسمى لابن تيمية ٦/ ١٩٢ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ٢٧٦، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية له ٥/ ٤٢١.

وإخراجهم من الملَّة؛ إذ زعموا أن أسماء الله تعالى غيرُه، وكلامهم (في ردِّ هذا القول؛ بل وإطلاق الكفر عليه: كثيرٌ منتشرٌ)[1]، فمنه:

قول الإمام أحمد ــ رحمه الله تعالى ــ: (من زعم أن أسماء الله مخلوقة: فهو كافر)[2]. وقوله: (من زعم أن علم الله وأسماءه وصفاته مخلوقة: فهو كافر، لا شكَّ في ذلك إذا اعتقد ذلك؛ وكان رأيه ومذهبه، وكان ديناً يتديَّن به، كان عندنا كافرٌ)[3].

وقد سلك بعض الطوائف المنحرفة سبيل الجهمية، إلا أن منهم من وافقهم في المعنى واللفظ؛ فقالوا: إن الأسماء والصفات مخلوقة[4]، ومنهم من وافقهم في المعنى دون اللفظ؛ فقالوا: الأسماء والصفات غير مخلوقة؛ ومرادهم: إن الله تعالى غير مخلوق[5].

وهذا الحقُّ الذي دلَّت عليه النصوص الشرعيَّة؛ واعتقده أهل السنة والجماعة: هو الذي قرَّره الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذه القاعدة، ونصَّ عليها بقوله: (إن أسماء الربِّ قديمة لم يستحدثها من جهة خلقه؛ بل لم يزل موصوفاً بها؛ مُسمًّى بها، والمجاز مسبوقٌ بالحقيقة ــ وضعاً واستعمالاً ومرتبة ــ، وذلك كلُّه ممتنعٌ بالنسبة إلى أسماء الربِّ تعالى)[6].

---

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية ٥/ ٤٢١.

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [رقم (٣٥١) ــ ١/ ٢١٤].

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة [رقم (١٧٠) ــ ١/ ٥٠٤].

(٤) حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عن المعتزلة، كما في: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية ٥/ ٤٢١.

(٥) حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية قولاً لابن كلاب ومن وافقه، كما في: الاسم والمسمى ٦/ ١٩٢ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٦) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٥.

فهذا تقرير أن أسماء الله تعالى: ليست من جملة ما خلقه الله تعالى وقدَّره، بل هي أسماءٌ حسنى مشتقةٌ من صفات الله العلى، وهي قديمةٌ قدم الصفات القائمة بالذات العليَّة.

وهذا الأمر قد تقدَّم تنبيه الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ عليه عند تناوله بالشرح والبيان لحديث: «أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك؛ سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[1]؛ فقال: (قد دلَّ الحديث على أن أسماء الله: غيرُ مخلوقةٍ؛ بل هو الذي تكلَّم بها وسمَّى بها نفسه، ولهذا لم يقل: بكلِّ اسمٍ خلقته لنفسك، ولو كانت مخلوقة: لم يسأله بها، فإن الله لا يُقْسَم عليه بشيءٍ من خلقه.

فالحديث صريحٌ في أن أسماءه: ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم)[2].

ثم أعقب ذلك بقوله: (فإن أسماءه مشتقة من صفاته، وصفاته قديمة به، فأسماؤها غير مخلوقة)[3].

فهذا تقرير أن أسماء الله الحسنى مشتقةٌ من صفاته العلى ــ القديمة قدم الذات العليَّة ــ؛ وغيرُ مشتقةٍ من مخلوق من مخلوقات الله تعالى حتى تكون مخلوقة مُحْدَثة.

وقد زاد ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة بياناً وإيضاحاً في موطن آخر بقوله: (الربُّ تعالى يُشتقُّ له من أوصافه ومن أفعاله أسماءٌ؛ ولا يُشتقُّ له

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ».

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٥٧.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٥٧.

من مخلوقاته، فكلُّ اسم من أسمائه: فهو مُشتقٌّ من صفةٍ من صفاته؛ أو فعلٍ قائمٍ به، فلو كان يُشتقُّ له اسمٌ باعتبار المخلوق المنفصل: لسُمِّي مُتكوِّناً ومُتحرِّكاً وساكناً وطويلاً وأبيضَ وغيرَ ذلك؛ لأنه خالق هذه الصفات، فلما لم يُطلق عليه اسمٌ من ذلك ـ مع أنه خالقه ـ : عُلِمَ أنما تُشتقُّ أسماؤه من أفعاله وأوصافه القائمة به، وهو ـ سبحانه ـ لا يتصف بما هو مخلوقٌ منفصلٌ عنه؛ ولا يتسمَّى باسمه)[1].

فهذه جملة القول في تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذه القاعدة العظيمة من القواعد المشتركة بين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ والموضِّحة لحقيقتها وأنها: أزليَّة قديمة.

❑ ❑ ❑

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٣٩.

المبحث الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (تعدُّد الأسماء الحسنى والصفات العلى كمال)

إنَّ تعدُّد الأسماء وتكثُّر الصفات في أيِّ أمرٍ من الأمور: علامةٌ على عُلُوِّ منزلته الشريفة؛ وأمارةٌ على قدر درجته المنيفة، لذا كانت عادة العرب إذا أرادت تعظيم أمرٍ من الأمور: عدَّدت أسماءه ونوَّعت أوصافه، كما جرت عادتهم في تسمية ووصف الأسد والسيف.

ولما كان كمال أيِّ ذاتٍ من الذوات إنما هو بأسمائها وأوصافها: اعتبرت الشريعة الإسلامية ما هو معتبرٌ في لسان العرب وخطابهم، فبالغت في تسمية ووصف الممسميات الشريفة والأوصاف المنيفة، كما هو (شأن أسماء الربِّ تعالى؛ وأسماء كتابه؛ وأسماء نبيِّه)[1]؛ وأسماء يوم جزائه وحسابه.

وهذا هو الذي اعتقده أهل السنة والجماعة في ذات الله العليَّة، حيث أقرُّوا بأن تعدُّد أسمائها وتكثُّر صفاتها دالٌّ على كمال الله تعالى وجماله وجلاله، ومعتقدهم في ذلك مخالف من كلِّ وجهٍ لمعتقد من نازعهم في ذلك[2]؛ ممن نفى تعدُّد أسماء الله تعالى وصفاته؛ بزعم أن ذلك مفضٍ إلى

---

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٨.

(٢) حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عن أهل الكلام الجهمية، كما في: سؤال في =

تعدُّد القدماء وقيام الحوادث بالله ــ تعالى عن قولهم وإفكهم علوًّا كبيراً ــ[1].

وهذا الحقُّ الذي دلَّت عليه النصوص الشرعيَّة؛ واعتقدته الطائفة المنصورة المرضيَّة: هو الذي قرَّره الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذه القاعدة، حيث نصَّ عليها بقوله: (قام الدليل على إثبات إلـه قديم غنيٍّ بنفسه عن كلِّ ما سواه؛ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، كلُّ أحدٍ يحتاج إليه وليس محتاجاً إلى أحدٍ، ووجود كلِّ شيءٍ مستفادٌ منه؛ ووجوده ليس مستفاداً من غيره.

ولم يقم الدليل على استحالة تكثُّر أوصاف كماله وتعدُّد أسمائه الدالة على صفاته وأفعاله، بل هو إلـه واحدٌ وربٌّ واحدٌ؛ وإن تكثَّرت صفاته وتعددَّت أسماؤه، فلا إلـه غيره ولا ربَّ سواه)[2].

فهذا تقريرُ أن الدليل الشرعيَّ إنما دلَّ على تعدُّد أسماء الله تعالى وتكثُّر صفاته، ولم يدلَّ على استحالة ذلك، فتعدُّد أسماء الله تعالى وتكثُّر صفاته لا ينافي كونه إلـهاً واحداً ورباً أحداً، لأن تعدُّد أسماء الذات وتكثُّر صفاتها: دالٌّ على المدح والتعظيم والثناء الحسن لمن تسمَّى واتَّصف بها، كما قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (لما كان المقصود بالاسم التعريف والتمييز؛ وكان الاسم الواحد كافياً في ذلك: كان الاقتصار عليه أولى، ويجوز التسمية بأكثر من اسمٍ واحدٍ؛ كما يُوضع له اسمٌ وكنيةٌ ولقبٌ.

= حديث النزول وجوابه ٥/ ٣٩٥ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(١) انظر: القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص٣٩٦ ــ ٤٠٢.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣١٦.

وأما أسماء الربِّ تعالى وأسماء كتابه وأسماء رسوله؛ فلمَّا كانت نعوتاً دالة على المدح والثناء: لم تكن من هذا الباب؛ بل من باب تكثير الأسماء لجلالة المُسمَّى وعظمته وفضله. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1])[2].

فهذا تقريرُ أن المدح والثناء على ذات الله المقدسة إنما هو بتعدُّد أسمائها وتكثُّر صفاتها، (فإذا كانت أوصاف كماله ونعوت جلاله لا نهاية لها ولا غاية؛ بل هي أعظم)[3] وأجلُّ من أن يُحاط بها علماً: كان الثناء على الله تعالى أعظم وأجلَّ.

وهذا بخلاف من أنكروا تعدُّد أسماء الله تعالى وتكثُّر صفاته؛ فراراً من قيام الأمور المتجددة بالله ــ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ــ : فإنهم أقلُّ الناس ثناء ومدحاً وتعظيماً لله ــ تبارك وتعالى ــ ، كما نبَّه الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على ذلك بقوله في المعارضين بين الوحي والعقل: (إن الأصل الذي قادهم إلى النفي والتعطيل، واعتقاد المعارضة بين العقل والوحي: أصلٌ واحدٌ ــ هو منشأ ضلال بني آدم ــ ؛ وهو الفرار من تعدُّد صفات الواحد وتكثُّر أسمائه الدالة على صفاته وقيام الأمور المتجددة به، وهذا لا محذور فيه، وهو الحق الذي لا يثبت كونه سبحانه رباً وإلهاً وخالقاً إلا به، ونفيه جحد للصانع بالكلية وإنكار له.

وهذا القدر لازم لجميع طوائف أهل الأرض على اختلاف مللهم ونحلهم)[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٢) تحفة المودود في أحكام المولود ص١٢١.

(٣) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص٢٧ ــ ٢٨.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٢٠.

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (وهذه المسألة تقوم عليها رُتَبٌ من ألفِ دليلٍ عقليٍّ وسمعيٍّ، والكتب الإلـٰهية والنصوص النبوية ناطقة بذلك، وإنكاره لما علم بالضرورة من دين الرسل أنهم جاءوا به.

ونحن نقول: إنَّ كلَّ سورةٍ من سور القرآن تتضمن إثبات هذه المسألة، وفيها أنواعٌ من الأدلة عليها، فأدلتها تزيد على عشرة آلاف دليلٍ، فأول سورة من القرآن: تدلُّ عليها من وجوهٍ كثيرةٍ، وهي سورة أم الكتاب)[1].

فهذا تقرير دلالة النصوص الشرعية على تعدُّد أسماء الله تعالى وصفاته؛ وأنه الحقُّ الذي دلَّت عليه النقول الصحيحة والعقول الصريحة؛ ونطقت به الكتب المنزلة والأنبياء المرسلة، فمن أنكر بعد ذلك الدلالات الكثيرة والأمارات الوفيرة على تعدُّد أسماء الله تعالى وصفاته: فقد وقع في شرك التعطيل، وجعل المخلوق ــ الموسوم باسمٍ من الأسماء؛ والموصوف بوصفٍ من الأوصاف ــ : أكمل من الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ .

وقد لفت الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ النظر إلى ذلك بقوله: (شِرْكُ من عطَّل أسماء الربِّ تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة، فلم يثبتوا له اسماً ولا صفة، بل جعلوا المخلوق أكمل منه، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها)[2].

فهذه جملة القول في تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه القاعدة العظيمة من القواعد المشتركة بين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ والموضِّحة لتعدُّد الأسماء وتكثُّر الصفات؛ وأنه كمالٌ.



(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٢٢.

(٢) الداء والدواء ص١٩٩.

المبحث الرابـع :

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (باب الأسماء الحسنى أخصُّ من باب الصفات العلى)

إنَّ الأبواب المتعلِّقة بأسماء الله تعالى وصفاته ثلاثةٌ: باب الأسماء؛ وباب الصفات؛ وباب الإخبار، وبين هذه الأبواب الثلاثة عمومٌ وخصوصٌ، فباب الأسماء: أخصُّ من بابـي الصفات والإخبار، وفي مقابله: باب الإخبار، فإنه أعمُّ من بابـي الأسماء والصفات، وأما باب الصفات: فإنه متوسِّطٌ بينهما، فهو أعمُّ من باب الأسماء؛ وأخصُّ من باب الإخبار.

فكلُّ اسمٍ من أسماء الله الحسنى: يتضمن إثبات وصفٍ لله ــ عزَّ وجلّ ــ ؛ والإخبار عنه به، فاسم الله السميع: يتضمن إثبات صفة السمع لله ــ تبارك وتعالى ــ ؛ والإخبار عنه بحكم هذه الصفة ومقتضاها من أنه ــ سبحانه وتعالى ــ يسمع السرَّ والنجوى.

وهذا بخلاف باب صفات الله العلى: فإنه أوسع من باب أسمائه الحسنى؛ وأخصُّ من باب الإخبار عنه بها، فيوصف الله تعالى بالصفات الواردة في كتابه العظيم؛ وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ، ولا يُسمَّى بها، فيوصف الله تعالى بالمجيء والنزول والإرادة، ولا يُسمَّى بالجائي والنازل والمريد، وإن كان يصحُّ الإخبار عنه بها، فيقال: جاء ونزل وأراد.

وأما باب الإخبار: فإنه أوسع من بابي الأسماء والصفات، فيُخبر عن الله تعالى بما لم يتسمَّ به ولم يُوصف به؛ شريطة ألا يتضمن هذا الإخبار معنى باطلاً أو محرَّماً، فلا يُسمَّى الله شيئاً؛ ولا يوصف بأنه شيءٌ، وإن كان يُخبر عنه تعالى بأنه شيءٌ.

فيُفرَّق (بين ما يُدعى الله به من الأسماء الحسنى؛ وبين ما يُخبر به عنه ــ عزَّ وجلّ ــ مما هو حقٌّ ثابتٌ؛ لإثبات ما يستحقُّه ــ سبحانه ــ من صفات الكمال؛ ونفي ما تنـزَّه عنه ــ عزَّ وجلّ ــ من العيوب والنقائص، فإنه الملك القدوس السلام ــ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ــ .

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾(١). مع قوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾(٢).

ولا يقال في الدعاء: يا شيء)(٣).

وقد سبق حكاية خُلْف الناس في أسماء الله تعالى: (هل يُسمَّى الله بما صحَّ معناه في اللغة والعقل والشرع؛ وإن لم يَرِد بإطلاقه نصٌّ ولا إجماعٌ، أم لا يُطلق إلا ما أُطلق نصٌّ أو إجماعٌ؟ على قولين مشهورين)(٤).

والصواب: (هو أن يُفرَّق بين أن يُدعى بالأسماء؛ أو يُخبر بها عنه، فإذا دُعيَ: لم يُدع إلا بالأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية١/٢٩٨.

(٤) مسألة في العقل والنفس لابن تيمية ٩/ ٣٠٠ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

وأما الإخبار عنه: فهو بحسب الحاجة، فإذا احتيج في تفهيم الغير المراد إلى أن يُترجم أسماؤه بغير العربية؛ أو يُعبَّر عنه باسمٍ له معنى صحيح: لم يكن ذلك مُحرَّماً)[1].

هذا ملخَّص ما يعتقده أهل السنة والجماعة في هذه القاعدة الجليلة من قواعد هذا الباب[2]، فهم يُفرِّقون بين دعاء الله تعالى والإخبار عنه، فلا يدعونه (إلا بالأسماء الحسنى، وأما الإخبار عنه: فلا يكون باسم سيِّءٍ، لكن قد يكون باسمٍ حسنٍ؛ أو باسمٍ ليس بسيِّءٍ؛ وإن لم يكن بحُسْنِه)[3].

وأما أهل البدعة والشناعة: فإنهم يشتقُّون لله تعالى من كلِّ فعلٍ اسماً؛ حتى يبلغوا في عدِّ أسماء الله تعالى ما يزيد على العدد الذي وردت بتسميته النصوص الشرعية، فلا يُفرِّقون في هذا الباب (بين الأسماء التي يُدعى بها؛ وبين ما يُخبر به عنه للحاجة، فهو ـ سبحانه ـ إنما يُدعى بالأسماء الحسنى، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[4].

وأما إذا احتيج إلى الإخبار)[5] عن الله تعالى: فإنما (يُخبر به عنه

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٥/٨.

(٢) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص٣٠، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص٦٦ ـ ٧٣، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي ص٣٦ ـ ٣٧، أسماء الله الحسنى للغصن ص١٤١ ـ ١٤٢، اسم الله الأعظم للدكتور الدميجي ص٤٩ ـ ٥١.

(٣) معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لابن تيمية ٦/١٤٢ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٥) مسألة في العقل والنفس لابن تيمية ٩/٣٠١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

لإثبات حقٍّ أو نفي باطلٍ)[1].

فتجدهم يُسمُّون الله تعالى بـ : الشيء؛ والقديم؛ والأزلي؛ والدائم؛ والجسم؛ والجوهر؛ وغيرها من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي يصحُّ في بعضها دون كُلِّها: الإخبار عن الله تعالى بها للحاجة[2].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في توضيح معتقد أهل السنة والجماعة ـ المشار إليه آنفاً ـ في هذا الباب، حيث قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه القاعدة العظيمة من قواعد الأسماء والصفات في مواضع متعدِّدةٍ من كتبه، وبيَّن من أوجهٍ متنوِّعةٍ أن باب الأسماء الحسنى: أخصُّ من باب الصفات العلى، وباب الصفات العلى: أوسع من باب الأسماء الحسنى؛ وأخصُّ من باب الإخبار، وباب الإخبار: أوسع من بابي الأسماء الحسنى والصفات العلى.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في إحدى هذه المواضع: نصَّ هذه القاعدة؛ فقال: (إنَّ ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى: أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته)[3].

ثم مثَّل ـ رحمه الله تعالى ـ عليها بقوله: (كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإنه يُخبر به عنه؛ ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا)[4].

فهذا تقريرُ أن باب الإخبار: أوسع الأبواب الثلاثة، ويقابله: باب

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ٢٩٧.

(٢) انظر: لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات للرازي ص٣٥٧ ـ ٣٦٠.

(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٤٦.

(٤) بدائع الفوائد ١/ ١٤٦.

الأسماء؛ فإنه أخصُّها، وعليه؛ فلا يلزم من الإخبار عن الله تعالى بفعلٍ من الأفعال: أن يُشتقَّ له منه اسمٌ يُسمَّى به؛ كما غلط في ذلك بعضُ من سَقَمَ فهمه وقلَّ علمه في هذا الباب.

وقد نبَّه الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ على ذلك بقوله: (إن الفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالاً لم يَتَسَمَّ منها بأسماء الفاعل، كأراد وشاء وأحدث، ولم يُسَمَّ بالمريد والشائي والمحدث، كما لم يُسَمِّ نفسه بالصانع والفاعل والمتقن؛ وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ أقبح خطأ من اشتقَّ له من كلِّ فعل اسماً، وبلغ بأسمائه زيادة على الألف، فسمَّاه: الماكر والمخادع والفاتن والكائد ونحو ذلك.

وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم: أوسع من تسميته به، فإنه يُخبر عنه بأنه شيءٌ وموجودٌ ومذكورٌ ومعلومٌ ومرادٌ؛ ولا يُسمَّى بذلك)[1].

فهذا تقريرُ أنه لا يجوز أن يُدخل في باب الأسماء كلُّ ما جاز إدخاله في باب الإخبار، لأن باب الإخبار أوسع، فلا يلزم من الإخبار عن الله تعالى (بالفعل مُقيَّداً أن يُشتقَّ له منه اسمٌ مطلقٌ، كما غلط فيه بعض المتأخرين)[2]، كما سيأتي ردُّ هذا الزور والبهتان من ستة أوجهٍ حسان.

وما أجاز الدليلُ الشرعيُّ دخوله في باب الأسماء: فجائزٌ دخوله في بابـي الصفات والإخبار، لأن باب الأسماء أخصُّ منهما، ولأن هذه الأسماء الحسنى (كمالات في أنفسها؛ لا تكون نقصاً ولا مستلزمة لنقصٍ ألبتة)[3]،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٣٣.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٤٦.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٦.

كما قد نبّه الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على ذلك بقوله فيما يُطلق على الله تعالى: (إن الاسم إذا أُطلق عليه جاز أن يُشتقَّ منه المصدر والفعل، فيُخبر به عنه فعلاً ومصدراً، نحو: السميع البصير القدير، يُطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة، ويُخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾[(١)]. ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾[(٢)].

هذا إن كان الفعل متعدِّياً، فإن كان لازماً: لم يُخبر عنه به، نحو: الحيُّ، بل يُطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل، فلا يقال: حيي)[(٣)].

وقد نبّه الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على فرقٍ لطيفٍ في باب الإخبار بين الفعل المتعدِّي والفعل اللازم، فيُخبر عن الله تعالى بالفعل المتعدِّي دون اللازم، وهذا التنبيه يدعو إلى وجوب مراعاة ما أطلقه الله تعالى على نفسه من الأسماء والصفات؛ والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يُطلقه على نفسه؛ ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته؛ فقال ــ رحمه الله تعالى ــ في إطلاق الشوق على الله تعالى: (الصواب أن يُقال: إطلاقه متوقِّفٌ على السمع، ولم يرد به؛ فلا ينبغي إطلاقه[(٤)]،

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١.

(٢) سورة المرسلات: الآية ٢٣.

(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٤٧.

(٤) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الداء والدواء ص٢٨٢ ــ ٢٨٣]: (الشوق: وهو سفر القلب إلى المحبوب أحثَّ السفر، وقد جاء إطلاقها في حقِّ الربِّ تعالى، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر: أنه صلى صلاة فأوجز فيها، فقيل له في ذلك، فقال: أما إني دعوت فيها بدعواتٍ كان النبي ﷺ يدعو بهن: «اللَّهُمَّ إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللَّهُمَّ إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحقِّ في الغضب =

وهذا كلفظ العشق أيضاً؛ فإنه لما لم يرد به سمعٌ، فإنه يمتنع إطلاقه عليه ــ سبحانه ــ ، واللفظ الذي أطلقه ــ سبحانه ــ على نفسه؛ وأخبر به عنها: أتمُّ من هذا وأجلُّ شأناً؛ وهو لفظ المحبة، فإنه ــ سبحانه ــ يُوصف من كلِّ صفةِ كمالٍ بأكملها وأجلِّها وأعلاها.

فيُوصف من الإرادة بأكملها؛ وهو الحكمة وحصول كلِّ ما يريد بإرادته، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾[1].

وبإرادة اليسر لا العسر، كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2].

وبإرادة الإحسان وإتمام النعمة على عباده، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧﴾[3].

فإرادة التوبة لله؛ وإرادة الميل لمبتغي الشهوات.

= والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرَّة عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك الكريم، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مُضرَّةٍ ولا فتنةٍ مُضلَّةٍ، اللَّـهُمَّ زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين» [تقدم تخريجه؛ ولفظه: «اللَّـهُمَّ بعلمك الغيب»]).

ولعلَّ الجمع بين قولي الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : أن المراد بقوله: (فلا ينبغي إطلاقه): هو المنع من إطلاق شوق الله تعالى إلى عباده ولقائهم، لأن هذا من باب وصف الله تعالى بصفة الشوق، ولم يرد الدليل السمعيُّ به، وأن المراد بقوله: (وقد جاء إطلاقها في حقِّ الربِّ تعالى): هو الجواز من إطلاق شوق العباد إلى الله تعالى ولقائه، لأن هذا من باب أفعال العباد، وعليه يُحمل الحديث الوارد في هذا الباب، والله أعلم.

(١) سورة هود: الآية ١٠٧، سورة البروج: الآية ١٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٣) سورة النساء: الآية ٢٧.

وقوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[1].

وكذلك الكلام: يصف نفسه منه بأعلى أنواعه؛ كالصدق والعدل والحقِّ، وكذلك الفعل: يصف نفسه منه بأكمله؛ وهو العدل والحكمة والمصلحة والنعمة، وهكذا المحبة: وصف نفسه منها بأعلاها وأشرفها، فقال: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[2]. ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[3]. ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾[4]. و ﴿ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[5].

ولم يصف نفسه بغيرها؛ من العلاقة والميل والصبابة والعشق والغرام ونحوها، فإن مسمى المحبة: أشرف وأكمل من هذه المسميات؛ فجاء في حقِّه إطلاقه دونها، وهذه المسميات لا تنفكُّ عن لوازم ومعانٍ؛ تنزَّه تعالى عن الاتصاف بها، وهكذا جميع ما أطلقه على نفسه من صفاته العلى أكمل معنى ولفظاً مما لم يُطلقه، فالعليم الخبير: أكمل من الفقيه والعارف، والكريم الجواد: أكمل من السخي، والخالق البارىء المصور: أكمل من الصانع الفاعل؛ ولهذا لم تجىء هذه في أسمائه الحسنى، والرحيم والرؤوف: أكمل من الشفيق.

فعليك بمراعاة ما أطلقه ـ سبحانه ـ على نفسه من الأسماء والصفات؛ والوقوف معها؛ وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه؛ ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته، وحينئذ فيُطلق المعنى لمطابقته له؛ دون اللفظ،

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٩٥، سورة آل عمران: الآيتان ١٣٤؛ ١٤٨، سورة المائدة: الآيتان ١٣؛ ٩٣.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.

ولا سيَّما إذا كان مُجملاً؛ أو مُنقسماً إلى ما يُمدح به وغيره، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مُقيَّداً، وهذا كلفظ الفاعل والصانع؛ فإنه لا يُطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقاً مُقيَّداً أطلقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1]. ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[2]. وقوله: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[3].

فإن اسم الفاعل والصانع منقسمُ المعنى إلى: ما يُمدح عليه ويُذمُّ، ولهذا المعنى ــ والله أعلم ــ: لم يجيء في الأسماء الحسنى: المريد؛ كما جاء فيها السميع البصير؛ ولا المتكلم ولا الآمر الناهي: لانقسام مُسمَّى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها.

ومن هنا يُعلم غلط بعض المتأخرين؛ وزَلَقُه الفاحش في اشتقاقه له ــ سبحانه ــ من كلِّ فعلٍ أخبر به عن نفسه: اسماً مطلقا؛ فأدخله في أسمائه الحسنى، فاشتقَّ له اسم الماكر والخادع والفاتن والمضل والكاتب؛ ونحوها من قوله: ﴿ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾[4]. ومن قوله: ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾[5]. ومن قوله: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[6]. ومن قوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾[7]. وقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ ﴾[8])[9].

---

(١) سورة هود: الآية ١٠٧، سورة البروج: الآية ١٦.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

(٣) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٥) سورة النساء: الآية ١٤٢.

(٦) سورة طه: الآية ١٣١، سورة الجن: الآية ١٧.

(٧) سورة الرعد: الآية ٢٧، سورة النحل: الآية ٩٣، سورة فاطر: الآية ٨.

(٨) سورة المجادلة: الآية ٢١.

(٩) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٤ ــ ٥٩٦.

ثم شرع الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تخطئة هذا القول من وجوهٍ ستةٍ؛ فقال: (وهذا خطأٌ من وجوهٍ:

أحدها: أنه ــ سبحانه ــ لم يُطلق على نفسه هذه الأسماء، فإطلاقها عليه لا يجوز.

الثاني: أنه ــ سبحانه ــ أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مُقيَّدة؛ فلا يجوز أن يُنسب إليه مُسمَّى الاسم عند الإطلاق.

الثالث: أن مُسمَّى هذه الأسماء مُنقسمٌ إلى ما يُمدح عليه المُسمَّى به وإلى ما يُذمُّ، فيحسن في موضع ويقبح في موضع، فيمتنع إطلاقه عليه ــ سبحانه ــ من غير تفصيلٍ.

الرابع: أن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي يُسمَّى بها ــ سبحانه ــ، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1]. وهي التي يُحبُّ ــ سبحانه ــ أن يُثنى عليه ويُحمد بها دون غيرها.

الخامس: أن هذا القائل لو سُمِّيَ بهذه الأسماء؛ وقيل له: هذه مدحتك وثناءٌ عليك؛ فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل اللاعن الفاعل الصانع ونحوها: لما كان يرضى بإطلاق هذه الأسماء عليه؛ ويعدُّها مدحة، ولله المثل الأعلى ــ سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون به علوّاً كبيراً ــ .

السادس: أن هذا القائل يلزمه أن يجعل من أسمائه: اللاعن والجائي والآتي والذاهب والتارك والمقاتل والصادق والمنزل والنازل والمدمدم والمدمِّر؛ وأضعاف ذلك، فيشتق له اسماً من فعلٍ أخبر

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

به عن نفسه؛ وإلا تناقض تناقضاً بيِّناً، ولا أحد من العقلاء طرد ذلك، فعلم بطلان قوله، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝٤٥﴾[1])[2].

فهذه جملة القول في تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه القاعدة العظيمة من القواعد المشتركة بين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ والموضِّحة للعلاقة بين الأبواب الثلاثة: باب الأسماء؛ وباب الصفات؛ وباب الإخبار.

❑ ❑ ❑

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٥، سورة الصافات: الآية ١٨٢.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٦ ــ ٥٩٧.



المبحث الخامس:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (الأسماء والصفات التي تطلق على الله تعالى وعلى العبد: ثابتة لهما على الحقيقة)

إنَّ لكلِّ اسمٍ من الأسماء أو صفةٍ من الصِّفات حقيقةً لائقةً به، فأسماء الله الحسنى وصفاته العلى ثابتة له على الحقيقة، كما أن أسماء العبد وصفاته ثابتة له على الحقيقة، وإطلاق هذه الأسماء والصفات في حقِّ الخالق والمخلوق لا يردُّ هذا الأصل ولا يدفعه؛ بل حقيقة هذه الأسماء والصفات ثابتة للخالق كما هي ثابتة للمخلوق، كلٌّ له قدرٌ يناسبه ويليق به؛ لا يشركه غيره فيه، لأن اختلاف الحقيقتين فيهما لا يُخرجها عن كونها حقيقة فيهما، فللربِّ تعالى منها ما يليق بجلاله؛ وللعبد منها ما يليق به.

وقد وقع الخُلْفُ بين طوائف هذه الأمة في الأسماء والصفات التي تُطلق على الله تعالى وعلى عباده، فتنازع طرفي النقيض فيها من ضلَّ عن صراط الله المستقيم ــ الذي هُدِيَ إليه أهلُ السنة والجماعة ــ، فمنهم من قال: (هي حقيقةٌ في المخلوق؛ مجازٌ في الخالق)[1]،

---

(١) هو: قول الجهمية؛ كما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عن شيخهم الجهم في: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣/ ٢٩٥، والحقيقة والمجاز ٢٠/ ٤٤١ =

وقابلهم من قال: (هي حقيقةٌ في الخالق؛ مجازٌ في المخلوق)[1].

وأهل السنة والجماعة في هذه القاعدة ـ كغيرها من قواعد الدين ـ: وسطٌ عدلٌ خيارٌ، قالوا: إن الأسماء والصفات ثابتةٌ على الحقيقة في حقِّ الخالق؛ كما أنها ثابتةٌ على الحقيقة في حقِّ المخلوق، وأن (كلَّ ما يُوصف به الربُّ تعالى: فهو مخالفٌ بالحدِّ والحقيقة لما يُوصف به المخلوق؛ أعظم مما يُخالف المخلوقُ المخلوقَ)[2]، وأن هذه الأسماء والصفات تُطلق على الحقيقة (على الله وعلى عباده، وهو على ظاهره في الإطلاقين، مع القطع بأنه ليس ظاهره في حقِّ الله مساوياً لظاهره في حقِّنا؛ ولا مشاركاً له فيما يُوجب نقصاً أو حدوثاً)[3].

هذه خلاصة معتقد أهل السنة والجماعة في هذه القاعدة[4]، ومذهبهم

= [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].
وانظر في امتناع الجهمية من تسمية الله تعالى أو وصفه بما يجوز إطلاقه على غيره: الفرق بين الفرق للبغدادي ص٢٢١.

(١) هو: قول أبـي العباس الناشي من المعتزلة؛ كما حكاه عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣/ ٢٩٤، سؤال في الاستواء والنزول: هل هو حقيقة أم لا؟ وجوابه ٥/ ١٩٤، الحقيقة والمجاز ٢٠/ ٤٤١ [رسالتان مودعتان ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) مسألة الأحرف التي أنزلها الله على آدم لابن تيمية ١٢/ ٩٧ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) سؤال عن رجل حلف بالطلاق الثلاث أن القرآن صوت وحرف وأن الرحمن على العرش استوى هل يحنث في هذا أم لا؟ وجوابه لابن تيمية ٣٣/ ١٧٦ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٤) انظر: القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص٢٦٥ ـ ٢٨٢.

ـ كما ترى ـ متوسطٌ بين مذهبي أهل البدعة والشناعة، فهو (حسنةٌ بين سيئتين؛ وهدى بين ضلالتين، فصراطهم: صراط المُنعم عليهم، وصراط غيرهم: صراط المغضوب عليهم والضالين)[1].

وهذا الحقُّ الذي دلَّت عليه النصوص الشرعيَّة؛ واعتقده أهل السنة والجماعة: هو الذي قرَّره الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في هذه القاعدة، ونصَّ عليه بقوله في المعاني المعقولة: (إذا أُضيف ذلك إلى الربِّ: كان بحسب ما يليق به؛ ولا يشركه فيه المخلوق، كما أنه إذا أُضيف إلى المخلوق كان بحسب ما يليق به؛ ولا يشركه فيه الخالق.

فهو في حقِّ الخالق تعالى قدرٌ يليق بعظمته وجلاله، وفي حقِّ المخلوق قدرٌ يناسبه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾[2])[3].

واعلم أنه مما يُعينك على صحة فهم هذه القاعدة؛ و (يعصمك من تخبيط كثيرٍ من المفسدين)[4] لها: معرفة الألفاظ التي تُستعمل في حقِّ الله تعالى وحقِّ عباده؛ وأن لها ثلاث اعتبارات، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الاعتبارات الثلاث بقوله: (الألفاظ التي تُستعمل في حقِّ الخالق والمخلوق لها ثلاث اعتبارات:

أحدها: أن تكون مقيدة بالخالق، كـ: سَمْعِ الله وبصره ووجهه ويديه واستوائه ونزوله وعلمه وقدرته وحياته.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٦١.

(٤) بدائع الفوائد ٤/ ١٥٣.

الثاني: أن تكون مقيدة بالمخلوق، كـ: يد الإنسان ووجهه ويديه واستوائه.

الثالث: أن تُجرَّد عن كِلا الإضافتين؛ وتوجد مطلقة.

فإثباتكم لها حقيقة إما أن يكون بالاعتبار الأول؛ أو الثاني؛ أو الثالث؛ إذ لا رابع هناك.

فإن جعلتم جهة كونها حقيقة تقيُّدها بالخالق: لزم أن تكون في المخلوق مجازاً، وهذا مذهب قد صار إليه أبو العباس الناشي(١)؛ ووافقه عليه جماعة.

وإن جعلتم جهة كونها حقيقة تقيُّدها بالمخلوق: لزم أن تكون في الخالق مجازاً، وهذا مذهب قد صار إليه إمام المعطلة: جهم بن صفوان؛ ودرج أصحابه على أثره.

وإن جعلتم جهة كونها حقيقة القدر المشترك؛ ولم تدخل القدر المميز في موضوعها: لزم أن تكون حقيقة في الخالق والمخلوق، وهذا قول عامة العقلاء؛ وهو الصواب.

وإن فرَّقتم بين بعض الألفاظ وبعض: وقعتم في التناقض والتحكُّم المحض)(٢).

---

(١) هو: عبد الله بن محمد بن شرشير الأنباري، من كبار المتكلمين وأعيان الشعراء ورؤوس المنطق، سكن مصر؛ ومات بها سنة ثلاث وتسعين ومائتين.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠/ ٩٢ ـ ٩٣، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٣/ ٩١ ـ ٩٣، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٤/ ٤٠ ـ ٤١.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

فهذا تقرير أن الناس في باب الأسماء والصفات (التي تقال على الربِّ وعلى العبد: مختلفون على أقوالٍ)[١]، فمنهم من قال: (هي حقيقةٌ في العبد؛ مجازٌ في الربِّ، وهذا قول غلاة الجهمية؛ وهو أخبث الأقوال وأشدُّها فساداً.

الثاني: مقابله؛ وهو أنها حقيقةٌ في الربِّ؛ مجازٌ في العبد، وهذا قول أبـي العباس الناشي.

الثالث: أنها حقيقةٌ فيهما، وهذا قول أهل السنة؛ وهو الصواب)[٢]، لأنهم اعتقدوا أن (للربِّ منه ما يختصُّ به ولا يماثله فيه المخلوق، وللمخلوق منه ما يختصُّ به ولا يماثله فيه الخالق؛ وهذا لا يوجب أن تكون مجازاً في حقِّ المخلوق)[٣].

وقد ردَّ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ قول القائلين بأن الأسماء والصفات التي تُطلق على الله تعالى وعلى عباده حقيقة في أحدهما؛ مجازٌ في الآخر، وأبطل حجَّتهم؛ ودحض محجَّتهم.

فأما ردُّه ــ رحمه الله تعالى ــ لقول الطائفة الأولى ــ التي زعمت أن الأسماء والصفات حقيقةٌ في المخلوق؛ مجازٌ في الخالق ــ : فتضمَّن بيان اللوازم الفاسدة التي تلزم من جعلوا الأسماء والصفات (مجازاً في حقِّ من هو أولى بها من خلقه؛ وأولى مَن تُثبت له على أتمِّ الوجوه وأكملها أزلاً وأبداً ووجوباً؛ وبراءة عن كلِّ ما ينافي ذلك، وجعلوها حقيقة في حقِّ من استعيرت له على وجه الحدوث والضعف والنقص)[٤]، فمن هذه اللوازم الفاسدة:

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥١١.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٤٩.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥١٢.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥١٢.

أولاً: أن تكون الأسماء والصفات التي في المخلوق: أكمل من الأسماء والصفات التي في الخالق، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا جُعِلَ الرحمن والرحيم والودود وغيرها من أسمائه ــ سبحانه ــ حقيقة في العبد؛ مجازاً في الربِّ: لَزِمَ أن تكون هذه الصفات في العبد أكمل منها في الربِّ تعالى)[1].

ثانياً: أن تكون أسماء الخالق وصفاته منقولة من أسماء المخلوق وصفاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن اسم الرحمة اسْتُعمل في صفة الخالق وصفة المخلوق، فإما أن يكون حقيقة في الموصوفين؛ أو حقيقة في الخالق مجازاً في المخلوق؛ أو عكسه. فإذا كانت حقيقة فيهما: فإما حقيقة واحدة وهو التواطؤ؛ أو حقيقتان وهو الاشتراك، ومحالٌ أن تكون مشتركة لأن معناها يُفهم عند الإطلاق؛ ويجمعها معنى واحد؛ ويصح تقسيمها، وخواصُّ المشترك منفية عنها، ولأنها لم يُشتقَّ لها وضعٌ في حقِّ المخلوق؛ ثم اسْتُعيرت من المخلوق للخالق ــ تعالى الله عما يقول أهل الزيغ والضلال ــ ، فبقي قسمان:

أحدهما: أن تكون حقيقة في الخالق؛ مجازاً في المخلوق.

والثاني: أن تكون حقيقة متواطئة أو مشتركة. وعلى التقديرين فبطل أن يكون إطلاقها على الله ــ سبحانه ــ مجازاً)[2].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (فإذا كانت أسماء الخلق المحمودة مشتقة من أسماء الله الحسنى: كانت أسماؤه يقيناً سابقة، فيجب أن تكون حقيقة؛ لأنها لو كانت مجازاً لكانت الحقيقة سابقة لها، فإن

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٦.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٤.

المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، فيكون اللفظ قد سُمِّيَ به المخلوق ثم نُقِلَ إلى الخالق، وهذا باطلٌ قطعاً)[١].

وفي هذا الردِّ من الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : تقريرٌ لهذه القاعدة، وإظهارٌ وإبرازٌ لمذهب أهل السنة والجماعة، وإضمارٌ وإجهازٌ على مذهب أهل البدعة والشناعة.

وهذا الردُّ على المعطلة ــ الذين أنكروا معاني وحقائق الأسماء والصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ بزعمهم أنها تتضمن تشبيهاً ــ : (من أنفع الأشياء لمن له فَهْمٌ، فإن الله أخبر في كتابه بما هو عليه من أسمائه وصفاته، ولا بُدَّ في الأسماء المشتقة المتواطئة من معنى مشتركٍ بين أفرادها، فجَحَدَ المعطلة حقائقها لما زعموا فيها من التشبيه؛ وهم لا يمكنهم إثبات شيءٍ يعتقدونه إلا بنوعٍ من القياس المتضمن التشبيه الذي فَرُّوا منه؛ لا في جانب النفي ولا في جانب الإثبات، فهم منكرون ما جاءت به الرسل بما هو من نوعه أو دونه، وهذا غاية الضلال، فليُتأمَّل ذلك)[٢].

وأما ردُّه ــ رحمه الله تعالى ــ لقول الطائفة الثانية ــ التي زعمت أنها حقيقة في الخالق؛ مجازٌ في المخلوق ــ : فتضمَّن إثبات حقيقة الأسماء والصفات التي تُطلق على العباد، وأنها لو كانت مجازاً ولم تكن على الحقيقة: لما أحب الربُّ ــ سبحانه وتعالى ــ من وافقه من عباده في اسمٍ من أسمائه أو صفةٍ من صفاته التي يُحِبُّ أن يُتعبَّد له بها، كما قال: (الغيور قد وافق ربه ــ سبحانه ــ في صفةٍ من صفاته، ومن وافق الله في صفةٍ من

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٥.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٧ ــ ٣٤٨.

صفاته: قادته تلك الصفة إليه بزمامه؛ وأدخلته على ربِّه؛ وأدنته منه؛ وقرَّبته من رحمته؛ وصيَّرته محبوباً له.

فإنه ــ سبحانه ــ رحيمٌ يُحبُّ الرحماء، كريمٌ يُحبُّ الكرماء، عليمٌ يُحبُّ العلماء، قويٌّ يُحبُّ المؤمن القوي؛ وهو أحبُّ اليه من المؤمن الضعيف، حييٌّ يُحبُّ أهل الحياء، جميلٌ يُحبُّ أهل الجمال، وترٌ يُحبُّ أهل الوتر)[1].

وقد دفع الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الأوهام التي تفترضها بعض العقول السقيمة التي ما استنارت بالشرائع القويمة في هذا الباب؛ وبينَّ وجه الحقِّ والصواب، فمن هذه الأوهام:

أولاً: وَهْمُ من توهَّم بأن ثبوت الأسماء والصفات التي تُطلق على الخالق حقيقة يلزم منها شيءٌ من خصائص المخلوقين؛ إما في لفظها أو في ثبوت معناها، وقد دفع ــ رحمه الله تعالى ــ هذا الوهم بقوله: (معلومٌ أن نفي خصائص صفات المخلوقين عن الخالق لا يقتضي نفي أصل الصفة عنه ــ سبحانه ــ، ولا إثبات أصل الصفة له يقتضي إثبات خصائص المخلوق له.

كما أن ما نُفِيَ عن صفات الربِّ تعالى من النقائص والتشبيه لا يقتضي نفيه عن صفة المخلوق، ولا ما ثبت لها من الوجوب والقِدَم والكمال يقتضي ثبوته للمخلوق، ولا إطلاق الصفة على الخالق والمخلوق.

وهذا مثل: الحياة والعلم، فإن حياة العبد تعرض لها الآفات المضادَّة لها من المرض والنوم والموت، وكذلك علمه يعرض له النسيان والجهل المضادُّ له، وهذا محالٌ في حياة الربِّ وعلمه، فمن نفى عِلْمَ الربِّ وحياته

---

(١) الداء والدواء ص١٠٨ ــ ١٠٩.

لما يعرض فيهما للمخلوق: فقد أبطل، وهو نظير نفي من نفى رحمة الربِّ وعلمه، فمن نفى رحمة الربِّ عنه لما يعرض في رحمة المخلوق من رِقَّة الطبع؛ وتوهَّم المُتوهِّم أنه لا تُعْقَل رحمةٌ إلا هكذا؛ نظير توهُّم المُتوهِّم أنه لا يُعقل علمٌ ولا حياةٌ ولا إرادةٌ إلا مع خصائص المخلوق.

وهذا الغلط منشؤه: إنما هو توهُّم صفة المخلوق المُقيَّدة به أولاً، وتوهُّم أن إثباتها لله هو مع هذا القيد، وهذان وهمان باطلان.

فإن الصفة الثابتة لله مضافة إليه لا يُتوهم فيها شيءٌ من خصائص المخلوقين؛ لا في لفظها ولا في ثبوت معناها، وكلُّ من نفى عن الربِّ تعالى صفة من صفاته لهذا الخيال الباطل: لزمه نفي جميع صفات كماله، لأنه لا يعقل منها إلا صفة المخلوق، بل ويلزمه نفي ذاته؛ لأنه لا يعقل من الذوات إلا الذوات المخلوقة، ومعلومٌ أن الربَّ ــ سبحانه وتعالى ــ لا يشبهه شيءٌ منها.

وهذا الباطل قد التزمه غلاة المعطلة، وكلَّما أوغل النافي في نفيه: كان قوله أشدَّ تناقضاً وأظهرَ بطلاناً، ولا يسلم على محكِّ العقل الصحيح الذي لا يكذب إلا ما جاءت به الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾[(١)].

فنُزِّه ــ سبحانه ــ عما يصفه به كلُّ أحدٍ؛ إلا المخلصين من عباده ــ وهم: الرسل ومن تبعهم ــ، كما قال ــ في الآية الأخرى ــ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾[(٢)].

---

(١) سورة الصافات: الآيتان ١٥٩ ــ ١٦٠.

(٢) سورة الصافات: الآيات ١٨٠ ــ ١٨٢.

فنزَّه نفسه عما يصفه به الواصفون، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وحمد نفسه؛ إذ هو الموصوف بصفات الكمال التي يستحقُّ لأجلها الحمد، ومُنزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ ينافي كمال حمده)[1].

ثانياً: وَهْمُ من توهَّم بأن النقص اللازم للاسم والصفة هو من موضوعها؛ أو مُسمًّى لفظها، وأن الإضافة لا تمنع أن يدخل فيها شيءٌ من خصائص المخلوقين، وقد دفع ــ رحمه الله تعالى ــ هذا الوهم بقوله: (إن هذا النقص اللازم للصفة ليس هو من موضوعها؛ ولا مُسمًّى لفظها، وإنما هو من خصوص الإضافة، فالقدر الممدوح الذي هو موضوع الصفة والنقص اللازم غير داخل في موضوعها، وكذلك لا دلالة في لفظها على العدم، والوجود غاية الكمال الذي لا كمال فوقه، وإنما ذلك من لوازم إضافتها ونسبتها إلى الربِّ ــ سبحانه ــ ، فإذاً موضوع لفظها: مطلق المعنى الممدوح، وخصوص الإضافة غير داخل في اللفظ المطلق، وعلى هذا فإذا اسْتُعملت في حقِّ الربِّ تعالى: كانت حقيقة، وإذا اسْتُعملت للعبد: كانت حقيقة.

فتدبَّر هذا؛ فإنه فصل الخطاب فيما يُطلق على الربِّ والعبد، واعتبر هذا فيما يُطلق على المخلوق نفسه، فإنه حقيقة مع دلالته على غاية المدح في المحلِّ؛ وغاية الذمِّ في محلٍّ آخر.

مثاله: قولك: هذا كلام رسول الله ﷺ وهديه وسمته، وهذا كلام الصديق، وهذا كلام المفتري، فهذا حقيقة وهذا حقيقة؛ وهما في غاية التضادِّ والاختلاف، وهذا التعريف بالإضافة نظير التعريف باللام؛ ينصرف

---

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٤ ــ ٢٧٦.

إلى كلِّ محلٍّ بحسبه، ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾[1]: هو موسى، و ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾[2]: هو محمد ﷺ، فرسولٌ دالٌّ على القدر المشترك، واللام تدل على تعريفه وتعيينه، وكلٌّ من الموضعين حقيقة، هذا مع أن اللفظ يُستعمل مجرداً عن التعريف كثيراً.

وأما لفظ الرحمة والسمع والبصر واليد والوجه والكلام: فلا تكاد تُستعمل إلا مضافة إلى محلِّها، فلزوم الإضافة فيها نحو لزومها في الأسماء والأعلام؛ ولا سيَّما المضافة إلى الربِّ، كقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[3]. ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[4]. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[5]. ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[6]. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[7]. ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[8].

فهذه الإضافة تمنع أن يدخل في اسم الصفة شيءٌ من خصائص المخلوقين بوجهٍ من الوجوه، فالمحذوف الذي أوجب لهم دعوى المجاز فيها منتف بالإضافة قطعاً، فلا وجه لدعوى المجاز فيها ألبتة؛ وهذا ظاهرٌ جداً، فإنها بإضافتها الخاصة دلَّت على ما لا تسعه العبارة من الكمال الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه)[9].

---

(١) سورة المزمل: الآية ١٦.
(٢) سورة النور: الآية ٦٣.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٦.
(٥) سورة الرحمن: الآية ٢٧.
(٦) سورة الليل: الآية ٢١.
(٧) سورة المائدة: الآية ٦٤.
(٨) سورة ص: الآية ٧٥.
(٩) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٣٤٦ ـ ٣٤٧.

وشواهد صحة هذه القاعدة مطَّردةٌ في هذه الشريعة وفي غيرها من الشرائع السماوية، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (كثيرٌ من أسماء الله ــ عزَّ وجلّ ــ تقع على غيره عند جميع الأمم؛ وفي سائر الكتب)[1].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (وقد سمَّى الله عبده بالملك؛ كما سمَّى نفسه بذلك، وسمَّى نبيَّه بالرؤوف الرحيم؛ كما سمَّى نفسه بذلك، وسمَّاه بالعزيز؛ وسمَّى نفسه كذلك، واسم الربِّ واقعٌ على غير الله تعالى في لغة أمة التوحيد، كما يقال: هو ربُّ الدار، وربُّ المنزل، وربُّ الإبل، وربُّ هذا المتاع)[2].

وجميع ما تقدَّم من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : إنما هو في تقرير قاعدة الأسماء والصفات التي يصحُّ إطلاقها حقيقة على الله تعالى وعلى عباده، وبقي في هذا المقام ذكر كلامه ــ رحمه الله تعالى ــ المُبيِّن أن من الأسماء والصفات ما هو مختصٌّ بالله تعالى، فلا يصحُّ بحالٍ من الأحوال إطلاقها على غيره من المخلوقات، حيث قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (ومما يُمنع تسمية الإنسان به: أسماء الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، فلا يجوز التسمية بالأحد والصمد، ولا بالخالق ولا بالرازق، وكذلك سائر الأسماء المختصَّة بالربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، ولا تجوز تسمية الملوك بالقاهر والظاهر، كما لا يجوز تسميتهم بالجبَّار والمتكبر والأول والآخر والباطن وعلام الغيوب[3].

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٠٤.

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٠٤ ــ ٥٠٥.

(٣) وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص ٦٤٠ ــ ٦٤١] بعضاً مما يُمنع إطلاقه =

وقد قال أبو داود في سننه: حدثنا الربيع بن نافع[1] عن يزيد بن المقدام بن شريح[2] عن أبيه[3]، عن جده شريح[4]، عن أبيه هانىء: «أنه لمَّا وفد إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مع قومه سمعهم يكنونه بأبـي الحكم، فدعاه ﷺ؛ فقال: إن الله هو الحَكَمُ، وإليه الحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أبا الحَكَم؟ فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيءٍ أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كِلا

= علـى الإنسان؛ لاختصاصه بالربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ فقال: (صار (عزَّ وجلّ) و (سبحانه وتعالى): مخصوصاً بالله ــ عزَّ وجلّ ــ ؛ يُذكر مع ذكر اسمه، ولا يسوغ أن يُستعمل ذلك لغيره، فلا يقال: محمد ــ عزَّ وجلّ ــ ولا ــ سبحانه وتعالى ــ . فلا يُعطى المخلوق مرتبة الخالق).

(١) هو: أبو توبة الربيع بن نافع الحلبـي، شيخ طرسوس وعالمها، توفي سنة إحدى وأربعين ومائتين.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٩/١٠٣ ــ ١٠٦، المقتنى في سرد الكنى للذهبـي ١/١٣٥، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ٢/٩٩.

(٢) هو: الحضرمي الحارثي الكوفي.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبـي حاتم ٩/٢٨٩، الثقات لابن حبان ٩/٢٧٢، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٣٢/٢٤٨ ــ ٢٥٠.

(٣) انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٧/٤٣٠، تاريخ أسماء الثقات ممن نقل عنهم العلم لابن شاهين ص١٦٣، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٨/٤٥٧ ــ ٤٥٨.

(٤) هو: أبو مقدام الكوفي، أدرك النبـي ﷺ ولم يره، قتل بسجستان سنة ثمان وسبعين؛ وله عشرون ومائة سنة.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٢/٤٥٢ ــ ٤٥٥، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٤/١٠٧ ــ ١٠٩، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٣/٣٨٢ ــ ٣٨٣.

الفريقين. فقال رسول الله ﷺ: ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟ قال: لي شريح ومسلمة وعبد الله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: فأنت أبو شريح»(١).

وقد تقدم ذكر الحديث الصحيح: «أغيظ رجلٍ على الله: رجلٌ تَسمَّى بملك الأملاك»(٢).

وقال أبو داود: حدثنا مسدد(٣) حدثنا بشر بن المفضل(٤) حدثنا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب في تغيير الاسم القبيح ـ الحديث رقم (٤٩٥٥) ـ ٥/ ٢٤٠]، وكذا أخرجه النسائي في سننه [كتاب آداب القضاة/ باب إذا حكموا رجلاً فقضى بينهم ـ الحديث رقم (٥٤٠٢) ـ ٨/ ٦١٨].
وصححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٢١٦].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأدب/ باب أبغض الأسماء إلى الله ـ الحديث رقم (٦٢٠٥) ـ ٤/ ١٩٥١]، ومسلم في صحيحه [كتاب الآداب/ باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك ـ الحديث رقم (٢١٤٣) ـ ٣/ ١٦٨٨] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه: «أغيظ رجلٍ على الله يوم القيامة وأخبثه».

(٣) هو: أبو الحسن مسدد بن مسرهد بن مسربل الأسدي البصري، الحافظ الحجة، ولد في حدود الخمسين ومائة، وتوفي سنة ثمان وعشرين ومائتين.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٨/ ٧٢ ـ ٧٣، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٧/ ٤٤٢ ـ ٤٤٨، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٥٩١ ـ ٥٩٥.

(٤) هو: أبو إسماعيل بشر بن المفضل بن لاحق الرقاشي مولاهم البصري، الإمام الحافظ، توفي سنة ست وثمانين ومائة.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ٣٦٦، سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/ ٣٦ ـ ٣٩، طبقات الحفاظ للسيوطي ص١٣٤.

أبو سلمة سعيد بن يزيد[1] عن أبـي نضرة[2] عن مطرف بن عبد الله بن الشِّخير[3] قال: قال أبـي: «انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا. فقال: السيد الله. قلنا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً. فقال: قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يَسْتَجْرِيَنَّكم الشيطان»[4].

---

(١) هو: الأزدي البصري.
انظر في ترجمته: الكنى والأسماء لمسلم بن الحجاج ٢/ ٨٢٠، الجرح والتعديل لابن أبـي حاتم ٤/ ٧٣، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١١/ ١١٤ ـ ١١٦.

(٢) هو: المنذر بن مالك بن قطعة العبدي العَوَقي البصري، المحدث الثقة، توفي سنة ثمان أو سبع ومائة.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٢٤١، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٥٢٩ ـ ٥٣٢.

(٣) هو: أبو عبد الله الحرشي العامري البصري، القدوة الحجة، أدرك النبـي ﷺ ولم يره، توفي سنة خمس وتسعين.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ١٨٧ ـ ١٩٥، البداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ٤٠٠ ـ ٤٠١، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٦/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب في كراهية التمادح ـ الحديث رقم (٤٨٠٦) ـ ٥/ ١٥٤ ـ ١٥٥]، وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦٣٠٧) ـ ٢٦/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥]، والبخاري في أدبه المفرد [باب هل يقول سيدي ـ الحديث رقم (٢١١) ـ ص٥٤]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ ذكر اختلاف الأخبار في قول القائل: سيدنا وسيدي ـ الحديث رقم (١٠٠٠٣) ـ ٩/ ١٠٢].
وصححه الألباني في [صحيح سنن أبـي داود: الحديث رقم (٤٨٠٦) ـ ٣/ ١٨١].

ولا ينافي هذا قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم»[1]. فإن هذا إخبار منه عمَّا أعطاه الله من سيادة النوع الإنساني؛ وفضَّله؛ وشرَّفه عليهم.

وأما وَصْفُ الربِّ تعالى بأنه السيد: فذلك وصف لربِّه على الإطلاق، فإن سيد الخلق: هو مالك أمرهم الذي إليه يرجعون، وبأمره يعملون، وعن قوله يصدرون، فإذا كانت الملائكة والإنس والجن خلقاً له ـ سبحانه وتعالى ـ ومِلْكاً له، ليس لهم غنى عنه طرفةَ عينٍ، وكلُّ رغباتهم إليه، وكلُّ حوائجهم إليه: كان هو ـ سبحانه وتعالى ـ السيد على الحقيقة[2].

قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير قول الله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾[3]. قال: (السيد الذي كمل سُؤْدُدُه)[4].

والمقصود: أنه لا يجوز لأحدٍ أن يتسمَّى بأسماء الله المختصة به، وأما الأسماء التي تُطلق عليه وعلى غيره كالسميع والبصير والرؤوف والرحيم: فيجوز أن يُخبر بمعانيها عن المخلوق، ولا يجوز أن يتسمَّى بها على الإطلاق؛ بحيث يُطلق عليه كما يُطلق على الربِّ تعالى)[5].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الفضائل/ باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ـ الحديث رقم (٢٢٧٨) ـ ٤/ ١٧٨٢] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: الفائدة التي حكاها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [بدائع الفوائد ٣/ ١٧٩] في خُلْفَ الناس في جواز إطلاق السيد على البشر؛ والتي قال في خاتمتها: (إن السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو بمعنى: المالك والمولى والربِّ؛ لا بالمعنى الذي يُطلق على المخلوق، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم).

(٣) سورة الإخلاص: الآية ٢.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨ ـ ١٠٩.

فهذه جملة القول في تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذه القاعدة العظيمة من القواعد المشتركة بين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ والموضِّحة للأسماء والصفات التي تطلق على الله تعالى وعلى العبد؛ وأنها ثابتة لهما على الحقيقة.



المبحث السادس:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (كل كمال ثبت للمخلوق لا نقص فيه: فالخالق أحقُّ به وأولى)

إنَّ مِن أصحِّ الطُّرق وأوضحها في إثبات أسماء الله تعالى وصفاته: هو قياس الأولى؛ الذي عُبِّر عنه في نصوص الكتاب الحكيم بـ: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]، وحقيقته: (أن كلَّ كمالٍ لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه يثبت للمخلوق: فالخالق أحقُّ به، وكلُّ نقصٍ تنزه عنه مخلوقٌ: فالخالق ـ سبحانه ـ أحقُّ بتنزيهه عنه)[2].

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٠، سورة الروم: الآية ٢٧.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢/ ٣٤١.

وقد استفاد الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير فقه هذه القاعدة من كتب شيخه ابن تيمية ـ رحمهما الله تعالى ـ الكبيرة؛ ورسائله الصغيرة، فمن هذه الكتب المفردة ـ على سبيل المثال ـ: بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٣٦٠، درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٢٢٢؛ ٣/ ٣٦٨؛ ٧/ ١٥٤؛ ٣٢٣؛ ٣٦٢، شرح العقيدة الأصفهانية ص٧٤، الصفدية ١/ ٩٠ ـ ٩٢؛ ٢/ ٢٥ ـ ٢٧، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ١/ ٤١٧؛ ٣/ ٢٢٢، النبوات ٢/ ٨٩٣.

ومن رسائله المجموعة: القاعدة التدمرية ٣/ ٣٠؛ ٨٦، سؤال في جواز الخوض فيما تكلم فيه من مسائل في أصول الدين لم ينقل عن سيدنا محمد ﷺ فيها كلام وجوابه ٣/ ٢٩٧، سؤال هل الاستواء والنزول حقيقة أم لا؟ وما معنى كونه =

وهذه الطريقة في إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى: (هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب)[1]، وكانوا (يحتجُّون بها؛ ويثبتون أن من عبد إلـٰهاً لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم: فقد عبد ربًّا ناقصاً معيباً مؤوفاً، ويثبتون أن هذه صفات كمال؛ فالخالي عنها ناقصٌ)[2].

وهذه الطريقة (من أبلغ الطرق البرهانية، وهي مستعملةٌ في القرآن في غير موضعٍ)[3]، وتستدلُّ بها كلُّ طائفةٍ؛ وتُعبِّر عنها (باصطلاحهم، حتى تقول المتفلسفة: كلُّ كمالٍ ثبت للمعلول: فهو من كمال العلة)[4].

وهناك ثمةَ وجوه استدلَّ بها أهل السنة والجماعة على صحة هذه الطريقة المُقرِّرة لهذه القاعدة:

أحدها: (أنَّ الخالق الموجود الواجب بذاته القديم أكمل من المخلوق القابل للعدم المحدث المربوب.

= حقيقة؟ وجوابه ٥/ ٢٠١، الرسالة الأكملية ٦/ ٧٧ ــ ٨١، الإيمان الأوسط ٧/ ٥٧٠، قدرة الرب ــ عزَّ وجلّ ــ ٨/ ٢١، أقوم ما قيل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٨/ ١٤٩، بيان أن القرآن العظيم كلام الله العزيز العليم ليس شيء منه كلاماً لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما ١٢/ ١٥٧ ــ ١٥٨، الرسالة الكيلانية ١٢/ ٣٤٧؛ ٣٥٠؛ ٣٥٦؛ سورة العلق ١٦/ ٣٥٧ ــ ٣٦٠، [رسائل مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، رسالة في معنى كون الرب عادلاً وفي تنزهه عن الظلم ١/ ١٤١ [رسالة مودعة ضمن جامع الرسائل لابن تيمية].

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ٣٠.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢/ ٣٤٠ ــ ٣٤١.

(٣) النبوات لابن تيمية ٢/ ٨٩٥.

(٤) المسألة المصرية في القرآن ١٢/ ١٩٢ ــ ١٩٣ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

الثاني: أنَّ كلَّ كمالٍ فيه فإنما استفاده من ربِّه وخالقه، فإذا كان هو مُبْدِعاً للكمال وخالقاً له: كان من المعلوم بالاضطرار أن مُعطي الكمال وخالقه ومبدعه أولى بأن يكون مُتصفاً به من المستفيد المبدع المعطي)[١].

الثالث: أنَّ الخالق لو لم يتصف بصفات الكمال: لكانت مخلوقاته أكمل منه.

الرابع: أنَّ الخالق (لو لم يتصف بصفات الكمال: لاتصف بنقائضها؛ وهي صفات نقص، والله منزهٌ عن ذلك)[٢].

فهذه إحدى القواعد العظيمة؛ والركائز الجسيمة التي استدلَّ بها أهل السنة والجماعة في إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى[٣].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه القاعدة ــ والتي هي إحدى القواعد العظيمة المشتركة بين الأسماء الحسنى والصفات العلى ــ؛ والنصِّ في مواضع من كتبه عليها، فمن ذلك قوله ــ رحمه الله تعالى ــ: (كلُّ كمالٍ ثبت للمخلوق لا نقص فيه؛ فلا يستلزم نقصاً[٤]: فمعطيه وموجده أحقُّ به وأولى)[٥].

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص١١٧ ــ ١١٨.

(٢) سؤال في حديث: «إنَّ الله ــ عزَّ وجلّ ــ ينادي بصوت» وجوابه لابن تيمة ٦/ ٥٣٨ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) انظر: القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص٢٨٧ ــ ٢٩٥.

(٤) أي: غير مستلزم للنقص في حقِّ الرب تعالى، وإلا فليس للعبد صفة كمالٍ سالمة من النقص؛ كما سيأتي تقريره من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٨.

ثم وضَّح ــ رحمه الله تعالى ــ فقه هذه القاعدة بقوله: (فكيف يكون المخلوق يتكلَّم وخالقه لا يتكلم؟ وكيف يكون سميعاً بصيراً وخالقه لا يسمع ولا يبصر؟ وكيف يكون حيًّا عليماً قديراً حكيماً وخالقه ليس كذلك؟ وكيف يكون ملكاً آمراً ناهياً مرسلاً مثيباً معاقباً وخالقه ليس كذلك؟ وكيف يكون فاعلاً باختياره ومشيئته وخالقه ليس كذلك؟ وكيف يكون قويًّا وخالقه ليس له قوة؟ وكيف يكون رحيماً وخالقه لم تقم به صفة رحمة ولا رأفة؟ وكيف يكون كريماً حليماً جواداً ماجداً وخالقه ليس كذلك؟

هذا ومن المعلوم بالضرورة أن ما يُرى أكمل ممن لا يمكن أن يُرى، فإنه: إما معدومٌ وإما عرضٌ، والمرئي أكمل منهما، وما يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، فإنه: إما جمادٌ وإما عرضٌ وإما معدومٌ، والمتكلم أكمل من ذلك، وما له سمع وبصر ووجه ويدان أكمل من الفاقد لذلك بالضرورة، وهكذا سائر الصفات)[1].

فهذا تقريرٌ من الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه القاعدة العظيمة؛ وهي: (أنَّ كلَّ كمالٍ في الوجود: فمعطيه وخالقه أحقُّ به وأولى، وكلُّ نقصٍ وعيبٍ: فهو ــ سبحانه ــ منزهٌ متعالٍ عنه)[2].

والاستدلال بهذه القاعدة على إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى: إنما هو استدلالٌ بقياس الأولى، وهو استدلالٌ نقليٌّ عقليٌّ، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا الاستدلال بقوله: (الربُّ تعالى لا يدخل مع خلقه في قياس تمثيلٍ؛ ولا قياس شهودٍ يستوي أفراده، فهذان الفرعان من القياس يستحيل ثبوتهما في حقِّه، وأما قياس الأولى: فهو

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٨ ــ ١٠١٩.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣٢.

غير مستحيلٍ في حقِّه؛ بل هو واجبٌ له، وهو مستعملٌ في حقِّه عقلاً ونقلاً.

أما العقل: فكاستدلالنا على أن مُعطي الكمال أحقُّ بالكمال، فمن جعل غيره سميعاً بصيراً عالماً متكلماً حيًّا حكماً قادراً مريداً رحيماً محسناً: فهو أولى بذلك وأحقُّ منه، ويثبت له من هذه الصفات أكملها وأتمها، وهذا مقتضى قولهم(١): كمال المعلول مستفادٌ من كمال عِلَّته.

ولكن نحن نُنزه الله ـ عزَّ وجلّ ـ عن إطلاق هذه العبارة في حقِّه، بل نقول: كلُّ كمال ثبت للمخلوق ـ غير مستلزم للنقص ـ: فخالقه ومعطيه إياه أحقُّ بالاتصاف به، وكلُّ نقصٍ في المخلوق: فالخالق أحقُّ بالتنزه عنه، كالكذب والظلم والسفه والعيب، بل يجب تنزيه الربِّ تعالى عن كلِّ النقائص والعيوب مطلقاً؛ وإن لم يتنزه عنها بعض المخلوقين.

وكذلك إذا استدللنا على حكمته تعالى بهذه الطرائق نحو أن يقال: إذا كان الفاعل الحكيم الذي لا يفعل فعلاً إلا لحكمةٍ وغايةٍ مطلوبةٍ له من فعله أكمل ممن يفعل لا لغايةٍ ولا لحكمةٍ ولا لأجل عاقبةٍ محمودةٍ ـ وهي مطلوبةٌ من فعله في الشاهد ـ؛ ففي حقِّه تعالى أولى وأحرى، فإذا كان الفعل للحكمة كمالاً فينا: فالربُّ تعالى أولى به وأحقُّ، وكذلك إذا كان التنزه عن الظلم والكذب كمالاً في حقِّنا: فالربُّ تعالى أولى وأحقُّ بالتنزه عنه.

وبهذا ونحوه ضرب الله الأمثال في القرآن؛ وذَكَّر العقول ونبَّهها وأرشدها إلى ذلك، كقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾(٢).

---

(١) أي: قول الفلاسفة.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٩.

فهذا مثلٌ ضَرَبَه يتضمن قياس الأولى، يعني: إذا كان المملوك فيكم له مُلاكٌ مشتركون فيه؛ وهم متنازعون، ومملوكٌ آخر له مالكٌ واحدٌ، فهل يكون هذا وهذا سواءٌ؟ فإذا كان هذا ليس عندكم كمن له ربٌّ واحدٌ ومالكٌ واحدٌ؛ فكيف ترضون أن تجعلوا لأنفسكم آلهة متعددة؛ تجعلونها شركاء لله تحبونها كما يحبونه؛ وتخافونها كما يخافونه؛ وترجونها كما يرجونه؟

وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾[1].

يعني: أن أحدكم لا يرضى أن يكون له بنتٌ؛ فكيف تجعلون لله ما لا ترضونه لأنفسكم؟

وكقوله: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾[2].

يعني: إذا كان لا يستوي عندكم عبدٌ مملوكٌ لا يقدر على شيءٍ؛ وغنيٌّ مُوَسَّعٌ عليه ينفق مما رزقه الله، فكيف تجعلون الصنم الذي هو أسوأ حالاً من هذا العبد شريكاً لله؟ وكذلك إذا كان لا يستوي عندكم رجلان أحدهما أبكم لا يعقل ولا ينطق؛ وهو مع ذلك عاجزٌ لا يقدر على شيءٍ، وآخر على طريقٍ مستقيمٍ في أقواله وأفعاله؛ وهو آمرٌ بالعدل عاملٌ به لأنه على صراطٍ مستقيم، فكيف تُسوُّون بين الله وبين الصنم في العبادة؟ ونظائر ذلك كثيرةٌ في القرآن

---

(١) سورة الزخرف: الآية ١٧.

(٢) سورة النحل: الآيتان ٧٥ ـ ٧٦.

وفي الحديث، كقوله في حديث الحارث الأشعري: (وإن الله أمركم أن تعبدوه لا تشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك كمَثَلِ رجلٍ اشترى عبداً من خالص ماله، وقال له: اعمل وأدِّ إليَّ، فكان يعمل ويُؤدِّي إلى غيره، فأيُّكم يُحبُّ أن يكون عبده كذلك؟)[1].

فالله ــ سبحانه ــ لا تُضرب له الأمثال التي يشترك هو وخلقه فيها؛ لا شمولاً ولا تمثيلاً، وإنما يُستعمل في حقِّه قياسُ الأولى كما تقدم)[2].

فهذا تقرير للقياس النقليِّ والعقليِّ السائغ استعماله في حقِّ الله ــ تبارك وتعالى ــ؛ وهو قياس الأولى المتضمن: أن (أدلة ثبوت صفات الكمال لمعطي الكمال هي من أظهر الأشياء وأوضحها)[3]، وأنه يستحيل على الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ أن يعيب (من عباده شيئاً ويتصف به؛ وهو ــ سبحانه ــ إنما عابه لأنه نقصٌ؟ فهو أولى أن يتنزه عنه)[4].

وقد بيَّن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: أنَّ (الكمال المطلق لله رب العالمين، وما من العباد إلا له مقامٌ معلومٌ)[5]؛ فقال: (إن المخلوق يُدرك من ذاته كمالاً يلتذُّ بإدراكه ويُسرُّ ويفرح به ــ مع كون ذلك الكمال ناقصاً بين عدمين؛ وهو من غيره ليس منه ــ: فكيف بمن له الكمال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٧١٧٠) ــ ٢٨/ ٤٠٤ ــ ٤٠٦]، والترمذي في جامعه [أبواب الأمثال/ باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ــ الحديث رقم (٢٨٦٣) ــ ٤/ ٥٤٤ ــ ٥٤٥]، وأوله: «إن الله ــ عزَّ وجلَّ ــ أمر يحيى بن زكريا».
وصححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: ٣/ ١٤٣ ــ ١٤٥].

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤٧٩ ــ ٤٨١.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٧٢.

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٩.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٣٣.

المطلق الواجب السرمد؛ وهو لم يستفده من غيره؛ وهو أعلم بكماله وكلِّ ما سواه؟)[1].

فهذا تقريرُ أن العبد ليس له صفة كمالٍ مطلقٍ، وما يلحقه من صفات الكمال: فإنه مسبوقٌ وملحوقٌ بنقصٍ.

مثال ذلك: أن صفةَ العلم صفةُ كمالٍ في حقِّ العبد، وهي صفةٌ مسبوقةٌ بنقصٍ وهو الجهل، وملحوقةٌ بنقصٍ وهو النسيان، ثم إن صفة العبد مع كونها مخلوقة؛ إلا أنه لم يستحقها لذاته، وإنما هي محض فضل الله تعالى ومنَّته وهبته على عبده.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : أن رؤية العبد لما أودعه الله تعالى في نفسه وفي الآفاق (من الكمالات ـ التي لو عدمتها كانت ناقصة ـ : دليلٌ على أن مُعطي تلك الكمالات أحقُّ بها)[2].

ففي رؤية العبد للكمالات التي في نفسه قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة: عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به، فمعطي الكمال أحقُّ بالكمال.

فكيف يكون العبد حيًّا متكلماً سميعاً بصيراً مريداً عالماً يفعل باختياره؛ ومن خلقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال، بل من جعل العبد متكلماً أولى أن يكون هو متكلماً؛ ومن جعله حيًّا عليماً سميعاً بصيراً فاعلاً قادراً أولى أن يكون كذلك)[3].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٥٧.

(٢) الفوائد ص٢٩.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١.

وفي رؤية العبد للكمالات التي في الآفاق قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن العبد إذا اعتبر كلَّ كمال في الوجود: وجده من آثار كماله ــ سبحانه ــ ، فهو دالٌّ على كمال مبدعه؛ كما أن كلَّ علمٍ في الوجود: فمن آثار علمه؛ وكلَّ قدرةٍ: فمن آثار قدرته، ونسبة الكمالات الموجودة في العالم العلوي والسفلي إلى كماله: كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم إلى علمه ــ سبحانه ــ وقدرته وقوته وحياته، فإذاً لا نسبة أصلاً بين كمالات العالم وكمال الله ــ سبحانه ــ)[1].

وقد ضرب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الأمثلة على بعض صفات الكمال التي قامت في المخلوقين؛ فاقتضى قيامها بهم أن يكون خالقهم ــ سبحانه وتعالى ــ ومعطيهم إياها: أحقُّ بها منهم وأولى، فمن ذلك:

أولاً: صفتا الحمد والمجد، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ فيهما: (فلما كان المطلوب للرسول ﷺ حمداً ومجداً بصلاة الله عليه: خُتِمَ هذا السؤال باسمي الحميد والمجيد.

وأيضاً فإنه لما كان المطلوب للرسول حمداً ومجداً؛ وكان ذلك حاصلاً له خُتِمَ ذلك بالإخبار عن ثبوت ذينك الوصفين للربِّ بطريق الأولى، إذ كلُّ كمالٍ في العبد غير مستلزم للنقص: فالربُّ أحقُّ به)[2].

ثانياً: صفة القيومية، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ فيها: (إذا كان قيام المخلوق بنفسه صفة كمال ــ وهو مفتقر بالذات إلى غيره ــ : فقيام الغني بذاته بنفسه أحقُّ وأولى)[3].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧٦ ــ ٥٧٧.

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٥٢.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٣٢٨.

ثالثاً: صفة الغنى، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ فيها: (إن الله ــ سبحانه ــ مستغنٍ عن أن يُحدث كلَّ ما يقدر عليه من هذه الأمور في وقتٍ واحدٍ، بل إذا كان العبد مستغنياً عن فعل ما هو من جنس اللذات مع قدرته على ذلك: فالله أجلُّ وأعظم)[1].

رابعاً: صفة المحبة، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ فيها: (الإنسان يحبُّ نفسه؛ فيكون المُحبُّ المحبوب، فإذا كان هذا أمراً معقولاً في المخلوق غير ممتنع: فكيف يمتنع في حقِّ الخالق؟)[2].

خامساً: صفة البركة، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ فيها: (فإذا كان العبد وغيره مباركاً لكثرة خيره ومنافعه؛ واتصال أسباب الخير فيه؛ وحصول ما ينتفع به الناس منه: فالله ــ تبارك وتعالى ــ أحقُّ أن يكون متباركاً)[3].

ومن الأمثلة التي ضربها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المقام: قيام المخلوقين في أقوالهم وأفعالهم على صراطٍ مستقيم، وأن الذي أقامهم على هذا الصراط: أحقُّ بالقيام منهم وأولى، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا كان ــ سبحانه ــ هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم: فهو ــ سبحانه ــ أحقُّ بأن يكون على صراطٍ مستقيمٍ في قوله وفعله، وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره: فصراطه الذي هو ــ سبحانه ــ عليه هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحقِّ وفعله، وبالله التوفيق)[4].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٤٦٨.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٤٥٨.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٣٣.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦٤.

فهذه خلاصة القول وجملته المتضمنة لمنثور كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ المُقرِّر لهذه القاعدة العظيمة من القواعد المشتركة بين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ والموضِّحة لما يثبت للمخلوق من الكمال الذي لا يعتريه نقصٌ في حقِّ الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ ، وأنه أحقُّ بهذا الكمال وأولى من مخلوقاته.

ويحسن قبل ختم تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه القاعدة: أن يُذكر منظوم كلامه المُقرِّر لها، حيث يقول ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته:

(وكمالُ من أعطى الكمالَ بنفسه ... أولى وأقدم وهو أعظم شانِ
أيكون قد أعطى الكمال وماله ... ذاك الكمالُ أذاك ذو إمكانِ
أيكون إنسانٌ سميعاً مبصراً ... متكلماً بمشيئة وبيانِ
وله الحياةُ وقدرةٌ وإرادةٌ ... والعلم بالكُلِّيِّ والأعيانِ
والله قد أعطاه ذاك وليس هـ ... ـذا وصفه فاعجب من البهتانِ
بخلاف نومِ العبد ثمَّ جِماعه ... والأكلِ منه وحاجة الأبدانِ
إذ تلك ملزوماتُ كون العبد محـ ... ـتاجاً وتلك لوازم النقصانِ
وكذا لوازم كونه جسداً نعم ... ولوازم الإحداث والإمكانِ
يتقدَّس الرحمن جلَّ جلاله ... عنها وعن أعضاء ذي جثمانِ)(1).

❑ ❑ ❑

(1) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم: (٥٤٧ ــ ٥٥٥) ــ ص٤٠٠].



المبحث السابع :

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (أفعال الله تعالى صادرة عن أسمائه الحسنى وصفاته العلى)

إنَّ لله ـ تبارك وتعالى ـ الجمال والكمال والجلال المطلق، فما كان صادراً عن جمال أسمائه؛ وكمال أوصافه؛ وجلال نعوته: فلا بُدَّ أن يكون له من الجمال والكمال والجلال ما يليق به.

ففرقٌ بين أفعال الخالق وأفعال المخلوق، فأفعال الخالق: صادرة عن أسمائه وصفاته؛ وهي غير مخلوقة ولا محدثة، فالخالق ـ سبحانه وتعالى ـ كمل ففعل، لذا فهو: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[1]؛ لكون أفعاله كلِّها: فضلٌ وعدلٌ وحكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ، وهي صادرةٌ عن أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

وأما أفعال المخلوق: فعنها صدرت أسماؤه وصفاته، وهي مخلوقة محدثة، فالمخلوق فعل فكمل، لذا فهو يُسأل عن أفعاله؛ لأنها ليست واقعة على أحسن الوجوه وأتمِّها، وليست في كلِّ حالٍ: موافقة للصواب والسداد؛ ومطابقة للحكم والرشاد.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

وقد دلَّت نصوص الوحيين المطهَّرين ــ وجاءت بموافقتهما الفطر السليمة والعقول المستقيمة ــ على أن أفعال الله تعالى صادرة عن جمال أسمائه وكمال أوصافه وجلال نعوته، وأن الله تعالى لا يفعل شيئاً عبثاً؛ كما أنه لا يترك شيئاً سدى، فيمتنع أن تكون أفعال الله تعالى صادرة منه لا لحكمة عظيمة ولا لغاية كريمة؛ أو تكون مشتملة على شرٍّ بوجهٍ من الوجوه، لأن الشرَّ ليس إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ؛ وإنما الخير هو الذي إليه، فلا يفعل الربُّ ــ تبارك وتعالى ــ إلا خيراً؛ ولا يريد إلا خيراً، ولو شاء لفعل ما يناقض ذلك، ولكنه تعالى تنزه عن فعل ما لا ينبغي وإرادته ومشيئته؛ كما هو مُنزهٌ عن التسمِّي به أو الاتصاف به.

ومن فَقِهَ هذه القاعدة وفَهِمَها: علم بطلان دعوى المعتزلة القائلين: إن أسماء الله تعالى أعلامٌ محضةٌ، إذ لو كانت أعلاماً محضةً لا معاني لها: لما كانت أفعال الله تعالى صادرة عنها، وسيأتي ــ بمشيئة الله تعالى ــ هدم هذا الأسِّ المُؤسَّسِ على شفا جرفٍ هارٍ في تقرير قاعدة: (دلالة أسماء الله الحسنى على العلمَية والوصفية).

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه القاعدة؛ والتي هي إحدى القواعد العظيمة المشتركة بين الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ ونصَّ في إحدى المواضع من كتبه عليها؛ فقال: (إن أفعال الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ صادرةٌ عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرةٌ عن أفعالهم)[1].

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة بقوله: (فالربُّ ــ تبارك وتعالى ــ فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله، فاشتقَّت له الأسماء

---

(١) بدائع الفوائد ١/١٤٧.

بعد أن كمل بالفعل، فالربُّ لم يزل كاملاً، فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كاملٌ بذاته وصفاته، فأفعاله صادرةٌ عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل ـ الكمال اللائق به ـ)[1].

فهذا تقريرٌ متضمنٌ للفرق بين أفعال الله تعالى وأفعال عبده، فأفعال الله تعالى تصدر عن أسمائه وصفاته، وأفعال عبده تصدر عنها أسماؤه وصفاته، ففعال الله تعالى عن كماله؛ فإنه كمل ففعل، وهذا بخلاف عبده فإن كماله (من فعاله، فإنه فعل فكمل)[2].

وقد أورد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ الأدلة الشرعية المحكمة المُقرِّرة لهذه القاعدة العظيمة؛ مُبيِّناً وجه دلالتها على هذه القاعدة؛ فقال: (ـ سبحانه ـ ليس فوقه من يسأله عما يفعله، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3].

فلم تكن الآية مسوقة لبيان أنه لا يفعل بحكمةٍ ولا لغايةٍ محمودةٍ مطلوبةٍ بالفعل؛ وأنه يفعل ما يفعله بلا حكمةٍ ولا سببٍ ولا غايةٍ، بل الآية دلَّت على نقيض ذلك؛ وأنه لا يُسأل عما يفعل لكمال حكمته وحمده، وأن أفعاله صادرةٌ عن تمام الحكمة والرحمة والمصلحة، فكمال علمه وحكمته وربوبيته ينافي اعتراض المعترضين وسؤال السائلين له)[4].

ولم تستقلَّ بالدلالة على هذه القاعدة العظيمة النقول الصحيحة القويمة، بل جاءت بموافقتها العقول الصريحة السليمة؛ والفطر السجيحة

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٤٧.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢١.

(٣) سورة الأنبياء: الآيات ٢١ ـ ٢٣.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٧.

المستقيمة، كما قرَّر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (قد دلَّت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دلَّ عليه القرآن والسنة: أنه ــ سبحانه ــ حكيمٌ لا يفعل شيئاً عبثاً؛ ولا لغير معنى ومصلحةٍ وحكمةٍ هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله ــ سبحانه ــ صادرةٌ عن حكمةٍ بالغةٍ لأجلها فعل، كما هي ناشئةٌ عن أسبابٍ بها فعل.

وقد دلَّ كلامه وكلام رسوله على هذا وهذا في مواضع لا تكاد تُحصى؛ ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها)(١).

ولما كان (الله ــ سبحانه ــ كامل الصفات له الأسماء الحسنى؛ ولا يكون عن الكامل في ذاته وصفاته إلا الفعل المحكم)(٢): امتنع أن يصدر عن جمال أسماء الله الحسنى وكمال أوصافه العلى ما ينافيها، فمن ذلك:

أولاً: أن لا يصدر عن أسماء الله تعالى وصفاته إلا الأفعال المحكمة، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إنَّ كمال الرب تعالى وجلاله وحكمته وعدله ورحمته وقدرته وإحسانه وحمده ومجده وحقائق أسمائه الحسنى: تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة ولا لغاية مطلوبة، وجميع أسمائه الحسنى: تنفي ذلك؛ وتشهد ببطلانه)(٣).

ثانياً: أن لا يصدر عن أسماء الله تعالى وصفاته إلا كلُّ خيرٍ، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (القضاء الإلـهي: خيرٌ كلُّه، فإن مصدره علم الله وحكمته وكماله المقدس، فهو خيرٌ كلُّه ومصلحةٌ وحكمةٌ وعدلٌ ورحمةٌ)(٤).

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٣٧.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٦٢.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٧١.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٥٦.

وكون أسماء الله تعالى وصفاته لا يصدر عنها من الأفعال إلا كلُّ خيرٍ يقتضي: امتناع دخول الشرِّ ــ بوجهٍ من الوجوه ــ في أفعال الله تعالى، لأن (أسماء الربِّ الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة تأبى ذلك)[1]، والله تعالى مُنزهٌ عن فعل ما لا ينبغي له فعله، كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن فعله ــ سبحانه ــ كلَّه خيرٌ، وتعالى أن يفعل شراً بوجهٍ من الوجوه، فالشرُّ ليس إليه، والخير هو الذي إليه، ولا يفعل إلا خيراً؛ ولا يريد إلا خيراً، ولو شاء لفعل غير ذلك؛ ولكنه تعالى تنزه عن فعل ما لا ينبغي وإرادته ومشيئته؛ كما هو مُنزهٌ عن الوصف به والتسمية به)[2].

وقد دلَّل ــ رحمه الله تعالى ــ على امتناع دخول الشرِّ في أفعال الله تعالى بقوله: (قد أفصح أعرف الخلق بربِّه عن هذا بقوله: «والشرُّ ليس إليك»[3].

أي: لا يُضاف إليك؛ ولا يُنسب إليك؛ ولا يصدر منك، فإن أسماءه كلَّها حسنى؛ وصفاته كلَّها كمالٌ؛ وأفعاله كلَّها فضلٌ وعدلٌ وحكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ.

فبأيِّ وجهٍ يُنسبُ الشرُّ إليه ــ سبحانه وتعالى ــ ، فكلُّ ما يأتي منه: فله عليه الحمد والشكر؛ وله فيه النعمة والفضل)[4].

وإن قُدِّر دخول الشرِّ: فإنما هو في المقضيِّ لا في القضاء؛ وفي المفعولات لا في الأفعال، فلا يُنسب الشرُّ إلى الله تعالى بوجهٍ من الوجوه؛

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ١٢٥.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤٠٥.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض».

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٣٣٨.

وإنما يُنسب (إليه ــ سبحانه ــ : أفعاله الحسنة الجميلة المتضمنة للغايات المحمودة والحكم المطلوبة)[1]، كما قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك، فذكر أن دخول الشرِّ في المقضيِّ لا في القضاء؛ فقال: (الشرُّ ليس إلى الربِّ تعالى بوجهٍ من الوجوه؛ لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، وإنما يدخل الشرُّ الجزئيُّ الإضافيُّ في المقضيِّ المُقدَّر، ويكون شراً بالنسبة إلى محلٍّ؛ وخيراً بالنسبة إلى محلٍّ آخر، وقد يكون خيراً بالنسبة إلى المحلِّ القائم به من وجهٍ؛ كما هو شرٌّ له من وجهٍ، بل هذا هو الغالب)[2].

وذكر ــ رحمه الله تعالى ــ دخول الشرِّ في المفعولات لا في الأفعال؛ فقال: (صفاته كلُّها صفات كمال، وأفعاله كلُّها حكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ؛ وخيراتٌ لا شرور فيها، كما قال النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»[3].

وإنما يقع الشرُّ في مفعولاته ومخلوقاته؛ لا في فعله ــ سبحانه ــ)[4].

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ببيان بعض الفروق التي تُعين على فقه هذه القاعدة؛ وتُرشد إلى معرفتها، فمن ذلك:

أولاً: معرفة الفرق بين أفعال الله تعالى ومفعولاته، حيث قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ الفرق بينهما من وجهين:

١ ــ أن أفعال الله ــ سبحانه وتعالى ــ : هي (آثار صفاته، وصفاته

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٨٥.
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٣٣.
(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض».
(٤) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٣٣.

قائمةٌ به من لوازم ذاته)[1]، وأما مفعولاته: فهي من مخلوقاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن العبد من مفعولات الربِّ تعالى؛ لا من أفعاله القائمة بذاته، ومفعولاته آثار أفعاله، وأفعاله من صفاته القائمة بذاته، فذاته ــ سبحانه ــ مستلزمةٌ لصفاته وأفعاله؛ ومفعولاته منفصلةٌ عنه، تلك مخلوقةٌ محدثةٌ؛ والربُّ تعالى هو الخالق بذاته وصفاته وأفعاله)[2].

٢ ــ أن أفعال الله ــ سبحانه وتعالى ــ : دائمة؛ غير مخلوقة، وأما مفعولاته: فهي مخلوقة؛ يمتنع دوامها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾[3]: دليلٌ على أمورٍ:

أحدها: أنه ــ سبحانه ــ يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه؛ وأن ذلك من كماله ــ سبحانه ــ ، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقتٍ من الأوقات، وقد قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[4].

وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن)[5].

ثانياً: معرفة الفرق بين متعلَّق المأمورات ومتعلَّق المنهيات؛ وما يدخل منهما في أفعال الله تعالى وما يدخل منهما في مفعولاته، حيث قرَّر

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٠٥.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٥٨.

(٣) سورة هود: الآية ١٠٧، سورة البروج: الآية ١٦.

(٤) سورة النحل: الآية ١٧.

(٥) التبيان في أقسام القرآن ص١٢٦ ــ ١٢٧.

ـ رحمه الله تعالى ـ الفرق بينهما بقوله: (إن ما يُحبّه من المأمورات: فهو متعلقٌ بصفاته، وما يكرهه من المنهيات: فمتعلقٌ بمفعولاته، وهذا وجهٌ دقيقٌ يحتاج الى بيانٍ؛ فنقول: المنهيات شرورٌ؛ وتفضي إلى شرورٍ، والمأمورات خيرٌ؛ وتفضي إلى الخيرات، والخير بيديه ـ سبحانه ـ ؛ والشرُّ ليس إليه، فإن الشرَّ لا يدخل فى صفاته ولا فى أفعاله ولا فى أسمائه؛ وإنما هو من المفعولات، مع أنه شرٌّ بالإضافة والنسبة إلى العبد، وإلا من حيث إضافته ونسبته إلى الخالق ـ سبحانه ـ فليس بشرٍّ من هذه الجهة.

فغاية ارتكاب النهي أن يُوجب شراً بالإضافة إلى العبد؛ مع أنه في نفسه ليس بشرٍّ، وأما فوات المأمور فيفوت به الخير؛ الذى بفواته يحصل ضدُّه من الشرِّ، وكُلَّما كان المأمور أحبَّ إلى الله ـ سبحانه ـ : كان الشرُّ الحاصل بفواته أعظم، كالتوحيد والإيمان.

وسرُّ هذه الوجوه: أن المأمور محبوبه؛ والمنهيَّ مكروهه، ووقوع محبوبه أحبُّ إليه من فوات مكروهه، وفوات محبوبه أكره إليه من وقوع مكروهه، والله أعلم)[1].

وأفعال الله تعالى المحكمة وإن كان مصدرها ـ على وجه العموم ـ : جميع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى: فمصدرها ـ على وجه الخصوص ـ : حكمة الله تعالى وعلمه وعِزَّته، حيث قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ صدور أفعال الله تعالى عن حكمة الله تعالى وعلمه فقال: (تأمَّل أسرار كلام الربِّ تعالى؛ وما تضمنته آيات الكتاب المجيد من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلامُ ربِّ العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق، وهذا كلُّه من مقتضى حكمته وحمده تعالى،

---

(١) الفوائد ١٤٣.

وهو معنى كونه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحقِّ؛ ولم يخلق ذلك باطلاً، بل خلقه خلقاً صادراً عن الحقِّ؛ آيلاً إلى الحقِّ؛ مشتملاً على الحقِّ، فالحقُّ سابقٌ لخلقها؛ مقارنٌ له؛ غايةٌ له، ولهذا أتى بالباء الدالَّة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها، فالباء مفيدةٌ معنى اشتمال خلقها على الحقِّ السابق والمقارن والغاية.

فالحقُّ سابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كلَّه ومصلحة وحقًّا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾[1].

فأخبر أن مصدر التلقِّي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك: كان صدقاً وعدلاً وهدى وإرشاداً، وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت: أألد وأنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٠﴾[2].

وهذا راجعٌ إلى قوله وخلقه، وهو خلق الولد لها على الكبر، وأما مقارنة الحقِّ لهذه المخلوقات: فهو ما اشتملت من الحكم والمصالح والمنافع؛ والآيات الدالة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله؛ وأن لقاءه حقٌّ لا ريب فيه)[3].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ صدور أفعال الله تعالى عن حكمة الله تعالى وعِزَّته فقال: (كثيراً ما يقرن تعالى بين هذين الاسمين: العزيز

---

(١) سورة النمل: الآية ٦.
(٢) سورة الذاريات: الآيتان ٢٩ ــ ٣٠.
(٣) بدائع الفوائد ٤/ ١٣٦.

الحكيم؛ في آيات التشريع والتكوين والجزاء؛ ليدلَّ عباده على أن مصدر ذلك كلِّه عن حكمةٍ بالغةٍ وعِزَّةٍ قاهرةٍ، ففهم المُوفَّقون عن الله ــ عزَّ وجلّ ــ مراده وحكمته؛ وانتهوا إلى ما وقفوا عليه ووصلت إليه أفهامهم وعلومهم، وردُّوا علم ما غاب عنهم إلى أحكم الحاكمين؛ ومن هو بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وتحقَّقوا بما علموه من حكمته التي بهرت عقولهم: أن لله في كلِّ ما خلق وأمر وأثاب وعاقب من الحكم البوالغ ما تقصر عقولهم عن إدراكه، وأنه تعالى هو الغنيُّ الحميد العليم الحكيم، فمصدر خلقه وأمره وثوابه وعقابه: غناه وحمده وعلمه وحكمته؛ ليس مصدره: مشيئةٌ مجرَّدةٌ؛ وقدرةٌ خاليةٌ من الحكمة والرحمة والمصلحة والغايات المحمودة المطلوبة له خلقاً وأمراً، وأنه ــ سبحانه ــ : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[1] لكمال حكمته ووقوع أفعاله كلِّها على أحسن الوجوه؛ وأتمِّها على الصواب والسداد؛ ومطابقة الحكم، والعباد يسألون إذ ليست أفعالهم كذلك)[2].

وجميع ما تقدَّم: إنما هو في تقرير مصدر خلق الله تعالى وأفعاله؛ وأنه عن جمال أسمائه الحسنى وكمال صفاته العلى.

ولما كان كُلٌّ من الخلق والأمر لله ــ تبارك وتعالى ــ ؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾[3]: فقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : أن أمر الله تعالى وشرعه صادرٌ كذلك عن جمال أسماء الله تعالى الحسنى وكمال صفاته العلى؛ فقال: (إن الله ــ سبحانه ــ كما أن أفعاله وخلقه من لوازم كمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى: فكذلك أمره وشرعه؛ وما يترتب عليه من الثواب والعقاب.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤٨٥.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

وقد أرشد ــ سبحانه ــ إلى هذا المعنى في غير موضعٍ من كتابه، فقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾[1]. أي: مهملاً معطلاً؛ لا يُؤمر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يُعاقب، وهذا يدلُّ على أن هذا منافٍ لكمال حكمته، وأن ربوبيته وعِزَّته وحكمته تأبى ذلك، ولهذا أخرج الكلام مخرج الإنكار على من زعم ذلك، وهو يدلُّ على أن حسنه مستقرٌّ في الفطر والعقول، وقبح تركه سدىً معطلاً أيضاً مستقرٌّ في الفطر، فكيف يُنسب إلى الربِّ ما قبحه مستقرٌّ في فطركم وعقولكم؟

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦﴾[2]. نزه نفسه ــ سبحانه ــ عن هذا الحسبان الباطل؛ المضادِّ لموجب أسمائه وصفاته؛ وأنه لا يليق بجلاله نسبته إليه. ونظائر هذا في القرآن كثيرة)[3].

وصدور جميع ما خلقه الله تعالى وأمر به عن أسماء الله الحسنى وصفاته العلى: يقتضي أن يكون الله تعالى هو المحمود على ذلك كلِّه أتمَّ الحمد وأكمله؛ وأحسنه وأجزله، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن له في كلِّ ما خلقه وشرعه: حكمةٌ بالغةٌ ونعمةٌ سابغةٌ؛ لأجلها خلق وأمر؛ ويستحقُّ أن يُثنى عليه ويُحمد لأجلها؛ كما يُثنى عليه ويُحمد لأسمائه الحسنى ولصفاته العليا.

فهو المحمود على ذلك كلِّه أتمَّ حمدٍ وأكمله؛ لما اشتملت عليه صفاته من الكمال؛ وأسماؤه من الحسن؛ وأفعاله من الحكم والغايات والمقتضية لحمده؛ المطابقة لحكمته؛ الموافقة لمحابِّه، فإنه ــ سبحانه ــ

---

(١) سورة القيامة: الآية ٣٦.

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان ١١٥ ــ ١١٦.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/١١٦ ــ ١١٧.

كامل الذات؛ كامل الأسماء والصفات، لا يصدر عنه إلا كلُّ فعلٍ كريمٍ مطابقٍ للحكمة؛ موجبٍ للحمد، يترتَّب عليه من محابِّه ما فعل لأجله)[1].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ أن حمد الله تعالى على أفعاله المحكمة الصادرة عن جمال أسمائه الحسنى وكمال أوصافه العلى هو أعلى نوعي الحمد لله ربِّ العالمين؛ فقال: (إن الربَّ ــ سبحانه ــ له الكمال المطلق الذي يستحقُّ عليه الحمد ــ سبحانه ــ، لا يصدر منه إلا ما يُحمد عليه.

وحمد الله على نوعين[2]: حمداً يستحقُّه لذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وحمداً يستحقُّه على أفعاله؛ التي مدارها على الحكمة والمصلحة والعدل والإِحسان والرحمة.

فإذا كان محموداً على أفعاله كلِّها: لم يكن فيها منافٍ للحكمة، إذ لو كان فيها ما هو كذلك لم يكن محموداً عليه، وهو ــ سبحانه ــ له الملك وله الحمد، فحمده شاملٌ لما شمله ملكه، ولا يخرج شيءٌ عن حمده كما

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٧٦.

(٢) هذا ليس حصراً من الإِمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لأنواع الحمد، وإنما هو ذِكْرٌ لأعلى نوعيه، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ في [شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٨٧] جملة من أنواع الحمد الواجب المستحقِّ لله تعالى، فقال: (حمده تعالى أنواع: حمدٌ على ربوبيته؛ وحمدٌ على تفرُّده بها؛ وحمدٌ على ألوهيته وتفرُّده؛ وحمدٌ على نعمته؛ وحمدٌ على منَّته؛ وحمدٌ على حكمته؛ وحمد على عدله في خلقه؛ وحمدٌ على غناه عن إيجاد الولد والشريك والولي من الذُّلِّ؛ وحمدُه على كماله الذي لا يليق بغيره، فهو محمودٌ على كلِّ حالٍ؛ وفي كلِّ آنٍ ونَفَسٍ؛ وعلى كلِّ ما فعل وكلِّ ما شرع؛ وعلى كلِّ ما هو متصفٌ به؛ وعلى كلِّ ما هو مُنزه عنه؛ وعلى كلِّ ما في الوجود من خيرٍ وشرٍّ ولذَّةٍ وألمٍ وعافيةٍ وبلاءٍ).

لا يخرج شيءٌ عن ملكه)[1].

وأوَّلُ من قام بحمد الله تعالى المستحقِّ على أفعاله المحكمة: هو الله تعالى، حيث حمد نفسه عليها في كتابه، كما حمده عليها جميع عباده المؤمنين؛ في أرضه وسمائه، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (ــ سبحانه ــ يُحمد على أفعاله؛ كما حمد نفسه عليها في كتابه، وحمده عليها رسلُه وملائكتُه والمؤمنون من عباده، فمن لا فعل له ألبتة: كيف يُحمد على ذلك؟

فالأفعال هي المقتضية للحمد، ولهذا نجده مقروناً بها، كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[2]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾[3]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[4]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[5])[6].

وقد استخرج الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ من آيات الحمد ــ التي حمد الله تعالى نفسه عليها في كتابه ــ: وجه الحمد الواجبِّ المستحقِّ على أفعال الله تعالى المحكمة الصادرة عن أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ فقال: (عند قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾[7]: تجد تحت هذه الكلمة إثبات كلِّ كمالٍ للربِّ تعالى ــ فعلاً ووصفاً واسماً ــ،

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٤٣.
(٤) سورة الكهف: الآية ١.
(٥) سورة فاطر: الآية ١.
(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٢٣.
(٧) سورة الفاتحة: الآية ٢، سورة الأنعام: الآية ٤٥، سورة يونس: الآية ١٠، سورة الصافات: الآية ١٨٢، سورة الزمر: الآية ٧٥، سورة غافر: الآية ٦٥.

وتنزيهه عن كلِّ سوءٍ وعيبٍ ــ فعلاً ووصفاً واسماً ــ ، فهو محمودٌ في أفعاله وأوصافه وأسمائه، مُنزهٌ عن العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه.

فأفعاله كلُّها حكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ؛ لا تخرج عن ذلك، وأوصافه كلُّها أوصاف كمال ونعوت جلال، وأسماؤه كلُّها حسنى)[1].

فهذه جملة القول المتضمنة لتقرير إحدى القواعد العظيمة من القواعد المشتركة بين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ وقد تضمَّن كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ المنتخب[2] توضيح مصدر أفعال الله تعالى؛ وأنها عن جمال أسمائه الحسنى وكمال أوصافه العلى.



(١) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٢٢ ــ ١٢٣.

(٢) وانظر في ما سواه: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٦، بدائع الفوائد ٢/ ١٨٠ ــ ١٨١، الداء والدواء ص١٠٧؛ ١٨٠؛ ٣١٧ ــ ٣١٨، زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٢٢٩؛ ٢٣٥ ــ ٢٣٦؛ ٤٨٥؛ ٤/ ٢٠٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٨٧؛ ٢/ ٥٧٠ ــ ٥٧١؛ ٦٣٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٥٧؛ ٦٥٢ ــ ٦٥٣؛ ٦٦٨، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٣٢، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤٥٧، المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص٢٥ ــ ٢٦.

المبحث الثامن :

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (امتناع التمثيل والتعطيل في أسماء الله الحسنى وصفاته العلى)

إنَّ الصِّراط الهادي إلى فقه باب أسماء الله تعالى وصفاته؛ وفهم معانيه: مستقيمٌ غير ذي عوجٍ، وعن يمين هذا الصراط وشماله: سبلٌ من الأدواء والأهواء، ومردُّ هذه الأدواء والأهواء جميعها ــ عند التأمُّل ــ : إلى دائَيْ: التمثيل والتعطيل؛ اللذين هما أصل بلاء المتكلمين.

فتجد أن الطوائف المنحرفة ــ التي لم تُشرق عليها شمس التوحيد والسنة ــ في هذا الباب على طرفي نقيضٍ، فمنهم من يغلو في جانب الإثبات؛ حتى ينتهي به المطاف إلى التمثيل، ومنهم من يغلو في جانب التنزيه؛ حتى ينتهي به المطاف إلى التعطيل.

والشبهة التي اضطرَّت الممثِّلة والمعطِّلة إلى سلوك سبيلي التمثيل والتعطيل: هي ظنُّهم أن ما يلزم الاسم والصفة في حق الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ هو ما يلزم منها في حق المخلوق، فينفون ذلك اللازم عن الله تعالى؛ فيضطرُّهم هذا النفي إلى سلوك إحدى سبيليْ الضلال، إما سبيل التمثيل؛ وإما سبيل التعطيل.

وأما أهل السنة والجماعة ــ الذين استضاؤوا بشمس التوحيد والسنة ــ : فإنهم علموا أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[1]. وأنه لا يلزم الاسم والصفة في حقِّ الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ من اللوازم ما يلزمها في حقِّ المخلوق، وبهذا الأصل: فارقوا طائفتي الضلال من الممثِّلة والمعطلة، وأعملوا في باب الأسماء والصفات قاعدتي الإثبات والتنزيه، فهم يُثبتون بلا تمثيلٍ؛ ويُنزهون بلا تعطيلٍ، مع ملاحظتهم لخصائص أسماء المخلوقين وصفاتهم؛ وأنها لا تلزم الاسم والصفة مضافةً إلى الربِّ تعالى؛ كما لا تلزم ذات الربِّ تعالى وحياته خصائص ذات المخلوقين وحياتهم.

لذا فأهل السنة والجماعة: هم الطائفة الوسط العدل الخيار ــ كما تقدَّم تقرير وسطيتهم بين طائفتي الممثِّلة والمُعطِّلة ــ ؛ الواجب اتباع سبيلهم.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ معتقد أهل السنة والجماعة الآنف الذكر؛ مُبيِّناً إيمانهم (بأسماء الربِّ وصفاته وأفعاله وآياته؛ من غير تحريفٍ لها ولا تعطيلٍ؛ ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ)[2].

وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة في معرض ذكره للنوع الذي يُطلق على الله تعالى وعلى العباد؛ فقال: (إن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات:

اعتبارٌ: من حيث هو؛ مع قطع النظر عن تقييده بالربِّ ــ تبارك وتعالى ــ أو العبد.

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٩٣.

اعتباره: مضافاً إلى الربِّ؛ مختصاً به.

اعتباره: مضافاً إلى العبد؛ مُقيَّداً به.

فما لزم الاسم لذاته وحقيقته: كان ثابتاً للربِّ والعبد، وللربِّ منه ما يليق بكماله؛ وللعبد منه ما يليق به. وهذا كاسم السميع: الذي يلزمه إدراك المسموعات، والبصير: الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها: حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها: فإثباته للربِّ تعالى لا محذور فيه بوجهٍ؛ بل يثبت له على وجهٍ لا يماثل فيه خلقه ولا يُشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق: ألحد في أسمائه؛ وجحد صفات كماله، ومن أثبته له على وجه يماثل فيه خلقه: فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه؛ بل كما يليق بجلاله وعظمته: فقد بريء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد: وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك، وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به؛ ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم عُلُوَّه من احتياجه إلى ما هو عالٍ عليه؛ وكونه محمولاً به؛ مفتقراً إليه؛ محاطاً به، كلُّ هذا يجب نفيه عن القدوس السلام ــ تبارك وتعالى ــ.

وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالى بها: فإنه لا يثبت للمخلوق بوجهٍ، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكلِّ معلومٍ؛ وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإنَّ ما يختصُّ به منها لا يمكن إثباته للمخلوق)[1].

---

(١) بدائع الفوائد ١/١٤٩ ــ ١٥٠.

ثم نبَّه ــ رحمه الله تعالى ــ على أهمية هذه القاعدة؛ وضرورة الإحاطة بها علماً وفقهاً ومعرفة؛ فقال: (فإذا أحطتَّ بهذه القاعدة خبراً؛ وعقلتها كما ينبغي: خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل؛ وآفة التشبيه، فإنك إذا وفَّيت هذا المقام حقَّه من التصوُّر: أثْبَتَّ لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة؛ فخَلَصْتَ من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم؛ فخلصت من التشبيه.

فتدبَّر هذا الموضع؛ واجعله آخيَتَك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب)[1].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الأصل الذي فارق به أهلُ السنة طائفتي الضلال من الممثِّلة والمعطلة؛ وأرشد إلى ضرورة مراعاته؛ فقال: (خصائص صفات المخلوقين لا تلزم الصفة مضافة إلى الربِّ تعالى؛ كما لا يلزم خصائص وجودهم وذاتهم، وهذا مقررٌ في موضعه.

وهذا الأصل الذي فارق به أهلُ السنة طائفتي الضلال من المشبهة والمعطلة؛ فعليك بمراعاته)[2].

فهذا تقريرٌ لمنشأ غلط طائفتي الضلال من الممثِّلة والمعطلة؛ و (هو: ظنُّهم أن ما يلزم الصفة في المحلِّ المعين: يلزمها لذاتها، فينفون ذلك اللازم عن الله؛ فيضطرُّون في نفيه إلى نفي الصفة)[3].

وقد حذَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مواضع من

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٤٩ ــ ١٥٠.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٤.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٢٧.

كتبه من الوقوع في شَرَك التمثيل أو التعطيل؛ وبيَّن امتناع دخولهما في باب أسماء الله تعالى وصفاته، لأن المتسمِّي بهذه الأسماء؛ والمتَّصف بهذه الصفات: (إلهٌ جلَّ عن الشبيه والنظير؛ وتعالى عن الشريك والظهير، وتقدَّس عن تعطيل الملحدين؛ كما تنزه عن شبه المخلوقين، فـ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[1])[2]، وبيان هذا الامتناع فيما يأتي:

أولاً: امتناع تمثيل أسماء الله تعالى وصفاته بأسماء المخلوقين وصفاتهم، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ امتناع ذلك بأمورٍ؛ منها:

١ ــ أن معرفة المثل الأعلى ــ الذي تقدَّم تقريره ــ يجتثُّ جذور التشبيه من القلب، فأيُّ اسمٍ للخلق وأيُّ صفةٍ لهم: تشبه اسم الله تعالى وصفته؛ حتى يكون إثباتها تشبيهاً وتمثيلاً؟ وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إذا شئت زيادة تعريف بهذا المثل الأعلى: فقدِّر قِوَى جميع المخلوقات اجتمعت لواحد منهم؛ ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإذا نسبت قوته إلى قوة الرب ــ تبارك وتعالى ــ لم تجد لها نسبة وإياها ألبتة؛ كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد، فإذا قدَّرت علوم الخلائق اجتمعت لرجل واحد؛ ثم قدرت جميعهم بهذه المثابة؛ كانت علومهم بالنسبة إلى علمه تعالى كنقرة عصفور من بحر، وإذا قدَّرت حكمة جميع المخلوقين على هذا التقدير؛ لم يكن لها نسبة إلى حكمته، وكذلك إذا قدَّرت كل جمال في الوجود اجتمع لشخص واحد؛ ثم كان الخلق كلهم بذلك الجمال؛ كان نسبته إلى جمال الرب تعالى وجلاله دون نسبة السراج

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣.

الضعيف إلى جرم الشمس، وقد نبهنا الله ـ سبحانه ـ على هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾(١).

فقدِّر البحر المحيط بالعالم مداداً؛ ووراءه سبعة أبحر تحيط به؛ كلها مداد تكتب به كلمات الله، نفدت البحار وفنيت الأقلام ـ التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلى آخر الدنيا ـ ولم تنفد كلمات الله، وقد أخبر النبي ﷺ: (إن السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والعرش لا يقدر قدره إلا الله، وهو سبحانه فوق عرشه يرى ما عباده عليه)(٢).

فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المصدقين العارفين به ـ سبحانه ـ من المثل الأعلى، فعرفوه به، وعبدوه به، وسألوه به، فأحبوه وخافوه ورجوه، وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره، وأنسوا بحبه؛ بواسطة هذا التعريف، فلم يصعب عليهم بعد ذلك فهم استوائه على عرشه؛ وسائر ما وصف به نفسه من صفات كماله، إذ قد أحاط علمهم بأنه لا نظير لذلك؛ ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلته لشيءٍ من المخلوقات، وقد أعلمهم ـ سبحانه ـ على لسان رسوله: (أنه يقبض سماواته بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن)(٣). و (أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفه تعالى كخردلة في كف أحدكم)(٤). و (أنه يضع السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر على أصبع، وسائر

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٢) تقدم تخريجه، ولفظه: «ما السماوات السبع في الكرسي».

(٣) تقدم تخريجه، ولفظه: «يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه».

(٤) تقدم تخريجه، ولفظه: «ما السماوات السبع والأرضون».

الخلق على أصبع)[1].

فأي أيدي للخلق وأي أصبع تشبه هذه اليد وهذه الأصبع حتى يكون إثباتها تشبيهاً وتمثيلاً؟)[2].

٢ ــ أن تنزيه ذات الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ وصفاته عن مماثلة ذات المخلوقين وصفاتهم: هو أساس التوحيد العلميِّ، فتشبيه أسماء الخالق وصفاته بأسماء المخلوقين وصفاتهم هدمٌ لهذا التوحيد؛ ونقضٌ لأساسه، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (التوحيد العلمي أساسه: إثبات صفات الكمال للربِّ تعالى؛ ومباينته لخلقه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل)[3].

٣ ــ أن قياس الله تعالى على عباده في ذاته وصفاته وأفعاله: من أفسد القياس، لأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ (﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[4]: في ذاته؛ ولا في صفاته؛ ولا في أفعاله)[5]، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (هذا الأصل الفاسد مما ردَّه عليهم) أي: ردُّه على المُشبِّهة (سائر العقلاء، وقالوا: قياس أفعال الربِّ على أفعال العباد من أفسد القياس، وكذلك قياس حكمته على حكمتهم؛ وصفاته على صفاتهم)[6].

٤ ــ أن اعتقاد أن ظاهر أسماء الله تعالى وصفاته تُشبه أسماء

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «يا محمد إن الله تعالى يمسك السماوات».

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٣٠ ــ ٤٣٣.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٢ ــ ٤٠٣.

(٤) سورة الشورى: الآية ١١.

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٨٩؛ ٢/ ٦٠٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٣/ ١٤.

(٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٧٨.

المخلوقين وصفاتهم: هو من أسوأ الظن بالله تعالى، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (من ظنَّ به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطلٌ وتشبيهٌ وتمثيلٌ، وتركَ الحقَّ لم يُخبر به؛ وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة؛ وأشار إليه إشارات ملغزة؛ لم يُصرِّح به وصرَّح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه وتأويله على غير تأويله ويتطلَّبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات ــ التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان ــ ، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم؛ لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم مع قدرته على أن يُصرِّح لهم بالحقِّ الذي ينبغي التصريح به ويُريحهم من الألفاظ التي تُوقعهم في اعتقاد الباطل؛ فلم يفعل بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان: فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

فإنه إن قال: إنه غيرُ قادرٍ على التعبير عن الحقِّ باللفظ الصريح الذي عبَّر به هو وسلفه: فقد ظنَّ بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادرٌ ولم يُبيِّن وعدل عن البيان وعن التصريح بالحقِّ إلى ما يُوهم بل يُوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد: فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظنَّ السوء؛ وظنَّ أنه هو وسلفه عبَّروا عن الحقِّ بصريحه دون الله ورسوله؛ وأن الهدى والحقَّ في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله: فإنما يُؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المُتهوِّكين الحيارى: هو الهدى والحقُّ.

وهذا من أسوأ الظنِّ بالله، فكلُّ هؤلاء من الظانِّين بالله ظنَّ السوء؛ ومن الظانِّين به غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية)[1].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٢٣١.

ثانياً: امتناع تعطيل أسماء الله تعالى وصفاته عن حقائقها، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ امتناع ذلك بأمورٍ؛ منها:

١ ــ أن التعطيل من المحرمات التي لا يجوز الإقدام عليها في هذا الباب، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (كلُّ صفةٍ وَصَفَ الله بها نفسه ووصفه بها رسوله: فهي صفةُ كمالٍ قطعاً، فلا يجوز تعطيل صفات كماله وتأويلها بما يُبطل حقائقها)(١).

٢ ــ أن التعطيل يستلزم تنقُّص جمال الله تعالى وكماله وجلاله، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (لا يجوز تعطيل شيءٍ من صفاته وأسمائه عن مقتضياتها وآثارها، فإن ذلك يستلزم النقص الذي يناقض كماله وكبريائه وعظمته)(٢).

٣ ــ أن التعطيل يُفضي بصاحبه إلى الشرك، (لكون الشرك والتعطيل متلازمين؛ لا ينفكُّ أحدهما عن صاحبه)(٣)، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (كُلَّما كان الرجلُ أعظم تعطيلاً: كان أعظم شركاً، ولا تجد معطلاً نافياً: إلا وفيه من الشرك بقدر ما فيه من التعطيل)(٤).

ولا بُدَّ من معرفة الأصل الفاسد الذي تولَّدت منه شبهة التعطيل؛ وهو: تكثُّر أسماء الواحد؛ وتعدُّد صفاته؛ وقيام الأمور المتجدِّدة به، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا الأصل في معرض ردِّه على مدعي المعارضة بين العقل والنقل؛ فقال: (إن الأصل الذي قادهم إلى النفي والتعطيل، واعتقاد المعارضة بين العقل والوحي: أصل واحد هو منشأ

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٣.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٥٨.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٣.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١١.

ضلال بني آدم، وهو الفرار من تعدُّد صفات الواحد، وتكثُّر أسمائه الدالَّة على صفاته وقيام الأمور المتجدِّدة به، وهذا لا محذور فيه، وهو الحقُّ الذي لا يثبت كونه ــ سبحانه ــ رباً وإلهاً وخالقاً إلا به، ونفيه جحدٌ للصانع بالكليِّة وإنكارٌ له، وهذا القدر لازمٌ لجميع طوائف أهل الأرض على اختلاف مللهم ونحلهم)[1].

والتزام الأصل الفاسد الذي تولَّدت منه شبهة التمثيل ــ على شدة ضلاله وبدعته ــ : خيرٌ من التزام هذا الأصل الفاسد الذي تولَّدت منه شبهة التعطيل، لكونه يُفضي إلى تشبيه الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ بالعدم المحض، وهذا مما تُحيله العقول السليمة والفطر المستقيمة، فكيف توجد ذاتٌ قائمةٌ بنفسها لا توسم باسمٍ؛ ولا تُوصف بوصفٍ، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (تعطيل الربِّ ــ سبحانه ــ عن فعله القائم به: كتعطيله عن صفاته القائمة به، والتعطيل أنواع:

تعطيل المصنوع عن الصانع، وهو تعطيل الدهرية والزنادقة.

وتعطيل الصانع عن صفات كماله ونعوت جلاله، وهو تعطيل الجهمية نفاة الصفات.

وتعطيله عن أفعاله، وهو أيضاً تعطيل الجهمية؛ وهم أساسه، ودبَّ فيمن عداهم من الطوائف؛ فقالوا: لا يقوم بذاته فعلٌ، لأن الفعل حادثٌ؛ وليس محلاً للحوادث، كما قال إخوانهم: لا تقوم بذاته صفة، لأن الصفة عرضٌ؛ وليس محلاً للأعراض.

فلو التزم الملتزم أيَّ قولٍ التزمه: كان خيراً من تعطيل صفات الربِّ وأفعاله، فالمشبهة: ضلالهم وبدعتهم خير من المعطلة، ومعطلة الصفات:

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٢٠.

خيرٌ من معطلة الذات ــ وإن كان التعطيلان متلازمين ــ ؛ لاستحالة وجود ذاتٍ قائمةٍ بنفسها لا تُوصف بصفةٍ، فوجود هذه محالٌ في الذهن وفي الخارج، ومعطلة الأفعال: خيرٌ من معطلة الصفات، فإن هؤلاء نفوا صفة الفعل؛ وإخوانهم نفوا صفات الذات.

وأهل السمع والعقل وحزب الرسول والفرقة الناجية: برآءٌ من تعطيل هؤلاء كلِّهم، فإنهم أثبتوا الذات والصفات والأفعال وحقائق الأسماء الحسنى؛ إذ جعلها المعطلة مجازاً لا حقيقة له، فشرُّ هذه الفرق لخيرها الفِدَاءُ)(١).

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بمنظوم كلامه امتناع التمثيل والتعطيل في أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ فقال في نونيته:

(والله أكبر جلَّ عن شِبْهٍ وعن	مِثْلٍ وعن تعطيل ذي كفران
والله أكبر من له الأسماء والـ	أوصاف كاملةً بلا نُقْصَان
والله أكبر جلَّ عن وَلَدٍ وصَا	حبةٍ وعن كُفْءٍ وعن أَخْدَان
والله أكبر جلَّ عن شِبْهِ الجما	د كقول ذي التعطيل والكفران
هُمْ شَبَّهُوه بالجَمَاد وَلَيْتَهُمْ	قَدْ شَبَّهُوه بكامِلٍ ذي شَان
الله أكبر جلَّ عن شِبْهِ العِبَا	دِ فَذَانِ تشبيهان مُمْتَنِعَان
والله أكبرُ واحد صمدٌ وكُلُّ	الشَّأْنِ في صَمَدِيَّة الرَّحْمَـٰن
نفت الولادَةَ والأُبُوَّة عنه والـ	ـكُفْءَ الذي هو لازمُ الإنسان
وكذاك أُثْبِتَتِ الصفاتُ جميعُها	لله سالمةً من النُّقْصَان
وإليه يَصْمُدُ كلُّ مخلوقٍ فلا	صَمَدٌ سِواه عَزَّ ذو السُّلطان
لا شَيْءَ يُشْبِهُهُ تعالى كيف يُشْـ	ـبِهُ خَلْقَه ما ذاك في الإمكان

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٤٤٧ ــ ٤٤٨.

لكـــن ثُبُـــوتُ صفـــاتِـــهِ وكـــلامِـــهِ وعُلُـــوِّهِ حقًّـــا بـــلا نُكْـــرَان

لا تجعلـــوا الإثبـــاتَ تشبيهـــاً لـــه يـــا فِـــرْقَـــة التلبيـــس والطُّغْيـــان

كَـــمْ تَـــرْتَقُـــونَ بِسُلَّـــمِ التَّنـــزيـــهِ للـــتَّعْطِيـــلِ تـــرويجـــاً علـــى العُمْيَـــان

فـــالله أكبـــرُ أن تكـــونَ صفـــاتُـــهُ كصفـــاتِنَـــا جـــلَّ العظيـــمُ الشَّـــان

هـــذا هـــو التَّشْبِيـــهُ لا إثْبَـــاتُ أوْ صَافِ الكَمَالِ فما هما سِيَّان)[1].

فهذا ما تضمنه منثور ومنظوم كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير خاتمة القواعد المشتركة بين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ والموضِّحة لامتناع التمثيل والتعطيل فيها، (فزن بهذه القاعدة ما يرد عليك من هذا الباب)[2]: تَسْلَم وتَغْنَم.

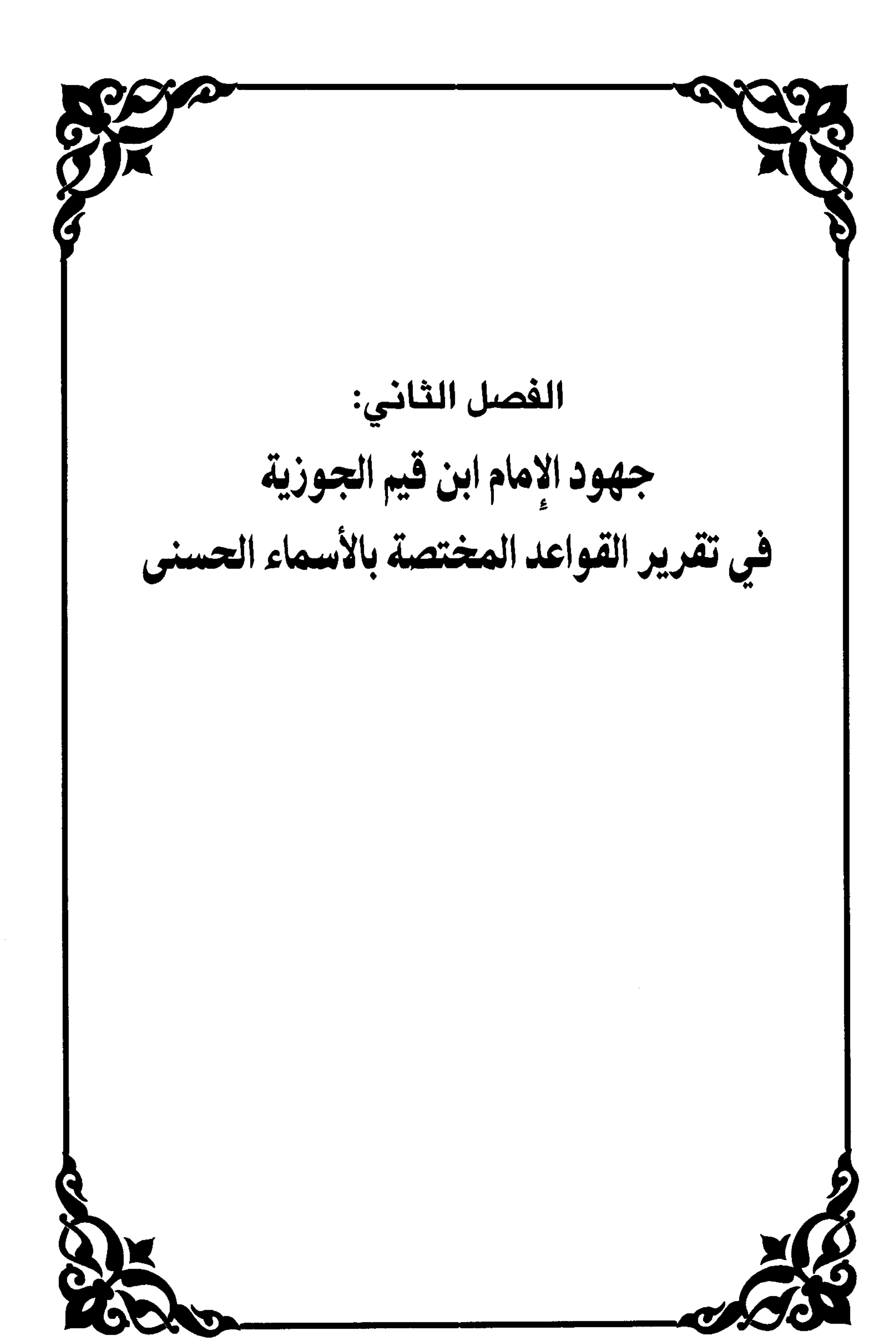
❑ ❑ ❑

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤٧٣٣ ـ ٤٧٤٨) ـ ص٣٣٥ ـ ٣٣٦].

وانظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٥٤٦؛ ٣٢٠٦ ـ ٣٢١٠؛ ٣٢٢٧)].

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٩٧.



الفصل الثاني:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية
في تقرير القواعد المختصة بالأسماء الحسنى



المبحث الأول:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله تعالى كلها حسنى)

إنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قد وصف أسماءه وامتدحها بأنها حسنى، وقد تكرَّر وصفها بـ: (الحسنى) ـ وهي: (المفضلة على الحسنة)(1) ـ في أربعة مواضع من كتاب الله الكريم، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾(2).

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾(3).

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾(4).

وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾(5).

---

(1) معنى قوله تعالى: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ لابن تيمية ٦/١٤١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(2) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(3) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(4) سورة طه: الآية ٨.

(5) سورة الحشر: الآية ٢٤.

فجميع الآيات الكريمة جاءت متضمنة لوصف أسماء الله تعالى بأنها: حسنى، (أي: بالغة في الحسن غايته)[1] ومنتهاه.

وعلى ذلك يدلُّ معنى كلمة (حسنى) في لغة العرب[2]، كما أعرب عن ذلك ابن الوزير اليماني[3] ــ رحمه الله تعالى ــ في قوله: (اعلم أن الحسنى في اللغة: هو جمع الأحسن؛ لا جمع الحسن، فإن جمعه: حسان وحسنة، فأسماء الله التي لا تُحصى؛ كلُّها حسنة، أي: أحسن الأسماء، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4].

أي: الكمال الأعظم في ذاته وأسمائه ونعوته، فلذلك وجب أن تكون أسماؤه أحسن الأسماء؛ لا أن تكون حسنة وحساناً لا سوى، وكم بين الحسن والأحسن من التفاوت العظيم عقلاً وشرعاً؛ ولغة وعرفاً)[5].

فهذا تمهيد بين يدي إحدى القواعد العظيمة المختصة بأسماء الله تعالى؛ والمتضمنة تقرير أن أسماءه كلَّها حسنى[6].

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص٩.

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٤/ ٣١٤ ــ ٣١٧، الصحاح للجوهري ٥/ ٢٠٩٩، لسان العرب لابن منظور ١٣/ ١١٤ ــ ١١٦ [مادة: حسن].

(٣) هو: محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى اليماني الصنعاني، الإمام الكبير المجتهد، ولد في رجب سنة خمس وسبعين وسبعمائة، وتوفي في السابع والعشرين من شهر الله المحرم سنة أربعين وثمانمائة.
انظر في ترجمته: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي ٣/ ٢٧٢، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ٢/ ٨١ ــ ٩٣، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين للبغدادي ٢/ ١٩٠ ــ ١٩١.

(٤) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٥) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم لابن الوزير اليماني ٧/ ٢٢٨.

(٦) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي =

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مواضع متعددةٍ من كتبه في تقرير هذه القاعدة العظيمة، مبيِّناً كون أسماء الله تعالى كلِّها حسنى، وإيضاح تقريره ــ رحمه الله تعالى ــ من وجهين:

أولاً: تقريره وجه كون أسماء الله تعالى حسنى، وأنها إنما كانت حسنى لأمور؛ منها:

١ ــ أنها دالة على مدح الله تعالى وحمده والثناء عليه، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ: (أسماؤه كلُّها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد؛ ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلها صفات كمال؛ ونعوته كلها نعوت جلال؛ وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل)(١).

٢ ــ أنها مشتقة من صفات كمال الله تعالى ــ التي لا أكمل منها ــ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (أنزل الله ــ عزَّ وجلّ ــ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٢).

أي: إنكم إنما تدعون إلـٰهاً واحداً له الأسماء الحسنى، فأيُّ اسمٍ دعوتموه: فإنما دعوتم المسمى بذلك الاسم، فأخبر ــ سبحانه ــ أنه إلـٰه واحدٌ؛ وإن تعدَّدت أسماؤه الحسنى المشتقة من صفاته، ولهذا كانت حسنى.

وإلا فلو كانت كما يقول الجاحدون لكماله: أسماء محضة فارغة من المعاني ليس لها حقائق؛ لم تكن حسنى، ولكانت أسماء الموصوفين

= ص٣٩٥ ــ ٤٠١، أسماء الله الحسنى للغصن ص٦٧ ــ ٧١، اسم الله الأعظم للدكتور الدميجي ص٤١ ــ ٤٤.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٤٠.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

بالصفات والأفعال أحسن منها، فنزلت الآية على توحيد الذات؛ وكثرة النعوت والصفات)[1].

٣ ـ أنها دالة على أوصاف كمال الله تعالى، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (أسماء الربِّ تعالى كلُّها أسماء مدحٍ، ولو كانت ألفاظاً مجردةً لا معاني لها: لم تدلَّ على المدح، وقد وصفها الله ـ سبحانه ـ بأنها حسنى كلُّها، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[2].

فهي لم تكن حسنى لمجرَّد اللفظ؛ بل لدلالتها على أوصاف الكمال.

ولهذا لما (سمع بعض العرب قارئاً يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾[3] والله غفور رحيم. قال: ليس هذا كلام الله تعالى. فقال القارىء: أتكذب بكلام الله تعالى؟ فقال: لا؛ ولكن ليس هذا بكلام الله. فعاد إلى حفظه وقرأ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾[4]. فقال الأعرابي: صدقت، عزَّ فحكمَ فقطعَ، ولو غفر ورحم لما قطع)[5].

ولهذا إذا ختمت آية الرحمة باسم عذابٍ أو بالعكس: ظهر تنافر الكلام وعدم انتظامه)[6].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٣٧ ـ ٩٣٨.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.
(٣) سورة المائدة: الآية ٣٨.
(٤) سورة المائدة: الآية ٣٨.
(٥) نسب بعض المفسرين هذه الحكاية إلى الأصمعي؛ وأنه هو القارىء.
انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٢/ ١٨٥، تفسير القرآن لأبي مظفر السمعاني ٢/ ٣٦ ـ ٣٧، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٢/ ٣٥٤، التفسير الكبير للرازي ١١/ ١٨١.
(٦) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٨.

٤ ـ أن الاعتبار فيها بمعانيها وحقائقها؛ لا بمجرَّد ألفاظها، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ عن أسماء الله تعالى: (إنها إنما كانت حسنى: باعتبار معانيها وحقائقها؛ لا بمجرَّد ألفاظها، فمن له حقائقها: فهي في حقِّه حسنى؛ دون من انتفت عنه حقائقها)(١).

وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ اعتبار معاني أسماء الله تعالى وحقائقها؛ دون مجرَّد ألفاظها في كونها حسنى بقوله: (إن أسماء الرب ـ تبارك وتعالى ـ دالة على صفات كماله؛ فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف؛ وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان؛ وبالعكس، فيقال: اللَّـٰهُمَّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم، واللَّـٰهُمَّ أعطني فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك)(٢).

٥ ـ أنها مُتنزِّهة عن العيوب والنقائص، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (ـ سبحانه ـ لا يجوز أن يُماثل خلقه في شيءٍ من صفاتهم وأفعالهم، فهو مُنزَّهٌ عن أن يطلب ما يقبح طلبه؛ أو يريد ما لا يحسن إرادته؛ أو يطلب ويكره ويحبُّ ما لا يصلح طلبه وكراهته ومحبته إلا للمخلوق.

وكلُّ ما يُنزَّه ـ سبحانه ـ عنه من العيوب والنقائص: فهو داخلٌ فيما نزَّه نفسه عنه؛ وفيما يُسبَّح به ويُقدَّس ويُحمد ويُمجَّد، وداخل في معاني أسمائه الحسنى؛ وبذلك كانت حسنى، أي: أحسن من غيرها.

فهي أفعل تفضيلٍ مُعرَّفة باللام، أي: لا أحسن منها بوجهٍ من الوجوه،

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥١٠.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٦ ـ ٣٧.

بل لها الحسن الكامل التامُّ المطلق، وأسماؤه الحسنى وآياته البينات متضمنة لذلك ناطقة به صريحة فيه، وإن ألحد فيها الملحدون؛ وزاغ عنها الزائغون)[1].

وإن من أوجه تنزيه أسماء الله تعالى عن العيوب والنقائص ـ التي تستحقُّ بها أن تكون حسنى ـ : ألا يُسمَّى من الأسماء التي تنقسم مسمياتها إلى ممدوحٍ ومذمومٍ: إلا بالأسماء المحمودة من كلِّ وجه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن الله تعالى لم يصف نفسه بـ: الكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقاً؛ ولا ذلك داخلٌ في أسمائه الحسنى، ومن ظنَّ من الجهال المصنفين في شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه: الماكر المخادع المستهزىء الكائد: فقد فاه بأمرٍ عظيمٍ تقشعرُّ منه الجلود، وتكاد الأسماع تُصمُّ عند سماعه.

وغرَّ هذا الجاهلَ أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أطلق على نفسه هذه الأفعال، فاشتق له منها أسماء ـ وأسماؤه كلُّها حسنى ـ ؛ فأدخلها في الأسماء الحسنى، وأدخلها وقرنها بالرحيم الودود الحكيم الكريم، وهذا جهلٌ عظيمٌ، فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقاً، بل تُمدح في موضعٍ وتُذمُّ في موضعٍ، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله مطلقاً، فلا يقال: إنه تعالى يمكر ويُخادع ويستهزىء ويكيد، فكذلك بطريق الأولى لا يُشتقُّ له منها أسماء يُسمى بها.

بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى: المريد ولا المتكلم ولا الفاعل ولا الصانع؛ لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوحٍ ومذمومٍ، وإنما يوصف بالأنواع المحمودية منها؛ كالحليم والحكيم والعزيز والفعال لما يريد، فكيف يكون منها الماكر المخادع المستهزئ؟

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٤٤٣.

ثم يلزم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الحسنى: الداعي والآتي والجائي والذاهب والقادم والرائد والناسي والقاسم والساخط والغضبان واللاعن إلى أضعاف أضعاف ذلك من الأسماء التي أطلق على نفسه أفعالها في القرآن، وهذا لا يقوله مسلمٌ ولا عاقلٌ.

والمقصود أن الله ـ سبحانه ـ لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حقٍّ، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنةٌ من المخلوق، فكيف من الخالق ـ سبحانه ـ ؟)[1].

ثانياً: تقريره آثار كون أسماء الله تعالى كلِّها حسنى، وأن ذلك يدلُّ على أمور؛ منها:

١ ـ أن صفات الله تعالى كلَّها صفات كمال، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (لا بُدَّ من إثبات ذاتٍ محققةٍ لها الأسماء الحسنى؛ التي لا تكون حسنى إلا إذا كانت دالةً على صفاتِ كمالٍ، وإلا فالأسماء فارغةٌ لا معنى لها، لا توصف بحسنٍ؛ فضلاً عن كونها أحسن من غيرها)[2].

٢ ـ أن الشرَّ لا يُضاف إلى الله تعالى بوجهٍ من الوجوه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن أسماءه كلَّها حسنى؛ ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً، وقد تقدَّم أنَّ من أسمائه ما يُطلق عليه باعتبار الفعل، نحو: الخالق والرازق؛ والمحيي والمميت، وهذا يدلُّ على أن أفعاله كلَّها خيراتٌ محضةٌ؛ لا شرَّ فيها، لأنه لو فعل الشرَّ لاشْتُقَّ له منه اسمٌ؛ ولم تكن أسماؤه كلُّها حسنى، وهذا باطلٌ، فالشرُّ ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته: لا يدخل في أفعاله.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٧٠ ـ ١٣٧١.

ـشرُّ ليس إليه؛ لا يُضاف إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل في مفعولاته، وفرق بين الفعل والمفعول، فالشرُّ قائمٌ بمفعوله المباين له؛ لا بفعله الذي هو فعله.

فتأمَّل هذا؛ فإنه خفي على كثيرٍ من المتكلمين، وزلَّت فيه أقدامٌ؛ وضلَّت فيه أفهامٌ، وهدى الله أهل الحقِّ لما اختلفوا فيه ﴿ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1])[2].

فهذه بعض الكلمات المنتقاة من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير نصِّ هذه القاعدة العظيمة وفقهها[3]، وسيأتي ـ بمشيئة الله تعالى ـ مزيد تقريرٍ وإيضاحٍ لفقه هذه القاعدة ـ الدالَّة على أن أسماء الله كلَّها حسنى ـ ؛ عند ذكر قواعد هذا الفصل المختصَّة بأسماء الله الحسنى؛ والمُبيِّنة أن من أوجه حسن أسماء الله تعالى: أنها لا تدخل تحت حصرٍ ولا تُحدُّ بعددٍ، وأنها متضمنةٌ للدلالة على العلمية والوصفية، إلى غير ذلك من القواعد الغُرِّ الحسان.



(١) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

(٢) بدائع الفوائد ١/١٤٨.

(٣) انظر في معناها: بدائع الفوائد ٢/١٧٩ ـ ١٨٠، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٧ ـ ٤٥٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٣٩٥، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٧٩؛ ٢٥١ ـ ٢٥٢؛ ٥٦١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٢٧ ـ ٢٨.

المبحث الثاني:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد)

تقدَّم في القاعدة السابقة: (أن أسماء الله تعالى كلَّها حسنى)، وإن من أوجه حسنها: أنها أسماء كثيرة غير محصاة؛ يعجز العباد عن الإحاطة بها ـ معرفة وعلماً ـ .

وهذا هو (الصواب الذي عليه جمهور العلماء)[(١)]، وهو بخلاف من فهم من أهل العلم بأن النصوص الشرعية تُفيد تقييد الأسماء الحسنى وحصرها في تسعة وتسعين اسماً ـ هي الأسماء المذكورة في القرآن والسنة ـ ، وأن من زاد عليها اسماً واحداً: فقد ألحد في أسماء الله تعالى، كما هو معتقد أبي محمد ابن حزم[(٢)] الذي ذهب إليه[(٣)].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣/ ٣٣٢.

(٢) هو: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأندلسي القرطبي، الفقيه الظاهري، ولد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وتوفي عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة.
انظر في ترجمته: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي ص٣٠٨ ـ ٣١١، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٣/ ٣٢٥ ـ ٣٣٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/ ١٨٤ ـ ٢١٢.

(٣) انظر في كتبه: الدرة فيما يجب اعتقاده ص٢٣٩ ـ ٢٤٤، الفصل في الملل =

و (جمهور العلماء على خلافه)[1]، حيث بيَّنوا (أن من أسمائه تعالى تسعة وتسعين اسماً؛ من أحصاها دخل الجنة، وإلا فأسماؤه ــ تبارك وتعالى ــ أكثر من ذلك)[2]، وهي مما استأثر به ــ سبحانه وتعالى ــ في علم الغيب عنده[3].

هذه خلاصة ما يتعلق بهذا المبحث؛ وما انعقد فيه من اتفاق بين أهل العلم والفضل على أن أسماء الله تعالى الحسنى لا تدخل تحت حصرٍ؛ ولا تُحدُّ بعددٍ، سوى من شاققهم؛ واتَّبع غير سبيلهم[4].

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير هذا المبحث، مبيِّناً أن لله ــ تبارك وتعالى ــ من الأسماء الحسنى ما (لم تتحرك بها الخواطر؛ ولا هجست في الضمائر؛ ولا لاحت لمتوسِّمٍ؛ ولا سنحت

= والنحل ٢/ ١٦٥، المحلى بالآثار ١/ ٥٠.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٢/ ٤٨٢.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٣/ ٢٢٣.

(٣) انظر: شأن الدعاء للخطابي ص٢٤، الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٢٧، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للغزالي ص١٤٩ ــ ١٥٣، لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات للرازي ص٧٨، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ١٧/ ٥، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٥١٥، إيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص١٦٩ ــ ١٧٠، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم له ٧/ ٢٢٨، فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١١/ ٢٢٤.

(٤) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص١٧، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص١٠٩ ــ ١١١، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي ص٦٩ ــ ٧٩، أسماء الله الحسنى للغصن ص١٣١ ــ ١٣٢، اسم الله الأعظم للدكتور الدميجي ص٥١ ــ ٥٥.

في فِكْرٍ)[1]؛ فقال: (إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصرٍ؛ ولا تُحدُّ بعددٍ، فإن الله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده؛ لا يعلمها ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌ مرسلٌ، كما في الحديث الصحيح[2]: «أسألك بكلِّ اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[3].

فجعل أسماءه ثلاثة أقسام:

قسم: سمَّى به نفسه؛ فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم؛ ولم ينزل به كتابه.

وقسم: أنزل به كتابه؛ فتعرف به إلى عباده.

وقسم: استأثر به في علم غيبه؛ فلم يُطلع عليه أحدٌ من خلقه، ولهذا قال: «استأثرت به» أي: انفردت بعلمه.

وليس المراد انفراده بالتسمي به، لأن هذا الانفراد ثابتٌ في الأسماء التي أنزل الله بها كتابه.

ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن»[4]. وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٥٠.

(٢) وقد شفى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ العليل وأروى الغليل أثناء تناوله لشرح هذا الحديث؛ وبيان ما يتعلق به من جهة قضاء الله وقدره؛ وذلك في كتابه: [شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٤٩ ــ ٧٦٠].

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ».

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التفسير/ باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ ــ الحديث رقم (٤٧١٢) ــ ٣/ ١٤٥٨ ــ ١٤٦٠]، =

ومنه قوله ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك؛ أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما؛ من أحصاها دخل الجنة»[2]: فالكلام جملةٌ واحدةٌ. وقوله: «من أحصاها دخل الجنة»: صفة لا خبر مستقل، والمعنى: له أسماء متعددة؛ من شأنها أن: «من أحصاها دخل الجنة».

وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها. وهذا كما تقول: لفلان مائة مملوك؛ وقد أعدهم للجهاد. فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم مُعدَّوْنَ لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه)[3].

واعتقاد العبد أن لله تعالى أسماء استأثر ـ سبحانه وتعالى ـ بها في علم الغيب عنده: يُوجب عليه: أن يُدرك أنه عاجزٌ عن إحصاء المحامد والمدائح التي يُثني بها على ربِّه ومولاه، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (لا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه ألبتة، وله أسماءٌ وأوصافٌ وحمدٌ وثناءٌ لا يعلمه ملكٌ مُقرَّبٌ؛ ولا نبيٌّ مُرسلٌ، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لا يعلمونه: كنقرة عصفورٍ في بحرٍ)[4].



= ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ـ الحديث رقم (١٩٤) ـ ١/ ١٨٤ ـ ١٨٦] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «أنا سيد الناس يوم القيامة».

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «لله تسعة وتسعون اسماً».

(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٥٠ ـ ١٥١.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٥١.

المبحث الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى منها ما يُطلق على الله سبحانه مُفرداً ومُقترناً بغيره، ومنها ما لا يُطلق عليه إلا مقروناً بمُقابله)

إنَّ أسماء الله الحسنى تنقسم إلى أقسام، فمنها ما يصحُّ إطلاقه على الله تعالى مُفرداً أو مُقترناً بغيره من الأسماء الحسنى، ومنها ما لا يصحُّ إطلاقه على الله تعالى مُفرداً؛ بل لا بدَّ من مجيئه مقروناً بمُقابله.

فمثال الأسماء الحسنى التي يصحُّ إطلاقها على الله تعالى مُفردة أو مُقترنة بغيرها: الرحمن؛ الرحيم؛ السميع؛ العليم؛ العزيز؛ الحكيم، فيصحُّ إطلاق هذه الأسماء الحسنى على الله تعالى مفردة، كما يصحُّ إطلاقها على الله تعالى مقترنة بغيرها؛ فيقال: الرحمن الرحيم؛ السميع العليم؛ العزيز الحكيم.

ومثال الأسماء التي لا يصحُّ إطلاقها على الله تعالى مُفردة؛ بل لا بدَّ من مجيئها مقرونة بمُقابلها: اسم الضارِّ، فـ (لا يجوز إفراده عن النافع، فحين لم يجز إفراده: لم يكن مُفرداً من أسماء الله تعالى، وإذا وجب ضمُّه إلى النافع: كانا معاً كالاسم الواحد المُركَّب من كلمتين، مثل: عبد الله

وبعل بَك، فلو نطقت بالضارِّ وحده: لم يكن اسماً لذلك المُسمَّى به، ومتى كان الاسم هو الضارُّ النافع معاً: كان في معنى مالك الضرِّ والنفع، وذلك في معنى مالك الأمر كلِّه ومالك الملك، وهذا المعنى من الأسماء الحسنى، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ الآية[1]. وهو في معنى: القدير على كلِّ شيء.

وميزان الأسماء الحسنى يدور على: المدح بالملك والاستقلال؛ وما يعود إلى هذا المعنى، وعلى المدح بالحمد والثناء؛ وما يعود إلى ذلك، وكلُّ اسمٍ دلَّ على هذين الأمرين: فهو صالحٌ دخوله فيها، والضارُّ النافع يرجع إلى ذلك مع الجمع وعدم الفرق ومع القصد، فيلزم من أطلقه قصد ذلك مع الجمع)[2].

فهذا ضابط أسماء الله تعالى الحسنى؛ وما يصحُّ منها أن يُطلق على الله تعالى مفرداً أو مقترناً بغيره، وما لا يصحُّ أن يُطلق إلا مقروناً بمقابله[3].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه القاعدة العظيمة من قواعد أسماء الله الحسنى؛ موضِّحاً بالأمثلة: الأسماء الحسنى التي يصحُّ أن تُطلق على الله تعالى مُفردة أو مُقترنة بغيرها؛ والأسماء الحسنى التي لا يصحُّ أن تُطلق عليه ــ سبحانه وتعالى ــ إلا مقرونة

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

(٢) إيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليماني ص١٨٧.

(٣) انظر: نقض تأسيس الجهمية لابن تيمية ٢/ ١٠ ــ ١١، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص٤٩ ــ ٦٥، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي ص٤١١ ــ ٤١٦، أسماء الله الحسنى للغصن ص١٣٤.

بمُقابلها، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنَّ أسماءه تعالى منها: ما يطلق عليه مفرداً ومقترناً بغيره وهو غالب الأسماء؛ كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يُدعى به مفرداً ومقترناً بغيره، فتقول: يا عزيز يا حليم يا غفور يا رحيم، وأن يُفرد كلُّ اسمٍ، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها: ما لا يُطلق عليه بمفرده؛ بل مقروناً بمقابله، كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يُفرد هذا عن مقابله؛ فإنه مقرونٌ بالمعطي والنافع والعفوِّ، فهو المعطي المانع؛ الضارُّ النافع؛ المنتقم العفوُّ؛ المعزُّ المذلُّ، لأن الكمال في اقتران كلِّ اسمٍ من هذه بما يُقابله، لأنه يُراد به: أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرُّف فيهم عطاء ومنعاً؛ ونفعاً وضراً؛ وعفواً وانتقاماً، وأما أن يُثنى عليه بمجرَّد المنع والانتقام والإضرار: فلا يسوغ.

فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد؛ الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعدَّدت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردة؛ ولم تُطلق عليه إلا مقترنة؛ فاعلمه، فلو قلت: يا مذلُّ يا ضارُّ يا مانع؛ وأخبرت بذلك: لم تكن مثنياً عليه؛ ولا حامداً له؛ حتى تذكر مقابلها)[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ سمة للأسماء الحسنى التي تُطلق على الله تعالى مقترنة بغيرها ــ وذلك في سياق كلامه على قاعدة: (إن الشيء لا يُعطف على نفسه) ــ ، فأوضح أن هذه الأسماء الحسنى المقترنة بغيرها كثيراً ما تجيء غير معطوفةٍ على بعضها، فقال: (أما في أسماء الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ فأكثر ما يجيء في القرآن الكريم بغير

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٥١.

عطفٍ، نحو: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[1]، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[2]، ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾[3]، ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾[4] إلى آخرها.

وجاءت معطوفة في موضعين:

أحدهما: في أربعة أسماء وهي: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[5].

والثاني: في بعض الصفات بالاسم الموصول، مثل قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾[6]. ونظيره: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٢٧؛ ١٣٧، سورة آل عمران: الآية ٣٥، سورة المائدة: الآية ٧٦، سورة الأنعام: الآيتان ١٣؛ ١١٥، سورة الأنفال: الآية ٦١، سورة يونس: الآية ٦٥، سورة يوسف: الآية ٣٤، سورة الأنبياء: الآية ٤، سورة الشعراء: الآية ٢٢٠، سورة العنكبوت: الآيتان ٥؛ ٦٠، سورة فصلت: الآية ٣٦، سورة الدخان: الآية ٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٩، سورة آل عمران: الآيات ٦؛ ١٨؛ ٦٢؛ ١٢٦، سورة المائدة: الآية ١١٨، سورة إبراهيم: الآية ٤، سورة النحل: الآية ٦٠، سورة النمل: الآية ٩، سورة العنكبوت: الآيتان ٢٦؛ ٤٢، سورة الروم: الآية ٢٧، سورة لقمان: الآية ٩، سورة سبأ: الآية ٢٧، سورة فاطر: الآية ٢، سورة الزمر: الآية ١، سورة غافر: الآية ٨، سورة الشورى: الآية ٣، سورة الجاثية: الآيتان ٢؛ ٣٧، سورة الأحقاف: الآية ٢، سورة الحديد: الآية ١، سورة الحشر: الآيتان ١؛ ٢٤، سورة الممتحنة: الآية ٥، سورة الصف: الآية ١، سورة الجمعة: الآيتان ١؛ ٣، سورة التغابن: الآية ١٨.

(٣) سورة يونس: الآية ١٠٧، سورة يوسف: الآية ٩٨، سورة الحجر: الآية ٤٩، سورة القصص: الآية ١٦، سورة الزمر: الآية ٥٣، سورة الشورى: الآية ٥، سورة الأحقاف: الآية ٨.

(٤) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٥) سورة الحديد: الآية ٣.

(٦) سورة الأعلى: الآيات ٢ ــ ٤.

لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾[(١)])[(٢)].

وأسماء الله الحسنى إذا ما أُفردت: فإنها تحمل من معاني التمجيد والتحميد غير ما تحمله من معاني التمجيد والتحميد إذا ما قُرنت بغيرها من الأسماء الحسنى، كما قرَّر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في قوله في التلبية: (إنها متضمنةٌ للإخبار عن اجتماع الملك والنعمة والحمد لله ــ عزَّ وجلّ ــ ، وهذا نوعٌ آخر من الثناء عليه؛ غير الثناء بمفردات تلك الأوصاف العلية، فله ــ سبحانه ــ من أوصافه العلى نوعا ثناء:

نوعٌ متعلقٌ بكلِّ صفةٍ على انفرادها. ونوعٌ متعلقٌ باجتماعها وهو كمالٌ؛ وهو عامة الكمال.

والله ــ سبحانه ــ يُفرِّق في صفاته بين الملك والحمد، وسوَّغ هذا المعنى: أن اقتران أحدهما بالآخر من أعظم الكمال، والملك وحده كمالٌ؛ والحمد كمالٌ، واقتران أحدهما بالآخر كمالٌ، فإذا اجتمع الملك المتضمن للقدرة؛ مع النعمة المتضمنة لغاية النفع والإحسان والرحمة؛ مع الحمد المتضمن لعامة الجلال والإكرام الداعي إلى محبته: كان في ذلك من العظمة والكمال والجلال ما هو أولى به وهو أهله، وكان في ذكر الحمد له ومعرفته به من انجذاب قلبه إلى الله وإقباله عليه والتوجُّه بدواعي المحبة كلِّها إليه ما هو مقصود العبودية ولبُّها، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[(٣)].

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ١٠ ــ ١٢.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٧٠.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥٤، سورة الحديد: الآية ٢١، سورة الجمعة: الآية ٤.

ونظير هذا: اقتران الغنى بالكرم، كقوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝﴾[1]. فله كمال من غناه وكرمه؛ ومن اقتران أحدهما بالآخر. ونظيره: اقتران العزة بالرحمة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾[2]. ونظيره: اقتران العفو بالقدرة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝﴾[3]. ونظيره: اقتران العلم بالحلم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝﴾[4]. ونظيره: اقتران الرحمة بالقدرة، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾[5].

وهذا يُطلع ذا اللبِّ على رياض من العلم أنيقات، ويفتح له باب محبة الله ومعرفته، والله المستعان؛ وعليه التكلان)[6].

وكما أن الكمال يصحب أحد أسماء الله تعالى بمفرده: فإنه يصحب الاسم الآخر كذلك بمفرده، وهذا غير الكمال الذي يصحب الاسمين حال اقتران أحدهما بالآخر، وفي هذا المقام يقول الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد؛ وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدلُّ على أنه محمودٌ في إلـٰهيته؛ محمودٌ في ربوبيته؛ محمودٌ في رحمانيته؛ محمودٌ في ملكه، وأنه إلـٰه محمودٌ؛ وربٌّ محمودٌ؛ ورحمانٌ محمودٌ؛ وملكٌ محمودٌ، فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمالٌ من هذا الاسم بمفرده؛ وكمالٌ من الآخر بمفرده؛ وكمالٌ من اقتران أحدهما بالآخر.

---

(١) سورة النمل: الآية ٤٠.
(٢) سورة الشعراء: الآيات ٩؛ ٦٨؛ ١٠٤؛ ١٢٢؛ ١٤٠؛ ١٥٩؛ ١٧٥؛ ١٩١.
(٣) سورة النساء: الآية ١٤٩.
(٤) سورة النساء: الآية ١٢.
(٥) سورة الممتحنة: الآية ٧.
(٦) تهذيب مختصر سنن أبي داود ٥/ ١٧٩ ــ ١٨٠.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝﴾[1]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾[2]، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾[3]. فالغنى صفة كمالٍ؛ والحمد صفة كمالٍ؛ واقتران غناه بحمده كمالٌ أيضاً، وعلمه كمالٌ؛ وحكمته كمالٌ؛ واقتران العلم بالحكمة كمالٌ أيضاً، وقدرته كمالٌ؛ ومغفرته كمالٌ؛ واقتران القدرة بالمغفرة كمالٌ، وكذلك العفو بعد القدرة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝﴾[4]، واقتران العلم بالحلم: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝﴾[5]، و (حملة العرش أربعةٌ: اثنان يقولان: سبحانك اللَّـٰهُمَّ وبحمدك؛ لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللَّـٰهُمَّ وبحمدك؛ لك الحمد على عفوك بعد قدرتك)[6].

---

(١) سورة التغابن: الآية ٦.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٦، سورة الأنفال: الآية ٧١، سورة التوبة: الآيات ١٥؛ ٦٠؛ ٩٧؛ ١٠٦؛ ١١٠، سورة الحج: الآية ٥٢، سورة النور: الآيات ١٨؛ ٥٨؛ ٥٩، سورة الحجرات: الآية ٨، سورة الممتحنة: الآية ١٠.

(٣) سورة الممتحنة: الآية ٧.

(٤) سورة النساء: الآية ١٤٩.

(٥) سورة النساء: الآية ١٢.

(٦) لم أقف عليه.

وقد أخرج نحو هذا الأثر بلفظ (حملة العرش ثمانية): عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن [٢/ ٣١٤ ـ ٣١٥]، وابن أبي شيبة في العرش [رقم (٢٤) ـ ص٣٦٧ ـ ٣٦٨]، والطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [١٩/ ٧]، وقوام السنة الأصبهاني في الترغيب والترهيب [رقم (٧٤٤) ـ ١/ ٤٢٥] عن شهر بن حوشب، وكذا أخرجه أبو الشيخ في العظمة [رقم (٤٨١) ـ ٣/ ٩٥٤]، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان [رقم (٣٥٨) ـ ٢/ ٢٣٦] عن هارون بن رياب، وكذا أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [٦/ ٧٤] عن حسان بن عطية. =

فما كلُّ من قدر عفا؛ ولا كلُّ من عفا يعفو عن قدرةٍ؛ ولا كلُّ من علم يكون حليماً؛ ولا كلُّ حليمٍ عالمٌ، فما قُرِنَ شيءٌ إلى شيءٍ: أزين من حلمٍ إلى علمٍ؛ ومن عفوٍ إلى قدرةٍ؛ ومن ملكٍ إلى حمدٍ؛ ومن عزةٍ إلى رحمةٍ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾[1])[2].

ثم نبَّه الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ على سرٍّ بديعٍ في سبب اقتران أحد الأسماء الحسنى باسم دون اسم؛ فقال: (ومن ههنا كان قول المسيح ـ عليه السلام ـ : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾[3]: أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي: إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة؛ وهي كمال القدرة، وعن حكمة؛ وهي: كمال العلم.

فمن غفر عن عجزٍ وجهلٍ بجرم الجاني: لا يكون قادراً حكيماً عليماً؛ بل لا يكون ذلك إلا عجزاً، فأنت لا تغفر إلا عن قدرةٍ تامةٍ وعلمٍ تامٍ وحكمةٍ تضع بها الأشياء مواضعها، فهذا أحسن من ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع الدالِّ ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها وقد فاتت، فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم: كان في هذا من

= ولفظ عبد الرزاق: (حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللَّـهُمَّ وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللَّـهُمَّ وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، كأنهم ينظرون أعمال بني آدم).

وقوّى سنده: الذهبي في العلو للعلي العظيم [رقم (١٣٣) ـ ١/ ٥٧١]، وتابعه في الحكم: الألباني في مختصره [رقم (٤٢) ـ ص١٠١].

(١) سورة الشعراء: الآيات ٩؛ ٦٨؛ ١٠٤؛ ١٢٢؛ ١٤٠؛ ١٥٩؛ ١٧٥؛ ١٩١.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١٨.

الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقُّها ما يُنزِّه عنه منصب المسيح ــ عليه السلام ــ ؛ لا سيما والموقف موقفُ عظمةٍ وجلالٍ وموقفُ انتقام ممن جعل لله ولداً واتخذه إلـٰهاً من دونه، فذِكْرُ العِزَّة والحكمة فيه أَلْيَقُ من ذِكْرِ الرحمة والمغفرة.

وهذا بخلاف قول الخليل ــ عليه السلام ــ : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾[(١)]. ولم يقل: فإنك عزيزٌ حكيمٌ، لأن المقام استعطافٌ وتعريضٌ بالدعاء، أي: إن تغفر لهم وترحمهم بأن توفِّقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد؛ ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث: «اللّـٰهُمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[(٢)].

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الربِّ تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كلَّ اسم يناسب ما ذكره معه؛ واقترن به من فعله وأمره، والله الموفق للصواب)[(٣)].

فهذا ما يتعلق بتقرير هذه القاعدة العظيمة من منثور كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ، وأما تقريرها من منظوم كلامه: فذلك مضمنٌ في قوله ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته:

(هـذا ومـن أسمـائـه مـا ليـس يُفـ ... ـرد بـل يُقـال إذا أتـى بقـرانِ

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٣٥ ــ ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب أحاديث الأنبياء/ باب: (٥٤) ــ الحديث رقم (٣٤٧٧) ــ ٢/ ١٠٨١]، ومسلم في صحيحه [كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة أحد ــ الحديث رقم (١٧٩٢) ــ ٣/ ١٤١٧] من حديث عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ .

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥ ــ ٤٦.

وهي التي تُدعى بمزدوجاتها ... إفرادها خطرٌ على الإنسانِ
إذ ذاك مُوهم نوعِ نقصٍ جلَّ ربُّ ... العرش عن عيبٍ وعن نقصانِ
كالمانع المعطي وكالضار الذي ... هو: نافع وكماله الأمرانِ
ونظير هذا القابض المقرون باسـ ... ـم الباسط اللفظان مقترنانِ
وكذا العزُّ مع المُذلِّ وخافضٌ ... مع رافعٍ لفظان مزدوجانِ
وحديث إفراد اسم منتقم فمو ... قوفٌ كما قد قال ذو العرفانِ
ما جاء في القرآن غير مقيد ... بالمجرمين وجا بذو نوعانِ)[1].

❑ ❑ ❑

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم: (٣٣٩٣ ـ ٣٤٠٠) ـ ص٢٥١ ـ ٢٥٢].

المبحث الرابع:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى إن دلّت على وصفٍ متعدٍّ تضمَّنت ثبوت الاسم لله عزّ وجلّ؛ وثبوت الصفة التي تضمّنها؛ وثبوت حكمها ومقتضاها)

إنَّ مِنَ الأحكام المختصَّة بأسماء الله الحسنى؛ والتي هي قاعدة من قواعدها العظيمة: أن الاسم من أسماء الله تعالى إن كان دالاً على وصف لله تعالى متعدٍّ: فهو متضمِّنٌ لثلاثة أمورٍ:

الأمر الأول: ثبوت ذلك الاسم لله ـ سبحانه وتعالى ـ .

الأمر الثاني: ثبوت تلك الصفة التي تضمنها هذا الاسم لله تعالى.

الأمر الثالث: ثبوت حكم هذه الصفة ومقتضاها[1].

ومَن فَقِهَ هذه القاعدة العظيمة: عَلِمَ (أن الشرع والأمر والخلق كلَّه صادرٌ عن أسمائه وصفاته؛ ومرتبطٌ بها، وهذا بابٌ عظيمٌ من معرفة الله ومعرفة أحكامه؛ من أجلِّ المعارف وأشرف العلوم.

---

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص١٣، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي ص٤٥١ ـ ٤٥٢.

تجد: آية الرحمة مختومة بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العِزَّة والقدرة والحكمة والعلم والقهر)[1].

لذا فإنا نجد أن الله ـ عزَّ وجلّ ـ قد يكتفي في آياتٍ شريفةٍ ومواضع منيفةٍ من كتابه المبين (بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها[2]؛ ليُنَبِّه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم العظيم: عرفوا ما يترتَّب عليه من الأحكام)[3].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بتقرير هذه القاعدة؛ مبيناً نصَّها؛ ودليلها الدالَّ عليها، فقال: (إن الاسم إذا أُطلق عليه: جاز أن يُشتقَّ منه المصدر والفعل، فيُخبر به عنه فعلاً ومصدراً، نحو: السميع البصير القدير، يُطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة، ويُخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾[4]. ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[5].

هذا إن كان الفعل متعدياً، فإن كان لازماً: لم يُخبر عنه به، نحو: الحي، بل يُطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل، فلا يقال: حَيِيَ)[6].

كما استنبط ـ رحمه الله تعالى ـ من حديث أبي رزين لقيط بن

---

(١) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي ص٥١ ـ ٥٢.

(٢) اعتنى العلامة السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه العظيم الشان: [القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ص٥١ ـ ٥٧] بفقه هذا الباب العظيم، حيث عقد له في القاعدة التاسعة عشرة من كتابه مبحثاً بعنوان: ختم الآيات بأسماء الله الحسنى يدلُّ على أن الحكم المذكور له تعلقٌ بذلك الاسم الكريم.

(٣) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي ص٥٤.

(٤) سورة المجادلة: الآية ١.

(٥) سورة المرسلات: الآية ٢٣.

(٦) بدائع الفوائد ١/ ١٤٧.

عامر بن المنتفق العقيلي ــ رضي الله عنه ــ الطويل؛ وقوله فيه: «فلعمر إلهك»[1]: فقه هذه القاعدة وحكمها؛ فقال: (هو قَسَمٌ بحياة الربِّ ــ جلَّ جلاله ــ .

وفيه: دليلٌ على جواز الإقسام بصفاته؛ وانعقاد اليمين بها؛ وأنها قديمةٌ، وأنه يُطلق عليه منها أسماء المصادر؛ ويُوصف بها، وذلك قدرٌ زائدٌ على مجرَّد الأسماء، وأن الأسماء الحسنى مشتقةٌ من هذه المصادر؛ دالةٌ عليها)[2].

وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ في موطنٍ آخر فقه هذه القاعدة وبيَّن حكمها؛ فقال: (كلُّ اسمٍ من أسمائه ــ سبحانه ــ له صفةٌ خاصةٌ، فإن أسماءه أوصافُ مدحٍ وكمالٍ، وكلُّ صفةٍ لها مقتضٍ وفعلٌ ــ إما لازمٌ وإما متعدٍّ ــ ، ولذلك الفعل تعلُّقٌ بمفعولٍ هو من لوازمه، وهذا في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، كلُّ ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها؛ وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال؛ وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله؛ وأفعاله عن صفاته؛ وصفاته عن أسمائه؛ وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال؛ وأفعاله حكماً ومصالح؛ وأسماؤه حسنى: ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقِّه)[3].

❑ ❑ ❑

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «أيها الناس؛ ألا إني قد خبَّأتُ لكم صوتي».

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٨٠.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٤٩ ــ ٤٥٠.



المبحث الخامس:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (إذا كان الاسم من أسماء الله الحسنى دالاّ على عدة صفات فإنه يتناولها جميعها تناول الاسم الدال على صفة واحدة)

إنَّ مِن وجوه تفاضل أسماء الله الحسنى: تفاوتها في دلالاتها على الصفات العلى، فمن هذه الأسماء الحسنى ما يكون دالاًّ على صفةٍ واحدةٍ من هذه الصفات؛ كاسم: البصير والسميع والعليم، ومنها ما يكون دالاً على صفاتٍ عديدةٍ؛ كاسم: الصمد والعظيم والمجيد.

إلا أنَّ مِن أوجه حُسْنِ أسماء الله تعالى: أن الاسم الدالَّ على عِدَّة صفاتٍ يتناول جميع ما دلَّ عليه من الصفات العلى كتناول الاسم الواحد الدالِّ على الصفة الواحدة.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير نصِّ هذه القاعدة؛ وذكر مثالها الدالِّ عليها، فقال في نصِّها: (إن من أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عِدَّة صفاتٍ؛ ويكون ذلك الاسمُ متناولاً لجميعها تناولَ الاسمِ الدالِّ على الصفة الواحدة لها)[1].

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٥٢.

ثم مثَّل ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه القاعدة بذكر بعض الأسماء الحسنى الدالَّة على عِدَّة صفاتٍ؛ فقال: (كاسمه: العظيم والمجيد والصمد، كما قال ابن عباس ــ فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره[1] ــ : (الصمد: السيِّد الذي قد كَمُلَ في سؤدده، والشريف الذي قد كَمُلَ في شرفه، والعظيم الذي قد كَمُلَ في عظمته، والحليم الذي قد كَمُلَ في حلمه، والعليم الذي قد كَمُلَ في علمه، والحكيم الذي قد كَمُلَ في حكمته، وهو الذي قد كَمُلَ في أنواع شرفه وسؤدده؛ وهو الله ــ سبحانه ــ ، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس ﴿ لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[2]، و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[3]، سبحان الله ﴿ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[4]) هذا لفظه)[5].

ثم ختم ــ رحمه الله تعالى ــ تقريره ببيان: جناية إهمال فقه هذه القاعدة العظيمة؛ وعدم الإحاطة بها علماً ومعرفة على أسماء الله الحسنى؛ فقال: (وهذا مما خَفِيَ على كثيرٍ ممَّن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسَّر الاسم بدون معناه؛ ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يُحِطْ بهذا علماً: بخس الاسم الأعظم حقَّه؛ وهضمه معناه، فتدبَّره)[6].

❑ ❑ ❑

(١) تقدم تخريجه.
(٢) سورة الإخلاص: الآية ٤.
(٣) سورة الشورى: الآية ١١.
(٤) سورة يوسف: الآية ٣٩، سورة الرعد: الآية ١٦، سورة إبراهيم: الآية ٤٨، سورة ص: الآية ٦٥، سورة الزمر: الآية ٤، سورة غافر: الآية ١٦.
(٥) بدائع الفوائد ١/ ١٥٢.
(٦) بدائع الفوائد ١/ ١٥٣.

المبحث السادس:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (دلالة أسماء الله الحسنى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن وبالالتزام)

إنَّ الدلالات اللفظية الوضعية تنحصر في ثلاث دلالات، وهي: دلالة المطابقة؛ ودلالة التضمن؛ ودلالة اللزوم.

أما دلالة المطابقة: فهي دلالة اللفظ على جميع مسمى ذلك اللفظ.

وأما دلالة التضمن: فهي دلالة اللفظ على جزء مسماه.

وأما دلالة الالتزام: فهي دلالة اللفظ على اللازم من مسماه[1].

مثال ذلك: أن لفظ البيت يدلُّ على معنى البيت بطريق المطابقة، ويدلُّ على السقف بطريق التضمن، وأما السقف: فإنه يدلُّ على الحائط بطريق الالتزام، لأن السقف غير موضوعٍ للحائط وضعَ لفظ الحائط؛ حتى يكون مطابقاً، وليس الحائط جزءاً من السقف؛ كما كان السقف جزءاً من نفس البيت حتى يكون متضمناً، لكنه كالرفيق الملازم الخارج عن ذات السقف؛ الذي لا ينفك السقف عنه[2].

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ص١٤٠، شرح الكوكب المنير لابن النجار ١/ ١٢٦ ــ ١٢٧، آداب البحث والمناظرة للشنقيطي ص١٣ ــ ١٤.

(٢) انظر: المستصفى من علم الأصول للغزالي ١/ ٧٤، روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة ١/ ٩٤ ــ ٩٥.

وأما عن علاقة هذه الدلائل اللفظية الوضعية الثلاث بأسماء الله تعالى:

فهي أن كلَّ اسمٍ من أسماء الله الحسنى (يدلُّ على ذاته والصفة المختصَّة به بطريق المطابقة، وعلى أحدهما بطريق التضمُّن، وعلى الصفة الأخرى بطريق اللزوم)[1].

مثال ذلك: أن اسم الجلالة (الرحمن) يدلُّ على ذات الله تعالى وعلى صفة الرحمة دلالة مطابقة، ويدلُّ على ذات الله تعالى وحدها أو على صفة الرحمة وحدها دلالة تضمن، ويدلُّ على صفة الحياة وغيرها من صفات الله العلى دلالة التزام[2].

فهذه خلاصة ما يتعلَّق بهذه القاعدة العظيمة من قواعد أسماء الله الحسنى؛ والموضِّحة لدلالة أسماء الله الحسنى على ذاته وصفاته[3].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة أتمَّ تقريرٍ؛ وحرَّر دلالتها أحسن تحرير، حيث نصَّ عليها بقوله: (إن الاسم من أسمائه له دلالات، دلالة على الذات والصفة بالمطابقة؛ ودلالة على

---

(١) الإيمان الكبير لابن تيمية ٧/ ١٨٥ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) انظر: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية للسعدي ص١٥٩ ــ ١٦٠.

(٣) انظر: الرد على المنطقيين لابن تيمية ص٧٥ ــ ٧٦، معنى دعوة ذي النون؛ ولم كانت كاشفة للكرب له ١٠/ ٢٥٤ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول للحكمي ١/ ١١٩، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص١٤، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص٢٣٥ ــ ٢٤٢، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي ص٤٢٤ ــ ٤٣٠، أسماء الله الحسنى للغصن ص٨١ ــ ٨٤.

أحدهما بالتضمن؛ ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم)[1].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ فقه هذه القاعدة في موطن آخر بقوله: (إن الاسم من أسمائه ــ تبارك وتعالى ــ كما يدلُّ على الذات والصفة التي اشتقَّ منها بالمطابقة؛ فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم، فيدلُّ على الصفة بمفردها بالتضمن؛ وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدلُّ على الصفة الأخرى باللزوم.

فإن اسم السميع: يدلُّ على ذات الربِّ وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدلُّ على اسم الحيِّ وصفة الحياة بالالتزام.

وكذلك سائر أسمائه وصفاته، ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة؛ وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة؛ وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة: أثبت من أسماء الربِّ وصفاته وأفعاله ما يُنكره من لم يعرف لزوم ذلك؛ ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها.

وكذلك سائر صفاته، فإن اسم العظيم: له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها، وكذلك اسم العلي واسم الحكيم وسائر أسمائه.

فإن من لوازم اسم العلي: العلو المطلق بكلِّ اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر؛ وعلو القهر؛ وعلو الذات، فمن جحد علو الذات: فقد جحد لوازم اسمه العلي.

وكذلك اسمه الظاهر: من لوازمه أن لا يكون فوقه شيء، كما في

---

(١) بدائع الفوائد ١/١٤٧.

الصحيح عن النبي ﷺ: «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء»[1].

بل هو ـ سبحانه ـ فوق كلِّ شيءٍ، فمن جحد فوقيته ـ سبحانه ـ: فقد جحد لوازم اسمه الظاهر، ولا يصحُّ أن يكون الظاهر: هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة؛ والجوهر فوق الزجاج، لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوق أظهر من الفائق فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان ـ سبحانه ـ ظاهراً بالقهر والغلبة لمقابلة الاسم الباطن؛ وهو: الذي ليس دونه شيء، كما قابل الأول الذي ليس قبله شيء؛ بالآخر الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم الحكيم من لوازمه: ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله؛ ووضعه الأشياء في مواضعها؛ وإيقاعها على أحسن الوجوه، فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه، وكذلك سائر أسمائه الحسنى[2])[3].

وقد زاد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا القاعدة بياناً وإيضاحاً بقوله في نونيته:

(ودلالـة الأسمـاء أنـواع ثـلا	ث كلهـا معلـومـة ببيـان
دلـت مطـابقـة كـذاك تضمنـا	وكـذا التـزامـا واضـح البـرهـان
أمـا مطـابقـة الـدلالـة فهـي أن	الاسـم يفهـم منـه مفهـومـان

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ـ الحديث رقم (٢٧١٣) ـ ٤/ ٢٠٨٤] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «اللَّهُمَّ رب السماوات ورب الأرض».

(٢) انظر في استلزام اسم الخالق لحياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٠٨.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٩ ـ ٤٠.

ذات الإلـه وذلـك الـوصـف الـذي ... يشتـــق منـــه الاســـم بـــالميـــزان

لكـــن دلالتـــه علـــى إحـــداهمـــا ... بتضمـــن فـــافهمـــه فهـــم بيـــان

وكـــذا دلالتـــه على الصفـــة التـــي ... مـــا اشتـــق منهـــا فـــالتـــزام دان

وإذا أردت لـــــذا مثـــــالاً بيِّنـــــاً ... فمثـــال ذلـــك لفظـــة الـــرحمـــن

ذات الإلـــه ورحمـــة مـــدلـــولهـــا ... فهمـــا لهـــذا اللفـــظ مـــدلـــولان

إحداهما بعض لذا الموضوع فهـ ... ـــي تضمـــن ذا واضـــح التبيـــان

لكـن وصـف الحـي لازم ذلـك الـ ... ـمعنـى لـزوم العلـم للـرحمـن

فلـــذا دلالتـــه عليـــه بـــالتـــزا ... م بيِّـــنٌ والحـــق ذو تبيـــان)[1].

وممَّا تقدَّم مِن منثور ومنظوم كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : يتضح فقه هذه القاعدة، ويتبيَّن أن الاسم الواحد من أسماء الله الحسنى (يدلُّ على الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة، وعلى أحدهما وحده بالتضمن، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام)[2].

❑ ❑ ❑

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم: (٣٤٠١ ــ ٣٤١١) ــ ص٢٥٢].

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٤.

المبحث السابع :

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (دلالة أسماء الله الحسنى على العلمية والوصفية)

إنَّ أسماء الله الحسنى أعلامٌ وأوصافٌ، وقد تظافرت على الدلالة على ذلك: النقول الصحيحة والعقول الصريحة، ذلك أن أسماء الله تعالى إنما كانت حسنى: لتميُّز (الاسم الحسن عن الاسم السيء بمعناه، فلو كانت كلُّها بمنزلة الأعلام الجامدات التي لا تدلُّ على معنى: لم تنقسم إلى حسنى وسوآى)[1].

وهي بخلاف أسماء المخلوقين، فإنها لما كانت موضوعة لتعيين وتعريف المُسمَّى؛ وللتمييز بينه وبين غيره: لم يلزم منها الدلالة على الوصفية.

ومعتقد أهل السنة والجماعة في هذه القاعدة المتضمنة لدلالة أسماء الله الحسنى على العلمية والوصفية: مناقضٌ ومباينٌ من كلِّ وجهٍ لمعتقد المعتزلة[2] الذين زعموا: أن أسماء الله أعلامٌ لا أوصاف لها

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص١٠٧.

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري ١/ ٢٢٤ ـ ٢٤٩، الملل والنحل للشهرستاني ١/٣٨، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها للمعتق ص٨٤ ـ ٩١.

ولا معاني تقوم بها؛ بل هي أعلامٌ جامداتٌ، يستلزم إثبات الأوصاف والمعاني لها تعدُّد القدماء[1] ــ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ــ[2].

فهذه كلماتٌ ممهداتٌ بين يدي تقرير هذه القاعدة العظيمة من قواعد أسماء الله الحسنى؛ الدالة على أن أسماء الله تعالى أعلامٌ وأوصافٌ[3].

---

(١) حكى الشهرستاني في كتابه [الملل والنحل ١/ ٤٠] عن شيخ المعتزلة واصل بن عطاء قوله: (من أثبت معنى وصفة قديمة: أثبت إلهين).

(٢) قال الألوسي في [جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص١٥١]: (حكى بعضهم: أن جهم بن صفوان الترمذي كان يدعو الناس إلى مذهبه الباطل؛ وهو: أن الله تعالى عالم لا علم له؛ قادر لا قدرة له؛ وكذا في سائر الصفات، وكان جلس يوماً يدعو الناس لمذهبه ــ وحوله أقوام كثيرة ــ؛ فجاء أعرابي ووقف حتى سمع مقالته، فأرشده الله تعالى إلى بطلان هذا المذهب، فأنشأ يقول:

ألا إنَّ جهماً كافرٌ بانَ كفرُه ... ومن قال يوماً قولَ جهم فقد كفرْ
لقد جُنَّ جهمٌ إذ يُسمِّي إلٰههُ ... سميعاً بلا سمعٍ بصيراً بلا بصرْ
عليماً بلا علمٍ رضيًّا بلا رضا ... لطيفاً بلا لُطْفٍ خبيراً بلا خبرْ
أيُرضِيكَ أنْ لو قالَ يا جَهْمُ قائلٌ ... أبوكَ امرؤٌ حرٌّ خطيرٌ بلا خَطَرْ
مَلِيحٌ بلا مِلحٍ بَهِيٌّ بلا بها ... طويلٌ بلا طُولٍ يخالفه القِصَرْ
حَلِيمٌ بلا حِلْمٍ وَفِيٌّ بلا وفا ... فبالعقلِ موصوفٌ وبالجهلِ مُشْتَهِرْ
جوادٌ بلا جُودٍ قَوِيٌّ بلا قِوى ... كبيرٌ بلا كِبْرٍ صغيرٌ بلا صِغَرْ
أمدحاً تراه أم هجاءاً وسُبَّةً ... وهزأً كفاك الله يا أحمقَ البَشَرْ
فإنك شَيْطَانٌ بُعِثْتَ لأُمَّةٍ ... تُصَيِّرِهُم عمَّا قريبٍ إلى سَقَرْ.

فألهمه الله ــ عزَّ وجلّ ــ حقيقة مذهب أهل السنّة، ورجع كثيرٌ من الناس ببركة أبياته. وكان عبد الله بن المبارك يقول: إن الله بعث الأعرابي رحمة لأولئك. انتهى).

(٣) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص١١ ــ ١٢، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص٢٢٦ ــ ٢٣٤، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي =

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير نصِّ هذه القاعدة؛ وبيان فقهها وحكمها، حيث نصَّ ـ رحمه الله تعالى ـ على دلالة أسماء الله الحسنى على العلمية والوصفية بقوله: (إن أسماءه ـ عزَّ وجلّ ـ الحسنى: هي أعلامٌ وأوصافٌ، والوصفُ بها لا ينافي العلميةَ، بخلاف أوصاف العباد؛ فإنها تنافي علميتهم، لأن أوصافهم مشتركةٌ؛ فنافتها العلميةُ المختصةُ، بخلاف أوصافه تعالى)(١).

كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ فقه هذه القاعدة العظيمة؛ وما يتعلَّق بها من أحكام في موطنٍ آخر بقوله: (شأن أسماء الربِّ تعالى وأسماء كتابه وأسماء نبيه: هي أعلامٌ دالةٌ على معانٍ هي بها أوصافٌ، فلا تضادُّ فيها العلميةُ الوصفَ، بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين، فهو الله الخالق البارىء المصور القهار، فهذه أسماءٌ دالةٌ على معانٍ هي صفاته)(٢).

ثم شرع بعد ذلك في تقرير الأوجه المفقِّهة بأحكام هذه القاعدة؛ الدالَّة على أن أسماء الله الحسنى أعلامٌ وأوصافٌ؛ وأن العلمية فيها لا تُضادُّ الوصفية، فمن هذه الأوجه ما ذكره ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (أسماء الربِّ تعالى كلُّها أسماء مدح، ولو كانت ألفاظاً مجرَّدة لا معاني لها: لم تدل على المدح، وقد وصفها الله ـ سبحانه ـ بأنها حسنى كلَّها، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾(٣).

= ص٤٣١ ـ ٤٤٢، أسماء الله الحسنى للغصن ص٥٣ ـ ٥٤، اسم الله الأعظم للدكتور الدميجي ص٤٤ ـ ٤٧.

(١) بدائع الفوائد ١/١٤٧.

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

فهي لم تكن حسنى لمجرَّد اللفظ؛ بل لدلالتها على أوصاف الكمال. ولهذا: (لما سمع بعض العرب قارئاً يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1] والله غفور رحيم. قال: ليس هذا كلام الله تعالى. فقال القارىء: أتُكَذِّبُ بكلام الله تعالى؟ فقال: لا؛ ولكن ليس هذا بكلام الله. فعاد إلى حفظه وقرأ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾[2]. فقال الأعرابي: صدقت، عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع).

ولهذا إذا ختمت آية الرحمة باسم عذابٍ أو بالعكس: ظهر تنافر الكلام؛ وعدم انتظامه. وفي السنن من حديث أُبَيِّ بن كعب: «قراءة القرآن على سبعة أحرف، ثم قال: ليس منهن إلا شافٍ كافٍ، إن قلت: ﴿سَمِيعًا عَلِيمًا ۝١٤٨﴾[3]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾[4]، ما لم تختم آية عذابٍ برحمة، أو آية رحمةٍ بعذاب» إسناده صحيح[5].

ولو كانت هذه الأسماء أعلاماً محضة لا معنى لها: لم يكن فرق بين ختم الآية بهذا أو بهذا)[6].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٨.

(٣) سورة النساء: الآية ١٤٨.

(٤) سورة النساء: الآيات ٥٦؛ ١٥٨؛ ١٦٥، سورة الفتح: الآيتان ٧؛ ١٩.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢١١٤٩) ــ ٣٥/ ٨٤ ــ ٨٥]، وأبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ــ الحديث رقم (١٤٧٧) ــ ٢/ ١٦٠]، ولفظه: «يا أُبيُّ؛ إني أُقْرِتُ القرآن».
وصححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود ١/ ٤٠٦].

(٦) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٨ ــ ٢٨٠.

ثم قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه القاعدة من وجهٍ آخر؛ فقال: (وأيضاً فإنه ـ سبحانه ـ يُعلِّلُ أحكامه وأفعاله بأسمائه، ولو لم يكن لها معنى لما كان التعليل صحيحاً، كقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾[2]. فختم حكم الفيء ـ الذي هو الرجوع والعَوْدُ إلى رضى الزوجة، والإحسان إليها ـ بأنه غفور رحيم، يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه، والجزاء من جنس العمل، فكما رجع إلى التي هي أحسن؛ رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة، ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾[3]. فإن الطلاق لما كان لفظاً يُسمع ومعنى يُقصد عَقَّبَه باسم السميع للنطق به، العليم بمضمونه.

وكقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾[4])[5].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (ثم عَقَّبَ ذلك بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[6] أن تتعدوا ما حَدَّ لكم فإنه مُطَّلِعٌ على ما

---

(١) سورة نوح: الآية ١٠.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣٥.

(٥) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٣٥.

تُسرُّون وما تعلنون. ثم قال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾[1]. لولا مغفرته وحلمه لعَنِتُّم[2] غاية العَنَتِ فإنه ـ سبحانه ـ مطلع عليكم يعلم ما في قلوبكم ويعلم ما تعملون، فإن وقعتم في شيء مما نهاكم عنه فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار فإنه الغفور الحليم.

وهذه طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء وأسماء المخافة، كقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾[3]. وقال أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[4]. لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم قالوا: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[5]. وفي هذا معنى التعليل؛ أي: بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات؛ وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾[6]. فهذا جزاء لشكرهم؛ أي: إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شَكَرَهُ مِمَّن كَفَرَهُ.

والقرآن مملوءٌ من هذا، والمقصود التنبيه عليه)[7].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣٥.

(٢) العَنَتُ: يُطلق على المشقة والإثم والهلاك والحرج والضرر والفساد.
انظر: وضح البرهان في مشكلات القرآن للنيسابوري ٢/ ٣١٢، تذكرة الأريب في تفسير الغريب لابن الجوزي ٢/ ١٧٠، تفسير غريب القرآن لابن الملقن ص٣٩٣.

(٣) سورة المائدة: الآية ٩٨.

(٤) سورة فاطر: الآية ٣٤.

(٥) سورة فاطر: الآية ٣٤.

(٦) سورة النساء: الآية ١٤٧.

(٧) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨١ ـ ٢٨٢.

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة من وجهٍ آخر؛ فقال: (وأيضاً: فإنه ــ سبحانه ــ يستدل بأسمائه على توحيده؛ ونفي الشرك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك، كقول هارون لعِبَدَة العجل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾(١). وقوله ــ سبحانه ــ في القصة: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾(٣). وقوله ــ سبحانه ــ في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾(٤).

فسبح: نَزَّه نفسه عن شرك المشركين به؛ عقب تَمَدُّحِه بأسمائه الحسنى المقتضية لتوحيده؛ واستحالة إثبات شريك له.

ومن تدبَّر هذا المعنى في القرآن: هبط به على رياضٍ من العلم حماها الله عن كلِّ أفَّاكٍ معرضٍ عن كتاب الله واقتباس الهدى منه، ولو لم يكن في كتابنا هذا إلا هذا الفصل وحده لكفى من له ذوق ومعرفة والله الموفق للصواب)(٥).

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة من وجهٍ آخر؛ فقال: (وأيضاً: فإن الله تعالى يُعَلِّق بأسمائه المعمولات من الظروف والجار

---

(١) سورة طه: الآية ٩٠.

(٢) سورة طه: الآية ٩٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٣.

(٤) سورة الحشر: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.

(٥) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٢ ــ ٢٨٣.

والمجرور وغيرهما، ولو كانت أعلاماً محضة لم يصح فيها ذلك، كقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾[1]. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾[2]. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾[3]. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[4]. ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾[5]. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾[6]. ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾[7]. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾[8]. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾[9]. ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾[10]. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾[11]. ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾[12] ونظائره كثيرة)[13].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢، سورة النساء: الآية ١٧٦، سورة النور: الآيتان ٣٥؛ ٦٤، سورة الحجرات: الآية ١٦، سورة التغابن: الآية ١١.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٩٥؛ ٢٤٦، سورة التوبة: الآية ٤٧، سورة الجمعة: الآية ٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.

(٥) سورة التوبة: الآية ١١٧.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٨٤، سورة آل عمران: الآيتان ٢٩؛ ١٨٩، سورة المائدة: الآيات ١٧؛ ١٩؛ ٤٠، سورة الأنفال: الآية ٤١، سورة التوبة: الآية ٣٩، سورة الحشر: الآية ٦.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٩.

(٨) سورة النساء: الآية ٣٩.

(٩) سورة الكهف: الآية ٤٥.

(١٠) سورة هود: الآية ١١١.

(١١) سورة الحجرات: الآية ١٨.

(١٢) سورة الشورى: الآية ٢٧.

(١٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٣.

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة من وجهٍ آخر؛ فقال: (وأيضاً: فإنه ــ سبحانه ــ يجعل أسماءه دليلاً على ما يُنكره الجاحدون من صفات كماله، كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1])[2].

فهذه جملة الأوجه التي سردها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا السياق؛ مُستدلاً بها على أن أسماء الله تعالى أعلامٌ وأوصافٌ، وأن العلمية فيها لا تُنافي الوصفية.

وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ في سياق آخر جملة من الأوجه الدالة على هذه القاعدة؛ والمفقِّهة في حكمها، فقال: (إن أسماء الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ دالةٌ على صفات كماله؛ فهي مشتقةٌ من الصفات، فهي أسماءٌ وهي أوصافٌ؛ وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى؛ ولا كانت دالة على مدحٍ ولا كمالٍ، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان؛ وبالعكس، فيقال: اللّٰهُمَّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم، واللّٰهُمَّ أعطني فإنك أنت الضارُّ المانع، ونحو ذلك، ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[3])[4].

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة من وجهٍ آخر؛ فقال: (لأنها لو لم تدل على معانٍ وأوصافٍ لم يجز أن يُخبر عنها بمصادرها ويُوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها؛ وأثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله،

---

(١) سورة الملك: الآية ١٤.

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٣.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٦ ــ ٣٧.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾[1]. فعلم أن القوي من أسمائه، ومعناه: الموصوف بالقُوَّة. وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[2]. فالعزيز: من له العِزَّة، فلولا ثبوت القُوَّة والعِزَّة له لم يُسَمَّ قوياً ولا عزيزاً، وكذلك قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[3]، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[4]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾[5].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار؛ وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور؛ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[6]. فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه البصير.

وفي صحيح البخاري عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»[7]. وفي الصحيح ــ حديث الاستخارة ــ:

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٣) سورة النساء: الآية ١٦٦.

(٤) سورة هود: الآية ١٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) ذكره البخاري معلقاً في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝١٣٤﴾ ــ ٥/٢٣٠٦]، وقد وصله ابن حجر العسقلاني في [تغليق التعليق على صحيح البخاري ٥/٣٣٨ ــ ٣٣٩].
وقد أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٤١٩٥) ــ ٤٠/٢٢٨]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب الطلاق/ باب الظهار ــ الحديث رقم (٥٦٢٥) ــ ٥/٢٧٦]، وفي المجتبى [كتاب الطلاق/ باب الظهار ــ الحديث رقم (٣٤٦٠) ــ ٦/ ٤٨٠]، وابن ماجه في سننه [المقدمة/ باب فيما أنكرت =

«اللَّـهُمَّ إني أستخيرك بعلمك؛ وأستقدرك بقدرتك»[1]. فهو قادرٌ بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[2]. فهو متكلمٌ بكلامٍ.

وهو العظيم الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه ﷺ: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري؛ والكبرياء ردائي»[3].

وهو الحكيم الذي له الحُكْم، ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾[4])[5].

= الجهمية ـ الحديث رقم (١٨٨) ـ ١/ ١٢٢ ـ ١٢٣].
وصححه الألباني في [صحيح سنن ابن ماجه: الحديث رقم (١٥٦) ـ ١/ ٨٠ ـ ٨١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التهجد/ باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى ـ الحديث رقم (١١٦٢) ـ ١/ ٣٤٦] من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الكبر ـ الحديث رقم (٢٦٢٠) ـ ٤/ ٢٠٢٣] من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ، ولفظه: «العِزُّ إزاره؛ والكبرياء رداؤه».
وأخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٨٨٩٤) ـ ١٤/ ٤٧٣]، وأبو داود في سننه [كتاب اللباس/ باب ما جاء في الكبر ـ الحديث رقم (٤٠٩٠) ـ ٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥١]، وابن ماجه في سننه [كتاب الزهد/ باب البراءة من الكبر والتواضع ـ الحديث رقم (٤١٧٤) ـ ٤/ ٤٥٧] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وكذا أخرجه ابن ماجه في سننه [كتاب الزهد/ باب البراءة من الكبر والتواضع ـ الحديث رقم (٤١٧٥) ـ ٤/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨] من حديث عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، بلفظ: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي؛ والعظمة إزاري».

(٤) سورة غافر: الآية ١٢.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٧ ـ ٣٨.

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة من وجهٍ آخر؛ فقال: (أجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله أو سمعه أو بصره أو قوته أو عزته أو عظمته: انعقدت يمينه؛ وكانت مكفرة، لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه)[1].

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة من وجهٍ آخر؛ فقال: (وأيضاً: لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات: لم يسغ أن يُخبر عنه بأفعالها، فلا يُقال: يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد، فإن ثبوت أحكام الصفات: فرعُ ثبوتِها، فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها)[2].

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه القاعدة من وجهٍ آخر؛ فقال: (وأيضاً: فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف: لكانت جامدة؛ كالأعلام المحضة التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به، فكانت كلُّها سواءٌ، ولم يكن فَرْقٌ بين مدلولاتها، وهذا مكابرةٌ صريحةٌ وبهتٌ بيِّنٌ، فإن من جعل معنى اسم القدير هو معنى اسم السميع البصير؛ ومعنى اسم التواب هو معنى اسم المنتقم؛ ومعنى اسم المعطي هو معنى اسم المانع: فقد كابر العقل واللغة والفطرة)[3].

فهذه جملة الأوجه التي ساقها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا الموطن؛ مقرِّراً بها أن العلمية في أسماء الله ــ سبحانه وتعالى ــ لا تُنافي الوصفية.

ومن جملة ما قرَّره الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨.
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨.
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨.

هذه القاعدة: أن أسماء الله تعالى وإن كانت كلُّها أعلاماً وأوصافاً؛ إلا أن من هذه الأسماء الحسنى: ما يَرِدُ ورود الاسم العلم؛ مفرداً غير تابع، ومنها: ما لا يَرِدُ مفرداً؛ بل تابعاً لغيره من أسماء الله تعالى، فقال: (أسماء الربِّ تعالى: هي أسماءٌ ونعوتٌ، فإنها دالةٌ على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه؛ لا تنافي اسميتُه وَصْفِيَّتَه، فمن حيث هو صفةٌ جرى تابعاً على اسم الله، ومن حيث هو اسمٌ ورد في القرآن غير تابع؛ بل ورود الاسم العلم، ولما كان هذا الاسم مختصاً به تعالى: حسن مجيئه مفرداً غير تابع؛ كمجيء اسم الله كذلك، وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن؛ كاسم الله تعالى، فإنه دال على صفة الألوهية؛ ولم يجيء قط تابعاً لغيره؛ بل متبوعاً.

وهذا بخلاف العليم والقدير؛ والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة؛ بل تابعة، فتأمل هذه النكتة البديعة؛ يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة؛ لا ينافي أحدُهما الآخرَ، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً)[1].

وقد بيَّن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض اللوازم المترتبة على نفي دلالة أسماء الله الحسنى على العلمية والوصفية، فمن ذلك:

١ ــ الإلحاد في أسماء الله الحسنى؛ وجعلها أعلاماً لا أوصاف لها، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ : (حقيقة هذا أن أسماءه تعالى ألفاظ فارغة عن المعاني لا حقائق لها وهذا من الإلحاد فيها وإنكار أن يكون حسنا وقد قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٢٣.

﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٨٠﴾[1].

وقد دلَّ القرآن والسنة على إثبات مصادر هذه الأسماء له ـ سبحانه ـ وصفاً كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[2]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ٥٨﴾[3]. وقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[4].

وقوله ﷺ: «لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[5]. وقول عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»[6]. وقوله ﷺ: «أعوذ برضاك من سخطك»[7]. وقوله: «أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق»[8]. وقوله: «أعوذ بعِزَّتك أن تُضلَّني»[9].

ولولا هذه المصادر لانتفت حقائق الأسماء والصفات والأفعال، فإن أفعاله عن صفاته، وأسماؤه عن أفعاله وصفاته، فإذا لم يقم به فعل

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

(٤) سورة هود: الآية ١٢.

(٥) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام».

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) تقدم تخريجه، ولفظه: «اللَّـهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

(٨) تقدم تخريجه، ولفظه: «اللَّـهُمَّ إني أسألك بعلمك الغيب».

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٤﴾ ـ الحديث رقم (٧٣٨٣) ـ ٥/ ٢٣٠٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب التعوذ من شرِّ ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل ـ الحديث رقم (٢٧١٧) ـ ٤/ ٢٠٨٦] من حديث عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، واللفظ لمسلم، وأوله: «اللَّـهُمَّ لك أسلمت وبك آمنت».

ولا صفة: فلا معنى للاسم المجرَّد، وهو بمنزلة صوتٍ لا يفيد شيئاً، وهذا غاية الإلحاد)[1].

٢ ــ كون الذوات التي قامت بها العلمية والوصفية ــ عند من نفى ذلك ــ أكمل من ذات الله ــ سبحانه وتعالى ــ العليَّة؛ التي قامت بها العلمية دون الوصفية، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الله ــ سبحانه ــ اسمٌ للذات المتصفة بكمال العلم والقدرة والحياة والمشيئة وسائر صفات الكمال، ليس اسماً لذات مجردة عن الأوصاف والنعوت، فكُلُّ ذاتٍ أكمل من هذه الذات ــ تعالى الله عن قول الملحدين في أسمائه وصفاته علوًّا كبيراً ــ)[2].

فهذه جملة ما انتخب من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لتقرير قاعدة: دلالة أسماء الله تعالى على العلمية والوصفية[3].



(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٤٠ ــ ٧٤١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٨٤.

(٣) وانظر: تحفة المودود بأحكام المولود ص١٢١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٧٤٥، ومختصره ٢/٣٤٣، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيتان رقم (٣٤١٢؛ ٥٧٨٤)].

المبحث الثامن:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (أسماء الله الحسنى لها اعتبار من حيث الذات واعتبار من حيث الصفات)

تقدَّم في القاعدة السابقة: أنَّ أسماء الله الحسنى أعلامٌ وأوصافٌ، فأسماء الله تعالى أعلامٌ باعتبار: دلالتها على الذات العليَّة المقدَّسة، وأوصافٌ باعتبار: ما دلَّت عليه من المعاني العظيمة.

فهي بالاعتبار الأول: مترادفةٌ ــ وهي: ما اختلفت في ألفاظها واتَّحدت في مدلولها[1] ــ ؛ لدلالتها على مسمى واحدٍ؛ وهو الله ــ عزَّ وجلّ ــ .

وهي بالاعتبار الثاني: متباينةٌ ــ وهي: ما اختلفت في ألفاظها ومعانيها[2] ــ ؛ لدلالة كلٍّ واحدٍ منها على معناه الخاص.

---

(١) قال عبد الله العلوي في منظومته الأصولية: [مرتقى الوصول إلى الضروريِّ من الأصول]:
(وما يُرى لنوعٍ ذا يُخالفْ كالبُرِّ والقمحِ: هو المرادفْ).
انظر: بلوغ السول وحصول المأمول على مرتقى الوصول إلى معرفة علم الأصول للولاتي ١/ ٣٣.

(٢) قال عبد الله العلوي في منظومته الأصولية: [مرتقى الوصول إلى الضروريِّ من الأصول]:
=

مثال ذلك: أن (الله ـ سبحانه ـ أخبرنا أنه: ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝﴾[1]؛ ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝﴾[2]؛ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾[3] إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته، فنحن نفهم معنى ذلك، ونميِّز بين العلم والقدرة؛ وبين الرحمة والسمع والبصر، ونعلم أن الأسماء كلَّها اتفقت في دلالتها على ذات الله؛ مع تنوّع معانيها، فهي متفقةٌ متواطئةٌ من حيث الذات، متباينةٌ من جهة الصفات)[4].

وما تضمنته هذه القاعدة العظيمة مبنيٌّ على معتقد أهل السنة والجماعة ـ السالف الذكر ـ : أن أسماء الله الحسنى أعلامٌ

= (اللَّفظُ والمعنى إذا تَعَدَّدا   معا تَبَايَنَ كـ: رَاحَ واغْتَدَا).
انظر: بلوغ السول وحصول المأمول على مرتقى الوصول إلى معرفة علم الأصول للولاتي ١/ ٣١.

(١) سورة النحل: الآية ٧٠، سورة الشورى: الآية ٥٠.

(٢) سورة الحج: الآيتان ٦١؛ ٧٥، سورة لقمان: الآية ٢٨، سورة المجادلة: الآية ١.

(٣) سورة البقرة: الآيات ١٧٣؛ ١٨٢؛ ١٩٢؛ ١٩٩؛ ٢١٨؛ ٢٢٦، سورة آل عمران: الآيات ٣١؛ ٨٩؛ ١٢٩، سورة النساء: الآية ٢٥، سورة المائدة: الآيات ٣؛ ٣٤؛ ٣٩؛ ٧٤؛ ٩٨، سورة الأنعام: الآيتان ٥٤؛ ١٤٥، سورة الأنفال: الآيتان ٦٩؛ ٧٠، سورة التوبة: الآيات ٥؛ ٢٧؛ ٩١؛ ٩٩؛ ١٠٢، سورة يوسف: الآية ٥٣، سورة إبراهيم: الآية ٣٦، سورة النحل: الآية ١١٥، سورة النور: الآيات ٥؛ ٢٢؛ ٣٣؛ ٦٢، سورة النمل: الآية ١١، سورة فصلت: الآية ٣٢، سورة الحجرات: الآيتان ٥؛ ١٤، سورة الحديد: الآية ٢٨، سورة المجادلة: الآية ١٢، سورة الممتحنة: الآيتان ٧؛ ١٢، سورة التغابن: الآية ١٤، سورة التحريم: الآية ١، سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٤) القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/ ٥٩ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

وأوصافٌ[1].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه القاعدة العظيمة من قواعد الأسماء الحسنى؛ مبيناً أن أسماء الله تعالى متعددةٌ (باعتبار صفاتها، ومسماها واحدٌ باعتبار الذات، فهي مترادفةٌ من هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات؛ فهي متباينةٌ من هذا الوجه)[2].

وقد نصَّ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على هذه القاعدة العظيمة بقوله: (إن أسماءه الحسنى لها اعتباران: اعتبارٌ من حيث الذات؛ واعتبارٌ من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفةٌ، وبالاعتبار الثاني متباينةٌ)[3].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ فقه هذه القاعدة بقوله: (الأسماء الدالة على مسمى واحدٍ نوعان:

أحدهما: أن يدلَّ عليه باعتبار الذات فقط، فهذا النوع هو المترادف ترادفاً محضاً، وهذا كالحنطة والقمح والبُرِّ والاسم والكنية واللقب؛ إذا لم يكن فيه مدحٌ ولا ذمٌ؛ وإنما أُتِيَ به لمجرد التعريف.

والنوع الثاني: أن يدلَّ على ذات واحدةٍ باعتبار تباين صفاتها، كأسماء الربِّ تعالى وأسماء كلامه وأسماء نبيه وأسماء اليوم الآخر، فهذا النوع مترادفٌ بالنسبة إلى الذات؛ متباينٌ بالنسبة إلى الصفات.

---

(1) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص١١، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص٢٤٣ ــ ٢٥٠، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي ص٤١٩ ــ ٤٢١، أسماء الله الحسنى للغصن ص٥٣ ــ ٥٤، اسم الله الأعظم للدكتور الدميجي ص٤٤.

(2) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص١٣١.

(3) بدائع الفوائد ١/١٤٧.

فالربُّ والرحمن والعزيز والقدير والملك يدلُّ على ذاتٍ واحدةٍ باعتبار صفاتٍ متعددةٍ.

وكذلك البشير والنذير والحاشر والعاقب والماحي، وكذلك يوم القيامة ويوم البعث ويوم الجمع ويوم التغابن ويوم الآزفة ونحوها، وكذلك القرآن والفرقان والكتاب والهدى ونحوها)[١].

وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى القولـيْن اللَّذيْن يتجاذبان طرفيْ هذه المسألة؛ موضحاً حقيقة هذا النزاع الواقع بين أرباب هذيْن القولـيْن؛ ومبيِّناً الراجح منهما، بقوله: (اختلف النُظَّارُ[٢] في هذه الأسماء: هل هي متباينة ـ نظراً إلى تباين معانيها؛ وأنَّ كلَّ اسمٍ يدلُّ على غير ما يدلُّ عليه الآخر ـ ، أم هي مترادفة ـ لأنها تدلُّ على ذاتٍ واحدةٍ، فمدلولها لا تعدُّد فيه؛ وهذا شأن المترادفات ـ ؟

والنزاع لفظيٌّ في ذلك، والتحقيق أن يقال: هي مترادفةٌ بالنظر إلى الذات، متباينةٌ بالنظر إلى الصفات)[٣].

فهذه خلاصة تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذه القاعدة العظيمة المقرِّرة لحكم من أحكام أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٧١.

(٢) لعلَّ المقصود بالنظَّار: هم المتناظرون، لأن هذا اللفظ يُطلق في الاصطلاح ويراد به ما ذكره التهانوي في [كشاف اصطلاحات الفنون ٢٠٨/٤] بقوله: (النظر من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب. وقيل: توجُّه الخصمين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب. أي: توجُّه المتخاصمين الَّذَيْنِ مطلب أحدهما غير مطلب الآخر إذا توجَّها في النسبة؛ وإن كان ذلك التوجُّه في النفس).

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٣ ـ ٢٨٤.

الدالِّ على كمالها وجمالها وجلالها، فكلُّ اسمٍ من أسماء الله الحسنى دالٌّ على ذاتٍ واحدةٍ باعتبار صفاتٍ متعددةٍ، (فهو الله الذي: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾[1]؛ ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾[2]، وكلُّ اسمٍ له صفةٌ، وللصفة حكمٌ، فهو ـ سبحانه ـ واحد الذات؛ كثيرُ الأسماءِ والصفات)[3].

❑ ❑ ❑

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٣.

(٢) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٧٨.



المبحث التاسع:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (وجوب مجانبة الإلحاد في أسماء الله الحسنى)

إنَّ هذه القاعدة المقرَّرة لوجوب مجانبة الإلحاد في أسماء الله الحسنى: من أعظم قواعد هذا الفصل، وقد حَمَى بها أهل السنة والجماعة جنابَ أسماء الله الحسنى؛ وسدُّوا بها على أهل البدعة والشناعة كلَّ طريقٍ يُفضي إلى الإلحاد فيها[(١)].

وقد حَسُنَ أن يُخْتَمَ هذا الفصلُ المختصُّ بقواعد أسماء الله الحسنى ـ الذي من تأمَّله (وتفقَّه فيه: عَلِمَ شدَّةَ الحاجة إليه؛ وعظم الانتفاع به)[(٢)] ـ بهذه القاعدة العظيمة: لأن هذه القاعدةَ جامعةٌ لمعاني جميع ما تقدَّمها من

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية للسفاريني ١/١٢٨، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول للحكمي ١/١٢٨ ـ ١٢٩، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص٢٦، الصفات الإلهية في الكتاب والسنة للجامي ص٣٦٠ ـ ٣٦٢، الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة للدكتور الأشقر ص١٣٧ ـ ١٤٠، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور التميمي ص٤٧٥ ـ ٤٨٠، أسماء الله الحسنى للغصن ص١٠٧ ـ ١١١.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٥٢٧.

قواعد هذا الفصل، فمن فقه هذه القواعد وعمل بحكمها: فقد جانب الإلحاد في أسماء الله الحسنى؛ لأن من اعتقد أن أسماء الله تعالى حسنى؛ لا شيء أحسن منها، وأنها لا تدخل تحت حصرٍ ولا تُحدُّ بعددٍ، وأنها أعلامٌ وأوصافٌ ــ إلى غير ذلك من القواعد المتقدم ذكرها؛ والمُقرَّر حكمها ــ؛ واعتقد أحكامها ولوازمها: فقد جانب الإلحاد في أسماء الله تعالى.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه القاعدة العظيمة من قواعد أسماء الله الحسنى، حيث أشار إلى أهميتها؛ وبيَّن أنها القاعدة الجامعة لجميع قواعد أسماء الله الحسنى، فقال: (الجامعة لما تقدم من الوجوه: وهي معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[1])[2].

وبعد أن قدَّم الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بمقدمةٍ موجزةٍ في بيان أهمية هذه القاعدة العظيمة من قواعد أسماء الله الحسنى: شَرَعَ في بيان معنى الإلحاد لغةً وشرعاً، فقال: (والإلحاد في أسمائه: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل؛ كما يدل عليه مادته: (ل. ح. د)[3].

فمنه: اللحد؛ وهو: الشَّقُّ في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه: الملحد في الدين؛ المائل عن الحقِّ إلى الباطل.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٥٣.

(٣) انظر: كتاب العين للفراهيدي ٣/ ١٨٣، الصحاح للجوهري ٢/ ٥٣٤ ــ ٥٣٥، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده ٣/ ١٩٤.

قال ابن السِّكِّيت[1]: (الملحد: المائل عن الحق؛ المدخل فيه ما ليس منه)[2].

ومنه: الملتحد؛ وهو مفتعل من ذلك، وقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧ ﴾[3]. أي: من تعدل إليه؛ وتهرب إليه؛ وتلتجيء إليه وتبتهل؛ فتميل إليه عن غيره.

تقول العرب: التحد فلانٌ إلى فلانٍ؛ إذا عدل إليه)[4].

ثم أخذ ــ رحمه الله تعالى ــ يُبيِّن أنواع الإلحاد الواقع في أسماء الله الحسنى[5]، بقوله: (إذا عُرِفَ هذا: فالإِحاد في أسمائه تعالى أنواعٌ:

أحدها: أن يُسمي الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإلـهية؛ والعُزَّى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهاً، وهذا إلحادٌ حقيقةٌ، فإنهم عدلوا بأسمائه

---

(١) هو: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السِّكِّيت البغدادي، شيخ العربية، توفي يوم الاثنين لخمس خلون من شهر رجب سنة ثلاث وأربعين ومائتين.
انظر في ترجمته: معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢٠/ ٥٠ ــ ٥٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢/ ١٦ ــ ١٩، بغية الوعاة في تراجم اللغويين والنحاة للسيوطي ٢/ ٣٤٩.

(٢) حكاه الأزهري في [تهذيب اللغة ٤/ ٤٢١] عن الحرانيِّ عنه.

(٣) سورة الكهف: الآية ٢٧.

(٤) بدائع الفوائد ١/ ١٥٣.

(٥) جمع الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا الموطن: أنواع الإلحاد في أسماء الله الحسنى، كما وقعت الإشارة إلى بعض هذه الأنواع في مواضع متفرقة من كتبه.
انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٥٧ ــ ٧٥٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢١٧، ومختصره ٢/ ٣٤٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨ ــ ٣٩.

إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً؛ وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته[1] أو علَّة فاعلة[2] بالطبع؛ ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾[3]. وأمثال ذلك مما هو إلحادٌ في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها؛ وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظٌ مجرَّدةٌ؛ لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله؛ وجحدوها وعطَّلوها، فكلاهما ملحدٌ في أسمائه، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب.

وكلٌّ من جحد شيئاً عما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله: فقد ألحد في ذلك، فليستقلَّ أو ليستكثر.

---

(١) قال الجرجاني في كتابه [التعريفات ص ٣٠٥] في بيان المراد بالموجب بذاته: (هو الذي يجب أن يصدر عنه الفعل إن كان علة تامة له من غير قصد وإرادة، كوجوب صدور الإشراق عن الشمس، والإحراق عن النار).

(٢) قال الجرجاني في كتابه [التعريفات ص ٢٠٢] في بيان المراد بالعلة الفاعلة: (ما يوجد الشيء بسببه).

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٤.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه ــ تعالى الله عما يقول المشبهون علوًّا كبيراً ــ .

فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبَّهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد؛ وتفرَّقت بهم طرقه)[1].

ثم ختم ــ رحمه الله تعالى ــ كلامه ببيان براءة أهل السنة والجماعة من الإلحاد في أسماء الله الحسنى الذي وقع فيه أهل البدعة والشناعة، فقال: (وبرَّأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كلِّه، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه؛ ولم يجحدوا صفاته؛ ولم يشبِّهوها بصفات خلقه؛ ولم يعدلوا بها عما أُنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات؛ ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه؛ وتنزيههم خلياً من التعطيل، لا كمن شبَّه حتى كأنَّه يعبد صنماً، أو عطَّل حتى كأنَّه لا يعبد إلا عدماً.

وأهل السنة وسطٌ في النحل؛ كما أن أهل الإسلام وسطٌ في الملل، تُوقد مصابيح معارفهم ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[2].

فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره؛ ويُسهِّل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله، إنه قريبٌ مجيبٌ)[3].

ولما كان قول الله ــ سبحانه وتعالى ــ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[4]؛ هو عمدة

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٥٣ ــ ١٥٤.

(٢) سورة النور: الآية ٣٥.

(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٥٤.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

الأدلة التي قرَّر به أهل السنة والجماعة هذه القاعدة العظيمة من قواعد أسماء الله الحسنى: فقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ببيان تفسيرها من كلام حبر الأمة وترجمان القرآن ـ رضي الله عنهما ـ، فقال: (روي عن ابن عباس: ﴿ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾[1]: يكذبون عليه)[2]. وهذا تفسيرٌ بالمعنى.

وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها؛ وإدخال ما ليس من معانيها فيها؛ وإخراج حقائق معانيها عنها، هذا حقيقة الإلحاد، ومن فعل ذلك فقد كذب على الله.

ففسَّر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها؛ وخرج بها عن حقائقها أو بعضها: فقد عدل بها عن الصواب والحق؛ وهو حقيقة الإلحاد)[3].

وهذا الإلحاد الواقع في أسماء الله الحسنى؛ والذي حذَّر الله تعالى منه يتضمن أمرين:

الأمر الأول: الإلحاد في مبانيها.

الأمر الثاني: الإلحاد في معانيها.

وقد بيَّن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذين الأمرين بقوله: (إن الإلحاد: إما أن يكون بإنكار لفظ الاسم، أو بإنكار معناه)[4].

والإلحاد وإن كان يتضمن الإلحاد في المبنى وفي المعنى: إلا أن (نفي

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٢) أخرجه الطبري في [جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٩/ ١٣٤]، وابن أبي حاتم في [تفسير القرآن العظيم] ٥/ ١٦٢٣.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٩.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٢.

معاني أسمائه من أعظم الإلحاد)[1] جرماً؛ وأشدهما إثماً، لأن الإلحاد في ألفاظ أسماء الله تعالى: لا يخفى وجه فساده على ذوي البصيرة والبصر، بخلاف الإلحاد في معانيها: فإنه قد ينطلي وجه فساده على ذوي الجهالة والغرر.

وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ إلى ذلك بقوله: (نفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[2])[3].

وليس من الإلحاد في أسماء الله الحسنى: إثبات حقائقها إثباتاً بلا تمثيلٍ؛ وتنزيه معانيها تنزيهاً بلا تعطيلٍ، وإنما الإلحاد فيها: هو تعطيل حقائقها؛ وتحريف معانيها، وادِّعاء أنها مجازاتٌ لا حقائق ولا معاني لها، كما نبَّه الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على ذلك بقوله: (إنَّ هؤلاء المعطلة الملحدين في أسماء الرب تعالى: هم المشبهون في الحقيقة؛ لا من أثبت ألفاظها وحقائقها من غير تمثيلٍ ولا تشبيهٍ)[4].

وما نبَّه عليه بقوله: (قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[5].

ومن أعظم الإلحاد في أسمائه: إنكار حقائقها ومعانيها؛ والتصريح بأنها مجازات)[6].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٧.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٢.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٦) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٢.

ولما كانت منزلة الإلحاد في أسماء الله الحسنى في الدين من الخطورة بمكان؛ وكان الاحتجاج على الملحدين فيها؛ وإبطال حجَّتهم ودحض محجَّتهم من أوثق عرى الإيمان: فقد كان ذلك أحد الأقسام العشرة التي انقسمت إليها معاني ألفاظ القرآن الكريم، كما بيَّن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (ذكر الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن؛ وهي عشرة أقسام:

القسم الأول: تعريفه ــ سبحانه ــ نفسه لعباده بأسمائه وصفات كماله، ونعوت جلاله وأفعاله، وأنه واحد لا شريك له، وما يتبع ذلك.

القسم الثاني: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته وآثار حكمته؛ فيما خلق وذرأ في العالم الأعلى والأسفل من أنواع بريته وأصناف خليقته، محتجاً به على من ألحد في أسمائه وتوحيده، وعطله عن صفات كماله وعن أفعاله، وكذلك البراهين العقلية التي أقامها على ذلك، والأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تقدمت الإشارة إلى الشيء اليسير منها)[1].

وقد عقد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في قصيدته النونية المسماة بـ : (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية): فصلاً وسمه بـ : (بيان حقيقة الإلحاد في أسماء ربِّ العالمين؛ وذِكْرِ انقسام الملحدين)[2].

وكان مما قاله ــ رحمه الله تعالى ــ في فاتحة هذا الفصل:

(أسماؤُه أوصافُ مَدْحٍ كلُّها ... مُشتقَّة قد حُمِّلَتْ لمِعَانِ
إيَّاك والإلحادَ فيها إنَّه ... كُفْرٌ مَعَاذَ الله من كُفْرَانِ).

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٨٤.

(٢) انظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم: (٣٤١٢ ــ ٣٤٥٦) ــ ص٢٥٣ ــ ٢٥٥].

وكان مما قاله ـ رحمه الله تعالى ـ في خاتمته:

(هـذا هـو الإلحـادُ فـاحْـذَرْهُ لَعَـلَّ ... الله أنْ يُنْجِيــكَ مِــنْ نيــرانِ
وتفـوزَ بـالـزُّلَفـى لَـدَيْـه وجَنَّـة الـ ... ـمأوى مع الغُفْران والرِّضْوانِ).

وبختام تقرير هذه القاعدة: يُختتم هذا الفصل المختصُّ بقواعد أسماء الله الحسنى، وهو (فصلٌ عظيمُ النفع؛ جليلُ القدر، إنما ينتفع به من عرف)[1] أحكامه؛ وفقهها؛ وعمل بمقتضاها.

❑ ❑ ❑

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠١.






الفصل الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية
في تقرير القواعد المختصة بالصفات العلى



المبحث الأول:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير قاعدة: (صفات الله العلى كلُّها صفات كمال)

إنَّ أسماء الله تعالى لما كانت كلَّها حسنى ـ كما تقدَّم تقرير أوجه حسنها في الفصل المتقدم ـ ؛ وكان كلُّ اسمٍ من أسماء الله تعالى متضمِّناً لصفةٍ من صفات الله العلى: دلَّ ذلك على أن صفات الله تعالى كلَّها صفاتُ كمالٍ؛ لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه.

وعليه فلا بُدَّ (أن يُعلم: أن الكمال ثابتٌ لله، بل الثابت له: هو أقصى ما يُمكن من الأكملية؛ بحيث لا يكون وجود كمالٍ لا نقص فيه إلا وهو ثابتٌ للربِّ تعالى؛ يستحقُّه بنفسه المقدسة، وثبوت ذلك مستلزمٌ نفي نقيضه.

فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز.

وإنَّ هذا الكمال ثابتٌ له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية؛ مع دلالة السمع على ذلك)[1].

---

(١) الرسالة الأكملية لابن تيمية ٦/٧١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

أما دلالة السمع على أن صفات الله تعالى كلَّها صفاتُ كمالٍ: فلا تكاد تُحصى كثرة، فمن ذلك ما أثبته الله ــ عزَّ وجلّ ــ لنفسه العليّة المقدّسة من المثل الأعلى؛ كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[2].

وقد تقدمّت دلالة العقل على أن صفات الله تعالى كلَّها صفاتُ كمالٍ؛ ووجه استدلاله على ذلك بالمثل الأعلى الذي تضمَّنته هاتان الآيتان الكريمتان، وبيان أن (هذه الطريقة ــ وهو أنَّ ما يستحقُّه المخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه: فالخالق أولى به، وما يُنزَّه عنه المخلوق من العيوب المذمومة: فالخالق تعالى أولى بتنزيهه عن كلِّ عيبٍ وذمٍّ، وهو سبحانه: القدوس السلام الحميد المجيد ــ من أبلغ الطرق البرهانية، وهي مستعملةٌ في القرآن في غير موضعٍ)[3].

وكذا تقدمّت دلالة الفطرة على أن صفات الله تعالى كلَّها صفاتُ كمالٍ؛ وبيان (أن الله تعالى قد أودع في الفطرة التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل؛ ولا بالتشبيه والتمثيل: أنه ــ سبحانه ــ الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله)[4] ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ.

ولما كان معتقد أهل السنّة والجماعة ــ في هذا الباب؛ وفي غيره من

(١) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٣) النبوات لابن تيمية ٢/ ٨٩٥.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزِّ الحنفي ص٩٥.

الأبواب ــ متلقًّى عن النقول القويمة والعقول السليمة والفطر المستقيمة: كان مذهبهم في صفات الله تعالى: إثباتها على وجه الكمال[1]؛ بل واعتقاد أن (صفات الكمال لازمةٌ لذاته؛ يمتنع ثبوت ذاته بدون صفات الكمال اللازمة له)[2].

وهذا المذهب الحقُّ ــ القائم على وصف الله تعالى بالكمال ــ : مناقضٌ من كلِّ وجهٍ لمذهب المعطِّلة ومذهب الممثِّلة؛ الذين جمعهم: وصف الله تعالى بالنقص؛ (وتفرَّقت بهم طرقه.

وبرَّأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كلِّه، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته؛ ولم يشبِّهوها بصفات خلقه؛ ولم يعدلوا بها عما أُنزلت عليه ــ لفظاً ولا معنى ــ ، بل أثبتوا له الأسماء والصفات؛ ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه؛ وتنزيههم خَلِيًّا من التعطيل، لا كمن شبَّه حتى كأنَّه يعبد صنماً، أو عطَّل حتى كأنَّه لا يعبد إلا عدماً)[3].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه القاعدة العظيمة من قواعد صفات الله العلى؛ مبيناً صحة الاستدلال بها في إثبات صفات الله تعالى؛ وأنها كلَّها صفاتُ كمالٍ، ومُدلِّلاً على ذلك

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص٢٧ ــ ٢٩، الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة للدكتور الأشقر ص١٠٢ ــ ١٠٨، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور البريكان ص٧٨ ــ ٨٦، صفات الله عزَّ وجلّ الواردة في الكتاب والسنة للسقاف ص٢١.
(٢) سؤال في الاستواء والنزول هل هو حقيقة أم لا؟ وجوابه لابن تيمية ٥/٢٠٦ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].
(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٥٤.

بالدلالات الشرعية القويمة تارة، وبالدلالات العقلية المستقيمة تارة أخرى.

وقد دلَّل الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بآي كتاب الله العظيم على ثبوت هذه القاعدة العظيمة وصحَّتها؛ فقال: (قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠ ﴾[1].

فنزَّه ــ سبحانه ــ عما يصفه به كلُّ أحدٍ؛ إلا المخلصين من عباده ــ وهم: الرسل ومن تبعهم ــ.

كما قال ــ في الآية الأخرى ــ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢ ﴾[2].

فنزَّه نفسه عما يصفه به الواصفون، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وحمد نفسه؛ إذ هو الموصوف بصفات الكمال التي يستحقُّ لأجلها الحمد، ومُنزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ ينافي كمال حمده)[3].

كما دلَّل ــ رحمه الله تعالى ــ بقول رسول الله الكريم ﷺ على ذلك؛ فقال: (صفاته كلُّها صفاتُ كمالٍ، وأفعاله كلُّها حكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ؛ وخيراتٌ لا شرور فيها، كما قال النبي ﷺ: «والشرُّ ليس إليك»[4].

وإنما يقع الشرُّ في مفعولاته ومخلوقاته؛ لا في فعله ــ سبحانه ــ)[5].

---

(١) سورة الصافات: الآيتان ١٥٩ ــ ١٦٠.

(٢) سورة الصافات: الآيات ١٨٠ ــ ١٨٢.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٥ ــ ٢٧٦.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض».

(٥) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٩٧.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ أن أدلة الشرع القويمة ــ التي تضمنت إثبات هذه القاعدة العظيمة وصحَّتها ــ : قد آزرتها العقول السليمة؛ ودلَّت معها على وجوب إثبات صفات الكمال للربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ إثباتاً يمتنع معه توهُّم النقص فيها، فقال: (كلُّ صفةٍ وَصَفَ الله بها نفسه ووصفه بها رسوله: فهي صفةُ كمالٍ قطعاً، فلا يجوز تعطيل صفات كماله؛ وتأويلها بما يبطل حقائقها.

فالدليل العقلي الذي دلَّ على ثبوت الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر: دلَّ نظيرُه على ثبوت الحكمة والرحمة والرضا والغضب والفرح والضحك، والذي دلَّ على أنه فاعلٌ بمشيئته واختياره: دلَّ على قيام أفعاله به، وذلك عين الكمال المقدس.

وكلُّ صفةٍ دلَّ عليها القرآن والسنة: فهي صفةُ كمالٍ، والعقل جازم بإثبات صفات الكمال للربِّ ــ سبحانه ــ ، ويمتنع أن يصف نفسه أو يصفه رسوله بصفةٍ تُوهم نقصاً)[(١)].

وإذا تبيَّن مما تقدَّم: أن الله (ــ سبحانه ــ إنما يُوصف من كلِّ نوعٍ بأكمل ذلك النوع على وجهٍ لا يستلزم نقصاً ولا تمثيلاً)[(٢)]، وأنه (تعالى المختصُّ بصفات الكمال؛ المنعوت بنعوت الجلال، الذي ما وَسِعَتْه سماواتُه ولا أرضُه؛ وكرسيُّه وَسِعَ السماواتِ والأرضَ)[(٣)]: تقرَّر أن من جحد صفات كمال الله تعالى ــ التي لا يستحقُّها سواه ــ فقد جحد كمال الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ ، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله فيما بيَّنه الله تعالى: (بيَّن أنَّ ما وصف به نفسه هو الكمال

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٩٣.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٤٧.

(٣) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٤٩٧.

الذي لا يستحقُّه سواه، فجاحده جاحدٌ لكمال الربِّ، فإنه يُمدح بكلِّ صفةٍ وصف بها نفسه؛ وأثنى بها على نفسه؛ ومجَّد بها نفسه؛ وحمد بها نفسه، فذكرها ــ سبحانه ــ على وجه المدحة له والتعظيم والتمجيد، وتعرَّف بها إلى عباده ليعرفوا كماله وعظمته ومجده وجلاله)[1].

وقد تنوَّعت الأدلة والبراهين المبيِّنة لإثبات صفات الله العلى على وجه الكمال والجلال والجمال، وقد كان للإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ عناية بالغة في تقريرها وإيضاحها، فمن تلك الأوجه المتنوعة التي قرَّر فيها هذه القاعدة العظيمة:

١ ــ أن الله تعالى يُحِبُّ صفاته العلى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنه ــ سبحانه ــ يُحبُّ صفاته، كما قال النبي ﷺ: «اللَّـٰهُمَّ إنك عفوٌّ تُحبُّ العفو»[2]. وقال: «إنَّ الله جميلٌ يُحبُّ الجمال»[3]. و «إنَّ الله نظيفٌ يُحبُّ النظافة»[4]. و «إنَّ الله وترٌ يُحبُّ الوتر»[5]. و «إنَّ الله طيِّبٌ

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٠٩ ــ ٩١٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٥٣٨٤) ــ ٤٢/ ٢٣٦]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٨٤) ــ الحديث رقم (٣٥١٣) ــ ٥/ ٤٩٠]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب النعوت/ باب العفو ــ الحديث رقم (٧٦٦٥) ــ ٧/ ١٤٦]، وابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب الدعاء بالعفو والعافية ــ الحديث رقم (٣٨٥٠) ــ ٤/ ٢٧٣] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ .

و صححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٤٤٥].

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله طيبٌ يُحبُّ الطيِّب».

(٥) تقدم تخريجه، وأوله: «لله تسعة وتسعون اسماً».

لا يقبل إلا طيباً»[1]. وروي: (إنِّي عليمٌ أحبُّ كلَّ عليمٍ)[2].

وإذا كان يُحبُّ صفاته وهي قائمة بذاته: فكيف بمحبته لذاته؟[3]

٢ ـ أنَّ الله تعالى يُحِبُّ من اتَّصف من عباده بمقتضيات صفاته العلى؛ لأنها صفاتُ كمالٍ، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (أحبُّ الخلق إليه: من اتَّصف بمقتضيات صفاته، فإنه كريمٌ يُحِبُّ الكريم من عباده، وعالمٌ يُحِبُّ العلماء، وقادرٌ يُحِبُّ الشجعان، وجميلٌ يُحِبُّ الجمال)[4].

٣ ـ أنَّ القسمة التقديرية للصفات اقتضت أن صفات الله تعالى كلَّها عُليا؛ لأن الله تعالى موصوفٌ من الصفات بأكملها؛ وله من الكمال أكمله، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن الصفات ثلاثةُ أنواعٍ: صفاتُ كمالٍ، وصفاتُ نقصٍ، وصفاتٌ لا تقتضي كمالاً ولا نقصاً، وإن كانت القسمة التقديرية تقتضي قسماً رابعاً؛ وهو: ما يكون كمالاً ونقصاً باعتبارين.

والربُّ تعالى مُنزَّهٌ عن الأقسام الثلاثة؛ وموصوفٌ بالقسم الأول، وصفاته كلُّها صفاتُ كمالٍ محضٍ، فهو موصوفٌ من الصفات بأكملها؛ وله من الكمال أكمله.

وهكذا أسماؤه الدالَّة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها؛ ولا يُؤدِّي معناها، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمرادفٍ محضٍ؛ بل هو على سبيل التقريب والتفهيم.

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «أيها الناس؛ إن الله طيب لا يقبل الله طيباً».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٤٥٨ ـ ١٤٥٩.

(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٣.

وإذا عرفت هذا: فله من كلِّ صفةِ كمالٍ أحسنَ اسمٍ وأكملَه وأتمَّه معنى؛ وأبعدَه وأنزهَه عن شائبةِ عيبٍ أو نقصٍ، فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير؛ دون العاقل الفقيه، والسميع البصير؛ دون السامع والباصر والناظر، ومن صفات الإحسان: البَرُّ الرحيم الودود؛ دون الرقيق[1] والشفوق ونحوهما، وكذلك العلي العظيم؛ دون الرفيع الشريف، وكذلك الكريم؛ دون السخيِّ، والخالق الباريء المصوِّر؛ دون الفاعل الصانع المُشكِّل، والغفور العفوُّ؛ دون الصفوح الساتر.

وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها؛ وما لا يقوم غيره مقامه، فتأمَّل ذلك، فأسماؤه أحسن الأسماء؛ كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا تعدل عما سمَّى به نفسه إلى غيره؛ كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله إلى ما وصفه به المبطلون والمعطلون)[2].

٤ ــ أن كلَّ صفةٍ من صفات الله العلى فهي صفةُ كمالٍ؛ سواء جاءت مفردةً أو مقترنةً بغيرها من الصفات، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في بيانه لأحد الأقسام التي تجري صفة على الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ : (صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدرٌ زائدٌ على مفرديهما،

---

(١) في النسخ المطبوعة وجل النسخ المخطوطة (الرفيق) ــ بالفاء ــ ، والصواب (الرقيق) ــ بالقاف ــ ، ومما يدل على صحة ما هو مثبت أمران:
الأول: وجود ما هو مثبت في بعض النسخ الخطية.
الثاني: أن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ عدَّ اسم (الرفيق) من أسماء الله الحسنى كما سيأتي ذلك بمشيئة الله تعالى في مبحث جهوده في تقرير تعيين الأسماء الحسنى وذكر أدلة ثبوتها وبيان معانيها.
(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٥٢.

نحو: الغني الحميد؛ العفو القدير؛ الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة؛ والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى: صفة كمال؛ والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه؛ وثناء من حمده؛ وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير؛ والحميد المجيد؛ والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف)[1].

٥ ــ أنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ إنما امتنع عليه مماثلة أحدٍ من خلقه لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحقَّ الحمد، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2]: لكمال صفاته؛ التي بكمالها وقيامها به لم يكن كمثله شيء، و ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[3]: لكمال حكمته وحمده)[4].

٦ ــ أنَّ الله تعالى إنما استحقَّ أن يُمدح بصفاته العلى؛ لأنها صفاتُ كمالٍ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (لما جمع ــ سبحانه ــ صفات الكمال كلَّها: كان أحقَّ بالمدح من كلِّ أحدٍ، ولايبلغ أحدٌ أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه؛ وأثنى على نفسه)[5].

٧ ــ أنَّ الله تعالى إنما كان محموداً بكلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ؛ لأنه قد اتَّصف بصفات الكمال جميعها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن إثبات الحمد الكامل له يقتضي: ثبوت كلِّ ما يُحمد عليه من صفات كماله ونعوت جلاله، إذ من عُدِمَ صفات الكمال: فليس بمحمود على الإطلاق، وغايته أنه

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٤٥ ــ ١٤٦.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٧.

(٥) الداء والدواء ص١٠٨.

محمودٌ من وجهٍ دون وجهٍ، ولا يكون محموداً بكلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ بجميع أنواع الحمد: إلا من استولى على صفات الكمال جميعها، فلو عُدِمَ منها صفةً واحدةً: لنقص من حمده بحسبها، وكذلك في إثبات صفة الرحمة له ما يتضمن إثبات الصفات التي تستلزم من الحياة والإرادة والقدرة والسمع والبصر وغيرها، وكذلك صفة الربوبية تستلزم جميع صفات الفعل، وصفة الإلـٰهية تسلتزم جميع أوصاف الكمال ذاتاً وأفعالاً كما تقدم بيانه.

فكونه محموداً إلـٰهاً ربًّا رحماناً رحيماً ملكاً؛ معبوداً مستعاناً هادياً منعماً؛ يرضى ويغضب مع نفي قيام الصفات به: جمعٌ بين النقيضين؛ وهو من أمحل المحال، وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين:

أحدهما: أنها من لوازم كماله المطلق، فإن استواءه على عرشه من لوازم عُلُوِّه، ونزوله كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا في نصف الليل الثاني من لوازم رحمته وربوبيته، وهكذا سائر الصفات الخبرية.

الوجه الثاني: أن السمع ورد بها ثناء على الله ومدحاً له وتعرُّفاً منه إلى عباده بها، فجحدها وتحريفها عما دلَّت عليه وعمَّا أُريد بها: مناقضٌ لما جاءت به.

فلك أن تستدلَّ بطريق السمع على أنها كمالٌ؛ وأن تستدلَّ بالعقل كما تقدم)[1].

٨ ــ أن صفات الله تعالى لما كانت كلُّها صفات كمالٍ؛ كان حمد الله تعالى عليها هو أحد نوعيْ حمده ــ سبحانه وتعالى ــ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (كلُّ صفةٍ عُليا واسمٍ حسنٍ وثناءٍ جميلٍ؛ وكلُّ حمدٍ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧٥ ــ ٧٦.

ومدحٍ وتسبيحٍ وتنزيهٍ وتقديسٍ وجلالٍ وإكرام: فهو لله ــ عزَّ وجلّ ــ على أكملِ الوجوه وأتمِّها وأدومها، وجميع ما يُوصف به ويُذكر به ويُخبر عنه به فهو: محامدُ له وثناءٌ وتسبيحٌ وتقديسٌ.

فسبحانه وبحمده لا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناء عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه؛ وفوق ما يُثني به عليه خلقه، فله الحمد أولاً وآخراً؛ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغي لكرم وجهه وعِزِّ جلاله؛ ورفيع مجده وعُلُوِّ جَدِّه.

فهذا تنبيهٌ على أحد نوعيْ حمده؛ وهو حمدُ الصفات والأسماء.

والنوع الثاني: حمدُ النعم والآلاء)[1].

٩ ــ أن الله تعالى لما قامت به صفات الكمال ونعوت الجلال: تعذَّر على خلقه أن يُحصوا ثناءً عليه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (أما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال؛ والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دلَّ على هذا شيئان: مجملٌ ومفصلٌ.

أما المجمل: فإثبات الحمد له ــ سبحانه ــ .

وأما المفصل: فذكر صفة الإلـٰهية والربوبية والرحمة والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله ونعوت جلاله؛ مع محبته والرضا عنه والخضوع له، فلا يكون حامداً من جَحَدَ صفات المحمود؛ ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر: كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله: نقص من حمده بحسبها.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٤٢.

ولهذا كان الحمد لله حمداً لا يحصيه سواه؛ لكمال صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناء عليه؛ لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لا يُحصيها سواه)[1].

وفقه هذه القاعدة وفهمها يُورث العبد إفراد الله تعالى بالحبِّ، لأنه إذا كانت صفاتُ الله تعالى صفاتِ كمالٍ ونعوتُه نعوتُ جلالٍ: كان هو المستحقُّ وحده لأن يُحبَّ لذاته، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في داعِيِيْ الجمال والجلال: (الربُّ تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يُحبُّ الجمال، بل الجمال كلُّه له، والإجلال كلُّه منه، فلا يستحقُّ أن يُحبَّ لذاته من كلِّ وجهٍ سواه)[2].

فهذه نقولٌ منتخبةٌ من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ؛ قرَّر فيها هذه القاعدة العظيمة من قواعد صفات الله العلى، وله ــ رحمه الله تعالى ــ نظير هذا التقرير في مواطن أخرى من كتبه النافعة؛ ورسائله الماتعة[3].

وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ إلى هذه القاعدة العظيمة في قصيدته النونية بقوله:

(الكاملُ الأوصافِ من كلِّ الوجو ... ه كمالُه ما فيه من نُقْصَانِ)[4].

❑ ❑ ❑

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٣.

(٢) الداء والدواء ص٣٥١.

(٣) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٤٨٥، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٢٧٥٣ ــ ٢٧٥٧؛ ٣٠٦٠ ــ ٣٠٧١؛ ٤٨٤٤)]، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢١؛ ٢٢٩.

(٤) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٣٠٩) ــ ص٢٤٦].

المبحث الثاني:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (القول في الصفات كالقول في الذات)

إنَّ مِنَ القواعد المُقرَّرة في إثبات صفات الله تعالى: قاعدة (الكلام في الصفات: فرعٌ على الكلام في الذات، يحتذي حذوه؛ ويُتَّبع فيه مثاله)[1].

وتوضيح هذه القاعدة العظيمة من قواعد صفات الله العلى: (أنَّ الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2] لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فإذا كان له ذاتٌ حقيقةٌ لا تُماثل الذوات: فالذات متصفةٌ بصفاتٍ حقيقةٍ لا تُماثل صفات سائر الذوات)[3].

وتظهر أهمية معرفة هذه القاعدة وفقهها: في الردِّ على من عطَّل صفات الله تعالى بأيِّ نوعٍ من أنواع التعطيل، مثال ذلك: إذا قال سائلهم: كيف استوى على العرش؟ قيل له: كما قال ربيعة ومالك وغيرهما: (الاستواء معلومٌ؛ والكيف مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ؛ والسؤال عن

(١) الرسالة المدنية في الحقيقة والمجاز في الصفات لابن تيمية ٦/ ٣٥٥ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/ ٢٥ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

الكيفية بدعةٌ)[١]، لأنه سؤالٌ عما لا يعلمه البشر؛ ولا يُمكنهم الإجابة عنه.

وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربُّنا إلى سماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: أنا لا أعلم كيفيته. قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله، إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف؛ وهو فرعٌ له وتابعٌ له. فكيف تُطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه ونزوله واستوائه؛ وأنت لا تعلم كيفية ذاته؟

وإذا كنت تُقرُّ بأن له ذاتاً حقيقة ثابتة في نفس الأمر؛ مستوجبة لصفات الكمال؛ لا يُماثلها شيءٌ: فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه ثابتٌ في نفس الأمر؛ وهو متَّصفٌ بصفات الكمال التي لا يُشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم)[٢].

فبهذه الحجة الصحيحة والمحجة المليحة: أبطل أهلُ السنة والجماعة شبهةَ أهل البدعة والشناعة القبيحة[٣].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه القاعدة العظيمة؛ مبيِّناً نصَّها وفقهها والأحكام المستفادة منها، حيث نصَّ ــ رحمه الله تعالى ــ عليها بقوله: (الصفات حكمها حكم الذات، فكما أن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/ ٢٥ ــ ٢٦ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) انظر: القاعدة التدمرية ٣/ ٢٥، سؤال في الصواب من مذهب السلف في الاعتقاد ومذهب غيرهم من المتأخرين وجوابه ٤/ ٦، سؤال في حديث النزول وجوابه ٥/ ٣٣٠؛ ٣٥١ [رسائل مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص٩٥، صفات الله عزَّ وجلّ الواردة في الكتاب والسنة للسقاف ص٢٣.

ذاته ــ سبحانه ــ لا تُشبه الذوات: فصفاته لا تُشبه الصفات)[١].

وإن ممَّا يُعين على فقه هذه القاعدة العظيمة؛ ومعرفة أن ذات الله المقدَّسة جامعةٌ (لجميع صفات الكمال؛ التي لها كلُّ الأسماء الحسنى)[٢]: أن يُعلم أن الربَّ ــ تبارك وتعالى ــ له ذاتٌ مقدَّسةٌ تخصُّه؛ لا تُشبه ذوات المخلوقين؛ كما هو مغروسٌ في فطر العالمين جميعهم، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إنه قد عُلِمَ بالاضطرار أن الله ــ سبحانه ــ له ذاتٌ مخصوصةٌ، يُقال: ذاتُ الله، كما قال خبيبٌ:

«وذلك في ذات الإلـه وإن يشأ يُبارك على أوصال شلو ممزَّعِ»[٣])[٤].

وإنَّ مما تختصُّ به ذات الله المقدَّسة: أنَّ لها صفات عُليا؛ يمتنع قيامُها بدونها، فإذا كانت (صفات المخلوق لا تُفارقه ولا تنتقل إلى غيره؛ فكيف صفات الخالق ــ جلَّ وعلا ــ؟)[٥]، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (الذات لا تخلو عن الصفات؛ فهي قائمة بها)[٦].

ولو فُرِضَ قيامُ ذاتٍ مجرَّدة عن الصفات العلى؛ غير (الذات الجامعة لكلِّ الأسماء الحسنى والصفات العلى)[٧]: لامتنع حصول الكمال ولحوق

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٩.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٥٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الجهاد والسير/ باب هل يستأسر الرجل؛ ومن لم يستأسر، ومن ركع ركعتين عند القتـل ــ الحديث رقم (٣٠٤٥) ــ ٢/ ٩٣٥ ــ ٩٣٦] من حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٨٠ ــ ١٣٨١.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٥٣٤.

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٧.

(٧) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٥٣٣.

الجلال لها، ولم يحصل من شهود العبد لها إيمانٌ؛ فضلاً عن الإحسان، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (القرآن من أوله إلى آخره إنما يدعو الناس إلى: النظر في صفات الله وأفعاله وأسمائه؛ دون الذات المجرَّدة، فإن الذات المجرَّدة لا يُلحظ معها وصفٌ؛ ولا يُشهد فيها نعتٌ؛ ولا تدلُّ على كمالٍ ولا جلالٍ، ولا يحصل من شهودها إيمانٌ؛ فضلاً عن أن يكون من أعلى مقامات العارفين.

ويا سبحان الله؛ أين يقع شهود صفات الكمال وتنوعها وكثرتها؛ وما تدلُّ عليه من عظمة الموصوف بها وجلاله وكماله؛ وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[1] في كماله لكثرة أوصافه ونعوته وأسمائه؛ وامتناع أضدادها عليه؛ وثبوتها له على أكمل الوجوه الذي لا نقص فيه بوجهٍ ما؛ من شهود ذاتٍ قد غاب مشاهدُها عن كلِّ صفةٍ ونعتٍ واسمٍ؟ فبين هذين المشهدين من التفاوت مالا يحصيه إلا الله)[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الدلائل المُثبتة لهذه القاعدة؛ والحاكمة بصحتها، فمن ذلك:

١ ــ صحَّة الاستعاذة والاستغاثة بصفات الله العلى كما صحَّت الاستعاذة والاستغاثة بذاته المقدَّسة، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إنه يُستعاذ بصفات الربِّ كما يُستعاذ بذاته، وكذلك يُستغاث بصفاته كما يُستغاث بذاته، كما في الحديث: «يا حي يا قيوم يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، لا إلـه إلا أنت»[3].

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٤٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٢٦١١) ــ ٢٠/ ٦١]، والبخاري في أدبه المفرد [باب الدعاء عند الاستخارة ــ الحديث رقم (٧٢٦) ــ ص١٥٢]، =

«برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك»[1]. وكذلك قوله في الحديث الآخر: «أعوذ بعزّتك أن تضلني»[2].

وكذلك استعاذته بـ: «كلمات الله التامات»[3]؛ و «بوجهه الكريم»[4] وتعظيمه.

= وأبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب الدعاء ـ الحديث رقم (١٤٩٥) ـ ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٩٩) ـ الحديث رقم (٣٥٤٤) ـ ٥/ ٥١٢]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب النعوت/ باب المنان ـ الحديث رقم (٧٦٥٤) ـ ٧/ ١٤١]، وفي المجتبى [كتاب السهو/ باب الدعاء بعد الذكر ـ الحديث رقم (١٢٩٩) ـ ٣/ ٥٩ ـ ٦٠]، وابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب اسم الله الأعظم ـ الحديث رقم (٣٨٥٨) ـ ٤/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «اللَّـهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد».
وصححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود: ١/ ٤١٠].

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ باب ما يقول إذا أمسى ـ الحديث رقم (١٠٣٣٠) ـ ٩/ ٢١١ ـ ٢١٢] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به».
وحسنه الألباني في [صحيح الجامع الصغير: الحديث رقم (٥٨٢٠) ـ ٢/ ١٠١٣].

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـهُمَّ لك أسلمت وبك آمنت».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره ـ الحديث رقم (٢٧٠٨) ـ ٤/ ٢٠٨٠ ـ ٢٠٨١] من حديث خولة بنت حكيم السلمية ـ رضي الله عنها ـ ، وأوله: «من نزل منزلاً ثم قال».

(٤) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد ـ الحديث رقم (٤٦٦) ـ ١/ ٣١٨] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ ، وأوله: «أعوذ بالله العظيم؛ وبوجهه الكريم».

وفي هذا ما يدلُّ على أن هذه صفاتٌ ثابتةٌ وجوديةٌ، إذ لا يُستعاذ بالعدم، وأنها قائمةٌ به غير مخلوقة إذ لا يستعاذ بالمخلوق، وهو احتجاجٌ صحيحٌ فإن رسول الله ﷺ لا يستعيذ بمخلوقٍ؛ ولا يستغيث به؛ ولا يدلُّ أمته على ذلك)[1].

٢ ـ أن من أنكر صفة من صفات الله العلى كان كمن أنكر ذاته المقدَّسة، لأنه لا يُعقل قيام ذاتٍ إلا بصفاتٍ، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (من أنكر مباينة الربِّ لخلقه وصفاته التي وصف بها نفسه فقد جحد ذاته وأنكرها؛ وإن أقرَّ بها لفظاً)[2].

وقد حكى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ استدلال السلف بهذه القاعدة في ردِّهم على الجهمية، فقال: (التحقيق: أن صفات الربِّ ـ جلَّ جلاله ـ داخلةٌ في مسمَّى اسمه، فليس اسمه (الله؛ والربُّ؛ والإلـه): أسماء لذاتٍ مجرَّدةٍ لا صفة لها ألبتة، فإن هذه الذات المجرَّدة وجودها مستحيلٌ، وإنما يفرضها الذهن فرض الممتنعات؛ ثم يحكم عليها، واسم (الله ـ سبحانه ـ ؛ والربُّ والإلـه): اسمٌ لذاتٍ لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال، كالعلم والقدرة والحياة والإرادة والكلام والسمع والبصر والبقاء والقدم؛ وسائر الكمال الذي يستحقُّه الله لذاته، فصفاته داخلةٌ في مسمى اسمه، فتجريد الصفات عن الذات؛ والذات عن الصفات: فرضٌ وخيالٌ ذهنيٌّ؛ لا حقيقة له، وهو أمرٌ اعتباريٌّ لا فائدة فيه؛ ولا يترتَّب عليه معرفةٌ ولا إيمانٌ؛ ولا هو علمٌ في نفسه.

وبهذا أجاب السلفُ الجهميةَ لما استدلُّوا على خلق القرآن بقوله

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٤٣.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٨٥.

تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]. قالوا: والقرآن شيءٌ. فأجابهم السلف: بأن القرآنَ كلامُه؛ وكلامُه من صفاته؛ وصفاتُه داخلةٌ في مسمى اسمه، كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه ويديه، فليس الله اسماً لذاتٍ لا نعت لها ولا صفة ولا فعل ولا وجه ولا يدين، ذلك إلـه معدومٌ مفروضٌ في الأذهان؛ لا وجود له في الأعيان.

كإلـه الجهمية الذي فرضوه؛ غير خارجٍ عن العالم ولا داخلٍ فيه؛ ولا متصلٍ به ولا مُنفصلٍ عنه؛ ولا مُحايثٍ له ولا مُباينٍ.

وكإلـه الفلاسفة الذي فرضوه؛ وجوداً مطلقاً لا يتخصَّص بصفةٍ ولا نعتٍ؛ ولا له مشيئةٌ ولا قدرةٌ ولا إرادةٌ ولا كلامٌ.

وكإلـه الاتحادية الذي فرضوه؛ وجوداً سارياً في الموجودات؛ ظاهراً فيها هو عين وجودها.

وكإلـه النصارى الذي فرضوه؛ قد اتخذ صاحبة وولداً؛ وتدرَّع بناسوت ولده واتـَّخذ منه حجاباً، فكلُّ هذه الآلهة مما عملته أيدي أفكارها.

وإلـه العالمين الحقُّ: هو الذي دعت إليه الرسل، وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فوق سماواته على عرشه بائنٌ من خلقه؛ موصوفٌ بكلِّ كمالٍ؛ مُنزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ؛ لا مثال له ولا شريك ولا ظهير؛ ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾[2]، غنيٌّ بذاته عن كلِّ ما سواه؛ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه بذاته)[3].

كما حكى ــ رحمه الله تعالى ــ مناظرة في إثبات صفات الله العلى

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٦، سورة الزمر: الآية ٦٢.

(٢) سورة الحديد: الآية ٣.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٨ ــ ٣٧٩.

جرت بين مُثبتٍ سُنِّيٍّ وبين مُعطِّلٍ بِدْعِيٍّ؛ وذيَّلَّها ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير هذه القاعدة العظيمة؛ فقال: (كان من قدر الله وقضائه: أن جمع مجلس المذاكرة بين مُثْبِتٍ للصفات والعُلُوِّ وبين مُعَطِّلٍ لذلك، فاستطعم المُعَطِّلُ المثبتَ الحديثَ استطعامَ غيرِ جائع إليه، ولكن غرضه عرض بضاعته عليه، فقال له: ما تقول في القرآن ومسألة الاستواء؟ فقال المثبت: نقول فيها ما قاله ربنا ــ تبارك وتعالى ــ ؛ وما قاله نبينا ﷺ، نصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ؛ ومن غير تشبيهٍ ولا تمثيلٍ، بل نُثبت له ــ سبحانه ــ ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات؛ وننفي عنه النقائص والعيوب ومشابهة المخلوقات، إثباتاً بلا تمثيلٍ؛ وتنزيهاً بلا تعطيلٍ، فمن شبَّه الله بخلقه: فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه: فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيهاً، فالمشبِّه يعبد صنماً؛ والمعطِّل يعبد عدماً؛ والموحِّد يعبد إلـٰهاً واحداً صمداً، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[1].

والكلام في الصفات كالكلام في الذات، فكما أنا نُثبت ذاتاً لا تُشبه الذوات؛ فكذلك نقول في صفاته: إنها لا تُشبه الصفات، فليس كمثله شيءٌ لا في ذاته؛ ولا في صفاته؛ ولا في أفعاله، فلا نُشبِّه صفات الله بصفات المخلوقين؛ ولا نُزيل عنه ــ سبحانه ــ صفة من صفاته لأجل شناعة المشنِّعين وتلقيب المفترين، كما أنا لا نُبغض أصحاب رسول الله ﷺ لتسمية الروافض لنا: نواصب، ولا نُكذِّب بقدر الله ولا نجحد كمال مشيئته وقدرته لتسمية القدرية لنا: مجبرة، فلا تُجحد صفات ربنا ــ تبارك وتعالى ــ لتسمية الجهمية والمعتزلة لنا: مُجسِّمة مُشبِّهة حشوية، ورحمة الله على القائل[2]:

(١) سورة الشورى: الآية ١١.
(٢) لم أقف عليه.

فـإن كـان تجسيمـاً ثبـوت صفـاتـه لديكم فإني اليوم عَبْدٌ مُجسِّمُ[1])[2] .

❑ ❑ ❑

---

(1) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٤٠ ـ ٩٤١] في ردِّه على الجهمية في نفيهم لصفات الله تعالى: (المعاني ثابتةٌ للربِّ تعالى؛ وهو موصوفٌ بها، فلا ننفيها عنه بتسميتكم للموصوف بها: جسماً، كما أنا لا نسبُّ الصحابة لأجل تسمية الروافض لمن يُحبُّهم ويُواليهم: نواصب، ولا ننفي قدر الربِّ ونُكذِّبَ به لأجل تسمية القدرية لمن أثبته: جبريًّا، ولا نردُّ ما أخبر به الصادق عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله لتسمية أعداء الحديث لنا: حشوية، ولا نجحد صفات خالقنا وعُلُوَّه على خلقه واستوائه على عرشه لتسمية الفرعونية المعطلة لمن أثبت ذلك: مُجسِّماً مُشبِّهاً.

فـإن كـان تجسيمـاً ثبـوت استـوائـه على عـرشـه إنـي إذا لمُجسِّـمُ
وإن كـان تشبيهـاً ثبـوت صفـاتـه فمـن ذلـك التشبيـه لا أتكتَّـمُ
وإن كـان تنـزيهـاً جحـود استـوائـه وأوصـافـه أو كـونـه يتكلَّـمُ
فعـن ذلـك التنـزيـه نـزَّهْـتُ ربَّنـا بتـوفيقـه والله أعلـى وأعلـمُ.

ورضي الله عن الشافعي حيث فتح للناس هذا الباب في قوله:

يـا راكبـاً قِـفْ بـالمُحصَّـبِ مِـنْ منـى واهتـف بقـاعـدِ خَيْفِهـا والنـاهـضِ
إن كـان رفضـاً حُـبُّ آلِ مُحمَّـد فليشهـد الثقـلان أنِّـي رافضـي.

ورضي الله عن شيخنا إذ يقول:

فـإن كـان نصبـاً ولاءُ الصِّحـابِ فـإنـي كمـا زعمـوا نـاصبـي
وإن كـان رفضـاً ولاء آلـه فـلا بـرح الـرفـضُ مـن جـانبـي.

وهذا كلُّه كأنه مأخوذٌ من قول الأول:

وعيَّـرنـي الـواشـون أنِّـي أُحِبُّهـا وذلـك ذنـبٌ لسـتُ منـه أتـوبُ.

وقول الآخر:

فـإن كـان ذنبـي حبكـم وولاءكـم فإني مُصِرٌّ ما بقيتُ على الذَّنبِ).

وانظر نحو هذا السياق ـ مع تقاربٍ في المباني والمعاني ـ : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٩١.

(2) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص٢٢ ـ ٢٣.



المبحث الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر)

تقدَّم في القاعدة السابقة ـ المتضمنة بيان أن: (القول في سائر ما سمَّى ووصف به نفسه كالقول في نفسه سبحانه وتعالى)[1] ـ: تقرير استدلال أهل السنة والجماعة بها على إثبات صفات الكمال لله تعالى، فهي إحدى الحجج التي دمغوا بها كلَّ مَن فرَّق بين ذات الله المقدَّسة وصفاته العلى من أهل البدعة والشناعة؛ ممن (يُنكر الصفات ويُقِرُّ بالأسماء؛ كالمعتزليِّ[2] الذي يقول: إنه حيٌّ عليمٌ قديرٌ، ويُنكر أن يتَّصف بالحياة والعلم والقدرة)[3].

وتليها: هذه القاعدة العظيمة من قواعد صفات الله العلى؛ وهي: (القول في بعض الصفات كالقول في بعضٍ)[4]، وهي أيضاً إحدى حجج

(١) رسالة الإكليل في المتشابه والتأويل ١٣/ ٣٠١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) انظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها للمعتق ص١٠١.

(٣) الرسالة التدمرية ٣/ ١٧ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٤) الرسالة التدمرية ٣/ ١٧ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

أهل السنة والجماعة التي دمغوا بها أهل البدعة والشناعة من الأشاعرة ونحوهم[1]؛ ممن فرَّق بين صفات الله العلى؛ فأقرُّوا (بأن الله حيٌّ بحياةٍ؛ عليمٌ بعلمٍ؛ قديرٌ بقدرةٍ؛ سميعٌ بسمعٍ؛ بصيرٌ ببصرٍ؛ متكلِّمٌ بكلامٍ؛ مريدٌ بإرادةٍ)[2]، ونازعوا فيما سواها من صفات الله العلى.

وهذه القاعدة العظيمة تُبيِّن: (أنَّ القول في بعض صفات الله: كالقول في سائرها، وأن القول في صفاته: كالقول في ذاته، وأن من أثبت صفةً دون صفةٍ ـ مما جاء به الرسول ﷺ؛ مع مشاركة أحدهما الأخرى فيما به نفاها)[3] ـ: كان بذلك النفي (مُتناقضاً في قوله؛ مُتهافتاً في مذهبه، مُشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب؛ وكفر ببعض)[4].

مثال ذلك: أن يُقال لمن فرَّق بين صفات الله العلى؛ فأثبت بعضها ونفى بعضها: (لا فَرْقَ بين ما نَفَيْتَه وبين ما أثبتَّه، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

فإن قلت: إن إرادته مثل إرادة المخلوقين؛ فكذلك محبَّتُه ورضاه وغضبه، وهذا هو التمثيل.

وإن قلت: له إرادةٌ تليق به؛ كما أن للمخلوق إرادة تليق به. قيل لك:

---

(١) انظر: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني ص١٤٦ ـ ١٥٤، موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور المحمود ٣/ ١١٨٦ ـ ١١٩٨.

(٢) القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/ ١٧ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) سؤال في حديث النزول وجوابه لابن تيمية ٥/ ٣٥١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٤) سؤال عن حقيقة الاستواء والنزول وجوابه لابن تيمية ٥/ ٢١٢ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

وكذلك له محبة تليق به؛ وللمخلوق محبة تليق به، وله رضى وغضب يليق به؛ وللمخلوق رضى وغضب يليق به)(١).

ولما كان القول في بعض الصفات مثل القول في البعض الآخر: كان من نفى صفةً من صفات الله العلى ـ لتوهُّم النقص فيها ـ لزمه: أن ينفي جميع صفات الله العلى، وهذا نظير ما تقدَّم تقريره من التلازم الوثيق بين صفات الله العلى وبين ذاته المقدَّسة؛ بحيث يلزم من القول في صفات الله العلى مثل ما يلزم من القول في ذاته المقدَّسة، فمن نفى صفات الله العلى: لزمه أن ينفي ذاته المقدَّسة لقيام هذا الوهم الباطل فيها.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذه القاعدة العظيمة من قواعد صفات الله العلى بقوله: (الصفة الثابتة لله مضافةٌ إليه؛ لا يُتوهم فيها شيءٌ من خصائص المخلوقين ـ لا في لفظها ولا في ثبوت معناها ـ ، وكلٌّ من نفى عن الربِّ تعالى صفة من صفاته لهذا الخيال الباطل: لزمه نفيُ جميع صفات كماله، لأنه لا يُعْقَلُ منها إلا صفة المخلوق، بل ويلزمه نفيُ ذاته؛ لأنه لا يُعْقَلُ من الذوات إلا الذوات المخلوقة.

ومعلومٌ أنَّ الربَّ ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُشْبِهُهُ شيءٌ منها)(٢).



---

(١) القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/١٧ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٥.



المبحث الرابع:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (الفرق بين الوصف والنعت)

اختلف أهل العلم في الفرق بين الوصف والنعت، فقيل: هما (مترادفان. وقيل: متقاربان. فالوصف للذات، والنعت للفعل)[1].

وقد فرَّق بعض أهل اللغة بينهما؛ فقال: (إن النعت: يكون بالحلية؛ نحو: طويلٌ وقصيرٌ، والصفة: تكون بالأفعال؛ نحو: ضاربٌ وخارجٌ)[2].

وهل لهذا الفرق المحكيِّ عند أهل اللغة بين الوصف والنعت أثرٌ في الفرق بينهما عند أهل السنة والجماعة في باب صفات الله تعالى[3]؟

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزِّ الحنفي ص٢١٧.

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٤٧.

(٣) سمَّى بعض أئمة السنّة بعض الكتب والأبواب التي أودعوها في مصنفاتهم ـ مثبتين بها أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ ورادِّين فيها على من ألحد فيها ـ باسم: (النعوت)، كما هو صنيع البخاري في أحد الأبواب التي عقدها في كتابه التوحيد ـ الذي ضمَّنه في جامعه الصحيح ـ ؛ فقال: (باب ما يُذكر في الذات والنعوت وأسامي الله) ٥/ ٢٣٠٩ ـ ٢٣١٠، وكما هو صنيع النسائي في أحد الكتب التي ضمَّنها في سننه الكبرى؛ ووسمه بـ: (كتاب النعوت) ٧/ ١٢٣ ـ ١٦٧.

نجد أن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ قد أولى هذا الفرق اللغويَّ اهتماماً بالغاً، حيث قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ أثر هذا الفرق في باب صفات الله تعالى؛ مبيناً أن بين اللفظين فرقٌ في هذا الباب من ثلاثةِ أوجهٍ؛ حيث قال: (الفرق بين الصفة والنعت من وجوه ثلاثة[1]:

أحدها: أنَّ النعت يكون بالأفعال التي تتجدَّد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ الآية[2]. وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾[3] ونظائر ذلك.

والصفة هي: الأمور الثابتة اللازمة للذات، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾[4] ونظائر ذلك.

الفرق الثاني: أنَّ الصفات الذاتية لا يُطلق عليها اسم النعوت، كالوجه واليدين والقدم والأصابع، وتُسمى: صفات، وقد أطلق عليها السلف هذا

---

(١) عقد الزجاجي في خاتمة كتابه [اشتقاق أسماء الله ص٢٥٧ ـ ٢٥٩] باباً في: القول في النعت والوصف والفرق بينهما حيث يفترقان والجمع بينهما حيث يجتمعان.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٣) سورة الزخرف: الآيات ١٠ ـ ١٢.

(٤) سورة الحشر: الآيات ٢٢ ـ ٢٤.

الاسم؛ وكذلك متكلموا أهل الإثبات سموها صفات، وأنكر بعضهم هذه التسمية؛ كأبي الوفاء بن عقيل[1] وغيره، وقال: (لا ينبغي أن يُقال: نصوص الصفات؛ بل آيات الإضافات، لأن الحي لا يُوصف بيده ولا وجهه؛ فإن ذلك هو الموصوف، فكيف تُسمى صفة، وأيضاً فالصفة معنى يعم الموصوف، فلا يكون الوجه واليد صفة)[2].

والتحقيق: أن هذا نزاعٌ لفظيٌّ في التسمية، فالمقصود: إطلاق هذه الإضافات عليه ــ سبحانه ــ؛ ونسبتها إليه والإخبار عنه بها؛ منزَّهةً عن التمثيل والتعطيل، سواءٌ سُميت صفات؛ أو لم تسم.

الفرق الثالث: أن النعوت ما يظهر من الصفات ويشتهر؛ ويعرفه الخاص والعام، والصفات أعمُّ، فالفرق بين النعت والصفة: فرقٌ ما بين الخاص والعام، ومنه قولهم في تحلية الشيء: نعته كذا وكذا؛ لما يظهر من صفاته.

وقيل: هما لغتان لا فرق بينهما، ولهذا يقول نحاة البصرة: باب

---

(١) هو: علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظَّفري، شيخ الحنابلة في زمانه، ولد في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وتوفي بكرة الجمعة ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة.
انظر في ترجمته: مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص٧٠٠ ــ ٧٠١، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩/ ٤٤٣ ــ ٤٥١، الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ١٤٢ ــ ١٦٥.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في [درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٢٦٣]: (ذكر ذلك ابن عقيل في كتابه المسمى بـ : ((نفي التشبيه وإثبات التنزيه))، ونحوه في [درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٦٠؛ ٩/ ١٦٠]، ولم أقف عليه.

الصفة، ويقول نحاة الكوفة: باب النعت[1]، والمراد واحدٌ، والأمر قريبٌ)[2].

❑ ❑ ❑

(١) انظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ٣/ ٥٦، التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل للنجار ٢/ ١٤٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٦١ ــ ٣٦٣.

المبحث الخامس:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (الصفة إذا قامت بمحلٍّ عاد حكمها إلى ذلك المحلّ فكان هو الموصوف بها)

إنَّ هذه القاعدة العظيمة من أعظم ما يُعين على فهم هذا الفصل المختصِّ بصفات الله العلى؛ ومعرفة أحكامه، وهي (من البحوث العقلية النافعة في هذا المقام)[1]، وينبني على هذه القاعدة أمورٌ؛ منها:

الأمر الأول: وصف المحلِّ بالصفة.

الأمر الثاني: أنَّ حكم الصفة لا يعود على غير ذلك المحلِّ.

الأمر الثالث: أنَّ يُشتقَّ من الصفة اسمٌ لذلك المحلِّ؛ إذا كانت تلك الصفة مما يُشتقُّ لمحلِّها منها اسمٌ.

الأمر الرابع: أنَّ لا يُشتقُّ الاسم لمحلٍّ لم تقم به تلك الصفة[2].

مثال ذلك: أن صفة العلم إذا قامت بزيدٍ: عاد حكمُ تلك الصفة إليه؛ فكان هو الموصوف بأنه العالِم، ولا يجوز أن يعود حكم هذه الصفة إلى

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص٨٨.

(٢) انظر: شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص٨٩ ـ ٩٠.

عمرٍو؛ فيكون عالماً بعلمٍ يقوم بزيدٍ، كما أنه يُشتقُّ من هذه الصفة اسمٌ لزيدٍ؛ فيقال: عالِمٌ، ولا يجوزُ أن يُشتقَّ اسمُ عالِمٍ لعمرٍو؛ لأنه لم تقم به صفة العلم.

وهكذا الأمر في الصفة إذا قامت بالله ـ عزَّ وجلّ ـ ، فإن ذاته المُقدَّسة تكون محلَّها، ويعود حكمها إليه؛ فيكون هو الموصوف بها، ويُشتقُّ له من تلك الصفة اسمٌ ـ إذا كانت تلك الصفة مما يُشتقُّ لمحلِّها منها اسمٌ ـ ، ويكون حكم هذه الصفة له لا يعود على محلٍّ غيره، مع ملاحظة الأصل العام في هذا الباب؛ وهو: أن الله تعالى لا يُوصف من الصفات: إلا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير هذه القاعدة العظيمة وتوضيحها؛ فقال: (إن الصفة متى قامت بموصوفٍ لزمها أمور أربعة: أمران لفظيان؛ وأمران معنويان.

فاللفظيان: ثبوتيٌّ وسلبي، فالثبوتيٌّ: أن يُشتق للموصوف منها اسمٌ، والسلبيٌّ أن يمتنع الاشتقاق لغيره.

والمعنويان: ثبوتيٌّ وسلبي، فالثبوتيٌّ: أن يعود حكمها إلى الموصوف؛ ويُخبر بها عنه، والسلبيٌّ: أن لا يعود حكمها إلى غيره؛ ولا يكون خبراً عنه.

وهي قاعدةٌ عظيمةٌ في معرفة الأسماء والصفات)(١).

ثم قرَّب ـ رحمه الله تعالى ـ صورة هذه القاعدة إلى الأفهام؛ فضرب لها مثلاً بصفة الكلام؛ فقال: (فلنذكر من ذلك مثالاً واحداً؛ وهو: صفة

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٥٠.

الكلام، فإنها إذا قامت بمحلٍّ كان هو المتكلِّمُ دون من لم تقم به؛ وأُخبر عنه بها؛ وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال وأمر ونهى؛ ونادى وناجى؛ وأخبر وخاطب؛ وتكلَّم وكلَّم ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره.

فيُستدلُّ بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به؛ وسلبها عن غيره على عدم قيامها به)[1].

ثم ختم ــ رحمه الله تعالى ــ تقريره لهذه القاعدة بذكر أهميتها؛ فقال: (وهذا هو أصلُ السنةِ الذي ردُّوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصحِّ الأصول ــ طرداً وعكساً ــ)[2].

وبعد بيان نصِّ القاعدة؛ وأهميتها؛ والمثال المُقرِّب لصورتها من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : يحسن إيراد بيانه لفقهها وحكمها، حيث قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ أن من فقه هذه القاعدة وحكمها ما يأتي:

١ ــ يُشتقُّ من أوصاف الله العلى القائمة به أسماؤه الحسنى؛ ولا تُشتقُّ من مخلوقاته المنفصلة عنه فيتسمَّى بها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الربُّ تعالى يُشتقُّ له من أوصافه وأفعاله أسماءٌ؛ ولا يُشتقُّ له من مخلوقاته، وكلُّ اسمٍ من أسمائه فهو مشتقٌّ من صفةٍ من صفاته؛ أو فعلٍ قائمٍ به.

فلو كان يُشتقُّ له اسمٌ باعتبار المخلوق المنفصل يُسمَّى: متكوناً ومتحركاً وساكناً وطويلاً وأبيض وغير ذلك؛ لأنه خالق هذه الصفات، فلما

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٥٠.
(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٥٠.

لم يُطْلَق عليه اسمٌ من ذلك ــ مع أنه خالقه ــ : عُلِمَ أنما تُشتقُّ أسماؤه من أفعاله وأوصافه القائمة به.

وهو ــ سبحانه ــ لا يتصف بما هو مخلوقٌ منفصلٌ عنه؛ ولا يتسمى باسمه)[1].

٢ ــ يتعيَّن تعلُّق صفات الكمال بالله ــ سبحانه وتعالى ــ، لأن ذاته المُقدَّسة محلُّ الكمال اللائق بها، فلا يتعلَّق بها نقصٌ ولا عيبٌ ــ يتعالى الله سبحانه عنه ــ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنَّ من أسمائه: الأسماء المزدوجة، كالمعزِّ المذلِّ؛ والخافض الرافع؛ والقابض الباسط؛ والمعطي المانع، ومن صفاته: الصفات المتقابلة، كالرضا والسُّخط؛ والحبِّ والبغض؛ والعفو والانتقام، وهذه صفات كمالٍ؛ وإلا لم يتصف بها ولم يتسمَّ بأسمائها.

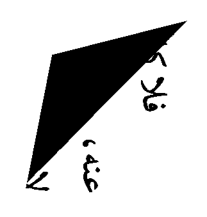
وإذا كانت صفات كمالٍ؛ فإما: أن يتعطَّل مقتضاها وموجبها ــ وذلك يستلزم تعطيلها في أنفسها ــ، وإما: أن تتعلَّق بغير محلِّها الذي يليق بأحكامها ــ وذلك نقصٌ وعيبٌ يتعالى عنه ــ، فيتعيَّن تعلُّقها بمحالِّها التي تليق بها.

وهذا وحده كافٍ في الجواب لمن كان له فقهٌ في باب الأسماء والصفات، ولا عبرة بغيره)[2].

٣ ــ استعمال الصفة لغير من وُصِفَ بها: استعمالٌ للاسم في غير ما وُضِعَ له، وذلك مما ينفي حقائقها، وهكذا في صفات الله العلى إذا استعملت لغير موضعها: انتفت حقائقها، ويترتَّب على ذلك نفي الأسماء

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٣٩.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٩.



الحسنى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إ
والبصير : أسمـاءٌ تتضمـن ثبـوت الصفـات فـي
فاستعمالها لغير من وُصِفَ بها استعمالٌ للاسم
انتفت عنه حقائقها : فإنه تنتفي عنه أسماؤُها، فإن
منه في النفي والإِثبات)[1].

٤ ــ يُوصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ بما قام به من الصفات؛ لا بما لم يقم به، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن صفات الله ــ جلَّ جلاله ــ داخلةٌ في مسمى اسمه، فليس الله اسماً لذاتٍ لا سمع لها ولا بصر لها ولا حياة لها ولا كلام لها ولا علم؛ وليس هذا ربُّ العالمين، وكلامه تعالى وعلمه وحياته وقدرته ومشيئته ورحمته داخلةٌ في مسمى اسمه، فهو ــ سبحانه ــ بصفاته وكلامه الخالق؛ وكلُّ ما سواه مخلوقٌ.

وأما إضافة القرآن إلى الرسول: فإضافة تبليغ محضٍ؛ لا إنشاء، والرسالة تستلزم تبليغ كلام المرسل، ولو لم يكن للمرسل كلامٌ يُبلِّغه الرسول: لم يكن رسولاً.

ولهذا قال غير واحدٍ من السلف: (من أنكر أن يكون الله متكلماً: فقد أنكر رسالة رسله).

فإن حقيقة رسالتهم: تبليغُ كلام من أرسلهم.

فالجهمية وإخوانهم ردُّوا تلك النصوص المحكمة بالمتشابه؛ ثم صيَّروا الكلَّ متشابهاً؛ ثم ردُّوا الجميع، فلم يُثبتوا لله فعلاً يقوم به يكون به فاعلاً؛ كما لم يُثبتوا له كلاماً يقوم به يكون به متكلماً.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٣.

[...]لام له عندهم ولا أفعال، بل كلامه وفعله عندهم مخلوقٌ منفصلٌ [...]وذلك لا يكون صفة له؛ لأنه ـ سبحانه ـ إنما يُوصف بما قام به؛ [...] بما لم يقم به)[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٣٠٠.

المبحث السادس:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (المضاف إلى الله سبحانه وتعالى نوعان: إضافة عين قائمة بنفسها وإضافة صفة إلى موصوفها)

إنَّ فقه هذه القاعدة وفهمها: ممَّا يُعين على فقه وفهم ما تقدَّم مِن قواعد صفات الله العلى، فإن المضافات إلى الله تعالى لا تخلوا إما أن تكون عيناً قائمة بنفسها: فهذه خلقٌ لله تعالى وملكٌ له، وإما أن تكون صفة قائمة بغيرها؛ ليس لها محلٌّ تقوم به: فهذه صفةٌ لله تعالى[1].

فأما القسم المضاف إلى الله تعالى من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف: فكقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾[3].

وأما القسم المضاف إلى الله تعالى من قبيل إضافة المخلوق إلى

---

(١) انظر: مسألة في العقل والنفس لابن تيمية ٩/ ٢٩٠ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

الخالق: فكقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣﴾[1]، وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[3]، وقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾[4]، وقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾[5]، وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[6].

وهذه الإضافة إلى الله تعالى مما يُفيد تشريف المضاف ورفع قدره؛ وتعظيم أمره، فلا تجد شيئاً من مخلوقات الله تعالى ـ مما اختصَّه الله تعالى بالإضافة إلى ألوهيته ـ: إلا وجدت فيه معنى شريفاً اقتضى اختصاصه بالإضافة، كالرسول والبيت والناقة[7]، و(هذا القسم لا خلاف بين المسلمين في أنه مخلوقٌ، كما أن القسم الأول لم يختلف أهل السنة والجماعة في أنه قديمٌ؛ وغير مخلوقٍ)[8].

---

(١) سورة الشمس: الآية ١٣.

(٢) سورة الحج: الآية ٢٦.

(٣) سورة النساء: الآيتان ١٥٧؛ ١٧١، سورة الأعراف: الآية ١٥٨، سورة التوبة: الآيات ٦١؛ ٨١؛ ١٢٠، سورة الأحزاب: الآيات ٢١؛ ٤٠؛ ٥٣، سورة الفتح: الآية ٢٩، سورة الحجرات: الآيتان ٣؛ ٧، سورة الصف: الآيتان ٥؛ ٦، سورة المنافقون: الآيتان ٥؛ ٧، سورة الشمس: الآية ١٣.

(٤) سورة الصافات: الآيات ٤٠؛ ٧٤؛ ١٢٨؛ ١٦٠؛ ١٦٩، سورة الدخان: الآية ١٨، سورة الإنسان: الآية ٦.

(٥) سورة غافر: الآية ١٥، سورة البروج: الآية ١٥.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٧) انظر: الرسالة المدنية في الحقيقة والمجاز في الصفات لابن تيمية ٦/٣٦٩ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٨) قاعدة عظيمة جليلة في مسائل الصفات والأفعال من حيث قدمها ووجوبها؛ أو جوازها ومشتقاتها لابن تيمية ٦/١٤٥ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه القاعدة؛ وذكر نصَّها والفقه المستفاد منها؛ وضرب الأمثلة المُقرِّبة لصورتها، حيث نصَّ ــ رحمه الله تعالى ــ عليها بقوله: (المضاف إليه ــ سبحانه ــ نوعان:

أحدهما: أعيانٌ قائمةٌ بنفسها؛ كبيت الله وناقة الله وروح الله وعبده، فهذا إضافة مخلوقٍ إلى خالقه، وهي إضافة اختصاصٍ وتشريفٍ.

الثاني: إضافة صفةٍ إلى موصوفها؛ كسمعه وبصره وعلمه؛ وحياته وقدرته؛ وكلامه ووجهه ويديه؛ ومشيئته ورضاه وغضبه، فهذا يمتنع أن يكون المضاف فيه مخلوقاً منفصلاً؛ بل هو صفةٌ قائمةٌ به ــ سبحانه ــ)[1].

وإن مما يُستفاد من فقه هذه القاعدة: أن الأعيان القائمة بنفسها مضافةٌ إلى الله تعالى على معنيين: (إضافة تشريفٍ وتخصيصٍ، وهي: إضافة مملوكٍ إلى مالكه)[2]، فما كان مضافاً إلى إلهية الله تعالى: فهو يقتضي الاختيار؛ وذلك لمحبته وتكريمه وتشريفه له، وما كان مضافاً إلى ربوبية الربِّ تعالى: فهو يقتضي الإيجاد؛ وذلك لخلقه وإيجاده له، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (ينبغي أن يُعلم أن المضاف إلى الله ــ سبحانه ــ نوعان:

صفاتٌ لا تقوم بأنفسها؛ كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفةٍ إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفاتٌ له غير مخلوقةٍ، وكذلك وجهه ويده ــ سبحانه ــ .

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٢.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩١.

والثاني: إضافة أعيانٍ منفصلةٍ عنه؛ كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوقٍ إلى خالقه؛ ومصنوعٍ إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميَّز به المضاف عن غيره، كبيت الله؛ وإن كانت البيوت كلُّها ملكاً له، وكذلك ناقة الله؛ والنوق كلُّها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلـهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه؛ بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده.

فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد؛ والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[1])[2].

وقد قرَّب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ صورة هذه القاعدة بذكر مثالٍ على صفاتٍ لا تقوم بنفسها؛ وبيان أنها إذا وردت مضافة إلى الله تعالى (فهي: إضافة صفةٍ إلى الموصوف بها)[3]، فمن تلك الصفات العلى:

١ ــ صفة الرحمة، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ في إضافتها إلى الله تعالى: (اعلم أن الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:

أحدهما: مضافٌ إليه إضافة مفعولٍ إلى فاعله.

والثاني: مضافٌ إليه إضافة صفةٍ إلى الموصوف بها.

فمن الأول: قوله في الحديث الصحيح: «احتجت الجنة والنار. . .»

---

(١) سورة القصص: الآية ٦٨.

(٢) الروح ص٣٧١.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩١.

فذكر الحديث وفيه: «فقال للجنة: إنما أنت رحمتي؛ أرحم بك من أشاء»(١).

فهذه رحمةٌ مخلوقةٌ مضافةٌ إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة: لأنها خُلقت بالرحمة وللرحمة؛ وخُصَّ بها أهل الرحمة؛ وإنما يدخلها الرحماء.

ومنه: قوله ﷺ: «خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة؛ كلُّ رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض»(٢).

ومنه: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾(٣).

ومنه: تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾(٤).

وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس ـ قديماً وحديثاً ـ ؛ وهو قول الداعي: (اللَّـٰهُمَّ اجمعنا في مستقر رحمتك). وذكره البخاري في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التفسير/ باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ ـ الحديث رقم (٤٨٥٠) ـ ٣/ ١٥٤٠]، ومسلم في صحيحه [كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ـ الحديث رقم (٢٨٤٦ ـ ٢٨٤٧) ـ ٤/ ٢١٨٦ ـ ٢١٨٧] واللفظ له؛ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ـ الحديث رقم (٢٧٥٣) ـ ٤/ ٢١٠٩] من حديث سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ ، ولفظه: «إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض».

(٣) سورة هود: الآية ٩.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٧.

كتاب: (الأدب المفرد)[1] له عن بعض السلف؛ وحكى فيه الكراهة، قال: (إن مستقرَّ رحمته: ذاته).

وهذا بناء على أن الرحمة صفة، وليس مراد الداعي ذلك؛ بل مراده الرحمة المخلوقة التي هي الجنة، ولكن الذين كرهوا ذلك لهم نظرٌ دقيقٌ جداً؛ وهو أنه إذا كان المراد بالرحمة الجنة نفسها: لم يحسن إضافة المستقر إليها، ولهذا لا يحسن أن يُقال: اجمعنا في مستقرِّ جنتك، فإن الجنة نفسها هي دار القرار؛ وهي المستقرُّ نفسه، كما قال: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾[2]. فكيف يُضاف المستقرُّ إليها؟ والمستقرُّ: هو المكان الذي يستقرُّ فيه الشيء، ولا يصحُّ أن يطلب الداعي الجمع في المكان الذي تستقرُّ فيه الجنة، فتأمله. ولهذا قال: (مستقرُّ رحمته: ذاته).

والصواب: أن هذا لا يمتنع؛ حتى ولو قال صريحاً: اجمعنا في مستقرِّ جنتك؛ لم يمتنع، وذلك أن المستقرَّ أعمُّ من أن يكون رحمة أو عذاباً، فإذا أُضيف إلى أحد أنواعه: أُضيف إلى ما يُبيِّنه ويُميِّزه من غيره، كأنه قيل: في المستقرِّ الذي هو رحمتك؛ لا في المستقرِّ الآخر.

ونظير هذا أن يُقال: اجلس في مستقرِّ المسجد؛ أي المستقرُّ الذي هو المسجد، والإضافة في مثل ذلك غير ممتنعةٍ ولا مستكرهةٍ.

وأيضاً: فإن الجنة وإن سُمِّيت رحمة: لم يمتنع أن يُسمى ما فيها من أنواع النعيم رحمة، ولا ريب أن مستقرَّ ذلك النعيم: هو الجنة، فالداعي

---

(١) الأدب المفرد للبخاري [باب من كره أن يقال: اللّهُمَّ اجعلني في مستقر رحمتك ــ رقم (٧٨٩) ــ ص١٦٦] عن أبي رجاء العطاردي.
وصححه الألباني في [صحيح الأدب المفرد: رقم (٧٦٨) ــ ص٢٨٦].

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٦.

يطلب أن يجمعه الله ومن يُحبُّ في المكان الذي تستقرُّ فيه تلك الرحمة المخلوقة في الجنة، وهذا ظاهرٌ جداً، فلا يمتنع الدعاء بوَجْهٍ، والله أعلم.

وهذا بخلاف قول الداعي: «يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث»[(١)]، فإن الرحمة هنا صفته ــ تبارك وتعالى ــ؛ وهي متعلَّقُ الاستغاثة، فإنه لا يُستغاث بمخلوقٍ، ولهذا كان هذا الدعاء من أدعية الكرب لِمَا تضمَّنه من التوحيد والاستغاثة برحمة أرحم الراحمين؛ متوسِّلاً إليه باسمين عليهما مدار الأسماء الحسنى كلِّها؛ وإليهما مرجع معانيها جميعها، وهو: اسم الحيِّ القيوم.

فإن الحياة مستلزمةٌ لجميع صفات الكمال، ولا يتخلَّف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها: استلزم إثباتها إثبات كلِّ كمالٍ يُضادُّ نفي كمال الحياة، وبهذا الطريق العقليِّ أثبت متكلموا أهل الإثبات له تعالى: صفة السمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال.

وأما القيوم: فهو متضمنٌ كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه؛ لا يحتاج إلى من يُقيمه بوجهٍ من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره؛ فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعِزَّته.

فانتظم هذان الاسمان: صفاتِ الكمال والغنى التام والقدرة التامة، فكأن المستغيث بهما مستغيثٌ بكلِّ اسمٍ من أسماء الربِّ تعالى؛ وبكلِّ صفةٍ

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٩١) ــ الحديث رقم (٣٥٢٤) ــ ٥/ ٤٩٧] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ.
وحسنه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٤٤٧ ــ ٤٤٨].

من صفاته، فما أولى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنَّة تفريج الكربات؛ وإغاثة اللهفات؛ وإنالة الطلبات.

والمقصود: أن الرحمة المستغاث بها: هي صفة الربِّ تعالى؛ لا شيء من مخلوقاته، كما أن المستعيذ بعزَّته في قوله: «أعوذ بعزتك»[1] مستعيذٌ بعزَّته التي هي صفته؛ لا بعزَّته التي خلقها يُعِزُّ بها عباده المؤمنين.

وهذا كلُّه يُقرِّر قول أهل السنة: إن قول النبي ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات»[2]؛ يدلُّ على أن كلماته ـ تبارك وتعالى ـ غير مخلوقة، فإنه لا يُستعاذ بمخلوقٍ.

وأما قوله تعالى ـ حكاية عن ملائكته ـ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[3]. فهذه رحمة الصفة التي وسعت كلَّ شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[4]. وسعتها عموم تعلُّقها بكلِّ شيءٍ، كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلُّقه بكلِّ معلومٍ)[5].

٢ ـ صفة الوجه، حيث قال ـ رحمه الله تعالى ـ في إضافتها إلى الله تعالى: (وجب أن تكون إضافته: إضافة وصفٍ؛ لا إضافة خلقٍ، وهذه الإضافة تنفي أن يكون الوجهُ مخلوقاً؛ وأن يكون حشواً في الكلام.

وفي سنن أبي داود عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم؛ وبوجهه الكريم؛ وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»[6].

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّهُمَّ لك أسلمت وبك آمنت».
(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «من نزل منزلاً ثم قال».
(٣) سورة غافر: الآية ٧.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.
(٥) بدائع الفوائد ٢/ ١٥٧ ـ ١٥٩.
(٦) تقدم تخريجه.

فتأمل كيف قرن في الاستعاذة بين استعاذته بالذات وبين استعاذته بالوجه الكريم؟ وهذا صريحٌ في إبطال قول من قال: إنه الذات نفسها، وقول من قال: إنه مخلوقٌ)[1].

وثمة أمرٌ يحسن التنبيه عليه؛ وهو: أن التسوية بين الإضافتين محالٌ، وذلك يقتضي الخروج عن موجب العقل والفطرة والشرع ولغات الأمم، كما قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (ما كان من الله: فليس بمخلوقٍ، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السماوات والأرض جميعاً منه؛ وهو مخلوقٌ، لأن ذلك كلَّه أعيانٌ قائمة بنفسها؛ وصفاتٌ وأفعالٌ لتلك الأعيان، فإضافتها إلى الله ــ سبحانه ــ؛ وأنها منه: إضافةُ خلقٍ، كإضافة بيته وعبده وناقته وروحه وبابه إليه.

بخلاف كلامه: فإنه لا بُدَّ أن يقوم بمُتكلِّمه، إذ كلامٌ من غير مُتكلِّمٍ؛ كسمعٍ من غير سامعٍ؛ وبصرٍ من غير مُبصرٍ، وذلك عينُ المحال، فإذا أضيف إلى الربِّ: كان بمنزلة إضافة سمعه وبصره وحياته وقدرته وعلمه ومشيئته إليه.

ومن زعم أن هذه إضافة مخلوقٍ إلى خالقٍ: فقد زعم أن الله لا سمع له ولا بصر ولا حياة ولا قدرة ولا مشيئة تقوم به، وهذا هو التعطيل؛ الذي هو شرٌّ من الإشراك.

وإن زعم أن إضافة السمع والبصر والعلم والحياة والقدرة إضافة صفةٍ إلى موصوفٍ؛ فإضافة الكلام إليه إضافة مخلوقٍ إلى خالقٍ: فقد تناقض؛ وخرج عن موجب العقل والفطرة والشرع ولغات الأمم؛ وفرَّق بين متماثلَيْن ــ حقيقة وعقلاً وشرعاً وفطرة ولغة ــ)[2].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩١ ــ ٣٩٢.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٢٢٤.

وقد عقد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في قصيدته النونية فصلاً بعنوان: (التفريق بين ما يُضاف إلى الربِّ تعالى من الأوصاف والأعيان)؛ قال فيه:

(والله أخبر في الكتاب بأنه ... منه ومجرورٌ بمن نوعانِ

عينٌ ووصفٌ قائمٌ بالعين كالـ ... أعيان خلق الخالق الرحمنِ

والوصف بالمجرور قام لأنه ... أولى به في عرف كلِّ لسانِ

ونظير ذا أيضاً سواءٌ ما يُضا ... فُ إليه من صفةٍ ومن أعيانِ

فإضافة الأوصاف ثابتة لمنْ ... قامت به كإرادة الرحمٰنِ

وإضافة الأعيان ثابتة له ... ملكاً وخلقاً ما هما سيانِ

فانظر إلى بيت الإلٰه وعلمه ... لمَّا أُضيف كيف يفترقانِ

وكلامه كحياته وكعلمه ... في ذي الاضافة إذ هما وصفانِ

لكنَّ ناقته وبيت إلٰهنا ... فكعبده أيضاً هما ذاتانِ

فانظر إلى الجهميِّ لما فاته الحقُّ ... المبين وواضح الفرقانِ

كان الجميع لديه باباً واحداً ... والصبحُ لاحَ لمن له عينانِ)[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٧٣٧ ـ ٧٤٧) ـ ص ٨٠].

المبحث السابع :

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (تنزيه صفات الله العلى عن مشابهة صفات المخلوقين)

إنَّ هذه القاعدة العظيمة من قواعد صفات الله العلى: متضمنةٌ لوجوب تنزيه صفات الله العلى عن مشابهة صفات المخلوقين؛ وإن اتفقت هذه الصفات في الاسم العامِّ.

مثال ذلك: أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد (سمَّى صفاته بأسماء؛ وسمَّى صفات عباده بنظير ذلك، فقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[1]. وقال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[2]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[3]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[4]. وسمَّى صفة المخلوق علماً وقوةً؛ فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[5]. وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾[6].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١٦٦.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

(٤) سورة فصلت: الآية ١٥.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٦) سورة يوسف: الآية ٧٦.

وقال: ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾[1]. وقال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾[2]. وقال: ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾[3]. وقال: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾[4]. أي: بقوة. وقال: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ﴾[5]. أي: ذا القوة. وليس العلم كالعلم؛ ولا القوة كالقوة.

وكذلك وصف نفسه بالمشيئة؛ ووصف عبده بالمشيئة، فقال: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩ ﴾[6]. وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ ﴾[7]. وكذلك وصف نفسه بالإرادة؛ ووصف عبده بالإرادة، فقال: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ ﴾[8]. ووصف نفسه بالمحبة؛ ووصف عبده بالمحبة، فقال: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[9]. وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[10]. ووصف نفسه بالرضى؛ ووصف عبده بالرضى، فقال:

---

(١) سورة غافر: الآية ٨٣.

(٢) سورة الروم: الآية ٥٤.

(٣) سورة هود: الآية ٥٢.

(٤) سورة الذاريات: الآية ٤٧.

(٥) سورة ص: الآية ١٧.

(٦) سورة التكوير: الآيتان ٢٨ ــ ٢٩.

(٧) سورة الإنسان: الآيتان ٢٩ ــ ٣٠.

(٨) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

(٩) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(١٠) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾[1]. ومعلومٌ أن مشيئة الله ليست مثل مشيئة العبد؛ ولا إرادته مثل إرادته؛ ولا محبته مثل محبته؛ ولا رضاه مثل رضاه.

وكذلك وصف نفسه بأنه يمقت الكفار؛ ووصفهم بالمقت، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[2]. وليس المقت مثل المقت.

وهكذا وصف نفسه بالمكر والكيد؛ كما وصف عبده بذلك، فقال: ﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ ﴾[3]. وقال: ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ ﴾[4]. وليس المكر كالمكر؛ ولا الكيد كالكيد.

ووصف نفسه بالعمل فقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[5]. ووصف عبده بالعمل، فقال: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[6]. وليس العمل كالعمل.

ووصف نفسه بالمناداة والمناجاة، فقال: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ ﴾[7]. وقال: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ ﴾[8]. وقال: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ ﴾[9]. ووصف عبده بالمناداة والمناجاة، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٩، سورة التوبة: الآية ١٠٠، سورة المجادلة: الآية ٢٢، سورة البينة: الآية ٨.

(٢) سورة غافر: الآية ١٠.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٤) سورة الطارق: الآية ١٦.

(٥) سورة يس: الآية ٧١.

(٦) سورة السجدة: الآية ١٧، سورة الأحقاف: الآية ١٤، سورة الواقعة: الآية ٢٤.

(٧) سورة مريم: الآية ٥٢.

(٨) سورة القصص: الآيات ٦٢؛ ٦٥؛ ٧٤، سورة فصلت: الآية ٤٧.

(٩) سورة الأعراف: الآية ٢٢.

وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[1]. وقال: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾[2].
وقال: ﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[3]. وليس المناداة كالمناداة؛ ولا المناجاة كالمناجاة.

ووصف نفسه بالتكليم في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾[4].
وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[5]. وقوله: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾[6]. ووصف عبده بالتكليم في مثل قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾[7]. وليس التكليم كالتكليم.

ووصف نفسه بالتنبئة؛ ووصف بعض الخلق بالتنبئة، فقال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾[8]. وليس الإنباء كالإنباء.

ووصف نفسه بالتعليم؛ ووصف عبده بالتعليم، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾[9]. وقال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٤.
(٢) سورة المجادلة: الآية ١٢.
(٣) سورة المجادلة: الآية ٩.
(٤) سورة النساء: الآية ١٦٤.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.
(٧) سورة يوسف: الآية ٥٤.
(٨) سورة التحريم: الآية ٣.
(٩) سورة الرحمن: الآيات ١ ـ ٤.

عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾[(١)]. وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[(٢)]. وليس التعليم كالتعليم.

وهكذا وصف نفسه بالغضب، فقال: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾[(٣)]. ووصف عبده بالغضب فى قوله: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾[(٤)]. وليس الغضب كالغضب.

ووصف نفسه بأنه استوى على عرشه، فذكر ذلك فى سبع مواضع من كتابه أنه: ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[(٥)]. ووصف بعض خلقه بالاستواء على غيره، فى مثل قوله: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾[(٦)]. وقوله: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾[(٧)]. وقوله: ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾[(٨)]. وليس الاستواء كالاستواء.

ووصف نفسه ببسط اليدين فقال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[(٩)]. ووصف بعض خلقه ببسط

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.
(٣) سورة الفتح: الآية ٦.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٥٤، سورة يونس: الآية ٣، سورة الرعد: الآية ٢، سورة الفرقان: الآية ٥٩، سورة السجدة: الآية ٤، سورة الحديد: الآية ٤. والموضع السابع في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾ [سورة طه: الآية ٥].
(٦) سورة الزخرف: الآية ١٣.
(٧) سورة المؤمنون: الآية ٢٨.
(٨) سورة هود: الآية ٤٤.
(٩) سورة المائدة: الآية ٦٤.

اليد في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[1]. وليس اليد كاليد؛ ولا البسط كالبسط، وإذا كان المراد بالبسط الإعطاء والجود: فليس إعطاء الله كإعطاء خلقه؛ ولا جوده كجودهم، ونظائر هذا كثيرة.

فلا بُدَّ من إثبات ما أثبته الله لنفسه؛ ونفي مماثلته بخلقه.

فمن قال: ليس لله علمٌ ولا قوةٌ ولا رحمةٌ ولا كلامٌ؛ ولا يُحبُّ ولا يرضى؛ ولا نادى ولا ناجى ولا استوى: كان مُعطِّلاً جاحداً؛ مُمثِّلاً لله بالمعدومات والجمادات.

ومن قال: له علمٌ كعلمي أو قوةٌ كقوتي؛ أو حبٌّ كحبِّي أو رضاءٌ كرضائي؛ أو يدان كيداي او استواءٌ كاستوائي: كان مُشبِّهاً مُمثِّلاً لله بالحيوانات.

بل لا بد من إثباتٍ بلا تمثيلٍ؛ وتنزيهٍ بلا تعطيلٍ)[2].

ومما يدلُّ على أن جميع ما تقدَّم من التشابه في الأسماء بين صفات الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وصفات خلقه: لا يستلزم التشابه في حقيقة هذه الصفات: أمورٌ؛ منها:

١ ـ أن (الربَّ تعالى مستحقٌّ للكمال؛ مختصٌّ به على وجهٍ لا يُماثله فيه شيءٌ، فليس له سميٌّ ولا كفؤٌ، سواء كان الكمال مما لا يثبت منه شيءٌ للمخلوق؛ كربوبية العباد والغنى المطلق ونحو ذلك. أو كان مما

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

(٢) القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/ ١٢ ـ ١٦ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

وما تضمنته هذه القاعدة الفريدة من هذا المعاني المفيدة: مستفادٌ من (كتاب التوحيد وإثبات صفات الربِّ عزَّ وجلّ) لابن خزيمة ١/ ٥٩ ـ ٨٠

يثبت منه نوعٌ للمخلوق، فالذي يثبت للخالق منه: نوعٌ هو أعظم مما يثبت من ذلك للمخلوق؛ عظمة هي أعظم من فضل أعلى المخلوقات على أدناها)[1].

٢ ــ أن الربَّ تعالى كما يجب تنزيهه (عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ: يجب تنزيهه عن أن يُماثله شيءٌ من المخلوقات في شيءٍ من صفات الكمال الثابتة له)[2]، لأن ما يُقدَّر في صفات المخلوقين (من الكمال؛ من العلم والقدرة وغير ذلك: هو مقرونٌ بالحاجة والحدوث والإمكان)[3].

٣ ــ أن القدر المشترك بين صفات الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ وصفات خلقه غير مستلزمٍ لإثبات ما يمتنع على الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ ولا نفي ما يستحقُّه، وإذا كان ذلك كذلك: لم يكن هذا القدر المشترك ممتنعاً[4].

٤ ــ أن التشابه في الأسماء بين صفات المخلوقين: لا يستلزم التشابه في حقيقة هذه الصفات، بل (بينهما من التفاضل والتباين ما لا نعلمه في الدنيا؛ ولا يمكن أن نعلمه، بل هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ــ تبارك وتعالى ــ : فصفات الخالق ــ عزَّ وجلّ ــ أولى أن يكون بينها وبين صفات

---

(١) الرسالة الأكملية لابن تيمية ٦/ ١٣٩ ــ ١٤٠ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ١٧/ ٣٢٥ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) الرسالة الأكملية لابن تيمية ٦/ ١١٨ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٤) انظر: القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/ ٧٤ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

المخلوقين من التباين والتفاضل ما لا يعلمه إلا الله ــ تبارك وتعالى ــ)[1].

فإذا تبيَّن هذا: عُلِمَ أنه كما لا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه: كذلك يجب تنزيهها وعدم (تمثيلها بصفات المخلوقين، بل هو ــ سبحانه ــ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[2].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وقال نعيم بن حماد[3]: (من شبّه الله بخلقه: فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه: فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله: تشبيهاً)[4])[5].

---

(١) سؤال في حديث النزول وجوابه لابن تيمية ٥/ ٣٤٩ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) هو: أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية الخزاعي المروزي، العلامة الحافظ، أول من جمع المسند، توفي بسامرا ــ محبوساً بسبب محنة القرآن ــ سنة ثمان وعشرين ومائتين.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٤٦٣ ــ ٤٦٤، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٥٩٥ ــ ٦١٢، طبقات الحفاظ للسيوطي ص١٨٤.

(٤) أخرجه مسنداً الذهبي في [العرش ٢/ ٢٣٨ ــ ٢٣٩]، و[العلو للعليِّ العظيم ٢/ ١٠٩٣]، و[سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦١٠؛ ١٣/ ٢٩٩].
وصححه الألباني في [مختصر العلو للعلي الغفار: رقم (٢١٧) ــ ص١٨٤].
وذكره ــ غير مُسنِدٍ ــ: اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/ ٥٣٢، وعبد الغني المقدسي في الاقتصاد في الاعتقاد ص٢١٧، وابن قيم الجوزية في اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٢٢١، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٢٧، وابن أبي العزِّ الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية ص١١٧ ــ ١١٨.

(٥) سؤال في الاستواء والنزول: هل هو حقيقة أم لا؟ وجوابه لابن تيمية ٥/ ١٩٥ ــ =

وقد نصَّ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على هذه القاعدة العظيمة؛ مبيِّناً أن صفات الله العلي منزَّهة عن مشابهة صفات المخلوقين؛ فقال: (﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]: في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل هو مُنَزَّهٌ عن مشابهة خلقه في شيءٍ من ذلك)[2].

كما نبَّه ــ رحمه الله تعالى ــ على أصل هذه القاعدة؛ فقال: (ما هو من خصائص المخلوقين: فلا ريب في انتفائه عنه ــ سبحانه ــ، لأن كماله المقدس ينفيه، فإثباته نقصٌ وعيبٌ)[3].

وقد قرَّب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ صورة هذه القاعدة العظيمة إلى الأذهان؛ فضرب لها بعض الأمثلة من صفات الرحمن، فمن ذلك:

١ ــ صفة الرحمة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (تُثبت لله تعالى الرحمة حقيقة؛ كما أثبتها لنفسه منزَّهةً مبرَّأةً عن خواصِّ صفات المخلوقين، كما نقوله في سائر صفاته؛ من إرادته وسمعه وبصره وعلمه وحياته وسائر صفات كماله)[4].

٢ ــ صفة الإرادة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في القياس التمثيلي: (هو منتقضٌ بسائر الأمور الفارقة بين الله وبين خلقه، ومن جملتها: الإرادة والمحبة والرضى.

= ١٩٦ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٤٤.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٤٢.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٢١.

فإن الإنسان إذا أراد الفعل ــ وهو قادرٌ عليه ــ : وجب وجوده منه، والله تعالى مريدٌ لجميع الكائنات؛ وهو قادرٌ عليها، ومع هذا فلا تُوجد إلا في مواقيتها؛ لا تُوجد قبل ذلك، والعبد يقع مراده حين قدرته عليه، والله تعالى متأخرٌ مراده مع دوام قدرته عليه)[1].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأحكام المستنبطة من فقه هذه القاعدة العظيمة، فمن ذلك:

١ ــ أن نفي خصائص صفات المخلوقين عن الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ لا يقتضي نفي أصل الصفة عنه، ولا إثبات أصل الصفة للخالق ــ سبحانه وتعالى ــ يقتضي إثبات خصائص المخلوق له، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (معلومٌ أن نفي خصائص صفات المخلوقين عن الخالق: لا يقتضي نفي أصل الصفة عنه ــ سبحانه ــ ، ولا إثبات أصل الصفة له: يقتضي إثبات خصائص المخلوق له، كما أن ما نُفِيَ عن صفات الربِّ تعالى من النقائص والتشبيه: لا يقتضي نفيه عن صفة المخلوق، ولا ما ثبت لها من الوجوب والقدم والكمال: يقتضي ثبوته للمخلوق، ولا إطلاق الصفة على الخالق والمخلوق.

وهذا مثل: الحياة والعلم، فإن حياة العبد تعرض لها الآفات المضادة لها من المرض والنوم والموت، وكذلك علمه يعرض له النسيان والجهل المضاد له، وهذا محالٌ في حياة الربِّ وعلمه.

فمن نفى علم الربِّ وحياته لما يعرض فيهما للمخلوق: فقد أبطل، وهو نظير نفي من نفى رحمة الربِّ وعلمه، فمن نفى رحمة الربِّ عنه لما يعرض في رحمة المخلوق من رقَّة الطبع؛ وتوهُّم المتوهِّمِ أنه لا تُعقل رحمةٌ

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٦٦.

إلا هكذا: نظير توهُّم المتوهِّمِ أنه لا يُعقل علمٌ ولا حياةٌ ولا إرادةٌ إلا مع خصائص المخلوق.

وهذا الغلط منشؤُه: إنما هو توهُّم صفة المخلوق المقيدة به أولاً، وتوهُّم أن إثباتها لله هو مع هذا القيد، وهذان وهمان باطلان)[1].

٢ ـ أن الصفة إن كانت اسماً للقدر الكامل الذي لا يستلزم نقصاً: فهي ثابتةٌ للربِّ تعالى حقيقة، وإن كانت اسماً للقدر الممدوح الذي يستلزم نقصاً: فالثابت للربِّ تعالى القدر الممدوح دون ما يلزمه من النقص، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن الرحمة مقرونةٌ في حقِّ العبد بلوازم المخلوق؛ من الحدوث والنقص والضعف وغيره، وهذه اللوازم ممتنعةٌ على الله تعالى، فإما أن تكون الرحمة اسماً للقدر الممدوح فقط؛ أو الممدوح وما يلزمه من النقص.

فإن كانت اسماً للقدر الكامل الذي لا يستلزم نقصاً؛ وذلك ثابتٌ للربِّ تعالى: كانت حقيقة في حقِّه قطعاً، وإن كانت اسماً للمجموع: فالثابت للربِّ تعالى: هو القدر الذي لا نقص فيه)[2].

٣ ـ أن خصائص المخلوقين غير داخلة في اسم الصفة العامِّ؛ فضلاً عن دخولها في اسم الصفة الخاصِّ المضاف إلى الربِّ تعالى، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (خصائص المخلوقين لا يجوز إثباتها لربِّ العالمين، بل الصفة المضافة إلى الله لا يلحقه فيها شيءٌ من خصائصهم، فإثباتها له كذلك لا يحتاج معه إلى تأويل، فإن الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[3].

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٦.
(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

وقد تقدم أن خصائص المخلوقين غير داخلة في الاسم العامِّ؛ فضلاً عن دخولها في الاسم الخاصِّ المضاف إلى الربِّ تعالى، وأنها لا يدلُّ اللفظ عليها بوضعه حتى يكون نفيها عن الربِّ تعالى صرفاً للَّفظ عن حقيقته.

ومن اغتفر دخولها في الاسم المضاف إلى الربِّ؛ ثم توسَّل بذلك إلى نفي الصفة عنه: فقد جمع بين التشبيه والتعطيل، وأما من لم يُدخلها في مسمى اللفظ الخاص ولا أثبتها للموصوف: فقوله محض التنزيه؛ وإثبات ما أثبت الله تعالى لنفسه.

فتأمَّل هذه النكتة، ولتكن منك على ذكرٍ في باب الأسماء والصفات، فإنها تُزيل عنك الاضطراب والشبهة، والله تعالى الموفق للصواب)[1].

ومما يدلُّ على أهمية فقه هذه القاعدة العظيمة: أن تنزيه صفات الله تعالى عن مشابهة صفات المخلوقين هو أحد الأمور التي لا يصحُّ إيمان العبد بصفات الله العلى حتى يُؤمن بها ويعتقدها، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (إثباتها أولاً، ومعرفتها ثانياً، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثاً، ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها رابعاً.

فلا يصح له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة، وكلَّما أكثر قلبه من مطالعتها ومعرفة معانيها: ازدادت محبته للموصوف بها، ولذلك كانت الجهميةُ قُطَّاعَ طريق المحبة، بين المحبين وبينهم: السيف الأحمر)[2].

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير بعض اللوازم الباطلة التي تلزم من نَفَى صفات الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ لتوهُّمه

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٧٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٠.

مشابهتها لصفات المخلوقين، فمن تلك اللوازم المقرَّرة في كلامه ـ رحمه الله تعالى ـ :

١ ـ أن من نفى عن الربِّ ـ سبحانه وتعالى ـ صفة من صفاته ـ لهذا الوهم الباطل ـ : لزمه نفي جميع صفات كماله، كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الصفة الثابتة لله مضافةٌ إليه لا يُتوهم فيها شيءٌ من خصائص المخلوقين؛ لا في لفظها ولا في ثبوت معناها.

وكلُّ من نفى عن الربِّ تعالى صفة من صفاته لهذا الخيال الباطل: لزمه نفي جميع صفات كماله، لأنه لا يُعقل منها إلا صفةُ المخلوق، بل ويلزمه نفي ذاته؛ لأنه لا يُعقل من الذَّوات إلا الذَّوات المخلوقة.

ومعلومٌ أن الربَّ ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُشبهه شيءٌ منها)[1].

٢ ـ أن الصفة القديمة متى أشبهت صفات المخلوقين: لزم وقوع التشبيه بين الذاتين، كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إذا قيل: يد الله ووجهه؛ وسمعه وبصره؛ وحياته وعلمه؛ وقدرته ومشيئته؛ وإتيانه واستواؤه: كان ذلك حقيقة، والمضاف فيه بحسب المضاف إليه، فإذا لم يكن المضاف إليه مماثلاً لغيره: لزم أن يكون المضاف كذلك ضرورة.

فدعوى لزوم التشبيه والتمثيل في إثبات المضاف حقيقة: زعمٌ كاذبٌ، فإن لزم من إثبات اليد حقيقة لله التمثيلَ والتشبيهَ: لزم ذلك في إثبات سائر الصفات حقيقة، ويلزم ذلك في إثبات صفاته، فإن الصفة القديمة متى أشبهت صفات المخلوقين: لزم وقوع التشبيه بين الذاتين)[2].

---

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٥.
(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٣٧٨.

٣ ــ أن الربَّ ــ سبحانه وتعالى ــ لو كان مُماثلاً لخلقه: للزم من صفاته خصائص صفاتهم؛ ضرورة ثبوت أحد المثلين للآخر، كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن الأوهام الباطلة والعقول الفاسدة لما فهمت من نزول الربِّ ومجيئه وإتيانه وهبوطه ودُنُوِّه ما يُفهم من مجيء المخلوق وإتيانه وهبوطه ودُنُوِّه ــ وهو أن يفرغ مكاناً ويشغل مكاناً ــ : نفت حقيقة ذلك، فوقعت في محذورين: محذور التشبيه ومحذور التعطيل.

لو عَلِمَتْ هذه العقول الضعيفة أن نزوله ــ سبحانه ــ ومجيئه وإتيانه لا يُشبه نزول المخلوق وإتيانه ومجيئه؛ كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك؛ بل يده الكريمة ووجهه الكريم كذلك، وإذا كان نزولاً ليس كمثله نزولٌ؛ فكيف تُنفى حقيقته؟

فإن لم تنف المعطلة حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله بالكلية؛ وإلا تناقضوا، فإنهم أيُّ معنى أثبتوه: لزمهم في نفيه ما ألزموا به أهل السنة المثبتين لله ما أثبت لنفسه، ولا يجدون إلى الفرق سبيلاً.

فلو كان الربُّ ــ سبحانه ــ مماثلاً لخلقه: لزم من نزوله خصائص نزولهم؛ ضرورة ثبوت أحد المثلين للآخر)[1].

٤ ــ أن من لم يُميِّز بين الصفة القديمة وبين الصفة الحادثة؛ ويُفصِّل بينهما: فقد فارق الدليل، وضلَّ عن سواء السبيل، كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إنك إذا أخذت لوازم المشترك والمميز؛ وميَّزت هذا من هذا: صحَّ نظرك ومناظرتك، وزال عنك اللبس والتلبيس، وذلك أن الصفة يلزمها لوازم من حيث هي هي، فهذه اللوازم يجب إثباتها؛ ولا يصحُّ نفيها، إذ نفيها ملزومٌ كنفي الصفة.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٩.

مثاله: الفعل والإدراك للحياة، فإن كلَّ حيٍّ فعالٌ مُدركٌ، وإدراك المسموعات بصفة السمع، وإدراك المبصرات بصفة البصر، وكشف المعلومات بصفة العلم، والتمييز لهذه الصفات، فهذه اللوازم ينتفي رفعها عن الصفة؛ فإنها ذاتية لها، ولا يرتفع إلا برفع الصفة، ويلزمها لوازم من حيث كونها صفة للقديم، مثل كونها واجبة قديمة عامة التعلق.

فإنَّ صفة العلم واجبةٌ لله؛ قديمةٌ غير حادثة؛ متعلِّقةٌ بكلِّ معلومٍ على التفصيل، وهذه اللوازم منتفيةٌ عن العلم الذي هو صفة للمخلوق، ويلزمها لوازم من حيث كونها صفة له، مثل كونها ممكنة حادثة بعد أن لم تكن؛ مخلوقة غير صالحة للعموم مفارقة له، فهذه اللوازم يستحيل إضافتها إلى القديم.

واجعل هذا التفصيل ميزاناً لك في جميع الصفات والأفعال، واعتصم به في نفي التشبيه والتمثيل، وفي بطلان النفي والتعطيل، واعتبره في العُلُوِّ والاستواء: تجد هذه الصفة يلزمها كون العالي فوق السافل في القديم والحديث، فهذا اللازم حقٌّ لا يجوز نفيه، ويلزمها كون السافل حاوياً للأعلى؛ محيطاً به؛ حاملاً له؛ والأعلى مفتقرٌ إليه، وهذا في بعض المخلوقات لا في كلِّها، بل بعضها لا يفتقر فيه الأعلى إلى الأسفل؛ ولا يحويه الأسفل؛ ولا يُحيط به؛ ولا يحمله، كالسماء مع الأرض.

فالربُّ تعالى أجلُّ شأناً وأعظم أن يلزم من عُلُوِّه ذلك، بل لوازم عُلُوِّه من خصائصه، وهي حمله للسافل؛ وفقر السافل إليه؛ وغناه ــ سبحانه ــ عنه؛ وإحاطته ــ عزَّ وجلّ ــ به، فهو فوق العرش؛ مع حَمْلِه العرش وحَمَلَتِه، وغناه عن العرش؛ وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش؛ وعدم إحاطة العرش به، وحصره للعرش؛ وعدم حصر العرش له.

وهـذه اللـوازم منتفيـةٌ عـن المخلـوق، وأصحـاب التلبيـس واللبـس لا يُميِّزون هذا التمييز؛ ولا يُفصِّلون هذا التفصيل، ولو ميَّزوا وفصَّلوا: لهدوا إلى سواء السبيل، وعلموا مطابقة العقل الصريح للتنزيل، ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل، وضلُّوا عن سواء السبيل)[1].

(وهٰهنا أمر يجب التنبيه عليه؛ والتنبُّه له، وبمعرفته تزول إشكالاتٌ كثيرةٌ تعرض لمن لم يحط به علماً، وهو: أن)[2] لازم الحقِّ حقٌّ، وما لزم من إثبات كمال الربِّ: فليس بنقصٍ بوجهٍ من الوجوه، وقد نبَّه على هذا الأمر: الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في كلامه عن أهل السنة والحديث؛ فقال: (يقولون نحن أثبتنا لله غاية الكمال ونعوت الجلال، ووصفناه بكلِّ صفةِ كمالٍ، فإن لَزِمَ من هذا تجسيمٌ أو تشبيهٌ: لم يكن هذا نقصاً ولا عيباً ولا ذماً بوجهٍ من الوجوه، فإن لازم الحقِّ حقٌّ، وما لزم من إثبات كمال الربِّ: ليس بنقص.

وأما أنتم) أي: الجهمية (فنفيتم عنه صفات الكمال، ولا ريب أن لازم هذا النفي: وصفُه بأضدادها من العيوب والنقائص.

فما سوَّى الله ولا رسوله ولا عقلاء عباده بين من نفى كماله المقدس حذراً من التجسيم؛ وبين من أثبت كماله الأعظم وصفاته العلى بلوازم ذلك كائنة ما كانت)[3].

ويحسن خَتْمُ تقرير هذه القاعدة العظيمة: بهذا السؤال؛ الذي لن يُسدَّد للجواب عليه إلا من فقه هذه القاعدة؛ فنزَّه صفات ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ عن مشابهة صفات المخلوقين، وقد أورد هذا السؤال الإمام ابن قيم الجوزية

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٢١٨ ــ ١٢٢٠.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٨٩.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٦٣ ــ ٢٦٤.

ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (ما المانع من أن يكون رضاه ومحبته وفرحه: من كماله في نفسه؛ وما هو عليه من الجلال والجمال، ولا يحتاج في ذلك إلى شيءٍ مخلوقٍ، بل يكفي في حصوله جماله وجلاله؟)[1].

وهذا الفصل المتعلِّق بصفات الله العلى: (فصلٌ عظيمُ النفعِ جدًّا)[2]، إذا تأمَّلته (كما ينبغي: فإنه يحلُّ عنك)[3] ـ بإذن الله تعالى ـ (كلَّ إشكالٍ؛ ويُبطل كلَّ خيالٍ)[4] يُتَوهَّم في صفات الكبير المتعال.

❑ ❑ ❑

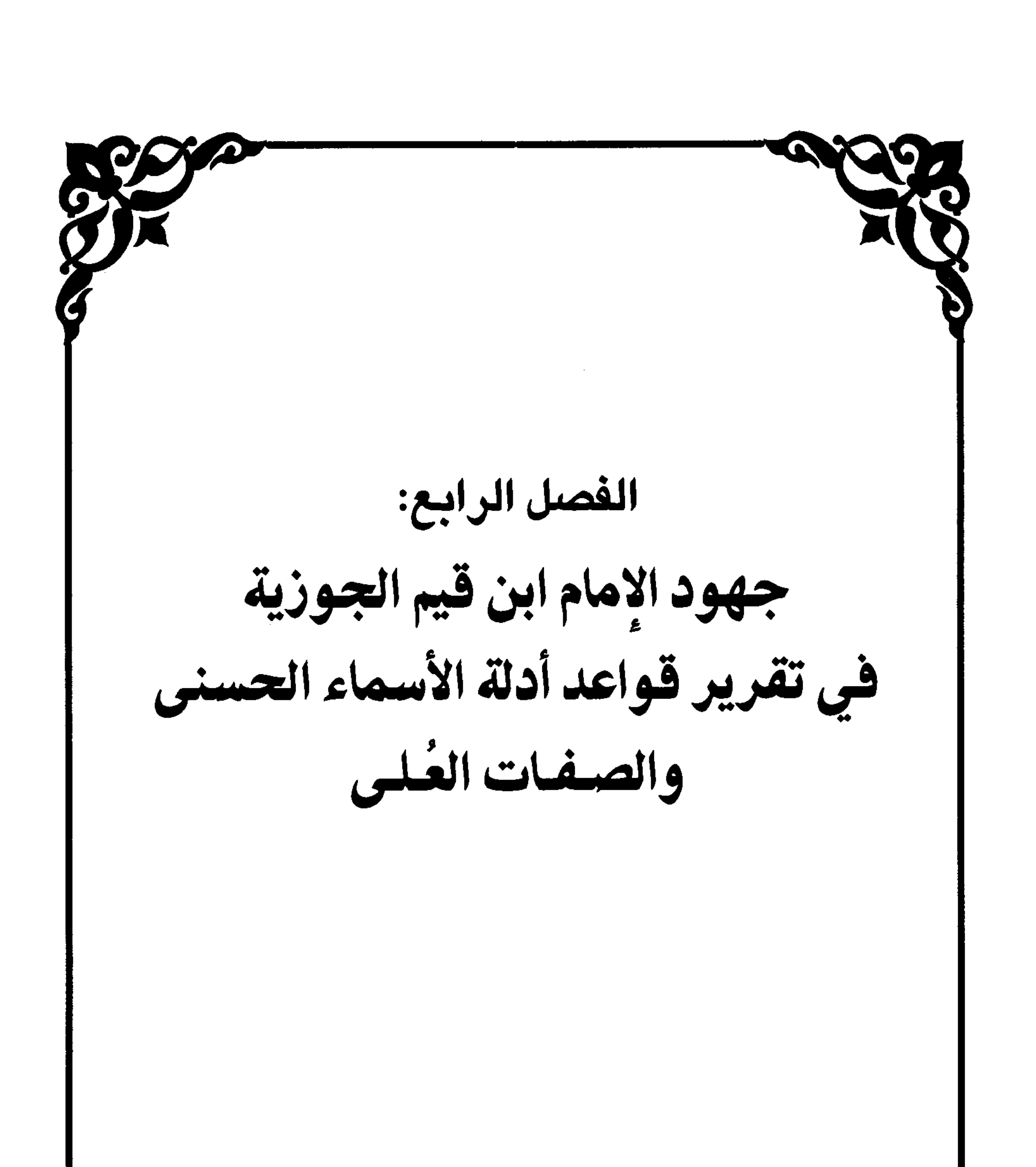
(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٥٢.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٣.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٤٨.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٤.





الفصل الرابع:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قواعد أدلة الأسماء الحسنى والصفات العُلى



المبحث الأول:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (الأدلة التي تثبت بها أسماء الله تعالى وصفاته هي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ)

إنَّ ما أخبر به الرسول ﷺ من أسماء ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ وصفاته؛ سواء مما جاء في الآيات القرآنية الشريفة؛ أو السنّة النبويّة المنيفة: (يجب الإيمان به؛ سواءٌ عرفنا معناه أو لم نعرف؛ لأنه الصادق المصدوق، فما جاء في الكتاب والسنة: وجب على كلِّ مؤمن الإيمان به؛ وإن لم يفهم معناه، وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها، مع أن هذا الباب يُوجد عامتُه منصوصاً في الكتاب والسنة؛ متفقٌ عليه بين سلف الأمة)[1].

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في المصدر الذي تثبت به الأسماء الحسنى والصفات العلى وهو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وما يقوم به شياطين الإنس من إدخال الباطلِ على الإنسان في كلِّ قالبٍ يقبله ويخفُّ عليه؛ وإخراج الحقِّ له في كلِّ قالب يكرهه ويثقل عليه: (وإذا شئتَ أن تعرف ذلك: فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس

(١) القاعدة التدمرية لابن تيمية ٣/٤١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

كيف يُخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: في قالب كثرة الفضول؛ وتتبع عثرات الناس؛ والتعرُّض من البلاء ما لا يطيق؛ وإلقاء الفتن بين الناس؛ ونحو ذلك.

ويُخرجون اتِّباع السُّنَّة؛ ووصف الربِّ تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ: في قالب التشبيه والتجسيم والتكليف، ويُسمُّون عُلُوَّ الله على خلقه؛ واستواءه على عرشه؛ ومباينته لمخلوقاته: تحيُّزاً، ويُسمُّون نزوله إلى سماء الدنيا؛ وقوله: «من يسألني فأعطيه»[1]: تحركاً وانتقالاً، ويُسمُّون ما وصف به نفسه من اليد والوجه: أعضاء وجوارح، ويُسمُّون ما يقوم به من أفعاله: حوادث، وما يقوم من صفاته: أعراضاً، ثم يتوصَّلون إلى نفي ما وصف به نفسه بهذه الأمور، ويُوهمون الأغمار وضعفاء البصائر: أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: تستلزم هذه الأمور، ويُخرجون هذا التعطيل في: قالب التنزيه والتعظيم.

وأكثر الناس: ضعفاء العقول، يقبلون الشيء بلفظ؛ ويردُّونه بعينه بلفظ آخر، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[2].

فسماه زخرفاً؛ وهو باطلٌ، لأن صاحبه يُزخرفه ويُزَيِّنه ما استطاع، ويُلقيه إلى سمع المغرور فيغترَّ به)[3].

وقد تقدَّم مستوفى تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في الاستدلال بالكتاب العزيز والسنة النبوية المطهَّرة على إثبات توحيد أسماء الله الحسنى

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «ينزل ربنا كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا».
(٢) سورة الأنعام: الآية ١١٢.
(٣) الداء والدواء ص١٥٣ ــ ١٥٤.

وصفاته العلى؛ وأن أحدهم قد ارتضع فهم باب أسماء الله تعالى وصفاته (من ثدي الوحي وما انفصل عنه بفطام، واقتبس النور من مشكاته فاستنار به في سُدَفِ الظلام)[1].

وما تضمَّنه هذا المبحث من ذكر الأدلة التي تثبت بها أسماء الله تعالى وصفاته؛ وهي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ إنما هي إشارةٌ؛ (تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطَّلع منها على أرضٍ مونقةٍ؛ وكنوزٍ من المعرفة، وبالله التوفيق)[2].



(١) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٤٨.
(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٩٥.



المبحث الثاني:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (الواجب في أدلة الأسماء والصفات الواردة في القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف)

إنَّ الواجب في أسماء الله تعالى وصفاته التي نطقت بها الأدلة الشرعية أن تُجرى على ظاهرها اللائق بجمال الله تعالى وجلاله وكماله، لأن صرفها عن معناها الحقيقي المفهوم منها إلى معنى باطنٍ يُخالف ظاهرها؛ ومجازٍ ينافي حقيقتها: لا بُدَّ فيه من أربعة أمور:

الأمر الأول: أنَّ ذلك اللفظ مستعملٌ بالمعنى المجازي، لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاء باللسان العربي، ولا يجوز أن يُراد بشيءٍ منه خلاف لسان العرب أو خلاف الألسنة كلِّها، وإلا فيمكن لكلِّ مبطلٍ أن يُفسِّر أيَّ لفظٍ بأيِّ معنى سَنَحَ له؛ وإن لم يكن له أصلٌ في اللغة.

الأمر الثاني: أن يكون معه دليلٌ يُوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه، وإلا فإذا كان يُستعمل فى معنى بطريق الحقيقة؛ وفي معنى بطريق المجاز: لم يجز حمله على المجاز بغير دليلٍ يُوجب الصرف بإجماع العقلاء.

الأمر الثالث: أنه لا بُدَّ من أن يسلم ذلك الدليل الصارف عن معارضٍ،

وإلا فإذا قام دليلٌ قرآنيٌّ أو إيمانيٌّ يُبيِّن أن الحقيقة مرادةٌ: امتنع تركها.

الأمر الرابع: أنَّ الرسول إذا تكلَّم بكلامٍ وأراد به خلاف ظاهره وضدَّ حقيقته؛ ولم يُبيِّن للأمة أنه لم يُرد حقيقته؛ وأنه أراد مجازه: كان هذا تدليساً وتلبيساً، وكان نقيض البيان وضدَّ الهدى[1].

فدلَّت هذه الأمور الأربعة على: أن الواجب في أدلة الأسماء والصفات الواردة في القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف.

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير هذه القاعدة؛ مبيِّناً وجوب إجراء أدلة الأسماء الحسنى والصفات العلى على ظاهرها؛ لأنها (أظهر الألفاظ والمعاني في القرآن والسنة)[2]، كما يجب إجارتها من التحريف الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم؛ (وذمَّه حيث ذكره)[3].

ويحسن قبل البدء بتقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه القاعدة: أن يُذكر تعريفه ــ رحمه الله تعالى ــ للتحريف؛ وبيانه لنَوْعَيْهِ؛ وإشارته إلى الأصل الذي أُخذ منه، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (التحريف: العدول بالكلام عن وجهه؛ وصوابه إلى غيره.

وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه.

والنوعان مأخوذان من الأصل عن اليهود؛ فهم الراسخون فيهما، وهم شيوخ المحرِّفين وسلفهم، فإنهم حرَّفوا كثيراً من ألفاظ التوراة، وما غُلبوا

---

(١) انظر: الرسالة المدنية في الحقيقة والمجاز في الصفات لابن تيمية ٦/ ٣٦٠ ــ ٣٦٢ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٢٩.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢١٥.

عن تحريف لفظه: حرَّفوا معناه، ولهذا وُصفوا بالتحريف في القرآن دون غيرهم من الأمم)[١].

وقد بيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ تعريف تحريف اللفظ؛ معدِّداً أنواعه؛ فقال: (تحريف اللفظ: العدول به عن جهته إلى غيرها، إما بزيادة؛ وإما بنقصان، وإما بتغيير حركة إعرابية؛ وإما غير إعرابية، فهذه أربعة أنواع)[٢].

ثم بيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ بعد ذلك تعريف تحريف المعنى؛ فقال: (هو اصطلاحٌ حادثٌ؛ لم يُعهد به استعمالٌ في اللغة، وهو العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته؛ وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر بقدرٍ ما مشترك بينهما)[٣].

والفرق بين نوعيْ التحريف: أن تحريف اللفظ: يتناول اللفظ والمعنى، وأما تحريف المعنى: فيتناول المعنى دون اللفظ، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (التحريف نوعان: تحريف اللفظ: وهو تبديله. وتحريف المعنى: وهو صرف اللفظ عنه إلى غيره؛ مع بقاء صورة اللفظ)[٤].

وقد جاءت نصوص الوحيين الشريفين المثبتة لأسماء الله الحسنى وصفاته العلى: متضمنة لرفع ما يُوهم خلاف ظاهرها اللائق بالله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ وأن الواجب فيها: هو إجراؤها على ظاهرها دون تحريف، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إذا تأمل من بصَّره الله طريقة القرآن والسنة: وجدها متضمنة لرفع ما يُوهمه الكلام من خلاف ظاهره.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٢١٥.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٣٦٧.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٣٥٨.

وهذا موضعٌ لطيفٌ جداً في فهم القرآن؛ نُشير إلى بعضه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾[1].

رفع ـ سبحانه ـ توهُّم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المؤكد؛ الذي لا يشكُّ عربيُّ القلب واللسان: أن المراد به إثبات تلك الحقيقة، كما تقول العرب: مات موتاً، ونزل نزولاً[2].

ونظيره: التأكيد بالنفس والعين وكل وأجمع، والتأكيد بقوله: حقاً ونظائره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[3].

فلا يشكُّ صحيح الفهم ألبتة في هذا الخطاب: أنه نصٌّ صريحٌ لا يحتمل التأويل بوجهٍ في إثبات صفة السمع للربِّ تعالى حقيقة، وأنه بنفسه سمع)[4].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦٤.

(٢) وهو المسمى بـ : التوكيد اللفظي، وهو: تكرار اللفظ الأول بعينه اعتناء به.
وقد أشار إليه ابن مالك في [الألفية في النحو والصرف: ص٤٦] بقوله:
(ومـا مـن التـوكيـد لفظـيٌّ يجـي مُكـرَّراً كقـولـك ادرجـي ادرجـي).
وانظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ٣/ ٧٩ ـ ٨٢، ضياء السالك إلى أوضح المسالك لابن هشام ٣/ ١٦١ ـ ١٦٢، التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل ٢/ ١٦١ ـ ١٦٢.

(٣) سورة المجادلة: الآية ١.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٥) سورة التكوير: الآية ٢٨.

فأثبت لهم مشيئة، فلعلَّ مُتوهِّماً يتوهَّم استقلاله بها؛ وأنه إن شاء أتى بها، وإن شاء لم يأت بها، فأزال ـ سبحانه ـ ذلك بقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1].

ثم لعلَّ متوهِّماً يتوهَّم: أنه يشاء الشيء بلا حكمة؛ ولا علم بمواقع مشيئته وحيث تصلح، فأزال ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾[2])[3].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾[4]، فلما ذكر إتيانه ـ سبحانه ـ: ربما توهَّم متوهِّم أن المراد إتيان بعض آياته؛ أزال هذا الوهم ورفع الإشكال بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[5]، فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع: نصاً صريحاً في معناه لا يحتمل غيره.

وإذا تأمَّلت أحاديث الصفات: رأيت هذا لائحاً على صفحاتها؛ بادياً على ألفاظها، كقوله ﷺ: «إنكم ترون ربكم عياناً كما تُرى الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب، وكما يُرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»[6].

وقوله: «ما منكم إلا من سيكلِّمه ربُّه؛ ليس بينه وبينه ترجمان يترجم

---

(1) سورة الإنسان: الآية ٣٠، سورة التكوير: الآية ٢٩.

(2) سورة النساء: الآيتان ١١؛ ٢٤، سورة الأحزاب: الآية ١، سورة الإنسان: الآية ٣٠.

(3) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(4) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(5) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(6) تقدم تخريجه، ولفظه: «هل تمارون في القمر ليلة البدر».

له، ولا حاجبٌ يحجبه»[1].

فلما كان تكليم الملوك قد يقع بواسطة الترجمان؛ ومن وراء الحجاب: أزال هذا الوهم من الأفهام.

وكذلك الحديث الآخر: «أنه ﷺ قرأ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[2]. وضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه»[3]، رفعاً لتوهُّم أن المراد بالسمع والبصر غير الصفتين المعلومتين.

وأمثال هذا كثيرٌ في القرآن والسنة، كما في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «يقبض الله سماواته بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم جعل رسول الله ﷺ يقبض يده ويبسطها»[4]، تحقيقاً لإثبات اليد؛ وإثبات صفة القبض.

ومن هذا: إشارته بأصبعه إلى السماء حين استشهد ربه ـ تبارك وتعالى ـ على الصحابة أنه قد بلَّغهم؛ تحقيقاً لإثبات صفة العُلُوِّ وأن الربَّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ ـ الحديث رقم (٧٤٤٣) ـ ٥/ ٢٣٢٤ ـ ٢٣٢٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب الزكاة/ باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار ـ الحديث رقم (١٠١٦) ـ ٢/ ٧٠٣ ـ ٧٠٤] من حديث عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه: «ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلمه ربُّه».

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٤.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الإيمان ـ الحديث رقم (٦٣) ـ ١/ ٧٥ ـ ٧٦] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إنه كان سميعاً بصيراً﴾».

قال الذهبي في [التلخيص]: (على شرط مسلم).

(٤) تقدم تخريجه، ولفظه: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرض».

الذي استشهده فوق العالم؛ مستوٍ على عرشه[1].

فهذه أمثلةٌ يسيرةٌ ذكرناها ليعرف الفَهِمُ المنصفُ القاصدُ للهدى والنجـاة منهـا مـا يقبـل التـأويـل؛ ومـا لا يقبلـه، ولا عبـرة بغيـره، والله المستعان)[2].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ثمرة فقه هذه القاعدة الباعث على الإيمان بظاهر أدلة الأسماء والصفات الواردة في القرآن والسنة؛ وإجارتها من التحريف؛ فقال: (أنت إذا تدبَّرت القرآن؛ وأجرته من التحريف وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين: أشهدك ملكاً قيوماً فوق سماواته على عرشه؛ يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويُرسل الرسل؛ ويُنزل الكتب، ويرضى ويغضب؛ ويُثيب ويُعاقب، ويُعطي ويمنع؛ ويُعِزُّ ويُذِلُّ؛ ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبعٍ ويسمع؛ ويعلم السرَّ والعلانية، فعَّالٌ لما يريد، موصوفٌ بكلِّ كمالٍ؛ مُنزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ، لا تتحرك ذرةٌ فما فوقها إلا بإذنه؛ ولا تسقط ورقةٌ إلا بعلمه، ولا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه؛ ليس لعباده من دونه وليٌّ ولا شفيعٌ)[3].



---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الحج/ باب حجة النبي ﷺ ـ الحديث رقم (١٢١٨) ـ ٢/ ٨٨٦ ـ ٨٩٢] من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ، وأوله: «إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج».

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧.

(٣) الفوائد ص٨٢.



المبحث الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار ومجهولة باعتبار آخر)

إنَّ الواجب على كلِّ مؤمنٍ بالله تعالى: أن يعلم أنَّ الذات المقدَّسة للإلـٰه المعبود ــ سبحانه ــ معلومة للعباد من حيث الجملة؛ وإن كانت لا تُماثل ذوات المخلوقين، كما أن الصفات العلى القائمة بهذه الذات المقدَّسة لها أحكامٌ وآثارٌ؛ وإن كانت لا تُدرك لها كيفية.

فيجب على كلِّ عبدٍ: أن يُؤمن بذلك، كما يجب عليه أن يُؤمن بأن له رباً وخالقاً ومعبوداً؛ وإن كان لا يعلم كنه شيءٍ من ذلك، وهذا غاية علم الخلق؛ أن يعلموا من صفات الله العلى بعض جهاتها؛ ولا يُحيطوا بكنهها[1].

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير هذه القاعدة؛ مبيناً أن الآيات الكريمة التي تضمنت إثبات صفات الله العلى: محكمةٌ باعتبار المعنى؛ متشابهةٌ باعتبار الكيفية، فمعاني هذه الآيات

(١) انظر: الرسالة المدنية في الحقيقة والمجاز في الصفات لابن تيمية ٦/٣٥٧ ــ ٣٥٨ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

الكريمة: (من أَبْيَن الكتاب إحكاما)[1]، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (التشابه والإحكام نوعان: تشابهٌ وإحكامٌ يعمُّ الكتاب كلَّه، وتشابهٌ وإحكامٌ يخصُّ بعضه دون بعضٍ.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[2]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[3]، وقوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾[4].

والثاني: كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[5].

فإن أردتم بتشابه آيات الصفات النوع الأول: فنَعَم؛ هي متشابهةٌ غير متناقضةٌ، يُشبه بعضها بعضاً، وكذلك آيات الأحكام.

وإن أردتم أنه يشتبه المراد بها بغير المراد: فهذا وإن كان يعرض لبعض الناس؛ فهو أمرٌ نسبيٌّ إضافيٌّ، فيكون متشابهاً بالنسبة إليه دون غيره، ولا فرق في هذا بين آيات الأحكام وآيات الصفات، فإن المراد قد يشتبه فيهما بغيره على بعض الناس دون بعضٍ)[6].



(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٧٩٥.
(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.
(٣) سورة هود: الآية ١.
(٤) سورة يس: الآيتان ١ ـ ٢.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٧.
(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢١٢ ـ ٢١٤.

المبحث الرابع:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قاعدة: (ظواهر نصوص الصفات ما يتبادر منها من المعاني)

إنَّ أهل السنّة والجماعة فهموا من نصوص الصفات: ما تبادر إلى أذهانهم السليمة من معاني اللغة المستقيمة، بخلاف أهل البدعة والشناعة؛ الذين فهموا منها: ما تبادر إلى أذهانهم السقيمة من معاني البدعة الوخيمة.

ومنشأ انحراف هؤلاء عن صراط أهل السنة والجماعة المستقيم: أنهم تخيَّلوا أن ما وصف رسول الله ﷺ به ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ: مثل صفات أجسامهم، ثم صاروا بعد ذلك على قسمين:

قسمٌ منهم: علموا أن ذلك باطلٌ، وظنوا أن هذا ظاهر النصِّ ومدلوله، وأنه لا يُفهم منه معنى إلا ذلك، فصاروا إما أن يتأوَّلوه تأويلاً يُحرِّفون به الكلم عن مواضعه، وإما أن يُفوِّضوا المعنى ويقولوا: لا يُفهم منه شيءٌ، ويزعمون أن هذا هو مذهب السلف[1].

وقسمٌ ثان: لما رأوا أنَّ قول هؤلاء منكرٌ؛ وأن قول الرسول ﷺ حقٌّ: مثَّلوا الله تعالى بخلقه.

---

(١) وفي هذا المقام يقول برهان الدين اللَّقَّاني في [جوهرة التوحيد: البيت رقم (٤٠) ـ ص١١]:

(وكـلُّ نـصٍّ أَوْهَـمَ التَّشْبِيهـا أوِّلـه أو فَـوِّضْ ورُم تنـزيهـا).

وبطلان مسلك كلا القسمين: ظاهر البطلان عند من له أدنى عقلٍ ولبٍّ[1].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ أن ظواهر نصوص صفات الله ــ سبحانه وتعالى ــ : هو ما يتبادر منها من المعاني، وأنها لا تحتمل التمثيل ولا التأويل؛ فقال: (إن ظواهرها لا تقتضي التمثيل؛ كما تظنُّه المعطلة النفاة؛ وأن التمثيل تجاوز لظواهرها إلى ما لا تقتضيه، كما أن تأويلها تكلفٌ وحملٌ لها على ما لا تقتضيه، فهي لا تقتضي ظواهرها تمثيلاً؛ ولا تحتمل تأويلاً، بل إجراءٌ على ظواهرها بلا تأويل ولا تمثيل، فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل)[2].

ولما كانت معاني نصوص الصفات متبادرةً إلى الذهن: كانت كلُّ الأوهام التي افترضتها العقول الفاسدة في حقِّها: باطلة، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في بيان قسمي الأوهام الواردة على صفات الله تعالى: (التوهُّم نوعان: توهُّم كيفية لا تدل عليه ظواهرها. أو توهُّم معنى غير ما تقتضيه ظواهرها.

وكلاهما توهُّمٌ باطلٌ، وهما توهُّم تشبيهٍ وتمثيلٍ؛ أو تحريفٍ وتعطيلٍ)[3].

وقد بيَّن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الفروق بين ظواهر نصوص الصفات وظواهر نصوص الأحكام؛ من حيث ما يتبادر إلى الذهن من معانيهما، فمن تلك الفروق المقرَّرة:

---

(١) انظر: سؤال في حديث النزول وجوابه لابن تيمية ٥/ ٤٧٦ ــ ٤٧٧ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٩٠.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٩١.

١ ـ أن نصوص الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس، وأما نصوص الصفات فيشترك في فهم أصل معناها الخاصُّ والعامُّ، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ في نصوص الصفات: (من شرح الله لها صدره؛ ونوَّر لها قلبه: يعلم أن دلالتها على معانيها أظهر من دلالة كثيرٍ من آيات الأحكام على معانيها، ولهذا آيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس، وأما آيات الأسماء والصفات فيشترك في فهمها الخاص والعام ـ أعني: فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية ـ .

ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾[(١)]، حتى بُيِّنَ لهم بقوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[(٢)] [(٣)]، ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[(٤)]؛ وأمثالها من آيات الصفات.

وأشكل على عمر بن الخطاب آية الكلالة[(٥)]، ولم يشكل عليه أول الحديد[(٦)] وآخر الحشر[(٧)] وأول سورة طه[(٨)] ونحوها من آيات الصفات)[(٩)].

٢ ـ أن بعض نصوص الأحكام مجملةٌ؛ لا يُعرف بيانُها إلا بالسنة،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «لما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾».

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٥) تقدم تخريجه، وأوله: «خطب عمر على منبر رسول الله ﷺ».

(٦) سورة الحديد: الآيات ١ ـ ٥.

(٧) سورة الحشر: الآيات ٢٢ ـ ٢٤.

(٨) سورة طه: الآيات ١ ـ ٨.

(٩) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢١٠ ـ ٢١١.

وأما نصوص الصفات فلا تحتاج إلى بيانٍ من خارجٍ؛ بل بيانها فيها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (بعض آيات الأحكام مجملةٌ؛ عُرِفَ بيانُها بالسنة، كقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[1]، فهذا مجملٌ في قدر الصيام والإطعام، فبيَّنته السنة بأنه صيام ثلاثة أيامٍ؛ أو إطعام ستة مساكين؛ أو ذبح شاةٍ[2].

وكذلك قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾[3]؛ مجملٌ في مقدار الطواف، فبيَّنته السنّة بأنه سبعٌ[4]، ونظائره كثيرةٌ، كآية السرقة وآية الزكاة وآية الحج.

وليس في آيات الصفات وأحاديثها مجملٌ يحتاج إلى بيانٍ من خارجٍ، بل بيانها فيها؛ وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل، فلم تكن آيات الصفات مجملةً محتملةً؛ لا يُفهم المراد منها إلا بالسنة، بخلاف آيات الأحكام)[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب المحصر/ باب قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ــ الحديث رقم (١٨١٤) ــ ١/٥٣٦] من حديث كعب بن عجرة ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «لعلَّك آذاك هوامُّك».

(٣) سورة الحج: الآية ٢٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ ــ الحديث رقم (٣٩٥) ــ ١/١٤٤]، ومسلم في صحيحه [كتاب الحج/ باب بيان جواز التحلل بالإحصار وجواز القِران ــ الحديث رقم (١٢٣٠) ــ ٢/٩٠٣] من حديث عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ ، وأوله: «قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعاً».

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٢١١ ــ ٢١٢.

وهذا آخر فصول هذا الباب المتعلِّق بقواعد أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وهي فصولٌ عظيمةٌ (مشتملةٌ على فوائد جمةٍ؛ وقواعد مهمةٍ)[1]؛ من تأمَّلها وتدبَّرها: فإنه تَحُلُّ عنه (إشكالات حار فيها أكثر الناس؛ ولم يهتدوا)[2] فيها إلى معرفة وجه الصواب، ولم تَزُل عنهم بسببها الشبهة والاضطراب.

وباب قواعد الأسماء والصفات وأدلتهما: (بابٌ واسعٌ جداً؛ عظيم النفع، فمن تدبَّره: يجده متضمناً)[3] للأحكام التي يجب على العبد مراعاتها عند نظره في أسماء الله الحسنى وصفاته العلى؛ وشرحه لها.

والناس في فقه هذه القواعد ومعرفة أحكامها: مراتبٌ، (ولكلٍّ من الناس موردٌ لا يتعداه؛ وسبيلٌ لا يتخطَّاه، ولقد عُذِرَ من حَمَلَ ما انتهت إليه قواه؛ وسعى إلى حيث انتهت إليه خطاه)[4].



(١) تهذيب مختصر سنن أبي داود ٦/ ١٨٠ ــ ١٨١.
(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٤٨.
(٣) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٥٣١.
(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد ٥/ ٢٢١.



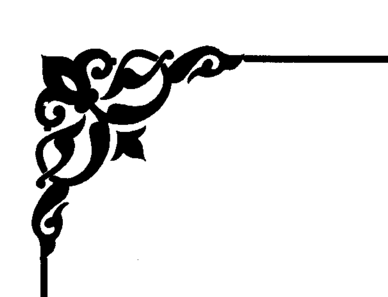


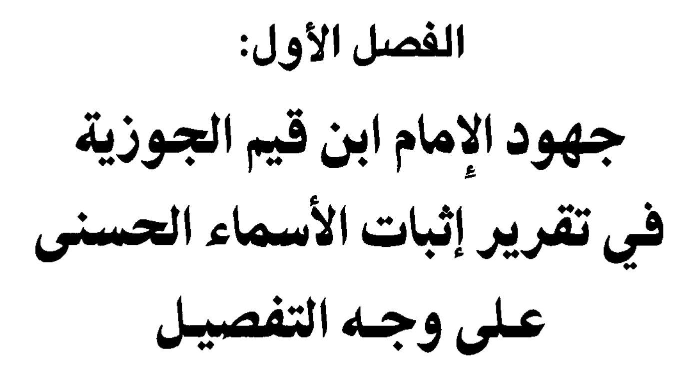
الباب الثالث:

جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية في تقرير إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى على وجه التفصيل









الفصل الأول:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير إثبات الأسماء الحسنى على وجه التفصيل



المبحث الأول:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير إحصاء الأسماء الحسنى

إنَّ بذل المجهود في إحصاء أسماء الله الحسنى: عملٌ محمودٌ، جاءت النصوص الشرعية بالحثّ عليه؛ والإرشاد إليه.

فقد ورد في محكم التنزيل: الأمر بدعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1].

ودعاؤه ـ سبحانه وتعالى ـ بها لا يتأتى إلا بإحصائها وحفظها، ولهذا كان إحصاء أسماء الله الحسنى ودعاء الله تعالى بها: من أحبِّ الأعمال إلى ربِّنا ـ تبارك وتعالى ـ وأزكاها إلى مليكنا ـ جلَّ وعلا ـ؛ وأكرمها على إلهنا ـ عزَّ وجلّ ـ.

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله تسعة وتسعون اسماً، من حفظها دخل الجنة، وإن الله وترٌ يُحبُّ الوتر»[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٢) تقدم تخريجه.

وقد اعتنى علماء الأمة الربانيون بإحصاء أسماء الله الحسنى وتعدادها؛ بناء على ما ورد في فضل ذلك من أحاديث صحاح وحسان، فمن هؤلاء العلماء من عُنِيَ بجمع طرق هذه الأحاديث[1]، ومنهم من عُنِيَ بتعداد هذه الأسماء وحصرها؛ وبيان معانيها وشرحها[2].

ولما كان إحصاء أسماء الله الحسنى ودعاء الله بها: (أحبَّ الأشياء إلى الله وأكرمها عليه وأعظمها عنده، وهو ذكره بأسمائه وصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه ومدحه بها وحمده عليها)[3]: فقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بها عناية بالغة في هذا الباب؛ ــ الذي هو (بابٌ عظيمٌ من أبواب التوحيد)[4]ــ ، حيث برزت جهوده ــ رحمه الله

(١) كأبي نعيم الأصبهاني في جزئه المسمى: (جزء فيه طرق حديث: إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً)، وابن حجر العسقلاني في مجلس إملائه المسمَّى: (تخريج حديث الأسماء الحسنى).

(٢) كأبي إسحاق الزجاج في كتابه: (تفسير أسماء الله الحسنى)، وأبي القاسم الزجاجي في كتابه: (اشتقاق أسماء الله)، وأبي سليمان الخطابي في كتابه: (شأن الدعاء)، وأبي بكر البيهقي في كتابه: (الأسماء والصفات)، وأبي القاسم القشيري في كتابه: (شرح أسماء الله الحسنى)، وأبي حامد الغزالي في كتابه: (المقصد الأسنى في شرح معاني الأسماء الحسنى)، وأبي عبد الله الرازي في كتابه: (لوامع البينات في الأسماء والصفات)، وأبي عبد الله القرطبي في كتابه: (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى).
وانظر في التعريف بمؤلفي الكتب المفردة في شرح أسماء الله الحسنى؛ ووصف مؤلفاتهم؛ وبيان مناهجهم المتبعة في إثبات الاسم والاستدلال عليه؛ مع الإشارة إلى مزايا هذه المؤلفات والملحوظات عليها: أسماء الله الحسنى للغصن ص١٨٧ ــ ٣٢٨.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٨٨.

(٤) بدائع الفوائد ١/ ١٤٥.

تعالى ـ في تقرير أسماء الله الحسنى؛ والحثِّ على إحصائها؛ وبيان مراتبها؛ وذكر ثمراتها؛ كما هو مودعٌ في مثاني كتبه.

وفيما يلي بيان جهوده ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير مطالب هذا المبحث الثلاثة؛ وهي:

المطلب الأول: تقريره الحثَّ على إحصاء الأسماء الحسنى.

المطلب الثاني: تقريره مراتب إحصاء الأسماء الحسنى.

المطلب الثالث: تقريره ثمرات إحصاء الأسماء الحسنى.



المطلب الأول:

جهوده في تقرير الحث على إحصاء الأسماء الحسنى

تنوَّعت جهود الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مصنفاته في تقرير باب الأسماء الحسنى، فمن جهوده المباركة في ذلك: تقريره لمسألةٍ عظيمةٍ من مسائل هذا الباب؛ ألا وهي: الحثُّ على إحصاء أسماء الله الحسنى؛ موضحاً أن هذا الإحصاء أصلٌ للعلم بكلِّ معلومٍ، لأن المعلومات كلَّها تصدر عن خلق الله وأمره، ومصدر الخلق والأمر عن أسماء الله الحسنى، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إحصاء الأسماء الحسنى؛ والعلم بها: أصلٌ للعلم بكلِّ معلومٍ، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقاً له تعالى؛ أو أمراً، إما علمٌ بما كوَّنه؛ أو علمٌ بما شرعه.

ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى؛ وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كلُّه مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كلُّه حسنٌ لا يخرج عن مصالح العباد؛ والرأفة والرحمة بهم؛ والإحسان إليهم؛ بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه.

فأمره كلُّه مصلحةٌ وحكمةٌ ولطفٌ وإحسانٌ؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، وفعله كلُّه لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدى ولا عبثاً.

وكما أن كلَّ موجودٍ سواه فبإيجاده: فوجود من سواه تابعٌ لوجوده ــ تبع المفعول المخلوق لخالقه ــ ، فكذلك العلم بها أصلٌ للعلم بكلِّ ما سواه.

فالعلم بأسمائه وإحصاؤها: أصلٌ لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه ــ كما ينبغي للمخلوق ــ : أحصى جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصلٌ لإحصاء كلِّ معلومٍ، لأن المعلومات هي من مقتضاها؛ ومرتبطة بها.

وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللاً ولا تفاوتاً، لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله: إما أن يكون لجهله به؛ أو لعدم حكمته، وأما الربُّ تعالى: فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خللٌ ولا تفاوتٌ ولا تناقضٌ)[1].

وهذا الإحصاء لأسماء الله الحسنى ــ الذي يبلغه وُسْع العبد وعلمه ومعرفته ــ لا يُنافي كون أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصرٍ؛ ولا تُحدُّ بعددٍ، بل قصارى علم العبد ومعرفته: أن يُحصي أسماء الله الحسنى التي أنزلها في كتابه العظيم؛ أو أخبر بها رسوله الكريم ﷺ، كما قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى بقوله: (إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصرٍ؛ ولا تُحدُّ بعددٍ، فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده؛ لا يعلمها ملكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرسلٌ، كما في الحديث الصحيح: «أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك؛ سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[2].

(١) بدائع الفوائد ١/١٤٧ ــ ١٤٨.
(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ».

فجعل أسماءه ثلاثة أقسام:

قسم: سمَّى به نفسه؛ فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه.

وقسم: أنزل به كتابه؛ فتعرَّف به إلى عباده.

وقسم: استأثر به في علم غيبه؛ فلم يطلع عليه أحدٌ من خلقه.

ولهذا قال: «استأثرت به» أي: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمِّي به، لأن هذا الإنفراد ثابتٌ في الأسماء التي أنزل الله بها كتابه.

ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن»[1]. وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته. ومنه قوله ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك؛ أنت كما أثنيت على نفسك»[2].

وأما قوله ﷺ: «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً؛ من أحصاها دخل الجنة»[3]: فالكلام جملةٌ واحدةٌ. وقوله: «من أحصاها دخل الجنة»: صفةٌ؛ لا خبر مستقل، والمعنى: له أسماءٌ متعددةٌ؛ من شأنها أن: «من أحصاها دخل الجنة». وهذا لا ينفي أن يكون له أسماءٌ غيرها.

وهذا كما تقول: لفلانٍ مائة مملوكٍ؛ وقد أعدَّهم للجهاد. فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم مُعدَّوْنَ لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه)[4].

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «أنا سيد الناس يوم القيامة».

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «أعوذ برضاك من سخطك».

(٣) تقدم تخريجه، ولفظه: «لله تسعة وتسعون اسماً».

(٤) بدائع الفوائد ١/ ١٥٠ ـ ١٥١.

وهذا الإحصاء لأسماء الله الحسنى له مراتب ثلاث؛ من استكملها: فقد قام بما يبلغه وسع المخلوق وطاقته من تمام الإحصاء والحفظ.

وبيان هذه المراتب الثلاث مُقرَّرٌ في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ المودع في المطلب الآتي.

❑ ❑ ❑

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير مراتب إحصاء الأسماء الحسنى

وذكر ما تقدَّم من تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لإحصاء أسماء الله الحسنى، وبيان فضله؛ وأنه أصلٌ لسائر العلوم: يُناسبه ذكر تقريره لمراتب هذا الإحصاء؛ وبيان أحكامه، حيث قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ مراتب إحصاء أسماء الله الحسنى بقوله: (بيان مراتب إحصاء أسمائه؛ التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السعادة؛ ومدار النجاة والفلاح:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها.

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾(١). وهو مرتبتان: إحداهما: دعاء ثناء وعبادة. والثاني: دعاء طلب ومسألة.

فلا يُثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يُسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود؛ أو يا شيء؛ أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يُسأل في كلِّ مطلوبٍ باسمٍ يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

متوسلاً إليه بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل ــ ولا سيما خاتمهم وإمامهم ــ : وجدها مطابقة لهذا.

وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلَّق بأسماء الله[1]، فإنها ليست بعبارةٍ سديدةٍ، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإلٰه على قدر الطاقة، وأحسن منها: عبارة أبـي الحكم بن بَرَّجان[2]؛ وهي التعبُّد[3]، وأحسن منها: العبارة المطابقة للقرآن؛ وهي: الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال.

فمراتبها أربعة: أشدُّها إنكاراً: عبارة الفلاسفة؛ وهي التشبه، وأحسن منها: عبارة من قال: التخلُّق، وأحسن منها: عبارة من قال: التعبُّد، وأحسن من الجميع: الدعاء؛ وهي لفظ القرآن)[4].

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير مراتب إحصاء أسماء الله الحسنى أيما عناية؛ وبيَّن أنها (الحصن الذي من دخله كان

---

(١) قال ابن أبـي العزِّ الحنفي في [شرح العقيدة الطحاوية: ص١٢٠]: (يُروى عن النبـي ﷺ أنه قال: (تخلَّقوا بأخلاق الله)).
قال الألباني معلِّقاً: (لا نعرف له أصلاً في شيءٍ من كتب السنة).

(٢) هو: عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي المغربـي الإفريقي، شيخ الصوفية، توفي بمرَّاكش سنة ست وثلاثين وخمسمائة.
انظر في ترجمته: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٤/٢٣٦ ــ ٢٣٧، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٢٠/ ٧٢ ــ ٧٤، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي ٣/ ٢٦٧ ــ ٢٦٨.

(٣) لعلَّ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ استقى كلام ابن برَّجان من كتابه (شرح أسماء الله الحسنى)، أو استفاده من نقل شيخه ابن تيمية له في [الصفدية ٢/٣٣٨]، ولم أقف عليه.

(٤) بدائع الفوائد ١/١٤٨ ــ ١٤٩.

من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه فهو من الناجين)[1]، وهذه المراتب ثلاثٌ:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاء الله تعالى بها.

أما المرتبتان الأوليان ـ وهما: إحصاء ألفاظ أسماء الله الحسنى وعددها؛ وفهم معانيها ومدلولها ـ: فتقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهما مودعٌ في المبحثين الآتيين؛ المشتملين على تعيين أسماء الله الحسنى؛ وبيان أصولها؛ وذكر أدلة ثبوتها؛ وتوضيح معانيها.

وأما المرتبة الثالثة: فهي دعاء العبد ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ بأسمائه الحسنى؛ وتعبُّده بها؛ وتذلُّله بين يديه؛ وسؤاله وطلبه حوائجه منه؛ وشكواه إليه؛ وعياذه به منه؛ ولياذه منه إليه، وهذه من أحبِّ العبادات إلى الله تعالى؛ وأقرب الوسائل إلى مرضاته؛ وأرجاها للإجابة والقبول، فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن الحصين، (لقد آوى إلى حصنٍ لا خوف على من تحصَّن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدوِّ في الدُّنُوِّ إليه منه، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[2])[3].

وقد تظافرت النصوص الشرعية في الترغيب في هذه المرتبة؛ والترهيب من الإعراض عنها، لأن التعبُّد بسؤال الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأسمائه الحسنى؛ وتوسُّله إليه بها: (أحبُّ ما توسَّل إليه بها المتوسِّلون)[4].

---

(١) الرسالة التبوكية ص١٣٥.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢١، سورة الجمعة: الآية ٤.

(٣) بدائع الفوائد ٢/٢٠٦.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/١٢٨.

وهذه المرتبة ـ وهي: دعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى ـ تتضمن أمرين:

الأمر الأول: دعاء الله تعالى بها دعاء ثناءٍ وعبادةٍ.

الأمر الثاني: دعاء الله تعالى بها دعاء طلبٍ ومسألةٍ.

أما دعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى دعاء ثناءٍ وعبادةٍ: فهو أعلى الأمرين، ومتى ما لهج لسان العبد ورطب به: فقد استمطر سحائب المحبة والإفضال؛ والعطاء والنوال من ربِّه الكبير المتعال، وانفتح له به (بابٌ عظيمٌ من أبواب العلم والإيمان؛ بل من أبواب الجنة العاجلة؛ يرقص القلب فيه طرباً، ويتمنَّى أنَّ له به الدنيا وما فيها)[1].

وأما دعاء الله تعالى بها دعاء طلبٍ ومسألةٍ: فله أحكامٌ وآدابٌ، والعبد متى ما قرن بطلبه وسؤاله هذه الأحكام والآداب: فقد فُتِحَ له من القبول والإجابة كلُّ باب.

وقد أحسن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير هذه المرتبة وأجاد، وبرع في توضيح حقائقها وأفاد، وبيان تقريره وإيضاحه فيما يأتي:

أولاً: أنَّ دعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى وسؤاله بها: نوعان، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (الدعاء يُراد به: دعاء المسألة، ودعاء العبادة، والمُثني على ربِّه بحمده وآلائه: داع له بالاعتبارين، فإنه طالبٌ منه؛ طالبٌ له، فهو الداعي حقيقة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[2])[3].

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١٥٣.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٥.

(٣) جواب في صيغ الحمد ص٦١.

ثانياً: أنَّ أفضل نوعيْ دعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى: دعاء الثناء والعبادة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (الذكر نوعان:

أحدهما: ذكر أسماء الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ وصفاته؛ والثناء عليه بهما؛ وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به ــ تبارك وتعالى ــ. وهذا أيضاً نوعان:

أحدهما: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر. وهذا النوع هو المذكور في الأحاديث، نحو: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر»[1]. و «سبحان الله وبحمده»[2]. و «لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»[3]. ونحو ذلك.

فأفضل هذا النوع: أجمعه للثناء وأعمُّه، نحو: سبحان الله عدد خلقه، فهذا أفضل من مُجرَّد: سبحان الله، وقولك: الحمد لله عدد ما خلق في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الآداب/ باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة ــ الحديث رقم (٢١٣٧) ــ ٣/ ١٦٨٥] من حديث سمرة بن جندب ــ رضي الله عنه ــ، وأوله: «أحب الكلام إلى الله أربعٌ».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الدعوات/ باب فضل التسبيح ــ الحديث رقم (٦٤٠٥) ــ ٤/ ٢٠١١]، ومسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ــ الحديث رقم (٢٦٩٢) ــ ٤/ ٢٠٧١] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ، وأوله: «من قال: سبحان الله وبحمده».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب بدء الخلق/ باب صفة إبليس وجنوده ــ الحديث رقم (٣٢٩٣) ــ ٢/ ١٠١٢ ــ ١٠١٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ــ الحديث رقم (٢٦٩١) ــ ٤/ ٢٠٧١] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ، وأوله: «من قال: لا إلـه إلا الله».

السماء، وعدد ما خلق في الارض، وعدد ما بينهما، وعدد ما هو خالق. أفضل من مُجرَّد قولك: الحمد لله. وهذا في حديث جويرية أن النبـي ﷺ قال لها: «لقد قلت بعدك أربع كلمات؛ ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته» رواه مسلم[1].

وفي الترمذي وسنن أبـي داود عن سعد بن أبـي وقاص: «أنه دخل مع رسول الله على امرأة بين يديها نوى أو حصى تُسبِّح بها، فقال: سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ماخلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إلـه إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك»[2].

الثاني: الخبر عن الربِّ تعالى بأحكام أسمائه وصفاته. نحو قولك: الله ــ عزَّ وجلّ ــ يسمع أصوات عباده، ويرى حركاتهم، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وهو على كل شيء قدير، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب فضل التسبيح أول النهار وعند النوم ــ الحديث رقم (٢٧٢٦) ــ ٤/ ٢٠٩٠ ــ ٢٠٩١]، وأوله: «ما زلتِ على الحال التي فارقتُكِ عليها؟».

(٢) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب التسبيح بالحصى ــ الحديث رقم (١٥٠٠) ــ ٢/ ١٦٩ ــ ١٧٠]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (١١٣) ــ الحديث رقم (٣٥٦٨) ــ ٥/ ٥٢٩ ــ ٥٣٠]، وأوله: «ألا أُخبركِ بما هو أيسر عليكِ من هذا؟».
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن أبـي داود: ص١١٣].

وأفضل هذا النوع: الثناء عليه بما أثنى به على نفسه؛ وبما أثنى به رسول الله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل؛ ومن غير تشبيه ولا تمثيل.

وهذا النوع أيضاً ثلاثة أنواع: حمد وثناء ومجد، فالحمد لله: الإخبار عنه بصفات كماله ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ مع محبته والرضا به، فلا يكون المُحبُّ الساكت حامداً، ولا المثني بلا محبةٍ حامداً؛ حتى تجتمع له المحبة والثناء، فإن كرَّر المحامد شيئاً بعد الشيء: كانت ثناء، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك: كان مجداً.

وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة في أول الفاتحة، «فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾[1]. قال الله: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾[2]. قال: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾[3]. قال: مجدني عبدي»[4].

النوع الثاني من الذكر: ذكر أمره ونهيه وأحكامه. وهو أيضاً نوعان:

أحدهما: ذكره بذلك ــ إخباراً عنه ــ أمر بكذا؛ ونهى عن كذا، وأحبَّ كذا؛ وسخط كذا؛ ورضي كذا.

والثاني: ذكره عند أمره؛ فيُبادر إليه، وعند نهيه؛ فيهرب منه، فذكر أمره ونهيه شيءٌ، وذكره عند أمره ونهيه شيءٌ آخر.

فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر: فذكره أفضل الذكر وأجلُّه وأعظمه)[5].

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ٣.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص١١٨ ــ ١٢٠.

فهذا تقريرٌ لأفضل نوعيْ الدعاء؛ وهو: دعاء الثناء والعبادة، وهو المتضمن للثناء على الله تعالى بما أثنى به على نفسه وبما أثنى به عليه رسول الله ﷺ؛ والتعبُّد له بذلك.

وقد كشف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في موطنٍ آخرَ اللثامَ عن وجه هذا التفضيل؛ مبيِّناً أن سببه: محبة الله تعالى لتحميده وتمجيده والثناء عليه بأسماء الجمال وأوصاف الكمال ونعوت الجلال؛ فقال: (قد عُلِمَ بالاضطرار من دين المسلمين كلِّهم؛ بل ومن دين جميع الرسل: أن الله ــ سبحانه ــ يُحمد ويُمدح ويُثنى عليه، وأنه يُحبُّ ذلك ويرضاه ويأمر به، بل حمده والثناء عليه: من أعظم الطاعات وأجلِّ القربات.

وفي المسند من حديث الأسود بن سريع قال: «أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني قد حمدت ربِّي ــ تبارك وتعالى ــ بمحامد ومدح؛ وإياك، فقال رسول الله ﷺ أما إن ربَّك تعالى يُحبُّ المدح، هات ما امتدحت به ربَّك، فقال: فجعلت أنشده»[1].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله؛ ولذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبَّ إليه المدح من الله؛ ولذلك مدح نفسه»[2]. ولمسلم:

---

(١) مسند أحمد [الحديث رقم (١٥٥٩٠) ــ ٢٤/٣٥٧]، وكذا أخرجه البخاري في أدبه المفرد [باب من مدح في الشعر ــ الحديث رقم (٣٤٥) ــ ص٨٠].
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (٢٩٢٢) ــ ٦/٤٦٩ ــ ٤٧٠].

(٢) تقدم تخريجه.

«وليس أحدٌ أحبَّ إليه العذر من الله؛ ولذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب»[1].

ومن محبته ـ سبحانه ـ الثناء عليه: صدَّق المثني عليه بأوصاف كماله، كما في النسائي والترمذي وابن ماجه من حديث الأغرِّ أبي مسلم: أنه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد: أنهما شهدا على رسول الله ﷺ قال: «إذا قال العبد: لا إله إلا الله والله أكبر. قال: يقول ـ تبارك وتعالى ـ: لا إله إلا أنا؛ وأنا الله أكبر. وإذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا؛ ولا شريك لي. وإذا قال: ولا إله إلا الله؛ له الملك وله الحمد. قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا؛ لي الملك ولي الحمد. وإذا قال: لا إله إلا الله؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا؛ ولا حول ولا قوة إلا بي»[2].

فمن محبته للثناء عليه: صدَّق المثني عليه؛ ووافقه في ثنائه عليه.

ونظير هذا: ما في الصحيح من حديث أبي هريرة؛ عنه ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش ـ الحديث رقم (٢٧٦٠) ـ ٤/ ٢١١٣]، وأوله: «ليس أحدٌ أحبَّ إليه المدح من الله».

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب ما يقول العبد إذا مرض ـ الحديث رقم (٣٤٣٠) ـ ٥/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ باب ثواب من قال: لا إله إلا الله ـ الحديث رقم (٩٧٧٤ ـ ٩٧٧٥) ـ ٩/ ١٨ ـ ١٩]، وابن ماجه في سننه [كتاب الأدب/ باب فضل لا إله إلا الله ـ الحديث رقم (٣٧٩٤) ـ ٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥].

وصححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: ص٤١٢ ـ ٤١٣].

لعبدي؛ ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[1]. قال الله: حمدني عبدي. فإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾[2]. قال الله: أثنى عليَّ عبدي. فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[3]. قال الله: مجدني عبدي. فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾[4]. قال: هذه بيني وبين عبدي. فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[5]. قال: هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل»[6].

ولما كان حمده والثناء عليه وتمجيده هو مقصود الصلاة ـ التي هي عماد الإسلام ورأس الطاعات ـ: شُرِعَ في أولِّها ووسطها وآخرها وجميع أركانها، ففي دعاء الاستفتاح: يُحمد ويُثنى عليه ويُمجَّد، وفي ركن القراءة يُحمد ويُثنى عليه ويُمجَّد، وفي الركوع يُثنى عليه بالتسبيح والتعظيم، وبعد رفع الرأس منه يُحمد ويُثنى عليه ويُمجَّد، كما كان النبي ﷺ يقول: «ربنا ولك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيْ بعد، أهل الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد ـ وكلُّنا لك عبدٌ ـ: لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ»[7].

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٢.
(٢) سورة الفاتحة: الآية ٣.
(٣) سورة الفاتحة: الآية ٤.
(٤) سورة الفاتحة: الآية ٥.
(٥) سورة الفاتحة: الآيتان ٦ ـ ٧.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ـ الحديث رقم (٤٧٧) ـ ١/٣٤٧] من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

وفي السجود: يُثنى عليه بالتسبيح المتضمن لكماله المقدس والعُلُوِّ المتضمن لمباينته لخلقه، وفي التشهد يُثنى عليه بأطيب الثناء من التحيات، ويُختم ذلك بذكر حمده ومجده)[1].

ثم شرع ــ رحمه الله تعالى ــ يُبيِّنُ وجوه محبة الله تعالى لحمده والثناء عليه، فقال: (ومن محبته للثناء عليه: شرعه للداعي قبل سؤاله ودعائه ليكون وسيلة له بين يدي حاجته؛ كالمتقرِّب إلى المسؤول بما يُحبُّه ويسأله بين يدي مطلوبه، كما في السنن والمسند من حديث فضالة بن عبيد قال: «جاء رجل فصلَّى فقال: اللَّهُمَّ اغفر لي وارحمني. فقال رسول الله ﷺ: عجلت أيها المُصلِّي، إذا صلَّيت ففرغت: فاحمد الله بما هو أهله، ثم صلِّ على النبي، ثم ادعه. قال: ثم صلَّى رجلٌ آخر بعد ذلك، فحمد الله، وصلَّى على النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: أيها المُصلِّي: ادع تُجَبْ»[2].

وفي السنن عن ابن مسعود قال: «كنت أُصلِّي، فلما جلستُ بدأتُ بالثناء على الله، ثم الصلاة على النبي ﷺ، ثم دعوتُ لنفسي، فقال النبي ﷺ: سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ»[3].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٧٢ ــ ١٤٧٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٣٩٣٧) ــ ٣٩/ ٣٦٣]، وأبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب الدعاء ــ الحديث رقم (١٤٨١) ــ ٢/ ١٦٢]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٦٤) ــ الحديث رقم (٣٤٧٦) ــ ٥/ ٤٦٣]، والنسائي في سننه [كتاب الصلاة/ باب التمجيد والصلاة على النبي ﷺ في الصلاة ــ الحديث رقم (١٢٨٣) ــ ٣/ ٥١].
وصححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود: ١/ ٤٠٧ ــ ٤٠٨].

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب السفر/ باب ما ذكر في الثناء على الله والصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء ــ الحديث رقم (٥٩٣) ــ ١/ ٥٨٧ ــ ٥٨٨]. =

وهكذا في أحاديث الشفاعة الثابتة في الصحاح لما يأتوا إلى النبي ﷺ ليشفع لهم، فقال: «فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي؛ فيُؤذن لي، فيُلهمني محامد فأحمده بها؛ لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخرُّ له ساجداً، فيقول: يا محمد ارفع رأسك، وقُلْ يُسْمَعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ»[1]. وفي لفظٍ: «فأُثني على ربي بثناءٍ وتمجيدٍ يُعلِّمْنيه»[2].

فمن محبته ـ سبحانه ـ للثناء عليه: ألهم رسوله منه في ذلك المقام ما يكون وسيلة بين يدي شفاعته، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه كان يقول في سجوده: «اللَّـٰهُمَّ إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[3].

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحدٌ أحبَّ إليه المدح من الله، من أجل ذلك وعد الجنة»[4]. وقد تقدَّم ذلك من حديث ابن مسعود.

= وحسنه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: ١/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب كلام الرب عزَّ وجلّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ـ الحديث رقم (٧٥١٠) ـ ٥/ ٢٣٤٢ ـ ٢٣٤٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ـ الحديث رقم(١٩٣) ـ ١/ ١٨٢ ـ ١٨٤] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ ، وأوله: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ ـ الحديث رقم (٧٤٤٠) ـ ٥/ ٢٣٢٣ ـ ٢٣٢٤] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ ، وأوله: «يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك».

(٣) تقدم تخريجه، ولفظه: «اللَّـٰهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «أتعجبون من غيرة سعد».

وفي الدعاء المأثور: «اللَّـهُمَّ لك الحمد؛ حمداً يُشْرِقُ له وجهك»(١).

وفي الأثر الآخر: «اللَّـهُمَّ لك الحمد حتى ترضى»(٢).

وفي الحديث الآخر: «سبحان الله عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»(٣). أي: تسبيحٌ يبلغ رضى نفسه)(٤).

ثم بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ وجهاً آخر من وجوه محبة الله تعالى لحمده والثناء عليه، فقال: (ومن محبته لحمده والثناء عليه: أنه جعل حمده مفتاح كلِّ كلامٍ ذي بال؛ وخاتمة كلِّ أمرٍ، وافتتح كتابه بحمده؛ وختم آخره بحمده، وافتتح خلقه بحمده؛ وجعل حمده خاتمة الفصل بينهم، فقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٥). وقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾(٦). وقال: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾(٧).

فافتتح خلقه وأمره بحمده، وختمهما بحمده، وفي المسند والسنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء [الحديث رقم (١٧٢٥) ــ ٣/ ١٥٧٩] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ.
قال الهندي في [كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: الحديث رقم (٥١٠٠) ــ ٢/ ٦٩٢]: (فيه نافع أبو هرمز: متروك).

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «ما زلتِ على الحال التي فارقتكِ عليها؟».

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٧٥ ــ ١٤٧٧.

(٥) سورة فاطر: الآية ١.

(٦) سورة الأنعام: الآية ١.

(٧) سورة الزمر: الآية ٧٥.

بحمد الله: فهو أجذم»[1].

ولهذا كانت سنة المسلمين في صلاتهم وخطبهم كلها: افتتاحها بالحمد؛ حتى خطبة الحاجة، ولقد كان أول من يُدعى إلى الجنة: الحامدون، والنبي ﷺ يوم القيامة بيده لواء الحمد، وآدم ومن دونه تحت ذلك اللواء، فخُصَّ اللواء بالحمد: لأنه أحبُّ شيءٍ إلى الله، واشتقَّ لأحب خلقه إليه وألزمهم عليه من الحمد اسمين ــ يتضمنان كثرة حمده وفضله ــ وهما: محمد وأحمد، وسمى أمته: الحامدين، وأخبر النبي ﷺ أن: «أفضل الدعاء: الحمد»[2])[3].

ثم بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ وجهاً آخر من وجوه محبة الله تعالى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٨٧١٢) ــ ١٤/ ٣٢٩]، وأبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب الهدي في الكلام ــ الحديث رقم (٤٨٤٠) ــ ٥/ ١٧٢]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ باب ما يستحب من الكلام عند الحاجة ــ الحديث رقم (١٠٢٥٥) ــ ٩/ ١٨٤]، وابن ماجه في سننه [كتاب النكاح/ باب خطبة النكاح ــ الحديث رقم (١٨٩٤) ــ ٢/ ٤٣٦].
وضعفه الألباني في [إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: الحديث رقم (٢) ــ ١/ ٣٠ ــ ٣٢].

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ــ الحديث رقم (٣٣٨٣) ــ ٥/ ٣٩٣]، وابن ماجه في سننه [كتاب الأدب/ باب فضل الحامدين ــ الحديث رقم (٣٨٠٠) ــ ٤/ ٢٤٧ ــ ٢٤٨] من حديث جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ، وأوله: «أفضل الذكر: لا إلـٰه إلا الله».
وحسنه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٤٩٧) ــ ٣/ ٤٨٤].

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٧٨ ــ ١٤٧٩.

لحمده والثناء عليه، فقال: (ومن محبته للثناء عليه بأوصاف كماله ونعوت جلاله: أنه أَمَرَ مِنْ ذكره بما لم يَأْمُرْ به في غيره، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾[1]. فعلق الفلاح بكثرة ذكره، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[2].

فعمَّ بذكره أحوال العباد كلَّها، لأن العبد إما أن يكون قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، فأراد منه ذِكْرَه في هذه الأحوال كلِّها، وأخبر أنه من ألهاه مالُه وولدُه عن ذكره فهو: خاسرٌ، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩﴾[3].

وأمر بذكره في أعظم المواطن التي يذهل الإنسان فيها عن نفسه ـ وهي حاله عند ملاقاة عدوه ـ، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[4].

وفي الترمذي وغيره عن النبـي ﷺ أنه قال: «إن عبدي كلَّ عبدي: الذي يذكرني وهو ملاقٍ قِرْنَهُ[5]»[6].

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٥، سورة الجمعة: الآية ١٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

(٣) سورة المنافقون: الآية ٩.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٤٥.

(٥) قال الترمذي في [جامعه: ٥/٥٣٨ ـ ٥٣٩]: (معنى قوله: «وهو ملاقٍ قِرْنَهُ»: إنما يعني عند القتال، يعني: أن يذكر الله في تلك الساعة).

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (١١٨) ـ الحديث رقم (٣٥٨٠) ـ ٥/٥٣٨] من حديث عمارة بن عزكرة ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «إن الله ـ عزَّ وجلّ ـ يقول: إن عبدي».
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (٣١٣٥) ـ ٧/١٣١ ـ ١٣٢].

وجعل ـ سبحانه ـ ذكره سبباً لصلاته على عبده وذِكْرِه له، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2].

وجعل ترك ذِكْرِه والثناء عليه سبباً لنسيانه لعبده؛ وإنسائه نفسه، فلا يلهمه مصالحه؛ ولا يوفِّقه لإرادتها وطلبها، فقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[4].

فلما نسوا ذِكْرَه والثناء عليه وتحميده وتمجيده: نسيهم من رحمته، وأنساهم مصالح نفوسهم؛ فلم يعرفوها ولم يطلبوها، بل تركوها مهملة معطلة؛ مع نقصها وعيوبها)[5].

ثم بيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ وجهاً آخر من وجوه محبة الله تعالى لحمده والثناء عليه، فقال: (ومن محبته للثناء عليه وتحميده وتمجيده: أنه وعد عليه بما لم يَعِدْ به على غيره، كما في الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة: حُطَّت عنه خطاياه؛ وإن كانت مثل زبد البحر»[6].

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ٤١ ـ ٤٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦٧.

(٤) سورة الحشر: الآية ١٩.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٨٠ ـ ١٤٨١.

(٦) تقدم تخريجه.

وأخبر النبي ﷺ أن مجالس الذكر رياض الجنة، كما في السنن والمسند من حديث جابر قال: «خرج علينا النبي ﷺ فقال: يا أيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحلُّ وتقف على مجالس الذكر في الأرض، فارتعوا في رياض الجنة. قالوا: وأين رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله، وذكِّروه أنفسكم، من كان يُحبُّ أن يعلم منزلته عند الله: فلينظرْ كيف منزلة الله عنده؟ فإن الله يُنْزِلُ العبد منه حيث أنزله من نفسه»[1].

وفي الترمذي وصحيح الحاكم عن عبد الله بن بسر أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: «إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأنبئني بشيءٍ أتشبثُ[2] به؟ فقال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[3].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ـ الحديث رقم (١٨٢٠) ـ ١/ ٦٧١ ـ ٦٧٢].
وقد أخرجه أحمد والترمذي من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وقد تقدم تخريجه؛ بلفظ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا».
وحسنه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (٢٥٦٢) ـ ٦/ ١٣٠ ـ ١٣٤].

(٢) قال ابن الأثير في [النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٤٣٩]: (الشبث بالشيء: المتعلِّق به).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب ما جاء في فضل الذكر ـ الحديث رقم (٣٣٧٥) ـ ٥/ ٣٨٨]، والحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ـ الحديث رقم (١٨٢٢) ـ ١/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣]. وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٧٦٩٨) ـ ٢٩/ ٢٤٠ ـ ٢٤١]، وابن ماجه في سننه [كتاب الأدب/ باب فضل الذكر ـ الحديث رقم (٤٧٩٣) ـ ٤/ ٢٤٤].
وصححه الألباني في [صحيح الترمذي: ٣/ ٣٨٥].

وفي السنن وصحيح الحاكم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق المُفرِّدون. قالوا: يا رسول الله وما المُفرِّدون؟ قال: الذين يهترون[1] في ذكر الله»[2]. وفي لفظٍ: «وضع الذكر عنهم أثقالهم، فوردوا القيامة خفافاً»[3].

وفيهما عن أبـي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحرَّكت بـي شفتاه»[4].

---

(١) أُهتر فلانٌ بكذا: أي أُولع به، فلا يتحدَّث بغيره؛ ولا يفعل غيره.
انظر: الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٤/ ٩١، غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ٤٨٩ النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٥/ ٢٤٢ ــ ٢٤٣ [مادة: هتر].

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (١٢٨) ــ الحديث رقم (٣٥٩٦) ــ ٥/ ٥٤٧]، والحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ــ الحديث رقم (١٨٢٣) ــ ١/ ٦٧٣]. وكذا أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب الحثِّ على ذكر الله تعالى ــ الحديث رقم (٢٦٧٦) ــ ٤/ ٢٠٦٢] بلفظٍ نحوه.

(٣) أخرجه البخاري في تاريخه الكبير [رقم (٣٦٥١) ــ ٨/ ٤٤٨ ــ ٤٤٩]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (١٢٨) ــ الحديث رقم (٣٥٩٦) ــ ٥/ ٥٤٧]، وهو تتمة للحديث السابق.
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي: ص٤٢٨].

(٤) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٠٩٧٥) ــ ١٦/ ٥٧١ ــ ٥٧٢]، والحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ــ الحديث رقم (١٨٢٤) ــ ١/ ٦٧٣] من حديث أبـي الدرداء ــ رضي الله عنه ــ .
وكذا أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ــ ٥/ ٢٣٥٠] مُعلَّقاً؛ ووصله في خلق أفعال العباد[باب ما كان النبـي ﷺ يذكر ويرويه عن ربِّه عزَّ وجلّ ــ الحديث =

وفيهما عنه أيضاً: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم؛ وأزكاها عند مليككم؛ وأرفعها في درجاتكم؛ وخيراً لكم من إعطاء الذهب والورق؛ وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله». وقال معاذ بن جبل: «ما عَمِلَ آدميٌّ عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله»[1].

وفيهما أيضاً من حديث النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يذكرون من جلال الله التحميد والتسبيح والتكبير والتهليل ينعطفن حول عرش الرحمن، لهنَّ دويٌّ كدويِّ النحل، يُذَكِّرْنَ بصاحبهن، أفلا يُحبُّ أحدكم أن يكون له عند الرحمن شيءٌ يُذَكِّرُ به؟»[2].

= رقم (٤٣٦) ــ ص١٧٣ ــ ١٧٤]، وابن ماجه في سننه [كتاب الأدب/ باب فضل الذكر ــ الحديث رقم (٣٧٩٢) ــ ٤/ ٢٤٣] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «قال الله ــ عزَّ وجلّ ــ : أنا مع عبدي».
وصححه الألباني في [صحيح سنن ابن ماجه: الحديث رقم (٣٠٧٤) ــ ٣/ ٢٤٢].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٦) ــ الحديث رقم (٣٣٧٧) ــ ٥/ ٣٨٩]، وابن ماجه في سننه [كتاب الأدب/ باب فضل الذكر ــ الحديث رقم (٣٧٩٠) ــ ٤/ ٢٤٢ ــ ٢٤٣]، والحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ــ الحديث رقم (١٨٢٥) ــ ١/ ٦٧٣] من حديث أبي الدرداء ــ رضي الله عنه ــ . وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٢٠٧٩) ــ ٣٦/ ٣٩٦] من حديث معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ .
وصححه الألباني في [الكلم الطيب: الحديث رقم (١) ــ ص٢٤].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٨٣٦٢) ــ ٣٠/ ٣١٢]، وابن ماجه في سننه [كتاب الأدب/ باب فضل التسبيح ــ الحديث رقم (٣٨٠٩) ــ ٤/ ٢٥٣]، والحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ــ =

وفي صحيح الحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في يوم مائة مرة: لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير: لم يسبقه أحدٌ كان قبله، ولا يدركه أحدٌ كان بعده؛ إلا من عمل عملاً أفضل من عمله»[1].

وفيه أيضاً عن جابر أن النبي ﷺ قال: «من قال: سبحان الله وبحمده: غرست له نخلة في الجنة»[2].

وفي الترمذي وصحيح الحاكم أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما على الأرض رجلٌ يقول: لا إلـه إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله: إلا كُفِّرَتْ عنه ذنوبه؛ وإن كانت أكثر من زبد البحر»[3].

= الحديث رقم (١٨٤١) ــ ١/ ٦٧٨].
وصححه الألباني في [مختصر العلو للعلي الغفار: الحديث رقم (٣٢) ــ ص٩٦].

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ــ الحديث رقم (١٨٤٣) ــ ١/ ٦٧٩].

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٥٩) ــ الحديث رقم (٣٤٦٤) ــ ٥/ ٤٥٦]، والحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ــ الحديث رقم (١٨٨٨) ــ ١/ ٦٩٣]. وكذا أخرجه النسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ باب ثواب من قال: سبحان الله العظيم ــ الحديث رقم (١٠٥٩٤) ــ ٩/ ٣٠٤ ــ ٣٠٥].
وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (٦٤) ــ ١/ ١٣٤ ــ ١٣٦].

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد ــ الحديث رقم (٣٤٦٠) ــ ٥/ ٤٥٣]، والحاكم في =

وفـي صحيـح الحـاكـم أيضـاً عـن أنـس قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «قال الله: أنا عند ظن عبدي بـي، وأنا معك إذا ذكرتني»[1].

وفي صحيـح الحاكم وابـن حبان عـن أنس قـال: «كنّـا مـع النبـي ﷺ فـي حلقـة، ورجـل قائـمٌ يُصلِّي، فلما ركـع وسجـد: تشهَّـد ودعـا؛ فقال: اللَّـهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إلـه إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يـا ذا الجـلال والإكـرام، يـا حـي يـا قيـوم. فقـال النبـي ﷺ: لـقـد دعـا الله بـاسمـه الأعظـم؛ الـذي إذا دُعِـيَ بـه أجـاب، وإذا سُئِـلَ بـه أعطى»[2].

= مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ـ الحديث رقم (١٨٥٣) ـ ١/ ٦٨٢]، وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٦٤٧٩) ـ ١١/ ١٥].
وحسنه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٤٢٧].

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ـ الحديث رقم (١٨٢٨) ـ ١/ ٦٧٤]، وأوله: «قال الله ـ عزَّ وجلّ ـ: عبدي أنا عند ظنك بي».
قال الذهبي في [التلخيص]: (صحيح، وأوله في الصحيح).
انظر: صحيح البخاري [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ـ الحـديـث رقـم (٧٤٠٥) ـ ٥/ ٢٣١٠ ـ ٢٣١١]، وصحيـح مسلـم [كتاب التوبة/ باب الحضِّ على التوبة والفرح بها ـ الحديث رقم (٢٦٥٧) ـ ٤/ ٢١٠٢] مـن حـديـث أبـي هـريـرة ـ رضـي الله عنـه ـ، وأولـه: «قـال الله ـ عزَّ وجلّ ـ: أنا عند ظنِّ عبدي بـي».

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ـ الحديث رقم (١٨٥٦) ـ ١/ ٦٨٣]، وابن حبان في صحيحه [كتاب الرقائق/ باب الأدعية ـ ذكر اسم الله العظيم الذي إذا سأل المرء ربه أعطاه ما سأل ـ الحـديـث رقـم (٨٩٣) ـ ٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦]. وقـد تقـدم تخـريجـه عنـد أحمـد وأصحاب السنن.

وفيهما أيضاً عن بريدة: «أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: اللَّـٰهُمَّ إني أسألك بأنك أنت الله الذي لا إلـٰه إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال النبي ﷺ: لقد سألت الله باسمه الأعظم؛ الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب»[1].

فأخبر أن هذا هو الاسم الأعظم، لما تضمنه من الحمد والثناء والمجد والتوحيد، ولمحبة الربِّ تعالى لذلك: أجاب من دعا به. وهذا باب يطول تتبعه جداً)[2].

ثالثاً: أنَّ التوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى: أحبُّ إليه وأنفع للعبد من التوسُّل إليه بمخلوقاته، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك عند تناوله بالشرح والبيان للدعاء النبويِّ في الهمِّ والغمِّ: «أسألك بكلِّ اسم هو

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ـ الحديث رقم (١٨٥٨) ـ ١/ ٦٨٣]، وابن حبان في صحيحه [كتاب الرقائق/ باب الأدعية ـ ذكر البيان بأن دعاء المرء بما وصفنا إنما هو دعاؤه باسم الله الأعظم الذي لا يخيب من سأل ربه به ـ الحديث رقم (٨٩٢) ـ ٣/ ١٧٤].
وكذا أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب الدعاء ـ الحديث رقم (١٤٩٣ ـ ١٤٩٤) ـ ٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ ـ الحديث رقم (٣٤٧٥) ـ ٥/ ٤٦٢]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب النعوت/ باب بسم الله وبالله ـ الحديث رقم (٧٦١٣) ـ ٧/ ١٢٣ ـ ١٢٤]، وابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب اسم الله الأعظم ـ الحديث رقم (٣٨٥٧) ـ ٤/ ٢٧٦]، ولفظه: «اللَّـٰهُمَّ إني أسألك بأني أشهد أنك».
وصححه الألباني في [صحيح سنن ابن ماجه: الحديث رقم (٣١٢٥) ـ ٣/ ٢٦٠ ـ ٢٦١].

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٨٢ ـ ١٤٨٧.

لك؛ سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[1]؛ فقال: (دلَّ الحديث على أن التوسُّل إليه ـ سبحانه ـ بأسمائه وصفاته أحبُّ إليه؛ وأنفع للعبد من التوسُّل إليه بمخلوقاته.

وكذلك سائر الأحاديث كما في حديث الاسم الأعظم: «اللَّـٰهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إلـٰه إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»[2].

وفي الحديث الآخر: «أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إلـٰه إلا أنت؛ الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد»[3].

وفي الحديث الآخر: «اللَّـٰهُمَّ إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق»[4]. وكلُّها أحاديث صحاح رواها ابن حبان والإمام أحمد والحاكم.

وهذا تحقيقٌ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[5])[6].

رابعاً: أن دوام ذكر العبد ربَّه تعالى ودعائه بأسمائه الحسنى ـ دعاء ثناءٍ ودعاء عبادةٍ ـ : يستجلب محبة الله له، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (دوام الذكر: سببٌ لدوام المحبة، فالذكر للقلب كالماء للزرع؛ بل كالماء للسمك، لا حياة له إلا به، وهو أنواع:

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه، ولفظه: «اللَّـٰهُمَّ إني أسألك بأني أشهد».

(٤) تقدم تخريجه، ولفظه: «اللَّـٰهُمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق».

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٥٨ ـ ٧٦٠.

ذكره بأسمائه وصفاته، والثناء عليه بها.

الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر العَالِم، بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربِّهم.

ومن أفضل ذكره: ذكره بكلامه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1]. فذِكْرُه هنا: كلامه الذي أنزله على رسوله ﷺ.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

ومن ذكره ــ سبحانه ــ: دعاؤه واستغفاره والتضرُّع إليه.

فهذه خمسة أنواع من الذكر[3])[4].

خامساً: أن دعاء الله ــ عزَّ وجلّ ــ وسؤاله: له وسائلُ متنوعةٌ، وأحبُّ هذه الوسائل إلى المرجوِّ المدعوِّ ــ سبحانه وتعالى ــ؛ وأرجاها

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٣) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/٤٤٨] أن الذكر ثلاثة أنواع، وذكر منها: النوعين الأول والثالث ــ المذكورين في هذا المقام ــ، وجعل ثالثها: ذكر الآلاء والنعماء، وجعله على ثلاث مراتب: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان؛ وهو أعلاها، وذكر بالقلب وحده؛ وهو في الدرجة الثانية، وذكر باللسان المجرد؛ وهو في الدرجة الثالثة.

(٤) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٦٢٠.

للإجابة والقبول: هو دعاء الله تعالى وسؤاله بأسمائه الحسنى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله: «أسألك بكلِّ اسمٍ»[1] إلى آخره: توسُّلٌ إليه بأسمائه كلِّها؛ ما علم العبد منها وما لم يعلم، وهذه أحبُّ الوسائل إليه، فإنها وسيلةٌ بصفاته وأفعاله؛ التي هي مدلول أسمائه)[2].

سادساً: أن دعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى ــ دعاء طلبٍ ومسألةٍ ــ له آدابٌ شرعيةٌ؛ ومقدماتٌ مرعيـةٌ، ومتى ما ضمَّن العبدُ هذه الآداب في دعائه ــ مفتتحاً ومختتماً بها ــ : كان أكمل؛ وأرجى للقبول والإجابة، فما أعظم سعادة العبد حين يُلهم ويُوفَّـق لهذه الآداب، (فمـا أغنـاه حينئـذٍ من فقيـرٍ؛ ومـا أعزَّه مـن ذليلٍ؛ ومـا أقواه من ضعيفٍ؛ وما آنسه من وحيدٍ، فهو الغنيُّ بلا مالٍ؛ القويُّ بلا سلطانٍ؛ العزيز بلا عشيرةٍ؛ المكفيُّ بلا عتادٍ)[3].

وهذه الآداب والمقدِّمات: بمنزلة (التحية والثناء الذي يُخاطب به المَلِكُ عند الدخول عليه؛ تعظيماً له وتمجيداً؛ ومقدمة بين يدي حاجته)[4]، وهذه الآداب والمقدِّمات التي قرَّرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هي:

الأدب الأول: أن يدعو العبد ربَّه ــ تبارك وتعالى ــ بأسمائه الحسنى الظاهرة؛ دون الضمير، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الثناء على الله: عامة ما يجيء مضافاً إلى أسمائه الحسنى الظاهرة دون الضمير؛ إلا أن يتقدَّم ذكرُ الاسـم الظـاهـر؛ فيجـيء بعـده المضمـر، وهـذا نحـو قـول المصلِّي: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الفوائد ص٣٤.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩.

(٤) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٢٠.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1].

وقوله في الركوع: سبحان ربي العظيم؛ وفي السجود: سبحان ربي الأعلى.

وفي هذا من السرِّ: أن تعليق الثناء بأسمائه الحسنى هو لِمَا تضمنت معانيها من صفات الكمال ونعوت الجلال، فأُتِيَ بالاسم الظاهر الدالِّ على المعنى الذي يُثنى به ولأجله عليه تعالى، ولفظ الضمير لا إشعار له بذلك، ولهذا إذا كان ولا بُدَّ من الثناء عليه بخطاب المواجهة: أُتِيَ بالاسم الظاهر مقروناً بميم الجمع الدالَّة على جمع الأسماء والصفات، نحو قوله في رفع رأسه من الركوع: اللَّـٰهُمَّ ربنا لك الحمد، وربما اقتصر على ذكر الربِّ تعالى لدلالة لفظه على هذا المعنى، فتأمله فإنه لطيفُ المنزعِ جدًّا)[2].

وقد نبَّه الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ على بعض الأسماء الظاهرة التي يحسن بالعبد أن يستفتح بها دعاءه وسؤاله ربَّه ـ عزَّ وجلّ ـ، فمن ذلك:

١ ـ (اللَّـٰهُمَّ)، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (إذا عُلِمَ هذا من شأن الميم) أي: كونه حرفاً وُضِعَ عَلَماً على الجمع (فُهِمَ لحقوها في آخر هذا الاسم الذي يُسأل الله ـ سبحانه ـ به في كلِّ حاجةٍ وكلِّ حالٍ؛ إيذاناً بجميع أسمائه وصفاته.

فالسائل إذا قال: اللَّـٰهُمَّ إني أسألك كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم ـ المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم ـ إيذاناً بسؤاله تعالى بأسمائه كلِّها.

---

(١) سورة الفاتحة: الآيات ٢ ـ ٥.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦.

كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما أصاب عبداً قطُّ همٌّ ولا حزنٌ؛ فقال: اللَّـهُمَّ إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك؛ سميت به نفسك؛ أو أنزلته في كتابك؛ أو علَّمته أحداً من خلقك؛ أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي وغمِّي، إلا أذهب الله همَّه وغمَّه، وأبدله مكانه فرحاً. قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلمهن؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن» إسناده صحيح[١].

فالداعي مندوبٌ إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته.

كما في الاسم الأعظم: «اللَّـهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إلـٰه إلا أنت الحنان المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم» إسناده صحيح[٢].

وهذه الكلمات تتضمن الأسماء الحسنى)[٣].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (وهذا القول الذي اخترناه جاء عن غير واحدٍ من السلف، قال الحسن البصري: (اللَّـهُمَّ: مجمع الدعاء)[٤].

وقال أبو رجاء العطاردي[٥]: (إن الميم في قوله: اللَّـهُمَّ: فيها تسعة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٤٨ ــ ٢٥٠.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) هو: عمران بن ملحان التميمي البصري، من كبار المخضرمين؛ أدرك الجاهلية؛ وأسلم بعد الفتح؛ ولم ير النبي ﷺ، توفي سنة خمس ومائة؛ وقد تجاوز مائة وعشرين سنة. =

وتسعون اسماً من أسماء الله تعالى)[1].

وقال النضر بن شميل[2]: (من قال: اللَّـٰهُمَّ: فقد دعا الله بجميع أسمائه)[3].

وقد وجَّه طائفةٌ هذا القول: بأن الميم هنا بمنزلة الواو الدالَّة على الجمع؛ فإنها من مخرجها، فكأنَّ الداعي بها يقول: يا الله الذي اجتمعت له الأسماء الحسنى والصفات العلى، قال: ولذلك شُدِّدت؛ لتكون عوضاً عن علامتيْ الجمع؛ وهي: الواو والنون في مسلمون ونحوه)[4].

٢ ــ (الربُّ)، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (تأمل كيف صدر الدعاء المتضمن للثناء والطلب بلفظة: اللَّـٰهُمَّ؛ كما في سيد الاستغفار: «اللَّـٰهُمَّ أنت ربـي لا إلـٰه إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك» الحديث[5].

= انظر في ترجمته: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ٢/ ٣٠٤ ــ ٣٠٩، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٣/ ٢٨٥ ــ ٢٨٧، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٤/ ٢٥٣ ــ ٢٥٧.

(١) لم أقف عليه.

(٢) هو: أبو الحسن المازني البصري، النحوي اللغوي الأديب، ولد في حدود سنة اثنتين ومائة، وتوفي في آخر يوم من ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين.
انظر في ترجمته: معجم الأدباء للحموي ١٩/ ٢٣٨ ــ ٢٤٣، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٩/ ٣٢٨ ــ ٣٣٢، بغية الوعاة في تراجم اللغويين والنحاة للسيوطي ٢/ ٣١٦ ــ ٣١٧.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٥١ ــ ٢٥٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الدعوات/ باب أفضل الاستغفار ــ الحديث رقم (٦٣٠٦) ــ ٤/ ١٩٨٤] من حديث شداد بن أوس ــ رضي الله عنه ــ، وأوله: «سيد الاستغفار أن يقول».

وجاء الدعاء المجرَّد مُصَدَّراً بلفظ الربِّ؛ نحو قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[1]. وقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[2]. وقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾[3]. وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾[4].

وكان النبي ﷺ يقول بين السجدتين: «رب اغفر لي؛ رب اغفر لي»[5].

وسرُّ ذلك: أنَّ الله تعالى يُسئل بربوبيته المتضمنة: قدرته وإحسانه وتربيته عبده وإصلاح أمره، ويُثنى عليه بإلٰهيته المتضمنة: إثبات ما يجب له من الصفات العلى والأسماء الحسنى.

وتدبَّر طريقة القرآن: تجدها كما ذكرت لك، فأما الدعاء: فقد ذكرنا منه أمثلة؛ وهو في القرآن حيث وقع لا يكاد يجيء إلا مُصَدَّراً باسم الربِّ، وأما الثناء: فحيث وقع فمُصَدَّرٌ بالأسماء الحسنى، وأعظم ما يُصَدَّرُ به:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

(٣) سورة القصص: الآية ١٦.

(٤) سورة هود: الآية ٤٧.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ــ الحديث رقم (٨٧٤) ــ ١/ ٥٤٤ ــ ٥٤٥]، والنسائي في سننه [كتاب التطبيق/ باب الدعاء بين السجدتين ــ الحديث رقم (١١٤٤) ــ ٢/ ٥٨٠ ــ ٥٨١]، وابن ماجه في سننه [كتاب إقامة الصلاة/ باب ما يقول بين السجدتين ــ الحديث رقم (٨٩٧) ــ ١/ ٤٨٣]، وأصل الحديث في صحيح مسلم [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ــ الحديث رقم (٧٧٢) ــ ١/ ٥٣٦ ــ ٥٣٧] من حديث حذيفة بن اليمان ــ رضي الله عنهما ــ ، وأوله: «الله أكبر ــ ثلاثاً ــ ذي الملكوت».

اسمُ الله ــ جلَّ جلاله ــ نحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[1] حيث جاء، ونحو: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾[2]. وجاء: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾[3]. ونحوه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4] حيث وقعت، ونحو: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[6]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[7] ونظائره.

وجاء في دعاء المسيح: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[8]، فذكر الأمرين، ولم يجيء في القرآن سواه.

ولا رأيتُ أحداً تعرَّض لهذا؛ ولا نبَّه عليه، وتحته سرٌّ عجيبٌ دالٌّ على كمال معرفة المسيح بربِّه وتعظيمه له، فإن هذا السؤال كان عقيب سؤال قومه له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[9]، فخوَّفهم الله؛

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٢، سورة الأنعام: الآيتان ١؛ ٤٥، سورة الأعراف: الآية ٤٣، سورة يونس: الآية ١٠، سورة إبراهيم: الآية ٣٩، سورة النحل: الآية ٧٥، سورة الإسراء: الآية ١١١، سورة الكهف: الآية ١، سورة المؤمنون: الآية ٢٨، سورة النمل: الآيات ١٥؛ ٥٩؛ ٩٣، سورة العنكبوت: الآية ٦٣، سورة لقمان: الآية ٢٥، سورة سبأ: الآية ١، سورة فاطر: الآيتان ١؛ ٣٤، سورة الصافات: الآية ١٨٢، سورة الزمر: الآيات ٢٩؛ ٧٤؛ ٧٥، سورة غافر: الآية ٦٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٢، سورة الروم: الآية ١٨.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٨٠.

(٤) سورة الحشر: الآية ١، سورة الصف: الآية ١.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٥٤، سورة غافر: الآية ٦٤.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٧) سورة الفرقان: الآية ١.

(٨) سورة المائدة: الآية ١١٤.

(٩) سورة المائدة: الآية ١١٢.

وأعلمهم أن هذا مما لا يليق أن يُسأل عنه؛ وأن الإيمان يردُّه، فلما ألحُّوا في الطلب؛ وخاف المسيح أن يُداخلهم الشكُّ إن لم يُجابوا إلى ما سألوا: بدأ في السؤال باسم: (اللّهُمَّ) الدالِّ على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ففي ضمن ذلك تصوُّره بصورة المثني الحامد الذاكر لأسماء ربِّه المثني عليه بها، وأن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة: إنما هو أن يُثني على الربِّ بذلك ويُمجِّده به؛ ويذكر آلاءه؛ ويظهر شواهد قدرته وربوبيته؛ ويكون برهاناً على صدق رسوله، فيحصل بذلك من زيادة الإيمان والثناء على الله أمرٌ يحسن معه الطلب؛ ويكون كالعذر فيه، فأتى بالاسمين: اسم (اللّه) الذي يُثني عليه به؛ واسم (الربِّ) الذي يُدعى ويُسأل به ــ لما كان المقام مقام الأمرين ــ .

فتأمَّل هذا السرَّ العجيب؛ ولا يَنِبْ عنه فهمُك، فإنه من الفهم الذي يؤتيه الله من يشاء في كتابه؛ وله الحمد)[1].

الأدب الثاني: أن يفتتح العبد دعاءه باسمٍ من أسماء الله الحسنى يُناسب مطلوبه، أو يختم دعاءه به، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الداعي يُشرع له أن يختم دعاءه باسمٍ من الأسماء الحسنى مناسبٌ لمطلوبه؛ أو يفتتح دعاءه به، وتقدَّم أن هذا من قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[2].

قال سليمان ــ عليه السلام ــ في دعائه ربَّه: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾[3].

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١٦٥ ــ ١٦٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٣) سورة ص: الآية ٣٥.

وقال الخليل وابنه إسماعيل ــ عليهما السلام ــ في دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

وكان النبي ﷺ يقول: «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور؛ مائة مرة في مجلسه»[2].

وقال لعائشة رضي الله عنها ــ وقد سألته ــ : «إن وافقت ليلة القدر ما أدعو به؟ قال: قولي: اللَّهُمَّ إنك عفوٌّ تُحبُّ العفو؛ فاعف عني»[3].

وقال ﷺ للصديق ــ رضي الله عنه ــ وقد سأله أن يُعلِّمه دعاء يدعو به في صلاته، قال: «قل: اللَّهُمَّ إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٤٧٢٦) ــ ٨/ ٣٥٠]، والبخاري في أدبه المفرد [باب سيد الاستغفار ــ الحديث رقم (٦٣٣) ــ ص١٣٥]، وأبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب في الاستغفار ــ الحديث رقم (١٥١٦) ــ ٢/ ١٧٨]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب ما يقول إذا قام من مجلسه ــ الحديث رقم (٣٤٣٤) ــ ٥/ ٤٣٣ ــ ٤٣٤]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ باب كيف الاستغفار ــ الحديث رقم (١٠٢١٩) ــ ٩/ ١٧٢]، وابن ماجه في سننه [كتاب الأدب/ باب الاستغفار ــ الحديث رقم (٣٨١٤) ــ ٤/ ٢٥٥] من حديث عبد الله ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ .
وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (٥٥٦) ــ ٢/ ٩٦ ــ ٩٨].

(٣) تقدم تخريجه.

الرحيم»[1])[2].

الأدب الثالث: أن يتوسَّل العبد بجوامع الأسماء الحسنى التي عليها مدار الأسماء كلِّها، وإليها مرجع معانيها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في دعاء: «يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث»[3]: (هذا الدعاء من أدعية الكرب لما تضمَّنه من التوحيد والاستغاثة برحمة أرحم الراحمين؛ مُتوسِّلاً إليه باسمين عليهما مدار الأسماء الحسنى كلِّها؛ وإليهما مرجع معانيها جميعها، وهو: اسم الحي القيوم.

فإن الحياة: مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلَّف عنها صفةٌ منها؛ إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها: استلزم إثباتها إثبات كلِّ كمالٍ يُضادُّ نفي كمال الحياة، وبهذا الطريق العقلي أثبت متكلموا أهل الإثبات له تعالى: صفة السمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال.

وأما القيوم: فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه؛ لا يحتاج إلى من يُقيمه بوجهٍ من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره؛ فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزَّته.

فانتظم هذان الاسمان: صفات الكمال والغنى التام والقدرة التامة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأذان/ باب الدعاء قبل السلام ــ الحديث رقم (٨٣٤) ــ ١/ ٢٥٤]، ومسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب خفض الصوت بالذكر ــ الحديث رقم (٢٧٠٥) ــ ٤/ ٢٠٧٨].

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٥٠ ــ ٤٥١.

(٣) تقدم تخريجه.

فكأن المستغيث بهما مُستغيثٌ بكلِّ اسم من أسماء الربِّ تعالى؛ وبكلِّ صفةٍ من صفاته، فما أولى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنة تفريج الكربات؛ وإغاثة اللهفات؛ وإنالة الطلبات)[١].

الأدب الرابع: أن يجمع العبد في دعائه بين أمورٍ ثلاثةٍ: ذِكْر أسماء الله الحسنى، وذِكْر فقر نفسه وذُلِّها، وذِكْر حاجته ومسألته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الدعاء ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته. وهذا أحد التأويلين[٢] في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[٣].

والثاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك وذُلِّك. فتقول: أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير، ونحو ذلك.

والثالث: أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحداً من الأمرين.

فالأول أكمل من الثاني، والثاني أكمل من الثالث، فإذا جَمَعَ الدعاء الأمور الثلاثة: كان أكمل، وهذه عامة أدعية النبـي ﷺ.

وفي الدعاء الذي علَّمه صِدِّيق الأمة ــ رضي الله عنه ــ[٤] ذكر الأقسام الثلاثة، فإنه قال في أوله: «ظلمت نفسي ظلماً كثيراً». وهذا حال السائل، ثم قال: «وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». وهذا حال المسؤول، ثم قال:

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١٥٨.

(٢) التأويل الأول: هو أن يسأل الله تعالى مُتوسِّلاً إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، والتأويل الآخر: هو أن يذكر الله تعالى مُثنياً عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـٰهُمَّ إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً».

«فاغفر لي». فذكر حاجته، وختم الدعاء باسمين من الأسماء الحسنى تناسب المطلوب وتقتضيه)[1].

وهذه إشارةٌ من الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ إلى دليل هذا الأدب من سنة النبي ﷺ، وقد أشار ــ رحمه الله تعالى ــ في مقام آخر إلى دليل هذا الأدب من كتاب الله تعالى؛ فقال: (قوله تعالى: ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2].

جمع في هذا الدعاء بين: حقيقة التوحيد؛ وإظهار الفقر والفاقة إلى ربِّه؛ ووجود طعم المحبة في المتملِّق له؛ والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسُّل إليه بصفاته ــ سبحانه ــ وشدة حاجته؛ وهو فقره، ومتى وجد المُبتلَى هذا: كُشِفَ عنه بلواه.

وقد جُرِّب أنه من قالها سبع مرات ــ ولا سيما مع هذه المعرفة ــ : كشف الله ضُرَّه)[3].

الأدب الخامس: أن يتوسَّل العبد إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ وبعبوديته لـه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (لما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب؛ ونيله أشرف المواهب: علَّم الله عباده كيفية سؤالـه، وأمرهـم أن يُقدِّموا بين يديه: حمده والثناء عليه وتمجيده؛ ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسُّلٌ إليه بأسمائه وصفاته؛ وتوسُّلٌ إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُردُّ معهما الدعاء.

---

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٥١.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

(٣) الفوائد ص٢٢٢ ــ ٢٢٣.

ويُؤيدهما: الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم ــ اللَّذيْن رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد والترمذي ــ ، أحدهما: حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو؛ ويقول: اللَّهُمَّ إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال: والذي نفسي بيده؛ لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعيَ به أجاب؛ وإذا سئل به أعطى» قال الترمذي: حديث صحيح(١).

فهذا توسُّلٌ إلى الله بتوحيده؛ وشهادة الداعي له بالواحدانية وثبوت صفاته المدلول عليها باسم الصمد، وهو كما قال ابن عباس: (العالم الذي كَمُلَ علمه؛ القادر الذي كَمُلَت قدرته)(٢).

وفي رواية عنه: (هو السيد الذي قد كَمُلَ فيه جميع أنواع السؤدد)(٣).

وقال أبو وائل(٤): (هو السيد الذي انتهى سؤدده)(٥).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) هو: شقيق بن سلمة الأسدي، شيخ الكوفة، مخضرمٌ؛ أدرك النبي ﷺ وما رآه، توفي سنة اثنتين وثمانين.
انظر في ترجمته: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ٤/ ١٠١ ــ ١١٢، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٢/ ٢٦٦ ــ ٢٦٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ١٦١ ــ ١٦٦.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة [باب نسبة الربِّ تبارك وتعالى ــ رقم (٦٧٢) ــ ص٣٠٠]، والطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٣٠/ ٣٤٦]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب جماع أبواب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ــ رقم (٩٩) ــ ١/ ١٥٧]. =

وقال سعيد بن جبير: (هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله)[1].

وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[2] ــ وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة ــ.

والتوسُّل بالإيمان بذلك؛ والشهادة به: هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس: «أنَّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللَّهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت؛ المنان بديع السماوات والأرض؛ يا ذا الجلال والإكرام؛ ياحي يا قيوم. فقال: لقد سأل الله باسمه الأعظم»[3]. فهذا توسُّلٌ إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين؛ وهما: التوسُّل بالحمد والثناء عليه وتمجيده؛ والتوسُّل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهمِّ المطالب وأنجح الرغائب؛ وهو: الهداية بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيقٌ بالإجابة.

ونظير هذا دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يُصلِّي من الليل، رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس: «اللَّهُمَّ لك الحمد؛ أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت الحقُّ ووعدك الحقُّ ولقاؤك حقٌّ؛ والجنة حقٌّ والنار حقٌّ؛ والنبيون حقٌّ والساعة حقٌّ ومحمد حقٌّ، اللَّهُمَّ لك

= وقال الألباني في [ظلال الجنة في تخريج السنة]: (إسناده صحيح مقطوع أيضاً، رجاله ثقاتٌ؛ رجال الشيخين).

(1) ذكره البغوي في [معالم التنزيل: ٨/٥٨٨].

(2) سورة الإخلاص: الآية ٤.

(3) تقدم تخريجه.

أسلمت وبك آمنت؛ وعليك توكلت وإليك أنبت؛ وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت؛ وما أسررت وما أعلنت، أنت إلـٰهي لا إلـٰه إلا أنت»[1].

فذكر التوسُّل إليه بحمده والثناء عليه؛ وبعبوديته له، ثم سأله المغفرة)[2].

الأدب السادس: أن يقرن العبد توسُّله إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته بـ : التنزيه؛ وتوسُّله إليه بعبوديته بـ : الاعتراف بالظلم، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في دعوة ذي النون ــ عليه السلام ــ ؛ التي دعا الله تعالى بها وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾[3]: (أما دعوة ذي النون: فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للربِّ تعالى؛ واعتراف العبد بظلمه وذنبه: ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمِّ والغمِّ؛ وأبلغ الوسائل إلى الله ــ سبحانه ــ في قضاء الحوائج.

فإن التوحيد والتنزيه: يتضمنان إثبات كلِّ كمالٍ لله؛ وسلب كلِّ نقصٍ وعيبٍ وتمثيلٍ عنه.

والاعتراف بالظلم: يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويُوجب انكساره ورجوعه إلى الله؛ واستقالته عثرته؛ والاعتراف بعبوديته؛ وافتقاره إلى ربِّه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التهجد/ باب التهجد بالليل وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ ــ الحديث رقم (١١٢٠) ــ ١/ ٣٣٥]، وكذا أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ــ الحديث رقم (٧٦٩) ــ ١/ ٥٣٢ ــ ٥٣٣].

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣١ ــ ٣٢.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

فهاهنا أربعة أمور قد وقع التوسُّل بها: التوحيد؛ والتنزيه[1]؛ والعبودية؛ والاعتراف)[2].

الأدب السابع: أن يُلِحّ العبد في مسألته؛ ويتملَّق في دعائه؛ ويتوسَّل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته وتوحيده، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (من أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء.

وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[3].

---

(١) في حَشْوِ التوسُّل لله ـ سبحانه وتعالى ـ في الدعاء بالتنزيه من المعاني الجليلة والآداب النبيلة ما لا يدور بالبال؛ ولا يخطر على الخيال، فمن ذلك: أن العبد يُنزِّه ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ في دعائه بكشف أدوية الكرب والهمِّ والغمِّ عنه عن الظلم؛ المتضمن لإثبات كمال ضدِّه من العدل، ويُنزِّه ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ في دعائه بفتح باب الرزق له عن الفقر والبخل؛ المتضمن لإثبات كمال ضدِّه من الغنى والجود، ويُنزِّه ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ في دعائه باستنزال النصر عليه عن العجز والضعف؛ المتضمن لإثبات كمال ضدِّه من القوة والقدرة، فإن تخلَّف موجب هذا التنزيه: فلا يظنَّ العبد بربِّه ـ تبارك وتعالى ـ ظنَّ السوء، وليظنَّ السَّوء بنفسه التي هي مأوى كلِّ سوء؛ ومنبع كلِّ شرٍّ؛ المجبولة على الظلم والجهل، والله أعلم.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/٢٠٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٩٧٠١) ـ ١٥/٤٣٨]، والبخاري في أدبه المفرد [باب من لم يسأل الله يغضب عليه ـ الحديث رقم (٦٧٥ ـ ٦٧٦) ـ ص١٤٣]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٣) ـ الحديث رقم (٣٣٧٣) ـ ٥/٣٨٧]، وابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب فضل الدعاء ـ الحديث رقم (٣٨٢٧) ـ ٤/٢٦١] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وحسنه الألباني في [صحيح الأدب المفرد: الحديث رقم (٥١٢) ـ ص٢٤٦].

وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي ﷺ: «لا تعجزوا فى الدعاء، فإنه لايهلك مع الدعاء أحدٌ»[1].

وذكر الأوزاعي[2] عن الزهري[3] عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يُحبُّ المُلحِّين فى الدعاء»[4].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ـ الحديث رقم (١٨١٨) ـ ١/ ٦٧١].
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (٨٤٣) ـ ٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠].

(٢) هو: أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، عالم أهل الشام، ولد سنة ثمان وثمانين، وتوفي في صفر سنة سبع وخمسين ومائة.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/ ١٨٤ ـ ٢١٩، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ٦/ ١٣٥ ـ ١٤٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ٧/ ١٠٧ ـ ١٣٤.

(٣) هو: أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب القرشي الزهري المدني، حافظ زمانه، ولد سنة خمسين، وتوفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين ومائة.
انظر في ترجمته: صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ١٣٦ ـ ١٣٩، تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٩٠ ـ ٩٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٣٢٦ ـ ٣٥٠.

(٤) أخرجه الطبراني في الدعاء [الحديث رقم (٢٠) ـ ٢/ ٧٩٤ ـ ٧٩٥]، وهو من الأحاديث المشتهرة على الألسنة.
انظر: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي [رقم (٢٤٣) ـ ص١٣٩]، الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي [رقم (١١٣) ـ ص٨٨]، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني [رقم (٧٥٠) ـ ١/ ٢٨٧].
وقد حكم عليه الألباني بالبطلان؛ كما في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (٦٣٧) ـ ٢/ ٩٦ ـ ٩٧].

وفـي كـتـاب الـزهـد للإمـام أحـمـد عن قتادة قال: قال مورق[1]: (ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجلٌ في البحر على خشبةٍ، فهو يدعو: يا ربِّ؛ يا ربِّ، لعلَّ الله ــ عزَّ وجلّ ــ أن يُنجيه)[2])[3].

ثم ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ آفة استعجال العبد واستبطاءه الإجابة، فقال: (ومن الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه: أن يستعجل العبد ويستبطي الاجـابة؛ فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه: تركه وأهمله.

وفي البخاري من حديث أبـي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ، يقول: دعوتُ فلم يستجب لي»[4].

وفي صحيح مسلم عنه: «لايزال يُستجاب للعبد ما لم يدع بإثمٍ أو قطيعة رحمٍ؛ ما لم يستعجل. قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال:

---

(١) هو: أبو المعتمر مُوَرِّق بن مشمرخ العجلي البصري، الثقة العابد.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبـي حاتم ٨/ ٤٠٣ ــ ٤٠٤، حلية الأوليـاء وطبقـات الأصفيـاء لـلأصفهـانـي ٢/ ٢٣٤ ــ ٢٣٧، سيـر أعـلام النبـلاء للذهبـي ٤/ ٣٥٣ ــ ٣٥٥.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد [ص٣٧١].

(٣) الداء والدواء ص١٢ ــ ١٣.

(٤) أخـرجـه البخـاري فـي صحيحـه [كتـاب الـدعـوات/ بـاب يستجـاب للعبـد مـا لـم يعجـل ــ الحـديـث رقـم (٦٣٤٠) ــ ٤/ ١٩٩٤]، وكـذا أخـرجـه مسلـم في صحيحـه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب بيان أنه يستجاب للداعي مـا لم يعجل فيقول: دعوتُ فلم يستجب لي ــ الحديث رقم (٢٧٣٥) ــ ٤/ ٢٠٩٥].

يقول: قد دعوتُ وقد دعوتُ؛ فلم أر يُستجاب لي، فيستحسر عند ذاك؛ ويدع الدعاء»[1].

وفي مسند أحمد من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لايزال العبد بخيرٍ؛ ما لم يستعجل. قالوا: يا رسول الله كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوتُ لربِّي فلم يستجب لي»[2])[3].

ثم ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ الأسباب التي يُؤَمَّل معها إجابة الدعاء، فقال: (وإذا جمع مع الدعاء: حضور القلب؛ وجمعيَّته بكلِّيَّته على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة ـ وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة، وآخر ساعةٍ بعد العصر من ذلك اليوم ـ ، وصادف خشوعاً في القلب؛ وانكساراً بين يدي الربِّ؛ وذلالةً وتضرعاً ورقةً، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله؛ والثناء عليه، ثم ثنَّى بالصلوة على محمد عبده ﷺ، ثم قَدَّم بين يدي حاجته: التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله؛ وأَلَحَّ عليه في المسألة؛ وتملَّقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقَدَّم بين يدي دعائه: صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يُرَدُّ أبداً، ولا سِيَّما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة؛ أو أنها متضمنةٌ للاسم الأعظم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوتُ فلم يستجب لي ـ الحديث رقم (٢٧٣٥) ـ ٤/٢٠٩٦].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٣٠٠٨) ـ ٢٠/ ٣١١].

(٣) الداء والدواء ص١٣ ـ ١٤.

فمنها: ما في السنن وفي صحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللَّـهُمَّ إني أسالك بأني أشهد أنك أنت الله؛ لا إلـه الا أنت؛ الأحد الصمد؛ الذي لم يلد ولم يولد؛ ولم يكن كفواً أحد. فقال: لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب». وفي لفظٍ: «لقد سألت الله باسمه الأعظم»[1].

وفي السنن وصحيح أبـي حاتم بن حبان أيضاً من حديث أنس بن مالك: «أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يُصلِّي، ثم دعا فقال: اللَّـهُمَّ إني أسالك بأن لك الحمد، لا إلـه الا أنت؛ المنان؛ بديع السماوات والأرض؛ يا ذا الجلال والإكرام؛ يا حى يا قيوم. فقال النبـي ﷺ: لقد دعا الله باسمه العظيم؛ الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى»[2]. وأخرج الحديثين أحمد فى مسنده.

وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد أن النبـي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾[3]. وفاتحة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾[4]». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[5].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٣.

(٤) سورة آل عمران: الآيتان ١ ــ ٢.

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٦٤) ــ الحديث رقم (٣٤٧٨) ــ ٥/ ٤٦٤]. وكـذا أخـرجـه أحمـد فـي مسنـده [الحـديـث رقـم (٢٧٦١١) ــ ٤٥/ ٥٨٤]، وأبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب الدعاء ــ الحديث رقم (١٤٩٦) ــ ٢/ ١٦٨]، وابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب اسم الله الأعظم ــ الحديث رقم (٣٨٥٥) ــ ٤/ ٢٧٥]. =

وفي مسند أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبـي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بـن عامر عـن النبـي ﷺ أنـه قال: «ألـظوا بـ: يـا ذا الجـلال والإكرام»[1].

يعني: تعلَّقوا بها والزموها وداوموا عليها[2].

وفي جامع الترمذي من حديث أبـي هريرة: «أن النبـي ﷺ كان إذا أهمَّه الأمر: رفع رأسه إلى السماء، وإذا اجتهد في الدعاء قال: يا حي يا قيوم»[3].

وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك قال: «كان النبـي ﷺ إذا كربه أمرٌ قال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[4].

وفي صحيح الحاكم من حديث أبـي أمامة عن النبـي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في ثلاث سورٍ من القرآن: البقرة؛ وآل عمران؛ وطه».

= وحسنه الألباني في [صحيح سنن ابن ماجه: الحديث رقم (٣١٢٣) ــ ٣/ ٢٦٠].

(١) تقدم تخريجه في المسند من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ . وأخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ــ الحديث رقم (١٨٣٦ ــ ١٨٣٧) ــ ١/ ٦٧٦ ــ ٦٧٧] من حديث أبـي هريرة وربيعة بن عامر ــ رضي الله عنهما ــ .

(٢) انظر: الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣/ ٣١٧، غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ٣٢٣، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ٢٥٢ [مادة: لظظ].

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب ما جاء ما يقول عند الكرب ــ الحديث رقم (٣٤٣٦) ــ ٥/ ٤٣٥].
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي: ص٤٠١].

(٤) تقدم تخريجه.

قال القاسم[1]: (فالتمستُها فإذا هي: آية ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[2])[3].

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾[4]. إنه لم يدع بها مسلمٌ في شيءٍ قط إلا استجاب الله له». قال الترمذي: حديث صحيح[5].

---

(1) هو: أبو عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى آل أبي سفيان بن حرب الأموي، محدث دمشق، توفي سنة اثنتي عشرة ومائة.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ١٥٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٣/ ٣٨٣ ـ ٣٩١، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

(2) سورة البقرة: الآية ٢٥٥، سورة آل عمران: الآية ٢.

(3) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ـ الحديث رقم (١٨٦١) ـ ١/ ٦٨٤]. وكذا أخرجه ابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب اسم الله الأعظم ـ الحديث رقم (٣٨٥٦) ـ ٤/ ٢٧٦].
وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (٧٤٦) ـ ٢/ ٣٧١ ـ ٣٧٢].

(4) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

(5) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٨١) ـ الحديث رقم (٣٥٠٥) ـ ٥/ ٤٨٤]، والحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ـ الحديث رقم (١٨٦٢) ـ ١/ ٦٨٤ ـ ٦٨٥]. وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٤٦٢) ـ ٣/ ٦٥ ـ ٦٦]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ باب ذكر دعوة ذي النون ـ الحديث رقم (١٠٤١٧) ـ ٩/ ٢٤٣].
وصححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٤٤٣].

وفي صحيح الحاكم أيضاً من حديث سعد عن النبي ﷺ: «ألا أخبركم بشيءٍ إذا نزل برجلٍ منكم أمرٌ مُهِمٌّ فدعا به: يُفَرِّجُ الله عنه؟ دعاء ذي النون»[١].

وفي صحيحه أيضاً عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول: «هل أدلكم على اسم الله الأعظم؟ دعاء يونس. فقال رجلٌ: يا رسول الله، هل كان ليونس خاصة؟ فقال: ألا تسمع قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[٢]. فأيما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك: أُعطي أجر شهيدٍ، وإن برأ: برأ مغفورٌ له»[٣].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: لا إلـه إلا الله العظيم الحليم، لا إلـه الا الله رب العرش العظيم، لا إلـه إلا الله ربُّ السماوات وربُّ الأرض؛ ربُّ العرش الكريم»[٤].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ قال: «علَّمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كربٌ أن أقول: لا إلـه إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله، وتبارك الله ربُّ العرش العظيم،

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ــ الحديث رقم (١٨٦٤) ــ ١/ ٦٨٥]. وكذا أخرجه النسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ باب ذكر دعوة ذي النون ــ الحديث رقم (١٠٤١٦) ــ ٩/ ٢٤٣].
وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٧٤٤) ــ ٤/ ٣٢٥ ــ ٣٢٦].

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٨.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ــ الحديث رقم (١٨٦٥) ــ ١/ ٦٨٥ ــ ٦٨٦].

(٤) تقدم تخريجه.

والحمد لله رب العالمين»[1].

وفي مسنده أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حزنٌ؛ فقال: اللَّـٰهُمَّ إني عبدك؛ ابن عبدك؛ ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك اللَّـٰهُمَّ بكلِّ اسم هو لك سميت به نفسك؛ أو علَّمته أحداً من خلقك؛ أو أنزلته في كتابك؛ أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي: إلا أذهب الله همَّه وحزنه؛ وأبدله مكانه فرحاً. فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلَّمها؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلَّمها»[2].

وقال ابن مسعود: (ما كرب نبيٌّ من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح)[3].

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين في الدعاء عن الحسن قال: (كان رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يُكنى: أبا معلق[4]، وكان تاجراً يتَّجر بمالٍ له ولغيره؛ يضرب به في الآفاق، وكان ناسكاً ورعاً، فخرج مرةً فلقيه لصٌّ مُقَنَّعٌ في السلاح، فقال له: ضع ما معك، فإني قاتلك. قال: فما تريد من دمي؟ فشأنك والمال. قال: أما المال فلا، ولست أريدُ إلا دمك. قال: أما إذا أَبَيْتَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٧٠١) ـ ٢/ ١٠٩]. وكذا أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٨٠) ـ الحديث رقم (٣٥٠٤) ـ ٥/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب النعوت/ باب الحليم الكريم ـ الحديث رقم (٧٦٢٦) ـ ٧/ ١٢٩].
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي: ص٤٠٨].

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) ذكره مردوفاً بقصته الآتية الذكر: ابن حجر العسقلاني في [الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠].

فذرني أُصلِّي أربع ركعات. قال: صلِّي ما بدا لك. فتوضأ ثم صلَّى أربع ركعات، فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال: يا ودود؛ يا ذا العرش المجيد؛ يا فعال لما تريد: أسألك بعِزِّك الذي لا يُرام؛ وبملكك الذي لايُضام؛ وبنورك الذي ملأ أركان عرشك: أن تكفيني شرَّ هذا اللصِّ، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني ــ ثلاث مرات ــ، فإذا هو بفارسٍ أَقْبَلَ بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه، فلما بصر به اللصُّ أقبل نحوه؛ فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه فقال: قم. فقال: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقد أغاثني الله بك اليوم. فقال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوتَ فسمعتُ لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوتَ بدعائك الثاني فسمعتُ لأهل السماء ضجَّة، ثم دعوتَ بدعائك الثالث فقيل لي: دعاءُ مكروبٍ، فسألتُ الله أن يُوَلِّيني قتله.

قال الحسن: فمن توضأ؛ وصلَّى أربع ركعات؛ ودعا بهذا الدعاء: اسْتُجيبَ له ــ مكروباً كان أو غير مكروب ــ)[1])[2].

الأدب الثامن: أن يختم العبد دعاءه بالاعتراف بعجزه وتقصيره عن بلوغ حقيقة الثناء على الله ــ سبحانه وتعالى ــ بأسمائه الحسنى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (أعرف الخلق به) أي: بالله ــ سبحانه وتعالى ــ (وأقومهم بتوحيده: من قال في دعائه: «وأعوذ بك منك» ــ فليس للخلق معاذٌ سواه ولا مُستعاذٌ منه؛ إلا وهو ربُّه وخالقه ومليكه وتحت قهره وسلطانه ــ، ثم ختم الدعاء بقوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[3]. اعترافاً بأن شأنه وعظمته ونعوت كماله وصفاته: أعظم

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في [مجابي الدعوة: رقم (٢٣) ــ ص٢٧ ــ ٢٩] عن الحسن عن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ.

(٢) الداء والدواء ص١٤ ــ ٢١.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

وأجلُّ من أن يُحصيها أحدٌ من الخلق، أو بلغ أحدٌ حقيقة الثناء عليه؛ غيره ـ سبحانه ـ .

فهو توحيدٌ في الأسماء والصفات والنعوت؛ وذاك توحيدٌ في العبودية والتألُّه وإفراده تعالى بالخوف والرجاء والاستعاذة، وهذا مضادُّ الشرك؛ وذاك مضادُّ التعطيل، وبالله التوفيق)[1].

فاقْتَبِسْ هذه الآداب الشرعية؛ والمقدِّمات المرعية (من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم)[2] التي ينبغي للعبد أن يتنبَّه لها عند توسُّله في دعائه بأسماء الله تعالى وصفاته، ومن حُرِمَ هذه الآداب والمقدِّمات: (فَلْيَبْكِ على حياة قلبه فإنه من الأموات، وعلى نوره فإنه منغمسٌ في بحار الظلمات)[3].

سابعاً: أن في إجابة الربِّ تعالى لطلب عبده وسؤاله؛ وإعطائه فضله ونواله: إظهاراً لجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإحسانه؛ الذي هو موجب أسمائه الحسنى، وفي هذا بيانُ فضل دعاء العبد ربَّه ـ جلَّ جلاله ـ وأهميته، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الربَّ ـ سبحانه ـ يُحبُّ من عبده أن يسأله؛ ويرغب إليه، لأن وصول برِّه وإحسانه إليه موقوفٌ على سؤاله، بل هو المتفضل به ابتداء بلا سببٍ من العبد؛ ولا توسُّط سؤاله وطلبه، بل قدَّر له ذلك الفضل بلا سببٍ من العبد، ثم أمره بسؤاله والطلب منه؛ إظهاراً لمرتبة العبودية والفقر والحاجة، واعترافاً بعزِّ الربوبية؛ وكمال غنى الربِّ؛ وتفرُّده بالفضل والإحسان؛ وأن العبد لا غنى له عن فضله طرفة

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٤٧.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٩٨.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٨.

عين، فيأتي بالطلب والسؤال إتيان من يعلم أنه لا يستحقُّ بطلبه وسؤاله شيئاً، ولكن ربَّه تعالى يُحبُّ أن يُسأل؛ ويُرغب إليه؛ ويُطلب منه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[2]. وقال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[3]. وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[4]. وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[5]. وقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[6].

وقال النبي ﷺ: «ليسأل أحدُكم ربَّه كلَّ شيءٍ؛ حتى شسع[7] نعله إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره: لم يتيسر»[8]. وقال:

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٣) سورة النساء: الآية ٣٢.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٧٧.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٥٥.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٥٦.

(٧) الشسع: أحد سيور النعل، وهو الذي يُدخل بين الأصبعين، ويُدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزِّمام.
انظر: غريب الحديث للحربي ٣/ ١١٨٢ ـ ١١٨٣، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٤٧٢، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للفتني ٣/ ٢١٨ [مادة: شسع].

(٨) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (١٣٩) ـ الحديث رقم (٣٦٠٤) ـ ٥/ ٥٦٠] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ دون قوله: «فإنه إن لم ييسره: لم يتيسر».
وهذه الزيادة: أخرج نحوها الطبراني في الدعاء [باب ما جاء في فضل لزوم الدعاء والإلحاح فيه ـ الحديث رقم (٢٥) ـ ٢/ ٧٩٧]؛ =

«من لم يسأل الله: يغضب عليه»[1].

وروى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «سلوا الله من فضله، فإن الله يُحبُّ أن يُسأل من فضله»[2]. «وما سُئِلَ الله شيئاً أحبَّ إليه من العافية»[3].

وقال: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، فتعرضوا لنفحاته، واسألوا الله أن يستر عوراتكم؛ ويُؤمِّن روعاتكم»[4]. وقال: «ما من داعٍ

= بلفظ: «فإنه إذا لم يسهله لم يسهل».
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي: ص٤٣٢].

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب في انتظار الفرج وغير ذلك ــ الحديث رقم (٣٥٧١) ــ ٥/ ٥٣٢].
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي: ص٤٢٥].
(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (١٠١) ــ الحديث رقم (٣٥٤٨) ــ ٥/ ٥١٥] من حديث عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ، وأوله: «من فُتِحَ له منكم بابُ الدعاء».
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي: ص٤١٧].
(٤) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير [الحديث رقم (٧٢٠) ــ ١/ ٢٥٠]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ــ الحديث رقم (٣٠٦) ــ ١/ ٣٧٨ ــ ٣٧٩]؛ والجامع لشعب الإيمان [باب في الرجاء من الله تعالى ــ الحديث رقم (١٠٨٣) ــ ٣/ ٣١٩ ــ ٣٢٠] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ، بلفظ نحوه.
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (٢٧٩٨) ــ ٦/ ٣١٣].
وأخرجه الطبراني في معجميه: الكبير [الحديث رقم (٥١٩) ــ ١٩/ ٢٣٣ ــ ٢٣٤]، والأوسط [الحديث رقم (٢٨٧٧) ــ ٣/ ٤٠٨ ــ ٤٠٩] بلفظ نحوه؛ من =

يدعو الله بدعوةٍ إلا آتاه بها أحد ثلاثٍ: إما أن يُعجِّل له حاجته، وإما أن يُعطيه من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشرِّ مثلها. قالوا: إذا نكثر يا رسول الله؟ قال: فالله أكثر»[1]. وقال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»[2].

وقال تعالى في الحديث القدسي ـ فيما رواه مسلمٌ عن أبي ذرٍ ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ ـ: «يا عبادي كلُّكم جائعٌ إلا من أطعمتُه؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلُّكم عارٍ إلا من كسوتُه؛ فاستكسوني أكسكم، يا عبادي كلُّكم ضالٌ إلا من هديتُه؛ فاستهدوني أهدكم، يا عبادي إنكم تُخطئون بالليل والنهار؛ وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالي؛ فاستغفروني أغفر لكم»[3].

= حديث محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ.
وضعفه الألباني في [ضعيف الجامع الصغير: الحديث رقم (١٩١٧) ـ ص٢٧٧].

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١١١٣٣) ـ ١٧/ ٢١٣ ـ ٢١٤]، والبخاري في أدبه المفرد [باب ما يدخر للداعي من الأجر والثواب ـ الحديث رقم (٧٣١) ـ ص١٥٣ ـ ١٥٤] من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه: «ما من مسلم يدعو بدعوة».
وصححه الألباني في [صحيح الأدب المفرد: الحديث رقم (٥٤٧) ـ ص٢٦٤].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٨٧٤٨) ـ ١٤/ ٣٦٠]، والبخاري في أدبه المفرد [باب فضل الدعاء ـ الحديث رقم (٧٣٣) ـ ص١٥٤] واللفظ لهما، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب ما جاء في فضل الدعاء ـ الحديث رقم (٣٣٧٠) ـ ٥/ ٣٨٥]، وابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب فضل الدعاء ـ الحديث رقم (٣٨٢٩) ـ ٤/ ٢٦٢] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.
وحسنه الألباني في [صحيح الأدب المفرد: الحديث رقم (٥٤٩) ـ ص٢٦٥].

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي».

وقال ﷺ: «وأما السجود: فاجتهدوا فيه في الدعاء، فقمن[1] أن يُستجاب لكم»[2].

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : إنِّي لا أحمل همَّ الإجابة؛ ولكن أحمل همَّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدعاء: علمتُ أن الإجابة معه»[3].

وفي هذا يقول القائل:

لو لم ترد بذل ما أرجو وأطلبه ... من جود كفِّك ما عوَّدتني الطلبا[4].

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يُحبُّ تذلُّل عبيده بين يديه؛ وسؤالهم إياه؛ وطلبهم حوائجهم منه؛ وشكواهم إليه؛ وعياذهم به منه؛ وفرارهم منه إليه، كما قيل:

قالوا أتشكوا إليه ... ما ليس يخفى عليه

فقلتُ ربي يرضى ... ذلَّ العبيد لديه[5].

---

(١) قمن: خليقٌ وجديرٌ.
انظر: غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ٢٦٥، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ١١١، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للفتني ٤/ ٣٢٨ [مادة: قمن].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ـ الحديث رقم (٤٧٩) ـ ١/ ٣٤٨] من حديث عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، وأوله: «يا أيها الناس؛ إنه لم يبق من مُبشِّرات النبوة».

(٣) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في [اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ٢/ ٧١٢ ـ ٧١٣]، مراتب الإرادة ٨/ ١٩٣ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، ولم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) لم أقف عليه.

وقال الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ : حدثنا عبد الوهاب[1]، عن إسحاق[2]، عن مطرف بن عبد الله قال: (تذاكرتُ ما جماع الخير؟ فإذا الخير كثيرٌ: الصيام والصلاة، وإذا هو في يد الله تعالى، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله؛ إلا أن تسأله فيعطيك، فإذا جماعُ الخير: الدعاء[3])[4].

ثامناً: أن الإعراض عن ذكر الله تعالى ودعائه بأسمائه الحسنى[5]: مما يجب الحذر والرهب منه، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[6]. أي: تُنسى في العذاب كما نسيت آياتي فلم تذكرها؛ ولم تعمل بها.

وإعراضه عن ذكره يتناول: إعراضه عن الذكر الذي أنزله؛ وهو أن يذكر الذي أنزله في كتابه، وهو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربَّه بكتابه

---

(١) هو: أبو محمد عبد الوهاب بن عبد المجيد بن عبد الصلت بن عبد الله ابن صاحب رسول الله ﷺ الحكم بن أبي العاص الثقفي ــ رضي الله عنه ــ؛ البصري، الحافظ الحجة، ولد سنة ثمان ومائة، وتوفي سنة أربع وتسعين ومائة.
انظر في ترجمته: الثقات للعجلي ص٣١٤، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٨/ ٥٠٣ ــ ٥٠٨، سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/ ٢٣٧ ــ ٢٤١.

(٢) هو: إسحاق بن سويد بن هبيرة التميمي البصرى، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة.
انظر في ترجمته: الثقات لابن حبان ٤/ ٢٤، سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/ ٤٧، الوافي بالوفيات للصفدي ٨/ ٤١٤.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد [ص٢٩٥].

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٠٧ ــ ١٠٨.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٠٧ ــ ١٠٨.

(٦) سورة طه: الآيات ١٢٤ ــ ١٢٦.

وأسمائه وصفاته وأوامره وآلائه ونعمه، فإن هذه كلَّها توابعُ إعراضه عن كتاب ربِّه تعالى)[1].

فهذه مراتب الإحصاء الثلاث؛ متى ما أحصاها العبد: فقد جنى ثمارها الطيبة المترتبة عليها؛ والتي تضمن المطلب الثالث ـ الآتي الذكر ـ : الإشارة إلى بعضها.

ولا تستطل هذا المطلب؛ (فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقُّله، ونزولها منه منازلها في الدنيا لتنزل في جوار ربِّها في الآخرة؛ مع الذين أنعم الله تعالى ﴿عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[2] [3].



(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٦٨.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٩.

(٣) بدائع الفوائد ٢/ ١٨٢.

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير ثمرات إحصاء الأسماء الحسنى

ظهرت جهود الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ جليّة في تقريره لإحصاء أسماء الله الحسنى؛ وما يترتَّب عليه من الثمرات اليانعة التي يجنيها العبد من ذلك ـ كما تقدم ذكر طرفٍ صالحٍ من كلامه رحمه الله تعالى في تقرير هذه الثمرات[1] ـ ؛ التي هي (غاية الأماني؛ ونهاية الآمال، وقرَّة العيون؛ وحياة القلوب، وسعادة العبد كلُّها)[2].

وإن من جوامع كلم الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا المقام؛ الذي تضمن تقرير ثمرات إحصاء أسماء الله الحسنى: ما ذكره ـ رحمه الله تعالى ـ في مشهد الأسماء والصفات؛ وبيان ما فيه من الآثار والموجبات السارية في العالم وفي الأمر؛ فقال: (المَطْلَعُ على هذا المشهد: معرفة تعلُّق الوجود ـ خلقاً وأمراً ـ بالأسماء الحسنى والصفات العلى؛ وارتباطه بها ـ وإن كان العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها ـ ، وهذا

---

(١) تقدم في مواطن متعددة تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لثمرات إحصاء أسماء الله الحسنى، ومن هذه المواطن ـ على وجه الخصوص ـ : المبحث المنعقد بعنوان: (جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير ثمرات توحيد الأسماء والصفات في قلب العبد وجوارحه).

(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢٨.

من أجلِّ المعارف وأشرفها.

وكلُّ اسمٍ من أسمائه ـ سبحانه ـ له صفة خاصة، فإن أسماءه أوصافُ مدحٍ وكمالٍ، وكلُّ صفةٍ لها مقتض وفعل ـ إما لازمٌ وإما متعدٍ ـ، ولذلك الفعل تعلُّقٌ بمفعولٍ هو من لوازمه، وهذا في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، كلُّ ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال: تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها؛ وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال؛ وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله؛ وأفعاله عن صفاته؛ وصفاته عن أسمائه؛ وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته، وإذا كانت أوصافه صفات كمال؛ وأفعاله حكماً ومصالح؛ وأسماؤه حسنى: ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيلٌ في حقِّه.

ولهذا ينكر ـ سبحانه ـ على من عطَّله عن أمره ونهيه؛ وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى ما لا يليق به؛ وإلى ما يتنزَّه عنه، وأن ذلك حكمٌ سيىءٌ ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك: فما قدره حقَّ قدره؛ ولا عظَّمه حقَّ تعظيمه، كما قال تعالى ـ في حقِّ منكري النبوة وإرسال الرسل وإنزال الكتب ـ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[1].

وقال تعالى ـ في حقِّ منكري المعاد والثواب والعقاب ـ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٧.

وقـال ـ فـي حـق مـن جـوَّز عليه التسوية بين المختلفين؛ كالأبرار والفجار؛ والمؤمنين والكفار ـ : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

فأخبر أن هذا حكمٌ سيءٌ لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفاته.

وقـال ـ سبحـانـه ـ : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾[2]: عن هذا الظنِّ والحسبان؛ الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة، ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته، إذ ذلك مستلزمٌ تعطيلَها عن كمالها ومقتضياتها.

فـاسمـه الحميـد المجيـد: يمنـع تـرك الإنسـان سـدى مهمـلاً معطـلاً؛ لا يُؤمر ولا يُنهى؛ ولا يُثاب ولا يُعاقب. وكذلك اسمه الحكيم: يأبى ذلك، وكذلك اسمه الملك.

واسمه الحي: يمنع أن يكون مُعطَّلاً من الفعل، بل حقيقة الحياة: الفعل، فكلُّ حيٍّ فعالٌ، وكونه ـ سبحانه ـ خالقاً قيوماً من موجبات حياته ومقتضياتها.

واسمه السميع البصير: يُوجب مسموعاً ومرئياً. واسمه الخالق: يقتضي مخلوقاً، وكذلك الرزَّاق.

واسمه الملك: يقتضي مملكة وتصرفاً وتدبيراً؛ وإعطاء ومنعاً؛ وإحساناً وعدلاً؛ وثواباً وعقاباً.

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢١.

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان ١١٥ ـ ١١٦.

واسم البَرِّ المحسن المعطي المنان ونحوها: تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عُرِفَ هذا؛ فمن أسمائه ــ سبحانه ــ : الغفار التواب العفوُّ، فلا بُدَّ لهذه الأسماء من متعلَّقات، ولا بُدَّ من جنايةٍ تُغفر؛ وتوبةٍ تُقبل؛ وجرائمَ يُعفى عنها، ولا بُدَّ لاسمه الحكيم: من متعلَّقٍ يظهر فيه حكمه، إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها: كاقتضاء اسم الخالق الرزَّاق المعطي المانع للمخلوق والمرزوق والمُعطَى والممنوع، وهذه الأسماء كلُّها حسنى.

والربُّ تعالى يُحبُّ ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو عفوٌّ يُحبُّ العفو؛ ويُحبُّ المغفرة؛ ويُحبُّ التوبة؛ ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرحٍ يخطر بالبال، وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله ويحلم عنه ويتوب عليه ويسامحه: من موجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يُحبُّه ويرضاه من ذلك، وما يحمد به نفسه ويحمده به أهلُ سماواته وأهلُ أرضه ما هو من موجبات كماله؛ ومقتضى حمده.

وهو ــ سبحانه ــ الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما، ومن آثارهما: مغفرة الزلات؛ وإقالة العثرات؛ والعفو عن السيئات؛ والمسامحة على الجنايات؛ مع كمال القدرة على استيفاء الحقِّ؛ والعلم منه ــ سبحانه ــ بالجناية ومقدار عقوبتها، فحلمه بعد علمه؛ وعفوه بعد قدرته؛ ومغفرته عن كمال عزَّته وحكمته، كما قال المسيح ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١١٨﴾[1].

أي: فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، لست كمن يغفر عجزاً؛ ويسامح جهلاً بقدر الحقِّ، بل أنت عليمٌ بحقِّك؛ قادرٌ على استيفائه؛ حكيمٌ في الأخذ به.

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٨.

فمن تأمَّل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم وفي الأمر: تبيَّن له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال، وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده؛ كما هو مقتضى ربوبيته وإلـهيته، فله في كلِّ ما قضاه وقدَّره الحكمة البالغة؛ والآيات الباهرة؛ والتعرُّفات إلى عباده بأسمائه وصفاته؛ واستدعاء محبتهم له وذكرهم له وشكرهم له؛ وتعبُّدهم له بأسمائه الحسنى، إذ كلُّ اسمٍ: فله تعبُّدٌ مختصٌّ به ــ علماً ومعرفة وحالاً ــ .

وأكمل الناس عبودية: المُتعبِّد بجميع الأسماء والصفات التى يطَّلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسمٍ آخر؛ كمن يحجبه التعبُّد باسمه القدير عن التعبُّد باسمه الحليم الرحيم، أو يحجبه عبودية اسمه المعطي عن عبودية اسمه المانع، أو عبودية اسمه الرحيم والعفوِّ والغفور عن اسمه المنتقم، أو التعبُّد بأسماء التودُّد والبرِّ واللطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء؛ ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقةٌ مشتقةٌ من قلب القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1].

والدعاء بها يتناول: دعاء المسألة؛ ودعاء الثناء؛ ودعاء التعبد، وهو ــ سبحانه ــ يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته؛ ويُثنوا عليه بها؛ ويأخذوا بحظِّهم من عبوديتها، وهو ــ سبحانه ــ يُحبُّ موجب أسمائه وصفاته، فهو عليمٌ يُحبُّ كلَّ عليم؛ جوادٌ يُحبُّ كلَّ جوادٍ؛ وترٌ يُحبُّ الوتر؛ جميلٌ يُحبُّ الجمال؛ عفوٌ يُحبُّ العفو وأهله؛ حيـيٌّ يُحبُّ الحياء وأهله؛ برٌّ يُحبُّ الأبرار؛ شكورٌ يُحبُّ الشاكرين؛ صبورٌ يُحبُّ الصابرين؛ حليمٌ يُحبُّ أهل الحلم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

فلمحبته ــ سبحانه ــ للتوبة والمغفرة والعفو والصفح: خلق من يغفر له؛ ويتوب عليه؛ ويعفو عنه، وقدَّر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له؛ ليترتَّب عليه المحبوب له المرضيّ له، فتوسُّطه كتوسُّط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب.

فربما كان مكروه العباد إلى محبوبها سبب ما مثله سبب)[1].

فهذه النقول المودعة في هذه المطالب الثلاثة من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى؛ والمتضمنة لمعاني ما سواها من النقول المذكورة في بعض مصنفاته[2]ــ : أبرزت جهده المبرور؛ وسعيه المشكور في تقرير إحصاء أسماء الله الحسنى.

وإن من أجلِّ آثار هذه الجهود المبرورة والمساعي المشكورة؛ وأبرز معالمها: ما يأتي من إحصاء الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لألفاظ أسماء الله الحسنى؛ وفهمه لمعانيها ومدلولها، وذكر أصولها التي تدور عليها؛ وترجع إليها.



(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٤٩ ــ ٤٥٣.

(٢) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ١٥٩، بدائع الفوائد ١/ ١٤٥؛ ٢/ ١٢٣ ــ ١٢٤؛ ١٧٤، الداء والدواء ص١٧٩، زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٢٠١؛ ٢٠٤ ــ ٢٠٦، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣٦، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٢؛ ٣/ ٩١١ ــ ٩١٤؛ ٩٣٧ ــ ٩٣٨؛ ٤/ ١٤٨٨، الفوائد ص١٤٤؛ ٢٠٣ ــ ٢٠٤، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٩١٣ ــ ٣٩٢٨) ــ ص٢٨٥ ــ ٢٨٦]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٠؛ ٤٥٢، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣٠٤ ــ ٣٠٧، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٢٣٠.

المبحث الثاني:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أصول الأسماء الحسنى

إنَّ العناية بِعَدِّ أسماء الجلال؛ ومعرفة ما تضمَّنته من أوصاف الكمال؛ وتدبُّر ما فيها من معاني الجمال: من أجلِّ المساعي والأعمال، كما أن ذكرها باللسان ــ مع مواطأة الجنان ــ : (من أنفع الكلام؛ وأشفاه للسقام)[١].

ونحن ــ معاشر العباد ــ ؛ لا بُدَّ أن نعلم أنا لا نُوَفِّي هذه المعاني الجليلة (حقَّها ولا نقارب، وأنها أجلُّ من علومنا؛ وفوق إدراكنا، ولكن نُنَبِّه أدنى تنبيهٍ؛ ونشير أدنى إشارةٍ إلى ما يفتح أبوابها؛ ويُنَهِّج طرقها)[٢]، وأما تفصيل ذلك؛ والإحاطة به: فلا (تفي به أقلام الدنيا وأوراقها؛ ولا قِوَى العباد، وإنما هو التنبيه والإشارة)[٣].

وحَسْبُ العباد: أن يصرفوا هممهم إلى العناية بهذه الأصول الثلاثة ــ إحصاء وفهماً ــ ، فالعناية بذلك: منزلةٌ سنيَّةٌ؛ ودرجةٌ عليَّةٌ، (فيها تنافس

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ١٨١.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٣٥٠.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٥٠.

المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمِها شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبُّون، وبِرَوْح نسيمها تروَّح العابدون، فهي قوت القلوب؛ وغذاء الأرواح؛ وقُرَّة العيون.

وهي الحياة التي مَنْ حُرِمَها: فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده: فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه: حلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللَّذَّة التي مَنْ لم يظفر بها: فعيشه كلُّه همومٌ وآلام)[1].

وقد تجلت جهود الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير أسماء الله الحسنى؛ وعنايته بإحصاء ألفاظها، واهتمامه ببيان معانيها، وكان من أمارات هذا الجهد المبارك: تقريره لأصول الأسماء الحسنى؛ التي تنتظم في دلالتها معاني سائر أسماء الله تعالى، حيث قرر ـ رحمه الله تعالى ـ أن أصول الأسماء الحسنى ثلاثةٌ؛ وهي: (الله؛ والربُّ؛ والرحمن)، وأن سائر معاني أسماء الله الحسنى تدور عليها؛ وترجع إليها.

وقد استنبط الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ أصالة هذه الأسماء الثلاثة من فاتحة الكتاب العزيز، وأشار إليها بلفظه البليغ الوجيز؛ فقال: (اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتمَّ اشتمالٍ؛ وتضمنتها أكمل تضمُّنٍ، فاشتملت على التعريف بالمعبود ـ تبارك وتعالى ـ بثلاثة أسماءٍ ـ مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها؛ ومدارها عليها ـ ، وهي: الله؛ والربُّ؛ والرحمن.

وبُنِيَتْ السورة على الإلٰهية والربوبية والرحمة، فـ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾[2]: مبنيٌّ على الإلٰهية، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾[3]:

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٦ ـ ٧.
(٢) سورة الفاتحة: الآية ٥.
(٣) سورة الفاتحة: الآية ٥.

على الربوبية، وطلب الهداية إلى ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾[1]: بصفة الرحمة.

والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيته وربوبيته ورحمته، والثناء والمجد: كمالان لِجَدِّه)[2].

وقد ألمح الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى أن هذه الأسماء الثلاثة تستوقف القلب الخاشع؛ والفؤاد الخاضع أثناء تفكُّره في آيات السبع المثاني في صلاته؛ وتُشهده أنها أصولُ أسماء الله الحسنى، فقال: (إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾[3]: وقف هنيهة يسيرة ينتظر جواب ربِّه له بقوله: «حمدني عبدي».

فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾[4]. انتظر الجواب بقوله: «أثنى عليَّ عبدي».

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾[5]. انتظر جوابه: «يمجدني عبدي»[6].

فيا لذَّة قلبه وقرَّة عينه وسرور نفسه بقول ربِّه: (عبدي) ثلاث مرات، فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات؛ وغيم النفوس: لاستطيرت فرحاً وسروراً بقول ربِّها وفاطرها ومعبودها: «حمدني عبدني»؛ و «أثنى عليَّ عبدي»؛ و «مجدني عبدي».

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٦.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٣.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٤) سورة الفاتحة: الآية ٣.

(٥) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٦) تقدم تخريجه، وأوله: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي».

ثم يكون لقلبه مجالٌ من شهود هذه الأسماء الثلاثة ـ التي هي أصول الأسماء الحسنى ـ ؛ وهي: الله؛ والربُّ؛ والرحمن)[1].

كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ في موطنٍ آخرَ ـ إضافة إلى كون هذه الأسماء الثلاثة هي أصول الأسماء الحسنى ـ: ما تضمَّنه كلُّ اسمٍ من هذه الأسماء الثلاثة؛ وفارق به قرينيه الآخرين، فقال: (الأسماء المذكورة في هـذه السـورة: هـي أصـول الأسمـاء الحسنـى، وهـي: اسـم الله؛ والـربِّ؛ والرحمن.

فاسم الله متضمِّنٌ لـ: صفات الألوهية، واسم الربِّ متضمنٌ لـ: صفات الربوبية، واسم الرحمن متضمنٌ لـ: صفات الإحسان والجود والبرِّ، ومعاني أسمائه تدور على هذا)[2].

كما فصَّل ـ رحمه الله تعالى ـ في موضعٍ آخر: بعض ما تضمَّنه كلُّ اسمٍ من هذه الأسماء الثلاثة من الصفات؛ واختصَّ به من الدلالات، فقال: (صِفات الجلال والجمال: أخصُّ باسم الله.

وصفات الفعل والقدرة والتفرُّد بالضرِّ والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة: أخصُّ باسم الربِّ.

وصفات الإحسان والجود والبرِّ والحنان والمنة والرأفة واللطف: أخصُّ باسم الرحمن)[3].

ولبيان أصالة هذه الأسماء الثلاثة؛ وأنها أصول الأسماء الحسنى: قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ارتباط جميع المخلوقات

---

(١) الصلاة وحكم تاركها ص١٧٢.

(٢) الفوائد ص٢٧.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٢.

والأوامر بهذه الأسماء الثلاثة، فقال: (تأمَّل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة وهي: الله؛ والربُّ؛ والرحمن؛ كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرَّقتهم؟ فلها الجمع؛ ولها الفرق.

فاسم الربِّ: له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقه والقادر عليه؛ لا يخرج شيءٌ عن ربوبيته، وكلُّ من في السماوات والأرض: عبدٌ له في قبضته؛ وتحت قهره.

فاجتمعوا بصفة الربوبية؛ وافترقوا بصفة الإلـٰهية، فألَّهه وحدَه السعداء؛ وأقرُّوا له طوعاً بأنه الله الذي لا إلـٰه إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكُّل والرجاء والخوف والحبُّ والإنابة والإخبات والخشية والتذلُّل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس؛ وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير؛ وفريقاً موحدين في الجنة، فالإلـٰهية: هي التي فرَّقتهم؛ كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

فالدِّين والشرع والأمر والنهي مظهره وقيامه من: صفة الإلـٰهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من: صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب؛ والجنة والنار من: صفة الملك، وهو ملك يوم الدين، فأَمَرَهُم بإلـٰهيته؛ وأعانهم ووفَّقهم وهداهم وأضلَّهم بربوبيته؛ وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكلُّ واحدةٍ من هذه الأمور لا تنفكُّ عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهي التعلُّق والسبب الذي بين الله وبين عباده، فالتأليه منهم له؛ والربوبية منه لهم؛ والرحمة سببٌ واصلٌ بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله؛ وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم؛ وبها أسكنهم دار ثوابه،

وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته، فـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[1]: مطابقٌ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾[2].

فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيءٌ عنها: أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كلَّ شيءٍ برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربّاً للعالمين: ما يدلُّ على عُلُوِّه على خلقه؛ وكونه فوق كل شيء)[3].

وكلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ الآنف الذكر متضمنٌ لذكر أصول الأسماء الحسنى الثلاثة بوجيز العبارة؛ ولطيف الإشارة، وأما جهده المبرور؛ وسعيه المشكور في شرح هذه الأسماء الثلاثة ـ التي هي أصول الأسماء الحسنى ـ ؛ وذكر أدلة ثبوتها؛ وبيان معانيها: فله معها مقاماتٌ أخر.

وبناء عليه: جعلتُ هذا المبحث في ثلاثة مطالب؛ كلِّ مطلبٍ منها تضمَّن أصلاً من هذه الأصول الثلاثة؛ الجامعة لأصول أسماء الله الحسنى؛ وهي: (الله؛ والربُّ؛ والرحمن).



(١) سورة طه: الآية ٥.

(٢) سورة الفاتحة: الآيتان ٢ ـ ٣.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٣ ـ ٤٤.

المطلب الأول:

جهوده في تقرير اسم (اللّـه) المتضمن لصفات الألوهية

اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير أول أصول أسماء الله الحسنى؛ ورأسها وعمودها وذروة سنامها؛ وهو اسم الجمال والجلال والكمال: (اللّـه).

وهذا الاسم المتضمن للألوهية: جامعٌ لجميع معاني أسماء الله الحسنى؛ متضمنٌ لسائر صفات الله العلى، ويمكن تجلية معالم هذا المطلب المتضمن لاسم الجلالة (اللّـه)؛ وإيضاحها بالمسائل الآتية:

المسألة الأولى:

تقريره أن أصل اسم الجلالة (اللّـه) هو الإلـه؛ وهو مشتقٌّ منه.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (أما (الإلـه): فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم: جميعُ الأسماء الحسنى.

ولهذا كان القول الصحيح: أن الله أصله: الإلـه؛ كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه؛ إلا من شذ منهم[1].

---

(١) كثر خلاف أهل اللغة في أصل اسم الجلالة (اللّـه)، فمن قائل: إن أصله لاه يليه؛ أي: ارتفع، ومن قائل: إن أصله لاه يلوه؛ أي: احتجب، ومن قائل: إن =

وأن اسم الله تعالى: هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى)[1].

وهذا بيانٌ لأصل اسم الجلالة (اللّه)؛ وأنه: الإلـه، وأما عن حقيقته؛ وهل هو مرتجلٌ أو مشتقٌّ؟[2] وإن كان مشتقاً؛ فما المراد باشتقاقه؟ فقد أشار إلى ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (الذين قالوا بالاشتقاق: لم يريدوا هذا المعنى ولا ألَمَّ بقلوبهم) أي: أن الاشتقاق يستلزم مادة يُشتقُّ منها (وإنما أرادوا أنه دالٌّ على صفةٍ له تعالى وهي الإلـهية؛ كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير؛ والغفور والرحيم؛ والسميع والبصير.

فإن هذه الأسماء مشتقةٌ من مصادرها بلا ريب؛ وهي قديمةٌ، والقديم لا مادة له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء: فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله.

ثم الجواب عن الجميع: أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقيةٌ لمصادرها في اللفظ والمعنى؛ لا أنها متولدةٌ منها تولُّد الفرع من أصله)[3].

= أصله وَلَهَ؛ لكون كلِّ مخلوقٍ والهاً نحوه.
انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٨٢ ـ ٨٣، التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١/ ٤، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ١/ ٢٤ ـ ٢٦.

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٢) تزعَّم كثير من أساطين اللغة القول بارتجال اسم الجلالة: (اللّه)؛ كأبي إسحاق الزجاج، وتزعم بعضهم القول باشتقاقه؛ كأبي علي النحوي.
انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص٢٥، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لابن خالويه ص١٢، إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١/ ٨.

(٣) بدائع الفوائد ١/ ٢٢.

المسألة الثانية:

تقريره أن القلب يشهد من اسم الجلالة (اللّٰه) مقام العبودية؛ التي لا تليق بسواه، ولا يستحقُّها عداه.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في قلب المُصَلِّي: (شاهد قلبه من ذكر اسم (اللّٰه) ــ تبارك وتعالى ــ إلٰهاً معبوداً موجوداً مخوفاً لا يستحقُّ العبادة غيره؛ ولا تنبغي إلا له.

قد عنت له الوجوه، وخضعت له الموجودات، وخشعت له الأصوات، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1]. ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾[2].

وكذلك خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الجن والإنس؛ والطير والوحش؛ والجنة والنار.

وكذلك أرسل الرسل؛ وأنزل الكتب، وشرع الشرائع؛ وألزم العباد الأمر والنهي)[3].

المسألة الثالثة:

تقريره أنّ مَن عرف معنى الإلٰهية وحقيقتها فقد عرف سرَّ العبودية وغايتها وحكمتها.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (اعلم أن سرَّ العبودية وغايتها وحكمتها إنما يطَّلع عليها: من عرف صفات الربِّ ــ عزَّ وجلّ ــ؛ ولم يُعطِّلها.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٦.

(٣) الصلاة وحكم تاركها ص١٧٢.

وعرف معنى الإلـٰهية وحقيقتها؛ ومعنى كونه إلهاً؛ بل هو الإلـٰه الحقُّ؛ وكلُّ إلـٰه سواه فباطلٌ؛ بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلـٰهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلـٰهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلَّق الصفات بالصفات؛ وكارتباط المعلوم بالعلم والمقدور بالقدرة والأصوات بالسمع والإحسان بالرحمة والعطاء بالجود)[1].

المسألة الرابعة:

تقريره أنّ اسم الجلالة (اللّه) دالٌ على جميع أسماء الله الحسنى.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (اسم الله دالٌّ على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دالٌّ على: إلـٰهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلـٰهية له؛ مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلـٰهية: هي صفات الكمال المنزَّهة عن التشبيه والمثال؛ وعن العيوب والنقائص.

ولهذا يُضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2].

ويقال: الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم: من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن؛ ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك.

فعُلِمَ أن اسمه (اللّـٰه) مستلزمٌ لجميع معاني الأسماء الحسنى؛ دالٌّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيلٌ وتبيينٌ لصفات الإلـٰهية التي اشتقَّ منها اسم (اللّـٰه).

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١١٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

واسم (اللّٰه) دالٌّ على كونه مألوهاً معبوداً؛ تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب)[1].

وكلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تضمن تقرير: (أحد أسماء الربِّ ـ سبحانه ـ وأجمعها لمعاني أسمائه الحسنى؛ وهو: اسم (اللّٰه) ـ جلَّ ذكره ـ)[2]؛ الذي مرجع سائر أسمائه الحسنى إليه؛ ومدار معانيها عليه، وهذا الاسم إذا قامت شواهده في قلب العبد: استوجب أن يكون الله تعالى: (هو المألوه المعبود)[3] وحده لا شريك له؛ مع كمال الحبِّ والذلِّ له.



(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤١.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٥/ ٣٦٢.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٤.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير اسم (الربّ) المتضمن لصفات الربوبية

اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير الأصل الثاني من أصول أسماء الله الحسنى؛ وهو: اسم الجلالة: (الربُّ)، حيث أفاد أن هذا الاسم متضمنٌ لربوبية الله تعالى للعالَم؛ وتصرُّفه فيه؛ وتدبيره له؛ ونفاذ أمره فيه، وأنه قد ثبت في الفطر المستقيمة التي لم تنعكس؛ واستقرَّ في العقول السليمة التي لم تنتكس: استحقاق الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ لهذه الاعتبارات؛ دون ما سواه، كما قد دلَّ على هذه الحقيقة: الشواهد الكونية والآيات الشرعية.

ويمكن تجلية معالم هذا المطلب وإيضاحها من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بالمسائل الآتية الذكر:

المسألة الأولى:

تقريره أن اسم الجلالة (الربّ) يُطلق على الله تعالى باعتباراتٍ تشهد لها العقول السليمة والفطر المستقيمة.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (الربُّ: هو السيد والمالك والمنعم والمربـي والمصلح[1].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٥/١٧٦ ــ ١٧٧، معجم مقاييس اللغة لابن =

والله تعالى هو الربُّ بهذه الاعتبارات كلِّها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له)[1].

المسألة الثانية:

تقريره أنَّ اسم الجلالة (الربّ) ينتظم في معناه سائر الأسماء الحسنى.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الربَّ: هو القادر الخالق البارىء المصور؛ الحي القيوم؛ العليم السميع البصير؛ المحسن المنعم الجواد؛ المعطي المانع؛ الضار النافع؛ المقدم المؤخر؛ الذي يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء؛ ويُسعد من يشاء ويُشقي؛ ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء؛ إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى)[2].

المسألة الثالثة:

تقريره أنَّ اسم الجلالة (الربَّ) متضمنٌ لتوحيد الله تعالى.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ فيما يقتضيه إثبات الوحدانية لله تعالى: (إنه يقتضي عدم مشاركة شيءٍ من العالم له في خصائص الربوبية، والقدرة من خصائص الربوبية، فالتوحيد ينفي ثبوته لغيره ضرورة؛

= فارس ٢/ ٣٨١ ــ ٣٨٢، لسان العرب لابن منظور ١/ ٣٩٩ ــ ٤٠٠ [مادة: ربب].

(١) بدائع الفوائد ٤/ ١١٣.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

كما ينفي ثبوت الربوبية والإلـٰهية لغيره)[1].

المسألة الرابعة:

تقريره أنّ اسم الجلالة (الربّ) متضمنٌ لاثبات صفات الله العلى؛ وأفعاله المحكمة.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن ربوبيته ـ سبحانه ـ إنما تتحقَّق بكونه: فعَّالاً مُدبِّراً؛ متصرِّفاً في خلقه؛ يعلم ويقدر ويريد، ويسمع ويبصر.

فإذا انتفت أفعاله وصفاته: انتفت ربوبيته، وإذا انتفت عنه صفة الكلام: انتفى الأمر والنهي ولوازمها، وذلك ينفي حقيقة الإلـٰهية)[2].

المسألة الخامسة:

تقريره أنّ اسم الجلالة (الربّ) يقتضي عُلُوَّ الله تعالى على جميع مخلوقاته.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن الربوبية المحضة: تقتضي مباينة الربِّ للعالم بالذات؛ كما باينهم بالربوبية وبالصفات والأفعال.

فمن لم يُثبت ربًّا مُبايناً للعالم: فما أثبت ربًّا)[3].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٨٢ ــ ٨٣.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٧٤.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧٣.

المسألة السادسة:

تقريره أنّ اسم الجلالة (الربّ) متضمنٌ لتصرُّف الله تعالى بشؤون العالم العلويّ والسفليّ.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾[1]: ربوبيته للعالم تتضمَّن تصرفه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كلَّ وقتٍ فيه، وكونه معه كلَّ ساعةٍ في شأنٍ، يخلق ويرزق؛ ويُميت ويُحيي؛ ويخفض ويرفع؛ ويُعطي ويمنع؛ ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُصرِّف الأمور بمشيئته وإرادته، وإنكار ذلك: إنكارٌ لربوبيته وإلـٰهيته وملكه)[2].

المسألة السابعة:

تقريره أنّ اسم الجلالة (الربّ) إذا قامت شواهده في القلب فقد استوجب له الإذعان بقيومية الربّ تعالى على كلّ نفسٍ بما كسبت؛ وتدبيره لأمورها.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في المُصَلِّي: (شَاهَدَ من ذِكْرِ اسمه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾[3]. قيوماً قام بنفسه؛ وقام به كلُّ شيءٍ.

فهو قائمٌ على كلِّ نفس بخيرها وشرِّها، قد استوى على عرشه، وتفرَّد بتدبير ملكه، فالتدبير كلُّه بيديه، ومصير الأمور كلِّها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلةٌ من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع؛ والخفض والرفع؛ والإحياء والإماتة؛ والتولية والعزل؛ والقبض والبسط؛ وكشف

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٢٣.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٢.

الكروب وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرين، ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾[١].

لا مانع لما أعطى؛ ولا معطي لما منع، ولا مُعقِّب لحكمه، ولا رادَّ لأمره، ولا مُبدِّل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتُعرض الأعمال ـ أوَّلَ النهار وآخرَه ـ عليه، فيُقدِّر المقادير ويُوقِّت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائماً بتدبير ذلك كلِّه وحفظه ومصالحه)[٢].

المسألة الثامنة:

تقريره أنَّ اسم الجلالة (الربّ) متضمنٌ لتعريف الخلق ما ينفعهم ويضرُّهم.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (كونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٥﴾[٣]: فلا يليق به أن يترك عباده سُدى هملاً؛ لا يُعرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم؛ وما يضرُّهم فيهما، فهذا هضمٌ للربوبية؛ ونسبةُ الربِّ تعالى إلى ما لا يليق به، وما قدره حقَّ قدره من نسبه إليه)[٤].

المسألة التاسعة:

تقريره أنَّ اسم الجلالة (الربّ) متضمنٌ لتربية الخلق بإعطائهم خَلْقَهم؛ وهدايتهم.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (الربُّ: هو الذي يَرُبُّ عبده، فيُعطيه خَلْقَه؛ ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله، ويهديه إلى اجتناب المفاسد التي بها فساده وهلاكه، وفي القرآن

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

(٢) الصلاة وحكم تاركها ص١٧٢ ـ ١٧٣.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٣ ـ ١٤.

سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين[1])[2].

المسألة العاشرة:

تقريره أن الرِّضى بالله تعالى ربًّا متعلّقٌ بذاته وصفاته وأسمائه.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الرضى به ربًّا يتضمَّن: الرضى عنه ويستلزمه، فإن الرضى بربوبيته هو: رضى العبد بما يأمره به وينهاه عنه؛ ويقسمه له ويُقدِّره عليه؛ ويُعطيه إياه ويمنعه منه.

فمتى لم يرض بذلك كلِّه: لم يكن قد رضي به ربًّا من جميع الوجوه؛ وإن كان راضيا به ربًّا من بعضها، فالرضى به ربًّا من كلِّ وجهٍ يستلزم الرضى عنه؛ ويتضمنه بلا ريبٍ.

وأيضاً؛ فالرضى به ربًّا: متعلِّقٌ بذاته وصفاته وأسمائه؛ وربوبيته العامة

---

(١) كقول الله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [سورة طه: الآية ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨﴾ [سورة الشعراء: الآية ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [سورة الانفطار: الآيتان ٦ ــ ٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [سورة الأعلى: الآيتان ٢ ــ ٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [سورة العلق: الآيات ١ ــ ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (سورة الأعلى) بعد ذكره لبعض هذه الآيات الكريمة: (إن جميع المخلوقات خُلقت لغايةٍ مقصودةٍ بها، فلا بُدَّ أن تُهدى إلى تلك الغاية التي خُلقت لها، فلا تتمُّ مصلحتها وما أُريدت له إلا بهدايتها لغايتها. وهذا مما يُبيِّن أن الله خلق الأشياء لحكمةٍ وغايةٍ تصل إليها، كما قال ذلك السلف وجمهور المسلمين وجمهور العقلاء) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٦/ ١٣٠].

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٠٨.

والخاصة، فهو الرضى به خالقاً ومُدبِّراً؛ وآمراً وناهياً؛ وملكاً ومعطياً ومانعاً؛ وحكماً ووكيلاً؛ ووليّاً وناصراً؛ ومُعيناً وكافياً؛ وحسيباً ورقيباً؛ ومُبتلياً ومُعافياً؛ وقابضاً وباسطاً؛ إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرضى عنه: فهو رضى العبد بما يفعله به ويُعطيه إياه، ولهذا لم يجيء إلا في الثواب والجزاء، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾[1]. فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾[2].

والرضى به: أصلُ الرضى عنه، والرضى عنه: ثمرة الرضى به.

وسرُّ المسألة: أن الرضى به: متعلِّقٌ بأسمائه وصفاته؛ والرضى عنه: متعلِّقٌ بثوابه وجزائه.

وأيضاً؛ فإن النبي ﷺ علَّق ذَوْقَ طعم الإيمان بمن رضي بالله ربًّا، ولم يُعلِّقه بمن رضي عنه، كما قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربًّا؛ وبالإسلام ديناً؛ وبمحمد ﷺ رسولاً»[3].

فجعل الرضى به: قرين الرضى بدينه ونبيه، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام؛ التي لا يقوم إلا بها وعليها)[4].

هذه جملةٌ من المعاني العظيمة؛ والآثار الجسيمة التي تضمَّنها اسم الجلالة: (الربُّ)، وهي دالَّةٌ على انتظام هذا الاسم الكريم لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال المحكمة.

---

(١) سورة الفجر: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) سورة البينة: الآية ٨.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير اسم (الرحمن) المتضمن لصفات الإحسان والجود والبرّ

قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في الأصل الثالث من أصول أسماء الله الحسنى أن اسم الجمال والجلال والكمال: (الرحمن) متضمنٌ لإحسان الربِّ ـ جلَّ جلاله ـ إلى خلقه؛ ورحمته الواسعة بهم؛ وجوده العميم وفضله العظيم وبرِّه الجسيم بهم.

وقد تضمن هذا المطلب جملة من المسائل الدالَّة على اسم الجلالة (الرحمن)؛ والمقرَّرة من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ، وهي كالآتي:

المسألة الأولى:

تقريره أن اسم الجلالة (الرحمن) جاء على البناء الدالّ على الصفة الثابتة اللازمة الكاملة.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (ورود (الرحمن) في أسمائه أكثر من ورود (الرحيم)، ولهذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝﴾[1]. ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[2]. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ

(١) سورة طه: الآية ٥.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٥٩.

عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾[1]. ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾[2].
﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾[3].

وإنما جاء (الرحيم) مُقيّداً، كقوله: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[4].
وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧ ﴾[5]. ومقروناً باسم الرحمن؛ كما في الفاتحة، أو باسمٍ آخرَ نحو: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ ﴾[6].

وأيضاً؛ فالرحمن جاء على بناء فعلان الدالِّ على الصفة الثابتة اللازمة الكاملة؛ كما يُشعر به هذا البناء، نحو غضبان وندمان وحيران، فالرحمن: مَنْ صِفَتُه الرحمة، والرحيم: من يرحم بالفعل)[7].

المسألة الثانية:

تقريره أنّ اسم الجلالة (الرحيم) مشتقٌّ من اسم الجلالة (الرحمن).

قال الإمام ابن قيّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (ما رواه أهل السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: أنا الرحمن، خلقت الرحم؛ وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»[8]:

---

(١) سورة مريم: الآية ٤٥.
(٢) سورة النبأ: الآية ٣٧.
(٣) سورة الرحمن: الآيتان ١ ــ ٢.
(٤) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.
(٥) سورة التوبة: الآية ١١٧.
(٦) سورة الشعراء: الآيات ٩؛ ٦٨؛ ١٠٤؛ ١٢٢؛ ١٤٠؛ ١٥٩؛ ١٧٥؛ ١٩١؛ ٢١٧، سورة الروم: الآية ٥، سورة السجدة: الآية ٦، سورة يس: الآية ٥، سورة الدخان: الآية ٤٢.
(٧) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤١.
(٨) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦٨٦) ــ ٣/ ٢١٦]، وأبو داود في سننه=

فهذا صريحٌ في أن اسم الرحمة مشتقٌّ من اسمه (الرحمن) تعالى.

فدلَّ على أن رحمته لما كانت هي الأصل في المعنى: كانت هي الأصل في اللفظ)[1].

المسألة الثالثة:

تقريره أنَّ رحمة الله تعالى وسعت كلَّ شيءٍ؛ كما أن حمدَه وسع كلَّ شيءٍ.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (لقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾[2]: عبوديةٌ تخصُّها؛ وهي: شهود عموم رحمته وسعتها لكلِّ شيءٍ؛ ومَنْعَتُها لكلِّ مخلوقٍ، وأَخْذُ كلِّ موجودٍ بنصيبه منها؛ ولا سيما الرحمة الخاصَّة التي أقامت عبده بين يديه في خدمته، يُناجيه بكلامه؛ ويتملَّقه ويسترحمه ويسأله هدايته ورحمته وإتمام نعمته عليه.

فهذا من رحمته بعبده، فرحمته وسعت كلَّ شيءٍ؛ كما أن حمدَه وسع كلَّ شيءٍ)[3].

= [كتاب الزكاة/ باب في صلة الرحم ــ الحديث رقم (١٦٩٤) ــ ٢/ ٣٢٢]، والترمذي في جامعه [أبواب البر والصلة/ باب ما جاء في قطيعة الرحم ــ الحديث رقم (١٩٠٧) ــ ٣/ ٤٧١] من حديث عبد الرحمن بن عوف ــ رضي الله عنه ــ.

وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (٥٢٠) ــ ٢/ ٤٩ ــ ٥٢].

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٤ ــ ٣٤٥.

(٢) سورة الفاتحة: الآيتان١ ؛ ٣، سورة البقرة: الآية ١٦٣، سورة النمل: الآية ٣٠، سورة فصلت: الآية ٢، سورة الحشر: الآية ٢٢.

(٣) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٢٤.

المسألة الرابعة:

تقريره أنَّ اسم الجلالة (الرحمن) متضمنٌ لإرسال الرسل وإنزال الكتب.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (من أعطى اسم (الرحمن) حقَّه: عرف أنه متضمنٌ لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمُّنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحَبِّ.

فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح: أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدوابِّ، وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك)[١].

المسألة الخامسة:

تقريره أن اسم الجلالة (الرحمن) هو مفتاح جميع الأفعال.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (كيف يكون أظهر الأسماء التي افتتح الله بها كتابه في أم القرآن، وهي من أظهر شعار التوحيد، والكلمة الجارية على ألسنة أهل الإسلام، وهي: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾[٢]؛ التي هي مفتاح الطهور والصلاة وجميع الأفعال؛ كيف يكون مجازاً؟ هذا من أشنع الأقوال.

فهذان الاسمان، أي: الرحمن الرحيم (اللذان افتتح الله بهما أمَّ القرآن، وجعلهما عنوان ما أنزله من الهدى والبيان، وضمَّنهما الكلمة التي لا يثبت لها شيطان، وافتتح بها كتابَه نبيُّ الله سليمان، وكان جبرائيل ينزل

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٤.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ١، سورة النمل: الآية ٣٠.

بها على النبـي ﷺ عند افتتاح كلِّ سورةٍ من القرآن)[1].

المسألة السادسة:

تقريره أنَّ اسـم الجـلالـة (الـرحمن) متضمنٌ لسعة الرحمة؛ وإحاطتها بجميع المخلوقات.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تكرار اسم الجلال (الرحمن) في فاتحة الكتاب: (وكُرِّر إيذاناً بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلُّقه بمتعلَّقاته، فـ (الرحمن): الذي الرحمة وصفه، و (الرحيم): الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[2]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾[3].

ولم يجيء رحمانٌ بعباده ولا رحمانٌ بالمؤمنين؛ مع ما في اسم (الرحمن) ــ الذي هو على وزن فعلان ــ من سعة هذا الوصف؛ وثبوت جميع معناه الموصوف به، ألا ترى أنهم يقولون: غضبان للممتلىء غضباً؛ وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن مُلِيء بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول.

ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيراً، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾[4]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾[5].

فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيطٌ بالمخلوقات؛

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٣ ــ ٣٤٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.

(٣) سورة التوبة: الآية ١١٧.

(٤) سورة طه: الآية ٥.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٥٩.

قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق؛ واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(1). فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كلَّ شيء.

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق: كتب في كتاب ـ فهو عنده موضوعٌ على العرش ـ: إن رحمتي تغلب غضبي»(2). وفي لفظٍ: «فهو عنده على العرش»(3).

فتأمَّل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة؛ ووضعه عنده على العرش، وطَابِقْ بين ذلك وبين قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾(4)، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ۝٥٩﴾(5): ينفتح لك بابٌ عظيمٌ من معرفة الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ؛ إن لم يُغْلِقْهُ عنك التعطيلُ والتجهُّمُ)(6).

---

(1) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ـ الحديث رقم (٣١٩٤) ـ ٢/٩٨٦]، ومسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ـ الحديث رقم (٢٧٥١) ـ ٤/٢١٠٧ ـ ٢١٠٨].

(3) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ـ الحديث رقم (٧٤٠٤) ـ ٥/٢٣١٠] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(4) سورة طه: الآية ٥.

(5) سورة الفرقان: الآية ٥٩.

(6) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٤٢ ـ ٤٣.

المسألة السابعة:

تقريره أنَّ اسم الجلالة (الرحمن) يُوجب للعبد شهود آثار رحمة الله البالغة ونعمه السابغة في نفسه؛ وفي سائر أجزاء الكون.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في المُصلِّي: (يشهد عند ذكر اسم: (الرحمن) ـ جلَّ جلاله ـ ربًّا محسناً إلى خلقه بأنواع الإحسان، مُتحبباً إليهم بصنوف النعم، وسع ﴿ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً ﴾[1]، وأوسع كلَّ مخلوقٍ نعمةً وفضلاً.

فوسعت رحمته كلَّ شيءٍ، ووسعت نعمته كلَّ حيٍّ، فبلغت رحمته حيث بلغ علمُه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار أيضاً برحمته، فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويُطهِّر بها أدران المُوحِّدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فتأمَّل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة والنعمة السابغة، وما في حشوها من الرحمة والنعمة.

فالرحمة: هي السبب المتصل منه بعباده؛ كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به، فمنهم إليه العبودية؛ ومنه إليهم الرحمة.

ومن أخصِّ مشاهد هذا الاسم: شهود المصلِّي نصيبه من الرحمة؛ الذي أقامه بها بين يدي ربِّه، وأهَّله لعبوديته ومناجاته، وأعطاه؛ ومنع غيره، وأقبل بقلبه؛ وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به)[2].

---

(١) سورة غافر: الآية ٧.

(٢) الصلاة وحكم تاركها ص١٧٣.

المسألة الثامنة:

تقريره أنَّ الله تعالى تسمَّى باسم الجلالة (الرحمن) قبل خلق آدم وبنيه.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (في الصحيحين عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ أنه قال: «لمَّا قضى الله الخلق كتب كتاباً ــ فهو موضوعٌ عنده فوق العرش ــ : إن رحمتي سبقت غضبـي». وفي لفظ: «غلبت»[1].

وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[2].

فوصف نفسه ــ سبحانه ــ بالرحمة؛ وتسمَّى بالرحمن: قبل أن يكون بنو آدم، فادعاء المُدَّعي أن وصفه بالرحمن مجازٌ: من أبطل الباطل)[3].

المسألة التاسعة:

تقريره أنَّ الله تعالى إذا أراد بأهل الأرض خيراً: نشر عليهم أثراً من آثار اسمه (الرحمن)، وإذا أراد بهم شرًّا: أمسك عنهم ذلك الأثر.

قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (تأمَّل قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾[4]. كيف جعل الخلق والتعليم ناشئاً عن صفة الرحمة؛ مُتعلِّقاً باسم الرحمن؟

وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨ ﴾[5].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٥.

(٤) سورة الرحمن: الآيات ١ ــ ٤.

(٥) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

فالاسم الذي تبارك: هو الاسم الذي افتتح به السورة، إذ مجيء البركة كلِّها منه، وبه وُضعت البركة في كلِّ مباركٍ، فكلُّ ما ذُكِرَ عليه: بُورك فيه، وكلُّ ما أُخلي منه: نُزعت منه البركة، فإن كان مُذَكًّى وخلا منه اسمه: كان ميتة، وإن كان طعاماً: شارك فيه صاحبَه الشيطانُ، وإن كان صلاة: لم تصح عند كثيرٍ منهم.

ولما خلق الله الرحم؛ واشتقَّ لها اسماً من اسمه؛ فأراد إنزالها إلى الأرض: تعلَّقت به ــ سبحانه ــ ، فقال: «مه. فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أقطع من قطعك؛ وأصل من وصلك؟».

وهي متعلِّقةٌ بالعرش؛ لها حَنْحَنَةٌ كحنحنة المغزل، وكان تعلُّقها بالعرش رحمة منه بها؛ وإنزالها إلى الأرض رحمة منه بخلقه.

ولما علم ــ سبحانه ــ ما تلقاه من نزولها إلى الأرض ومفارقتها لما اشْتُقَّتْ منه: رَحِمَها بتعلُّقها بالعرش؛ واتصالها به؛ وقال: «ألا ترضين أن أَصِلَ من وصلك؛ وأقطع من قطعك؟»[1].

ولذلك كان من وصل رحمه ــ لقربه من الرحمن؛ ورعاية حرمة الرحم ــ : قد عمر دنياه؛ واتسعت له معيشته؛ وبُورك له في عمره؛ ونُسِيء له في أثره، فإن وصل ما بينه وبين الرحمن ــ جل جلاله ــ مع ذلك وما بينه وبين الخلق بالرحمة والإحسان: تمَّ له أمر دنياه وأخراه، وإن قطع ما بينه وبين الرحم؛ وما بينه وبين الرحمن: أفسد عليه أمر دنياه وآخرته؛ ومحق بركة رحمته ورزقه وأثره، كما قال ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدر أن يُعجَّل لصاحبه العقوبة في الدنيا؛ مع ما يُدَّخر له من العقوبة يوم القيامة من البغي وقطيعة الرحم»[2].

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «خلق الله الخلق؛ فلما فرغ منه».

(٢) تقدم تخريجه.

فالبغي: معاملة الخلق بضدِّ الرحمة، وكذلك قطيعة الرحم، وإن القوم ليتواصلون ــ وهم فجرة ــ ؛ فتكثر أموالُهم ويكثر عددُهم، وإن القوم ليتقاطعون؛ فتقلُّ أموالُهم ويقل عددُهم، وذلك لكثرة نصيب هؤلاء من الرحمة؛ وقلَّة نصيب هؤلاء منها، وفي الحديث: «إن صلة الرحم تزيد في العمر»[1].

وإذا أراد الله بأهل الأرض خيراً: نشر عليهم أثراً من آثار اسمه (الرحمن)؛ فعمر به البلاد؛ وأحيا به العباد، وإذا أراد بهم شراً: أمسك عنهم ذلك الأثر؛ فحلَّ بهم من البلاء بحسب ما أمسك عنهم من آثار اسمه (الرحمن).

ولهذا إذا أراد الله ــ سبحانه ــ أن يُخرب هذه الدار؛ ويقيم القيامة: أمسك عن أهلها أثر هذا الاسم؛ وقبضه شيئاً فشيئاً، حتى إذا جاء وعدُه: قبض الرحمة التي أنزلها إلى الأرض، فتضع لذلك الحوامل ما في بطونها، وتذهل المراضع عن أولادها، فيضيف ــ سبحانه ــ تلك الرحمة التي رفعها وقبضها من الأرض إلى ما عنده من الرحمة، فيكمل بها مائة رحمة، فيرحم بها أهل طاعته وتوحيده وتصديق رسله وتابعهم.

وأنت لو تأمَّلت العالم بعين البصيرة: لرأيته مُمتلئاً بهذه الرحمة الواحدة كامتلاء البحر بمائه؛ والجو بهوائه، وما في خلاله من ضدِّ ذلك: فهو مقتضى قوله: «سبقت رحمتي غضبي»[2].

فالمسبوق لا بُدَّ لاحقٌ؛ وإن أبطأ، وفيه حكمةٌ لا تناقضها الرحمة، فهو أحكم الحاكمين؛ وأرحم الراحمين، فسبحان من أعمى بصيرة من زعم

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «إن صدقة السرِّ تطفىء غضب الربِّ».

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «قال الله ــ عزَّ وجلّ ــ : سبقت رحمتي غضبي».

أن رحمة الله مجازٌ!)[1].

فهذه جملةٌ من المسائل المستنبطة من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير اسم الجلال (الرحمن)؛ وبيان معناه؛ وذكر آثاره.

وليس المقصود من هذه المطالب الثلاثة: هو استقصاء الفوائد المستنبطة من أصول الأسماء الثلاثة، وإنما (المقصود: تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيءٍ)[2] منها، وما ذُكِرَ من الفوائد قليلٌ بالنسبة (إلى فوائد أخرى كثيرة؛ يُطالعها من أحسن تأمُّله وتفكُّره في استخراجها)[3]، ومع هذا؛ فلا يمكن لعبدٍ ــ مهما رسخت في العلم قدمُه؛ وصحَّ في الفقه فهمُه ــ أن يستقصي الفوائد المستنبطة من هذه الأصول؛ (ولو طالت الأيام واتسع الفكر، ولكن هذا مُنبِّهٌ على ما وراءه، واللبيب يكتفي ببعض ذلك، وأما من غلبت عليه الشقاوة: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[4]، غافلاً عن موضع الدلالة فيها)[5].

وبالعموم؛ فهذا مبحثٌ عظيمٌ؛ (ينبغي لمن نصح نفسه وعمل لمعاده: تدبُّره والتَّوقُّف فيه)[6]؛ لما تضمَّنه في مثانيه من تقرير أسماء الله تعالى الثلاثة ــ التي هي أصول أسمائه الحسنى التي تدور عليها؛ وترجع إليها ــ، وهذا المبحث كالتوطئة للمبحث الذي يليه؛ وكالمقدِّمة بين يديه.

❑ ❑ ❑

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٥٠ ــ ٣٥١.
(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٦٨.
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٥٤.
(٤) سورة يوسف: الآية ١٠٥.
(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ١٠٩.
(٦) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٢٣٤.



المبحث الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير تعيين الأسماء الحسنى وذكر أدلة ثبوتها وبيان معانيها

إنَّ العُمُرَ (أوقاتٌ محدودةٌ؛ وأنفاسٌ على العبد معدودةٌ)[1]، وأَولى ما أُنفقت فيه الأنفاس؛ واشتغل في تحصيله الناس: هو العناية بإحصاء ألفاظ أسماء الله الحسنى وعدِّها؛ وفهم معانيها ومدلولها ـ التي من أحصاها دخل الجنة ـ، (وذلك أحقُّ ما تنافس فيه المتنافسون، ورغب فيه الراغبون)[2]، فمن وُفِّقَ للعناية بها: فقد حاز (واللّـهِ المكارمَ والغنائمَ، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[3]، وعليه يحسد الحاسدون، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[4])[5].

وقد كانت للإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا الباب: جهودٌ شائعةٌ؛ ومساعٍ ذائعةٌ؛ وإسهاماتٌ رائعةٌ؛ وكلماتٌ نافعةٌ، حيث اشتملت جلُّ مصنَّفاته؛ وغالب مؤلفاته على تعيين أسماء الله الحسنى؛

---

(١) تهذيب مختصر سنن أبي داود ٦/ ١٨١.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤٦١.

(٣) سورة المطففين: الآية ٢٦.

(٤) سورة الحديد: الآية ٢١، سورة الجمعة: الآية ٤.

(٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٦٣٤ ـ ٦٣٥.

وذكر أدلة ثبوتها الواردة في الوحيين المطهرين، مع العناية ببيان معانيها وفق وسطية الفهم السليم والحكم المستقيم؛ الذي لم يتجاذبه طرفا الذم: الإفراط والتفريط؛ والغلو والجفاء.

والتعليق على شرح أسماء الله الحسنى: لها مرتبةٌ في العلم والدين (ما أعلاها؛ ومنقبةٌ ما أجلَّها وأسناها)[1]، من فتح الله تعالى عليه بها: (فقد فَتَحَ له من العلم والدين كلَّ بابٍ، ويَسَّرَ عليه فيهما الأسباب، والله المستعان)[2].

وهذه المرتبة العليَّة؛ والمنقبة السنيَّة: قد سأل الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الله ــ سبحانه وتعالى ــ أن يُعينه عليها؛ وأن يُوفِّقه إليها، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ في خاتمة تقريره لقواعد الأسماء الحسنى: (عليك بمعرفتها ومراعاتها؛ ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلباً عاقلاً؛ ولساناً قائلاً؛ ومحلاً قابلاً، وإلا فالسكوت أولى بك، فجناب الربوبية أجلُّ وأعزُّ مما يخطر بالبال؛ أو يُعبِّر عنه المقال، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾[3]. حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكلِّ شيء علماً.

وعسى الله أن يُعين بفضله على تعليق شرح الأسماء الحسنى؛ مُراعياً فيه أحكام هذه القواعد، بريئاً من الإلحاد في أسمائه؛ وتعطيل صفاته، فهو المانُّ بفضله، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[4])[5].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٦٣٤.
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٦٨٥.
(٣) سورة يوسف: الآية ٧٦.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٥، سورة آل عمران: الآية ٧٤، سورة الأنفال: الآية ٢٩، سورة الحديد: الآيتان ٢١؛ ٢٩، سورة الجمعة: الآية ٤.
(٥) بدائع الفوائد ١/ ١٥٤.

كما سألها ــ رحمه الله تعالى ــ في موطنٍ آخر ــ بعد ذكر ما تضمَّنه اسم الجلالة: (السلام) من الأسرار والمعاني ــ ؛ فقال: (والله المستعان المسؤول أن يُوفِّقَ للتعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط، إنه قريبٌ مجيبٌ)[1].

فهذه المسألة التي سألها ربَّه ــ تبارك وتعالى ــ : مسألة جليلة؛ ومرتبة نبيلة، حقيقٌ لمن نصح نفسه وأحبَّ سعادتها ونجاتها: أن يتيقَّظ لها (ــ علماً وعملاً وحالاً ــ ، وتكون أهمَّ الأشياء عنده؛ وأجلَّ علومه وأعماله، فإن الشأن كلَّه فيها؛ والمدار عليها)[2].

والإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ممَّن أُوتي ــ بفضل الله تعالى ورحمته ــ في هذا الباب بسطة في العلم؛ وسعة في الفهم، وهذا ــ والله أعلم ــ من أثر ذكره لها بجنانه؛ ومن جزاء تحدُّثه عنها بلسانه؛ ومن ثواب تعبيره عنها ببنانه، وهذا الأمر يتَّضح جليًّا في استفتاحه لجلِّ مصنفاته[3]؛ وختمه لبعض مؤلفاته[4]، فتراه يفتتح أحد كتبه بقوله: (الحمد لله ذي الإفضال والإنعام؛ والمنن الجسام؛ والأيادي العظام، ذي الجلال والإكرام؛ الملك القدوس السلام.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١١٨.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٣٥.

(٣) انظر فاتحة: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٣، إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص١٩، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣ ــ ٤، تحفة المودود بأحكام المولود ص٢١، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٣ ــ ٢٤، الروح ص٥١، زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٣٣ ــ ٣٤، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٤٧ ــ ١٤٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢١ ــ ٢٢، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣، الفروسية ص٨٢.

(٤) انظر خاتمة: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٩ ــ ٤٣٢.

الذي قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام. فقدَّر أرزاقهم وآجالهم؛ وكتب آثارهم وأعمالهم؛ وقسم بينهم معايشهم ــ وعرشه على الماء ــ قبل خلق الليالي والأيام. فأبرم القضيَّة؛ وقدَّر البريَّة؛ وقال للقلم: اكتب؛ فجرى بما هو كائنٌ في هذا العالم على تعاقب السنين والأعوام. ثم خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام. ثم استوى على العرش المجيد بذاته، منفرداً بتدبير خلقه بالسعادة والشقاوة؛ والعطاء والمنع؛ والإحياء والإماتة؛ والخفض والرفع؛ والإيجاد والإفناء؛ والنقض والإبرام.

يسأله من في السماوات والأرض كلَّ يومٍ هو في شأن، فلا يشغله سمعٌ عن سمعٍ؛ ولا تُغلطه المسائل؛ ولا يتبرَّم بإلحاح الملحين على الدوام.

يسمع ضجيج الأصوات؛ باختلاف اللغات؛ على تفنن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء؛ تحت الصخرة الصماء؛ في الليلة المدلهمَّة الشديدة الظلام.

لا تسقط ورقةٌ إلا بعلمه؛ ولا تتحرَّك ذرةٌ إلا بإذنه؛ ولا يقع حادثٌ إلا بمشيئته؛ ولا يخلو مقدورٌ عن حكمته، فله الحكمة الباهرة؛ والآيات الظاهرة؛ والحجَّة البالغة؛ والنعمة السابغة على جميع الأنام.

وسع كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً؛ وأوسع كلَّ مخلوقٍ فضلاً وجوداً وحلماً؛ وقهر كلَّ شيءٍ عزةً وحكماً، فعنت الوجوه لجلال وجهه؛ وعجزت العقول عن معرفة كنهه؛ وقامت البراهين على استحالة مثله وشبهه، فهو الأوَّل الذي ليس قبله شيءٌ؛ والآخر الذي ليس بعده شيءٌ؛ والظاهر الذي ليس فوقه شيءٌ؛ والباطن الذي ليس دونه شيءٌ، ذو الأسماء الحسنى؛ والصفات العلى، وهو مستوٍ على عرشه؛ مستولٍ على خلقه، يسمع ويرى، كلَّم موسى تكليماً؛ وتجلَّى للجبل

فجعله دكًّا هشيماً، فهو الحيّ القيوم الذي لا ينام؛ ولا ينبغي له أن ينام.

يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عملُ الليل قبل النهار؛ وعملُ النهار قبل الليل، حجابه النور؛ لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، فهو أقرب شهيدٍ؛ وأدنى حفيظٍ؛ وأعظم رقيبٍ؛ وأرأف رحيمٍ، حال دون النفوس؛ وأخذ بالنواصي؛ وكتب الآثار؛ ونسخ الآجال، فأزمَّةُ الأمور بيديه؛ ومرجعها كلُّها إليه، فالقلوب له مفضيةٌ؛ والسرُّ عنده علانيةٌ، والمستور لديه مكشوفٌ؛ وكلُّ أحدٍ إليه فقيرٌ ملهوفٌ على الدوام.

فسبحان من نفذ حكمه في بريَّته؛ وعدل بينهم في أقضيته؛ وعمَّهم برحمته؛ وصرَّفهم تحت مشيئته وحكمته؛ وأكرمهم بتوحيده ومعرفته، وجعل أهل ذكره أهل مجالسته؛ وأهل شكره أهل زيادته؛ وأهل طاعته أهل كرامته؛ وأهل معصيته لا يُقنِّطهم من رحمته، إن تابوا فهو حبيبهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[١]، وإن أصرُّوا فهو طبيبهم، يبتليهم بأنواع المصائب ليُطهِّرهم من الدنس والآثام.

وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له؛ ولا كفؤ له؛ ولا سمِيَّ ولا صاحبة له؛ ولا ولد له، بل هو الأحد الصمد الذي تفرَّد بإلـهيته؛ وتوحَّد بربوبيته؛ وتعالى عن مشابهة خليقته، وأنَّى يُشبه العبدُ المخلوقُ الملكَ القدوسَ السلام؟)[٢].

(وهنا نكتةٌ ينبغي التفطُّن لها)[٣]؛ وهي أن أسماء الله الحسنى (لا يُحيط بتفاصيلها خطابٌ؛ ولا يحصرها كتابٌ)[٤]، لذا نجد أن

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤١ ــ ٤٣.

(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٥.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٤١.

الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ قد اعتذر عن عدم توفية هذا المقام حقَّه؛ فقال: (وهذا بساطٌ، وإنما غاية معارف العلماء الدُنُوّ من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك: فكما قال أعلم الخلق بالله؛ وأقربهم إلى الله؛ وأعظمهم عنده جاهاً: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[١].

وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فأَخِرُّ ساجداً لربي، فيفتح عليَّ من محامده بما لا أُحسنه الآن»[٢].

وفي دعاء الهمِّ والغمِّ: «أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك، سمَّيت به نفسك؛ أو أنزلته في كتابك؛ أو علَّمته أحداً من خلقك؛ أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[٣].

فدلَّ على أنَّ لله ــ سبحانه وتعالى ــ أسماءً وصفاتٍ استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه؛ لا يعلمها ملكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ.

وحسبنا الإقرار بالعجز؛ والوقوف عند ما أُذِنَ لنا فيه من ذلك، فلا نغلو فيه ولا نجفو عنه، وبالله التوفيق)[٤].

وقد تضمَّن هذا المبحث: تسعة عشر مطلباً، حوى كلُّ مطلبٍ منها: الأسماء الحسنى التي عيَّنها الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ؛ ونصَّ على تسمِّي الله تعالى بها، وقد جاءت بعض هذه الأسماء الحسنى ــ في سياق كلامه ــ مقرونة بأدلة ثبوتها؛ ومُضمَّنة لبعض ما اشتملت عليه

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـٰهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».
(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «أنا سيد الناس يوم القيامة».
(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ».
(٤) بدائع الفوائد ٢/ ١٦١.

من المعاني؛ ومذيَّلة بالإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقترانها بغيرها من أسماء الله الحسنى[1].

ولما كان الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ قد قرَّر ـ في المبحث السابق ـ أن لأسماء الله تعالى أصولاً (مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها؛ ومدارها عليها، وهي: الله؛ والربُّ؛ والرحمن)[2]، وبيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ أن (صفات الجلال والجمال: أخصُّ باسم (اللّـه)، وصفات الفعل والقدرة والتفرُّد بالضرِّ والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة: أخصُّ باسم (الربِّ)، وصفات الإحسان والجود والبرِّ والحنان والمنة والرأفة واللطف: أخصُّ باسم (الرحمن))[3]: رأيت أن أُرتِّب مطالب هذا المبحث المتضمنة لأسماء الله تعالى التي عيَّنها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ونصَّ عليها على وفق ذلك، فابتدأتُ بالمطالب المتضمنة لأسماء الله الحسنى التي هي أخصُّ باسم الجلالة (اللّـه)، ثم أردفتُها بالمطالب المتضمنة لأسماء الله الحسنى التي هي أخصُّ باسم الجلالة (الربِّ)، ثم أتبعتُها بالمطالب

---

(١) اقتصرتُ في هذه المطالب على ذكر أسماء الله الحسنى التي عيَّنها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ؛ ونصَّ على تسمِّي الله تعالى بها، وذيَّلتُ هذه المطالب بذكر بعض الأسماء الحسنى التي لم يُعيِّنها صراحة؛ وإنما جاءت في سياق كلامه، مع الالتزام بذكر أدلَّة وبيان معاني بعض أسماء الله الحسنى التي ورد ذكرها في كلامه؛ ولم يصحبها ذكر أدلتها وبيان معانيها، مع العناية بالتعليق على بعض الأسماء التي عيَّنها ـ رحمه الله تعالى ـ ونصَّ عليها مع افتقارها في ثبوتها إلى دليلٍ صحيحٍ صريحٍ يدلُّ عليها؛ ويُسوِّغ إدراجها ضمن أسماء الله الحسنى التي يُتعبَّد بدعاءِ الله تعالى بها، والله الهادي للسداد والرشاد.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٣.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٢.

المتضمنة لأسماء الله الحسنى التي هي أخصُّ باسم الجلالة (الرحمن)، ثم ذيَّلتها بالمطالب المتضمنة لأسماء الله الحسنى المضافة، ثم ختمتها بالمطالب المتضمنة لأسماء الله الحسنى المزدوجة المتقابلة، ثم ذكرت في آخر هذا المبحث الأسماء التي لم يُصحِّح الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ نسبتها إلى الله تعالى؛ وذَكَر غلط من عدَّها من المصنفين في شرح أسماء الله الحسنى.



المطلب الأول:

جهوده في تقرير اسم الله تعالى: الإلـه

تضمَّن هذا المطلب تعيين اسم الله تعالى: (الإلـه)، وذكر بعض أدلة ثبوته؛ وبيان بعض ما اشتمل عليه من المعاني، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا الاسم في مواضع كثيرة من كتبه[1]، حيث

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الإلـه) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ٢/ ١٧٤؛ ٢١٢. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٢١٩؛ ٢/ ٣٠٢، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٤، بدائع الفوائد ١/١٨؛ ١٢٦؛ ٤/١١٣؛ ١٣٩، التبيان في أقسام القرآن ص٨٥؛ ٢٠٥، الداء والدواء ص١٣٨؛ ٣٥٠، الروح ص٣٥٤، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٠٣؛ ٤١١؛ ٢/ ٦٣٩؛ ٨٣٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٥؛ ٩٣٧؛ ٩٣٨؛ ٩٤٧؛ ٩٧٤؛ ٤/ ١٢٣٢؛ ١٣١٦؛ ١٤٣٥؛ ١٤٩٠، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٧؛ ٤٨؛ ٥٣؛ ٨٤؛ ٨٧؛ ٨٨؛ ١١٤؛ ٢٣٣؛ ٢٣٤؛ ٢٦٥، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣، الفوائد ص١٥١؛ ٢٠٣، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٣٤؛ ١٣٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٤؛ ٤٥؛ ١١٠؛ ٣/ ٢٤٥؛ ٣٦٥؛ ٣٧٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٢٣؛ ٥٤٨؛ ٥٤٩؛ ٢/ ٥٠٤؛ ٥٠٥، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٨٧. =

بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ معنى هذا الاسم بقوله: (الإلـه): هو الذي يُؤلَّه، فيُعبد محبةً وإنابةً؛ وإجلالاً وإكراماً)[1].

واسم الجلالة (الإلـه) جامعٌ لأسماء الجمال وأوصاف الكمال ونعوت الجلال؛ كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (أما (الإلـه): فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم: جميع الأسماء الحسنى)[2].

ومن أسماء الجلالة التي جمعها اسم الجلالة (الإلـه): اسم (الغنيُّ؛ والصمد؛ والقيُّوم)، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن (الإلـه) على الحقيقة: هو الغنيُّ الصمد، الكامل في أسمائه وصفاته، الذي حاجة كلِّ أحدٍ إليه؛ ولا حاجة به إلى أحدٍ، وقيام كلِّ شيءٍ به؛ وليس قيامه بغيره)[3].

وقد قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض ما يدلُّ عليه اسم الجلالة (الإلـه) من الأسرار والمعاني، فمن ذلك:

١ ــ أنَّ اسم الجلالة (الإلـه) يدلُّ على كمال الحبِّ لله تعالى؛ مع

= ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الإلـه) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الإلـه) في تسع وستين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٣].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٠٨.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٧.

كمال التعظيم والإجلال؛ والذُلّ والخضوع له، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الشرائع مبناها على: شهادة (أن لا إلـٰه إلا الله).

و (الإلـٰه): هو المستحقُّ لكمال الحبِّ؛ بكمال التعظيم والإجلال، والذُلّ له والخضوع له، فإنكار المحبة: إنكارٌ لنفس الإلـٰهية.

وأما فروعها: فمبناها على كونه ــ سبحانه ــ يُحِبُّ أقوالاً وأعمالاً؛ ويمدح فاعليها؛ ويُثني عليهم؛ ويُقرِّبهم منه، ويُبغض أقوالاً وأعمالاً؛ ويذمُّ فاعليها؛ ويُبغضهم ويُبعدهم منه)[1].

٢ ــ أن اسم الجلالة (الإلـٰه) يدلُّ على تألُّه القلوب؛ وصمودها بالحبِّ والخوف والرجاء إليه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن (الإلـٰه) هو المستحقُّ لصفات الكمال؛ المنعوت بنعوت الجلال، وهو الذي تألهه القلوب؛ وتصمد إليه بالحبِّ والخوف والرجاء[2])[3].

٣ ــ أن اسم الجلالة (الإلـٰه) يدلُّ على أن الذي يُحبُّ لذاته ويُحمد لذاته هو الله ــ سبحانه وتعالى ــ وحده، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن (الإلـٰه) الحقَّ: هو الذي يُحبُّ لذاته ويُحمد لذاته، فكيف إذا انضاف إلى ذلك إحسانه وإنعامه وحلمه وتجاوزه وعفوه وبِرُّه ورحمته؟ فعلى العبد أن يعلم أنه لا إلـٰه إلا الله، فيُحبُّه ويحمده لذاته وكماله)[4].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٣٥ ــ ١٤٣٦.

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: البيت رقم (٣٣٠٨) ــ ص٢٤٦]:

(وهو الإلـٰه السيِّدُ الصمد الذي ... صمدت إليه الخلق بالإذعانِ).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤١١.

(٤) الفوائد ص٢٠٣.

واسم الجلالة (الإلـه) لا يُثبته على هذه الحقيقة والمعنى: إلا أتباع الـرسـل ــ أهـل العـدل والتـوحيـد ــ ، وأمـا أعـداؤهـم ــ أهـل الظلـم والتنديد ــ : فإنهم يُبطلون حقيقته؛ ويحرفون معناه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن (الإلـه): هو الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهـو الـذي يفعـل بقـدرتـه ومشيئتـه وحكمتـه، وهـو المـوصـوف بـالصفـات والأفعال؛ المُسمَّى بالأسماء التي قامت بها حقائقها ومعانيها، وهذا لا يُثبته على الحقيقة إلا أتباع الرسل، وهم أهل العدل والتوحيد)[1].



(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٨١ .

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: السيِّد؛ الصَّمد؛ الأحد؛ الوارث

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (السيد؛ والصمد؛ والأحد؛ والوارث)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (السيّد).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (السيِّد) في مواضع من كتبه[1]، وقرَّر أن هذا الاسم: وصفٌ للربِّ تعالى على

(١) انظر في ذكر اسم الجلالة (السيد) ــ على وجه العموم ــ: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٤/١، بدائع الفوائد ١٧٩/٣، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٩، الفوائد ص١٨٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢٢٧/١؛ ٢٣٥.
وهذا الاسم: لم يرد له ذكرٌ في كتاب الله العزيز، وإنما ورد ذكره في أحاديث النبي ﷺ.

الإطلاق، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ في مقام ما يُمنع تسمية الإنسان به من أسماء الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ : (قال أبو داود: حدثنا مسدد حدثنا بشر بن المفضل حدثنا أبو سلمة سعيد بن يزيد عن أبي نضرة عن مطرف بن عبد الله بن الشِّخير قال: قال أبي: «انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا. فقال: السيد الله. قلنا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً. فقال: قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان»[1].

ولا ينافي هذا قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم»[2]. فإن هذا إخبارٌ منه عما أعطاه الله من سيادة النوع الإنساني؛ وفضَّله وشرَّفه عليهم.

وأما وصف الربِّ تعالى بأنه (السيد): فذلك وصفٌ لربه على الإطلاق، فإنَّ سيِّد الخلق: هو مالك أمرهم الذي إليه يرجعون؛ وبأمره يعملون؛ وعن قوله يصدرون، فإذا كانت الملائكة والإنس والجن خلقاً له ـ سبحانه وتعالى ـ ومِلْكاً له، ليس لهم غنى عنه طرفة عين، وكلُّ رغباتهم إليه، وكلُّ حوائجهم إليه: كان هو ـ سبحانه وتعالى ـ (السيد) على الحقيقة.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير قول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾[3]. قال: (السيد الذي كمل سُؤْدُدُه)[4])[5].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سورة الإخلاص: الآية ٢.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٩.

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (الصمد).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الصمد) في مواضع كثيرة من كتبه[1]، حيث بيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ معنى هذا الاسم بقوله: ((الصمد): السيد الذي كَمُلَ في سؤدده. ولهذا كانت العرب تُسمِّي أشرافها بهذا الاسم؛ لكثرة الصفات المحمودة في المُسمَّى به. قال شاعرهم:

ألا بكر الناعي بخيري بني أسد

بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد.

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الصمد) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ١/ ١٤٤؛ ١٤٥؛ ١٥٢، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨، زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ١٨١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣١. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣؛ ٤، بدائع الفوائد ١/ ١٢٦، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٥، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٩؛ ٨٥؛ ٨٧؛ ٢٣٣، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص٢٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٤٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥١٢، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٤، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٠.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (الصمد) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الصمد) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٢].

فإنَّ الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له، ولهذا قال جمهور السلف ـ منهم عبد الله بن عباس ـ : (الصمد: السيد الذي كَمُلَ سؤدده، فهو العالم الذي كَمُلَ علمه، القادر الذي كَمُلَت قدرته، الحكيم الذي كَمُلَ حكمه، الرحيم الذي كَمُلَت رحمته، الجواد الذي كَمُلَ جوده)[١].

ومن قال: (إنه الذي لا جوف له)[٢]: فقوله لا يُناقض هذا التفسير، فإن اللفظ من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال؛ ولا جوف له، فإنما لم يكن أحدٌ كفواً له لَمَّا كان صمداً كاملاً في صمديَّته.

فلو لم تكن له صفاتُ كمالٍ ونعوتُ جلالٍ، ولم يكن له علمٌ ولا قدرةٌ، ولا حياةٌ ولا إرادةٌ ولا كلامٌ، ولا وجهٌ ولا يدٌ، ولا سمعٌ ولا بصرٌ، ولا فعلٌ يقوم به، ولا يفعل شيئاً ألبتة، ولا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق عرشه، ولا يرضى ولا يغضب، ولا يُحِبُّ ولا يُبغض، ولا هو فعالٌ لما يُريد، ولا يَرى ولا يُمكن أن يُرى، ولا يُشار إليه ولا يُمكن أن يُشار إليه: لكان العدم المحض كفواً، فإن هذه الصفات منطبقةٌ على المعدوم، فلو كان ما يقوله المعطلون هو الحقُّ: لم يكن صمداً، وكان العدم كفواً له)[٣].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته: اسم الجلالة (الصمد)؛ فقال:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٥ ـ ١٠٢٧.
وانظر نظير هذه المباني المتضمنة لهذه المعاني: بدائع الفوائد ١/ ١٤٥.

(والله أكبرُ واحدٌ صمدٌ وكُلُّ ... الشأنِ في صمدية الرحمٰنِ
نفتِ الولادةَ والأُبُوَّةَ عنه والـ ... ـكُفْءَ الذي هو لازم الإنسانِ
وكذاك أثبتت الصفاتِ جميعَها ... لله سالمة من النقصانِ
وإليه يصمدُ كلُّ مخلوقٍ فلا ... صَمَدَ سواه عَزَّ ذو السلطانِ)[1].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الأحد).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الأحد) في مواضع من كتبه[2]، حيث بيَّن معنى اسم الجلالة (الأحد) بقوله: ((الأحد): المتضمن لانفراده بالربوبية والإلـٰهية)[3].

واسم الجلالة (الأحد) كما يتضمن التفرُّد بالألوهية: فإنه يتضمن نفي كل شريكٍ لله تعالى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (في (الأحد): نفي كلِّ

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤٧٣٩ ــ ٤٧٤٢) ــ ص٣٣٦].

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الأحد) ــ على وجه الخصوص ــ : تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/٣؛ ٤، بدائع الفوائد ١/١٢٦؛ ١٤٦، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨، زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/١٨١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤٢.
ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة: (الأحد) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة: (الأحد) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١].

(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٤٦.

شريكٍ لذي الجلال)[1].

وهذا الاسم من أسماء الله الحسنى المختصة به، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (ومما يُمنع تسمية الإنسان به: أسماء الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ، فلا يجوز التسمية بالأحد والصمد، ولا بالخالق ولا بالرازق، وكذلك سائر الأسماء المختصة بالربِّ ــ تبارك وتعالى ــ)[2].

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (الوارث).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الوارث) في مواضع من كتبه[3]، حيث نصَّ على كونه من أسماء الله الحسنى بقوله: (ــ سبحانه ــ له الأسماء الحسنى، فمن أسمائه: الغفور الرحيم؛ العفو الحليم؛ الخافض الرافع؛ المعزُّ المذلُّ؛ المحيي المميت؛ الوارث)[4].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ١٨١.

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨.

(٣) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٦٢، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٠٦ ــ ١٠٧.
ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة: (الوارث) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة: (الوارث) بصيغة الجمع في ثلاث آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٣].
وأما معناه: فقال البيهقي في [الأسماء والصفات: ١/ ٤٧]: (الوارث: ومعناه الباقي بعد ذهاب غيره، وربنا جلَّ ثناؤه بهذه الصفة، لأنه يبقى بعد ذهاب الملاك الذين أمتعهم في هذه الدنيا بما آتاهم، لأن وجودهم ووجود الأملاك كان به، ووجوده ليس بغيره).

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٠٦ ــ ١٠٧.

فهذه بعض الأسماء الحسنى ــ التي هي أخصُّ باسم الجلالة (اللّـه) ــ ، وقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مثاني كتبه؛ ونصَّ على أنها من أسماء الله الحسنى[1].



(١) نظير هذه الأسماء الحسنى في معناها ودلالتها على اسم الجلالة (اللّـه): اسما الجلالة: (الواحد؛ والوتر)، وقد ورد ذكر اسم الجلالة (الواحد) في مواضع من كتب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٤٧]: (العقل إنما دلَّ على إثبات إلـه واحدٍ وربٍ واحدٍ؛ لا شريك له ولا شبيه له، ولم يدلَّ على أن ذلك الربَّ الواحد لا اسم له ولا صفة له، ولا وجه ولا يدين، ولا هو فوق خلقه ولا يصعد إليه شيءٌ ولا ينزل منه شيءٌ، فدعوى ذلك على العقل كذبٌ صريحٌ عليه، كما هي كذبٌ صريحٌ على الوحي).
وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (الوتر) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨١]: (إنه ــ سبحانه ــ (وترٌ) يُحِبُّ الوتر).

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير اسمي الله تعالى: الحيِّ؛ القيُّوم

تضمَّن هذا المطلب تعيين اسمَي الله تعالى: (الحيِّ؛ والقيُّوم)، وذكر بعض أدلَّة ثبوتهما؛ وبيان بعض ما اشتملا عليه من المعاني، مع الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران بعضهما ببعض، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (الحيُّ).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الحيِّ) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[1]، حيث ذكر ما يقتضيه هذا الاسم من صفات

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الحيِّ) ــ على وجه الخصوص ــ: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/١٤٧، بدائع الفوائد ١/١٤٩؛ ٢/١٥٨؛ ٢١٢، زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/٢٠٤؛ ٢٠٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٣٩٥، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٣٩؛ ٤٥١. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: أحكام أهل الذمة ١/١٩٣، إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/١٦١، بدائع الفوائد ١/١٥٤؛ ٣/٥٤، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٣١، الداء والدواء ص١٣٣، زاد المعاد في هدي خير العباد =

الكمال؛ فقال: (إذا اعتبرت اسمه (الحيَّ): وجدته مقتضياً لصفات كماله؛ من علمه وسمعه وبصره وقدرته وإرادته ورحمته وفعله ما يشاء)[1].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (القيُّوم).

عيَّن الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (القيوم) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[2]، حيث ذكر معنى هذا الاسم بقوله: (معنى اسمه

= ٤/ ٢٤٤، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٤٥٤؛ ٤٥٦؛ ٥٣١؛ ٥٥٦، الصلاة وحكم تاركها ص١٨٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٨؛ ١٠٢٠؛ ١١١٤، ومختصره ١/ ٢٤٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٧؛ ٢٣١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٤٠؛ ٢٣٤؛ ٣/ ٢٢٤، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤٧٩.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الحيِّ) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الحيُّ) مفرداً في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما: في قول الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٨].

(١) التبيان في أقسام القرآن ص٢٠٥ ــ ٢٠٦.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (القيوم) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢، زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٢٠٤؛ ٢٠٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥١؛ ٢/ ١١٦؛ ٣/ ٢١٤.
وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: التبيان في أقسام القرآن ص٢٠٦، بدائع الفوائد ٢/ ١٥٨، الصلاة وحكم تاركها ص١٧٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٩؛ ٤/ ١٣٢٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٤؛ ٢٣٤؛ ٣٢٧؛ ٣٧٧، الفروسية ص٨٢، الفوائد ص٨٢؛ ١٨٦، مدارج =

(القيوم): وهو الذي قام بنفسه؛ فلم يحتج إلى أحدٍ، وقام كلُّ شيءٍ به، فكلُّ ما سواه محتاجٌ إليه بالذات)[1].

وهذا الاسم متضمنٌ للكمال الذي لا ينفكُّ بحالٍ عن الذات المقدسة، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن القيام بالنفس صفة كمال، فالقائم بنفسه أكمل ممن لا يقوم بنفسه، ومن كان غناه من لوازم ذاته: فقيامه بنفسه من لوازم ذاته، وهذه حقيقة قيوميته ـ سبحانه ـ وهو الحيُّ القيوم، فالقيوم: القائم بنفسه المقيم لغيره)[2].

ولجلالة هذا الاسم: كان متضمناً لبعض صفات الله العلى، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفات العلى التي يتضمنها اسم الجلالة (القيوم) بقوله: (أما القيوم: فهو متضمِّنٌ كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه؛ لا يحتاج إلى من يُقيمه بوجهٍ من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه.

= السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٠١؛ ٣/ ١٦٢؛ ٢٦٣؛ ٣٠٣، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣١١.

ولم يرد اسم الجلالة (القيوم) في القرآن الكريم مفرداً، وإنما جاء مقترناً باسم الجلالة (الحيِّ) في ثلاث آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها في آية الكرسي؛ وهي قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١١٦.

وانظر نظير هذا المعنى: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢١٤.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٢٨ ـ ١٣٢٩.

وهو المقيم لغيره؛ فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعِزَّته)[1].

ولاسم الجلالة (القيوم) أثرٌ على جميع مخلوقات الله تعالى، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (ـ سبحانه ـ القيوم، المقيمُ لكلِّ شيءٍ من المخلوقات ـ طائعِها وعاصيها ـ ، فكيف تكون قيوميته بمن أحبَّه وتولاه؛ وآثره على ما سواه، ورضي به من دون الناس حبيباً وربًّا ووكيلاً وناصراً ومعيناً وهادياً؟

فلو كُشِفَ الغطاءُ عن ألطافه وبِرِّه وصنعه له ـ من حيث يعلم؛ ومن حيث لا يعلم ـ : لذاب قلبُه محبةً له وشوقاً إليه؛ ويقع شكراً له، ولكن حَجَبَ القلوبَ عن مشاهدة ذلك: إخلادُها إلى عالم الشهوات؛ والتعلُّق بالأسباب، فصُدَّتْ عن كمال نعيمها، و ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٩٦﴾[2].

وإلا فأيُّ قلبٍ يذوق حلاوة معرفة الله ومحبَّته؛ ثم يركن إلى غيره ويسكن إلى ما سواه؟ هذا ما لا يكون أبداً)[3].

وقد ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اقتران اسم الجلالة (الحيِّ) باسم الجلالة (القيوم) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[4]، وذكر

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١٥٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٦، سورة يس: الآية ٣٨، سورة فصلت: الآية ١٢.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣٢٧.

(٤) انظر: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣، بدائع الفوائد ٢/ ١٥٨؛ ٢١٢، التبيان في أقسام القرآن ص٢٠٦، رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٣٩، زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٢٠١؛ ٢٠٤؛ ٢٠٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤٢؛ ٢/ ٦٣٩، الصلاة وحكم تاركها ص١٧٤، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٦٢؛ ٣/ ٩٣٨؛ ١١١٥؛ ٤/ ١٣٢٩؛ ١٣٣٨؛ ١٤٩٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٤؛ =

بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة بهذا الاقتران، فمن ذلك:

١ ــ أن اسمي الجلالة (الحيَّ القيوم): هما الجامعان لمعاني أسماء الله تعالى وصفاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (التوسُّل إلى الربِّ تعالى بأحبِّ الأشياء: وهو أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات: (الحيُّ القيوم))[١].

٢ ــ أن اسمي الجلالة (الحيَّ القيوم): مقتضيان لجميع صفات الله العلى، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا اعتبرت اسمه (الحيَّ): وجدته مقتضياً لصفات كماله؛ من علمه وسمعه وبصره وقدرته وإرادته ورحمته وفعله ما يشاء.

واسمه (القيوم): مقتضٍ لتدبير أمر العالم العلويِّ والسفليِّ؛ وقيامه بمصالحه وحفظه له.

فمن أنكر صفات كماله: لم يُؤمن بأنه: (الحيُّ القيوم)، وإن أقرَّ بذلك: ألحد في أسمائه وعطَّل حقائقها؛ حيث لم يُمكنه تعطيل ألفاظها، وبالله التوفيق)[٢].

٣ ــ أن اسمي الجلالة (الحيَّ القيوم): متضمِّنان لاسم الله الأعظم ــ الذي من سأل به أُعْطِيَ؛ ومن دعا به أُجيبَ ــ ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين[٣]: آية الكرسي[٤]؛ وفاتحة

= ٢٣٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٨٠؛ ٣٠٣، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥٠٤.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٢٠١.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٢٠٥ ــ ٢٠٦.

(٣) وفي آية ثالثة أيضاً؛ وهي قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة طه: الآية ١١١].

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

آل عمران[١]، لاشتمالهما على صفة الحياة المصححة لجميع الصفات؛ وصفة القيومية المتضمنة لجميع الأفعال[٢])[٣].

٤ ـ أن اسمي الجلالة (الحيَّ القيوم): لهما أثرٌ عظيم في دفع داء الكرب والهمِّ والغمِّ والحزن، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (في تأثير قوله: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[٤] في دفع هذا الداء مناسبةٌ بديعةٌ، فإن صفة الحياة: متضمنةٌ لجميع صفات الكمال؛ مستلزمةٌ لها، وصفة القيومية: متضمنةٌ لجميع صفات الأفعال.

ولهذا كان اسم الله الأعظم ـ الذي إذا دُعِيَ به أجاب؛ وإذا سُئِلَ به أعطى ـ : هو اسم (الحيِّ القيوم).

والحياة التامة: تُضادُّ جميع الأسقام والآلام، ولهذا لما كَمُلَتْ حياة أهل الجنة: لم يلحقهم همٌّ ولا غمٌّ ولا حزنٌ؛ ولا شيءٌ من الآفات، ونقصان الحياة: تضرُّ بالأفعال؛ وتنافي القيومية، فكمال القيومية لكمال

---

(١) في قول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢].

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٥٣٨ ـ ٥٤٤) ـ ص٦٥ ـ ٦٦]:

(وله الحياة كمالها فلأجل ذَا ... ما للممات عليه من سلطانِ
وكذلك القيوم من أوصافه ... ما للمنام لديه من غشيانِ
وكذاك أوصاف الكمال جميعها ... ثبتت له ومدارها الوصفانِ
فمصحِّحُ الأوصاف والأفعال والـ ... أسماء حقًّا ذانك الوصفانِ
ولأجل ذا جاء الحديث بأنه ... في آية الكرسي وذي عمرانِ
اسم الإله الأعظم اشتملا على اسـ ... م الحيِّ والقيوم مقترنانِ
فالكلُّ مرجعها إلى الاسمين يد ... ري ذاك ذو بصرٍ بهذا الشانِ).

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١١ ـ ٩١٢.

(٤) تقدم تخريجه.

الحياة، فالحيُّ المطلق التامُّ الحياة: لا تفوته صفةُ الكمال ألبتة، والقيوم: لا يتعذَّر عليه فعلُ ممكنٍ ألبتة، فالتوسل بصفة الحياة والقيومية: له تأثيرٌ في إزالة ما يُضادُّ الحياة ويضرُّ بالأفعال.

ونظير هذا: توسُّل النبي ﷺ إلى ربِّه بربوبيته لجبريل وميكائيل وإسرافيل: أن يهديه لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه[1]، فإن حياة القلب بالهداية، وقد وكَّلَ الله ــ سبحانه ــ هؤلاء الأملاك الثلاثة بالحياة، فجبريل: مُوَكَّلٌ بالوحي؛ الذي هو حياة القلوب، وميكائيل: بالقطر؛ الذي هو حياة الأبدان والحيوان، وإسرافيل: بالنفخ في الصور؛ الذي هو سبب حياة العالَم وعَوْدِ الأرواح إلى أجسادها، فالتوسُّل إليه ــ سبحانه ــ بربوبية هذه الأرواح العظيمة المُوَكَّلة بالحياة: له تأثيرٌ في حصول المطلوب.

والمقصود: أن لاسم (الحيِّ القيوم) تأثيراً خاصاً في إجابة الدعوات؛ وكشف الكربات. وفي السنن وصحيح أبي حاتم ــ مرفوعاً ــ : «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[2]. وفاتحة آل عمران: ﴿الم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[3]»[4]. قال الترمذي: حديثٌ صحيحٌ.

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضاً من حديث أنس: «أن رجلاً دعا؛ فقال: اللَّهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ــ الحديث رقم (٧٧٠) ــ ١/٥٣٤] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ ، وأوله: «اللَّهُمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل».

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٣.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ١ ــ ٢.

(٤) تقدم تخريجه.

بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبـي ﷺ: لقد دعا الله باسمه الأعظم؛ الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»[1]. ولهذا: «كان النبي ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال: يا حيُّ يا قيوم»[2][3].

وقد ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته: اسمي الجلالة (الحيَّ؛ والقيوم)؛ وما يدلان عليه حال اقترانهما مع بعضهما البعض؛ فقال:

(هـذا ومـن أوصـافـه القيـوم والـ ... ـقيـوم فـي أوصـافـهِ أمـرانِ
إحـداهمـا القيـوم قـام بنفسـه ... والكـون قـام بـه همـا الأمـرانِ
فـالأول استغنـاؤه عـن غيـره ... والفقـر مـن كـلٍّ إليـه الثـانـي
والوصف بالقيوم ذو شأن عظيم ... هكذا موصوفه أيضاً عظيم الشانِ
والحـي يتلـوه فـأوصـاف الكمـا ... ل همـا لأفـق سمـائهـا قطبـانِ
فـالحـيُّ والقيـوم لـن تتخلَّـف الـ ... أوصـاف أصـلاً عنهمـا ببيـانِ)[4].



(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

(٤) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٣٣٩ ـ ٣٣٤٤) ـ ص٢٤٨].
وانظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيتان رقم (٣٠٨١ ـ ٣٠٨٢) ـ ص٢٣٠].

المطلب الرابع:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الغني؛ الواجد؛ الحميد؛ المجيد

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (الغنيِّ؛ والواجد؛ والحميد؛ والمجيد)، وذكر بعض أدلة ثبوتها، وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، كما تضمن الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران بعضها ببعض، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (الغني).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الغنيَّ) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[1]، حيث قال: (الله وحده: (الغنيُّ)؛

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الغنيّ) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ١/ ١٤٦، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٦٨؛ ٣/ ٣٧٤. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣٤١؛ ٢/ ٢٥٣، بدائع الفوائد ٢/ ٤١؛ ١١٧؛ ١١٨؛ ١٨٠، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٦، الداء والدواء ص٢١٢، الروح ص٣٦١، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٦٢؛ ٣/ ٢٣٦؛ ٤/ ١٥؛ ٢٠٧، شفاء العليل في مسائل =

وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه)[1].

كما بيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ غنى الله تعالى المطلق بقوله: (هو الغنيُّ بذاته؛ الذي كلُّ ما سواه محتاجٌ إليه، وليس به حاجةٌ إلى أحدٍ)[2].

وقد استنبط الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ من قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[3]: أن لله تعالى الغنى الكامل التامَّ من كلِّ وجهٍ عن كلِّ أحدٍ بكلِّ اعتبارٍ؛ فقال: (الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾[4]، ولا حاجة به إلى

= القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٨٧؛ ٢/ ٥٩٧، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٢؛ ٣/ ٩٨٤؛ ٤/ ١٣١٦؛ ١٣٢٨؛ ١٣٣٧، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٧؛ ٢٨؛ ٦٩؛ ٨٤؛ ٨٧؛ ١١٦؛ ١١٧؛ ٢٤٩؛ ٣٧٦؛ ٦٦٧؛ ٧٣٠، الفوائد ص٣٧؛ ١٨٦؛ ٢٠٤، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٢٨٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٦؛ ٤٧٣؛ ٢/ ٣٣٣؛ ٤٥٧؛ ٤٧١؛ ٣/ ١٥٦؛ ٢٢٤؛ ٣٧٩؛ ٣٨٠؛ ٤٢٤، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤٥٧؛ ٤٨٥؛ ٥٠٤؛ ٥١١؛ ٥١٢، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٣، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٠.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (الغنيِّ) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الغنيُّ) في ثمان عشرة آية من كتاب الله العزيز؛ أولها: قول الله تعالى: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٣].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٥٧.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٨٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٤) سورة لقمان: الآية ٢٦، سورة فاطر: الآية ١٥، سورة الحديد: الآية ٢٤، سورة الممتحنة: الآية ٦.

حجّ أحدٍ، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه.

ثم أكَّد ذلك بذكر اسم العالمين عموماً؛ ولم يقل: فإن الله غنيٌّ عنه، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلِّهم: فله الغنى الكامل التامُّ من كلِّ وجهٍ عن كلِّ أحدٍ بكلِّ اعتبارٍ، وكان أدلَّ على عظم مقته لتارك حقِّه الذي أوجبه عليه)[1].

ولما كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ (هو الغنيُّ بذاته عن كلِّ ما سواه)[2]: فقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض ما يستلزمه غنى الله تعالى المطلق من كلِّ وجهٍ، فمن ذلك:

١ ـ أن غنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ يستلزم إفراده تعالى بالعبادة؛ وأن تكون الشفاعةُ كلُّها له وحده؛ وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه، حيث قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (الأمر كلُّه لله وحده، فليس لأحدٍ معه من الأمر شيءٌ، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون ـ وهم عبيدٌ محضٌ ـ؛ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾[3]، ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم وأمرهم؛ ولا سيَّما ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾[4]. فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدةٌ بأمره وإذنه، فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ـ ظنًّا منه أنه إذا فعل ذلك تقدَّموا وشفعوا له عند الله ـ: فهو من أجهل الناس بحقِّ الربِّ ـ سبحانه ـ وما يجب له ويمتنع عليه، فإن هذا محالٌ ممتنعٌ؛ شبيهُ قياس الربِّ تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصِّهم

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٢.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٧.

(٤) سورة الانفطار: الآية ١٩.

وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج، وبهذا القياس الفاسد عُبِدَتْ الأصنام؛ واتَّخَذَ المشركون من دون الله الشفيعَ والوليَّ.

والفرق بينهما: هو الفرق بين المخلوق والخالق؛ والربِّ والمربوب؛ والسيِّد والعبد؛ والمالك والمملوك؛ والغنيِّ والفقير؛ والذي لا حاجة به إلى أحدٍ قطُّ والمحتاج من كلِّ وجهٍ إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم، فإن قيام مصالحهم بهم؛ وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم؛ وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع، لأنهم يخافون أن يردُّوا شفاعتهم فتنتقض طاعتُهم لهم؛ ويذهبون إلى غيرهم، فلا يجدون بُداً من قبول شفاعتهم على الكره والرضى.

فأما الغنيُّ الذي غناه من لوازم ذاته؛ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه بذاته؛ وكلُّ من في السماوات والأرض عبيدٌ له؛ مقهورون بقهره مصرفون بمشيئته، لو أهلكهم جميعاً: لم ينقص من عِزِّه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلـٰهيته مثقالُ ذرةٍ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾[(1)]. وقال ـ سبحانه ـ في سيدة آي القرآن ـ آية الكرسي ـ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾[(2)]. وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾[(3)].

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة الزمر: الآية ٤٤.

فأخبر أن حال ملكه للسماوات والأرض يُوجب أن تكون الشفاعة كلُّها له وحده؛ وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه، فإنه ليس بشريكٍ بل مملوكٍ محضٍ، بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعضٍ)[١].

٢ ــ أن غنى الله ــ سبحانه وتعالى ــ يستلزم قيوميَّته، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنه قد دلَّ البرهان الضروريُّ والعقل الصريح على استغنائه ــ سبحانه ــ بنفسه؛ وأنه الغنيُّ بذاته عن كلِّ ما سواه، فغناه من لوازم ذاته.

ولا يكون غنيًّا على الإطلاق إلا إذا كان قائماً بنفسه، إذ القيام بالغير يستلزم فقر القائم إلى ما قام به، وعدم القيام بالنفس وبالغير يستلزم العدم، فصحَّ ضرورة وجوب قيامه بنفسه)[٢].

٣ ــ أنَّ غنى الله ــ سبحانه وتعالى ــ يستلزم إحسانه، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن من أَمَرَ غيره بمصلحةٍ؛ وقَصَدَ نَفْعَه: فبنفسه يبدأ؛ ولها ينفع أولاً، ومصلحتُها لا بُدَّ أن تكون قد حصلت قبل مصلحة المأمور؛ والإحسانَ إلى نفسه قَصَدَ بإحسانه إلى غيره، فإنه عبدٌ فقيرٌ محتاجٌ.

والله وحده هو الغنيُّ بذاته؛ الذي يُحسن إلى خلقه لا لأجل معاوضةٍ منهم، وأما المخلوق فإنه يُريد العوض، لكنَّ الأعواض تتفاوت، ومن يطلب منه العوض يختلف)[٣].

٤ ــ أنَّ غنى الله ــ سبحانه وتعالى ــ يستلزم فَقْرَ كلِّ غنيٍّ إليه؛ وغنى كلِّ فقيرٍ به، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنَّ الفقر إلى لوازم البشرية:

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣٤١ ــ ٣٤٢.
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣١.
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٢٤ ــ ٤٢٥.

أمرٌ ذاتيٌّ، وما بالذات لا يُستغنى عنه ألبتة، قد يُستغنى لشهود الفقر المطلق إلى الغنيِّ بذاته ــ الذي كلُّ شيءٍ مفتقرٌ إليه ــ ، ويفنى بشهود فقره إليه عن فقره إلى ما سواه، فيكون في غناه فقيراً إليه، وفي فقره غنياً به)[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الغنيَّ) في نونيته؛ فقال:

(وهو الغنيُّ بذاته فغناه ذا تيٌّ له كالجود والإحسانِ)[2].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (الواجد).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الواجد) في موضعين من كتبه[3]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله: ((الواجد) في أسمائه ــ سبحانه ــ ، فهو بمعنى: ذو الوَجْدِ والغنى، وهو

---

(١) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٢٨٤.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٤٨) ــ ص٢٤٢].
وانظر: [البيت رقم (٣٢٠١) ــ ص٢٣٩].

(٣) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٣ ــ ٣٩٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٣٢ ــ ٤٣٣.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم (الواجد) في أحدهما بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، ولم يرد اسم (الواجد) صريحاً في كتاب الله العزيز؛ وإنما ورد بطريق الاشتقاق في قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ ﴾ [سورة الضحى: الآيات ٦ ــ ٨]. وقد ورد تسميته في حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى.
ويبقى اسم (الواجد) مفتقراً في ثبوته إلى دليلٍ صحيحٍ صريحٍ يدلُّ عليه؛ ويُسوِّغ إدراجه ضمن أسماء الله الحسنى التي يُتعبَّد بدعاء الله تعالى بها.

ضدُّ الفاقد، وهو كالموسع: ذي السعة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾[1]. أي: ذو سعةٍ وقدرةٍ وملكٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾[2].

ودخل في أسمائه ــ سبحانه ــ: (الواجد)؛ دون المُوجد، فإن المُوجد: صفة فعل، وهو مُعطي الوجود؛ كالمُحيـي: مُعطي الحياة، وهذا الفعل لم يجىء إطلاقه في أفعال الله في الكتاب ولا في السنة، فلا يُعرف إطلاق: أوجد الله كذا وكذا؛ وإنما الذي جاء: خلقه؛ وبرأه؛ وصوَّره؛ وأعطاه خلقه ونحو ذلك، فلما لم يكن يُستعمل فعلُه: لم يجىء اسم الفاعل منه في أسمائه الحسنى، فإن الفعل: أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالاً لم يتسمَّ منها بأسماء الفاعل، كأراد وشاء وأحدث، ولم يُسمَّ بالمريد والشائي والمحدث، كما لم يُسمِّ نفسه بالصانع والفاعل والمتقن؛ وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه، فباب الأفعال: أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ أقبح خطأ من اشتقَّ له من كلِّ فعلٍ اسماً، وبلغ بأسمائه زيادة على الألف، فسماه الماكر والمخادع والفاتن والكائد ونحو ذلك، وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم: أوسع من تسميته به، فإنه يُخْبَرُ عنه بأنه شيءٌ وموجودٌ ومذكورٌ ومعلومٌ ومرادٌ؛ ولا يُسمَّى بذلك.

فأما (الواجد): فلم تجىء تسميته به إلا في حديث تعداد الأسماء الحسنى[3]، والصحيح: أنه ليس من كلام النبـي ﷺ.

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٤٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٦.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٨٢) ــ الحديث رقم (٣٥٠٧) ــ ٥/٤٨٦]، وابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب أسماء الله =

ومعناه: صحيحٌ، فإنه ذو الوَجْد والغنى، فهو أولى بأن يُسمَّى به من الموجود ومن المُوجد.

أما الموجود: فإنه منقسمٌ إلى كاملٍ وناقصٍ؛ وخيرٍ وشرٍّ، وما كان مسماه منقسماً: لم يدخل اسمه في الأسماء الحسنى، كالشيء والمعلوم، ولذلك لم يُسمَّ بـ: المريد ولا بالمتكلم؛ وإن كان له الإرادة والكلام، لانقسام مُسمَّى المريد والمتكلم.

وأما المُوجد: فقد سمَّى نفسه بأكمل أنواعه؛ وهو: الخالق البارىء المصوِّر، فالمُوجد: كالمحدث والفاعل والصانع.

وهذا من دقيق فقه الأسماء الحسنى؛ فتأمَّله، وبالله التوفيق)[1].

= عزَّ وجلَّ ـ الحديث رقم (٣٨٦١) ـ ٤/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «إن لله تسعة وتسعين اسماً».
قال الترمذي: (وقد رُوِيَ هذا الحديث من غير وجهٍ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولا نعلم في كبير شيءٍ من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث).
قال شيخ الإسلام ـ في جواب سؤال المعترض في الأسماء الحسنى؛ وأن النور الهادي يجب تأويله قطعاً ٦/ ٣٧٩ ـ: (اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي ﷺ، وإنما كلٌّ منهما من كلام بعض السلف) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].
وانظر: جواب سؤال من قال: لا يجوز الدعاء إلا بالتسعة والتسعين اسماً ٢٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٥ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٤.

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الحميد).

ذكر الإمام ابن قيّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الحميد) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[1]، حيث بيَّن معناه بقوله: ((الحميد): فعيلٌ من الحمد، وهو بمعنى محمود)[2].

وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ الفرق بين الحميد والمحمود؛ فقال:

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الحميد) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ١/١٤٦، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٥، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧؛ ٤٥٠؛ ٤٥٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٥١٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٤٥١؛ ٣/٣٧٤. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/٢٥٣، بدائع الفوائد ٢/٨٢؛ ١١٨؛ ١٨٠، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٦، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٨، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٣١، زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/٢٣٦، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٧؛ ٢٨؛ ٦٩؛ ٨٤؛ ٨٧؛ ١١٦؛ ٢٤٩؛ ٧٣٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٢٢٧، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/٤٨٥؛ ٥١٢.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (الحميد) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (الحميد) في سبع عشرة آية من كتاب الله العزيز؛ أولها: في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٧].

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧.

((الحميد)؛ فلم يأت إلا بمعنى المحمود، وهو أبلغ من المحمود، فإن فعيلاً إذا عُدِلَ به عن مفعول: دلَّ على أن تلك الصفة قد صارت مثل السجيَّة والغريزة والخُلُق اللازم، كما إذا قلت: فلانٌ ظريفٌ وشريفٌ وكريمٌ، ولهذا يكون هذا البناء غالباً من فَعُلَ بوزن شَرُفَ، وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجايا اللازمة، ككَبُرَ وصَغُرَ وحَسُنَ ولَطُفَ ونحو ذلك[1].

ولهذا كان حبيبٌ أبلغ من محبوب، لأن الحبيب الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يُحَبُّ لأجلها، فهو حبيبٌ في نفسه؛ وإن قُدِّر أن غيره لا يُحبُّه؛ لعدم شعوره به أو لمانعٍ منعه من حُبِّه، وأما المحبوب فهو الذي تعلَّق به حبُّ المُحبِّ؛ فصار محبوباً بحبِّ الغير له، وأما الحبيب فهو حبيبٌ بذاته وصفاته، تعلَّق به حبُّ الغير أو لم يتعلَّق.

وهكذا الحميد والمحمود، فالحميد: هو الذي له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محموداً؛ وإن لم يحمده غيره، فهو حميدٌ في نفسه، والمحمود من تعلَّق به حمد الحامدين)[2].

واسم الجلالة (الحميد) متضمنٌ لكمال الحمد، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (اسمه (الحميد)، وهو الذي له الحمد كلُّه، فكمال حمده يُوجب أن لا يُنسب إليه شرٌّ ولا سوءٌ ولا نقصٌ؛ لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته.

فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشرِّ والسوء والظلم إليه، مع أنه ـ سبحانه ـ الخالق لكلِّ شيءٍ، فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم

---

(١) انظر: الشافية في علم التصريف لابن الحاجب ص١٩، المغني في تصريف الأفعال للدكتور عضيمة ص١٠٠.

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧ ـ ٤٤٨.

وأقوالهم، والعبد إذا فعل القبيح المنهيَّ عنه: كان قد فعل الشرَّ والسوء، والربُّ ـ سبحانه ـ هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا الجعل منه عدلٌ وحكمةٌ وصوابٌ، فجعله فاعلاً خيرٌ؛ والمفعول شرٌّ قبيحٌ، فهو ـ سبحانه ـ بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لِمَا له في ذلك من الحكمة البالغة التي يُحمد عليها، فهو خيرٌ وحكمةٌ ومصلحةٌ؛ وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشراً.

وهذا أمرٌ معقولٌ في الشاهد، فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة فوضع ذلك في موضعٍ يليق به ويناسبه: كان ذلك منه عدلاً وصواباً يُمدح به؛ وإن كان في المحلِّ عوجٌ ونقصٌ وعيبٌ يُذمُّ به المحلُّ، ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلِّها اللائق بها: كان ذلك حكمة وعدلاً وصواباً، وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها، فمن وضع العمامة على الرأس؛ والنعل في الرجل؛ والكحل في العين؛ والزبالة في الكناسة: فقد وضع الشيء موضعه، ولم يظلم النعل والزبالة؛ إذ هذا محلهما)[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الحميد) في نونيته؛ فقال:

(وهو الحميد فكلُّ حمدٍ واقعٌ ... أو كان مفروضاً مدى الأزمانِ
ملأ الوجودَ جميعه ونظيره ... من غير ما عَدٍّ ولا حُسبانِ
هو: أهلُه سبحانه وبحمده ... كلُّ المحامد وصفُ ذي الإحسانِ)[2].

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١٢.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٣٨ ـ ٣٢٤٠) ـ ص٢٤١].

وانظر: [البيت رقم (٤٩٨٤) ـ ص٣٥٢].

كما قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الغني) باسم الجلالة (الحميد)[1]، حيث ذكر عند قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[2] بعض الفوائد الحسان المتعلِّقة بهذا الاقتران؛ فقال: (يقول ــ سبحانه ــ : إني (غنيٌّ) عما تُنفقون أن ينالني منه شيءٌ؛ (حميدٌ) مستحقٌّ المحامدَ كلِّها، فإنفاقكم لا يسدُّ منه حاجة؛ ولا يُوجب له حمداً، بل هو (الغنيُّ) بنفسه؛ (الحميد) بنفسه وأسمائه وصفاته. وإنفاقكم إنما نفعه لكم؛ وعائدته عليكم)[3].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ بعض تلك الفوائد المتعلِّقة بهذا الاقتران المذكور في هذه الآية الكريمة في موطنٍ آخر؛ فقال: (ــ سبحانه ــ طيبٌ لا يقبل إلا طيباً، ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما، فقال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[4].

فغناه وحمده يأبى قبول الرديء، فإن قابلَ الرديء الخبيث: إما أن يقبله لحاجته إليه؛ وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغنيُّ عنه؛ الشريف القدر؛ الكامل الأوصاف: فإنه لا يقبله)[5].

---

(١) ورد اقتران اسم الجلالة (الغنيّ) باسم الجلالة (الحميد) في عشر آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها: في قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٧].

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٧.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٤٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٦٧.

(٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٦٦٦ ــ ٦٦٧.

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (المجيد).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (المجيد) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[1]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله: (إن المجيد: من اتَّصف بصفاتٍ متعددةٍ من صفات الكمال، ولفظه يدلُّ على هذا، فإنه موضوعٌ للسعة والكثرة والزيادة[2]، فمنه: استمجد المرخ والعفار[3]،

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (المجيد) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ١٤٤؛ ١٤٦؛ ١٥٢؛ ٢/ ٢١٢، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٥، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧؛ ٤٤٨؛ ٤٥٠؛ ٤٥٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥١.
وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: بدائع الفوائد ٢/ ٨٢، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٦؛ ١٣٠، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٥.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (المجيد) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (المجيد) في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما: قول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة هود: الآية ٧٣].

(٢) انظر: المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٧/ ٥٤ ــ ٥٥، الصحاح للجوهري ٢/ ٥٣٦ ــ ٥٣٧، لسان العرب لابن منظور ٣/ ٣٩٥ ــ ٣٩٦ [مادة: مجد].

(٣) من أمثال العرب: (في كلِّ شجرٍ نارٌ، واستمجد المرخ والعفار)، وهو مثلٌ يُضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض. والمرخ والعفار: شجرتان من أسرع الشجر خروجُ نارٍ.
انظر: مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٤٤٥ ــ ٤٤٦، المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢/ ١٨٣ ــ ١٨٤.

وأمجد الناقة علفاً[1]، ومنه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾[2]: صفة للعرش؛ لسعته وعِظمه وشرفه. وتأمَّل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله؛ كما علَّمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد؛ والتعرُّض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسمٍ يقتضيه)[3].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (المجيد) في أبيات نونيته؛ فقال:

(وهو المجيد صفاته أوصاف تعـ ـظيمٍ فشأن الوصف أعظم شانِ)[4].

كما قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الحميد) باسم الجلالة (المجيد)[5]، حيث ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ بعض ما يتعلَّق بأسرار ومعاني هذا الاقتران؛ فقال: (وصف نفسه بـ(المجيد)، وهو: المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها؛ وعدم إحصاء الخلق لها؛ وسعة أفعاله وكثرة خيره ودوامه، وأما من ليس له صفاتُ كمالٍ ولا أفعالٌ حميدةٌ: فليس له من المجد شيءٌ.

---

(١) قال أبو عبيدة: أهل العالية يقولون: مَجَدْتُ الدابةَ؛ إذا علفتها ملء بطنها ــ مخففة ــ ، وأهل نجد يقولون: مجَّدتُها؛ إذا علفتها نصف بطنها. حكاه عنه: الأزهري في [تهذيب اللغة ١٠/ ٦٨٣].

(٢) سورة البروج: الآية ١٥.

(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٤٤.

(٤) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٢٢٨) ــ ص٢٤٠].

(٥) ورد اقتران اسم الجلالة (الحميد) باسم الجلالة (المجيد) في آية واحدة من كتاب الله العزيز؛ وهي: قول الله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة هود: الآية ٧٣].

والمخلوق إنما يصير مجيداً: بأوصافه وأفعاله، فكيف يكون الربُّ ــ تبارك وتعالى ــ مجيداً؛ وهو مُعطَّلٌ عن الأوصاف والأفعال؟ تعالى الله عما يقول المعطلون علوًّا كبيراً، بل هو: المجيد الفعَّال لما يريد.

والمجد في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال؛ وكثرة أفعال الخير.

وأحسن ما قُرِنَ اسمُ (المجيد) إلى (الحميد)، كما قالت الملائكة لبيت الخليل ــ عليه السلام ــ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾[1].

وكما شُرِعَ لنا في آخر الصلاة: أن نُثني على الربِّ تعالى بأنه: «حميد مجيد»[2]، وشُرِعَ في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد»[3].

فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد، فالحميد: الحبيب المستحقُّ لجميع صفات الكمال.

والمجيد: العظيم الواسع القادر الغنيُّ ذو الجلال والإكرام.

---

(١) سورة هود: الآية ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب أحاديث الأنبياء/ باب (١٠) ــ الحديث رقم (٣٣٦٩ ــ ٣٣٧٠) ــ ٢/ ١٠٤١]، ومسلم في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد ــ الحديث رقم (٤٠٦ ــ ٤٠٧) ــ ١/ ٣٠٥ ــ ٣٠٦] من حديث أبي حميد الساعدي وكعب ابن عجرة ــ رضي الله عنهما ــ، وأوله: «قولوا: اللَّهُمَّ صلِّ على محمدٍ».

(٣) تقدم تخريجه.

ومن قـرأ: ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾[1] بالكسر[2]: فهـو صفـةٌ لعرشه ــ سبحانه ــ، وإذا كان عرشه مجيداً: فهو ــ سبحانه ــ أحقُّ بالمجد)[3].

❑ ❑ ❑

(1) سورة البروج: الآية ١٥.

(2) في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾: قراءتان، قراءة حمزة والكسائي وخلف بخفض الدال، وقراءة الباقين برفع الدال.
انظر: المبسوط في القراءات العشر للأصبهاني ص٤٠١، النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٣٩٩، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للبنا ٢/٦٠١.
قال الأزهري في [معاني القراءات ص٥٣٨]: (من قرأ بالخفض: جعله نعتاً للعرش ــ والمجيد: الكريم الشريف ــ، ومن قرأ بالرفع: جعله نعتاً لله ذي العرش).
وانظر: الحجة للقراء السبعة للفارسي ٦/٣٩٣ ــ ٣٩٦، شرح الهداية للمهدوي ٢/٥٥١، الكشـف عـن وجـوه القـراءات السبـع وعللهـا وحججهـا لمكـي بـن أبـي طالب ٢/٣٦٩.

(3) التبيان في أقسام القرآن ص١٢٥ ــ ١٢٦.

المطلب الخامس:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الجليل؛ الجميل؛ الطيّب؛ النور

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (الجليل؛ والجميل؛ والطيِّب؛ والنور)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (الجليل).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الجليل) في مواضع من كتبه[1]، منها قوله: (إن الذنب ـ وإن صغر ـ ؛

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الجليل) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: الداء والدواء ص١٣٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٢٧، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٢٩، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٨٧.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى =

فإن مقابلة العظيم الذى لاشيء أعظم منه، الكبير الذي لا شيء أكبر منه، (الجليل) الذى لا أجلَّ منه ولا أجمل، المُنعم بجميع أنواع النعم ـ دقيقها وجليلها ـ : من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كلُّ أحدٍ ـ مؤمن وكافر ـ ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السماوات والأرض، وملك السماوات والأرض، وإله أهل السماوات والأرض؟)[1].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (الجميل).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الجميل) في عدة مواضع من كتبه[2]، حيث بيَّن أنَّ لله تعالى جمال الأسماء

= (الجليل) بذكر دليله المثبت له، ولم يرد اسم (الجليل) صريحاً في كتاب الله العزيز؛ وإنما ورد بطريق الاشتقاق في قول الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [سورة الرحمن: الآية ٢٧] . وقد ورد تسميته في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى.

وأما معناه: فقال السعدي في [التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين: ص٣٩]: (الجليل: الذي له جميع أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء).

(١) الداء والدواء ص١٣٨ .

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الجميل) ـ على وجه الخصوص ـ : روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨١؛ ٤٢٠، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٩٦؛ ٣٢٣؛ ٢/ ٧١٩، الفوائد ص٢٠٢، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٨١؛ ٤٢٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٣؛ ٢/ ٤٣٦ . وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ : الداء والدواء ص١٠٨؛ ٣٥١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٥، =

وجمال الصفات؛ وجمال الأفعال وجمال الذات؛ فقال: (الله ـ سبحانه ـ تعرَّف إلى عباده من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يُوجب محبَّتهم له، فإن القلوب مفطورةٌ على محبَّة الكمال؛ ومن قام به، والله ـ سبحانه وتعالى ـ له الكمال المطلق من كلِّ وجهٍ؛ الذي لا نقص فيه بوجهٍ ما.

وهو ـ سبحانه ـ (الجميل)؛ الذي لا أجمل منه، بل لو كان جمال الخلق كلِّهم على رجلٍ واحدٍ منهم؛ وكانوا جميعهم بذلك الجمال: لما كان لجمالهم قطُّ نسبة إلى جمال الله؛ بل كانت النسبة أقلَّ من نسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى حذاء جرم الشمس، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾[(1)].

وقد رَوَى عن النبي ﷺ قوله: «إنَّ الله جميلٌ يُحبُّ الجمال»: عبد الله بن عمرو بن العاص[(2)]؛ وأبو سعيدٍ الخدريُّ[(3)]؛ وعبدُ الله بن

= الفوائد ص٣٧، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦؛ ٥٢٩، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١١٥؛ ٣٠٠، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٣.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (الجميل) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، ولم يرد اسم الجلالة (الجميل) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد ذكره في أحاديث النبي ﷺ.

(١) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٦٥٨٣) ـ ١١/ ١٥٠ ـ ١٥١]، والبخاري في أدبه المفرد [باب الكبر ـ الحديث رقم (٥٥٨) ـ ص١٢٠ ـ ١٢١].

وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٣٤) ـ ١/ ٢٥٩ ـ ٢٦١].

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده [الحديث رقم (١٠٥٠) ـ ٢/ ١٧ ـ ١٨]. =

مسعود[1]؛ وعبد الله بن عمر بن الخطاب[2]؛ وثابتُ بن قيس[3]؛ وأبو الدرداء[4]؛ وأبو هريرة[5]؛ وأبو ريحانة[6] ـ رضي الله عنهم ـ .

ومن أسمائه الحسنى: (الجميل)، ومن أحقُّ بالجمال مِمَّنْ كُلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صنعه؟ فله جمال الذات؛ وجمال الأوصاف؛ وجمال الأفعال؛ وجمال الأسماء، فأسماؤه كلُّها حسنى؛ وصفاته كلُّها كمالٌ؛ وأفعاله كلُّها جميلةٌ.

فلا يستطيع بشرٌ النظرَ إلى جلاله وجماله في هذه الدار، فإذا رأوه ـ سبحانه ـ في جنات عدنٍ: أَنْسَتْهُم رؤيته ماهم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شيءٍ غيره، ولولا حجاب النور على وجهه: لأحرقت سُبُحَات

= قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٥/ ١٣٢]: (رواه أبو يعلى؛ وفيه: عطية العوفي؛ وهو ضعيفٌ، وقد وُثِّقَ).

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط [الحديث رقم (٤٦٦٥) ـ ٥/ ٣٣٩].
وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٦٢٦) ـ ٤/ ١٦٥ ـ ١٦٨].

(٣) أخرجه الروياني في مسنده [الحديث رقم (١٠٠٣) ـ ٢/ ١٧٥].

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرجه البخاري في أدبه المفرد [باب الكبر ـ الحديث رقم (٥٦٧) ـ ص١٢٢]، وأبو داود في سننه [كتاب اللباس/ باب ما جاء في الكبر ـ الحديث رقم (٤٠٩٢) ـ ٤/ ٣٥٢].
وصححه الألباني في [صحيح الأدب المفرد: الحديث رقم (٤٣٣) ـ ص٢٠٩].

(٦) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٧٢٠٦) ـ ٢٨/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨].
قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٥/ ١٣٣]: (رواه أحمد؛ ورجاله ثقات).

وجهه ـ سبحانه وتعالى ـ ما انتهى إليه بصره من خلقه، كما في صحيح البخاري من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات؛ فقال: إنَّ الله لا ينام؛ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار؛ وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور؛ لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[(1)])[(2)].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الجليل) باسم الجلالة (الجميل)؛ فقال: (في الحديث: «يقول الله ـ عزَّ وجلّ ـ : أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أُظلُّهم في ظلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي»[(3)].

فقال: «أين المتحابون بجلالي؟»، فهو حبٌّ بجلاله وتعظيمه ومهابته؛ ليس حباً لمجرَّد جماله، فإنه ـ سبحانه ـ الجليل الجميل، والحبُّ الناشيء عن شهود هذين الوصفين: هو الحبُّ النافع الموجب لكونهم في ظلِّ عرشه يوم القيامة.

فشهود الجلال وحده: يُوجب خوفاً وخشية وانكساراً، وشهود الجمال وحده: يُوجب حباً بانبساطٍ وإذلالٍ ورعونةٍ، وشهود الوصفين معاً: يُوجب حبّاً مقروناً بتعظيمٍ وإجلالٍ ومهابةٍ، وهذا هو غاية كمال العبد، والله أعلم)[(4)].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٤٢٠ ـ ٤٢١.

(3) تقدم تخريجه.

(4) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٢٩.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته: اسمي الجلالة (الجليل؛ والجميل) مقترنين[1]؛ فقال:

(وهو الجليلُ فكلُّ أوصاف الجلا ... لِ لــه مُحقَّقَــةٌ بــلا بُطــلان
وهو الجميلُ على الحقيقة كيف لا ... وجمــالُ ســائــر هــذه الأكــوانِ
مـن بعـض آثـار الجميـلِ فـربُّهـا ... أَوْلَـى وأَجْـدَرُ عنـد ذي العـرفـانِ
فجمـالُـه بـالـذاتِ والأوصـافِ والـ ... أفعـالِ والأسمـاءِ بـالبـرهـانِ)[2].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الطيِّب).

ذكـر الإمـام ابـن قيِّم الجـوزيـة ــ رحمـه الله تعـالـى ــ اسـم الجـلالـة (الطيِّب) في عدة مواضع من كتبه[3]، مُبيِّناً أنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ هو

---

(١) قال العلامة السعدي في [التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين: ص٤٢]: (جمع المؤلف بين (الجليل والجميل): لأن تمام التعبُّد لله: هو التعبُّد له بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبُّد بـ: (الجليل) يقتضي: تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبُّد باسمه (الجميل) يقتضي: محبَّته والتألُّه له؛ وأن يبذل له خالص المحبَّة وصفو الوداد، بحيث تَسْبَحُ القلوب في رياض معرفته وميادين جماله؛ وتبتهج بما يحصل لها من آثار جماله وكماله، فإن الله ذو الجلال والإكرام).

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٢٣ــ٣٢٢٦) ــ ص٢٤٠].

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الطيِّب) ــ على وجه الخصوص ــ : الصلاة وحكم تاركها ص١٨٣. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : بدائع الفوائد ١٦٣/٢، زاد المعاد في هدي خير العباد ٦٥/١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١٤٥٩/٤، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦؛ ٦٦٦، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٣٣.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى =

(الطيِّبُ) على الإطلاق، وهذا يستلزم أموراً عدة؛ منها:

١ ــ أن تكون الكلماتُ الطيِّباتُ والأفعالُ الطيِّباتُ والصفاتُ الطيِّباتُ والأسماءُ الطيِّباتُ كلُّها له ــ سبحانه ــ ؛ لا يستحقُّها أحدٌ سواه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله: «والطيبات»[1]: هي صفةُ الموصوف المحذوف، أي: الطيبات من الكلمات والأفعال والصفات والأسماء لله وحده، فهو طيِّبٌ، وأفعاله طيِّبةٌ، وصفاته أطيب شيءٍ، وأسماؤه أطيب الأسماء، واسمه (الطيِّبُ)، ولا يصدر عنه إلا طيِّبٌ، ولا يصعد إليه إلا طيِّبٌ، ولا يقرب منه إلا طيِّبٌ، و ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[2]، وفعله طيِّبٌ، والعمل الطيِّبُ يُعرجُ إليه، فالطيِّبات كلُّها له؛ ومضافةٌ إليه؛ وصادرةٌ عنه؛ ومنتهيةٌ إليه، قال النبي ﷺ: «إن الله طيِّبٌ لا يقبل إلا طيباً»[3].

وفي حديث رقية المريض الذي رواه أبو داود وغيره: «أنت ربُّ الطيِّبين»[4].

ولا يجاوره من عبادة إلا الطيِّبون، كما يُقال لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾[5].

= (الطيب) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، ولم يرد اسم الجلالة (الطيب) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد ذكره في أحاديث النبي ﷺ.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب التشهد في الصلاة ــ الحديث رقم (٤٠٢) ــ ١/ ٣٠١ ــ ٣٠٢]، من حديث عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «كنا نقول في الصلاة».

(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «ربنا الله الذي في السماء».

(٥) سورة الزمر: الآية ٧٣.

وقد حكم ــ سبحانه ــ شرعه وقدره: أن الطيِّبات للطيِّبين، فإذا كان هو ــ سبحانه ــ (الطيِّبُ) على الإطلاق: فالكلماتُ الطيِّباتُ والأفعالُ الطيِّباتُ والصفاتُ الطيِّباتُ والأسماءُ الطيِّباتُ كلُّها له ــ سبحانه ــ؛ لا يستحقُّها أحدٌ سواه، بل ما طاب شيءٌ قطُّ إلا بطِيبَتِه ــ سبحانه ــ، فطِيبُ كلِّ ما سواه من آثار طِيبَتِه، ولا تصلح هذه التحيَّةُ الطيِّبةُ إلا له)[1].

٢ ــ أن لا يصعد إليه إلا كلُّ عملٍ صالحٍ وكلمٍ طيِّبٍ؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (جمع العبد في قوله: التحيَّاتُ والصلواتُ والطيِّباتُ: أنواع الثناء على الله، وأخبر أن ذلك له وصفاً وملكاً، وكذلك الصلوات كلُّها لله، فهو الذي يُصلَّى له وحده لا لغيره.

وكذلك الطيِّباتُ كلُّها من الكلمات والأفعال كلِّها له، فكلماته طيِّباتٌ، وأفعاله كذلك، وهو (طَيِّبٌ) لا يصعد إليه إلا طيِّبٌ، والكلمُ الطيِّبُ إليه يصعد، فكانت الطيِّباتُ كلُّها له ومنه وإليه، له ملكاً ووصفاً؛ ومنه مجيئُها وابتداؤها؛ وإليه مصعدها ومنتهاها.

والصلاة مشتملةٌ على عملٍ صالحٍ؛ وكلمٍ طيِّبٍ، والكلمُ الطيِّبُ إليه يصعد؛ ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2]، فناسب ذكر هذا عند انتهاء الصلاة وقت رفعها إلى الله تعالى)[3].

٣ ــ أن لا يختار الله ــ سبحانه وتعالى ــ ولا يختصُّ من المخلوقات إلا أطيبها، كما بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن الله ــ سبحانه وتعالى ــ اختار من كلِّ جنسٍ من أجناس المخلوقات أطيبه؛ واختصَّه

(١) الصلاة وحكم تاركها ص١٨٣.
(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.
(٣) بدائع الفوائد ٢/ ١٦٢ ــ ١٦٣.

لنفسه؛ وارتضاه دون غيره، فإنه تعالى (طيِّبٌ) لا يُحبُّ إلا الطيِّب، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيِّب، فالطيِّبُ من كلِّ شيءٍ: هو مختاره تعالى)[1].

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (النور).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (النور) في عدة مواضع من كتبه[2]، مبيِّناً ورود النصِّ الشرعيِّ المُثبت لاسم الجلالة (النور)؛ فقال: (إنَّ النصَّ قد ورد بتسمية الربِّ: (نوراً)، وبأن له نوراً مضافاً إليه؛ وبأنه نور السماوات والأرض؛ وبأن حجابه نور، فهذه أربع أنواع:

فالأول: يُقال عليه ــ سبحانه ــ بالإطلاق، فإنه: (النور الهادي).

والثاني: يُضاف إليه؛ كما يُضاف إليه حياته وسمعه وبصره وعِزَّته وقدرته وعلمه.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٦٥.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (النور) ــ على وجه الخصوص ــ: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٤٤؛ ٤٥؛ ٦٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣٢٣، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٨؛ ٤٠٥. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٨ ــ ٤٠٩، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٧٣.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (النور) بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (النور) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥].

وتارة يُضاف إلى وجهه؛ وتارة يُضاف إلى ذاته.

فالأول: إضافته كقوله: «أعوذ بنور وجهك»[1]. وقوله: (نور السماوات والأرض من نور وجهه)[2].

والثاني: إضافته إلى ذاته كقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[3]، وقول ابن عباس: (ذلك نوره الذي إذا تجلى به)[4]، وقوله ﷺ في حديث

---

(١) قال ابن كثير في [تفسير القرآن العظيم: ٦/٥٨]: (رواه محمد بن إسحاق في السيرة).
وقد أخرجه من طريقه: ابن هشام في السيرة النبوية [٢/ ٤٤٤ ــ ٤٤٦]، والطبري في تاريخ الأمم والملوك [١/ ٥٥٣ ــ ٥٥٤]، والطبراني في الدعاء [الحديث رقم (١٠٣٦) ــ ٢/ ١٢٨٠]، وابن منده في الرد على الجهمية [ذكر خبر آخر يدل على أن نور الجنان من نور وجه الله عزَّ وجلّ ــ الحديث رقم (٩٠) ــ ص٩٩]، وأوله: «اللَّـهُمَّ إليك أشكو ضعف قوتي».

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على المريسي [باب ما جاء في العرش ــ ١/ ٤٧٥ ــ ٤٧٦]، والطبراني في المعجم الكبير [رقم (٨٨٨٦) ــ ٩/ ١٧٩]، وأبو الشيخ في العظمة [ذكر شأن ربنا تبارك وتعالى وأمره وقضائه ــ رقم (١٤٧) ــ ٢/ ٤٧٧ ــ ٤٧٨]، وابن منده في الرد على الجهمية [ذكر خبر آخر يدل على أن نور الجِنان من نور وجه الله عزَّ وجلّ ــ الحديث رقم (٩٠) ــ ص٩٩]، وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [١/ ١٣٧ ــ ١٣٨]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب ما جاء في إثبات الوجه صفة لا من حيث الصورة لورود خبر الصادق به ــ رقم (٦٧٤) ــ ٢/ ١١١ ــ ١١٢]، عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ وأوله: (إن ربّكم ليس عنده ليلٌ ولا نهارٌ).
قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ١/ ٨٥]: (رواه الطبراني في الكبير، وفيه: أبو عبد السلام، قال أبو حاتم: مجهول، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وعبد الله بن مكرز ــ أبو عبيد الله على الشك ــ : لم أر من ذكره).

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٩.

(٤) تقدم تخريجه.

عبد الله بن عمرو: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره» الحديث[1].

والثالث: وهو إضافة نوره إلى السماوات والأرض، كقوله: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2].

والرابع: كقوله: «حجابه النور»[3].

فهذا النور المضاف إليه يجيء على أحد الوجوه الأربعة، والنور الذي احتجب به سُمِّيَ: نوراً وناراً؛ كما وقع التردُّد في لفظه في الحديث الصحيح ــ حديث أبي موسى الأشعري ــ وهو قوله: «حجابه النور؛ أو النار».

فإن هذه النار: هي نورٌ، وهي التي كلَّم الله كليمه موسى فيها، وهي نارٌ صافيةٌ لها إشراقٌ بلا إحراقٍ.

فالأقسام ثلاثةٌ:

إشراقٌ بلا إحراقٍ؛ كنور القمر.

وإحراقٌ بلا إشراقٍ؛ وهي نار جهنم؛ فإنها سوداءُ محرقةٌ لا تُضيء.

وإشراقٌ بإحراقٍ؛ وهي هذه النار المضيئة؛ وكذلك نور الشمس له الإشراق والإحراق.

فهذا في الأنوار المشهودة المخلوقة.

وحجاب الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ نورٌ؛ وهو نار.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة النور: الآية ٣٥.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام».

وهذه الأنواع كلُّها حقيقةٌ بحسب مراتبها، فنور وجهه حقيقةٌ لا مجاز، وإذا كان نور مخلوقاته كالشمس والقمر والنار حقيقةٌ؛ فكيف يكون نوره الذي نسبة الأنوار المخلوقة إليه أقلَّ من نسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى قرص الشمس؟ فكيف لا يكون هذا النور حقيقة؟)[1].

وقد وقع في مصحف عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2]: (مُنوِّرُ)[3].

وهذا لا يُنافي أن يكون (النور): من أسمائه الحسنى بل يُؤكِّده؛ كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (عن ابن مسعودٍ أنه بمعنى: (مُنوِّر)؛ وأنها في مُصحفه كذلك: فهذا لا يُنافي كونه في نفسه نوراً، وأن يكون (النور): من أسمائه وصفاته؛ بل يُؤكِّد ذلك.

فإن الموجودات النورانية نوعان:

منها: ما هو في نفسه مستنيرٌ؛ ولا يُنير غيرَه؛ كالجمرة مثلاً، فهذا لا يقال له: نورٌ.

ومنها: ما هو مستنيرٌ في نفسه؛ وهو مُنيرٌ لغيره؛ كالشمس والقمر والنار، وليس في الموجودات ما هو مُنورٌ لغيره؛ وهو في نفسه ليس بنورٍ، بل إنارته لغيره فرعُ كونه نوراً في نفسه.

فقراءة ابن مسعود: (منور): تحقيقٌ لمعنى كونه نوراً.

وهذا مثل كونه مُتكلِّماً مُعلِّماً مُرشداً مُقدِّراً لغيره، فإن ذلك فرعُ كونه في نفسه مُتكلِّماً عالماً رشيداً قادراً.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٢.

(٢) سورة النور: الآية ٣٥.

(٣) لم أقف عليها.

وقد صرَّح ابن مسعود بأن نور السماوات والأرض من نور وجهه ـ تبارك وتعالى ـ)[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (النور)؛ وما يستلزمه ويتضمنه من معنى؛ فقال: (الله ـ سبحانه وتعالى ـ سمى نفسه (نوراً)، وجعل كتابه نوراً؛ ورسوله ﷺ نوراً؛ ودينه نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نوراً يتلألأ، قال الله تعالى: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

وقد فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[3] بكونه: مُنوِّر السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فِعْلُه؛ وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائمٌ به، ومنه اشتقَّ له اسم (النور)؛ الذي هو أحد الأسماء الحسنى)[4].

كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ أن اسم الجلالة (النور): مما تلقَّته الأمة بالقبول؛ وأثبتوه في أسمائه الحسنى؛ فقال: (إن (النور) جاء في أسمائه تعالى، وهذا الاسم مما تلقَّته الأمة بالقبول؛ وأثبتوه في أسمائه الحسنى، وهو في حديث أبي هريرة؛ والذي رواه الوليد بن مسلم؛ ومن طريقه رواه

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٥.

(٢) سورة النور: الآية ٣٥.

(٣) سورة النور: الآية ٣٥.

(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة الجهمية ص٤٤ ـ ٤٥.

الترمذي[1] والنسائي[2]. ولم ينكره أحدٌ من السلف؛ ولا أحدٌ من أئمة أهل السنة. ومحالٌ أن يُسمِّي نفسه نوراً؛ وليس له نورٌ؛ ولا صفة النور ثابتة له. كما أن من المستحيل أن يكون عليماً قديراً؛ سميعاً بصيراً؛ ولا علم له ولا قدرة، بل صحة هذه الأسماء عليه مستلزمة لثبوت معانيها له، وانتفاء حقائقها عنه مستلزمٌ لنفيها عنه، والثاني باطل قطعاً؛ فتعيَّن الأول)[3].

ومما يقتضيه اسم الجلالة (النور): تنزيه ذات الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله أن ترجع إليها الظلمات؛ كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (لا ترجع الظلمات إلى (النور الهادي) ـ جلَّ جلاله ـ أصلاً ولا وصفاً؛ ولا ذاتاً ولا اسماً ولا فعلاً، وإنما ترجع إلى مفعولاته، فهو جاعل الظلمات ومفعولاتها متعدِّدة متكثِّرة؛ بخلاف النور فإنه يرجع إلى اسمه وصفته ـ تعالى أن يكون كمثله شيءٌ ـ ، وهو نور السماوات والأرض. قال ابن مسعود: (ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهارٌ، نور السماوات والأرض من نور وجهه) ذكره الدارمي عنه[4]. وفي صحيح مسلم عن أبي ذرٍ: «قلت: يا رسول الله؛ هل رأيت ربك؟ قال: نورٌ؛ أنَّى أراه؟»[5])[6].

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «إن لله تسعة وتسعين اسماً».

(٢) قال المزي في [تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف: الحديث رقم (١٣٧٢٧) ـ ١٠/ ١٧٤] في رواية النسائي: (ولم يذكر الأسماء).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٨.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب في قوله عليه السلام: «نور أنى أراه» ـ الحديث رقم (١٧٨) ـ ١/ ١٦١].

(٦) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣٢٣.

ولاسم الجلالة (النور) أثرٌ في قلوب وألسنة ووجوه عباد الله تعالى المؤمنين؛ كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (لما كان (النور) من أسمائه الحسنى وصفاته: كان دينه نوراً؛ ورسوله نوراً؛ وكلامه نوراً؛ وداره نوراً يتلألأ، والنور يتوقَّد في قلوب عباده المؤمنين؛ ويجري على ألسنتهم؛ ويظهر على وجوههم)[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (النور) في نونيته؛ فقال:

(والنورُ مِنْ أسمائه أيضاً ومِنْ ... أوصافِه سُبْحَان ذي البرهانِ
قال ابنُ مسعودٍ كلاماً قد حَكَا ... ه الدارميُّ عنه بلا نُكْرانِ
ما عنده ليلٌ يكون ولا نَهَا ... رٌ قلتُ تحتَ الفلكِ يُوجَدُ ذانِ
نورُ السماواتِ العُلَى من نورِه ... والأرضِ كيف النجمُ والقمرانِ
من نور وجه الربِّ جلَّ جلاله ... وكذا حكاه الحافظُ الطبراني
فبِهِ استنارَ العرشُ والكرسيُّ مَعْ ... سَبْعِ الطِّباقِ وسائرِ الأكوانِ
وكتابُه نورٌ كذلك شرعُه ... نورٌ كذا المبعوثُ بالفرقانِ
وكذلك الإيمانُ في قلبِ الفتى ... نورٌ على نورٍ مع القرآنِ
وحجابُه نورٌ فلو كشف الحِجا ... بَ لأحرق السُبُحات للأكوانِ
وإذا أتَى للفصلِ يُشْرِقُ نوره ... في الأرض يومَ قيامة الأبدانِ
وكذاك دارُ الربِّ جنَّاتُ العُلَى ... نورٌ تلألأ ليس ذا بُطلانِ)[2].

فهذه بعض الأسماء الحسنى ـ التي هي أخصُّ باسم الجلالة (الربِّ) ـ ،

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٢.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٣٥٠ ـ ٣٣٦٠) ـ ص٢٤٩].

وقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مثاني كتبه؛ ونصَّ على أنها من أسماء الله الحسنى[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) نظير هذه الأسماء الحسنى في معناها ودلالتها على اسم الجلالة (الربِّ): اسم الجلالة (الشافي)، وقد ورد ذكر هذا الاسم في موضعٍ واحدٍ من كتب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ دون النصِّ عليه صراحة، وذلك في قوله في [زاد المعاد في هدي خير العباد: ٤/١٨٨]: (في الصحيحين أن النبي ﷺ: «كان يعوذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى؛ ويقول: اللَّهُمَّ رب الناس؛ أذهب الباس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك؛ شفاء لا يغادر سقماً» [أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الطب/ باب رقية النبي ﷺ ــ الحديث رقم (٥٧٤٣) ــ ٤/١٨٣٤]، ومسلم في صحيحه [كتاب السلام/ باب استحباب رقية المريض ــ الحديث رقم (٢١٩١) ــ ٤/ ١٧٢١ ــ ١٧٢٢] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ]. ففي هذه الرقية: توسلٌ إلى الله بكمال ربوبيته؛ وكمال رحمته بالشفاء، وأنه وحده الشافي، وأنه لا شفاء إلا شفاؤه، فتضمنت التوسل إليه بتوحيده وإحسانه وربوبيته).

المطلب السادس:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى:

الكريم؛ الأكرم؛ الأعلى؛ المتعال؛ العليّ؛ العظيم

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (الكريم؛ والأكرم؛ والأعلى؛ والمتعال؛ والعليِّ؛ والعظيم)، وذكر بعض أدلة ثبوتها، وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، كما تضمن الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران بعضها ببعض، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (الكريم).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الكريم) في عدة مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله:

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الكريم) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ١٥٢، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٩١، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٨١. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص١٩، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٢٥٣، التبيان في أقسام القرآن ص٢٨٦، الصواعق المرسلة =

(إن (الكريم): هو البهيُّ؛ الكثير الخير؛ العظيم النفع، وهو من كلِّ شيءٍ أحسنه وأفضله، والله ـ سبحانه ـ وصف نفسه بالكرم[1]؛ ووصف به كلامه[2]؛ ووصف به عرشه[3]، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره[4])[5].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (الأكرم).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الأكرم) في مواضع من كتبه[6]، حيث بيَّن ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ

= على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٨؛ ٤/ ١٤٩٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٦؛ ٢٣٦؛ ٢٥٣؛ ٥٩٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٤؛ ٤٤٢؛ ٣/ ١٥٦، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٣.

(١) في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما: قوله تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ۝٤٠﴾ [سورة النمل: الآية ٤٠].

(٢) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧﴾ [سورة الواقعة: الآية ٧٧].

(٣) في قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٦].

(٤) في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما: قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [سورة الشعراء: الآية ٧].

(٥) التبيان في أقسام القرآن ص٢٨٦.

(٦) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الأكرم) ـ على وجه الخصوص ـ : مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٤١. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ : طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٨٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٣؛ ٣٣١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٤٢، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٣. =

ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾[1] من الدلالة على اسم الجلالة (الأكرم)؛ فقال: (أعاد الأمر بالقراءة مُخبراً عن نفسه بأنه (الأكرم)، وهو الأفعل من الكرم؛ وهو كثرة الخير، ولا أحد أَوْلى بذلك منه ــ سبحانه ــ ، فإن الخير كلَّه بيديه، والخير كلُّه منه، والنعم كلُّها هو مُوليها، والكمال كلُّه والمجد كلُّه له، فهو (الأكرم) حقًّا)[2].

وقال ــ رحمه الله تعالى ــ : (ذكر من صفاته ها هنا اسم (الأكرم)؛ الذي فيه كلُّ خيرٍ وكلُّ كمالٍ، فله كلُّ كمالٍ وصفاً؛ ومنه كلُّ خيرٍ فعلاً، فهو (الأكرم) في ذاته وأوصافه وأفعاله)[3].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الأعلى).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الأعلى) في مواضع من كتبه[4]، حيث قرَّر ما يقتضيه هذا الاسم؛ فقال:

= وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الأكرم) بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (الأكرم) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [سورة العلق: الآية ٣].

(١) سورة العلق: الآية ٣.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٤٢.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٤١.

(٤) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الأعلى) ــ على وجه الخصوص ــ : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٣٠، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٣١. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣١، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة =

(لما كان الربُّ تعالى هو: (الأعلى)، ووجهه الأعلى، وكلامه الأعلى، وسمعه الأعلى، وبصره وسائر صفاته عليا: كان له المثل الأعلى، وكان أحقَّ به من كلِّ ما سواه)(١).

كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ معنى هذا الاسم؛ والحكمة التي من أجلها أُمِرَ المصلي بتسبيح ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ باسمه (الأعلى) حال سجوده؛ فقال: (أُمِرَ أن يُسَبِّحَ ربَّه (الأعلى)، فيذكر عُلُوَّه ــ سبحانه ــ في حال سفوله هُوَ؛ ويُنزِّهه عن مثل هذه الحال، وأن من هو فوق كلِّ شيءٍ؛ وعالٍ على كلِّ شيءٍ: يُنَزَّه عن السفول بكلِّ معنى، بل هو (الأعلى) بكلِّ معنى من معاني العُلُوِّ)(٢).

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (المتعال).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (المتعال) في مواضع كثيرةٍ من كتبه(٣)، حيث بيَّن ما يدلُّ عليه هذا الاسم من

= الناجية ص٢٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٩٧.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الأعلى) في مواضع من كتبه بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم (الأعلى) في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما: قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [سورة الأعلى: الآية ١].

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٣١.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٣٠ ــ ٦٣١.

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (المتعال) ــ على وجه الخصوص ــ : بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : بدائع الفوائد ٢/ ١٦٠؛ ٤/ ١٣٩، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل =

عُلُوِّ الله تعالى بكلِّ اعتبار؛ فقال: (أهل السنة أثبتوا له العُلُوَّ والعظمة بكلِّ اعتبارٍ، ومثل هذا: وصفه ــ سبحانه ــ بأنه الكبير (المتعالي))[1].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما يدلُّ عليه اسم الجلالة (المتعال) من معنى المُلك؛ فقال: (له من معنى الملك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى؛ كالعزيز الجبار؛ الحكم العدل؛ الخافض الرافع؛ المُعزِّ المُذلِّ؛ العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد؛ الوالي (المتعالي)؛ مالك الملك؛ المقسط الجامع؛ إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك)[2].

المسألة الخامسة:

اسم الجلالة (العليُّ).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (العليِّ) في عدة مواضع من كتبه[3]، حيث قرن هذا الاسم ببعض ما اشتمل عليه من

= ١/ ٣٣٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٧٥، الفوائد ص٢٠٣، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٨٣.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (المتعال) في مواضع من كتبه بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم (المتعال) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾ [سورة الرعد: الآية ٩].

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٧٥.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (العليِّ) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ١٥٢، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٠. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: إغاثة اللهفان في =

المعاني الكريمة؛ فقال: (اسمه (العليُّ)؛ الذي علا عن كلِّ عيبٍ وسوءٍ ونقصٍ، ومن كمال عُلُوِّه: أن لا يكون فوقه شيءٌ؛ بل يكون فوق كلِّ شيءٍ)[1].

وقد بيَّن الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض لوازم اسم الجلالة (العليِّ) التي لا تنفكُّ عنه؛ فقال: (إنَّ مِن لوازم اسم (العليِّ): العُلُوُّ المطلق بكلِّ اعتبارٍ، فله العُلُوُّ المطلق من جميع الوجوه: عُلُوُّ القَدْر؛ وعُلُوُّ القَهْر؛ وعُلُوُّ الذات، فمن جحد عُلُوَّ الذات: فقد جَحَدَ لوازم اسمه (العليِّ))[2].

وقد عيَّن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته اسمي الجلالة (الأعلى؛ والعليَّ)؛ مبيِّناً دلالتهما على عُلُوِّ الله تعالى على خلقه؛ فقال:

(هذا وثانيها صريحُ عُلُوِّهِ ... وله بحُكْمِ صريحهِ لفظانِ
لفظُ العليِّ ولفظة الأعلى مُعَرَّ ... فةً أتتك هنا لقصدِ بيانِ

= حكم طلاق الغضبان ص١٩، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٣، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣، الفوائد ص٢٠٣، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص٢٤؛ [البيت رقم (٥٢٣) ــ ص٦٤]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٩٧، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٠.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (العليِّ) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم (العليُّ) في تسع آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى في خاتمة آية الكرسي: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥].

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٠.

إنَّ العُلُـوَّ لـه بمطلقـهِ علـى التـ ـعميـم والإطـلاق بـالبـرهـانِ
ولـه العُلُـوُّ مـن الـوجـوه جميعهـا ذاتـاً وقهـراً مـع عُلُـوِّ الشـانِ)[1].

المسألة السادسة:

اسم الجلالة (العظيم).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (العظيم) في عدة مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ما يدلُّ عليه هذا الاسم من معنى؛ وما يلزمه من لوازم؛ فقال: (هو (العظيم)، الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه ﷺ: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري؛ والكبرياء ردائي»[3])[4].

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (١١٢٣ ــ ١١٢٦) ــ ص١٠٤].

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (العظيم) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ١٤٤؛ ١٤٥؛ ١٥٢؛ ٢/ ٢١٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٦٦؛ ٢/ ٦٢٧؛ ٦٣٠؛ ٨٣٣، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٧؛ ٣٨؛ ٤٠. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧١، الداء والدواء ص١٣٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣٠؛ ٣٣٦؛ ٢/ ٦٢٧؛ ٨٣٣، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٤، الفوائد ص٣٧؛ ٢٠٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨؛ ٤٠؛ ٣/ ٢٧.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (العظيم) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم (العظيم) في خمس آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى في خاتمة آية الكرسي: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥].

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨.

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إنَّ اسم (العظيم): له لوازم يُنكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها)[(١)].

وقد بيَّن الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ معنى اسم الجلالة (العظيم)؛ فقال: ((العظيم): من اتصف بصفاتٍ كثيرةٍ من صفات الكمال)[(٢)].

وقد ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ حال المصلِّي؛ وهو يتعبَّد لربِّه بتعظيمه حال ركوعه؛ فقال: (ثم يرجع جاثياً له ظهره خضوعاً لعظمته؛ وتذللاً لعِزَّته؛ واستكانة لجبروته، مسبحاً له بذكر اسمه (العظيم).

فنزَّه عظمته عن حال العبد وذُلِّه وخضوعه، وقابل تلك العظمة بهذا الذُلِّ والانحناء والخضوع، قد تطامن وطأطأ رأسه وطوى ظهره، وربُّه فوقه يرى خضوعه وذُلَّه؛ ويسمع كلامه، فهو ركنُ تعظيمٍ وإجلالٍ، كما قال ﷺ: «أما الركوع: فعظِّموا فيه الربَّ»[(٣)])[(٤)].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (العليِّ) باسم الجلالة (العظيم)[(٥)]؛ فقال: (قد شرع الله ـ سبحانه ـ لعباده ذكر هذين الاسمين

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٠.
(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٤٥.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٣٠.
(٥) اقترن اسم الجلالة: (العليُّ) باسم الجلالة: (العظيم) في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما: قوله تعالى في خاتمة آية الكرسي: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥].

(العليّ؛ العظيم) في الركوع والسجود، كما ثبت في الصحيح أنه: (لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾[1] قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم».

فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾[2] قال: «اجعلوها في سجودكم»)[3].

وهو ـ سبحانه ـ كثيراً ما يقرن في وصفه بين هذين الاسمين، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾[4].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾[5].

وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾[6].

يُثْبِتُ بذلك عُلُوَّه على المخلوقات وعظمته، فالعُلُوُّ: رفعتُه، والعظمة: عظمةُ قدره ـ ذاتاً ووصفاً ـ)[7].

---

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٧٤؛٩٦، سورة الحاقة: الآية ٥٢.

(٢) سورة الأعلى: الآية ١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٧٤١٤) ـ ٢٨/ ٦٣٠]، وأبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ـ الحديث رقم (٨٦٩) ـ ١/ ٥٤٢]، وابن ماجه في سننه [كتاب إقامة الصلاة/ باب التسبيح في الركوع والسجود ـ الحديث رقم (٨٨٧) ـ ١/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠] من حديث عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ.
وضعفه الألباني في [إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: الحديث رقم (٣٣٤) ـ ٢/ ٤٠ ـ ٤١].

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٥، سورة الشورى: الآية ٤.

(٥) سورة الحج: الآية ٦٢، سورة لقمان: الآية ٣٠، سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٦) سورة الرعد: الآية ٩.

(٧) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٦٤ ـ ١٣٦٥.

ومن هذه الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة بهذا الاقتران:
قوله ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنه ــ سبحانه ــ فرَّق بين هذين الاسمين الدالَّيْن على عُلُوِّه وعظمته في آخر آية الكرسي[1]، وفي سورة الشورى[2]، وفي سورة الرعد[3]، وفي سورة سبأ في قوله: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾[4].

ففي آية الكرسي: ذَكَرَ الحياة ــ التي هي: أصل جميع الصفات ــ ، وذكر معها قيوميته ــ المقتضية لذاته وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه؛ من النوم والسِّنة والعجز وغيرها ــ ، ثم ذكر كمال ملكه، ثم عقَّبه بذكر وحدانيته في ملكه؛ وأنه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، ثم ذكر سعة علمه وإحاطته، ثم عقَّبه بأنه لا سبيل للخلق إلى علم شيءٍ من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه، ثم ذكر سعة كرسيه؛ منبهاً به على سعته ــ سبحانه ــ وعظمته وعُلُوِّه؛ وذلك توطئة بين يدي ذكر عُلُوِّه وعظمته، ثم أخبر عن كمال اقتداره وحفظه للعالم العلويِّ والسفليِّ من غير اكتراثٍ ولا مشقةٍ ولا تعبٍ، ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالَّيْن على عُلُوِّ ذاته وعظمته في نفسه.

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥].

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ [سورة الشورى: الآية ٤].

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الرعد: الآية ٩].

(٤) سورة سبأ: الآية ٢٣.

وقال في سورة طه: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[1])[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته اسمي الجلالة (العليَّ والعظيم) مقترنين؛ فقال:

(وهـو العَلِـيُّ فكـلُّ أنـواعِ العُلُـ ـوِّ لـه فثـابتـة لـه بـلا نكـرانِ
وهو العظيمُ بكلِّ معنى يُوجب التـ ـعظيـمَ لا يُحْصِيـهِ مِـنْ إنسـانِ)[3].

❏ ❏ ❏

(١) سورة طه: الآية ١١٠.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٧١ ـ ١٣٧٢.

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٢١ ـ ٣٢٢٢) ـ ص٢٤٠].

المطلب السابع:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى:

الواسع؛ العليم؛ العالِم؛ الخبير؛ السميع؛ البصير

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (الواسع؛ والعليم؛ والعالِم؛ والخبير؛ والسميع؛ والبصير)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، مع الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران بعضها ببعض، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (الواسع).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الواسع) في عدة مواضع من كتبه[1]، حيث بيَّن معناه بقوله: (قال تعالى:

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الواسع) ـ على وجه الخصوص ـ: طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٦٥٢؛ ٦٦٨، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٣؛ ٣٩٤. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: التبيان في أقسام القرآن ص١٢٦، زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٤٢؛ ٦٨٧، الصواعق =

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾[1]؛ إلى قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾[2].

فهذا السياق لا تعرُّض فيه للقبلة؛ ولا سِيقَ الكلامُ لأجلها، وإنما سِيقَ لذكر عظمة الربِّ؛ وبيان سعة علمه وملكه وحلمه، و (الواسع): من أسمائه)[3].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الواسع) في نونيته؛ فقال:

(من ذاك يسألُني فأغفر ذنبه فأنا الودودُ الواسعُ الغفرانِ)[4].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (العليم).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (العليم) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[5]، حيث قرَّر أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ اختار من

= المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٢، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٣١.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (الواسع) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الواسع) في تسع آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥].

(١) سورة البقرة: الآية ١١٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١١٧.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٤.

(٤) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (١٢٠١) ـ ص١١٠].

(٥) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (العليم) ـ على وجه الخصوص ـ: إغاثة =

. . . .

= اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ١٥٧، بدائع الفوائد ١/ ٢٢؛ ١٤٩؛ ١٥٢؛ ١٧٠؛ ١٧٣؛ ٢/ ٢١٢، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٠؛ ٢٨٢؛ ٤٤٧، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٩٦؛ ٢٦١؛ ٢٨٦؛ ٣٢٣؛ ٤٥٦؛ ٥٧٩؛ ٧٢٠، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٠٣؛ ٥٩٥؛ ٦٥٢؛ ٦٦٨، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٣؛ ٣٩٨، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٨١؛ ٤٢٠؛ ٤٢١؛ ٤٢٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٣؛ ٢/ ٦٩؛ ٣/ ٣٥٠. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : أحكام أهل الذمة ١/ ١٩٣، إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٤٢، إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص١٩، بدائع الفوائد ١/ ٢٣؛ ٦٩؛ ١٤٤؛ ١٤٨؛ ٢/ ٢١١، التبيان في أقسام القرآن ص٤١٩، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٣١، الداء والدواء ص١٠٨؛ ٢١٢، زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٧؛ ٤/ ٢٠٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٦١؛ ٢٨٦؛ ٤٥٦؛ ٥٧٩، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٧٤؛ ٣/ ١٠١٨؛ ٤/ ١٣٣٨؛ ١٥٥٢؛ ١٥٥٧؛ ١٥٦٧؛ ١٥٧٤، ومختصره ١/ ٢٤٩؛ ٢/ ٣٤٤؛ ٣٤٦، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٧٧؛ ٢٣٦؛ ٢٥٦؛ ٦١٤؛ ٧٣٠، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٠٧٨) ــ ص٢٣٠]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٤٠؛ ٢٣٤؛ ٢٤٣؛ ٤٤٧؛ ٤٥٢؛ ٣/ ٤٨٦؛ ٤٨٨، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٢٣؛ ١٢٤؛ ٢٢٦؛ ٣٠٠؛ ٣٠٧؛ ٤٣٥؛ ٥٣٥؛ ٥٥١؛ ٢/ ٣١٤؛ ٤٨٥؛ ٥١٣.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (العليم) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (العليم) في مائة وأربع وخمسين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى

معنى العلم أشرف الأسماء وأكملها؛ وهو اسم الجلالة (العليم)؛ فقال: (اختار ــ سبحانه ــ لنفسه اسم العلم؛ وما تصرَّف منه، فوصف نفسه بأنه: عالمٌ وعليمٌ وعلامٌ؛ وعَلِمَ ويَعْلَم، وأخبر أن له علماً[1]؛ دون لفظ المعرفة في القرآن.

ومعلومٌ أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه: أكملُ نوعه؛ المشاركُ له في معناه)[2].

واسم الجلالة (العليم) يقتضي محبة الله تعالى للعلم والعلماء؛ كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن الله ــ سبحانه ــ (عليمٌ)؛ يُحِبُّ كلَّ عليمٍ، وإنما يضع علمه عند من يُحبُّه، فمن أحبَّ العلم وأهله: فقد أحبَّ ما أحبَّ الله، وذلك مما يُدان به)[3].

وعِلْمُ الخالق العليم ــ سبحانه وتعالى ــ مباينٌ لعلم المخلوق العليم من كلِّ وجهٍ، كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: ((العليم): الذي سَلِمَ علمُه أن يعزب عنه مثقال ذرة؛ أو يغيب عنه معلومٌ من المعلومات)[4].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة

= ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩].

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: البيت رقم (٢٧٤٧) ــ ص٢١٠]:
(قـالـوا عليـمٌ وهـو ذو علـمٍ ويعـ ـلـمُ غـايــة الإســرارِ والإعــلانِ).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياكَ نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٥٠.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤٣٥.

(٤) أحكام أهل الذمة ١/ ١٩٣.

(العليم) في نونيته؛ فقال:

(وهو العليمُ أحاط علماً بالذي | في الكون من سرٍّ ومن إعلانِ
وبكلِّ شيءٍ علمُه سبحانه | فهو المحيطُ وليس ذا نسيانِ
وكذاك يعلمُ ما يكون غداً وما | قد كان والموجود في ذا الآنِ
وكذاك أمرٌ لم يكن لو كان كيـ | ـفَ يكونُ ذاك الأمر ذا إمكانِ[1])[2].

وقد قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الواسع) باسم الجلالة (العليم)[3]؛ مبيناً دلالة هذا الاقتران على كمال السعة والإحاطة؛ فقال: (قوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[4]. والآية صريحةٌ في أنه أينما ولَّى العبدُ فثمَّ وجه الله؛ من حَضَرٍ أو سَفَرٍ؛ في صلاةٍ أو غير صلاةٍ.

وذلك أن الآية لا تعرُّض فيها للقبلة ولا لحكم الاستقبال، بل سياقها لمعنى آخر؛ وهو: بيان عظمة الربِّ تعالى وسعته؛ وأنه أكبر من كلِّ شيءٍ وأعظم منه، وأنه محيطٌ بالعالم العلويِّ والسفليِّ، فذكر في أول الآية: إحاطة ملكه في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾[5]. فنبَّهنا بذلك على ملكه لما

---

(١) انظر نظير هذه الأبيات ـ وزناً ومبنىً ومعنىً ـ: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٥٢٦ ـ ٥٢٩) ـ ص٦٤].

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٣٤ ـ ٣٢٣٧) ـ ص٢٤١].

(٣) اقترن اسم الجلالة: (الواسع) باسم الجلالة: (العليم) في سبع آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥].

(٤) سورة البقرة: الآيتان ١٤٤؛ ١٥٠.

(٥) سورة البقرة: الآية ١١٥.

بينهما، ثم ذكر عظمته ـ سبحانه ـ ؛ وأنه أكبر وأعظم من كلِّ شيءٍ، فأينما ولَّى العبد وجهه فثمَّ وجه الله.

ثم ختم باسمين دالين على السعة والإحاطة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[1]. فذكر اسم (الواسع) عقيب قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[2]. كالتفسير والبيان والتقرير له، فتأمله)[3].

وفي سياق مُلْكِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمشرق والمغرب: قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن له المشرق والمغرب، وأينما يُوَلِّي عباده وجوههم فثمَّ وجهه، وهو: (الواسع العليم)، فلعظمته وسعته وإحاطته أينما يُوجِّه العبد: فثمَّ وجه الله)[4].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (العالِم).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (العالِم) في مواضع كثيرة من كتبه[5]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله: ((العالم)

(١) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٣.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٧.

(٥) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (العالِم) ـ على وجه الخصوص ـ : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٥٠.
وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ : إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦٢، الداء والدواء ص٢١٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٠٣؛ ٦٢٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٥؛ ٤/ ١٣٦٢، =

بكلِّ شيءٍ، الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقةٌ إلا بعلمه؛ ولا تتحرك ذرةٌ إلا بإذنه، يعلم دبيب الخواطر في القلوب حيث لا يطَّلِع عليها المَلَكُ، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يَطَّلِع عليه القلب)(١).

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ أن اسم الجلالة (العالِم) من أسماء الله الحسنى التي لا ينقسم معناها إلى محمودٍ ومذمومٍ، بل هو محمودٌ من كلِّ وجهٍ؛ وحسنٌ بكلِّ اعتبارٍ، فقال: (ما انقسم مسماه إلى مدح وذمٍّ: لم يجيء اسمه المطلق في الأسماء الحسنى، كالفاعل والعامل والصانع والمريد والمتكلم؛ لانقسام معاني هذه الأسماء إلى محمودٍ ومذمومٍ، بخلاف العالم والقادر والحيِّ والسميع والبصير)(٢).

= ومختصره ٢/ ٣٢٨؛ ٤٠٥، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٤، الفوائد ص٣٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٨٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣٠٠؛ ٢/ ٢٤٢، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٣، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٣.
ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (العالِم) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه.
وقد ورد اسم الجلالة (العالِم) بصيغة الجمع في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما: قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٥١].
كما ورد اسم الجلالة (العالِم) بصيغة الإفراد وصيغة الإضافة في ثلاث عشرة آية من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٧٣ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٣].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٤.
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٥.

ومن آثار اسم الجلالة (العالِم): محبة الله تعالى للعلماء من عباده، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (أحبُّ الخلق إليه: من اتَّصف بمقتضيات صفاته، فإنه كريمٌ يُحِبُّ الكريم من عباده، وعالِمٌ يُحِبُّ العلماء)[1].

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (الخبير).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الخبير) في عدة مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله: ((الخبير): الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها؛ كما أحاط بظواهرها)[3].

كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ نكتة لطيفة في ارتباط اسم الجلالة

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٣.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الخبير) ــ على وجه الخصوص ــ : بدائع الفوائد ١/ ٧٤؛ ١٥٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٩٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٠٤. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : التبيان في أقسام القرآن ص١١٣، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٥.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الخبير) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الخبير) في أربع وأربعين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٤].

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٩٢.

(الخبير) بيوم القيامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[1]؛ فقال: (قيَّد ـ سبحانه ـ كونه خبيراً بهم ذلك اليوم ـ وهو خبير بهم في كلِّ وقتٍ ـ: إيذاناً بالجزاء؛ وأنه يُجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم؛ والمراد لازمه، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم)[2].

المسألة الخامسة:

اسم الجلالة (السميع).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (السميع) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[3]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله:

---

(١) سورة العاديات: الآية ١١.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص١١٣.

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (السميع) ـ على وجه الخصوص ـ: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/١٥٦؛ ١٥٧، بدائع الفوائد ١/٢٢؛ ١٤٥؛ ١٤٧؛ ١٤٩؛ ١٥١؛ ١٥٢؛ ١٧٠؛ ٢/٢١٢، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٩، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٠؛ ٤٤٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٣٩٥، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٣٤٣؛ ٣٩٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٣٨؛ ٣٩؛ ٢٣٠؛ ٤٥١؛ ٢/٦٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/٢٦١. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص١٩، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/٣، بدائع الفوائد ١/٢٣؛ ١٤٤؛ ١٥٤، رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٣٩، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٤٥٦؛ ٥٧٩، الصلاة وحكم تاركها ص١٧٤، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/٩٣٨؛ ١٠١٨؛ ١٠٢٠؛ =

((السميع) الذي قد استوى في سمعه سرُّ القول وجهره، وَسِعَ سمعه الأصوات؛ فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه، ولا يشغله منها سمعٌ عن سمعٍ، ولا تُغلطه المسائل، ولا يُبرمه كثرة السائلين.

قالت عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المُجادِلة تشكو إلى رسول الله؛ وإني ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله ـ عزَّ وجلّ ـ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾[1]»[2])[3].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (السميع) في نونيته؛ فقال:

(والحمد لله السميع لسائر الـ أصواتِ من سرٍّ ومن إعلانِ)[4].

= ١٠٢٩؛ ٤/ ١٣٣٤، ومختصره ١/ ٢٤٩؛ ٢/ ٣٤٤، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٢؛ ٢٣٤؛ ٦١٤، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٤٠؛ ٢٣٤؛ ٣/ ٣٧١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٢٣؛ ١٢٤؛ ٢٩٥؛ ٢/ ٥٠٤، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٣.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (السميع) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (السميع) في خمس وأربعين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٧].

(١) سورة المجادلة: الآية ١.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٤.

(٤) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٤٩٨٣) ـ ص٣٥٢].

وقد قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (السميع) باسم الجلالة (العليم)[1]؛ مبيناً دلالة هذا الاقتران على قوة السمع وإحاطة العلم المستوجب لسماع الله تعالى لكلام عباده؛ وعلمه بحالهم؛ فقال: (قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[2].

فختم حكم الفيء ــ الذي هو الرجوع؛ والعود إلى رضى الزوجة، والإحسان إليها ــ بأنه: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾[3]، يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه، والجزاء من جنس العمل، فكما رجع إلى التي هي أحسن: رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة، ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[4]. فإن الطلاق لما كان لفظاً يُسمع ومعنى يُقصد: عَقَّبه باسم (السميع) للنطق به، (العليم) بمضمونه)[5].

وقد نوَّه ــ رحمه الله تعالى ــ بشيءٍ من أسرار هذا الاقتران؛ مبيناً حكمة مجيء اسمي الجلالة (السميع؛ والعليم) تارة مُنكَّرين؛ وتارة مجيئهما مُعرَّفين؛ فقال: (قوله في سورة (الأعراف): ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[6]. فأمره بدفع شرِّ الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره

---

(١) اقترن اسم الجلالة: (السميع) باسم الجلالة: (العليم) في اثنتين وثلاثين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٧].

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٢٢٦ ــ ٢٢٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٧.

(٥) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٨٠.

(٦) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

بدفع شرِّ الشيطان بالاستعاذة منه؛ فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ ﴾[1].

ونظير ذلك: قوله في سورة (فصلت): ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ ﴾[2]. فهذا لدفع شرِّ شياطين الإنس، ثم قال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦ ﴾[3].

فأكد بـ: إن؛ وبضمير الفصل، وأتى باللام في: ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦ ﴾[4]. وقال في (الأعراف): ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ ﴾[5].

وسرُّ ذلك ـ والله أعلم ـ: أنه حيث اقتصر على مجرَّد الاسم ولم يُؤكِّده: أُريد إثبات مجرَّد الوصف الكافي في الاستعاذة؛ والإخبار بأنه ـ سبحانه ـ يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيُجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعيذ؛ والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة، وهذا المعنى شاملٌ للموضعين، وامتاز المذكور في سورة (فصلت) بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره ـ سبحانه ـ على الذين شكُّوا في سمعه لقولهم؛ وعلمه بهم، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفرٍ: قرشيان وثقفيٌّ؛ أو ثقفيان وقرشيٌّ، كثير شحم بطونهم؛ قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠٠.

(٢) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٣) سورة فصلت: الآية ٣٦.

(٤) سورة فصلت: الآية ٣٦.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠٠.

ولا يسمع إن أخفينا. فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كلَّه. فأنزل الله ــ عزَّ وجلّ ــ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1]»[2].

فجاء التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾[3]؛ في سياق هذا الإنكار: أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم؛ لا كما يظنُّ به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا؛ وأنه لا يعلم كثيراً مما يعملون.

وحسَّن ذلك أيضاً: أن المأمور به في سورة (فصلت): دَفْعُ إساءتهم إليه بإحسانه إليهم؛ وذلك أشقُّ على النفوس من مجرَّد الإعراض عنهم، ولهذا عقَّبه بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[4]، فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضاً: فإن السياق ههنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربوبيته وشواهد توحيده، ولهذا عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾[5]. وبقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾[6]. فأتى بأداة

---

(١) سورة فصلت: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التفسير/ باب قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ ــ الحديث رقم (٤٨١٧) ــ ٣/ ١٥٢٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ــ الحديث رقم (٢٧٧٥) ــ ٤/ ٢١٤١].

(٣) سورة فصلت: الآية ٣٦.

(٤) سورة فصلت: الآية ٣٥.

(٥) سورة فصلت: الآية ٣٧.

(٦) سورة فصلت: الآية ٣٩.

التعريف الدالَّة على أن من أسمائه: السميع العليم، كما جاءت الأسماء الحسنى كلُّها معرفة، والذي في (الأعراف) في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين، ووعد المستعيذ بأن له ربًّا يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعينٌ يُبصرون بها ولا آذانٌ يسمعون بها، فإنه سميعٌ عليمٌ؛ وآلهتهم لا تسمع ولا تُبصر ولا تعلم، فكيف تُسوُّونها به في العبادة؟

فعلمتَ أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه)[1].

المسألة السادسة:

اسم الجلالة (البصير).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (البصير) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[2]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله:

---

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ١٥٥ ــ ١٥٧.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (البصير) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ٢٢؛ ١٤٥؛ ١٤٧؛ ١٤٩؛ ١٥١؛ ١٥٢؛ ١٥٦؛ ٢/ ٢١٢، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٩، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٥، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٣؛ ٣٩٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٦؛ ٥٩٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٧؛ ٣٨؛ ٢٣٠؛ ٤٥١؛ ٢/ ٦٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٦١. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣، بدائع الفوائد ١/ ٢٣؛ ١٥٤، رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٣٩، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٤٥٦؛ =

(البصير: الذي ليس كمثله شيءٌ في بصره)[1].

ومن الدلائل التي تنفي مماثلة بصر الربِّ البصير ـ سبحانه وتعالى ـ لبصر المربوب البصير: ما ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: ((البصير) الذي لكمال بصره: يرى تفاصيل خلق الذرَّة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومُخِّها وعروقها، ويرى دبيبها على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، ويرى ما تحت الأرضين السبع كما يرى ما فوق السماوات السبع)[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (البصير) في نونيته؛ فقال:

(وكذا بصيرٌ وهو ذو بصرٍ ويُبْـ ـصرُ كلَّ مرئيٍّ وذي الأكوانِ)[3].

= ٥٧٩، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٥؛ ٩٣٨؛ ١٠١٨؛ ١٠٢٠؛ ١٠٢٩؛ ٤/ ١٣٣٤؛ ١٣٣٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٦؛ ٥٩٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٤٠؛ ٢٣٤؛ ٣/ ٣٧١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٢٣؛ ٥٠٤، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٣.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (البصير) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (البصير) في اثنتين وأربعين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٩٦].

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣٨.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٤.

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٢٧٤٨) ـ ص٢١٠].

وقد قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (السميع) باسم الجلالة (البصير)[1]؛ والأسباب التي لأجلها جاء اسم الجلالة (السميع) مُقدَّماً على اسم الجلالة (البصير)؛ فقال: (تقديم السمع على البصر له سببان:

أحدهما: أن يكون السياق يقتضيه؛ بحيث يكون ذكرها بين الصفتين متضمناً للتهديد والوعيد؛ كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة، كقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾[2].

وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾[3].

والقرآن الكريم مملوءٌ من هذا.

وعلى هذا فيكون في ضمن ذلك: أني أَسْمَعُ ما يردُّون به عليكَ وما يقابلون به رسالاتي؛ وأُبْصِرُ ما يفعلون.

ولا ريب أن المخاطبَين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان:

أحدهما: قابلوها بقولهم صدقتَ؛ ثم عملوا بموجبها.

والثاني: قابلوها بالتكذيب؛ ثم عملوا بخلافها.

---

(١) اقترن اسم الجلالة: (السميع) باسم الجلالة: (البصير) في عشر آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [سورة الإسراء: الآية ١].

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٩.

(٣) سورة النساء: الآية ١٣٤.

فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر؛ فقدَّم ما يتعلَّق به على ما يتعلَّق بالمبصر، وتأمَّل هذا المعنى في قوله تعالى لموسى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[1].

هو يسمع ما يُجيبهم به؛ ويرى ما يصنعه[2]، وهذا لا يعمُّ سائر المواضع؛ بل يختصُّ منها بما هذا شأنه.

والسبب الثاني: أن إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام مع غاية البعد بين السامع والمسموع أشدُّ من إنكارها لرؤيته مع بعده.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفرٍ؛ ثقفيان وقرشيٌّ، أو قرشيان وثقفيٌّ، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا؛ ولا يسمع إن أخفينا. فقال الثالث: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا» رواه البخاري ومسلم والترمذي[3].

---

(١) سورة طه: الآية ٤٦.

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٣٢٢٩ ـ ٣٢٣٣) ـ ص٢٤٠ ـ ٢٤١]:

(وهو السميعُ يرى ويسمع كلَّ ما ... في الكونِ من سرٍّ ومن إعلانِ
ولكلِّ صوتٍ منه سمعٌ حاضرٌ ... فالسرُّ والإعلانُ مستويانِ
والسمعُ منه واسعُ الأصواتِ لا ... يَخفَى بعيدُها والداني
وهو البصيرُ يَرى دبيبَ النملةِ الـ ... ـسوداءِ تحت الصخرِ والصُوَّانِ
ويرى مجاري القوتِ في أعضائِها ... ويرى عروقَ بياضِها بعيانِ
ويرى خياناتِ العيونِ بِلَحْظِها ... ويرى كذاكَ تَقَلُّب الأجفانِ).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب تفسير القرآن/ باب ومن سورة حم السجدة ـ الحديث رقم (٣٢٤٨ ـ ٣٢٤٩) ـ ٥/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤]، وتقدم تخريجه عند البخاري ومسلم.

ولم يقولوا: أترون الله يرانا، فكان تقديم السمع أهمَّ؛ والحاجة إلى العلم به أمسُّ.

وسبب ثالث: وهو أن حركة اللسان بالكلام أعظم حركات الجوارح وأشدُّها تأثيراً في الخير والشر؛ والصلاح والفساد، بل عامَّة ما يترتَّب في الوجود من الأفعال إنما ينشأ بعد حركة اللسان، فكأن تقديم الصفة المتعلِّقة به أهم وأولى، وبهذا يُعلم تقديمه على العليم حيث وقع)[1].

❑ ❑ ❑

(١) بدائع الفوائد ١/٦٨ ـ ٦٩.

المطلب الثامن:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: المُؤمن؛ الشهيد؛ الرّقيب؛ الحفيظ؛ الحسيب

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (المُؤمن؛ والشهيد؛ والرقيب؛ والحفيظ؛ والحسيب)، وذكر بعض أدلة ثبوتها، وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (المُؤمن).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (المؤمن) في مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله:

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (المؤمن) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ٢/ ١٢٣، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٩٦؛ ٣٢٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٧٨؛ ٣/ ٤٨٥. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٣٩. =

(من أسمائه تعالى: (المؤمن)، وهو في أحد التفسيرين: المُصدِّقُ[١]، الذي يُصدِّق الصادقين بما يُقيم لهم من شواهد صدقهم.

فهو الذي صدَّق رسله وأنبياءه فيما بلَّغوا عنه؛ وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دلَّ بها على صدقهم ـ قضاءً وخلقاً ـ، فإنه ـ سبحانه ـ أخبر ـ وخبره الصدق؛ وقوله الحقُّ ـ: أنه لا بُدَّ أن يُري العبادَ من الآيات الأفقيَّة والنفسيَّة ما يُبيِّن لهم أن الوحي الذي بلَّغته رسله حقٌّ، فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[٢]، أي: القرآن، فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾[٣].

ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾[٤]. فشهد ـ سبحانه ـ لرسوله بقوله أن ما جاء به حقٌّ، ووعده أن يُري العبادَ من آياته الفعليَّة الخلقيَّة ما يشهد بذلك أيضاً، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجلُّ؛ وهو شهادته ـ سبحانه ـ على كلِّ شيءٍ)[٥].

= ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (المؤمن) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (المؤمن) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣].

(١) وهو في التفسير الآخر: المُؤمِّن، كما قال الطبري في [جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٨/ ٥٤]: (الذي يُؤمِّن خلقه من ظلمه).

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٣) سورة فصلت: الآية ٥٢.

(٤) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦.

وكما أنَّ اسم الجلالة (المُؤمن) ــ كما تقدم في أحد التفسيرين ــ يدلُّ على أن الربَّ تعالى: هو المُصَدِّقُ؛ الذي يُصدِّق عباده الصادقين في صدقهم: فهو يدلُّ في التفسير الآخر على أن الربَّ تعالى: هو المُؤَمِّنُ؛ الذي يُؤَمِّن عباده المؤمنين من خوفهم، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن التائب الصادق في توبته إذا تاب إليه: وجده غفوراً رحيماً، والمتوكِّل إذا صدق في التوكُّل عليه: وجده حسيباً كافياً، والداعي إذا صدق في الرغبة إليه: وجده قريباً مجيباً، والمُحبُّ إذا صدق في محبته: وجده ودوداً حبيباً، والملهوف إذا صدق في الاستغاثة به: وجده كاشفاً للكرب؛ مُخلِّصاً منه، والمضطرُّ إذا صدق في الاضطرار إليه: وجده رحيماً مغيثاً، والخائف إذا صدق في اللجأ إليه: وجده مُؤمِّناً من الخوف)[1].

واسم الجلالة (المؤمن) يقتضي أن لا يشرح الله تعالى بالإيمان إلا صدر أحبَّ خلقه إليه، وقد بيَّن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (لما كان الإيمان صفته؛ واسمه (المؤمن): لم يُعطه إلا أحبَّ خلقه إليه)[2].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (الشهيد).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الشهيد) في مواضع من كتبه[3]، حيث قرَّر الدليل المُثبت لهذا الاسم وما

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٣٩.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٢.

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الشهيد) ــ على وجه الخصوص ــ: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٨٦. وانظر في ذكره ــ على =

يدلُّ عليه من معنى؛ فقال: (قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾[1].

فشهد ــ سبحانه ــ لرسوله بقوله أن ما جاء به حقٌّ، وَوَعَدَهُ أن يُري العبادَ من آياته الفعليَّة الخلقيَّة ما يشهد بذلك أيضاً، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجلُّ؛ وهو: شهادته ــ سبحانه ــ على كلِّ شيءٍ، فإن من أسمائه: (الشهيد)؛ الذي لا يغيب عنه شيءٌ؛ ولا يعزب عنه ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[2]؛ بل هو مطلِّعٌ على كلِّ شيءٍ؛ مشاهدٌ له؛ عليمٌ بتفاصيله)[3].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الرَّقيب).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الرَّقيب) في مواضع من كتبه[4]، حيث قرَّر هذا الاسم بقوله: (من منازل:

= وجه العموم ــ: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨١٨، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩١.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الشهيد) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الشهيد) في تسع عشرة آية من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٨].

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة يونس: الآية ٦١.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٨٦.

(٤) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الرقيب) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ٣/ ١٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٦٩. =

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾[1]: منزلة المراقبة، قال الله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۝ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝ ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[6]. وقال تعالى:

= وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل١/ ٤٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٤٠؛ ٢/ ٦٨؛ ١٩٢؛ ٣/ ٣٩٧.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (الرقيب) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الرقيب) في ثلاث آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ [سورة النساء: الآية ١].

وأما معناه: فقال السعدي في [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ص٩٤٧]: (الرقيب: المُطَّلع على ما أكنَّته الصدور، القائم على كلِّ نفسٍ بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات؛ وأجراها على أحسن نظامٍ وأكمل تدبيرٍ).

ومعنى اسم الجلالة (الرقيب) مرادفٌ لمعنى اسم الجلالة (الشهيد)، كما قال العلامة السعدي في [التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين: ص٩١]: ((الرقيب والشهيد): مترادفان، وكلاهما يدلُّ على إحاطة سمع الله بجميع المسموعات؛ وبصره بجميع المبصرات؛ وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية).

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٥.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٢.
(٤) سورة الحديد: الآية ٤.
(٥) سورة العلق: الآية ١٤.
(٦) سورة الطور: الآية ٤٨.

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[1]. إلى غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل ـ عليه السلام ـ أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال له: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

المراقبة: دوام علم العبد وتيقُّنه باطلاع الحقِّ ـ سبحانه وتعالى ـ على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي المراقبة؛ وهي ثمرة علمه بأن الله ـ سبحانه ـ رقيبٌ عليه؛ ناظرٌ إليه؛ سامعٌ لقوله؛ وهو مطلعٌ على عمله كلَّ وقتٍ وكلَّ لحظةٍ وكلَّ نفسٍ وكلَّ طرفةِ عينٍ)[3].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (والمراقبة: هي التعبُّد باسمه: (الرقيب)؛ الحفيظ؛ العليم؛ السميع؛ البصير، فمن عقل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها: حصلت له المراقبة، والله أعلم)[4].

وقد ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الرقيب) في نونيته؛ فقال:

(وهو الرقيب على الخواطر واللوا　　　حظ كيف بالأفعال بالأركانِ)[5].

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (الحفيظ).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الحفيظ) في مواضع من كتبه[6]، حيث قرَّر اسم الجلالة (الحفيظ) بقوله:

---

(١) سورة غافر: الآية ١٩.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته».

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٦٩.

(٥) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٢٨٤) ـ ص٢٤٤].

(٦) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الحفيظ) ـ على وجه الخصوص ـ : مدارج =

(المـراقبـة: هـي التعبُّد بـاسمـه: الـرقيـب؛ (الحفيـظ)؛ العليـم؛ السميـع؛ البصير، فمن عقل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها: حصلت له المراقبة، والله أعلم)[1].

والربُّ الحفيظ ــ سبحانه وتعالى ــ يحفظ على عباده ويُحصي عليهم كلَّ شيءٍ عملوه، وهو شهيدٌ عليهم بكلِّ أمرٍ فعلوه، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (هو أقرب شهيدٍ؛ وأدنى (حفيظٍ)؛ وأعظم رقيبٍ؛ وأرأف رحيم، حال دون النفوس؛ وأخذ بالنواصي؛ وكتب الآثار؛ ونسخ الآجال، فأزمَّة الأمور بيديه؛ ومرجعها كلُّها إليه، فالقلوب له مفضيةٌ؛ والسـرُّ عنـده عـلانيـةٌ، والمستـور لـديـه مكشـوفٌ؛ وكـلُّ أحـدٍ إليـه فقيـرٌ ملهوفٌ)[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة

= السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٦٩. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل١/ ٤٢، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩١.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الحفيظ) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الحفيظ) في ثلاث آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ [سورة هود: الآية ٥٧].

وأما معناه: فقال السعدي في [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ص٩٤٧]: (الحفيظ: الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أولياءه من وقوعهم في الذنوب والهلكات؛ ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها).

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٦٩.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل١/ ٤٢.

(الحفيظ) في نونيته؛ فقال:

(وهـو الحفيـظ عليهـم وهـو الكفيـ ـل بحفظهم من كلِّ أمرٍ عانِ)[1].

المسألة الخامسة:

اسم الجلالة (الحسيب).

ذكـر الإمـام ابـن قيِّـم الجـوزيـة ــ رحمـه الله تعـالـى ــ اسـم الجـلالـة (الحسيب) في مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم في سياق ما لله المَلِك ــ سبحانه وتعالى ــ من معنى المُلْك؛ فقال: (له من معنى الملك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى، كـ: العزيز الجبار؛ الحكم العدل؛ الخافض الرافع؛ المعز المذل؛ العظيم الجليل الكبير (الحسيب) المجيد؛ الوالي المتعالي؛ مالك الملك؛ المقسط الجامع؛ إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك)[3].

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيتان رقم (٣٢٨٥) ــ ص٢٤٤].

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الحسيب) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢؛ ٣/ ١٨. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٩٢؛ ٣/ ٣٣٩؛ ٣٩٩.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الحسيب) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الحسيب) في خمس آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [سورة النساء: الآية ٦].

وأما معناه: فقال السعدي في [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ص٩٤٧]: (الحسيب: هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها).

(٣) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الحسيب) في نونيته؛ فقال:

(وهـو الحسيـب كفـايـة وحمـايـة والحسب كافي العبـد كلَّ أوانِ)[1].

فهذه بعض أسماء الجلال والجمال والكمال ــ التي هي أخصُّ باسم (الربِّ) تبارك وتعالى[2] ــ، وقد ذكرها الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٣١٧) ــ ص٢٤٧].

(٢) نظير هذه الأسماء الحسنى في معناها ودلالتها على اسم الجلالة (الربِّ): أسماء الجلالة: (الحافظ؛ والديَّان؛ والكافي؛ والكفيل؛ والمحيط؛ والمُهيمن)، وقد ورد ذكر اسم الجلالة (الحافظ) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٧١]: (تأمَّل المُمسك للسماوات والأرض؛ (الحافظ) لهما أن تزولا أو تقعا؛ أو يتعطَّل بعض ما فيها، أفترى من المُمسك لذلك؟ ومن القيِّم بأمره؟ ومن المُقيم له؟).

وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (الديَّان) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [الداء والدواء ص١٢٨] في سياق ذكر الأسماء التي تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف؛ وتكسوه أسماء الذمِّ والصَّغار: (فهذه أسماء الفسوق ــ و ﴿ بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١١] ــ الذي يُوجب غضب (الديَّان)؛ ودخول النيران؛ وعيش الخزي والهوان).

وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (الكافي) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [الداء والدواء ص٢١٢] في مقام ما يجب على العبد أن يعتقده في أسماء الله تعالى وصفاته؛ مما هو أحقُّ به وأهله: (إنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنه غني عن كلِّ ما سواه؛ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، وأنه قائمٌ بالقسط على خلقه، وأنه المتفرِّد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره، والعالِم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافيةٌ من خلقه، و (الكافي) لهم وحده فلا يحتاج إلى مُعينٍ، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه). =

تعالى ــ في مثاني كتبه؛ ونصَّ على أنها من أسماء الله الحسنى.



= وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (الكفيل) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [الفوائد ص٣٧] في مقام ما يشهده القلب من خطاب الله تعالى لعباده المؤمنين في كتابه المبين: (يشهد من خطابه: عتابه لأحبابه ألطف عتابٍ، وأنه مع ذلك مقيلُ عثراتِهم؛ وغافرُ زلاتِهم؛ ومقيمُ أعذارِهم؛ ومصلحُ فسادِهم، والدافع عنهم والمحامي عنهم والناصر لهم، و (الكفيل) بمصالحهم، والمُنجِّي لهم من كلِّ كربٍ، والمُوفي لهم بوعده، وأنه وليُّهم الذي لا وليَّ لهم سواه، فهو مولاهم الحقُّ؛ ونصيرهم على عدوهم، ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨]).

وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (المحيط) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٥ ــ ٣٩٦]: (قد دلَّ العقل والفطرة وجميع كتب الله السماوية على أنَّ الله تعالى عالٍ على خلقه؛ فوق جميع المخلوقات، وهو مستوٍ على عرشه، وعرشه فوق السماوات كلِّها، فهو ــ سبحانه ــ (مُحيطٌ) بالعالم كلِّه، فأينما ولَّى العبد فإن الله مُسْتَقْبِلُهُ، بل هذا شأن مخلوقه المُحيط بما دونه).

وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (المهيمن) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عامّاً؛ منها قوله في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٤]: (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن (المهيمن) العزيز الجبار المتكبر، الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يُدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه).

المطلب التاسع :

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى:

القادر؛ القدير؛ الجامع؛ القويّ؛ القهار؛ القاهر؛ الوالي

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (القادر؛ والقدير؛ والجامع؛ والقويّ؛ والقهار؛ والقاهر؛ والوالي)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (القادر).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (القادر) في مواضع كثيرة من كتبه[1]، حيث قرَّر هذا الاسم؛ وما يتضمنه من السلامة

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (القادر) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٤٠، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٢؛ ٣٩٥، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٨. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: أحكام أهل الذمة ١/ ١٩٣، إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٣٩؛ ١٦١، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٦؛ ٢٠٠؛ ٢٢٧، تحفة المودود بأحكام المولود ص٢١٥، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦٢؛ ٤٣١، الداء والدواء ص١٣٣؛ ٢١٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣٠؛ ٣٨٦؛ ٣٩٨؛ ٢/ ٤٥١؛ ٤٥٤؛ ٥٩٧، الصلاة وحكم تاركها ص١٧٤، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٢٤؛ ٤/ ١٣٦٢؛ ١٥٧٥، ومختصره ٢/ ٤٠٥؛ ٤٧٣، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٧؛ ٢١٤؛ ٢٢٩، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين =

مما يُضاد كماله وجماله وجلاله؛ فقال: ((القادر): الذي سلمت قدرته من اللُّغوب والتعب والإعياء والعجز عما يُريد)[1].

كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ إحدى الأدلَّة المثبتة له؛ فقال: (في الصحيح ـ حديث الاستخارة ـ: «اللَّهُمَّ إني أستخيرك بعلمك؛ وأستقدرك بقدرتك»[2]. فهو قادرٌ بقدرةٍ)[3].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (القدير).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (القدير) في مواضع كثيرة من كتبه[4]، حيث قرَّر هذا الاسم بقوله: ((القدير): الذي

= ص٢٣، الفوائد ص٢٠١، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٢١٥) ـ ص٢٤٠]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٦؛ ٣٨؛ ٤٣؛ ٢٣٢؛ ٤٥٢؛ ٢/ ٣٣٣؛ ٣٩٥؛ ٣/ ١٥٦؛ ٣٨١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣١٤؛ ٥٠٤، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٣، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٣.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (القادر) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (القادر) في إحدى عشرة آية من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٧].

(١) أحكام أهل الذمة ١/ ١٩٣.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨.

(٤) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (القدير) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ١/ ٢٢؛ ٢٣؛ ١٤٤؛ ١٤٦؛ ١٤٧؛ ١٤٩؛ ١٥١؛ ٣/ ١٨، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٧١، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٣؛ =

ليس كمثله شيءٌ في قدرته)[1].

واسم الجلالة (القدير) يتضمن قدرة الله تعالى على أمورٍ لا يقدر عليها إلا هو ـ سبحانه وتعالى ـ ، وقد ذكرها الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: ((القدير) الذي لكمال قدرته: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويجعل المؤمن مؤمناً والكافر كافراً؛ والبر برًّا والفاجر فاجراً، وهو الذي جعل إبراهيم وآله أئمة يدعون إليه ويهدون بأمره؛ وجعل فرعون وقومه ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[2]، ولكمال قدرته لا يُحيط أحدٌ بشيءٍ من علمه إلا بما شاء أن يُعلِّمه إياه، ولكمال قدرته خلق السماوات والأرض وما

= ٣٩٨، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣؛ ٤٢١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٢. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ : بدائع الفوائد ١/ ١٤٤، التبيان في أقسام القرآن ص٤١٩، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٣١، الداء والدواء ص٢١٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٦١؛ ٢/ ٤٥٦؛ ٥٣١؛ ٥٥٦؛ ٧٥٤، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٣؛ ٢/ ٤٢٩؛ ٧٢٤؛ ٣/ ١٠١٨؛ ١١١٤؛ ٤/ ١٣٣٨؛ ١٥٥٧، ومختصره ١/ ٢٤٩؛ ٢/ ٣٤٦، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٥، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٢٤٦) ـ ص٢٤٢]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨؛ ٣/ ٣٦٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٢٦؛ ٥٣٥؛ ٥٥١، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص١١٨.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (القدير) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (القدير) في خمس وأربعين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠].

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣٨.

(٢) سورة القصص: الآية ٤١.

بينهما في ستة أيامٍ وما مسَّه من لغوبٍ، ولا يعجزه أحدٌ من خلقه ولا يفوته؛ بل هو في قبضته أين كان، فإن فرَّ منه فإنما يطوي المراحل في يديه، كما قيل:

وكيــف يفــرُّ المــرء عنــك بــذنبــه إذا كان يطوي في يديك المراحلا[1])[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة: (القدير) في نونيته؛ فقال:

(وهــو القــديــرُ فكــلُّ شــيءٍ فهــو مَقْــ ــدُورٌ لـه طـوعـاً بـلا عصيـانِ)[3].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الجامع).

ذكـر الإمـام ابـن قيِّـم الجـوزيـة ــ رحمـه الله تعـالـى ــ اسـم الجـلالـة (الجامع) في موضعٍ واحدٍ[4]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ وما يدلُّ عليه من

---

(١) من قصيدة قالها أبو العرب للمعتمد، وقبله:

كــأنَّ بــلادَ الله كَفُّــكَ إن يَسِــرْ بها هـاربٌ تجمع عليه الأناملا.

انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ٧/٣٠٦، خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ٢/١٠٤.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٥.

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٥٣٠) ــ ص ٦٥].

(٤) لم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الجامع) في هذا الموضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (الجامع) مضافاً في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩].

وأما معناه: فقال الزجاج في [تفسير أسماء الله الحسنى: ص٦٣]: (الجامع: الله تعالى، يجمع الخلق للحساب).

معنى؛ فقال: (له من معنى الملك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى؛ كالعزيز الجبار؛ الحكم العدل؛ الخافض الرافع؛ المعز المذل؛ العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد؛ الوالي المتعالي؛ مالك الملك؛ المقسط (الجامع) إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك)[1].

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (القويُّ).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (القويَّ) في عدة مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ ودليله المثبت له؛ ومعناه المُبيِّن له؛ فقال: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[3]. فعلم أن (القويَّ): من أسمائه، ومعناه: الموصوف بالقوة)[4].

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (القويِّ) ـ على وجه الخصوص ـ: روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٩٦؛ ٣٢٣، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٨١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٧؛ ٣٨. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: الداء والدواء ص١٠٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٠، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٢٤٧) ـ ص٢٤٢]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١١٥.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (القويِّ) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (القوي) في تسع آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الأنفال: الآية ٥٢].

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٧.

كما ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (القويَّ) في نونيته؛ فقال:

(وهـو القـويُّ بقـوةٍ هـي وصفُـه وعليك يَقْـدِرُ يـا أخا السُّلطانِ)[1].

المسألة الخامسة:

اسم الجلالة (القهّار).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (القهَّار) في عدة مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر هذا الاسم بقوله: (شأن أسماء الربِّ تعالى وأسماء كتابه وأسماء نبيه: هي أعلامٌ دالَّةٌ على معانٍ هي بها أوصافٌ، فلا تُضادُّ فيها العلميةُ الوصفَ، بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين،

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٢٧٥٠) ـ ص٢١٠].

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (القهَّار) ـ على وجه الخصوص ـ : جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٣٦٦، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/٢٠٣.
وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ : الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/٩٣٨؛ ١٠٣٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/٣٩٨.
ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (القهَّار) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (القهَّار) ـ مقترناً باسمي الجلالة (الله؛ والواحد) ـ في ست آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿ يَصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٩].
وأما معناه: فقال البيهقي في [الأسماء والصفات: ١/٣١٤]: (القهار: ومعناه الذي لا يقصد إلا ويغلب).

فهو الله الخالق البارىء المصور (القهَّار)، فهذه أسماءٌ دالَّةٌ على معانٍ هي صفاته)[1].

واسم الجلالة (القهَّار) يدلُّ على التوحيد؛ وعلى بطلان التنديد، فالقهَّار لا يكون إلا إلـٰهاً واحداً؛ لا كفؤ له ولا سمِّي له، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (لا يكون (القهَّارُ) إلا واحداً، إذ لو كان معه كفؤٌ له؛ فإن لم يقهره: لم يكن قهاراً على الإطلاق، وإن قهره: لم يكن كفؤاً؛ وكان (القهارُ) واحداً)[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة: (القهَّار) في نونيته؛ فقال:

(وكذلك القهَّارُ من أوصافه فالخلق مقهورون بالسلطانِ)[3].

المسألة السادسة:

اسم الجلالة (القاهر).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (القاهر) في عدَّة مواضع من كتبه[4]، حيث قرَّر هذا الاسم؛ وأنه من الأسماء

---

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٨.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٨.

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٣١٠) ــ ص٢٤٦].

(٤) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (القاهر) ــ على وجه الخصوص ــ: تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٤٠. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٤٠٢، تحفة المودود بأحكام المولود ص٢١٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣٠؛ ٣٨٣؛ ٢/ ٦٢٨، الصلاة وحكم تاركها ص١٧٣، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٨؛ ٢٢٩؛ ٢٦١، عدة =

المختصَّة بالربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بقوله: (مما يُمنع تسمية الإنسان به: أسماء الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، فلا يجوز التسمية بالأحد والصمد؛ ولا بالخالق ولا بالرازق، وكذلك سائر الأسماء المختصة بالربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، ولا تجوز تسمية الملوك بالقاهر والظاهر، كما لا يجوز تسميتهم بالجبار والمتكبر؛ والأول والآخر والباطن وعلام الغيوب)[1].

المسألة السابعة:

اسم الجلالة: الوالي.

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الوالي) في موضعٍ واحدٍ[2]، حيث قرَّر هذا الاسم بقوله: (له من معنى الملك

= الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/١٩٨؛ ٢٦٣؛ ٢٨٠؛ ٤٨٢.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (القاهر) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (القاهر) في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨].

وأما معناه: فقال البيهقي في [الأسماء والصفات: ١/ ٣١٤]: (القاهر: ومعناه الغالب).

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨.

(٢) لم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الوالي) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، ولم يرد اسم (الوالي) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميته في حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى.

وأما معناه: فقال الزجاج في [تفسير أسماء الله الحسنى: ص٦١]: (تفسيره: الذي يلي أمر الخلق؛ ويتولى مصالحهم).

وقد حكم الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على الزيادة المدرجة في =

ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى؛ كالعزيز الجبار؛ الحكم العدل؛ الخافض الرافع؛ المعز المذل؛ العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد؛ (الوالي) المتعالي؛ مالك الملك؛ المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك)[1].

فهذه بعض الأسماء الحسنى ــ التي هي أخصُّ باسم الجلالة (الربِّ) تبارك وتعالى[2]ــ ، وقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ

= أصل حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ؛ والمتضمنة لتعداد أسماء الله الحسنى بقوله في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٣٣]: (والصحيح: أنه ليس من كلام النبي ﷺ). وعليه فيبقى اسم (الوالي) مفتقراً في ثبوته إلى دليلٍ صحيحٍ صريحٍ يدلُّ عليه؛ ويُسوِّغ إدراجه ضمن أسماء الله الحسنى التي يُتعبَّد بدعاء الله تعالى بها.

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٢) نظير هذه الأسماء الحسنى في معناها ودلالتها على اسم الجلالة (الربّ): أسماء الجلالة: (الغالب؛ والمقتدر؛ والمولى؛ والنصير؛ والوكيل؛ والوليُّ)، وقد ورد ذكر اسم الجلالة (الغالب) في مواضع من كتب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٦١]: (الحيوان على اختلاف ضروبه من حيوان البرِّ والبحر لكلٍّ منه مُضادٌّ ومُغالب، فاستبان للعقول والفطر أن القاهر (الغالب) لذلك كلِّه واحدٌ).
وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (المقتدر) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٩٩]: (لكلِّ عملٍ جزاءٌ، وجزاء المحبة: المحبة والوصول والاصطناع والقرب، فهذا هو الذي يصلح، وكفى بذلك شرفاً وفخراً في عاجل الدنيا، فما ظنك بمقاماتهم العالية عند مليكٍ (مقتدرٍ)؟).
وكذا ورد ذكر اسمي الجلالة (المولى)؛ و (النصير) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين =

في مثاني كتبه؛ ونصَّ على أنها من أسماء الله الحسنى.

❑ ❑ ❑

= ص٢٣]: (هو العزيز الغفور؛ القاهر القادر، فكلُّ عسيرٍ عليه يسيرٌ؛ وهو (المولى النصير)، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨]).

وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (الوكيل) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عامّاً؛ منها قوله في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٩٧]: (سائر التقلُّبات الكونية وتصاريف الوجود بيده ــ سبحانه ــ وحده، فيشهده مالك الضر والنفع؛ والخلق والرزق؛ والإحياء والإماتة، فيتخذه وحده (وكيلاً)؛ ويرضى به رباً ومدبراً وكافياً).

وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (الوليّ) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٩٢]: (الرضى به رباً: مُتعلِّقٌ بذاته وصفاته وأسمائه؛ وربوبيته العامة والخاصة، فهو الرضى به خالقاً ومدبراً؛ وآمراً وناهياً؛ وملكاً ومعطياً ومانعاً؛ وحكماً ووكيلاً؛ و (ولياً) وناصراً؛ ومعيناً وكافياً؛ وحسيباً ورقيباً؛ ومبتلياً ومعافياً؛ وقابضاً وباسطاً؛ إلى غير ذلك من صفات ربوبيته).

ونظير هذه الأسماء الحسنى ــ الواردة في هذا المطلب ــ في معناها ودلالتها على اسم الجلالة (الربّ) ــ مما لم يرد له ذِكْرٌ في كتب الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ــ: اسما الجلالة (المتين؛ والمقيت)، فأما اسم الجلالة (المتين): فقد دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٨].

وأما معناه: فقال الزجاج في [تفسير أسماء الله الحسنى: ص٥٥]: (التناهي في القوة والقدرة).

وأما اسم الجلالة (المُقيت): فقد دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [سورة النساء: الآية ٨٥].

وأما معناه: فقال الزجاجي في [اشتقاق أسماء الله: ص١٣٦]: (المُقيت: المُقتدر على الشيء. والمُقيت أيضاً: الشاهد للشيء؛ الحافظ) انتهى ملخصاً.

المطلب العاشر:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: العزيز؛ الحكيم؛ الحكم؛ العدل؛ المَلِك؛ الحقّ؛ الرشيد؛ المُقسط

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (العزيز؛ والحكيم؛ والحكم؛ والعدل؛ والمَلِك؛ والحقِّ؛ والرشيد؛ والمُقسط)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، مع الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران بعضها ببعض، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (العزيز).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة: (العزيز) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[1]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم؛ فقال:

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (العزيز) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/١٤٦؛ ١٥١؛ ١٧٠؛ ١٧٣؛ ٢/١٢٣؛ ٢١٢، رسالة ابن القيم إلى =

(قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[1]. فالعزيز: مَنْ له العِزَّةُ)[2].

كما بيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ معاني العِزَّة وما تستلزمها من الوحدانية؛ فقال: (العِزَّة يُراد بها ثلاث معانٍ: عِزَّةُ القوة؛ وعِزَّةُ الامتناع؛ وعِزَّةُ القهر، والرب ـ تبارك وتعالى ـ له العِزَّةُ التامَّةُ بالاعتبارات الثلاث.

= أحد إخوانه ص٣٨، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٧١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٣٦٦؛ ٢/٥١٠؛ ٥١١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٢٢٠، ومختصره ٢/٢٩٢؛ ٣٤١، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٨؛ ٢٠٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٣٧؛ ٣٨؛ ٤١؛ ١٧٨؛ ٣/٤٧٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/٤٨٥، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٠٥. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/٢١٩، بدائع الفوائد ١/٦٣؛ ٢/١٦٠؛ ١٨٠، التبيان في أقسام القرآن ص٢٩٧، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٤، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٦٣٩، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/١٥٠؛ ٣/١١١٤؛ ٤/١٥٦٧؛ ١٥٧٤؛ ١٥٧٥، ومختصره ٢/٢٩٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٥؛ ١٩٥؛ ٣٧٧؛ ٥٧٢؛ ٦٨٤، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص١٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٤٦؛ ٢٢٦؛ ٢٢٧؛ ٢/٣٣٣؛ ٣٩٥؛ ٣/١٥٦، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/٥٥١؛ ٢/٣٠.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (العزيز) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (العزيز) في تسعين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٩].

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٣٧.

ويُقال من الأول: عَزَّ يَعَزُّ ــ بفتح العين ــ في المستقبل. ومن الثاني: عَزَّ يَعِزُّ ــ بكسرها ــ. ومن الثالث: عَزَّ يَعُزُّ ــ بضمها ــ. أعطوا أقوى الحركات لأقوى المعاني؛ وأخفَّها لأخفِّها؛ وأوسطها لأوسطها.

وهذه العِزَّة مستلزمةٌ للوحدانية؛ إذ الشركة تُنقص العِزَّة، ومستلزمةٌ لصفات الكمال؛ لأن الشركة تُنافي كمال العِزَّة، ومستلزمةٌ لنفي أضدادها، ومستلزمةٌ لنفي مماثلة غيره له في شيءٍ منها. فالروح تُعاين بقوة معرفتها وإيمانها: بهاء العِزَّة وجلالها وعظمتها، وهذه المعاينة هي نتيجة العقيدة الصحيحة المطابقة للحقِّ في نفس الأمر؛ المتلقاة من مشكاة الوحي، فلا يطمع فيها واقف مع أقيسة المتفلسفين؛ وجدل المتكلمين؛ وخيالات المتصوفين)[1].

وما تقدَّم من الوحدانية هو مما تستلزمه العِزَّةُ التامَّةُ، إلا أن من تمامها وكمالها: تبرئة العزيز ــ سبحانه وتعالى ــ عن كلِّ سوء؛ وتنزيهه عن كلِّ شرٍّ وعيبٍ، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (اسمه (العزيز)، الذي له العِزَّةُ التامَّةُ، ومن تمام عِزَّته: براءته عن كلِّ سوءٍ وشرٍّ وعيبٍ، فإن ذلك يُنافي العِزَّةَ التامَّةَ)[2].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ما تُثمره معرفة العبد وملاحظته بقلبه لعِزِّ سيده العزيز ــ سبحانه وتعالى ــ، حيث قال: (ــ سبحانه ــ (العزيز)؛ الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمال عِزَّته: حَكَمَ على العبد؛ وقضى عليه بأن قَلَّبَ قلبه وصرَّف إرادته على ما يشاء، وحَالَ بين العبد وقلبه؛ وجعله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم، وهذا من كمال العِزَّة؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله، وغاية المخلوق أن يتصرَّف في بدنك

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٦٨ ــ ٢٦٩.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١١.

وظاهرك؛ وأما جَعْلُكَ مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريده: فلا يقدر عليه إلا ذو العِزَّة الباهرة، فإذا عرف العبد عِزَّ سيده ولاحظه بقلبه؛ وتمكن شهوده منه: كان الاشتغال به عن ذُلِّ المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه.

ومن معرفة عِزَّته في قضائه: أن يعرف أنه مُدبَّرٌ مقهورٌ؛ ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلا بعصمته؛ ولا توفيق له إلا بمعونته، فهو ذليلٌ حقيرٌ في قبضة عزيزٍ حميدٍ.

ومن شهود عِزَّته أيضاً في قضائه: أن يشهد أنَّ الكمال والحمد والغناء التامَّ والعِزَّة كلَّها لله؛ وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذمِّ والعيب والظلم والحاجة، وكلما ازداد شهوده لذلِّه ونقصه وعيبه وفقره: ازداد شهوده لعِزَّة الله وكماله وحمده وغناه؛ وكذلك العكس، فنقصُ الذنبِ وذلَّتُه يُطلعه على مشهد العِزَّة)[1].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (الحكيم).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الحكيم) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ وبيَّن

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٢٦ ــ ٢٢٧.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الحكيم) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ٧٤؛ ١٤٦؛ ١٥١؛ ١٧٠، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧، رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٣٨، الرسالة التبوكية ص٢١٦، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١٢؛ ٦٥٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٤، ومختصره ٢/ ٢٩١؛ ٢٩٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٧٧؛ ٢٠٣، =

معناه بقوله: (هو (الحكيم)؛ الذي له الحُكْمُ، ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ⑫﴾[1])[2].

وهناك ثمَّة آثارٌ لاسم الجلالة (الحكيم في الخلق والأمر)[3]، وقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (اسمه ــ سبحانه ــ (الحكيم) يتضمن: حكمته في خلقه؛ وأمره في إرادته الدينية والكونية، وهو حكيمٌ في كلِّ ما خلقه وأمر به)[4].

= مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨؛ ٤٠؛ ٤١؛ ٢٧٠؛ ٤٣٩؛ ٤٥١؛ ٢/ ٢٠٤؛ ٣/ ٣٧٢؛ ٣٧٤؛ ٤٧٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣١٥؛ ٤٨٥. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص١٩، بدائع الفوائد ١/ ٦٣؛ ١٤٨؛ ١٨٠، التبيان في أقسام القرآن ص٢٩٦؛ ٣٧٨؛ ٤١١؛ ٤١٩، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٤، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٨؛ ٤/ ١٥٥٢؛ ١٥٦٦؛ ١٥٦٧؛ ١٥٧٥، ومختصره ٢/ ٢٩١؛ ٢٩٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٩٥؛ ٢٠٦؛ ٢٣٦؛ ٢٥٦؛ ٣٧٧؛ ٥٧٢؛ ٦١٤؛ ٦٨٤؛ ٧٣٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٦؛ ٢٢٧؛ ٢٤٣؛ ٤٤٧؛ ٢/ ٣٩٥؛ ٥٠١؛ ٣/ ٤٨٨، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٢٣؛ ٥٥١؛ ٢/ ٣٠؛ ٤٥٧.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الحكيم) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الحكيم) في اثنتين وتسعين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ㉜﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٢].

(١) سورة غافر: الآية ١٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٧٠.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٠٦.

ولاسم الجلالة (الحكيم) لوازم لا تنفكُّ عنه؛ ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (اسم (الحكيم) من لوازمه: ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله؛ ووضعه الأشياء في مواضعها؛ وإيقاعها على أحسن الوجوه، فإنكار ذلك: إنكارٌ لهذا الاسم ولوازمه)[١].

واسم الجلالة (الحكيم) اشترك في الدلالة عليه ــ بإزاء أدلة الشرع القويمة ــ: العقول المستقيمة؛ والفطر السليمة، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قد دلَّت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دلَّ عليه القرآن والسنة: أنه ــ سبحانه ــ (حكيمٌ)، لا يفعل شيئاً عبثاً؛ ولا لغير معنى ومصلحةٍ وحكمةٍ ــ هي الغاية المقصودة بالفعل ــ، بل أفعاله ــ سبحانه ــ صادرةٌ عن حكمةٍ بالغةٍ لأجلها فعل كما فعل؛ كما هي ناشئةٌ عن أسبابٍ بها فعل.

وقد دلَّ كلامه وكلام رسوله على هذا وهذا في مواضع لا تكاد تُحصى؛ ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها)[٢].

كما ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (العزيز) باسم الجلالة (الحكيم)[٣]، فمن ذلك:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٠.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٣٧.

(٣) اقترن اسم الجلالة (العزيز) باسم الجلالة (الحكيم) في ست وأربعين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٩].

١ ــ أن اقترانهما يدلُّ على كمال القدرة وكمال العلم ــ اللَّذَيْن هما مصدر الخلق والأمر ــ ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في دعاء الملائكة المقرَّبين للمؤمنين: (أخبر ــ سبحانه ــ عن ملائكته أنهم قالوا ــ عَقِيبَ هذه الدعوة ــ : ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾[١]. أي: مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك.

فإن العِزَّة: كمالُ القدرة، والحكمة: كمالُ العلم، وبهاتين الصفتين يقضي ــ سبحانه وتعالى ــ ما يشاء، ويأمر وينهى، ويُثيب ويُعاقب، فهاتان الصفتان: مصدر الخلق والأمر)[٢].

٢ ــ أن اقترانهما يـدلُّ علـى كمـال الملـك والحمـد، كمـا قـال ــ رحمه الله تعالى ــ في قول الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾[٣]: (خُتِمَ بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾[٤]. فتضمنت الآية: توحيده وعدله وعِزَّته وحكمته.

فالتوحيد يتضمن: ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله؛ وعدم المُماثل له فيها؛ وعبادته وحده لا شريك له.

والعدل يتضمن: وضعه الأشياء موضعها؛ وتنزيلها منازلها؛ وأنه لم يخصَّ شيئاً منها إلا بمخصِّصٍ اقتضى ذلك؛ وأنه لا يُعاقب من لا يستحقُّ العقوبة ولا يمنع من يستحقُّ العطاء؛ وإن كان هو الذي جعله مستحقاً.

---

(١) سورة غافر: الآية ٨.

(٢) الداء والدواء ص١٨٠.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨.

والعِزَّة تتضمن: كمال قدرته وقوته وقهره.

والحكمة تتضمن: كمال علمه وخبرته؛ وأنه أمر ونهى وخلق وقدَّر لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحقُّ عليها كمال الحمد.

فاسمه (العزيز) يتضمن: الملك، واسمه (الحكيم) يتضمن: الحمد، وأول الآية يتضمن: التوحيد؛ وذلك حقيقة: (لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له؛ له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)، وذلك أفضل ما قاله رسول الله ﷺ والنبيون من قبله[1].

و (الحكيم): الذي إذا أَمَرَ بأمرٍ كان حسناً في نفسه، وإذا نهى عن شيءٍ كان قبيحاً في نفسه، وإذا أخبر بخبرٍ كان صدقاً، وإذا فعل فعلاً كان صواباً، وإذا أراد شيئاً كان أَوْلَى بالإرادة من غيره، وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية؛ وهذه الشهادة: الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك؛ وعدله المنافي للظلم؛ وعِزَّته المنافية للعجز؛ وحكمته المنافية للجهل والعيب، ففيها الشهادة له بالتوحيد والعدل والقدرة والعلم والحكمة، ولهذا كانت أعظم شهادة.

ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف إلا أهل السنة، وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها، فالفلاسفة: أشد الناس إنكاراً

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (١٢٢) ـ الحديث رقم (٣٥٨٥) ـ ٥/ ٥٤١] من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ، وأوله: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة».
وحسنه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٥٠٣) ـ ٤/ ٦ ـ ٨].

وجحوداً لمضمونها من أولِّها إلى آخرها، وطوائف الاتحادية: هم أبعد خلق الله عنها من كلِّ وجهٍ، وطائفة الجهمية: تُنكر حقيقتها من وجوهٍ)[1].

٣ ــ أن اسم الجلالة (العزيز) جاء متقدِّماً في الاقتران على اسم الجلالة (الحكيم) لوجوهٍ؛ ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ في تعقُّبه على أبي القاسم السهيليِّ[2] فيما ذكره من سبب تقدُّم العزيز على الحكيم؛ فقال: (تقديم (العزيز) على (الحكيم): فإن كان من الحُكْم ــ وهو: الفصل والأمر ــ: فما ذكره من المعنى صحيحٌ، وإن كان من الحِكْمَة ــ وهي: كمال العلم والإرادة المتضمنين اتساق صنعه وجريانه على أحسن الوجوه وأكملها ووضعه الأشياء مواضعها ــ وهو الظاهر من هذا الاسم: فيكون وجه التقديم: أن العِزَّة: كمال القدرة، والحكمة: كمال العلم، وهو ــ سبحانه ــ الموصوف من كلِّ صفة كمالٍ بأكملها وأعظمها وغايتها، فتقدم وصف القدرة لأن متعلَّقه أقرب إلى مشاهدة الخلق؛ وهو مفعولاته تعالى وآياته، وأما الحكمة فمتعلَّقها بالنظر والفكر والاعتبار غالباً؛ وكانت متأخرة عن متعلَّق القدرة.

وجهٌ ثانٍ: أن النظر في الحكمة بعد النظر في المفعول والعلم به، فينتقل منه إلى النظر فيما أودعه من الحكم والمعاني.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٧٩ ــ ٤٨٠.

(٢) هو: عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي؛ إمام في اللغة والنحو والحديث، ولد سنة ثمان وخمسمائة بمدينة مالقة ــ إحدى مدن الأندلس الكبيرة ــ، وتوفي في يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بمراكش، وكان قد كُفَّ بصره وهو ابن سبع عشرة سنة.
انظر في ترجمته: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٣/ ١٤٣ ــ ١٤٤، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين لليماني ص١٨٢ ــ ١٨٤، نكت الهميان في نكت العميان للصفدي ص١٨٧ ــ ١٨٨.

وجهٌ ثالثٌ: أن الحكمة غاية الفعل، فهي متأخرةٌ عنه تأخُّر الغايات عن وسائلها، فالقدرة تتعلَّق بإيجاده، والحكمة تتعلَّق بغايته، فقدَّم الوسيلة على الغاية لأنها أسبق في الترتيب الخارجي)[1].

٤ ــ أن اقتران اسم الجلالة (الحكيم) باسمي الجلالة (العزيز؛ والعليم) يدلُّ على أن القدرة والعلم المجرَّديْن عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح حتى يقترنا بالحكمة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (يقرن ــ سبحانه ــ في كتابه بين اسمه (الحكيم) واسمه (العليم) تارة؛ وبين اسمه (العزيز) تارة، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾[2]؛ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾[3]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[4]؛ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾[5]؛ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾[6]. فإن العزة تتضمن: القوة، ولله القوة جميعاً)[7].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (والمقصود: أن العلم والقدرة المجرَّديْن عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح،

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٦٣ ــ ٦٤.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٦، سورة الأنفال: الآية ٧١، سورة التوبة: الآيات ١٥؛ ٦٠؛ ٩٧؛ ١٠٦؛ ١١٠، سورة الحج: الآية ٥٢، سورة النور: الآيات ١٨؛ ٥٨؛ ٥٩، سورة الحجرات: الآية ٨، سورة الممتحنة: الآية ١٠.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ٢٢٨؛ ٢٤٠، سورة المائدة: الآية ٣٨، سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٤) سورة النساء: الآيتان ١٥٨؛ ١٦٥، سورة الفتح: الآيتان ٧؛ ١٩.

(٥) سورة النساء: الآيات ١١؛ ١٧؛ ٩٢؛ ١٠٤؛ ١١١؛ ١٧٠، سورة الفتح: الآية ٤.

(٦) سورة النمل: الآية ٦.

(٧) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٠٣.

وإنما يحصل ذلك بالحكمة معها)[١].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته هذين الاسمين الجليلين: (العزيز؛ والحكيم)؛ فقال:

(وهو العزيزُ فلن يُرام جنابُه ... أنَّى يُرام جنابُ ذي السلطانِ

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيءٌ هذه صفتانِ

وهو العزيزُ بقوةٍ هي وصفهُ ... فالعزُّ حينئذٍ ثلاثُ معانِ

وهي التي كَمُلَتْ له سبحانه ... من كلِّ وجهٍ عادم النقصانِ

وهو الحكيم وذاك من أوصافه ... نوعان أيضاً ما هما عدمانِ

حُكْمٌ وإحكامٌ فكلٌّ منهما ... نوعان أيضاً ثابتا البرهانِ)[٢].

وثمة أسرارٌ جميلةٌ وحكمٌ جليلةٌ متعلقةٌ باقتران اسم الجلالة (الحكيم) باسم الجلالة (العليم)[٣]؛ ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ؛ مبيِّناً أنَّ من دلالة هذا الاقتران: أنَّ الله تعالى حين يسوق نعمه السابغة إلى عباده: عليمٌ بمن يصلح لها؛ حكيمٌ في وضعها عند أهلها ومستحقِّيها، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٠٦.
وانظر نظير هذا المعنى ـ المتعلِّق بما يقرنه الله تعالى بين الاسمين من هذه الأسماء الحسنى الثلاثة ـ: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٦١، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٧٦ ـ ١٧٨.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٤٩ ـ ٣٢٥٢) ـ ص٢٤٢].

(٣) اقترن اسم الجلالة (العليم) باسم الجلالة (الحكيم) في ست وثلاثين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٢].

﴿ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾[1]: بمن يصلح لهذه النعمة.
﴿حَكِيمٞ ۝٨﴾[2]: في وضعها عند أهلها؛ ومنعها غير أهلها)[3].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الحكم).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الحكم) في عدة مواضع من كتبه[4]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ وأنه من

---

(١) سورة الحجرات: الآيتان ٧ ـ ٨.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٨.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٨٩.

(٤) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الحكم) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٥٢؛ ٧٥٥، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٤. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٢١٨، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٩، ومختصره ١/ ٢٢٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٧؛ ٥٢١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٣؛ ٤٤٢؛ ٢/ ١٩٢؛ ٣/ ٣٩٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤٧٩.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (الحكم) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الحكم) بصيغة الإفراد وصيغة الجمع في ست آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝١١٤﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٤].
وأما معناه: فقال البيهقي في [الأسماء والصفات ١/ ١٩٩] ـ نقلاً عن الحليمي ـ: (هو الذي إليه الحكم. وأصل الحكم: منع الفساد، وشرائع الله =

معاني المُلْك بقوله: (له من معنى الملك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى؛ كالعزيز الجبار؛ (الحكم)؛ العدل؛ الخافض الرافع؛ المعز المذل؛ العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد؛ الوالي المتعالي؛ مالك الملك؛ المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك)[1].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ أن هذا الاسم من الأسماء المختصة بالربِّ تعالى؛ ولا يجوز تسمية الإنسان أو تكنيته به، كما قال: (ومما يُمنع تسمية الإنسان به: أسماء الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، فلا يجوز التسمية بالأحد والصمد؛ ولا بالخالق ولا بالرازق، وكذلك سائر الأسماء المختصَّة بالربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، ولا تجوز تسمية الملوك بالقاهر والظاهر، كما لا يجوز تسميتهم بالجبَّار والمتكبِّر؛ والأول والآخر؛ والباطن وعلام الغيوب.

وقد قال أبو داود في سننه: حدثنا الربيع بن نافع عن يزيد بن المقدام بن شريح عن أبيه عن جدِّه شريحٍ عن أبيه هانىء: «أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مع قومه: سمعهم يُكنونه بأبي الحكم، فدعاه ﷺ؛ فقال: إن الله هو الحكم؛ وإليه الحكم، فلم تُكنى أبا الحكم؟ فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيءٍ أتوني، فحكمتُ بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال رسول الله ﷺ: ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟ قال: لي شريحٌ ومسلمةٌ وعبدُ الله. قال: فمن أكبرهم؟ قلتُ: شريحٌ. قال: فأنت أبو شريحٍ»[2])[3].

= تعالى كلُها استصلاحٌ للعباد).

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨.

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (العدل).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة: (العدل) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم في إحدى هذه المواضع بقوله: (من أسمائه ـ سبحانه ـ : (العدل))[2].

كما بيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ معنى اسم الجلالة (العدل)؛ وما يقتضيه؛ فقال: (من أسمائه الحسنى: (العدل)؛ الذي كلُّ أفعاله وأحكامه سدادٌ وصوابٌ وحقٌّ.

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (العدل) ـ على وجه الخصوص ـ : بدائع الفوائد ٢/ ١١٩؛ ٢١٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١؛ ٣٢٣؛ ٢/ ٥١٢؛ ٦٥٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٤، الفوائد ص٣٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٢؛ ٢/ ٢٠٣. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ : إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٢١٨، بدائع الفوائد ٢/ ١٨٠، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٧٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٣٠؛ ٧٥٥، ومختصره ١/ ٢٢٢؛ ٢/ ٣٤٦، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٥، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (العدل) بذكر دليله المثبت له، وقد استُدِلَّ لاسم الجلالة (العدل) بقول الله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥].

وأما معناه: فقال البيهقي في [الأسماء والصفات ١/ ١٩٨] ـ نقلاً عن الحليمي ـ : (معناه: لا يحكم إلا بالحقِّ؛ ولا يقول إلا الحقَّ؛ ولا يفعل إلا الحقَّ).

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١٢ ـ ٥١٣.

وهو ــ سبحانه ــ قد أوضح السبل وأرسل الرسل؛ وأنزل الكتب وأزاح العلل، ومكَّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول؛ وهذا عدلُه، ووفَّق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يُعينه ويُوفِّقه؛ فهذا فضلُه، وخَذَلَ من ليس بأهلٍ لتوفيقه وفضله؛ وخلَّى بينه وبين نفسه، ولم يُرد ــ سبحانه ــ من نفسه أن يُوفِّقه، فقطع عنه فضلَه؛ ولم يحرمه عدلَه)[1].

والإقرار باسم الجلالة (العدل): موطنُ اتفاقٍ بين جميع المخلوقات؛ من أهل الأرض والسماوات، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قد اتفق أهل الأرض والسماوات على أن الله تعالى: (عدلٌ)؛ لا يظلم أحداً، حتى أعداءه المشركين الجاحدين لصفات كماله: فإنهم مُقرِّون له بالعدل؛ ومُنزِّهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم مُعترفون بعدله، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾[3].

فهو ــ سبحانه ــ قد حرَّم الظلم على نفسه، وأخبر أنه لا يُهلك ﴿ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾[4])[5].

واسم الجلالة (العدل): لا يُؤمن به على الحقيقة؛ فيعلم أنه ــ سبحانه

---

(١) الفوائد ص٣٣.

(٢) سورة الملك: الآية ١١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٣١.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢١.

وتعالى ــ لا يخرج في قدره ومشيئته وتصرُّفه عن الصراط المستقيم: إلا الرسل وأتباعهم، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في سياق الردِّ على طائفتي (الجبرية؛ والقدرية): (العدل): الذي هو اسمه وصفته ونعته ــ سبحانه ــ: خارجٌ عن هذا وهذا، ولم يعرفه إلا الرسل وأتباعهم، ولهذا قال هود ــ عليه الصلاة والسلام ــ لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾[1].

فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرُّفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرُّف والحُكْم على صراطٍ مستقيمٍ)[2].

وتعرُّف العبد على ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ باسم الجلالة (العدل) يقتضي طمأنينته بعدل الله تعالى في ثوابه وعقابه؛ ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾[3]، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إنه (العدل) الذي لا يجور ولا يظلم، ولا يخاف عبادُه منه ظلماً)[4].

كما أن تسمِّي الله ــ سبحانه وتعالى ــ باسم الجلالة (العدل) يقتضي محبته تعالى لأهل العدل، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (عدلٌ يُحِبُّ أهل العدل)[5].

وحبُّ الله ــ تبارك وتعالى ــ لأهل العدل: أوجب لهم مجاورتهم له على منابر من نورٍ يوم القيامة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن أمره بالعدل ــ وهو الحقُّ ــ: يتضمن أنه ــ سبحانه ــ عالِمٌ به؛ مُعلِّمٌ له، راضٍ

---

(١) سورة هود: الآية ٥٦.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٨٠ ــ ٢٨١.

(٣) سورة طه: الآية ١١٢.

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٥.

(٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦.

به؛ آمرٌ لعباده به، مُحِبٌّ لأهله، لا يأمر بسواه؛ بل تنزَّه عن ضدِّه الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشرعه عدلٌ كلُّه، وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه، وهم المجاورون له عن يمينه «على منابر من نورٍ»[1])[2].

وإذا كان الله تعالى (قد تسمَّى ــ سبحانه ــ بـ: (الحكم العدل))[3]: فهو لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يُناسبه؛ وتقتضيه الحكمة والعدل، لأن اسمه ــ سبحانه وتعالى ــ (الحكم العدل)[4]، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قال أهل السنة والحديث؛ ومن وافقهم: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وهو ــ سبحانه ــ : (حكمٌ عدلٌ)، لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يُناسبه ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة.

وهو ــ سبحانه ــ لا يُفرِّق بين مُتماثلين؛ ولا يُساوي بين مختلفين، ولا يُعاقب إلا من يستحقُّ العقوبة؛ ويضعها موضعها، لما في ذلك من الحكمة، ولا يُعاقب أهل البِرِّ والتقوى)[5].

المسألة الخامسة:

اسم الجلالة (المَلِك).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الملك)

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الإمارة/ باب فضيلة الإمام العادل ــ الحديث رقم (١٨٢٧) ــ ٣/ ١٤٥٨] من حديث عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنهما ــ ، وأوله: «إن المُقسطين عند الله على منابر من نورٍ».

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦١ ــ ١٦٢.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٥٥.

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٥٢.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٢.

في مواضع كثيرةٍ من كتبه[1]، حيث قرَّر هذا الاسم مبيِّناً معناه؛ وأنه (الذي يأمر وينهى؛ ويُثيب ويُعاقب؛ ويُهين ويُكرم؛ ويُعِزُّ ويُذِلُّ)[2]؛ فقال: (إن من أسمائه: (الملك)، ومعنى المُلْكِ الحقيقيِّ ثابتٌ له ــ سبحانه ــ بكلِّ

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الملك) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/١٤٩؛ ٢/١١٦؛ ١٧٤؛ ٢١٢؛ ٤/١٣٨، التبيان في أقسام القرآن ص٩٥، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٧١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٣٦٦؛ ٢/٦٠٩، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٢٢٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٣٦؛ ٤٣؛ ١٧٨؛ ٤٥١؛ ٢/٣٧٤، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٠٤. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: بدائع الفوائد ٢/١١٦؛ ١٨٠؛ ٢١١؛ ٤/١٣٨؛ ١٣٩، التبيان في أقسام القرآن ص٢٠٥، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٥٣؛ ٤٣١، الداء والدواء ص٥٥؛ ٥٦؛ ١٣٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٤١؛ ٤٣؛ ٣٦٥؛ ٢/٦٥٨ ــ ٦٥٩؛ ٦٦٣، الصلاة وحكم تاركها ص١٧٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٧٠٩؛ ٧٢٤؛ ٣/٩١٦؛ ١١١٤؛ ٤/١٢٢٣، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٥؛ ١٩٥؛ ٢٢٩؛ ٣٧٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٣٦٦، الفوائد ص٣٦؛ ٣٧؛ ٨٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٤٤؛ ٤٥؛ ٢/٥٢؛ ١٩٢؛ ٣/٣٦٣، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/١٠٧؛ ٣١١؛ ٢/٣٠، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٠.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الملك) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الملك) في خمس آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها: قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [سورة طه: الآية ١١٤].

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/١٠٧.

وجهٍ، وهذه الصفة تستلزم سائر صفات الكمال، إذ من المُحال ثبوت المُلْك الحقيقيِّ التامِّ لمن ليس له حياةٌ ولا قدرةٌ ولا إرادةٌ ولا سمعٌ ولا بصرٌ ولا كلامٌ ولا فعلٌ اختياريٌّ يقوم به.

وكيف يُوصف بالمُلك مَنْ لا يأمر ولا ينهى؛ ولا يُثيب ولا يُعاقب؛ ولا يُعطي ولا يمنع؛ ولا يُعِزُّ ولا يُذِلُّ؛ ولا يُهين ولا يُكرم؛ ولا يُنعم ولا ينتقم؛ ولا يخفض ولا يرفع، ولا يُرسل الرسل إلى أقطار مملكته، ولا يتقدَّم إلى عبيده بأوامره ونواهيه؟ فأيُّ مُلكٍ في الحقيقة لمن عدم ذلك؟

وبهذا يتبين أن المعطِّلين لأسمائه وصفاته: جعلوا مماليكه أكمل منه، ويأنف أحدُهم أن يُقال في أمره وملكه ما يقوله هو في ربِّه.

فصفة ملكه الحقِّ مستلزمةٌ لوجود ما لا يتمُّ التصرُّف إلا به، والكلُّ منه ــ سبحانه ــ، فلم يتوقَّف كمالُ ملكه على غيره، فإن كلَّ ما سواه مُسندٌ إليه؛ متوقِّفٌ في وجوده على مشيئته وخلقه)[1].

وهذه المعاني التي تضمَّنها اسم الجلالة (الملك): هي ما يتمُّ به حقيقة المُلك، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن حقيقة الملك: إنما تتم بالعطاء والمنع؛ والإكرام والإهانة؛ والإثابة والعقوبة؛ والغضب والرضا؛ والتولية والعزل؛ وإعزاز من يليق به العِزُّ وإذلال من يليق به الذلُّ. قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٩ ــ ٦١٠.
(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٢٦ ــ ٢٧.

﴿هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾[1].

يغفر ذنباً؛ ويُفرِّج كرباً؛ ويكشف غماً، وينصر مظلوماً؛ ويأخذ ظالماً، ويفكُّ عانياً؛ ويُغني فقيراً، ويجبر كسيراً؛ ويشفي مريضاً، ويُقيل عثرةً؛ ويستر عورةً، ويُعِزُّ ذليلاً؛ ويُذِلُّ عزيزاً؛ ويُعطي سائلاً، ويُذهب بدولةٍ ويأتي بأخرى؛ ويداول الأيام بين الناس؛ ويرفع أقواماً ويضع آخرين، يسوق المقادير التي قدَّرها قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عامٍ إلى مواقيتها؛ فلا يتقدَّم شيءٌ منها عن وقته ولا يتأخَّر، بل كلٌّ منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه؛ وجرى به قلمه؛ ونفذ فيه حكمه؛ وسبق به علمه، فهو المتصرِّف في الممالك كلِّها وحده؛ تصرُّف ملكٍ قادرٍ قاهرٍ عادلٍ رحيمٍ، تامُّ الملك؛ لا يُنازعه في ملكه منازعٌ؛ ولا يُعارضه فيه معارضٌ، فتصرُّفه في المملكة دائرٌ بين العدل والإحسان؛ والحكمة والمصلحة والرحمة؛ فلا يخرج تصرُّفه عن ذلك)[2].

واسم الجلالة (الملك) مستحقٌّ لبعض أسماء الله الحسنى وصفاته العلى التي تعود معانيها إليه، فأما الأسماء الحسنى التي تعود معانيها إلى اسم الجلالة (الملك): فقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (أما الملك: فهو الآمر الناهي؛ المعزُّ المذلُّ، الذي يُصرِّف أمور عباده كما يُحبُّ؛ ويُقلِّبهم كما يشاء.

وله من معنى الملك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى؛ كـ : (العزيز الجبَّار؛ الحكم العدل؛ الخافض الرافع؛ المعزِّ المذلِّ؛ العظيم الجليل الكبير؛ الحسيب المجيد؛ الوالي المتعالي؛ مالك الملك؛ المقسط الجامع؛

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٢٨ ــ ٢٢٩.

إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك)[1].

وأما الصفات العلى التي تعود معانيها إلى اسم الجلالة (الملك): فقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (صفات العدل؛ والقبض والبسط؛ والخفض والرفع؛ والعطاء والمنع؛ والإعزاز والإذلال؛ والقهر والحكم ونحوها: أخصُّ باسم (الملك)، وخصَّه بيوم الدين ــ وهو الجزاء بالعدل ــ : لتفرُّده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحقُّ؛ وما قبله كساعةٍ، ولأنه الغاية؛ وأيام الدنيا مراحلُ إليه)[2].

وهناك أمورٌ يقتضيها اسم الجلالة (الملك)؛ ذكر بعضها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ، فمن ذلك:

١ ــ تصرُّف الملك الحقِّ ــ سبحانه وتعالى ــ وتدبيره لشؤون مملكته؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (اسمه (الملك): يقتضي مملكة وتصرفاً وتدبيراً؛ وإعطاء ومنعاً؛ وإحساناً وعدلاً؛ وثواباً وعقاباً)[3].

٢ ــ عدم خروج أمرٍ من الأمور؛ أو فعلٍ من الأفعال ألبتة عن تصرُّف الملك الحقِّ ــ سبحانه وتعالى ــ وتدبيره، وإلا لم يُعقل له ثبوت ملكٍ على الحقيقة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[4]. والملك: هو المتصرِّف فيما هو ملكٌ عليه ومالكٌ له، ومَنْ لا تصرُّف له ولا يقوم به فعلٌ ألبتة: لا يُعقل له ثبوت ملكٍ ولا مالكٍ)[5].

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٣.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥١.

(٤) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٢٣ ــ ١٢٢٤.

٣ ـ أن لا يلوذ ولا يعوذ العباد المملوكون إلا بربِّهم الملك ـ سبحانه وتعالى ـ، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء: أنه يجود ويُعطي ويمنح، فمنها أن يُعيذ وينصر ويُغيث، فكما يُحِبُّ أن يلوذ به اللائذون: يُحِبُّ أن يعوذ به العائذون، وكمال الملوك: أن يلوذ بهم أولياؤهم؛ ويعوذوا بهم، كما قال أحمد بن حسين الكندي[1] في ممدوحه[2]:

(يا من ألوذ به فيما أؤمِّله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره[3])[4].

ولو قال ذلك في ربِّه وفاطره: لكان أسعد به من مخلوقٍ مثله.

---

(١) هو: أبو الطيب، الشهير بالمتنبي، شاعر الزمان؛ وله أبياتٌ يُضرب بها المثل، ولد سنة ثلاث وثلاثمائة بالكوفة بمحلة تُسمى: كندة، فنُسب إليها؛ لا إلى القبيلة، فإنه جُعفي القبيلة، وقتله الأعراب مع ولده وفتاه في شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.
انظر في ترجمته: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي ١/ ١٣٩ ـ ٢٧٧، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي (حوادث ووفيات ٣٥١ ـ ٣٨٠) ص١٠٢ ـ ١٠٨، تتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي ١/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) قال الحافظ ابن كثير في [البداية والنهاية ١٥/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩]: (وقد بلغني عن شيخنا العلامة أبي العباس أحمد بن تيمية ـ رحمه الله ـ أنه كان يُنكر على المتنبِّي هذه المبالغة، ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله ـ عزَّ وجلّ ـ. وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم ـ رحمه الله ـ أنه سمع الشيخ يقول: ربما قلتُ هذين البيتين في السجود؛ أدعو الله بما تضمناه من الذلِّ والخضوع).

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢/ ١٢٢.

والمقصود: أن ملك الملوك يُحِبُّ أن يلوذ به مماليكه؛ وأن يعوذوا به، كما أمر رسوله أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم في غير موضع من كتابه[1]، وبذلك يظهر تمام نعمته على عبده إذا أعاذه وأجاره من عدوه فلم يكن إعاذته وإجارته منه بأدنى النعمتين، والله تعالى يُحِبُّ أن يُكمل نعمته على عباده المؤمنين؛ ويُريهم نصره لهم على عدوِّهم وحمايتهم منه وظفرهم بهم، فيا لها من نعمةٍ كمل بها سرورهم ونعيمهم؛ وعدل أظهره في أعدائه وخصمائه.

وما منهما إلا له فيه حكمة   يقصر عن إدراكها كلُّ باحثِ[2])[3].

فهذه بعض الأمور التي يقتضيها اسم الجلالة (الملك)، وهي تظهر لمن تأمَّله؛ وأعطاه بعض حقِّه، وأما إعطاؤه تمام حقِّه: فمحالٌ، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا أعطيت اسم (الملك) حقَّه ــ ولن تستطيع ــ : علمتَ أن الخلق والأمر؛ والثواب والعقاب؛ والعطاء والحرمان أمرٌ لازمٌ لصفة الملك؛ وأن صفة الملك تقتضي ذلك ولا بُدَّ، وأن تعطيل هذه الصفة أمرٌ ممتنعٌ، فالملك الحقُّ يقتضي إرسال الرسل وإنزال الكتب؛ وأمر العباد ونهيهم؛ وثوابهم وعقابهم؛ وإكرام من يستحقُّ الإكرام وإهانة من يستحقُّ الإهانة، كما تستلزم حياة الملك وعلمه؛ وإرادته وقدرته؛ وسمعه وبصره وكلامه؛ ورحمته ورضاه وغضبه؛ واستواءه على سرير ملكه يُدبِّر أمر عباده.

---

(١) أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم في ست آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٠].

(٢) لم أقف عليه.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٦٥٨ ــ ٦٥٩.

وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطّلع منها على أرضٍ مونقةٍ؛ وكنوزٍ من المعرفة، وبالله التوفيق)[1].

المسألة السادسة:

اسم الجلالة (الحقُّ).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة: (الحقَّ) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[2]، حيث قرَّر هذا الاسم مبيِّناً أن الحقيقة

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص٩٥.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الحقِّ) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ٤/ ١٣٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٩٠. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: أحكام أهل الذمة ١/ ١٩٥، إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٤٥، بدائع الفوائد ٢/ ١١٦؛ ١١٧؛ ٤/ ١٣٩، التبيان في أقسام القرآن ص٩٥؛ ٢٠٥، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٤، الداء والدواء ص٥٥؛ ٥٦؛ ٢٢٠، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٣١٠؛ ٣١١، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٤٤، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٦٣، الصلاة وحكم تاركها ص١٧٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٠٧؛ ١٢٣٢؛ ١٢٣٦، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٨؛ ٥٨؛ ٧١؛ ٨٤؛ ٨٨؛ ١١٤؛ ٢٦٥؛ ٣٧٦؛ ٤٦٣؛ ٤٦٤، الفوائد ص٣٧؛ ٩٥؛ ٢٠٣، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٣٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١١٠؛ ٢١٤؛ ٢٣٣؛ ٢/ ٥٢؛ ٦٧؛ ٧٤؛ ٧٥؛ ١٤٨؛ ٢٩٤؛ ٣٤٦؛ ٤١٩؛ ٤٢٠؛ ٥٤٢؛ ٣/ ٣٤؛ ٣٥؛ ١١٤؛ ١٥٥؛ ١٩٠؛ ٢٢١؛ ٣٢٥؛ ٣٤٢؛ ٣٧٥؛ ٣٧٩؛ ٣٨١؛ ٣٨٨؛ ٤٠٠؛ ٤٠٤؛ ٤٣٢، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٠٧؛ ١٢٣؛ ٣١١؛ ٥٤٨؛ ٥٥١؛ ٢/ ٣٠؛ ٥٠٤؛ ٥٠٥.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (الحقِّ) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة =

ما تعلَّق به ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ ونُسب إليه، فقال: (الحقيقة: ما تعلَّق بالحقِّ المبين ـ سبحانه ـ ، فالله هو: (الحقُّ)، والحقيقة ما نُسِبَ إليه؛ وتعلَّق به)[1].

وكلُّ ما تعلَّق بالحقِّ ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ وأُضيف إليه: اقتضى أن يكون حقاً لا باطل فيه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (الحقائق: جمع حقيقةٍ، وُيراد بها: الحقُّ تعالى؛ وما نُسِبَ إليه، فهو (الحقُّ)، وقوله الحقُّ؛ ووعده الحقُّ؛ ولقاؤه حقٌّ؛ ورسوله حقٌّ، وعبوديته وحده حقٌّ؛ وعبودية ما سواه الباطل، فـ :

(كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ ....)[2])[3].

وإنَّ ممَّا يقتضيه اسم الجلالة (الحقُّ) تبرئة أفعال الله ـ سبحانه وتعالى ـ مما يُضادُّ الحقَّ، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (ـ سبحانه ـ

= (الحقُّ) في تسع آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [سورة الأنعام: الآية ٦٢].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٥٥.

(٢) شطر بيتٍ للشاعر لبيد؛ وأوله: (ألا)، وهي أشعر كلمةٍ تكلَّمت بها العرب؛ وأصدق بيتٍ قاله الشعراء، والبيت ضمن قصيدة مودعة في شرح ديوانه ص٢٥٦، وعجزه:

(............... وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ).

وقد قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر: كلمة لبيد: (ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ). وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم»؛ كما في صحيح البخاري [كتاب مناقب الأنصار/ باب أيام الجاهلية ـ الحديث رقم (٣٨٤١) ـ ٣/ ١١٧٣]، وصحيح مسلم [كتاب الشعر ـ الحديث رقم (٢٢٥٦) ـ ٤/ ١٧٦٨] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ .

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٢١.

هو: (الحقُّ)، وقوله الحقُّ؛ ودينه الحقُّ؛ ووعده حقٌّ؛ ولقاؤه حقٌّ؛ وفعله حقٌّ، ليس في أفعاله شيءٌ باطلٌ؛ بل أفعاله ــ سبحانه ــ بريئةٌ من الباطل؛ كما أقواله كذلك)[١].

وتبرئة أفعال الله تعالى من الباطل: يقتضي أن تكون مخلوقات الملك الحقِّ ــ سبحانه وتعالى ــ كلُّها خُلِقَتْ بسبب الحقِّ؛ ولأجل الحقِّ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (خلق مخلوقاته بسبب الحقِّ؛ ولأجل الحقِّ، وخَلْقُها ملتبسٌ بالحقِّ، وهو في نفسه: (حقٌّ)، فمصدره حقٌّ؛ وغايته حقٌّ، وهو متضمنٌ للحقِّ)[٢].

وإنكار أن يكون ما تعلَّق بالحقِّ ــ سبحانه وتعالى ــ وأُضيف إليه: حقاً لا باطل فيه، أو إنكار أن تكون مخلوقاته خُلِقَتْ بسبب الحقِّ؛ ولأجل الحقِّ: تعطيلٌ لاسم الجلالة (الحقِّ)، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (كما أن ذاته (الحقُّ): فقوله الحقُّ ووعده الحقُّ وأمره الحقُّ وأفعاله كلُّها حقٌّ؛ وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حقٌّ، فمن أنكر شيئاً من ذلك: فما وصف الله بأنه (الحقُّ) المطلق من كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ، فكونه حقاً يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه)[٣].

ولما كان اسم الجلالة (الحقُّ) غير مُحدثٍ: دخلت عليه الألف واللام؛ لتمييزه عن الأسماء المحدثة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أنت الحقُّ؛ ووعدك الحقُّ؛ وقولك الحقُّ». ثم قال: «ولقاؤك الحقُّ؛ والجنة حقٌّ؛ والنار حقٌّ»[٤].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٦٤.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٥٧.

(٣) بدائع الفوائد ٤/ ١٣٩.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـهُمَّ لك الحمد أنت نور السماوات».

فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة؛ وأدخلها على اسم الربِّ تعالى ووعده وكلامه)[1].

واسم الجلالة (الحقُّ) يُوجب على العبد المؤمن بحقيقته؛ الموقن بمعناه أموراً يلتزمها ويعمل بمقتضاها، فمن هذه الأمور التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ :

١ ــ أن يتواضع للحقِّ ــ سبحانه وتعالى ــ ، وأن يقبل الحقَّ الذي جاء منه؛ وألا يتكبَّر عن الانقياد له، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (كما أن من تواضع لله رفعه: فكذلك من تكبَّر عن الانقياد للحقِّ أذلَّه الله ووضعه وصغره وحقره، ومن تكبَّر عن الانقياد للحقِّ ــ ولو جاءه على يد صغيرٍ؛ أو من يُبغضه أو يُعاديه ــ فإنما تكبُّره على الله.

فإنَّ الله هو (الحقُّ)؛ وكلامه حقٌّ؛ ودينه حقٌّ، والحقُّ صفته؛ ومنه وله، فإذا ردَّه العبد وتكبَّر عن قبوله: فإنما ردَّ على الله؛ وتكبَّر عليه، والله أعلم)[2].

٢ ــ أن يتوكَّل على الحقِّ ــ سبحانه وتعالى ــ ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن كون العبد على الحقِّ يقتضي: تحقيق مقام التوكل على الله؛ والاكتفاء به؛ والإيواء إلى ركنه الشديد، فإن الله هو (الحقُّ)، وهو وليُّ الحقِّ وناصره ومُؤيِّده وكافي من قام به.

فما لصاحب الحقِّ ألا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحقِّ؟ كما قالت الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾[3])[4].

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١٣.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٣٤٦.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ١٢.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٦٣.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الملك) باسم الجلالة (الحقِّ)[1]، فمن ذلك:

١ ـ أن الملك الحقَّ يأمر وينهى؛ ويُثيب ويُعقاب، وهو مُنزَّهٌ عن أن يخلق خلقه عبثاً؛ أو أن يتركهم سدى، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن خلقه الإنسان في هذه الأطوار؛ وتنقُّله فيها طوراً بعد طورٍ حتى بلغ نهايته: يأبى أن يتركه سُدى، فإنه يُنزَّه عن ذلك؛ كما يُنزَّه عن العبث والعيب والنقص، وهذه طريقة القرآن في غير موضع[2]، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝﴾[3].

فجعل كمال ملكه؛ وكونه ـ سبحانه ـ الحقَّ؛ وكونه لا إلـه إلا هو؛ وكونه ربَّ العرش ـ المستلزم لربوبيته لكلِّ ما دونه ـ : مُبطلاً لذلك الظنِّ الباطل والحكم الكاذب، وإنكار هذا الحسبان عليهم مثل إنكاره عليهم حسبانهم أنه لا يسمع سِرَّهم ونجواهم، وحسبان أنه لا يراهم ولا يقدر عليهم، وحسبان أنه يُسوِّي بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم، وغير ذلك مما هو مُنزَّهٌ عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص، وأن نسبة ذلك كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق من اتخاذ الولد والشريك؛ ونحو ذلك

---

(١) ورد اقتران اسم الجلالة (الملك) باسم الجلالة (الحقِّ) في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝﴾ [سورة طه: الآية ١١٤].

(٢) انظر تقرير هذه الطريقة في: بدائع الفوائد ٤/١٣٦ ـ ١٤٠، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٣) سورة المؤمنون: الآيتان ١١٥ ـ ١١٦.

مما يُنكره ــ سبحانه ــ على من حَسَبَه أشدَّ الإنكار.

فدلَّ على أنَّ ذلك قبيحٌ ممتنعٌ نسبته إليه؛ كما يمتنع أن يُنسب إليه سائرُ ما يُنافي كماله المقدس، ولو كان نفي تركه سدى إنما يُعلم بالسمع المجرَّد: لم يقل بعد ذلك: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً﴾[1] إلى آخره؛ ومما يدلُّ أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنعٌ، وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها، فإن ملكَه الحقَّ يستلزم أمره ونهيه؛ وثوابه وعقابه، وكذلك يستلزم إرسال رسله؛ وإنزال كتبه، وبعث المعاد ليومٍ يجزي فيه المحسن بإحسانه؛ والمسيء بإساءته، فمن أنكر ذلك: فقد أنكر حقيقة ملكه؛ ولم يُثبت له المُلكَ الحقَّ، ولذلك كان منكر ذلك كافراً بربِّه؛ وإن زعم أنه يُقرُّ بصانع العالم، فلم يُؤمن بالملك الحقِّ؛ الموصوف بصفات الجلال والمستحقِّ لنعوت الكمال)[2].

٢ ــ أن الملك الحقَّ ــ سبحانه وتعالى ــ يتصرَّف في خلقه بقوله وأمره، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الملك الحقُّ: هو الذي يكون له الأمر والنهي، فيتصرَّف في خلقه بقوله وأمره)[3].

٣ ــ أن الفطر السليمة تُنزِّه (الملكَ الحقَّ) عما يُضادُّ كمال مُلكهِ الحقِّ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (من المحال الممتنع عند كلِّ ذي فطرةٍ سليمةٍ: أن يكون (الملكُ الحقُّ) عاجزاً؛ أو جاهلاً لا يعلم شيئاً، ولا يسمع ولا يبصر، ولا يتكلَّم ولا يأمر ولا ينهى، ولا يُثيب ولا يُعاقب، ولا يُعِزُّ من يشاء ولا يُذِلُّ من يشاء، ولا يُرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها، ولا يعتني بأحوال رعيته بل يتركهم سدى؛ ويُخلِّيهم هملاً، وهذا

(١) سورة القيامة: الآية ٣٦.
(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٢٠٤ ــ ٢٠٥.
(٣) بدائع الفوائد ٤/١٣٨ ــ ١٣٩.

يقدح في مُلْك آحاد ملوك البشر؛ ولايليق به، فكيف يجوز نسبة (الملكِ الحقِّ) المبين إليه؟)[1].

المسألة السابعة:

اسم الجلالة (الرَّشيد).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الرَّشيد) في مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله: ((رشيدٌ) يُحِبُّ أهل الرَّشَدِ)[3].

كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ثبوت هذا الاسم بقياس الأولى؛ فقال:

---

(١) الداء والدواء ص٥٥ ــ ٥٦.

(٢) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٣، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٥.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الرَّشيد) بذكر دليله المثبت له، ولم يرد اسم (الرَّشيد) صريحاً في كتاب الله العزيز؛ وإنما ورد بطريق الاشتقاق في قول الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الكهف: الآية ١٧]، وقد ورد تسميته في حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى.

وأما معناه: فقال السعدي في [فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن: ص٥٩] ــ بعد أن ذكر المعنى الأول للرشيد؛ وأنه الذي يُرشد عباده إلى مصالح دينهم ودنياهم ــ: (وللرَّشيد معنى آخر بمعنى: الحكيم، فهو الرَّشيد في أقواله وأفعاله، وهو على صراطٍ مستقيمٍ فيما يشرعه لعباده من الشرائع التي هي رُشدٌ وحكمةٌ، وفيما يخلقه من المخلوقات؛ ويُقدِّره في الكائنات، الجميع رُشدٌ وحكمةٌ، لا عبث فيها ولا شيء مخالفٌ للحكمة).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٣.

(كونه مُتكلِّماً مُعلِّماً مُرشداً مُقدِّراً لغيره: فإن ذلك فرعُ كونه في نفسه مُتكلِّماً عالماً (رشيداً) قادراً)[1].

واسم الجلالة (الرشيد): يقتضي محبة الله تعالى للراشدين من عباده، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (عدلٌ يُحِبُّ أهل العدل، (رشيدٌ) يُحِبُّ أهل الرُّشد، وهو الذي جعل من يُحِبُّه من خلقه كذلك، وأعطاه من هذه الصفات ما شاء؛ وأمسكها عمن يُبغضه وجعله على أضدادها، فهذا عدله؛ وذاك فضله، والله ذو الفضل العظيم)[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته اسمي الجلالة (الرشيد؛ والعدل) متواليين؛ فقال:

(وهو الرَّشيدُ فقولُه وفعالُه	رشدٌ وربُّك مُرشدُ الحيرانِ
وكلاهما حقٌّ فهذا وصفه	والفعل للإرشاد ذاك الثاني
والعدل من أوصافه في فعله	ومقاله والحكم بالميزانِ
فعلى الصراط المُستقيم إلٰهنا	قولاً وفعلاً ذاك في القرآنِ)[3].

المسألة الثامنة:

اسم الجلالة (المُقسط).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (المُقسط) في موضعٍ واحدٍ[4]، حيث قرَّر هذا الاسم بقوله: (له من معنى

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٥.
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٣.
(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٣١٨ ـ ٣٣٢١) ـ ص٢٤٧].
(٤) لم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة =

الملك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى، كالعزيز الجبار؛ الحكم العدل؛ الخافض الرافع؛ المعز المذل؛ العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد؛ الوالي المتعالي؛ مالك الملك؛ (المقسط)؛ الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك)[1].

فهذه بعض الأسماء الحسنى ــ التي هي أخصُّ باسم الجلالة (الربِّ) تبارك وتعالى[2]ــ ، وقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية

= (المُقسط) في هذا الموضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، ولم يرد اسم (المُقسط) صريحاً في كتاب الله العزيز؛ وإنما ورد بطريق الاشتقاق في قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٧]، وقد ورد تسميته في حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى.

وأما معناه: فقال البيهقي في [الأسماء والصفات: ١/ ٢٠٠] ــ نقلاً عن الحليمي ــ : (وهو المُنيل عباده القسط من نفسه؛ وهو العدل، وقد يكون: الجاعل لكلٍّ منهم قسطاً من خيره).

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٢) نظير هذه الأسماء الحسنى في معناها ودلالتها على اسم الجلالة (الربِّ): أسماء الجلالة: (المبين؛ والمليك)، وقد ورد ذكر اسم الجلالة (المبين) في مواضع من كتب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣١١]: (هو الله الذي لا إلـه إلا هو ربُّ العالمين؛ وقيوم السماوات والأرضين، الملك الحق (المبين)، الموصوف بالكمال كلِّه، المُنزَّه عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ؛ وعن كلِّ تمثيلٍ وتشبيهٍ في كماله).

وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (المليك) في مواضع من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة =

ـ رحمه الله تعالى ـ في مثاني كتبه؛ ونصَّ على أنها من أسماء الله الحسنى.

❑ ❑ ❑

= ۳/۱۰۲۸]: (الربُّ الذي له هذا الجند العظيم؛ ولا ينزلون إلا بأمره؛ وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك: فهو الذي قد كملت قدرته وسلطانه وملكه، وكمل علمه، فلا ينسى شيئاً أبداً، وهو القائم بتدبير أمر السماوات والأرض وما بينهما، كما هو الخالق لذلك كلِّه، وهو ربُّه و (مليكه)، فهذا الربُّ هو الذي لا سمي له، لتفرُّده بكمال هذه الصفات والأفعال).

المطلب الحادي عشر:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: القدُّوس؛ السَّلام؛ الجبَّار؛ الكبير؛ المتكبر

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (القدُّوس؛ والسَّلام؛ والجبَّار؛ والكبير؛ والمتكبر)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، مع الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والمعاني الجليلة المتعلقة باقتران بعضها ببعض، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (القدُّوس).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (القدُّوس) في عدة مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله:

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (القدُّوس) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ١٧٠، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١٠، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤١؛ ١٧٨. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: أحكام أهل الذمة ١/ ١٩٧، بدائع الفوائد ١/ ١٤٤؛ ١٥٠، شفاء =

((القدُّوس): المُنزَّه من كلِّ شرٍّ ونقصٍ وعيبٍ، كما قال أهل التفسير[1]: هو الطاهر من كلِّ عيبٍ؛ المُنزَّه عما لا يليق به، وهذا قول أهل اللغة[2].

وأصل الكلمة: من الطهارة والنزاهة، ومنه: بيت المقدس، لأنه مكانٌ يتُطهَّر فيه من الذنوب، ومن أَمَّهُ لا يريد إلا الصلاة فيه: «رجع من خطيئته كيوم ولدته أمُّه»[3].

= العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤١؛ ٤٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٤؛ ٤/ ١٤٤٤، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٤.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (القدوس) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (القدوس) في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣].

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١/ ٢١١، تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني ٥/ ٤٠٨، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٨/ ٢٢٥.

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٨/ ٣٩٥ ــ ٣٩٦، المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٥/ ٢٨٤، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٦٣ ــ ٦٤ [مادة: قدس].

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٦٦٤٤) ــ ١١/ ٢١٩ ــ ٢٢٠]، والنسائي في سننه [كتاب المساجد/ باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه ــ الحديث رقم (٦٩٢) ــ ٢/ ٣٦٤]، وابن ماجه في سننه [كتاب إقامة الصلاة/ باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس ــ الحديث رقم (١٤٠٨) ــ ٢/ ١٧٣ ــ ١٧٤] من حديث عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنهما ــ، وأوله: «إن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس».

وقد عدَّ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص٧٣ ــ ٧٤] هذا الحديث ضمن الأحاديث التي صحَّت في فضل بيت المقدس. =

ومنه سُمِّيَتْ الجنةُ: حظيرة القدس، لطهارتها من آفات الدنيا، ومنه سُمِّيَ جبريل: روح القدس، لأنه طاهرٌ من كلِّ عيبٍ.

ومنه قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]. فقيل المعنى: ونُقدِّس أنفسنا لك، فعُدِّيَ باللام، وهذا ليس بشيءٍ، والصواب: أن المعنى نُقدِّسك ونُنَزِّهك عما لا يليق بك، هذا قول جمهور أهل التفسير[2].

وقال ابن جرير: (﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[3]: ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس؛ ومما أضاف إليك أهل الكفر بك. قال: وقال بعضهم: نُعظِّمك ونمدحك، قاله أبو صالح[4]. وقال مجاهد: نُعظِّمك ونُكبرك). انتهى[5].

وقال بعضهم: (نُنَزِّهك عن السوء؛ فلا ننسبه إليك)[6].

واللام فيه على حدِّها في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾[7]، لأن المعنى: تنزيه الله؛ لا تنزيه نفوسهم لأجله.

= وصححه الألباني في [صحيح سنن ابن ماجه: الحديث رقم (١١٦٤) ــ ١/ ٤٢١].

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) انظر: معالم التنزيل للبغوي ١/ ٧٩، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١/ ١٦٧، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/ ٦١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٤) هو: باذام، ويقال: باذان، الهاشمي الكوفي، مولى أم هانىء.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ١٤٤، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ٤٣١ ــ ٤٣٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٣٧ ــ ٣٨.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١/ ٢١١.

(٦) لم أقف عليه.

(٧) سورة النمل: الآية ٧٢.

قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[1]، فإن التسبيح: تنزيه الله ــ سبحانه ــ عن كلِّ سوءٍ.

قال ميمون بن مهران[2]: (سبحان الله: كلمةٌ يُعظَّم بها الربُّ، ويُحاشى بها من السوء)[3].

وقال ابن عباس: (هي تنزيهُ لله من كلِّ سوءٍ)[4].

وأصل اللفظة: من المباعدة، من قولهم: سبحت في الأرض؛ إذا تباعدت فيها[5]، ومنه: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾[6].

فمن أثنى على الله ونزَّهه عن السوء: فقد سبَّحه، ويقال: سبَّح الله؛ وسبَّح له، وقدَّسه؛ وقدَّس له)[7].

وقد عدَّ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته اسم الجلالة (القدُّوس) ضمن تعداده لأسماء الله الحسنى؛ فقال:

(هذا ومن أوصافه القدوس ذو التَّـ   ـنزيه بالتعظيم للرحمنِ)[8].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) هو: أبو أيوب الجزري، عالم الجزيرة ومفتيها، ولد سنة أربعين، وتوفي سنة سبع عشرة ومائة.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٩/ ٢١٠ ــ ٢٢٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٧١ ــ ٧٨، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٤٦.

(٣) أخرجه الطبراني في الدعاء [باب تفسير التسبيح ــ رقم (١٧٦٤) ــ ٣/ ١٥٩٤].

(٤) أخرجه الطبراني في الدعاء [باب تفسير التسبيح ــ رقم (١٧٥٧) ــ ٣/ ١٥٩٢].

(٥) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٤/ ٣٣٧، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٣/ ١٥٣ ــ ١٥٤، لسان العرب لابن منظور ٢/ ٤٧٠ ــ ٤٧١ [مادة: سبح].

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٣٣، سورة يس: الآية ٤٠.

(٧) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١٠ ــ ٥١١.

(٨) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٣٢٢) ــ ص٢٤٧].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (السّلام).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (السَّلام) في عدة مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر هذا الاسم بقوله: ((السَّلام): هو الله تعالى)[2].

وقد حكى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ما وقع بين

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (السَّلام) ــ على وجه الخصوص ــ: أحكام أهل الذمة ١/١٩٣؛ ١٩٤؛ ١٩٧، بدائع الفوائد ١/٢٠؛ ١٧٠؛ ٢/١١٩؛ ١٢٣؛ ١٦٩؛ ٣/١١٦؛ ١١٧؛ ١١٨؛ ١١٩؛ ١٦٥؛ ١٦٨؛ ١٦٩، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص١٣٣، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٥١٠؛ ٥١١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٢٢٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٤١؛ ١٧٨.
وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: أحكام أهل الذمة ١/١٩٣؛ ١٩٤؛ ١٩٥؛ ١٩٦؛ ١٩٧، بدائع الفوائد ١/٢٠؛ ١٤٤؛ ١٤٦؛ ١٥٠؛ ٣/١١٦؛ ١١٧؛ ١١٨؛ ١١٩؛ ١٦٥؛ ١٦٨؛ ١٦٩، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص١٣٣، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٤١؛ ٤٣؛ ٢/٥١٠؛ ٥١١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٢٢٠؛ ٣/١١١٤؛ ٤/١٤٤٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٤١؛ ١٧٨، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٤.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (السَّلام) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (السَّلام) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣].

(٢) بدائع الفوائد ١/٢٠.

أهل العربية من التنازع في أصل اسم الجلالة (السَّلام)؛ مبيِّناً أحسن هذه الأقوال وأقيسها؛ فقال: ((السَّلام) الذي هو اسمٌ من أسماء الله: ففيه قولان:

أحدهما: أنه كذلك اسم مصدرٍ، وإطلاقه عليه: كإطلاق العدل عليه، والمعنى: أنه ذو السَّلام؛ وذو العدل، على حذف المضاف.

والثاني: أن المصدر بمعنى الفاعل هنا، أي: السالم، كما سميت ليلة القدر: سلاماً، أي: سالمة من كلِّ شرٍّ؛ بل هي خيرٌ لا شرَّ فيها.

وأحسن من القولين؛ وأقيس في العربية: أن يكون نفس (السَّلام) من أسمائه تعالى؛ كالعدل، وهو من باب إطلاق المصدر على الفاعل لكونه غالباً عليه؛ مكرراً منه، كقولهم: رجل صَوْمٌ وعَدْلٌ وزُورٌ؛ وبابه)[1].

وفي معرض الكلام عن إضافة الجنة إلى السَّلام؛ وهل هو من إضافتها إلى مالكها (السَّلام) ـ سبحانه ـ، أو من إضافتها إلى تحية أهلها، أو من إضافتها إلى معنى السَّلامة: قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ أن الله تعالى أحقُّ وأولى باسم (السَّلام) من كلِّ مسمَّى به؛ فقال: (إطلاق (السَّلام) على الله تعالى اسماً من أسمائه: هو أَوْلَى من هذا كلِّه؛ وأحقُّ بهذا الاسم من كلِّ مُسمَّى به، لسلامته ـ سبحانه ـ من كلِّ عيبٍ ونقصٍ من كلِّ وجهٍ.

فهو (السَّلام) الحقُّ بكلِّ اعتبارٍ، والمخلوق سلامٌ بالإضافة، فهو ـ سبحانه ـ (سلامٌ) في ذاته عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ يتخيَّلُه وَهْمٌ، و (سلامٌ) في صفاته من كلِّ عيبٍ ونقصٍ، و (سلامٌ) في أفعاله من كلِّ عيبٍ ونقصٍ وشرٍّ وظلمٍ وفعلٍ واقعٍ على غير وجه الحكمة، بل هو (السَّلامُ) الحقُّ من كلِّ وجهٍ؛ وبكلِّ اعتبارٍ.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١١٩.

فعُلِمَ أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم: أكملُ من استحقاق كلِّ ما يُطلق عليه، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزَّه به نفسه؛ ونزَّهه به رسوله، فهو (السَّلامُ) من الصاحبة والولد، و (السَّلامُ) من النظير والكفء والسميِّ والمماثل، و (السَّلامُ) من الشريك.

ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله: وجدت كلَّ صفةٍ سلاماً مما يُضادُّ كمالها، فحياته (سلامٌ) من الموت ومن السِّنة والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته (سلامٌ) من التعب واللغوب، وعلمه (سلامٌ) من عزوب شيءٍ عنه أو عروض نسيانٍ أو حاجةٍ إلى تذكُّرٍ وتفكُّرٍ، وإرادته (سلامٌ) من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته (سلامٌ) من الكذب والظلم؛ بل تمت كلماته ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[1].

وغناه (سلامٌ) من الحاجة إلى غيره بوجهٍ ما؛ بل كلُّ ما سواه محتاجٌ إليه؛ وهو غنيٌّ عن كلِّ ما سواه، وملكه (سلامٌ) من منازعٍ فيه أو مشاركٍ أو معاونٍ مظاهرٍ أو شافعٍ عنده بدون إذنه، وإلـٰهيته (سلامٌ) من مشاركٍ له فيها؛ بل ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2].

وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه (سلامٌ) من أن تكون عن حاجةٍ منه أو ذُلٍّ أو مصانعةٍ كما يكون من غيره؛ بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه (سلامٌ) من أن يكون ظلماً أو تشفياً أو غلظة أو قسوة؛ بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها؛ وهو مما يستحقُّ عليه الحمد والثناء كما يستحقُّه على إحسانه وثوابه ونعمه، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة: لكان مناقضاً

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٥.

(٢) سورة الحشر: الآيتان ٢٢؛ ٢٣.

لحكمته ولعِزَّته، فوضعه العقوبة موضعها هو من عدله وحكمته وعزته، فهو (سلامٌ) مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته وقضائه وقدره، (سلامٌ) من العبث والجور والظلم ومن توهُّم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة وشرعه ودينه، (سلامٌ) من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته، بل شرعه كلُّه حكمة ورحمة ومصلحة وعدل.

وكذلك عطاؤه (سلامٌ) من كونه معاوضة أو لحاجةٍ إلى المُعْطَى، ومنعه (سلامٌ) من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسانٌ محضٌ لا لمعاوضةٍ ولا لحاجةٍ، ومنعه عدلٌ محضٌ وحكمةٌ لا يشوبه بخلٌ ولا عجزٌ.

واستواؤه وعُلُوُّه على عرشه (سلامٌ) من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه؛ بل العرش محتاجٌ إليه وحملته محتاجون إليه، فهو الغنيُّ عن العرش وعن حملته وعن كلِّ ما سواه، فهو استواءٌ وعُلُوٌّ لا يشوبه حصرٌ ولا حاجةٌ إلى عرش ولا غيره ولا إحاطة شيءٍ به ـ سبحانه وتعالى ـ، بل كان ـ سبحانه ـ ولا عرش ولم يكن به حاجة إليه؛ و ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾[1]، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرشٍ ولا غيره بوجهٍ ما.

ونزوله كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا (سلامٌ) مما يُضادُّ عُلُوَّه، و (سلامٌ) مما يُضادُّ غناه وكماله، (سلامٌ) من كلِّ ما يتوهَّم معطلٌ أو مشبِّهٌ، و (سلامٌ) من أن يصير تحت شيءٍ أو محصوراً في شيءٍ، تعالى الله ربُّنا عن كلِّ ما يُضادُّ كماله وغناه.

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٦، سورة فاطر: الآية ١٥، سورة الحديد: الآية ٢٤، سورة الممتحنة: الآية ٦.

وسمعه وبصره (سلامٌ) من كلِّ ما يتخيَّله مشبِّهٌ؛ أو يتقوَّله معطلٌ.

وموالاته لأوليائه (سلامٌ) من أن تكون عن ذلٍّ كما يُوالي المخلوقُ المخلوقَ، بل هي موالاة رحمةٍ وخيرٍ وإحسانٍ وبرٍّ، كما قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾[1]. فلم ينف أن يكون له وليٌّ مطلقاً؛ بل نَفَى أن يكون له وليٌّ من الذُلِّ.

وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه (سلامٌ) من عوارض محبة المخلوق للمخلوق؛ من كونها محبة حاجةٍ إليه أو تملُّقٍ له أو انتفاعٍ بقربه؛ و (سلامٌ) مما يتقوَّله المعطلون فيها.

وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه: فإنه (سلامٌ) عما يتخيَّله مشبِّهٌ أو يتقوَّله معطلٌ.

فتأمل كيف تضمَّن اسمه (السَّلام) كلَّ ما نُزِّه عنه ــ تبارك وتعالى ــ، وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمَّنه من هذه الأسرار والمعاني؟)[2].

وفي ختم الصلاة باسم الجلالة (السَّلام) من الخاصية والحكمة ما يُناسب انصراف المُصلِّي من بين يدي الله تعالى، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض تلك الخواصِّ والحكم؛ فقال: (الباب الذي يدخل منه المصلي؛ وهو التحريم، وأما الباب الذي يخرج منه فهو: باب السَّلام؛ المتضمن أحد الأسماء الحسنى، فيكون مُفتتحاً لصلاته باسمه ــ تبارك وتعالى ــ ؛ ومختتماً لها باسمه، فيكون ذاكراً لاسم ربِّه أوَّلَ الصلاة وآخرَها، فأولها باسمه؛ وآخرها باسمه، فدخل فيها باسمه؛ وخرج منها باسمه.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١١١.

(٢) بدائع الفوائد ٢/١١٦ ــ ١١٨.

مع ما في اسم (السَّلام) من الخاصية والحكمة المناسبة لانصراف المُصلِّي من بين يدي الله تعالى، فإن المُصلِّي ما دام في صلاته بين يدي ربِّه: فهو في حماه الذي لا يستطيع أحدٌ أن يخفره؛ بل هو في حِمَى من جميع الآفات والشرور، فإذا انصرف من بين يديه ــ تبارك وتعالى ــ: ابتدرته الآفات والبلايا والمحن؛ وتعرَّضت له من كلِّ جانبٍ، وجاءه الشيطان بمصائده وجنده، فهو مُتعرِّضٌ لأنواع البلايا والمحن، فإذا انصرف من بين يدي الله مصحوباً بالسَّلام: لم يزل عليه حافظٌ من الله إلى وقت الصلاة الأخرى، وكان من تمام النعمة عليه: أن يكون انصرافه من بين يدي ربِّه بسلامٍ يستصحبه ويدوم له ويبقى معه.

فتدبَّر هذا السرَّ؛ الذي لو لم يكن في هذا التعليق غيره: لكان كافياً، فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجد عند أبناء الزمان؟ والحمد في ذلك لله وحده، فكما أن المُنْعِمَ به هو الله وحده: فالمحمود عليه هو الله وحده)[1].

واسم الجلالة (السَّلام) يستلزم سلامة كلِّ ما نُسب إلى القدُّوس السَّلام ــ سبحانه وتعالى ــ، ومن ذلك الجنة التي أعدَّها الله لعباده المتقين، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في سياق ذكر أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقاتها: (دار السَّلام؛ وقد سمَّاها الله بهذا الاسم في قوله: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[2]. وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[3].

وهي أحقُّ بهذا الاسم، فإنها دار السَّلامة من كلِّ بليةٍ وآفةٍ ومكروهٍ،

(١) بدائع الفوائد ٢/١٦٨ ــ ١٦٩.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٧.
(٣) سورة يونس: الآية ٢٥.

وهي دار الله؛ واسمه ـ سبحانه وتعالى ـ : (السَّلام)؛ الذي سلَّمها وسلَّم أهلها[1])[2].

ولما كان للربِّ ـ تبارك وتعالى ـ أحسن الأسماء دون حسنها: جاء وصفه ـ سبحانه وتعالى ـ باسم (السلام) دون اسم السالم، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (اسمه: (السَّلام)، فإنه الذي سَلِمَ من العيوب والنقائص.

ووصفه بـ (السَّلام): أبلغ في ذلك من وصفه بالسَّالم، ومن موجبات وصفه بذلك: سلامة خَلْقِه من ظلمه لهم، فسَلِمَ ـ سبحانه ـ من إرادة الظلم والشرِّ؛ ومن التسمية به؛ ومن فعله؛ ومن نسبته إليه.

فهو: (السَّلام) من صفات النقص وأفعال النقص وأسماء النقص، المُسَلِّمُ لخلقه من الظلم، ولهذا وصف ـ سبحانه ـ ليلة القدر بأنها: ﴿سَلَٰمٌ﴾[3]، والجنة بأنها: ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾[4]، وتحية أهلها: السَّلام، وأثنى على أوليائه بالقول السَّلام، كلُّ ذلك السَّالم من العيوب)[5].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (السَّلام) في نونيته؛ فقال:

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: البيتان رقم (٤٩٤٧ ـ ٤٩٤٨) ـ ص٣٤٩]:

(دارُ السَّلامِ وجنةُ المأوى ومَنْـ ـزِلُ عَسْكَرِ الإيمانِ والقرآنِ
فالدارُ دارُ سلامةٍ وخطابُهم فيها سلامٌ واسمُ ذي الغُفْرانِ).

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص١٣٣.

(٣) سورة القدر: الآية ٥.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٢٧، سورة يونس: الآية ٢٥.

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١١.

(وهو السَّلام على الحقيقة سَالِمٌ   مـن كـلِّ تمثيـلٍ ومـن نُقْصَـانِ)[1].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الجبَّار).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الجبار) في مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله: (قال محمد بن كعب القرظي[3] في اسم (الجبَّار): (إنه ــ سبحانه ــ هو الذي جبر العباد على ما أراد)[4].

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٣٢٣) ــ ص٢٤٧].

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الجبَّار) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ٢/ ١٢٣؛ ٢١٢، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٦٥؛ ٣٦٦؛ ٣٨٦؛ ٢/ ٥١٠، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٧٨. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٤.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الجبَّار) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الجبَّار) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣].

(٣) هو: أبو حمزة المدني، العلامة الصادق المفسر، توفي سنة ثمان ومائة.

انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٦٧، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني ٣/ ٢١٢ ــ ٢٢١، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٦٥ ــ ٦٨.

(٤) أخرجه الخلال في السنة [رقم (٩٣٥) ــ ٣/ ٥٥٧].

وفي الدعاء المعروف عن علي ـ رضي الله عنه ـ : (اللَّـٰهُمَّ داحي المدحوات؛ وبارىء المسموكات؛ جبَّار القلوب على فطرتها شقيِّها وسعيدها)[1].

فالجبر بهذا المعنى معناه: القهر والقدرة، وأنه ـ سبحانه ـ قادرٌ على أن يفعل بعبده ما شاء، وإذا شاء منه شيئاً: وقع ولا بُدَّ؛ وإن لم يشأ لم يكن، ليس كالعاجز الذي يشاء ما لا يكون؛ ويكون ما لا يشاء)[2].

واسم الجلالة (الجبَّار) يتضمن معاني: الملك والقهر والعلو، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأما (الجبَّار) من أسماء الربِّ تعالى؛ فقد فُسِّرَ بأنه: الذي يجبر الكسير؛ ويغني الفقير[3].

والربُّ ـ سبحانه ـ كذلك، ولكن ليس هذا معنى اسمه (الجبَّار)؛ ولهذا قرنه باسمه (المُتكبِّر)، وإنما هو الجبروت، وكان النبي ﷺ يقول: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه [كتاب الدعاء/ باب ما جاء عن علي رضي الله عنه مما دعا مما بقي من دعائه ـ رقم (٢٩٥٢٠) ـ ٦/ ٦٦]، وكذا حكاه ابن عبد البر في [التمهيد: ١٨/ ٧٩].

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٣) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ٥٩، معالم التنزيل للبغوي ٨/ ٨٧، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ٣١.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٣٩٨٠) ـ ٣٩/ ٤٠٥]، وأبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ـ الحديث رقم (٨٧٣) ـ ١/ ٥٤٤]، والترمذي في الشمائل [باب ما جاء في صوم رسول الله ﷺ ـ الحديث رقم (٣٠٧) ـ ص١٤٧ ـ ١٤٨]، والنسائي في سننه [كتاب التطبيق/ باب الذكر في الركوع ـ الحديث رقم (١٠٤٨) ـ ٢/ ٥٣٦]، من حديث عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ . =

فـ (الجبَّار): اسمٌ من أسماء التعظيم، كالمتكبِّر والملك والعظيم والقهَّار.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[1]: (هو العظيم، وجبروت الله: عظمته)[2].

و (الجبَّار): من أسماء الملوك، والجبر الملك، والجبابرة الملوك، قال الشاعر[3]:

(. . . . . وأنعـم صبـاحـاً أيُّهـا الجبـرُ)[4].

أي: أيها الملك.

وقال السدي[5]: (هو الذي يجبر الناس ويقهرهم على ما يريد)[6].

= وصححه الألباني في [صحيح سنن أبـي داود: ١/ ٢٤٧].

(١) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٢) انظر: معالم التنزيل للبغوي ٨/ ٨٧، زاد المسير إلى علم التفسير لابن الجوزي ٨/ ٢٢٧، الجامع لأحكام القرآن للقرطبـي ١٨/ ٣١.

(٣) هو: ابن أحمر.

(٤) وصدر هذا البيت:
(أسْلَـمْ بـراوُوقٍ حُيِّيـت بـه . . . .).
انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ٥٩، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٧/ ٢٨٤، لسان العرب لابن منظور ٤/ ١١٤ [مادة: جبر].

(٥) هـو: أبو محمـد إسماعيل بـن عبـد الرحمن الحجازي ثـم الكوفي، توفـي سنة سبع وعشرين ومائة.
انـظر: سير أعـلام النبلاء للذهبـي ٥/ ٢٦٤ ــ ٢٦٥، النجـوم الزاهرة فـي ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ١/ ٣٠٨، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ١١٠.

(٦) انظر: معالم التنزيل للبغوي ٨/ ٨٧، زاد المسير إلى علم التفسير لابن الجوزي ٨/ ٢٢٧.

وعلى هذا؛ فـ (الجبَّار) معناه: القهَّار.

وقال محمد بن كعب: (إنما سُمِّيَ الجبار: لأنه جبر الخلق على ما أراد)[1].

والخلق أدقُّ شأناً من أن يعصوا ربَّهم طرفة عين إلا بمشيئته.

قال الزجاج: (الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد)[2].

وقال ابن الأنباري[3]: (الجبار في صفة الربِّ ــ سبحانه ــ: الذي لا يُنال، ومنه قولهم: نخلة جبَّارة إذا فاتت يد المتناول)[4].

فـ (الجبَّار) في صفة الربِّ ــ سبحانه ــ ترجع إلى ثلاثة معانٍ: الملك والقهر والعلو؛ فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سُمِّيت: جبارة[5])[6].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ١٥١.

(٣) هو: أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار، المقرىء النحوي، ولد سنة اثنتين وسبعين ومائتين، وتوفي ببغداد يوم الأضحى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة؛ عن سبع وخمسين سنة.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٥/ ٢٧٤ ــ ٢٧٩، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي ص٢١٢ ــ ٢١٣، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٢٣٠ ــ ٢٣٢.

(٤) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ٥٨.

(٥) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ٥٧، الصحاح للجوهري ٢/ ٦٠٨، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٥٠١ [مادة: جبر].

(٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٦٥ ــ ٣٦٦.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الجبَّار) في نونيته؛ فقال:

(وكذلك الجبارُ من أوصافه ... والجَبْرُ في أوصافه قسمانِ
جَبْرُ الضعيفِ وكلِّ قلبٍ قَدْ غَدَا ... ذا كسرةٍ فالجَبْرُ منه دانِ
والثاني جَبْرَ القَهْرِ بالعِزِّ الذي ... لا ينبغي لسواه من إنسانِ
وله مُسمَّى ثالثٌ وهو العُلُوُّ ... فليس يَدْنُو منه من إنسانِ
من قولهم جبَّارة للنَّخْلِة الـ ... ـعُلْيَا التي فَاتَتْ لكلِّ بنانِ)[1].

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (الكبير).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الكبير) في عدَّة مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر هذا الاسم بقوله:

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٣١٢ ــ ٣٣١٦) ــ ص٢٤٦].

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الكبير) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١١.

وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٨، الداء والدواء ص١٣٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٧٥، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣، الفوائد ص٢٠٣.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الكبير) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الكبير) في ست آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: =

(أهل السنة أثبتوا له العلو والعظمة بكلِّ اعتبارٍ، ومثل هذا: وصفه ـ سبحانه ـ بأنه (الكبير) المتعالي، فالكبير يُوصف به الذاتُ؛ وصفاتها القائمة بها)[1].

المسألة الخامسة:

اسم الجلالة (المُتكبِّر).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (المُتكبِّر) في مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر هذا الاسم بقوله: (لا ريب أن الله ـ سبحانه ـ وصف نفسه بصفات؛ وسمى نفسه بأسماء؛ وأخبر عن

= ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النساء: الآية ٣٤].

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٧٥.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (المُتكبِّر) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ٢/ ١٢٣؛ ٢١٢، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٦٦؛ ٢/ ٥١٠؛ ٥١١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٧٨.

وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٤.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (المُتكبر) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (المُتكبر) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣].

نفسه بأفعال، فسمى نفسه بالرحمن الرحيم؛ الملك القدوس السلام؛ المؤمن المهيمن؛ العزيز الجبار (المتكبر)، إلى سائر ما ذكر من أسمائه الحسنى)[1].

واسما الجلالة (الكبير؛ والمتكبِّر) متقاربان في المعنى، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ معناهما بقوله: ((الكبير): من أسمائه؛ و (المتكبر).

قال قتادة وغيره: (هو الذي تكبَّر عن السوء)[2].

وقال أيضاً: (الذي تكبَّر عن السيئات)[3].

وقال مقاتل[4]: (المُتعظِّم عن كلِّ سوءٍ)[5].

وقال أبو إسحاق[6]: (الذي يكبر عن ظلم

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠.

(٢) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن [٢/ ٢/ ٢٨٥]، والطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٢٨/ ٥٦]، وأبو الشيخ في العظمة [ذكر تعظيم الربِّ تبارك وتعالى وأنه لا يُدرك ولا يُوصف ولا يُحاط به تعالى وتقدس ــ رقم (٧٦) ــ ١/ ٣٤٢ ــ ٣٤٣].

(٣) انظر: النكت والعيون للماوردي ٥/ ٥١٤.

(٤) هو: أبو بسطام مقاتل بن حيان البلخي، العالِم المُفسِّر المُحدِّث، توفي في حدود الخمسين ومائة.
انظر في ترجمته: مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار لابن حبان ص٣٠٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/ ٣٤٠ ــ ٣٤١، طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٣٢٩ ــ ٣٣٠.

(٥) لم أقف عليه.

(٦) هو: أبو إسحاق السبيعي، عمرو بن عبد الله الهمداني الكوفي، شيخ الكوفة وعالمها ومحدِّثها، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان ــ رضي الله عنه ــ، =

عباده)[1])[2].

وقد قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (المُتكبِّر) باسمي الجلالة (القدوس؛ والسلام).

فمن أسرار هذا الاقتران:

١ ــ أن الخيرات كلَّها من الله ــ سبحانه وتعالى ــ، فهو الذي يأتي بالحسنات؛ ويذهب بالسيئات، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: ((القدُّوس): الذي تقدَّس عن كلِّ عيبٍ؛ وكذلك (السَّلام) و (المتكبِّر).

قال ميمون بن مهران: (تكبَّر عن السوء والسيئات؛ فلا يصدر منه إلا الخيرات)[3].

والخيرات كلُّها منه، فهو الذي يأتي بالحسنات؛ ويذهب بالسيئات، ويُصلح الفاسد؛ ولا يُفسد الصالح، بل ما أَفْسَدَ إلا فاسداً؛ وإن كان الظاهر الذي يبدو للناس صالحاً، فهو يعلم منه ما لا يعلم عباده)[4].

٢ ــ أن الشرَّ لا يدخل في أسماء الله ــ سبحانه وتعالى ــ ولا في صفاته ولا في أفعاله، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (الخير كلُّه في يَدَيْ

= وتوفي سنة سبع وعشرين ومائة، وعاش ثلاثاً وتسعين سنة.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٢/ ١٠٢ ــ ١١٣، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٣٩٢ ــ ٤٠١، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٥٠ ــ ٥١.

(١) لم أقف عليه.
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١١.
(٣) لم أقف عليه.
(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٤٧.

الربِّ، والشرُّ ليس إليه، فلا يدخل في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله؛ وإن دخل في مفعولاته بالعرض لا بالذات، وبالقصد الثاني لا الأول دخولاً إضافياً، وأما الخير فهو داخلٌ في أسمائه وصفاته وأفعاله ومفعولاته بالذات والقصد الأول.

فالشرُّ إنما يُضاف له مفعوله لا فعله، وفعله خيرٌ محضٌ، وهذا من معاني أسمائه المقدسة؛ كـ (القدُّوس) و (السَّلام) و (المتكبِّر))[1].

٣ ــ أنَّ الربَّ ــ تبارك وتعالى ــ مُنزَّهٌ عن الظلم، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (تنزَّه ــ سبحانه ــ عن الظلم ــ الذي حقيقته: وضع الشيء في غير موضعه؛ كما تقدم ــ .

فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خيرٌ كلُّه، والشرُّ: وضع الشيء في غير محلِّه، فإذا وُضِعَ في محلِّه: لم يكن شراً، فعُلِمَ أن الشرَّ ليس إليه.

وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك، فإن منها: (القدُّوس السَّلام العزيز الجبَّار المتكبِّر))[2].

كما قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (العزيز) باسمي الجلالة (الجبار؛ والمُتكبِّر)؛ مُبيِّناً أنَّ اسمي الجلالة (الجبار؛ والمتكبر) يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم الجلالة (العزيز)؛ فقال: (جعل ــ سبحانه ــ اسمه (الجبَّار) مقروناً بـ : (العزيز والمتكبر)، وكلُّ واحدٍ من هذه الأسماء الثلاثة تضمَّن الاسمين الآخرين.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٤٦ ــ ٢٤٧.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١٠ ــ ٥١١.

وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة وهي: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾(١).

فـ (الجبَّار) و (المُتكبِّر) يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم (العزيز)، كما أن البارىء المصور: تفصيل لمعنى اسم الخالق.

فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك.

ولهذا كان من أسمائه الحسنى، وأما المخلوق فاتصافه بالجبار: ذمٌّ له ونقصٌ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾(٢).

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾(٣). أي مُسلَّطٌ تقهرهم وتُكرههم على الإيمان.

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس»(٤))(٥).

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢٤.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٥.

(٣) سورة ق: الآية ٤٥.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب صفة القيامة والرقائق والورع/ باب (٤٧) ـ الحديث رقم (٢٤٩٢) ـ ٤/٢٦٨]، وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٦٦٧٧) ـ ١١/ ٢٦٠]، والبخاري في أدبه المفرد [باب الكبر ـ الحديث رقم (٥٦٨) ـ ص١٢٢]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب الرقائق ـ الحديث رقم (١١٨٢٧) ـ ١٠/٣٩٨] من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ .
وحسنه الألباني في [صحيح الأدب المفرد: الحديث رقم (٤٣٤) ـ ص٢٠٩ ـ ٢١٠].

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧.

فهـذه بعـض الأسمـاء الحسنـى ــ التـي هـي أخـصُّ بـاسـم الجـلالـة (الربِّ) ــ ، وقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مثاني كتبه؛ ونصَّ على أنها من أسماء الله الحسنى[1].

❑ ❑ ❑

(١) نظير هذه الأسماء الحسنى ــ الواردة في هذا المطلب ــ في معناها ودلالتها على تنزيه اسم الجلالة (الربِّ) ــ مما لم يرد له ذِكْرٌ في كتب الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ــ : اسم الجلالة (السُّبُّوح)، وقد دلَّ عليه: دعاء النبـي ﷺ في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكة والرُّوح» المُخرَّج في صحيح مسلم [كتاب الصلاة/ باب ما يقال في الركوع والسجود ــ الحديث رقم (٤٨٧) ــ ١/ ٣٥٣] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ .
وأمـا معنـاه: فقـال البيهقـي فـي [الأسمـاء والصفـات ١/ ١٠٤] ــ نقـلاً عـن الحليمي ــ : (إنه مُنزَّهٌ عن المعائب والصفات التي تعتور المُحدثين من ناحية الحدوث، والتسبيح: التنزيه).

المطلب الثاني عشر:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الخالق؛ الخلاق؛ البارىء؛ المصوِّر

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (الخالق؛ والخلاق؛ والبارىء؛ والمصوِّر)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، مع الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران بعضها ببعض، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (الخالق).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة: (الخالق) في مواضع كثيرةٍ من كتبه[1]، حيث قرَّر أن هذا الاسم مما أُطلق

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الخالق) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ١/١٤٨؛ ١٥٢؛ ٢/٢١٢، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٨، الروح ص٣٥٤، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٣٦٦، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد =

على الله تعالى باعتبار فعله؛ وهو الخلق، فقال: (إنَّ مِن أسمائه ما يُطلق

= وإياك نستعين ١/ ٢٣٠؛ ٤٥١؛ ٣/ ٣٧١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٦١. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: أحكام أهل الذمة ٢/ ٥٦٣، إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٣٠٠، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣٤١؛ ٢/ ٢٨٣؛ ٢٨٤؛ ٣٢٢؛ ٣٢٣؛ ٣٢٥؛ ٣٢٧؛ ٣٢٨؛ ٣٤٠، بدائع الفوائد ١/ ١٤٤؛ ١٧٣؛ ٢/ ١٥٧؛ ١٧٩؛ ١٨٠؛ ٤/ ١١٣؛ ١١٦؛ ١٤٧، التبيان في أقسام القرآن ص٦٢؛ ٢٠٧؛ ٢٢٤؛ ٢٩٦؛ ٣٥٨؛ ٣٧٨؛ ٤٢٠، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٤؛ ٦٤١، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص١٢٧؛ ٢٥٣؛ ٤١٣؛ ٤٥٤، الداء والدواء ص٥٦،؛ ١٣٣؛ ١٩٩، الروح ص٣٦٢؛ ٣٧١؛ ٤٨٢، زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٣١٦؛ ٢/ ٤٦٢؛ ٤/ ٣٩٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٦٥؛ ٢٠٣؛ ٢٠٤؛ ٢٠٦؛ ٢٠٨؛ ٣٠٥؛ ٣٣٢؛ ٣٩٢؛ ٢/ ٤٥١؛ ٤٥٦؛ ٥١٢؛ ٦٠٧؛ ٧٣٩؛ ٧٤٧؛ ٨٢١؛ ٨٢٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٧٤؛ ٤٩١؛ ٤٩٢؛ ٦٤٤؛ ٣/ ٨٩٤؛ ٩١٦؛ ٩٤٠؛ ٩٤٧؛ ٩٨٢؛ ٩٨٣؛ ١٠١٨؛ ١٠٢٨؛ ١٠٩٢؛ ١٢٠٦؛ ٤/ ١٢٢١؛ ١٢٣٦؛ ١٣٠٦؛ ١٣١٤؛ ١٣٢٩؛ ١٣٤١؛ ١٣٥٥؛ ١٣٦١؛ ١٤٥٨؛ ١٤٦٢؛ ١٤٩٠؛ ١٥١٠؛ ١٥١١؛ ١٥١٢؛ ١٥٦٧، ومختصره ٢/ ٢٩٢؛ ٢٩٣؛ ٢٩٤؛ ٣٢٨؛ ٣٢٩؛ ٣٣٨؛ ٣٤٢؛ ٣٤٤؛ ٤٠٩؛ ٤٢٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٧؛ ٥٦؛ ٨٨؛ ١١٣؛ ٢٠٣؛ ٢١٤؛ ٢٥٧؛ ٤٢٦، الفوائد ص١٤٣؛ ١٧٧؛ ١٨٤؛ ١٩٨، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٢٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٣؛ ٧١؛ ٤٥١؛ ٢/ ٤٦؛ ١٩٢؛ ٢٠٣؛ ٢٦٢؛ ٣/ ١١٧؛ ١٥٨؛ ٣٠٠؛ ٣٧١؛ ٣٧٢؛ ٣٧٣؛ ٣٧٤؛ ٣٧٦؛ ٣٨٠؛ ٣٨٨؛ ٣٩٧؛ ٤١٦؛ ٤٣٤؛ ٥٠٨؛ ٥٣٢؛ ٥٣٤، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣١٢؛ ٢/ ٢٤٣؛ ٢٦١؛ ٣٢٥؛ ٤٥٧؛ ٤٧٩؛ ٣/ ١٧٧، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٠.

عليه باعتبار الفعل، نحو: (الخالق))[1].

كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ الدلالة الفطرية على الإقرار باسم الجلالة (الخالق)، وأن أهل الإسلام؛ بل وأهل الملل، (كلَّهم متفقون على أن الله وحده: (الخالق)؛ وكلٌّ ما سواه مخلوقٌ موجودٌ بعد عدمه، وليس معه غيره من المخلوقات يكون وجوده مساوياً لوجوده)[2]؛ فقال: (إنه ليس في المعلومات أظهر من كون الله: (خالقاً)، ولهذا أقرَّت به جميع الأمم ـ مؤمنهم وكافرهم ـ، ولظهور ذلك؛ وكون العلم به بديهياً فطرياً: احتجَّ الله به على من أشرك به في عبادته فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3]؛ في غير موضعٍ من كتابه.

فعُلِمَ أن كونه ـ سبحانه ـ (خالقاً): من أظهر شيءٍ عند العقول، فكيف يكون الخبر عنه بذلك مجازاً؛ وهو أصل كلِّ حقيقةٍ، فجميع الحقائق تنتهي إلى خلقه وإيجاده، فهو الذي خلق وهو الذي علَّم، كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[4].

فجميع الموجودات انتهت إلى خلقه وتعليمه، فكيف يكون كونه خالقاً عالماً مجازاً؟ وإذا كان كونه خالقاً عالماً مجازاً: لم يبق له فعلٌ حقيقة ولا اسمٌ حقيقة، فصارت أفعاله كلُّها مجازات، وأسماؤه الحسنى كلُّها مجازات)[5].

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٤٨.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٤٥٦.

(٣) سورة لقمان: الآية ٢٥، سورة الزمر: الآية ٣٨.

(٤) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٥.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٢٨.

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (فإن جميع أهل الإسلام متفقون على أن الله (خالق) حقيقة لا مجازاً، بل وعباد الأصنام وجميع الملل)[1].

والسبب في اتفاق أهل ملَّة الإسلام؛ بل وجميع الملل على ذلك: أنه قد استقرَّ في فطر الخلائق كلِّها الإقرار بالربِّ ــ تبارك وتعالى ــ الذي خلقها وفطرها وبرأها وصوَّرها، والإقرار بكماله المطلق الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا السبب بقوله: (إن في الفطرة: الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه للخالق ــ سبحانه ــ ، ولكن معرفة هذا الكمال على التفصيل مما يتوقف على الرسل، وكذلك تنزيهه عن النقائص والعيوب: هو أمرٌ مستقرٌّ في فطر الخلائق، خلافاً لمن قال من المتكلمين: إنه لم يقم دليلٌ عقليٌّ على تنزيهه عن النقائص، وإنما عُلِمَ بالإجماع.

قبحاً لهاتيك العقول فإنها عقالٌ على أصحابها ووبالُ.

فليس في العقول أبينُ ولا أجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم؛ وتنزيهه عن العيوب والنقائص، وجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها)[2].

وإذا كان الاعتراف باسم الجلالة (الخالق) علماً ضروريًّا لازماً (للإنسان؛ لا يغفل عنه أحدٌ بحيث لا يعرفه، بل لا بُدَّ أن يكون قد عرفه؛ وإن قُدِّر أنه نسيه)[3]: فذلك الاعتراف يستلزم أموراً ضرورية عدة، وقد

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٣٢٨.
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٢٠٨.
(٣) أحكام أهل الذمة ٢/٥٦٣.

اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـــ رحمه الله تعالى ـــ بذكر بعض هذه الأمور، فمن ذلك:

١ ـــ الإقرار بوحدانية الخالق تعالى في العبادة؛ وأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، وقد قرَّر ـــ رحمه الله تعالى ـــ ذلك بقوله: (قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾[1]. فنبَّه بهذا أيضاً على وجوب عبادته وحده؛ وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود، وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريكٍ باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضعٍ من القرآن: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2].

فإذا كان هو وحده (الخالق)؛ فكيف لا يكون وحده المعبود؟ وكيف يجعلون معه شريكاً في العبادة؛ وأنتم مُقرُّون بأنه لا شريك له في الخلق؟

وهذه طريقة القرآن، يستدلُّ بتوحيد الربوبية على توحيد الإلـٰهية)[3].

٢ ـــ الإقرار بحياة (الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته)[4]، وقد قرَّر ـــ رحمه الله تعالى ـــ ذلك بقوله: (من طرق إثبات الصفات: وهو دلالة الصنعة عليها، فإن المخلوق يدلُّ على وجود خالقه، على حياته وعلى قدرته وعلى علمه ومشيئته.

فإن الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزاماً ضرورياً، وما فيه من الإتقان والإحكام ووقوعه على أكمل الوجوه يدلُّ على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدلُّ على

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٥، سورة الزمر: الآية ٣٨.

(٣) بدائع الفوائد ٤/ ١١٣.

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٠٨.

رحمة خالقه وإحسانه وجوده، وما فيه من آثار الكمال يدلُّ على أن خالقه أكمل منـه، فمعطي الكمال أحقُّ بالكمال، وخالق الأسماع والأبصار والنطق أحقُّ بأن يكون سميعاً بصيراً متكلماً، وخالق الحياة والعلوم والقدر والإرادات أحقُّ بـأن يكون هو كذلك في نفسه، فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات هو من أدلِّ شيءٍ على إرادة الربِّ ــ سبحانه ــ ومشيئته وحكمته؛ التي اقتضت التخصيص، وحصول الإجابة عَقِيبَ سؤال الطالب على الوجه المطلوب دليلٌ على علم الربِّ تعالى بالجزئيات؛ وعلى سمعه لسؤال عبيده؛ وعـلى قدرته على قضاء حوائجهم؛ وعلى رأفته ورحمته بهم، والإحسان إلـى المطيعين والتقرُّب إليهم والإكرام وإعلاء درجاتهم يدلُّ على محبته ورضاه، وعقوبته للعصاة والظلمة وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة تدلُّ على صفة الغضب، والسخط والإبعاد والطرد والإقصاء يدلُّ على المقت والبغض، فهذه الدلالات من جنسٍ واحدٍ عند التأمل.

ولهذا دعا ــ سبحانه ــ في كتابه عبادَه إلى الاستدلال بذلك على صفاته، فهو يُثبت العلم بربوبيته ووحدانيته؛ وصفات كماله بآثار صفته المشهودة، والقرآن مملوءٌ بذلك، فيظهر شاهد اسم الخالق من نفس المخلوق، وشاهد اسم الرازق من وجود الرزق والمرزوق، وشاهد اسم الرحيم من شهود الرحمة المبثوثة في العالم، واسم المعطي من وجود العطاء ــ الذي هو مدرار لا ينقطع لحظة واحدة ــ ، واسم الحليم من حلمه عن الجناة والعصاة وعدم معاجلتهم، واسم الغفور والتوَّاب من مغفرة الذنوب وقبول التوبة، ويظهر شاهد اسمه الحكيم من العلم بما في خلقه وأمره من الحكم والمصالح ووجوه المنافع.

وهكذا كلُّ اسمٍ من أسمائه الحسنى له شاهدٌ في خلقه وأمره؛ يعرفه

من عرفه ويجهله من جهله، فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته، وكلُّ سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحذقه وتبريزه على غيره؛ وتفرُّده بكمالٍ لم يشاركه فيه غيره من مشاهدة صنعته، فكيف لا تُعرف صفاتُ مَنْ هذا العالم العلويُّ والسفليُّ؛ وهذه المخلوقات من بعض صنعه؟

إذا اعتبرت المخلوقات والمأمورات: وجدتها بأسرها كلَّها دالة على النعوت والصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمى بمكابرة، ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾[1].

فالموجودات بأسرها شواهد صفات الربِّ ــ جلَّ جلاله ــ ونعوته وأسمائه، فهي كلُّها تُشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها، وتُنادي عليها وتدلُّ عليها، وتُخبر بها بلسان النطق والحال، كما قيل:

(تـأمَّـل سطـور الكـائنـات فـإنهـا ... مـن الملـك الأعلـى إليك رسـائـلُ
وقـد خـطَّ فيهـا لـو تـأمَّلـت خطَّهـا ... ألا كـلُّ شـيءٍ مـا خـلا الله بـاطـلُ
تُشيـر بـإثبـات الصفـات لـربِّهـا ... فصامتها يهدي ومن هو قائلُ).

فلست ترى شيئاً أدلَّ على شيءٍ من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه، وقد تنوَّعت أدلتها بحسب تنوُّعها، فهي تدلُّ عقلاً وحساً وفطرة ونظراً واعتباراً)[2].

٣ ــ الإقرار بعُلُوِّ الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ على خلقه؛ ومباينته لهم، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن صفاته لا تحلُّ في شيءٍ

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٢١.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٠ ــ ٣٧٢.

من مخلوقاته؛ كما أن مخلوقاته لا تحلُّ فيه، فالخالق ــ سبحانه ــ بائنٌ عن المخلوق بذاته وصفاته؛ فلا اتحاد ولا حلول ولا ممازجة ــ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً ــ)[1].

٤ ــ الإقرار بعلم الخالق تعالى بالجزئيات كلِّها، لأن (خلقه ــ سبحانه ــ للشيء من أعظم الأدلة على علمه به)[2]، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (احتجاجه ــ سبحانه ــ على إثبات علمه بالجزئيات كلِّها بأحسن دليلٍ وأوضحه وأصحِّه، حيث يقول: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾[3]. ثم قرَّر علمه بذلك بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[4].

وهذا من أبلغ التقرير، فإن الخالق لا بُدَّ أن يعلم مخلوقه، والصانع يعلم مصنوعه، وإذا كنتم مُقرِّين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته؛ فكيف تخفى عليه وهي خلقه؟)[5].

٥ ــ الإقرار بأوليَّة الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ؛ وتقدُّمه على كلِّ شيءٍ، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إنه ــ سبحانه ــ متقدمٌ على كلِّ فردٍ من مخلوقاته تقدُّمٌ لا أوَّل له، فلكلِّ مخلوقٍ أوَّلٌ، والخالق ــ سبحانه ــ لا أوَّل له، فهو وحده (الخالق)، وكلُّ ما سواه مخلوقٌ؛ كائنٌ بعد أن لم يكن)[6].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١١٧.
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٠٨.
(٣) سورة الملك: الآية ١٣.
(٤) سورة الملك: الآية ١٤.
(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٩١.
(٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٤٥٤.

٦ ــ الإقرار بهداية الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ العامة لجميع خلقه، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (الله ــ سبحانه ــ هدى البهائم والطير أن يُعرِّف بعضُها بعضاً مرادَها بأصواتها، كما يُشاهَد في أجناس الحيوان والطيور، فالديك يُصوِّت فيعرف الدجاج مراده، والفرس يصهل فيعرف الخيل مراده، والكلب ينبح فتعرف الكلاب مراده، والهرُّ تنوء فتعرف أولادها مرادها، والدجاجة تُعرِّف أفراخها مرادها بصوتها.

وهذا من تمام عناية الخالق ــ سبحانه ــ بخلقه؛ وهدايته العامة، كما قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾[2])[3].

ولما كانت (آثار الخالق ــ سبحانه ــ دالة على وجوده وعلى كماله ــ فإن دلالة الأثر على مؤثِّره ضروريةٌ ــ)[4]: كان الاعتراف بما يستلزم من ذلك ــ مما تقدَّم ذكر بعضه ــ ضروريًّا أيضاً، إلا أنه لا بُدَّ أن يُعلم: أنه لا يلزم من انتفاء آثار الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ انتفاؤه؛ ولا من وجود الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ وجود آثاره، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن المخلوقات آياتٌ ودلائلُ على (الخالق) ــ سبحانه ــ، يلزم من ثبوتها ثبوته، ولا يلزم من عدمها عدمه، ولا من وجوده وجودها)[5].

---

(١) سورة طه: الآية ٥٠.

(٢) سورة الأعلى: الآيات ١ ــ ٣.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٤٤.

(٤) الروح ص٤٨٢.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٩٢.

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (الخلاق).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة: (الخلاق) في مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله: (إن من أسمائه: (الخلاق)؛ المقتضي لوجود الخلق)[2].

كما بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ معنى هذا الاسم وما يقتضيه؛ فقال: (ذكر ما هو أوضح للعقول من كلِّ دليلٍ وهو: خلق السماوات والأرض مع عظمهما وسعتهما؛ وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما. ومن لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم ــ الذي هو أكبر من خلق الناس ــ: كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟

ثم قرَّر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به، فقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[3].

فكونه خلاقاً عليماً: يقتضي أن يخلق ما يشاء؛ ولا يعجزه ما أراده من الخلق)[4].

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الخلاق) ــ على وجه الخصوص ــ: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٤. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٤٢، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٦٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٨٦، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٧.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٤.

(٣) سورة يس: الآية ٨١.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٤٢.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة: (الخلاق) في نونيته؛ فقال:

(وكـذاك يشهـد أنـه سبحـانـه الـ ـخلاقُ باعث هذه الأبدان)[1].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (البارىء).

ذكـر الإمـام ابـن قيِّـم الجـوزيـة ـ رحمـه الله تعـالـى ـ اسـم الجـلالـة (البـارىء) فـي عـدة مـواضـع مـن كتبـه[2]، حيـث قـرَّر معنـى هـذا الاسـم؛ واختصاص الله تعالى به؛ فقال: (وأما (البارىء): فلا يصحُّ إطلاقه إلا عليه ـ سبحانه ـ، فإنه الذي برأ الخليقة وأوجدها بعد عدمها.

والعبد لا تتعلَّق قدرته بذلك، إذ غاية مقدوره: التصرُّف في بعض

---

(١) الكـافيـة الشـافيـة فـي الانتصـار للفـرقـة النـاجيـة [البيـت رقـم (٣٠٨٥) ـ ص٢٣١].

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (البارىء) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ١/ ١٥٢؛ ٢/ ٢١٢، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٦٦، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٦١. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: بـدائـع الفـوائـد ٤/ ١٣٧؛ ١٣٩، التبيـان فـي أقسـام القـرآن ص٢٠٧، الـروح ص٣٦٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٢؛ ٣٩٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٩؛ ٤٧، الفوائد ص٢٦؛ ٩٥، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص١٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٥؛ ٣٩٧؛ ٤٣٤، مفتـاح دار السعـادة ومنشـور ولايـة أهـل العلـم والإرادة ١/ ٣١١؛ ٢/ ٢٤٣؛ ٣/ ١٧٧.

صفات ما أوجده الربُّ تعالى وبراه؛ وتغييرها من حالٍ إلى حالٍ على وجهٍ مخصوصٍ لا تتعداه قدرته)[1].

وقد تقدَّم أن الألفاظ ثلاثة أقسام، وأن من هذه الأقسام: ما يختصُّ بالربِّ ـ سبحانه وتعالى ـ، ومن ذلك اسم الجلالة (البارىء)، كما قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا القسم: (قسمٌ لم يُطلق إلا على الربِّ ـ سبحانه ـ كالبارىء)[2].

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (المصوِّر).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة: (المصوِّر) في عدة مواضع من كتبه[3].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة: (الخالق) باسمي الجلالة: (البارىء؛ والمصوِّر)، فمن ذلك:

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٣.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٢.

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (المُصوِّر) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ١/ ١٥٢؛ ٢/ ٢١٢، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٦٦، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٦١. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٣٤.

١ ـ أن اسمي الجلالة (البارىء؛ والمصوِّر) اقترنا باسم الجلالة (الخالق) لدلالتهما على تفصيل معناه، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك عند قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾[١]؛ فقال: (إن (البارىء المصوِّر): تفصيلٌ لمعنى اسم الخالق)[٢].

٢ ـ أن اسمي الجلالة (الخالق؛ والمصوِّر) إذا استعملا مُطلقين غير مقيَّدين اختصَّا بالربِّ ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (وأما (الخالق؛ والمصوِّر) فإن استعملا مُطلقين غير مُقيَّدين: لم يُطلقا إلا على الربِّ، كقوله: ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾[٣].

وإن استعملا مُقيَّدين: أُطلقا على العبد، كما يقال لمن قدَّر شيئاً في نفسه: إنه خلقه، قال[٤]:

(ولأنت تفري ما خلقت وبـ ـعض القوم يخلق ثم لا يفري)[٥].

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢٤.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٦٦.

(٣) سورة الحشر: الآية ٢٤.

(٤) القائل هو: زهير بن أبي سُلمى؛ من قصيدةٍ مدح بها هَرِمَ بن سنان المُرِّي، وقوامها: ثلاثة وعشرون بيتاً، والقصيدة مودعة في شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى لأبي العباس ثعلب ص٩١ ـ ٩٧، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ٦/ ٣١٩ ـ ٣٢١.

(٥) والبيت من عيون الشعر الذي استشهد به أئمة اللغة والنحو في كتبهم، كما في: الكتاب لسيبويه ٤/ ١٨٥، كتاب الحيوان للجاحظ ٣/ ٣٨٣، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٥٠٧، الشعر والشعراء له ص٧٤، جمهرة اللغة لابن دريد ١/ ٦١٩، الأضداد للأنباري ص١٥٩، تهذيب اللغة للأزهري ٧/ ٢٦، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٢١٤، الصحاح للجوهري ٤/ ١٤٧٠ ـ ١٤٧١، شرح المفصل لابن يعيش ٩/ ٧٩، لسان العرب لابن منظور ١٥/ ١٥٣.

أي: لك قدرة تُمضي وتُنفِّذ بها ما قدَّرته في نفسك، وغيرُك يُقدِّر أشياء وهو عاجزٌ عن إنفاذها وإمضائها.

وبهذا الاعتبار صحَّ إطلاق خالقٍ على العبد في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾[1]. أي: أحسن المصوِّرين والمقدِّرين، والعرب تقول: قدَّرت الأديمَ وخلقته؛ إذا قسته لتقطع منه مزادة أو قربة ونحوها.

قال مجاهد: (يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين)[2].

وقال الليث[3]: (رجلٌ خالقٌ؛ أي: صانعٌ، وهنَّ الخالقات للنساء)[4].

وقال مقاتل: (يقول تعالى: هو أحسن خلقاً من الذين يخلقون التماثيل وغيرها؛ التي لا يتحرك منها شيءٌ[5])[6].

٣ ــ أن إطلاق أسماء الجلالة (الخالق؛ والبارىء؛ والمصوِّر) على الله تعالى؛ واقترانها في الإطلاق أكمل معنى ولفظاً من إطلاق لفظ: (الفاعل الصانع المُشكِّل)[7]، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله:

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٢) أخرجه الطبري في [جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١/ ١١].

(٣) هو: الليث بن نصر بن سيَّار الخراساني، ويقال: الليث بن رافع بن نصر بن يسار، ويقال: الليث ابن المظفر، اللغوي النحوي.
انظر في ترجمته: إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ٣/ ٤٢ ــ ٤٣، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي ص١٧٨ ــ ١٧٩، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ٢/ ٢٧٠.

(٤) حكاه الأزهري في [تهذيب اللغة: ٧/ ٢٧].

(٥) لم أقف عليه.

(٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٣.

(٧) بدائع الفوائد ١/ ١٥٢.

(جميع ما أطلقه على نفسه من صفاته العلى أكمل معنى ولفظاً مما لم يُطلقه، فالعليم الخبير: أكمل من الفقيه والعارف، والكريم الجواد: أكمل من السخيِّ، و (الخالق البارىء المصور): أكمل من الصانع الفاعل؛ ولهذا لم تجىء هذه في أسمائه الحسنى)[1].

٤ ـ أن لآثار أسماء الجلالة (الخالق؛ والبارىء؛ والمصوِّر) ومتعلَّقاتها ظهوراً في الخليقة، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن اسمه (الخالق) يقتضي مخلوقاً؛ و (البارىء) يقتضي مبروءاً؛ و (المصوِّر) يقتضي مُصوَّراً ولا بُدَّ)[2].

❏ ❏ ❏

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٥.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٦١.

المطلب الثالث عشر:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الرؤوف؛ الرحيم؛ الودود؛ الغفّار؛ الغفور؛ الغافر؛ التوّاب

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى التي هي (من أسماء الصفات التي يحصل عنها الأنس؛ ويتعلَّق بها)[1]؛ لاختصاصها باسم الجلالة (الرحمن)، وهي: (الرؤوف؛ والرحيم؛ والودود؛ والغفَّار؛ والغفور؛ والغافر؛ والتوَّاب)، وذكر بعض أدلة ثبوتها، وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، كما تضمن الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران بعضها ببعض، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (الرؤوف).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الرؤوف) في عدَّة مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٣٦.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الرؤوف) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ٣/ ١٨، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٩، طريق الهجرتين وباب =

وما يقتضيه؛ فقال: (التوكُّل: من أعمِّ المقامات تعلُّقاً بالأسماء الحسنى، فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات، فله تعلُّقٌ باسم الغفَّار والتوَّاب والعفوِّ و (الرؤوف) والرحيم، وتعلُّقٌ باسم الفتَّاح والوهَّاب والرزَّاق والمُعطي والمُحسن، وتعلُّقٌ باسم المُعزِّ المُذلِّ الخافض الرافع المانع من جهة توكُّله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم؛ ومنعهم أسباب النصر، وتعلُّقٌ بأسماء القدرة والإرادة، وله تعلُّقٌ عامٌّ بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسَّره من فسره من الأئمة بأنه: المعرفة بالله، وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصحُّ له مقام التوكُّل، وكلما كان بالله أعرف: كان توكُّله عليه أقوى)[1].

= السعادتين ص٥٩٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٣٠، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٠٥. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص١٩، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٧.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (الرؤوف) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الرؤوف) في عشر آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣].

وقد ذكر الطبري في [جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢/ ١٨]: الفرق بين الرأفة والرحمة؛ فقال: (الرأفة: أعلى معاني الرحمة، وهي عامة لجميع الخلق في الدنيا؛ ولبعضهم في الآخرة. وأما الرحيم: فإنه ذو الرحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة).

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٣٠.

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (الرحيم).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الرحيم) في مواضع كثيرة من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله:

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الرحيم) ــ على وجه الخصوص ــ : بدائع الفوائد ١/ ٢٢؛ ٧٤؛ ١٤٥؛ ١٥١؛ ١٥٢؛ ١٧٠؛ ٢/ ١٥٣؛ ٣/ ١٨، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٤، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٩، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٩؛ ٢٨٠، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٣؛ ٢/ ٧٢٠؛ ٦٦٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠، ومختصره ٢/ ٣٤٦؛ ٢٩١؛ ٣٤١؛ ٣٤٤؛ ٣٤٦؛ ٣٤٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٨؛ ١٩٠؛ ٥٩٥، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٦؛ ٤١؛ ١٠٦؛ ١٧٨؛ ٢٣٠؛ ٣٧١؛ ٤٥٢؛ ٢/ ١٣٠؛ ٤٣٦، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٠٥. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص١٩، بدائع الفوائد ١/ ٢٣؛ ٢٤؛ ٧٣؛ ٢/ ١٨٠، التبيان في أقسام القرآن ص٣٠، الداء والدواء ص٣٧؛ ١٠٨؛ ٢١٢، الروح ص٥٥٧، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٦٣، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣٢؛ ٢/ ٥٨٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٥٠؛ ٢/ ٧٢٤؛ ٣/ ١٠٢٥؛ ١١١٤؛ ١١١٥؛ ١١٥١؛ ٤/ ١٢٢٣، ومختصره ١/ ٢٤٩؛ ٢٥٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٧؛ ٢٢٩؛ ٢٣٧؛ ٢٥٣؛ ٣٧٨؛ ٦١٤، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٩، الفوائد ص٣٧؛ ١٤٠، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص١٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧٦؛ ٣/ ٣٣٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٥٥١؛ ٢/ ٣١٤؛ ٤٧٩، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤. =

(إنَّ مِن أسمائه الحسنى: (الرحمن الرحيم))[1].

كما بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ معنى هذا الاسم بقوله: ((الرحيم): الراحم لعباده)[2].

كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ما يُشاهده العبدُ في العالَم العلويِّ والسفليِّ ــ الذي وسعته رحمة الله تعالى ــ من الدلالة على اسم الجلالة (الرحيم)؛ فقال: (شاهَدَ اسم (الرحيم): من شهود الرحمة المبثوثة في العالم)[3].

ولما كانت الرحمة من صفات الله تعالى الذاتية التي لا تنفكُّ عنه بحالٍ من الأحوال: كان الربُّ ــ تبارك وتعالى ــ موسوماً ــ أزلاً وأبداً ــ باسم الجلالة (الرحيم)، ويستحيل عليه أن يكون إلا (رحيماً)؛ كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الربَّ يستحيل أن يكون إلا (رحيماً)، فرحمته من لوازم ذاته، ولهذا كتب على نفسه الرحمة؛ ولم يكتب على نفسه الغضب، فهو لم يزل ولا يزال (رحيماً)، ولا يجوز أن يقال: إنه لم يزل ولا يزال غضبان، ولا أن غضبه من لوازم ذاته، ولا أنه كتب على نفسه العقوبة والغضب، ولا أن غضبه يغلب رحمته ويسبقها.

= وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الرحيم) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (الرحيم) في مائة وخمس عشرة آية من كتاب الله العزيز؛ أولها في أول آية من كتاب الله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ١].

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٦.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٢.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧١.

وتأمل قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «إنَّ ربِّـي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله؛ ولن يغضب بعده مثله»[1][2].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الرحيم) مع غيره من أسماء الله الحسنى، فمن ذلك:

١ ــ اقتران اسم الجلالة (الرحيم) باسم الجلالة (الرحمن)[3]، وهذا الاقتران يتضمن دلالة اسم الجلالة (الرحمن) على الصفة القائمة بالله ــ سبحانه وتعالى ــ، ودلالة اسم الجلالة (الرحيم) على تعلُّقها بالمرحوم، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ بعد حكايته للمعنيين اللَّذيْن ذكرهما أبو القاسم السهيلي ــ رحمه الله تعالى ــ في نكتة الجمع بين اسمي الجلالة: (الرحمن؛ والرحيم): (أما الجمع بين (الرحمن الرحيم): ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللَّذيْن ذكرهما؛ وهو: أن (الرحمن) دالٌّ على الصفة القائمة به ــ سبحانه ــ، و (الرحيم) دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دالٌّ على أن الرحمة صفته، والثاني دالٌّ على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا: فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[4]. ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾[5]. ولم يجيء قط: رحمن بهم.

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «أنا سيد الناس يوم القيامة».

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٥٩.

(٣) وقد ورد اقتران اسم الجلالة (الرحمن) باسم الجلالة (الرحيم) في ست آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها في فاتحة الكتاب العزيز: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ١].

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.

(٥) سورة التوبة: الآية ١١٧.

فعُلِمَ أنَّ الرحمـٰن: هو الموصوف بالرحمة، ورحيم: هو الراحم برحمته، وهذه نكتةٌ لا تكاد تجدها في كتابٍ، وإن تَنَفَّسَتْ عندها مرآةُ قلبك: لم تَنْجَل لك صورُتها)[1].

٢ ــ اقتران اسم الجلالة (الرحيم) باسم الجلالة (الرؤوف)[2]، وهذا الاقتران يدلُّ على أعلى درجات الرحمة، حتى أن أقرب الخلق إلى الله تعالى: أعظمهم جمعاً بين الوصفين، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الربُّ تعالى هو (الرؤوف الرحيم)، وأقرب الخلق إليه: أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه: من اتَّصف بضدِّ صفاته)[3].

والعبد يُوصف بالرأفة والرحمة؛ كما وصف الله تعالى نبيه ﷺ بذلك؛ فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[4]، فهو يُطلق على الحقيقة في حقِّ الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ وفي حقِّ المخلوق ــ كما تقدَّم في قاعدة: (الأسماء والصفات التي تُطلق على الله تعالى وعلى العبد ثابتة لهما على الحقيقة) ــ ، إلا أنه لا يجوز أن يتسمَّى المخلوق بالرؤوف الرحيم على الإطلاق؛ بحيث يُطلق عليه كما يُطلق على الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، كما

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٢٣ ــ ٢٤.

(٢) وقد ورد اقتران اسم الجلالة (الرحيم) باسم الجلالة (الرؤوف) في ثمان آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣].

(٣) الروح ص٥٥٧.

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنه لا يجوز لأحدٍ أن يتسمَّى بأسماء الله المختصة به، وأما الأسماء التي تُطلق عليه وعلى غيره كالسميع والبصير و (الرؤوف والرحيم): فيجوز أن يُخبر بمعانيها عن المخلوق، ولا يجوز أن يُتسمَّى بها على الإطلاق؛ بحيث يُطلق عليه كما يُطلق على الربِّ تعالى)[1].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الودود).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الودود) في عدَّة مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم بقوله: (أما (الودود): ففيه قولان:

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الودود) ــ على وجه الخصوص ــ : بدائع الفوائد ١/ ١٥٢؛ ٣/ ١٨، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٤، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥١٤، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٥، ومختصره ٢/ ٢٩١؛ ٣٤٦، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٣٦؛ ٣/ ٢٩؛ ١٥٦. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : بدائع الفوائد ٢/ ١٨٠، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٩، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٦٣؛ ٤١١، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٥، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (١٢٠١) ــ ص١١٠]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٣٩.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الودود) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (الودود) في موضعين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [سورة هود: الآية ٩٠].

أحدهما: أنه بمعنى فاعل، وهو الذي يُحِبُّ أنبياءه ورسله وأولياءه وعباده المؤمنين.

والثاني: أنه بمعنى مودود، وهو المحبوب الذي يستحقُّ أن يُحَبَّ الحبَّ كلَّه، وأن يكون أحبَّ إلى العبد من سمعه وبصره وجميع محبوباته)[1].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ متعلَّق هذا الاسم؛ فقال: (إن الخوف يتعلَّق بالأفعال، وأما الحبُّ فإنه يتعلَّق بالذات والصفات، ولهذا يزول الخوف في الجنة؛ وأما الحب فيزداد، ولما كان الحبُّ يتعلَّق بالذات: كان من أسمائه ــ سبحانه ــ (الودود). قال البخاري في صحيحه: (الحبيب)[2])[3].

والعبد إذا تدبَّر اسم الجلالة (الودود)؛ وفَقِه متعلَّقه: خالطت حلاوةُ مناجاته لله ــ تبارك وتعالى ــ بشاشةَ قلبه، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (فإنه متى صفا له حاله من الشوائب: خلصت له حلاوتُه من مرارة الأكدار، فذاق تلك الحلاوة في حال مناجاته، فلو كان الحال مشوباً مُكدَّراً: لم يجد حلاوة المناجاة، والحال المستندة إلى واردٍ تُذاق به حلاوة المناجاة: هو من حضرة الأسماء والصفات؛ بحسب ما يُصادف القلب من ظهورها وكشف معانيها.

فمن ظهر له اسم (الودود) مثلاً؛ وكشف له عن معاني هذا الاسم ولطفه وتعلُّقه بظاهر العبد وباطنه: كان الحال الحاصل له من حضرة هذا

---

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧.
(٢) صحيح البخاري [كتاب التفسير/ باب تفسير سورة البروج ــ ٣/ ١٥٨٥].
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥١٤.

الاسم مناسباً له، فكان حال اشتغال حبٍّ وشوقٍ ولذةِ مناجاةٍ لا أحلى منها ولا أطيب؛ بحسب استغراقه في شهود معنى هذا الاسم وحظِّه من أثره.

فإنَّ (الودود) وإن كان بمعنى المودود ــ كما قال البخاري في صحيحه: (الودود الحبيب)[1] ــ ؛ واستغرق العبد في مطالعة صفات الكمال التي تدعو العبد إلى حُبِّ الموصوف بها: أثمر له صفاء علمه بها؛ وصفاء حاله في تعبُّده بمقتضاها ما ذكره الشيخ[2] من هذه الأمور الثلاثة وغيرها.

وكذلك إن كان اسم فاعل بمعنى الوادِّ ــ وهو المحبُّ ــ : أثمرت له مطالعة ذلك حالاً تناسبه، فإنه إذا شاهد بقلبه غنيًّا كريماً جواداً عزيزاً قادراً؛ كلُّ أحدٍ محتاجٌ إليه بالذات؛ وهو غنيٌّ بالذات عن كلِّ ما سواه؛ وهو مع ذلك يودُّ عباده ويُحبُّهم ويتودَّد إليهم بإحسانه إليهم وتفضله عليهم: كان له من هذا الشهود حالة صافية خالصة من الشوائب، وكذلك سائر الأسماء والصفات، فصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بها؛ وخلوصها من دم التعطيل وفرث التمثيل، فتخرج المعرفة من بين ذلك فطرة خالصة سائغة للعارفين؛ كما يخرج اللبن ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾[3])[4].

---

(١) صحيح البخاري [كتاب التفسير/ باب تفسير سورة البروج ــ ٣/ ١٥٨٥].

(٢) أي: شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي، وهو: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري؛ من ذرية صاحب النبي ﷺ: أبي أيوب الأنصاري ــ رضي الله عنه ــ ، ولد سنة ست وتسعين وثلاثمائة، وتوفي بهراة في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

انظر في ترجمته: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي [حوادث ووفيات ٤٨١ ــ ٤٩٠] ص٥٣ ــ ٦٣، البداية والنهاية لابن كثير ١٦/ ١١٢، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ٢٥٥ ــ ٢٥٦.

(٣) سورة النحل: الآية ٦٦.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٥٥ ــ ١٥٦.

وقد قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته في أبياتٍ تُعيِّنُ اسم الله تعالى (الودود)؛ وتُبيِّن معناه:

(وهو الوَدُودُ يُحبُّهُمْ ويُحِبُّه ... أحبابُه والفضلُ للمنَّانِ
وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بِهم وجازاهم بحُبٍّ ثانِ
هذا هو الإحسانُ حقًّا لا مُعَا ... وَضَة ولا لتَوَقُّعِ الشُّكْرانِ)[١].

وقد قرَّر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الودود) باسمي الجلالة (الغفور؛ والرحيم)[٢]؛ مبيِّناً أن الربَّ تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه؛ ويُحبُّه مع ذلك، فقال: (ـ سبحانه ـ الموصوف بشدَّة البطش؛ ومع ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾[٣]، المتودِّد إلى عباده بنعمه، الذي يودُّ من تاب إليه؛ وأقبل عليه، وهو الودود أيضاً: أي المحبوب.

قال البخاري في صحيحه: (الودود: الحبيب)[٤].

والتحقيق: أن اللفظ يدل على الأمرين: على كونه وادًّا لأوليائه؛ ومودوداً لهم، فأحدهما بالوضع؛ والآخر باللزوم، فهو الحبيب المُحِبُّ لأوليائه؛ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[٥].

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٩٦ ـ ٣٢٩٨) ـ ص٢٤٥].

(٢) ورد اقتران اسم الجلالة (الودود) باسم الجلالة (الرحيم)؛ وباسم الجلالة (الغفور) في آيتين من كتاب الله العزيز.

(٣) سورة البروج: الآية ١٤.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) سورة المائدة: الآية ٥٤.

وقال شعيب ــ عليه السلام ــ : ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾[1] .

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم؛ وبالغفور[2]، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يُحبُّه، وكذلك قد يرحم من لا يُحِبُّ، والربُّ تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه؛ ويرحمه ويُحبُّه مع ذلك، فإنه: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[3]، وإذا تاب إليه عبده: أحبَّه؛ ولو كان منه ما كان)[4].

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (الغفَّار).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الغفَّار) في عدَّة مواضع من كتبه[5]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله: (من أسمائه

---

(١) سورة هود: الآية ٩٠.

(٢) انظر نحو هذا المعنى ــ المتعلِّق باقتران اسم الجلالة (الودود) باسم الجلالة (الغفور) ــ : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص١٢٤.

(٥) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٩٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٤، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٨؛ ١٩٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٢٨؛ ٤٥١؛ ٢/ ١٣٠، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٥٥؛ ٢٦١؛ ٢٦٢.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الغفَّار) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الغفَّار) في خمس آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها قول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [سورة طه: الآية ٨٢].

وأما معناه: فقال العلامة السعدي في [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ص٥١١]: (كثير المغفرة والرحمة).

ـ سبحانه ـ : (الغفَّار))[1].

كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ما يشهده العبد من معرفة اسم الجلالة (الغفَّار)؛ وتعبُّده بمقتضاه؛ فقال: (يشهد فضله في مغفرته، فإن المغفرة فضلٌ من الله، وإلا فلو أخذك بمحض حقِّه كان عادلاً محموداً، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك، فيُوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة وإنابة إليه وفرحاً وابتهاجاً به؛ ومعرفة له باسمه (الغَفَّار)؛ ومشاهدة لهذه الصفة؛ وتعبُّداً بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية والمحبة والمعرفة)[2].

المسألة الخامسة:

اسم الجلالة (الغفور).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الغفور) في مواضع كثيرة من كتبه[3]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥١.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٢٨.

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الغفور) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ١/ ٢٢؛ ٧٤؛ ١٤٥؛ ١٥١؛ ١٥٢؛ ١٧٠؛ ٢/ ١٢٣؛ ١٥٣؛ ٣/ ١٨، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٤، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٧٩؛ ٢٨٠؛ ٢٨١؛ ٤٤٧، الداء والدواء ص١٣٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٦٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٠؛ ٤٥٢؛ ٢/ ٤٥؛ ٣/ ٢٩؛ ٣٧١ ـ ٣٧٢، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٠٦؛ ٢/ ٢٦١. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: الداء والدواء ص٣٧، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٦٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٢٤، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٧؛ ٢٥٣، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٩؛ ٤٣٠؛ ٤٣١، الفوائد ص١٨٦، مدارج السالكين بين منازل =

(ــ سبحانه ــ له الأسماء الحسنى، فمن أسمائه: (الغفور))[1].

كما بيَّن الإمام ــ رحمه الله تعالى ــ ما يدلُّ عليه الوزن الذي جاء به اسم الجلالة (الغفور) من المعنى؛ فقال: (إنَّ فعولاً في صفات الله ــ سبحانه وتعالى ــ فاعلٌ، كغفور بمعنى: غافر)[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الغفور) في نونيته؛ فقال:

(وهو الغفورُ فلو أُتِي بقُرَابِها ... من غير شركٍ بل من العصيانِ
لأتاه بالغفران مِلْءَ قُرَابِها ... سبحانه هو واسعُ الغفرانِ)[3].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الرحيم) باسم الجلالة (الغفور)[4]؛ وسرَّ تقديم اسم الجلالة (الغفور) على اسم الجلالة

= إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٦٠؛ ٣٣٩، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣٠٧، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الغفور) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (الغفور) في إحدى وتسعين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٣].

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٠٦.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٦٣.

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيتان رقم (٣٣٠٤ ــ ٣٣٠٥) ــ ص٢٤٦].

(٤) وقد ورد اقتران اسم الجلالة (الغفور) باسم الجلالة (الرحيم) في اثنتين وسبعين آية من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ=

(الرحيم) حيث وقع في القرآن الكريم إلا في أول سورة (سبأ)، فقال ـ بعد حكايته للمعنى الذي ذكره السهيلي في نكتة تقديم اسم الجلالة (الرحيم) على اسم الجلالة (الغفور) ـ : (وأما تقديم (الرحيم) على (الغفور) في موضعٍ واحدٍ ـ وهو أول سبأ ـ : ففيه معنى غير ما ذكره؛ يظهر لمن تأمَّل سياق أوصافه العلى وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[1].

فإنه ابتدأ ـ سبحانه ـ السورة بحمده ـ الذي هو أعمُّ المعارف؛ وأوسع العلوم ـ ، وهو متضمنٌ لجميع صفات كماله ونعوت جلاله؛ مستلزمٌ لها، كما هو متضمنٌ لحكمته في جميع أفعاله وأوامره، فهو المحمود على كلِّ حالٍ؛ وعلى كلِّ ما خلقه وشرعه.

ثم عقَّب هذا الحمد بملكه الواسع المديد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]، ثم عقَّبه بأن هذا الحمد ثابتٌ له في الآخرة؛ غير منقطعٍ أبداً، فإنه حمدٌ يستحقُّه لذاته وكمال أوصافه، وما يستحقُّه لذاته دائمٌ بدوامه؛ لا يزول أبداً.

وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه، فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمالٌ زائدٌ على الكمال بكلِّ واحدٍ منهما، فله كمالٌ من ملكه؛ وكمالٌ من حمده؛ وكمالٌ من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمدٍ: يستلزم نقصاً، والحمد بلا ملكٍ: يستلزم عجزاً، والحمد مع الملك: غاية الكمال.

= ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٧٣﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٣].

(١) سورة سبأ: الآية ٢.

(٢) سورة سبأ: الآية ١.

ونظير هذا: العِزَّة والرحمة؛ والعفو والقدرة؛ والغنى والكرم، فوسَّط الملك بين الجملتين؛ فجعله محفوفاً بحمدٍ قبله وحمدٍ بعده، ثم عقَّب هذا الحمد والملك باسم الحكيم الخبير الدالَّين على كمال الإرادة وأنها لا تتعلَّق بمرادٍ إلا لحكمةٍ بالغةٍ؛ وعلى كمال العلم وأنه كما يتعلَّق بظواهر المعلومات فهو مُتعلِّقٌ ببواطنها التي لا تُدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهرٌ والحكمة باطنةٌ، والعلم ظاهرٌ والخبرة باطنةٌ، فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفاً عن الخبرة، فالخبرة: باطن العلم وكماله، والحكمة: باطن الإرادة وكمالها.

فتضمنت الآية: إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه على أكمل الوجوه، ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلويِّ والسفليِّ، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ﴾[1].

ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه؛ وهما: الرحمة والمغفرة، فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتمِّ الوجوه برحمته، ويعفو عن زلَّتهم ويهب لهم ذنوبهم ولا يُؤاخذهم بها بمغفرته، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[2]. فتضمنت هذه الآية: سعة علمه ورحمته وحكمته ومغفرته.

وهو ــ سبحانه ــ يقرن بين سعة العلم والرحمة؛ كما يقرن بين العلم والحلم، فمن الأول: قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[3].

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢.

(٣) سورة غافر: الآية ٧.

ومن الثاني: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾[1].

فما قُرِنَ شيءٌ إلى شيءٍ أحسن من حلمٍ إلى علمٍ؛ ومن رحمةٍ إلى علمٍ، و (حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللَّـٰهُمَّ ربنا وبحمدك؛ لكَ الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللَّـٰهُمَّ ربنا وبحمدك؛ لك الحمد على عفوك بعد قدرتك)[2].

فاقتران العفو بالقدرة: كاقتران الحلم والرحمة بالعلم، لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم.

وقدَّم (الرحيم) في هذا الموضع لتقدُّم صفة العلم، فحسن ذكر (الرحيم) بعده ليقترن به؛ فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾[3].

ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمُّنها دفع الشرِّ؛ وتضمُّن ما قبلها جلب الخير.

ولما كان دفع الشرِّ مقدماً على جلب الخير: قدم اسم (الغفور) على (الرحيم) حيث وقع، ولما كان في هذا الموضع تعارضٌ يقتضي تقديم اسمه (الرحيم) لأجل ما قبله: قُدِّم على (الغفور))[4].

وفيما تتضمنه التحية من السَّلامة من الشرِّ؛ وحصول الخير؛ ودوامه وثباته: قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (لقد شُرِعَتْ التحيَّةُ متضمنة للثلاثة، فقوله: (سلام عليكم) يتضمن: السلامة من الشر.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٢.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سورة غافر: الآية ٧.

(٤) بدائع الفوائد ١/ ٧٣ ـ ٧٤.

وقوله: (ورحمة الله) يتضمن: حصول الخير. وقوله: (وبركاته) يتضمن: دوامه وثباته؛ كما هو موضوع لفظ البركة وهو: كثرة الخير واستمراره.

ومن هنا يعلم حكمة اقتران اسمه (الغفور) باسمه (الرحيم) في عامة القرآن)[1].

المسألة السادسة:

اسم الجلالة (الغافر):

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الغافر) في موضعٍ واحدٍ من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ مبيِّناً ما يشهده القلب من خطاب الله تعالى لعباده المؤمنين في كتابه المبين؛ فقال: (يشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم؛ و (غافر) زلاتهم؛ ومقيم أعذارهم؛ ومصلح فسادهم)[3].

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١٥٣.

(٢) لم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (الغافر) في هذا الموضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (الغافر) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ ﴾ [سورة غافر: الآية ٣].

وأما معناه: فقال القرطبي في [الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ١/ ١٥٢]: (لم يأت في عداد الأسماء في الحديث: (الغافر)؛ فيما رأيتُ، إلا أنه مجمعٌ عليه، يقال منه: غفر يغفر غَفراً؛ وغُفراً؛ وغفراناً؛ ومغفرة، فهو غافر وغفَّار؛ من المبالغة، وكذلك: غفور. واستغفر الله لذنبه؛ ومن ذنبه ـ بمعنى ـ: فغفر له ذنبه، واغتفر مثله؛ فهو غفورٌ. ومنه يقال: غفرانك لا كفرانك. وأصل الغفر: الستر، ومن ذلك: المغفر؛ للذي يُجعل على الرأس من الدروع).

(٣) الفوائد ص٣٧.

المسألة السابعة:

اسم الجلالة (التوَّاب).

ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (التوَّاب) في عدَّة مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لمحبَّته لهذا الاسم: جبل خلقه وفطرهم على صفاتٍ تقتضي خطأهم وذنبهم؛ ليتوبوا إليه؛ فيتوب عليهم، كما قال: (ـ سبحانه ـ لمحبته للعفو والتوبة: خلق خلقه على صفاتٍ وهيئاتٍ وأحوالٍ تقتضي توبتهم إليه؛ واستغفارهم وطلبهم عفوه ومغفرته.

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا: لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون؛ فيستغفرون الله؛ فيغفر لهم»[2].

والله تعالى يُحِبُّ التوَّابين، والتوبة من أحبِّ الطاعات إليه، ويكفي في

---

(١) انظر: بدائع الفوائد ٢/ ١٢٣، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٦٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨؛ ٢٣٠؛ ٤٥١؛ ٢/ ١٣٠؛ ٣/ ٣٧٢، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٥٥؛ ٢٦١.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (التوَّاب) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (التوَّاب) في إحدى عشرة آية من كتاب الله العزيز؛ أولها قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٧].

وأما معناه: فقال العلامة السعدي في [التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين: ص١١٦]: (كثير التوبة على الخطَّائين والمذنبين).

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا».

محبَّتها: شدَّة فرحه بها، كما في صحيح مسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ـ عزَّ وجلّ ـ : أنا عند ظنِّ عبدي بـي، و أنا معه حيـن يـذكـرنـي، والله؛ لله أفـرح بتـوبـة عبـده مـن أحـدكـم يجـد ضـالَّتـه فـي الفلاة»[1].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجلٍ في أرضٍ دوية مهلكةٍ؛ معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام؛ فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أَرْجِعُ إلى المكان الذي كنتُ فيه فأنامُ حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»[2].

وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير يرفعه[3] إلى النبـي ﷺ قال: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من رجلٍ حمل زاده ومزاده على بعيرٍ، ثم سار حتى كان بفلاةٍ، فأدركته القائلة؛ فنزل فقال تحت شجرةٍ، فغلبته عينه وانسلَّ بعيره، فاستيقظ فسعى شرفاً[4] فلم ير شيئاً، ثم سعى شرفاً ثانياً؛ ثم سعى شرفاً ثالثاً فلم ير شيئاً، فأقبل حتى أتى إلى مكانه الذي قال فيه، فبينما هو

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الدعوات/ باب التوبة ـ الحديث رقم (٦٣٠٨) ـ ٤/ ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب في الحضِّ على التوبة والفرح بها ـ الحديث رقم (٢٧٤٤) ـ ٤/ ٢١٠٣].

(٣) قال سماك ـ راوي الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ـ : (فزعم الشعبـي: أن النعمان رفع الحديث إلى النبـي ﷺ، وأما أنا: فلم أسمعه).

(٤) قال القاضي عياض في [إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٨/ ٢٤٥]: (يحتمل أن يكون الشرف هنا: كالطلق والعلوة، كما قالوا في قوله: «فاستنَّت شرفاً». ويحتمل أن يريد به: الشرف من الأرض؛ ليتطلَّع منه: هل يراها؟ وهو أظهر).

قاعدٌ فيه: إذ جاء بعيره يمشي حتى وضع خطامه في يده، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد من هذا حين وجد بعيره»(١).

فتأمَّل محبَّته ــ سبحانه ــ لهذه الطاعة ــ التي هي أصل الطاعات وأساسها ــ، وإن من زعم أنَّ أحداً من الناس مستغنٍ عنها؛ ولا حاجة به إليها: فقد جهل حقَّ الربوبية؛ ومرتبة العبودية، وينتقص بمن أغناه بزعمه عن التوبة؛ من حيث زعم أنه مُعَظِّمٌ له، إذ عطَّله عن هذه الطاعة العظيمة ــ التي هي من أجلِّ الطاعات ــ؛ والقربة الشريفة ــ التي هي من أجلِّ القربات ــ، وقال: لستَ من أهل هذه الطاعة؛ ولا حاجة بكَ إليها، فلا قدر الله حقَّ قدره؛ ولا قدر العبد حقَّ قدره، وقد جعل بعض عباده غنياً عن مغفرة الله وعفوه وتوبته إليه، وزعم أنه لا يحتاج إلى ربِّه في ذلك.

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب عن أحدكم من رجلٍ كان على راحلته بأرضٍ فلاةٍ، فانفلتت منه؛ وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع؛ وقد يئس من راحلته، فبينا هو كذلك: إذ هو بها قائمة عنده، ثم قال ــ من شدَّة الفرح ــ: اللَّـٰهُمَّ أنت عبدي؛ وأنا ربك، أخطأ من شدَّة الفرح»(٢).

وأكمل الخلق: أكملهم توبة؛ وأكثرهم استغفاراً، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٣))(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب في الحضِّ على التوبة والفرح بها ــ الحديث رقم (٢٧٤٥) ــ ٤/ ٢١٠٣ ــ ٢١٠٤].

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الدعوات/ باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ــ الحديث رقم (٦٣٠٧) ــ ٤/ ١٩٨٤].

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٥١ ــ ٣٥٣.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته: اسم الجلالة (التوَّاب)؛ ونوعي إتصافه ــ سبحانه وتعالى ــ بصفة (التَّوْب)؛ فقال:

(وكذلك التوَّاب من أوصافه والتَّوْبُ في أوصافه نوعانِ
إذنٌ بتوبة عبده وقبولها بعد المتابِ بِمِنَّةِ المنّانِ)[1].

كما بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ في موطنٍ آخر: المقصود من هذين البيتين اللذين تضمَّنا بيان أن (التوَّاب) ــ سبحانه وتعالى ــ يتوب على عبده أولاً وآخراً، فقال في مقام ما تقتضيه محبته ــ سبحانه وتعالى ــ لاسمه (التوَّاب) من قضائه على عبده بالذنب؛ ثم قضائه له بالتوبة؛ وما في ضمن ذلك من إظهار حكمة الربِّ تعالى وعدله: (ومنها: تعريفُه عبدَه كرمَه ــ سبحانه ــ في قبول توبته؛ ومغفرته له على ظلمه وإساءته، فهو الذي جاد عليه بأن وفَّقه للتوبة؛ وألهمه إياها؛ ثم قبلها منه، فتاب عليه أولاً وآخراً.

فتوبة العبد: محفوفةٌ بتوبةٍ قبلها عليه من الله: إذناً وتوفيقاً، وتوبة ثانية منه عليه: قبولاً ورضاً. فله الفضل في التوبة والكرم أولاً وآخراً، لا إلـٰه إلا هو [2])[3].

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيتان رقم (٣٣٠٦ ــ ٣٣٠٧) ــ ص٢٤٦].

(٢) وقد أرخى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ زمام قلمه في شرح هذا المعنى؛ مبيِّناً أن توبة العبد إلى ربه: محفوفةٌ بتوبةٍ من الله تعالى عليه قبلها؛ وتوبةٍ منه بعدها، وأن توبته بين توبتين من الله تعالى: سابقةٍ ولاحقةٍ؛ في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٣٩ ــ ٣٤١.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٧٣.

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة الدالِّ على المغفرة باسم الجلالة الدالِّ على التوبة[1]؛ مبيِّناً أن ذلك الاقتران يتضمن (جزاؤه للمذنبين)[2]؛ وما يستلزمه ذلك (من مغفرة الذنوب وقبول التوبة)[3]، فقال: (أسماؤه: (الغفَّار التوَّاب): تقتضي مغفوراً له؛ وما يغفره له، وكذلك من يتوب عليه؛ وأموراً يتوب عليه من أجلها)[4].

❑ ❑ ❑

انتهى الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث

وأوله المطلب الرابع عشر

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير

أسماء الله تعالى: الحيّ، الحليم، الصبور

---

(١) وقد ورد اقتران اسم الجلالة الدالِّ على المغفرة باسم الجلالة الدالِّ على التوبة في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [سورة غافر: الآية ٣].

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٧٣.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧١ ــ ٣٧٢.

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٦١.

المطلب الرابع عشر:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الحييّ؛ الحليم؛ الصَّبُور

تضمَّن هذا المطلب تعيين بعض أسماء الله تعالى التي هي أيضاً (من أسماء الصفات التي يحصل عنها الأنس؛ ويتعلَّق بها)[1]؛ وهي: (الحييُّ؛ والحليم؛ والصَّبُور)، وذكر بعض أدلة ثبوتها، وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (الحييُّ).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الحييَّ) في مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ مع قرنه بدليله

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٣٦.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الحييِّ) ــ على وجه الخصوص ــ: روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٣؛ ٢/ ٧٢٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٣. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: طريق الهجرتين =

المُثبت له؛ فقال: (والله ـ سبحانه ـ الحيُّ القيوم، وقد وصف نفسه بالحياء؛ ووصفه رسوله، فهو (الحَيِيُّ) الكريم، كما قال النبي ﷺ: «إن الله حَيِيٌّ كريمٌ، يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صفراً»[1])[2].

وقالت أم سليم: «يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحقِّ[3]»[4].

= وباب السعادتين ص٢٣٦، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٧٢.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (الحييّ) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، ولم يرد اسم الجلالة (الحييُّ) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد ذكره في أحاديث النبي ﷺ.

(١) صِفْراً ـ بكسر الصاد وسكون الفاء ـ أي: فارغتين خاليتين من الرحمة.
انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي ٤/ ٢٥٢، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ٧/ ٣٨٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٣٧١٤ ـ ٢٣٧١٥) ـ ٣٩/ ١١٩ ـ ١٢٠]، وأبو داود في سننه [كتاب الصلاة/ باب الدعاء ـ الحديث رقم (١٤٨٨) ـ ٢/ ١٦٥]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (١٠٤) ـ الحديث رقم (٣٥٥٦) ـ ٥/ ٥٢١]، وابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب رفع اليدين في الدعاء ـ الحديث رقم (٣٨٦٥) ـ ٤/ ٢٨٢] من حديث سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ.
وصححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود: ١/ ٤٠٩].

(٣) قال العلامة السعدي في [التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين: ص٨٧]: (ولما كان ترك الحقِّ وترك بيانه على أيِّ حالٍ كان لا يكون من الحياء المحمود: أخبر تعالى أنه لا يستحي من الحقِّ؛ فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٣]، وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦]. وذلك لأن بيانه الحقَّ لعباده بأيِّ طريقٍ كان: من أجلِّ نعمه عليهم).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب العلم/ باب الحياء في العلم ـ الحديث =

وأقرَّها على ذلك.

وقال النبي ﷺ: «إنَّ الله لا يستحي من الحقَّ، لا تأتوا النساء في أعجازهن»[1])[2].

كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ معنى حياء الربِّ ـ جلَّ وعلا ـ الذي دلَّ عليه اسم الجلالة (الحَيِيُّ)؛ فقال: (أما حياء الربِّ تعالى من عبده: فذاك نوعٌ آخر لا تُدركه الأفهام؛ ولا تُكيِّفه العقول، فإنه حياءُ كرمٍ وبِرٍّ وجودٍ وجلالٍ، فإنه ـ تبارك وتعالى ـ : «حَيِيٌّ كريمٌ، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صِفْراً»[3]. و «يستحيي أن يُعذِّب ذا شيبةٍ شابت في الإِسلام»[4].

= رقم (١٣٠) ـ ١/ ٦٨]، ومسلم في صحيحه [كتاب الحيض/ باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها ـ الحديث رقم (٣١٣) ـ ١/ ٢٥١] من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٦٥٥) ـ ٢/ ٨٢]، والترمذي في جامعه [أبواب الرضاع/ باب ما جاء في كراهية إتيان النساء في أدبارهن ـ الحديث رقم (١١٦٤) ـ ٢/ ٤٥٦]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب عشرة النساء/ باب ذكر حديث علي بن طلق في إتيان النساء في أدبارهن ـ الحديث رقم (٨٩٧٤ ـ ٨٩٧٧) ـ ٨/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣] من حديث علي بن طلق ـ رضي الله عنه ـ .
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي: ص١٣٥].

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٩٩.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله حييٌّ كريم».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في العمر والشيب [الحديث رقم (٢) ـ ص٤٧ ـ ٤٨]، وأبو يعلى في مسنده [الحديث رقم (٢٧٥٦) ـ ٣/ ١٨٠ ـ ١٨١] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «يقول الله: إني لأستحي من عبدي وأَمَتي».
قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٥/ ١٥٩]: (رواه أبو يعلى، وفيه: نوح بن ذكوان وغيره من الضعفاء).

وكان يحيى بن معاذ[١] يقول: (سبحان من يُذنب عبده؛ ويستحيي هو)[٢]. وفي أثرٍ: (من استحيى من الله: استحيى الله منه)[٣][٤].

كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الحَيِيّ)؛ وما يقتضيه من محبَّة الله تعالى للمتعبِّدين له بمقتضاه؛ فقال: (حَيِيٌّ يُحِبُّ أهل الحياء)[٥].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (الحليم).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الحليم) في مواضع كثيرة من كتبه[٦]، حيث قرَّر معنى هذا الاسم

---

(١) هو: أبو زكريا الرازي، الشيخ الواعظ، توفي يوم الاثنين لست عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤/٢٠٨ ـ ٢١٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣/١٥، البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٥٤٢.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.
ويدلّ عليه حديث: «وأما الآخر: فاستحيا؛ فاستحيا الله منه»، وهو مخرَّجٌ في صحيح البخاري [كتاب العلم/ باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ـ الحديث رقم (٦٦) ـ ١/٤٨]، وصحيح مسلم [كتاب السلام/ باب من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها؛ وإلا وراءهم ـ الحديث رقم (٢١٧٦) ـ ٤/١٧١٣] من حديث أبي واقد الليثي ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/٢٧٢.

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/٣٢٣.

(٦) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الحليم) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ١/١٥١، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام =

بقولـه: (اسـم (الحليـم): مـن حلمـه عـن الجنـاة والعصـاة؛ وعـدم مُعاجلتهم)[1].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما تُحدثه مشاهدة هذا الاسم والتعبُّد لله تعالى به؛ فقال: (شهود حلم الله ــ سبحانه وتعالى ــ في إمهال راكب الخطيئة؛ ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنَّه (الحليم) الذي لا يَعْجَل، فيُحدث له ذلك معرفة ربِّه ــ سبحانه ــ باسمه (الحليم)؛ ومشاهدة صفة الحلم؛ والتعبُّد بهذا الاسم.

والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسُّط الذنب أحبُّ إلى الله؛

= ص٢٨١؛ ٤٤٧، الداء والدواء ص١٣٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٩٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٩٠، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٠؛ ٤٢٥، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٩٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٢٨؛ ٢٣٠؛ ٤٥٢؛ ٤٥٣؛ ٢/ ٤٥؛ ٤٣٦؛ ٣/ ٣٧١، مفتـاح دار السعـادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٠٦؛ ٢/ ٢٥٥؛ ٢٦١. وانظر في ذكره ــ على وجه العمـوم ــ: بـدائـع الفـوائـد ١/ ١٥٢، طـريـق الهجـرتيـن وبـاب السعادتين ص٢٥٣، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٧٠؛ ٤٢١، الفوائد ص١٨٦، الصـواعـق المـرسلـة علـى الجهميـة والمعطلـة ٣/ ١٠١٨، مفتـاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣١٤، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الحليم) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (الحليم) في إحدى عشرة آية من كتاب الله العزيز؛ أولها في قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٢٥﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٥].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧١.

وأصلح للعبد؛ وأنفع من فَوْتِها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنعٌ)[1].

كما بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ سرَّ الاستغناء في القرآن الكريم بذكر اسم الجلالة (الحليم) عن اسم الصَّبُور؛ فقال: (جعل ــ سبحانه ــ من أسباب خراب العالم: رفع الأسباب الممسكة له من الأرض؛ وهي كلامُه وبيتُه ودينُه والقائمون به، فلا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسبابٌ تقاومها وتمانعها.

ولما كان اسم (الحليم) أدخل في الأوصاف؛ واسم الصبور في الأفعال: كان الحلم أصل الصبر، فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم الصَّبور، والله أعلم)[2].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الصَّبُور).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الصَّبُور) في مواضع من كتبه[3]، حيث قرَّر وصف الربِّ ــ جلَّ جلاله ــ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٢٢٨.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٥.

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الصَّبور) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ٣/١٨، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٧٢٠، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٨١؛ ٤٢٠؛ ٤٢٥؛ ٤٢٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٤٥٣، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/١٠٧. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣؛ ٤٢٢؛ ٤٣١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/١١٥، =

بالصَّبر فقال: (أما الصَّبر: فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به؛ وأعظمهم تنزيهاً له بصيغة المبالغة، ففي الصحيحين من حديث الأعمش[1] عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السلمي[2] عن أبي موسى عن

= مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٠٧.

وقد وقع في موضع منها: تسميته بـ (الصَّابر)، كما في: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٩٦؛ ٣٢٢.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (الصَّبور) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، ولم يرد اسم الجلالة (الصَّبور) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميته في حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى، كما أُخذ اسم (الصَّبور) بطريق الاشتقاق من حديث: «ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ــ عزَّ وجلّ ــ».

وقد حكم الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على الزيادة المدرجة في أصل حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ؛ والمتضمنة لتعداد أسماء الله الحسنى بقوله في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٣٣]: (والصحيح: أنه ليس من كلام النبي ﷺ). وعليه فيبقى اسم (الصبور) مفتقراً في ثبوته إلى دليلٍ صحيحٍ صريحٍ يدلُّ عليه؛ ويُسوِّغ إدراجه ضمن أسماء الله الحسنى التي يُتعبَّد بدعاء الله تعالى بها.

(١) هو: أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي، شيخ المقرئين والمحدثين، ولد سنة إحدى وستين، وتوفي في ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة؛ وهو ابن ثمان وثمانين سنة.

انظر في ترجمته: مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار لابن حبان ص١٧٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/ ٢٢٦ ــ ٢٤٨، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٣١٥ ــ ٣١٦.

(٢) هو: عبد الله بن حبيب بن رُبَيِّعة، مقرىء الكوفة، ولد في حياة النبي ﷺ، وتوفي سنة بضع وسبعين. =

النبي ﷺ قال: «ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ـ عزَّ وجلّ ـ، يدعون له ولداً؛ وهو يعافيهم ويرزقهم»[(١)].

وفي أسمائه الحسنى: (الصبور)، وهو من أمثلة المبالغة؛ أبلغ من الصابر والصبَّار، وصبره تعالى يُفارق صبر المخلوق؛ ولا يُماثله من وجوهٍ متعددةٍ، منها: أنه عن قدرةٍ تامةٍ، ومنها: أنه لا يخاف الغوث؛ والعبد إنما يستعجل الخوف بالغوث، ومنها: أنه لا يلحقه بصبره ألمٌ ولا حزنٌ ولا نقصٌ بوجهٍ ما.

وظهور أثر الاسم في العالم مشهود بالعيان؛ كظهور اسمه الحليم)[(٢)].

وقد تقدَّم: أن وزن (فعول) الذي جاء به اسم الجلالة (الصبور): بمعنى (فاعل)؛ كما جاء ذلك مطَّرداً في أسماء الله الحسنى التي جاءت على وزن (فعول)، لذا قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (صبورٌ بمعنى: صابرٍ)[(٣)].

واسم الجلالة (الصَّبور) يقتضي محبَّة الله تعالى للمتعبِّدين له بمقتضاه، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (صبورٌ يُحِبُّ الصابرين)[(٤)].

= انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٤/٤٠٨ ـ ٤١١، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي ١/٥٢ ـ ٥٧، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٢٧.

(١) تقدم تخريجه، ولفظه: «لا أحد أصبر على أذى سمعه».

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٠.

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٦٣.

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٢٠.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته أسماء الجلالة (الحيـيّ؛ والحليم؛ والصَّبُور) ــ وما في معناها ودلالتها ــ ؛ فقال:

(وهـو الحييُّ فليس يفضح عبده ... عنـد التجـاهـر منـه بـالعصيـانِ
لكنَّـــه يُلْقـــي عليـــه سِتْـــرَه ... فهـو السَّتِّيـر وصـاحـب الغفـرانِ
وهـو الحليـمُ فـلا يُعـاجـلِ عبـدَه ... بعقـوبـةٍ ليتـوب مـن عصيـانِ
وهـو العفـوُّ فعفـوه وَسِـعَ الـوَرَى ... لـولاه غـارَ الأرض بـالسُّكَّـانِ[1]
وهـو الصَّبـور علـى أذى أعـدائـه ... شتمـــوه بـــل نسبـــوه للبهتـــانِ
قـالـوا لـه ولـدٌ وليـس يُعيـدنـا ... شتمـاً وتكـذيبـاً مـن الإنسـانِ
هـــذا وذاك بسمعـــه وبعلمـــه ... لـو شـاء عـاجلهـم بكـلِّ هـوانِ
لكـن يُعـافيهـم ويـرزقهـم وهـم ... يُـؤذونـه بـالشِّـرك والكفـرانِ)[2].

ومعاني هذه الأسماء الحسنى تتضمن جميعها الدلالة على تحبُّب الله تعالى إلى أوليائه؛ وتعرُّفه إليهم بأنواع كمالاته، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إنه ــ سبحانه ــ يُحِبُّ أن يُظهر لعباده: حلمه وصبره وأناته وسعة رحمته وجوده، فاقتضى ذلك خلق من

---

(١) قال العلامة السعدي في [التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين: ص٨٧] في اسمي الجلالة (الحليم؛ والعفُوِّ): (ومتعلَّق هذين الوصفين الكريمين: معصية العاصين؛ وذنوب المجرمين، فإن الذنوب في الأصل تقتضي ترتُّب آثارها عليها من العقوبات العاجلة، فحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معاجلتهم بالعقوبة؛ ليتوبوا من عصيانهم، وعفوه تعالى يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب).

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٧٦ ــ ٣٢٨٣) ــ ص٢٤٤].

يُشرك به؛ ويضادُّه في حكمه؛ ويجتهد في مخالفته؛ ويسعى في مساخطه؛ بل يشتمه ــ سبحانه ــ، وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات؛ ويرزقه ويعافيه؛ ويُمكِّن له من أسباب ما يلتذُّ به من أصناف النِّعم؛ ويُجيب دعاءه ويكشف عنه السوء؛ ويُعامله من بِرِّه وإحسانه بضدِّ ما يُعامله هو به من كفره وشركه وإساءته، فللَّه كم في ذلك من حكمةٍ وحمدٍ.

وتحبَّب إلى أوليائه وتعرَّف إليهم بأنواع كمالاته، كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، يجعلون له الولد؛ وهو يرزقهم ويعافيهم»[(١)].

وفي الصحيح عنه ﷺ فيما يروي عن ربه: «يشتمني ابن آدم؛ وما ينبغي له ذلك، ويُكذِّبني ابن آدم؛ وما ينبغي له ذلك، أما شتمه إيَّاي فقوله: اتخذ الله ولداً؛ وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤاً أحد، وأما تكذيبه إيَّاي فقوله: لن يُعيدني كما بدأني»[(٢)].

وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، وهو ــ سبحانه ــ مع هذا الشتم له والتكذيب: يرزق الشاتم المُكذِّب؛ ويعافيه ويدفع عنه؛ ويدعوه إلى جنَّته، ويقبل توبته إذا تاب إليه؛ ويُبدِّله بسيئاته حسنات، ويلطف به في جميع أحواله، ويُؤهِّله لإرسال رسله؛ ويأمرهم بأن يُلينوا له القول ويرفقوا به.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ــ الحديث رقم (٣١٩٣) ــ ٢/ ٩٨٦] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ، وأوله: «قال الله تعالى: يشتمني ابن آدم».

قال الفضيل بن عياض[1]: (ما من ليلةٍ يختلط ظلامُها إلا نادى الجليل ـ جلَّ جلاله ـ : من أعظم منِّي جوداً؟ الخلائق لي عاصون؛ وأنا أكلأهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني؛ وأتولَّى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل على العاصي؛ وأتفضَّل على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم ألبِّه؟ ومن ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أنا الجواد؛ ومني الجود، أنا الكريم؛ ومني الكرم، ومن كرمي: أني أُعطي العبد ما سألني؛ وأُعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي: أني أُعطي التائب كأنَّه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلق؟ وأين عن بابـي يتنحَّى العاصون؟)[2].

وفي أثرٍ إلـٰهيٍّ: «إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي»[3].

وفي أثرٍ آخر: (ابن آدم؛ ما أنصفتني، خيري إليك نازلٌ؛ وشرُّك إليَّ صاعدٌ، كم أتحبَّب إليك بالنعم؛ وأنا غني عنك؟ وكم تتبغَّض إليَّ

---

(١) هو: أبو علي التميمي اليربوعي الخرساني، الإمام القدوة، توفي في أول سنة سبع وثمانين ومائة.
انظر في ترجمته: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٤/ ٤٧ ـ ٥٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٤٢١ ـ ٤٤٢، طبقات الحفاظ للسيوطي ص١١٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [٨/ ٩٢ ـ ٩٣].

(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين [الحديث رقم (٩٧٤) ـ ٢/ ٩٣]، والبيهقي في شعب الإيمان [باب في تعديد نعم الله عزَّ وجلّ وما يجب مِن شُكرها ـ الحديث رقم (٤٢٤٣) ـ ٨/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦] من حديث أبـي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ .
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (٢٣٧١) ـ ٥/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤].

بالمعاصي؛ وأنت فقيرٌ إليَّ؟ ولا يزال الملك الكريم يعرج إليَّ منك بعملٍ قبيحٍ)[1].

وفي الحديث الصحيح: «لو لم تذنبوا: لذهب الله بكم؛ ولجاء بقومٍ يُذنبون، فيستغفرون؛ فيُغفر لهم»[2].

فهو ـ سبحانه ـ لكمال محبته لأسمائه وصفاته: اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها، فلمحبته للعَفْوِ: خلق من يحسن العَفْوَ عنه، ولمحبته للمغفرة: خلق من يغفر له؛ ويحلم عنه؛ ويصبر عليه ولا يُعاجله، بل يكون يُحِبُّ أمانَه وإمهالَه، ولمحبته لعدله وحكمته: خلق من يظهر فيهم عدلُه وحكمتُه، ولمحبته للجود والإحسان والبِرِّ: خلق من يُعامله بالإساءة والعصيان، وهو ـ سبحانه ـ يُعامله بالمغفرة والإحسان، فلولا خَلْقُ من يجري على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات: لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها؛ وأضعاف أضعافها، فتبارك الله ربُّ العالمين؛ وأحكم الحاكمين، ذو الحكمة البالغة؛ والنعم السابغة، الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته، وله في كلِّ شيءٍ حكمة باهرة؛ كما أن له فيه قدرة قاهرة.

وهذا بابٌ إنما ذكرنا منه قطرةً من بحرٍ، وإلا فعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من أن تُحيط بكمال حكمته في شيءٍ من خلقه)[3].

فهذه بعض الأسماء الحسنى ـ التي هي أخصُّ باسم الجلالة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا».

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٥٣ ـ ٦٥٥.
وانظر نظير هذا المعنى في: روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨٠ ـ ٨٢.

(الرَّحمن) ـ ، وقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في مثاني كتبه؛ ونصَّ على أنها من أسماء الله الحسنى[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) نظير هذه الأسماء الحسنى في معناها ودلالتها على اسم الجلالة (الرَّحمن): اسما الجلالة (السَّتِّير؛ والعفوّ)، وقد ورد ذكر اسم الجلالة (السَّتِّير) في مواضع من كتب الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ وروداً عامّاً؛ منها قوله في [شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٢٠]: (حَيِيٌّ سَتِّيرٌ يُحِبُّ أهل الحياء والسَّتْر).
وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (العفوّ) في مواضع من كتبه ـ رحمه الله تعالى ـ وروداً عامّاً؛ منها قوله في [شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧١٩]: (عَفُوٌّ يُحِبُّ العَفْوَ).

المطلب الخامس عشر:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: اللّطيف؛ البرُّ؛ المُحسن؛ الوهّاب؛ الفتّاح؛ الرزّاق؛ الرّازق؛ المُنعم؛ المنان؛ الشّاكر؛ الشّكور

تضمّن هذا المطلب تعيين بعض أسماء الله تعالى التي هي الأخرى (من أسماء الصفات التي يحصل عنها الأنس؛ ويتعلّق بها)[1]؛ وهي: (اللّطيف؛ والبرُّ؛ والمُحسن؛ والوهّاب؛ والفتّاح؛ والرزّاق؛ والرّازق؛ والمُنعم؛ والمنان؛ والشّاكر؛ والشّكور)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، مع الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران بعضها ببعض، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (اللّطيف).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (اللّطيف) في عدّة مواضع من كتبه[2]، حيث قرّر معنى هذا الاسم بقوله:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/٤٣٦.

(٢) انظر في النصّ على اسم الجلالة (اللّطيف) ـ على وجه الخصوص ـ: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/١٤٧؛ ٢/٥٩٨، الصواعق=

((اللَّطيف): الذي لطف صنعُه وحكمتُه؛ ودقَّ حتى عجزت عنه الأفهام)[1].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما يتضمنه اسم الجلالة (اللَّطيف) أيضاً من المعاني؛ فقال: (قول يوسف الصديق: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾[2].

فأخبر أنه يلطف لما يريده؛ فيأتي به بطرقٍ خفيَّةٍ لا يعلمها الناس، واسمه (اللَّطيف) يتضمن: علمه بالأشياء الدقيقة؛ وإيصاله الرحمة بالطرق الخفيَّة)[3].

وقد نبَّه ــ رحمه الله تعالى ــ على ما يُورثه انتظار العبدِ فَرَجَ الله تعالى

= المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٩٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٧٤؛ ٢٩٤؛ ٤٣٦. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧١، الداء والدواء ص١٣٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٣١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٤٢، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (اللَّطيف) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (اللَّطيف) في سبع آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣].

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٩٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٤٧.

من فهم معنى اسم الجلالة (اللَّطيف)؛ فقال: (إن انتظاره ومطالعته وترقُّبه: يُخفِّف حمل المشقَّة؛ ولا سيَّما عند قوَّة الرَّجاء أو القطع بالفَرَج، فإنه يجد في حشو البلاء من رَوْحِ الفَرَجِ ونسيمه وراحته: ما هو من خَفِيِّ الألطاف؛ وما هو فَرَجٌ مُعَجَّلٌ، وبه وبغيره: يُفهم معنى اسمه (اللَّطيف))[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته اسم الجلالة (اللَّطيف)؛ فقال:

(وهو اللَّطيف بعبدهِ ولعبدهِ ... واللُّطفُ في أوصافه نوعانِ
إدراكُ أسرار الأمورِ بخبرةٍ ... واللُّطفُ عند مواقعِ الإحسانِ
فيُريكَ عِزَّته ويُبدي لُطْفَه ... والعبدُ في الغفلات عن ذا الشانِ)[2].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (البرُّ).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (البرَّ) في عدَّة مواضع من كتبه[3]، حيث قرَّر تسمي الله ــ عزَّ وجلّ ــ بهذا الاسم؛

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٧٤.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٨٦ ــ ٣٢٨٨) ــ ص٢٤٤].

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (البَرِّ) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ١٥٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٣؛ ٢/ ٥٩٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٢٧؛ ٢٣٠؛ ٤٥١؛ ٤٥٢؛ ٤٥٣؛ ٢/ ٤٣؛ ٤٥؛ ٢٩٤؛ ٤٣٦. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: بدائع الفوائد ١/ ١٨٠، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦، الفوائد ص١٤٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٣١؛ ٣/ ٦٠، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤. =

وأوضح محبَّته ــ سبحانه وتعالى ــ للبرِّ وأهله؛ فقال: (إن الله ــ سبحانه ــ يُحِبُّ أعمال البِرِّ؛ فيُجازي عليها بالهدى والفلاح، ويُبغض أعمال الفجور؛ ويُجازي عليها بالضلال والشقاء.

وأيضاً فإنه (البَرُّ)، ويُحِبُّ أهل البِرِّ، فيُقرِّب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البِرِّ، ويبغض الفجور وأهله، فيُبعد قلوبهم منه بحسب ما اتَّصفوا به من الفجور)[1].

وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما في معرفة العبد لبرِّ ربِّه ــ سبحانه وتعالى ــ من الأثر الحميد؛ فقال: (يعرفُ بِرَّه ــ سبحانه ــ في ستره عليه حال ارتكاب المعصية؛ مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلقه؛ فحَذِرُوه، وهذا من كمال بِرِّه، ومن أسمائه: (البَرُّ).

وهذا البِرُّ من سيِّده كان عن كمال غناه عنه؛ وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المنة؛ ومشاهدة هذا البِرِّ والإحسان والكرم؛ فيذهل عن ذكر الخطيئة، فيبقى مع الله ــ سبحانه ــ ، وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته؛ وشهود ذُلِّ معصيته، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه: هو المطلب الأعلى؛ والمقصد الأسنى)[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة: (اللَّطيف) باسم

= ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (البرّ) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (البرُّ) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [سورة الطور: الآية ٢٨].

(١) الفوائد ص١٤٥.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٢٢٧.

الجلالة: (البَرّ)؛ من الدلالة على جود الله تعالى وكرمه؛ وتودُّده بالإحسان إلى خلقه، فقال: (تبارك الله ربُّ العالمين؛ وأجود الأجودين؛ وأكرم الأكرمين، (البَرُّ اللطيف)، المتودِّدُ إلى عباده بأنواع الإحسان؛ وإيصاله إليهم من كلِّ طريقٍ؛ بكلِّ نوعٍ، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾[(1)])[(2)].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (المُحسن).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (المحسن) في مواضع كثيرة من كتبه[(3)]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله:

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٣.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٣١.

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (المُحسن) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٧، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٩٦؛ ٣٢٢؛ ٢/ ٥٩٨، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥١؛ ٢/ ٤٣؛ ٤٥؛ ١٣٠؛ ٢٣٠؛ ٢/ ٢٩٤. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: بدائع الفوائد١/ ١٨٠؛ ٤/ ١٥٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣٢؛ ٤٠٢؛ ٢/ ٥١٢؛ ٥٧٠؛ ٥٨٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٧؛ ٢٣٦؛ ٤٣٣؛ ٥٧٤، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٧، الفوائد ص١٨٦؛ ٢٠٣ ــ ٢٠٤، الفروسية ص٨٢، الصلاة وحكم تاركها ص١٧٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٢٤؛ ٨١١، ومختصره ٢/ ٣٤٦، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٦٢؛ ٣٣٣؛ ٣/ ٦٠؛ ١١٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤٧٩، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٢٣٠. =

(اسم البَرِّ (المُحسن) المُعطي المنَّان ونحوها: تقتضي آثارها وموجباتها)[1].

وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما يشهده العبد في صلاته من هذا الاسم؛ فقال: (يشهد عند ذكر اسم: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[2] ــ جلَّ جلاله ــ ربًّا محسناً إلى خلقه بأنواع الإحسان، متحبباً إليهم بصنوف النِّعم، وسع كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً، وأوسع كلَّ مخلوقٍ نعمةً وفضلاً، فوسعت رحمته كلَّ شيءٍ، ووسعت نعمته كلَّ حيٍّ)[3].

كما بيَّن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ أن الربَّ تعالى هو (المُحسن) على الحقيقة؛ فقال: (على العبد أن يعلم أنه لا إلـه إلا الله، فيُحِبَّه ويحمده لذاته وكماله، وأن يعلم أنه لا مُحسن على الحقيقة بأصناف النِّعم الظاهرة والباطنة إلا هو، فيُحِبَّه لإحسانه وإنعامه؛ ويحمده على ذلك، فيُحِبَّه من الوجهين جميعاً)[4].

ولما كان الربُّ تعالى هو (المحسن): كان التوسُّل إليه بإحسانه من

= ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (المُحسن) بذكر دليله المثبت له، ولم يرد اسم الجلالة (المُحسن) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد ذكره في أحاديث النبي ﷺ، كقوله ﷺ: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا، فإن الله ــ عزَّ وجلّ ــ مُحسنٌ يُحبُّ الإحسان» المخرَّج في معجم الطبراني الأوسط [الحديث رقم (٥٧٣١) ــ ٦/ ٣٤٢ ــ ٣٤٣] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ.
وجوَّد إسناده الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحه: الحديث رقم (٤٦٩) ــ ١/ ٨٤٠].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥١.
(٢) سورة الفاتحة: الآية ٣.
(٣) الصلاة وحكم تاركها ص١٧٣.
(٤) الفوائد ص٢٠٣ ــ ٢٠٤.

أحبِّ الوسائل، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (أحبُّ الوسائل إلى (المحسن): التوسل إليه بإحسانه، والاعتراف له بأن الأمر كلَّه محض فضله وامتنانه)[1].

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (الوهّاب).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الوهَّاب) في مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله: (إن الراجي ليس معارضاً ولا معترضاً؛ بل راغباً راهباً، مُؤمِّلاً لفضل ربه؛ مُحسنَ الظنِّ به، متعلِّقَ الأمل ببِرِّه وجوده، عابداً له بأسمائه: المُحسن البَرِّ المُعطي الحليم الغفور الجواد (الوهَّاب) الرزَّاق، والله ــ سبحانه وتعالى ــ يُحِبُّ من عبده أن يرجوه، ولذلك كان عند رجاء العبد له؛ وظنه به)[3].

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٢٣٠.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الوهَّاب) ــ على وجه الخصوص ــ : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٩٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٥؛ ١٣٠. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : التبيان في أقسام القرآن ص٢٩٧.
ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الوهَّاب) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الوهَّاب) في ثلاث آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨].
وأما معناه: فقال الزجاجي في [اشتقاق أسماء الله: ص١٢٦]: (الوهَّاب: الكثير الهبة والعطية. وفعَّال في كلام العرب: للمبالغة، فالله ــ عزَّ وجلّ ــ وهَّاب، يهب لعباده واحداً بعد واحدٍ؛ ويُعطيهم، فجاءت الصفة على فعَّال، لكثرة ذلك وتردُّده).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٥.

المسألة الخامسة:

اسم الجلالة (الفتَّاح).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الفتَّاح) في عدَّة مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم عند ذكره لمنزلة التوكُّل؛ فقال: (التوكُّل من أعمِّ المقامات تعلُّقاً بالأسماء الحسنى، فإن له تعلُّقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات.

فله تعلُّقٌ باسم: الغفَّار؛ والتوَّاب؛ والعفوِّ؛ والرؤوف؛ والرحيم، وتعلُّقٌ باسم: (الفتَّاح)؛ والوهَّاب؛ والرزَّاق؛ والمُعطي؛ والمُحسن، وتعلُّقٌ باسم: المُعزِّ المُذلِّ؛ الخافظ الرافع؛ المانع؛ من جهة توكُّله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم؛ ومنعهم أسباب النصر، وتعلُّقٌ بأسماء القدرة والإرادة، وله تعلُّقٌ عامٌّ بجميع الأسماء الحسنى)[2].

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الفتَّاح) ــ على وجه الخصوص ــ: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٣٠. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥١٣.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الفتَّاح) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الفتَّاح) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۝٢٦﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٦].

وأما معناه: فقال الزجاج في [تفسير أسماء الله الحسنى: ص٣٩]: (الله تعالى ذِكْرُه فتح بين الحقِّ والباطل، فأوضح الحقَّ وبيَّنه، وأدحض الباطل وأبطله، فهو الفتَّاح).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٣٠.

المسألة السادسة:

اسم الجلالة (الرزَّاق).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الرزَّاق) في مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ وما يقتضيه؛ فقال: (من أسمائه: (الرزَّاق) المقتضي لوجود الرزق والمرزوق)[2].

وقد بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ آثار اسم الجلالة (الرزَّاق) مع اسم الجلالة (الغفَّار) في المخلوقات جميعها؛ فقال: (تأمَّل ظهور هذين الاسمين: اسم (الرَّزَّاق)؛ واسم (الغفَّار) في الخليقة: ترى ما يُعجب العقول، وتأمَّل آثارهما حقَّ التأمُّل في أعظم مجامع الخليقة، وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته؟ ولولا ذلك لما كان له من قيام أصلاً، فلكلٍّ منهم نصيبٌ من الرِّزق والمغفرة؛ فإمَّا متصلاً بنشأته الثانية، وإمَّا مختصًّا بهذه النشأة)[3].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد١/ ١٤٤، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٠؛ ٤٥١؛ ٢/ ٤٥؛ ١٣٠، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٦٢.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الرزَّاق) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الرزَّاق) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٨].

وأما معناه: فقال البيهقي في [الأسماء والصفات: ١/ ١٧٢] ــ نقلاً عن الحليمي ــ: (هو الرزَّاق رزقاً بعد رزقٍ، والمُكثر المُوسِّع له).

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٤.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٦٢.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته أسماء الجلالة: (البرَّ؛ والمُحسن؛ والوهَّاب؛ والفتَّاح؛ والرزَّاق) متوالية؛ فقال:

(والبَرُّ مِنْ أوصافه سبحانه ... هو: كثرة الخيرات والإحسانِ
صدرت عن البرِّ الذي هو وصفه ... فالبِرُّ حينئذٍ له نوعانِ
وصفٌ وفعلٌ فهو بَرٌّ مُحسنٌ ... مُولي الجميلِ ودائمُ الإحسانِ
وكذلك الوهَّابُ من أسمائه ... فانظر مواهبه مدى الأزمانِ
أهل السماوات العلى والأرض عن ... تلك المواهب ليس ينفكانِ
وكذلك الفتَّاحُ من أسمائه ... والفَتْح في أوصافه أمرانِ
فتح بحكم وهو شرع إلٰهنا ... والفتح بالأقدار فتح ثانِ
والربُّ فتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا ... عدلاً وإحساناً من الرحمنِ
وكذلك الرزَّاقُ من أسمائه ... والرِّزْقُ من أفعاله نوعانِ
رزق على يد عبده ... ورسوله نوعان أيضاً ذان معروفانِ
رزق القلوب العلم والإيمان والر ... زق المعد لهذه الأبدانِ
هذا هو الرزق الحلال وربنا ... رزاقه والفضل للمنّانِ
والثاني سوق القوت للأعضاء في ... تلك المجاري سوقه بوزانِ
هذا يكون من الحلال كما يكو ... ن من الحرام كلاهما رزقانِ
والله رازقه بهذا الاعتبا ... ر وليس بالاطلاق دون بيانِ)[1]

المسألة السابعة:

اسم الجلالة (الرَّازق).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٣٢٤ ــ ٣٣٣٨) ــ ص٢٤٧ ــ ٢٤٨].

(الرَّازق) في عدَّة مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم في مقام الاستدلال بالصنعة؛ وأنها إحدى الطرق الدالَّة على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته؛ فقال: (دعا ــ سبحانه ــ في كتابه عباده إلى الاستدلال بذلك على صفاته، فهو يُثبت العلم بربوبيته ووحدانيته؛ وصفات كماله بآثار صفته المشهودة، والقرآن مملوءٌ بذلك، فيظهر شاهد اسم الخالق من نفس المخلوق، وشاهد اسم (الرَّازق) من وجود الرزق والمرزوق)[2].

واسم الجلالة (الرَّازق): من الأسماء المختصَّة بالربِّ ــ تبارك

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الرَّازق) ــ على وجه الخصوص ــ : بدائع الفوائد ١/ ١٤٨، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٩٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٠؛ ٤٥١؛ ٣/ ٣٧١، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٦١؛ ٢٦٢. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٢٨٣؛ ٢٨٤، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٤، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٨، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٢٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٥٣٢.
ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الرَّازق) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الرَّازق) بصيغة الجمع في خمس آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٤].
وأما معناه: فقال البيهقي في [الأسماء والصفات: ١/ ١٧٢] ــ نقلاً عن الحليمي ــ : (معناه: المُفيض على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قواماً إلا به، والمُنعم عليهم بإيصال حاجتهم من ذلك إليهم؛ لئلا يُنغِّص عليهم لذة الحياة بتأخُّره عنهم، ولا يفقدوها أصلاً لفقدهم إياه).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧١.

وتعالى ـ ؛ فلا يجوز لأحدٍ من العباد التسمِّي به، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (مما يُمنع تسمية الإنسان به: أسماء الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ ، فلا يجوز التسمية بالأحد والصمد؛ ولا بالخالق ولا (بالرَّازق)، وكذلك سائر الأسماء المختصَّة بالرب ـ تبارك وتعالى ـ)[1].

المسألة الثامنة:

اسم الجلالة (المُنعم).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة: (المُنعم) في عدَّة مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله: (إن الربَّ: هو القادر الخالق البارىء المصور؛ الحي القيوم؛ العليم السميع البصير؛ المحسن (المنعم) الجواد؛ المعطي المانع؛ الضار النافع؛ المقدم المؤخر؛ الذي يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء؛ ويُسعد من يشاء ويُشقي؛ ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء؛ إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (المُنعم) ـ على وجه الخصوص ـ : بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ : بدائع الفوائد ٢/ ١٦٩؛ ٤/ ١١٣، الداء والدواء ص١٣٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٤٥؛ ٢/ ٥٧٠، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٣٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧٦؛ ٢/ ٢٦٢؛ ٣/ ١١٤؛ ١٦٠، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥١٣.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (المُنعم) بذكر دليله المثبت له، ولم يرد اسم (المُنعم) صريحاً في كتاب الله العزيز؛ وإنما ورد بطريق الاشتقاق في قول الله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٧].

يستحقه من الأسماء الحسنى)[١].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ أن هذا الاسم مستلزمٌ لتتابع نعم الله تعالى على عباده؛ بحيث لا يستطيع أحدٌ منهم أن يُكافىء نعمه أبداً؛ فقال: (الربُّ تعالى لا يستطيع أحدٌ أن يُكافىء نعمه أبداً؛ ولا أقلَّها؛ ولا أدنى نعمةٍ من نِعَمِه، فإنه تعالى هو (المُنعم) المتفضِّل الخالق للشكر والشاكر وما يشكر عليه.

فلا يستطيع أحدٌ أن يُحصي ثناء عليه؛ فإنه هو المُحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها، فشكره نعمةٌ من الله أنعم بها عليه تحتاج إلى شكرٍ آخر؛ وهلمَّ جرًّا)[٢].

وصنوف نِعَم الربِّ المُنعم ــ سبحانه وتعالى ــ لا يُحصيها أهلُ سماواته ولا أهلُ أرضه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الربُّ ــ تبارك اسمه؛ وتعالى جدُّه؛ ولا إلـٰه غيره ــ : هو (المُنعم) على الحقيقة بصنوف النِّعم التي لا يحصيها أهلُ سماواته وأرضه، فإيجادهم: نعمة منه، وجعلهم أحياء ناطقين: نعمة منه، وإعطاؤهم الأسماع والأبصار والعقول: نعمة منه، وإدرار الأرزاق عليهم ــ على اختلاف أنواعها وأصنافها ــ : نعمة منه، وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله: نعمة منه، وإجراء ذكره على ألسنتهم ومحبَّته ومعرفته على قلوبهم: نعمة منه، وحفظهم بعد إيجادهم: نعمة منه، وقيامه بمصالحهم ــ دقيقها وجليلها ــ : نعمة منه، وهدايتهم إلى أسباب مصالحهم ومعايشهم: نعمة منه، وذكر نعمه على سبيل التفصيل: لا سبيل إليه؛ ولا قدرة للبشر عليه.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٦٢ ــ ٢٦٣.

ويكفي أن النَفَسَ من أدنى نعمه التي لا يكادون يعدُّونها، وهو أربعةٌ وعشرون ألف نَفَسٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فللّه على العبد في النَفَس خاصة أربعةٌ وعشرون ألفَ نعمةٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ، دع ما عدا ذلك من أصناف نعمه على العبد، ولكلِّ نعمةٍ من هذه النِّعم حقٌّ من الشكر يستدعيه ويقتضيه، فإذا وَزَّعْتَ طاعات العبد كلَّها على هذه النِّعم: لم يخرج قسطُ كلِّ نعمةٍ منها إلا جزءاً يسيراً جداً؛ لا نسبة له إلى قدر تلك النعمة بوجهٍ من الوجوه.

قال أنس بن مالك: (يُنشر للعبد يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوانٌ فيه ذنوبه، وديوان فيه النِّعم، وديوانٌ فيه العمل الصالح، فيأمر الله تعالى أصغر نعمةٍ من نعمه فتقوم؛ فتستوعب عمله كلَّه، ثم تقول: أي ربِّ وعزَّتك وجلالك ما استوفيتُ ثمني، وقد بَقِيَتْ الذنوبُ والنِّعمُ، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً قال: ابنَ آدم؛ ضعَّفتُ حسناتك؛ وتجاوزتُ عن سيئاتك؛ ووهبتُ لك نِعَمِي، فيما بيني وبينك)[1].

وفي صحيح الحاكم ــ حديث صاحب الرمَّانة ــ : «الذي عبد الله خمسمائة سنة، يأكل كلَّ يومٍ رمَّانة تخرج له من شجرةٍ، ثم يقوم إلى صلاته، فسأل ربَّه وقت الأجل أن يقبضه ساجداً؛ وأن لا يجعل للأرض عليه سبيلاً حتى يُبعث وهو ساجدٌ، فإذا كان يوم القيامة وقف بين يدي الربِّ؛ فيقول تعالى: أدخلوا عبدي الجنةَ برحمتي. فيقول: ربِّ؛ بل بعملي. فيقول الربُّ ــ جلَّ جلاله ــ : قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله، فتُؤخذ نعمةُ البصر بعبادة خمسمائة سنة، وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه، فيقول: أدخلوا عبدي النار، فيُجرُّ إلى النار؛ فينادي: ربِّ برحمتك؛ ربِّ برحمتك أدخلني الجنة. فيقول: ردُّوه، فيُوقف بين يديه؛ فيقول: يا عبدي من خَلَقَكَ ولم تكن شيئاً؟

---

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم [رقم (٥) ــ ١/ ٢٩١].
قال ابن كثير في [تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥١٢]: (غريبٌ وسنده ضعيفٌ).

فيقول: أنت يا ربِّ. فيقول: من قوّاك على عبادة خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا ربِّ. فيقول: من أنزلك في جبلٍ وسط اللُّجَّة؛ وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح؛ وأخرج لك كلَّ يومٍ رمَّانة؛ وإنما تخرج مرةً في السنة، وسألتني أن أقبضك ساجداً؛ ففعلت ذلك بك؟ فيقول: أنت يا ربِّ. فيقول الله: فذلك برحمتي؛ وبرحمتي أُدخلك الجنة» رواه من طريق يحيى بن بكير[1] حدثنا الليث بن سعد عن سليمان بن هرم[2] عن محمد بن المنكدر[3] عن جابر عن النبي ﷺ[4]، والإسناد صحيحٌ؛ ومعناه صحيحٌ لا ريب فيه.

---

(١) هو: أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن بُكير القرشي المخزومي مولاهم المصري، المحدث الحافظ، ولد سنة خمس وخمسين ومائة، وتوفي في مصر في منتصف شهر صفر سنة إحدى وثلاثين ومائتين.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/١٦٥، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ١/٥٢٨ ـ ٥٢٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٦١٢ ـ ٦١٥.

(٢) سليمان بن هرم: مجهولٌ؛ وحديثه غير محفوظٍ.
انظر في ترجمته: ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ٢/٢٢٧ ـ ٢٢٨، لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ٣/١٠٨ ـ ١٠٩.

(٣) هو: أبو عبد الله القرشي التيمي المدني، الحافظ القدوة، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة؛ وبلغ نيفاً وسبعين سنة.
انظر في ترجمته: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ٣/١٤٦ ـ ١٥٨، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٥٠٣ ـ ٥٠٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/٣٥٣ ـ ٣٦١.

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب التوبة والإنابة/ الحديث رقم (٧٦٣٧) ـ ٤/٢٧٨ ـ ٢٧٩]، وأوله: «خرج من عندي خليلي جبريل».
قال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد، فإن سليمان بن هرم العابد من زهَّاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين). =

فقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «لن ينجو أحدٌ منكم بعمله». وفي لفظ: «لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ»[1].

فقد أخبر ﷺ أنه لا يُنجي أحداً عملُه من الأولين ولا من الآخرين؛ إلا أن يرحمه ربُّه ــ سبحانه ــ، فتكون رحمتُه له خيراً من عمله، لأن رحمته تُنجيه؛ وعمله لا يُنجيه، فعُلِمَ أنه ــ سبحانه ــ لو عذَّب أهل سماواته وأرضه لعذَّبهم ببعض حقِّه عليهم.

ومما يوضحه: أنه كلَّما كَمُلَتْ نعمة الله على العبد: عَظُمَ حقُّه عليه، وكان ما يُطالَب به من الشكر أكثر مما يُطالَب مَن دونه، فيكون حقُّ الله عليه أعظمَ، وأعماله لا تفي بحقِّه عليه، وهذا إنما يعرفه حقَّ المعرفة من عرف الله وعرف نفسه، هذا كلُّه لو لم يحصل للعبد من الغفلة والإعراض والذنوب ما يكون في قبالة طاعاته، فكيف إذا حصل له من ذلك ما يُوازي طاعاته؛ أو يزيد عليها؟

فإنَّ مِن حقِّ الله على عبده أن يعبده لا يُشرك به شيئاً، وأن يذكره ولا ينساه، وأن يشكره ولا يكفره، وأن يرضى به ربًّا؛ وبالإسلام ديناً؛

= وتعقَّبه الذهبي في التلخيص فقال: (لا والله، وسليمان بن هرم غير معتمد)، وكذا في: ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٢/٢٢٨، حيث بيَّن ضعف الحديث ــ سنداً ومتناً ــ.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الرقاق/ باب القصد والمداومة على العمل ــ الحديث رقم (٦٤٦٣) ــ ٤/٢٠٢٩]، ومسلم في صحيحه [كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله ولكن برحمة الله تعالى ــ الحديث رقم (٢٨١٦) ــ ٤/٢١٦٩] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ.

وبمحمدٍ ﷺ رسولاً، وليس الرضا بذلك مجرَّد إطلاق هذا اللفظ؛ وحاله وإرادته: تُكذِّبه وتخالفه.

فكيف يرضى به ربًّا من يسخط ما يقضيه له إذا لم يكن موافقاً لإرادته وهواه؟ فيظل ساخطاً به مُتبرِّماً، يرضى وربُّه غضبان، ويغضب وربُّه راضٍ، فهذا إنما رضي بحظِّه من ربِّه حظَّ من لم يرض بالله ربًّا.

وكيف يدَّعي الرضا بالإسلام ديناً من ينبذ أصوله خلف ظهره إذا خالفت بدعته وهواه؛ وفروعه وراءه إذا لم يوافق غرضه وشهوته؟

وكيف يصحُّ الرضا بمحمدٍ رسولاً من لم يُحكِّمه على ظاهره وباطنه؛ ويتلقَّ أصول دينه وفروعه من مشكاته وحده؟ وكيف يرضى به رسولاً من يترك ما جاء به لقول غيره؛ ولا يترك قول غيره لقوله، ولا يحكِّمه ويحتجُّ بقوله إلا إذا وافق تقليده ومذهبه؛ فإذا خالفه لم يلتفت إلى قوله؟)[1].

المسألة التاسعة:

اسم الجلالة (المنَّان).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (المنَّان) في عدَّة مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ما تُثمره مشاهدة هذا الاسم في قلب

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٤٥ ــ ٣٤٨.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (المنَّان) ــ على وجه الخصوص ــ : بدائع الفوائد ١/ ١٤٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٩٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥١. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ : التبيان في أقسام القرآن ص٧٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٧٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٦٠.
ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى =

العبد؛ فقال: (إذا وصل إلى القلب نورُ صفة المِنَّة؛ وشهد معنى اسمه (المنَّان)؛ وتجلَّى ــ سبحانه ــ على قلب عبده بهذا الاسم ــ مع اسمه (الأول) ــ : ذُهِلَ القلبُ والنفسُ به؛ وصار العبد فقيراً إلى مولاه بمطالعة سبق فضله الأوَّل، فصار مقطوعاً عن شهود أمرٍ أو حالٍ ينسبه إلى نفسه؛ بحيث يكون بشهادته لحاله مفصوماً مقطوعاً عن رؤية عِزَّة مولاه وفاطره وملاحظة صفاته.

فصاحب شهود الأحوال: منقطعٌ عن رؤية مِنَّة خالقه وفضله؛ ومشاهدة سبق الأوليَّة للأسباب كلِّها؛ وغائبٌ بمشاهدة عِزَّة نفسه عن عِزَّة مولاه، فينعكس هذا الأمر في حقِّ هذا العبد الفقير؛ وتشغله رؤية عِزَّة مولاه ومِنَّته ومشاهدة سبقه بالأولية عن حال يعتزُّ بها العبد أو يشرف بها)[1].

المسألة العاشرة:

اسم الجلالة (الشَّاكر).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الشَّاكر) في عدَّة مواضع من

= (المنَّان) بذكر دليله المثبت له، ولم يرد اسم الجلالة (المنَّان) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميته في حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ : «اللَّـٰهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إلـٰه إلا أنت المنَّان» الحديث؛ وقد تقدَّم تخريجه.

وقد ختم الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ثلاثة وعشرين بيتاً من أبيات نونيته باسم الجلالة (المنان)؛ كما في: [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٥٩١؛ ٨٧٢؛ ٨٩٧؛ ٩٠٥؛ ١٢٩٥؛ ١٥٧٥؛ ١٧٠٥؛ ١٧٣٩؛ ١٨٣٥؛ ١٩٣٧؛ ١٩٦٤؛ ٢١٣٣؛ ٢٢٣١؛ ٢٦١٣؛ ٣١٩٦؛ ٣٣٠٧؛ ٣٩١٣؛ ٤٩٠٥؛ ٤٩٧٤؛ ٥٠٣٦؛ ٥٠٦٩؛ ٥٥٠٠؛ ٥٥٢٩)].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧.

كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله: (سمَّى نفسه: (شاكراً؛ وشكوراً)، وسمَّى الشاكرين بهذين الاسمين، فأعطاهم من وصفه؛ وسمَّاهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً)[2].

كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ الدليل المُثبت لاسم الجلالة (الشَّاكر)؛ فقال: (أما تسميته ـ سبحانه ـ بـ: (الشكور): فهو في حديث أبي هريرة[3].

وفي القرآن تسميته (شاكراً)، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾[4]. وتسميته أيضاً: (شكور)، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾[5]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾[6]. فجمع لهم ـ سبحانه ـ بين الأمرين: أَنْ شَكَرَ سعيهم؛ وأثابهم عليه.

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الشَّاكر) ـ على وجه الخصوص ـ: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٩٦؛ ٣٢٢، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٦، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٥٣. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١١٤؛ ٢٢٣.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (الشَّاكر) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (الشَّاكر) في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨].

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٥٣.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «إن لله تسعة وتسعين اسماً».

(٤) سورة النساء: الآية ١٤٧.

(٥) سورة التغابن: الآية ١٧.

(٦) سورة الإنسان: الآية ٢٢.

والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته؛ ويغفر له إذا تاب إليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه؛ ومغفرته لإساءته: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾[1])[2].

المسألة الحادية عشر:

اسم الجلالة (الشَّكور).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الشَّكور) في عدَّة مواضع من كتبه[3]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم عند ذكر ما اشتقَّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأهل الشكر؛ فقال: (اشتقَّ لهم اسماً من أسمائه، فإنه ـ سبحانه ـ هو: (الشكور)، وهو يُوصل الشاكر إلى

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣٠.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٦.

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الشَّكور) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ٣/١٨، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٧١٩، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٨١؛ ٤٢٠؛ ٤٢٦؛ ٤٢٧؛ ٤٢٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٤٥٣؛ ٢/٢٥٢؛ ٢٥٣؛ ٣/١١٤. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٦٣، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٣، الفوائد ص١٨٦، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/١١٥.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (الشَّكور) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة (الشَّكور) في أربع آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٠].

مشكوره؛ بل يعيد الشاكر مشكوراً)[1].

وفي مقام شرح قول شيخ الإسلام الهروي ـ رحمه الله تعالى ـ : (ويبعث على الشكر إلا ما قام به الحقُّ ـ عزَّ وجلّ ـ من حقِّ الصفة)؛ وبيان أن الله تعالى (شكورٌ)؛ يُحبُّ أن يُشكر؛ ويُحبُّ عباده الشاكرين: قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (هذا الكلام يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يريد أن هذه الملاحظة تبعثه على الشكر لله في السراء والضراء في كل حين؛ إلا ما عجزت قدرته عن شكره، فإن الحقَّ ـ سبحانه ـ هو الذي يقوم به لنفسه بحقِّ كماله المقدس وكمال صفاته ونعوته، فتلك الملاحظة تبسط للعبد الشكر الذي يعجز عنه ولا يقدر أن يقوم به، فإن شكر العبد لربِّه نعمة من الله أنعم بها عليه؛ فهي تستدعي شكراً آخر عليها، وذلك الشكر نعمة أيضاً؛ فيستدعي شكراً ثالثاً؛ وهلمَّ جرًّا، فلا سبيل إلى القيام بشكر الربِّ على الحقيقة؛ ولا يشكره على الحقيقة سواه، فإنه هو المنعم بالنعمة وبشكرها، فهو الشكور لنفسه؛ وإن سمَّى عبده شكوراً، فمدحة الشكر في الحقيقة راجعة إليه؛ وموقوفة عليه، فهو الشاكر لنفسه بما أنعم على عبده، فما شكره في الحقيقة سواه، مع كون العبد عبداً؛ والربُّ ربًّا، فهذا أحد المعنيين في كلامه.

المعنى الثاني: أنَّ هذا اللحظ يبسطه للشكر الذي هو وصفه وفعله؛ لا الشكر الذي هو صفة الربِّ ـ جلَّ جلاله ـ وفعله، فإنه سمَّى نفسه بـ : (الشكور)، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾[2]. وقال أهل الجنة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾[3].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٥٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٧.

(٣) سورة فاطر: الآية ٣٤.

فهذا الشكر الذي هو وصفه ــ سبحانه ــ لا يقوم إلا به، ولا يبعث العبد على الملاحظة المذكورة إلا على وجهٍ واحدٍ؛ وهو أنه إذا لاحظ سبق الفضل منه ــ سبحانه ــ: علم أنه فعل ذلك لمحبته للشكر، فإنه تعالى يُحبُّ أن يُشكر، كما قال موسى ﷺ: (يا رب هلاَّ ساويت بين عبادك؟ فقال: إنِّي أُحِبُّ أن أُشْكَر)[1].

وإذا كان يُحِبُّ الشكر: فهو أولى أن يتصف به، كما أنه ــ سبحانه ــ وترٌ يُحبُّ الوتر؛ جميلٌ يُحبُّ الجمال؛ محسنٌ يُحبُّ المحسنين؛ صبورٌ يُحبُّ الصابرين؛ عفوٌّ يُحبُّ العفو؛ قويٌّ والمؤمن القويُّ أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، فكذلك هو (شكورٌ) يُحبُّ الشاكرين، فملاحظة العبد سبق الفضل تُشهده صفة الشكر؛ وتبعثه على القيام بفعل الشكر، والله أعلم)[2].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما يتعلَّق بشكر الربِّ تعالى من المعاني؛ فقال: (وأما شكر الربِّ تعالى: فله شأنٌ آخر كشأن صبره، فهو أولى بصفة الشكر من كلِّ شكورٍ، بل هو الشكور على الحقيقة، فإنه يُعطي العبد؛ ويوفِّقه

---

(١) لم أقف عليه من قول موسى؛ وإنما وقفت عليه من قول آدم ــ عليهما السلام ــ، وقد أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه [كتاب الجامع/ باب شكر الطعام ــ رقم (١٩٥٧٦) ــ ١٠/ ٤٢٤]، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان [باب في تعديد نعم الله عزَّ وجلّ وما يجب من شكرها ــ رقم (٤١٢٧ ــ ٤١٢٨) ــ ٨/ ٣٧٨ ــ ٣٧٩] من أثر الحسن البصري وقتادة، وأحمد في الزهد [ص٦١] من أثر بكر بن عبد الله المزني، وابن أبي الدنيا في الشكر [رقم (١٦٥) ــ ص٥٧] من أثر الحسن البصري، ولفظه عند عبد الرزاق الصنعاني: (عُرِضَت على آدم ذريته، فرأى فضل بعضهم على بعض، فقال: أي ربِّ؛ فهلا سوَّيت بينهم؟ قال: إني أُحبُّ أن أُشكر).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١١٤ ــ ١١٥.

لما يشكره عليه، ويشكر القليلَ من العمل والعطاء؛ فلا يستقلُّه أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها؛ إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله؛ بأن يُثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى؛ ويُلقي له الشكر بين عباده؛ ويشكره بفعله.

فإذا ترك له شيئاً: أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئاً: ردَّه عليه أضعافاً مضاعفة، وهو الذى وفَّقه للترك والبذل؛ وشكره على هذا وذاك. ولما عقر نبيهُ سليمانُ الخيلَ ــ غضباً له إذ شغلته عن ذكره؛ فأراد ألا تشغله مرة أخرى ــ : أعاضه عنها متن الريح، ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته: أعاضهم عنها أن ملَّكهم الدنيا؛ وفتحها عليهم، ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن: شكر له ذلك بأن مكَّن له ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾[1]، ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزَّقها أعداؤه: شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيراً خضراً أقرَّ أرواحهم فيها؛ ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث؛ فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه، ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبُّوهم: أعاضهم من ذلك بأن صلَّى عليهم هو وملائكته؛ وجعل لهم أطيب الثناء في سماواته وبين خلقه؛ فأخلصهم ﴿بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾[2].

ومِن شكره ــ سبحانه ــ أنه يُجازي عدوَّه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا؛ ويُخفِّف به عنه يوم القيامة؛ فلا يُضيع عليه ما يعمله من الإحسان؛ وهو من أبغض خلقه إليه، ومِن شكره أنه غفر للمرأة البغيِّ بسقيها كلباً كان قد جهده العطش؛ حتى أكل الثرى، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوكٍ عن طريق المسلمين، فهو ــ سبحانه ــ يشكر العبد على إحسانه

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥٦.

(٢) سورة ص: الآية ٤٦.

لنفسه؛ والمخلوق إنما يشكر من أحسن اليه.

وأبلغ من ذلك: أنه ــ سبحانه ــ هو الذى أعطى العبد ما يُحسن به إلى نفسه؛ وشَكَرَه على قليله بالأضعاف المضاعفة؛ التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر، فمَنْ أحقُّ باسم (الشكور) منه ــ سبحانه ــ ؟

وتأمل قوله ــ سبحانه ــ : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾[1]: كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرمٍ؛ كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً، فالشكور لا يُضيع أجر محسنٍ؛ ولا يُعذب غير مسيء.

وفي هذا ردٌّ لقول من زعم أنه ــ سبحانه ــ يُكلِّفه ما لا يُطيقه؛ ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته ــ تعالى الله عن هذا الظنِّ الكاذب والحسبان الباطل علواً كبيراً ــ ، فشُكْرُه ــ سبحانه ــ اقتضى أن لا يُعذب المؤمنَ الشكورَ؛ ولا يُضيع عمله، وذلك مِن لوازم هذه الصفة؛ فهو منزَّهٌ عن خلاف ذلك، كما يُنزَّه عن سائر العيوب والنقائص التى تُنافي كماله وغناه وحمده.

ومِن شُكْرِه ــ سبحانه ــ : أنه يُخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرةٍ من خيرٍ؛ ولا يُضيع عليه هذا القدر، ومِن شُكْرِه ــ سبحانه ــ : أن العبد من عباده يقوم له مقاماً يُرضيه بين الناس؛ فيشكره له؛ ويُنوِّه بذكره؛ ويُخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام؛ وأثنى به عليه؛ ونوَّه بذكره بين عباده، وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه ــ سبحانه ــ :

(١) سورة النساء: الآية ١٤٧.

﴿غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾[1]، يغفر الكثير من الزلل؛ ويشكر القليل من العمل.

ولما كان ـ سبحانه ـ هو الشكور على الحقيقة: كان أحبَّ خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطَّلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنى؛ أحبُّ خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض الكفور الظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم، وهو ـ سبحانه ـ جميلٌ يُحبُّ الجمال؛ عليمٌ يُحبُّ العلماء؛ رحيمٌ يُحبُّ الراحمين؛ محسنٌ يُحبُّ المحسنين؛ شكورٌ يُحبُّ الشاكرين؛ صبورٌ يُحبُّ الصابرين؛ جوادٌ يُحبُّ أهل الجود؛ ستارٌ يُحبُّ أهل الستر؛ قادرٌ يلوم على العجز؛ والمؤمن القويُّ أحبُّ اليه من المؤمن الضعيف؛ عفوٌّ يُحبُّ العفو؛ وترٌ يُحبُّ الوتر، وكلُّ ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكلُّ ما يُبغضه فهو مما يضادها وينافيها)[2].

وقد تقدَّم من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ما يدلُّ عليه معنى الوزن (فعول) الذي جاء به بعض أسماء الجلالة، حيث قال ـ رحمه الله تعالى ـ في معنى اسم الجلالة (الشكور): (إن فعولاً في صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فاعلٌ، كغفور بمعنى: غافر؛ وشكور بمعنى: شاكر)[3].

وقد قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته في

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣٠.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٦ ـ ٤٢٨.

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٦٣.

أبياتٍ تُعيِّنُ اسم الله تعالى: (الشكور)؛ وتُبيِّن معناه:

(وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهم وجازاهم بحبٍّ ثانِ
هذا هو الإحسان حقًّا لا مُعَا ... وضة ولا لتوقُّعِ الشُّكرانِ
لكن يُحبُّ شُكُورَهم وشَكُورَهم ... لا لاحتياجٍ منه للشُّكْرانِ
وهو الشَّكُورُ فلن يُضيِّعَ سَعْيَهُم ... لكن يُضاعفه بلا حُسْبانِ
ما للعباد عليه حقٌّ واجبٌ ... هو أَوْجَبَ الأَجْرَ العظيمَ الشانِ
كلا ولا عَمَلٌ لديه ضائعٌ ... إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عُذِّبُوا فبِعَدْلِهِ أو نُعِّمُوا ... فبِفَضْلِهِ والحَمْدُ للمَنَّانِ)[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الشكور) باسم الجلالة (الغفور)[2]؛ فقال: (يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة: قد رُفع لك علمٌ فشمِّر إليه فقد أمكن التشمير، واجعل سيرك بين مطالعة منَّته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير، فما أبقى مشهدُ النعمة والذنب للعارف من حسنةٍ يقول: هذه مُنجيتي من عذاب السعير، ما المُعوَّل إلا على عفوه ومغفرته فكلُّ أحدٍ إليهما فقير، «أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي»[3]؛ أنا المذنب المسكين وأنت ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾)[4].

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٩٧ ـ ٣٣٠٣) ـ ص٢٤٥].

(٢) ورد اقتران اسم الجلالة (الشَّكور) باسم الجلالة (الغفور) في ثلاث آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها في قول الله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٠].

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «سيد الاستغفار أن يقول».

(٤) سورة سبأ: الآية ٢.

ما تُساوي أعمالُك ــ لو سلمت مما يُبطلها ــ أدنى نعمةٍ من نعمه عليك، وأنت مرتهنٌ بشكرها من حين أُرسل بها إليك، فهل رعيتها بالله حقَّ رعايتها وهي في تصريفك وطوع يديك؟ فتعلَّق بحبل الرجاء؛ وادخل من باب التوبة والعمل الصالح، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾[1].

نهَّج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها، وعرَّفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها، وحذَّره من وبال معصيته وأشهده على نفسه وعلى غيره شؤمها وعقابها، وقال: إن أطعتَ فبفضلي؛ وأنا أشكر، وإن عصيتَ: فبقضائى؛ وأنا أغفر، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾[2].

أزاح عن العبد العلل، وأمره أن يستعيذ به من العجز والكسل، ووعده أن يشكر له القليل من العمل، ويغفر له الكثير من الزلل، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾.

أعطاه ما يشكر عليه ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه، ووعده على إحسانه لنفسه أن يُحسن جزاءه ويقربه لديه، وأن يغفر له خطاياه إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾.

وثَقَتْ بعفوه هفوات المذنبين فوَسِعَتْها، وعَكَفَتْ بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها، وخَرَقَتْ السبعَ الطباق دعواتُ التائبين والسائلين فسَمِعَها، ووَسِعَ الخلائقَ عفوُه ومغفرتُه ورزقُه فما ﴿مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[3]، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾.

يجود على عبيده بالنوال قبل السؤال، ويعطي سائله ومؤمِّله فوق

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣٠.

(٢) سورة فاطر: الآية ٣٤.

(٣) سورة هود: الآية ٦.

ما تعلَّقت به منهم الآمال، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصى والتراب والرمال، ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرَّب إليه بمثقال ذرةٍ من الخير شكرها وحمدها، ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

تعرَّف إلى عباده بأسمائه وأوصافه، وتحبَّب إليهم بحلمه وآلائه، ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلائه، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه، ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

السعادة كلُّها في طاعته، والأرباح كلُّها في معاملته، والمحن والبلايا كلُّها في معصيته ومخالفته، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته، ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذى كتبه أن رحمته تغلب غضبه، ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

يُطاع فيشكر؛ وطاعته من توفيقه وفضله، ويُعصى فيحلم؛ ومعصية العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له حتى كأنه لم يكن قطُّ من أهله، ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عددٍ ولا حسبان، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوحٌ لديه منذ خلق السماوات والأرض إلى آخر الزمان، ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

بابه الكريم مناخ الآمال ومحطُّ الأوزار، وسماء عطاه لا تقلع عن الغيث بل هى مدرار، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

لا يُلقَّى وصاياه إلا الصابرون، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يهلك عليه إلا الهالكون، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون، ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فإياك أيها المُتمرِّد أن يأخذك على غرةٍ فإنه غيور، وإذا أقمت على معصيته وهو يُمدُّك بنعمته فاحذره فإنه لم يُهملك لكنه صبور، وبُشراك أيها التائب بمغفرته ورحمته ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾.

من علم أن الربَّ شكورٌ تنوع في معاملته، ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلَّق بأذيال مغفرته، ومن علم أن رحمته سبقت غضبه لم ييأس من رحمته، ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

من تعلَّق بصفة من صفاته: أخذته بيده حتى تُدخله عليه، ومن سار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه، ومن أحبَّه أحبَّ أسمائه وصفاته وكانت آثر شيءٍ لديه، حياة القلوب في معرفته ومحبته، وكمال الجوارح في التقرب إليه بطاعته، والقيام بخدمته والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته، فأهل شكره أهل زيادته؛ وأهل ذكره أهل مجالسته؛ وأهل طاعته أهل كرامته؛ وأهل معصيته لا يُقنِّطهم من رحمته، إن تابوا فهو حبيبهم؛ وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بأنواع المصائب ليكفر عنهم الخطايا؛ ويُطهِّرهم من المعائب، ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾)[1].



(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٩ ــ ٤٣١.

المطلب السادس عشر:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الرَّفيق؛ القريب؛ الجواد

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى: (الرفيق؛ والقريب؛ والجواد)، وذكر بعض أدلة ثبوتها، وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (الرَّفيق).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الرفيق) في مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله: ((رفيقٌ) يُحِبُّ

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الرَّفيق) ـ على وجه الخصوص ـ: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٩٤. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤.
ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (الرَّفيق) بذكر دليله المثبت له، ولم يرد اسم الجلالة (الرَّفيق) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد ذكره في حديث: «إن الله رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفق» المخرَّج في =

الرفق)[١].

والعبد إذا ترفَّه بالرخص الشرعيَّة: فإنما يتعبَّد لله تعالى باسم الجلالة (الرَّفيق)، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (فرقٌ بين أن يكون التفاته إليها ترفهاً وراحة؛ وأن يكون متابعة وموافقة، ومع هذا فالالتفات إليها ترفهاً وراحة لا يُنافي الصدق، فإن هذا هو المقصود منها، وفيه شهود نعمة الله على العبد، وتعبُّدٌ باسمه: البرِّ؛ اللطيف؛ المُحسن؛ (الرَّفيق)، فإنه (رفيقٌ) يُحِبُّ الرفق.

وفي الصحيح: «ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما؛ ما لم يكن إثماً»[٢].

لما فيه من روح التعبُّد باسم (الرَّفيق) اللطيف، وإجمام القلب به لعبودية أخرى، فإن القلب لا يزال يتنقَّل في منازل العبودية، فإذا أخذ بترفيه رخصة محبوبه: استعدَّ بها لعبودية أخرى، وقد تقطعه عزيمتها عن عبوديةٍ هي أحبُّ إلى الله منها)[٣].

= صحيح البخاري [كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم/ باب إذا عرَّض الذميُّ وغيره بسبِّ النبي ﷺ ولم يصرِّح ـ الحديث رقم (٦٩٢٧) ـ ٥/ ٢١٦٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب البر والصلة والآداب/ باب فضل الرِّفق ـ الحديث رقم (٢٥٩٣) ـ ٤/ ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤] من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ .

وأما معناه: فقال البيهقي في [الأسماء والصفات: ١/ ١٤١]: (معناه: ليس بعجولٍ، وإنما يعجلُ مَنْ يخافُ الفوتَ، فأما من كانت الأشياء في قبضته وملكه: فليس يعجل فيها).

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٩٤.

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (القريب).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (القريب) في عدَّة مواضع من كتبه[1]، حيث بيَّن ما في إخفاء الدعاء من الفائدة والمطالعة لهذا الاسم؛ فقال: (من النُّكت السريَّة البديعة جدًّا: أنه دالٌّ على قُرْبِ صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدَّة حضوره: يسأله مسألة أقرب شيءٍ إليه، فيسأله مسألة مناجاة للقريب؛ لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى ـ سبحانه ـ على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝﴾[2].

فكلَّما استحضر القلب قرب الله تعالى منه؛ وأنه أقرب إليه من كلِّ

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (القريب) ـ على وجه الخصوص ـ: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٥٠٢. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٣٠٤، بدائع الفوائد ١/ ١٥٤؛ ٢/ ١١٨؛ ٣/ ٢٧ ـ ٢٨، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢١، ٣/ ١١١٥، ومختصره ٢/ ٤٢٨؛ ٤٥٨ ـ ٤٥٩؛ ٤٦٠، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (١٢٠٢) ـ ص١١٠]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٨١؛ ٣٣٩.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الله تعالى (القريب) بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (القريب) في ثلاث آيات من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦].

(٢) سورة مريم: الآية ٣.

قريبٍ؛ وتصوَّر ذلك: أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأتَّ له رفع الصوت به، بل يراه غير مُستحسنٍ، كما أنَّ من خاطب جليساً له ـ يسمع خَفِيَّ كلامه ـ؛ فبالغ في رفع الصوت: اسْتُهْجِنَ ذلك منه، ولله المثل الأعلى ـ سبحانه ـ.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه؛ بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير؛ وهم معه في السفر، فقال: «إربعوا[1] على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[3].

وقد جاء أن سبب نزولها: أن الصحابة قالوا: «يا رسول الله، ربنا قريبٌ فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ فأنزل الله ـ عزَّ وجلّ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[4]»[5].

---

(١) إربعوا ـ بكسر الهمزة؛ وفتح الباء الموحدة ـ: ارفقوا.
انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٦/ ١٥٧، عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ١٤/ ٢٤٥، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ٥/ ١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الجهاد والسير/ باب ما يُكره من رفع الصوت في التكبير ـ الحديث رقم (٢٩٩٢) ـ ٢/ ٩٢٠]، ومسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب خفض الصوت بالذكر ـ الحديث رقم (٢٧٠٤) ـ ٤/ ٢٠٧٦] من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «يا أيها الناس إربعوا».

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٢/ ١٥٨]، وابن أبي حاتم =

وهذا يدلُّ على إرشادهم للمناجاة في الدعاء؛ لا للنداء ـــ الذي هو رفع الصوت ـــ ، فإنهم عن هذا سألوا، فأُجيبوا بأن ربهم ـــ تبارك وتعالى ـــ قريبٌ؛ لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يُسأل مسألة القريب المناجي؛ لا مسألة البعيد المنادي.

وهذا القرب من الداعي: هو قربٌ خاصٌّ؛ ليس قرباً عاماً من كلِّ أحدٍ، فهو قريبٌ من داعيه؛ وقريبٌ من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ، وهو أخصُّ من قرب الإنابة وقرب الإجابة ـــ الذي لم يُثبت أكثر المتكلمين سواه ـــ ، بل هو قربٌ خاصٌّ من الداعي والعابد[1]، كما قال النبي ﷺ راوياً عن ربِّه ـــ تبارك وتعالى ـــ : «من تقرَّب مني شبراً: تقرَّبت منه ذراعاً، ومن تقرَّب مني ذراعاً: تقرَّبت منه باعاً» رواه البخاري ومسلم[2].

فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائله: فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[3]. وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[4]. فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

= في تفسير القرآن العظيم [١/ ٣١٤]، وأبو الشيخ في العظمة [ذكر نوع من عفو ربنا عزَّ وجلّ وعظيم قدرته وكثرة رأفته ولطفه وعفوه وجوده وكرمه ـــ الحديث رقم (١٨٨) ـــ ٢/ ٥٣٥ ـــ ٥٣٦] من حديث الصُّلب بن الحكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة القشيري ـــ رضي الله عنه ـــ .

(١) انظر في الدلالة على قرب الربِّ تعالى، وأنه لم يجىء القرب كما جاءت المعية خاصة وعامة، وإنما ورد خاصاً لا عاماً: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥٨ ـــ ٤٥٩، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٧٦ ـــ ٢٧٧.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «قال الله ـــ عزَّ وجلّ ـــ : عبدي أنا عند ظنك بي».

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٥.

وأما قربه ــ تبارك وتعالى ــ من مُحبِّه: فنوعٌ آخر؛ وبناءٌ آخر؛ وشأنٌ آخر، كما قد ذكرناه في كتاب: (التحفة المكية) على أن العبارة تنبو عنه؛ ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبداً، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها: يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تُعبِّر عنه بغير العبارة النبوية؛ أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها، فتَزِلَّ قدمٌ بعد ثبوتها.

وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام؛ وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع من الطامَّات والشطح، وقابلهم مَن غلظ حجابه؛ فأنكر محبة العبد لربِّه جملة؛ وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرَّد الثواب المخلوف، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا.

وقد ذكرنا من طرق الردِّ على هؤلاء وهولاء في كتاب: (التحفة) أكثر من مائة طريقٍ)[1].

ثم استنبط ــ رحمه الله تعالى ــ من قول الله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾[2]: الدليل على أن الله تعالى قريبٌ من أهل الإحسان خاصَّة؛ فقال: (الأصل في الآية: إن الله قريبٌ من المحسنين، وإن رحمة الله قريبةٌ من المحسنين، فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوَّغ ذلك: ظهور المعنى، وهذا المسلك مسلك حسنٌ إذا كُسِيَ تعبيراً أحسن من هذا، وهو مسلكٌ لطيف المنزع؛ دقيقٌ على الأفهام، وهو من أسرار القرآن، والذي ينبغي أن يُعبَّر عنه به: أن الرحمة صفةٌ من صفات الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ، والصفة قائمةٌ بالموصوف

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٨ ــ ٩.
وانظر نظير هذا المعنى: طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥١ ــ ٥٢.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٦.

لا تُفارقه، لأن الصفة لا تُفارق موصوفها، فإذا كانت قريبة من المحسنين: فالموصوف ــ تبارك وتعالى ــ أولى بالقرب منه، بل قرب رحمته تبعٌ لقربه هو ــ تبارك وتعالى ــ من المحسنين.

وقد تقدَّم في أوَّل الآية: أنَّ الله تعالى قريبٌ مِن أهل الإحسان بإثابته؛ ومن أهل سؤاله بإجابته، وذكرنا شواهد ذلك، وأن الإحسان يقتضي قرب الربِّ من عبده؛ كما أن العبد قريبٌ من ربِّه بالإحسان، وأن من تقرَّب منه شبراً: تقرَّب الله منه ذراعاً؛ ومن تقرَّب منه ذراعاً: تقرَّب منه باعاً.

فالربُّ ــ تبارك وتعالى ــ قريبٌ من المحسنين، ورحمته قريبةٌ منهم، وقربه يستلزم قرب رحمته، ففي حذف التاء ههنا تنبيهٌ على هذه الفائدة العظيمة الجليلة؛ وأن الله تعالى قريبٌ من المحسنين، وذلك يستلزم القربين: قربه؛ وقرب رحمته، ولو قال: إن رحمة الله قريبةٌ من المحسنين: لم يدلَّ على قربه تعالى منهم، لأن قربه تعالى أخصُّ من قرب رحمته، والأعمُّ لا يستلزم الأخصَّ، بخلاف قربه؛ فإنه لما كان أخصَّ: استلزم الأعمَّ؛ وهو قرب رحمته.

فلا تستهن بهذا المسلك؛ فإن له شأناً، وهو متضمنٌ لسرٍّ بديعٍ من أسرار الكتاب)[1].

وفهم معنى اسم الجلالة (القريب): مما يُعين على فهم قرب الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ من عبده؛ وقرب عبده منه كما وردت بذلك النصوص الصحيحة الصريحة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (لا ريب أن العبدَ يقرب من ربِّه؛ والربَّ يقرب من عبده، فأما قرب العبد: فكقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ⁽١٩⁾﴾[2].

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٢٧ ــ ٢٨.

(٢) سورة العلق: الآية ١٩.

وقوله في الأثر الإلـهي: «من تقرَّب منِّي شبراً: تقرَّبت منه ذراعاً»[1].
وكقوله: «وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به؛ وبصره الذي يبصر به؛ ويده التي يبطش بها؛ ورجله التي يمشى بها، فبـي يسمع؛ وبـي يبصر؛ وبـي يبطش؛ وبـي يمشي»[2].

وفي الحديث الصحيح: «أقرب ما يكون الربُّ من عبده في جوف الليل الأخير»[3]. وفي الحديث أيضاً: «أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ»[4]. وفي الحديث الصحيح ـ لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبـي ﷺ في السفر ـ فقال: «يا أيها الناس إربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميعٌ قريبٌ؛ أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[5])[6].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (ومن أراد فهم هذا كما ينبغي:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى ـ الحديث رقم (٢٦٨٧) ـ ٤/٢٠٦٨] من حديث أبـي ذرٍّ الغفاريِّ ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد».

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (١١٨) ـ الحديث رقم (٣٥٧٩) ـ ٥/٥٣٧] من حديث عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه ـ.
وصححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: ص٤٧٠].

(٤) أخرجـه مسلم في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب ما يقال في الركوع والسجود ـ الحديث رقم (٤٨٢) ـ ١/ ٣٥٠] من حديث أبـي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين١/ ٥٠١ ـ ٥٠٢.

فعليه بفهم اسمه تعالى: الباطن؛ وفهم اسمه: (القريب)، مع امتلاء القلب بِحُبِّه؛ ولهج اللسان بذكره)[١].

وإذا فُهِم ــ مما تقدَّم ــ معنى اسم الجلالة (القريب) كما ينبغي: عُلِمَ أنه لا مُنافاة بينه وبين أسماء الجلالة الدالَّة على عُلُوِّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إنه ــ سبحانه ــ قريبٌ من أهل الإحسان؛ ومن أهل سؤاله بإجابته، ويُوضِّح ذلك: أن الإحسان يقتضي قرب العبد من ربِّه، فيقرب ربُّه منه إليه، بإحسانه تقرَّب تعالى إليه، فإنه من تقرَّب منه شبراً: يتقرب منه ذراعاً، ومن تقرَّب منه ذراعاً: تقرَّب منه باعاً، فهو قريبٌ من المحسنين بذاته ورحمته ــ قرباً ليس له نظيرٌ ــ، وهو مع ذلك فوق سماواته على عرشه، كما أنه ــ سبحانه ــ يقرب من عباده في آخر الليل؛ وهو فوق عرشه، فإن عُلُوَّه ــ سبحانه ــ على سماواته من لوازم ذاته، فلا يكون قطُّ إلا عالياً؛ ولا يكون فوقه شيءٌ ألبتة، كما قال أعلم الخلق: «وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيءٌ»[٢].

وهو ــ سبحانه ــ قريبٌ في علوه؛ عالٍ في قربه، كما في الحديث الصحيح عن أبي موسى الأشعري قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فارتفعت أصواتنا بالتكبير، فقال: أيها الناس، إربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميعٌ قريبٌ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[٣].

فأخبر ﷺ وهو أعلم الخلق به أنه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين١/ ٥٠٢.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّهُمَّ رب السماوات ورب الأرض».

وأخبر أنه فوق سماواته على عرشه؛ مُطَّلعٌ على خلقه؛ يرى أعمالهم ويرى ما في بطونهم، وهذا حقٌّ لا يُناقض أحدُهما الآخرَ[1].

والذي يُسهِّل عليك فهم هذا: معرفة عظمة الربِّ؛ وإحاطته بخلقه، وأن السماوات السبع في يده كخردلة في يد العبد، وأنه ــ سبحانه ــ يقبض السماوات بيده والأرض بيده الأخرى؛ ثم يهزهنَّ، فكيف يستحيل في حقِّ مَنْ هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه؛ ويقرب من خلقه كيف شاء وهو على العرش؟)[2].

المسألة الثالثة:

اسم الجلالة (الجواد).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (الجواد) في مواضع كثيرة من كتبه[3]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله:

---

(1) انظر في الدلالة على أن قرب الله ــ سبحانه وتعالى ــ من داعيه وعابديه لا يُنافي كمال مباينته لخلقه؛ واستواءه على عرشه، بل يُجامعه ويُلازمه: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٧٦ ــ ٢٧٧.

(2) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٠.

(3) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الجواد) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٨١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٣؛ ٢/ ٥٩٨؛ ٧٢٠، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٥، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٣؛ ٢/ ٤٥. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٢٥٢ ــ ٢٥٣؛ ٣٥٣، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص١٢٧، الروح ص٥٢٥، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٨؛ ١٠٢٥، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٧؛ ٢٣٦؛ ٢٣٧؛ ٢٧٨؛ ٤٣٣، عدة الصابرين وذخيرة =

(إن الربَّ: هو القادر الخالق الباريء المصور؛ الحي القيوم؛ العليم السميع البصير؛ المحسن المنعم (الجواد)؛ المعطي المانع؛ الضار النافع؛ المقدم المؤخر؛ الذي يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء؛ ويُسعد من يشاء ويُشقي؛ ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء؛ إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى)[1].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ معنى هذا الاسم؛ وبيَّن أنَّ الله تعالى هو الجواد لذاته بقوله: (إنه يُحِبُّ الإِحسان والجود والعطاء والبِرَّ، وإن الفضل كلَّه بيده؛ والخير كلَّه منه؛ والجود كلَّه له.

وأحبُّ ما إليه: أن يجود على عباده ويُوسعهم فضلاً؛ ويغمرهم إحساناً وجوداً؛ ويُتِمَّ عليهم نعمته؛ ويضاعف لديهم منَّته؛ ويتعرَّف إليهم بأوصافه وأسمائه؛ ويتحبَّب إليهم بنعمه وآلائه، فهو (الجواد) لذاته، وَجُود كلِّ جوادٍ خلقه الله؛ ويخلقه أبداً: أقلُّ من ذرةٍ بالقياس إلى جوده، فليس الجواد على الإِطلاق إلا هو، وَجُود كلِّ جوادٍ فمن جوده، ومحبَّته للجود والإِعطاء والإِحسان والبِرِّ والإِنعام والإِفضال فوق ما يخطر ببال الخلق؛ أو يدور في أوهامهم، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشدُّ من فرح الآخذ بما

= الشاكرين ص٣٩٣، الفوائد ص٣٧؛ ١٨٦، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٢؛ ٢٣٣؛ ٢٣٤؛ ٢/ ٥٢؛ ٥٠١؛ ٣/ ٦٠؛ ١٥٦.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الله تعالى (الجواد) بذكر دليله المثبت له، ولم يرد اسم الجلالة (الجواد) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد ذكره في حديث: «إن الله جوادٌ يُحِبُّ الجود»؛ وقد تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله طيبٌ يُحِبُّ الطيِّب».

وصحَّح هذا الجزء من هذا الحديث الألباني في [ضعيف سنن الترمذي: الحديث رقم (٢٧٩٩) ــ ص٣١٤].

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

يُعطاه ويأخذه؛ أحوج ما هو إليه وأعظم ما كان قدراً، فإذا اجتمع شدَّةُ الحاجة وعظم قدر العطيَّة والنفع بها: فما الظنُّ بفرح المُعْطَى؟ ففرح المُعطِي ــ سبحانه ــ بعطائه أشدُّ وأعظم من فرح هذا بما يأخذه؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

إذ هذا شأن الجواد من الخلق؛ فإنه يحصل له من الفرح والسرور والابتهاج واللذة بعطائه وجوده فوق ما يحصل لمن يُعطيه، ولكن الآخذ غائبٌ بلذَّة أخذه عن لذَّة المُعطي وابتهاجه وسروره، هذا مع كمال حاجته إلى ما يُعطيه وفقره إليه؛ وعدم وُثُوقه باستخلاف مثله؛ وخوف الحاجة إليه عند ذهابه والتعرُّض لذُلِّ الاستعانة بنظيره ومن هو دونه؛ ونفسُه قد طُبِعَت على الحرص والشحِّ، فما الظن بمن تقدَّس وتنزَّه عن ذلك كلِّه؟

ولو أنَّ أهل سماواته وأرضه؛ وأوَّل خلقه وآخرهم؛ وإنسهم وجنهم؛ ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوه؛ فأعطى كلَّ واحدٍ ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرةٍ، وهو الجواد لذاته؛ كما أنه الحيُّ لذاته؛ العليم لذاته؛ السميع البصير لذاته، فجوده العالي من لوازم ذاته، والعفو أحبُّ إليه من الانتقام؛ والرحمة أحبُّ إليه من العقوبة؛ والفضل أحبُّ إليه من العدل؛ والعطاء أحبُّ إليه من المنع.

فإذا تعرَّض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه؛ وأعدَّ له أنواع كرامته؛ وفضَّله على غيره؛ وجعله محلَّ معرفته؛ وأنزل إليه كتابه وأرسل إليه رسوله؛ واعتنى بأمره ولم يُهمله ولم يتركه سدى، فتعرَّض لغضبه؛ وارتكب مساخطه وما يكرهه؛ وأبق منه؛ ووالى عدوَّه وظاهره عليه؛ وتحيَّز إليه وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه ــ التي هي أحبُّ شيءٍ إليه ــ؛ وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوفٌ به

(١) سورة النحل: الآية ٦٠.

من الجود والإحسان والبرِّ، وتعرَّض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه؛ وأن يصير غضبُه وسخطُه في موضع رضاه وانتقامه، وعقوبتُه في موضع كرمه وبِرِّه وعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحبُّ إليه منه؛ وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان)[1].

كما بيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ أن من مقتضيات هذا الاسم: محبة الجواد ـ سبحانه وتعالى ـ لأَنْ يُرجى ويُؤَمَّل ويُسأل؛ فقال: (ـ سبحانه ـ يُحِبُّ من عباده أن يُؤَمِّلوه ويرجوه ويسألوه من فضله؛ لأنه الملك الحقُّ (الجواد)، أجود من سُئِلَ؛ وأوسع من أعطى، وأحبُّ ما إلى (الجواد): أن يُرجى ويُؤَمَّل ويُسأل، وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[2].

والسائلُ راجٍ وطالبٌ، فمن لم يرج الله: يغضب عليه، فهذه فائدةٌ أخرى من فوائد الرجاء؛ وهي: التخلُّص به من غضب الله)[3].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته أسماء الجلالة الواردة في هذا المطلب ـ وما في معناها ودلالتها ـ ؛ فقال:

(وهو الرَّفيق يُحِبُّ أهلَ الرِّفق بل ... يُعطيهم بالرِّفق فوق أمانِ
وهو القريبُ وقربه المختصُّ بالدَّ ... اعي وعابده على الإيمانِ
وهو المُجيب يقول من يدعو أُجِبْـ ... ـهُ أنا المُجيب لكلِّ مَن ناداني
وهو المُجيب لدعوة المُضطرِّ إذْ ... يدعوه في سرٍّ وفي إعلانِ
وهو الجوادُ فجودُه عمَّ الوجو ... دَ جميعَه بالفضلِ والإحسانِ
وهو الجوادُ فلا يُخيِّبُ سائلاً ... ولَوْ أنَّه من أُمَّة الكُفْرانِ

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٥٢.

وهو المُغيث لكلِّ مخلوقاته   وكذا يُجيبُ إغاثة اللهفانِ)[1].

فهذه بعض الأسماء الحسنى ــ التي هي أخصُّ باسم الجلالة (الرَّحمن) ــ ، وقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مثاني كتبه؛ ونصَّ على أنها من أسماء الله الحسنى[2].



(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢٨٩ ــ ٣٢٩٥) ــ ص٢٤٥].

(٢) نظير هذه الأسماء الحسنى في معناها ودلالتها على اسم الجلالة (الرَّحمن): اسما الجلالة (المجيب؛ والمغيث)، وقد ورد ذكر اسم الجلالة (المجيب) في مواضع من كتب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ منها قوله في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٣٩]: (إن التائب الصادق في توبته إذا تاب إليه: وجده غفوراً رحيماً، والمتوكِّل إذا صدق في التوكُّل عليه: وجده حسيباً كافياً، والداعي إذا صدق في الرغبة إليه: وجده قريباً (مجيباً)).

وكذا ورد ذكر اسم الجلالة (المغيث) في موضعٍ واحدٍ من كتبه ــ رحمه الله تعالى ــ وروداً عاماً؛ وهو قوله في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٣٩]: (المُحبُّ إذا صدق في محبته: وجده ودوداً حبيباً، والملهوف إذا صدق في الاستغاثة به: وجده كاشفاً للكرب؛ مُخلِّصاً منه، والمُضطرُّ إذا صدق في الاضطرار إليه: وجده رحيماً (مُغيثاً)).

المطلب السابع عشر:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: علّام الغيوب؛ ذو الجلال والإكرام؛ مالك الملك؛ سريع الحساب؛ شديد العقاب؛ ذو البطش الشديد؛ الفعال لما يريد

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى المضافة؛ وهي: (علام الغيوب؛ وذو الجلال والإكرام؛ ومالك الملك؛ وسريع الحساب؛ وشديد العقاب؛ وذو البطش الشديد؛ والفعال لما يريد)، وذكر بعض أدلة ثبوتها، وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسم الجلالة (علام الغيوب).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (علام الغيوب) في موضعٍ واحدٍ من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ وأنه مما

---

(١) لم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (علام الغيوب) في هذا الموضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (علام الغيوب) في أربع آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٩].

يختصُّ الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ بالتسمِّي به؛ فقال: (مما يُمنع تسمية الإنسان به: أسماء الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ، فلا يجوز التسمية بـ: الأحد والصمد؛ ولا بالخالق ولا بالرازق، وكذلك سائر الأسماء المختصَّة بالربِّ ـ تبارك وتعالى ـ، ولا تجوز تسمية الملوك بالقاهر والظاهر، كما لا يجوز تسميتهم بالجبار والمتكبر؛ والأول والآخر؛ والباطن؛ و(علام الغيوب))[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته اسم الجلالة (علَّام الغيوب) في سياق سلب النقائص والعيوب عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ المستلزم لإثبات كمال ضدِّه من الكمالات؛ فقال:

(وكذلك غفلتُه تعالى وهو عَلاَّ ... مُ الغيوب فظاهرُ البُطلانِ)[2].

المسألة الثانية:

اسم الجلالة (ذو الجلال والإكرام).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (ذا الجلال والإكرام) في عدَّة مواضع من كتبه[3]، حيث قرَّر ثبوت هذا

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيت رقم (٣٢٠٢)].

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (ذي الجلال والإكرام) ـ على وجه الخصوص ـ: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٨، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٧. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: التبيان في أقسام القرآن ص١٢٦، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤١، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٧٩؛ ٣/ ٢٦٠.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة =

الاسم بقوله: (الله ـ سبحانه ـ له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجهٍ ما، والإحسان كله له ومنه، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ أحقُّ بكلِّ حمدٍ؛ وبكلِّ حبٍّ من كلِّ جهةٍ، فهو أهلٌ أن يُحَبَّ لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه؛ ولكلِّ ما صدر منه ـ سبحانه ـ .

وأما المجد: فهو مُستلزمٌ للعظمة والسعة والجلال، كما يدلُّ عليه موضوعه في اللغة، فهو دالٌّ على صفات العظمة والجلال.

والحمد: يدلُّ على صفات الإكرام، والله ـ سبحانه وتعالى ـ: (ذو الجلال والإكرام))[1].

وقد نبَّه الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ على نكتةٍ بديعةٍ في رفع قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[2] في أول سورة (الرحمن)؛ وجرِّه في آخرها في قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾[3]؛ فقال: (تأمَّل رفع قوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾؛ عند ذكره الوجه، وجرِّه في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

فذو: الوجه المضاف بالجلال والإكرام؛ لما كان القصد الإخبار عنه، وذي: المضاف إليه بالجلال والإكرام في آخر السورة؛ لما كان المقصود عين المسمى دون الاسم، فتأمَّله)[4].

= (ذي الجلال والإكرام) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (ذو الجلال والإكرام) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الرحمن: الآية ٧٨].

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٢٧.

(٣) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٧.

المسألة الثالثة :

اسم الجلالة (مالك الملك).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة : (مالك الملك) في مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ وأنه من معاني

---

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (مالك الملك) ــ على وجه الخصوص ــ : بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢؛ ٤/ ١٣٩.

وقد ورد ذكر اسم (المالك) في كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ مفرداً ومضافاً، فمن وروده مفرداً: قوله ــ رحمه الله تعالى ــ في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٨٠]: (هو الخالق (المالك) الغنيُّ، الموجود بنفسه أزلاً وأبداً)، وكما في: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣٤١، بدائع الفوائد ٣/ ١٧٩، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣١؛ ٢/ ٧٦٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٨؛ ٤/ ١٢٢٣، ومختصره ٢/ ٣٩١، الفوائد ص١٨٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٢٥؛ ٣/ ١٦٠؛ ٣٨٠.

وأما وروده مضافاً: فقد جاء متنوِّعاً، فتارة يُضاف إلى (المُلْك) ــ كما سيأتي ذكره ــ ، وتارة يُضاف إلى (الملوك)؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في [طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٩٥]: (مالك الملوك)، وتارة يُضاف إلى (السماوات والأرض)؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في [طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٤]: (مالك السماوات والأرض)، وتارة يُضاف إلى (النفع والضرِّ)؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٩٧]: (مالك الضرِّ والنفع)، وتارة يُضاف إلى (الذوات والرقاب)؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ في [بدائع الفوائد ٤/ ١١٣]: (مالك ذواتنا ورقابنا)، وكما في: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ١٢٧، بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢؛ ٤/ ١١٣، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٩، طريق الهجرتين =

المُلْك بقوله: (له من معنى المُلْك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى؛ كالعزيز الجبار؛ الحكم العدل؛ الخافض الرافع؛ المعز المذل؛ العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد؛ الوالي المتعالي؛ (مالك الملك)؛ المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك)[1].

وهناك ثمة فرقٌ بين الملك والمالك، وقد أشار إليه الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (الفرق بين المَلِك والمالك، إذ المالك: هو المتصرِّف بفعله، والمَلِك: هو المتصرِّف بفعله وأمره، والربُّ تعالى: (مالك الملك)، فهو المتصرِّف بفعله وأمره)[2].

المسألة الرابعة:

اسم الجلالة (سريع الحساب).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (سريع

= وباب السعادتين ص١٩٥؛ ٢٣٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٩٨؛ ٣٩٧.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (المالك) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (المالك) بصيغة الإضافة في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٤].

وأما معناه: فقال الزجاجي في [اشتقاق أسماء الله: ص٤٣]: (المالك: اسم الفاعل من ملك يملك؛ فهو مالكٌ. فالله ـ عزَّ وجلّ ـ مالك الأشياء كلِّها؛ ومصرِّفُها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيءٌ، لأن المالك في كلام العرب للشيء: هو المتصرِّف فيه؛ القادر عليه).

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٢) بدائع الفوائد ٤/ ١٣٩.

الحساب) في موضعٍ واحدٍ من كتبه[١]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ وما يدلُّ عليه من معنى القهر فقال: (أسماؤه القهرية مثل: القهَّار؛ والمنتقم؛ والعدل؛ والضارُّ؛ وشديد العقاب؛ و (سريع الحساب)؛ وذي البطش الشديد؛ والخافض؛ والمُذلِّ، فإن هذه الأسماء والأفعال كمالٌ، فلا بُدَّ من وجود مُتعلَّقها، ولو كان الخلق كلُّهم على طبيعة المَلَك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال)[٢].

المسألة الخامسة:

اسم الجلالة (شديد العقاب).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (شديد العقاب) في مواضع من كتبه[٣]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم؛ في سياق ما

---

(١) لم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (سريع الحساب) في هذا الموضع بذكر دليله المثبت له؛ وبيان معناه، وقد ورد اسم الجلالة: (سريع الحساب) في ثماني آياتٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٢].

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٠٣.

(٣) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الشديد العقاب) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ١/ ١٧٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٠٣. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٥٥١.
ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (شديد العقاب) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (شديد العقاب) في أربع عشرة آيةٍ من كتاب الله العزيز؛ أولها قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٩٦﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦].

يُثمره تدبُّر العبد لكلام الله المُبين؛ والنظر في آثار أفعاله المُحكمة؛ فقال: (أما الفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه: فتُوجب له التمييز بين الإيمان والكفر؛ والتوحيد والشرك؛ والإقرار والتعطيل، وتنزيه الربِّ عما لا يليق به؛ ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام.

ومجاري هذه الفكرة: تدبُّر كلامه؛ وما تعرَّف به ــ سبحانه ــ إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزَّه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به ــ سبحانه ــ ، وتدبُّر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصَّها على عباده وأشهدهم إياها؛ ليستدلُّوا بها على أنه إلههم الحقُّ المبين؛ الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدلُّوا بها على أنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وأنه (شديد العقاب)، وأنه غفورٌ رحيمٌ، وأنه العزيز الحكيم، وأنه الفعَّال لما يُريد، وأنه الذي وسع كلَّ شيءٍ رحمة وعلماً، وأن أفعاله كلَّها دائرةٌ بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة؛ لا يخرج شيءٌ منها عن ذلك.

وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبُّر كلامه؛ والنظر في آثار أفعاله، وإلى هذين الأصلين ندب عباده في القرآن)[1].

المسألة السادسة:

اسم الجلالة (ذو البطش الشديد).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسم الجلالة (ذا البطش الشديد) في مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم في سياق

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٥٥٠ ــ ٥٥١.

(٢) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (ذي البطش الشديد) ــ على وجه الخصوص ــ : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٠٣. =

ما تضمَّنته سورة (البروج) من التوحيد والتمجيد وإبطال التنديد؛ فقال: (قد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على: وصفه ــ سبحانه ــ بالعِزَّة المتضمنة للقدرة والقوة وعدم النظير، والحمد المتضمن لصفات الكمال والتنزيه عن أضدادها؛ مع محبته وإلٰهيته، وملكه السماوات والأرض المتضمن لكمال غناه وسعة ملكه، وشهادته على كلِّ شيءٍ المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها؛ وإحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها.

ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعِزَّة والقدرة، وتفرُّده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته؛ وتصرُّفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة؛ وانقيادها لقدرته فلا يستعصي عليه منها شيء.

ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته، ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيباً إلى عباده؛ مُحباً لهم.

ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختصَّ به لا يليق بغيره أن يستوي عليه.

ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم، وكونه فعالاً لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته، وغير ذلك من أوصاف كماله.

= وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: التبيان في أقسام القرآن ص١٢٤؛ ١٢٨ ــ ١٢٩.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسم الجلالة (ذي البطش الشديد) في هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (ذو البطش الشديد) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ [سورة البروج: الآية ١٢].

فهـذه السـورة: كتـابٌ مستقـلٌّ فـي أصـول الـديـن؛ تكفـي مـن فهمها، فـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[1]، و ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[2])[3].

المسألة السابعة:

اسم الجلالة (الفعَّال لما يُريد).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الفعَّال لما يُريد) في عدَّة مواضع من كتبه[4]، حيث قرَّر ثبوت هذا الاسم بقوله: (إن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمالٍ ونقصٍ: لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل

(١) سورة الكهف: الآية ١.

(٢) سورة الفرقان: الآية ١.

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص١٢٨ ـ ١٢٩.

(٤) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (الفعَّال لما يُريد) ـ على وجه الخصوص ـ: التبيان في أقسام القرآن ص١٢٦ ـ ١٢٨، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٩٢. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: بدائع الفوائد ١/ ١٤٦، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٣١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٣؛ ٣/ ١٠٢٧؛ ١١١٥، ومختصره ٢/ ٢٩٢؛ ٤٢٨؛ ٤٧٣، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٧٣٠، الفوائد ص٨٢؛ ٢٠٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٢؛ ٣/ ٢٨٠، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٥٥١، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٣.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسم الجلالة (الفعَّال لما يُريد) في بعض هذه المواضع بذكر دليله المثبت له، وقد ورد اسم الجلالة (الفعَّال لما يُريد) في آيتين من كتاب الله العزيز؛ أولاهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧].

يُطلق عليه منها كمالها، وهذا كالمريد والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو: (الفعَّال لما يُريد)، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمةٌ، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك: أكمله فعلاً وخبراً)[1].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما يدلُّ عليه هذا الاسم من كمال الله تعالى المُقدَّس؛ بقوله: (قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[2] دليلٌ على أمور:

أحدها: أنه ــ سبحانه ــ يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك؛ لأنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه؛ وأن ذلك من كماله ــ سبحانه ــ، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقتٍ من الأوقات. وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3]. وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن (ما) موصولةٌ عامةٌ، أي يفعل كلَّ ما يُريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلِّقة بفعله، وأما إرادته المتعلِّقة بفعل العبد: فتلك لها شأنٌ آخرٌ، فإن أراد فِعْلَ العبد؛ ولم يُرد من نفسه أن يُعينه ويجعله فاعلاً: لم يُوجد الفعل وإن أراده؛ حتى يُريده من نفسه أن يجعله فاعلاً.

وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية؛ وخبَّطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها، فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله

---

(١) بدائع الفوائد ١/١٤٦.
(٢) سورة البروج: الآية ١٦.
(٣) سورة النحل: الآية ١٧.

الربُّ فاعلاً، وليستا متلازمتين؛ وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يُعين عبده وأن يخلق له أسباب الفعل: فقد أراد فعلَه، وقد يريد فعله ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل: فلا يُوجد الفعل.

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع؛ وأشكل عليك: فانظر إلى قول النبي ﷺ حاكياً عن ربِّه قوله للعبد يوم القيامة: «قد أردتُ منك أهونَ من هذا وأنت في صلب أبيك: أن لا تُشرك بي شيئاً»[1].

ولم يقع هذا المراد؛ لأنه لم يُرد من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

الرابع: أن فعله ـ سبحانه ـ وإرادته مُتلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق؛ فإنه يُريد ما لا يفعل وقد يفعل ما لا يريد، فما ثَمَّ فعَّالٌ لما يُريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادةٍ متعدِّدةٍ بحسب الأفعال، وأنَّ كلَّ فعلٍ له إرادةٌ تخصُّه، وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة، فشأنه تعالى أنه يُريد على الدوام؛ ويفعل ما يُريد.

السادس: أن كلَّ ما صلح أن تتعلق به إرادته: جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا؛ وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء؛ وأن يُري نفسه لعباده؛ وأن يتجلَّى لهم كيف شاء؛ وأن يُخاطبهم ويضحك إليهم؛ وغير ذلك مما يُريد ـ سبحانه ـ: لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعَّالٌ لما يُريد،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب أحاديث الأنبياء/ باب خلق آدم وذريته ـ الحديث رقم (٣٣٣٤) ـ ٢/ ١٠٢٤ ـ ١٠٢٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً ـ الحديث رقم (٢٨٠٥) ـ ٤/ ٢١٦٠ ـ ٢١٦١] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «إن الله يقول لأهْوَن».

وإنما تتوقَّف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر به: وجب التصديق به، وكان ردُّه رداً لكماله الذي أخبر به عن نفسه، وهذا عين الباطل، وكذلك إذا أمكن إرادته ـ سبحانه ـ محو ما شاء واثبات ما شاء: أمكن فعله، وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس)[1].

فهذه بعض الأسماء الحسنى ـ الواردة بصيغة الإضافة ـ ، وقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في مثاني كتبه؛ ونصَّ على أنها من أسماء الله الحسنى[2].



(١) التبيان في أقسام القرآن ص١٢٦ ـ ١٢٨.

(٢) نظير هذه الأسماء الحسنى ـ الواردة بصيغة الإضافة ـ : اسم الجلالة (بديع السماوات والأرض)، وقد ورد ذكر هذا الاسم في موضعٍ واحدٍ من كتب الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ وروداً عاماً، وذلك في قوله في [شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣]: (مُبدع الشيء وبديعه: لا يصحُّ إطلاقه إلا على الربِّ، كقوله ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧، سورة الأنعام: الآية ١٠١]).

المطلب الثامن عشر :

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الأوّل؛ الآخر؛ الظّاهر؛ الباطن

تضمَّن هذا المطلب تعيين أربعة من أسماء الله تعالى المزدوجة المتقابلة؛ وهي: (الأول؛ والآخر؛ والظاهر؛ والباطن)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، مع الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران بعضها ببعض، وتقرير ذلك من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ منتظمٌ في المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى:

اسما الجلالة (الأوّل الآخر).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسمي الجلالة (الأول؛ والآخر) في مواضع كثيرة من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت اسم الجلالة

(١) انظر في النصِّ على اسمي الجلالة (الأول؛ والآخر) ــ على وجه الخصوص ــ : بدائع الفوائد ١/ ١٧٠، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤١٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٦؛ ٤٧؛ ٥٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك =

(الأول)؛ وما يدلُّ عليه؛ فقال: ((الأوَّل): الذي دلَّت على وحدانيَّته وأوليَّته البراهينُ القطعيَّة؛ والمشاهدةُ الإيمانيَّة)[1].

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما يحصل للقلب من مطالعة (أوليَّة الربِّ تعالى؛ وسبقه للأشياء)[2]، ومشاهدة (انفراد الحقِّ بأزليَّته وحده؛ وأنه كان ولم يكن شيءٌ غيره ألبتة؛ وكلُّ ما سواه فكائنٌ بعد عدمه بتكوينه)[3] من الغِنى؛ فقال: (أما مطالعة أوليَّته: فهو سبقه للأشياء جميعاً، فهو (الأوَّل)

= نستعين ١/ ٤٠؛ ٣٤٠. وانظر في ذكرهما ــ على وجه العموم ــ: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٤٣، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣، التبيان في أقسام القرآن ص٣٠، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٦٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣٨، ومختصره ٢/ ٤٠٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٠؛ ٥٤٢؛ ٢/ ٢٢٥؛ ٢٧٨؛ ٣/ ٣٥؛ ١١٧؛ ٣٨١، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٠.
وقد انفرد اسم الجلالة (الأول) بالذكر في: زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٦١، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٧٤؛ ٤٧١؛ ٣/ ٢٤٩. كما انفرد اسم الجلالة (الآخر) بالذكر في: طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٦.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسمي الجلالة (الأول؛ والآخر) في بعض هذه المواضع بذكر دليلهما المثبت لهما، وقد ورد اسما الجلالة (الأول؛ والآخر) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [سورة الحديد: الآية ٣].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٤٩.
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٩٢.
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٧٤ ــ ٧٥.

الـذي ليس قبلـه شـيءٌ. قـال بعضهـم: (مـا رأيـتُ شيئـاً إلا وقـد رأيـتُ الله قبله)[1].

فإن قلت: وأي غنىً يحصل للقلب من مطالعة أوليّة الربِّ؛ وسبقه لكلِّ شيءٍ، ومعلومٌ أن هذا حاصلٌ لكلِّ أحدٍ من غنيٍّ أو فقيرٍ، فما وجه الغنى الحاصل به؟

قلتُ: إذا شهد القلب سبقه للأسباب؛ وأنها كانت في حيِّز العدم؛ وهو الذي كساها حُلَّة الوجود، فهي معدومةٌ بالذات؛ فقيرةٌ إليه بالذات، وهو الموجود بذاته؛ والغنيُّ بذاته لا بغيره، فليس الغنى في الحقيقة إلا به؛ كما أنه ليس في الحقيقة إلا له، فالغنى بغيره: عين الفقر، فإنه غنى بمعدومٍ فقيرٍ، وفقيرٌ كيف يستغني بفقيرٍ مثله؟)[2].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الأول) باسم الجلالة (الآخر)؛ مُبيِّناً دلالة هذا الاقتران على أنَّ مِنَ الله تعالى الإعداد والإمداد،

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في [الردِّ الأقوم على ما في فصوص الحكم ٢/ ٤٠١]: (إذا قال القائل: ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ الله قبله؛ لأنه ربُّه ــ والربُّ متقدِّمٌ على العبد ــ ، أو رأيتُ الله بعده؛ لأنه آيته ودليله وشاهده ــ والعلم بالمدلول بعد الدليل ــ ، أو رأيتُ الله فيه؛ بمعنى ظهور آثار الصانع في صنعته: فهذا صحيحٌ، بل القرآن كلُّه يُبيِّن هذا ويدلُّ عليه، وهو دين المرسلين وسبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو اعتقاد المسلمين أهل السنة والجماعة؛ ومن يدخل فيهم من أهل العلم والإيمان ــ ذوي المعرفة واليقين؛ أولياء الله المتقين ــ) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٧١.

وأنَّ منه ــ سبحانه وتعالى ــ المبدأ وإليه المعاد، وأنه ليس له ــ سبحانه وتعالى ــ غايةٌ ولا نهايةٌ، بل الغايات والنهايات تنتهي إليه، وأن مرجع الأبد إلى الأزل؛ ومردَّ النهايات إلى الأول، وتجلية هذا وإيضاحه فيما يأتي:

١ ــ دلالة اقتران اسمي الجلالة (الأول؛ والآخر) على أن من الله تعالى الإعداد والإمداد؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (من سرِّ اسميه (الأوَّل والآخر): فهو المُعدُّ وهو المُمدُّ؛ ومنه السبَّب والمُسبَّب، وهو الذي يُعيذ من نفسه بنفسه؛ كما قال أعرف الخلق به: «وأعوذ بك منك»[(١)])[(٢)].

٢ ــ دلالة اقتران اسمي الجلالة (الأول؛ والآخر) على أن من الله تعالى المبدأ وإليه المعاد؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (منه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾[(٣)])[(٤)].

٣ ــ دلالة اقتران اسمي الجلالة (الأول؛ والآخر) على أنه ليس لله ــ سبحانه وتعالى ــ غايةٌ ولا نهايةٌ، بل الغايات والنهايات تنتهي إليه؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الغايات والنهايات كلُّها إليه تنتهي، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾[(٥)]. فانتهت إليه الغايات والنهايات؛ وليس له ــ سبحانه ــ غايةٌ ولا نهايةٌ؛ لا في وجوده ولا في مزيد جوده، إذ هو الأوَّل الذي ليس قبله شيءٌ؛ و الآخر الذي ليس بعده شيءٌ، ولا نهاية لحمده وعطائه؛ بل كلَّما ازداد له العبد شكراً: زاده فضلاً، وكلَّما ازداد له طاعة: زاده لمجده مثوبة، وكلَّما ازداد منه قرباً: لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٤٠.

(٣) سورة النجم: الآية ٤٢.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٤٣.

(٥) سورة النجم: الآية ٤٢.

ذلك، وهكذا أبداً لا يقف على غايةٍ ولا نهايةٍ، ولهذا جاء: (إنَّ أهل الجنة في مزيدٍ دائمٍ بلا انتهاء)[1].

فإن نعيمهم متصلٌ ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه؛ ولا لمزيده ولا لأوصافه، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[2].

«يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم؛ وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني؛ فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألته: ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يُنقص المخيطُ إذا أُدخل البحر»[3])[4].

٤ ــ دلالة اقتران اسمي الجلالة (الأول؛ والآخر) على أن مرجع الأبد إلى الأزل؛ ومردَّ النهايات إلى الأول؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (انتهى الأمر كلُّه إلى علمه وحكمه وحكمته؛ وذلك أزليٌّ، وهذا ردُّ النهايات إلى الأول، فتصير الخاتمة هي عين السابقة، والله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾[5]. وكلُّ ما كان ويكون آخراً: فمردودٌ إلى سابق علمه وحكمه، فرجع الأبد إلى الأزل؛ والنهايات إلى الأول، والله أعلم)[6].

المسألة الثانية:

اسما الجلالة (الظاهر الباطن).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسمي الجلالة

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) سورة ص: الآية ٥٤.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضرُّوني».

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/٢٧٨ ــ ٢٧٩.

(٥) سورة الحديد: الآية ٣.

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٥٤٢.

(الظاهر؛ والباطن) في مواضع كثيرة من كتبه[1]، حيث قرَّر بعض ما يدلُّ عليه اسم الجلالة (الظاهر) من المعاني؛ فقال: (اسمه (الظاهر) من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيءٌ، كما في الصحيح عن النبـي ﷺ: «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء»[2]، بل هو ــ سبحانه ــ فوق كلِّ شيءٍ، فمن جحد فوقيَّته ــ سبحانه ــ: فقد جحد لوازم اسمه (الظاهر).

---

(١) انظر في النصِّ على اسمي الجلالة (الظاهر؛ والباطن) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ١٧٠، تحفة المودود بأحكام المولود ص١٠٨، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤١٢؛ ٤٢٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٦؛ ٤٩؛ ٥٤؛ ٥٦، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٠. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣، التبيان في أقسام القرآن ص٣٠، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٦١؛ ٤٦٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣٨، ومختصره ٢/ ٤٠٧ ٤٦٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٤٠؛ ٣/ ١١٧، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٠.

وقد انفرد اسم الجلالة (الظاهر) بالذكر في: طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٧؛ ٥٠؛ ٥٣. كما انفرد اسم الجلالة (الباطن) بالذكر في: طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٥٠٢.

وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسمي الجلالة (الظاهر؛ والباطن) في بعض هذه المواضع بذكر دليلهما المثبت لهما، وقد ورد اسما الجلالة (الظاهر؛ والباطن) في آيةٍ واحدةٍ من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [سورة الحديد: الآية ٣].

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـهُمَّ رب السماوات ورب الأرض».

ولا يصحُّ أن يكون الظاهر: هو من له فوقية القَدْرِ فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضةِ؛ والجوهر فوق الزجاج، لأن هذه الفوقيَّة تتعلَّق بالظهور، بل قد يكون المُفوَّق أظهر من الفائق فيها، ولا يصحُّ أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان ـ سبحانه ـ ظاهراً بالقهر والغلبة لمقابلة الاسم (الباطن)؛ وهو: الذي ليس دونه شيءٌ، كما قابل (الأوَّل) الذي ليس قبله شيءٌ؛ بـ: (الآخر) الذي ليس بعده شيءٌ)[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسم الجلالة (الظاهر) في نونيته؛ فقال:

(والظاهرُ العالي الذي ما فوقه ... شيءٌ كما قد قال ذو البرهانِ
حقًّا رسول الله ذا تفسيره ... ولقد رواه مسلم بضمانِ
فاقبله لا تقبل سواه من التفا ... سير التي قِيلت بلا برهانِ
والشيءُ حين يتم منه عُلُوُّه ... فظهورُه في غاية التبيانِ
أو ما ترى هذي السما وعُلُوَّها ... وظهورَها وكذلك القمرانِ
والعكس أيضاً ثابتٌ فسفولُه ... وخفاؤُه إذ ذاك مصطحبانِ
فانظر إلى عُلُوِّ المحيطِ وأخذه ... صفةَ الظهورِ وذاك ذو تبيانِ
وانظر خفاء المركز الأدنى ووصـ ... ـف السُّفْلِ فيه وكونه تحتاني
وظهوره سبحانه بالذات مِثْـ ... ـلَ عُلُوِّه فهما له صفتانِ
لا تجحدنهما جحود الجهم أو ... صَاف الكمال تكون ذا بهتانِ
وظهورُه هو مُقْتَضٍ لعُلُوِّه ... وعُلُوُّه لظهوره ببيانِ
وكذاك قد دخلت هناك الفاء للتـ ... ـسبيب مؤذنة بهذا الشانِ
فتأمَّلن تفسير أعلم خلقه ... بصفاته من جاء بالقرآنِ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٠.

إذ قال أنتَ كذا فليس لضدِّه أبداً إليك تطرق الإتيانِ)[1].

وفهم معنى اسمي الجلالة (الظاهر؛ والباطن): يُوجب للعبد معرفة إحاطة الله ــ سبحانه وتعالى ــ بكلِّ شيءٍ؛ وفوقيته على كلِّ شيءٍ، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (لا يكون الربُّ إلا فوق كلِّ شيءٍ، ففوقيته وعُلُوُّه من لوازم ذاته، ولا تناقض بين نزوله ودُنُوِّه وهبوطه ومجيئه وإتيانه وعلوه؛ لإحاطته وسعته وعظمته، وأن السماوات والأرض بقبضته، وأنه مع كونه (الظاهر)؛ الذي ليس فوقه شيءٌ: فهو (الباطن)؛ الذي ليس دونه شيءٌ، فظهوره بالمعنى الذي فسَّره به أعلم الخلق: لا يناقض بطونه بالمعنى الذي فسره به أيضاً، فهو ــ سبحانه ــ يدنو ويقرب ممن يريد الدُّنوَّ والقرب منه؛ مع كونه فوق عرشه، وقد قال النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد»[2]. فهذا قرب الساجد من ربِّه؛ وهو فوق عرشه.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «إن الذي تدعونه سميعٌ قريبٌ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[3].

فهذا قربه من داعيه، والأول قربه من عابديه، ولم يُناقض ذلك كونه فوق سماواته على عرشه.

وإن عسر على فهمك اجتماع الأمرين؛ فإنه يُوضِّح ذلك: معرفة إحاطة الربِّ وسعته، وأنه أكبر من كلِّ شيءٍ، وأن السماوات السبع والأرضين في يده كخردلة في كفِّ العبد، وأنه يقبض سماواته السبع بيده؛

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (١٢٤٩ ــ ١٢٦١) ــ ص١١٣ ــ ١١٤].

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «يا أيها الناس؛ إربعوا على أنفسكم».

والأرضين باليد الأخرى؛ ثم يهزهنَّ. فمن هذا شأنه؛ كيف يعسر عليه الدُّنوَّ ممن يُريد الدُّنوَّ منه؛ وهو على عرشه؟

وهو يُوجب لك فهم اسمه: (الظاهر؛ والباطن)، وتعلم أنَّ التفسير الذي فسَّر رسول الله ﷺ به هذين الاسمين: هو تفسير الحقِّ المطابق لكونه بكلِّ شيءٍ محيطٌ، وكونه فوق كلِّ شيءٍ)[1].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران أسماء الله الحسنى (الأول؛ والآخر؛ والظاهر؛ والباطن) مع بعضها البعض[2]؛ مُبيِّناً أنَّ مطالعة العبد لسرِّ ذلك الاقتران: هي جماع معرفة العبد بربِّه ـ تبارك وتعالى ـ؛ وجماع عبوديته له، وقد ابتدأ ـ رحمه الله تعالى ـ كلامه بتقرير ما يوجبه تعبُّد العبد باسمي الجلالة (الأول؛ والآخر) من صحة الاضطرار إلى الله وحده؛ ودوام الفقر إليه دون كلِّ شيءٍ سواه؛ فقال: (الرجوع إلى فضل الله ـ سبحانه ـ؛ ومطالعة سبقه الأسباب والوسائط، فبفضل الله ورحمته وُجِدَتْ منه الأحوال الشريفة والمقامات العلية، وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته وقربه وكرامته وموالاته، وكان ـ سبحانه ـ هو (الأوَّل) في ذلك كلِّه؛ كما أنه (الأوَّل) في كلِّ شيءٍ، وكان هو (الآخر) في ذلك؛ كما هو (الآخر) في كلِّ شيءٍ، فمن عَبَدَه باسمه (الأول والآخر): حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلى ذلك عبوديته باسمه (الظاهر والباطن): فهذا هو العارف الجامع لمتفرِّقات التعبُّد ـ ظاهراً وباطناً ـ .

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٨.

(٢) ورد اقتران أسماء الجلالة (الأول؛ والأخر؛ والظاهر؛ والباطن) في آية واحدة من كتاب الله العزيز؛ وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [سورة الحديد: الآية ٣].

فعبوديته باسمه (الأول): تقتضي التجرُّد من مطالعة الأسباب؛ والوقوف أو الالتفات إليها؛ وتجريد النظر إلى مجرَّد سبق فضله ورحمته؛ وأنه هو المبتدىء بالإحسان من غير وسيلةٍ من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده؛ أيُّ وسيلة كانت هناك، وإنما هو عَدَمٌ محضٌ، وقد أتى عليه ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾[1].

فمنه ـ سبحانه ـ الإعداد؛ ومنه الإمداد، وفضله سابقٌ على الوسائل، والوسائل من مجرَّد فضله وجوده؛ لم تكن بوسائل أخرى، فمن نزَّل اسمه (الأول) على هذا المعنى: أوجب له فقراً خاصاً؛ وعبودية خاصة.

وعبوديته باسمه (الآخر): تقتضي أيضاً عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تنعدم لا محالة؛ وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها، فالتعلُّق بها: تعلُّقٌ بعدم وينقضي، والتعلُّق بـ (الآخر) ـ سبحانه ـ: تعلُّقٌ بـ: ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[2]؛ ولا يزول، فالمتعلِّق به حقيقٌ أن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلُّق بغيره مما له آخرٌ يفنى به.

كذا نظر العارف إليه بسبق الأوليَّة حيث كان قبل الأسباب كلِّها، وكذلك نظره إليه ببقاء الآخريَّة حيث يبقى بعد الأسباب كلِّها، فكان الله ولم يكن شيءٌ غيره، و ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[3].

فتأمل عبودية هذين الاسمين؛ وما يُوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده؛ ودوام الفقر إليه دون كلِّ شيءٍ سواه، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه

---

(١) سورة الإنسان: الآية ١.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٥٨.

(٣) سورة القصص: الآية ٨٨.

يرجع، فهو المبتدىء بالفضل؛ حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كلِّ شيءٍ وآخره، وكما أنه ربُّ كلِّ شيءٍ وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده، فهو (الأول) الذي ابتدأت منه المخلوقات؛ و (الآخر) الذي انتهت إليه عبوديتها وإرادتها ومحبتها، فليس وراء الله شيءٌ يُقصد ويُعبد ويُتألَّه؛ كما أنه ليس قبله شيءٌ يخلق ويبرأ، فكما كان واحداً في إيجادك: فاجعله واحداً في تألُّهك إليه؛ لتصحَّ عبوديتك، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه: فاجعله نهاية حبِّك وإرادتك وتألُّهك إليه؛ لتصحَّ لك عبوديته باسمه (الأول والآخر).

وأكثر الخلق تعبَّدوا له باسمه (الأول)، وإنما الشأن في التعبُّد له باسمه (الآخر)؛ فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو ربُّ العالمين وإله المرسلين ــ سبحانه وبحمده ــ)[1].

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما يُوجبه تعبُّد العبد لله تعالى باسمه (الظاهر) من جمع القلب عليه؛ وصموده إليه؛ فقال: (وأما عبوديته باسمه (الظاهر): فكما فسَّره النبي ﷺ بقوله: «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[2].

فإذا تحقَّق العبد عُلُوَّه المطلق على كلِّ شيءٍ بذاته؛ وأنه ليس فوقه شيءٌ ألبتة، وأنه قاهرٌ فوق عباده؛ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾[3]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[4]: صار لقلبه

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٦ ــ ٤٧.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـهُمَّ رب السماوات ورب الأرض».

(٣) سورة السجدة: الآية ٥.

(٤) سورة فاطر: الآية ١٠.

إماماً يقصده؛ ورباً يعبده؛ وإلهاً يتوجَّه إليه، بخلاف من لا يدري أين ربُّه؛ فإنه ضائعٌ؛ مُشتَّت القلب، ليس لقلبه قبلة يتوجَّه نحوها؛ ولا معبودٌ يتوجَّه إليه قصده، وصاحب هذه الحال إذا سلك وتألَّه وتعبَّد: طلب قلبُه إلـٰهاً يسكن إليه ويتوجَّه إليه، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شيءٌ إلا العدم، وأنه ليس فوق العالم إلـٰه يُعبد؛ ويُصلَّى له ويُسجد، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلم الطيب؛ ولا يُرفع إليه العمل الصالح: جال قلبه في الوجود جميعه؛ فوقع في الاتحاد ولا بُدَّ، وتعلَّق قلبُه بالوجود المطلق الساري في المعينات؛ فاتخذ إلهه من دون الإلـٰه الحقِّ، وظنَّ أنه قد وصل إلى عين الحقيقة، وإنما تألَّه وتعبَّد لمخلوقٍ مثله؛ ولخيالٍ نحته بفكره؛ واتخذه إلـٰهاً من دون الله ــ سبحانه ــ .

وإلـٰه الرسل وراء ذلك كلِّه، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾(١). وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾(٢).

---

(١) سورة يونس: الآيتان ٣ ــ ٤.

(٢) سورة السجدة: الآيات ٤ ــ ٩.

فقد تعرَّف ــ سبحانه ــ إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره ــ سبحانه ــ ؛ وإن زعم أنه مُقرٌّ به .

والمقصود: أن التعبُّد باسمه (الظاهر): يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربًّا يقصده؛ وصمداً يصمد إليه في حوائجه؛ وملجأً يلجأ إليه، فإذا استقرَّ ذلك في قلبه؛ وعرف ربَّه باسمه (الظاهر): استقامت له عبوديته، وصار له معقلٌ وموئلٌ يلجأ إليه؛ ويهرب إليه؛ ويفرُّ كلَّ وقتٍ إليه)[1].

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما يُوجبه تعبُّد العبد لله تعالى باسمه (الباطن) من معرفة إحاطة الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ بالعالَم وعظمته؛ فقال: (وأما تعبُّده باسمه (الباطن): فأمرٌ يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكلُّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفةً بريئةً من شوائب التعطيل؛ مُخلَّصةً من فرث التشبيه؛ مُنزَّهةً عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارةً مُؤدِّيَةً للمعنى؛ كاشفةً عنه، وذوقاً صحيحاً سليماً من أذواق أهل الانحراف، فمن رُزِقَ هذا: فهم معنى اسمه (الباطن)، وصحَّ له التعبُّد به.

وسبحان الله؛ كم زلَّت في هذا المقام أقدامٌ؛ وضلَّت فيه أفهامٌ، وتكلَّم فيه الزنديق بلسان الصدِّيق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين: لنبوِّ الأفهام عنه؛ وعزَّة تخلُّص الحقِّ من الباطل فيه؛ والتباس ما في الذهن بما في الخارج؛ إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق؛ ونوراً يُميِّز به بين الهدى والضلال؛ وفرقاناً يُفرِّق به بين الحقِّ والباطل، ورُزِقَ مع ذلك اطلاعاً على أسباب الخطأ؛ وتفرُّق الطرق؛ ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحقِّ والباطل، و ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾[2].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٧ ــ ٤٩ .

(٢) سورة الحديد: الآية ٢١، سورة الجمعة: الآية ٤ .

وباب هذه المعرفة والتعبُّد: هو معرفة إحاطة الربِّ ـ سبحانه ـ بالعالم وعظمته؛ وأن العوالم كلَّها في قبضته، وأن السماوات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾[1]. وقال: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾[2])[3].

ثم قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ سرَّ اقتران أسماء الجلالة الدالة على معنى اسمي الجلالة (الظاهر؛ والباطن)؛ فقال: (ولهذا يقرن ـ سبحانه ـ بين هذين الاسمين الدالَّين على هذين المعنيين: اسم العُلُوِّ الدالِّ على أنه (الظاهر)؛ وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدالِّ على الإحاطة؛ وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾[4]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾[5]. وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[6].

وهو ـ تبارك وتعالى ـ كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيءٌ: فهو (الباطن) بذاته فليس دونه شيءٌ، بل ظهر على كلِّ شيءٍ فكان فوقه؛ وبطن فكان أقرب إلى كلِّ شيءٍ من نفسه، وهو محيطٌ به حيث لا يُحيط الشيء بنفسه؛ وكلُّ شيءٍ في قبضته؛ وليس شيءٌ في قبضة نفسه، فهذا أقرب لإحاطة العامة)[7].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٠.
(٢) سورة البروج: الآية ٢٠.
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٩ ـ ٥٠.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٥، سورة الشورى: الآية ٤.
(٥) سورة الحج: الآية ٦٢، سورة لقمان: الآية ٣٠، سورة سبأ: الآية ٢٣، سورة غافر: الآية ١٢.
(٦) سورة البقرة: الآية ١١٥.
(٧) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٠ ـ ٥١.

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ما يُثمره تعبُّد العبد لله تعالى باسمه (الباطن) من قرب الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ منه قرباً خاصاً؛ فقال: (وأما القرب المذكور في القرآن والسنة: فقربٌ خاصٌ من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبُّد باسمه (الباطن)، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1]. فهذا قربه من داعيه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[2].

فذكر الخبر وهو قريبٌ عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة: إيذاناً بقربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحمته قريبٌ من المحسنين.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ»[3]. و «أقرب ما يكون الربُّ من عبده في جوف الليل»[4].

فهذا قربٌ خاصٌ غير قرب الإحاطة وقرب البطون، وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفرٍ فارتفعت أصواتهم بالتكبير، فقال: «أيها الناس، إربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميعٌ قريبٌ؛ أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[5].

فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني: فأيُّ حاجةٍ بكم إلى رفع الأصوات؟ وهو لقربه يسمعها وإن خفضت؛ كما يسمعها إذا رفعت، فإنه ﴿ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٦.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٦.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تقدم تخريجه، ولفظه: «يا أيها الناس؛ إربعوا على أنفسكم».
(٦) سورة سبأ: الآية ٥٠.

وهذا القرب: هو من لوازم المحبة، فكلَّما كان الحب أعظم: كان القرب أكثر، وقد استولت محبة المحبوب على قلب محبه؛ بحيث يفنى بها عن غيرها؛ ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده، فإن لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله؛ وما يجب له وما يستحيل عليه: وإلا طَرَقَ باب الحلول؛ إن لم يَلِجْهُ، وسببه: ضعف تمييزه؛ وقوة سلطان المحبة؛ واستيلاء المحبوب على قلبه؛ بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه.

وفي مثل هذه الحال يقول: سبحاني، أو: ما في الجبة إلا الله[1]، ونحو هذا من الشطحات؛ التي نهايتها: أن يُغفر له، ويُعذر لسكره؛ وعدم تمييزه في تلك الحال.

فالتعبُّد بهذا الاسم: هو التعبُّد بخالص المحبة وصفوة الوداد، وأن يكون الإلـه أقرب إليه من كلِّ شيءٍ، وأقرب إليه من نفسه؛ مع كونه (ظاهراً) ليس فوقه شيءٌ.

ومن كثف ذهنه؛ وغلظ طبعه عن فهم هذا: فليضرب عنه صفحاً إلى ما هو أولى به، فقد قيل:

---

(١) حكى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذين القولين عن أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطامي، كما في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٧٤؛ ٢/ ٩٢؛ ٢٩٨؛ ٣/ ٤٤٨.
وقد حكى الحافظ الذهبي ــ رحمه الله تعالى ــ جملة ما يُنقل عنه من الأقوال والأحوال القويمة المستقيمة، وما يُنقل عنه من ضدِّها من الأقوال والأحوال الذميمة الوخيمة، وبيَّن أن الشأن في صحَّتها وثبوتها عنه؛ لأنها لا تصحُّ عن مسلمٍ، إذ ظاهرها الإلحاد.
انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (حوادث ووفيات ٢٦١ ــ ٢٨٠هـ) ص١١٠ ــ ١١٢، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦ ــ ٨٨، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٢/ ٣٤٦ ــ ٣٤٧.

إذا لــم تستطــع شيئــاً فــدعــه وجــاوزه إلــى مــا تستطيــع[1] .

فمن لم يكن له ذوقٌ من قرب المحبة؛ ومعرفةٌ بقرب المحبوب من محبِّه غاية القرب؛ وإن كان بينهما غاية المسافة؛ ولا سيَّما إذا كانت المحبة من الطرفين؛ وهي محبةٌ بريئةٌ من العلل والشوائب والأعراض القادحة فيها، فإن المُحبَّ كثيراً ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره؛ ويفنى عن غيره، ويرقُّ قلبه وتتجرَّد نفسه، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه؛ القريب إليه؛ وبينهما من البعد ما بينهما، وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي؛ وفي لسانه وجوده اللفظي، فيستولي هذا الشهود عليه ويغيب به، فيظنُّ أن في عينه وجوده الخارجي؛ لغلبة حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب؟[2]

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا البيت في مواطن من كتبه ولم يعزه لقائل، كما في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٠٩؛ ٤٥١.

والبيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي؛ من قصيدةٍ عِدَّتها اثنان وثلاثون بيتاً، كلُّها تغزُّلٌ بالنساء وحماسةٌ، وهي من الوافر، وأولها:

أَمِــنْ ريحــانــةِ الــدَّاعــي السميــعُ يُــؤرِّقُنــي وأصحــابــي هجــوعُ.

انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٨/١٤٨ ـ ١٤٩، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي ٢/٢٣٦، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ٨/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا البيت في مواطن من كتبه ولم يعزه لقائل؛ ولم أقف عليه، وقبله:

ومــن عجــبٍ أن يشكــوَ البُعْــدَ عــاشــقٌ وهل غاب عن قلب المحبِّ حبيبُ.

انظر: بدائع الفوائد ٢/ ١٦٤، الداء والدواء ص٢٨٥، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٣٧، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٤٣٩، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥١١.

هذا ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عدوِّه وما بينهما من البعد؛ وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار.

والمقصود: أن المثال العلميَّ غير الحقيقة الخارجية؛ وإن كان مطابقاً لها، لكن المثال العلميَّ محلُّه القلب، والحقيقة الخارجيَّة محلُّها الخارج)[1].

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ أن معرفة أسماء الجلالة (الأول؛ والآخر؛ والظاهر؛ والباطن): هي ركن العلم والمعرفة؛ فقال: (فمعرفة هذه الأسماء الأربعة: (الأول؛ والآخر؛ والظاهر؛ والباطن): هي أركان العلم والمعرفة، فحقيقٌ بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه.

واعلم أن لك أنت أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، بل كلُّ شيءٍ فله أوَّلٌ وآخرٌ وظاهرٌ وباطنٌ؛ حتى الخطرة واللحظة والنفس؛ وأدنى من ذلك وأكثر.

فأوليَّة الله ــ عزَّ وجلّ ــ سابقة على أوليَّة كلِّ ما سواه؛ وآخريَّته ثابتةٌ بعد آخريَّة كلِّ ما سواه، فأوليَّته: سبقه لكلِّ شيءٍ، وآخريَّته: بقاؤه بعد كلِّ شيءٍ.

وظاهريَّته ــ سبحانه ــ : فوقيَّته وعُلُوُّه على كلِّ شيءٍ، ومعنى الظهور يقتضي: العُلُوَّ، وظاهر الشيء: هو ما علا منه وأحاط بباطنه.

وبطونه ــ سبحانه ــ : إحاطته بكلِّ شيءٍ؛ بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قربٌ غير قرب المحبِّ من حبيبه، هذا لونٌ وهذا لونٌ.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥١ ــ ٥٤.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانيةٌ ومكانيةٌ، فإحاطة أوليَّته وآخريَّته بالقبل والبعد، فكلُّ سابقٍ انتهى إلى أوليَّته؛ وكلُّ آخرٍ انتهى إلى آخريَّته، فأحاطت أوليَّته وآخريَّته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريَّته وباطنيَّته بكلِّ ظاهرٍ وباطنٍ، فما من ظاهرٍ إلا والله فوقه؛ وما من باطنٍ إلا والله دونه، وما من أوَّلٍ إلا والله قبله؛ وما من آخرٍ إلا والله بعده.

فالأول: قدمه، والآخر: دوامه وبقاؤه، والظاهر: عُلُوُّه وعظمته، والباطن: قربه ودُنُوُّه، فسَبَقَ كلَّ شيءٍ بأوليَّته، وبقي بعد كلِّ شيءٍ بآخريَّته، وعلا على كلِّ شيءٍ بظهوره، ودنا من كلِّ شيءٍ ببطونه، فلا تواري منه سماءٌ سماءً؛ ولا أرضٌ أرضاً، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطناً، بل الباطن له ظاهرٌ؛ والغيب عنده شهادةٌ، والبعيد منه قريبٌ؛ والسرُّ عنده علانيةٌ.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد: فهو (الأوَّل) في آخريَّته؛ و (الآخر) في أوليَّته، و (الظاهر) في بطونه؛ و (الباطن) في ظهوره، لم يزل أولاً وآخراً؛ وظاهراً وباطناً)[١].

ثم قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ أن التعبُّد بهذه الأسماء الحسنى (الأول؛ والآخر؛ والظاهر؛ والباطن): على مرتبتين؛ فقال: (والتعبُّد بهذه الأسماء له رتبتان:

الرتبة الأولى: أن تشهد الأوليَّة منه تعالى في كلِّ شيءٍ؛ والآخريَّة بعد كلِّ شيءٍ، والعُلُوَّ والفوقيَّة فوق كلِّ شيءٍ؛ والقرب والدُنُوَّ دون كلِّ شيءٍ، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه؛ فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والربُّ ـ جلَّ جلاله ـ ليس دونه شيءٌ أقرب إلى الخلق منه.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٤.

والرتبة الثانية من التعبُّد: أن يعامل كلَّ اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالى بأوليَّته لكلِّ شيءٍ، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلِّها بما يقتضيه ذلك من إفراده؛ وعدم الالتفات إلى غيره والوثوق بسواه والتوكل على غيره.

فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئاً مذكوراً؛ حتى سمَّاك باسم الإسلام؛ ووسمك بسمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين؛ وأقطعك في ذلك الغيب عمالات المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد؛ وأعتقك من التزام الرقِّ لمن له شكلٌ ونديدٌ، ثم وجَّه وجهة قلبك إليه ــ سبحانه ــ دون ما سواه؟

فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم؛ وقضى لك بقَدَم الصدق في القِدَم: أن يُتِمَّ عليك نعمةً هو ابتدأها؛ وكانت أوليَّتها منه بلا سببٍ منك، واسْمُ بهمَّتك عن ملاحظة الاختيار؛ ولا تركننَّ إلى الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون؛ وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة الله، فإن الله ــ سبحانه ــ قضى أن لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ومن كان لله كما يريد: كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه: تلقَّاه من بعيد، ومن تصرَّف بحوله وقوته: ألان له الحديد، ومن ترك لأجله: أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني: أراد ما يريد.

ثم اسْمُ بسرِّك إلى المطلب الأعلى، واقصر حُبَّك وتقرُّبك على من سبق فضله وإحسانه إليك كلَّ سببٍ منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب؛ وهيأ لك وصرف عنك موانعها؛ وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة، فتوكل عليه وحده؛ وعامله وحده؛ وآثر رضاه وحده، واجعل حبَّه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفاً بها؛ مستلماً لأركانها؛ واقفاً بملتزمها.

فيا فوزك ويا سعادتك إن اطَّلع ــ سبحانه ــ على ذلك من قلبك؛ ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخلع إفضاله؟ اللَّـهُمَّ لا مانع لما أعطيت؛

ولا معطي لما منعت؛ ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ ـ سبحانك وبحمدك ـ .

ثم تعبد له باسمه (الآخر)؛ بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه؛ ولا مطلوب لك وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر؛ وكان بعد كلِّ آخرٍ: فكذلك اجعل نهايتك إليه، فـ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾[1]. إليه انتهت الأسباب والغايات؛ فليس وراءه مرمى ينتهي إليه، وقد تقدَّم التنبيه على ذلك؛ وعلى التعبُّد باسمه (الظاهر).

وأما التعبُّد باسمه (الباطن): فإذا شهدت إحاطته بالعوالم؛ وقرب العبيد منه؛ وظهور البواطن له وبُدُوَّ السرائر؛ وأنه لا شيء بينه وبينها: فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطَهِّر له سريرتك؛ فإنها عنده علانيةٌ، وأصلح له غيبك؛ فإنه عنده شهادةٌ، وزكِّ له باطنك؛ فإنه عنده ظاهرٌ.

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة: جماع المعرفة بالله؛ وجماع العبودية له؟ فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنَّته، فلا يرى لغيره شيئاً إلا به وبحوله وقوته، وغاب بفضل مولاه الحقِّ عن جميع ما منه هو مما يستند إليه؛ أو يتحلَّى به؛ أو يتَّخذه عقدة؛ أو يراه ليوم فاقته؛ أو يعتمد عليه في مُهمَّةٍ من مُهمَّاته، فكلُّ ذلك من قصور نظره؛ وانعكاسه عن الحقائق والأصول إلى الأسباب والفروع، كما هو شأن الطبيعة والهوى؛ وموجب الظلم والجهل، والإنسان ظلومٌ جهولٌ.

فمن جلَّى الله ـ سبحانه ـ صدأ بصيرته؛ وكمَّل فطرته؛ وأوقفه على مبادىء الأمور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها: أصبح كمفلسٍ حقاً من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه، يقول: أستغفر الله من علميَ ومن

---

(١) سورة النجم: الآية ٤٢.

عملي، أي: من انتسابي إليهما، وغيبتي بهما عن فضل من ذكَّرني بهما؛ وابتدأني بإعطائهما من غير تقدم سببٍ مني يُوجب ذلك، فهو لا يشهد غير فضل مولاه؛ وسبق منَّته ودوامه، فيُثيبه مولاه على هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الأوسط بين الفقرين الأدنى والأعلى ثوابين:

أحدهما: الخلاص من رؤية الأعمال؛ حيث كان يراها ويتمدَّح بها ويستكثرها، فيستغرق بمطالعة الفضل غائباً عنها؛ ذاهباً عنهاً؛ فانياً عن رؤيتها.

الثواب الثاني: أن يقطعه عن شهود الأحوال، أي: عن شهود نفسه فيها متكثرة بها، فإن الحال محله الصدر، والصدر بيت القلب والنفس، فإذا نزل العطاء في الصدر للقلب: ثبتت النفس لتأخذ نصيبها من العطاء، فتتمدَّح به؛ وتدلَّ به؛ وتزهو وتستطيل وتقرِّر إنيَّتها، لأنها جاهلةٌ ظالمةٌ، وهذا مقتضى الجهل والظلم)[1].

ومن تأمَّل اقتران أسماء الله الحسنى (الأول؛ والآخر؛ والظاهر؛ والباطن) مع بعضها البعض: علم بطلان التسلسل الباطل وفساده، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (أُرشد من بُلِيَ بشيءٍ من وسوسة التسلسل في الفاعلين؛ إذا قيل له: هذا الله خلق الخلق؛ فمن خلق الله؟: أن يقرأ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾[2].

كذلك قال ابن عباسٍ لأبي زميل سماك بن الوليد الحنفي[3]؛ وقد

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٤ ـ ٥٧.

(٢) سورة الحديد: الآية ٣.

(٣) هو: المحدث الثقة الكوفي، أصله من اليمامة. =

سأله: (ما شيءٌ أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قال: قلتُ: والله لا أتكلَّم به. قال: فقال لي: أشيءٌ من شكٍّ؟ قلتُ: بلى. فقال لي: ما نجا من ذلك أحدٌ؛ حتى أنزل الله ــ عزَّ وجلّ ــ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[1]. قال: فقال لي: فإذا وجدتَ في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾[2])[3].

فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل، وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى: أوَّلٍ ليس قبله شيءٌ؛ كما تنتهي في آخرها إلى: آخرٍ ليس بعده شيءٌ.

كما أن ظهوره: هو العُلُوُّ الذي ليس فوقه شيءٌ، وبطونه هو: الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيءٌ.

ولو كان قبله شيءٌ يكون مؤثراً فيه: لكان ذلك هو الربُّ الخلاق، ولا بُدَّ أن ينتهي الأمرُ إلى خالقٍ غير مخلوقٍ، وغنيٍّ عن غيره؛ وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، قائمٌ بنفسه؛ وكلُّ شيءٍ قائمٌ به، موجودٌ بذاته؛ وكلُّ شيءٍ موجودٌ به، قديمٌ لا أوَّل له؛ وكلُّ ما سواه فوجوده بعد عدمه، باقٍ بذاته؛ وبقاء كلِّ شيءٍ به، فهو الأول الذي ليس قبله شيءٌ؛ والآخر الذي ليس بعده شيءٌ،

= انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/ ٢٨٠، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٢/ ١٢٧ ــ ١٢٨، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٢٤٩ ــ ٢٥٠.

(١) سورة يونس: الآية ٩٤.

(٢) سورة الحديد: الآية ٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب في رد الوسوسة ــ الحديث رقم (٥١١٠) ــ ٥/ ٣٣٥].

وحسنه الألباني في [صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٢٥٥ ــ ٢٥٦].

الظاهر الذي ليس فوقه شيءٌ؛ الباطن الذي ليس دونه شيءٌ»[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اقتران أسماء الله الحسنى (الأول؛ الآخر؛ الظاهر؛ الباطن) في نونيته؛ فقال:

(هو أولٌ هو آخرٌ هو ظاهرٌ ... هو باطنٌ هي أربعٌ بوزانِ
ما قبله شيءٌ كذا ما بعده ... شيءٌ تعالى الله ذو السلطانِ
ما فوقه شيءٌ كذا ما دونه ... شيءٌ وذا تفسيرُ ذي البرهانِ
فانظر إلى تفسيره بتدبُّرٍ ... وتبصُّرٍ وتعقُّلٍ لمعانِ
وانظر إلى ما فيه من أنواع مَعْـ ... ـرفةٍ لخالقنا العظيم الشانِ)[2].

❑ ❑ ❑

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٦١ ــ ٤٦٢.

(2) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٢١٦ ــ ٣٢٢٠) ــ ص٢٤٠].

المطلب التاسع عشر:

جهوده في تقرير أسماء الله تعالى: الباسط القابض؛ الرافع الخافض؛ المُعِزّ المُذِلّ؛ المعطي المانع؛ المُقدِّم المُؤخِّر؛ النافع الضَّارّ؛ العفوّ المُنتقم؛ المُحيي المُميت

تضمَّن هذا المطلب تعيين أسماء الله تعالى المُزدوجة المُتقابلة؛ وهي: (الباسط والقابض؛ والرافع والخافض؛ والمُعِزُّ والمُذِلُّ؛ والمُعطي والمانع؛ والمُقدِّم والمُؤخِّر؛ والنافع والضَّارُّ؛ والعفوُّ والمُنتقم؛ والمُحيي والمُميت)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني، مع الإشارة إلى بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران كلِّ اسمين مُزدوجين مُتقابلين مع بعضهما.

وقد تقدَّم في قواعد أسماء الله الحسنى: أن أسماء الله تعالى المُزدوجة المُتقابلة: لا تُطلق على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بمُفردها؛ بل لا بُدَّ من إطلاقها مقرونة بمُقابلها، كـ: (القابض؛ والخافض؛ والمُذلّ؛ والمانع؛ والمُؤخِّر؛ والضارّ؛ والمُنتقم)، فهذه الأسماء المقترنة بما يقابلها من أسماء لا يجوز أن تُفرد عن مُقابلها، لأنها مُقرونة بأسماء: (الباسط؛ والرافع؛ والمُعزِّ؛ والمُعطي؛ والمُقدِّم؛ والنافع؛ والعفوِّ)، فهو ـ سبحانه

وتعالى ـ : (الباسط القابض؛ والرافع الخافض؛ والمُعِزُّ المُذِلُّ؛ والمُعطي المانع؛ والمُقدِّم المُؤخِّر؛ والنافع الضَّارُّ؛ والعفوُّ المنتقم)، فكمال هذه الأسماء بازدواجها وتقابلها، وأما أن يُثنى على الله تعالى بمجرد القبض؛ والخفض؛ والإذلال؛ والمنع؛ والتأخير؛ والإضرار؛ والانتقام: فذلك مما لا يسوغ، لأن هذه الأسماء المُزدوجة المُتقابلة ـ وإن تعدَّدت ـ : فهي جارية مجرى الاسم الواحد؛ الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعضٍ، ولذلك لم تجيء في نصوص الشرع الحكيم مُفردة؛ بل جاء إطلاقها على الله ـ سبحانه وتعالى ـ مقرونة بمُقابلها ـ كما سبق ذكر تقرير الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى لهذه القاعدة نثراً ونظماً ـ .

وتقرير ما تضمنه هذا المطلب من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ منتظمٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

اسما الجلالة (الباسط القابض).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسمي الجلالة (الباسط؛ القابض) في مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت اسم الجلالة

---

(١) انظر في النصِّ على اسمي الجلالة (الباسط؛ والقابض) ـ على وجه الخصوص ـ : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٥٩٨؛ ٦٠٩، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/١٤٨؛ ٣٧١. وانظر في ذكرهما ـ على وجه العموم ـ : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٩٢.

وانفرد اسم (الباسط) بالذكر في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٩٢.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسمي الله تعالى =

(الباسط) في سياق بيانه لدرجات تعظيم حرمات الله ــ عزَّ وجلّ ــ ؛ وأن إحدى درجاتها الثلاث: هي درجة صيانة الانبساط من أن يشوبه الجرأة، وبيَّن أن صاحب الانبساط والسرور متعلِّقٌ باسم الجلالة (الباسط)؛ فقال: (إن صاحبها متعلِّقٌ باسمه (الباسط))[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الباسط) باسم الجلالة (القابض)؛ مُبيِّناً أن مشاهدة العبد لمقتضاهما: يُعرِّفه بمصدر الانبساط والانقباض، وأن حركة العالم متعلِّقة باسمه (الباسط)؛ وسكونه متعلِّقٌ باسمه (القابض)، وذلك أن اسمي الجلالة (الباسط؛ والقابض) مُختصَّان بصفات الربوبية، وتجلية ذلك وإيضاحه فيما يأتي:

= (الباسط؛ القابض) ــ المُزدوجين المُتقابلين ــ بذكر دليلهما المثبت لهما، ولم يرد اسما (الباسط؛ القابض) صريحين في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميتهما في حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى، وقد استُدِلَّ لاسمي (الباسط؛ القابض): بقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥]، كما استُدِلَّ لهما بقول النبي ﷺ: «إن الله هو الخالق القابض الباسط الرزَّاق المُسعِّر» المخرَّج في مسند أحمد [الحديث رقم (١٢٥٩١) ــ ٢٠/٤٦]، وسنن أبي داود [كتاب البيوع والإجارات/ باب في التسعير ــ الحديث رقم (٣٤٥١) ــ ٣/ ٧٣١]، وجامع الترمذي [أبواب البيوع/ باب ما جاء في التسعير ــ الحديث رقم (١٣١٤) ــ ٢/ ٥٨٢]، وسنن ابن ماجه [كتاب التجارات/ باب من كره أن يُسعِّر ــ الحديث رقم (٢٢٠٠) ــ ٣/ ٣٧] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ .
وصححه الألباني في [غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: الحديث رقم (٣٢٣) ــ ص١٥٦].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٩٢.

١ ــ دلالة اقتران اسمي الجلالة (الباسط؛ والقابض) على أن الخوف من أحكام اسم الجلالة (القابض)؛ والانبساط من أحكام اسم الجلالة (الباسط)، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن مقام الخوف لا يُجامع مقام الانبساط، والخوف من أحكام اسم (القابض)، والانبساط من أحكام اسم (الباسط).

والبسط عندهم: من مشاهدة أوصاف الجمال والإحسان والتودُّد والرحمة، والقبض: من مشاهدة أوصاف الجلال والعظمة والكبرياء والعدل والانتقام)[١].

٢ ــ دلالة اقتران اسمي الجلالة (الباسط؛ والقابض) على أن الحركة متعلِّقةٌ باسم الجلالة (الباسط)؛ والسُّكون متعلِّقٌ باسم الجلالة (القابض)، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (يشهد حركات العالم وسكونه صادرة عن الحقِّ تعالى في كلِّ مُتحرِّكٍ وساكنٍ، فيشهد تعلُّق الحركة باسمه (الباسط)؛ وتعلُّق السكون باسمه (القابض)، فيشهد تفرُّده ــ سبحانه ــ بالبسط والقبض)[٢].

٣ ــ دلالة اقتران اسمي الجلالة (الباسط؛ والقابض) على اختصاصهما بصفات الربوبية، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الرضى به ربًّا: مُتعلِّقٌ بذاته وصفاته وأسمائه؛ وربوبيته العامة والخاصة، فهو الرضى به خالقاً ومدبراً؛ وآمراً وناهياً وملكاً؛ ومُعطياً ومانعاً؛ وحكماً ووكيلاً؛ ووليّاً وناصراً؛ ومعيناً وكافياً؛ وحسيباً ورقيباً؛ ومُبتلياً ومُعافياً؛ و (قابضاً وباسطاً)؛ إلى غير ذلك من صفات ربوبيته)[٣].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٣٧١.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٤٨.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٩٢.

المسألة الثانية:

اسما الجلالة (الرافع الخافض).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسمي الجلالة (الرافع؛ الخافض) في مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذين الاسمين بقوله: (إن من أسمائه: (الخافض؛ الرافع))[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (الرافع) باسم الجلالة (الخافض)؛ مُبيِّناً أن مطالعة العبد لمدلولهما: تُبصِّره بمصدر الرفع والخفض، وأن من لم يرفعه الله تعالى: فهو مخفوضٌ؛ لا يرفع أحدٌ به

(١) انظر في النصِّ على اسمي الجلالة (الرافع؛ الخافض) ـ على وجه الخصوص ـ : بدائع الفوائد ٢/٢١٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٥٩٨؛ ٦٠٩؛ ٦٥٢؛ ٦٦٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٣٠، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/١٠٦. وانظر في ذكرهما ـ على وجه العموم ـ : إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/١٦٨، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٥٥.
وقد انفرد اسم (الخافض) بالذكر في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/٢٠٣.
ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسمي الله تعالى (الرافع؛ الخافض) ـ المُزدوجين المُتقابلين ـ بذكر دليلهما المثبت لهما، ولم يرد اسما (الرافع؛ الخافض) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميتهما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى، كما استُدِلَّ لهما بقول النبي ﷺ: «إن الله ـ عزَّ وجلّ ـ لا ينام؛ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه» الحديث؛ ـ وقد تقدم تخريجه ـ .

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٥٢.

رأساً، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا﴾[1].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن الرفعة عنده ليست بمجرَّد العلم؛ فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحقِّ وإيثاره؛ وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه؛ ولم يرفعه الله بعلمه؛ ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علمٍ لا ينفع[2].

وأخبر ـ سبحانه ـ أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله: فهو موضوعٌ لا يرفع أحدٌ به رأساً، فإن (الخافض الرافع) ـ سبحانه ـ خفضه ولم يرفعه)[3].

المسألة الثالثة:

اسما الجلالة (المُعِزُّ المُذِلُّ).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسمي الجلالة (المُعِزَّ؛ المُذِلَّ) في مواضع من كتبه[4]، حيث قرَّر ثبوت هذين الاسمين

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الفوائد ١١٥ ـ ١١٦]: عشرة أوجه مستنبطة من هذه الآية الكريمة في ذمِّ عالِم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٤) انظر في النصِّ على اسمي الجلالة (المُعِزِّ؛ المُذِلِّ) ـ على وجه الخصوص ـ : بدائع الفوائد ١/ ١٥١؛ ٢/ ٢١٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/٥٩٨؛ ٦٠٩؛ ٦٥٢؛ ٦٦٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ١٣٠، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/١٠٦. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ : زاد المعاد في هدي =

بقوله: (إن من أسمائه: الخافض الرافع؛ (المُعِزَّ المُذِلَّ))[1].

وقد بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ ما يدلُّ عليه اسما الجلالة (المُعِزُّ؛ المُذِلُّ) من معنى؛ فقال: (وأما الملك: فهو الآمر الناهي؛ (المُعزُّ المُذلُّ)، الذي يُصرِّف أمور عباده كما يُحِبُّ؛ ويُقلِّبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى؛ كالعزيز الجبار؛ الحكم العدل؛ الخافض الرافع؛ (المُعزِّ المُذلِّ)؛ العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد؛ الوالي المتعالي؛ مالك الملك؛ المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك)[2].

المسألة الرابعة:

اسما الجلالة (المعطي المانع).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسمي الجلالة

= خير العباد ٢/ ٣٥٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٨.

وقد انفرد اسم (المُذلُّ) بالذكر في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٠٣.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسمي الله تعالى (المُعزِّ؛ المُذلِّ) ــ المُزدوجين المُتقابلين ــ بذكر دليلهما المثبت لهما، ولم يرد اسما (المُعزُّ؛ المُذلُّ) صريحين في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميتهما في حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى، وقد اسْتُدِلَّ لاسمي (المُعزِّ؛ المُذلِّ): بقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٦].

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٥٢.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(المعطي؛ المانع) في عدة مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذين الاسمين بقوله: (إن الربَّ: هو القادر الخالق الباريء المصور؛ الحي القيوم؛ العليم السميع البصير؛ المحسن المنعم الجواد؛ (المُعطي المانع)؛ الضار النافع؛ المقدم المؤخر؛ الذي يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء؛ ويُسعد من يشاء ويُشقي؛ ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء؛ إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى)[2].

(١) انظر في النصِّ على اسم الجلالة (المُعطي المانع) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ١٥١؛ ٢/ ٢١٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٩، الفوائد ص٩١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٨؛ ٤٥١؛ ٤٥٢؛ ٢/ ١٣٠. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٥٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٠؛ ١٩٢.
وقد انفرد اسم (المُعطي) بالذكر في: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٦٣١ ــ ٦٣٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٣؛ ٤٥١؛ ٢/ ٤٥؛ ٣/ ٦٠؛ ٣٧١. كما انفرد اسم (المانع) بالذكر في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٧.
وقد أردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسمي الله تعالى (المعطي؛ المانع) ــ المُزدوجين المُتقابلين ــ بذكر دليلهما المثبت لهما، ولم يرد اسما (المعطي؛ المانع) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميتهما في حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى، وقد اسْتُدِلَّ لاسمي (المعطي؛ المانع): بدعاء النبـي ﷺ في دبر كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ ــ الآتي الذكر ــ .

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ الدليل المُثبت لهذين الاسمين؛ وما يتضمنان من معنى؛ فقال: (قال النبي ﷺ: «اللَّـهُمَّ لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت»)[1].

لما كان المقصود بهذا: تفرُّد الربِّ ــ سبحانه ــ بالعطاء والمنع: لم يكن لذكر المُعطَى ولا لَحْظ المُعطِي معنى، بل المقصود أن حقيقة العطاء والمنع إليك لا إلى غيرك، بل أنت المُتفرِّد بها لا يُشركك فيها أحدٌ)[2].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (وتدبَّر هذه الطريقة في القرآن وذكره للأهم المقصود؛ وحذفه لغيره: يُطلعك على بابٍ من أبواب إعجازه؛ وكمال فصاحته، وأما فعل الترك: فلا يُشعر بشيءٍ من هذا؛ ولا يُمدح به، فلو قلت: فلانٌ يترك؛ لم يكن مفيداً فائدة أصلاً، بخلاف قولك: يُطعم ويُعطي ويهب ونحوه، بل لا بُدَّ أن تذكر ما يترك، ولهذا لا يُقال: فلانٌ تارك، ويُقال: مُعطٍ ومُطعمٌ. ومن أسمائه ــ سبحانه ــ : (المُعطي))[3].

وإن مما يتضمنه اسم الجلالة (المُعطي): أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يفرح بعطائه أشدَّ من فرح المُعطى بما يُعطاه، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (محبَّته للجود والإعطاء والإحسان والبرِّ والإنعام والإفضال فوق ما يخطر ببال الخلق؛ أو يدور في أوهامهم، وفرحه بعطائه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأذان/ باب الذكر بعد الصلاة ــ الحديث رقم (٨٤٤) ــ ١/ ٢٥٦]، ومسلم في صحيحه [كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ــ الحديث رقم (٥٩٣) ــ ١/ ٤١٤ ــ ٤١٥] من حديث المغيرة بن شعبة ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «لا إلـه إلا الله وحده».

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٦٣١.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٦٣٢.

وجوده وإفضاله أشدُّ من فرح الآخذ بما يُعطاه ويأخذه؛ أحوج ما هو إليه وأعظم ما كان قدراً، فإذا اجتمع شدَّةُ الحاجة وعظم قدر العطيَّة والنفع بها: فما الظنُّ بفرح المُعْطَى؟ ففرح المُعطِي ـ سبحانه ـ بعطائه أشدُّ وأعظم من فرح هذا بما يأخذه؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

إذ هذا شأن الجواد من الخلق؛ فإنه يحصل له من الفرح والسرور والابتهاج واللذة بعطائه وجوده فوق ما يحصل لمن يُعطيه، ولكن الآخذ غائبٌ بلذَّة أخذه عن لذَّة المُعطي وابتهاجه وسروره، هذا مع كمال حاجته إلى ما يُعطيه وفقره إليه؛ وعدم وثوقه باستخلاف مثله؛ وخوف الحاجة إليه عند ذهابه والتعرُّض لذُلِّ الاستعانة بنظيره ومن هو دونه؛ ونفسُه قد طُبِعَت على الحرص والشحِّ، فما الظن بمن تقدَّس وتنزَّه عن ذلك كلِّه؟

ولو أن أهل سماواته وأرضه؛ وأوَّل خلقه وآخرهم؛ وإنسهم وجنهم؛ ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوه؛ فأعطى كلَّ واحدٍ ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرةٍ، وهو الجواد لذاته؛ كما أنه الحيُّ لذاته؛ العليم لذاته؛ السميع البصير لذاته، فجوده العالي من لوازم ذاته، والعفو أحبُّ إليه من الانتقام؛ والرحمة أحبُّ إليه من العقوبة؛ والفضل أحبُّ إليه من العدل؛ والعطاء أحبُّ إليه من المنع)[2].

كما أن اسم الجلالة (المُعطي): يدلُّ على أن العطاء من الله تعالى أولاً وآخراً، وأن مَن هذا شأنه: أحقُّ أن يُحَبَّ؛ وأولى أن يُحمد ويُثنى عليه، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (لو لم يكن من تحبُّبه إلى عباده وإحسانه إليهم وبِرِّه بهم: إلا أنه خلق لهم ما في السماوات والأرض؛ وما في الدنيا

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

والآخرة، ثم أهَّلهم وكرَّمهم؛ وأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وشرع لهم شرائعه، وأذن لهم في مناجاته كلَّ وقتٍ أرادوا، وكتب لهم بكلِّ حسنةٍ يعملونها عشرة أمثالها؛ إلى سبعمائة ضعفٍ؛ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وكتب لهم بالسيئة واحدة، فإن تابوا منها: محاها؛ وأثبت مكانها حسنة، وإذا بلغت ذنوب أحدهم عنان السماء ثم استغفره: غَفَرَ له، ولو لقيه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئاً: لأتاه بقرابها مغفرة، وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب؛ فوفَّقهم لفعلها؛ ثم قبلها منهم، وشرع لهم الحج الذي يهدم ما قبله؛ فوفقهم لفعله؛ وكفَّر عنهم سيئاتهم به، وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات، وهو الذي أمرهم بها؛ وخلقها لهم؛ وأعطاهم إياها؛ ورتَّب عليها جزاءها.

فمنه السبب ومنه الجزاء؛ ومنه التوفيق ومنه العطاء أولاً وآخراً، وهم محلُّ إحسانه كلِّه منه أولاً وآخراً، أعطى عبده المال؛ وقال: تقرَّب بهذا إليَّ أقبله منك، فالعبد له والمال له والثواب منه، فهو (المُعطي) أولاً وآخراً.

فكيف لا يُحبُّ من هذا شأنه؟ وكيف لا يستحي العبد أن يصرف شيئاً من محبته إلى غيره؟ ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه؟ ومن أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده؛ لا إله إلا هو العزيز الحكيم)[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأسرار الجميلة والحكم الجليلة المتعلقة باقتران اسم الجلالة (المعطي) باسم الجلالة (المانع)؛ مُبيِّناً أن مُشاهدة العبد بقلبه تفرُّدَ الله ـ عزَّ وجلّ ـ بالعطاء والمنع؛ وتعبُّده بمقتضاهما: يجعل حظَّه منهما الشكر عند العطاء؛ والافتقار

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧١ ـ ٥٧٢.

عند المنع، وإيضاح ذلك وبيانه فيما يأتي:

١ ــ دلالة اقتران اسمي الجلالة (المُعطي؛ والمانع) على أن مُشاهدة العبد بقلبه تفرُّدَ الله ــ عزَّ وجلّ ــ بالعطاء والمنع: يجعله لا يرى أنه تَرَكَ شيئاً؛ ولا أَخَذَ شيئاً، بل الله وحده هو: (المُعطي المانع)، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (يشاهد تفرُّد الله ــ عزَّ وجلّ ــ بالعطاء والمنع، فلا يرى أنه ترك شيئاً؛ ولا أخذ شيئاً، بل الله وحده هو: (المعطي المانع)، فما أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه كمجرى الماء في النهر، وما تركه لله؛ فالله ــ سبحانه وتعالى ــ هو الذي منعه منه، فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه)[1].

٢ ــ دلالة اقتران اسمي الجلالة (المُعطي؛ والمانع) على أن حظَّ العبد الصادق من عبوديته باسمي الجلالة (المُعطي؛ والمانع): الشكر عند العطاء؛ والافتقار عند المنع، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (مصدر ما في العبد من الخير والشرِّ؛ والصفات الممدوحة والمذمومة: من صفة (المعطي المانع)، فهو ــ سبحانه ــ يُصرِّف عباده بين مقتضى هذين الاسمين.

فحظُّ العبد الصادق من عبوديته بهما: الشكر عند العطاء؛ والافتقار عند المنع، فهو ــ سبحانه ــ يُعطيه ليشكره، ويمنعه ليفتقر إليه، فلا يزال شكوراً فقيراً)[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته: الأسماء الحسنى المُزدوجة المُتقابلة ــ المُتقدِّمة الذكر ــ؛ وهي: (الباسط والقابض؛ والرافع والخافض؛ والمُعِزُّ والمُذِلُّ؛ والمُعطي والمانع)؛ فقال:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين٢/ ٢٠.

(٢) الفوائد ص٩١.

(هو قابضٌ هو باسطٌ هو خافضٌ ... هــو رافــعٌ بــالعــدل والميــزانِ
وهــو المُعــزُّ لأهــل طــاعتــه وذا ... عــزٌّ حقيقــيٌّ بــلا بُطْــلانِ
وهــو المُــذِلُّ لمــن يشــاء بِــذِلَّــةِ الـ ... ـــدَّاريْــنِ ذُلُّ شقــا وذُلُّ هــوانِ
هــو مــانــعٌ مُعْــطٍ فهــذا فَضْلُــهُ ... والمَنْــعُ عَيْــنُ العَــدْلِ للمَنَّــانِ
يُعطــي بــرحمتــه مــن يَشــا ... ءُ بحكمــة والله ذو سلطــانِ)[1].

المسألة الخامسة:

اسما الجلالة (المُقدّم المُؤخّر).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسمي الجلالة (المُقدِّمَ المُؤخِّرَ) في مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذين الاسمين

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٣٤٥ ـ ٣٣٤٩) ـ ص٢٤٨ ـ ٢٤٩].

(٢) انظر في النصِّ على اسمي الجلالة (المُقدِّم؛ والمُؤخِّر) ـ على وجه الخصوص ـ: بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٨.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسمي الله تعالى (المُقدِّم؛ المُؤخِّر) ـ المُزدوجين المُتقابلين ـ بذكر دليلهما المثبت لهما، ولم يرد اسما (المُقدِّم؛ المُؤخِّر) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميتهما في دعاء النبي ﷺ: «ربِّ اغفر لي خطيئتي وجهلي؛ وإسرافي في أمري كلِّه؛ وما أنت أعلم به مني، اللَّهُمَّ اغفر لي خطاياي؛ وعمدي وجهلي وجدِّي؛ وكلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ؛ وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت المُقدِّمُ وأنت المُؤخِّرُ، وأنت على كلِّ شيءٍ قديرٌ»؛ المُخرَّج في صحيح البخاري [كتاب الدعوات/ باب قول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت» ـ الحديث رقم (٦٣٩٨) ـ ٤/ ٢٠٠٩]، وصحيح مسلم [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب التعوُّذ من شرِّ ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل ـ الحديث =

بقوله: (إنَّ الربَّ: هو القادر الخالق البارىء المصور؛ الحيُّ القيوم؛ العليم السميع البصير؛ المُحسن المُنعم الجواد؛ المُعطي المانع؛ الضارُّ النافع؛ (المُقدِّم المُؤخِّر)؛ الذي يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء؛ ويُسعد من يشاء ويُشقي؛ ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى)[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته اسمي الجلالة (المُقدِّمَ المُؤخِّرَ)؛ فقال:

(وهو المُقدِّمُ والمُؤخِّرُ ذانك الصِّـ ... ـفتانِ للأفعالِ تابعتانِ
وهما صفاتُ الذَّاتِ أيضاً إذ هُمَا ... بالذاتِ لا بالغير قائمتانِ)[2].

المسألة السادسة:

اسما الجلالة (النافع الضَّارُّ).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ اسمي الجلالة (النافعَ الضَّارَّ) في مواضع من كتبه[3]، حيث قرَّر ثبوت هذين الاسمين بقوله:

= رقم (٢٧١٩) ــ ٤/ ٢٠٨٧] من حديث أبي موسى الأشعري ــ رضي الله عنه ــ.

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١٢.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [البيتان رقم (٣٣٧١ ــ ٣٣٧٢) ــ ص٢٥٠].

(٣) انظر في النصِّ على اسمي الجلالة (النافع؛ والضارّ) ــ على وجه الخصوص ــ: بدائع الفوائد ١/ ١٥١؛ ٢/ ٢١٢. وانظر في ذكره ــ على وجه العموم ــ: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٨.
وانفرد اسم (الضارُّ) بالذكر في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٧؛ ٢/ ٢٠٣. =

(إن لكلِّ صفةٍ من الصفات العليا: حكماً ومقتضياتٍ وأثراً؛ هو مظهر كمالها ـ وإن كانت كاملة في نفسها ـ ، لكن ظهور آثارها وأحكامها من كمالها؛ فلا يجوز تعطيله، فإن صفة القادر: تستدعي مقدوراً، وصفة الخالق: تستدعي مخلوقاً، وصفة الوهَّاب الرازق؛ المُعطي المانع؛ (الضارِّ النافع)؛ المُقدِّم المُؤخِّر؛ المُعزِّ المُذلِّ؛ العفوِّ الرؤوف: تستدعي آثارها وأحكامها، فلو عُطِّلت تلك الصفات عن المخلوق المرزوق المغفور له المرحوم المعفوِّ عنه: لم يظهر كمالها؛ وكانت مُعطَّلة عن مقتضياتها وموجباتها.

فلو كان الخلق كلُّهم مُطيعون عابدون حامدون: لتعطَّل أثر كثيرٍ من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وكيف كان يظهر أثر صفة العفو والمغفرة والصفح والتجاوز والانتقام والعزِّ والقهر والعدل والحكمة؛ التي تُنزِّل الأشياء منازلها وتضعها مواضعها؟ فلو كان الخلق كلُّهم أمة واحدة: لفاتت الحكم والآيات والعبر والغايات المحمودة في خلقهم على هذا الوجه، وفات كمال الملك والتصرُّف، فإن المَلِكَ إذا اقتصر تصرُّفه على مقدورٍ واحدٍ من مقدوراته: فإما أن يكون عاجزاً عن غيره فيتركه عجزاً، أو جاهلاً بما في تصرُّفه في غيره من المصلحة فيتركه جهلاً.

وأما أقدر القادرين؛ وأعلم العالمين؛ وأحكم الحاكمين: فتصرُّفه في مملكته لا يقف على مقدورٍ واحدٍ، لأن ذلك نقصٌ في ملكه، فالكمال كلُّ

= ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسمي الله تعالى (النافع؛ الضارِّ) ـ المُزدوجين المُتقابلين ـ بذكر دليلهما المثبت لهما، ولم يرد اسما (النافع؛ الضارُّ) صريحين في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميتهما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى، وقد استُدِلَّ لاسمي (النافع؛ الضارِّ): بقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الفتح: الآية ١١].

الكمال في: العطاء والمنع؛ والخفض والرفع؛ والثواب والعقاب؛ والإكرام والإهانة؛ والإعزاز والإذلال؛ والتقديم والتأخير؛ والضرِّ والنفع؛ وتخصيص هذا على هذا؛ وإيثار هذا على هذا، ولو فعل هذا كلَّه بنوعٍ واحدٍ مُتماثل الأفراد: لكان ذلك منافياً لحكمته، وحكمته تأباه كلَّ الإباء، فإنه لا يُفرِّق بين مُتماثلين؛ ولا يُسوِّي بين مُختلفين، وقد عاب على من يفعل ذلك؛ وأنكر على من نسبه إليه، والقرآن مملوءٌ من عيبه على من يفعل ذلك، فكيف يجعل له العبيد ما يكرهون؛ ويضربون له مثل السوء؟ وقد فطر الله عباده على إنكار ذلك من بعضهم على بعضٍ؛ وطعنهم على من يفعله، وكيف يعيب الربُّ ـ سبحانه ـ من عباده شيئاً؛ ويتَّصف به؟ وهو ـ سبحانه ـ إنما عابه لأنه نقصٌ، فهو أولى أن يتنزَّه عنه، وإذا كان لا بُدَّ من ظهور آثار الأسماء والصفات؛ ولا يُمكن ظهور آثارها إلا في المُتقابلات والمُتضادَّات: لم يكن في الحكمة بُدٌّ من إيجادها، إذ لو فُقِدَتْ: لتعطَّلت الأحكام بتلك الصفات، وهو مُحالٌ)[1].

المسألة السابعة:

اسما الجلالة (العفوُّ المُنتقم).

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اسمي الجلالة (العفوَّ؛ المُنتقم) في مواضع من كتبه[2]، حيث قرَّر ثبوت هذين الاسمين،

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٠٧ ـ ٦٠٩.

(٢) انظر: بدائع الفوائد ١/ ١٥١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٦٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٢.
وقد انفرد اسم (العفوُّ) بالذكر في: بدائع الفوائد ١/ ١٤٦؛ ١٥١؛ ١٥٢؛ ٣/ ١٨، تهذيب مختصر سنن أبي داود ٥/ ١٨٠، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٣؛ ٢/ ٦٠٨؛ ٦٠٩؛ ٦٦٢؛ ٧١٩، الصواعق =

بقوله: (اقتضاء أسماء الله الحسنى لمُسمياتها ومُتعلَّقاتها، كالغفور الرحيم التوَّاب؛ (العفوِّ المُنتقم)؛ الخافض الرافع؛ المُعزِّ المُذلِّ؛ المُحيي المُميت؛ الوارث.

ولا بُدَّ من ظهور أثر هذه الأسماء؛ ووجود ما يتعلَّق به، فاقتضت حكمته: أن أنزل الأبوين من الجنة ليظهر مُقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما، فلو تربَّت الذرية في الجنة: لفاتت آثار هذه الأسماء وتعلُّقاتها، والكمال الإلـٰهي يأبى ذلك، فإنه الملك الحقُّ المبين، والملك: هو الذي

= المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٦٤، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٧؛ ٤٣٣، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٨١؛ ٤٢٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٠؛ ٤٥١؛ ٤٥٢؛ ٤٥٣؛ ٢/ ١٣٠؛ ٢٠٤؛ ٣/ ١١٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٠٦؛ ٢/ ٢٥٥؛ ٢٦١، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤. كما انفرد اسم (المُنتقم) بالذكر في: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٧، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٥٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٧؛ ٣٨؛ ٢/ ٢٠٣.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ تعيين اسمي الله تعالى (العفوِّ؛ المُنتقم) ــ المُزدوجين المُتقابلين ــ بذكر دليلهما المثبت لهما، ولم يرد اسما (العفوُّ؛ المُنتقم) في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميتهما في حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى. وقد حكم الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على الزيادة المدرجة في أصل حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ؛ والمتضمنة لتعداد أسماء الله الحسنى بقوله في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٣٣]: (والصحيح: أنه ليس من كلام النبي ﷺ). وعليه فيبقى اسم (المُنتقم) مفتقراً في ثبوته إلى دليلٍ صحيحٍ صريحٍ يدلُّ عليه؛ ويُسوِّغ إدراجه ضمن أسماء الله الحسنى التي يُتعبَّد بدعاء الله تعالى بها.

يأمر وينهى؛ ويُكرم ويُهين؛ ويُثيب ويُعاقب؛ ويُعطي ويمنع؛ ويُعزُّ ويُذلُّ، فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام)[1].

وقد تقدَّم أن اسم (المُنتقم) ــ ونحوه من الأسماء المُتقابلة ــ : لا يُطلق على الله ــ سبحانه وتعالى ــ بمُفرده؛ بل لا بُدَّ من إطلاقه مقروناً بمُقابله، والذي يُقابل الاسم الدالَّ على الانتقام: اسمان، إما اسمٌ دالٌّ على الفضل ــ كما تقدم في اسم (العفوِّ)، وإما اسمٌ دالٌّ على العدل؛ كاسمي (الحكم؛ والعدل) ونحوهما، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن من أسمائه: الخافض الرافع؛ المُعزَّ المُذلَّ؛ الحكم العدل المُنتقم)[2].

والسبب في أن اسم (المُنتقم) لا يُطلق على الله ــ سبحانه وتعالى ــ بمُفرده؛ بل لا بُدَّ من إطلاقه مقروناً بمُقابله من أسماء الجلالة الدالَّة على الفضل أو العدل: أن اسم (المُنتقم) من أسماء الله تعالى الدالة على القهر والغضب، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (ظهور آثار أسمائه القهرية مثل: القهار؛ و (المنتقم)؛ والعدل؛ والضارِّ؛ وشديد العقاب؛ وسريع الحساب؛ وذي البطش الشديد؛ والخافض؛ والمُذلِّ، فإن هذه الأسماء والأفعال كمالٌ؛ فلا بُدَّ من وجود مُتعلَّقها، ولو كان الخلق كلُّهم على طبيعة المَلَك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال)[3].

والربُّ ــ تبارك وتعالى ــ وإن كانت له أسماء دالة على القهر والغضب: إلا أنه لم يزل ولا يزال مُحسناً على الدوام، وليس من موجب

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٦٢ ــ ٦٦٣.
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٥٢.
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٠٣.

أسمائه وصفاته أنه لا يزال مُعاقباً على الدوام؛ غضبان على الدوام؛ مُنتقماً على الدوام، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (ما كان مُقتضى أسمائه وصفاته: فإنه يدوم بدوامها؛ ولا سيَّما إذا كان محبوباً له، وهو غايةٌ مطلوبةٌ في نفسها، وأما الشرُّ ــ الذي هو العذاب ــ : فلا يدخل في أسمائه وصفاته؛ وإن دخل في مفعولاته، لحكمةٍ إذا حصلت زال وفني، بخلاف الخير؛ فإنه ــ سبحانه وتعالى ــ دائم المعروف، لا ينقطع معروفه أبداً، وهو قديم الإحسان؛ أبديُّ الإحسان، فلم يزل ولا يزال مُحسناً على الدوام، وليس من موجب أسمائه وصفاته أنه لا يزال مُعاقباً على الدوام؛ غضبان على الدوام؛ مُنتقماً على الدوام.

فتأمَّل هذا الوجه تأمُّل فقيهٍ في باب أسماء الله وصفاته؛ يُفتح لك بابٌ من أبواب معرفته ومحبته)[1].

فمن امتثل هذا الأمر؛ فتأمَّل هذا الوجه تأمُّل فقيهٍ في باب أسماء الله وصفاته: أدرك السبب في أن اسم (المُنتقم) لا يُطلق على الله ــ سبحانه وتعالى ــ بمُفرده[2]، وعلم أنه لا بُدَّ من إطلاقه مقروناً بمُقابله من أسماء الجلالة الدالة على الفضل أو العدل.

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٧.

(٢) قال شيخ الإسلام في [أقوم ما قيل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٨/ ٩٦]: (اسم (المُنتقم): ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي ﷺ، وإنما جاء في القرآن مُقيَّداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة السجدة: الآية ٢٢]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٧]. والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى الذي يُذكر فيه (المنتقم)؛ فذكر في سياقه: (البرُّ التوَّاب المنتقم العفوُّ الرؤوف): ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي ﷺ رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

المسألة الثامنة:

اسما الجلالة (المُحيـي المُميت).

ذكـر الإمـام ابـن قيـم الجـوزيـة ـ رحمـه الله تعـالـى ـ اسمي الجـلالـة (المُحيي المُميت) في مواضع من كتبه[1]، حيث قرَّر ثبوت هذين الاسمين، بقوله: (ـ سبحانه ـ له الأسماء الحسنى، فمن أسمائه: الغفور الرحيم؛ العفوُّ الحليم؛ الخافض الرافع؛ المُعزُّ المُذلُّ؛ (المُحيي المُميت)؛ الوارث)[2].

وقد فطر الله القلوب على التألُّه والتعبُّد لإلٰهها ومعبودها المُتفرِّد بمعاني الربوبية؛ ومنها: تفرُّده بالإحياء والإماتة، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إنه لا شيء أحبَّ إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها؛ ووليُّها ومولاها وربُّها؛ ومُدبِّرها ورازقها؛ ومُميتها ومُحييها،

---

(١) انظر في النصِّ على اسمي الجلالة (المُحيي؛ والمُميت) ـ على وجه الخصوص ـ : بدائع الفوائد ١/١٤٨، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٦٢، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/١٠٦ ـ ١٠٧. وانظر في ذكره ـ على وجه العموم ـ : إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/٢٨٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٥٣٢.

ولم يُردف الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تعيين اسمي الله تعالى (المُحيي؛ المُميت) ـ المُزدوجين المُتقابلين ـ بذكر دليلهما المثبت لهما، ولم يرد اسما (المُحيي؛ المُميت) صريحين في كتاب الله العزيز، وإنما ورد تسميتهما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الطويل في تعداد أسماء الله الحسنى، وقد استُدلَّ لاسمي (المُحيي؛ المُميت): بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٣].

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٠٦ ـ ١٠٧.

فمحبته نعيم النفوس؛ وحياة الأرواح؛ وسرور النفوس؛ وقوت القلوب؛ ونور العقول؛ وقُرَّة العيون؛ وعمارة الباطن.

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية: أحلى ولا ألذَّ؛ ولا أطيب ولا أسرَّ؛ ولا أنعم من محبته والأنس به؛ والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كلِّ حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتمَّ من كلِّ نعيمٍ، واللذة التي تناله أعلى من كلِّ لذةٍ)[1].

فهذه بعض الأسماء الحسنى ـ المتقابلة بالمعنى ـ ، وقد ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في مثاني كتبه؛ ونصَّ على أنها من أسماء الله الحسنى[2].

وفي خاتمة هذا المبحث ـ المتعلِّق بتعيين أسماء الله الحسنى؛ وذِكْر أدلة ثبوتها؛ وبيان معانيها ـ : يحسن التنبيه على أمرٍ؛ والتنبُّه له: وهو أن لفظ (القديم) قد تكرَّر وروده في مواضع كثيرة من كتب الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ[3]، فكثر بالإخبار به كلمُه؛ وسال بالتعبير به

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٢٨٣.

(٢) نظير هذه الأسماء الحسنى ـ المتقابلة في المعنى ـ : اسما الجلالة (المُبدىء المُعيد)، وقد ورد ذكرهما في موضعٍ واحدٍ من كتب الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ وروداً عاماً، وذلك في قوله في [التبيان في أقسام القرآن ص١٢٤]: (إنه لا يُعجزه شيءٌ، فإنه: (المُبدىء المُعيد)).

(٣) انظر: بدائع الفوائد ١/ ١٤٧، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٧، الروح ص٣٥٦، زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٦٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٦٨؛ ٢/ ٥٨٧، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٣٦؛ ٣/ ٩٨٢؛ ٩٨٣؛ ١٠١٨؛ ١١٥٣؛ ٤/ ١٢١٨؛ =

قلمُه، فمن ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (الربُّ تعالى هو: (القديم) الخالق)[1].

وقوله ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن الدليل العقلي الصحيح إنما دلَّ على: انتهاء المخلوقات إلى خالقٍ واحدٍ (قديمٍ)، غير مخلوقٍ ولا مصنوعٍ، ولا مُحتاجٍ إلى سواه بوجهٍ من الوجوه، وكلُّ ما عداه محتاجٌ إليه من جميع الوجوه)[2].

ولا بُدَّ أن يُعلم أن إيراد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ للفظ (القديم): إنما هو من باب الإخبار؛ لا من باب التسمية، وقد نصَّ على ذلك ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (إن ما يُطلق عليه في باب الأسماء والصفات: توقيفيٌّ، وما يُطلق عليه من الإخبار: لا يجب أن يكون توقيفاً، كـ : (القديم))[3].

وإنَّ كان للإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ جهودٌ جليلةٌ مشكورةٌ؛ ومساعٍ نبيلةٌ مبرورةٌ في تعيين أسماء الله الحسنى؛ وذكر أدلة ثبوتها؛ وبيان معانيها: فإن له أيضاً نظير هذه الجهود والمساعي في بيان الألفاظ التي لا تصحُّ نسبتها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، لأنها ليست ممدوحة مطلقاً، بل تُمدح في موضعٍ وتُذمُّ في موضعٍ آخر.

= ١٢١٩؛ ١٢٣٢؛ ١٣١٦؛ ١٣٢٠؛ ١٥٠٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٨٢؛ ٢/ ٤٥١؛ ٣/ ٤٠٨؛ ٤٤٥؛ ٤٦٣؛ ٤٦٤؛ ٤٦٥، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٦٢٥، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٢.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٠٨.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٨.

(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٤٧.

وهذه الألفاظ التي جاء إطلاقها على الله ــ سبحانه وتعالى ــ : يرجع في الجملة سبب إنكار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لها؛ وكونها من أسماء الله ــ سبحانه وتعالى ــ إلى أمرين:

الأمر الأول: أنها لم تثبت بدليلٍ صحيحٍ ونصٍّ صريحٍ، وقد تقدم أن هذا الباب توقيفيٌّ.

الأمر الثاني: أنَّ معانيها منقسمةٌ إلى محمودٍ مليحٍ؛ ومذمومٍ قبيحٍ، وما كان كذلك: فلا يصحُّ وصف الله تعالى به.

وكان من جملة الألفاظ التي أوردها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في سياق الإنكار: لفظ (الماكر؛ والمُخادع؛ والمُستهزيء؛ والكائد؛ والمُوجِد؛ والمُؤثر؛ والصانع؛ والمُنشيء؛ والجاعل؛ والفاعل؛ والهَوي).

فأما إنكار تسمية الله ــ سبحانه وتعالى ــ بـ: (الماكر؛ والمُخادع؛ والمُستهزيء؛ والكائد): فقد قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخِدَاع والاستهزاء مطلقاً؛ ولا ذلك داخلٌ في أسمائه الحسنى.

ومن ظنَّ من الجُهَّال المُصنِّفين في شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه: الماكر المُخادع المُستهزيء الكائد: فقد فاه بأمرٍ عظيمٍ؛ تقشعرُّ منه الجلود، وتكاد الأسماع تُصمُّ عند سماعه.

وغرَّ هذا الجاهل أنه ــ سبحانه وتعالى ــ أطلق على نفسه هذه الأفعال، فاشتق له منها أسماء ــ وأسماؤه كلها حسنى ــ ؛ فأدخلها في الأسماء الحسنى، وأدخلها وقرنها بـ: (الرحيم الودود الحكيم الكريم)، وهذا جهلٌ عظيمٌ، فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقاً، بل تُمدح في

موضعٍ وتُذمُّ في موضعٍ، فلا يجوز إطلاق إفعالها على الله مُطلقاً، فلا يقال: إنه تعالى يمكر ويخادع ويستهزىء ويكيد، فكذلك بطريق الأولى لا يُشتقُّ له منها أسماء يُسمَّى بها، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى: المريد ولا المتكلم ولا الفاعل ولا الصانع؛ لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوحٍ ومذمومٍ، وإنما يُوصف بالأنواع المحموديَّة منها؛ كـ: (الحليم والحكيم والعزيز والفعَّال لما يُريد)، فكيف يكون منها الماكر المخادع المستهزىء؟

ثم يلزم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الحسنى: الداعي والآتي والجائي والذاهب والقادم والرائد والناسي والقاسم والساخط والغضبان واللاعن؛ إلى أضعاف أضعاف ذلك من الأسماء التي أطلق على نفسه أفعالها في القرآن، وهذا لا يقوله مسلمٌ ولا عاقلٌ.

والمقصود: أن الله ــ سبحانه ــ لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حقٍ، وقد عُلم أن المجازاة على ذلك حسنةٌ من المخلوق، فكيف من الخالق ــ سبحانه ــ ؟)[1].

وقد ساق الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في موطنٍ واحدٍ: جملة من الألفاظ التي أنكر نسبتها إلى الله تعالى؛ لانقسام معاني بعضها إلى محمودٍ ومذمومٍ، وهذه الألفاظ هي: (المُوجِد؛ والمُؤثر؛ والصانع؛ والمُنشىء؛ والجاعل؛ والفاعل)، حيث قال: (أما لفظ المُوجِد: فلم يقع في أسمائه ــ سبحانه ــ ، وإن كان هو المُوجد على الحقيقة، ووقع في أسمائه: (الواجد)، وهو بمعنى: الغنيُّ الذي له الوجد. وأما المُوجد: فهو مفعل من أوجد، وله معنيان:

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٩١ ــ ٢٩٢.

أحدهما: أن يجعل الشيء موجوداً، وهو تعدية وجده وأوجده، قال الجوهري[1]: (وجد الشيء عن عدم، فهو مَوجودٌ، مثل: حُمَّ؛ فهو مَحمومٌ، وأوجده الله، ولا يقال: وجده)[2].

والمعنى الثاني: أوجده؛ جعل له جِدَة وغنى، وهذا يتعدَّى إلى مفعولين، قال في الصحاح: (أوجده الله مطلوبَه؛ أي: أظفره به، وأوجده؛ أي: أغناه)[3].

قلت: وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون من باب حذف أحد المفعولين، أي: أوجده مالاً وغنى، وأن يكون من باب صيَّره واجداً، مثل: أغناه وأفقره إذا صيَّره غنياً وفقيراً، فعلى التقدير الأول: يكون تعدِّيه: وجد مالاً وغنى، وأوجده الله إياه.

وعلى الثاني: يكون تعديه وجد وجداً؛ إذا استغنى، ومصدر هذا الوجد بالضمِّ والفتح والكسر، قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾[4].

فغير مُمتنعٍ أن يُطلق على من يفعل بالقدرة المُحدثة أنه أوجد مقدوره، كما يُطلق عليه أنه فعله وعمله وصنعه وأحدثه؛ لا على سبيل الاستقلال)[5].

---

(١) هو: أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي الأُترازي الفارابي، إمام اللغة والأدب، وخطُّه يُضرب به المثل في الجودة، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.
انظر في ترجمته: معجم الأدباء لياقوت الحموي ٦/ ١٥١ ــ ١٦٥، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٧/ ٨٠ ــ ٨٢، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ١/ ٤٤٦ ــ ٤٤٨.

(٢) الصحاح للجوهري ٢/ ٥٤٧.

(٣) الصحاح للجوهري ٢/ ٥٤٧.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٦.

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٣ ــ ٣٩٤.

ثم ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ لفظ: (المُؤثر)؛ مُبيِّناً عدم ورود الدليل بإطلاقه على الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ فقال: (وكذلك لفظ المُؤثِّر: لم يرد إطلاقه في أسماء الربِّ، وقد وقع إطلاق الأثر والتأثُّر على فعل العبد، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾[1]. قال ابن عباس: (ما أثروا من خيرٍ أو شرٍّ)[2]. فسمَّى ذلك آثاراً؛ لحصوله بتأثيرهم.

ومن العجب: أن المتكلمين يمتنعون من إطلاق التأثير والمُؤثِّر على من أُطلق عليه في القرآن والسنة، كما قال النبي ﷺ لبني سلمة: «ديارَكم، تُكْتَبْ آثارُكم»[3]. أي: الزموا دياركم، ويخصُّونه بمن لم يقع إطلاقه عليه في كتابٍ ولا سنةٍ، وإن اسْتُعمل في حقِّه الإيثار والاستئثار، كما قال إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾[4]. وفي الأثر: (إذا استأثر الله بشيء فَالْهَ عنه)[5]. وقال الناظم[6]:

استأثر الله بالثناء وبالحمـ ... ـد وولى الملامة الرجلا[7].

---

(1) سورة يس: الآية ١٢.

(2) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٧/ ٩.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد ــ الحديث رقم (٦٦٥) ــ ١/ ٤٦٢] من حديث جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ .

(4) سورة يوسف: الآية ٩١.

(5) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [٥/ ٣٢٦] عن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ .

(6) هو: الأعشى؛ أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل، من شعراء الجاهلية وفحولهم.

(7) البيت من قصيدةٍ مدح بها الأعشى سلامةَ ذا فائش الحميري كما في ديوانه [ص٢٦٥ ــ ٢٦٦]، ومطلعها: =

ولما كان التأثير تفعيلاً من أَثَّرتُ في كذا تأثيراً؛ فأنا مؤثرٌ: لم يمتنع إطلاقه على العبد، قال في الصحاح: (التأثير: إبقاء الأثر في الشيء)[1])[2].

ثـم أنكـر ــ رحمـه الله تعـالـى ــ تسميـة الله ــ سبحـانـه وتعـالـى ــ بـ (الصانع)؛ مُبيِّناً انقسام معناه إلى محمودٍ ومذمومٍ؛ فقال: (وأما لفظ الصانع: فلم يرد في أسماء الربِّ ــ سبحانه ــ ؛ ولاَ يُمكن ورودها، فإن الصانع من صنع شيئاً عدلاً كان؛ أو ظلماً سفهاً، أو حكمة جائزاً؛ أو غير جائزٍ.

وما انقسم مُسمَّاه إلى مدحٍ وذمٍّ: لم يجيء اسمه المطلق في الأسماء الحسنى، كالفاعل والعامل والصانع والمُريد والمُتكلِّم، لانقسام معاني هذه الأسماء إلى محمودٍ ومذمومٍ، بخلاف العالم والقادر والحيِّ والسميع والبصير.

وقـد سَمَّـىٰ النبـي ﷺ العبـد صـانعـاً، قـال البخـاري: حـدثنـا علـي بـن عبـد الله[3]، ثنـا مـروان بـن معـاويـة[4]، ثنـا

= (إنَّ محـــلاًّ وإنَّ مُـــرتحـــلاَ وإنَّ في السفر من مضى مَهَلاَ).
ثم يليه هذا البيت؛ ولفظه:
(استــأثــر الله بــالــوفــاء وبــالـ ـعـدل وولَّـى المـلامـة الـرجـلا).
انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٩/ ٨٦، لسان العرب لابن منظور ٤/ ٨؛ ٢٩٢، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ١٠/ ٤٦٠.

(١) الصحاح للجوهري ٢/ ٥٧٦.
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٤.
(٣) هو: المديني.
(٤) هو: أبو عبد الله الفزاري الكوفي ثم الدمشقي، الحافظ الثقة، توفي بمكة فجأة قبل التروية بيوم؛ سنة ثلاث وتسعين ومائة. =

أبـو مالك[1]، عن ربعي بـن خراش[2]، عـن حذيفة قـال: قـال النبـي ﷺ: «إن الله يصنع كلَّ صانعٍ وصنعته»[3].

وقد أطلق ـ سبحانه ـ على فعله اسم الصنع، فقال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[4]. وهو منصوبٌ على المصدر، لأن قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[5]. يدل على الصنعة، وقيل: هو نصب على المفعولية، أي: انظروا صنع الله، فعلى الأول: يكون صنع الله مصدراً؛ بمعنى الفعل، وعلى الثاني: يكون بمعنى المصنوع المفعول، فإنه

= انظر في ترجمته: مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار لابن حبان ص٢٧١، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٧/ ٤٠٣ ـ ٤١٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/ ٥١ ـ ٥٣.

(١) هو: سعد بن طارق بن أشيم الأشجعي الكوفي.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ٥٨، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٠/ ٢٦٩ ـ ٢٧١، سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) هو: أبو مريم الغطفاني ثم العبسي الكوفي؛ المُعمَّر، الحافظ الحجة، توفي سنة أربع ومائة.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٨/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٩/ ٥٤ ـ ٥٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٢.

(٣) خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل للبخاري [باب أفعال العباد ـ الحديث رقم (١١٧) ـ ص٦٣].
وصححه الألباني في [ظلال الجنة في تخريج السنة: الحديث رقم ٣٥٧ ـ ص١٥٨].

(٤) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٥) سورة النمل: الآية ٨٨.

الذي يُمكن وقوع النظر والرؤية عليه)[1].

ثم بيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ أن الإنشاء أُطلق على الله ـ سبحانه وتعالى ـ فعلاً، ولم يُطلق عليه اسماً؛ حتى يقال: (المُنشىء)؛ فقال: (أما الإنشاء: فإنما وقع إطلاقه عليه ـ سبحانه ـ فعلاً، كقوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾[2]. وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾[3]. وقوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾[4]. وهو كثيرٌ، ولم يرد لفظ: المُنشىء.

وأما العبد: فيُطلق عليه الإنشاء باعتبارٍ آخر؛ وهو: شروعه في الفعل وابتداؤه له، يقول: أنشأ يُحدِّثنا، وأنشأ السير؛ فهو منشأٌ لذلك، وهذا إنشاء مُقيَّدٌ، وإنشاء الربِّ إنشاءٌ مطلقٌ، وهذه اللفظة تدور على معنى الابتداء، أنشأه الله: أي ابتدأ خلقه، وأنشأ يفعل كذا ابتداء، وفلانٌ يُنشىء الأحاديث؛ أي: يبتدىء وضعها، والناشىء: أوَّلُ ما ينشأ من السحاب)[5].

ثم ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ لفظ: (الجاعل)؛ وأنه يُطلق على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بمعنيين؛ فقال: (وأما الجعل: فقد أُطلق على الله ـ سبحانه ـ بمعنيين: أحدهما: الإيجاد والخلق. والثاني: التصيير.

فالأول: يتعدَّى إلى مفعولٍ، كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[6].

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.
(٢) سورة الرعد: الآية ١٢.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٩.
(٤) سورة الواقعة: الآية ٦١.
(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٥.
(٦) سورة الأنعام: الآية ١.

والثاني: أكثر ما يتعدَّى إلى مفعولين، كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[1].

وأُطلق على العبد بالمعنى الثاني خاصة، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾[2].

وغالب ما يُستعمل في حقِّ العبد في جعل التسمية والاعتقاد؛ حيث لا يكون له صنع في المجعول، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[3]. وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[4].

وهذا يتعدَّى إلى واحدٍ، وهو جعل اعتقاد وتسمية)[5].

ثم ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ لفظ: (الفاعل)؛ مُبيِّناً أنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ أطلقه على نفسه فعلاً، وإما إطلاقه على نفسه اسماً: فجاء بصفة الكمال المُقيَّدة بإرادته؛ فقال: (وأما الفعل والعمل: فإطلاقه على العبد كثيرٌ: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[6]، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[7]، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[8].

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٣.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٣٦.
(٣) سورة الزخرف: الآية ١٩.
(٤) سورة يونس: الآية ٥٩.
(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٧.
(٦) سورة المائدة: الآية ٧٩.
(٧) سورة المائدة: الآية ٦٢.
(٨) سورة المائدة: الآية ١٠٥، سورة الأنعام: الآية ٦٠، سورة التوبة: الآيتان ٩٤؛ ١٠٥، سورة يونس: الآية ٢٣، سورة النحل: الآيتان ٢٨؛ ٣٢، =

وأطلقه على نفسه فعلاً واسماً، فالأول: كقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾[1].

والثاني: كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[2]. وقوله: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ في موضعين من كتابه:

أحدهما: قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[3].

والثاني: قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[4].

فتأمَّل قوله: ﴿كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ في هذين الموضعين المُتضمن للصنع العجيب الخارج عن العادة؛ كيف تجده كالدليل على ما أخبر به؛ وأنه لا يستعصي على الفاعل حقيقة؟ أي: شأننا الفعل، كما لا يخفى الجهر والإسرار بالقول على من شأنه العلم والخبرة، ولا تصعب المغفرة على من شأنه أن يغفر الذنوب، ولا الرزق على من شأنه أن يرزق العباد.

وقد وقع الزجاج على هذا المعنى بعينه؛ فقال: (﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾: قادرين على فعل ما نشاء)[5][6].

= سورة العنكبوت: الآية ٨، سورة لقمان: الآية ١٥، سورة السجدة: الآية ١٤، سورة الزمر: الآية ٧، سورة الزخرف: الآية ٧٢، سورة الطور: الآية ١٩، سورة الجمعة: الآية ٨، سورة المرسلات: الآية ٤٣.

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

(٢) سورة هود: الآية ١٠٧، سورة البروج: الآية ١٦.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٤٠٧.

(٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

وأما إنكار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لتسمية الله ــ سبحانه وتعالى ــ بـ : (الهَوي): فجاء في سياق تنبيهه على غلط أبي محمد ابن حزم في عدِّ هذا الاسم ضمن الأسماء الحسنى التي يُتعبَّد بدعاء الله تعالى بها، فقال: (ههنا أمرٌ يجب التنبيه عليه؛ غلط فيه أبو محمد ابن حزم أقبح غلطٍ، فذكر في أسماء الربِّ تعالى: الهَوي ــ بفتح الهاء ــ ، واحتجَّ بما في الصحيح من حديث عائشة: «أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى الهَوي»(1).

فظن أبو محمد أن الهَوي: صفةٌ للربِّ، وهذا من غلطه ــ رحمه الله ــ ، وإنما الهَوي ــ على وزن فعيلٍ ــ : اسمٌ لقطعة من الليل. يُقال: مضى هوي من الليل ــ على وزن فعيلٍ ــ ، ومضى هزيعٌ منه؛ أي:

---

(1) لم أقف عليه.

وقد أخرجه بلفظ نحوه: أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦٥٧٥) ــ ٢٧/ ١١٠]، والبخاري في أدبه المفرد [باب ما يقول إذا استيقظ بالليل ــ الحديث رقم (١٢٥٤) ــ ص٢٦١]، والترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٢٧) ــ الحديث رقم (٣٤١٦) ــ ٥/ ٤١٧]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب قيام الليل وتطوع النهار/ باب ذكر ما يُستفتح به القيام ــ الحديث رقم (١٣٢٠) ــ ٢/ ١٢٣]؛ وفي سننه المجتبى [كتاب قيام الليل وتطوع النهار/ باب ذكر ما يُستفتح به القيام ــ الحديث رقم (١٦١٦) ــ ٣/ ٢٣٠ ــ ٢٣١]، وابن ماجه في سننه [كتاب الدعاء/ باب ما يدعو به إذا انتبه من الليل ــ الحديث رقم (٣٨٧٩) ــ ٤/ ٢٨٩] من حديث ربيعة بن كعب الأسلميِّ ــ رضي الله عنه ــ ، ولفظه: «كنت أبيت عند باب النبي ﷺ، فأُعطيه وضوءه، فأسمعه الهَويَّ من الليل يقول: سمع الله لمن حمده، وأسمعه الهَويَّ من الليل يقول: الحمد لله ربِّ العالمين».

وصححه الألباني في [صحيح سنن ابن ماجه: الحديث رقم (٣٩٤٨) ــ ٣/ ٢٦٨].

طرفٌ وجانبٌ[1]. وكان يقول: سبحان ربـي الأعلى في قطعةٍ من الليل؛ وجانبٍ منه.

وقد صَرَّحَتْ بذلك في اللفظ الآخر؛ فقالت: «كان يقول: سبحان ربـي الأعلى؛ الهَوِي من الليل»)[2].

فهذه جملة الألفاظ التي أنكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ نسبتها إلى الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ وإطلاقها عليه اسماً، وهذا الإنكار يُظهر بجلاءٍ: حماية الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لجناب أسماء الله تعالى، وصيانته لها عن أن يُدْرَجَ معها ما ليس منها، لأن باب أسماء الله تعالى ــ كما تقدَّم ــ : توقيفيٌّ.

وهذه خاتمة هذا المبحث؛ الذي طال فيه سفر القلب في مطالعة أسماء الله الحسنى؛ والتدبُّر في معانيها العظيمة؛ والتفقُّه في أسرارها الجسيمة، (فياله من سفر ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجلَّ منفعته وأحسن عاقبته، سفرٌ هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب)[3].

وإذا تقرَّر (أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم)[4]: فأفضل العلم على الإطلاق: هو العلم بما حواه هذا

---

(١) انظر: المجموع المغيث في غريبـي القرآن والحديث للمديني ٣/ ٥١٨ ــ ٥١٩، الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٤/ ١١٩، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٥/ ٢٨٥ [مادة: هوا].

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٣٠٩.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣٠.

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٢٩.

المبحث النفيس ـ الذي هو أفضل جليسٍ؛ وأنبل أنيسٍ ـ ؛ من إحصاء أسماء الله تعالى؛ والتفقُّه بمعانيها، فهما الصراطُ المستقيم والسبيل القويم إلى امتثال أمر الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بدعائه بأسمائه الحسنى؛ وعدم الإلحاد فيها.

❑ ❑ ❑

المبحث الرابع:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير تفاضل الأسماء الحسنى

إنَّ أسماء الله تعالى كلَّها حسنى، وهي جميعها أسماءٌ لمسمًّى واحد؛ وهو الله ـ جلَّ جلاله ـ، وهذه الأسماء الحسنى مع حسنها متفاضلةٌ في الحسن والفضل؛ تفاضلاً لا يلزم منه تنقصُ الاسم المفضول منها.

والقول بتفاضل أسماء الله الحسنى: إنما يوقن به من اعتقد القاعدة المتقدِّمة الذكر: (أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصرٍ ولا تُحدُّ بعددٍ)، وهذا (هو القول الذي عليه جمهور المسلمين، وهو الذي كان عليه سلف الأمة وأئمتها، وهو الموافق لفطرة الله التي فطر عليها عباده)[1].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير أن أسماء الله تعالى (كلَّها حسنى؛ ليس فيها اسمٌ غير ذلك أصلاً)[2]، وأن هذه الأسماء مع كونها حسنى: متفاضلة فيما بينها، وهذه العناية منه ـ رحمه الله تعالى ـ بتقرير أوجه التفاضل الواقع بين أسماء الله الحسنى تتجلى معالمها في المسائل الآتية:

---

(١) جواب أهل العلم والإيمان أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن لابن تيمية ١٧/ ١٥٧ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٤٨.

المسألة الأولى:

تقريره أنَّ من أسماء الله الحسنى اسماً هو أعظمها وأفضلها.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (في صحيح الحاكم وابن حبان عن أنس قال: «كنا مع النبي ﷺ في حلقة، ورجل قائمٌ يُصلِّي، فلما ركع وسجد: تشهَّد ودعا؛ فقال: اللَّـهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إلـه إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ: لقد دعا الله باسمه الأعظم؛ الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»[1].

وفيهما أيضاً عن بريدة: «أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: اللَّـهُمَّ إني أسألك بأنك أنت الله الذي لا إلـه إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال النبي ﷺ: لقد سألت الله باسمه الأعظم؛ الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دعي به أجاب»[2].

فأخبر أن هذا هو الاسم الأعظم[3]؛ لما تضمَّنه من الحمد والثناء

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) اختلف أهل العلم في تعيين اسم الله الأعظم على أقوال، فأوصلها بعضهم إلى: أربعة عشر قولاً؛ كما هو صنيع الحافظ ابن حجر العسقلاني في [فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨]، وأوصلها بعضهم إلى: عشرين قولاً؛ كما هو صنيع الحافظ السيوطي في [الدر المنظم في الاسم الأعظم ٢/ ١٣٥ ـ ١٣٩ : رسالة مودعة ضمن الحاوي للفتاوي]، وأوصلها بعضهم إلى: أربعين قولاً؛ كما هو صنيع الشوكاني في [تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين ص٧١].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في مواضع من كتبه: =

. . . .

= الأحاديث المتضمنة لذكر اسم الله الأعظم؛ دون تعيينٍ له، كما في جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٤٩ ــ ٢٥٠، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٥٨ ــ ٧٦٠، الداء والدواء ص١٥ ــ ٢١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١١ ــ ٩١٣؛ ٤/ ١٤٨٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣١.

وقد نصَّ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٢٠٤ ــ ٢٠٥] على تسمية الاسم الأعظم؛ وأنه: (الحي القيوم)، فقال في داء الكرب والهمِّ والغمِّ والحزن: (في تأثير قوله: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» في دفع هذا الداء مناسبةٌ بديعةٌ، فإن صفة الحياة: متضمنةٌ لجميع صفات الكمال؛ مستلزمةٌ لها، وصفة القيومية: متضمنةٌ لجميع صفات الأفعال. ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب؛ وإذا سُئِلَ به أعطى: هو اسم الحي القيوم. والحياة التامة: تُضادُّ جميع الأسقام والآلام، ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة: لم يلحقهم همٌّ ولا غمٌّ ولا حزنٌ؛ ولا شيءٌ من الآفات، ونقصان الحياة: تُضِرُّ بالأفعال؛ وتنافي القيومية، فكمال القيومية لكمال الحياة، فالحي المطلق التام الحياة: لا تفوته صفة الكمال ألبتة، والقيوم: لا يتعذَّر عليه فعلٌ ممكنٌ ألبتة. فالتوسل بصفة الحياة والقيومية: له تأثيرٌ في إزالة ما يُضادُّ الحياة؛ ويُضرُّ بالأفعال).

كما نصَّ ــ رحمه الله تعالى ــ في [جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٩٧] على تسميته؛ وأنه: (بديع السماوات والأرض؛ ذو الجلال والإكرام)، فقال: (في مسند أبي يعلى الموصلي عن أحد الصحابة ــ رضي الله عنه ــ: أنه طلب أن يعرف اسم الله الأعظم، فرأى في منامه مكتوباً في السماء بالنجوم: يا بديع السماوات والأرض؛ يا ذا الجلال والإكرام).

والذي يغلب على الظنِّ: أن مراد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بالتعيين هو ذكر هذه الأسماء الحسنى ــ التي ثبت في الأحاديث الصحيحة النصُّ

والمجد والتوحيد، ولمحبة الربِّ تعالى لذلك: أجاب من دعا به)[1].

المسألة الثانية:

تقريره أنّ إضافة العبودية إلى اسم الله واسم الرحمن أفضل من إضافتها إلى غيرهما، لأن التعلّق الذي بين العبد وبين الله إنما هو بالألوهية المحضة، والتعلّق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (لما كان الاسم مُقتضياً لمسماه ومُؤثِّراً فيه: كان أحبَّ الأسماء إلى الله ما اقتضى أحبَّ الأوصاف إليه؛ كعبد الله وعبد الرحمن، وكان إضافة العبودية إلى اسم الله واسم الرحمن أحبَّ إليه من إضافتها إلى غيرهما؛ كالقاهر والقادر، فعبد الرحمن أحبُّ إليه من عبد القادر، وعبد الله أحبُّ إليه من عبد ربِّه.

وهذا لأن التعلَّق الذي بين العبد وبين الله إنما هو العبودية المحضة، والتعلُّق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة، فبرحمته كان وجوده وكمال وجوده، والغاية التي أوجده لأجلها: أن يتألَّه له وحده محبة وخوفاً ورجاء وإجلالاً وتعظيماً، فيكون عبداً لله؛ وقد عبده، لما في اسم الله من معنى الإلـٰهية التي يستحيل أن تكون لغيره، ولمَّا غلبت رحمتُه غضبَه؛ وكانت الرحمة أحبَّ إليه من الغضب: كان عبد الرحمن أحبَّ إليه من عبد القاهر)[2].

= عليها ــ على أنها من أفراد اسم الله الأعظم، وليس مراده التنصيص على التخصيص، والله أعلم.
وانظر في مواقف الناس من إثبات الاسم الأعظم لله تعالى؛ وأقوالهم في تعيينه: اسم الله الأعظم للدكتور الدميجي ص٩١ ــ ١٦٥.

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٨٧.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٤٠.

المسألة الثالثة:

تقريره أن الاسم الدالّ على جملة أوصافٍ أفضل من الاسم الدالّ على معنى مفردٍ.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: (الاسم الدالُّ على جملة أوصافٍ عديدةٍ؛ لا تختصُّ بصفةٍ معينةٍ، بل هو دالٌّ على معناه؛ لا على معنى مفردٍ، نحو: المجيد العظيم الصمد.

فإن المجيد: من اتَّصف بصفاتٍ متعددةٍ من صفات الكمال، ولفظه يدلُّ على هذا، فإنه موضوعٌ للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المرخ والعفار، وأمجد الناقة علفاً، ومنه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾[1]: صفة للعرش؛ لسعته وعِظمه وشرفه.

وتأمَّل كيف جاء هذا الاسم مُقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله؛ كما علَّمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد؛ والتعرُّض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسمٍ يقتضيه)[2].

ثم استطرد ـ رحمه الله تعالى ـ في ذكر التوسُّل إلى الله تعالى بالأسماء التي تقتضي مطلوب السائل؛ إلى أن قال: (ولنرجع إلى المقصود؛ وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن لصفاتٍ عديدةٍ، فالعظيم من اتَّصف بصفاتٍ كثيرةٍ من صفات الكمال، وكذلك الصمد.

قال ابن عباسٍ: (هو السيد الذي كَمُلَ في سؤدده)[3].

---

(١) سورة البروج: الآية ١٥.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٤٤.

(٣) تقدم تخريجه.

وقال أبو وائلٍ: (هو السيد الذي انتهى سؤدده)[1].

وقال عكرمة[2]: (الذي ليس فوقه أحدٌ)[3].

وكذلك قال الزجّاج: (الذي ينتهي إليه السؤدد؛ فقد صمد له كلُّ شيءٍ)[4].

وقال ابن الأنباري: (لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحدٌ، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم)[5].

واشتقاقه يدلُّ على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه؛ واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكر الناعي بخَيْرَيْ بني أسدٍ بعمرو بن يربوع وبالسيِّدِ الصَّمدِ.

والعرب تُسمِّي أشرافها بالصمد؛ لاجتماع قصد القاصدين إليه؛ واجتماع صفات السيادة فيه)[6].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هو: أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله البربري المدني القرشي مولاهم، الحافظ المفسر، توفي سنة خمس ومائة.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ١٢ ــ ٣٦، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٤٣ ــ ٤٤، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ٣٨٦ ــ ٣٨٧.

(٣) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في جواب أهل العلم والإيمان أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن لابن تيمية ١٧/ ٢١٦ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، ولم أقف عليه.

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٣٧٨.

(٥) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في جواب أهل العلم والإيمان أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن لابن تيمية ١٧/ ٢١٦ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية]، ولم أقف عليه.

(٦) بدائع الفوائد ١/ ١٤٥.

وإن من أوجه تفضيل الأسماء الدالَّة على جملة أوصافٍ ــ كالمجيد والعظيم والصمد ــ على الاسم الدالِّ على معنى مفردٍ: أن هذه الأسماء الحسنى تتناول جميع الصفات التي تدلُّ عليها كتناولِ الاسم الدالِّ على صفةٍ واحدةٍ، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن من أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عِدَّة صفاتٍ؛ ويكون ذلك الاسمُ متناولاً لجميعها تناولَ الاسمِ الدالِّ على الصفة الواحدة لها ــ كما تقدَّم بيانه ــ . كاسمه العظيم والمجيد والصمد، كما قال ابن عباس ــ فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره[1] ــ : (الصمد: السيِّد الذي قد كَمُلَ في سؤدده، والشريف الذي قد كَمُلَ في شرفه، والعظيم الذي قد كَمُلَ في عظمته، والحليم الذي قد كَمُلَ في حلمه، والعليم الذي قد كَمُلَ في علمه، والحكيم الذي قد كَمُلَ في حكمته، وهو الذي قد كَمُلَ في أنواع شرفه وسؤدده؛ وهو الله ــ سبحانه ــ ، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس ﴿لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾[2]، و ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[3]، سبحان الله ﴿ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[4]) هذا لفظه.

وهذا مما خَفِيَ على كثيرٍ ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسَّر الاسم بدون معناه؛ ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يُحِطْ بهذا علماً: بخس الاسم الأعظم حقَّه؛ وهضمه معناه، فتدبَّره)[5].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة الإخلاص: الآية ٤.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة يوسف: الآية ٣٩، سورة الرعد: الآية ١٦، سورة إبراهيم: الآية ٤٨، سورة ص: الآية ٦٥، سورة الزمر: الآية ٤، سورة غافر: الآية ١٦.

(٥) بدائع الفوائد ١/ ١٥٢ ــ ١٥٣.

المسألة الرابعة:

تقريره أنَّ الاسم الذي يُطلق على الله تعالى مُفرداً ومُقترناً أفضل من الاسم الذي لا يُطلق عليه بمفرده؛ بل مقروناً بمقابله.

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن أسماءه تعالى منها: ما يُطلق عليه مُفرداً ومُقترناً بغيره؛ وهو غالب الأسماء، فالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يُدعى به مُفرداً ومُقترناً بغيره، فتقول: يا عزيز يا حليم يا غفور يا رحيم، وأن يُفرد كلُّ اسمٍ، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها: ما لا يُطلق عليه بمفرده؛ بل مقروناً بمقابله، كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يُفرد هذا عن مُقابله؛ فإنه مقرونٌ بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع؛ الضارُّ النافع؛ المنتقم العفو؛ المعزُّ المذلُّ، لأن الكمال في اقتران كلِّ اسمٍ من هذه بما يُقابله، لأنه يُراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرُّف فيهم عطاء ومنعاً؛ ونفعاً وضرًّا؛ وعفواً وانتقاماً، وأما أن يُثنى عليه بمجرَّد المنع والانتقام والإضرار: فلا يسوغ.

فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد؛ الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعضٍ، فهي وإن تعدَّدت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردة؛ ولم تُطلق عليه إلا مقترنة؛ فاعلمه.

فلو قلت: يا مذلُّ يا ضارُّ يا مانع؛ وأخبرتَ بذلك: لم تكن مُثنياً عليه؛ ولا حامداً له؛ حتى تَذْكُرَ مُقابلها)[1].

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٥١.

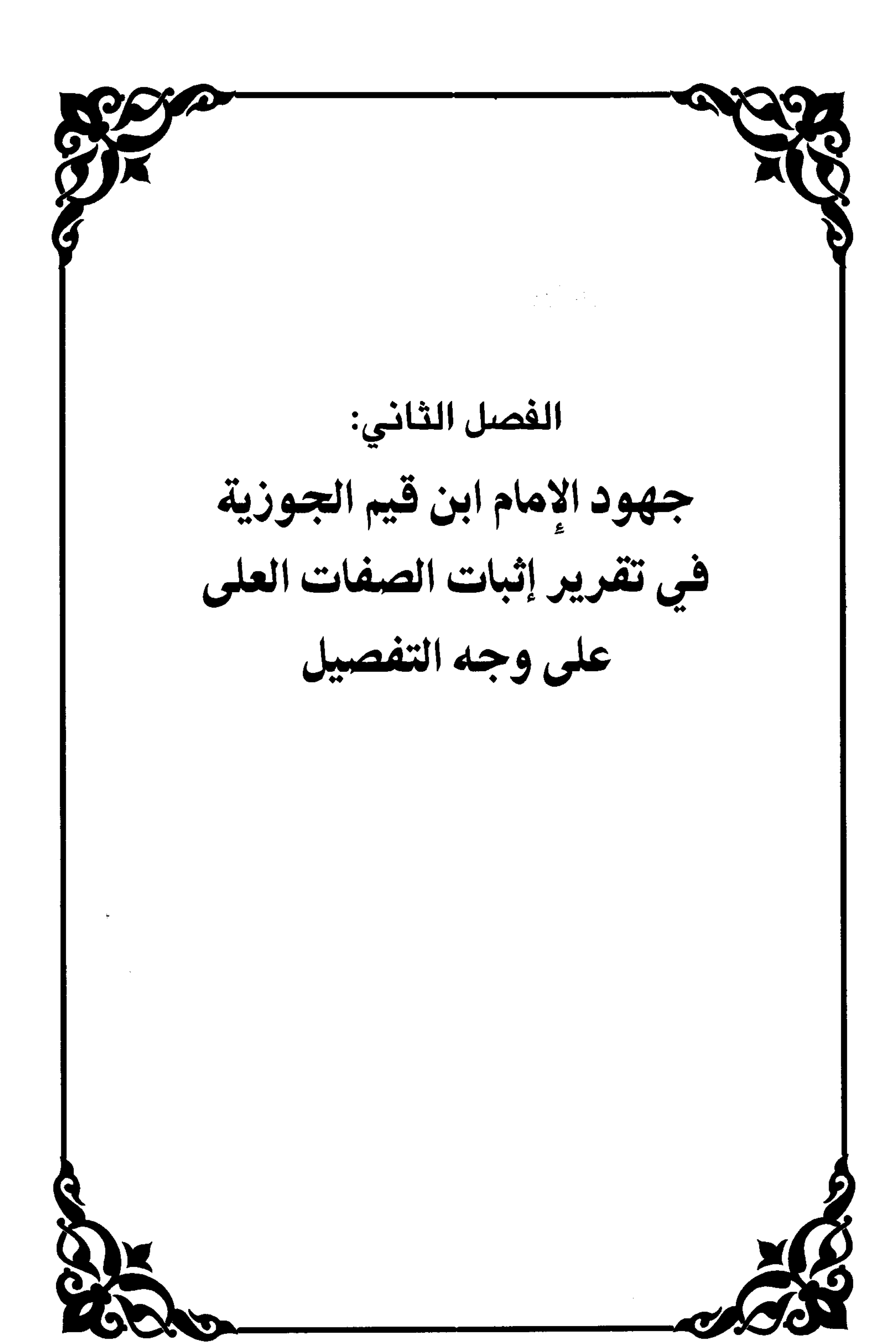
فهذا خلاصة ما تضمنه تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذه المسائل العظيمة المتضمنة لأوجه التفاضل الواقع بين أسماء الله الحسنى، ومن له لبٌّ يعلم قدر هذه المسائل؛ (وشدَّة الحاجة إليها؛ وانتفاعه بها، ويَطَّلع منها على بابٍ عظيمٍ من أبواب معرفة الله ـ سبحانه ـ)[1] بأسمائه الحسنى.

وهذه خاتمة هذا الفصل المتعلِّق بتقرير أسماء الله الحسنى على وجه التفصيل؛ وهو فصلٌ (يُطْلِعُ ذا اللبِّ على رياضٍ من العلم أنيقات، ويُفتَّح له بابٌ من محبة الله ومعرفته، والله المستعان؛ وعليه التكلان)[2].

❑ ❑ ❑

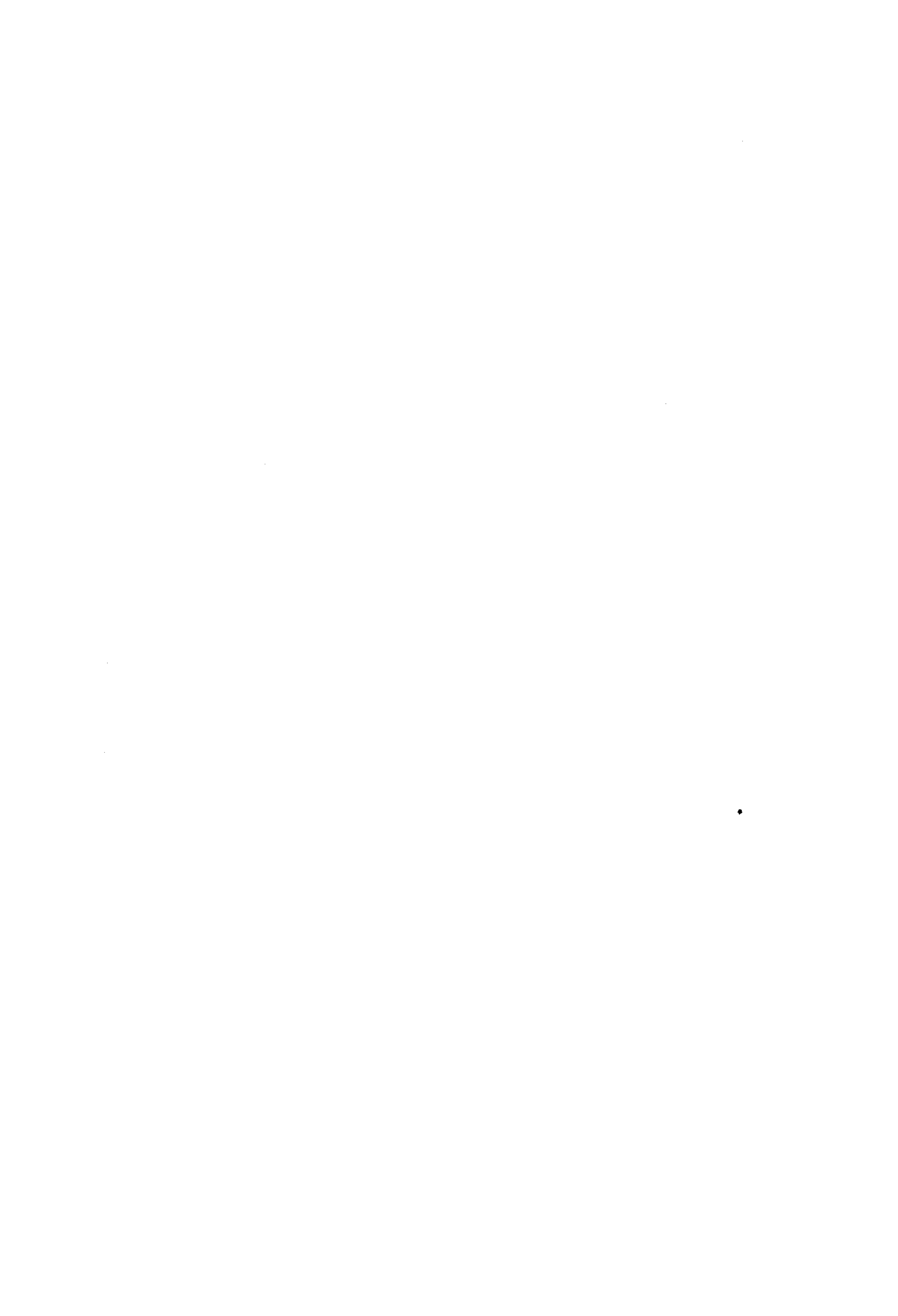
(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٤٢٧.

(٢) تهذيب مختصر سنن أبي داود ٥/ ١٨٠.



الفصل الثاني:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية
في تقرير إثبات الصفات العلى
على وجه التفصيل



المبحث الأول:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير صفات الله العلى التي اتفقت عليها جميع الرسالات السماوية

إنَّ الكتب الإلـٰهية التي اقترنت بالرسالات السماوية: جاءت متفقة في أصول الإسلام ـ الذي هو دين الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ ؛ مفترقة في شرائع الأحكام.

وإن مما اتفقت عليه جميع الرسالات السماوية: إثبات صفات الله العلى؛ الموجبة لحمد الله وتمجيده والثناء عليه بما هو أحقُّ به وأهلُه.

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بتقرير ما تضمنته الكتب الإلـٰهية من النصوص؛ وأن اشتمالها على نصوص الصفات أكثر من اشتمالها على ما عداه ـ كما تقدَّم تقرير ذلك مستوفى[1] ـ ، فجميع الكتب الإلـٰهية جاءت (مملوءة بذكر الفوقية؛ وعُلُوِّ الله على عرشه، وأنه تكلَّم ويتكلَّم، وأنه موصوفٌ بالصفات، وأن له أفعالاً تقوم به؛ هو بها

(١) تقدم تقرير كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا المقام في المطلب المنعقد بعنوان: (جهوده في تقرير أن الكتب الإلـٰهية اشتملت على توحيد الأسماء والصفات أكثر من اشتمالها على ما عداه).

فاعلٌ، وأنه يُرى بالأبصار؛ إلى غير ذلك من نصوص الصفات؛ التي إذا قيس إليها نصوص حشر هذه الأجساد؛ وخراب هذا العالم؛ وإعدامه وإنشاء عالم آخر: وُجِدَتْ نصوصُ الصفات أضعاف أضعافها)[1].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الأصول الكليَّة التي اتفقت عليها شرائع الأنبياء والمرسلين ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ؛ والتي هي من الشرائع المحكمة التي لا يجوز بحالٍ من الأحوال دخول النسخ عليها؛ أو مجيء شريعةٍ سماويةٍ بخلافها، فقال: (النبوات من أولها إلى آخرها متفقةٌ على أصول:

أحدها: أنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ قديمٌ واحدٌ لا شريك له في ملكه، ولا ندَّ ولا ضدَّ ولا وزير ولا مُشير ولا ظهير ولا شافع إلا من بعد إذنه.

الثاني: أنه لا والد له ولا ولد، ولا كفؤ ولا نسيب بوجهٍ من الوجوه، ولا زوجة.

الثالث: أنه غنيٌّ بذاته؛ فلا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى شيءٍ مما يحتاج إليه خلقه بوجهٍ من الوجوه.

الرابع: أنه لا يتغيَّر ولا تعرض له الآفات من الهرم والمرض؛ والسِّنة والنوم؛ والنسيان والندم والخوف؛ والهمِّ والحزن ونحو ذلك.

الخامس: أنه لا يُماثل شيئاً من مخلوقاته، بل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[2] لا في ذاته؛ ولا في صفاته؛ ولا في أفعاله.

السادس: أنه لا يَحِلُّ في شيءٍ من مخلوقاته، ولا يَحِلُّ في ذاته شيءٌ منها، بل هو بائنٌ عن خلقه بذاته، والخلق بائنون عنه.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٧ ــ ٣٦٨.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

السابع: أنه أعظم من كلِّ شيءٍ، وأكبر من كلِّ شيءٍ، وفوق كلِّ شيءٍ، وعالٍ على كلِّ شيءٍ، وليس فوقه شيءٌ ألبتة.

الثامن: أنه قادرٌ على كلِّ شيءٍ؛ فلا يُعجزه شيءٌ يريده، بل هو الفعَّال لما يريد.

التاسع: أنه عالمٌ بكلِّ شيءٍ، يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون؛ وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾[1]، ولا متحركٌ إلا وهو يعلمه على حقيقته.

العاشر: أنه سميعٌ بصيرٌ، يسمع ضجيج الأصوات؛ باختلاف اللغات؛ على تفنُّن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء؛ على الصخرة الصمَّاء؛ في الليلة الظلماء، قد أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المقدورات، ونفذت مشيئته في جميع البريَّات، وعمَّت رحمته جميع المخلوقات، ووسع كرسيه الأرض والسماوات.

الحادي عشر: أنه الشاهد الذي لا يغيب؛ ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده؛ أو يُعاونه عليها، أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم.

الثاني عشر: أنه الأبديُّ الباقي الذي لا يضمحلُّ ولا يتلاشى، ولا يعدم ولا يموت.

الثالث عشر: أنه المتكلِّم المُكلِّم، الآمر الناهي، قائل الحق وهادي السبيل، ومُرسل الرسل ومُنزل الكتب، والقائم على كلِّ نفسٍ

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

بمـا كسبت مـن الخيـر والشر، ويُجـازي المحسن عـلى إحسانـه؛ والمسيء بإساءته.

الرابع عشر: أنـه الصـادق فـي وعـده وخبـره، فـلا أصدق منـه قيلاً؛ ولا أصدق منه حديثاً، وهو لا يُخلف الميعاد.

الخامس عشر: أنه تعالى صمدٌ بجميع معاني الصمديَّة، فيستحيل عليه ما يُناقض صمديَّته.

السادس عشر: أنـه قدوسٌ سـلامٌ، فهـو المبـرَّأ مـن كلِّ عيبٍ ونقـصٍ وآفةٍ.

السابع عشر: أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

الثامن عشر: أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم، ولا يخاف عبادُه منه ظلماً.

فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه؛ ولا يُخبر نبـيٌّ بخلافه أصلاً)[1].



(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٢ ــ ٥٢٥.

المبحث الثاني:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أقسام صفات الله تعالى

إنَّ صفات الله العلى لكمالها وجمالها وجلالها: انقسمت إلى أقسامٍ متعددةٍ؛ كلٌّ قسمٍ منها له كماله الخاصُّ به.

وقد عُلِمَ باستقراء نصوص الوحيين المطهرين: أن صفات الله العلى تنقسم باعتبار تعلُّقها بالإثبات والسلب إلى قسمين:

القسم الأول: الصفات الثبوتية، وهي: الصفات التي دلَّت نصوص الوحيين المطهرين ـ كتاب الله تعالى؛ وسنة نبيه ﷺ ـ على ثبوتها لله ـ سبحانه وتعالى ـ .

مثال ذلك: صفة الحياة؛ وصفة القيومية؛ وصفة العلم؛ وصفة القدرة؛ وصفة العدل.

القسم الثاني: الصفات السلبية، وهي: الصفات التي دلَّت نصوص الوحيين المطهرين ـ كتاب الله تعالى؛ وسنة نبيه ﷺ ـ على سلبها عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ مع إثبات كمال ضدِّها.

مثال ذلك: الموت؛ والنوم؛ والجهل؛ والعجز؛ والظلم، فسلب هذه الصفات عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ : يتضمن إثبات كمال ضدِّها له؛

من: صفة الحياة؛ وصفة القيومية؛ وصفة العلم؛ وصفة القدرة؛ وصفة العدل.

ثمَّ إنَّ صفات الله تعالى الثبوتية تنقسم باعتبار تعلُّقها بذاته المقدَّسة وأفعاله المحكمة إلى قسمين:

القسم الأول: الصفات الذاتية؛ وهي: الصفات التي دلَّت نصوص الوحيين المطهرين ــ كتاب الله تعالى؛ وسنة نبيه ﷺ ــ على تعلُّقها بذات الله ــ سبحانه وتعالى ــ .

مثال ذلك: صفة الحياة؛ وصفة العلم؛ وصفة العُلُوِّ؛ وصفة الوجه؛ وصفة اليدين.

القسم الثاني: الصفات الفعلية؛ وهي: الصفات التي دلَّت نصوص الوحيين المطهرين ــ كتاب الله تعالى؛ وسنة نبيه ﷺ ــ على تعلُّقها بأفعال الله ــ سبحانه وتعالى ــ ، فهو ــ سبحانه وتعالى ــ إن شاء فعلها؛ وإن لم يشأ لم يفعلها.

مثال ذلك: صفة النزول؛ وصفة المجيء؛ وصفة الإتيان؛ وصفة الخلق؛ وصفة الضحك.

ثمَّ إنَّ صفات الله تعالى الثبوتية المتعلِّقة بذاته المقدَّسة وأفعاله المحكمة تنقسم باعتبار تعلُّقها بأدلة ثبوتها إلى قسمين:

القسم الأول: الصفات السمعية العقلية، وهي: الصفات التي دلَّ على ثبوتها لله ــ سبحانه وتعالى ــ الأدلة السمعية؛ مع استقلال الأدلة العقلية بإثباتها.

مثال ذلك: صفة الحياة؛ وصفة العلم؛ وصفة القدرة؛ وصفة الخلق؛ وصفة العُلُوِّ.

القسم الثاني: الصفات السمعية الخبرية، وهي: الصفات التي دلَّ على ثبوتها لله ــ سبحانه وتعالى ــ الأدلة السمعية؛ دون استقلال الأدلة العقلية بإثباتها.

مثال ذلك: صفة الوجه؛ وصفة اليدين؛ وصفة الاستواء؛ وصفة النزول؛ وصفة المجيء.

هذا مجمل ما يتعلَّق بأقسام صفات الله العلى باعتبار تعلُّقها بالإثبات والنفي؛ وباعتبار تعلُّقها بذاته المقدَّسة وأفعاله المحكمة؛ وباعتبار تعلُّقها بأدلة ثبوتها(١).

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير صفات الله العلى؛ وذكر أقسامها، وبيان ذلك وإيضاحه يتجلَّى في المطالب الثلاثة الآتية:



---

(١) انظر: الصفات الإلـٰهية في الكتاب والسنة للجامي ص١٩٩ ــ ٢٠٩، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعثيمين ص٣١ ــ ٣٤، الصفات الإلـٰهية للدكتور التميمي ص٥٥ ــ ٧٢، صفات الله عزَّ وجلّ الواردة في الكتاب والسنة للسقاف ص٢٧ ــ ٢٩.

المطلب الأول:

جهوده في تقرير أنَّ الصفات تنقسم باعتبار تعلُّقها بالإثبات والنفي إلى: صفات ثبوتية وصفات سلبية

إنَّ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ قد اجتهد في تقرير أقسام صفات الله العلى؛ مبيناً أنها تنقسم باعتبار ورودها المتضمن للإثبات إلى: صفاتٍ ثبوتيةٍ؛ دلَّت النصوص الشرعية على وجوب ثبوتها لله ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ لما تتضمنه من صفات الكمال، كما أنها تنقسم باعتبار ورودها المتضمن للسلب إلى: صفاتٍ سلبيةٍ؛ دلَّت النصوص الشرعية على وجوب سلبها عن الله ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ مع إثبات كمال ضدِّها.

وحقيقة حمد الله تعالى الدالِّ على توحيده بأسمائه الحسنى وصفاته العلى: متضمنٌ لأمرين:

الأمر الأول: تضمنه لإثبات أوصاف الكمال.

الأمر الثاني: تضمنه لسلب العيوب والنقائص؛ المُستلزم لإثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية.

وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذين الأمرين بقوله: (المحمود لا يُحمد على العدم والسكوت ألبتة؛ إلا إذا كانت سلبَ عيوبٍ ونقائصَ

تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض: لا حمد فيه ولا مدح ولا كمال، وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن: لكمال صمديَّته وغناه وملكه وتعبيد كلِّ شيءٍ له، فاتخاذ الولد يُنافي ذلك، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(1).

وحَمِدَ نفسه على عدم الشريك المتضمن تفرُّده بالربوبية والإلـٰهية؛ وتوحُّده بصفات الكمال التي لا يُوصف بها غيره؛ فيكون شريكاً له، فلو عدمها لكان كلُّ موجودٍ أكمل منه، لأن الموجود أكمل من المعدوم، ولهذا لا يحمد نفسه ــ سبحانه ــ بعدمٍ؛ إلا إذا كان مُتضمناً لثبوت كمالٍ.

كما حمد نفسه بكونه لا يموت؛ لتضمنه كمال حياته، وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ؛ لتضمن ذلك كمال قيوميته، وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقالُ ذرةٍ في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر؛ لكمال علمه وإحاطته، وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحداً؛ لكمال عدله وإحسانه، وحمد نفسه بأنه لا تُدركه الأبصار؛ لكمال عظمته، يُرى ولا يُدرك؛ كما أنه يُعلم ولا يُحاط به علماً، فمجرَّد نفي الرؤية ليس بكمالٍ؛ لأن العدم لا يُرى، فليس في كون الشيء لا يُرى: كمالٌ ألبتة؛ وإنما الكمال في كونه لا يُحاط به رؤية ولا إدراكاً لعظمته في نفسه وتعاليه عن إدراك المخلوق له، وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان؛ لكمال علمه.

فكلُّ سلبٍ في القرآن حمد الله به نفسه: فلمضادته لثبوت ضدِّه؛ ولتضمنه كمال ثبوت ضدِّه، فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال؛ وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مُستلزمٌ لثبوت ضدِّه، فهذه

---

(1) سورة يونس: الآية ٦٨.

دلالة على توحيد الأسماء والصفات)[1].

وهذان الأمران ــ وهما: الصفات الثبوتية؛ والصفات السلبية المتضمنة للثبوت ــ : هما السببان اللذان نصبهما الله ــ سبحانه وتعالى ــ للدلالة على نفسه المقدسة، إذ حجب الله ــ سبحانه وتعالى ــ عن البشر معرفة ذاته وكنهها؛ ولم يجعل لهم سبيلاً إلى شهودها، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إنه لا سبيل للقوى البشرية إلى شهود الذات الإلـٰهية ألبتة؛ ولا يقع الشهود على تلك الحقيقة؛ ولا جُعِلَ ذلك إليها، وإنما إليها: شهود الصفات والأفعال، وأما حقيقة الذات والعين: فغير معلومةٍ للبشرية.

ولما سأل المشركون رسول الله ﷺ عن حقيقة ربه ــ سبحانه ــ : «من أيِّ شيءٍ هو؟ أنزل الله ــ عزَّ وجلّ ــ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[2]»[3].

ولذلك لما سأل فرعون موسى عن حقيقة ربِّه بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾[4]؟ أجابه موسى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[5].

إذ لا وصول للبشر إلى حقيقة ذاته؛ فدلهم على نفسه بصفاته الثبوتية؛ من كونه صمداً؛ وصفاته السلبية المتضمنة للثبوت؛ من كونه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[6]. لم يجعل لهم سبيلاً إلى

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٥ ــ ٣٦.

(٢) سورة الإخلاص: الآيات ١ ــ ٤.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد».

(٤) سورة الشعراء: الآية ٢٣.

(٥) سورة الشعراء: الآية ٢٤.

(٦) سورة الإخلاص: الآيتان ٣ ــ ٤.

معرفة الذات والكنه)[1].

ولما كان الوصفُ الثبوتيُّ مستلزماً للكمال المطلق، والوصفُ السلبيُّ مستلزماً للنقص والعيب: كان الإلـه المستحقُّ بأن يُفرد بالعبودية والألوهية: هو من قامت فيه صفات الكمال، وأما من سُلِبَتْ عنه هذه الصفات: فهو العدم المحض، وهو الذي عاب الله تعالى به آلهة المشركين، كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إنَّ الله ـ سبحانه ـ عاب آلهة المشركين بنفس ما وصفتم الإلـه الحقَّ ـ سبحانه ـ به، فعابها بأنها: لا تتكلَّم ولا تُكلِّم عابديها، وقلتم: إن هذا من خصائص الربوبية.

وعابها بأنها: لا تسمع ولا تُبصر، وقلتم: إنَّ إثبات السمع والبصر للربِّ يقتضي التشبيه والتجسيم.

وعابها بأنها: لا تضرُّ ولا تنفع ولا تهدي السبيل، فنفى عنها هذه الأفعال، وقلتم: ليس للقديم فعلٌ يقوم به ألبتة، فإنه لو قامت به الأفعال لكان محلاً للحوادث.

وعابها بأنها: لا يد لها تبطش بها، ولا رجل تمشي بها، ولا عين تبصر بها، وقلتم: بأنَّ الربَّ ـ سبحانه ـ كذلك، فإنا لو وصفناه بذلك وصفناه بالجوارح والأبعاض.

وجميع ما عابها به إنما هو نفيٌ وسلبٌ، لم يعبها بصفةٍ ثبوتية ألبتة، وعندكم أعظم التنزيه: السلب والنفي؛ الذي هو جماع ما عاب به آلهة المشركين)[2].

لذا لما كانت الصفات الثبوتية مستلزمة للكمال المطلق من كلِّ وجهٍ:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٤٥.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٣٢.

فقد وجب الإنكار على من نفاها، لأن نفيها مستلزمٌ للنقص المطلق من كلِّ وجهٍ، وقد خاطب الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ النفاة في هذا المقام بالاستفهام الإنكاريِّ؛ فقال: (هل أثبتم للعالم ربًّا بائناً عنه؟ وهل عندكم فوق العرش إلـٰه يُعبد؛ ويُصلى له ويُسجد؟ أم ليس فوق العرش إلا العدم؛ الذي لا شيء هو؟

وهل أثبتم لصانع العالم ــ سبحانه ــ صفة ثبوتية تقوم به؟)[1].

* وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير الصفات الثبوتية، حيث ذكر أمثلة للصفات التي جاءت النصوص الشرعية بإثباتها المتضمن للكمال، فمن تلك الصفات الثبوتية:

١ ــ صفات العُلُوِّ والاستواء؛ والكلام والعلم؛ والقدرة والحياة؛ والسمع والبصر والوجه؛ والرحمة والغضب والرِّضى؛ والفرح والضحك؛ واليدين؛ والنزول، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفات بقوله: (ما أثبته الله لنفسه في كتابه من صفاته وأفعاله؛ وما صحَّ عن رسوله أنه أثبته له من: عُلُوِّه فوق سماواته على عرشه واستوائه عليه؛ وتكلُّمه وتكليمه؛ وثبوت علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه الأعلى؛ ورحمته وغضبه ورضاه وفرحه وضحكه؛ ويديه التي يُمسك بإحداهما السماوات السبع وبالأخرى الأرضين السبع ثم يهزهنَّ؛ ونزوله كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا، ونحو ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله)[2].

٢ ــ صفتا القوة والعِزَّة، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هاتين الصفتين بقوله: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[3].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٧٤.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٣٢.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

فعُلِمَ أن القويَّ من أسمائه، ومعناه: الموصوف بالقوة.

وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾[1]. فالعزيز: من له العِزَّة، فلولا ثبوت القوة والعزة له: لم يُسمَّ قوياً ولا عزيزاً)[2].

٣ ـ صفتا الحمد والمجد، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هاتين الصفتين بقوله: (إنه لما طُلِبَ للرسول ﷺ الحمد والمجد بالصلاة عليه ـ وذلك يستلزم الثناء على مُرسله بالحمد والمجد ـ: خُتِمَ هذا المطلوب بالثناء على مُرسله بالحمد والمجد؛ ليكون هذا الدعاء مُتضمناً لطلب الحمد والمجد للرسول ﷺ؛ والإخبار عن ثبوته للرب ـ سبحانه وتعالى ـ)[3].

٤ ـ صفتا الرؤية والنداء، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هاتين الصفتين ـ إضافة إلى صفة الفرح المتقدمة الذكر ـ بقوله: (قوله: «إنكم ترون ربكم عياناً؛ كما ترون القمر ليلة البدر صحواً؛ ليس دونه سحاب»[4]: تحقيقاً لثبوت الرؤية؛ ونفياً لاحتمال ما يُوهِمُ خلافها، فأتى بغاية البيان والإيضاح.

وكذلك قوله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم أضل راحلته بأرض دوية مهلكة؛ عليها طعامه وشرابه، فطلبها حتى يئس منها، فاضطجع في أصل شجرة، فرأى راحلته عليها طعامه وشرابه، فقام فأخذها، فجعل يقول من شدة الفرح: اللَّهُمَّ أنت عبدي؛ وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»[5].

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٧.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٥٢.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «هل تُمارون في القمر ليلة البدر».

(٥) تقدم تخريجه.

هذه ألفاظ رسول الله ﷺ، ثم قال: «كيف ترون فرح هذا براحلته؟ قالوا: عظيماً يا رسول الله. قال: فوالله؛ لله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته»[١].

فهذا الكشف والبيان والإيضاح لا مزيد عليه؛ تقرير لثبوت هذه الصفة؛ ونفي الإجمال والاحتمال عنها. وكذلك قوله في حديث النداء: «فيناديهم بصوتٍ»[٢]. فذكر الصوت تحقيقاً لصفة النداء وتقريراً، ولو لم يذكره لدلَّ عليه لفظ النداء)[٣].

فهذه بعض الصفات الثبوتية التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ، وهذه الصفات كما أنها قد دلَّت على ثبوتها النصوص الصحيحة: فقد دلَّت عليها أيضاً: العقول الصريحة، لأن من أظهر الأشياء عند العقول وأوضحها: أن مُعطي الكمال أولى به وأحقُّ من المُعطى، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (أدلة ثبوت صفات الكمال لمعطي الكمال: هي من أظهر الأشياء وأوضحها)[٤].

* وكان للإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ عناية خاصة بتقرير الصفات السلبية ــ لا تقلُّ أهمية عن عنايته بتقرير الصفات الثبوتية ــ ، حيث اعتنى ــ رحمه الله تعالى ــ بتقرير بعض الضوابط والفروق التي يصحُّ بها وصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ بالصفات السلبية، فمن ذلك:

١ ــ أن الصفات السلبية لا يصحُّ وصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ بها إلا إذا تضمنت إثبات كمال ضدِّها؛ المُستلزم للمدح والحمد؛ والتسبيح

---

(١) تقدم تخريجه، ولفظه: «كيف تقولون بفرح رجلٍ».

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «يحشر الله العباد فيُناديهم بصوتٍ».

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥١٤ ــ ٥١٥.

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٧٢.

والمجد، كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن كلَّ ما يُنزَّه الربُّ عنه إن لم يكن مُتضمناً لإثبات كماله؛ ومستلزماً لأمر ثبوتيٍّ يُوصف به: لم يكن في تنزيهه عنه مدحٌ ولا حمدٌ ولا تمجيدٌ ولا تسبيحٌ، إذ العدم المحض كاسمه لا حمد فيه ولا مدح، وإنما يُمدح ــ سبحانه ــ بنفي أمورٍ تستلزم أموراً هي حقٌّ ثابتٌ موجودٌ يستحقُّ الحمد عليها، وذلك الحقُّ الموجود يُنافي ذلك الباطل المنفي، فيُستدلُّ برفع أحدهما على ثبوت الآخر.

فتارة يُستدلُّ بثبوت تلك المحامد والكمالات على نفي النقائص التي تُنافيها، وتارة يُستدلُّ بنفي تلك النقائص على ثبوت الكمالات التي تُنافيها، فهو ــ سبحانه ــ القدُّوس السلام؛ كما قال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[1]: لكمال حياته وقيوميته، و ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾[2]: لكمال علمه، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾[3]: لكمال قدرته، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾[4]: لكمال عدله وغناه ورحمته، و ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾[5]: لكمال علمه وحفظه، ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾[6]: لكمال قدرته وقوته، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[7]؛ و ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾[8]: لكمال صمديته، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[9]: لتفرُّده بالكمال المطلق الذي

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
(٢) سورة سبأ: الآية ٣.
(٣) سورة ق: الآية ٣٨.
(٤) سورة الكهف: الآية ٤٩.
(٥) سورة طه: الآية ٥٢.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
(٧) سورة الأنعام: الآية ١٤.
(٨) سورة الإخلاص: الآية ٣.
(٩) سورة الإخلاص: الآية ٤.

لا يُشاركه فيه غيره، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾[1]: لكمال عزته وسلطانه، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾[2]: فنفى عن نفسه خوف عاقبة ما فعله من إهلاك أعدائه، بخلاف المخلوق فإنه إذا انتقم من عدوه: يخاف عاقبة ذلك إما من الله؛ وإما من المنتصرين لعدوِّه، وذلك على الله محالٌ)[3].

٢ ــ أن حقيقة السلب الذي يصحُّ وصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ به: هو ما تضمن نفي العدم وما يستلزم العدم، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (الله ــ سبحانه ــ إنما نفى عن نفسه: ما يُناقض الإثبات؛ ويُضادُّ ثبوت الصفات والأفعال، فلم ينف إلا أمراً عدمياً؛ أو ما يستلزم العدم، فنفى السنة والنوم: المستلزم لعدم كمال الحياة والقيومية، ونفى العزوب والخفاء: المستلزم لنفي كمال العلم، ونفى اللغوب: المستلزم نفي كمال القدرة، ونفى الظلم: المستلزم لنفي كمال الغنى والعدل، ونفى العبث: المستلزم لنفي كمال الحكمة والعلم، ونفى الصاحبة والولد: المستلزمين لعدم كمال الغنى، وكذلك نفى الشريك والظهير والشفيع ــ المُقدَّم بالشفاعة ــ : المستلزم لعدم كمال الغنى والقهر والملك، ونفى الشبيه والمثيل والكفؤ: المستلزم لعدم التفرُّد بالكمال المطلق، ونفى إدراك الأبصار له؛ وإحاطة العلم به: المستلزمين لعدم كمال عظمته وكبريائه وسعته وإحاطته، وكذلك نفى الحاجة والأكل والشرب عنه ــ سبحانه ــ : لاستلزام ذلك عدم غناه الكامل.

وإذا كان إنما نفى عن نفسه العدم؛ أو ما يستلزم العدم: عُلِمَ أنه أحقُّ بكلِّ وجودٍ وثبوتٍ؛ وكلِّ أمرٍ وجوديٍّ لا يستلزم عدما ولا نقصا ولا عيبا،

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١١١.

(٢) سورة الشمس: الآية ١٥.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٤٣ ــ ١٤٤٥.

وهذا هو الذي دلَّ عليه صريح العقل، فإنه ــ سبحانه ــ له الوجود الدائم القديم الواجب لنفسه؛ الذي لم يستفده من غيره، ووجود كلِّ موجودٍ مفتقرٌ إليه ومتوقِّفٌ في تحقيقه عليه، والكمال وجودٌ كلُّه، والعدم نقصٌ كلُّه، فإن العدم كاسمه لا شيء.

فعاد النفي الصحيح إلى نفي النقائص والعيوب؛ ونفي المماثلة في الكمال، وعاد الأمران إلى نفي النقص، وحقيقة ذلك: نفي العدم وما يستلزم العدم.

فتأمَّل؛ هل نفى القرآن والسنة عنه ــ سبحانه ــ سوى ذلك؟ وتأمَّل؛ هل ينفي العقل الصحيح ــ الذي لم يفسد بشبه هؤلاء الضُّلال الحيارى ــ غير ذلك؟ فالرسل جاؤوا بإثبات ما يضادُّه)[1].

٣ ــ أن الفرق بين ما يصحُّ وصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ به؛ وبين ما لا يصحُّ وصفه به من الصفات السلبية: هو الوصف الذي يُكْسِبَ القلبَ علماً بربِّه ــ تبارك وتعالى ــ ؛ ومحبة وقصداً له، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (مما ينبغي أن يُعلم: أن كلَّ سلبٍ ونفيٍ لا يتضمن إثباتاً: فإن الله لا يُوصف به، لأنه عدمٌ محضٌ ونفيٌ صرفٌ؛ لا يقتضي مدحاً ولا كمالاً ولا تعظيماً.

ولهذا كان تسبيحه وتقديسه ــ سبحانه ــ مُتضمناً لعظمته؛ ومُستلزماً لصفات كماله ونعوت جلاله، وإلا فالمدح بالعدم المحض: كلا مدحٍ، والعدم في نفسه ليس بشيءٍ يُمدح به ويُحمد عليه، ولا يُكْسِبَ القلبَ علماً بالمذكور؛ ولا محبة وقصداً له.

ولهذا كان عدم السنة والنوم: مدحاً وكمالاً في حقِّه ــ سبحانه ــ ؛

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٣ ــ ١٠٢٤.

لتضمنه واستلزامه كمال حياته وقيوميته، ونفي اللغوب عنه: كمالٌ؛ لاستلزامه كمال قدرته وقوته، ونفي النسيان عنه: كمالٌ؛ لتضمنه كمال علمه، وكذلك نفي عزوب شيءٍ عنه، ونفي الصاحبة والولد: كمالٌ؛ لتضمنه كمال غناه وتفرُّده بالربوبية، وأن من في السماوات والأرض عبيدٌ له، وكذلك نفي الكفؤ والسمي والمثل عنه: كمالٌ؛ لأنه يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال له على أكمل الوجوه؛ واستحالة وجود مشاركٍ له فيها)(١).

٤ ــ أن الفرق بين وصف أهل السنة والجماعة ووصف أهل البدعة والشناعة لله ــ سبحانه وتعالى ــ بالصفات السلبية: أن وصف أهل السنة والجماعة متضمنٌ للتسبيح والتحميد والثناء والتمجيد، بخلاف وصف أهل البدعة والشناعة؛ فإنه على الضدِّ من ذلك، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن السلب إن لم يتضمن إثباتاً: وإلا لم يكن مدحاً ولا كمالاً، فليس له من مُجرَّد كونه لا يُحبُّ ولا يرضى؛ ولا يفرح ولا يضحك؛ ولا يغضب: حمدٌ ولا كمالٌ، فإنه نفيٌ صرفٌ وعدمٌ محضٌ؛ فلا يُحمد به.

وهذا بخلاف نفي الغمِّ والهمِّ والحزن والندم عنه، فإنه يتضمن ثبوتاً؛ وهو كمال قدرته وعلمه، فإن أسباب هذه الأمور: إما عجزٌ منافٍ للقدرة، وإما جهلٌ منافٍ للعلم، وكمال قدرته وعلمه: يُناقض وصفه بذلك.

وهذا وغيره مما يُبيِّن: أن النفاة والمعطلة: أقلُّ الناس تحميداً وتمجيداً وتسبيحاً وثناء على الله، وأن أهل الإثبات: أعظمُ تسبيحاً وتحميداً وثناء على الله)(٢).

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٦٩.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٥٢.

فهذا مجمل ما يتعلَّق بتقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لصفات الله العلى؛ وأنها تنقسم باعتبار تعلُّقها بالإثبات والسلب إلى: صفاتٍ ثبوتيةٍ[1]؛ وصفاتٍ سلبيةٍ[2].

❑ ❑ ❑

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٢؛ ٣/ ٩٣٨؛ ١٠٠٩، ومختصره ٢/ ٣٤٣؛ ٣٧١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٧٩؛ ٥٠٨، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥١٩، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٣.

(٢) انظر: بدائع الفوائد ١/ ١٤٦، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦٩ ــ ٣٧١، الفوائد ص١٣٩ ــ ١٤٠.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير أن الصفات تنقسم باعتبار تعلُّقها بذات الله تعالى وأفعاله إلى: صفات ذاتية وصفات فعلية

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير أقسام صفات الله العلى؛ مبيناً أنها تنقسم باعتبار تعلُّقها بذاته المقدَّسة إلى: صفاتٍ ذاتيةٍ؛ دلَّت النصوص الشرعية على تعلُّقها بذات الله ــ سبحانه وتعالى ــ، كما أنها تنقسم باعتبار تعلُّقها بأفعاله المحكمة إلى: صفاتٍ فعليةٍ؛ دلَّت النصوص الشرعية على تعلُّقها بأفعال الله ــ سبحانه وتعالى ــ.

وقد دلَّت الدلائل السمعية والبراهين العقلية على إثبات الصفات الذاتية القائمة بذات الله تعالى؛ والصفات الفعلية القائمة بأفعاله، وهذا الإثبات: هو التوحيد الذي جاءت رسل الله تعالى ــ وهم الواسطة بينه وبين خلقه ــ بالدعوة إليه، كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (أما توحيد الرسل: فهو إثبات صفات الكمال له ــ سبحانه ــ، وإثبات كونه فاعلاً بمشيئته وقدرته واختياره؛ وأن له فعلاً حقيقة، وأنه وحده الذي يستحقُّ أن يُعبد ويُخاف ويُرجى ويُتوكَّل عليه، فهو المستحقُّ لغاية الحبِّ بغاية الذُّلِّ، وليس لخلقه من دونه وكيلٌ ولا وليٌّ ولا شفيعٌ، ولا واسطة بينه وبينهم في رفع حوائجهم إليه؛ وفي تفريج كرباتهم؛ وإغاثة لهفاتهم؛ وإجابة دعواتهم، وبينه وبينهم واسطةٌ في تبليغ أمره ونهيه وخبره إليهم، فلا يعرفون ما يُحبُّه ويرضاه؛ ويُبغضه ويسخطه؛

ولا حقائق أسمائه؛ وتفصيل ما يجب له ويمتنع عليه ويوصف به: إلا من جهة هذه الواسطة)[1].

وقد جاءت نصوص الكتاب العزيز ـ المُصدِّق للكتب قبله والمُهيمن عليها ـ بإثبات صفات الله تعالى؛ والدلالة على أن من هذه الصفات العلى ما هو قائمٌ بالذات العليّة؛ ومنها ما هو متعلِّقٌ بالأفعال الاختيارية ـ ، وهذه النصوص الصحيحة القويمة ـ مع كثرتها التي تفوت الحصر ـ : جاءت موافقة للعقول الصريحة المستقيمة، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ كثرة هذه النصوص الشرعية بقوله: (النصوص الصريحة الصحيحة ـ التي تفوت العدد ـ على: ثبوت الأفعال الاختيارية للربِّ ـ سبحانه ـ وقيامها به، كقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾[2]. وقوله: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾[3]. وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٨٢﴾[4]. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾[5]. وقوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾[6]. وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾[7]. وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[8]. وقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[9].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٣٣ ـ ٩٣٤.
(٢) سورة الرحمن: الآية ٢٩.
(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٥.
(٤) سورة يس: الآية ٨٢.
(٥) سورة النمل: الآية ٨.
(٦) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.
(٧) سورة الإسراء: الآية ١٦.
(٨) سورة المجادلة: الآية ١.
(٩) سورة آل عمران: الآية ١٨١.

وقوله: «ينزل ربنا كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا»[1]. وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾[2]. وقوله: «إن ربـي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»[3]. وقوله: «إذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾[4] قال الله: حمدني عبدي» الحديث[5].

وأضعاف أضعاف ذلك من النصوص التي تزيد على الألف)[6].

كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ عدم معارضة صحيح المنقول لصريح المعقول بقوله: (تأمَّل ما جاءت به النصوص: أنه ـ سبحانه ـ لم يزل ملكاً ربًّا؛ غفوراً رحيماً محسناً؛ قادراً، لا يُعجزه الفعل؛ ولا يمتنع عليه، وكيف لا تجد ما خالف ذلك: مُخالفاً لصريح العقل؟)[7].

* ودلالة النقول الصحيحة القويمة والعقول الصريحة المستقيمة على قيام صفات الله الثبوتية بذاته المقدسة؛ وتعلُّقها بأفعاله المحكمة: متضمنٌ لأمورٍ عدةٍ؛ قرَّر منها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ما يأتي:

١ ـ أن الربَّ ـ تبارك وتعالى ـ مجيدٌ؛ لكثرة أوصاف كماله؛ وكثرة أفعال الخير الصادرة عنه، كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى بقوله: (وصف نفسه بالمجيد، وهو: المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها؛ وعدم إحصاء الخلق لها؛ وسعة أفعاله وكثرة خيره ودوامه، وأما من ليس له صفات

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٨، سورة النحل: الآية ٣٣.
(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «أنا سيد الناس يوم القيامة».
(٤) سورة الفاتحة: الآية ٢.
(٥) تقدم تخريجه، وأوله: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين».
(٦) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٦.
(٧) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٢٤.

كمالٍ ولا أفعال حميدة: فليس له من المجد شيءٌ.

والمخلوق إنما يصير مجيداً: بأوصافه وأفعاله، فكيف يكون الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ مجيداً؛ وهو مُعطَّلٌ عن الأوصاف والأفعال؟ ـ تعالى الله عما يقول المعطلون علواً كبيراً ـ ، بل هو: المجيد الفعَّال لما يُريد.

والمجد في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال؛ وكثرة أفعال الخير)[1].

٢ ـ أن قيام الصفات الثبوتية بذات الله المقدسة وبأفعاله المحكمة مستوجبٌ لحمده، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الربَّ ـ سبحانه ـ له الكمال المطلق الذي يستحقُّ عليه الحمد ـ سبحانه ـ ، لا يصدر منه إلا ما يُحمد عليه.

وحمد الله على نوعين: حمداً يستحقه لذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وحمداً يستحقه على أفعاله؛ التي مدارها على الحكمة والمصلحة والعدل والإحسان والرحمة.

فإذا كان محموداً على أفعاله كلِّها: لم يكن فيها منافٍ للحكمة، إذ لو كان فيها ما هو كذلك: لم يكن محموداً عليه، وهو ـ سبحانه ـ له الملك وله الحمد، فحمده شاملٌ لما شمله ملكه، ولا يخرج شيءٌ عن حمده؛ كما لا يخرج شيءٌ عن ملكه)[2].

٣ ـ أن عناية الله تعالى بمخلوقاته ثابتة، إذ لا يُتصوَّر وجود هذه العناية إلا مِنْ قِبَلِ من قامت به هذه الصفات الذاتية والفعلية، لأن وجودها مع انتفائها: ممتنعٌ، كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن العناية

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص١٢٥.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠.

الإلـٰهية تقتضي: حياته وقدرته ومشيئته وعلمه وحكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه؛ وقيام الأفعال به[1]، فإثبات العناية الإلـٰهية مع نفي هذه الأمور: ممتنعٌ، وبالله التوفيق)[2].

٤ ـ أن للصفات الفعلية حرمةً نظير حرمة الصفات الذاتية، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (تعطيل الربِّ ـ سبحانه ـ عن فعله القائم به: كتعطيله عن صفاته القائمة به)[3].

٥ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ (مُنزَّهٌ عن مشابهة خلقه في شيءٍ من)[4] صفاته الفعلية: كما أنه مُنزَّهٌ عن مشابهتم في شيءٍ من صفاته الذاتية، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الله تعالى كما لا يُقاس بعباده في أفعاله: لا يُقاس بهم في ذاته وصفاته، فليس كمثله شيء في ذاته؛ ولا في صفاته؛ ولا في أفعاله)[5].

* وقد أَوْلَى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ صفات الله تعالى الذاتية اهتماماً بالغاً؛ وجهداً فائقاً، حيث قرَّر بعض ما تختصُّ به هذه الصفات، فمن ذلك:

١ ـ أن الصفات الذاتية تختصُّ بخصيصةٍ تُظهر عظيم قدرها وتُبرز جسيم خطرها؛ ألا وهي: خصيصة الدَّوام، فهذه الصفات لا تنفكُّ أبداً عن

---

(١) وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى؛ وأن عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ تقتضي ثبوت صفاته الذاتية والفعلية في: التبيان في أقسام القرآن ص٤١.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٣٣٨.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٤٤٧.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٤٤.

(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٣/ ١٤.

الـذات؛ بـل هـي دائمـةٌ بـدوامهـا الـذي لا يحـول ولا يـزول، وقـد قـرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]. ثم عقَّبه بأن هذا الحمد ثابتٌ له في الآخرة؛ غيرُ منقطعٍ أبداً، فإنه حمدٌ يستحقُّه لذاته وكمال أوصافه، وما يستحقُّه لذاته: دائمٌ بدوامه؛ لا يزول أبداً)[2].

٢ ـ أن الصفات الذاتية منها ما له تعلُّق بالمخلوقين، ومنها ما لا تعلُّق له بهم، كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الصفات نوعان:

أحدهما: ما له تعلُّقٌ بالمخلوق؛ كالقدرة والمشيئة والرحمة والعلم والسمع والبصر.

والثاني: ما لا يتعلَّقُ به؛ كالصفات اللازمة، كالحياة والجمال.

وإثبات النوعين يستلزم المُباينة، أما النوع الأول: فلأن تعلُّق تلك الصفـات بمتعلَّقـاتهـا لا تُعقـل إلا مـع ثبـوت المُبـاينـة بينهمـا وبيـن تلـك المتعلَّقـات، كمبـاينـة العلـم للمعلـوم؛ والقـدرة للمقـدور؛ والسمـع للمسموع.

فلو قيل: صفة السمع ليست مُباينة للمسموع: كان مكابرة؛ ورداً لأوائل العقول وبدائهها، وإذا لزم من تحقُّق الصفة وإمكان تعلُّقها بمتعلَّقها مباينتها له: فهذه المباينة تابعة لمباينة الذات، فإن الصفة لا تقوم بنفسها، فـإذا بـايـن العلـم والسمـع والبصـر والقـدرة والإرادة لمتعلَّقـاتهـا ـ بمعنى انفصالها عنه ـ: فمباينة الذات أولى.

---

(١) سورة سبأ: الآية ١.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٧٣.

وهذا لا محيص عنه، ويلزم من ثبوت هذه المُباينة: ثبوتها بين النوع الآخر وبين المخلوق بطريق الأولى)[1].

* ومن تمام عناية الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بتقرير صفات الله الذاتية: تعداده لها في مواطن كثيرة؛ ومواضع وفيرة، وبيانه أنها صفاتٌ لا تنفكُّ بحالٍ من الأحوال عن الذات المقدَّسة، ومن تلك الصفات الذاتية التي اعتنى بذكرها:

١ ـ صفات الكمال والجمال والجلال والبهاء والعِزَّة والعظمة والكبرياء والحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والمشيئة والرحمة والغنى والجود والإحسان والبِرِّ، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفات بقوله: (إنه ـ سبحانه ـ الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكلِّ كمالٍ؛ المُنزَّه عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، فالكمال كلُّه والجمال والجلال والبهاء والعزة والعظمة والكبرياء كلُّه من لوازم ذاته؛ يستحيل أن يكون على غير ذلك.

فالحياة كلُّها له؛ والعلم كلُّه له؛ والقدرة كلُّها له؛ والسمع والبصر والإرادة والمشيئة والرحمة والغنى والجود والإحسان والبر كلُّه خاصٌّ له قائمٌ به، وما خفي على الخلق من كماله: أعظم وأعظم مما عرفوه منه؛ بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه)[2].

٢ ـ صفة القيومية، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفة ـ إضافة إلى صفة الغنى المتقدمة الذكر ـ بقوله: (إن القيام بالنفس: صفة كمال، فالقائم بنفسه أكمل ممن لا يقوم بنفسه، ومن كان غناه من لوازم

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣٥.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٨٦.

ذاته: فقيامه بنفسه من لوازم ذاته، وهذه حقيقة قيوميته ــ سبحانه ــ؛ وهو الحي القيوم)[1].

٣ ــ صفة الكلام، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفة ــ إضافة إلى بعض الصفات المتقدمة الذكر ــ بقوله: (إن كلمة الله: كسمع الله وبصره وقدرته وحياته وعلمه وإرادته ومشيئته، كلٌّ ذلك للصفات القائمة به؛ لا للمخلوق المنفصل عنه)[2].

٤ ــ صفة الرِّضى، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفة ــ إضافة إلى صفة الرحمة المتقدمة الذكر ــ بقوله: (إن رضى الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ورحمته: صفتان ذاتيتان له، فلا مُنتهى لرضاه، بل كما قال أعلم الخلق به: «سبحان الله وبحمده عدد خلقه؛ ورضى نفسه؛ وزنة عرشه؛ ومداد كلماته»[3].

فإذا كانت رحمته غلبت غضبه: فإن رضى نفسه أعلى وأعظم، فإن رضوانه أكثر من الجنات ونعيمها وكلِّ ما فيها، وقد أخبر أهلَ الجنة أنه يُحِلُّ عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبداً)[4].

٥ ــ صفة الحلم، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفة بقوله: (كونه حليماً من لوازم ذاته ــ سبحانه ــ).

ثم قال ــ رحمه الله تعالى ــ بعد ذكره لبعض موجبات هذه الصفة: (وهذا كله من موجبات صفة حلمه، وهي صفة ذاتية له؛ لا تزول)[5].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٣٢٨ ــ ١٣٢٩.

(٢) أحكام أهل الذمة ١/٣١٣.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «ما زلتِ على الحال التي فارقتكِ عليها».

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٢ ــ ٤٥٣.

(٥) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢١.

٦ ـ صفة الحكمة، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفة ـ إضافة إلى صفة العِزَّة المتقدمة الذكر ـ بقوله: (قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[1].

فأخبر عن عدم نفاد كلماته لعِزَّته وحكمته، وهذان وصفان ذاتيان له ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لا يكون إلا كذلك)[2].

٧ ـ صفة النور، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفة بقوله: (القرآن والسنة وأقوال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ متطابقةٌ؛ يُوافق بعضُها بعضاً، وتُصَرِّح بالفرق الذي بين النور الذي هو صفته؛ والنور الذي هو خَلْقٌ من خلقه، كما تُفَرِّق بين الرحمة التي هي صفته؛ والرحمة التي هي مخلوقةٌ، ولكن لما وُجدت في رحمته: سُمِّيت برحمته.

وكما أنه لا يُماثَل في صفةٍ من صفات خلقه: فكذلك نوره ـ سبحانه ـ ، فأيُّ نورٍ من الأنوار المخلوقة إذا ظهر للعالم وواجهه: أحرقه؟ وأيُّ نورٍ إذا ظهر منه للجبال الشامخة قدراً ما: جعلها دكاً؟

وإذا كانت أنوار الحجب لو دنا جبرائيل من أدناها لاحترق؛ فما الظنُّ بنور الذات؟)[3].

٨ ـ صفة الوجه، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفة بقوله: (قوله ـ عليه السلام ـ : «وأعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»[4].

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠١.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّهُمَّ إليك أشكو ضعف قوتي».

فأضاف النور إلى وجهه؛ والوجه إلى الذات، واستعاذ بنور الوجه الكريم، فعُلِمَ أن نوره صفة له؛ كما أن الوجه صفة ذاتية)[١].

٩ ــ صفة اليد، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفة بقوله: (إذا كانت السماوات مع عظمتها وسعتها يجعلها على أصبع من أصابعه، والأرض على أصبع، والجبال على أصبع، والبحار على أصبع. فما الظنُّ باليد الكريمة التي هي صفةٌ من صفات ذاته؟)[٢].

* وفيما يتعلَّق بالصفات الفعلية: نجد أن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ قد أَوْلَى تقريرها عناية بالغة؛ مبيناً عُلُوَّ منزلتها؛ ورفيع درجتها، فمن ذلك:

١ ــ أن قيام الصفات الفعلية بالله تعالى مقتضٍ لحمده، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إنه ــ سبحانه ــ يُحمد على أفعاله كما حَمِدَ نفسه عليها في كتابه، وحَمِدَه عليها رسله وملائكته والمؤمنون من عباده، فمن لا فعل له ألبتة: كيف يُحمد على ذلك؟

فالأفعال هي المقتضية للحمد، ولهذا نجده مقروناً بها، كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[٣]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾[٤]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٥]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٦])[٧].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٠.
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٨٣.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٤٣.
(٥) سورة الكهف: الآية ١.
(٦) سورة فاطر: الآية ١.
(٧) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٢٢ ــ ١٢٢٣.

٢ ــ أن قيام الصفات الفعلية بالله تعالى دليلٌ على اتصافه ــ سبحانه وتعالى ــ بالكمال، وأنه يفعل ما يشاء؛ ويحكم ما يريد، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (لم يزل الربُّ ــ سبحانه تعالى ــ فعَّالاً لما يُريد، ولم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال؛ منعوتاً بنعوت الجلال.

وليس المُتمكِّن من الفعل كلَّ وقتٍ كالذي لا يُمكنه الفعل إلا في وقتٍ معينٍ، وليس من يخلق كمن لا يخلق؛ ومن يُحسن كمن لا يُحسن؛ ومن يُدبِّر الأمر كمن لا يُدبِّر.

وأيُّ كمالٍ في أن يكون ربُّ العالمين مُعطَّلاً عن الفعل في مُدَّةٍ مُقدَّرةٍ أو مُحقَّقةٍ لا تتناهى؛ يستحيل منه الفعل، وحقيقة ذلك أنه لا يقدر عليه)[١].

٣ ــ أن صفات الله الفعلية حصلت عن كماله، لأنه كاملٌ بذاته وصفاته، فأفعاله صادرةٌ عن كماله، فالربُّ ــ تبارك وتعالى ــ كمل ففعل، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن أفعال الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ صادرةٌ عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرةٌ عن أفعالهم، فالربُّ ــ تبارك وتعالى ــ فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالربُّ لم يزل كاملاً، فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كاملٌ بذاته وصفاته، فأفعاله صادرةٌ عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل ــ الكمال اللائق به ــ[٢])[٣].

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٣٢.

(٢) وقد تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن أفعال الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ صادرة عن كماله في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٥٦٣ ــ ١٥٦٥، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/٤٥٧.

(٣) بدائع الفوائد ١/١٤٧.

٤ ــ أن الصفات الفعلية مختصةٌ بالربوبية، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (صفات الفعل والقدرة والتفرُّد بالضرِّ والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة: أخصُّ باسم الربِّ)[١].

٥ ــ أن الصفات الفعلية لازمةٌ لحياة الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ ، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (من لوازم الحياة: الفعل الاختياريَّ[٢]، فإن كلَّ حيٍّ فعالٌ، وصدور الفعل عن الحيِّ بحسب كمال حياته ونقصها، وكلُّ من كانت حياته أكمل من غيره: كان فعله أقوى وأكمل؛ وكذلك قدرته، ولذلك كان الربُّ ــ سبحانه ــ على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ وهو فعَّالٌ لما يُريد.

وقد ذكر البخاري في كتاب (خلق الأفعال) عن نعيم بن حماد أنه قال: (الحيُّ: هو الفعَّال)[٣].

وكلُّ حيٍّ فعالٌ، فلا فرق بين الحي والميت إلا بالفعل والشعور)[٤].

٦ ــ أن الصفات الفعلية متعلِّقةٌ بصفة القيومية، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك عند ذكر ما يشهده العبد من صفة القيومية؛ فقال: (إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال[٥]، وأنه قائمٌ على كلِّ شيءٍ؛ وقائمٌ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٢.

(٢) وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن الفعل الاختياريَّ لازمٌ للحياة في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٩ ــ ٤٠.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٣١.

(٥) وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن صفة =

على كلِّ نفسٍ؛ وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره؛ القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره، وإيصال جزاء المحسن إليه؛ وجزاء المسيء إليه؛ وأنه بكمال قيوميته: «لا ينام؛ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار؛ وعمل النهار قبل الليل»[1]. ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[2]. ولا يضل ولا ينسى.

وهذا المشهد: من أرفع مشاهد العارفين؛ وهو مشهد الربوبية، وأعلى منه: مشهد الإلـٰهية؛ الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو: شهادة أن لا إلـه إلا هو؛ وأن إلهية ما سواه باطل ومحال، كما أن ربوبية ما سواه كذلك)[3].

٧ ــ أن صفات الله الفعلية دائمةٌ، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (ليس في العقل ولا في الشرع ما ينفي دوام فاعلية الربِّ ــ سبحانه ــ، وتعاقب أفعاله شيئاً قبل شيء إلى غير غايةٍ؛ كما تتعاقب شيئاً بعد شيءٍ إلى غير غايةٍ، فلم تزل أفعالاً)[4].

٨ ــ أن الصفات الفعلية متضمنةٌ للحكمة والغايات المحمودة، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (ــ سبحانه ــ ليس فوقه من يسأله عما يفعله، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢

= القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال في: زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٢٠٤.

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام».

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٦ ــ ٨٧.

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٤٥٢ ــ ٤٥٣.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

فلم تكن الآية مسوقة لبيان أنه لا يفعل بحكمةٍ ولا لغايةٍ محمودةٍ مطلوبةٍ بالفعل، وأنه يفعل ما يفعله بلا حكمةٍ ولا سببٍ ولا غايةٍ، بل الآية دلَّت على نقيض ذلك، وأنه لا يُسأل عما يفعل لكمال حكمته وحمده، وأن أفعاله صادرةٌ عن تمام الحكمة والرحمة والمصلحة.

فكمال علمه وحكمته وربوبيته: يُنافي اعتراض المعترضين؛ وسؤال السائلين له)[2].

* وهناك ثمة ضوابط ولوازم مهمة تتعلَّق بصفات الله الفعلية، ينبغي على العبد مراعاتها؛ والإحاطة بها علماً، وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بذكر بعضها، فمن ذلك:

١ ـ أنَّ كلَّ ما صلح أن تتعلَّق به إرادة الله تعالى: جاز فعله، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إنَّ كلَّ ما صلح أن تتعلَّق به إرادته: جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا؛ وأن يجيء يوم القيامة لفَصْل القضاء؛ وأن يُري نفسه لعباده؛ وأن يتجلَّى لهم كيف شاء؛ وأن يُخاطبهم ويضحك إليهم؛ وغير ذلك مما يُريد ـ سبحانه ـ : لم يمتنع عليه فعله؛ فإنه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[3]، وإنما تتوقَّف صحة ذلك على إخبار الصادق به.

فإذا أخبر به: وجب التصديق به، وكان ردُّه رداً لكماله الذي أخبر به عن نفسه، وهذا عين الباطل، وكذلك إذا أمكن إرادته ـ سبحانه ـ محو ما

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٢١ ـ ٢٣.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٧.

(٣) سورة هود: الآية ١٠٧، سورة البروج: الآية ١٦.

شاء وإثبات ما شاء: أمكن فعله؛ وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس)[1].

٢ ـ أن ما كان من لوازم الصفات الفعلية: لم يجز نفيها عن الربِّ ـ سبحانه وتعالى ـ ، وما كان من خصائص الخلق لم يجز إثباتها في صفاته الفعلية، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (دلَّ القرآن والسنة والإجماع على أنه ـ سبحانه ـ يجيء يوم القيامة، وينزل لفصل القضاء بين عباده، ويأتي في ظللٍ من الغمام والملائكة، وينزل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا، وينزل عشية عرفة، وينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، وينزل إلى أهل الجنة.

وهذه أفعالٌ يفعلها بنفسه في هذه الأمكنة، فلا يجوز نفيها عنه؛ بنفي الحركة والنقلة المختصة بالمخلوقين، فإنها ليست من لوازم أفعاله المختصة به، فما كان من لوازم أفعاله: لم يجز نفيه عنه، وما كان من خصائص الخلق: لم يجز إثباته له)[2].

٣ ـ أن من لا يُقرُّ بأن لله ـ سبحانه وتعالى ـ صفاتِ أفعالٍ: فيلزمه نفي كون الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (في تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3]. قال: (الذين يقولون: إن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ)[4].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص١٢٨.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥١.

(٣) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٤) تقدم تخريجه.

وهذا من فقه ابن عباس؛ وعلمه بالتأويل؛ ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات، فإن أكثر أهل الكلام لا يُوفون هذه الجملة حقَّها؛ وإن كانوا يُقرُّون بها، فمنكروا القدر وخلق أفعال العباد: لا يُقرُّون بها على وجهها، ومنكروا أفعال الربِّ تعالى القائمة به: لا يُقرُّون بها على وجهها؛ بل يُصرِّحون أنه لا يقدر على فعلٍ يقوم به.

ومن لا يُقرُّ بأن الله ــ سبحانه ــ كلَّ يومٍ في شأن؛ يفعل ما يشاء: لا يُقِرُّ بأن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ومن لا يُقرُّ بأن قلوب العباد بين أُصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء، وأنه ــ سبحانه ــ مُقلِّب القلوب حقيقة، وأنه إن شاء أن يُقيم القلب أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه: لا يُقرُّ بأن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ومن لا يُقرُّ بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السماوات والأرض، وأنه ينزل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا يقول: من يسألني فأعطيه؛ من يستغفرني فأغفر له، وأنه نزل إلى الشجرة فكلَّم موسى كليمه منها، وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها، وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده، وأنه يتجلَّى لهم يضحك، وأنه يُريهم نفسه المقدسة، وأنه يضع رجله على النار فتضيق بأهلها وينزوي بعضها إلى بعض، إلى غير ذلك من شؤونه وأفعاله؛ التي مَنْ لم يُقر بها: لم يُقر بأنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

فيا لها كلمةً من حبر الأمة وترجمان القرآن ــ رضي الله عنه ــ[١].

* كما اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بذكر أمثلةٍ للصفات التي جاءت النصوص الشرعية بإثبات تعلُّقها بأفعال الله المحكمة، فمن تلك الصفات الفعلية:

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٣٠ ــ ١٣١.

١ ــ صفة الضحك؛ والمجيء والإتيان؛ والنزول والدُّنُوِّ، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفات بقوله: (قوله: «فيظلُّ يضحك»[١]: هو من صفات أفعاله ــ سبحانه وتعالى ــ التي لا يُشبهه فيها شيءٌ من مخلوقاته؛ كصفات ذاته.

وقد وردت هذه الصفة في أحاديث كثيرةٍ؛ لا سبيل إلى ردِّها، كما لا سبيل إلى تشبيهها وتحريفها.

وكذلك: «فأصبح ربك يطوف في الأرض»[٢]: هو من صفات فعله، كقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾[٣]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾[٤]، و «ينزل ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا»[٥]، و «يدنو عشية عرفة، فيباهي بأهل الموقف الملائكة»[٦].

والكلام في الجميع: صراطٌ واحدٌ مستقيمٌ، إثباتٌ بلا تمثيلٍ؛ وتنزيهٌ بلا تحريفٍ ولا تعطيلٍ)[٧].

٢ ــ صفتا النزول والاستواء، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هاتين الصفتين ــ إضافة إلى بعض الصفات المتقدمة الذكر ــ بقوله: (إن النزول

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «أيها الناس؛ ألا إني قد خبَّأتُ لكم صوتي».
(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «أيها الناس؛ ألا إني قد خبَّأتُ لكم صوتي».
(٣) سورة الفجر: الآية ٢٢.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥٨، سورة النحل: الآية ٣٣.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الحج/ باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة ــ الحديث رقم (١٣٤٨) ــ ٢/ ٩٨٢ ــ ٩٨٣] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ، وأوله: «ما من يومٍ أكثر من أن يعتق الله فيه».
(٧) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٧٩.

والمجيء والإتيان والاستواء والصعود والارتفاع: كلَّها أنواع أفعال، وهو الفعَّال لما يُريد، وأفعاله كصفاته قائمةٌ به، ولولا ذلك لم يكن فعَّالاً ولا موصوفاً بصفات كماله، فنزوله ومجيئه واستواؤه وارتفاعه وصعوده ونحو ذلك: كلُّها أفعالٌ من أفعاله)[1].

٣ ـ صفات الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفات؛ مبيِّناً أن أسماءها مما أُطلق على الله تعالى باعتبار فعله، فقال: (إن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو: الخالق والرازق؛ والمحيي والمميت)[2].

٤ ـ صفة العفو، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفة بقوله: (إن العفو من صفات الفعل القائمة به)[3].

٥ ـ صفتا الغضب والسخط، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هاتين الصفتين بقوله: (وأما غضبه ـ تبارك وتعالى ـ وسخطه: فليس من صفاته الذاتية التي يستحيل انفكاكه عنها؛ بحيث لم يزل ولا يزال غضبان، والناس لهم في صفة الغضب قولان:

أحدهما: أنه من صفاته الفعلية القائمة به؛ كسائر أفعاله.

والثاني: أنه صفة فعل منفصل عنه غير قائم به.

وعلى القولين: فليس كالحياة والعلم والقدرة؛ التي يستحيل مفارقتها له)[4].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٤٢٨ ـ ٤٢٩.
(٢) بدائع الفوائد ١/١٤٨.
(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٤٤.
(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٢ ـ ٤٥٣.

* وإن كانت بعض الصفات الثبوتية قد تعلَّقت بذات الله المُقدَّسة؛ وبعضها قد تعلَّقت بأفعال الله المحكمة: فإن بعضها ـ لعظيم شأنها؛ وعُلُوِّ قدرها ـ: قد تعلَّقت بذات الله المُقدَّسة وبأفعاله المحكمة، ومن تلك الصفات الذاتية الفعلية التي اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بذكرها:

١ ـ صفة الكلام، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفة بقوله: (قد دلَّ القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على: أن الله ـ سبحانه ـ يتكلم بمشيئته، كما دلَّ على أن كلامه: صفةٌ قائمةٌ بذاته، وهي صفةُ ذاتٍ؛ وفعالٍ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]. وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[2])[3].

٢ ـ صفة البركة، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفة بقوله: (تباركه ـ سبحانه ـ: وصف ذاتٍ له، وصفة فعلٍ)[4].

٣ ـ صفة السلام، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفة بقوله: (هو ـ سبحانه ـ سلامٌ في ذاته عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ يتخيَّله وَهْمٌ، وسلامٌ في صفاته من كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وسلامٌ في أفعاله من كلِّ عيبٍ ونقصٍ وشرٍّ وظلم وفعلٍ واقعٍ على غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحقُّ من كلِّ وجهٍ؛ وبكلِّ اعتبارٍ)[5].

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٠.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٧٨.

(٤) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٣٥.

(٥) بدائع الفوائد ٢/ ١١٦ ـ ١١٧.

٤ ــ صفة الجمال، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفة بقوله: (جماله ــ سبحانه ــ على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء[١]، فأسماؤه كلُّها حسنى، وصفاته كلُّها صفات كمال، وأفعاله كلُّها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة، وأما جمال الذات وما هو عليه: فأمرٌ لا يُدركه سواه؛ ولا يعلمه غيره، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرَّف بها إلى من أكرمه من عباده، فإن ذلك الجمال مصونٌ عن الأغيار؛ محجوبٌ بستر الرداء والإزار، كما قال رسوله ﷺ فيما يحكي عنه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»[٢])[٣].

٥ ــ صفة الطيب، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفة بقوله: (قوله: «والطيبات»[٤]: هي صفة الموصوف المحذوف، أي: الطيبات من الكلمات والأفعال والصفات والأسماء لله وحده، فهو طيِّبٌ، وأفعاله طيِّبةٌ، وصفاته أطيب شيء، وأسماؤه أطيب الأسماء، واسمه الطيِّب، ولا يصدر عنه إلا طيِّبٌ، ولا يصعد إليه إلا طيِّبٌ، ولا يقرب منه إلا طيِّبٌ، وإليه يصعد الكلم الطيِّب، وفعله طيِّبٌ، والعمل الطيِّب يعرج إليه، فالطيِّبات كلُّها له؛ ومضافةٌ إليه؛ وصادرةٌ عنه؛ ومنتهيةٌ إليه، قال النبي ﷺ: «إنَّ اللَّهَ طيِّب لا يقبل إلا طيِّباً»[٥])[٦].

---

(١) وقد تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن مراتب جمال الله ــ سبحانه وتعالى ــ أربعةٌ في: روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٤٢٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٠٠.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي».

(٣) الفوائد ص٢٠٢ ــ ٢٠٣.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله هو السلام».

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) الصلاة ص١٨٣.

فهذا ما يتعلَّق بتقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ للصفات الثبوتية[1]؛ وأنها تنقسم باعتبار تعلُّقها بذات الله المقدَّسة

---

(١) اطرد كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في المواطن التي ذكر فيها صفات الله تعالى الثبوتية إلى تقسيمها إلى قسمة ثنائية: صفاتٍ ذاتيةٍ وصفاتٍ فعليةٍ، إلا في موطنٍ واحد؛ حيث ذكر معها الصفات المعنوية، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٨٦] في بيان ما أنكره المُتكلِّمون من صفات الله العلى: (أنكروا عُلُوَّه على عرشه، وتكلُّمه بالقرآن؛ وتكليمه لموسى، ورؤيته بالأبصار في الآخرة، ونزوله إلى سماء الدنيا كلَّ ليلةٍ، ومجيئه لفصل القضاء بين الخلائق، وغضبه ذلك اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله؛ ولن يغضب بعده مثله، وجميع ما وصف به نفسه من وصفٍ ذاتيٍّ أو معنويٍّ أو فعليٍّ).

وهذا الموطن المتضمن للقسمة الثلاثية محتملٌ ــ فيما ظهر لي ــ لأمرين:

الأمر الأول: أن هذا التقسيم لفظيٌّ، لأن الصفات المعنوية مندرجةٌ تحت الصفات الذاتية؛ وذلك بالنظر إلى تقسيم صفات الله تعالى الثبوتية باعتبار تعلُّقها بذاته المقدَّسة وأفعاله المحكمة.

يدلُّ على ذلك: أن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذكر الصفات المعنوية ــ في موطنٍ ثانٍ لا ثالث له ــ ضمن أقسام ما يجري صفة أو خبراً على الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ فقال في [بدائع الفوائد ١/ ١٤٤]: (صفات معنوية، كالعليم والقدير والسميع).

ومعلومٌ: أن صفة العلم والقدرة والسمع من الصفات التي لا تنفكُّ ــ بحالٍ من الأحوال ــ عن ذات الله المُقدسة.

الأمر الثاني ــ وهو الأقرب إلى سياق الكلام ــ : أن هذا التقسيم مُحدثٌ من قبل طوائف المتكلمين، وأن ذِكْرَ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ له في هذا الموطن إنما جاء في سياق ذكره لإنكار المتكلمين لصفات الله العلى؛ وذكره لتقسيمهم لها. =

. . . .

= يدلُّ على ذلك: أن شيخ الإسلام ذكر في [قاعدة شريفة؛ وهي: أن جميع ما يحتجُّ به المُبطل من الأدلة الشرعية والعقلية إنما تدلُّ على الحقِّ لا تدلُّ على قول المُبطل: ٦/ ٣١٧] تقسيم فريقي المعتزلة والأشعرية للصفات؛ فقال: (والفريقان يُقسِّمون الصفات إلى ذاتيةٍ وفعليةٍ، أو ذاتيةٍ ومعنويةٍ وفعليةٍ؛ وهو مغلطةٌ) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

وقد بيَّن الأمين الشنقيطي في [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٢/ ٢٧٧] وجه غلطهم؛ فقال: (وأما الصفات المعنوية عندهم: فهي الأوصاف المُشتقَّة من صفات المعاني السبع المذكورة؛ وهي كونه تعالى: قادراً مريداً؛ عالماً حياً؛ سميعاً بصيراً متكلماً.

والتحقيق: أنها عبارة عن كيفية الاتصاف بالمعاني.

وعدُّ المتكلمين لها ــ صفاتٍ زائدةً على صفات المعاني ــ: مبنيٌّ على ما يُسمُّونه: الحال المعنوية، زاعمين أنها أمرُ ثبوتٍ ليس بموجود؛ ولا معدومٍ.

والتحقيق ــ الذي لا شكَّ فيه ــ: أن هذا الذي يُسمونه الحال المعنوية لا أصل له؛ وإنما هو مطلق تخييلات يتخيَّلونها، لأن العقل الصحيح حاكمٌ حكماً لا يتطرَّقه شكٌّ بأنه: لا واسطة بين النقيضين ألبتة، فالعقلاء كافة مُطبقون على أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ ولا واسطة بينهما ألبتة، فكلُّ ما هو غير موجودٍ: فإنه معدومٌ قطعاً، وكلُّ ما هو غير معدومٍ: فإنه موجودٌ قطعاً.

وهذا مما لا شكَّ فيه كما ترى.

وقد بينا في اتصاف الخالق والمخلوق بالمعاني المذكورة: منافاة صفة الخالق للمخلوق.

وبه تعلم مثله في الاتصاف بالمعنوية المذكورة؛ لو فرضنا أنها صفات زائدة على صفات المعاني، مع أن التحقيق: أنها عبارة عن كيفية الاتصاف بها).

وأفعاله المحكمة إلى: صفاتٍ ذاتيةٍ[1]؛ وصفاتٍ فعليةٍ[2].

❑ ❑ ❑

---

(1) انظر: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣٤١؛ ٢/ ٣٧٠، بدائع الفوائد ١/ ١٤٤؛ ١٤٨، التبيان في أقسام القرآن ص٣٢٥، الداء والدواء ص١٣٣؛ ٢١٢، الروح ص٢٦٨؛ ٣٦١، زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ١٥، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٨٧؛ ٢/ ٤٥٤؛ ٥٧٠؛ ٥٨٨؛ ٥٩٧؛ ٦٨٧، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٧؛ ٨٤؛ ١١٦ ـ ١١٧؛ ٥١٥، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٣٦٦؛ ٤٢٣، الفوائد ص١٤٠ ـ ١٤١، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٢٨٤، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٤٩؛ ٢٥٩؛ ٢/ ٣٩٦؛ ٤٢٨؛ ٤٦٠؛ ٥٠٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٣؛ ٤٧٣؛ ٣/ ١٥٦؛ ٢٢٥؛ ٢٦٠؛ ٣٠٠؛ ٣٦٢؛ ٣٧٩؛ ٤٢٤، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٥٠٥.

(2) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٤، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ٣٧٠، الروح ص٢٩١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠١٠؛ ٤/ ١٤٩٤، ومختصره ١/ ٢٢٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٢٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧٦؛ ٢٨٠؛ ٣/ ١٥٨؛ ٣٧١.

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير أن الصفات تنقسم باعتبار تعلُّقها بأدلة ثبوتها إلى: صفات سمعية عقلية وصفات سمعية خبرية

إنَّ الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ قد اجتهد في تقرير أقسام صفات الله العلى؛ مبيناً أنها تنقسم باعتبار ثبوتها المتعلِّق بذات الله المقدَّسة وأفعاله المحكمة إلى: صفاتٍ سمعيةٍ عقليةٍ؛ دلَّت النصوص الشرعية على وجوب ثبوتها لله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ مع استقلال البراهين العقلية بالدلالة عليها، كما أنها تنقسم إلى: صفاتٍ سمعيةٍ خبريةٍ؛ دلَّت النصوص الشرعية على وجوب ثبوتها لله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ دون استقلال البراهين العقلية بالدلالة عليها.

وقد جاءت الأدلة الثبوتية متضمنة لنوعين من الدلالة: نوعٍ دلَّ على إثبات صفات الله الذاتية والفعلية ـ إضافة إلى دلالة السمع ـ بالدليل العقليِّ؛ فهو سمعيٌّ عقليٌّ، ونوعٍ دلَّ على إثبات هذه الصفات بمجرَّد الخبر؛ فهو سمعيٌّ خبريٌّ، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ نوعي الدلالة بقوله: (إن الأدلة السمعية نوعان:

نوعٌ دلَّ بطريق التنبيه والإرشاد على الدليل العقليِّ، فهو عقليٌّ سمعيٌّ، ومن هذا غالب أدلة النبوة والمعاد والصفات والتوحيد ـ ما تقدَّم التنبيه على اليسير جدًّا منه ـ.

وإذا تدبَّرت القرآن: رأيت هذا أغلب النوعين عليه، وهذا النوع يمتنع أن يقوم دليلٌ صحيحٌ على معارضته؛ لاستلزامه مدلوله، وانتقال الذهن فيه من الدليل إلى المدلول: ضروريٌّ، وهو أصلٌ للنوع الثاني الدالِّ بمُجرَّد الخبر.

فالقدح في النوعين بالعقل: ممتنعٌ بالضرورة، أما الأول: فَلِمَا تقدَّم، وأما الثاني: فلاستلزام القدح فيه: القدح في العقل الذي أثبته، وإذا بطل العقل الذي أثبت السمع: بطل ما عارضه من العقليات)[1].

إذاً فالصفات الثبوتية: منها ما يتعاضد على إثباته الأدلة السمعية والأدلة العقلية؛ وهي: الصفات السمعية العقلية، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (العقلُ الصريحُ يُصدِّق السمعَ الدالَّ على إثبات صفات الربِّ ــ سبحانه ــ ومُباينته لمخلوقاته، والعقل أثبت موجوداً واجباً بنفسه؛ غنياً عما سواه، وأما كون ذلك الموجود مُجرَّداً عن الصفات الثبوتية؛ لا يُوصف إلا بالسلوب والإضافات العدمية: فالعقل لا يدلُّ على ذلك؛ بل يدلُّ على خلافه كما يدلُّ السمع)[2].

ومنها صفاتٌ خبريةٌ؛ لم يستقل الدليل العقليُّ بإثباتها، وهذه الصفات تثبت من وجَهْيْ: السمع؛ ولوازم الكمال المطلق، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذين الوجهين بقوله: (في إثبات صفة الرحمة له: ما يتضمن إثبات الصفات التي تستلزم من الحياة والإرادة والقدرة والسمع والبصر وغيرها، وكذلك صفة الربوبية: تستلزم جميع صفات الفعل، وصفة الإلـٰهية: تسلتزم جميع أوصاف الكمال ذاتاً وأفعالاً كما تقدم بيانه.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٠٨ ــ ٩٠٩.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣٧.

فكونه محموداً إلـٰهاً ربًّا رحماناً رحيماً ملكاً؛ معبوداً مستعاناً هادياً منعماً؛ يرضى ويغضب مع نفي قيام الصفات به: جَمْعٌ بين النقيضين، وهو من أمحل المحال، وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين:

أحدهما: أنها من لوازم كماله المطلق، فإن استواءه على عرشه: من لوازم عُلُوِّه، ونزوله كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا في نصف الليل الثاني: من لوازم رحمته وربوبيته، وهكذا سائر الصفات الخبرية.

الوجه الثاني: أنَّ السمع ورد بها ثناء على الله ومدحاً له؛ وتعرُّفاً منه إلى عباده بها، فجَحْدُها وتحريفها عما دلَّت عليه؛ وعما أُريد بها: مُناقضٌ لما جاءت به.

فَلَكَ أن تستدلَّ بطريق السمع على أنها كمالٌ، وأن تستدلَّ بالعقل كما تقدم)[1].

وعليه؛ فجميع صفات الله العلى قد دلَّ عليها العقل الصريح المستقيم؛ الموافق للنقل الصحيح القويم، حتى الصفات السمعية الخبرية: قد دلَّ عليها العقل، وإنما فارقت الصفات السمعية العقلية في: أن العقل لم يستقل بإثبات الصفات السمعية الخبرية؛ كما استقلَّ بإثبات الصفات السمعية العقلية، فلا يُوجد كتابٌ (قد تضمن من البراهين والأدلة العقلية على هذه المطالب ما تضمنه القرآن، فأدلته: لفظيةٌ عقليةٌ)[2]، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إنه ليس في القرآن صفةٌ: إلا وقد دلَّ العقل الصريح على إثباتها لله، فقد تواطأ عليها دليل العقل ودليل السمع، فلا يُمكن أن

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧٥ ــ ٧٦.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٩٤.

يُعارض بثبوتها دليلٌ صحيحٌ ألبتة؛ لا عقليٌّ ولا سمعيٌّ.

بل إن كان المُعارِض سمعياً: كان كذباً مُفترىً؛ أو مما أخطأ المُعارِض في فهمه، وإن كان عقلياً: فهو شبهٌ خياليةٌ وهميةٌ؛ لا دليلٌ عقليٌّ برهانيٌّ.

واعْلَم أن هذه دعوى عظيمةٌ؛ يُنكرها كلُّ جهميٍّ ونافٍ وفيلسوفٍ وقرمطيٍّ وباطنيٍّ، ويعرفها من نوَّر الله قلبه بنور الإيمان؛ وباشر قلبَه معرفةُ الذي دعت إليه الرسل وأقرَّت به الفطر؛ وشهدت به العقول الصحيحة المستقيمة؛ لا المنكوسة الموكوسة التي نكست قلوب أصحابها؛ فرأت الحقَّ باطلاً والباطل حقًّا؛ والهدى ضلالة والضلالة هدى.

وقد نبَّه الله ـ سبحانه ـ في كتابه على ذلك؛ وأرشد إليه، ودلَّ عليه في غير موضعٍ منه، وبيَّن أن ما وصف به نفسه: هو الكمال الذي لا يستحقُّه سواه، فجاحده: جاحدٌ لكمال الربِّ)[1].

وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ في موطنٍ لاحقٍ بعض ما نبَّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه في كتابه؛ وأرشد إليه من إثبات صفاته الذاتية والفعلية بطريق المعقول؛ فقال: (قد نبَّه ـ سبحانه ـ على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول، فاستيقظت لتنبيهه العقول الحيَّة، واستمرَّت على رقدتها العقول الميتة، فقال الله تعالى في صفة العلم: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[2]. فتأمَّل صحة هذا الدليل؛ مع غاية إيجاز لفظه واختصاره.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/٩٠٩.

(٢) سورة الملك: الآية ١٤.

وقال ـــ سبحانه ـــ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾[1]. فما أصحَّ هذا الدليل؛ وما أوجزه.

وقال تعالى في صفة الكلام: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾[2]. نبَّه بهذا الدليل على أن من لا يُكلِّم ولا يهدي: لا يصلح أن يكون إلـٰهاً.

وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾[3]. فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم؛ وعدم ملك الضرِّ والنفع: دليلاً على عدم الإلـٰهية، وهذا دليلٌ عقليٌّ سمعيٌّ على أن الإلـٰه: لا بُدَّ أن يُكلِّم ويتكلَّم، ويملك لعابده الضرَّ والنفع؛ وإلا لم يكن إلـٰهاً.

وقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[4]. نبَّهك بهذا الدليل العقليِّ القاطع: أن الذي جعلك تُبصر وتتكلَّم وتعلم: أولى أن يكون بصيراً مُتكلِّماً عالماً، فأيُّ دليلٍ عقليٍّ قطعيٍّ أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى المعقول؟

وقال تعالى في آلهة المشركين المُعطِّلين: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[5]. فجعل ـــ سبحانه ـــ عدم البطش والمشي والسمع والبصر: دليلاً على عدم إلهية من عُدِمَتْ فيه هذه الصفات، فالبطش والمشي: من أنواع الأفعال،

---

(١) سورة النحل: الآية ١٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

(٣) سورة طه: الآية ٨٩.

(٤) سورة البلد: الآيات ٨ ـــ ١٠.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٩٥.

والسمع والبصر: من أنواع الصفات، وقد وصف نفسه ـ سبحانه ـ بضدِّ صفة أربابهم؛ وبضدِّ ما وصفه به المعطلة والجهمية، فوصف نفسه بالسمع والبصر؛ والفعل باليدين والمجيء والإتيان، وذلك ضدُّ صفات الأصنام؛ التي جعل امتناع هذه الصفات عليها مُنافياً لإلـٰهيتها.

فتأمَّل آيات التوحيد والصفات في القرآن ـ على كثرتها وتفننها واتساعها وتنوعها ـ ؛ كيف تجدها كلَّها قد أثبتت الكمال للموصوف بها؛ وأنه المُتفرِّد بذلك الكمال؟ فليس له فيه شبهٌ ولا مثالٌ.

وأيُّ دليلٍ في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومُدبِّره؛ وملك السماوات والأرض وقيومها؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع أنواع الكمال له؛ فأيُّ قضيةٍ تصحُّ في العقل بعد هذا؟

ومن شكَّ في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضا والفرح والرحمة والرأفة كمالٌ: فهو ممن سُلِبَ خاصَّة الإنسانية؛ وانسلخ من العقل، بل من شكَّ أن إثبات الوجه واليدين؛ وما أثبته لنفسه معهما كمالٌ: فهو مؤوفٌ مُصابٌ في عقله.

ومن شكَّ أن كونه يفعل باختياره ما يشاء؛ ويتكلَّم إذا شاء؛ وينزل إلى حيث شاء؛ ويجيء إلى حيث شاء كمالٌ: فهو جاهل بالكمال، والجامد عنده أكمل من الحيِّ الذي تقوم به الأفعال الاختيارية، كما أن عند شقيقه الجهميِّ: أن الفاقد لصفات الكمال أكمل من الموصوف بها، كما أن عند أستاذهما وشيخهما الفيلسوف: أن من لا يسمع ولا يُبصر ولا يعلم؛ ولا له حياة ولا قدرة ولا إرادة ولا فعل ولا كلام؛ ولا يُرسل رسولاً ولا يُنزل كتاباً؛ ولا يتصرَّف في هذا العالم بتحويلٍ وتغييرٍ وإزالةٍ ونقلٍ وإماتةٍ وإحياءٍ: أكملَ ممن يتَّصف بذلك.

فهؤلاء كلُّهم قد خالفوا صريح المعقول؛ وسلبوا الكمال عمَّن هو أحقُّ بالكمال من كلِّ ما سواه، ولم يكفهم ذلك حتى جعلوا الكمال نقصاً؛ وعدمه كمالاً، فعكسوا الأمر؛ وقلبوا الفطر؛ وأفسدوا العقول.

فتأمَّل شبههم الباطلة؛ وخيالاتهم الفاسدة التي عارضوا بها الوحي، هل تُقاوم هذا الدليل الدالَّ على إثبات الصفات والأفعال للربِّ ــ سبحانه ــ؟ ثم اختر لنفسك بعدُ ما شئتَ.

وهذا قطرةٌ من بحرٍ؛ نبَّهنا به تنبيها يعلم به اللبيب ما وراءه، وإلا فلو أعطينا هذا الموضع حقَّه ــ وهيهات أن يصل إلى ذلك علمُنا أو قدرتُنا ــ لكتبنا فيه عِدَّة أسفارٍ، وكذا كلُّ وجهٍ من هذه الوجوه؛ فإنه لو بُسِطَ وفُصِّلَ: لاحتمل سفراً أو أكثر، والله المستعان، وبه التوفيق)[1].

وهناك ثمة فرقٌ بين أهل السنة والجماعة وبين أهل البدعة والشناعة في إثبات الصفات السمعية الخبرية، فأهل السنة والجماعة: هم أعظم الناس تعظيماً لهذه الأدلة؛ وإثباتاً لها، بخلاف أهل البدعة والشناعة؛ فإنهم أعظم الناس تحريفاً لهذه الأدلة؛ ونفياً لها، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ أهل السنة والجماعة بقوله: (أعظم الناس إثباتاً للصفات هم: أهل السنة والحديث؛ الذين يُثبتون لله الصفات الخبرية)[2].

كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ أهل البدعة والشناعة بقوله في الجواب في أنه لا يُمكن إثبات الصانع إلا بنوعٍ من التشبيه والتمثيل: (يقال: يالله العجب، هلا طردتم هذا الجواب وسلكتم هذا الطريق في إثبات عُلُوِّ الله

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٤ ــ ٩١٧.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٤٧.

على خلقه واستوائه على عرشه وإثبات صفات كماله كلِّها؛ وإثبات الصفات الخبرية كلِّها)[1].

وفي الختام: يحسن ذكر أمثلةٍ لتقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لبعض الصفات التي جاء بإثباتها النقل الصحيح؛ وصدَّقه العقل الصريح، فمن ذلك:

١ ـ صفات الحياة والعلم؛ والقدرة والإرادة؛ والسمع والبصر؛ والحكمة والرحمة؛ والرِّضى والغضب؛ والفرح والضحك؛ والعُلُوِّ، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفات بقوله: (إن كلَّ صفةٍ وَصَفَ الله بها نفسه ووصفه بها رسوله: فهي صفة كمال قطعاً، فلا يجوز تعطيل صفات كماله وتأويلها بما يبطل حقائقها.

فالدليل العقليُّ الذي دلَّ على ثبوت الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر: دلَّ نظيره على ثبوت الحكمة والرحمة والرضا والغضب والفرح والضحك، والذي دلَّ على أنه فاعلٌ بمشيئته واختياره: دلَّ على قيام أفعاله به، وذلك عين الكمال المقدس.

وكلُّ صفةٍ دلَّ عليها القرآن والسنة: فهي صفة كمال؛ والعقل جازمٌ بإثبات صفات الكمال للربِّ ـ سبحانه ـ، ويمتنع أن يصف نفسه؛ أو يصفه رسوله بصفة تُوْهِمُ نقصاً.

وهذا الدليل أيضاً أقوى من كلِّ شبهةٍ للنفاة، يُوضِّحه: أن أدلَّة مباينة الربِّ لخلقه وعُلُوِّه على جميع مخلوقاته: أدلَّةٌ عقليةٌ فطريةٌ؛ تُوجب العلم الضروريَّ بمدلولها، وأما السمعية: فتُقارب ألف دليلٍ)[2].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٢١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

٢ ــ صفتا الغنى والقيوميَّة، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هاتين الصفتين بقوله: (إنه قد دلَّ البرهان الضروريُّ والعقل الصريح على: استغنائه ــ سبحانه ــ بنفسه، وأنه الغنيُّ بذاته عن كلِّ ما سواه، فغناه من لوازم ذاته، ولا يكون غنياً على الإطلاق إلا إذا كان قائماً بنفسه، إذ القيام بالغير: يستلزم فقر القائم إلى ما قام به، وعدم القيام بالنفس وبالغير: يستلزم العدم، فصحَّ ضرورة وجوب قيامه بنفسه، وهذا حقيقة المباينة، ونفي المباينة والمداخلة: كنفي القيام بالنفس وبالغير، ولا تتصوَّر العقول قطُّ قائماً بنفسه مع قائم بنفسه؛ إلا إذا كان مُبايناً له أو مُحايثاً)[1].

٣ ــ صفتا السمع والبصر، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هاتين الصفتين بقوله: (إنه قد ثبت بالعقل والنقل والفطرة: أن الله ــ سبحانه ــ سميعٌ بصيرٌ، وهو ــ سبحانه ــ يرى كلَّ المرئيات؛ لا يخفى عليه منها شيءٌ)[2].

٤ ــ صفة الكلام، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفة بقوله: (يجد العقل الصريح أنا نشهد بما جاءت به الرسل: أن الله ــ سبحانه ــ تكلَّم بكلامٍ سمعه منه جبريل؛ وبلَّغه إلى من أُمِرَ بتبليغه، وكلَّم نبيه موسى، وكلَّم ملائكته بكلامٍ حقيقيٍّ سمعوه منه، وأنه يتكلَّم بمشيئته وإرادته.

وكلُّ قولٍ خالف هذا: فهو خلاف العقل الصريح؛ وإن زُخرفت له الألفاظ، ونُسجت له الشُّبه)[3].

٥ ــ صفات القوة والعِزَّة والجمال، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفات ــ إضافة إلى صفتي العلم والقدرة المتقدمتي الذكر ــ بقوله:

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣٤.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٢٤.

(إنه قد ثبت بالعقل الصريح والنقل الصحيح: ثبوت صفات الكمال للربِّ ــ سبحانه ــ ؛ وأنه أحقُّ بالكمال من كلِّ ما سواه، وأنه يجب أن تكون القوة كلُّها له؛ والعِزَّة كلُّها له؛ والعلم كلُّه له؛ والقدرة كلُّها له؛ والجمال كلُّه له؛ وكذلك سائر صفات الكمال)[1].

٦ ــ صفة الرؤية، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الصفة بقوله: (إنه قد ثبت بالعقل إمكان رؤيته ــ سبحانه ــ ؛ وبالشرع وقوعها في الدار الآخرة، فاتفق العقل والشرع على إمكان الرؤية ووقوعها)[2].

فهذا ما يتعلَّق بتقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لصفات الله العلى، وأن ما ثبت منها مما له تعلُّق بذات الله المقدَّسة أو أفعاله المحكمة ينقسم باعتبار تعلُّقه بأدلة ثبوته إلى: صفاتٍ سمعيةٍ خبريةٍ[3]؛ وصفاتٍ سمعيةٍ عقليةٍ[4].



(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٨٠ ــ ١٠٨١.
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣١ ــ ١٣٣٢.
(٣) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٠٣.
(٤) انظر: بدائع الفوائد ٢/ ٥، التبيان في أقسام القرآن ص٢٥؛ ٢٩٥، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٣٢، الروح ص٢٩١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٤٤٨؛ ٥٨٠؛ ٥٩٧، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٩؛ ٤٥٧ ــ ٤٦٠؛ ٧٩٣؛ ٣/ ٩٠٦؛ ١٠١٠؛ ٤/ ١٢٢٢؛ ١٢٤٣؛ ١٣٠٧؛ ١٣٣٧، ومختصره ٢/ ٣٩٥؛ ٤٢٨ ــ ٤٢٩؛ ٤٥١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٧١ ــ ٧٢؛ ٣/ ٢٠؛ ٣٧٢؛ ٣٨١.

المبحث الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير تعيين الصفات العلى وذكر أدلة ثبوتها وبيان معانيها

إنَّ باب صفات الله العلى: (بابٌ عزيزٌ من أبواب الإيمان؛ يفتحه الله على من يشاء من عباده، ويحرمه من يشاء)[1]، لذا كان الواجب على العبد أن يصرف همَّته إليه، وأن يُعنى عناية بالغة بتحقيق أصليه؛ وهما:

الأصل الأول: إثبات صفات الله العلى؛ إثباتاً بلا تمثيل؛ وتنزيهاً بلا تعطيل.

الأصل الثاني: معرفة معاني صفات الله العلى؛ معرفة صحيحه مقتبسة من مشكاة الوحي القويم؛ ومتلقاة من فهم أهل السنة والجماعة السليم، معرفة صحيحة تهدي العبد إلى صراط الله المستقيم، وتخرجه من الجهل الذميم؛ وتصرفه عن التعطيل الوخيم؛ وتبعده عن التمثيل السقيم.

فبتحقيق هذين الأصلين ـ علماً وعملاً ـ يُصبح العبد ـ بمشيئة الله تعالى ـ في هذا الباب: من أهل العرفان، فيستظلَّ بشجرة الإيمان؛ ويجني ثمرة الإحسان.

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٦٨.

فحُقَّ على كلِّ عبدٍ (كان في سعادة نفسه ساعياً؛ وكان قلبه حيًّا عن الله واعياً: أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله، وأن يُصيِّرها آخيَّته التي إليها مفزعه في حياته ومآله)[1].

كما أنَّ من الواجب على العبد أن يُعطي (هذا الموضع حقَّه من التأمُّل؛ فإنه مزلةُ أقدامٍ ومضلَّة أفهامٍ، ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم: لقلَّ الخلاف)[2] فيه والشقاق، ولحصلت فيه الألفة والوفاق.

وقد كانت للإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا الباب: عناية بالغة منقطعة النظير، حيث حرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ أَصْلَيْ هذا الباب أتمَّ تحريرٍ، وقرَّرهما (أحسن تقرير وأبينه وأبلغه، وأوصله إلى العقول والفطر)[3]؛ ــ كما سيمرُّ إن شاء الله تعالى (بك منها ما هو قُرَّة عينٍ لكلِّ موحِّدٍ؛ وسخنة عينٍ لكلِّ مُلحدٍ)[4]ــ .

وقد أشاد ــ رحمه الله تعالى ــ بأهمية هذا الباب؛ فقال: (إنه لا يستقرُّ للعبد قدمٌ في المعرفة؛ بل ولا في الإيمان: حتى يُؤمن بصفات الربِّ ــ جلَّ جلاله ــ ؛ ويعرفها معرفة تُخرجه عن حدِّ الجهل بربِّه.

فالإيمان بالصفات وتعرُّفها: هو أساس الإسلام؛ وقاعدة الإيمان؛ وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات: فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان؛ فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان.

وقد جعل الله ــ سبحانه ــ مُنكر صفاته: مُسيء الظنِّ به، وتوعَّده بما لم يتوعَّد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر، فقال تعالى:

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢١٥.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥٤.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٨١.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٩٢.

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

فأخبر ــ سبحانه ــ أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به، وأنه هو الذي أهلكهم، وقد قال في الظانين به ظن السوء: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾[2].

ولم يجيء مثل هذا الوعيد في غير من ظنَّ السوء به ــ سبحانه ــ، وجَحَدَ صفاته)[3].

وقد تضمن هذا المبحث: عِدَّة مطالبٍ، وقد سلكت في إبراز جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير تعيين الصفات العلى وذكر أدلة ثبوتها وبيان معانيها: مَسْلَكِي المُتقدِّم في أسماء الله الحسنى، حيث حوى كلُّ مطلبٍ منها: بعض صفات الله تعالى المتقاربة في المعنى.

وقد رأيتُ أن أبتدأ مطالب هذا المبحث: بذكر صفة: العُلُوِّ والفوقية، لأنه (ليس في الصفات الإلـهية أظهر من)[4] هذه الصفة العليَّة.

ثـم أُتبعهـا بـالصفـات العلـى الـدالَّـة عليهـا؛ والهـاديـة إليهـا، وهـي: الاستواء؛ ثم النزول؛ ثم المجيء والإتيان والمعية؛ ثم الرؤية؛ ثم الكلام.

ثم ألحقتُ بها: بعض الصفات الذاتية؛ وهي: الوجه؛ والعين؛ واليد؛ والرِّجْل.

---

(١) سورة فصلت: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.
(٢) سورة الفتح: الآية ٦.
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٦٣.
(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٧١.

ثم ختمتُ هذا المطلب بذكر بعض الصفات الفعلية؛ مبتدأ بالصفات الموجبة للرحمة ثم بالصفات الموجبة للغضب ــ لأن رحمة الله تعالى سبقت غضبه ــ ، وهذه الصفات هي: المحبة؛ والرِّضى؛ والفرح؛ والضَّحك، ثم يتبعها الصفات المقابلة لها في المعنى وهي: الغضب؛ والغيرة؛ والعتب؛ والكيد؛ والمكر؛ والخداع.

وثمة أمرٌ يحسن التنبيه عليه ــ قبل الشروع في ذكر مطالب هذا المبحث ــ ؛ وهو: أني استغنيتُ عن ذكر صفات الله العلى التي اشْتُقَّ لله ــ سبحانه وتعالى ــ منها أسماءٌ حسنى؛ كصفة الإلـٰهية؛ التي اشْتُقَّ لله ــ سبحانه وتعالى ــ منها اسم الجلالة: (الإلـٰه)، وصفة الربوبية؛ التي اشْتُقَّ لله ــ سبحانه وتعالى ــ منها اسم الجلالة: (الربُّ)، وصفة الرحمة؛ التي اشْتُقَّ لله ــ سبحانه وتعالى ــ منها اسم الجلالة: (الرحمن)، ونحوها من صفات الله العلى؛ اكتفاء بما تقدَّم مُستوفى في تقرير تعيين هذه الأسماء الحسنى وذكر أدلة ثبوتها وبيان معانيها، بما أغنى عن إعادتها؛ والإطالة بذكرها.



المطلب الأول:

جهوده في تقرير صفة الله تعالى: العُلُوِّ والفوقيَّة

تضمَّن هذا المطلب: صفة الكمال (العُلُوَّ والفوقيَّة)، وذكر بعض أدلة ثبوتها؛ وبيان بعض ما اشتملت عليه من المعاني.

ومسألة العُلُوِّ والفوقية: (مسألةٌ كبيرةٌ، عظيمة النفع؛ جليلة القدر)[1]، لذا كان (من المعلوم لكلِّ ذي حسٍّ سليمٍ؛ وعقلٍ مستقيمٍ: استفاضة)[2] الأدلة الشرعية القويمة؛ وتظافر القواطع العقلية المستقيمة؛ وتتابع البراهين الفطرية السليمة؛ وتواتر الإجماعات المعتبرة الحكيمة على عُلُوِّ الله المجيد؛ وفوقيَّته تعالى على العبيد.

وللإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مسألة العُلُوِّ والفوقية: جهودٌ مبرورةٌ؛ ومساعٍ مشكورةٌ؛ ضمَّنها في كلماته المسطورة، حيث تزيَّنت سماء هذه المسألة بنجوم تحريره؛ واستنارت ببدر تقريره.

وقد حكى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ الأنواع المتنوعة الدالَّة على مسألة عُلُوِّ الله تعالى على خلقه؛ والتي جاءت في سياق

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص٣.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٢٩.

النصوص الشرعيّة المحكمة من كتاب الله تعالى؛ وسنة نبيه ﷺ؛ فقال: (ردّ الجهمية النصوص المتنوعة المحكمة على عُلُوِّ الله على خلقه؛ وكونه فوق عباده من ثمانية عشر نوعاً)[1]:

---

(١) وقد ذكر الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن النصوص المحكمة الدالَّة على عُلُوِّ الله على خلقه؛ وكونه فوق عباده؛ واستوائه على عرشه: متنوعةٌ جداً؛ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (١١١٢ ــ ١٧٥٦) ــ ص١٠٣ ــ ١٤٧]، حيث عقد لإثبات هذه المسألة عِدَّة فصولٍ؛ ضمَّنها الإشارة إلى الطرق النقلية الدالَّة على أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ فوق سماواته على عرشه؛ ومجموعها: واحدٌ وعشرون نوعاً، وقد صدَّرها بقوله [البيتان رقم (١١١٢ ــ ١١١٣) ــ ص١٠٣]:

(ولقد أتانا عشر أنواعٍ من الـ ـمنقول في فوقية الرحمن
مع مثلها أيضاً تزيد بواحد ها نحن نسردها بلا كتمان).

ثم ختم المسألة بعقد فصلٍ في الإشارة إلى ذلك من السنة، وقد صدَّره بقوله [البيت رقم (١٦٨٢) ــ ص١٤٢]:

(واذكر حديثاً في الصحيح تضمَّنت كلماته تكذيب ذي البهتان).

وبعد أن ضمن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذه الأنواع في أبياتٍ؛ تربو عدَّتها على ستمائة بيتٍ: اعتذر بقوله:

(والنظم يمنعني من استيفائها وسياقة الألفاظ بالميزانِ
فأُشير بعض إشارةٍ لمواضعٍ منها وأين البحر من خلجانِ).

وقد انفرد هذا الموطن بذكر ثلاثة أنواعٍ لم تُذكر في النونية؛ وهي: التصريح برفع الأيدي إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ في الدعاء، والشهادة لمن قال إن ربَّه في السماء بالإيمان، والإخبار بتردُّد النبي بين موسى ــ عليهما الصلاة والسلام ــ وبين الله تعالى في ليلة المعراج.

كما انفردت النونية بذكر ثمانية أنواعٍ لم تُذكر في هذا الموطن؛ وهي: رفعة الدرجات للرحمن ــ جلَّ جلاله ــ، ووصف الظهور لله ــ سبحانه وتعالى ــ، والإجماع من رسل الله تعالى، وإجماع أهل العلم، وتنزيه الله ــ سبحانه =

أحدها: التصريح بالفوقية مقرونة بأداة (من) المُعيِّنة لفوقية الذات، نحو: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[1].

الثاني: ذكرها مُجرَّدة عن الأداة[2]، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[3].

الثالث: التصريح بالعروج إليه، نحو: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[4]. وقول النبي ﷺ: «فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم»[5].

= وتعالى ـ عن موجب النقصان، وفساد لازم قول المُعطِّل، والإخبار بالإتيان والمجيء.

فيكون مجموع هذه الأنواع المذكورة في هذين الموطنين ـ نثراً ونظماً ـ ؛ والدالَّين على عُلُوِّ الربِّ ـ سبحانه وتعالى ـ على خلقه؛ وكونه فوق عباده؛ واستوائه على عرشه: ستة وعشرون نوعاً.

(١) سورة النحل: الآية ٥٠.

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى؛ وأن الفوقية ورد ذكرها في القرآن مطلقة بدون حرفٍ؛ ومُقترنة بحرفٍ، وأن إنكار حقيقة فوقيته ـ سبحانه ـ ؛ وحملها على المجاز: باطلٌ من سبعة عشر وجهاً؛ في: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٩ ـ ٤٢٠.

وقد جمع الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته: التصريح بالفوقية المقرون بأداة (من)؛ والمُجرَّد عنها في طريقٍ واحدٍ، فقال في [البيت رقم (١١٣٩) ـ ص١٠٥]:

(هذا وثالثها صريح الفوق مصـ ـحوباً بمن وبدونها نوعان).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٨.

(٤) سورة المعارج: الآية ٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب مواقيت الصلاة/ باب فضل صلاة العصر ـ الحديث رقم (٥٥٥) ـ ١/ ١٨٤]، ومسلم في صحيحه [كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ـ الحديث رقم =

الرابع: التصريح بالصعود إليه، كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[1].

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه[2]، كقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾[3]. وقوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[4].

السادس: التصريح بالعُلُوِّ المطلق الدالِّ على جميع مراتب العُلُوِّ: ذاتاً؛ وقدراً؛ وشرفاً[5]، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ

= (٦٣٢) ـ ١/٤٣٩] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل».

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٢) جمع الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته: التصريح بالصعود إليه؛ وبرفعه بعض مخلوقاته إليه في طريقٍ واحدٍ؛ وهو: الصعود إليه، وقد صدَّر هذا الطريق بقوله [البيت رقم (١١٧٨) ـ ص١٠٨]:
(هذا وخامسها صعود كلامنا بالطيبات إليه والإحسان).
ثم قال بعد ذلك بأبياتٍ [البيت رقم (١١٨٩) ـ ص١٠٩]:
(وكذاك رفع الروح عيسى المُرتضى حقّاً إليه جاء في القرآن).

(٣) سورة النساء: الآية ١٥٨.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٥٥.

(٥) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لأنواع العُلُوِّ الثلاثة؛ وأن لله ـ سبحانه وتعالى ـ العُلُوَّ المطلق بكلِّ اعتبارٍ؛ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١٢٧٨/٤، ومختصره ٣٩٧/٢؛ ٤٠٩، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص٢٣ ـ ٢٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٤٠/١.
إلا أنه ـ رحمه الله تعالى ـ ذكر في هذا الموطن: عُلُوَّ الذات والقدر والشرف، وفي الصواعق: عُلُوَّ الذات والقهر والعظمة، وفي المختصر: عُلُوَّ الذات والرتبة والقهر، وفي المدارج: عُلُوَّ الذات والقدر والقهر، ومعانيها متقاربة ومتلازمة.
وقد قال ـ رحمه الله تعالى ـ في الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية =

ٱلْعَظِيمُ﴾[1]. ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[2]. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾[4]. ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[5]. ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[6]. وهذا يدلُّ على شيئين: على أن القرآن ظهر منه لا من غيره؛ وأنه الذي تكلَّم به لا غيره. الثاني: على عُلُوِّه على خلقه؛ وأن كلامه نزل به الروح الأمين من عنده من أعلى مكانٍ؛ إلى رسوله[7].

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده؛ وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾[8].

= [الأبيات رقم (٤٧٠٨ ــ ٤٧١٠) ــ ص٣٣٤]:

(والله أكبر قاهر فوق العبا ... د فلا تضع فوقية الرحمن
من كل وجه تلك ثابتة له ... لا تهضموها يا أولي العدوان
قهراً وقدراً واستواء الذات فو ... ق العرش بالبرهان والقرآن).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
(٢) سورة سبأ: الآية ٢٣.
(٣) سورة الشورى: الآية ٥١.
(٤) سورة الزمر: الآية ١، سورة الجاثية: الآية ٢، سورة الأحقاف: الآية ٢.
(٥) سورة فصلت: الآية ٤٢.
(٦) سورة النحل: الآية ١٠٢.
(٧) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن نزول الكتاب المبين من رب العالمين أفاد هذين المطلوبين العظيمين ــ اللذين هما من أجلِّ مطالب الدين ــ؛ وهما: عُلُوُّ الله تعالى على خلقه، وتكلُّمه بالكتاب المُنزل من عنده لا غيره؛ في: بدائع الفوائد ١/ ١٧٢ ــ ١٧٣، التبيان في أقسام القرآن ص٢٢٣؛ ٢٩٤ ــ ٢٩٥.
(٨) سورة الأعراف: الآية ٢٠٦.

وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾[1]. ففرّق بين من له عموماً؛ ومن عنده من مماليكه وعبيده خصوصاً. وقول النبي ﷺ: في الكتاب الذي كتبه الربُّ تعالى على نفسه: «إنه عنده على العرش»[2].

التاسع: التصريح بأنه ــ سبحانه ــ في السماء، وهذا عند أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون (في) بمعنى: (على). وإما أن يُراد بالسماء: العُلُوّ، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز حمل النصِّ على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة (على)؛ مُختصاً بالعرش ــ الذي هو أعلى المخلوقات ــ ؛ مُصاحباً في الأكثر لأداة (ثُمَّ) الدالَّة على الترتيب والمهلة، وهو بهذا السياق: صريحٌ في معناه؛ الذي لا يفهم المخاطبون غيره من العُلُوِّ والارتفاع، ولا يحتمل غيره ألبتة.

الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله ــ سبحانه ــ[3]، كقوله ﷺ: «إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً»[4].

الثاني عشر: التصريح بنزوله كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم: إنما يكون من عُلُوٍّ إلى أسفل.

الثالث عشر: الإشارة إليه حساً إلى العُلُوِّ كما أشار إليه من هو أعلم به ــ وما يجب له ويمتنع عليه ــ من أفراخ الجهمية والمعتزله والفلاسفة؛ في

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٩.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «لما قضى الله الخلق كتب».

(٣) تكرّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأنه يُتوجَّه إلى الله تعالى في الدعاء إلى جهة العلو؛ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٨١؛ ١٣٠٦، ومختصره ٢/ ٤٦٤.

(٤) تقدم تخريجه، ولفظه: «إن الله حييٌّ كريمٌ يستحي من عبده».

أعظم مجمعٍ على وجه الأرض، يرفع أُصبعه إلى السماء؛ ويقول: «اللَّـٰهُمَّ اشهد»[1]. ليُشهد الجميعَ أن الربَّ الذي أرسله ودعا إليه واستشهده: هو الذي فوق سماواته على عرشه[2].

الرابع عشر: التصريح بلفظ (الأين)؛ الذي هو عند الجهمية بمنزلة (متى) في الاستحالة، ولا فرق بين اللفظين عندهم ألبتة، فالقائل: أين الله ومتى كان الله عندهم سواءٌ، كقول أعلم الخلق به وأنصحهم لأمته وأعظمهم بياناً عن المعنى الصحيح بلفظ لا يُوهم باطلاً بوجهٍ[3]: «أين الله؟»[4]. في غير موضعٍ[5].

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج».

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٤٧٢٢ ـ ٤٧٢٤) ـ ص٣٣٥]:

(والله أكبر من أشار رسوله حقًّا إليه بأُصبعٍ وبنانِ
في مجمع الحقِّ العظيم بموقفٍ دون المُعرَّف موقف الغفرانِ
من قال منكم من أشار بأُصبعٍ قُطعت فعند الله يجتمعانِ).

(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن من تأمَّل أحاديث الصفات ـ على وجه العموم ـ؛ وأحاديث العُلُوِّ ـ على وجه الخصوص ـ: رأى البيان الذي لا يُوهم باطلاً بوجهٍ ما: لائحاً على صفحاتها؛ بادياً على ألفاظها؛ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧؛ ٣/ ٩٠٦؛ ١١٦٥، ومختصره ٢/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته ـ الحديث رقم (٥٣٧) ـ ١/ ٣٨١ ـ ٣٨٢] من حديث معاوية بن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى؛ وأن أعلم الخلق بالله تعالى ﷺ سأل عن الله تعالى بأين، وسمع السؤال بأين؛ وأجاب عنه؛ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٤٢.

الخامس عشر: شهادته ـ التي هي أصدق شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين ـ لمن قال إن ربَّه في السماء بالإيمان، وشهد عليه أفراخ جهم بالكفر، وصرَّح الشافعي بأن هذا الذي وصفته من أن ربَّها في السماء: إيمانٌ، فقال في كتابه في باب عتق الرقبة المؤمنة؛ وذكر حديث الأمة السوداء ـ التي سوَّدت وجوه الجهمية؛ وبيَّضت وجوه المحمدية ـ : (فلما وَصَفَتْ الإيمان قال: «أعتقها فإنها مؤمنة». وهي إنما وَصَفَتْ كون ربِّها في السماء؛ وأن محمداً عبدُه ورسولُه)[1]. فقرنت بينهما في الذكر، فجعل الصادق المصدوق مجموعهما هو الإيمان.

السادس عشر: إخباره ـ سبحانه ـ عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطَّلع إلى إلـه موسى؛ فيُكذِّبه فيما أخبر به من أنه ـ سبحانه ـ فوق السماوات، فقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾[2]. فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربَّه فوق السماء، وعند الجهمية لا فرق بين الإخبار بذلك وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب، وعلى زعمهم: يكون فرعون قد نزَّه الربَّ عما لا يليق به؛ وكذب موسى في إخباره بذلك، إذ من قال عندهم: إن ربَّه فوق السماوات فهو كاذبٌ، فهم في هذا التكذيب موافقون لفرعون؛ مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء، ولذلك سماهم أئمة السنة: فرعونية[3]،

---

(١) كتاب الأم للشافعي [كتاب النفقات/ باب عتق المؤمنة في الظهار ـ ٥/ ٤٠٣].

(٢) سورة غافر: الآيتين ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لما حكاه الله تعالى عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربَّه فوق السماوات، وأن نفاة صفات الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وعُلُوِّه على خلقه؛ واستوائه على عرشه لما شابهوه في قوله: صاروا فرعونية معطلة؛ في: الداء والدواء ص٢٢٠، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٤٠.

قالوا: وهم شرٌّ من الجهمية، فإن الجهمية يقولون: إن الله في كلِّ مكانٍ بذاته، وهؤلاء عطَّلوه بالكلِّية؛ وأوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض، فأيُّ طائفةٍ من طوائف بني آدم أثبتت الصانع على أيِّ وجهٍ: كان قولُهم خيراً من قولهم.

السابع عشر: إخباره ﷺ أنه تردَّد بين موسى وبين الله، ويقول له موسى: ارجع إلى ربِّك فسله التخفيف؛ فيرجع إليه، ثم ينزل إلى موسى؛ فيأمره بالرجوع إليه ـ سبحانه ـ فيصعد إليه ـ سبحانه ـ، ثم ينزل من عنده إلى موسى عِدَّة مراتٍ[1].

الثامن عشر: إخباره تعالى عن نفسه؛ وإخبار رسوله عنه: أن المؤمنين يرونه عياناً جهرة كرؤية الشمس في الظهيرة؛ والقمر ليلة البدر، والذي تفهمه الأمم على اختلاف لغاتها وأوهامها من هذه الرؤية: رؤية المقابلة والمواجهة؛ التي تكون بين الرائي والمرئي فيها مسافة محدودة غير مفرطةٍ في البعد ـ فتمتنع الرؤية ـ؛ ولا في القرب ـ فلا تمكن الرؤية ـ، لا تعقل الأمم غير هذا، فإما أن يروه ـ سبحانه ـ من تحتهم ـ تعالى الله ـ أو من خلفهم أو من أمامهم؛ أو عن أيمانهم أو عن شمائلهم؛ أو من فوقهم، ولا بُدَّ من قسمٍ من هذه الأقسام إن كانت الرؤية حقاً، وكلُّها باطلٌ؛ سوى رؤيتهم له من فوقهم، كما في حديث جابرٍ ـ الذي في المسند وغيره ـ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم: إذ سطع لهم نورٌ؛ فرفعوا رءوسهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ ـ الحديث رقم (٧٥١٧) ـ ٥/ ٢٣٤٤ ـ ٢٣٤٦]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات ـ الحديث رقم (١٦٢) ـ ١/ ١٤٥ ـ ١٤٧] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «أُتيتُ بالبُراق فركبته».

فإذا الجبار قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة؛ سلامٌ عليكم، ثم قرأ قوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾[1] ثم يتوارى عنهم؛ وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»[2]. ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية[3]، ولهذا طرد الجهمية أصلهم؛ وصرَّحوا بذلك؛ وركبوا النفيين معاً، وصدق أهل السنة بالأمرين معاً؛ وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفى عُلُوَّ الربِّ على خلقه؛ واستواءه على عرشه: مُذبذباً بين ذلك؛ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء[4].

---

(١) سورة يس: الآية ٥٨.

(٢) تقدم تخريجه من رواية ابن ماجه، ولم أقف عليه في مسند أحمد.

(٣) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن من أنكر حقيقة العُلُوِّ: لم يكن للنظر عنده حقيقة؛ في: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩١.

(٤) وهم الأشاعرة، الذين أثبتوا الرؤية؛ ونفوا عُلُوَّ الربِّ على خلقه، فتذبذبوا بين أهل السنة والجماعة المُثبتين للرؤية والعُلُوِّ؛ وبين أهل البدعة والشناعة؛ من الجهمية والمعتزلة النافين للرؤية والعُلُوِّ.
وقد حكى الجويني في [الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص١٦٣] حجة الأشاعرة في إثباتهم الرؤية؛ مع نفيهم العُلُوَّ، فقال: (اتفق أهل الحقِّ على أن كلَّ موجودٍ يجوز أن يُرى).
وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية بدعتهم في [بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ٢/ ٣٩٦]؛ فقال: (لا يُعرف القول بإثبات الرؤية مع نفي كون الله تعالى فوق العالم: إلا عن هذه الشرذمة؛ وهم بعض أتباع الأشعريِّ ومن وافقهم، وليس ذلك قول أئمتهم كما يقول هؤلاء؛ وإن كانوا هم وغيرهم يقولون: إن في كلام أئمتهم تناقضاً أو اختلافاً، فقد قدمنا أن تناقض من كان إلى الإثبات أقرب: هو أقلُّ من تناقض من كان إلى النفي أقرب، وقدمنا أن العلم به فوق العالم: أعظم من العلم بأنه يُرى، فعِلْمُ ذلك بالعقل: أعظم في الطرق =

فهذه أنواعٌ من الأدلة السمعية المُحكمة، إذا بُسطت أفرادها: كانت ألف دليلٍ على عُلُوِّ الربِّ على خلقه؛ واستوائه على عرشه[1]، فترك الجهمية ذلك كلَّه؛ وردُّوه بالمتشابه من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2]. وردَّه زعيمهم المتأخِّر بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[3]. وبقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[4]. ثم ردُّوا تلك الأنواع كلَّها مُتشابهة؛ فسلَّطوا المتشابه على المحكم وردُّوه به، ثم ردُّوا المحكم متشابهاً، فتارة يحتجون به على الباطل؛ وتارة يدفعون به الحقَّ.

ومن له أدنى بصيرةٍ: يعلم أنه لا شيء في النصوص أظهر ولا أبين

= البديهية والقياسية، وعِلْمُ ذلك بالسمع: أعظم؛ لما في الكتاب والسنة من الدلالات الكثيرة التي لا يُحصيها إلا الله على أن الله فوقٌ. ولهذا تجد هؤلاء الذين يُثبتون الرؤية دون العُلُوِّ عند تحقيق الأمر: منافقين لأهل السنة والإثبات، يُفسِّرون الرؤية التي يُثبتونها بنحو ما يُفسِّرها به المعتزلة وغيرهم من الجهمية، فهم ينصبون الخلاف فيها مع المعتزلة ونحوهم؛ ويتظاهرون بالردِّ عليهم؛ وموافقة أهل السنة والجماعة في إثبات الرؤية، وعند التحقيق: فهم موافقون المعتزلة).

كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية بدعة الأشاعرة وتناقضهم في هذه المسألة في: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ٢/ ٣٩٤ ــ ٤٣١، درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٢٣٩ ــ ٢٤٠، تفسير سورة الأعلى ١٦/ ٨٤ ــ ٨٥ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن أدلة مباينة الربِّ لخلقه وعُلُوِّه على جميع مخلوقاته: تُقارب ألف دليلٍ؛ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٣ ــ ٢٩٤؛ ٣٦٨؛ ٤/ ١٢٧٩.

(٢) سورة الحديد: الآية ٤.

(٣) سورة الإخلاص: الآية ١.

(٤) سورة الشورى: الآية ١١.

دلالة من مضمون هذه النصوص[1]، فإذا كانت متشابهة: فالشريعة كلُّها متشابهة؛ وليس فيها شيءٌ محكمٌ ألبتة، ولازم هذا القول لزوماً لا محيد عنه: أن ترك الناس بدونها خيرٌ لهم من إنزالها إليهم، فإنها أوهمتهم وأفهمتهم غير المراد؛ وأوقعتهم في اعتقاد الباطل؛ ولم يتبيَّن لهم ما هو الحقُّ في نفسه، بل أُحيلوا فيه على ما يستخرجونه بعقولهم وأفكارهم ومقاييسهم.

فنسأل الله مثبت القلوب ــ تبارك وتعالى ــ أن يُثبِّت قلوبنا على دينه؛ وما بعث به رسوله من الهدى ودين الحقِّ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، إنه قريبٌ مُجيبٌ)[2].

فهذه بعض النصوص الشرعية المحكمة؛ التي تنوَّعت دلالتها على عُلُوِّ الله تعالى على خلقه.

وثمة نصوص صحيحة صريحة تضمنت التنصيص على فوقية الله تعالى؛ المستلزمة لعُلُوِّه على خلقه.

---

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن من أعظم الرُّشد والحقِّ الذي تهدي إليه النصوص الشرعية الكثيرة: عُلُوَّ الله على خلقه؛ ومباينته لهم؛ في: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٣٢٦، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٧١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠ ــ ٢٢١؛ ٣٨٢ ــ ٣٨٣؛ ٢/ ٦٥٣ ــ ٦٥٤؛ ٣/ ٩٣٨؛ ٩٤٧؛ ١٠٠٩؛ ١٠١٠؛ ١١٦٥؛ ٤/ ١٢١٥؛ ١٣٣٨، ومختصره ٢/ ٣٩٧؛ ٤٠٩ ــ ٤١٠؛ ٤٥١؛ ٤٥٥، الفوائد ص٨٠ ــ ٨٢؛ ١٨٤ ــ ١٨٧؛ ٢٠٠ ــ ٢٠١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٨٠ ــ ٤٨٤.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٣٠٠ ــ ٣٠٤.

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بذكر طرفٍ صالحٍ منها؛ فقال: (في الصحيحين من حديث أبـي الزناد[1] عن الأعرج عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله: «لما قضى الله الخلق: كتب في كتابٍ؛ فهو عنده فوق عرشه: إن رحمتي غلبت غضبي». وفي لفظ البخاري: «هو وضع عنده على العرش». وفي لفظ له أيضاً: «فهو مكتوبٌ فوق العرش»[2].

ووضع: بمعنى موضوعٍ، مصدر بمعنى المفعول، كنظائره.

وفي صحيح البخاري أيضاً من حديث حماد بن زيد عن ثابت البناني عن أنس قال: «كانت زينب تفخر على أزواج النبي؛ وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات». وفي لفظ للبخاري: «كانت تقول: أنكحني الله في السماء»[3].

وفي الصحيحين من حديث أبـي صالح[4] عن أبـي هريرة قال: قال

---

(١) هو: أبو عبد الرحمن عبد الله بن ذكوان القرشي المدني، ويُلقَّب بأبـي الزناد، الحافظ المفتي، ولد في نحو سنة خمس وستين، وتوفي فجأة في مغتسله ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان سنة ثلاثين ومائة؛ وهو ابن ست وستين سنة.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبـي حاتم ٥/ ٤٩ ــ ٥٠، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٤/ ٤٧٦ ــ ٤٨٣، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٤٤٥ ــ ٤٥١.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ ــ الحديث رقم (٧٤٢٠ ــ ٧٤٢١) ــ ٥/ ٢٣١٥ ــ ٢٣١٦] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ.

(٤) هو: ذكوان بن عبد الله التميمي؛ السَّمَّان الزيَّات، الحافظ الحجة، توفي سنة إحدى ومائة.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبـي حاتم ٣/ ٤٥٠ ــ ٤٥١، تهذيب =

رسول الله: «من تصدَّق بعدل تمرة من كسبٍ طيِّبٍ ــ ولا يصعد إلى الله إلا الطيِّب ــ : فإنَّ الله يتقبَّلها بيمينه، ثم يُربِّيها لصاحبها؛ كما يُربِّي أحدكم فَلُوَّه[1]، حتى تكون مثل الجبل»، لفظ البخاري[2].

وفي الصحيحين من حديث مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي أنه قال: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم؛ فيسألهم الله ــ وهو أعلم بهم ــ : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»[3]، ورواه البيهقي بإسناد الصحيح، وقال: «ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم»، وقال: (أخرجاه في الصحيح)[4].

= الكمال في أسماء الرجال للمزي ٨/ ٥١٣ ــ ٥١٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٣٦ ــ ٣٧.

(١) قال ابن حجر العسقلاني في [فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٣/ ٣٢٨]: (فَلُوَّه ــ بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو ــ : وهو المهر، لأنه يفلى؛ أي: يُفطم. وقيل: هو كلُّ فطيمٍ من ذات حافرٍ، والجمع: أفلاء، كعدوٍّ وأعداء).

وانظر: غريب الحديث للخطابي ٢/ ٤٨١، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٤٧٤، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للفتني ٤/ ١٨٠ [مادة: فلا].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الزكاة/ باب الصدقة من كسبٍ طيِّبٍ ــ الحديث رقم (١٤١٠) ــ ١/ ٤٢٠]، ومسلم في صحيحه [كتاب الزكاة/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ــ الحديث رقم (١٠١٤) ــ ٢/ ٧٠٢].

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الأسماء والصفات للبيهقي [باب قول الله عزَّ وجلّ لعيسى ــ عليه السلام ــ : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ــ الحديث رقم (٨٩٦) ــ ٢/ ٣٣٢].

وفي الصحيحين قصة سعد بن معاذ؛ وحكمه في بني قريظة؛ وقول النبـي: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك»[1].

ورواه البيهقي من حديث سعد بن إبراهيم[2] عن عامر بن سعد عن أبيه؛ وفيه: «فقال النبـي: لقد حكم فيهم اليوم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سماوات»[3].

وقال ابن إسحاق[4] في حديثه: «لقد حكمت فيهم بحكم الله الذي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الجهاد والسير/ باب إذا نزل العدو على حكم رجل ـ الحديث رقم (٣٠٤٣) ـ ٢/ ٩٣٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب الجهاد والسير/ باب جواز قتال من نقض العهد ـ الحديث رقم (١٧٦٨) ـ ٣/ ١٣٨٨ ـ ١٣٨٩] من حديث أبـي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «قوموا إلى سيدكم».

(٢) هو: أبو إسحاق؛ ويقال: أبو إبراهيم سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري، قاضي المدينة، توفي سنة سبع وعشرين ومائة؛ وهو ابن اثنتين وسبعين سنة.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبـي حاتم ٤/ ٧٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٠/ ٢٤٠ ـ ٢٤٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٤١٨ ـ ٤٢١.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي [باب قول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ـ الحديث رقم (٨٨٥) ـ ٢/ ٣٢١].

(٤) هو: أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار القرشي المطلبـي مولاهم؛ المدني، الحافظ الأخباري، ولد سنة ثمانين، وتوفي ببغداد سنة خمسين ومائة.
انظر في ترجمته: مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار لابن حبان ص٢٢٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ٧/ ٣٣ ـ ٥٥، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٨٢.

حكم به من فوق سبعة أرقعة»[1]. والرقيع: من أسماء السماء[2]؛ وقد تقدم.

وروى الترمذي والإمام أحمد من حديث الحسن عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله لأبـي: «يا حصين، كم تعبد اليوم إلـٰهاً؟ قال أبـي: سبعة؛ ستة في الأرض، وواحداً في السماء. قال: فأيُّهم تُعِدُّ لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء. قال: يا حصين، أما إنك لو أسلمت علَّمتك كلمتين ينفعانك. قال: فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله، علِّمني الكلمتين اللتين وعدتني. قال: قل: اللّـٰهُمَّ ألهمني رشدي؛ وأعذني من شر نفسي»[3].

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ١٠١].
وانظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٠٥٠، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (المغازي) للذهبـي ص٣١٦، البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٨٣.

(٢) قال أمية بن أبـي الصلت:
(وساكن أقطار الرقيع على الهوا   وبـالغيـب والأرواح فـي كـلِّ مشهـد).
انظر: غريب الحديث للحربـي ٣/ ١٠٣١، غريب الحديث للخطابـي ٣/ ٢٥٢، الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٢/ ٧٧ [مادة: رقع].

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٦٩) ــ الحديث رقم (٣٤٨٣) ــ ٥/ ٤٦٨]، وكذا أخرجه البخاري في التاريخ الكبير [٣/ ١٥]، وخلق أفعال العباد [باب ما ذكر أهل العلم للمعطلة الذين يريدون أن يبدلوا كلام الله عزَّ وجلّ ــ الحديث رقم (١٠٦) ــ ص٥٧ ــ ٥٨]، ولم أقف عليه عند أحمد من حديث الحسن عن عمران بن حصين، وإنما وقفت عليه من حديث ربعيٍّ بن حراش عن عمران بن حصين، وليس فيه وجه الشاهد على مسألة العُلُوِّ، وإنما يجتمع مع حديث الحسن في قوله: «اللّـٰهُمَّ قني شرَّ نفسي، واعزم لي على أرشد أمري».
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي: الحديث رقم (٣٤٨٣) ــ ص٤٠٥ ــ ٤٠٦].

وقد ثبت عن النبي أنه شهد للجارية بالإيمان؛ حيث أقرَّت بأن الله في السماء، وحديثها في صحيح مسلم(1).

وثبت عنه في الصحيح: أنه جعل يُشير بأُصبعه إلى السماء في خطبته في حجة الوداع؛ ويُنكِّسها إلى الناس، ويقول: «اللَّهُمَّ اشهد»(2)، وكان مستشهداً بالله حينئذ؛ لم يكن داعياً حتى يقال: السماء قبلة الدعاء.

وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن أبي نعم(3) قال: سمعت أبا سعيدٍ الخدريَّ يقول: «بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله من اليمن بذهيبة في أديمٍ مقروظٍ لم تحصل من ترابها، فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن بدر؛ والأقرع بن حابس؛ وزيد الخيل؛ والرابع: إما علقمة بن علاثة؛ وإما عامر بن الطفيل، فقال رجلٌ من أصحابه: كنا أحقُّ بهذا من هؤلاء، فبلغ ذلك النبي فقال: ألا تؤمنوني؛ وأنا أمين مَن في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء»(4).

---

(1) تقدم تخريجه، وأوله: «أين الله؟».

(2) تقدم تخريجه، وأوله: «إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج».

(3) هو: أبو الحكم عبد الرحمن بن أبي نُعْم البجلي الكوفي، القدوة الرباني، مات بعد المائة.
انظر في ترجمته: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ٥/ ٦٩ ـ ٧٣، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٦٢ ـ ٦٣، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٦/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى: ﴿ ۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ـ الحديث رقم (٣٣٤٤) ـ ٢/ ١٠٣٠]، ومسلم في صحيحه [كتاب الزكاة/ باب ذكر الخوارج وصفاتهم ـ الحديث رقم (١٠٦٤) ـ ٢/ ٧٤١ ـ ٧٤٢]. =

وسيأتي ــ إن شاء الله ــ حديث أبـي الدرداء: سمعت رسول الله يقـول: «ربنـا الله الـذي فـي السمـاء، تقـدَّس اسمـك، أمـرك فـي السمـاء والأرض؛ كما رحمتك في السماء» الحديث رواه أبو داود في الطبِّ[1].

وروى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار[2] عن أبـي قابوس[3] مولى لعبد الله ابن عمرو بن العاص عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله قال: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» رواه الترمذي؛ وقال: حديث حسن صحيح[4]، وسيأتي في كتاب الأدب.

وفي صحيح ابن حبان عن أبـي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي عن النبـي قال: «إن ربكم حَيِيٌّ كريمٌ، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردَّهما صفراً»[5].

= وقد أخرجه بلفظه: البيهقي في الأسماء والصفات [باب قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ــ الحديث رقم (٨٨٩) ــ ٢/ ٣٢٤ ــ ٣٢٥].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هو: أبو محمد الأثرم الجمحي مولاهم؛ المكي، شيخ الحرم في زمانه، ولد سنة خمسٍ أو ستٍّ وأربعين، وتوفي سنة خمس وعشرين ومائة؛ وهو ابن ثمانين سنة.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٢/ ٥ ــ ١٣، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٥/ ٣٠٠ ــ ٣٠٧، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٥٠.

(٣) هو: أبو قابوس المكي.
انظر في ترجمته: الثقات لابن حبان ٥/ ٥٨٨، الاستغناء في معرفة المشهورين من حملة العلم بالكنى لابن عبد البر ٣/ ١٥٢٥، المقتنى في سرد الكنى للذهبـي ٢/ ٢٠.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «الراحمون يرحمهم الرحمن».

(٥) صحيح ابن حبان [كتاب الرقاق/ باب الأدعية ــ ذكر الإِخبار عما يُستحبُّ للمرء =

وقد روى الترمذي والبيهقي من حديث حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء[1] عن وكيع بن عدس[2] عن أبي رزين العقيلي قال: «قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: كان في عماء[3]؛ ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق العرش؛ ثم استوى عليه»[4]. هذا لفظ البيهقي، وهذا الإسناد صححه

= عند إرادة الدعاء: رفع اليدين ـ الحديث رقم (٨٧٦) ـ ٣/ ١٦٠].
وقد تقدم تخريجه من حديث أحمد وأبي داود والترمذي وابن ماجه، وهو صحيحٌ، ولفظه: «إن الله حييٌّ كريمٌ».

(١) هو: العامريُّ القرشيُّ، وقيل: الليثيُّ الطائفيُّ، توفي بواسط سنة عشرين ومائة.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٣٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٦، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٤٥٢.

(٢) هو: أبو مصعب وكيع بن عُدس ـ بضم الدال؛ وقيل: بفتحها ـ ؛ ويقال: حدس ـ بالحاء ـ ؛ العقيليُّ الطائفيُّ.
انظر في ترجمته: الثقات لابن حبان ٥/ ٤٩٦، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/ ٣٦ ـ ٣٧، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٣٠/ ٤٨٤ ـ ٤٨٦.

(٣) العماء: هو السحاب، واختلف في هيئته، فقيل: الرقيق من السحاب، وقيل: السحاب الكثيف المطبق، وقيل: شبه الدخان يركب رؤوس الجبال.
انظر: غريب الحديث للخطابي ٣/ ٢٤٢، الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣/ ٢٦، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٣٠٤.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب التفسير/ باب ومن سورة هود ـ الحديث رقم (٣١٠٩) ـ ٥/ ١٨٦]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب ما جاء في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ـ الحديث رقم (٨٦٤) ـ ٢/ ٣٠٣].
وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦١٨٨) ـ ٢٦/ ١٠٨]، وابن ماجه في سننه [المقدمة/ باب فيما أنكرت الجهمية ـ الحديث رقم (١٨٢) ـ ١/ ١١٧ ـ ١١٨].
وضعفه الألباني في [سنن ابن ماجه: الحديث رقم (٣٢) ـ ص١٧].

الترمذي في موضعٍ؛ وحسنه في موضعٍ)[1]، إلى آخر كلامه، حيث استطرد ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير فوقية الله تعالى على خلقه من كلام أهل العلم[2].

* وهناك دلائل أخرى كثيرة دلَّت على عُلُوِّ الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ على خلقه؛ وكونه فوق عباده، فمن ذلك:

أولاً: دلالة بعض أسماء الله تعالى على إثبات صفة العُلُوِّ، فمن هذه الأسماء الحسنى التي دلَّت على ذلك:

١ ــ دلالة اسم الجلالة (الربِّ) على عُلُوِّ الله تعالى على خلقه، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (اقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته، فـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[3]: مطابق لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾[4].

فإن شمول الربوبية وسعتها ــ بحيث لا يخرج شيء عنها ــ: أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كلَّ شيءٍ برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربًّا للعالمين: ما يدلُّ على عُلُوِّه على خلقه؛ وكونه فوق كلِّ شيءٍ[5])[6].

---

(١) تهذيب مختصر سنن أبي داود ١٣/ ١٣ ــ ١٦.

(٢) انظر: تهذيب مختصر سنن أبي داود ١٣/ ١٧ ــ ٣٥.

(٣) سورة طه: الآية ٥.

(٤) سورة الفاتحة: الآيتان ٢ ــ ٣.

(٥) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن كلَّ من أقرَّ بوجود الربِّ: لزمه الإقرار بمباينته لخلقه وعُلُوِّه عليهم، وكُلُّ من أنكر مباينته وعُلُوَّه: لزمه إنكاره وتعطيله؛ في: التبيان في أقسام القرآن ص٢٠٥، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٠٠؛ ٤/ ١٣٢٩.

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٤.

٢ ـ دلالة اسم الجلالة (الظاهر) على عُلُوِّ الربِّ تعالى على خلقه، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (ظاهريته ـ سبحانه ـ : فوقيته وعُلُوُّه على كلِّ شيءٍ، ومعنى الظهور: يقتضي العُلُوَّ، وظاهر الشيء: هو ما علا منه وأحاط بباطنه[١])[٢].

٣ ـ دلالة اسم الجلالة (السَّلام) على عُلُوِّ الربِّ تعالى على خلقه، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (استواؤه وعُلُوُّه على عرشه: سلامٌ[٣] من أن يكون مُحتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش مُحتاجٌ إليه؛ وحملته مُحتاجون إليه، فهو الغنيُّ عن العرش وعن حملته وعن كلِّ ما سواه، فهو استواءٌ وعُلُوٌّ لا يشوبه حصرٌ ولا حاجةٌ إلى عرشٍ ولا غيره؛ ولا إحاطة شيءٍ به ـ سبحانه وتعالى ـ ، بل كان ـ سبحانه ـ ولا عرش ولم يكن به حاجةٌ إليه؛ وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه: من موجبات ملكه وقهره؛ من غير حاجةٍ إلى عرضٍ ولا غيره بوجهٍ ما)[٤].

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن اسم الظاهر دالٌّ على عُلُوِّ الربِّ تعالى على خلقه؛ وكونه فوق عباده؛ واستوائه على عرشه؛ في: زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٦٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٤ ـ ٥٥، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٠؛ ١٣٩ ـ ١٤١؛ ٣/ ١١٧ ـ ١١٨.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٤.

(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن اسم السلام متضمنٌ للكمال السالم من كل ما يُضاده، ومُستلزماً لعُلُوِّ الربِّ تعالى على خلقه؛ وكونه فوق عباده؛ واستوائه على عرشه؛ في: أحكام أهل الذمة ١/ ١٩٤ ـ ١٩٥، بدائع الفوائد ١/ ١٥٠.

(٤) بدائع الفوائد ٢/ ١١٧ ـ ١١٨.

٤ ـ دلالة اسم الجلالة (الجبَّار) على عُلُوِّ الربِّ تعالى على خلقه، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (الجبَّار في صفة الربِّ ـ سبحانه ـ ترجع إلى ثلاثة معانٍ: الملك؛ والقهر؛ والعُلُوِّ، فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي؛ سُمِّيت: جبَّارة)[1].

٥ ـ دلالة اسم الجلالة (المُحيط) على عُلُوِّ الربِّ تعالى على خلقه، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾[2]. فإذا كان مُحيطاً بالعالم: فهو فوقه بالذات؛ عالٍ عليه من كلِّ وجهٍ وبكلِّ معنى، فالإحاطة تتضمن: العُلُوَّ والسعة والعظمة[3])[4].

ثانياً: دلالة الفطر السليمة على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (إن الله فطر عباده على الإقرار بعُلُوِّه[5]؛

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٦٦.

(٢) سورة البروج: الآية ٢٠.

(٣) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى؛ وأن الله تعالى عالٍ على خلقه؛ محيطٌ بالعالم كلِّه؛ في: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٢.

(٥) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن عُلُوَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ فوق جميع العالم: مما فُطِرَت عليه الخليقة؛ حتى الحيوان البهيم؛ في: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٨٣٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٣٨؛ ٩٤٧؛ ٤/ ١٢٧٧ ـ ١٢٧٨؛ ١٢٨١؛ ١٢٨٣؛ ١٣٣٨، ومختصره ٢/ ٣٩٥؛ ٣٩٧؛ ٤٠٩ ـ ٤١٠؛ ٤١٨ ـ ٤١٩؛ ٤٥١، الفوائد ص١٨٦.

كما فطرهم على الإقرار بأنه ربُّهم وخالقهم)[1].

ثالثاً: دلالة العقول المستقيمة على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (أدلة مباينة الربِّ لخلقه وعُلُوِّه على جميع مخلوقاته: أدلةٌ عقليةٌ[2] فطريةٌ؛ تُوجب العلم الضروريَّ بمدلولها. وأما السمعية: فتُقارب ألف دليلٍ.

فعلى المُتأوِّل أن يُجيب عن ذلك كلِّه، وهيهات له بجوابٍ صحيح عن بعض ذلك، فنحن نُطالبه بجوابٍ صحيحٍ عن دليلٍ واحدٍ)[3].

رابعاً: دلالة الضرورة على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (من المعلوم بالضرورة: أن العُلُوَّ أشرفُ بالذات من سائر الجهات، فوجب ضرورة اختصاص الربِّ

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٤١.

(٢) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن أدلة مباينة الربِّ لخلقه وعُلُوِّه على جميع مخلوقاته: أدلةٌ عقليةٌ؛ في: الروح ص٢٩١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٣٢؛ ٩٣٨؛ ٩٤٧؛ ٤/ ١٢٥٤؛ ١٢٧٧ ــ ١٢٧٨؛ ١٣٣٨، ومختصره ٢/ ٣٩٥؛ ٤٠٩ ــ ٤١٠؛ ٤١٨ ــ ٤١٩؛ ٤٥١، الفوائد ص١٨٦.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ أن تقرير عُلُوِّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ على العالم؛ وأنه فوق السماوات كلِّها؛ وأنه فوق عرشه: من طرقٍ كثيرةٍ جداً، وقد ذكر منها في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٧٩ ــ ١٣٤٠: ثلاثين طريقاً.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٣ ــ ٢٩٤.

بأشرف الأمرين وأعلاهما[1])[2].

خامساً: دلالة الكتب السماوية المنزلة على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (إن القرآن؛ بل الكتب المنزلة: مملوءةٌ بذكر الفوقية؛ وعُلُوِّ الله على عرشه[3])[4].

سادساً: دلالة الإجماع على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد تعدَّدت هذه الإجماعات؛ وتنوَّعت جهاتها، فمن تلك الإجماعات التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ :

١ ـ دلالة إجماع أنبياء الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ المرسلة على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (الرسل ـ صلاة الله وسلامه عليهم ـ قد قامت البراهين اليقينية على صدق كلِّ فردٍ منهم، وقد اتفقت كلمتهم وتواطأ خبرهم على إثبات العُلُوِّ والفوقية لله؛ وأنه

---

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن إثبات عُلُوِّ الله على خلقه؛ واستوائه على عرشه: مما عُلِمَ بالاضطرار، وأن دلالة الضرورة في غاية الظهور؛ غنية بنفسها عن التأمل؛ في: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٥، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٤؛ ٢/ ٦٥٣ ـ ٦٥٤؛ ٣/ ٩٠٦ ـ ٩٠٧؛ ١١٦٥؛ ٤/ ١٢٧٨؛ ١٢٨١؛ ١٣٠٦، ومختصره ٢/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٠٨.

(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن اشتمال الكتب الإلـٰهية ـ من أولها إلى آخرها ـ على إثبات مباينة الربِّ تعالى للمخلوقات؛ وعُلُوِّه فوق عرشه من فوق سبع سماوات: كثيرٌ؛ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٧٨، ومختصره ٢/ ٣٩٥؛ ٤٠٩ ـ ٤١٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٦٩؛ ٤٦٤.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

على عرشه فوق سماواته؛ بائنُ من خلقه[1])[2].

٢ ــ دلالة اتفاق القرون المفضَّلة وتتابعهم على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (هذا كتاب الله ليس فوق بيانه مرتبةٌ في البيان، وهذه سنة رسوله مطابقة له أعظم من مطابقة البنان للبنان، وهذه أقوال أعقل الأمم بعده والتابعين لهم بإحسان؛ لا يختلف منهم في هذا الباب إثنان؛ ولا يوجد عنهم فيه قولان متنافيان، بل قد تتابعوا كلُّهم على إثبات الصفات وعُلُوِّ الله على خلقه واستوائه على عرشه)[3] [4].

---

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن الرسل من أولهم إلى آخرهم قد أجمعت على عُلُوِّ الربِّ تعالى على خلقه؛ وكونه فوق عباده؛ واستوائه على عرشه؛ في: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٥، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٦٨؛ ٣/ ٨٣٣ ــ ٨٣٤؛ ٩٣٨؛ ٤/ ١٢٧٩؛ ١٢٨٣، ومختصره ٢/ ٤١٦؛ ٤٥٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٦٤؛ ٤٦٨ ــ ٤٦٩، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٣.

وقال ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: البيت رقم (٤٥٩٣) ــ ص٣٢٧]:

(فالرسل جاؤونا بإثبات العُلُوِّ لربِّنا من فوق كلِّ مكانِ).

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٧٢ ــ ٨٧٣.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩٥٢ ــ ٩٥٣.

(٤) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن أئمة السنة ــ في القرون المفضلة ومن تبعهم بإحسان ــ تتابعوا على إثبات صفات الربِّ تعالى وعُلُوِّه على خلقه، حتى إنهم سَمُّوا كتبهم التي صنفوها في هذا الباب: توحيداً، لأن حقيقة توحيد الله تعالى: إثبات صفات كماله؛ وعُلُوِّه على خلقه، ونفي ذلك وإنكاره: كفرٌ به وجحدٌ له؛ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٥٥؛ ٣/ ٨٣٣ ــ ٨٣٤؛ ١٠٧٠ ــ ١٠٧٢، ومختصره =

٣ ــ دلالة شهادة فحول المتكلمين وأئمة النظر والبحث على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (فحول الكلام وأئمة النظر والبحث الذين سبروا المقالات؛ وتبحَّروا في المعقولات: قد شهدوا لطريقة النفاة المعطلة بمناقضتها للسمع والعقل، وأن السمع والعقل إنما يقتضيان الإثبات؛ وعُلُوَّ الربِّ على جميع المخلوقات، واستواءه على عرشه فوق سبع سماوات)[1].

٤ ــ دلالة اتفاق جميع الأمم على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (عُلُوُّه ــ سبحانه ــ على العالم؛ وأنه فوق السماوات كلِّها؛ وأنه فوق عرشه: أمرٌ مُستقِرٌّ في فطر العباد؛ معلومٌ لهم

= ٤١٤؛ ٤١٦؛ ٤١٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣٥/١.

وقد حكى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١٢٨١/٤ ــ ١٣٠٥]: الإجماع على علوّ الله على خلقه؛ واستوائه على عرشه، ونقل في ذلك: نقولاً كثيرة عن أبي الحسن الأشعري من كتبه، وعن أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب من كتابه (الصفات)، وعن ابن عبد البر من كتابه (التمهيد)، وعن أبي النصر السجزي من كتابه (الإبانة)، وعن نصر المقدسي الشافعي من كتابه (الحجة)، وعن أبي نعيم الأصفهاني في عقيدته المشهورة، وعن أبي أحمد الكرجي في العقيدة التي كتبها للخليفة القادر بالله، وعن معمر بن أحمد الأصفهاني في وصيته لأصحابه، وعن عبد الرحمن بن أبي حاتم في سؤاله لأبيه وأبي زرعة، وعن أبي محمد موفق الدين بن قدامة المقدسي في عقيدته المشهورة، وعن أبي عبد الله القرطبي المالكي في كتابيه: (شرح الأسماء الحسنى)؛ و (التفسير)، إلى غير ذلك من النقول الكثيرة؛ التي ختمها بنقلٍ عن: أبي الوليد بن رشد في كتابه: (مناهج الأدلة).

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١٢٤٣/٤.

بالضرورة، كما اتفق عليه جميع الأمم[1]: إقراراً بذلك وتصديقاً؛ من غير تواطؤٍ منهم على ذلك ولا تشاعرٍ، وهم يُخبرون عن أنفسهم أنهم يجدون ذلك بالضرورة.

وجميع الطوائف تُنكر قول المعطلة؛ إلا من تلقَّاه منهم، وأما العامَّة من جميع الأمم: ففطرهم جميعهم مُقِرَّةٌ بأن الله فوق العالم، وإذا قيل لهم: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، ولا مُباينٌ له ولا مُحايثٌ، ولا يصعد إليه شيءٌ ولا ينزل منه شيءٌ، ولا يقرب إليه شيءٌ ولا يقرب هو من شيءٍ، ولا يحجب العباد عنه حجابٌ منفصلٌ، ولا تُرفع إليه الأيدي ولا تتوجَّه إليه القلوب نحو العلو: أنكرت فطرُهم ذلك غاية الإنكار؛ ودفعته غاية الدفع)[2].

٥ ـ دلالة إقرار المشركين على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (قال تعالى ـ حكاية عن خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ في مُحاجَّته لأبيه ـ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ ﴾[3].

فلو كان إلـه إبراهيم بهذه الصفة والمثابة: لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة؛ فكيف تُنكر عليَّ؟

---

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن جميع الأمم قد اتفقت ـ من غير تواطؤٍ ولا تشاعرٍ ـ على عُلُوِّ الخالق على المخلوقات كلِّها؛ وكونه فوق العالم؛ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٦١ ـ ٧٦٣؛ ٤/ ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٣.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٨١.

(٣) سورة مريم: الآية ٤٢.

لكن كان مع شركه: أعرف بالله من الجهمية، وكذلك كفار قريش؛ كانوا مع شركهم مُقرِّين بصفات الصانع ـ سبحانه ـ وعُلُوِّه على خلقه)[1].

سابعاً: دلالة سجود جميع المخلوقات لله ـ سبحانه وتعالى ـ على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (أخبر ـ سبحانه ـ عن سجود جميع المخلوقات له، فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠ ﴾[2].

فأخبر عن إيمانهم بعُلُوِّه وفوقيته، وخضوعهم له بالسجود تعظيماً وإجلالاً، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ۝١٨ ﴾[3])[4].

ثامناً: دلالة هداية الحيوانات على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله عن النملة: (ومن عجيب هدايتها: أنها تعرف ربَّها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبـي هريرة يرفعه قال: «خرج نبيٌّ من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو؛ مُستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا؛ فقد كُفيتم؛ أو سُقيتم بغيركم». ولهذا الأثر عِدَّة طرقٍ، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره[5].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) سورة النحل: الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) سورة الحج: الآية ١٨.

(٤) الصلاة ص١٨٠.

(٥) أخرجه الطحاوي في شرحه مشكل الآثار [باب بيان مشكل ما رُوي عنه عليه السلام من =

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا مسعر[1] عن زيد العَمِّي[2]، عن أبـي الصديق الناجي[3] قال: (خرج سليمان بن داود يستسقي، فرأى نملة مُستلقية على ظهرها؛ رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللَّـٰهُمَّ إنا خلقٌ من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تُسقينا وترزقنا؛ وإما أن تُهلكنا، فقال: ارجعوا؛ فقد سُقيتم بدعوة غيركم)[4][5].

تاسعاً: دلالة بناء صيغة الثناء: (تعالى) على إثبات صفة العُلُوِّ، وقد

= نهيه عن قتل النملة والنحلة والهدهد والصرد ــ الحديث رقم (٨٧٥) ــ ٢/ ٣٣١]، والدارقطني في سننه [كتاب الاستسقاء ــ الحديث رقم (١) ــ ٢/ ٦٦]، والحاكم في مستدركه [كتاب الاستسقاء ــ الحديث رقم (١٢١٥) ــ ١/ ٤٧٣]، والخطيب البغدادي في تاريخه [١٢/ ٦٥] من حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، ولم أقف عليه عند أحمد.
قال الذهبـي في التلخيص: (صحيح).

(١) هو: أبو سلمة مسعر بن كدام الهلالي الكوفي، شيخ العراق، توفي في رجب سنة خمس وخمسين ومائة.
انظر في ترجمته: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ٧/ ٢٠٩ ــ ٢٧٠، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٧/ ٤٦١ ــ ٤٦٩، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٧/ ١٦٣ ــ ١٧٣.

(٢) هو: أبو الحواري البصري، قاضي هراة.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٣٩٢، الكنى والأسماء لمسلم بن الحجاج ١/ ٢٦٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٠/ ٥٦ ــ ٦٠.

(٣) هو: بكر بن عمرو ــ ويقال: ابن قيس ــ البصري.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٩٣، الكنى والأسماء لمسلم بن الحجاج ١/ ٤٥٠، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٤/ ٢٢٣ ــ ٢٢٤.

(٤) الزهد لأحمد ص١١٠.

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٣٨.

ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (بناء (تعالى): الذي هو دالٌّ على كمال العُلُوِّ ونهايته)[1].

وما تقدَّم ذكره: هو في ذكر الدلائل الدالَّة على عُلُوِّ الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ على خلقه؛ وكونه فوق عباده، وأما الدلائل التي يدلُّ عليها عُلُوُّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ على خلقه؛ وفوقيته عليهم؛ فهي كثيرة جداً، فمن تلك الدلائل التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ :

أولاً: دلالة صفة العُلُوِّ على اسم الجلالة (العليِّ)، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (العليُّ: الذي ليس كمثله شيءٌ في عُلُوِّه، بل هو مُنفردٌ بذاته وصفاته عن مماثلة مخلوقاته، فله أعظم المباينة وأجلُّها وأكملها، كما له من كلِّ صفة كمال: أعظمها وأكملها، فهذه هي المباينة التي لا يليق به غيرها)[2].

ثانياً: دلالة صفة العُلُوِّ على عُلُوِّ الله تعالى المطلق؛ المستلزم لأن يكون (الله تعالى فوق الأمكنة كلِّها؛ ليس في جوفها)[3]، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (اسمه (العليُّ): الذي علا عن كلِّ عيبٍ وسوءٍ ونقصٍ، ومن كمال عُلُوِّه: أن لا يكون فوقه شيءٌ، بل يكون فوق كلِّ شيءٍ[4])[5].

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١٥٩ ــ ١٦١.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣٨.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٦.

(٤) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: البيت رقم (٣٠٧٥) ــ ص٢٣٠]:

(وكذاك يشهد أنه سبحانه ... فوق الوجود وفوق كلِّ مكان).

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥١٠ ــ ٥١٣.

ثالثاً: دلالة صفة العُلُوِّ على ذات الله العليّة؛ التي لا ينفكُّ عنها العلوُّ بحالٍ من الأحوال، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (إن عُلُوَّه ــ سبحانه ــ على سماواته: من لوازم ذاته[1]، فلا يكون قطُّ إلا عالياً؛ ولا يكون فوقه شيءٌ ألبتة، كما قال أعلم الخلق: «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء»[2])[3].

رابعاً: دلالة صفة العُلُوِّ على استواء الرحمن على عرشه، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (إن استواءه على عرشه من لوازم عُلُوِّه)[4].

خامساً: دلالة صفة العُلُوِّ على مباينة الله ــ سبحانه وتعالى ــ لخلقه، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (لما كان حمده والثناء عليه وتمجيده هو مقصود الصلاة ــ التي هي عماد الإسلام ورأس الطاعات ــ : شُرِعَ في أولها ووسطها وآخرها وجميع أركانها، ففي دعاء الاستفتاح: يُحمد ويُثنى عليه ويُمجَّد، وفي ركن القراءة: يُحمد ويُثنى عليه ويُمجَّد، وفي الركوع: يُثنى عليه بالتسبيح والتعظيم، وبعد رفع الرأس منه: يُحمد ويُثنى عليه ويُمجَّد، كما كان النبي ﷺ يقول: «ربنا ولك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد ــ وكلنا لك عبد ــ : لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع

---

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأنَّ العُلُوَّ صفةُ كمالٍ؛ وهي من لوازم ذات الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ ، فلا يكون إلا فوق المخلوقات كلِّها؛ في: الروح ص٢٦٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٠٧، ومختصره ٢/ ٤٢٧ ــ ٤٢٨.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـهُمَّ رب السماوات ورب الأرض».

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٠.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧٥ ــ ٧٦.

ذا الجد منك الجد»[1].

وفي السجود: يُثنى عليه بالتسبيح المُتضمِّن لكماله المُقدَّس والعُلُو[2]؛ المُتضمِّن لمباينته لخلقه[3].

وفي التشهُّد: يُثنى عليه بأطيب الثناء من التحيات، ويُختم ذلك: بذكر حمده ومجده)[4].

سادساً: دلالة صفة العُلُوِّ على امتناع أن يكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام ـ الحديث رقم (٤٧١) ـ ١/ ٣٤٣] من حديث أبي عبيدة بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه: «اللَّـٰهُمَّ ربنا ولك الحمد».

(٢) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لاقتران عُلُوِّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعظمته، وذكر مناسبة تسبيح الربِّ بالعظمة في حال الركوع؛ ومناسبة تسبيحه بالعُلُوِّ في حال السجود؛ في: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧١، ٢/ ٦٣٠ ـ ٦٣١، الصلاة ص١٨١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٦٤ ـ ١٣٦٥؛ ١٣٧١ ـ ١٣٧٢؛ ١٣٧٥؛ ١٣٧٨ ـ ١٣٧٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٠ ـ ٥١؛ ٢٣٥، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص١٢٩.

(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن العُلُوَّ مستلزمٌ لمباينة الربِّ ـ سبحانه وتعالى ـ لخلقه؛ في: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٣٢٦، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٣؛ ٤/ ١٢٧٨؛ ١٣٠٧؛ ١٣٣٨، ومختصره ٢/ ٤١٤؛ ٤٥١، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٨٣٣، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص٢٣ ـ ٢٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٣٠١؛ ٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥؛ ٣٧٨ ـ ٣٧٩؛ ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٧٤ ـ ١٤٧٥.

في السفل، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (إنه قد ثبت بصريح العقل: أنَّ الأمرين المتقابلين إذا كان أحدهما: صفة كمالٍ؛ والآخر: صفة نقصٍ: فإن الله ــ سبحانه ــ يُوصف بالكمال منهما دون النقص.

ولهذا لما تقابل الموت والحياة: وُصِفَ بالحياة دون الموت، ولما تقابل العلم والجهل: وُصِفَ بالعلم دون الجهل، وكذلك العجز والقدرة والكلام والخرس والبصر والعمى والسمع والصمم والغنى والفقر، ولما تقابلت المباينة للعالم والمداخلة له: وُصِفَ بالمباينة دون المداخلة، وإذا كانت المباينة تستلزم عُلُوَّه على العالم أو سفوله عنه؛ وتقابل العُلُوُّ والسفول: وُصِفَ بالعُلُوِّ دون السفول[1])[2].

سابعاً: دلالة صفة العُلُوِّ على ثبوت المثل الأعلى لله ــ سبحانه وتعالى ــ؛ وتنزيهه عن مثل السوء، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (من سلب صفات الكمال عن الله؛ وعُلُوَّه على خلقه وكلامه وعلمه وقدرته ومشيئته وحياته؛ وسائر ما وصف به نفسه: فقد جعل له مثل السوء؛ ونزَّهه عن المثل الأعلى، فإن مثل السوء: هو العدم وما يستلزمه، وضدُّه: المثل الأعلى؛ وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية، التي كُلَّما كانت أكثر في الموصوف وأكمل: كان أعلى من غيره)[3].

---

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن الربَّ ــ تبارك وتعالى ــ إذا كان مُبايناً للعالم: امتنع أن يكون في السفل؛ فوجب قطعاً أن يكون في العُلُوِّ؛ في: زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٢٣٢، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢١٩ ــ ١٢٢٠؛ ١٢٨٠، ومختصره ٢/ ٣٩٦؛ ٤١٨ ــ ٤١٩؛ ٤٦٠، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢١٤.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٠٧.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٣١.

ثامناً: دلالة صفة العُلُوِّ على تنزيه الله ــ سبحانه وتعالى ــ عن مماثلة شيءٍ من الموجودات أو المعدومات، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (المُثبت للصفات والعُلُوِّ والكلام والأفعال وحقائق الأسماء: هو الذي يصفه ــ سبحانه ــ بأنه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[1])[2].

تـاسعاً: دلالة صفة العُلُوِّ على العبودية لله تعالى؛ والإيمان برسله، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله ــ حكاية عن فرعون ــ : (قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[3]. إنَّ عدو الله علم أنه إن أقرَّ بوجود فاطر السماوات والأرض؛ وبصفاته وعُلُوِّه فوق العالم وتكليمه لموسى: أوجب عليه هذا الإقرار الانقياد والعبودية؛ والإيمان بموسى، فلم يجد بُدًّا من إنكار الربِّ؛ وعدم الإقرار به)[4].

عاشراً: دلالة صفة العُلُوِّ على بطلان ألوهية مَن عُبِدَ مِن دون الله ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ وجُعِلُوا شركاء له، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (كثيراً ما يذكرها عند ذكر آلهتهم التي عبدوها من دونه وجعلوها شركاء له، فيذكر ــ سبحانه ــ من صفات كماله وعُلُوِّه على عرشه؛ وتكلُّمه وتكليمه؛ وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته؛ ما هو منتفٍ عن آلهتهم، فيكون ذلك من أدلِّ الدليل على بُطلان إلـهيتها وفساد عبادتها من دونه)[5].

الحادي عشر: دلالة صفة العُلُوِّ القلبَ على الربِّ المعبود؛ والإلـه المقصود، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (إذا تحقَّق العبد عُلُوَّه

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٩.
(٣) سورة القصص: الآية ٣٨.
(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٥٧ ــ ١٥٥٨.
(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٠.

المطلق على كلِّ شيءٍ بذاته؛ وأنه ليس فوقه شيءٌ ألبتة، وأنه قاهرٌ فوق عباده؛ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾[1]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2]: صار لقلبه إماماً يقصده؛ وربًّا يعبده؛ وإلـهاً يتوجَّه إليه.

بخلاف من لا يدري أين ربُّه؛ فإنه ضائعٌ؛ مُشتَّتُ القلب، ليس لقلبه قبلةٌ يتوجَّه نحوها؛ ولا معبودٌ يتوجَّه إليه قصدُه، وصاحب هذه الحال إذا سلك وتألَّه وتعبَّد: طلب قلبُه إلـهاً يسكن إليه ويتوجَّه إليه، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شيءٌ إلا العدم، وأنه ليس فوق العالم إلـه يُعبد؛ ويُصلى له ويُسجد، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلمُ الطيِّبُ؛ ولا يُرفع إليه العملُ الصالحُ: جال قلبه في الوجود جميعه؛ فوقع في الاتحاد ولا بُدَّ، وتعلَّق قلبه بالوجود المطلق الساري في المُعيَّنات؛ فاتخذ إلـهه من دون الإلـه الحقِّ، وظنَّ أنه قد وصل إلى عين الحقيقة، وإنما تألَّه وتعبَّد لمخلوقٍ مثله؛ ولخيالٍ نحته بفكره؛ واتخذه إلـهاً من دون الله ــ سبحانه ــ .

وإلـه الرسل وراء ذلك كلِّه، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾[3]. وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ

---

(١) سورة السجدة: الآية ٥.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٣) سورة يونس: الآيتان ٣ ــ ٤.

كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾[١].

فقد تعرَّف ــ سبحانه ــ إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره ــ سبحانه ــ ؛ وإن زعم أنه مُقرٌّ به)[٢].

الثاني عشر: دلالة صفة العُلُوِّ على ما يطمئنُّ به القلب ويسكن، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (لا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب؛ حتى يُخالط الإيمانُ بأسماء الربِّ تعالى وصفاته وتوحيده وعُلُوِّه على عرشه وتكلُّمه بالوحي: بشاشةَ قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزُّلال على القلب المُلتهب بالعطش؛ فيطمئن إليه ويسكن إليه ويفرح به ويلين له قلبُه ومفاصلُه؛ حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه)[٣].

الثالث عشر: دلالة صفة العُلُوِّ على ما يستغني به القلب، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (جميع ما يبدو للقلوب من صفات الربِّ ــ سبحانه ــ : يستغني العبد بها بقدر حظِّه وقسمه من معرفتها؛ وقيامه بعبوديتها، فمن شهد مشهد عُلُوِّ الله على خلقه؛ وفوقيَّته لعباده؛ واستواءه على عرشه ــ كما أخبر به أعرف الخلق؛ وأعلمهم به؛ الصادق المصدوق ــ ، وتعبَّد بمُقتضى هذه الصفة؛ بحيث يصير لقلبه صمدٌ يعرج القلب إليه؛ مُناجياً له مطرقاً؛ واقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي

---

(١) سورة السجدة: الآيات ٤ ــ ٩.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٨ ــ ٤٩.

(٣) الروح ص٤٩٦ ــ ٤٩٧.

الملك العزيز، فيشعر بأن كلمه وعمله صاعدٌ إليه؛ معروضٌ عليه مع أوفى خاصته وأوليائه: فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يُخزيه ويفضحه هناك، ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلـٰهية إلى أقطار العوالم كلَّ وقتٍ بأنواع التدبير والتصرُّف من الإماتة والإحياء؛ والتولية والعزل؛ والخفض والرفع؛ والعطاء والمنع؛ وكشف البلاء وإرساله؛ وتقلب الدُّول ومداولة الأيام بين الناس، إلى غير ذلك من التصرُّفات في المملكة التي لا يتصرَّف فيها سواه، فمراسمه نافذةٌ فيها كما يشاء، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾[1].

فمن أعطى هذا المشهد حقَّه ــ معرفة وعبودية ــ: استغنى به)[2].

الرابع عشر: دلالة صفة العُلُوِّ على مشهد الإحسان، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (مشهد الإحسان: وهو مشهد المراقبة، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، وهذا المشهد إنما ينشأ من: كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، حتى كأنه يرى الله ــ سبحانه وتعالى ــ فوق سماواته؛ مستوياً على عرشه[3]، يتكلَّم بأمره ونهيه، ويُدبِّر أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده؛ ويصعد إليه، وتُعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه، فيشهد ذلك بقلبه، ويشهد أسماءه وصفاته)[4].

---

(١) سورة السجدة: الآية ٥.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٨٥ ــ ٨٦.

(٣) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن تصديق الخبر بعُلُوِّ الله على خلقه واستوائه على عرشه؛ واليقين به: يُقوِّي القلب؛ حتى يصير الغيب عنده بمنزلة المشاهد بالعين؛ في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٦٠ ــ ١٦١.

(٤) رسالة ابن القيم إلى بعض إخوانه ص٣٨ ــ ٣٩.

الخامس عشر: دلالة صفة العُلُوِّ على كمال أدب المُصلِّي بين يدي ربِّه؛ ووقوفه ناكس الرأس مُطرقاً إلى الأرض، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (قال الله تعالى ــ مُخبراً عن كمال أدب رسوله في ليلة الإسراء ــ: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يميناً ولا شمالاً، ولا طمح مُتجاوزاً إلى ما هو رائيه ومقبلٌ عليه؛ كالمُتشارف إلى ما وراء ذلك.

ولهذا اشتدَّ نهي النبي ﷺ للمُصلِّي أن يزيغ بصره إلى السماء، وتوعَّدهم على ذلك بخطف أبصارهم[2]، إذ هذا من كمال الأدب مع مَنْ المُصلِّي واقفٌ بين يديه، بل ينبغي له أن يقف ناكس الرأس؛ مُطرقاً إلى الأرض.

ولولا أن عظمة ربِّ العالمين ــ سبحانه ــ فوق سماواته على عرشه: لم يكن فرقٌ بين النظر إلى فوق أو إلى أسفل)[3].

وقد أنكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على من قَصَرَ فوقية الله ــ سبحانه وتعالى ــ على فوقية الرُّتبة والفضيلة والقهر دون فوقية الذات؛ مُقرِّراً أن (إنكار حقيقة فوقيته ــ سبحانه ــ؛ وحملها على المجاز:

---

(١) سورة النجم: الآية ١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأذان/ باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة ــ الحديث رقم (٧٥٠) ــ ١/ ٢٣٢] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ، ومسلم في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة ــ الحديث رقم (٤٢٩) ــ ١/ ٣٢١] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ، ولفظ مسلم: «لينتهينَّ أقوامٌ عن رفعهم أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء؛ أو لتُخطفنَّ أبصارهم».

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٢٧١.

باطلٌ من وجوهٍ عديدةٍ[1])[2]، ومن تلك الوجوه التي ذكرها:

أولاً: دلالة القرآن الكريم على بطلان ذلك، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (قد جاءت فوقية الربِّ مقرونة بـ: (من)؛ كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[3].

فهذا صريحٌ في فوقية الذات، ولا يصح حمله على فوقية الرتبة؛ لعدم استعمال أهل اللغة له)[4].

ثانياً: دلالة الأحاديث الصحيحة الصريحة على بطلان ذلك، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (في الصحيحين من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال: «لما قضى الله الخلق؛ كتب في كتابٍ؛ فهو عنده فوق العرش: أن رحمتي سبقت غضبي». وفي لفظ: «فهو عنده موضوعٌ على العرش»[5].

فتأمَّل قوله: «فهو عنده فوق العرش»: هل يصحُّ حمل الفوقية على المجاز؛ وفوقية الرتبة والفضيلة بوجهٍ من الوجوه؟

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ في تفسير قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[6] بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس

---

(١) مثَّل الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٩ ــ ٤١٦] على ما ادَّعى المعطلة مجازه: بصفة الفوقية، وذكر أربعة عشر وجهاً تُبطل حمل فوقية الله ــ سبحانه وتعالى ــ على المجاز.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٩.

(٣) سورة النحل: الآية ٥٠.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤١١.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) سورة الحديد: الآية ٣.

بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[1].

فجعل كمال الظهور موجباً لكمال الفوقية، ولا ريب أنه ظاهرٌ بذاته فوق كلِّ شيءٍ، والظهور هنا: العُلُوُّ، ومنه قوله: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾[2]. أي: يعلوه، وقرَّر هذا المعنى بقوله: «فليس فوقك شيء». أي: أنت فوق الأشياء كلِّها، ليس لهذا اللفظ معنى غير ذلك، لا يصحُّ أن يُحمل الظهور على الغلبة، لأنه قابله بقوله: «وأنت الباطن». فهذه الأسماء الأربعة متقابلة، اسمان لأزل الربِّ تعالى وأبده، واسمان لعُلُوِّه وقربه.

وروى أبو داود بإسنادٍ حسنٍ عنده عن جبير بن محمد بن جبير ابن مطعم[3] عن أبيه[4] عن جدِّه قال: «أتى رسولَ الله ﷺ أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، جهدت نفسي؛ وضاعت العيال؛ ونهكت الأموال؛ وهلكت المواشي؛ فاستسق لنا ربَّك، فإنا نستشفع بك على الله؛ ونستشفع بالله عليك. فما زال يُسبِّح؛ حتى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابه، قال: ويحك، إنه لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك،

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـهُمَّ رب السماوات ورب الأرض».

(٢) سورة الكهف: الآية ٩٧.

(٣) هو: القرشيُّ النوفليُّ المدنيُّ.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥، الثقات لابن حبان ٦/ ١٤٨، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٤/ ٥٠٤ ـ ٥٠٦.

(٤) هو: أبو سعيد القرشيُّ النوفليُّ المدنيُّ، ثقة؛ قليل الحديث، توفي في خلافة سليمان بن عبد الملك.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ١/ ٥٢، الثقات لابن حبان ٥/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٩/ ٧٧.

أتدري ما الله؟ إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته، وإنه ليَئِطُّ به أطيط[1] الرَّحْلِ بالراكب»[2]. فتأمل هذا السياق؛ هل يحتمل غير الحقيقة بوجهٍ من الوجوه؟

وقول النبي ﷺ لسعد بن معاذٍ: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات»[3].

وقول زينب ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات»[4]. لا يصحُّ فيه فوقية المجاز أصلاً، إذ يصير المعنى: زوجني الله حال كونه أفضل من سبع سماوات!

وثبت عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه: (مرَّ بعجوزٍ فاستوقفته، فوقف يُحدثها، فقال له رجلٌ: يا أمير المؤمنين، حبست الناس على هذه العجوز، فقال: ويحك، أتدري من هذه؟ هذه امرأةٌ سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة التي أنزل الله فيها:

---

(1) الأطيط: أصوات الإبل وحنينها وصياحها، وقد يكون الأطيط في غير الإبل أيضاً، وفي المثل: (لا آتيك ما أطَّت الإبل)، وقال الأعشى في [ديوانه: ص١٣٣]؛ في قصيدته التي قالها لأبي ثابتٍ يزيد ابن مسهر الشيباني ـ وقد عُدَّت من معلَّقاته ـ:

(ألستَ منتهياً عن نحت أثلتنا ولستُ ضائرها ما أطَّت الإبلُ).

انظر: غريب الحديث للهروي ٢/ ٣٠٢، غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٣١، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٥٤ [مادة: أطط].

(2) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب السنة/ باب في الجهمية ـ الحديث رقم (٤٧٢٦) ـ ٥/ ٩٤ ـ ٩٥].

وضعفه الألباني في [ضعيف سنن أبي داود: ص٣٨٧].

(3) تقدم تخريجه.

(4) تقدم تخريجه.

﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1]) أخرجه الدارمي وغيره[2].

فسل المُعطِّل: هل يصحُّ أن يكون المعنى: سمع الله قولها حال كونه خيراً وأفضل من سبع سماوات؟)[3].

ثالثاً: دلالة الفطر السليمة والعقول المستقيمة والكتب السماوية الكريمة على بطلان ذلك، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (إن العهد والفطر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزلة: على خلاف ذلك؛ وأنه ـ سبحانه ـ فوق العالم بذاته، فالخطاب بفوقيته ينصرف إلى ما استقرَّ في الفطر والعقول والكتب السماوية)[4].

رابعاً: دلالة اللسان العربـي المبين على بطلان ذلك، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (لو كانت فوقيته ـ سبحانه ـ مجازاً لا حقيقة

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١.

(٢) أخرجه الدارمي في ردِّه على الجهمية [باب استواء الربِّ تبارك وتعالى على العرش وارتفاعه إلى السماء وبينونته من الخلق ـ رقم (٧٩) ـ ص٤٥]؛ وردِّه على المريسي [١/ ٣١٦ ـ ٣١٧]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ـ رقم (٨٨٦) ـ ٢/ ٣٢٢] من رواية أبـي يزيد المدني عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.
وقد ذكر الذهبـي في [العلو للعلي العظيم ـ رقم (١٥٤) ـ ١/ ٦١٠]؛ وابن كثير في [تفسير القرآن العظيم: ٨/ ٣٥]: الانقطاع بين أبـي يزيد وعمر.
وقد أخرجه البخاري في تاريخه الكبير [رقم (١٠٤٧) ـ ٧/ ٢٤٥] من رواية ثمامة بن حزن عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وهو ممن لقيه وروى عنه، كما في تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٤/ ٤٠١.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٠٩ ـ ٤١٠.

لها: لم يتصرَّف في أنواعها وأقسامها ولوازمها؛ ولم يتوسَّع فيها غاية التوسُّع، فإن فوقية الرتبة والفضيلة لا يُتصرَّف في تنويعها إلا بما شاكل معناها، نحو قولنا: هذا خير من هذا؛ وأفضل وأجلُّ وأعلى قيمة؛ ونحو ذلك.

وأما فوقية الذات: فإنها تتنوَّع بحسب معناها، فيُقال فيها: استوى وعلا وارتفع وصعد ويعرج إليه كذا، ويصعد إليه وينزل من عنده؛ وهو عالٍ على كذا، ورفيع الدرجات[1]؛ وتُرفع إليه الأيدي، ويجلس على كرسيه؛ وإنه يطَّلع على عباده من فوق سبع سماواته، وإن عباده يخافونه من فوقهم؛ وإنه ينزل إلى السماء الدنيا، وإنه يُبرم القضاء من فوق عرشه، وإنه دنا من

---

(١) وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته [البيت رقم (١٢٠٧ ــ ١٢١٥) ــ ص١١٠ ــ ١١١] (رفيع الدرجات)؛ مُبيِّناً دلالته على أن درجات الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ مرفوعة؛ لكمال رفعته ــ سبحانه وتعالى ــ، فرفيعٌ بمعنى: رافع، فهو فعيلٌ بمعنى مفعولٍ؛ وليس بمعنى فاعل؛ فقال:

(هـذا وثـامنهـا بسـورة غـافـرٍ ... هـو رفعـة الـدَّرجـات للـرحمـنِ
درجـاتُـه مـرفـوعـة كمعـارجٍ ... أيضـاً لـه وكـلاهمـا رفعـانِ
وفعيـلٌ فيهـا ليـس معنـى فـاعـلٍ ... وسيـاقُهـا يـأبـاه ذو التبيـانِ
لكنهـا مـرفـوعـة درجـاتُـهُ ... لكمـال رفعتـهِ علـى الأكـوانِ
هـذا هـو القـولُ الصحيـحُ فـلا تَحِـدْ ... عنـه وخُـذْ معنـاهُ فـي القـرآنِ
فنظيـرُهـا المُبْـدِي لنـا تفسيـرهـا ... فـي ذي المعـارجِ ليـس يفتـرقـانِ
والـروح والأمـلاك تصعـد فـي معـا ... رِجـهِ إليـه جـلَّ ذو السُّلْطـانِ
ذا رفعـةُ الـدَّرجـاتِ حقًّـا مَـا هُمَـا ... إلا سـواء أو هُمـا شِبْهَـانِ
فخُـذْ الكتـابَ ببعضِـه بعضـاً كـذا ... تفسيـرُ أهـلِ العلـمِ للقـرآنِ).

وانظر الإشارة إلى أن رفيعاً بمعنى: رافع، فهو فعيلٌ بمعنى مفعولٍ؛ وليس بمعنى فاعل: توضيح المقاصد وتصحيح القواعد لابن عيسى ١/ ٤١٥، شرح القصيدة النونية للدكتور محمد خليل هراس ١/ ٢٢١.

رسوله وعبده لما عُرِجَ به إلى فوق السماوات؛ حتى صار قاب قوسين أو أدنى، وإن عباده المؤمنين إذا نظروا إليه في الجنة رفعوا رؤوسهم.

فهذه لوازم الأنواع كلِّها؛ أنواع فوقية الذات ولوازمها؛ لا أنواع فوقية الفضيلة والمرتبة، فتأمَّل هذا الوجه حقَّ التأمُّل؛ تعلم أن القوم أفسدوا اللغة والفطرة والعقل والشرع)(١).

* وها هنا (أصلٌ يجب التمسُّك به في هذا المقام)(٢)، وهو أن عُلُوَّ الله تعالى؛ وفوقيَّته على خلقه؛ واستواءه على عرشه؛ ومباينته لهم: لا تُنافي معيَّته لهم؛ ولا قربه منهم، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك أحسن تقريرٍ؛ مُبيِّناً ما يأتي:

١ ـ أن صفة العُلُوِّ لا تُنافي معية الله تعالى لخلقه، وقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (أخبر الله تعالى أنه مع خلقه؛ مع كونه مستوياً على عرشه، وقرن بين الأمرين؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾(٣).

فأخبر أنه خلق السماوات والأرض؛ وأنه استوى على عرشه، وأنه مع خلقه؛ يبصر أعمالهم من فوق عرشه؛ كما في حديث الأوعال: «والله فوق عرشه يرى ما أنتم عليه»(٤).

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤١٩.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٣٠.

(٣) سورة الحديد: الآية ٤.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٧٧٠) ـ ٣/ ٢٩٢]، وأبو داود في سننه [كتاب السنة/ باب في الجهمية ـ الحديث رقم (٤٧٢٣) ـ ٥/ ٩٣]، والترمذي في جامعه [أبواب التفسير/ باب ومن سورة الحاقة ـ الحديث رقم (٣٣٢٠) ـ =

فعُلُوُّه لا يُناقض معيَّتَه، ومعيَّتُه لا تُبْطِلُ عُلُوَّه، بل كلاهما حقٌّ)[1].

٢ ــ أن صفة العُلُوِّ لا تُنافي قرب الله تعالى من خلقه، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (هو قريبٌ من المحسنين بذاته ورحمته ــ قُرْباً ليس له نظيرٌ ــ ، وهو مع ذلك فوق سماواته على عرشه، كما أنه ــ سبحانه ــ يقرب من عباده في آخر الليل؛ وهو فوق عرشه، فإن عُلُوَّه ــ سبحانه ــ على سماواته من لوازم ذاته، فلا يكون قطُّ إلا عالياً؛ ولا يكون فوقه شيءٌ ألبتة، كما قال أعلم الخلق: «وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء»[2].

وهو ــ سبحانه ــ قريبٌ في عُلُوِّه؛ عالٍ في قربه[3]، كما في الحديث الصحيح عن أبي موسى الأشعري قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فارتفعت أصواتنا بالتكبير، فقال: أيها الناس، إربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[4].

= ٥/٣٤٨]، وابن ماجه في سننه [المقدمة/ باب فيما أنكرت الجهمية ــ الحديث رقم (١٩٣) ــ ١/ ١٢٦ ــ ١٢٧]، من حديث العباس بن عبد المطلب ــ رضي الله عنه ــ ، وأوله: «ما تسمُّون هذه؟».
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (١٢٤٧) ــ ٣/ ٣٩٨ ــ ٤٠٢].

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥٦ ــ ٤٥٧.
(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـٰهُمَّ رب السماوات ورب الأرض».
(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن الله ــ سبحانه ــ لعظمته: فهو عالٍ في قربه؛ قريبٌ في عُلُوِّه؛ في: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧١، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٨٣.
(٤) تقدم تخريجه، ولفظه: «يا أيها الناس؛ إربعوا على أنفسكم».

فأخبر ﷺ وهو أعلم الخلق به أنه: «أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته». وأخبر أنه فوق سماواته على عرشه؛ مُطَّلعٌ على خلقه؛ يرى أعمالهم ويرى ما في بطونهم، وهذا حقٌّ لا يُناقض أحدُهما الآخرَ.

والذي يُسَهِّل عليك فهم هذا: معرفة عظمة الربِّ؛ وإحاطته بخلقه، وأن السماوات السبع في يده كخردلةٍ في يد العبد، وأنه ــ سبحانه ــ يقبض السماوات بيده والأرض بيده الأخرى؛ ثم يهزهن، فكيف يستحيل في حقِّ من هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه؛ ويقرب من خلقه كيف شاء؛ وهو على العرش؟)[1].

(فهذه كلماتٌ مختصرةٌ نافعةٌ في)[2] هاتين المسألتين ــ المعية والقرب ــ (الشريفتين؛ الصادرتين عن علم قد رسخ أسفله؛ وبسق أعلاه، وأينعت ثمرته؛ وذُلِّلت للطالب قطوفه)[3].

وفي ختام تقرير منثور كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لمسألة العُلُوِّ والفوقية[4]: (تبيَّن الصبح لذي العينين، وجُلِبَت عليك المسألة رافلة في حلل أدلَّتها الصحيحة؛ وبراهينها المستقيمة.

ولا تغضض طرف بصيرتك عن هذه المسألة؛ فإن شأنها عظيمٌ؛ وخطبها جسيمٌ)[5]، إذ (ليس في الصفات الإلـٰهية أظهر من)[6] دلالتها.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٠.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٢٣٣.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٣٩٦.

(٤) وانظر في منظوم كلامه: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٣٥٧ ــ ٣٦٦؛ ٤١٠ ــ ٤١١؛ ٤٢٤؛ ٥٢٣؛ ١١١٢ ــ ١٧٥٦؛ ٣٠٧٥؛ ٣٢١٢ ــ ٣٢١٤؛ ٣٧١١ ــ ٣٧١٢؛ ٤١٨٢ ــ ٤١٨٣؛ ٤٥٩٣؛ ٤٧٠٣ ــ ٤٧٣١)].

(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٣٩٨.

(٦) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٧١.

لذا نجد أن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ قد اعتنى بتقريرها عناية بالغة، حيث أفردها بمصنفٍ مُستقلٍّ؛ وسمه بـ : (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية).

وقد حشد فيه ــ كما تقدَّم ــ : جيوش الأدلة النقلية؛ وعساكر القواطع العقلية؛ وكتائب الدلائل الفطرية الدالَّة على إثبات مسألة عُلُوِّ الله تعالى؛ وفوقيَّته على خلقه؛ واستوائه على عرشه، وضمنه: آي الكتاب العزيز، وأحاديث النبي ﷺ، وما حُفِظَ عن أصحاب رسول الله ﷺ؛ والتابعين؛ والأئمة الأربعة؛ وأتباعهم ممن يُقتدى بأقوالهم، وأقوال أئمة الحديث والتفسير واللغة العربية ــ الذين يُحتجُّ بقولهم ــ ؛ والزُّهاد والصُّوفية ــ أهل الاتباع ــ ؛ والشارحين لأسماء الله الحسنى؛ وأهل الكلام ــ من أهل الإثبات ــ ؛ وشعراء الإسلام؛ والفلاسفة المتقدمين والحكماء الأولين، ثم ختم ــ رحمه الله تعالى ــ كتابه بذكر أقوال الجن المؤمنين، ثم أتبعه بذكر أقوال الحيوانات.

وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ إلى هذا المُصنَّف ــ بعد حكايته لأقوال الأئمة في الإسلام والسنة والجماعة؛ المُتوافرين على إثبات عُلُوِّ الله تعالى؛ وفوقيَّته على خلقه؛ واستوائه على عرشه[(١)] ــ بقوله: (وهذه النقول التي حكيناها: قليلٌ من كثيرٍ، وقد ذكرنا أضعاف أضعافها في كتاب: (اجتماع العساكر الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية)، وهي تُبيِّنُ كذب من قال: إنه لم يقل بذلك إلا الكرامية[(٢)]

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٨١ ــ ١٣٠٥.

(٢) هم: أصحاب محمد بن كرام السجستاني، انتهت بهم بدعتهم وغُلُوُّهم في إثبات الصفات إلى التجسيم؛ وتجويز قيام الحوادث بذات الله المقدَّسة.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية في [الفرقان بين الحق والباطل ١٣/ ١٥٤]: =

والحنبلية؛ وفِرْيَتَه وجَهْلَه)[1].

(وها هنا دقيقةٌ ينبغي التفطُّن لها؛ وهي أن)[2] بعض صفات الله العلى دلَّت على عُلُوِّ الله تعالى وفوقيته على خلقه بالالتزام، فمن ذلك: صفة الاستواء؛ وصفة النزول؛ وصفة الرؤية، وسيأتي ـ بمشيئة الله تعالى ـ تَتْرا: تقريرُ الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لتعيينها؛ وذكر أدلة ثبوتها؛ وبيان معانيها.



= (محمد بن كرام: كان بعد ابن كلاب ـ في عصر مسلم بن الحجاج ـ ، أثبت أنه يُوصف بالصفات الاختيارية، ويتكلَّم بمشيئته وقدرته، ولكن عنده يمتنع أنه كان في الأزل مُتكلِّماً بمشيئته وقدرته؛ لامتناع حوادث لا أوَّل لها، فلم يقل بقول السلف ـ إنه لم يزل مُتكلِّماً إذا شاء ـ ، بل قال: إنه صار يتكلَّم بمشيئته وقدرته؛ كما صار يفعل بمشيئته وقدرته بعد أن لم يكن كذلك) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

وانظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/٩٩ ـ ١٠٥، لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ٥/٣٥٣ ـ ٣٥٦، الفوائد المجتمعة في بيان الفرق الضالة والمبتدعة لليازجي ص٣٥.

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٣٠٥.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٣٧.

المطلب الثاني:

جهوده في تقرير صفة الله تعالى: الاستواء

إنَّ جميع الأدلَّة المُقرِّرة لصفة عُلُوِّ الله تعالى وفوقيته على العبيد: مستلزمةٌ لصفة استواء الرحمن على عرشه المجيد، إلا أن هناك بعض المعاني التي قرَّرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مسألة الاستواء على وجه الخصوص؛ يحسن ذكرها في هذا المطلب.

فهناك ارتباطٌ وثيقٌ بين استواء الرحمن على عرشه المجيد وبين عُلُوِّه وفوقيته على العبيد، ذلك أن الاستواء: حقيقةٌ في عُلُوِّ الله تعالى، كما أن فوقيته تعالى على خلقه: تفسيرٌ لهذا الاستواء، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذه العلاقة بقوله: (لفظ الاستواء: حقيقة في العُلُوِّ)[1].

كما قرَّرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (الفوقية: هو تفسير الاستواء المذكور في القرآن والسنة)[2].

وعمدة الأدلة القرآنية المُقرِّرة لصفة الاستواء: قد حكاها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٧٤.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٦٣.

﴿ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ في سبع آيات من القرآن[1]؛ حقيقةٌ عند جميع فرق الأمة، إلا الجهمية ومن وافقهم، فإنهم قالوا: هو مجازٌ[2])[3].

وهذه الآيات السبع: تجتثُّ شجرة التعطيل الخبيثة، وتُبطل قول أهل التعطيل والتنديد؛ المنكرين لاستواء الرحمن ـ سبحانه وتعالى ـ على عرشه المجيد، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[4]؛ يتضمن: إبطال قول المعطلة والجهمية؛ الذين يقولون: ليس على العرش شيءٌ سوى العدم، وإن الله ليس مستوياً على عرشه، ولا تُرفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ إليه، ولا عُرِجَ برسوله محمد ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا غيرُه، ولا ينزل هو كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا، ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم مِنْ فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عياناً بأبصارهم مِنْ فوقهم، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوقٍ؛ كما أشار إليه النبي ﷺ في أعظم مجامعه في حجَّة الوداع؛ وجعل يرفع أصبعه إلى السماء ويُنكِّبها إلى الناس، ويقول: «اللَّـهُمَّ اشهد»[5])[6].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٤، سورة يونس: الآية ٣، سورة الرعد: الآية ٢، سورة طه: الآية ٥، سورة الفرقان: الآية ٥٩، سورة السجدة: الآية ٤، سورة الحديد: الآية ٤.

(٢) وقد أبطل الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ قولهم من اثنين وأربعين وجهاً؛ كما في: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٥٢ـ ٣٧٠.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٤، سورة يونس: الآية ٣، سورة الرعد: الآية ٢، سورة الفرقان: الآية ٥٩، سورة السجدة: الآية ٤، سورة الحديد: الآية ٤.

(٥) تقدم تخريجه، وأوله: «أن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج».

(٦) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٩٥ ـ ٩٦.

وأما الأحاديث النبوية الدالَّة على صفة الاستواء: فقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ طرفاً منها بقوله: (وأما الأحاديث: فمنها: قصة المعراج؛ وهي متواترةٌ، وتجاوز النبي ﷺ السماوات سماءً سماءً حتى انتهى إلى ربِّه تعالى، فقرَّبه وأدناه، وفرض عليه الصلوات: خمسين صلاة، فلم يزل بين موسى ــ عليه السلام ــ وبين ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ، وينزل من عند ربِّه تعالى إلى عند موسى؛ فيسأله: كم فرض عليك؟ فيخبره؛ فيقول: ارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيف. فيصعد إلى ربِّه فيسأله التخفيف[1])[2]، إلى آخر كلامه، حيث استطرد ــ رحمه الله تعالى ــ في ذكر أحاديث الاستواء ــ التي تقدَّم ذكر طرفٍ منها في مسألة العُلُوِّ والفوقية ــ[3].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الأمور التي تُعين على إثبات استواء الرحمن ــ سبحانه وتعالى ــ على عرشه إثباتاً صحيحاً؛ لا تستحيل طهارته ولا تتغيَّر بنجاسة التعطيل، ولا تتلطخ بدم التمثيل، فمن ذلك:

١ ــ أن تُفهم صفة الاستواء بواسطة معرفة الله تعالى بالمثل الأعلى؛ وعبادته وسؤاله به، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قد أخبر النبي ﷺ: «إن السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة»[4].

والعرش لا يقدر قدره إلا الله، وهو سبحانه فوق عرشه يرى ما عباده عليه، فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المصدقين العارفين به ــ سبحانه ــ

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «أُتيتُ بالبراق فركبته».

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٩٨.

(٣) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٩٨ ــ ١١٨.

(٤) تقدم تخريجه، ولفظه: «ما السماوات السبع في الكرسي».

من المثل الأعلى، فعرفوه به، وعبدوه به، وسألوه به، فأحبُّوه وخافوه ورجوه، وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واطمأنُّوا بذكره، وأنسوا بحبِّه؛ بواسطة هذا التعريف.

فلم يصعب عليهم بعد ذلك فهم استوائه على عرشه؛ وسائر ما وصف به نفسه من صفات كماله، إذ قد أحاط علمهم بأنه: لا نظير لذلك؛ ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلته لشيءٍ من المخلوقات.

وقد أعلمهم ــ سبحانه ــ على لسان رسوله أنه: «يقبض سماواته بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن»[1]. وأن «السماوات السبع والأرضين السبع في كفه تعالى كخردلةٍ في كفِّ أحدكم»[2]. وأنه «يضع السماوات على أُصبع، والأرضين على أُصبع، والجبال على أُصبع، والشجر على أُصبع، وسائر الخلق على أُصبع»[3])[4].

٢ ــ أن تُحفظ حرمة صفة الاستواء؛ بإجرائها على ظاهرها، واعتقاد أنها صفةُ استواءِ مَنْ ليس كمثله شيءٌ، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات: بإجراء أخبارها على ظواهرها، وهو اعتقاد مفهومها المتبادر إلى أذهان العامة، ولا يُعنى بالعامة: الجهال؛ بل عامة الأمة، كما قال مالك ــ رحمه الله ــ وقد سُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[5]؟ فأطرق مالكٌ؛ حتى علاه الرحضاء، ثم قال: (الاستواء معلومٌ؛ والكيف غير معقولٍ؛ والإيمان به

---

(١) تقدم تخريجه، ولفظه: «يقبض الله الأرض ويطوي السماوات».

(٢) تقدم تخريجه، ولفظه: «ما السماوات السبع والأرضون».

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «يا محمد؛ إن الله تعالى يمسك السماوات».

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٣١ ــ ٤٣٢.

(٥) سورة طه: الآية ٥.

واجبٌ؛ والسؤال عنه بدعةٌ)[1].

ففرَّق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة وبين الكيف الذي لا يعقله البشر، وهذا الجواب من مالك ــ رضي الله عنه ــ شاف عام في جميع مسائل الصفات، فمن سأل عن قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾[2]: كيف يسمع ويرى؟ أجيب بهذا الجواب بعينه؛ فقيل له: السمع والبصر معلومٌ؛ والكيف غير معقولٍ، وكذلك من سأل عن العلم والحياة والقدرة والإرادة والنزول والغضب والرضى والرحمة والضحك وغير ذلك: فمعانيها كلُّها مفهومةٌ، وأما كيفيتها فغير معقولةٍ، إذ تعقُّل الكيفية: فرعُ العلم بكيفية الذات وكنهها، فإذا كان ذلك غير معقولٍ للبشر؛ فكيف يُعقل لهم كيفية الصفات؟

والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يُوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ؛ ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، بل تُثبت له الأسماء والصفات؛ وتُنفى عنه مشابهة المخلوقات، فيكون إثباتك منزهاً عن التشبيه؛ ونفيك منزهاً عن التعطيل.

فمن نفى حقيقة الاستواء: فهو مُعطِّلٌ، ومن شبَّهه باستواء المخلوق على المخلوق: فهو مُمثِّلٌ، ومن قال: استواء ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[3]: فهو المُوحِّد المُنزِّه)[4].

٣ ــ أن يُعتقد أنه لا تنافي بين قرب الربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ من

(١) تقدم تخريجه.
(٢) سورة طه: الآية ٤٦.
(٣) سورة الشورى: الآية ١١.
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٨٩ ــ ٩٠.

خلقه؛ واستوائه على عرشه، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (وأما القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصاً، وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة؛ وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١]. ولهذا نزلت جواباً للصحابة ــ رضي الله عنهم ــ؛ وقد سألوا رسول الله ﷺ: «ربنا قريبٌ فنناجيه؛ أم بعيدٌ فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»[٢].

والثاني: قوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[٣]. و«أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل»[٤]. فهذا قربه من أهل طاعته. وفى الصحيح عن أبـي موسى ــ رضي الله عنه ــ قال: «كنا مع النبـي ﷺ في سفرٍ، فارتفعت أصواتنا بالتكبير، فقال: يا أيها الناس إربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميعٌ قريبٌ؛ أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[٥]. فهذا قربٌ خاصٌّ بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد.

وهذا القرب لا يُنافي كمال مباينة الربِّ لخلقه؛ واستوائه على عرشه، بل يُجامعه ويُلازمه، فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض ــ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ــ، ولكنه نوعٌ آخر)[٦].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «يا رسول الله؛ ربنا قريب».

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٧٦ ــ ٢٧٧.

٤ ـ أن يُتيقَّن أن استواء الله تعالى على عرشه: دالٌّ على مباينته لخلقه، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾[1]: من أدلِّ شيءٍ على مباينة الربِّ لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته؛ بل خلقهم خارجاً عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه، فيراهم؛ وينفذهم بصره؛ ويُحيط بهم علماً وقدرة و إرادة وسمعاً وبصراً، فهذا معنى كونه ـ سبحانه ـ معهم أينما كانوا)[2].

٥ ـ أن يُعلم أن العرش لما كان أوسع المخلوقات: فقد شرف بأن يستوي الله تعالى عليه بأوسع الصفات، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيراً[3]، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[4]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[5].

فاستوى على عرشه باسم (الرحمن)، لأن العرش محيطٌ بالمخلوقات؛ قد وسعها، والرحمة محيطةٌ بالخلق؛ واسعةٌ لهم،

---

(١) سورة الحديد: الآية ٤.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧١.

(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن الرحمن ـ سبحانه وتعالى ـ استوى على عرشه ـ الذي وسع المخلوقات ـ بصفة رحمته ـ التي وسعت كلَّ شيءٍ ـ ، لتسع رحمته كلَّ شيءٍ؛ كما وسع عرشه كلَّ شيءٍ؛ في: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٩، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٦٧.

(٤) سورة طه: الآية ٥.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٥٩.

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1].

فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كلَّ شيءٍ، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابٍ ــ فهو عنده موضوعٌ على العرش ــ : إنَّ رحمتي تغلب غضبي». وفي لفظ: «فهو عنده على العرش»[2].

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة؛ ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[3]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾[4]: ينفتح لك بابٌ عظيمٌ من معرفة الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ إن لم يُغلقه عنك التعطيل والتجهم)[5].

٦ ــ أن يُعلم أن استواء الرحمن على عرشه المجيد: مما يستلزمه اسمه (المَلِك)، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (اسمه (الملك): يدلُّ على ما يستلزم حقيقة ملكه؛ من قدرته وتدبيره؛ وعطائه ومنعه؛ وثوابه وعقابه، وبثِّ رسله في أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه؛ وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته؛ الذي هو عرشه المجيد[6])[7].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سورة طه: الآية ٥.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٥٩.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٢ ــ ٤٣.

(٦) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن المَلِك الحقَّ يقتضي أن يستوي على سرير ملكه؛ ليُدبِّر أمر عباده؛ في: التبيان في أقسام القرآن ص٩٥.

(٧) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٤ ــ ٣٧٥.

٧ ــ أن يُعتقد أن العرش المجيد: مختصٌّ بالله تعالى؛ لا يليق بغيره أن يستوي عليه، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (وصفه بأنه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾[(١)]؛ الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختصَّ به لا يليق بغيره أن يستوي عليه، ووصفه بالمجد؛ المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم)[(٢)].

وقد دلَّت الدلائل والبراهين على أن استواء الرحمن على عرشه: استواءٌ حقيقيٌّ؛ غير مجازٍ، كما دلَّت على أن تأويل لفظ (استوى) بلفظ (استولى) باطلٌ من وجوهٍ عِدَّةٍ، فمن هذه الدلائل والبراهين التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ :

١ ــ أن تأويل لفظ (استوى) بلفظ (استولى): غير جائز في لغة العرب، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (الاستواء في اللغة: معلومٌ مفهومٌ، وهو: العُلُوُّ والارتفاع على الشيء؛ والاستقرار والتمكُّن فيه[(٣)].

قال أبو عبيدة[(٤)] في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾[(٥)]؛ قال: (علا. وتقول

---

(١) سورة غافر: الآية ١٥، سورة البروج: الآية ١٥.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص١٢٩.

(٣) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٣/ ١٢٤، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده ٨/ ٤٢٦، لسان العرب لابن منظور ١٤/ ٤١٤ [مادة: سوى].

(٤) هو: معمر بن المثنى التيمي مولاهم البصري، العلامة النحوي، ولد سنة عشر ومائة؛ في الليلة التي توفي فيها الحسن البصري، وتوفي سنة تسع ومائتين؛ وقد قارب مائة عام أو كمَّلها.
انظر في ترجمته: معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٩/ ١٥٤ ــ ١٦٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/ ٤٤٥ ــ ٤٤٧، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي ٢/ ٤٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٩، سورة الأعراف: الآية ٥٤، سورة يونس: الآية ٣، =

العرب: استويت فوق الدابة؛ واستويت فوق البيت)[1].

قال أبو عمرو[2]: (الاستقرار في العُلُوِّ)[3].

وبهذا خاطبنا ــ عزَّ وجلّ ــ في كتابه فقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾[4]. وقال: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾[5]. وقال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾[6].

وقال الشاعر:

فأوردتهم ماءً أسفاً قعره ... وقد حلَّق النجم اليماني فاستوى[7].

= سورة الرعد: الآية ٢، سورة طه: الآية ٥، سورة الفرقان: الآية ٥٩، سورة السجدة: الآية ٤، سورة فصلت: الآية ١١، سورة الحديد: الآية ٤.

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٧٣؛ ٢/ ١٥.

(٢) هو: زبان بن العلاء بن عمار التميمي المازني البصري، شيخ القراء والعربية، اختلف في اسمه على أحد وعشرين قولاً، وسبب ذلك: أنه كان لجلالته لا يُسأل عنه، ولد في نحو سنة سبعين، وتوفي بالإسكندرية سنة أربع وخمسين ومائة.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/ ٤٠٧ ــ ٤١٠، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٢٨٨ ــ ٢٩٢، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ٢/ ٢٣١ ــ ٢٣٢.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) سورة الزخرف: الآية ١٣.

(٥) سورة هود: الآية ٤٤.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ٢٨.

(٧) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا البيت في كتابه [اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص١٤٥]، ولم يعزه لقائل.
وقد ذكره الفراهيدي في [العين ٣/ ١٢٦؛ ٨/ ٤٠٨]، والأزهري في [تهذيب اللغة ٤/ ٢٦٥]، وابن منظور في [لسان العرب ٢/ ٥٠٥]، ولم يعزوه لقائل، وصدره عندهم:
وصبَّحتهم ماءً بفيفاء قفرة ... .

وهـذا لا يجـوز أن يتـأوَّل فيـه أحـدٌ أن معنـاه: استـولـى، لأن النجـم لا يستولي)[1].

٢ ــ أن لفـظ (استـوى) لـو فُـرِضَ احتمـال اللغـة لحَمْلِـهِ علـى معنـى الاستيلاء: فحمل آيات الاستواء عليه باطلٌ، لأن الله تعالى ورسوله ﷺ قد عيَّنا منها معنى واحداً، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ لفظ الاستواء بقوله: (إنا لو فرضنا احتمال اللفظ في اللغة لمعنى الاستيلاء؛ والخمسة عشر معنى: فالله ورسوله قد عيَّن بكلامه منها معنى واحداً؛ ونوَّع الدلالة عليه أعظم تنويعٍ، حتى يُقال بذلك: ألف دليلٍ.

فالصحابة كلُّهم متفقون؛ لا يختلفون في ذلك المعنى، ولا التابعون وأئمـة الإسلام، ولم يقـل أحـد منهم: إنـه بمعنى استولى؛ وإنـه مجـازٌ، فلا يضرُّ الاحتمال بعد ذلك في اللغة لو كان حقًّا.

ولمـا سئـل مـالـك وسفيـان بـن عيينـة ــ وقبلهمـا ربيعـة بـن أبـي عبد الرحمن ــ عن الاستواء؟ فقالوا: (الاستواء معلومٌ)[2]. تلقَّى ذلك عنهم جميع أئمة الإسلام، ولم يقل أحدٌ منهم: إنه يحتاج إلى صرفه عن حقيقته إلى مجازه؛ ولا إنه مجملٌ؛ له مع العرش خمسة عشر معنى)[3].

٣ ــ أنَّ إخراج لفظ (استوى) عن حقيقته المعلومة: كإنكار ورود لفظه؛ بل أبلغ، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن نقل معنى الاستواء وحقيقته كنقل لفظه؛ بل أبلغ، فإن الأمة كلَّها تعلم بالضرورة أن الرسول أخبر عن ربِّه بأنه استوى على عرشه ــ من يحفظ القرآن منهم؛ ومن

---

(١) تهذيب مختصر سنن أبـي داود ١٣/ ٢٠ ــ ٢١.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٧٠.

لا يحفظه ـــ ، وهذا المعنى عندهم كما قال مالك وأئمة السنة: (الاستواء معلومٌ غير مجهولٍ)(١).

كما أن معنى السمع والبصر والقدرة والحياة والإرادة وسائر ما أخبر به عن نفسه: معلومٌ، فإخراج الاستواء عن حقيقته المعلومة: كإنكار ورود لفظه؛ بل أبلغ، وهذا مما يُعلم أنه مناقضٌ لما أخبر به ورسوله)(٢).

٤ ـــ أن لفظ (استوى) قد اطَّرد في جميع موارده على هذا اللفظ، ولم يخرج في موردٍ واحدٍ منها عن ذلك، وقد ذكر ـــ رحمه الله تعالى ـــ ذلك بقوله: (الظاهر في معناه إذا اطَّرد استعماله في موارده مستوياً: امتنع تأويله؛ وإن جاز تأويل ظاهر ما لم يطَّرد في موارد استعماله، ومثال ذلك: اطراد قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾(٣). ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾(٤). في جميع موارده ـــ من أوَّلها إلى آخرها ـــ على هذا اللفظ، فتأويله باستولى: باطلٌ، وإنما كان يصحُّ أن لو كان أكثر مجيئه بلفظ (استولى)؛ ثم يخرج موضعٌ عن نظائره ويرد بلفظ استوى، فهذا كان يصح تأويله باستولى.

فتفطَّن لهذا الموضع، واجعله قاعدة فيما يمتنع تأويله من كلام المتكلم؛ وما يجوز تأويله)(٥).

٥ ـــ أن لفظ (استوى) إذا عُدِّي بأداة (إلى): دلَّ على معنى العُلُوِّ والارتفاع بالإجماع، وقد ذكر ـــ رحمه الله تعالى ـــ ذلك بقوله: (ذكر

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٦٥.

(٣) سورة طه: الآية ٥.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٤، سورة يونس: الآية ٣، سورة الرعد: الآية ٢، سورة الفرقان: الآية ٥٩، سورة السجدة: الآية ٤، سورة الحديد: الآية ٤.

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٥ ـــ ٣٨٦.

ـ سبحانه ـ هذا المُعدَّى بـ (إلى) في موضعين من كتابه، في (البقرة)؛ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[1]. والثاني في سورة (فصلت): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[2].

وهذا بمعنى: العُلُوِّ والارتفاع؛ بإجماع السلف)[3].

٦ ـ أن إجماع أهل السنة والجماعة منعقدٌ على إثبات صفة الاستواء؛ حقيقة لا مجازاً، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الإجماع منعقدٌ على أن (الله ـ سبحانه ـ استوى على عرشه) حقيقةٌ لا مجاز.

قال الإمام أبو عمر الطلمنكي ـ أحد أئمة المالكية؛ وهو شيخ أبي عمر بن عبد البر ـ في كتابه الكبير الذي سماه: (الوصول إلى معرفة الأصول)؛ فذكر فيه من أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ وأقوال مالك وأئمة أصحابه؛ ما إذا وقف عليه الواقف: عَلِمَ حقيقة مذهب السلف، وقال في هذا الكتاب: (أجمع أهل السنة على أن الله تعالى على عرشه؛ على الحقيقة لا على المجاز)[4].

٧ ـ أن أهل السنة والجماعة لم يكتفوا بالإجماع على إثبات صفة الاستواء؛ حتى صرَّحوا باقترانه بالذات العليّة؛ تأكيداً لإثبات هذه الصفة، وإبطالاً لدعوى المجاز فيها، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الجهمية لما قالوا: إن الاستواء مجازٌ: صرَّح أهل السنة بأنه مستوٍ بذاته على

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٩.

(٢) سورة فصلت: الآية ١١.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٥٢.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٥٧.

عرشه، وأكثر من صرَّح بذلك: أئمة المالكية[(١)])[(٢)].

فجميع ما تقدَّم ذكره: دالٌ على استواء الرحمن على عرشه: استواء حقيقياً؛ غير مجازٍ، وأن لفظ (استوى): على بابها المعلوم المفهوم المتبادر إلى أذهان أهل اللسان العربي المبين؛ وهو: العُلُوُّ والارتفاع على الشيء؛ والاستقرار والتمكُّن فيه، لا أنه بمعنى (استولى).

فالربُّ ــ تبارك وتعالى ــ قد (استوى على عرشه؛ واستولى على خلقه)[(٣)]، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ: (هو الأول الذي ليس قبله شيءٌ؛ والآخر الذي ليس بعده شيءٌ، والظاهر الذي ليس فوقه شيءٌ؛ والباطن الذي ليس دونه شيءٌ، ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهو مستوٍ على عرشه؛ مستولٍ على خلقه[(٤)])[(٥)].



(١) وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص١٤١ ــ ١٦٤]: قول إمام دار الهجرة مالك بن أنس ــ رحمه الله تعالى ــ؛ وقول أئمة أصحابه من بعده في: إثبات صفة عُلُوِّ الله على البريَّات؛ وفوقيته على المخلوقات؛ واستوائه بذاته على عرشه المجيد؛ ومباينته للعبيد.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٥٧.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣١؛ ٢/ ٨٣٣.

(٤) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: البيت رقم (٤٨٤٥) ــ ص٣٤٣]:

(وقد استويتَ على سرير الملك واسـ ـتوليتَ مع هذا على البلدان).

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٤٢.

المطلب الثالث:

جهوده في تقرير صفة الله تعالى: النـزول

إنَّ جميع الأدلة المُقرِّرة لصفة نزول الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ: مستلزمة لعُلُوِّ الله تعالى وفوقيته على العبيد؛ واستوائه على عرشه المجيد، وذلك أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين صفة النزول وبين صفة العُلُوِّ، لأن (النزول المعقول عند جميع الأمم: إنما يكون من عُلُوٍّ إلى أسفل)[1].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ العلاقة بين النزول والعُلُوِّ بقوله: (إن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر: هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل، والربُّ تعالى إنما يُخاطب عباده بما تعرفه فطرهم؛ وتشهد به عقولهم)[2].

وقد دلَّت النصوص الصحيحة الصريحة على إثبات صفة النزول للربِّ ـ تبارك وتعالى ـ، فأما دلالة القرآن الكريم على هذه الصفة الكريمة: فقد ذكرها ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (النزول إلى الأرض يوم القيامة: قد تواترت به الأحاديث والآثار[3]، ودلَّ عليه القرآن صريحاً في قوله:

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٣٠١.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٢٩٤ ـ ٢٩٧.

(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن الرواية تواترت عن رسول الله ﷺ: بنزول الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ =

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾[1])[2].

وأما دلالة الأحاديث النبوية الشريفة على هذه الصفة الكريمة: فقد جاءت من أوجهٍ كثيرةٍ، وقد ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (في لفظ لمسلمٍ فيه: «ينزل الله ــ عزَّ وجلّ ــ إلى سماء الدنيا كلَّ ليلةٍ حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك؛ وأنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر». وفي لفظ آخر لمسلمٍ: «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه: ينزل الله ــ تبارك وتعالى ــ إلى سماء الدنيا فيقول: هل من سائلٍ يُعطى؟ هل من داعٍ فيُستجاب له؟ هل من مُستغفرٍ فيُغفر له؟ حتى ينفجر الصبح». وفي لفظ آخرٍ لمسلمٍ: «من يدعوني فأستجيب له؟ أو يسألني فأعطيه؟ ثم يقول: من يقرض غيرِ عديم ولا ظلوم». وفي لفظ آخر له: «ثم

= كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا؛ وبلغت نحو ثلاثين حديثاً؛ رواها عنه: أبو بكرٍ الصديق؛ وعليُّ بن أبي طالب؛ وأبو هريرة؛ وجبير بن مطعمٍ؛ وجابر بن عبد الله؛ وعبد الله بن مسعودٍ؛ وأبو سعيدٍ الخدريُّ؛ وعمرو بن عبسة؛ ورفاعة بن عرابة الجهمي؛ وعثمان بن أبي العاص الثقفي؛ وعبد الحميد بن سلمة عن أبيه عن جدِّه؛ وأبو الدرداء؛ ومعاذ بن جبل؛ وأبو ثعلبة الخشني؛ وعائشة أم المؤمنين؛ وأبو موسى الأشعريُّ؛ وأم سلمة؛ وأنس بن مالكٍ؛ وحذيفة بن اليمان؛ ولقيط بن عامرٍ العقيليُّ؛ وعبد الله بن عباسٍ؛ وعبادة بن الصامت؛ وأسماء بنت يزيد؛ وأبو الخطاب؛ وعوف بن مالكٍ؛ وأبو أمامة الباهليُّ؛ وثوبان؛ وأبو حارثة؛ وخولة بنت حكيمٍ ــ رضي الله عنهم ــ ؛ في: تهذيب مختصر سنن أبي داود ١٣/ ٤٣ ــ ٤٤، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٧ ــ ٣٨٨ ومختصره ٢/ ٤٢٠؛ ٤٢٣؛ ٤٣٠.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٤٣.

يبسط يديه ــ تبارك وتعالى ــ : من يُقرض غير عديمٍ ولا ظلومٍ»[1].

وفي صحيح مسلمٍ أيضاً عن أبـي سعيد وأبـي هريرة ــ رضي الله عنهما ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يُمهل، حتى إذا ذهب ثلث الليل الأول نزل إلى سماء الدنيا، فيقول: هل من مُستغفرٍ؟ هل من تائبٍ؟ هل من سائلٍ؟ هل من داعٍ؟ حتى ينفجر الفجر»[2]. ورواه الترمذي، ثم قال: (وفي الباب عن عليٍّ؛ وأبـي سعيدٍ؛ ورفاعة الجهني؛ وجبير بن مطعم؛ وابن مسعود؛ وأبـي الدرداء؛ وعثمان بن أبـي العاص، وحديث أبـي هريرة: حديث حسن صحيح)[3].

وقد رُوِيَ هذا الحديث من أوجهٍ كثيرةٍ؛ عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ، ورُوِيَ عنه أنه قال: «ينزل الله ــ عزَّ وجلّ ــ حين يبقى ثلث الليل الآخر»[4]. وهو أصحُّ الروايات)[5].

وها هنا (أصلٌ عظيمٌ يجب معرفته، ومن أحاط به علماً: تبيَّن له أن)[6] صفةَ النزول ثابتةٌ للربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، وهذا الأصل: هو دلالة هذه الصفة على أوجه الجمال والكمال والجلال اللائق بالربِّ ــ تبارك

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ــ الحديث رقم (٧٥٨) ــ ١/ ٥٢١ ــ ٥٢٢] من حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ــ الحديث رقم (٧٥٨) ــ ١/ ٥٢٣].

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الدعوات/ باب (٧٨) ــ الحديث رقم (٣٤٩٨) ــ ٥/ ٤٧٨ ــ ٤٧٩].

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «ينزل ربنا كل ليلة».

(٥) تهذيب مختصر سنن أبـي داود ١٣/ ٤٣ ــ ٤٤.

(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٩٠.

وتعالى ـ ، وهو أصلٌ حريٌّ أن يُشار من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ (إلى يسيرٍ منه؛ يكون مُنبِّهاً على ما وراءه، دالاً على ما سواه)[1]، فمن ذلك:

١ ـ أن صفة النزول من لوازم رحمة الله تعالى وربوبيته، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (نزوله كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا في نصف الليل الثاني: من لوازم رحمته وربوبيته)[2].

٢ ـ أنَّ صفة النزول تدلُّ على عناية الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بعباده؛ وإحسانه إليهم؛ وتحنُّنه وتحبُّبه وتلطُّفه بهم، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (ملأ ـ سبحانه وتعالى ـ سماواته من ملائكته؛ واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين؛ والاستغفار لذنوبهم؛ ووقايتهم عذاب الجحيم؛ والشفاعة إليه بإذنه أن يُدخلهم جناته.

فانظر إلى هذه العناية؛ وهذا الإحسان؛ وهذا التحنُّن والعطف والتحبُّب إلى العباد واللُّطف التامِّ بهم، ومع هذا كلِّه بعد أن أرسل إليهم رسله؛ وأنزل عليهم كتبه؛ وتعرَّف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه: ينزل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا، يسأل عنهم؛ ويستعرض حوائجهم بنفسه؛ ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مُسيئهم إلى التوبة؛ ومريضهم إلى أن يسأله أن يشفيه؛ وفقيرهم إلى أن يسأله غناه؛ وذا حاجتهم يسأله قضاءها كلَّ ليلةٍ، ويدعوهم إلى التوبة)[3].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٤٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧٦.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧٢ ـ ٥٧٣.

٣ ــ أن نزول الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ مقترنٌ بقربه تعالى من عباده؛ ورحمته بهم، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن انتصاف النهار مقابلٌ لانتصاف الليل، وأبواب السماء تُفتح بعد زوال الشمس، ويحصل النزول الإلـٰهيُّ بعد انتصاف الليل[١]، فهما وقتا قربٍ ورحمةٍ، هذا تُفتح فيه أبواب السماء، وهذا ينزل فيه الربُّ ــ تبارك وتعالى ــ إلى سماء الدنيا)[٢].

٤ ــ أن صفة النزول لا تُناقض عُلُوَّ الله على خلقه؛ واستواءه على عرشه، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (هو فوق عرشه، إذ لا يكون الربُّ إلا فوق كلِّ شيءٍ، ففوقيته وعُلُوُّه من لوازم ذاته، ولا تناقض بين نزوله ودُنوِّه وهبوطه ومجيئه وإتيانه وعُلُوِّه؛ لإحاطته وسعته وعظمته، وأن السماوات والأرض بقبضته، وأنه مع كونه الظاهر؛ الذي ليس فوقه شيءٌ: فهو الباطن؛ الذي ليس دونه شيءٌ، فظهوره بالمعنى الذي فسَّره به أعلم الخلق: لا يُناقض بطونه بالمعنى الذي فسَّره به أيضاً، فهو ــ سبحانه ــ يدنو ويقرب ممن يُريد الدُّنوَّ والقرب منه؛ مع كونه فوق عرشه)[٣].

٥ ــ أنَّ الربَّ ــ تبارك وتعالى ــ يتقدَّم إلى أهل سماواته بنزوله؛ ويُحدث لهم من عظمة ذلك الأمر قبل وقوعه ما يُناسبه، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إذا كان الله تعالى يتقدَّم إلى ملائكته

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في [سؤال في حديث النزول وجوابه ٥/ ٤٧٠]: (إن كان النبي ﷺ قد ذكر النزول أيضاً إذا مضى ثلث الليل الأول؛ وإذا انتصف الليل: فقوله حقٌّ؛ وهو الصادق المصدوق، ويكون النزول أنواعاً ثلاثة: الأول: إذا مضى ثلث الليل الأول، ثم إذا انتصف ــ وهو أبلغ ــ، ثم إذا بقي ثلث الليل ــ وهو أبلغ الأنواع الثلاثة ــ) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٣٠٩ ــ ٣١٠.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٨.

ورسله بإعلامهم بما يُريد فعله من الأمور العظام: فلا يُنكر أن يتقدَّم إلى أهل سماواته بنزوله، ويُحدث للسماوات والملائكة من عظمة ذلك الأمر قبل وقوعه ما يُناسب ذلك الأمر، وهكذا يفعل ـ سبحانه ـ إذا جاء يوم القيامة، فتتأثَّر السماوات والملائكة قبل النزول، فسُمِّي ذلك نزولاً لأنه من مُقدِّماته ومُتصلاً به، كما أطلق ـ سبحانه ـ على وقت الزَّلزلة والرَّجفة ـ المتصلة بالساعة ـ : أنها يوم القيامة والساعة، وذلك موجودٌ في القرآن، فمقدِّمات الشيء ومباديه كثيراً ما يدخل في مُسمَّى اسمه، وهذا الوجه أقوى الوجوه)[1].

٦ ـ أنَّ صفة النزول سالمةٌ من كلِّ وجهٍ يُضادُّ كمال الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ ، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (نزوله كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا: سلامٌ مما يُضادُّ عُلُوَّه، وسلامٌ مما يُضادُّ غناه وكماله.

سلامٌ من كلِّ ما يتوهَّم مُعطِّلٌ أو مُشبِّهٌ، وسلامٌ من أن يصير تحت شيءٍ؛ أو محصوراً في شيءٍ، تعالى الله ربُّنا عن كلِّ ما يُضادُّ كماله وغناه)[2].

(وها هنا نكتةٌ ينبغي التفطُّن لها؛ وهي: أنَّ)[3] هناك أوجهاً تُبطل تأويل صفة النزول؛ وحملها على المجاز، ومن هذه الأوجه التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ :

١ ـ أن نزول الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ لا يُشبه نزول خلقه، لأن الربَّ ـ سبحانه ـ غير مماثلٍ لخلقه، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٣٢.

(٢) بدائع الفوائد ٢/١١٨.

(٣) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٢١١.

ذلك بقوله: (إن الأوهام الباطلة والعقول الفاسدة لما فهمت من نزول الربِّ ومجيئه وإتيانه وهبوطه ودنوه: ما يُفهم من مجيء المخلوق وإتيانه وهبوطه ودُنوِّه ــ وهو أن يفرغ مكاناً ويشغل مكاناً ــ : نفت حقيقة ذلك؛ فوقعت في محذورين: محذور التشبيه؛ ومحذور التعطيل.

لو علمت هذه العقول الضعيفة أن نزوله ــ سبحانه ــ ومجيئه وإتيانه لا يُشبه نزول المخلوق وإتيانه ومجيئه؛ كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك؛ بل يده الكريمة ووجه الكريم كذلك، وإذا كان نزولاً ليس كمثله نزول؛ فكيف تُنفى حقيقتُه؟ فإن لم تنف المعطلة حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله بالكلية؛ وإلا تناقضوا، فإنهم أيَّ معنى أثبتوه: لزمهم في نفيه ما ألزموا به أهل السنة المثبتين لله ما أثبت لنفسه، ولا يجدون إلى الفرق سبيلاً، فلو كان الربُّ ــ سبحانه ــ مماثلاً لخلقه: لزم من نزوله خصائص نزولهم؛ ضرورة ثبوت أحد المثلين للآخر)[1].

٢ ــ أن النبي ﷺ قد صرحَّ بإضافة النزول إلى الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ في جميع أحاديثه؛ تصريحاً لا يُوقع في اللبس، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن أعلم الخلق بالله؛ وأنصحهم للأمة؛ وأقدرهم على العبارة ــ التي لا تُوقع لبساً ــ : قد صرَّح بالنزول مضافاً إلى الربِّ في جميع الأحاديث، ولم يذكر في موضعٍ واحدٍ ما ينفي الحقيقة؛ بل يُؤكِّدها، فلو كانت إرادة الحقيقة باطلة؛ وهي منفية: لزم القدح في علمه؛ أو نصحه؛ أو بيانه)[2].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٩.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٥.

٣ ـ أن نزول الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ عُبِّر عنه بعباراتٍ متنوِّعةٍ؛ تُؤكِّد إرادة حقيقته، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إنه لم يقتصر على لفظ (النزول) العاري عن قرينة المجاز؛ المذكور معه ما يُؤكِّد إرادة الحقيقة؛ حتى نوَّع هذا المعنى، وعبَّر عنه بعباراتٍ متنوعةٍ، كالهبوط والدُّنوِّ والمجيء والإتيان والطواف في الأرض قبل يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[(١)]. وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[(٢)].

ففرق بين إتيان أمره وبين إتيان نفسه)[(٣)].

٤ ـ اقتران الأحاديث كلِّها بما يدلُّ على إرادة حقيقة نزول الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ؛ دون اقترانها بما يدلُّ على مجازه بوجهٍ ما، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن نزول الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ إلى سماء الدنيا: قد تواترت الأخبار به عن رسول الله ﷺ، رواه عنه نحو ثمانية وعشرون نفساً من الصحابة، وهذا يدلُّ على أنه كان يُبلِّغه في كلِّ موطنٍ ومجمعٍ.

فكيف تكون حقيقته محالاً وباطلاً؛ وهو ﷺ يتكلم بها دائماً ويُعيدها ويُبديها مرة بعد مرة؛ ولا يقرن باللفظ ما يدلُّ على مجازه بوجهٍ ما؛ بل يأتي بما يدلُّ على إرادة الحقيقة؟ كقوله: «ينزل ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا؛ فيقول: وعزتي وجلالي، لا أسأل عن عبادي غيري»[(٤)]. وقوله: «من ذا

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٥.

(٤) لم أقف عليه.

الذي يسألني فأُعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له»[1]. وقوله: «فيكون كذلك حتى يطلع الفجر، ثم يعلو على كرسيه»[2].

فهذا كلُّه بيانٌ لإرادة الحقيقة؛ ومانعٌ من حمله على المجاز)[3].

٥ ـ أن سياق الأحاديث المُصرِّحة بإضافة النزول إلى الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ: نصٌّ في معنى النزول؛ لا تحتمل غيره بوجهٍ، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن قوله: «من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»؛ إذا ضممت هذا إلى قوله: «ينزل ربُّنا إلى سماء الدنيا»؛ وإلى قوله: «فيقول»؛ وإلى قوله: «لا أسأل عن عبادي غيري»: علمتَ أن هذا مُقتضى الحقيقة لا المجاز، وأن هذا السياق نصٌّ في معناه؛ لا يحتمل غيره بوجهٍ، خصوصاً إذا أُضيف إلى قوله: «ثم يعلو على كرسيه»[4].

وقوله في حديث المزيد في الجنة؛ الذي قال فيه: «إن ربك اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسكٍ أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل عن كرسيه» ثم ذكر الحديث؛ وفي آخره: «ثم يرتفع؛

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «ينزل ربنا كل ليلة».

(٢) أخرجه الدراقطني في كتاب النزول [ذكر الرواية عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في ذلك ـ الحديث رقم (٧) ـ ص٩٧]، وأوله: «إن الله ينزل كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا».

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٣.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله ينزل كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا».

ويرتفع معه النبيون والصديقون»[1])[2].

٦ ــ اطراد الأحاديث كلِّها المُصرِّحة بالنزول بإضافته إلى الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ دون إضافته في موضعٍ واحدٍ إلى غيره، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إطراد قوله: «ينزل ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا فيقول» في نحو ثلاثين حديثاً؛ كلُّها مُصرِّحة بإضافة النزول إلى الربِّ، ولم يجىء موضعٌ واحدٌ بقوله: ينزل ملك ربِّنا؛ حتى يُحمل ما خرج عن نظائره عليه)[3].

وثمة لوازمُ فاسدةٌ تلزم كلَّ من تأوَّل صفة نزول الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ وصرفها عن حقيقتها إلى مجازها، وادَّعى أن المراد بالنزول الوارد في النصوص الشرعية: هو نزول المَلَكِ من عند الله تعالى؛ أو نزول رحمته، ومن هذه اللوازم التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ :

١ ــ أن يقول المَلَكُ: لا أسأل عن عبادي غيري؛ ومن يسألني فأعطيه، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (عن رفاعة الجهمي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مضى نصف الليل؛ أو ثلث الليل: نزل الله ــ عزَّ وجلّ ــ إلى سماء الدنيا، فقال: لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط [الحديث رقم (٦٧١٣) ــ ٧/ ٣٦٧ ــ ٣٦٨]، من حديث أنس ابن مالك ــ رضي الله عنه ــ .
قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٠/ ٤٢١ ــ ٤٢٢]: (أحد إسنادي الطبراني: رجاله رجال الصحيح؛ غير عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد وثَّقه غير واحدٍ، وضعفه غيرهم).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٥.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٧ ــ ٣٨٨.

الذي يستغفرني فأغفر له، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، حتى ينفجر الفجر». هذا حديث صحيح؛ رواه الإمام أحمد في مسنده(١).

وفيه ردٌّ على من زعم أن الذي ينزل مَلَكٌ من الملائكة، فإن الملك لا يقول: لا أسأل عن عبادي غيري، ولا يقول: من يسألني فأعطيه)(٢).

٢ ــ أن يختصَّ نزول رحمة الله تعالى بالثلث الأخير من الليل، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قول من قال: يأتي أمره؛ وينزل رحمته. فإن أراد أنه ــ سبحانه ــ إذا نزل وأتى حلَّت رحمته وأمره: فهذا حقٌّ، وإن أراد أن النزول والمجيء والإتيان للرحمة والأمر ليس إلا: فهو باطلٌ من وجوهٍ عديدةٍ؛ قد تقدَّمت، ونزيدها وجوهاً أُخَرَ:

منها أن يُقال: أتريدون رحمته وأمره: صفته القائمة بذاته، أم مخلوقاً مُنفصلاً؛ سمَّيتموه رحمة وأمراً؟ فإن أردتم الأول: فنزوله يستلزم نزول الذات؛ ومجيئها قطعاً، وإن أردتم الثاني: كان الذي ينزل ويأتي لفصل القضاء مخلوقاً محدثاً؛ لا رب العالمين، وهذا معلوم البطلان قطعاً، وهو تكذيبٌ صريحٌ للخبر، فإنه يصح معه أن يُقال: لا ينزل إلى سماء الدنيا؛ ولا يأتي لفصل القضاء، وإنما الذي ينزل ويأتي غيره.

ومنها: كيف يصحُّ أن يقول ذلك المخلوق: لا أسأل عن عبادي غيري، ويقول: من يستغفرني فأغفر له؟

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦٢١٥) ــ ٢٦/ ١٥٢ ــ ١٥٣].
قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١/ ٢٠ ــ ٢١]: (رواه أحمد، وعند ابن ماجه بعضه، ورجاله موثقون).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٣٤.

ونزول رحمته وأمره: مُستلزمٌ لنزوله ـ سبحانه ـ ومجيئه، وإثبات ذلك للمخلوق مُستلزمٌ للباطل؛ الذي لا يجوز نسبته إليه ـ سبحانه ـ ، مع ردِّ خبره صريحاً.

ومنها: أن نزول رحمته وأمره لا يختصُّ بالثلث الأخير، ولا بوقتٍ دون وقتٍ ينزل أمره ورحمته، فلا تنقطع رحمته ولا أمره عن العالم العلويِّ والسفليِّ طرفة عينٍ)[1].

وقد اجتمعت كلمة أهل السنة والجماعة على الإيمان بصفة نزول الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ والإقرار بها ـ موافقة للوحيين المطهرين ـ ، فاجتمعت دلالة الكتاب والسنة والإجماع على إثبات هذه الصفة، وقد حكى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الأدلة بقوله: (دلَّ القرآن والسنّة والإجماع على أنه ـ سبحانه ـ يجيء يوم القيامة، وينزل لفصل القضاء بين عباده، ويأتي في ظللٍ من الغمام والملائكة، وينزل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا، وينزل عشية عرفة، وينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، وينزل إلى أهل الجنة، وهذه أفعال يفعلها بنفسه في هذه الأمكنة)[2].

وقد وقع بين أهل السنة والجماعة خلافٌ في بعض فروع هذه المسألة ـ بعد إجماعهم على أصلها ـ ، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ من فروع هذه الصفة ـ التي وقع الخلاف فيها ـ ما يأتي:

١ ـ هل يُقال ينزل الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ بذاته العلية أم لا؟ وقد حكى ـ رحمه الله تعالى ـ أقوال أهل السنة والجماعة الثلاثة؛ فقال:

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥١ .

(اختلف أهل السنة في نزول الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ على ثلاثة أقوالٍ:

أحدها: (أنه ينزل بذاته)[1]، وهو قول الإمام أبـي القاسم التيمي ـ وهو من أجلِّ الشافعية، له التصانيف المشهورة، كـ : (الحُجَّة في بيان المحجَّة)؛ وكتاب: (الترغيب والترهيب) وغيرهما، وهو متفقٌ على إمامته ودلالته ـ .

قال شيخنا: (وهذا قول طوائف من أهل الحديث والسنة والصوفية والمتكلمين، ورُوِيَ في ذلك حديثٌ مرفوعٌ؛ لا يثبت رفعه[2]، قال أبو موسى المديني[3]: إسناده مدخولٌ، وفيه مقالٌ، وعلى بعضهم مطعنٌ لا تقوم بمثله الحجة، ولا يجوز نسبة قوله إلى رسوله ﷺ، وإن كنا نعتقد صحته؛ إلا أن يرد بإسناد صحيح)[4].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٤] الحديث بقوله: (عن أنس يرفعه: «إذا أراد الله أن ينزل عن عرشه: نزل بذاته». قلت: وهذا اللفظ لا يصحُّ عن النبي ﷺ، ولا يحتاج إثبات هذا المعنى إليه، فالأحاديث الصحيحة: صريحة؛ وإن لم يذكر فيها لفظ الذات).

(٣) هو: محمد بن أبـي بكر عمر الأصبهاني الشافعي، شيخ المحدثين، ولد في ذي القعدة سنة إحدى وخمسمائة، وتوفي في ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وكانت ولادته ووفاته بأصبهان.
انظر في ترجمته: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٤/ ٢٨٦، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٢١/ ١٥٢ ـ ١٥٩، تتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي ٢/ ١٣٦.

(٤) انظر: سؤال في حديث النزول وجوابه لابن تيمية ٥/ ٣٩٤ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

وقالت طائفةٌ منهم: لا ينزل بذاته.

وقالت فرقةٌ أخرى: نقول ينزل، ولا نقول: بذاته؛ ولا بغير ذاته، بل نُطلق اللفظ كما أطلقه رسول الله ﷺ، ونسكت عما سكت عنه)(١).

٢ ــ هل يُقال يدوم نزول الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ إلى انقضاء صلاة الصبح؛ أو إلى طلوع الفجر؟ وقد حكى ــ رحمه الله تعالى ــ قَوْلَيْ أهل السنة والجماعة؛ فقال: (إن قرآن الفجر مشهودٌ، يشهده الله تعالى وملائكته(٢)، وقيل: يشهده ملائكة الليل والنهار(٣).

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٤٧.

(٢) يشهد لهذا القول: حديث أبي الدرداء يرفعه قال: «شهده الله وملائكة الليل وملائكة النهار»، المُخرَّج في الرد على الجهمية للدارمي [باب النزول ــ الحديث رقم (١٢٧) ــ ص٦٤ ــ ٦٥]، وكتاب العرش لابن أبي شيبة [الحديث رقم (٨٦) ــ ص٤٨٢ ــ ٤٨٥]، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري [١٥/ ١٣٩]، وكتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عزَّ وجلّ لابن خزيمة [باب ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام ــ الحديث رقم (١٩٩) ــ ١/ ٣٢٢ ــ ٣٢٥]، وكتاب النزول للدارقطني [ذكر الرواية عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في ذلك ــ الحديث رقم (٧٣) ــ ص١٥١ ــ ١٥٢]، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي [سياق ما روي عن النبي ﷺ في نزول الرب تبارك وتعالى ــ الحديث رقم (٧٥٦) ــ ٣/ ٤٤٢].
وفي إسناده: زيادة بن محمد الأنصاري؛ منكر الحديث.
وقد حكم الذهبي في [ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٢/ ٩٨] على ألفاظ هذا الحديث بقوله: (فهذه ألفاظ منكرة؛ لم يأت بها غير زيادة).

(٣) يشهد لهذا القول: حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ في قوله ــ عزَّ وجلّ ــ : ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٨] قال: «تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار»، المُخرَّج في مسند أحمد [الحديث رقم (١٠١٣٣) ــ ١٦/ ١٢٦]، وكتاب القراءة خلف الإمام للبخاري =

والقولان مبنيان على أن النزول الإلـهي: هل يدوم إلى انقضاء صلاة الصبح؛ أو إلى طلوع الفجر؟[1] وقد ورد فيه هذا وهذا[2])[3].

وهذا الخلاف الواقع بين أهل السنة والجماعة: (إذا تدبَّره العاقل: علم أنه)[4] خلافُ تنوُّعٍ؛ واقعٌ في فروع هذه الصفة، وهو لا يعود على إجماع أهل السنة والجماعة على إثبات هذه الصفة بالنقض، لأنه غير متعلِّقٍ

= [باب هل يقرأ بأكثر من فاتحة الكتاب خلف الإمام ـ ص٦٢]، وجامع الترمذي [أبواب تفسير القرآن/ باب ومن سورة بني إسرائيل ـ الحديث رقم (٣١٣٥) ـ ٥/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥]، وسنن النسائي الكبرى [كتاب التفسير/ باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ ـ الحديث رقم (١١٢٢٩) ـ ١٠/ ١٥٢ ـ ١٥٣]، وسنن ابن ماجه [كتاب الصلاة/ باب وقت صلاة الفجر ـ الحديث رقم (٦٧٠) ـ ١/ ٣٧٢].
وصححه الألباني في [صحيح سنن ابن ماجه: الحديث رقم (٥٥٠) ـ ١/ ٢٠٨].

(١) قال شيخ الإسلام في [سؤال في حديث النزول وجوابه ٥/ ٤٧٢]: (قال النبي ﷺ: «ينزل ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر؛ فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر». فقد أخبر بدوامه إلى طلوع الفجر، وفي رواية: «إلى أن ينصرف القارىء من صلاة الفجر». وقد قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾. تشهده ملائكة الليل والنهار، وقد قيل: يشهده الله وملائكته) [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٢٧٣]: هدي النبي ﷺ في القنوت في النوازل، والسرُّ في أن أكثر قنوته كان في صلاة الفجر، وذلك لأجل ما شُرِعَ فيها من التطويل، ولاتصالها بصلاة الليل، وقربها من السحر وساعة الإجابة، وللتنزُّل الإلـهيِّ.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٢١٦.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٩.

بإثبات الصفة؛ وإنما هو مُتعلِّقٌ بلوازم الإثبات، فتدبَّر فقه هذا الخلاف، فإن من تدبَّره حقَّ تدبُّره: (انتفع به غاية النفع، وتخلَّص به من أشراك الضلال)[1]، والله أعلم.

فهذا جملة ما يتعلَّق بتقرير الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لصفة نزول الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ من منثور كلامه[2].

والشارع الحكيم لم يُورد النصوص المُثبتة لصفة نزول الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ مجرَّدة عمَّا (يُؤكِّد إرادة الحقيقة؛ حتى نوَّع هذا المعنى، وعبَّر عنه بعباراتٍ مُتنوعةٍ)[3]؛ كالمجيء والإتيان.

وهذه الصفات الدالَّة على صفة النزول؛ من المجيء والإتيان: (كلُّها أنواع أفعالٍ، وهو الفعَّال لما يُريد، وأفعاله كصفاته قائمة به، ولولا ذلك لم يكن فعالاً ولا موصوفاً بصفات كماله)[4].

❑ ❑ ❑

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٠٥.

(٢) انظر تقريره من منظوم كلامه: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤٤٧ ـ ٤٤٩؛ ١١٩٨ ـ ١٢٠٣؛ ١٧١٣ ـ ١٧١٤؛ ٣٧١٧ ـ ٣٧١٨)].

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٥.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٨.

المطلب الرابع:

جهوده في تقرير صفتي الله تعالى: المجيء والإتيان؛ المعيَّة

اجتهد الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير وصف الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بصفتي: المجيء والإِتيان؛ والمعيَّة لخلقه، مُبيِّناً أن هاتين الصفتان لا تُناقضان وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالعُلُوِّ؛ بل تُجامعانه وتدلان عليه، وإيضاح هذا التقرير يتجلَّى في المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى:

صفة المجيء والإتيان.

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير صفة المجيء والإتيان[1]؛ مُبيِّناً أن هذه الصفة وردت في النصوص الشرعية على

(١) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٤٥، إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٤، التبيان في أقسام القرآن ص١٢٨، الروح ص٢٩١، زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٧٩، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٣١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠؛ ٣٩٥؛ ٢/ ٤٠١؛ ٣/ ٩١٦؛ ٩٥٣؛ ١٠٠٩؛ ١١٥١، =

نوعين: ورودِ مطلقٍ وورودِ مُقيَّدٍ، فأما الورود المطلق: فهو نصٌّ في مجيء وإتيان الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، لأن من تأمَّل نصوص الكتاب والسنة المتضمنة لمجيء وإتيان الله ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ وما فيها من (مجيئه يوم القيامة لمحاسبة خلقه وإشراق الأرض بنوره، وكذلك مجيئه إلى الأرض حين دحاها وسوَّاها ومدَّها وبسطها وهيَّأها لما يُراد منها، وكذلك مجيئه يوم القيامة حين يقبض من عليها ولا يبقى بها أحدٌ)[1]؛ من تأملَّ هذه النصوص: (عَلِمَ قطعاً بُطلان تأويلها بما يُخرجها عن حقائقها، فإنها وردت على وجهٍ لا يحتمل معه التأويل بوجهٍ)[2]، حيث تضمنت هذه النصوص إزالة الوهم؛ ورفع الإشكال عن الفهم، فتأمَّلها: تجد (هذا لائحاً على صفحاتها؛ بادياً على ألفاظها)[3].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ نوعي المجيء والإتيان المطلق والمقيَّد بقوله: (الإتيان والمجيء من الله تعالى نوعان: مطلق ومقيد، فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه: كان مقيداً؛ كما في الحديث: «حتى جاء الله بالرحمة والخير»[4]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[5]. وقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾[6].

= ومختصره ٢/ ٣٣٩ ــ ٣٤٠؛ ٣٧٨؛ ٤٢٥؛ ٤٢٩؛ ٤٤٤؛ ٤٥١ ــ ٤٥٢، الفوائد ص٢٠٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٦١؛ ٣٧٠؛ ٤٨٢ ــ ٤٨٣، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٧٣.

(١) الروح ص٢٦٨.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٠.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٩٥.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٥٢.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ٧١.

وفي الأثر: (لا يأتي بالحسنات إلا الله)[1].

النوع الثاني: المجيء والإتيان المطلق، كقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾[2]. وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[3].

وهذا لا يكون إلا مجيئه ــ سبحانه ــ ، هذا إذا كان مطلقاً، فكيف إذا قُيِّد بما يجعله صريحاً في مجيئه نفسه، كقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[4]. فعطف مجيئه على مجيء الملائكة، ثم عطف مجيء آياته على مجيئه.

ومن المجيء المقيد: قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[5]. فلما قيَّده بالمفعول ــ وهو البنيان ــ وبالمجرور ــ وهو القواعد ــ : دلَّ ذلك على مجيء ما بيَّنه، إذ من المعلوم أن الله ــ سبحانه ــ إذا جاء بنفسه لا يجيء من أساس الحيطان وأسفلها.

وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ﴾[6]. فهذا مجيءٌ مُقيَّدٌ لقومٍ مخصوصين قد أوقع بهم

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل [ما جاء في الطيرة ــ الحديث رقم (٥٣٩) ــ ص٣٦٢] من حديث عبد الرحمن بن سابط الجمحي، وأوله: «إنه ليس من عبدٍ إلا ستدخل الطيرةُ قلبَه».

(٢) سورة الفجر: الآية ٢٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٠.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٥) سورة النحل: الآية ٢٦.

(٦) سورة الحشر: الآية ٢.

بأسه، وعلم السامعون أن جنوده من الملائكة والمسلمين أتوهم، فكان في هذا السياق ما يدلُّ على المراد على أنه لا يمتنع في الآيتين أن يكون الإتيان على حقيقةٍ، ويكون ذلك دُنُواً ممن يُريد إهلاكهم بغضبه وانتقامه، كما يدنو عشية عرفة من الحجاج برحمته ومغفرته، ولا يلزم من هذا الدُنُوِّ والإتيان الملاصقة والمخالطة، بل يأتي هؤلاء برحمته وفضله، وهؤلاء بانتقامه وعقوبته، وهو فوق عرشه، إذ لا يكون الربُّ إلا فوق كلِّ شيءٍ، ففوقيته وعُلُوُّه من لوازم ذاته، ولا تناقض بين نزوله ودُنُوِّه وهبوطه ومجيئه وإتيانه؛ وعُلُوِّه، لإحاطته وسعته وعظمته، وأن السماوات والأرض بقبضته، وأنه مع كونه الظاهر الذي ليس فوقه شيءٌ: فهو الباطن الذي ليس دونه شيءٌ)[1].

وقد فرَّقت النصوص بين إتيان الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ وإتيان ملائكته؛ وإتيان بعض آياته، وهذا التقسيم والتنويع: يدلُّ على إرادة الحقيقة؛ وعلى بطلان دعوى المجاز فيها، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾[2]: فعَطْفُ مجيء الملك على مجيئه ــ سبحانه ــ: يدلُّ على تغاير المجيئين، وأن مجيئه ــ سبحانه ــ حقيقةٌ؛ كما أن مجيء الملك حقيقةٌ، بل مجيء الربِّ ــ سبحانه ــ أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك.

وكذلك قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾[3]. ففرَّق بين إتيان الملائكة وإتيان الربِّ وإتيان بعض آيات ربِّك، فقسَّم ونوَّع، ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحداً؛ فتأمله.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٢٧ ــ ٤٢٨.

(٢) سورة الفجر: الآية ٢٢.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللفظ على مجازه، وقالوا: هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد)[1].

المسألة الثانية:

صفة المعيّة.

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير وصف الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بمعيّته لخلقه[2]؛ مبيناً أن معيَّة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لخلقه تتضمن: الدلالة على صحبة الله تعالى لخلقه الصحبة اللائقة بكماله وجماله وجلاله، وأنها نوعان: معيَّةٌ عامَّةٌ؛ ومعيَّةٌ خاصَّةٌ، وأنه لا منافاة بين (عُلُوِّه على جميع خلقه مع إحاطته ومعيَّته)[3]، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (معية الله تعالى مع عبده نوعان: عامة وخاصة، وقد اشتمل القرآن على النوعين؛ وليس ذلك بطريق الاشتراك اللفظيِّ، بل حقيقتها ما تقدَّم من الصحبة اللائقة.

وقد أخبر الله تعالى أنه مع خلقه؛ مع كونه مستوياً على عرشه، وقرن بين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾[4].

فأخبر أنه خلق السماوات والأرض؛ وأنه استوى على عرشه، وأنه مع

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٣٩.

(٢) انظر: الفوائد ص١٨٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٨١، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥٨، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٨١.

(٣) الفوائد ص١٨٦.

(٤) سورة الحديد: الآية ٤.

خلقه؛ يُبصر أعمالهم من فوق عرشه، كما في حديث الأوعال: «والله فوق عرشه يرى ما أنتم عليه»[1].

فعُلُوُّه لا يُناقض معيَّتَه، ومعيَّتُه لا تُبطل عُلُوَّه، بل كلاهما حقٌّ، فمن المعية الخاصة: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾[2]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾[3]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾[4]. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩٤﴾[5]. ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[6].

ومن العامة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[7]. وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية[8])[9].

إلى أن قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (وقال تعالى في المعية الخاصة لموسى وأخيه: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾[10]. وقال في العامة: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥﴾[11].

فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه؛ حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون،

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «ما تسمُّون هذه؟».
(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٣، سورة الأنفال: الآية ٤٦.
(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.
(٤) سورة النحل: الآية ١٢٨.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٤، سورة التوبة: الآيتان ٣٦؛ ١٢٣.
(٦) سورة التوبة: الآية ٤٠.
(٧) سورة الحديد: الآية ٤.
(٨) سورة المجادلة: الآية ٧.
(٩) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥٦ ــ ٤٥٧.
(١٠) سورة طه: الآية ٤٦.
(١١) سورة الشعراء: الآية ١٥.

وكيف جمع الضمير لما أدخل فرعون معهما في الذكر؟ فجعل الخاصَّ مع المعيَّة الخاصَّة، والعامَّ مع المعيَّة العامَّة)[1].

ومعيَّة الله ــ سبحانه وتعالى ــ لخلقه وإن كانت تتضمن المصاحبة؛ إلا أنَّ المصاحبة العامَّة تتضمن معنى غير المعنى الذي تتضمنه المصاحبة الخاصَّة، فغاية ما تتضمنه المصاحبة العامَّة: اطلاع الله ــ سبحانه وتعالى ــ على عبده؛ وإحاطته به علماً، وأما المصاحبة الخاصَّة: فإنها تتضمن موالاة الله ــ سبحانه وتعالى ــ لعبده؛ ونصرته وإعانته، كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن المعيَّة نوعان: عامةٌ، وهي: معيَّة العلم والإحاطة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2]. وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[3].

وخاصَّةٌ، وهي: معية القرب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[4]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾[5]. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[6]. فهذه معيَّة قربٍ تتضمن الموالاة والنصر والحفظ.

وكلا المعنيين مُصاحبةٌ منه للعبد، لكن هذه مصاحبة اطلاعٍ وإحاطةٍ، وهذه مصاحبة موالاةٍ ونصرٍ وإعانةٍ، فـ: (مع) في لغة العرب تفيد: الصحبة

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٥٧.
(٢) سورة الحديد: الآية ٤.
(٣) سورة المجادلة: الآية ٧.
(٤) سورة النحل: الآية ١٢٨.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٥٣، سورة الأنفال: الآية ٤٦.
(٦) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

اللائقة؛ لا تُشعر بامتزاجٍ ولا اختلاطٍ ولا مجاورةٍ ولا مجانبةٍ، فمن ظنَّ شيئاً من هذا: فمن سُوء فهمه أُتِيَ)[1].

فمعيَّة الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ لخلقه لا تُشعر بحالٍ من الأحوال بشيء من الامتزاج ولا الاختلاط ولا المجاورة ولا المجانبة، بل هي من أدلِّ شيءٍ على عُلُوِّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ على خلقه؛ ومباينته لهم، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾[2]: من أدلِّ شيءٍ على مباينة الربِّ لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته؛ بل خلقهم خارجاً عن ذاته؛ ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه، فيراهم وينفذهم بصرُه؛ ويحيط بهم علما وقدرة وإرادة وسمعا وبصراً، فهذا معنى كونه ــ سبحانه ــ معهم أينما كانوا)[3].

واعتقاد العبد معيَّة ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ الخاصَّة له تزرع في قلبه: شجرة الإيمان؛ وتُورثه ثمرة الإحسان، فمن تلك الثمرات الطيِّبة التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ :

١ ــ أن يتوكَّل العبدُ على ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ ويُفوِّض أمره إليه؛ ويرضى بما يُقدِّره ويقضيه عليه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إذا تجلَّى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته الخاصة لهم: انبعثت

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٧٦.
(٢) سورة الحديد: الآية ٤.
(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧١.

من العبد قوّة التوكُّل عليه والتفويض إليه والرضا به؛ وبكلٍّ ما يُجريه على عبده ويُقيمه مما يرضى به هو ـ سبحانه ـ)[1].

٢ ـ أن لا يُؤثر العبدُ الحياة الدنيّة الفانية على الحياة العليّة الباقية، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (مشهد المعيّة؛ وهو نوعان: معيّةٌ عامّةٌ؛ ومعيّةٌ خاصّةٌ، فالعامّة: اطلاع الربِّ عليه؛ وكونه بعينه لا تخفى عليه حاله، وقد تقدم هذا.

والمقصود هنا: المعيّة الخاصّة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾[2]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾[3]. وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾[4].

فهذه المعيّة الخاصّة خيرٌ وأنفع في دنياه وآخرته ممن قضى وطره ونال شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره، فكيف يُؤثر عليها لذّة مُنغّصة مُنكّدة في مُدّةٍ يسيرةٍ من العمر؛ إنما هي كأحلام نائمٍ أو كظلٍّ زائلٍ؟)[5].



---

(١) الفوائد ص٨١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٣، سورة الأنفال: الآية ٤٦.

(٣) سورة النحل: الآية ١٢٨.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٥) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٩٤ ـ ٩٥.

المطلب الخامس:

جهوده في تقرير صفة الله تعالى: الرؤية

إنَّ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية الدالَّة على رؤية المؤمنين ربَّهم ــ تبارك وتعالى ــ: (كثيرةٌ مشهورةٌ، قد دوَّن العلماء فيها كتباً، مثل: (كتاب الرؤية) للدارقطني[1] [2]؛ ولأبي نعيم[3] [4]؛

---

(١) هو: أبو الحسن علي بن عمر البغدادي، علم الجهابذة، ولد سنة ست وثلاثمائة، وتوفي يوم الخميس لثمان خلون من ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/ ٣٤ ــ ٤٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٦/ ٤٤٩ ــ ٤٦١، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٣٩٣ ــ ٣٩٥.

(٢) وهو مطبوعٌ؛ بتحقيق وتعليق: إبراهيم محمد العلي؛ وأحمد فخري الرفاعي.

(٣) هو: أحمد بن عبد الله المهراني الأصبهاني، الإمام الحافظ، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وتوفي في العشرين من شهر الله المحرم سنة ثلاثين وأربعمائة؛ وله أربعٌ وتسعون سنة.
انظر في ترجمته: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ١/ ٩١ ــ ٩٢، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٧/ ٤٥٣ ــ ٤٦٤، البداية والنهاية لابن كثير ١٥/ ٦٧٤ ــ ٦٧٥.

(٤) وسَمَه السمعاني في [التحبير في المعجم الكبير ١/ ١٨١] بـ: (تثبيت الرؤية لله في القيامة)، وكذا أشار إليه الكتاني في [الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ص٤٤].

ولـلآجـريِّ[1] [2]، وذكـرهـا المُصنِّفـون فـي السنـة، كـ: ابـن بطـة[3]؛ واللالكائيِّ[4]؛ وابن شاهين[5]، وقبلهم: عبد الله بن أحمد بن حنبل[6]؛

---

(١) هو: أبو بكر محمد بن الحسين البغدادي، شيخ الحرم الشريف، توفي بمكة في شهر الله المحرم سنة ستين وثلاثمائة؛ وكان من أبناء الثمانين.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٦/ ١٣٣ ـ ١٣٦، الوافي بالوفيات للصفدي ٢/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٣٧٩.

(٢) واسمه: (كتاب التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة) وهو مطبوعٌ مفرداً بتحقيق: سمير بن أمين الزهيري؛ ومضمنٌ في كتابه (الشريعة) ٢/ ٩٧٨ ـ ١٠٥٠.

(٣) هو: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العكبري الحنبلي، شيخ العراق، ولد يوم الاثنين لأربع خلون من شوال سنة أربع وثلاثمائة، وتوفي في يوم عاشوراء سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠/ ٣٧١ ـ ٣٧٥، طبقات الحنـابلـة لابـن أبـي يعلـى ٢/ ١٤٤ ـ ١٥٣، سيـر أعـلام النبـلاء للـذهبـي ١٦/ ٥٢٩ ـ ٥٣٣.

(٤) هو: أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري الرازي، مفيد بغداد في وقته، توفي يوم الثلاثاء لست خلون من شهر رمضان سنة ثمان عشرة وأربعمائة.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤/ ٧٠ ـ ٧١، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ١٥/ ١٨٨، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٧/ ٤١٩ ـ ٤٢٠.

(٥) هو: أبو حفص عمر بن أحمد البغدادي، شيخ العراق، ولد في صفر سنة سبع وتسعين ومائتين، وتوفي في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة؛ وقد عاش تسعاً وثمانين سنة.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٨، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٦/ ٤٣١ ـ ٤٣٥، طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٤.

(٦) هو: أبو عبد الرحمن الشيباني، محدث بغداد، ولد في جمادى الأولى سنة ثلاث=

وحنبل بن إسحاق[1]، والخلال[2]، والطبراني وغيرهم[3]، وخرَّجها أصحاب الصحيح والمسانيد والسنن وغيرهم)[4].

وكان الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ أحد العلماء الذين صرفوا عنايتهم إلى تقرير هذه الصفة وإثباتها، حيث قرَّر في كتبه عامة؛ وفي كتاب: (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)[5] خاصة: صفة رؤية المؤمنين

= عشرة ومائتين، وتوفي يوم الأحد لتسع بقين من جمادى الآخرة سنة تسعين ومائتين.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٩/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦، طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ١٨٠ ـ ١٨٨، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣/ ٥١٦ ـ ٥٢٦.

(١) هو: أبو علي الشيباني؛ ابن عم الإمام أحمد بن حنبل وتلميذه، الحافظ المحدث، ولد قبل المائتين، وتوفي في واسط في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ومائتين.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٨/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧، طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ١٤٣ ـ ١٤٥، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣/ ٥١ ـ ٥٣.

(٢) هو: أبو بكر أحمد بن محمد البغدادي، شيخ الحنابلة وعالمهم، ولد سنة أربع وثلاثين ومائتين، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وثلاث مائة.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥/ ١١٢ ـ ١١٣، طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي ٢/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٤/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٣) كـ: ابن النحاس في كتابه: (رؤية الله تبارك وتعالى)، وأبي شامة في كتابه: (ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري عزَّ وجلّ)، وهما مطبوعان.

(٤) رسالة إلى أهل البحرين في رؤية الكفار ربهم لابن تيمية ٦/ ٤٨٦ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٥) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦١ ـ ٤٢٣.

ربِّهم ــ تبارك وتعالى ــ ، وبيَّن شرف هذه الصفة وقدرها وخطرها؛ فقال: (هذا البابُ: أشرفُ أبواب الكتاب؛ وأجلُّها قدراً؛ وأعلاها خطراً، وأقرُّها لعيون أهل السنة والجماعة؛ وأشدُّها على أهل البدعة والضلالة، وهي الغاية التي شمَّر إليها المُشمِّرون؛ وتنافس فيها المتنافسون؛ وتسابق إليها المتسابقون؛ ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهلُ الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم: أشدُّ عليهم من عذاب الجحيم، اتفق عليها الأنبياء والمرسلون؛ وجميع الصحابة؛ والتابعون؛ وأئمة الإسلام على تتابع القرون، وأنكرها أهل البدع المارقون؛ والجهمية المتهوِّكون؛ والفرعونية المُعطِّلون؛ والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون؛ والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان مُتمسِّكون؛ ومن حبل الله مُنقطعون؛ وعلى مسبَّة أصحاب رسول الله عاكفون؛ وللسنة وأهلها مُحاربون؛ ولكلِّ عدوٍّ لله ورسوله ودينه مُسالمون، وكلُّ هؤلاء عن ربِّهم محجوبون؛ وعن بابه مطرودون، أولئك أحزاب الضلال وشيعة اللعين وأعداء الرسول وحزبه)[1].

ثم أتبع ذلك بذكر: نصوص الوحيين المطهرين الدالَّة على هذه الصفة الكريمة.

ثم أشار إلى بعض ما قاله بعض أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين وأئمة الإسلام بعدهم، وبيَّن أن أقوال التابعين وبزل الإسلام وعصابة الإيمان ــ من أئمة الحديث والفقه والتفسير وأئمة التصوف ــ : أكثرُ من أن يُحيط بها إلا الله ــ عزَّ وجلّ ــ .

ثم ذكر المنقول عن الأئمة الأربعة؛ ونظائرهم؛ وشيوخهم؛ وأتباعهم على طريقهم ومناهجهم في هذا الباب.

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦١.

ثم حكى قول جميع أهل الإيمان وأهل اللغة، ثم عقد فصلاً في وعيد منكري الرؤية ــ نسأل الله تعالى العفو والعافية ــ[1].

وفيما يأتي إظهارٌ لجهود الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ المبرورة؛ وإبرازٌ لمساعيه المشكورة في تقرير هذه الصفة، حيث بيَّن ــ رحمه الله تعالى ــ أن ما يدلُّ على رؤية المؤمنين ربهم ــ تبارك وتعالى ــ: (أكثر من أن يُذكر؛ وأشهر من أن يُنكر)[2]، حيث تواترت النصوص الشرعية القويمة؛ وتوافقت العقول البشرية السليمة؛ وتآزرت الأقوال السلفية المستقيمة على ذلك.

فأما دلالة القرآن العظيم على رؤية وجه الله الكريم: فذلك في آياتٍ كثيرةٍ، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بعض هذه الآيات الكريمة؛ ووجه الاستدلال بها، فمن ذلك:

١ ــ قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾[6].

وأجمع أهل اللسان على: أن اللقاء متى نُسِبَ إلى الحيِّ السليم من العمى والمانع: اقتضى المعاينة والرؤية.

---

(١) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦١ ــ ٤٢٣.

(٢) الروح ص٣٠٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٤٤.

(٥) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾[1]. فقد دلَّت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه تعالى في عرصات القيامة؛ بل والكفار أيضاً[2]، كما في الصحيحين من حديث التجلِّي يوم القيامة[3])[4].

٢ ـ قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾[5].

فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، كذلك فسَّرها رسول الله ﷺ الذي أُنزل عليه القران؛ والصحابة من بعده،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧٧.

(٢) كَتَبَ شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة إلى أهل البحرين بسبب ما وقع بينهم من الاختلاف في مسألة رؤية الكفار ربهم ـ تبارك وتعالى ـ ، وبيَّن أن أهل العلم اختلفوا في هذه المسألة على ثلاثة أقوال، فمنهم من قال بمنع الكفار ـ المظهرِ للكفر والمُسرِّ ـ من الرؤية بحالٍ، ومنهم من قال برؤية من أظهر التوحيد من منافقي هذه الأمة وغبرات أهل الكتاب في عرصات يوم القيامة؛ ثم يحتجب عن المنافقين فلا يرونه، ومنهم من قال برؤية الكفار ربهم رؤية تعريفٍ وتعذيبٍ؛ ثم يحتجب عنهم ليعظم عذابهم ويشتدَّ عقابهم، ثم ذكر العمدة في ذلك؛ وهو قوله ـ سبحانه ـ : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥]، وأنه يعمُّ حجبهم عن ربهم في جميع ذلك اليوم، ثم ختم الرسالة بذكر بعض الآداب التي تجب مراعاتها في هذه المسألة [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٦/ ٤٨٥ ـ ٥٠٦].

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «هل تُمارون في القمر ليلة البدر؟».

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦١ ـ ٣٦٤.

(٥) سورة يونس: الآيتان ٢٥ ـ ٢٦.

كـمـا روى مسلمٌ في صحيـحـه مـن حـديث حماد بن سلمة؛ عن ثابتٍ؛ عن عبد الرحمن بن أبـي ليلي[1]؛ عن صهيبٍ قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[2]. قـال: إذا دخـل أهـل الجـنـة الجنة؛ وأهل النار النار؛ نادى منادٍ: يا أهل الجنة؛ إن لـكـم عـنـد الله موعداً؛ ويـريـد أن يُنجزكموه. فيقـولـون: مـا هـو؟ ألـم يُثقل مـوازيننا؛ ويُبيِّض وجوهنا؛ ويُدخلنا الجنة؛ ويُزحزحنا عـن الـنار؟ فيكشف الحجاب؛ فينظـرون إليـه، فمـا أعطـاهـم شيئـاً أحـبَّ إليهـم مـن النظـر إليـه؛ وهـي الزيادة»[3])[4].

٣ ــ قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[5].

ووجه الاستدلال بها: أنه ــ سبحانه وتعالى ــ جعل من أعظم عقوبة الكفار: كونهم محجوبين عن رؤيته؛ واستماع كلامه، فلو لم يره المؤمنون؛ ولم يسمعوا كلامه: كانوا أيضاً محجوبين عنه.

---

(١) هو: أبو عيسى الأنصاري الكوفي، الحافظ الفقيه، وُلد لستٍّ بقين من خلافة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ ، وقتل بوقعة الجماجم سنة ثلاث وثمانين.

انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/٣٠١، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٧/ ٣٧٢ ــ ٣٧٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٢٦٢ ــ ٢٦٧.

(٢) سورة يونس: الآية ٢٦.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦٤ ــ ٣٦٥.

(٥) سورة المطففين: الآية ١٥.

وقد احتجَّ بهذه الحجة: الشافعيُّ نفسه وغيره من الأئمة، فذكر الطبراني وغيره عن المزيِّ قال: سمعت الشافعيَّ يقول في قوله ــ عزَّ وجلَّ ــ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[1]: (فيها دليلٌ على أن أولياء الله يرون ربَّهم يوم القيامة)[2][3].

٤ ــ قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[4].

قال الطبري: قال عليُّ بن أبـي طالبٍ وأنس بن مالكٍ: (هو النظر إلى وجه الله ــ عزَّ وجلّ ــ))[5].

---

(١) سورة المطففين: الآية ١٥.

(٢) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي [باب ما يؤثر عنه في إثبات الرؤية ــ ١/ ٤٢٠]، ولم أقف عليه عند الطبراني.

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦٨.

(٤) سورة ق: الآية ٣٥.

(٥) قال السيوطي في [الدر المنثور في التفسير المأثور: ٦/ ١٢٧]: (أخرج البزار وابن المنذر وابن أبـي حاتم وابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي في البعث والنشور عن أنس في قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ قال: يتجلى لهم الربُّ ــ عزَّ وجلّ ــ)، ولم يذكر الطبري؛ ولم أقف عليه.
وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبـي حاتم ١٠/ ٣٣١٠، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٣/ ٤٦٩.
كما ذكره اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [سياق ما فُسِّر من الآيات في كتاب الله عزَّ وجلّ على أن المؤمنين يرون الله عزَّ وجلّ يوم القيامة بأبصارهم ــ رقم (٨١١) ــ ٣/ ٤٦٩]، وابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير [٨/ ٢١] عن علي وأنس ــ رضي الله عنهما ــ.
كما ذكره البغوي في معالم التنزيل [٧/ ٣٦٣]، وابن عطية في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز [١٨/ ١٨٦] عن جابر وأنس ــ رضي الله عنهما ــ.

وقاله من التابعين: زيد بن وهبٍ[1] وغيره[2])[3].

٥ ــ قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾[4].

وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها؛ والكذب على المُتكلِّم بها ــ سبحانه ــ فيما أراده منها: وجدتها منادية نداء صريحاً: أنَّ الله ــ سبحانه ــ يُرى عياناً بالأبصار يوم القيامة، وإن أبيت إلا تحريفها ــ الذي يُسميه المحرفون: تأويلاً ــ : فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب: أسهل على أربابه من تأويلها، وتأويل كلِّ نصٍّ تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مُبطلٌ على وجه الأرض أن يتأوَّل النصوص ويُحرِّفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأوِّل مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا.

وإضافة النظر إلى الوجه ــ الذي هو محلُّه في هذه الآية ــ ؛ وتعديته بأداة (إلى) ــ الصريحة في نظر العين ــ ؛ وإخلاء الكلام من قرينةٍ تدلُّ على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المُعدَّى بـ(إلى): خلاف حقيقته

---

(١) هو: أبو سليمان الجهني الكوفي، الإمام الحجة، مخضرمٌ؛ ارتحل إلى لقاء النبي ﷺ وصحبته؛ فبلغته وفاته ﷺ وهو في الطريق، توفي سنة ست وتسعين. انظر في ترجمته: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٢/١٢٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/١٩٦، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٣٢.

(٢) ذكره اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [سياق ما فُسِّر من الآيات في كتاب الله عزَّ وجلّ على أن المؤمنين يرون الله عزَّ وجلّ يوم القيامة بأبصارهم ــ رقم (٨١٢) ــ ٣/٤٦٩].

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦٩.

(٤) سورة القيامة: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.

وموضوعه: صريحٌ في أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الربِّ ــ جلَّ جلاله ــ .

فإن النظر له عِدَّة استعمالات ــ بحسب صلاته و تعديه بنفسه ــ ، فإن عُدِّي بنفسه فمعناه: التوقُّف والانتظار، كقوله: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾[١] .

وإن عُدِّي بـ (في) فمعناه: التفكُّر والاعتبار، كقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٢] .

وإن عُدِّي بـ (إلى) فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾[٣] . فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محلُّ البصر؟)[٤] .

فهذه بعض الأدلة المقتبسة من مشكاة القرآن العظيم؛ للدلالة على ثبوت رؤية المؤمنين لوجه الله الكريم، وهي (مع شدَّة ظهورها وكثرتها: سمحت نفوس الجهمية بإنكارها)[٥]، حيث ردُّوا هذه (النصوص المحكمة ــ التي قد بلغت في صراحتها وصحَّتها إلى أعلى الدرجات ــ في رؤية المؤمنين ربَّهم ــ تبارك وتعالى ــ في عرصات القيامة وفي الجنة بالمتشابه من قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[٦] . وقوله: لموسى: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾[٧])[٨] .

---

(١) سورة الحديد: الآية ١٣ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٥ .

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩٩ .

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧٢ .

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٧١ .

(٦) سورة الأنعام: الآية ١٠٣ .

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٤٣ .

(٨) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٥ ــ ٢٩٦ .

وهذه البدعة الخبيثة ــ بدعة التعطيل ــ التي اتَّكأ عليها الجهمية في نفي الرؤية: (حالت بينهم وبين فهم كلام الله كما ينبغي، وهكذا كلُّ صاحب بدعةٍ تجده محجوباً عن فهم القرآن)[١]، فتراه يستدلُّ على بدعته المضلة بنصٍّ منه، وفي ذلك النصِّ ما يدلُّ على نقيض قوله[٢]، ولكن (هذا بابٌ لا يلجه إلا الأفراد في العالَم)[٣].

ومن هذه النصوص الصحيحة الصريحة التي نفى بها الجهمية رؤية المؤمنين لربِّهم ــ تبارك وتعالى ــ في دار النعيم؛ وهي (على جواز الرؤية: أدلُّ منها على امتناعها)[٤]؛ ما يأتي تقريره من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ:

أولاً: قول الله ــ عزَّ وجلّ ــ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[٥]، فقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة على إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم ــ تبارك

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٨٨.

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية في [حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦٩] حكاية عن شيخه ابن تيمية ــ رحمهما الله تعالى ــ: (قال لي: أنا ألتزم أنه لا يحتجُّ مبطلٌ بآيةٍ أو حديثٍ صحيحٍ على باطله: إلا وفي ذلك الدليل ما يدلُّ على نقيض قوله).

وانظر: ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في القاعدة الشريفة وهي: أن جميع ما يحتجُّ به المبطل من الأدلة الشرعية والعقلية إنما تدلُّ على الحقِّ؛ لا تدلُّ على قول المبطل ٦/ ٢٨٨ ــ ٣٠٢ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) الروح ص٥٥٧.

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦٩.

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

وتعالى ـ في دار النعيم؛ فقال: (لو كان المراد بقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[(١)]: أنه لا يُرى بحالٍ: لم يكن في ذلك مدحٌ ولا كمالٌ؛ لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يُرى؛ ولا تُدركه الأبصار، والربُّ ـ جلَّ جلاله ـ يتعالى أن يُمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإذاً المعنى: أنه يُرى؛ ولا يُدرك ولا يُحاط به[(٢)]، كما كان المعنى في قوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾[(٣)]: أنه يعلم كلَّ شيءٍ. وفي قوله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[(٤)]: أنه كامل القدرة. وفي قوله: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾[(٥)]: أنه كامل العدل. وفي قوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[(٦)]: أنه كامل القيومية.

فقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[(٧)]: يدلُّ على غاية عظمته؛ وأنه أكبر من كلِّ شيءٍ، وأنه لعظمته لا يُدْرَك بحيث يُحاط به.

فإن الإدراك: هو الإحاطة بالشيء، وهو قدرٌ زائدٌ على الرؤية، كما

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٢) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حمد نفسه بأنه لا تُدركه الأبصار؛ لكمال عظمته؛ وإحاطته بما سواه، فهو يُرى ولا يُدرك؛ كما أنه يُعلم ولا يُحاط به علماً؛ في: التبيان في أقسام القرآن ص٣٢٤، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٢٠، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٦؛ ٣/ ٣٥٣، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٧٤.

(٣) سورة يونس: الآية ٦١.

(٤) سورة ق: الآية ٣٨.

(٥) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٧) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ﴾[1].
فلم ينف موسى الرؤية، ولم يُريدوا بقولهم: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾: إنا لمرئيُّون، فإن موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نفى إدراكهم إياهم بقوله: ﴿ كَلَّآ ﴾، وأخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾[2].

فالرؤية والإدراك: كلٌّ منهما يُوجد مع الآخر وبدونه، فالربُّ تعالى يُرى ولا يُدرك؛ كما يُعلم ولا يُحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، قال ابن عباس: (﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[3]: لا تُحيط به الأبصار)[4].

قال قتادة: (هو أعظم من أن تُدركه الأبصار)[5].

وقال عطية: (ينظرون إلى الله ولا تُحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يُحيط بهم)[6].

فذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[7].
فالمؤمنون يرون ربَّهم ـ تبارك وتعالى ـ بأبصارهم عياناً؛ ولا تُدركه أبصارهم، بمعنى أنها لا تُحيط به، إذ كان غيرُ جائزٍ أن يُوصف الله

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان ٦١ ـ ٦٢.
(٢) سورة طه: الآية ٧٧.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

ـ عزَّ وجلّ ـ بأن شيئاً يُحيط به؛ وهو بكلِّ شيءٍ محيطٌ، وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه؛ ولا يُحيطون بكلامه، وهكذا يعلم الخلق ما علَّمهم؛ ولا يُحيطون بعلمه.

ونظير هذا: استدلالهم على نفي الصفات بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]. وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله؛ وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثلٌ فيها، وإلا فلو أُريد بها نفي الصفات: لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه، مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل: فلانٌ لا مِثْلَ له؛ وليس له نظيرٌ ولا شبيهٌ ولا مثلٌ: أنه قد تميَّز عن الناس بأوصافٍ ونعوتٍ لا يُشاركونه فيها، وكلَّما كثرت أوصافه ونعوته: فات أمثاله؛ وبعد عن مشابهة أضرابه، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: من أدلِّ شيءٍ على كثرة نعوته وصفاته، وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[2]: من أدلِّ شيءٍ على أنه يُرى؛ ولا يُدرك، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾[3]: من أدلِّ شيءٍ على مباينة الربِّ لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته؛ بل خلقهم خارجاً عن ذاته؛ ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه؛ فيراهم وينفذهم بصره ويُحيط بهم علماً وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً، فهذا معنى كونه ـ سبحانه ـ معهم أينما كانوا.

وتأمَّل حسن هذه المقابلة لفظاً ومعنى بين قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٣) سورة الحديد: الآية ٤.

ﭐلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾[1]. فإنه ـ سبحانه ـ لعظمته يتعالى أن تُدركه الأبصار وتُحيط به، وللطفه وخبرته يُدرك الأبصار؛ فلا تخفى عليه، فهو العظيم في لطفه؛ اللطيف في عظمته؛ العالي في قربه؛ القريب في عُلُوِّه، الذي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[2]، ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[3])[4].

فهذه إشارةٌ تتضمن وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة على إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم ـ تبارك وتعالى ـ و (هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه)[5]، وفيه كفايةٌ (للمُصدِّق المُوقن، وأما المُعطِّل الجهميُّ: فكلُّ هذا عنده باطلٌ ومحالٌ)[6].

ثانياً: قول الله ـ عزَّ وجلّ ـ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[7]، فقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة على إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم ـ تبارك وتعالى ـ في دار النعيم؛ فقال: (قد أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن أعلم الخلق به في زمانه؛ وهو كليمه ونجيُّه وصفيُّه من أهل الأرض: أنه سأل ربَّه

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦٩ ـ ٣٧١.

(٥) التبيان في أقسام القرآن ص٣٠٢.

(٦) التبيان في أقسام القرآن ص٣٢٥.

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

تعالى النظر إليه، فقال له ربُّه ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾[1].

وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوهٍ عديدةٍ:

أحدها: أنه لا يُظنُّ بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه: أن يسأل ربَّه ما لا يجوز عليه؛ بل ما هو من أبطل الباطل وأعظم المحال، وهو عند فروخ اليونان والصابئة والفرعونية بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام؛ ونحو ذلك ـ مما يتعالى الله عنه ـ ، فيا لله العجب؛ كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين ـ عُبَّاد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية ـ أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران؛ وبما يستحيل عليه ويجب له؛ وأشدَّ تنزيهاً له منه؟

الوجه الثاني: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يُنكر عليه سؤاله، ولو كان مُحالاً لأنكره عليه، ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ أن يُريه كيف يُحيي الموتى: لم يُنكر عليه، ولما سأل عيسى بن مريم ربَّه إنزال المائدة من السماء: لم يُنكر عليه سؤاله، ولما سأل نوحٌ ربَّه نجاة ابنه: أنكر عليه سؤاله؛ وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[2].

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾، ولم يقل: لا تراني؛ ولا: إني لستُ بمرئيٍّ؛ ولا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهرٌ لمن تأمَّله، وهذا يدلُّ على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يُرى؛ ولكن موسى لا تحتمل

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٢) سورة هود: الآيتان ٤٦ ـ ٤٧.

قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوّة البشر فيها عن رؤيته تعالى. يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾. فأعلمه أن الجبل مع قوّته وصلابته لا يثبت لتجلّيه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خُلِقَ من ضعفٍ؟

الوجه الخامس: إنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ قادرٌ على أن يجعل الجبل مُستقراً مكانه؛ وليس هذا بممتنعٍ في مقدوره؛ بل هو ممكنٌ؛ وقد علّق به الرؤية، ولو كانت مُحالاً في ذاتها لم يعلّقها بالمُمكن في ذاته، ولو كانت الرؤيا مُحالاً: لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقرَّ الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام، فالأمران عندكم سواءٌ.

الوجه السادس: قوله ــ سبحانه وتعالى ــ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾. وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته ــ تبارك وتعالى ــ، فإنه إذا جاز أن يتجلّى للجبل ــ الذي هو جمادٌ لا ثواب له ولا عقاب عليه ــ؛ فكيف يمتنع أن يتجلّى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامتهم؛ ويريهم نفسه؟ فأعلم ــ سبحانه وتعالى ــ موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار؛ فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربَّه ــ سبحانه وتعالى ــ قد كلَّمه منه إليه؛ وخاطبه وناجاه وناداه، ومن جاز عليه التكلُّم والتكليم؛ وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطةٍ: فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتمُّ إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، فأنكروا أن يُكلِّم أحداً؛ أو يراه أحدٌ، ولهذا سأله موسى ــ عليه السلام ــ النظر إليه؛ وأسمعه كلامه، وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه؛ فلم يُخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتماله؛ كما لم يثبت الجبل لتجليه.

وأما قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾: فإنما يدلُّ على النفي في المستقبل، ولا يدلُّ على دوام النفي؛ ولو قُيِّدت بالتأبيد، فكيف إذا أُطلقت[1]؟ قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[2]. مع قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[3])[4].

ففي هذا التقرير: إفسادٌ لفهم المعطلة السقيم؛ وإبطالٌ لمذهبهم الذميم؛ وإجهازٌ على معتقدهم الوخيم، (فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته؛ والسرور والفرح به؛ والشوق إلى لقائه؛ وانتظار لذَّة النظر إلى وجهه الكريم؛ والتمتُّع بخطابه في محلِّ كرامته ودار ثوابه، فلو رآها أهلاً لذلك: لَمَنَّ عليها به وأكرمها به، إذ ذاك أعظم كرامةٍ يُكرم بها عبده.

والله أعلم حيث يجعل كرامته ويضع نعمته، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[5]. ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾[6]. ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى؛ وأن المُوَفَّق يعلم قصور المعتزلة في فهم كلام الله تعالى؛ حيث جعلوا (لن) تدلُّ على النفي على الدوام، وكيف حالت بدعتهم الخبيثة بينهم وبين فهم كلام الله كما ينبغي؛ في: بدائع الفوائد ١/٨٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٩٥.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٧٧.

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦١ ـ ٣٦٣.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٥٣.

(٦) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾[1].

وليس جحودهم صفاته ــ سبحانه ــ وحقائق أسمائه في الحقيقة تنزيهاً؛ وإنما هو حجابٌ ضُرِبَ عليهم فظنُّوه تنزيهاً، كما ضُرِبَ حجابُ الشرك والبدع المُضلَّة والشهوات المردية على قلوب أصحابها؛ وزُيِّن لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة)[2].

وأما الأحاديث الدالَّة على إثبات رؤية المؤمنين ربَّهم ــ تبارك وتعالى ــ : فمتواترةٌ، كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (أما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالَّة على الرؤية: فمتواترةٌ[3]، رواها عنه: أبو بكرٍ الصديق؛ وأبو هريرة؛ وأبو سعيدٍ الخدريُّ؛ وجرير بن عبد الله البجليُّ؛ وصهيب بن سنانٍ الروميُّ؛ وعبد الله بن مسعود الهذليُّ؛ وعليُّ بن أبي طالبٍ؛ وأبو موسى الأشعريُّ؛ وعديُّ بن حاتمٍ الطائيُّ؛ وأنس بن مالكٍ الأنصاريُّ؛ وبريدة بن الحصيب الأسلميُّ؛ وأبو رزين العقيليُّ؛ وجابر بن عبد الله الأنصاريُّ؛ وأبو أمامة الباهليُّ؛ وزيد بن ثابتٍ؛ وعمار بن ياسرٍ؛ وعائشة ــ أم المؤمنين ــ ؛ وعبد الله بن عمر؛ وعمارة بن رويبة؛ وسلمان الفارسيُّ؛ وحذيفة بن اليمان؛ وعبد الله بن عباسٍ؛ وعبد الله بن عمرو بن العاص ــ وحديثه موقوفٌ ــ ؛ وأبيُّ بن كعبٍ؛ وكعب بن عجرة؛ وفضالة بن عبيد ــ وحديثه

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٣٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٦٧ ــ ٣٦٨.

(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن أحاديث الرؤية استفاضت وتلقَّتها الأمة بالقبول؛ أعظم بكثيرٍ من تلقِّيها لأحاديث الأحكام، لأنه لا نسبة بين استفاضة أحاديث الرؤية واستفاضة أحاديث الأحكام؛ في: تهذيب مختصر سنن أبي داود ١٣/ ٣٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٣٤، ومختصره ٢/ ٥٢٩؛ ٥٥٣.

موقوفٌ ـ ؛ ورجلٌ من أصحاب النبـي ﷺ غير مُسمَّى.

فهاك سياق أحاديثهم من الصِّحاح والمسانيد والسنن[1]، وتلقَّها بالقبول والتسليم وانشراح الصدر؛ لا بالتحريف والتبديل وضيق العطن؛ ولا تُكذِّب بها، فمن كذَّب بها لم يكن إلى وجه ربِّه من الناظرين؛ وكان عنه يوم القيامة من المحجوبين)[2].

وكان من جملة الأحاديث النبوية الشريفة التي ساقها ـ رحمه الله تعالى ـ للدلالة على إثبات رؤية المؤمنين ربَّهم ـ تبارك وتعالى ـ : ما ذكره بقوله: (في الصحيحين عن أبـي موسى الأشعري عن النبـي ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم ـ تبارك وتعالى ـ : إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[3].

وفي صحيح مسلم عن صهيب عن النبـي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ : تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة؛ وتُنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب؛ فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم ـ عزَّ وجلّ ـ ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[4]»[5].

---

(١) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧٤ ـ ٤٠٩.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ـ الحديث رقم (٧٤٤٤) ـ ٥/ ٢٣٢٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ـ الحديث رقم (١٨٠) ـ ١/ ١٦٣].

(٤) سورة يونس: الآية ٢٦.

(٥) تقدم تخريجه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة: «أن ناساً قالوا: يا رسول الله؛ هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: هل تُضارُّون في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تُضارُّون في الشمس ليس دونها حجاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه كذلك»[1]. وفي الصحيحين مثله من حديث أبي سعيدٍ[2].

وقد روى الترمذي في جامعه من حديث إسرائيل[3] عن ثوير[4] قال: سمعت ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ يقول: قال: رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة: لمن ينظر إلى جناته وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله: من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[5]»[6].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) هو: أبو يوسف إسرائيل بن يونس الهمداني السبيعي الكوفي، الحافظ الحجة، ولد سنة مائة، وتوفي سنة اثنتين وستين ومائة.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي ٧/ ٣٥٥ ــ ٣٦١، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ١/ ١٥٩، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٩٧.

(٤) هو: أبو الجهم ثوير بن أبي فاختة؛ واسمه: سعيد بن علاقة القرشي الهاشمي الكوفي، مولى أم هانىء بنت أبي طالبٍ، كان يقلب الأسانيد؛ حتى يجيء في روايته أشياء كأنها موضوعةٌ.
انظر في ترجمته: الضعفاء والمتروكين للنسائي ص١٦٢، المجروحين لابن حبان ١/ ٢٠٥ ــ ٢٠٦، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٤/ ٤٢٩ ــ ٤٣١.

(٥) سورة القيامة: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب التفسير/ باب (٧٥) ــ الحديث رقم (٣٣٣٠) ــ ٥/ ٣٥٦].
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (١٩٨٥) ــ =

وقال: هذا حديث حسن غريب)[1].

ومن تأمَّل هذه الأحاديث النبوية الشريفة: وجدها قطعية الدلالة على إثبات رؤية المؤمنين ربَّهم ــ تبارك وتعالى ــ، ويرجع سبب ذلك إلى أمورٍ متنوعةٍ؛ ذكر بعضها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ، فمن ذلك:

١ ــ أنه ليس في المُمكن عبارةٌ أوضح ولا أنصُّ من هذه الأحاديث النبوية الشريفة، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إذا سمع العاقل والعارف باللغة قوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر ليس دونه سحابٌ، وكما ترون الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحابٌ، لا تُضارُّون في رؤيته إلا كما تضارُّون في رؤيتها»[2].

فإنه لا يستريب ولا يشكُّ في مراد المُتكلِّم؛ وأنه رؤية البصر حقيقة، وليس في المُمكن عبارةٌ أوضح ولا أنصُّ من هذه، ولو اقْتُرح على أبلغ الناس أن يُعبِّر عن هذا المعنى بعبارة لا تحتمل غيره: لم يقدر على عبارةٍ أوضح ولا أنص من هذه، وعامة كلام الله ورسوله من هذا القبيل، فإنه مستولٍ على الأمد الأقصى من البيان)[3].

٢ ــ أن الأحاديث النبوية الشريفة تضمنت الإجابة الصريحة عن السؤال عن رؤية المؤمنين ربَّهم ــ تبارك وتعالى ــ، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (صحَّ عنه ﷺ أنه سُئِلَ عن رؤية المؤمنين ربَّهم ــ تبارك

= ٤/ ٤٥٠ ــ ٤٥١].

(١) تهذيب مختصر سنن أبي داود ١٣/ ٣٧ ــ ٣٨.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «هل تمارون في القمر ليلة البدر».

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ١٠٧ ــ ١٠٨.

وتعالى ـ ، فقال: «هل تُضارُّون في رؤية الشمس صحواً في الظهيرة ليس دونها سحابٌ؟ قالوا: لا. فقال: هل تُضارُّون في رؤية القمر البدر صحواً ليس دونه سحابٌ؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك» متفق عليه[1].

وسُئِلَ: «كيف نراه ونحن ملءُ الأرضِ؛ وهو واحدٌ؟ فقال: أُنبئكم عن ذلك في آلاء الله؟ الشمس والقمر آيةٌ منه صغيرةٌ؛ ترونهما ويريانكم ساعة واحدة لا تُضارُّون في رؤيتهما، ولعمر إلهك أقدر على أن يراكم وترونه» ذكره أحمد[2])[3].

٣ ـ أن الأحاديث النبوية الشريفة حقَّقت ثبوت الرؤية؛ ونفت احتمال ما يُوهم خلافها، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (قوله: «إنكم ترون ربكم عياناً؛ كما ترون القمر ليلة البدر صحواً؛ ليس دونه سحاب»[4]. تحقيقاً لثبوت الرؤية؛ ونفياً لاحتمال ما يُوهم خلافها، فأتى بغاية البيان والإيضاح)[5].

٤ ـ أن الأحاديث النبوية الشريفة تضمنت تشبيه وقوع الرؤية عياناً برؤية الشمس والقمر، وهذا التشبيه تحقيقٌ لها؛ ونفيٌ لتوهُّم المجاز، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (قوله: «فتنتظرون إليه؛ وينظر إليكم»[6]: فيه إثبات صفة النظر لله ـ عزَّ وجلّ ـ ؛ وإثبات رؤيته في الآخرة. وقوله: «كيف ونحن ملءُ الأرض وهو شخصٌ واحدٌ»: قد جاء هذا

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «أيها الناس؛ ألا إني قد خبأتُ لكم صوتي».
(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧.
(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «هل تُمارون في القمر ليلة البدر».
(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥١٤.
(٦) تقدم تخريجه، وأوله: «أيها الناس؛ ألا إني قد خبأتُ لكم صوتي».

من هذا الحديث، وفي قوله في حديثٍ آخر: «لا شخص أغير من الله»[1].

والمخاطبون بهذا قومٌ عربٌ يعلمون المراد منه، ولا يقع في قلوبهم تشبيهه ــ سبحانه ــ بالأشخاص، بل هم أشرف عقولاً؛ وأصحُّ أذهاناً؛ وأسلم قلوباً من ذلك.

وحققَّ ﷺ وقوع الرؤية عياناً برؤية الشمس والقمر: تحقيقاً لها؛ ونفياً لتوهُّم المجاز الذي يظنُّه المُعطِّلون)[2].

٥ ــ أن الأحاديث النبوية الشريفة قرَّرت الرؤية وقرَّبتها من الأفهام بالأمثال والمقاييس العقلية، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (لما أخبرهم رسول الله عن رؤية الربِّ تعالى: فهموا منها رؤية العيان؛ لا مزيد العلم، كما استشكل بعضهم ذلك، وقال: يا رسول الله؛ كيف يسع الخلائق وهو واحدٌ ونحن كثيرٌ؟ ــ وهذا السائل: أبو رزين أيضاً ــ، فقرَّر رسول الله ﷺ فهمه؛ وقال: «سأُخبرك بمثل ذلك في آلاء الله، أليس كلكم يرى القمر مخلياً به؟ قال: بلى. قال: فالله أكبر».

وهذا يدلُّ على أن القوم إنما أُحيلوا في إثبات ذلك على ما دلَّ عليه اللفظ، وعلى ما بيَّنه لهم من أُنزل عليه الوحي، لا على رأي جهم وجعدٍ والنظَّام والعلاف والمَرِيسي وتلامذتهم، ولا على غير ما يتبادر إلى أفهامهم من لغاتهم وخطابهم، كان يُقرِّر لهم ذلك؛ ويُقرِّبه من أفهامهم بالأمثال والمقاييس العقلية؛ تقريراً لحقيقة الصفة)[3].

٦ ــ أنَّ الأحاديث النبوية الشريفة صرَّحت بسؤال لذَّة النظر إلى

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «أتعجبون من غيرة سعد؟».
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٨١ ــ ٦٨٢.
(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥١٥ ــ ٥١٦.

وجه الله الكريم؛ وليس سؤال لذَّة النظر إلى ثوابه العميم، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن النبي ﷺ كان يدعو في دعائه: «أسألك لذَّة النظر إلى وجهك؛ والشوق إلى لقائك»[1]. ولم يكن ليسأل لذَّة النظر إلى الثواب، ولا يُعرف تسمية ذلك وجهاً: لغة؛ ولا شرعاً؛ ولا عرفاً)[2].

٧ ــ أن الأحاديث النبوية الشريفة ــ على وجه الخصوص؛ وكذا الآيات الكريمة على وجه العموم ــ اطَّردت بالنظر إلى الله الكريم، ولم يجىء في موضعٍ واحدٍ منها بالنظر إلى ثوابه العميم، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (اطراد النصوص بالنظر إلى الله: «هكذا ترون ربكم»[3]، «تنظرون إلى ربكم»[4]، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾[5].

ولم يجىء في موضعٍ واحدٍ: ترون ثواب ربكم؛ فيحمل عليه ما خرج عن نظائره)[6].

وقد دلَّ ــ بإزاء دلالة القرآن الكريم والسنة المتواترة ــ إجماع الأمة على أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يُرى يوم القيامة بالأبصار عياناً، كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (قد دلَّ القرآن والسنة المتواترة وإجماع الصحابة وأئمة الإسلام وأهل الحديث ــ عصابة الإسلام وبزل الإيمان وخاصة رسول الله ﷺ على: أن الله ــ سبحانه

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـٰهُمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق».
(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٩.
(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «هل تُمارون في القمر ليلة البدر».
(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «أيها الناس؛ ألا إني قد خبأتُ لكم صوتي».
(٥) سورة القيامة: الآية ٢٣.
(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٥.

وتعالى ــ يُرى يوم القيامة بالأبصار عياناً؛ كما يُرى القمر ليلة البدر صحواً؛ وكما تُرى الشمس في الظهيرة.

فإن كان لما أخبر به الله ورسوله عنه من ذلك حقيقة ــ وإن له والله حقَّ الحقيقة ــ : فلا يُمكن أن يروه إلا من فوقهم؛ لاستحالة أن يروه من أسفل منهم أو خلفهم أو أمامهم أو عن يمينهم أو عن شمالهم، وإن لم يكن لما أخبر به حقيقةٌ ــ كما يقوله أفراخ الصابئة والفلاسفة والمجوس والفرعونية ــ : بطل الشرع والقرآن، فإن الذي جاء بهذه الأحاديث: هو الذي جاء بالقرآن والشريعة، والذي بلَّغها: هو الذي بلَّغ الدين، فلا يجوز أن يُجعل كلام الله ورسوله عضينٌ؛ بحيث يُؤمن ببعض معانيه ويُكفر ببعضها، فلا يجتمع في قلب العبد ــ بعد الاطلاع على هذه الأحاديث وفهم معناها ــ : إنكارها والشهادة بأن محمداً رسول الله أبداً، و ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1])[2].

وإنَّ من صور الإجماع على رؤية وجه الرحمن في الجنان: إجماع أهل الإيمان واللسان، حيث ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ إجماع أهل الإيمان بقوله: (قول جميع أهل الإيمان: قال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتابه: (إن المؤمنين لم يختلفوا أن المؤمنين يرون خالقهم يوم المعاد، ومن أنكر ذلك: فليس بمؤمن عند المؤمنين)[3])[4].

كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ إجماع أهل اللسان بقوله: (قول جميع أهل اللغة: قال أبو عبد الله بن بطة: سمعت أبا عمر محمد بن

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٣.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٢٢.

(٣) كتاب التوحيد وإثبات صفات الربِّ ــ عزَّ وجلّ ــ لابن خزيمة ٢/٥٤٨.

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤١٩.

عبد الواحد[1] ــ صاحب اللغة ــ يقول: سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى ــ ثعلباً ــ[2] يقول في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾[3]: (أجمع أهل اللغة على أن اللقاء ها هنا لا يكون إلا معاينة ونظراً بالأبصار)[4].

وحسبك بهذا الإسناد صحة)[5].

وقد وافق العقلُ النقلَ في إمكان الرؤية ووقوعها، كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (إنه قد ثبت بالعقل إمكان رؤيته ــ سبحانه ــ؛ وبالشرع وقوعها في الدار الآخرة، فاتفق العقل والشرع على إمكان الرؤية ووقوعها.

---

(١) هو: محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم البغدادي؛ المعروف بغلام ثعلب، العلامة اللغوي المحدث، ولد سنة إحدى وستين ومائتين، وتوفي في يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.
انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/ ٣٥٦ ــ ٣٥٩، إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ٣/ ١٧١ ــ ١٧٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٥/ ٥٠٨ ــ ٥١٣.

(٢) هو: أحمد بن يحيى بن يزيد البغدادي، إمام النحو، ولد سنة مائتين، وتوفي ليلة السبت لثمان بقين من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين ومائتين.
انظر في ترجمته: مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ٤/ ٢٨٤ ــ ٢٨٥، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٤/ ٥ ــ ٧، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي ص٦٥ ــ ٦٦.

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ٤٣ ــ ٤٤.

(٤) أخرجه ابن بطة في المختار من إبانته [الرد على الجهمية/ باب الإيمان بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصار رؤوسهم فيكلمهم ويكلمونه لا حائل بينه وبينهم ولا ترجمان ــ رقم (٥٨) ــ ٣/ ٦٢].

(٥) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٢٠.

وقد ذكرنا في كتاب (صفة الجنة)[1]: أربعين دليلاً على مسألة الرؤية من الكتاب والسنة، والعقل الصريح شاهدٌ بذلك، فإن الرؤية أمرٌ وجوديٌّ لا يتعلَّق إلا بموجودٍ، وما كان أكمل وجوداً: كان أحق بأن يُرى، فالباري ـ سبحانه ـ أحقُّ بأن يُرى من كلِّ ما سواه، لأن وجوده أكملُ من وجود كلِّ ما سواه.

يُوضِّحه: أن تعذُّر الرؤية إما لخفاء المرئيِّ؛ وإما لآفةٍ وضعفٍ في الرائي، والربُّ ـ سبحانه ـ أظهر من كلِّ موجودٍ، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا: لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه، فإذا كان الرائي في دار البقاء: كانت قوة الباصرة في غاية القوة؛ لأنها دائمةٌ، فقويت على رؤيته تعالى.

وإذا جاز أن يُرى ـ سبحانه ـ : فالرؤية المعقولة عند جميع بني آدم ـ عربهم وعجمهم وتركهم وسائر طوائفهم ـ : أن يكون المرئيُّ مُقابلاً للرائي مُواجهاً له مُبايناً عنه، لا تعقل الأمم رؤية غير ذلك، وإذا كانت الرؤية مُستلزمة لمواجهة الرائي ومباينته للمرئيِّ: لزم ضرورة أن يكون مرئياً له من فوقه أو من تحته؛ أو عن يمينه أو عن شماله؛ أو خلفه أو أمامه، وقد دلَّ النقل الصريح على أنهم إنما يرونه ـ سبحانه ـ من فوقهم لا من تحتهم، كما قال ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم: إذ سطع لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم؛ فإذا الجبار ـ جلَّ جلاله ـ قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: يا أهل الجنة: سلامٌ عليكم، ثم قرأ قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾[2]. ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»[3]. فلا يجتمع

---

(١) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦١ ـ ٤٠٩.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

(٣) تقدم تخريجه.

الإقرار بالرؤية وإنكار الفوقية والمباينة لهذا)[1].

وإيمان العبد بدلائل الشرع والإجماع، وبراهين العقل الموجبة للإقناع ـ المخبرة بلقاء الملك الديَّان؛ والتصديق برؤية وجهه الكريم في الجنان ـ : له ثمراتٌ حسانٌ؛ في هذه الدار وفي دار الحيوان، فمن تلك الثمرات التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ :

أولاً: ثمرات الإيمان برؤية وجه الله الكريم المجتناة في هذه الدار، فمن ذلك: إعانة العبد على محاسبة نفسه، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله فيما يعين العبد على محاسبة نفسه: (يعينه عليها أيضاً: معرفته أن ربح هذه التجارة: سُكنى الفردوس؛ والنظر إلى وجه الربِّ ـ سبحانه ـ، وخسارتها: دخول النار؛ والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم.

فحُقَّ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكلُّ نفس من أنفاس العمر: جوهرةٌ نفيسةٌ لا خطر لها؛ يُمكن أن يُشترى بها كنزٌ من الكنوز لا يُتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس؛ أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسرانٌ عظيمٌ؛ لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلُّهم عقلاً، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران: يوم التغابن؛ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[2])[3].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٣٣١ ـ ١٣٣٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

(٣) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ١٣٣ ـ ١٣٤.

ثانياً: ثمرات الإيمان برؤية وجه الله الكريم المجتناة في دار القرار، فمن ذلك أنها توجب للعبد:

١ ــ مغفرة الله تعالى ورضوانه، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (لما عطف ــ سبحانه ــ الزيادة على الحسنى ــ التي هي الجنة ــ: دلَّ على أنها أمرٌ آخر من وراء الجنة؛ وقدرٌ زائدٌ عليها، ومن فسَّر الزيادة بالمغفرة والرضوان: فهو من لوازم رؤية الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ)(١).

٢ ــ القرب من الله تعالى، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قال تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾(٢). فالحسنى: الجزاء. والزيادة: منزلة القرب. ولهذا فُسِّرَتْ بالنظر إلى وجه الله ــ عزَّ وجلّ ــ.

وهذان هما اللذان وعدهما فرعون للسحرة إن غلبوا موسى، فقالوا له: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(٤) (٥). قالوا: والعارفون عملهم على: المنزلة والدرجة،

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦٧ ــ ٣٦٨.

(٢) سورة يونس: الآية ٢٦.

(٣) سورة الأعراف: الآيتان ١١٣ ــ ١١٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٥) قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٨٣]: (أيسرُ يسيرٍ من رضوانه: أكبر مِنَ الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾. وأتى به مُنكَّراً في =

والعُمَّال عملهم على: الثواب والأجرة، وشتَّان ما بينهما)[1].

٣ ــ جمال الباطن، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله في أسرار سورة القيامة: (من أسرار هذه السورة: أنه ــ سبحانه ــ جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن، فزيَّن وجوههم بالنضرة؛ وبواطنهم بالنظر إليه، فلا أجمل لبواطنهم ولا أنعم ولا أحلى من: النظر إليه، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه؛ وهي إشراقه وتحسينه وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَقَّنٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾[2])[3].

وبالعموم؛ فإن ثمرات الإيمان برؤية المؤمنين وجه الله الكريم المجتناة في دار القرار: لا يُحصيها العادُّون؛ ولا يصفها الواصفون، كيف لا؟ والمؤمنون (لا شيء أحبَّ إليهم منه؛ ولا أشوق إليهم من لقائه؛ ولا أقرَّ لعيونهم من رؤيته؛ ولا أحظى عندهم من قربه)[4]، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (أهل المعرفة بالله وخاصة أولياء الله: ليس عندهم شيء ألذُّ من النظر إلى وجهه الكريم[5]، وليس بين هذه اللَّذَّة ولذَّة

= سياق الإثبات، أي: أيُّ شيءٍ كان من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة.

قليلٌ منك يُقنعني ولكن قليلك لا يُقال له قليلُ).

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٧٩.

(٢) سورة الإنسان: الآية ١١.

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص١٩٨.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦.

(٥) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن أشرف ما في الجنة؛ وأجلَّ نعيمها؛ وأفضله على الإطلاق ــ الذي ما طابت الجنة إلا به ــ : هو النظر إلى وجه الله الكريم، فذلك هو حقيقة لذة الجنة؛ ورأس نعيمها؛ الذي لا يُعطى أهلها في الآخرة شيئاً هو أحبُّ إليهم ولا أقرُّ لعيونهم ولا أنعم لقلوبهم منه؛ في: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٤٤ ــ ٤٥؛ =

الأكل والشرب والنعيم المنفصل نسبة أصلاً، كما لا نسبة بين الربِّ ـ جلَّ جلاله ـ وبين شيءٍ من مخلوقاته، فالنسبة بين اللَّذَّتين لا تُدرك أصلاً.

قال شيخنا: (وعلى ذلك جميع أهل السنة وسلف الأمة وأئمة الإسلام)[1].

قال الحسن البصري ـ شيخ الإسلام في زمن التابعين ـ: (لو علم العابدون أنهم لا يرون ربَّهم في الآخرة: لذابت نفوسهم في الدنيا شوقاً إليه)[2].

= ٥١؛ ٥٣، التبيان في أقسام القرآن ص١٩٣، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٢٧؛ ٤٢٥، الداء والدواء ص٣٥٧ ـ ٣٥٨، الروح ص٥٥٥، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص١٨٠؛ ٤٢٠، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٠٩؛ ١٤٨٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٣ ـ ١١٤، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٨٢، الفوائد ص٦٢، كشف الغطاء في حكم سماع الغناء ص٢٨٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٨٣ ـ ٨٤؛ ٤٢٩؛ ٣/ ٥٨؛ ٥٩؛ ٦٦؛ ٣٢٣؛ ٣٢٥؛ ٣٦٨، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣٥٨؛ ٣/ ٣٦.

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنّة [سئل عما جحدت الجهمية الضلال من رؤية الرب تعالى يوم القيامة ـ رقم (٤٨٦) ـ ١/ ٢٦٣]، والآجري في الشريعة [كتاب التصديق بالنظر إلى الله عزَّ وجلّ ـ رقم (٥٧١) ـ ٢/ ٩٨٢]، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [سياق ما روي عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين في رؤية المؤمنين الرب عزَّ وجلّ ـ رقم (٨٦٩) ـ ٣/ ٥٠١].
وفي إسناده: عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد ـ صاحب الحسن ـ، متروك الحديث.

انظر: الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ٢/ ١٥٥، ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ٢/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣، لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ٤/ ٨٠ ـ ٨١.

وقال الشافعي ــ رحمه الله ــ : (لو علم محمد بن إدريس أنه لا يرى ربَّه في الآخرة: لما عبده في الدنيا)[1].

وقال: (أنا أخالف ابنَ عُليّة[2] في كلِّ شيءٍ؛ حتى في قول: لا إلـٰه إلا الله، فإني أقول: لا إلـٰه إلا الله الذي يُرى في الآخرة، وهو يقول: لا إلـٰه إلا الله الذي لا يُرى في الآخرة)[3].

وكذلك جاءت السنن عن رسول الله ﷺ؛ كما روى مسلمٌ في صحيحه عن صهيب عن النبـي ﷺ قال: «إذا أُدخل أهل الجنة الجنة؛ نادى منادٍ: يا أهل الجنة؛ إن لكم عند الله موعداً يُريد أن يُنجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يُبيِّض وجوهنا؛ ويُثقِّل موازيننا؛ ويُدخلنا الجنة؛ ويُنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب؛ فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة»[4].

فأخبر الصادق المصدوق: أن نظرهم إليه أحبُّ إليهم من كلِّ ما أعطاهموه، وكذلك ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن وابن حبان في صحيحه من حديث عمار بن ياسر أنه سمع النبـي ﷺ يدعو: «اللّـٰهُمَّ بعلمك الغيب

---

(١) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي [باب ما يؤثر عنه في إثبات الرؤية ــ ١/ ٤١٩].

(٢) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم البصري الأسدي، أحد المتكلمين القائلين بخلق القرآن، توفي بمصر ليلة عرفة سنة ثمان عشرة ومائتين، وهو ابن سبع وستين.

انظر في ترجمته: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦/ ٢٠ ــ ٢٣، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ١١/ ٣٠ ــ ٣١، لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ١/ ٣٤ ــ ٣٥.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) تقدم تخريجه، ولفظه: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ».

وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللَّـهُمَّ إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحقِّ في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك نعيماً لا ينفد، وقرَّة عينٍ لا تنقطع، وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضرَّاء مُضرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضلَّةٍ، اللَّـهُمَّ زينَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[1])[2].

فالربُّ ــ تبارك وتعالى ــ لما أحبَّ أولياءه: أكرمهم بأعلى أنواع النعيم؛ وهو ثوابهم بلذَّة النظر إلى وجهه الكريم، ولما أبغض أعداءه: أهانهم بأعلى أنواع العذاب الأليم؛ وهو حرمانهم من لذَّة النظر إلى وجهه الكريم، (ولهذا كان عذاب أهل النار باحتجاب ربِّهم عنهم: أشدَّ عليهم مما هم فيه من العذاب الجسماني، كما أن نعيم أهل الجنة برؤيته تعالى وسماع خطابه ورضاه وإقباله: أعظم من نعيمهم الجسماني)[3]، كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (إن أفضل نعيم الآخرة وأجلَّه وأعلاه على الإطلاق: هو النظر إلى وجه الربِّ ــ عزَّ وجلّ ــ وسماع خطابه، كما في صحيح مسلم عن صهيب ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ نادى منادٍ: يا أهل الجنة؛ إن لكم عند الله موعداً يُريد أن يُنجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يُبيِّض وجوهنا؛ ويُثقِّل موازيننا؛

---

(١) تقدم تخريجه من رواية أحمد والنسائي، وأخرجه ابن حبان في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب صفة الصلاة ــ ذكر جواز دعاء المرء في الصلاة بما ليس في كتاب الله ــ الحديث رقم (١٩٧١) ــ ٥/ ٣٠٤ ــ ٣٠٥].

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٥٣ ــ ١٤٥٥.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٦٥ ــ ٦٦.

ويُدخِلنا الجنة؛ ويُجِرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب؛ فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه»[١]. وفي حديثٍ آخر: «فلا يلتفتون إلى شيءٍ من النعيم ما داموا ينظرون إليه»[٢].

فبيَّن ــ عليه الصلاة والسلام ــ أنهم مع كمال تنعُّمهم بما أعطاهم ربُّهم في الجنّة: لم يُعطهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحبَّ إليهم: لأن ما يحصل لهم به من اللذَّة والنعيم والفرح والسرور وقرَّة العين فوق ما يحصل لهم من التمتُّع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين ألبتة.

ولهذا قال ــ سبحانه وتعالى ــ في حقِّ الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾[٣]. فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار؛ وعذاب الحجاب عنه ــ سبحانه ــ[٤]، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتُّع بما في الجنة؛ ونعيم التمتُّع برؤيته.

وذكر ــ سبحانه ــ هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حقِّ الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[٥].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ».

(٣) سورة المطففين: الآيتان ١٥ ــ ١٦.

(٤) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن عذاب أهل النار باحتجاب الله تعالى عنهم: أعظم وأشدُّ عليهم مما هم فيه من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم؛ في: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٦٨، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١١٣ ــ ١١٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٨٤؛ ٣/ ٦٥ ــ ٦٦، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣٥٨.

(٥) سورة المطففين: الآيتان ٢٢ ــ ٢٣.

ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يُعذَّبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضُهم إلى بعضٍ، وكلٌّ هذا عدولٌ عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى: ينظرون إلى وجه ربِّهم، ضدُّ حال الكفار الذين هم عن ربِّهم: ﴿لَمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝﴾[1].

وتأمَّل كيف قابل ــ سبحانه ــ ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم: بضدِّه في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مرَّ بهم المؤمنون: يتغامزون ويضحكون منهم، و إذا رأوهم قالوا: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝﴾[2]. فقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝﴾[3]. مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝﴾[4]. فأطلق النظر ولم يُقيِّده بمنظورٍ دون منظورٍ، وأعلى ما نظروا إليه وأجلُّه وأعظمه: هو الله ــ سبحانه ــ، والنظر إليه أجلُّ أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝﴾[5].

فالنظر إلى الربِّ ــ سبحانه ــ مُرادٌ من هذين الموضعين ولا بُدَّ؛ إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمَّل السياق: لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك؛ خصوصاً أو عموماً)[6].

والله ــ سبحانه وتعالى ــ لما علم (أن قوى البشر لا تحتمل في هذه الدار رؤيته: احتجب عن عباده إلى يوم القيامة، فيُنشئهم نشأة يتمكنون بها

---

(١) سورة المطففين: الآيتان ١٥ ــ ١٦.
(٢) سورة المطففين: الآية ٣٢.
(٣) سورة المطففين: الآية ٣٤.
(٤) سورة المطففين: الآية ٣٥.
(٥) سورة المطففين: الآية ٣٢.
(٦) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٥١ ــ ٥٣.

من مُشاهدة جماله ورؤية وجهه)[1]، وثمة صراطٌ مستقيمٌ إلى هذه النشأة الأخرى؛ وهي: الأعمال الصالحة الموجبة للعبد المُتقرِّب إلى الله تعالى بها: للذَّة النظر إلى وجهه الكريم، فمن تلك الأعمال الصالحة التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ :

١ ـ الإيمان بأن لله تعالى وجهاً كريماً؛ وأنه قاهرٌ فوق عباده، لأن من أنكر صفة الوجه والعُلُوّ: لم يكن للنظر إلى وجه الله الكريم عنده حقيقةٌ، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين وجميع أهل السنة والحديث والأئمة الأربعة وأهل الاستقامة من أتباعهم: متفقون على أن المؤمنين يرون وجه ربِّهم في الجنة[2].

وهي الزيادة التي فسَّر بها النبي ﷺ والصحابة: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾[3]. فروى مسلمٌ في صحيحه بإسناده عن النبي ﷺ في قوله: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾: قال: «النظر إلى وجه الله تعالى»[4].

فمن أنكر حقيقة الوجه: لم يكن للنظر عنده حقيقةٌ، ولا سيَّما إذا أنكر الوجه والعُلُوَّ، فيعود النظر عنده إلى خيالٍ مُجرَّدٍ، وإن أحسن العبارة قال:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٩١.

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى؛ وأن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين كلَّهم وأهل السنة كلَّهم: متفقون على إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم في الآخرة؛ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٤٥٣.

(٣) سورة يونس: الآية ٢٦.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ».

هو معنى يقوم بالقلب؛ نسبته إليه كنسبة النظر إلى العين، وليس في الحقيقة عنده نظرٌ ولا وجهٌ ولا لذَّةٌ تحصل للناظر)[١].

٢ ــ إرادة العبد بعمله الصالح وجه الله الكريم، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[٢]. وقال أحبابه وأولياءه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾[٤].

فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين إرادة وجهه، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾[٥].

فجعل إرادته غير إرادة الآخرة، وهذه الإرادة لوجهه: موجبةٌ للذَّة النظر إليه في الآخرة، كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ أنه كان يدعو: «اللّهُمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي؛ وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة؛ وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى؛ وأسألك القصد في الفقر والغنى؛ وأسألك نعيماً لا ينفد؛ وأسألك قرة عين لا تنقطع؛ وأسألك الرضى بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت؛ وأسألك لذة النظر إلى وجهك؛ وأسألك الشوق إلى لقائك في غير

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩١.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٢.
(٣) سورة الإنسان: الآية ٩.
(٤) سورة الليل: الآيتان ١٩ ــ ٢٠.
(٥) سورة الأحزاب: الآية ٢٩.

ضـراء مضـرة ولا فتنـة مضلـة، اللَّـهُـمَّ زينـا بـزينـة الإيمـان؛ واجعلنـا هـداة مهتدين»[1].

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذَّة النظر إلى وجه الله؛ وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه، وعند الجهمية لا وجهٌ له ـ سبحانه ـ؛ ولا يُنظر إليه، فضلاً أن يحصل به لذَّةٌ، كما سمع بعضهم داعياً يدعو بهذا الدعاء؛ فقال: (ويحك؛ هَبْ أن له وجهاً، أفتلتذُّ بالنظر إليه؟)[2])[3].

٣ ـ حبُّ الله تعالى وإرادة مرضاته، لأن لذَّة النظر إلى الله تعالى بعد لقائه: بحسب قُوَّة الحبِّ والإرادة، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن اللذَّة بالمحبوب تضعف وتقوى بحسب قوَّة الحبِّ وضعفه، فكلَّما كان الحبُّ أقوى: كانت اللذَّة أعظم، ولهذا تعظم لذَّة الظمآن بشرب الماء البارد: بحسب شدَّة طلبه للماء؛ وكذلك الجائع، وكذلك من أحبَّ شيئاً: كانت لذَّته على قدر حبِّه إياه، والحبُّ تابعٌ للعلم بالمحبوب؛ ومعرفة جماله الظاهر والباطن.

فلذَّة النظر إلى الله بعد لقائه: بحسب قُوَّة حُبِّه وإرادته، وذلك بحسب العلم به وبصفات كماله، فإذاً العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات)[4].

٤ ـ أن يُخلِّص العبد ظاهره وباطنه من الخبث، لأن الطيِّب وحده هو المُجـاور لله فـي دار كـرامتـه؛ المُختـصُّ بـرؤيتـه والقـرب منـه، كمـا ذكـر

---

(١) تقدم تخريجه من رواية ابن حبان، وأخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ـ الحديث رقم (١٩٢٣) ـ ١/ ٧٠٥ ـ ٧٠٦].

(٢) لم أقف عليه.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٤ ـ ٢٥.

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣١٣.

ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (الله تعالى يُريد تخليص الطيِّب من المادة الأرضية من الخبيث، ليجعل الطيِّب مُجاوراً له في دار كرامته؛ مُختصاً برؤيته والقرب منه[1]، ويجعل الخبيث في دار الخبث، حظُّه البُعْدُ والهوان والطرد والإبعاد، إذ لا يليق بحمده وحكمته وكماله أن يكون مُجاوراً له في داره مع الطيبين)[2].

٥ ـ أن يترقَّى العبد في مراتب الكمال طبقاً بعد طبقٍ؛ وحالاً بعد حالٍ، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (بيَّن ـ سبحانه ـ كيفية الخلق؛ واختلاف أحوال الماء في الرحم إلى أن صار منه الزوجان الذكر والأنثى، وذلك أمارةُ وجود صانعٍ قادرٍ على ما يشاء.

ونبَّه ـ سبحانه ـ عباده بما أحدثه في النطفة المهينة الحقيرة من الأطوار؛ وسَوْقِها في مراتب الكمال من مرتبةٍ إلى مرتبةٍ أعلى منها؛ حتى صارت بشراً سويًّا في أحسن خلقٍ وتقويمٍ على: أنه لا يحسنُ به أن يترك هذا البشر سُدى مُهملاً مُعطَّلاً؛ لا يأمره ولا ينهاه؛ ولا يُقيمه في عبوديته، وقد ساقه في مراتب الكمال من حين كان نطفة؛ إلى أن صار بشراً سويًّا، فكذلك يسوقه في مراتب كماله طبقاً بعد طبقٍ وحالاً بعد حالٍ؛ إلى أن يصير جارُه في داره؛ يتمتَّع بأنواع النعيم، وينظر إلى وجهه ويسمع كلامه)[3].

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى؛ وأن المَلِكَ من ملوك الدنيا لو جعل خاصَّته وحاشيته سفلة الناس وسقطهم وغرتهم: لقدح الناس في ملكه؛ وقالوا: لا يصلح للملك، فما الظنُّ بمجاوري الملك الأعظم ـ مالك الملوك ـ في داره؛ وتمتُّعهم برؤية وجهه؟ أفيليق بذلك المحلِّ الأسنى والدرجات العلى: روحٌ سفليةٌ أرضيةٌ؛ قد أخلدت إلى الأرض؛ في: طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٩٥؛ ٥٠١.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٤١.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٣٩.

٦ ــ الشوق إلى الله تعالى، لأن حقيقته: هو الشوق إلى لقائه؛ والتلذُّذ بالنظر إلى وجهه الكريم، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (روى الإمام أحمد في مسنده والنسائي وغيرهما من حديث حماد بن سلمة؛ عن عطاء بن السائب[(١)]؛ عن أبيه[(٢)] قال[(٣)]: صلَّى بنا عمار بن ياسر صلاة؛ فأوجز فيها، فقلت: خفَّفت يا أبا اليقظان! فقال: وما عليَّ من ذلك؛ ولقد دعوتُ الله بدعواتٍ سمعتها من رسول الله ﷺ. فلما قام تبعه رجلٌ من القوم؛ فسأله عن الدعوات؟ فقال: «اللَّـٰهُمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق: أحيني ما علمت الحياة خيراً لي؛ وتوَّفني إذا علمت الوفاة خيراً لي. اللَّـٰهُمَّ إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحقِّ في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد؛ وقرَّة عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء؛ وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك؛ والشوق إلى لقائك؛ في غير ضرَّاء مُضرةٍ ولا فتنةٍ مُضلَّةٍ، اللَّـٰهُمَّ زيِّنَّا بزينة الإيمان؛ واجعلنا هداة مهتدين»[(٤)].

---

(١) هو: أبو السائب عطاء بن السائب الكوفي، محدث الكوفة، توفي سنة ست وثلاثين ومائة.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/ ٣٣٢ ــ ٣٣٤، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٠/ ٨٦ ــ ٩٤، سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/ ١١٠ ــ ١١٤.

(٢) هو: أبو كثير السائب بن مالك ــ ويقال: ابن يزيد ــ الثقفي الكوفي.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ١٥٤، الثقات لابن حبان ٤/ ٣٢٧، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٣/ ٣٩٢.

(٣) رجال الحديث: رجال النسائي، وأما رجال أحمد؛ فهم: شريك عن أبي هاشم عن أبي مجلز.

(٤) تقدم تخريجه.

فهذا فيه إثبات لذَّة النظر إلى وجهه الكريم؛ وشوق أحبابه إلى لقائه، فإن حقيقة الشوق إليه: هو الشوق إلى لقائه)[1].

٧ ــ أن يُسلِّم العبد نفسه لله ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ ليبذل الله تعالى له الثمن وهو النظر إلى وجهه الكريم، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (الله ــ سبحانه ــ خلق عباده له؛ ولهذا اشترى منهم أنفسهم، وهذا عقدٌ لم يعقده مع خلقٍ غيرهم؛ فيما أخبر به على لسان رسوله ﷺ ليُسلِّموا إليه النفوس التي خلقها له، وهذا الشراء دليلٌ على أنها محبوبةٌ له؛ مصطفاةٌ عنده؛ مرضيةٌ لديه، وقدر السلعة: يُعرف بجلالة قدر مُشتريها؛ وبمقدار ثمنها، هذا إذا جُهِلَ قدرُها في نفسها؛ فإذا عُرِفَ قدرُ السلعة وعُرِفَ مُشتريها وعُرِفَ الثمن المبذول فيها: عُلِمَ شأنُها ومرتبتُها في الوجود.

فالسلعة أنتَ؛ والله المشتري؛ والثمن جنته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه في دار الأمن والسلام)[2].

فهذه بعض الأعمال الصالحة التي توجب للعبد (نضرة النعيم وبهجته)[3]، فحريٌّ بكلِّ عاقلٍ ألا يقطعه نعيم الدنيا ورفادتها؛ عن نعيم الجنة وزيادتها؛ والتي فُسِّرت ــ كما تقدَّم ــ (بأنها: النظر إلى وجه الله الكريم)[4]، كما ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (كيف يليق بصحيح العقل والمعرفة: أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيمٍ لا يزول ولا يضمحل؛ فضلاً عن أن يقطعه عن طلب من

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٩٨.
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٣٥.
(٣) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٢٤١.
(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٣١٥.

نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته والأنس به والفرح بقربه: كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة. قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١).

فيسيرٌ من رضوانه ــ ولا يقال له: يسيرٌ ــ: أكبر من الجنات وما فيها، وفي حديث الرؤية: «فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى وجهه»(٢). وفي حديث آخر: «إنهم إذا رأوه ــ سبحانه ــ لم يلتفتوا إلى شيءٍ مما هم فيه من النعيم حتى يتوارى عنهم»(٣).

فمن قطعه عن هذا أملٌ: فقد فاز بالحرمان؛ ورضي لنفسه بغاية الخسران، والله المستعان؛ وعليه التكلان؛ وما شاء الله كان)(٤).

وهناك مسألتان ذكرهما الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في مثاني كلامه بأدنى إشارة؛ ولم يُطل فيهما العبارة، وقد رأيتُ أنه من المستحسن أن يُختم بهما هذا المطلب، وهما:

أولاً: مسألة رؤية النبي ﷺ لربِّه ــ تبارك وتعالى ــ ، وقد أشار ــ رحمه الله تعالى ــ إلى أنها مسألة نزاعٍ لا يكفر جاحدها بالاتفاق، لأن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة؛ فقال: (تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل: أهمُّ من تقرير رؤيته لربِّه تعالى، فإن رؤيته لجبريل: هي أصل الإيمان؛ الذي لا يتمُّ إلا باعتقادها، ومن أنكرها: كفر قطعاً.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ».

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «بينا أهل الجنة في نعيمهم».

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٩٧ ــ ٩٨.

وأما رؤيته لربِّه تعالى: فغايتها أن تكون مسألة نزاع؛ لا يكفر جاحدها بالاتفاق، وقد صرَّح جماعةٌ من الصحابة بأنه لم يره[1]، وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك[2].

فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربِّه تعالى، وإن كانت رؤية الربِّ أعظم من رؤية جبريل ومن دونه: فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة)[3].

والذي يُؤكِّد ما صرَّح به جماعةٌ من الصحابة مِنْ أن النبيِّ ﷺ لم ير ربَّه ــ تبارك وتعالى ــ: وجود المانع من الرؤية؛ وهو: النور؛ الذي هو حجاب الربِّ تعالى، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ:

---

(١) تنازع الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ في رؤية النبي ﷺ ربَّه ليلة المعراج، وليس ذلك بخلافٍ على الحقيقة؛ لأنه نزاعٌ لفظيٌّ، لأنهم جميعاً متفقون على أن النبي ﷺ لم ير ربَّه بعيني رأسه، فمن أنكر من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ الرؤية: فمراده رؤية العين، ومن أثبتها: فمراده رؤية الفؤاد، وأما تقييد الرؤية بالعين: فلم يثبت عن أحدٍ منهم.
انظر ما سطَّره شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض كتبه ورسائله في هذه المسألة؛ في: درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٤١ ــ ٤٢، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ٢/ ٦٣٦ ــ ٦٣٧، الحجج العقلية والنقلية فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية ٢/ ٣٣٥ ــ ٣٣٦، الوصية الكبرى ٣/ ٣٨٦ ــ ٣٨٩، جواب سؤال في معنى قوله ﷺ: «نورٌ أنى أراه» وقوله: «رأيت نوراً» ٦/ ٥٠٧ ــ ٥٠٨، جواب سؤال في ثبوت رؤيته ﷺ ربَّه بفؤاده ٦/ ٥٠٩ ــ ٥١٠ [رسائل مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) لم أقف على نصٍّ صريح في حكاية الدارمي لاتفاق الصحابة على نفي رؤية النبي ﷺ لربِّه ــ تبارك وتعالى ــ في ردَّيْه على الجهمية والمريسي.

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص١٦٠.

«سُئِلَ ﷺ: هل رأيت ربَّك؟ فقال: نورٌ أنَّى أراه» ذكره مسلم[1].

فذكر الجواب؛ ونبَّه على المانع من الرؤية؛ وهو النور الذي هو حجاب الربِّ تعالى، الذي لو كشفه لم يقم له شيءٌ)[2].

ثانياً: مسألة وسطية أهل السنة والجماعة في باب رؤية الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بين من يزعم أنه يُرى في الدنيا؛ وبين من يزعم أنه لا يُرى في الآخرة، وقد أشار ــ رحمه الله تعالى ــ إلى أن ما أخبر الله تعالى به ورسوله ﷺ وأجمع عليه الصحابة والأئمة: يُكذِّب الفريقين المنحرفين في باب رؤية الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ فقال: (﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾[3]. والمنحرفون في باب رؤية الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ نوعان:

أحدهما: من يزعم أنه يُرى في الدنيا؛ ويُحاضر ويُسامر.

والثاني: من يزعم أنه لا يُرى في الآخرة ألبتة؛ ولا يُكلم عباده.

وما أخبر الله به ورسوله وأجمع عليه الصحابة والأئمة: يُكذِّب الفريقين، وبالله التوفيق)[4].

فباب رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة ــ كغيره من أبواب الاعتقاد ــ : متضمنٌ لتقرير وسطية أهل السنة والجماعة بين طرفي الإفراط والتفريط؛ والغُلُوِّ والجفاء، فأهل السنة والجماعة توسَّطوا في إثبات هذه الصفة بين الحلولية؛ القائلين بأن الله يُرى في الدنيا والآخرة، وبين الجهمية؛ القائلين

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٢٦٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٤٣.

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٢٢ ــ ٤٢٣.

بأن الله لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة ــ تعالى الله عن قول الطائفتين عُلُوًّا كبيراً ــ[1].

وهذا يُبيِّن أن أهل السنة والجماعة المستمسكين بـ (دين الله: وسطٌ بين تكذيب هؤلاء بما أخبر به رسوله ﷺ في الآخرة؛ وبين تصديق الغالية بأنه يُرى بالعيون في الدنيا، وكلاهما باطلٌ)[2].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في نونيته: بعض المعاني المتقدِّمة الذكر في صفة رؤية المؤمنين ربَّهم ــ تبارك وتعالى ــ[3]، وعقد في خاتمتها فصلاً بعنوان: (فصلٌ في رؤية أهل الجنة ربَّهم ــ تبارك وتعالى ــ ونظرهم إلى وجهه الكريم)[4]؛ قال في أبياتٍ له في وسطه:

(والله لولا رؤية الرحمن في الـ	جنات ما طابت لذي العرفانِ
أعلى النعيمِ نعيمُ رؤية وجهه	وخطابُه في جنة الحيوانِ
وأشدُّ شيءٍ في العذاب حجابه	سبحانه عن ساكني النيرانِ
وإذا رآه المؤمنون نسوا	الذي هم فيه مما نالت العينانِ
فإذا توارى عنهمُ عادوا إلى	لذَّاتهم من سائر الألوانِ

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٤١، الحجج العقلية والنقلية فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية ٢/ ٣٣٦ ــ ٣٣٧، الوصية الكبرى ٣/ ٣٩١ ــ ٣٩٤ [رسالتان مودعتان ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٢) الوصية الكبرى لابن تيمية ٣/ ٣٩١ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية].

(٣) انظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤٥٠ ــ ٤٥١؛ ١٢٦٢ ــ ١٢٦٧؛ ٢٥٣٦ ــ ٢٥٤٠؛ ٢٧٨٣؛ ٣٧١٩ ــ ٣٧٢٠؛ ٤٥٩٦؛ ٥٥٢١)].

(٤) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٥٤١٨ ــ ٥٤٩٦) ــ ص٣٨٣ ــ ٣٨٧].

فلهــم نعيـمٌ عنــد رؤيتــه ســوى ... هـــذا النعيــمِ فحبَّــذا الأمــرانِ
أَوَمَـا سمعـت سـؤال أعـرف خلقـه ... بجـلالـه المبعــوث بــالقــرآنِ
شـوقـاً إليـه ولـذَّة النظـر الـذي ... بجـلال وجـه الـربِّ ذي السلطـانِ
الشـوق لـذَّة روحـه فـي هـذه الـدُّ ... نيــا ويــوم قيــامــة الأبــدانِ
تلتــذُّ بــالنظـر الـذي فـازت بـه ... دون الجــوارح هـــذه العينــانِ
واللّـهِ مـا فـي هـذه الـدنيـا ألـذُّ ... مـن اشتيــاق العبـد للــرحمــنِ
وكــذاك رؤيــة وجهــه سبحــانــه ... هـي أكمـل اللـذَّات لـلإنسـانِ)[1]

□ □ □

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٥٤٨١ ـ ٥٤٩٢) ـ ص٣٨٧].

المطلب السادس:

جهوده في تقرير صفة الله تعالى: الكلام

إنَّ الحديث عن صفة كلام الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ يتضمَّن (مِن الأسرار والمعاني؛ وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره: ما تقرُّ به عيون أهله؛ وتبتهج به قلوبهم)[1]، وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير هذه الصفة العليَّة في مواضع متفرقةٍ من كتبه؛ موضِّحاً أن من أعظم ما يُعطاه العبد يوم القيامة من النعيم ـ بعد النظر إلى وجه الله الكريم ـ: هو سماع كلام الربِّ ـ جلَّ جلاله ـ وخطابه لهم منه إليهم بلا واسطةٍ، كما ذكر ذلك بقوله: (ذكر الإمام أحمد وغيره: (أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول يوم القيامة لداود: مجِّدني بذلك الصوت الذي كنت تُمجِّدني به في الدنيا. فيقول: يا ربِّ؛ كيف وقد أذهبته المعصية؟ فيقول الله تعالى: أنا أردُّه عليك. فيقوم عند ساق العرش فيُمجِّده، فإذا سمع أهل الجنة صوته: استفرغ نعيم أهل الجنة)[2].

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم [رقم (١٨٣٤٨) ـ ١٠/ ٣٢٤٠]، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم [رقم (٧٠٥) ـ ٣/ ٨٤ ـ ٨٥]، عن مالك بن دينار، ولم أقف عليه عند أحمد.

وأعظم من ذلك: إذا سمعوا كلام الربِّ ــ جلَّ جلاله ــ وخطابه لهم منه إليهم بلا واسطةٍ[1]، وقد ذكر عبد الله بن أحمد في كتاب السنة أثراً في ذلك: (كأنَّ الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه من الرحمن ــ جلَّ جلاله ــ)[2].

فإذا انضاف إلى ذلك رؤيتهم وجهه الكريم ــ الذي تُغنيهم لذَّة رؤيته عن الجنة ونعيمها ــ: فأمرٌ لا تُدركه العبارة؛ ولا قليلاً من كثيرٍ، فهذا صوتٌ لا يلج كلَّ أذنٍ؛ وصيِّبٌ لا تحيا به كلُّ أرضٍ؛ وعينٌ لا يشرب منها كلُّ واردٍ؛ وسماعٌ لا يطرب عليه كلُّ سامعٍ؛ ومائدة لا يجلس عليها طفيليٌّ)[3].

وهذه الصفة العليَّة: قد دلَّت (عامَّة نصوص القرآن الصريحة في معناها)[4] على أنواعها؛ دلالة تفوت العدَّ والحصر، كما ذكر ــ رحمه الله

---

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن أشرف ما في الجنة؛ وأجلَّ نعيمها؛ وأفضله على الإطلاق ــ الذي ما طابت الجنة إلا به وبالنظر إلى وجه الله الكريم ــ: هو سماع كلام الله تعالى، فذلك هو حقيقة لذة الجنة؛ ورأس نعيمها؛ الذي لا يُعطى أهلها في الآخرة شيئاً هو أحبُّ إليهم ولا أقرُّ لعيونهم ولا أنعم لقلوبهم منه؛ في: إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٤٤؛ ٥١، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٢٧؛ ٤٢٥، الداء والدواء ص٣٥٧، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٢٠٩، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٨٢، الفوائد ص٦٢، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٢٨٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٨٣؛ ٤٢٩؛ ٣/ ٥٨؛ ٥٩؛ ٦٦؛ ٣٢٣؛ ٣٦٨، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٣٥٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٢٢ ــ ٣٢٣.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٢ ــ ٣٨٣.

تعالى ــ ذلك بقوله: (ردَّ الجهمية النصوص المحكمة الصريحة التي تفوت العدَّ على أن الله ــ سبحانه ــ تكلَّم ويتكلَّم وكلَّم ويُكلِّم؛ وقال ويقول؛ وأخبر ويُخبر؛ ونبَّأ؛ وأمر ويأمر؛ ونهى وينهى؛ ورضي ويرضى، ويعطي؛ ويُبشِّر ويُنذر ويُحذِّر، ويُوصل لعباده القول ويُبيِّن لهم ما يتقون، ونادى ويُنادي؛ وناجى ويُناجي؛ ووعد وأوعد، ويسأل عباده يوم القيامة، ويُخاطبهم ويُكلِّم كلاً منهم ليس بينه وبينه ترجمانٌ ولا حاجبٌ، ويُراجعه عبده مراجعة.

وهذه كلُّها أنواع للكلام والتكليم، وثبوتها بدون ثبوت صفة التكلُّم له: ممتنع.

فردَّها الجهمية مع إحكامها وصراحتها وتعيينها للمراد منها ــ بحيث لا تحتمل غيره ــ بالمتشابه من قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[1])[2].

وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بذكر بعض الأحاديث الصريحة الدلالة في إثبات صفة كلام الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ؛ فقال: (رواه البخاري والترمذي أيضاً من حديث الحميدي[3] عن سفيان[4] عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إذا قضى الله

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٩.

(٣) هو: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي الأسدي المكي، شيخ الحرم، توفي بمكة سنة تسع عشرة.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٤/ ٥١٢ ــ ٥١٥، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٦١٦ ــ ٦٢١، طبقات الحفاظ للسيوطي ص١٨١.

(٤) هذا إسناد البخاري، وأما إسناد الترمذي فهو: عن محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني عن سفيان.

الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله؛ كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾[1]، فسمعها مسترقوا السمع، ومسترقوا السمع هكذا بعضهم فوق بعض». وذكر الحديث[2].

وقد رواه أبو معاوية[3] عن الأعمش عن مسلم بن صبيح[4] عن عبد الله من قوله: «إن الله إذا تكلَّم بالوحي: سمع أهل السماء صلصلة كجرِّ السلسلة على الصفا فيُصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاءهم جبريل فُزِّعَ عن قلوبهم، قال: فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق. قال: فينادون الحق الحق». وقد روي هذا مرفوعاً، وليس فيه سمع أهل السماء للسماء، وهو الحديث الذي ذكره أبو داود[5].

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التفسير/ باب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾ ــ الحديث رقم (٤٨٠٠) ــ ٣/ ١٥١٣]، والترمذي في جامعه [أبواب التفسير/ باب ومن سورة سبأ ــ الحديث رقم (٣٢٢٣) ــ ٥/ ٢٧٦].

(٣) هو: محمد بن خازم التميمي السعدي الكوفي، الحافظ الحجة، ولد سنة ثلاث عشرة ومائة، وعمي وهو ابن أربع سنين، وتوفي سنة أربع وتسعين ومائة.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٦، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٥/ ١٢٣ ــ ١٣٣، سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/ ٧٣ ــ ٧٨.

(٤) هو: أبو الضحى مسلم بن صبيح القرشي الكوفي، من أئمة الفقه والتفسير، مات نحو سنة مائة؛ في خلافة عمر بن عبد العزيز ــ رحمه الله تعالى ــ.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ١٨٦، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٧/ ٥٢٠ ــ ٥٢١، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٧١.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب السنة/ باب في القرآن ــ الحديث رقم (٤٧٣٨) ــ ٥/ ١٠٥ ــ ١٠٦] من حديث عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ. =

وروى البيهقي من حديث نُعيم بن حمادٍ حدثنا الوليد بن مسلمٍ[1] عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابرٍ[2]، عن ابن أبـي زكريا[3]، عن رجاء بن حيوة[4]، عن النواس ابن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يُوحي بأمره: تكلَّم بالوحي، وإذا تكلَّم بالوحي أخذت السماوات رجفة؛

= وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٢٩٣) ــ ٣/ ٢٨٢ ــ ٢٨٣].

(١) هو: أبو العباس الدمشقي، عالم الشام، ولد سنة تسع عشرة ومائة، وتوفي في شهر الله المحرم سنة خمس وتسعين ومائة؛ بعد انصرافه من الحج قبل أن يصل إلى دمشق.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٣١/ ٨٦ ــ ٩٩، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٩/ ٢١١ ــ ٢٢٠، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٣٦٠.

(٢) هو: أبو عتبة الأزديُّ الدمشقيُّ الدارانيُّ، فقيه الشام، ولد في خلافة عبد الملك بن مروان، وتوفي سنة ثلاث وخمسين ومائة.
انظر في ترجمته: مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار لابن حبان ص٢٨٦، تاريخ أسماء الثقات ممن نقل عنهم العلم لابن شاهين ص٢١٤، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٧/ ١٧٦ ــ ١٧٧.

(٣) هو: أبو يحيـى عبد الله بن إياس بن يزيد الخزاعي الدمشقي، القدوة الرباني، توفي سنة سبع عشرة ومائة.
انظر في ترجمته: الطبقات للعصفري ص٣١٢، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٤/ ٥٢٠ ــ ٥٢٥، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٥/ ٢٨٦.

(٤) هو: أبو المقدام الكندي الأزدي الشاميُّ الفلسطينيُّ، الوزير العادل، أدرك معاوية ــ رضي الله عنه ــ ؛ ومات في إمرة هشام سنة اثنتي عشرة ومائة.
انظر في ترجمته: مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار لابن حبان ص١٨٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٩/ ١٥١ ــ ١٥٧، سير أعلام النبلاء للذهبـي ٤/ ٥٥٧ ــ ٥٦١.

أو قال: رعدة شديدة؛ خوفاً من الله ــ عزَّ وجلّ ــ ، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخرُّوا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل؛ فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي جبريل على الملائكة، كلَّما مرَّ بسماءٍ سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾[1]. قال: فيقولون كلُّهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله ــ سبحانه ــ من السماء والأرض»[2].

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي[3] عن معاوية بن صالح[4]، عن العلاء بن الحارث[5]، عن زيد بن

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات [باب ما جاء في إسماع الربِّ عزَّ وجلّ بعض ملائكته كلامه ــ الحديث رقم (٤٣٥) ــ ١/ ٥١١ ــ ٥١٢].
وضعفه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة [باب ذكر الكلام والصوت والشخص وغير ذلك ــ الحديث رقم (٥١٥) ــ ص٢٢٦ ــ ٢٢٧].

(٣) هو: أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبريُّ البصريُّ اللؤلؤيُّ، الحافظ الكبير، ولد سنة خمس وثلاثين ومائة، وتوفي بالبصرة في جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائة.
انظر في ترجمته: تاريخ الثقات للعجلي ص٢٩٩، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٧/ ٤٣٠ ــ ٤٤٣، تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٣٢٩ ــ ٣٣٢.

(٤) هو: أبو عبد الرحمن الحضرميُّ الشاميُّ، قاضي الأندلس، ولد في دولة عبد الملك بن مروان في حدود الثمانين، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة.
انظر في ترجمته: قضاة قرطبة وعلماء إفريقية للخشني ص٣٠ ــ ٣٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٧/ ١٥٨ ــ ١٦٣، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١٠/ ١٩٠ ــ ١٩٢.

(٥) هو: أبو وهب الحضرميُّ الدمشقيُّ.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير للبخاري ٦/ ٥١٣ ــ ٥١٤، الجرح والتعديل =

أرطاة[1]، عن جبير بن نفير[2]، عن أبـي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيءٍ أفضل مما خرج منه، يعني: القرآن». قال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد)[3].

وقـد رواه عبد الله بن صالـح[4] حدثني معاوية بن صالح عن العلاء بن الحارث، عـن زيد بـن أرطاة، عـن جبيـر بن نفير، عن عقبة بـن عامر، عن النبـي ﷺ، قال البيهقي: (يحتمل أن يكون جبير بن نفير رواه عنهما جميعاً)[5].

= لابن أبـي حاتم ٦/ ٣٥٣، تاريخ أسماء الثقات ممن نقل عنهم العلم لابن شاهين ص٢٥٠.

(١) هو: الفزاريُّ الدمشقيُّ.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبـي حاتم ٣/ ٥٥٦، الثقات لابن حبان ٦/ ٣١٣، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٠/ ٨.

(٢) هو: أبو عبد الرحمن الحضرمي الحمصي، الإمام الكبير، أدرك الجاهلية ولا صحبة له، وتوفي سنة خمس وسبعين.
انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبـي ٤/ ٧٦ ـ ٧٨، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٢/ ٥٨ ـ ٥٩، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٢٣.

(٣) أخرجه الحاكم فـي مستدركه [كتاب فضائل القرآن ـ الحديث رقم (٢٠٣٩) ـ ١/ ٧٤١].

(٤) هو: أبو صالح الجهني مولاهم المصري، كاتب الليث بن سعد على أمواله، وصاحب حديثٍ وعلمٍ؛ وله مناكير، ولد سنة سبع وثلاثين ومائة، وتوفي في عاشوراء سنة ثلاث وعشرين ومائتين.
انظر في ترجمته: المجروحين لابن حبان ٢/ ٤٠ ـ ٤٣، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٥/ ٩٨ ـ ١٠٩، ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبـي ٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤٥.

(٥) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات [باب قول الله عزَّ وجلّ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ ـ الحديث رقم (٥٠٢ ـ ٥٠٣) ـ ١/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦].

وروى علقمة بن مرثدٍ[1] عن أبـي عبد الرحمن السلميِّ عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه[2]، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه؛ وذلك أنه منه» رواه البيهقي من طريقين[3])[4] إلى آخر كلامه.

---

(١) هو: أبو الحارث الحضرميُّ الكوفيُّ، الفقيـه الحجة، توفي في آخـر ولاية خالد القسري على العراق سنة عشرين ومائة.
انظر في ترجمتـه: الطبقات للعصفـري ص١٦٣، سيـر أعـلام النبـلاء للذهبـي ٤/٧٦ ــ ٤/٧٨، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٧/٢٣٨.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه [كتاب فضائل القرآن/ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ــ الحديث رقم (٥٠٢٧ ــ ٥٠٢٨) ــ ٤/١٦٢٠]: شطر الحديث الأول؛ من هذا الطريق.
إلا أن روايـة البخـاري فـي صحيحـه جمعـت بيـن متـن الحـديـث الأول وإسنـاد الحديث الثاني، فأما الحديث الأول: فقـال فيـه البخاري: حدثنـا حجـاج بن منهال؛ حدثنا شعبة؛ قال: أخبرني علقمة بن مرثد؛ سمعت سعد بن عبيدة؛ عن أبـي عبد الرحمن السلمـيِّ؛ عن عثمان ــ رضي الله عنه ــ ؛ عن النبـي ﷺ قال: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه».
وأما الحديث الثاني: فقـال فيه البخاري: حدثنا أبـو نعيم؛ حدثنا سفيان؛ عـن علقمة بن مرثد؛ عن أبـي عبد الرحمن السلميِّ؛ عن عثمان ــ رضي الله عنه ــ قال: قال النبـي ﷺ: «إن أفضلكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه».

(٣) وكذا له طريقٌ آخر أيضاً، وقد أخرج البيهقي الطرق الثلاثة في الأسماء والصفات [باب قول الله عزَّ وجلّ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ ــ الحديث رقم (٥٠٤ ــ ٥٠٦) ــ ١/٥٧٨ ــ ٥٨٠]، كما أخرج البيهقي الطريق الأولى منها في الاعتقاد [باب القول في القرآن ــ ص١٠٤ ــ ١٠٥].
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (١٣٣٥) ــ ٣/٥٠٦ ــ ٥٠٩].

(٤) تهذيب مختصر سنن أبـي داود ١٣/٤٨ ــ ٤٩.

ومن الألفاظ الشرعية الدالَّة على إثبات صفة كلام الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ : لفظ (النداء)، وقد ورد هذا اللفظ في محالٍّ متنوعةٍ من الكتاب والسنة، كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (ليس بمجازٍ لفظ النداء الإلـهي، وقد تكرَّر في الكتاب والسنة تكراراً مُطَّرداً في محالِّه؛ مُتنوِّعاً تنوُّعاً يمنع حمله على المجاز، فأخبر تعالى أنه نادى الأبوين في الجنة، ونادى كليمه، وأنه يُنادي عباده يوم القيامة.

وقد ذكر ـ سبحانه ـ النداء في تسعة مواضع في القرآن[1]، أخبر فيها عن ندائه بنفسه، ولا حاجة إلى أن يُقيِّد النداء بالصوت، فإنه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة[2]، فإذا انتفى الصوت انتفى النداء قطعاً، ولهذا جاء إيضاحه في الحديث الصحيح؛ الذي بلغناه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وسائر الأمة تلقته بالقبول، وتقييده بالصوت إيضاحاً وتأكيداً، كما قيَّد التكليم بالمصدر في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾﴾[3].

قال البخاري في صحيحه: حدثنا عمر بن حفص بن غياث[4]،

---

(١) مراد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بالمواضع ها هنا: السور، حيث جاء ذكر النداء في تسع سور في ثلاث عشرة آية.
انظر: سورة الأعراف: الآية ٢٢، سورة مريم: الآية ٥٢، سورة طه: الآية ١١، سورة الشعراء: الآية ١٠، سورة النمل: الآية ٨، سورة القصص: الآيات ٣٠؛ ٤٦؛ ٦٢؛ ٦٥؛ ٧٤، سورة الصافات: الآية ١٠٤، سورة فصلت: الآية ٤٧، سورة النازعات: الآية ١٦.

(٢) انظر: المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٩/ ٣٦٤، الصحاح للجوهري ٦/ ٢٥٠٥، لسان العرب لابن منظور ١٥/ ٣١٥ [مادة: ندا].

(٣) سورة النساء: الآية ١٦٤.

(٤) هو: أبو حفص النخعي الكوفي، أحد العلماء الأثبات، توفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين؛ عن بضعٍ وخمسين سنة بالكوفة. =

حدثنا أبـي[(١)]، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبـي سعيدٍ الخدريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبَّيك وسعديك، فيُنادي بصوتٍ: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار»[(٢)].

وقال البخاري: حدثنا الحميديُّ؛ وعليُّ بن المدينيِّ، قالا: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يُحدِّث أن النبـي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر بالسماء: ضربت الملائكة بأجنحتها؛ خضعاناً لقوله؛ كأنه سلسلةٌ على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾[(٣)]»[(٤)].

= انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبـي حاتم ٦/ ١٠٣، سير أعلام النبلاء للذهبـي ١٠/ ٦٣٩، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٧/ ٣٦٨.

(١) هو: أبو عمر حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي الكوفي، قاضي بغداد؛ ثم قاضي الكوفة، ولد سنة سبع عشرة ومائة، وولي القضاء سنة سبع وسبعين؛ وله ستون سنة، وتوفي آخر سنة أربع وتسعين ومائة.
انظر في ترجمته: أخبار القضاة لوكيع ١٨٤ ــ ١٨٨، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٧/ ٥٦ ــ ٧٠، تذكرة الحفاظ للذهبـي ١/ ٢٩٧ ــ ٢٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ ولم يقل ماذا خلق ربكم ــ الحديث رقم (٧٤٨٣) ــ ٥/ ٢٣٣٦].

(٣) سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ ولم يقل ماذا خلق ربكم ــ الحديث رقم (٧٤٨١) ــ ٥/ ٢٣٣٥] من رواية علي بن المديني، وقد تقدم تخريجه من رواية أبـي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي.

الحديث رواه النسائي في التفسير؛ وابن ماجه؛ وأبو داود؛ والترمذي؛ وقال: حديث حسن صحيح[1])[2].

* وَسِمَةُ هذه النصوص الشرعية القويمة ـ المتقدمة الذكر وغيرها ـ: أنها إذا تأمَّلها المُتبصِّر: وجدها دالَّة على ثبوت هذه الصفة؛ دلالة رافعة لما يُتَوهم من خلاف ظاهر الكلام، وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بتقرير أوجه دلالة هذه النصوص، فمن ذلك:

١ ـ أنها تضمنت رفع توهُّم المجاز في كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالمصدر المُؤكِّد، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إذا تأمَّل من بصَّره الله طريقة القرآن والسنة: وجدها متضمنة لرفع ما يُوهمه الكلام من خلاف ظاهره، وهذا موضعٌ لطيفٌ جداً في فهم القرآن نُشير إلى بعضه، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾[3].

رفع ـ سبحانه ـ توهُّم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المُؤكِّد؛ الذي لا يَشكُّ عربيُّ القلب واللسان أن المراد به: إثبات تلك الحقيقة، كما تقول العرب: مات موتاً؛ ونزل نزولاً، ونظيره التأكيد بالنفس؛ والعين؛ وكل؛ وأجمع، والتأكيد بقوله: حقاً ونظائره)[4].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الحروف والقراءات/ باب (١) ـ الحديث رقم (٣٩٨٩) ـ ٤/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩]، وابن ماجه في سننه [المقدمة/ باب فيما أنكرت الجهمية ـ الحديث رقم (١٩٤) ـ ١/ ١٢٧]، وقد تقدم تخريجه من حديث الترمذيِّ، ولم أقف عليه من حديث النسائيِّ.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٦٥.

(٣) سورة النساء: الآية ١٦٤.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٨٩.

٢ ـ أن الألفاظ التي تكلَّم الله تعالى بها: لا يُتصوَّر دعوى المجاز فيها، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يضعها لمعانٍ ثم نقلها عنها إلى غيرها، ولا كان تكلُّمه ـ سبحانه ـ بها تابعاً لأوضاع المخلوقين، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (قد عُلِمَ بالاضطرار من دين الرسول ﷺ: أن الله تعالى مُتكلِّمٌ حقيقة، وأنه تكلَّم بالكتب التي أنزلها على رسله؛ كالتوراة والإنجيل والقرآن وغيرها، وكلامه لا ابتداء له ولا انتهاء.

فهذه الألفاظ التي تكلَّم الله بها؛ وفهم عباده مراده منها: لم يضعها ـ سبحانه ـ لمعانٍ ثم نقلها عنها إلى غيرها، ولا كان تكلُّمه ـ سبحانه ـ بتلك الألفاظ تابعاً لأوضاع المخلوقين، فكيف يُتصوَّر دعوى المجاز في كلامه ـ سبحانه ـ إلا على أصول الجهمية المعطلة؛ الذين يقولون: كلامه مخلوقٌ من جملة المخلوقات؛ ولم يقم به ـ سبحانه ـ كلام؟

وهؤلاء اتفق السلف والأئمة على تضليلهم وتكفيرهم، وأما من أقرَّ أن الله تعالى تكلَّم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغيرها حقيقة؛ وأن موسى سمع كلامه منه إليه بلا واسطة، وأنه يُكلِّم عباده يوم القيامة، ويُكلِّم ملائكته: فإنه لا يُتصوَّر على أصله دخول المجاز في كلامه)[1].

٣ ـ أنها تضمنت إزالة الأوهام عن الأفهام، وذلك بالتصريح بوقوع الكلام من الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بلا توسُّط الترجمان؛ وبلا حجابٍ، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (قوله: «ما منكم إلا من سيكلمه ربه؛ ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، ولا حاجب يحجبه»[2].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٩٧.

(٢) تقدم تخريجه، ولفظه: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه».

فلما كان تكليم الملوك قد يقع بواسطة الترجمان؛ ومن وراء الحجاب: أزال هذا الوهم من الأفهام)[1].

* وقد وافق الدليلُ العقليُّ المستقيمُ الدليلَ النقليَّ القويمَ على إثبات صفة الكلام للربِّ ـ تبارك وتعالى ـ، فمن أوجه هذه الموافقة التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ:

١ ـ أن الدليل العقليَّ دلَّ على ما دلَّ عليه الدليل السمعيُّ من أن الإلـه لا بُدَّ أن يُكلِّم ويتكلَّم، وإلا لم يصلح أن يكون إلهاً، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (قال تعالى في صفة الكلام: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ﴾[2]. نبَّه بهذا الدليل على أن من لا يُكلِّم ولا يهدي: لا يصلح أن يكون إلـهاً.

وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ ﴾[3]. فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم؛ وعدم ملك الضر والنفع: دليلاً على عدم الإلـهية، وهذا دليلٌ عقليٌّ سمعيٌّ على أن الإلـه لا بُدَّ أن يُكلِّم ويتكلَّم، ويملك لعابده الضرَّ والنفع؛ وإلا لم يكن إلـهاً.

وقال: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾[4]. نبَّهك بهذا الدليل العقليِّ القاطع: أن الذي جعلك تُبصر وتتكلَّم وتعلم أولى

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٩٦.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.
(٣) سورة طه: الآية ٨٩.
(٤) سورة البلد: الآيات ٨ ـ ١٠.

أن يكون بصيراً مُتكلِّماً عالماً، فأيُّ دليلٍ عقليٍّ قطعيٍّ أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى المعقول؟)[1].

٢ ــ أن العقل يشهد بما شهدت به النصوص من أن الله ــ سبحانه ــ تكلَّم بكلامٍ سمعه منه بعض عباده بكلامٍ حقيقيٍّ، وأن كلماته لا نهاية لها، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (كيف يجد العقل الصريح أنا نشهد بما جاءت به الرسل: أن الله ــ سبحانه ــ تكلَّم بكلامٍ سمعه منه جبريل؛ وبلَّغه إلى من أُمِرَ بتبليغه، وكلَّم نبيه موسى، وكلَّم ملائكته بكلامٍ حقيقيٍّ سمعوه منه، وأنه يتكلَّم بمشيئته وإرادته.

وكلُّ قولٍ خالف هذا: فهو خلاف العقل الصريح؛ وإن زُخرفت له الألفاظ؛ ونُسجت له الشبه.

وتأمل ما جاءت به النصوص: أن كلماته لا نهاية لها، وهل يقتضي العقل الصريح غير ذلك؟)[2].

٣ ــ أنه لا يصحُّ في لغةٍ ولا عقلٍ: إجابة من لا يتكلَّم ولا يدعو من أجابه، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قولك: (لبَّيك): يتضمن إجابة داعٍ دعاك؛ ومنادٍ ناداك، ولا يصحُّ في لغةٍ ولا عقلٍ: إجابة من لا يتكلَّم ولا يدعو من أجابه)[3].

ومن الدلالات على أن صفة الكلام ثابتةٌ للربِّ ــ تبارك وتعالى ــ: إجماع الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ وأتباعهم، فـ (النبوات من أوَّلها إلى آخرها متفقةٌ على أصولٍ)[4]؛ منها: إثبات هذ الصفة لله

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٩١٤ ــ ٩١٥.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٢٤.

(٣) تهذيب مختصر سنن أبي داود ٥/ ١٧٨.

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٢.

ـ سبحانه وتعالى ـ ، كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله فيما اتفقت عليه النبوات: (أنه المُتكلِّم المُكلِّم، الآمر الناهي، قائل الحقِّ وهادي السبيل)[1].

* وأما أتباع النبي ﷺ من سلف الأمة: فقد أثبتوا ما أثبته صحيح المنقول وصريح المعقول من صفة الكلام لله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وكان من جملة ما أثبتوه: ما قرَّره الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ من:

١ ـ أن كلام الله ـ سبحانه ـ صفة ذاتٍ وفعلٍ، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (قد دلَّ القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على: أن الله ـ سبحانه ـ يتكلَّم بمشيئته؛ كما دلَّ على أن كلامه: صفةٌ قائمةٌ بذاته، وهي صفة ذاتٍ وفعالٍ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[2]. وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[3])[4].

٢ ـ أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يزل مُتكلِّماً إذا شاء؛ ويتكلَّم بمشيئته، ولم تتجدَّد له هذه الصفة؛ لأنها من لوازم ذاته المقدسة، وإنما تتجدد آحادها، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (قال أهل الحديث والسنة: إنه لم يزل ـ سبحانه ـ مُتكلِّماً إذا شاء؛ ويتكلَّم بمشيئته، ولم تتجدَّد له هذه الصفة، بل كونه مُتكلِّماً بمشيئته هو من لوازم ذاته المقدسة، وهو بائنٌ عن خلقه

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٢٤.
(٢) سورة النحل: الآية ٤٠.
(٣) سورة يس: الآية ٨٢.
(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/٤٧٨.

بذاته وصفاته وكلامه، وليس مُتَّحداً بهم؛ ولا حالاً فيهم)[1].

٣ ــ أنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ يتكلَّم بصوته، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إذا قيل: المسموع مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل: إن أردت المسموع عن الله: فهو كلامه؛ غير مخلوق، وإن أردت المسموع من المبلغ: ففيه تفصيل، فإن سألت عن الصوت الذي رُوي به كلام الله: فهو مخلوق، وإن سألت عن الكلام المؤدى بالصوت: فهو غير مخلوق، والذين قالوا: إن الله يتكلم بصوت: أربع فرق)[2].

ثم ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ الأقوال الثلاثة لأهل البدعة والشناعة، ثم ختمها بقول أهل السنة والجماعة فقال: (قال أهل السنة والحديث: لم يزل الله متكلماً بصوته إذا شاء)[3].

وسماع المخلوقين لكلام خالقهم ــ سبحانه وتعالى ــ على مرتبتين: فمنه ما يُسمع من الله تعالى بلا واسطةٍ، ومنه ما يُسمع من الله تعالى بواسطة المُبلِّغ عنه، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هاتين المرتبتين؛ فقال: (قال أهل السنة والحديث: يُسمع كلامه ــ سبحانه ــ منه تارة بلا واسطةٍ؛ كما سمعه موسى وجبرائيل وغيره، وكما يُكلِّم عباده يوم القيامة؛ ويُكلِّم أهل الجنة؛ ويُكلِّم الأنبياء في الموقف.

ويسمع من المبلغ عنه؛ كما سمع الأنبياء الوحي من جبرائيل ــ تبليغاً عنه ــ ، وكما سمع الصحابة القرآن من الرسول ﷺ عن الله، فسمعوا كلام الله بواسطة المُبلِّغ، وكذلك

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٠٤.
(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٠٤.
(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٠٤.

نسمع نحن بواسطة التالي[1])[2].

ومرتبة سماع كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ منه بلا واسطةٍ: أعلى مراتب الهداية، كما ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ مراتب الهداية بقوله: (مراتب الهداية الخاصَّة والعامَّة؛ وهي عشر مراتب: المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله ـ عزَّ وجلّ ـ لعبده يقظة بلا واسطةٍ؛ بل منه إليه، وهذه أعلى مراتبها؛ كما كلَّم موسى بن عمران ـ صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه ـ، قال الله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾[3].

فذكر في أول الآية: وحيه إلى نوحٍ والنبيين من بعده، ثم خصَّ موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلَّمه، وهذا يدلُّ على أن التكليم الذي حصل له من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية، ثم أكدَّه بالمصدر الحقيقيِّ الذي هو مصدر (كلم) وهو: التكليم؛ رفعاً لما يتوهَّمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهامٌ أو إشارةٌ أو تعريفٌ للمعنى النفسيِّ بشيءٍ غير التكليم، فأكدَّه بالمصدر المفيد: تحقيق النسبة؛ ورفع توهم المجاز.

قال الفراء: (العرب تُسمِّي ما يُوصل إلى الإنسان كلاماً؛ بأيِّ طريقٍ وصل، ولكن لا تُحقِّقه بالمصدر، فإذا حقَّقته بالمصدر: لم يكن إلا حقيقة الكلام؛ كالإرادة، يقال: فلانٌ أراد إرادة؛ يُريدون حقيقة الإرادة، ويقال:

---

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن ثمة فرقاً بين الإيحاء العام بواسطةٍ؛ كتكلُّمه تعالى بالقرآن العربي، وبين التكليم الخاص ـ وهو: النداء والنجاء ـ؛ كتكليمه تعالى موسى حقيقة كلاماً أسمعه إياه بغير واسطةٍ؛ في: بدائع الفوائد ٢/ ٦٩ ـ ٧١، التبيان في أقسام القرآن ص١٧٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ٨٣٣؛ ٩٥٢، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٠.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٠٤.

(٣) سورة النساء: الآية ١٦٤.

أراد الجدار؛ ولا يُقال إرادة، لأنه مجازٌ غير حقيقة)[١]. هذا كلامه.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[٢]. وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون، وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر؛ لا في الأول، وفيه أُعطي الألواح؛ وكان عن مواعدةٍ من الله له، والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة، وفيه قال الله له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى﴾[٣]. أي: بتكليمي لك؛ بإجماع السلف.

وقد أخبر ــ سبحانه ــ في كتابه أنه ناداه وناجاه، فالنداء: من بعد، والنجاء: من قرب، تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء أو نجاء[٤].

وقال له أبوه آدم ــ في محاجته ــ: «أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه؛ وخطَّ لك التوراة بيده»[٥]، وكذلك يقوله له أهل الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربِّه، وكذلك في حديث الإسراء في رؤية موسى في السماء السادسة ــ أو السابعة على اختلاف الرواية ــ، قال: «وذلك بتفضيله

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل ٢/ ٣١١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٤.

(٤) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٣٩٩، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده ٧/ ٣٨٧، لسان العرب لابن منظور ١٥/ ٣٠٨ [مادة: نجو].

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب القدر/ باب تحاجِّ آدم وموسى عند الله ــ الحديث رقم (٦٦١٤) ــ ٥/ ٢٠٦٨ ــ ٢٠٦٩]، ومسلم في صحيحه [كتاب القدر/ باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ــ الحديث رقم (٢٦٥٢) ــ ٤/ ٢٠٤٢ ــ ٢٠٤٣] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ، وأوله: «احتج آدم وموسى».

بكلام الله»[1].

ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء: لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى؛ ولا كان يُسمى: كليم الرحمن.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[2]. ففرَّق بين تكليم الوحي؛ والتكليم بإرسال الرسول؛ والتكليم من وراء حجاب)[3]. ثم ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ سائر مراتب الهداية.

وثمة أمورٌ عِدَّةٌ تدلُّ على أن كلام الله تعالى: صفةٌ من صفاته؛ وليس مخلوقاً من مخلوقاته، فمن تلك الأمور التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ :

١ ــ أن الاستعاذة بكلمات الله تعالى مشروعةٌ، وهذا يدلُّ على أنها غيرُ مخلوقةٍ، لأنه لا يُستعاذ بمخلوقٍ، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن الرحمة المستغاث بها هي صفةُ الربِّ تعالى؛ لا شيء من مخلوقاته، كما أن المستعيذ بعِزَّته في قوله: «أعوذ بعزتك»[4]: مستعيذٌ بعِزَّته التي هي صفته؛ لا بعِزَّته التي خلقها؛ يُعِزُّ بها عباده المؤمنين.

وهذا كلُّه يُقرِّر قول أهل السُّنَّة: إن قول النبي ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات»[5]: يدلُّ على أن كلماته ــ تبارك وتعالى ــ غيرُ مخلوقة،

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «أُتيت بالبراق فركبته».

(٢) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٧ ــ ٤٨.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـٰهُمَّ لك أسلمت وبك آمنت».

(٥) تقدم تخريجه، وأوله: «من نزل منزلاً ثم قال».

فإنه لا يُستعاذ بمخلوقٍ[1])[2].

٢ ــ أنَّ قيام صفة الكلام بنفسها محالٌ، كما أن قيامها بغير الموصوف بها محالٌ أيضاً، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قول أتباع الرسل ــ الذين تلقوا هذا الباب عنهم ــ : أثبتوا لله صفة الكلام؛ كما أثبتوا له سائر الصفات.

ومحالٌ قيام هذه الصفة بنفسها؛ كما يقوله بعض المكابرين: إنه خلق الكلام لا في محلٍّ، ومحالٌ قيامها بغير الموصوف بها؛ كما يقوله المكابر الآخر: إنه خُلِقَ في محلٍّ؛ فكان هو المُتكلِّم به دون المحلِّ[3])[4].

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن استعاذة النبي ﷺ بكلمات الله تعالى التامات: مما احتجَّ به أهل السنة والجماعة على المعتزلة في أن كلمات الله تعالى غير مخلوقة؛ في: بدائع الفوائد ٢/ ١٧٤.
قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٥٥٨ ــ ٥٦٠) ــ ص٦٦ ــ ٦٧]:

(ورسوله قد عاذ بالكلمات من ... لدغٍ ومن عينٍ ومن شيطانِ
أيُعاذ بالمخلوق حاشاه من الإشـ ... ـراكِ وهو مُعلِّمُ الإيمانِ
بل عاذ بالكلمات وهي صفاته ... سبحانه ليست من الأكوان).

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ١٥٨.

(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن الكلام لا بُدَّ أن يقوم بمُتكلِّمه، إذ كلامٌ من غير مُتكلِّم: عين المحال، وهذه القاعدة العظيمة في معرفة الأسماء والصفات: من أصحِّ الأصول طرداً وعكساً، وبهذه القاعدة أجاب السلفُ الجهميةَ لما استدلُّوا على خلق القرآن؛ في: بدائع الفوائد ١/ ١٥٠، التبيان في أقسام القرآن ص٢٢٤، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٠٤، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٩.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٧٦.

٣ ــ أن أفضل ذكر الله تعالى: ذكره بكلامه؛ الذي هو صفةٌ من صفاته، فلو كان كلام الله تعالى من جملة مخلوقاته: لم يُورث ذكر الله تعالى به: طمأنينة القلب، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (أفضل ذكره: ذكره بكلامه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1].

فذِكْرُه هنا: كلامه الذي أنزله على رسوله ﷺ، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[2])[3].

٤ ــ أن كلام الله تعالى سلامٌ من كلِّ نقصٍ وعيبٍ جُبِلَ عليه المخلوق، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (كلامه سلامٌ أن يعرض له كذبٌ أو ظلمٌ[4]، بل تمَّت كلماته ﴿ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[5])[6].

٥ ــ أن مداد كلمات الله ــ سبحانه وتعالى ــ لا نهاية لقدره ولا لصفته ولا لعدده، ولو كان كلامه مخلوقاً لكان لقدره وصفته وعدده نهايةٌ، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن مداد كلماته ــ سبحانه وتعالى ــ لا نهاية لقدره ولا لصفته ولا لعدده، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[7].

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٦٢٠.

(٤) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن كلمات الله تعالى كلَّها سلامٌ مما يُضادُّها من الكذب والظلم؛ لأنها تمت بالصدق والعدل؛ في: بدائع الفوائد ٢/١١٧.

(٥) سورة الأنعام: الآية ١١٥.

(٦) أحكام أهل الذمة ١/١٩٤.

(٧) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[(١)].

ومعنى هذا: أنه لو فُرِضَ البحرُ مداداً، وبعده سبعة أبحرٍ تمدُّه كلُّها مداداً، وجميع أشجار الأرض أقلاماً ــ وهو ما قام منها على ساقٍ من النبات والأشجار المثمرة وغير المثمرة ــ والأقلام تستمدُّ بذلك المداد، فتفنى البحار والأقلام، وكلمات الربِّ لا تفنى ولا تنفد[(٢)]، فسبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

فأين هذا من وَصْف من يصفه بأنه: ما تكلَّم ولا يتكلَّم، ولا يقوم به كلامٌ أصلاً؟ وقول من وصف كلامه بأنه: معنى واحدٌ لا ينقضي ولا يتجزأ؛

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٢) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن القرآن والسنة والعقل الصريح قد دلُّوا على أن كلمات الله تعالى لا تفنى ولا تنفد، ولا تتناهى ولا تنقطع، فهي لا بداية لها ولا نهاية؛ والمخلوق له بدايةٌ ونهايةٌ، فهو أحقُّ بالفناء والنفاد؛ في: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣١، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٣١؛ ٣/ ١٠٨٣، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٥ ــ ٢٣٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٣٦٥، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٤٣؛ ٣/ ٣٧٧، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٠.

وقد قال ــ رحمه الله تعالى ــ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٣٢٤٢ ــ ٣٢٤٥) ــ ص٢٤١ ــ ٢٤٢]:

(كلماته جلَّت عن الإحصاءِ والتَّـ	ـعدادِ بل عن حصرِ ذي الحُسْبانِ
لو أنَّ أشجارَ البلادِ جميعاً الـ	أقلامُ تكتبها بكلِّ بنانِ
والبحرَ تُلْقَى فيه سبعةُ أبحرٍ	لكتابة الكلماتِ كُلَّ زمانِ
نفِدَتْ ولم تَنْفَدْ بها كلماتُه	ليس الكلامُ مِنَ الإلهِ بِفَانِ).

ولا له بعضٌ ولا كلٌّ؛ ولا هو سورٌ وآياتٌ، ولا حروفٌ وكلماتٌ؟)[1].

فهذا إخبارٌ على أن كلمات الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ لا تفنى ولا تنفد، ويرجع سبب ذلك إلى أمورٍ؛ ذكر منها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ :

١ ــ أن كلمات الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ غير مخلوقةٍ، ويستحيل أن يفنى غيرُ مخلوقٍ بالمخلوق، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (لا تنفد كلماته ولا تبدَّل، ولو أنَّ البحر يمدُّه من بعده سبعة أبحرٍ مداداً وأشجار الأرض أقلاماً؛ فكُتِبَ بذلك المداد وبتلك الأقلام: لنفد المداد وفنيت الأقلام؛ ولم تنفد كلماته، إذ هي غير مخلوقةٍ؛ ويستحيل أن يفنى غير مخلوقٍ بالمخلوق.

ولو كان كلامه مخلوقاً ــ كما قاله من لم يقدره حقَّ قدره؛ ولا أثنى عليه بما هو أهله ــ : لكان أحقَّ بالفناء من هذا المداد وهذه الأقلام، لأنه إذا كان مخلوقاً فهو نوعٌ من أنواع مخلوقاته، ولا يحتمل المخلوق إفناء هذا المداد وهذه الأقلام وهو باقٍ غير فانٍ)[2].

٢ ــ أن كلمات الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ لا بداية لها ولا نهاية، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (لو أن البحر يمدُّه من بعده سبعة أبحرٍ؛ وأشجار الأرض كلُّها أقلامٌ يُكتب بها كلام الله: لنفذت الأبحر والأقلام؛ ولم تنفد كلمات الله، لأنها لا بداية لها؛ ولا نهاية لها، والأبحر والأقلام متناهية.

قال الإمام أحمد وغيره: (لم يزل الله متكلماً إذا شاء)[3].

---

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص٢٩.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٥ ــ ٢٣٦.

(٣) الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل ص١٣٣.

وكماله المقدس مقتضٍ لكلامه، وكماله من لوازم ذاته، فلا يكون إلا كاملاً، والمُتكلِّم أكمل ممن لا يتكلَّم، وهو ــ سبحانه ــ لم يلحقه كللٌ ولا تعبٌ ولا سآمةٌ من الكلام، وهو يخلق ويُدبِّر خلقه بكلماته.

فكلماته هي التي أوجد بها خلقه وأمره؛ وذلك حقيقة ملكه وربوبيته وإلـٰهيته، وهو لا يكون إلا ربًّا ملكاً إلـٰهاً؛ لا إلـٰه إلا هو)[1].

فهذه بعض الأمور الدالَّة على أن كلام الله تعالى: صفةٌ من صفاته؛ وليس مخلوقاً من مخلوقاته، وعليه فإن من أنكر صفة الكلام العليَّة: تلزمُه لوازمُ فاسدةٌ لا مناص عنها، فمن تلك اللوازم التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ :

١ ــ أن نفي صفة الكلام عن الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ : موجبٌ لبطلان إلـٰهيته، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ ﴾[2].

فلو كان إلـٰه الخلق ــ سبحانه ــ كذلك: لم يكن في هذا إنكارٌ عليهم واستدلالٌ على بطلان الإلـٰهية بذلك. فإن قيل: فالله تعالى لا يكلم عباده. قيل: بلى قد كلَّمهم، فمنهم من كلَّمه الله من وراء حجابٍ منه إليه بلا واسطةٍ كموسى، ومنهم من كلَّمه الله على لسان رسوله الملكيِّ وهم الأنبياء، وكلَّم الله سائر الناس على ألسنة رسله؛ فأنزل عليهم كلامه الذي بلَّغته رسله عنه، وقالوا لهم: هذا كلام الله الذي تكلَّم به؛ وأمرنا بتبليغه إليكم.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٣٦٥ ــ ٣٦٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلماً؛ فقد أنكر رسالة الرسل كلِّهم، لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلَّم به إلى عباده، فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة.

وقال تعالى في سورة طه عن السامريِّ: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾[1]. ورَجْعُ القولِ: هو التكلُّم والتكليم.

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾[2]. فجعل نفي صفة الكلام: موجباً لبطلان الإلـٰهية[3][4].

٢ ــ أن حقيقة الكلام إذا انتفت عن الله تعالى: انتفى الخلق، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (كلُّ ما في القرآن العظيم من ذكر كلامه وتكليمه وأمره ونهيه دالٌ على أنه: تكلَّم حقيقة لا مجازاً، وكذلك نصوص الوحي الخاص، كقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ﴾[5].

---

(١) سورة طه: الآيتان ٨٨ ــ ٨٩.

(٢) سورة النحل: الآية ٧٦.

(٣) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن الربَّ إذا انتفت عنه صفة الكلام: فقد انتفى عنه الأمر والنهي ولوازمهما، وذلك ينفي حقيقة الإلـٰهية؛ في: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٧٤.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٣٤ ــ ٣٥.

(٥) سورة النساء: الآية ١٦٣.

قال الجارودي[1]: سمعت الشافعي يقول: (أنا مخالف ابن علية في كلِّ شيءٍ؛ حتى في قول: لا إلـه إلا الله، أنا أقول: لا إلـه إلا الله؛ الذي كلَّم موسى من وراء حجابٍ، وهو يقول: لا إلـه إلا الله؛ الذي خلق كلاماً أسمعه موسى)[2].

وقد نوَّع الله تعالى هذه الصفة في إطلاقها عليه تنويعاً يستحيل معه نفي حقائقها، بل ليس في الصفات الإلـهية أظهر من صفة الكلام والعُلُوِّ والفعل والقدرة، بل حقيقة الإرسال: تبليغ كلام الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ، وإذا انتفت عنه حقيقة الكلام: انتفت حقيقة الرسالة والنبوة.

والربُّ ـ تبارك وتعالى ـ يخلق بقوله وكلامه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[3]. فإذا انتفت حقيقة الكلام عنه: انتفى الخلق.

وقد عاب الله آلهة المشركين بأنها لا تَكَلَّم ولا تُكَلِّم عابديها؛

---

(١) ذكر المُصنِّفون في مناقب الشافعي ما يربو على الستين ومائة من الرواة عن الشافعي، ولم أقف على واحدٍ منهم اسمه: (الجارودي)، وأقرب من ذكر من الرواة إلى اسمه: أبو الوليد بن أبي الجارود المكي، ولم يتبين لي إن كان هو المراد؛ أو غيره؟
انظر في ذكر أصحاب الشافعي الذين حملوا عنه العلم؛ أو رووا عنه؛ أو حكوا عنه: مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٣٢٤ ـ ٣٣٦، توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس لابن حجر العسقلاني ص١٥٨ ـ ١٧٦، مناقب الإمام الشافعي للمناوي ص٦٣ ـ ٦٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الاعتقاد [باب القول في القرآن ـ ص٩٨]، ومناقب الشافعي [باب ما يؤثر عن الشافعي رحمه الله في أسماء الله وصفات ذاته وأن القرآن كلام الله وكلامه من صفات ذاته ـ ١/ ٤٠٩].

(٣) سورة يس: الآية ٨٢.

ولا ترجع إليهم قولاً، والجهمية وصفوا الربَّ ــ تبارك وتعالى ــ بصفة هذه الآلهة، وقد ضرب الله تعالى لكلامه واستمراره ودوامه: المثل بالبحر؛ يمده من بعده سبعة أبحرٍ؛ وأشجار الأرض كلُّها أقلامٌ، فيفنى المداد والأقلام؛ ولا تنفد كلماته، أفهذا صفة من لا يتكلَّم؛ ولا يقوم به كلامٌ؟ فإذا كان كلامه وتكليمه؛ وخطابه ونداؤه؛ وقوله وأمره؛ ونهيه ووصيته؛ وعهده وإذنه؛ وحكمه وإنباؤه؛ وإخباره وشهادته: كلُّ ذلك مجازٌ؛ لا حقيقة له: بطلت الحقائق كلُّها، فإن الحقائق إنما حقَّت بكلمات تكوينه، ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[1]. فما حقَّت الحقائق إلا بقوله وفعله)[2].

٣ ــ أن من أنكر كلام الله تعالى: فما قَدَرَه حقَّ قدره، ولا عرفه حقَّ معرفته، ولا عظَّمه حقَّ عظمته، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (من أنكر كلامه وتكليمه؛ وإرساله الرسل إلى خلقه: فما قَدَرَه حقَّ قدره، ولا عرفه حقَّ معرفته، ولا عظَّمه حقَّ عظمته، كما أن من عبد معه إلـٰهاً غيره: لم يَقْدِرْه حقَّ قدره؛ مُعطِّلٌ جاحدٌ لصفات كماله ونعوت جلاله؛ وإرسال رسله وإنزال كتبه، ولا عظَّمه حقَّ عظمته)[3].

* ولما كان القرآن الكريم أفضل كلام الله تعالى الذي تكلَّم به: جاءت العناية به على وجه الخصوص، حيث أخبر النبي ﷺ أمته (أن هذا القرآن: كلامُ الله الذي تكلَّم به؛ لا كلامه ولا كلام مخلوقٍ، وأنه ليس قول البشر)[4]، وعلى هذا درج أتباعه ﷺ من أمته؛ حيث (قال أهل السنة: القرآن

---

(١) سورة يونس: الآية ٨٢.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٧١.

(٣) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٥٨٣.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٥٤.

كلام الله ــ سبحانه ــ ، وكلامه صفةٌ من صفاته)[1]، وهذا الأمر قد قرَّره الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ من أوجهٍ عِدَّة، فمن تلك الأوجه:

١ ــ أنَّ المتأمل لطريقة القرآن الكريم يجدها: طريقة مخاطبة مَلِك الناس لمماليكه، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إذا تأمَّلت طريقته: وجدتها طريقة مخاطبة ملك الناس كلِّهم لعبيده ومماليكه، وهذا أحد الدلائل الدالَّة على أنه كلامه الذي تكلَّم به حقيقة؛ لا كلام غيره من المخلوقين.

وإذا كان النبي ﷺ قد أُوتي جوامع الكلام؛ وبين كلامه وكلام الله: ما لا يحصره نسبةٌ)[2].

٢ ــ أن المتأمِّل لطريقة القرآن الكريم يجدها: كيف أضافت القرآن إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ بلفظ الكلام، وأضافته إلى الرسول بلفظ القول، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (تأمَّل كيف أضافه ــ سبحانه ــ إلى الرسول بلفظ القول؛ وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[3].

فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أُمر بقوله؛ فيقول: قلت كذا وكذا؛ وقلت له ما أمرتني أن أقوله، كما قال المسيح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾[4].

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٢٠٤.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٧٠٩.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ١١٧.

والمُرسِل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[1]. ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]. ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[3] ونظائره.

فإذا بلَّغ الرسول ذلك: صحَّ أن يُقال: قال الرسول كذا؛ وهذا قول الرسول؛ أي: قاله مُبلِّغاً؛ وهذا قوله مبلغاً عن مُرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلَّم لهم بكذا وكذا؛ ولا تكلَّم الرسول بكذا وكذا؛ ولا أنه بكلام رسولٍ كريمٍ؛ ولا في موضعٍ واحدٍ[4].

بل قيل للصديق ــ وقد تلى آية ــ : (هذا كلامك وكلام صاحبك. فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي؛ هذا كلام الله)[5][6].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٥٣.

(٣) سورة النور: الآية ٣٠.

(٤) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن القرآن جميعه كلام الله تعالى؛ تكلَّم به حقيقة، وبلَّغه رسوله ﷺ عن جبرائيل عن ربِّ العالمين، فللرسولين منه مُجرَّد التبليغ والأداء؛ لا الوضع والإنشاء؛ في: التبيان في أقسام القرآن ص١٥٦ ــ ١٥٧، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٧٦ ــ ٤٧٧.

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة [قول العلماء في القرآن ومن حفظ لنا عنه أنه قال: كلام الله ليس بمخلوق ــ رقم (١١٦) ــ ١/ ١٤٣ ــ ١٤٤]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب ما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ــ رضي الله عنهم ــ في أن القرآن كلام الله غير مخلوق ــ رقم (٥١٠) ــ ١/ ٥٨٥]، وفي الاعتقاد [باب القول في القرآن ــ ص١٠٧ ــ ١٠٨].

(٦) التبيان في أقسام القرآن ص٢٢٤ ــ ٢٢٥.

٣ ــ أنَّ القرآن الكريم أحقُّ بالمجد من كلِّ كلامٍ، لأن المُتكلِّم به له المجد كلُّه، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (وصف كلامه بأنه: ﴿مَّجِيدٌ ۝٢١﴾[1]، وهو أحقُّ بالمجد من كلِّ كلام؛ كما أن المُتكلِّم به له المجد كلُّه، فهو المجيد؛ وكلامه مجيدٌ؛ وعرشه مجيدٌ.

قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ: (﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾[2]: كريمٌ)[3].

لأنَّ كلام الربِّ ليس كما يقول الكافرون: شعرٌ وكهانةٌ وسحرٌ، وقد تقدم أن المجد: السعة وكثرة الخير، وكثرة خير القرآن: لا يعلمها إلا من تكلَّم به)[4].

---

(١) سورة البروج: الآية ٢١.

(٢) سورة البروج: الآية ٢١.

(٣) ذكره البخاري في صحيحه معلقاً في [كتاب التوحيد/ باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ــ ٥/ ٢٣١٥]. قال ابن حجر العسقلاني في [تغليق التعليق على صحيح البخاري: ٥/ ٣٤٥]: (وأما قول ابن عباس: فقال ابن أبـي حاتم: ثنا أبي؛ ثنا أبو صالح؛ عن علي؛ عن ابن عباس في قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ قال: الكريم. وبه في قوله: ﴿ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ قال: الحبيب).
ولم أقف عليه عند ابن أبـي حاتم في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾، وإنما وقفت عليه عند قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾، كما في تفسير القرآن العظيم لابن أبـي حاتم (١٠/ ٣٣٠٧).
وقال السيوطي في [الدر المنثور في التفسير المأثور: ٦/ ٥٥٧]: (أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ قال: الحبيب، وفي قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ قال: الكريم).
ولم أقف عليه عند ابن جريرٍ الطبريِّ في جامعه؛ ولا البيهقيِّ في الأسماء والصفات، وإنما وقفت على نظيره عند ابن جريرٍ الطبريِّ في جامعه [٣٠/ ١٤٠] عن قتادة السدوسيِّ وسعيد بن المسيب، والله أعلم.

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص١٣٠.

٤ ــ أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يأذن ويستمع لقارىء القرآن الحسن الصوت؛ من محبته لسماع كلامه منه، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (الله ــ سبحانه ــ وهو الذي تكلَّم بالقرآن: يأذن ويستمع للقارىء الحسن الصوت؛ من محبته لسماع كلامه منه، كما قال ﷺ: «لله أشد أذناً إلى القارىء الحسن الصوت من صاحب القينة إلى قينته[1]»[2].

والأَذَن ــ بفتح الهمزة والذال ــ: مصدر أذن يأذن؛ إذا استمع[3])[4].

فإذا علم العبد أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يُحبُّ من عبده تلاوة وسماع القرآن الكريم ــ الذي هو كلامه ــ: حمله ذلك على (محبة القرآن؛ بحيث يَغْنَى بسماعه عن سماع غيره، ويهيم قلبه في معانيه ومراد المتكلم ــ سبحانه ــ منه، وعلى قدر محبة الله تكون محبة كلامه، فمن أحبَّ محبوباً: أحبَّ حديثه؛ والحديث عنه)[5].

---

(١) القيان: واحدها قينةٌ وهي: الأمة؛ غنَّت أو لم تُغنِّ.
انظر: غريب الحديث للهروي ٤/ ١٣٢، الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣/ ٢٣٨، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ١٣٥ [مادة: قين].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٣٩٥٦) ــ ٣٩/ ٣٧٨ ــ ٣٧٩]، والبخاري في تاريخه الكبير [باب فضالة ــ رقم (٥٥٦) ــ ٧/ ١٢٤]، وابن ماجه في سننه [كتاب إقامة الصلاة/ باب في حسن الصوت بالقرآن ــ الحديث رقم (١٣٤٠) ــ ١/ ١٣٠ ــ ١٣١] من حديث فضالة بن عبيد ــ رضي الله عنه ــ.
وضعفه الألباني في [ضعيف سنن ابن ماجه: الحديث رقم (٢٥١) ــ ص١٠١].

(٣) انظر: غريب الحديث للهروي ٢/ ١٣٨، الفائق في غريب الحديث للزمخشري ١/ ٣٢، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٣٣ [مادة: أذن].

(٤) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٢٧٥.

(٥) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٢١٣.

وها هنا نكتةٌ فيها (مطلعٌ على فوائد من كتاب الله؛ ومرقاةٌ إلى تدبُّره)[1]؛ وهي: أن حروف الهجاء التي يفتتح بها الربُّ ــ سبحانه ــ بعض السور تتضمن الدلالة على كلامه من وجهٍ لطيفٍ جداً، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ شرف حروف الهجاء ــ التي يفتتح بها الله تعالى بعض السور ــ وعظم قدرها وجلالتها؛ فقال: (شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها؛ إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلَّم ــ سبحانه ــ بها؛ وأنزلها على رسله؛ وهدى بها عباده، وعرَّفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله؛ وأمره ونهيه؛ ووعيده ووعده، وعرَّفهم بها الخير والشر؛ والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلُّم بها؛ بحيث يُبَلِّغون بها أقصى ما في أنفسهم بأسهل طريقٍ؛ وقِلَّة كلفةٍ ومشقةٍ؛ وأوصلِه إلى المقصود وأدلِّه عليه، وهذا من أعظم نعمه عليهم؛ كما هو من أعظم آياته، ولهذا عاب ــ سبحانه ــ على من عبد إلـٰهاً لا يتكلَّم، وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم.

فكان في ذكر هذه الحروف: التنبيه على كمال ربوبيته وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أولى أن يُقسم بها من الليل والنهار؛ والشمس والقمر؛ والسماء والنجوم؛ وغيرها من المخلوقات، فهي دالةٌ أظهرُ دلالةٍ على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه وصدق رسله)[2].

ومتى ما اعتنى (اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع)[3]، وأعطى هذه الحروف حقَّها من الاستدلال: فإنها تدلُّ على أن القرآن الكريم كلامُ الله تعالى؛ تكلَّم به حقاً؛ وأنزله على رسوله وَحْياً؛ وبلَّغه كما أُوحي إليه صدقاً،

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٩١.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٢٥٣ ــ ٢٥٤.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٢٣٥.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله في حروف الهجاء: (ألهم ــ سبحانه ــ الإنسانَ بضمٍّ بعضها إلى بعضٍ، فإذا هي كلماتٌ قائمةٌ بأنفسها، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعضٍ؛ وإذا هي كلامٌ دالٌّ على أنواع المعاني ــ أمراً ونهياً؛ وخبراً واستخباراً؛ ونفياً وإثباتاً؛ وإقراراً وإنكاراً؛ وتصديقاً وتكذيباً؛ وإيجاباً واستحباباً؛ وسؤالاً وجواباً؛ إلى غير ذلك من أنواع الخطاب ــ نظمه ونثره؛ ووجيزه ومطوَّله؛ على اختلاف لغات الخلائق، كلُّ ذلك صَنَعَهُ ــ تبارك وتعالى ــ في هواءٍ مُجرَّدٍ خارجٍ من باطن الإنسان إلى ظاهره؛ في مجارٍ قد هُيِّئت وأُعِدَّت لتقطيعه وتفصيله؛ ثم تأليفه وتوصيله، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1]؛ و ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[2].

فهذا شأن الحرف المخلوق، وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات: فشأنه أعلى وأجلُّ، وإذا كان هذا شأن الحروف: فحقيقٌ أن تُفتتح بها السور؛ كما افتتحت بالأقسام؛ لما فيها من آيات الربوبية وأدلَّة الوحدانية، فهي دالَّة على كمال قدرته ــ سبحانه ــ وكمال علمه؛ وكمال حكمته وعنايته بخلقه ولطفه وإحسانه.

وإذا أعطيت الاستدلال بها حقَّه: استدللت بها على المبدأ والمعاد؛ والخلق والأمر والتوحيد والرسالة، فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إلـٰه إلا الله؛ وأن محمداً عبده ورسوله، وأن القرآن كلامُ الله؛ تكلَّم به حقًّا؛ وأنزله على رسوله وحياً؛ وبلَّغه كما أُوحي إليه صدقاً.

ولا تهمل الفكرة في كلِّ سورةٍ افتتحت بهذه الحروف؛ واشتمالها على

(١) سورة غافر: الآية ٦٤.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٤، سورة الصافات: الآية ١٢٥.

آيات هذه المطالب وتقريرها، وبالله التوفيق)[1].

(وهذا بابٌ يُنبِّه الفاضل على ما وراءه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[2])[3]، فحروف القرآن الكريم وكلماته: (هي نوره الذي به أبصر المبصرون؛ وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كلِّ عليلٍ؛ وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرَّة العيون؛ وحياة القلوب؛ ولذَّة الأرواح)[4].

وبالعموم؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل (الكتاب شفاء لما في الصدور؛ وهدى ورحمة للمؤمنين)[5]، وأخبر أن كتابه الذي تكلَّم به مُيسَّرٌ للذكر[6]، فمن زعم بعد ذلك أنه قول البشر: فقد اتَّخذه مهجوراً[7]، ولم يلتذَّ به ولا بقراءته ولا بفهمه ولا بتدبُّره، لأن في قلبه منه حرجٌ، كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (إنه لا يلتذُّ به

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٢) سورة النور: الآية ٤٠.
(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٤٥.
(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٣.
(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٣٠.
(٦) انظر ما سطَّره الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٣١] في أنواع تيسير الذكر الثلاثة، وهي:
١ ـ تيسير ألفاظه للحفظ، ٢ ـ تيسير معانيه للفهم، ٣ ـ تيسير أوامره ونواهيه للامتثال.
(٧) انظر ما سطَّره الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الفوائد ص٩٤] في أنواع هجر القرآن الخمسة، وهي:
١ ـ هجر سماعه والإيمان به، ٢ ـ هجر العمل به، ٣ ـ هجر تحكيمه، ٤ ـ هجر تدبره، ٥ ـ هجر التداوي به.

وبقراءته وفهمه وتدبُّره: إلا من شهد أنه كلام الله؛ تكلَّم به حقاً؛ وأنزله على رسوله وحياً.

ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرجٌ منه بوجهٍ من الوجوه، فمن لم يؤمن بأنه حقٌّ من عند الله: ففي قلبه منه حرجٌ، ومن لم يؤمن بأن الله ـ سبحانه ـ تكلَّم به وحياً؛ وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته: ففي قلبه منه حرجٌ)(١).

* وهناك لوازمُ فاسدةٌ تلزم من أنكر أن يكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد تكلَّم بالقرآن حقيقة، فمن تلك اللوازم التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ :

١ ـ أن من أنكر أن يكون الله تعالى قد تكلَّم بالقرآن: فقد أنكر حقيقة الرسالة، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (ذكر ـ سبحانه ـ المُقسم عليه؛ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾(٢)، وهذا رسوله البشريُّ محمدٌ ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة: أبين دليلٍ أنه كلام المُرسل، فمن أنكر أن يكون الله قد تكلَّم بالقرآن: فقد أنكر حقيقة الرسالة(٣).

ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء: لم يكن رسولاً؛ ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكيِّ في سورة

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص٢٩٢.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٤٠.

(٣) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا المعنى؛ وأن من أنكر أن يكون الله مُتكلِّماً: فقد أنكر رسالة رسله، لأن حقيقة رسالتهم: تبليغ كلام من أرسلهم، فاذا انتفى كلام المرسل: انتفت رسالة الرسول؛ في: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٣٠٠، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص٢٣.

التكوير[1])[2].

٢ ــ أن من زعم أن القرآن قول البشر: فقد كفر؛ وسيصليه الله تعالى سقر، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (بيَّن ــ سبحانه ــ كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالى إلى غيره؛ وأنه لم يتكلَّم به؛ بل قاله من تلقاء نفسه، كما بيَّن كذب من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾[3].

فمن زعم أنه قول البشر: فقد كفر؛ وسيصليه الله سقر[4])[5].

٣ ــ أن القول بخلق القرآن: يتضمن أن بعض ما تضمنه وهو أسماؤه مخلوقة؛ وهي غيره، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (كلامه تعالى داخلٌ في مسمى اسمه، فالله تعالى اسم الذات الموصوفة بصفات الكمال، ومن تلك الصفات: صفة الكلام، كما أن علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره غير مخلوقةٍ، وإذا كان القرآن كلامه ــ وهو صفة من صفاته ــ: فهو متضمنٌ لأسمائه الحسنى، فإذا كان القرآن غير مخلوق؛ ولا يقال: إنه غير الله؛ فكيف يقال: إن بعض ما تضمنه وهو أسماؤه مخلوقة؛ وهي غيره؟

فقد حصحص الحق بحمد الله؛ وانحسم الإشكال، وأن أسماءه

---

(١) سورة التكوير: الآية ١٩.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص٢٢٢ ــ ٢٢٣.

(٣) سورة المدثر: الآية ٢٥.

(٤) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن الله تكلَّم بالقرآن العربيِّ؛ الذي سمعه الصحابه من النبي ﷺ، وأن جميعه كلام الله تعالى؛ وليس قول البشر، ومن قال: إنه قول البشر: فقد كفر؛ والله يصليه سقر؛ في: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص٢٣.

(٥) التبيان في أقسام القرآن ص٢٢٣.

الحسنى التي في القرآن من كلامه؛ وكلامه غير مخلوق، ولا يقال: هو غيره؛ ولا هو هو.

وهذا المذهب مخالفٌ لمذهب المعتزلة؛ الذين يقولون: أسماؤه تعالى غيره؛ وهي مخلوقةٌ، ولمذهب من ردَّ عليهم؛ ممن يقول: اسمه نفس ذاته؛ لا غيره، وبالتفصيل تزول الشبه؛ ويتبيَّن الصواب، والحمد لله)[1].

٤ ــ أن القول بخلق القرآن: قلبٌ لأوضاع اللغات؛ وخروجٌ عن المعقول وعن لغات الأمم قاطبة، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله عن القائلين بخلق القرآن: (إذا قالوا: المُتكلِّم من فعل الكلام في غيره؛ فصار بذلك مُتكلِّماً دون المحلِّ الذي قام به الكلام: فقد قلبوا أوضاع اللغات؛ وخرجوا عن المعقول وعن لغات الأمم قاطبة.

فإنَّ الله تعالى لو اتصف بما يُحدثه في غيره من الأعراض والصفات: لكان أسود بالسواد الذي يخلقه في المحل، وكذلك إذا خلق في محلٍّ بياضاً أو حمرة أو طولاً أو قصراً أو حركة كان المحلُّ الذي قامت به هذه الصفات والأعراض: هو الموصوف بها حقيقة لا الخالق لها.

فالصفة إذا قامت بمحلٍّ عاد حكمها إلى ذلك المحلِّ لا إلى غيره، واشتقَّ له منها اسمٌ لم يشتقَّ لغيره، وأخطأ القائلون بخلق القرآن في هذه المسائل الأربع؛ وأخلوا المحلَّ عن حكم الصفة، وأعادوه إلى غير من قامت به، واشتقوا الاسم لمن لم تقم به؛ دون من قامت به، فقلبوا الحقائق)[2].

وتتبُّع اللوازم الفاسدة التي تلزم المنكرين لتكلُّم الله تعالى بالقرآن حقيقة: (بابٌ طويلٌ، فلنقتصر منه على هذا القدر)[3].

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٨.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٣٨.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٢٤٨.

وما تقدَّم من تقرير صفة كلام الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ مما ورد في مثاني منثور كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ؛ سوى ما ورد في منظوم كلامه[1]: يكفي ويشفي (النفس اللطيفة الورعة المشرقة، وأما النفس الكثيفة: فلا خبر عندها من هذا، وما هو بعُشِّها فلتدرج[2])[3].

❑ ❑ ❑

(١) انظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤١٣؛ ٤١٨ ــ ٤٢٣؛ ٤٢٩؛ ٤٤١ ــ ٤٤٢؛ ٤٥١؛ ٤٥٤؛ ٥٥٦ ــ ٥٦٨؛ ٦٦٥ ــ ٧١٣؛ ٨٧٩ ــ ٨٨٠؛ ١٦٥٤؛ ٢٧٤٩؛ ٣٠٨٤؛ ٣٢١٥؛ ٣٢٤١ ــ ٣٢٤٥؛ ٣٧١٣ ــ ٣٧١٤؛ ٤٥٩٥؛ ٤٦٨٦ ــ ٤٧٠١؛ ٥٠٧٠؛ ٥٤٥٨؛ ٥٤٩٧ ــ ٥٥١١؛ ٥٥٢٢ ــ ٥٥٢٥)].

(٢) تقول العرب: (ليس هذا بِعُشِّكِ فادرجي)، وهو مثلٌ يُضرب لكلِّ من ينزل منزلاً لا يصلح لمثله، أو يرفع رأسه فوق قدره، أو يدَّعي أمراً ليس من شأنه.
انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٤٦، مجمع الأمثال للميداني ٣/ ٩٣، المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢/ ٣٠٥.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٣٧.

المطلب السابع:

جهوده في تقرير صفات الله تعالى: الوجه؛ العين؛ اليد؛ الرِّجْل

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تعيين صفات الله العلى: (الوجه؛ والعين؛ واليد؛ والرِّجْل)؛ التي اشتمل عليها هذا المطلب، مع العناية بذكر أدلة ثبوتها؛ وبيان معانيها، حيث قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وصف نفسه؛ ووصفه رسوله ﷺ بأن له صفات كريمة؛ ومن تلك الصفات الكريمة: صفات (الوجه؛ والعين؛ واليد؛ والرِّجْل).

وقد هدى الله أهل السنة والحديث ـ أصحاب سواء السبيل ـ لإثبات حقائق تلك الصفات؛ مع نفي مماثلة المخلوقات، فلم يُعطِّلوا ولم يُؤوِّلوا؛ ولم يُمثِّلوا ولم يُجهِّلوا، بل قالوا: لله ـ سبحانه وتعالى ـ ذاتٌ حقيقةٌ ليست كذوات المخلوقين، وله صفاتٌ حقيقةٌ ليست كصفات المخلوقين، ولم يمنعهم إثبات هذه الصفات من فهم المراد من تلك الصفات وحقائقها؛ وإن كان لا سبيل لهم إلى معرفة كنهها وكيفيتها، لأن ذلك غيبٌ لم يُكلِّفهم الله تعالى بعلمه؛ ولا أراده منهم؛ ولم يجعل لهم إليه سبيلاً.

وصفات الله العلى (الوجه؛ والعين؛ واليد؛ والرِّجْل): صفاتٌ سالمةٌ مما يتخيَّله مُشبِّهٌ؛ أو يتقوَّله مُعطِّلٌ، فهي مُضافةٌ إلى الله تعالى إضافة وصفٍ؛ لا إضافة خلقٍ، ولزوم الإضافة فيها نحو لزومها في الأسماء والأعلام، فهي إضافةٌ تمنع أن يدخل في اسم الصفة شيءٌ من خصائص المخلوقين بوجهٍ من الوجوه، فهي بإضافتها الخاصَّة: دلَّت على ما لا تسعه العبارة من الكمال الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه، لأن المضاف فيه بحسب المضاف إليه، فإذا لم يكن المضاف إليه مُماثلاً لغيره: لزم أن يكون المضاف كذلك ضرورة، فدعوى لزوم التشبيه والتمثيل في إثبات المضاف حقيقة: زعمٌ كاذبٌ، فإن لزم من إثبات هذه الصفات لله تعالى حقيقة التمثيل والتشبيه: لزم ذلك في إثبات سائر الصفات حقيقة، كما يلزم من ذلك: وقوع التشبيه بين الذاتين.

وقد دلَّ على إثبات هذه الصفات الذاتية: النقلُ الصحيح، كما دلَّ على أن الذات المتَّصفة بها أكمل من الفاقدة لها: العقلُ الصريح، أما دلالة النقل الصحيح: فلأن خاتمة الرسل والرسالات قد نصحت في إثبات هذه الصفات العلى غاية النصح، ونوَّعت دلالتها عليها غاية التنوُّع.

وأما دلالة العقل الصريح: فلأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ جعل عدم الاتصاف بهذه الصفات العلى دليلاً على عدم إلهية من عُدِمَتْ فيه هذه الصفات، لذا فقد وصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ نفسه المُقدَّسة بضدِّ صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات عليها مُنافياً لإلهيتها، فأيُّ دليلٍ في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومُدبِّره؛ ومَلِك السماوات والأرض وقيُّومها، فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع أنواع الكمال له؛ فأيُّ قضية تصحُّ في العقل بعد هذا؟ ومن شكَّ في أن هذه الصفات الذاتية؛ من صفة (الوجه؛ والعين؛ واليد؛ والرِّجْل) كمال: فهو

مِمَّن سُلِبَ خاصَّة الإنسانية؛ وانسلخ من العقل[1].

وإيضاح تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذه الصفات العلى: مُضمَّنٌ في المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

صفة الكمال (الوجه).

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في إثبات صفة وجه الله الكريم؛ والاستدلال على ذلك بالأدلَّة الصحيحة الصريحة، مبيِّناً أن (وجه الربِّ ــ جلَّ جلاله ــ حيث ورد في الكتاب والسنة: فليس بمجازٍ؛ بل على حقيقته[2])[3]، فمن تلك الأدلَّة الشرعية التي ذكرها:

أولاً: الأدلة من كتاب الله تعالى على إثبات صفة وجه الله الكريم، فمن تلك الآيات الكريمة التي استدلَّ بها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على إثبات هذه الصفة الكريمة:

---

(١) تمهيدٌ مُضمَّنٌ كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه الصفات العلى من: بدائع الفوائد ٢/ ١١٨، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠ ــ ٢٢١؛ ٢/ ٤٢٥ ــ ٤٢٧؛ ٦٥٤؛ ٣/ ٨٣٢ ــ ٨٣٣؛ ٨٩٨؛ ٩١٥ ــ ٩١٦؛ ٩٤٣؛ ١٠٠٩؛ ١٠١٩؛ ١١٥١ ــ ١١٥٢، ومختصره ٢/ ٣٤٧؛ ٣٧٨؛ ٣٩١ ــ ٣٩٢؛ ٤٢٢، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤٣٠ ــ ٤٣٥؛ ٤٤٥ ــ ٤٤٦؛ ٤٥٢ ــ ٤٥٣؛ ٥١٢؛ ٣٧٢١ ــ ٣٧٢٤)].

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ ستة وعشرين وجهاً تُبطل القول بأن لفظ (الوجه) مجازٌ؛ في: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٧ ــ ٣٩٧.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٦.

١ ــ قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[1]، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة على إثبات صفة وجه الله الكريم؛ فقال: (تأمَّل رفع قوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ عند ذكره الوجه، وجرَّه في قوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾[2].

فـ: ﴿ذُو﴾: الوجه المضاف بالجلال والإكرام؛ لما كان القصد الإخبار عنه، و ﴿ذِي﴾: المضاف إليه بالجلال والإكرام في آخر السورة؛ لما كان المقصود عين المسمى دون الاسم، فتأمله)[3].

٢ ــ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[4]، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة على إثبات صفة وجه الله الكريم؛ وأن ثمة أوجهاً عديدة تُبطل تخصيص معنى الآية بالقبلة والجهة[5]، فمن تلك الأوجه:

(أ) اطِّراد مجيء (الوجه) في النصوص الشرعية مُضافاً إلى الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ على طريقةٍ واحدةٍ ومعنى واحدٍ، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن تفسير وجه الله بـ (قبلة الله)؛ وإن قاله بعض السلف ــ كمجاهد وتبعه الشافعي[6] ــ: فإنما قالوه في موضعٍ واحدٍ

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٧.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٥) انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٢ ــ ٣٩٨.

(٦) أخرج ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم [رقم (١١٢٤) ــ ١/ ٢١٢] في قول الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: (قبلة الله، أينما توجَّهْتَ شرقاً أو غرباً). كما أخرج الترمذيُّ في=

لا غير؛ وهو قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ ﴾[1].

فَهَبْ أن هذا كذلك في هذا الموضع؛ فهل يصحُّ أن يُقال ذلك في غيره في المواضع التي ذكر الله تعالى فيها الوجه؟ فما يُفيدكم هذا في قوله: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[2]، وقوله: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾[3]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾[4].

على أن الصحيح في قوله: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ ﴾[5]: أنه كقوله في سائر الآيات التي ذكر فيها الوجه، فإنه قد اطَّرد مجيئه في القرآن والسنة مُضافاً إلى الربِّ تعالى؛ على طريقةٍ واحدةٍ ومعنى واحدٍ، فليس فيه معنيان مختلفان في جميع المواضع؛ غير الموضع الذي ذُكر في سورة البقرة وهو قوله: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ ﴾.

وهذا لا يتعيَّن حمله على القبلة والجهة، ولا يمتنع أن يُراد به وجه الربِّ حقيقة، فحمله على غير القبلة ــ كنظائره كلِّها ــ : أولى)[6].

= جامعه [أبواب تفسير القرآن/ باب ومن سورة البقرة ــ رقم (٢٩٥٨) ــ ٥/ ٧٤] عن مجاهدٍ قال: (فثَمَّ قبلة الله). كما أخرج البيهقي في معرفة السنن والآثار [كتاب الصلاة/ باب استقبال القبلة ــ رقم (٦٥٧) ــ ١/ ٤٨٢ ــ ٤٨٣] عن الشافعيِّ قال: (يعني ــ والله أعلم ــ : فثَمَّ الوجه الذي وجَّهكم الله إليه).

(١) سورة البقرة: الآية ١١٥.
(٢) سورة الرحمن: الآية ٢٧.
(٣) سورة الليل: الآية ٢٠.
(٤) سورة الإنسان: الآية ٩.
(٥) سورة البقرة: الآية ١١٥.
(٦) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٢.

(ب) أنه لا يُعرف إطلاق الوجه على القبلة في اللغة ولا في الشرع ولا في العرف، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إنه لا يُعرف إطلاق وجه الله على القبلة ــ لغة ولا شرعاً ولا عرفاً ــ ، بل القبلة لها اسمٌ يخصُّها، والوجه له اسمٌ يخصُّه، فلا يُدخل أحدهما على الآخر؛ ولا يُستعار اسمه له.

نعم؛ القبلة تُسمَّى وجهة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾[1].

وقد تُسمَّى جهة؛ وأصلها: وجهة، لكن أُعلَّت بحذف فائها، كـ: زنة وعدة، وإنما سُمِّيت قبلة ووجهة: لأن الرجل يُقابلها ويواجهها بوجهه، وأما تسميتها وجهاً: فلا عهد به، فكيف إذا أُضيف إلى الله تعالى؟ مع أنه لا يُعرف تسمية القبلة: (وجهة الله) في شيءٍ من الكلام، مع أنها تُسمَّى: وجهة، فكيف يُطلق عليها وجه الله؛ ولا يُعرف تسميتها: وجهاً؟[2])[3].

(ج) أن القبلة التي نصبها الله تعالى لعباده: هي القبلة التي أمرهم أن يتوجَّهوا إليها حيث كانوا، لا كلَّ جهةٍ في المشرق والمغرب، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (من المعلوم أن قبلة الله التي نصبها

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٢) حكى شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ الخلف بين المثبتة والنفاة في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] هل هو من آيات الصفات أم لا؟

وجنح ــ رحمه الله تعالى ــ إلى القول بأن هذه الآية ليست من آيات الصفات أصلاً، ولا تندرج في عموم قول من يقول: لا تؤول آيات الصفات. لأن المراد بوجه الله تعالى في الآية: قبلة الله تعالى.

انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٦/ ١٥ ــ ١٧.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٢ ــ ٣٩٣.

لعباده: هي قبلةٌ واحدةٌ، وهي القبلة التي أمر الله عباده أن يتوجَّهوا إليها حيث كانوا، لا كلَّ جهةٍ يُولِّي الرجل وجهه إليها: فإنه يُولِّي وجهه إلى المشرق والمغرب والشمال وما بين ذلك.

وليست تلك الجهات قبلة الله، فكيف يُقال: أيُّ وجهة وجهتموها واستقبلتموها فهي قبلة الله؟)[1].

(د) أنَّ تفسير القرآن الكريم بعضه ببعض يقتضي: تفسير الوجه في هذه الآية الكريمة بنظائره؛ وهو وجه الله الكريم المُضاف إليه، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن تفسير القرآن بعضه ببعض: أولى التفاسير؛ ما وُجِدَ إليه السبيل، ولهذا كان يعتمده الصحابة والتابعون والأئمة بعدهم.

والله تعالى ذكر في القرآن القبلة باسم: القبلة والوجهة، وذكر وجهه الكريم باسم: الوجه المضاف إليه، فتفسيره في هذه الآية بنظائره: هو المُتعيِّنُ)[2].

(هـ) أنَّ العبد لما كان مقصوده في صلاته التوجُّه إلى ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ : كان من المُناسب أن يذكر أنه إلى أيِّ الجهات صلَّى: فإنه متوجِّهٌ إلى ربِّه، كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن الآية لو احتملت كلَّ واحدٍ من الأمرين: لكان الأولى بها إرادة وجهه الكريم ــ ذي الجلال والإكرام ــ ، لأن المُصلِّي مقصوده: التوجُّه إلى ربِّه، فكان من المُناسب أن يذكر أنه إلى أيِّ الجهات صلَّيت: فأنت متوجِّهٌ إلى ربِّك، ليس في اختلاف الجهات ما يمنع التوجُّه إلى ربِّك.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٣.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٦.

فجاءت الآية وافية بالمقصود، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1]. فأخبر أن الجميع ملكُه؛ وقد خلقه.

وقد عُلِمَ بالفطرة والشرع أن الله تعالى فوق العالم؛ محيطٌ بالمخلوقات؛ عالٍ عليها بكلِّ اعتبارٍ، فمن استقبل وجهة من الشرق إلى الغرب؛ أو الشمال أو الجنوب؛ أو بين ذلك: فإنه مُتوجِّهٌ إلى ربِّه حقيقة، والله تعالى قِبَلَ وجهه إلى أي جهةٍ صلَّى، وهو مع ذلك فوق سماواته؛ عالٍ على عرشه.

ولا يُتوهَّم تنافي هذين الأمرين، بل اجتماعهما هو الواقع، ولهذا عامَّة أهل الإِثبات: جعل هذه الآية من آيات الصفات؛ وذكرها مع نصوص الوجه، مع قولهم: إن الله تعالى فوق سماواته على عرشه)[2].

(و) أنَّ الأحاديث الصحيحة الصريحة في هذا الباب: مُفسِّرةٌ لهذه الآية الكريمة، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إنك إذا تأمَّلت الأحاديث الصحيحة: وجدتها مُفسِّرة للآية؛ مُشتقَّة منها، كقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة: فإنما يستقبل ربَّه»[3])[4]، ثم ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ نظائره من الأحاديث الصحيحة الصريحة الدالَّة على هذا المعنى[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الصلاة/ باب حكِّ البزاق باليد من المسجد ـ الحديث رقم (٤٠٦) ـ ١/ ١٤٧]، ومسلم في صحيحه [كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها ـ الحديث رقم (٥٤٧) ـ ١/ ٣٨٨] من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، ولفظه: «إذا كان أحدكم يُصلِّي».

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٧.

(٥) انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

ثانياً: الأدلة من أحاديث النبي ﷺ على إثبات صفة وجه الله الكريم، فمن تلك الأحاديث الشريفة التي استدلَّ بها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ على إثبات هذه الصفة الكريمة:

١ ـ ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[1]. قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك. قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[2]. قال: أعوذ بوجهك. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[3]. قال رسول الله ﷺ: هذا أهون؛ أو هذا أيسر»[4]؛ ونحوه من الأحاديث الشريفة[5]، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ وجه الاستدلال بهذا الحديث الشريف على إثبات صفة وجه الله الكريم؛ فقال: (لا يُظنُّ برسول الله ﷺ أن يستعيذ بمخلوقٍ)[6].

٢ ـ ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار؛ وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور؛ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٦٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٦٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٦٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التفسير/ باب: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ـ الحديث رقم (٤٦٢٨) ـ ٣/ ١٤١٣].

(٥) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ جملة من الأحاديث النبوية الشريفة المتضمنة للاستعاذة بوجه الله الكريم؛ في: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

(٦) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٨.

إليه بصره من خلقه»[1]، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ وجه الاستدلال بهذا الحديث الشريف على إثبات صفة وجه الله الكريم؛ فقال: (إضافة السبحات ــ التي هي الجلال والنور ــ إلى الوجه؛ وإضافة البصر إليه: تُبطل كلَّ مجازٍ، وتُبيِّنُ أن المراد: وجهه)[2].

٣ ــ ما أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه من حديث عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه»[3]؛ ونحوه من الأحاديث الشريفة[4]، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ وجه الاستدلال بهذا الحديث الشريف على إثبات صفة وجه الله الكريم؛ فقال: (لو كان المراد بوجهه مخلوقاً من مخلوقاته: لما جاز أن يُقسم عليه ويُسأل به؛ ولا كان ذلك أعظم من السؤال به ــ سبحانه ــ.

وهذه الآثار صريحةٌ في أن السؤال بوجهه أبلغ وأعظم من السؤال به، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»[5]، فدلَّ على بطلان

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٢٤٨) ــ ٤/ ١١٣]، وأبو داود في سننه [كتاب الأدب/ باب في الرجل يستعيذ من الرجل ــ الحديث رقم (٥١٠٨) ــ ٥/ ٣٣٤]، واللفظ لأحمد.
وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحه: الحديث رقم (٢٥٣) ــ ١/ ٥٠٩ ــ ٥١٠].

(٤) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ جملة من الأحاديث النبوية والآثار السلفية المتضمنة للسؤال بوجه الله الكريم؛ في: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٠.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الزكاة/ باب كراهية المسألة بوجه الله ــ الحديث =

قول من قال: هو ذاته)[1].

٤ ــ ما أخرجه أحمد في مسنده والنسائي في سننه من حديث عمار بن ياسر ــ رضي الله عنهما ــ في دعاء رسول الله ﷺ: «وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك؛ والشوق إلى لقائك»[2]، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ وجه الاستدلال بهذا الحديث الشريف على إثبات صفة وجه الله الكريم؛ فقال: (لم يكن ليسأل لذَّة النظر إلى الثواب، ولا يُعرف تسمية ذلك وجهاً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً)[3].

٥ ــ ما أخرجه أبو داود في سننه من حديث عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنهما ــ عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال «أعوذ بالله العظيم؛ وبوجهه الكريم؛ وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»[4]، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ وجه الاستدلال بهذا الحديث الشريف على إثبات صفة وجه الله الكريم؛ فقال: (تأمَّل كيف قرن في الاستعاذة بين استعاذته بالذات وبين استعاذته بالوجه الكريم؟ وهذا صريحٌ في إبطال قول من قال: إنه الذات نفسها، وقول من قال: إنه مخلوقٌ)[5].

ثالثاً: الأدلة من آثار الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ على إثبات صفة

= رقم (١٦٧١) ــ ٢/ ٣٠٩ ــ ٣١٠] من حديث جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ.

وضعفه الألباني في [ضعيف سنن أبي داود: ص١٣١ ــ ١٣٢].

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٠.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـٰهُمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق».

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٩.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٢.

وجه الله الكريم، فمن تلك الآثار الشريفة التي استدلَّ بها الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على إثبات هذه الصفة الكريمة: ما ذكره بقوله: (ما قاله عبد الله بن مسعود: (ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهارٌ، نور السماوات والأرض من نور وجهه)[1]: فهل يصحُّ أن يُحمل الوجه في هذا على مخلوقٍ؛ أو يكون صلة لا معنى له؛ أو يكون بمعنى القبلة والجهة؟

وهذا مطابقٌ لقوله ــ عليه السلام ــ: «وأعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»[2]. فأضاف النور إلى وجهه؛ والوجه إلى الذات، واستعاذ بنور الوجه الكريم.

فعُلِمَ أن نوره صفةٌ له؛ كما أن الوجه صفةٌ ذاتيةٌ، وهذا الذي قاله ابن مسعود: هو تفسير قوله: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[3].

فلا تشتغل بأقوال المتأخِّرين؛ الذين غَشَتْ بصائرهم عن معرفة ذلك، فخذ العلم عن أهله، فهذا تفسير الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ)[4].

فـ (من تدبَّر سياق الآيات والأحاديث والآثار ــ التي فيها ذكر وجه الله الأعلى ذي الجلال والإكرام ــ: قطع ببطلان قول من حملها على المجاز وأنه الثواب والجزاء؛ لو كان اللفظ صالحاً في ذلك لغة، فكيف واللفظ لا يصلح لذلك لغة؟)[5].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّهُمَّ إليك أشكو ضعف قوتي».

(٣) سورة النور: الآية ٣٥.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩٠ ــ ٣٩١.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٩١.

ووجه بطلان ذلك في لغة العرب: ما ذكره الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (الوجه في اللغة: مستقبل كلِّ شيءٍ؛ لأنه أول ما يُواجه منه، ووجه الرأي والأمر: ما يظهر أنه صوابه، وهو في كلِّ محلٍّ بحسب ما يُضاف إليه، فإن أُضيف إلى زمنٍ: كان الوجه زمناً، وإن أُضيف إلى حيوانٍ: كان بحسبه، وإن أُضيف إلى ثوبٍ؛ أو حائطٍ: كان بحسبه، وإن أُضيف إلى من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]: كان وجهه تعالى كذلك)[2].

وجميع هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية: متضمنةٌ لإثبات وجه الله الأعلى ـ ذي الجلال والإكرام ـ ، كما أنها تتضمن الدلالة على أنه وجهٌ كريمٌ؛ موصوفٌ بالعظمة والكمال؛ والكبرياء والجلال، كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (في الصحيح عنه ﷺ: «إن الله لا ينام؛ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار؛ وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[3].

فإذا كانت سبحات وجهه الأعلى لا يقوم لها شيءٌ من خلقه، ولو كشف حجاب النور عن تلك السبحات لاحترق العالم العلويُّ والسفليُّ، فما الظنُّ بجلال ذلك الوجه الكريم وعظمته وكبريائه وكماله وجلاله؟)[4].

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٨.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٨٢ ـ ١٠٨٣.

المسألة الثانية:

صفة الكمال (العَين).

اجتهد الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في إثبات صفة العين الكريمة؛ والاستدلال على ذلك بالأدلَّة الصحيحة الصريحة، مبيِّناً أن الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ أحقُّ بالاتصاف بصفة الكمال هذه من خلقه، كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (ـ سبحانه ـ أحقُّ بالرؤية وأولى من هذا العبد؛ الذي له عينان يُبصر بهما، فكيف يُعطيه البصر من لم يره؟

وكيف يُعطيه آلة البيان من الشفتين واللسان؛ فينطق ويُبيِّن عمَّا في نفسه ويأمر وينهى: من لا يتكلَّم ولا يُكلِّم ولا يُخاطب؛ ولا يأمر ولا ينهى؟ وهل كمال المخلوق مُستفادٌ إلا من كمال خالقه؟)[1].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ سرَّ مجيء هذه الصفة الكريمة في النصوص الشرعية تارة مُفردة؛ وتارة مُثنَّاة؛ وتارة مجموعة، فقال: (إذا أُضيفت العين إلى اسم الجمع ـ ظاهراً أو مضمراً ـ : فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ، كقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[2]، وقوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[3])[4].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (قد نطق القرآن والسنة بذكر اليد مُضافة إليه ـ سبحانه ـ مُفردة ومُثناة ومجموعة، وبلفظ العين مُضافة إليه مفردة ومجموعة.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ٦١ ـ ٦٢.

(٢) سورة القمر: الآية ١٤.

(٣) سورة هود: الآية ٣٧.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٥٥.

ونطقت السنة بإضافتها إليه مُثناة، كما قال عطاء[1]: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن العبد إذا قام في الصلاة: قام بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له ربُّه: إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني»[2].

وقول النبي ﷺ: «إن ربكم ليس بأعور»[3]: صريحٌ في أنه ليس المراد إثبات عينٍ واحدةٍ؛ ليس إلا، فإن ذلك عورٌ ظاهرٌ ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ.

وهل يُفهم من قول الداعي: اللَّـهُمَّ احرسنا بعينك التي لا تنام: أنها عينٌ واحدةٌ؛ ليس إلا: إلا ذهنٌ أقلف؛ وقلبٌ أغلف؟

قال خلف بن تميم[4]: حدثنا عبد الجبار بن كثير[5]؛ قال:

---

(١) هو: أبو محمد عطاء بن أبي رباح المكي، مفتي الحرم، ولد في خلافة عثمان سنة سبع وعشرين، وتوفي سنة خمس عشرة ومائة.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٠/ ٦٩ ــ ٨٥، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٧٨ ــ ٨٨، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٤٥ ــ ٤٦.

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير [رقم (٧٢) ــ ١/ ٧٠]؛ في ترجمة: إبراهيم بن يزيد الخوزي.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الفتن/ باب ذكر الدجال ــ الحديث رقم (٧١٣١) ــ ٥/ ٢٢٢٧]، ومسلم في صحيحه [كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب ذكر الدجال وصفته وما معه ــ الحديث رقم (٢٩٣٣) ــ ٤/ ٢٢٤٨] من حديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ، وأوله: «ما بُعث نبيٌّ إلا أنذر أمته الأعور الكذَّاب».

(٤) هو: أبو عبد الرحمن التميميُّ الكوفيُّ، الزاهد المجاهد، توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/ ٣٧٠، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٨/ ٢٧٦ ــ ٢٧٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٢١٢ ــ ٢١٣.

(٥) هو: عبد الجبار بن كثير بن سنان الحنظلي. =

قيل لإبراهيم بن أدهم[1]: (هذا السبع، فنادى: يا قسورة، إن كنت أمرت فينا بشيءٍ وإلا ـ يعني: فاذهب ـ، فضرب بذنبه وولّى مدبراً، فنظر إبراهيم إلى أصحابه وقال: قولوا: اللَّهُمَّ احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بكنفك الذي لا يُرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلك وأنت رجاؤنا)[2].

قال عثمان الدارمي: (الأعور: ضدُّ البصير بالعينين، وقد قال النبي ﷺ في الدجال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور»[3])[4].

وقد احتجَّ السلف على إثبات العينين له سبحانه بقوله: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[5]، وممن صرّح بذلك ـ إثباتاً واستدلالاً ـ : أبو الحسن الأشعري[6]

= انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/ ٣٣.

(١) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور العجلي الخرساني، سيد الزهاد، ولد سنة مائة، وتوفي سنة اثنتين وستين ومائة.
انظر في ترجمته: الثقات لابن حبان ٦/ ٢٤، طبقات الصوفية للسلمي ص٢٧ ـ ٣٨، سير أعلام النبلاء للذهبي ٧/ ٣٨٧.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في مجابي الدعوة [رقم (١٠١) ـ ص٧٣]، وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [٨/ ٤ ـ ٥].

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «ما بُعث نبيٌّ إلا أنذر أمته الأعور الكذَّاب».

(٤) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افتراه على الله عزَّ وجلّ من التوحيد ١/ ٣٠٥.

(٥) سورة القمر: الآية ١٤.

(٦) هو: علي بن إسماعيل بن إسحاق البصري، ولد سنة ستين ومائتين، صاحب التصانيف المشهورة في الملل والنحل، وتوفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.
انظر في ترجمته: تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن =

في كتبه كلِّها[1])[2].

المسألة الثالثة:

صفة الكمال (اليـد).

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في إثبات صفة يد الله الكريمة؛ والاستدلال عـلـى ذلك بالأدلَّة الصحيحة الصريحة، مبيِّناً أن اليـد الكـريمـة لِسِعَتِهـا وعظمتهـا: فـإن الـربَّ ــ تبـارك وتعـالـى ــ يضـع السمـاوات علـى أُصبـعٍ مـن أصـابـع يـده الكـريمـة؛ والأرض علـى أُصبـعٍ؛ والجبال على أُصبعٍ؛ والشجر على أُصبعٍ؛ والماء على أُصبعٍ، وأن قلوبَ عباده بين أُصبعين مِـن أصابعه الكريمة، إن شاء أن يُقيمها أقامها؛ وإن شاء أن يُزيغها أزاغها، فقلوب العباد بيده، وهو مُقلِّبها ومُصرِّفها كيف شاء؛ وكيف أراد.

والربُّ ــ تبـارك وتعالى ــ لـه يدان كريمتان، يقبـض سماواته السبع بإحدى يديـه ويطويهـا ــ كمـا يُطْوَى السجـلُّ على أسـطر الكتاب ــ ؛ حتى تكون في كفِّه كخردلةٍ في كفِّ العبد، والأرضون السبع: قبضةُ اليد الأخرى، وأن إحدى يديه الكريمتين: للجود والفضل، بها يقسـم الأرزاق؛ ويجـزل العطايا؛ ويمـنُّ بفضله عـلـى مـن يشـاء مـن عباده، وباليـد الأخرى: القسط والعـدل والميزان، يخفـض مـن يشاء ويرفـع مـن يشاء؛ عدلاً منـه وحكمة،

= الأشعري لابن عساكر ص٣٤ ــ ١٧٦، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي (حوادث ووفيات ٣٢١ ــ ٣٣٠) ص١٥٤ ــ ١٥٨، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/ ٣٤٧ ــ ٤٤٤.

(١) ذكر أبو الحسن الأشعري في كتابه [الإبانة عن أصول الدين: ص١٢٩]: باباً في الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٦٠.

لا إلـه إلا هو العزيز الحكيم[1].

وصفة اليد الكريمة: من الصفات الذاتية؛ كما ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (إذا كانت السماوات مع عظمتها وسعتها يجعلها على أُصبع من أصابعه؛ والأرض على أُصبع؛ والجبال على أُصبع؛ والبحار على أُصبع، فما الظنُّ باليد الكريمة التي هي صفةٌ من صفات ذاته؟)[2].

وهذه الصفة الذاتية قد تنوَّعت الأدلَّة الشرعية في الدلالة على إثباتها، حيث وردت (في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع؛ وروداً مُتنوِّعاً مُتصرِّفاً فيه؛ مقروناً بما يدلُّ على أنها يدٌ حقيقة؛ من الإمساك والطيِّ؛ والقبض والبسط، والمصافحة والحثيات، والنضح باليد، والخلق باليدين؛ والمباشرة بهما، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده، وتخمير طينة آدم بيده، ووقوف العبد بين يديه، وكون المقسطين عن يمينه، وقيام رسول الله ﷺ يوم القيامة عن يمينه، وتخيير آدم بين ما في يديه فقال: اخترت يمين ربـي، وأخذ الصدقة بيمينه يُربِّيها لصاحبها، وكتابه بيده على نفسه أن رحمته تغلب غضبه، وأنه مسح ظهر آدم بيده؛ ثم قال له ـ ويداه مفتوحتان ـ : اختر. فقال: اخترت يمين ربـي ـ وكلتا يديه يمين

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ٤٠٣، زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٨٢، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣٠، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١١١٥، ومختصره ٢/ ٤٢٨؛ ٤٦٠؛ ٥١٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٠؛ ٣٧٧، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٤٢؛ ٣/ ١٦١؛ ٢٦٤، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٨٩.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٨٣.

مباركة ـ ، وأن يديه ملآى لا يغيضها نفقة؛ سحَّاء الليل والنهار، وبيده الأخرى القسط؛ يرفع ويخفض، وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وأنه يطوي السماوات يوم القيامة؛ ثم يأخذهن بيده اليمنى؛ ثم يطوي الأرض باليد الأخرى، وأنه خطَّ الألواح التي كتبها لموسى بيده)[1].

وقد أورد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ جملة من هذه النصوص المتنوِّعة الواردة في الكتاب المبين وسنة خاتم النبيين وكلام الصحابة والتابعين؛ فقال: (قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يقبض الله سماواته بيده؛ والأرض باليد الأخرى»[2]. وقوله: «يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق: فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط، يخفض ويرفع»[3].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[4].

وفي الحديث الذي رواه مسلمٌ في صحيحه في أعلى أهل الجنة منزلة: «أولئك الذين غرستُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها»[5].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٨٤.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «يقبض الله الأرض ويطوي السماوات».

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ـ الحديث رقم (١٨٩) ـ ١/ ١٧٦] من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ ، وأوله: «سأل موسى ربَّه: ما أدنى أهل الجنة منزلة».

وقال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده، فقال لها: تكلَّمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾[1]»[2].

وقال عبد الله بن الحارث: قال النبي ﷺ: «إن الله خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده. ثم قال: وعِزَّتي لا يسكنها مدمنُ خمرٍ ولا ديوثٌ»[3].

وفي الصحيح عنه ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة؛ يتكفَّؤُها الجبَّار بيده كما يكفؤ أحدكم خبزته في السفر؛ نزلاً لأهل الجنة»[4].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب التفسير/ تفسير سورة المؤمنون ـ الحديث رقم (٣٤٨٠) ـ ٢/ ٤٢٦]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب ما جاء في إثبات اليدين ـ الحديث رقم (٦٩١) ـ ٢/ ١٢٤]، وقال الحاكم: (هذا حديثٌ صحيح الإسناد؛ ولم يُخرجاه)، وتعقَّبه الذهبيُّ بقوله: (بل ضعيفٌ).
وضعفه الألباني في [سلسلة الأحاديث الضعيفة: الحديث رقم (١٢٨٣) ـ ٣/ ٤٤٣].

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة وما أعدَّ الله لأهلها من النعيم [الحديث رقم (٤١) ـ ص٧٢]، وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة [خلق آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام ـ الحديث رقم (١٠١٧) ـ ٥/ ١٥٥٥]، والدارقطني في الصفات [الحديث رقم (٢٨) ـ ص٤٥]، وأبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة [الحديث رقم (٢٣) ـ ص٤٨]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب ما جاء في إثبات اليدين ـ الحديث رقم (٦٩٢) ـ ٢/ ١٢٥].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الرقاق/ باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ـ الحديث رقم (٦٥٢٠) ـ ٤/ ٢٠٤٣]، ومسلمٌ في صحيحه [كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب نزل أهل الجنة ـ الحديث رقم (٢٧٩٢) ـ ٤/ ٢١٥١] من حديث أبي سعيد الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ .

وكان رسول الله ﷺ يقول في استفتاح الصلاة: «لبيك وسعديك، والخير كلُّه في يديك»[1].

وفي الصحيح أيضاً عنه ﷺ: «إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[2].

وقال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «الأيدي ثلاثة: فيد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى»[3].

وفي الصحيح عنه ﷺ: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور؛ عن يمين الرحمن؛ وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[4].

وفي المسند وغيره من حديث أبـي هريرة عن النبـي ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله. فحمد الله بإذن الله، فقال له ربُّه: رحمك ربُّك يا آدم. وقال له: إذهب إلى أولئك الملائكة؛ إلى ملأ منهم جلوسٌ، فقل: السلام عليكم. فذهب فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم رجع إلى ربِّه فقال: هذه تحيَّتك وتحيَّة بنيك بينهم. فقال الله تعالى ــ ويداه مقبوضتان ــ: اختر أيهما شئت. فقال: اخترتُ

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب التوبة/ باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكرَّرت الذنوب والتوبة ــ الحديث رقم (٢٧٥٩) ــ ٤/ ٢١١٣] من حديث أبـي موسى الأشعريِّ ــ رضي الله عنه ــ.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٤٢٦١) ــ ٧/ ٢٩٥].
قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٣/ ٩٧]: (رجاله موثقون).

(٤) تقدم تخريجه، ولفظه: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور».

يمين ربي؛ وكلتا يَدَيْ ربـي يمينٌ مباركةٌ. ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته» وذكر الحديث[1].

وقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله يقول: «خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه؛ فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة؛ وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار؛ وبعمل أهل النار يعملون»[2].

وقال هشام بن حكيم: عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الله أخذ ذرية بني آدم من ظهورهم، وأشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفَّيه فقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب تفسير القرآن/ باب (١١٤) ـ الحديث رقم (٣٣٦٨) ـ ٥/١٥٩]، ولـم أقـف عليـه عنـد أحمـد فـي مسنـده، وقـد أخـرجـه عبد الله بن أحمد في العلل ومعرفة الرجال [الحديث رقم (٥٦٣٢) ـ ٣/ ٣٧٢]، قال: وجدت في كتاب أبي، ثم ساق إسناد الحديث إلى أبـي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وحسنه الألباني في [ظلال الجنة في تخريج السنة: الحديث رقم (٢٠٦) ـ ص٩١].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٣١١) ـ ١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠]، وأبو داود في سننه [كتاب السنة/ باب في القدر ـ الحديث رقم (٤٧٠٣) ـ ٥/ ٧٩ ـ ٨٠]، والترمذي في جامعه [أبواب تفسير القرآن/ باب ومن سورة الأعراف ـ الحديث رقم (٣٠٧٥) ـ ٥/١٥٨]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب التفسير/ باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ـ الحديث رقم (١١١٢٦) ـ ١٠/ ١٠١].

وصححـه الألبـانـي فـي [صحيـح سنـن أبــي داود: الحـديـث رقـم (٤٧٠٣) ـ ٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠].

(٣) أخـرجـه البخـاري فـي تـاريخـه الكبيـر [تـرجمـة(٢٦٦٤) ـ ٨/ ١٩١ ـ ١٩٢] =

وقال عبد الله بن عمرو: «ولما خلق الله آدم نفضه نفض المزود[1]، فخرج منه مثل الذرِّ، فقبض قبضتين، فقال لما في اليمين: في الجنة، ولما في الأخرى: في النار»[2].

وقال أبو موسى الأشعري: عن النبي ﷺ: «خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فمنهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والطيب والخبيث»[3].

= والطبراني في معجمه الكبير [الحديث رقم (٤٣٥) ـ ٢٢/ ١٦٩]، ومسند الشاميين [الحديث رقم (١٨٥٤) ـ ٣/ ٩١]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب في ذكر اليمين والكفِّ ـ الحديث رقم (٧١٢) ـ ٢/ ١٤٨] من حديث عبد الرحمن بن قتادة عن هشام بن حكيم ـ رضي الله عنه ـ .

وكذا أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٧٦٦٠) ـ ٢٩/ ٢٠٦]، وابن حبان في صحيحه [كتاب البر والإحسان/ باب ما جاء في الطاعات وثوابها ـ ذكر البيان بأن قوله ﷺ: «فكلٌّ ميسَّرٌ» أراد به مُيسَّرٌ لما قُدِّر له في سابق علمه من خيرٍ أو شرٍّ ـ الحديث رقم (٣٣٨) ـ ٢/ ٥٠] من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي.

وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (٤٨) ـ ١/ ١١٣ ـ ١١٤].

(١) المِزْوَدُ: وعاءٌ يُتزوَّد فيه الطعام للسَّفر، وهو شِبْه جرابٍ من أدمٍ، وجمعه: المَزَاوُد.

انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٣/ ٢٣٦، المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٩/ ٧٦، لسان العرب لابن منظور ٣/ ١٩٨ [مادة: زود].

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٩/٢٥]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب في ذكر اليمين والكفِّ ـ الحديث رقم (٧١٣) ـ ٢/ ١٤٨ ـ ١٤٩]، ولفظه: «لما خلق الله آدم».

(٣) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٩٥٨٢) ـ ٣٢/ ٣٥٣]، وأبو داود في =

وقال سلمان الفارسي: «إنَّ الله تعالى خمَّر طينة آدم أربعين ليلة أو أربعين يوماً، ثم ضرب بيده فيها فخرج كلُّ طيبٍ بيمينه، وكلُّ خبيثٍ بيده الأخرى، ثم خلط بينهما»[(١)].

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ما تصدَّق أحدٌ بصدقةٍ من طيِّبٍ ــ ولا يقبل الله إلا الطيِّب ــ إلا أخذها الرحمن بيمينه ــ وإن كانت تمرة ــ ، فتربو في كفِّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل» متفق على صحته[(٢)].

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله وعدني أن يُدخل الجنة من أمتي أربعمائة ألف. فقال أبو بكرٍ: زدنا يا رسول الله. قال: وهكذا

= سننه [كتاب السنة/ باب في القدر ــ الحديث رقم (٤٦٩٣) ــ ٥/ ٦٧]، والترمذي في جامعه [أبواب تفسير القرآن/ باب ومن سورة البقرة ــ الحديث رقم (٢٩٥٥) ــ ٥/ ٧١]، وأوله: «إن الله ــ عزَّ وجلّ ــ خلق آدم من قبضة».
وصححه الألباني في [سلسلة الأحاديث الصحيحة: الحديث رقم (١٦٣٠) ــ ٤/ ١٧٢].

(١) أخرجه الدارمي في نقضه على المريسي الجهمي العنيد فيما افتراه على الله عزَّ وجلّ من التوحيد [باب الحدِّ والعرش ــ ١/ ٢٤٦ ــ ٢٧٥]، وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة [خلق آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام ــ الحديث رقم (١٠٠٦) ــ ٥/ ١٥٤٦]، والبيهقي في الأسماء والصفات [باب في ذكر اليمين والكفِّ ــ الحديث رقم (٧١٧) ــ ٢/ ١٥١].
انظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني [كتاب الصفات ــ الحديث رقم (٢٤) ــ ص٤٥١].

(٢) أخرجه في صحيحه [كتاب الزكاة/ باب الصدقة من كسب طيب ــ الحديث رقم (١٤١٠) ــ ١/ ٤٢٠]، ومسلم في صحيحه [كتاب الزكاة/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ــ الحديث رقم (١٠١٤) ــ ٢/ ٧٠٢].

ـ وجمع يديه ـ . قال: زدنا يا رسول الله. قال: وهكذا. قال: زدنا يا رسول الله. قال عمر: حسبك. فقال أبو بكر: دعني يا عمر، وما عليك أن يُدخلنا الله الجنة كلَّنا. قال عمر: إن شاء الله أدخل خلقه الجنة بكفٍّ واحدةٍ. فقال النبي ﷺ: صدق عمر»[1].

وقال نافع بن عمر[2]: (سألت ابن أبي مليكة[3]: عن يد الله أواحدةٌ أم اثنتان؟ فقال: لا بل اثنتان)[4].

وقال ابن عباس: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في يد الله إلا كخردلةٍ في يد أحدكم»[5].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٢٦٩٥) ـ ٢٠/ ١٢١ ـ ١٢٢].

وصححه الألباني في [ظلال الجنة في تخريج السنة: الحديث رقم (٥٩٠) ـ ص٢٦٢].

(٢) هو: نافع بن عمر بن عبد الله الجمحي المكي، الحافظ الثبت، توفي بمكة سنة تسع وستين ومائة.

انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٩/ ٢٨٧ ـ ٢٩٠، سير أعلام النبلاء للذهبي ٧/ ٤٣٤، طبقات الحفاظ للسيوطي ص١٠٤.

(٣) هو: أبو بكر عبد الله بن عبيد الله بن زهير القرشي التيمي المكي، الحافظ الحجة، ولد في خلافة عليٍّ؛ أو قبلها، وتوفي سنة سبع عشرة ومائة.

انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/٨٨ ـ ٩٠، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٤٣٠.

(٤) أخرجه الدارمي في نقضه على المريسي الجهمي العنيد فيما افتراه على الله عزَّ وجلّ من التوحيد [باب الحدِّ والعرش ـ ١/ ٢٨٦]

(٥) تقدم تخريجه.

وقال ابن عمر وابن عباس: «أول شيءٍ خلقه الله القلم، فأخذه بيمينه ــ وكلتا يديه يمينٌ ــ فكتب الدنيا وما فيها من عمل معمولٍ في برٍّ وبحرٍ؛ ورطبٍ ويابسٍ، فأحصاه عنده»[1].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[2]: (يقبض الله عليها فيرى طرفاها في يده)[3].

وقال ابن عمر: «رأيت رسول الله ﷺ قائماً على المنبر، فقال: إنَّ الله تعالى إذا كان يوم القيامة جمع السماوات والأرض في قبضته، ثم قال: هكذا ومدَّ يده وبسطها، ثم يقول: أنا الله؛ أنا الرحمن» وذكر الحديث[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة [باب ذكر القلم أنه أول ما خلق الله تعالى وما جرى به القلم ــ الحديث رقم (١٠٦) ــ ص٤٩ ــ ٥٠]، والآجري في الشريعة [باب ذكر السنن والآثار المبينة بأن الله تعالى خلق خلقه ــ رقم (٣٣٩ ــ ٣٤٠) ــ ٢/٧٥٩ ــ ٧٦٠]، والدارقطني في الصفات [رقم (١٤) ــ ص٣٥ ــ ٣٦] من حديث عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ مرفوعاً، واللفظ لـه.
وحسنه الألباني في [ظلال الجنة في تخريج السنة: ص٥٠].
كما أخرج أول الحديث دون تتمته: ابن أبي عاصم في السنة [باب ذكر القلم أنه أول ما خلق الله تعالى وما جرى به القلم ــ الحديث رقم (١٠٨) ــ ص٥٠]، وعبد الله بن أحمد في السنة [سئل عن القدرية والصلاة خلفهم وما جاء فيهم ــ الحديث رقم (٨٥٤) ــ ٢/٣٩٣] من حديث عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ مرفوعاً.
وصححه الألباني في [ظلال الجنة في تخريج السنة: ص٥٠].

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٧.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب صفة القيامة والجنة والنار ــ الحديث رقم (٢٧٨٨) ــ ٤/٢١٤٩].

وقال ابن وهبٍ[1]: عن أسامة[2] عن نافع[3]، عن ابن عمر: «أنَّ النبي ﷺ قرأ على المنبر: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾[4]. قال: مطويةٌ في كفِّه؛ يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة»[5].

---

(١) هو: أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري المصري، الحافظ الفقيه، ولد بمصر سنة خمس وعشرين ومائة، وطلب العلم وله سبع عشرة سنة، وتوفي بمصر في يوم الأحد لخمسٍ بقين من شعبان سنة سبع وتسعين ومائة.
انظر في ترجمته: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ١/٤٢١ ـ ٤٣٣، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٦/٢٧٧ ـ ٢٨٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/٢٢٣ ـ ٢٣٤.

(٢) هو: أبو زيد الليثي المدني، توفي سنة ثلاث وخمسين ومائة؛ وله بضعٌ وسبعون سنة.
انظر في ترجمته: الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ١/٩٦، سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/٣٤٢ ـ ٣٤٣، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١/١٨٩ ـ ١٩٠.

(٣) هو: أبو عبد الله القرشيُّ العدويُّ العمريُّ؛ مولى عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وراويته، عالم المدينة، توفي سنة سبع عشرة ومائة.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٢٩/٢٩٨ ـ ٣٠٦، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/٩٥ ـ ١٠١، طبقات الحفاظ للسيوطي ص٤٧.

(٤) سورة الزمر: الآية ٦٧.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [٢٤/٢٦]، وابن منده في الرد على الجهمية [باب في ذكر ما ثبت عن النبي ﷺ مما يدل على معنى قول الله جلَّ وعزَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ ـ الحديث رقم (١٣) ـ ص٨١] من حديث الربيع؛ قال: حدثنا ابن وهب؛ قال: أخبرني أسامة بن زيد؛ عن أبي حازم؛ عن عبد الله بن عمر.
قال المزي في [تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف: ٥/٤٣٤]: (سلمة بن دينار أبو حازم الأعرج المدني عن ابن عمر؛ ولم يسمع منه).

وقال عبيد الله بن مقسم[1]: نظرت إلى عبد الله بن عمر كيف صنع؛ حيث يحكي رسول الله ﷺ قال: «يأخذ الله سماواته وأرضه بيده، فيقول: أنا الله، ويقبض أصابعه ويبسطها، ويقول: أنا الرحمن الرحيم، أنا الملك. حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني أقول: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ؟»[2].

وقال زيد بن أسلم[3]: (لما كتب الله التوراة بيده قال: بسم الله، هذا كتابٌ من الله بيده لعبده موسى، يُسبِّحني ويُقدِّسني، ولا يحلف باسمي آثماً، فإني لا أُزكِّي من حلف باسمي آثماً)[4])[5].

وهذه النصوص المُتنوِّعة المُتصرِّفة المقرونة بما يدلُّ على أن هذه اليدَ يدٌ كريمةٌ لائقةٌ بالربِّ ــ تبارك وتعالى ــ : إذا تأمَّلتها (حقَّ التأمَّل: أطلعك التأمُّل على)[6] أمورٍ عظيمةٍ؛ ومسائلَ جسيمةٍ، وقد قرَّر الإمام ابن قيم

---

(١) هو: القرشيُّ المدنيُّ.
انظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/ ٣٣٣، الثقات لابن حبان ٥/ ٧٣، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٩/ ١٦٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ الحديث رقم (٢٧٨٨) ــ ٤/ ٢١٤٨ ــ ٢١٤٩].

(٣) هو: أبو أسامة العدويُّ العمريُّ المدنيُّ، مولى عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ ، الحجة الفقيه، توفي في ذي الحجة سنة ستٍ وثلاثين ومائة.
انظر في ترجمته: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٠/ ١٢ ــ ١٨، سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٣١٦ ــ ٣١٧، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ١/ ١٩٤.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة [سئل عما جحدته الجهمية الضلال من كلام رب العالمين عزَّ وجلّ ــ رقم (٥٧٦) ــ ١/ ٢٩٨].

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٧٢ ــ ٢٨٥.

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٢٩٧.

الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ منها:

١ ــ أن القلب يَرِثُ من هذا الاطِّراد المُتنوِّع المُتصرِّف في لفظ (اليد): التصديق بحقيقة هذه الصفة المباركة، ويقطع بامتناع وقوع المجاز فيها، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن اطِّراد لفظها في موارد الاستعمال؛ وتنوُّع ذلك؛ وتصريف استعماله: يمنع المجاز، ألا ترى إلى قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[١]، وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[٣]؟ فلو كان مجازاً في القدرة والنعمة لم يستعمل منه لفظ (يمين).

وقوله في الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نورٍ؛ عن يمين الرحمن؛ وكلتا يديه يمينٌ»[٤]. فلا يقال: هذه يد النعمة والقدرة[٥].

---

(١) سورة ص: الآية ٧٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٧.

(٤) تقدم تخريجه، ولفظه: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور».

(٥) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن المُعطِّلة إنما أُتوا من جهة أنهم رأوا اليد تُطلق على النعمة والقدرة في بعض المواضع، فظنُّوا أنَّ كلَّ تركيبٍ وسياقٍ صالحٌ لذلك، فوهموا وأوهموا، وذلك أن يد النعمة والقدرة: لا يُتجاوز بها لفظ اليد، فلا يُتصرَّف فيها بما يُتصرَّف في اليد الحقيقية، وإلا فلو كانت اليد في هذه المواضع بمعنى القدرة: لم يكن للقدرة اختصاصٌ بذلك؛ ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على شيءٍ مما خُلق بالقدرة؛ في: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٧٠ ــ ٢٧٢، ومختصره ٢/ ٣٧٢ ــ ٣٧٥.

وقوله: «يقبض الله سماواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم يهزهن ثم يقول: أنا الملك»[1]. فهنا هَزٌّ؛ وقبضٌ؛ وذِكْرُ يدين.

ولما أخبرهم رسول الله ﷺ: جعل يقبض يديه ويبسطها[2]، تحقيقاً للصفة؛ لا تشبيهاً لها، كما قرأ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾[3]، ووضع يديه على عينيه وأذنيه[4]؛ تحقيقاً لصفة السمع والبصر؛ وأنهما حقيقة لا مجازاً.

وقوله: «ولما خلق الله آدم قبض بيديه قبضتين، وقال: اختر. فقال: اخترت يمين ربي ــ وكلتا يديه يمين ــ، ففتحها فإذا فيها: أهل اليمين من ذريته»[5].

وأضعاف أضعاف ذلك من النصوص الصحيحة الصريحة في ثبوت هذه الصفة)[6].

٢ ــ أن صفة اليد الكريمة وردت في آي الكتاب العزيز بلفظ المفرد تارة؛ وبلفظ المثنى ولفظ الجمع تارة أخرى، وهذا يدلُّ على فرقٍ لطيفٍ؛ وسرٍّ شريفٍ، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ الفرق بين مجيء لفظ (اليد)

---

(١) تقدم تخريجه، ولفظه: «يقبض الله الأرض ويطوي السماوات».

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «يأخذ الله سماواته وأرضه».

(٣) سورة النساء: الآية ١٣٤.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب السنة/ باب في الجهمية ــ الحديث رقم (٤٧٢٨) ــ ٥/٩٦ ــ ٩٧] من حديث أبي هريرة، وأوله: «رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه».
وصححه الألباني في [صحيح سنن أبي داود: ٣/١٥٦].

(٥) تقدم تخريجه، وأوله: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح: عطس».

(٦) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٧١.

بالإفراد تارةً وبالجمع تارةً أخرى؛ وما ينطوي عليه من السرِّ؛ فقال: (إذا أُضيفت العين إلى اسم الجمع ــ ظاهراً أو مضمراً ــ : فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ، كقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[1]، وقوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[2].

وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المُفرد، كقوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[3]، و ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾[4]، وإن أضيفت إلى ضمير جمعٍ: جُمِعَت، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾[5])[6].

كما ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ الفرق بين ذكر لفظ (اليد) مثناة وبين ذكرها مجموعة؛ وما في هذا الفرق من السرِّ؛ فقال: (لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مُفرداً ومُثنى ومُجموعاً، فالمفرد كقوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[7]، والمثنى كقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[8]، والمجموع كقوله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾[9].

فحيث ذكر اليد مثناة: أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد؛ وعدَّى الفعل بالباء إليهما، فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[10]، وحيث ذكرها مجموعة: أضاف العمل إليها؛ ولم يُعَدِّ الفعل بالباء، فهذه ثلاثة فروقٍ.

---

(١) سورة القمر: الآية ١٤.
(٢) سورة هود: الآية ٣٧.
(٣) سورة الملك: الآية ١.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٢٦.
(٥) سورة يس: الآية ٧١.
(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٥٥ ــ ٢٥٦.
(٧) سورة الملك: الآية ١.
(٨) سورة ص: الآية ٧٥.
(٩) سورة يس: الآية ٧١.
(١٠) سورة ص: الآية ٧٥.

فلا يحتمل: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1] من المجاز ما يحتمله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾[2]، فإن كلَّ أحدٍ يفهم من قوله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[3]، وأما قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلو كان المراد منه مُجرَّد الفعل: لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثُنِّيت؟

وسرُّ الفرق: أن الفعل قد يُضاف إلى يد ذي اليد؛ والمراد الإضافة إليه، كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[4]، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وأما إذا أُضيف إليه الفعل ثم عُدِّيَ بالباء إلى يده مُفردة أو مُثناة: فهو ما باشرته يده، ولهذا قال عبد الله بن عمرو: (إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثاً: خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده)[5]،

---

(١) سورة ص: الآية ٧٥.

(٢) سورة يس: الآية ٧١.

(٣) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(٤) سورة الحج: الآية ١٠.

(٥) لم أقف عليه، وقد تقدم نحوه من حديث عبد الله بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ.

وقد أخرج نحوه: عبد الله بن المبارك في الزهد [رقم (١٤٥٨) ـ ص٥١٢] عن كعب الأحبار، وابن أبي شيبة في المصنف [كتاب الجنة ـ ما ذكر في الجنة وما فيها مما أُعدَّ لأهلها ـ رقم (٣٣٩٥٧) ـ ٧/٢٨] عن حكيم بن جابر، وهناد بن السري في الزهد [باب صفة أهل الجنة ـ رقم (٤٦) ـ ١/٦٦] أيضاً عنه، والدارمي في نقضه على المريسي الجهمي العنيد فيما افتراه على الله عزَّ وجلّ من التوحيد [باب الحدِّ والعرش ـ ١/٢٦٣ ـ ٢٦٥] عن ميسرة الكندي وكعب الأحبار، وعبد الله بن أحمد في السنة [رقم (٥٧٠؛ ٥٧٣) ـ ١/٢٩٥ ـ ٢٩٦] عن حكيم بن جابر وعكرمة مولى عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، =

وذكر الثالثة[1])[2].

٣ ــ أن للــربِّ ــ تبــارك وتعــالــى ــ يــديــن كــريمتيــن، إلا أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لما كان هو السَّلام؛ ومنه السَّلام: كانت كلتا يديه الكريمتين: يمينٌ مباركةٌ؛ ليس فيهما شمالٌ، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (هو السلام الحقُّ من كلِّ وجهٍ؛ كما هو النزيه البريء عن نقائص البشر من كلِّ وجهٍ، ولما كان ــ سبحانه ــ موصوفاً بأن له يدين: لم يكن فيهما شمالٌ؛ بل كلتا يديه يمينٌ مباركةٌ، كذلك أسماؤه كلُّها حسنى؛ وأفعاله كلُّها خيرٌ؛ وصفاته كلُّها كمالٌ)[3].

٤ ــ أن ما كان من العطاء والفضل فهو بيد الربِّ اليمنى، وما كان من القبض والعدل فهو بيده الأخرى، كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قد جعل ــ سبحانه ــ ما كان من الفضل والعطاء والخير وأهل السعادة: بيده اليمنى، وما كان من العدل والقبض: بيده الأخرى، ولهذا جعل أهل السعادة في قبضته اليمنى؛ وأهل الشقاوة في القبضة الأخرى، والمقسطون على منابر من نورٍ عن يمينه، والسماوات مطوياتٌ بيمينه؛ والأرض باليد الأخرى)[4].

= والآجري في الشريعة [باب الإيمان بأن الله عزَّ وجلّ خلق آدم عليه السلام بيده، وخطَّ التوراة لموسى بيده، وخلق جنة عدن بيده ــ رقم (٧٥٧ ــ ٧٥٩)] عن حكيم بن جابر وكعب الأحبار.
وصححه الألباني في [مختصر العُلُوِّ للعليِّ الغفار: رقم (١٠٤) ــ ص١٢٩ ــ ١٣٠] عن حكيم بن جابر.

(١) وهي: كَتْبُ التوراة بيده.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٦٨ ــ ٢٧٠.

(٣) أحكام أهل الذمة ١/ ١٩٥.

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٤٤.

٥ ـ أن أصابع اليد الكريمة لجلالتها وعظم قدرها: يضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ سماواته السبع على أُصبع منها، والأرضين السبع على أُصبع، والجبال على أُصبع، والشجر على أُصبع، وسائر الخلق على أُصبع، وأن قلوب عباده بين أُصبعين منها، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك؛ مُبيِّناً حقيقة المثل الأعلى الذي قام بقلوب المؤمنين المُصدِّقين؛ فقال: (لم يخطر بقلوبهم مماثلته لشيءٍ من المخلوقات، وقد أعلمهم ـ سبحانه ـ على لسان رسوله أنه: «يقبض سماواته بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن»[١]. و «أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفِّه تعالى كخردلةٍ في كفِّ أحدكم»[٢]. و «أنه يضع السماوات على أُصبع، والأرضين على أُصبع، والجبال على أُصبع، والشجر على أُصبع، وسائر الخلق على أُصبع»[٣].

فأيُّ أيدي للخلق؛ وأيُّ أُصبعٍ تُشْبِهُ هذه اليد وهذه الأُصبع حتى يكون إثباتها تشبيهاً وتمثيلاً؟)[٤].

كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ أن من أنكر أن قلوب العباد بين أُصبعين من أصابع اليد الكريمة: لم يقدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ حقَّ قدره؛ فقال: (من لا يُقرُّ بأن قلوب العباد بين أُصبعين من أصابع الرحمن؛ يُقلِّبها كيف يشاء، وأنه ـ سبحانه ـ مُقلِّب القلوب حقيقة، وأنه إن شاء أن يُقيم القلب أقامه؛ وإن شاء أن يزيغه أزاغه: لا يُقرُّ بأن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ)[٥].

---

(١) تقدم تخريجه، ولفظه: «يقبض الله الأرض ويطوي السماوات».
(٢) تقدم تخريجه، ولفظه: «ما السماوات السبع والأرضون».
(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «يا محمد؛ إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على أصبع».
(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٣٢.
(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٣١.

فهذه بعض الفوائد الحميدة التي يُورثها إثبات أهل السنة والجماعة لهذه النصوص المُتنوِّعة المُتصرِّفة الدالَّة على أن هذه اليد: يدٌ كريمةٌ لائقةٌ بالربِّ ـ تبارك وتعالى ـ ، (ولا يعلم ما في هذه الكلمات ـ من التوحيد والمعارف والعبودية ـ إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته؛ ومعرفة عبوديته)[1]، وأما أهل البدعة والشناعة: فَفَرْقٌ بينهم وبين أهل السنة والجماعة في هذا الباب؛ (كما أنه فَرْقٌ بين بكاء النائحة وبكاء الثَّكْلَى)[2].

(وههنا نكتة لطيفة يحسن التنبيه عليها)[3]؛ وهي: أن أهل البدعة والشناعة بنفيهم لهذه الصفة الكريمة؛ وتعطيلها عن حقيقتها: يلزمهم الوقوع في محذورين؛ قرَّرهما الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ، وهما:

المحذور الأول: الوقوع في شرٍّ مما وقعت فيه اليهود ـ المغضوب عليهم ـ من إثبات هذه الصفة الكريمة؛ مع وصفهم لها بالنقص والعيب، كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الله تعالى أنكر على اليهود نسبة يده إلى النقص والعيب؛ ولم يُنكر عليهم إثبات اليد له تعالى، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[4].

فلعنهم على وصف يده بالعيب؛ دون إثبات يده، وقَدْرُ إثباتها به: زيادةٌ على ما قالوه بأنهما: يدان مبسوطتان.

وبهذا يُعلم تلبيس الجهمية المُعطِّلة على أشباه الأنعام؛ حيث قالوا:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٧٩.

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٦٢٢.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين٣/ ٥٥.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦٤.

إن الله لعن اليهود على إثبات اليد له ـ سبحانه ـ ؛ وأنهم مُشبِّهةٌ؛ وهم أئمة المُشبِّهة، فتأمل هذا الكذب من هذا القائل؛ والتلبيس، وأن الآية صريحةٌ بخلاف قوله)[1].

المحذور الثاني: الوقوع في عقوق أبي الأنام؛ آدم ـ عليه السلام ـ ، كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن نفس هذا التركيب المذكور في قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2]: يأبى حمل الكلام على القدرة، لأنه نسب الخلق إلى نفسه ـ سبحانه ـ ؛ ثم عدَّى الفعل إلى اليد؛ ثم ثنَّاها؛ ثم أدخل عليها الباء التي تدخل على قوله: كتبت بالقلم.

ومثل هذا النص صريحٌ؛ لا يحتمل المجاز بوجهٍ، بخلاف ما لو قال: عملت، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[3]، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[4]، فإنه نسب الفعل إلى اليد ابتداء؛ وخصَّها بالذكر لأنها آلة الفعل في الغالب.

ولهذا لما لم يكن خَلْق الأنعام مساوياً لخلق أبي الأنام: قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾[5]، فأضاف الفعل إلى الأيدي؛ وجمعها؛ ولم يدخل عليها الباء.

فهذه ثلاثة فروقٍ تُبطل إلحاق أحد الموضعين بالآخر، ويتضمَّن التسوية بينهما: عدم مزيَّة أبينا آدم على الأنعام، وهذا من أبطل الباطل؛ وأعظم العقوق للأب، إذ ساوى المُعطِّل بينه وبين إبليس والأنعام في

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٧٥.

(٢) سورة ص: الآية ٧٥.

(٣) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(٤) سورة الحج: الآية ١٠.

(٥) سورة يس: الآية ٧١.

الخلق باليدين[1])[2].

فهذان المحذوران ـ وغيرهما من المحذورات الوخيمة ـ: هما عاقبة انحراف أهل البدعة والشناعة عن جادة الإِثبات المستقيمة، وسلوكهم لسبل التشبيه والتمثيل الذميمة، (فقاتل الله الجهمية والمعطلة؛ أين التشبيه ههنا وأين التمثيل؟ لقد اضمحلَّ ههنا كلُّ موجودٍ سواه؛ فضلاً عن أن يكون له ما يُماثله في ذلك الكمال ويُشابهه فيه.

فسبحان من حجب عقول هؤلاء عن معرفته؛ وولاها ما تولَّت من وقوفها مع الألفاظ التي لا حُرمة لها؛ والمعاني التي لا حقائق لها)[3].

فليتدبر اللبيب عاقبة ظنِّ السَّوْء بالربِّ ـ تبارك وتعالى ـ، (وليصرخ إلى مُقلِّب القلوب ومُصرِّفها: أن يُثبِّت قلبه على دينه؛ ويُصرِّفه على طاعته)[4]، والله المستعان؛ وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٥٠٦٤ ـ ٥٠٦٩) ـ ص٣٥٩].

(سُبحانَ من غرست يداه جنة الـ ... ـفردوس عند تكامل البُنيانِ
ويداه أيضاً أَتقنتْ لبنائها ... فتبارك الرحمنُ أعظمُ بانِ
هي في الجنانِ كآدمٍ وكلاهما ... تفضيلُه من أجلِ هذا الشَّانِ
لكنَّما الجهميُّ ليس لَديه مِنْ ... ذا الفضلِ شيءٌ فهو ذو نُكرانِ
ولدٌ عقوقٌ عقَّ والده ولَمْ ... يثبتْ بذا فضلاً على الشيطانِ
فكِلاهما تأثيرُ قدرته وتَأْ ... ثيرُ المشيئة ليس ثَمَّ يدانِ
إلا هُما أو نعمتاه وخلقُه ... كُلٌّ بنعمةِ ربِّه المنَّانِ).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٤) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء ص٢٢٣.

المسألة الرابعة:

صفة الكمال (الرِّجل).

اجتهد الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير صفة الـرِّجْـل الكـريمـة، مُبيِّناً أن الصحـابـة ــ رضـي الله عنهـم ــ تقبّلـوا إخبـار النبـي ﷺ لهم بثبوتها للربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بالقبول الحسن؛ كما تقبَّلوا منه سائر الصفات العلى بالقطع واليقين، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ: (كان أحدهم إذا روى لغيره حديثاً عن رسول الله ﷺ في الصفات: تلقَّاه بالقبول، واعتقد تلك الصفة به على القطع واليقين، كما اعتقد رؤية الربِّ وتكليمه، ونـداءه يـوم القيـامـة لعبـاده بـالصـوت ــ الـذي يسمعـه البعيـد كمـا يسمعـه القريب ــ، ونزوله إلى سماء الدنيا كلَّ ليلةٍ، وضحكه وفرحه، وإمساك سماواته على أُصبع من أصابع يده، وإثبات القدم له.

من سمع هذه الأحاديث ممن حدَّث بها عن رسول الله ﷺ؛ أو عن صاحبٍ: اعتقد ثبوت مقتضاها بمجرَّد سماعها من العدل الصادق، ولم يَرْتَب فيها)[1].

وهذه الصفة الكريمة جاء إثباتها في حديث أبـي هريرة ــ رضي الله عنه ــ؛ الذي أخرجه البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحيهما ــ اللَّذَيْنِ تلَّقاهما الناس بالرِّضى والقبول ــ؛ وفيه: «فأما النار: فلا تمتلىء حتى يضع رجله، فتقول: قطْ قطْ قطْ، فهنالك تمتلىء؛ ويُزوى بعضها إلى بعضٍ»[2]، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ أنَّ من لم يُقرَّ بهذه الصفة الكريمة ــ وغيرها من صفات الله العلى ــ: لم يُقرَّ بأن الله تعالى على كلِّ

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥٢٧.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «احتجت الجنة والنار».

شيءٍ قديرٌ؛ فقال: (من لا يُقرُّ بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السماوات والأرض؛ وأنه ينزل كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا يقول: من يسألني فأُعطيه؛ من يستغفرني فأغفر له، وأنه نزل إلى الشجرة فكلَّم موسى كليمه منها، وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها، وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده، وأنه يتجلَّى لهم يضحك، وأنه يُريهم نفسه المقدسة، وأنه يضع رجله على النار؛ فتضيق بأهلها وينزوي بعضها إلى بعض.

إلى غير ذلك من شؤونه وأفعاله؛ التي من لم يُقرَّ بها: لم يُقرَّ بأنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ)[1].

❑ ❑ ❑

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٣١.

المطلب الثامن:

جهوده في تقرير صفات الله تعالى: المحبة؛ الرضى؛ الفرح؛ الضَّحِك

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير صفات المحبة والرِّضى والفَرَح والضَّحِك ـ التي تضمنها هذا المطلب ـ ؛ مُبيِّناً أن هذه الصفات: من الصفات الفعلية التي وَصَفَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها نفسه؛ ووصفه بها رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ، حيث اتفقت كلمتهم وتواطأ خبرهم على تعريف الربِّ المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً؛ حتى كأن العباد يُشاهدونه ـ سبحانه ـ ؛ وينظرون إليه، وكان من جملة ما عرَّفوه: أن لربِّهم ـ تبارك وتعالى ـ صفات الكمال، وأنه يُحِبُّ ويُحَبُّ، ويفرح بتوبة عباده وطاعتهم ويضحك منها ويرضى بها ويثني عليهم بها، فهذا من جملة مطالب الإيمان المشتركة بين أهل الملل كلِّهم.

والعبد متى ما تدبَّر كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؛ وأجارهما من التحريف؛ وأن يقضي عليهما بآراء المتكلِّمين وأفكار المتكلِّفين: أشهده هذا التدبُّر أنهما مملوءان بوصف الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بالمحبة والرِّضى والفَرَح والضَّحِك، وأن نصوصهما مُحكمةٌ غاية الإحكام؛ مُبيَّنةٌ بأقصى غاية البيان.

ولا ريب أن العلم الضروريَّ حاصلٌ بأن هذه الصفات من أعظم صفات الكمال، وأنه فَرْضٌ على الأمة التصديق بها فرضاً لا يتمُّ أصل الإيمان إلا به، فيقوى القلبُ بهذا الإيمان؛ حتى يصير الغيب بمنزلة المُشاهد بالعين، فينشأ من كمال الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته: مشهدُ الإحسان؛ وأن للعبد رباً وإلهاً ومَلِكاً: خالقاً حيَّاً: يُحِبُّ ويرضى؛ ويفرح ويضحك، وأن الكون بجملة ما فيه: آياتٌ وشواهدُ وأدلة دعا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عباده إلى النظر فيها؛ والاستدلال بها على هذه الصفات.

ومن له خبرة بمذاهب الناس وأقوال السلف: يعلم قطعاً أن سلف الأمة قد اجتمعوا على القول بدلالة الوحي والعقل على إثبات هذه الصفات من المحبة والرِّضى والفَرَح والضَّحِك، حتى إن أحدهم إذا روى لغيره حديثاً عن رسول الله ﷺ في ذكر صفة من هذه الصفات: تلقَّاه بالقبول، واعتقد ثبوت تلك الصفة على القطع واليقين، واعتقد ثبوت مقتضاها بمجرَّد سماعها من العدل الصادق ولم يَرْتَبْ فيها، وإذا سُئِلَ عن معنى هذه الصفات: أجاب بقوله: معانيها كلُّها مفهومةٌ، وأما كيفيتها فغير معقولةٍ، إذ تعقُّل الكيفية: فرعُ العلم بكيفية الذَّات وكنهها، فإذا كان ذلك غير معقولٍ للبشر؛ فكيف يُعقل لهم كيفية الصفات؟

وإخبار العبد عن ربِّه ـ تبارك وتعالى ـ بهذه الصفات؛ وأنه يُحِبُّ ويرضى؛ ويفرح ويضحك: هو أحد نوعي ذكر أسماء الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ وصفاته؛ والثناء عليه بهما؛ وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به ـ تبارك وتعالى ـ .

فكيف تأله القلوب من لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ؛ ولا يرضى ولا يفرح ولا يضحك؟ فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته على تلك

الأوصاف الكاملة، فلو رآها أهلاً لذلك: لمنَّ عليها به وأكرمها به، إذ ذاك أعظم كرامةٍ يُكرم بها عبده، والله أعلم حيث يجعل كرامته ويضع نعمته.

وهذه الصفات العلى من المحبة والرِّضى والفَرَح والضَّحِك: صفاتُ كمالٍ قطعاً؛ لا يجوز تعطيلها وتأويلها بما يُبطل حقائقها، لأن الدليل العقليَّ الذي دلَّ على ثبوت صفات الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام: دلَّ نظيره على ثبوت صفات المحبة والرِّضى والفَرَح والضَّحِك، وذلك عين الكمال المُقدَّس، لأن كلَّ صفةٍ دلَّ عليها القرآن والسنة: فهي صفة كمالٍ، والعقل جازمٌ بإثبات صفات الكمال للربِّ ــ سبحانه وتعالى ــ، ويمتنع أن يصف نفسه أو يصفه رسوله ﷺ بصفةٍ تُوهم نقصاً.

فليس في إثبات هذه الصفات محذورٌ ألبتة، لأن هذه الصفات التي اتصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ بها من المحبة والرِّضى والفَرَح والضَّحِك: لا تُماثل ما للمخلوق من ذلك، كما أن ذاته ــ سبحانه وتعالى ــ لا تُشبه ذوات خلقه؛ وصفاته لا تُشبه صفاتهم وأفعالهم، فهي محبَّةٌ ليس كمثلها شيءٌ؛ ورضى ليس كمثله شيءٌ؛ وفَرَحٌ ليس كمثله شيءٌ؛ وضَحِكٌ ليس كمثله شيءٌ.

فالباب عند المُثبت: بابٌ واحدٌ؛ لا تمثيل ولا تعطيل، وليس ما يُلْزِمُ به المعطلُ المثبتَ إلا ظلمٌ محضٌ؛ وتناقضٌ وتلاعبٌ، فإن هذا لو كان لازماً: للزم رحمته وإرادته ومشيئته وسمعه وبصره وعلمه وسائر صفاته، فكيف جاء هذا اللزوم لهذه الصفات دون الأخرى؟ وهل يجد ذو عقلٍ إلى الفرق سبيلاً؟ فما ثَمَّ إلا التعطيل المحض المطلق؛ أو الإثبات المطلق لكلِّ ما ورد به النصُّ، والتناقض لا يرضاه المُحصِّلون.

أفيظن الجاهلون أن تُجْحَد صفات الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ من المحبة

والرِّضى والفَرَح والضَّحِك لأجل شبههم الفاسدة وحيلهم الكاسدة؟ التي من لوازمها أن يكون أشرف الكتب وأشرف الرسل قد قصَّر في هذا الباب غاية التقصير، بل أفرط في التجسيم والتشبيه غاية الإفراط، وتنوَّع فيه غاية التنوُّع، فكيف يُجعل ما أثبته الله ــ سبحانه وتعالى ــ لنفسه في كتابه؛ أو على لسان رسوله ﷺ من هذه الصفات بمنزلة تلك الأقوال الصريحة المخالفة لصريح العقل؛ في مخالفة كلٍّ منهما لصريح العقل؟ ويُجعل إثبات هذا كإثبات ذلك؛ ووصفه بهذا كوصفه بذاك؟

لأن في العقول أنا إذا فرضنا ذاتين: إحداهما: لا تُحِبُّ شيئاً ولا ترضاه ولا تفرح به ولا تضحك منه. والذات الأخرى: تُحِبُّ كلَّ جميلٍ من الأقوال والأفعال والأخلاق والشيم وترضى به وتفرح به وتضحك منه: كانت هذه الذات أكملَ من تلك الموصوفة بصفات العدم والموات والجهل؛ الفاقدة للحسِّ، فإن هذه الصفات لا تُسلب إلا عن الموات؛ أو عمَّن فقد حسَّه؛ أو بلغ في النهاية والضَّعف والعجز والجهل إلى الغاية التي لم تدع له حباً ولا رضى ولا فرحاً ولا ضحكاً، فمن شكَّ في ثبوت هذه الصفات؛ أو أنها صفات كمالٍ: فهو مِمَّن سُلِبَ خاصَّة الإنسانية؛ وانسلخ من العقل.

فإذا كان ذلك كذلك: فما المانع من أن تكون محبة الله ــ سبحانه وتعالى ــ ورضاه وفرحه وضحكه: من كماله في نفسه وما هو عليه من الجلال والجمال، ولا يحتاج في ذلك إلى شيءٍ مخلوقٍ، بل يكفي في حصوله جماله وجلاله؟

وما المانع أن يُحِبَّ ويرضى ويفرح ويضحك بما يكون من الأمور الحادثة الموافقة لمحبته ورضاه؟ كما جاء ذكر ذلك في الآيات والأحاديث المستفيضة المتواترة ــ التي ستأتي الإشارة إلى طرفٍ منها ــ .

والعصمة النافعة في إثبات هذه الصفات: أن يُوصف الله بما وصف به

نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ؛ ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، بل تُثبت له الأسماء والصفات؛ وتُنفى عنه مشابهة المخلوقات، فيكون إثبات العبدِ مُنزَّهاً عن التمثيل؛ ونفيه مُنزَّهاً عن التعطيل.

فاعتصم و (تمسَّك بهذا الأصل؛ ولا تفارقه في كلِّ دقيقٍ وجليلٍ، وحكِّمه على كلِّ ما يرد عليك وحاكم إليه، واجعله آخيتك التي ترجع إليها وتعتمد عليها[1])[2]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ۝٥٤﴾[3].

وإيضاح تقرير الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لصفات المحبة والرِّضى والفَرَح والضَّحِك: مُضمَّنٌ في المسائل الآتية:

(١) تمهيدٌ مُضمَّنٌ كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه الصفات العلى من: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٤؛ ٢٩٩، التبيان في أقسام القرآن ص٩٥، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٣، رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٣٨ ــ ٣٩، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٣١؛ ٣٨٣؛ ٢/ ٥٩٦؛ ٥٩٧، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢١؛ ٢/ ٦٥٤؛ ٧٦٣؛ ٢٩٣؛ ٣/ ٨٣٢؛ ٨٣٣؛ ٨٧٢؛ ٨٩٨ ــ ٨٩٩؛ ٩١٦؛ ٩٥٢؛ ١٠١٠؛ ١١٥٠ ــ ١١٥١؛ ٤/ ١٤٤٧؛ ١٤٤٩؛ ١٤٥١؛ ١٤٥٢؛ ١٤٥٩، ومختصره ١/ ٢٢٩؛ ٢/ ٥٢٧، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٢٨؛ ٢٥٧، الفوائد ص٨٢؛ ١٨٦، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية [الأبيات رقم (٤١٥؛ ٤٤٠؛ ٥٤٥؛ ١٢٣٣ ــ ١٢٤٠؛ ٣٠٨٣)]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٨ ــ ٢٣٩؛ ٢٣٩؛ ٢/ ٨٩ ــ ٩٠، ٣/ ١٦٠؛ ٢٦٣ ــ ٢٦٤؛ ٢٦٢؛ ٣٦٤؛ ٣٦٧ ــ ٣٦٨؛ ٤١٦، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٤٧؛ ١١٨.
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٥٢.
(٣) سورة الحج: الآية ٥٤.

المسألة الأولى:

صفة الكمال (المحبّـة).

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير وصف الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بالمحبة؛ مُبيِّناً أن هذا الوصف: سلامٌ مما يتخيَّله المُمثِّلون أو يتقوَّله المُعطِّلون؛ فقال: (محبَّتُه لمحبيه وأوليائه: سلامٌ من عوارض محبّة المخلوق للمخلوق؛ من كونها محبةَ حاجةٍ إليه أو تملُّقٍ له أو انتفاعٍ بقربه، وسلامٌ مما يتقوَّله المُعطِّلون فيها)[1].

ووصف الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بالمحبة: قد دلَّ عليه أدلةٌ كثيرةٌ ودلائل وفيرةٌ، فمن ذلك: اسم الجلالة (الودود) ــ على أحد القولين في معناه ــ ، فإنه اسم فاعلٍ بمعنى: الوادّ؛ وهو المحبُّ الوادُّ لعباده، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إنه بمعنى فاعلٍ، وهو الذي يُحِبُّ أنبياءه ورسله وأولياءه وعباده المؤمنين[2])[3].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ طرفاً من نصوص القرآن والسنة الدالَّة على وصف الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بالمحبة؛ والمتضمنة لذكر من يُحبُّه الله ــ سبحانه وتعالى ــ من عباده المؤمنين؛ فقال: (القرآن والسنة مملوآن بذكر من يُحبُّه الله ــ سبحانه ــ من عباده المؤمنين؛ وذكر ما يُحبُّه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم، كقوله تعالى:

---

(١) بدائع الفوائد ٢/١١٨.

(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن معنى اسم الجلالة (الودود) ــ على أحد القولين ــ هو: اسم فاعلٍ بمعنى: الوادِّ؛ وهو المحبُّ الوادُّ لعباده؛ في: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/١٥٦.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٤٧.

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[1]. ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[2]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[3]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾[4]. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[5].

وقوله في ضدِّ ذلك: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[6]. ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[7]. ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[8]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[9].

وكم في السنة: أحبُّ الأعمال إلى الله: كذا وكذا، وإن الله يُحبُّ كذا وكذا، كقوله: «أحبُّ الأعمال إلى الله: الصلاة على أول وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»[10]. و «أحبُّ الأعمال إلى الله: الإيمان بالله، ثم الجهاد في سبيل الله، ثم حج مبرور»[11]. و «أحبُّ العمل إلى الله:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٣٤؛ ١٤٨، سورة المائدة: الآية ٩٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٤) سورة الصف: الآية ٤.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٧٦.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

(٧) سورة الحديد: الآية ٢٣.

(٨) سورة آل عمران: الآيتان ٥٧؛ ١٤٠.

(٩) سورة النساء: الآية ٣٦.

(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب مواقيت الصلاة/ باب فضل الصلاة لوقتها ـ الحديث رقم (٥٢٧) ـ ١/ ١٧٩]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ـ الحديث رقم (٨٥) ـ ١/ ٨٩] من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(١١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب من قال إن الإيمان هو =

ما داوم عليه صاحبه»[1]. وقوله: «إن الله يُحِبُّ أن يُؤخذ برخصه»[2].

وأضعاف أضعاف ذلك)[3].

فقد (قام الدليل؛ ووضح السبيل)[4] بهذه النصوص العظيمة على إثبات هذه الصفة الكريمة؛ التي تضمنت (أصولاً عظيمة من أصول الإيمان:

أحدها: أنَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ موصوفٌ بالمحبة؛ وأنه يُحِبُّ حقيقة.

= العمل ــ الحديث رقم (٢٦) ــ ١/ ٣٣]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ــ الحديث رقم (٨٣) ــ ١/ ٨٨] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب أحبُّ الدين إلى الله أدومه ــ الحديث رقم (٤٣) ــ ١/ ٣٨]، ومسلم في صحيحه [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ــ الحديث رقم (٧٨٢ ــ ٧٨٣) ــ ١/ ٥٤٠ ــ ٥٤١] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ .

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط [الحديث رقم (٦٢٧٨) ــ ٧/ ١٥٣ ــ ١٥٤] من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ ، واللفظ له.
قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٣/ ١٦٣]: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عمر بن عبيد ــ صاحب الخُمُرِ ــ ، وهو ضعيفٌ).
وقد أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٥٨٦٦) ــ ١٠/ ١٠٧] من حديث عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ ، بلفظٍ نحوه.
وصححه الألباني في [إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: الحديث رقم (٥٦٤) ــ ٣/ ٩ ــ ١٣].

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٦ ــ ٢٧.

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص٣٠٦.

الثاني: أنه يُحِبُّ مقتضى أسمائه وصفاته وما يُوافقها)[1].

فالربُّ ــ تبارك وتعالى ــ لم يُعلِّق وصف المحبَّة إلا بما أَمَرَ به من الأعمال والأقوال والأخلاق ــ أَمْرَ إيجابٍ أو أَمْرَ استحبابٍ ــ ، فلم يُعلِّقها في موضعٍ واحدٍ بالتَّرك، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الله ــ سبحانه ــ لم يُعلِّق محبته إلا بأمرٍ وجوديٍّ أَمَرَ به ــ إيجاباً أو استحباباً ــ ؛ ولم يُعلِّقها بالتَّرك من حيث هو تَرْكٌ؛ ولا في موضعٍ واحدٍ، فإنه يُحِبُّ التوَّابين؛ ويُحِبُّ المحسنين؛ ويُحِبُّ الشاكرين؛ ويُحِبُّ الصابرين؛ ويُحِبُّ المتطهِّرين؛ ويُحِبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ؛ ويُحِبُّ المتقين؛ ويُحِبُّ الذاكرين؛ ويُحِبُّ المُتصدِّقين.

فهو ــ سبحانه ــ إنما علَّق محبَّته بأوامره؛ إذ هي المقصود من الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[2])[3].

وبالجملة؛ (فإن الله ــ سبحانه ــ يُحِبُّ الكامل من الأفعال والأقوال والأعمال، ومحبته لذلك بحسب كماله)[4]، وهو ــ سبحانه وتعالى ــ كما يُحِبُّ من عباده أن يتقرَّبوا إليه بالعبادة: فهو يُحِبُّ منهم أن يتقرَّبوا إليه بحمده وتمجيده والثناء الحسن عليه بأسماء الجمال وأوصاف الكمال وأفعال الجلال، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[5].

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٩٦.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٧٤.

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٣/ ٤١٢.

(٥) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

فأخبر ـ سبحانه ـ أن الغاية المطلوبة من خلقه: هي عبادته؛ التي أصلها كمال محبته، وهو ـ سبحانه ـ كما أنه يُحِبُّ أن يُعبد: يُحِبُّ أن يُحمد ويُثنى عليه؛ ويُذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا أحد أحبَّ إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه»[1].

وفي المسند من حديث الأسود بن سريع أنه قال: «يا رسول الله؛ إني حمدت ربي بمحامد. فقال: إن ربَّك يُحِبُّ الحمد»[2].

فهو يُحِبُّ نفسه، ومن أجل ذلك يُثني على نفسه ويحمد نفسه ويُقدِّس نفسه، ويُحِبُّ من يُحِبُّه ويحمده ويُثني عليه، بل كلما كانت محبة عبده له أقوى: كانت محبة الله له أكمل وأتمُّ، فلا أحد أحبَّ إليه ممن يُحبُّه ويحمده ويُثني عليه)[3].

ومحبة الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ لعبده: تستلزم عواقب عظيمة؛ وغايات كريمة، يكون بها العبدُ: غنياً بلا مالٍ؛ مهيباً بلا سلطانٍ؛ عزيزاً بلا عشيرةٍ، فإذا كان محروماً منها: (فهو بضدِّ ذلك: فقيرٌ مع كثرة جدته؛ ذليلٌ مع سلطانه؛ حقيرٌ مع كثرة عشيرته)[4]، ومن تلك العواقب والغايات التي ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ :

١ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أحبَّ عبده: أعزَّه وأكرمه ونوَّه بذكره، وألقى التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه، وقد ذكر ـ رحمه الله

---

(١) تقدم تخريجه، ولفظه: «ليس أحدٌ أحب إليه المدح من الله».
(٢) تقدم تخريجه، ولفظه: «أما إن ربك تعالى يُحبُّ المدح».
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٣١ ـ ٤٣٢.
(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٩٢.

تعالى ـ هذه العواقب الحميدة بقوله: (المحبَّة لا تنفكُّ عن تعظيمٍ وإجلالٍ للمحبوب، ولكن يُضاف إلى كلِّ ذاتٍ بحسب ما تقتضيه خصائص تلك الذات، فمحبَّة العبد لربِّه: تستلزم إجلاله وتعظيمه، وكذلك محبَّة الرسول: تستلزم توقيره وتعزيزه وإجلاله، وكذلك محبَّة الوالدين والعلماء وملوك العدل.

وأما محبَّة الربِّ عبدَه: فإنها تستلزم إعزازه لعبده وإكرامه إياه والتنويه بذكره، وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه، فهذا المعنى ثابتٌ في محبته وحمده لعبده، سُمِّيَ تعظيماً وإجلالاً؛ أو لم يُسَمَّ)[1].

٢ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أحبَّ عبده: أنشأ في قلبه محبته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ في نظر الفكر والاعتبار إلى آيات الله تعالى المشهودة وآياته المسموعة: (كلٌّ منهما داعٍ قويٌّ إلى محبته ـ سبحانه ـ، لأنها أدلةٌ على صفات كماله ونعوت جلاله؛ وتوحيد ربوبيته وإلـٰهيته؛ وعلى حكمته وبرِّه وإحسانه ولطفه وجوده وكرمه؛ وسعة رحمته وسبوغ نعمته.

فإدامة النظر فيها: داعٍ لا محالة إلى محبته؛ وكذلك الارتياض بالمقامات، فإن من كانت له رياضةٌ وملكةٌ في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان: كانت محبَّته أقوى، لأن محبة الله له أتمُّ، وإذا أحبَّ الله عبداً: أنشأ في قلبه محبته)[2].

فهذه العواقب الجليلة والغايات النبيلة: هي التي (استطاب المحبون في الوصول إليها هجر الأوطان والأحباب؛ ولذَّ لهم فيها السفر الذي هو قطعة من العذاب، فركبوا الأخطار؛ وجابوا المفاوز والقفار، واحتملوا في

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٤٠.

الوصول غاية المشاق؛ ولو أمكنهم لسعوا إليها على الجفون والأحداق)[1].

والعبدُ متى ما تقرَّب إلى ربِّه ـ تبارك وتعالى ـ بما يُحبُّه ويرضاه من الأعمال والأقوال والأخلاق؛ وسلك في ذلك (سبلها ذللاً؛ وارتوى من مواردها عللاً ونهلاً)[2]: فقد استدعى محبة الله تعالى له، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (في الحديث: «فإذا أحببته كنت سمعه وبصره» إلخ[3]، فهو يتقرَّب إلى ربِّه حفظاً لمحبته له؛ واستدعاء لمحبَّة ربِّه له، فحينئذ يشدُّ مئزر الجِدِّ في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرُّب إليه، فقلبه للمحبة والإنابة والتوكُّل والخوف والرجاء؛ ولسانه للذكر وتلاوة كلام حبيبه؛ وجوارحه للطاعات، فهو لا يفتر عن التقرُّب من حبيبه.

وهذا هو السير المُفضي إلى هذه الغاية التي لا تُنال إلا به؛ ولا يُتوصَّل إليها إلا من هذا الباب وهذه الطريق، وحينئذ تجمع له في سيره جميع متفرقات السلوك من الحضور والهيبة والمراقبة؛ ونفي الخواطر وتخلية الباطن، فإن المُحبَّ يشرع أولاً في التقرُّبات بالأعمال الظاهرة؛ وهي ظاهر التقرُّب، ثم يترقَّى من ذلك إلى حال التقرُّب؛ وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليَّته بروحه وقلبه وعقله وبدنه، ثم يترقَّى من ذلك إلى حال الإحسان؛ فيعبد الله كأنه يراه، فيتقرَّب إليه حينئذٍ من باطنه بأعمال القلوب من المحبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخشية، فينبعث حينئذٍ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود في محبة حبيبه بلا تكلُّفٍ، فيجود بروحه ونفسه وأنفاسه وإرادته وأعماله لحبيبه ـ حالاً لا تكلفاً ـ، فإذا وجد المُحبُّ ذلك: فقد ظفر بحال التقرُّب وسرِّه وباطنه، وإن لم يجده: فهو يتقرَّب بلسانه وبدنه

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٢٧٧.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ١٤٦.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله قال: من عادى لي ولياً».

وظاهره فقط، فليَدُمْ على ذلك؛ وليتكلَّف التقرُّب بالأذكار والأعمال على الدوام، فعساه أن يحظى بحال القرب.

ووراء هذا القرب الباطن: أمرٌ آخر أيضاً؛ وهو شيءٌ لا يُعبَّر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله ﷺ عن هذا المعنى؛ حيث يقول حاكياً عن ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ : «من تقرَّب مني شبراً تقرَّبت منه ذراعاً، ومن تقرَّب مني ذراعاً تقرَّبت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[(١)].

فيجد هذا المحبُّ في باطنه: ذوق معنى هذا الحديث ذوقاً حقيقيًّا)[(٢)].

وهذه المحبة التي اتصف الله تعالى بها: لها لوازم يمتنع وجودها بدونها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (ــ سبحانه ــ إذا كان يُحِبُّ أموراً؛ وتلك الأمور المحبوبة لها لوازم يمتنع وجودها بدونها: كان وجود تلك الأمور مُستلزماً للوازمها التي لا تُوجد بدونها.

مثاله: محبته للعفو والمغفرة والتوبة، وهذه المحبوبات تستلزم وجود ما يعفو عنه ويغفره ويتوب إليه العبد منه، ووجود الملزوم بدون لازمه محالٌ، فلا يُمكن حصول محبوباته ــ سبحانه ــ من التوبة والمغفرة والعفو بدون الذي يُتاب منه ويغفره ويعفو عن صاحبه، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لو لم تُذنبوا: لذهب الله بكم، وجاء بقومٍ يُذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم»[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «يقول الله ــ عزَّ وجلَّ ــ : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها».

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٦ ــ ٢٧.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «والذي نفسي بيده».

وهذا هو الذي وردت الأحاديث الصحيحة بالفرح به، وهذا المفروح به يمتنع وجوده قبل الذنب؛ فضلاً عن أن يكون قديماً، فهذا المفروح به يجب تأخره قطعاً.

ومثل هذا ما رُوِيَ: (أن آدم لما رأى بنيه ورأى تفاوتهم قال: يا ربِّ هلا سوَّيت بين عبادك، قال: إني أحببت أن أُشكر)[1].

ومعلومٌ أن محبته للشكر ــ على ما فضل به بعضهم على بعضٍ ــ: يُوجب تفضيل بعضهم على بعض، ولا يحصل ذلك مع التسوية بينهم، فإن الجمع بين التسوية والتفضيل: جمعٌ بين النقيضين؛ وذلك محالٌ)[2].

والناس في محبّة العبدِ لربِّه؛ ومحبة الربِّ لعبده: أربعة أقسام؛ ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ بقوله: (الناس في إثبات ذلك ونفيه أربعة أقسام: فأهلٌ يُحبُّهم ويُحبُّونه على إثبات الطرفين؛ وأن محبّة العبد لربِّه فوق كلِّ محبةٍ تُقدَّر؛ ولا نسبة لسائر المحابِّ إليها، وهي حقيقة لا إلـه إلا الله. وكذلك عندهم محبّة الربِّ لأوليائه وأنبيائه ورسله: صفةٌ زائدةٌ على رحمته وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبّة وموجبها، فإنه لما أحبَّهم: كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبرِّه أتمَّ نصيبٍ.

والجهمية المعطلة: عكس هؤلاء، فإنه عندهم لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، ولم يمكنهم تكذيب النصوص؛ فأوَّلوا نصوص محبّة العباد له على محبة طاعته وعبادته والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب، وإن أطلقوا عليهم بها لفظ المحبة: فلِمَا ينالون به من الثواب والأجر، والثواب المنفصل عندهم هو المحبوب لذاته، والربُّ تعالى محبوبٌ لغيره حبَّ الوسائل،

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: (لما عُرِضَ على آدم ــ عليه السلام ــ ذريته).
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٦٧ ــ ١٤٦٨.

وأوَّلوا نصوص محبَّته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب، وربما أوَّلوها بثنائه عليهم ومدحه لهم ونحو ذلك، وربما أوَّلوها بإراداته لذلك، فتارة يُؤوِّلونها بالمفعول المنفصل؛ وتارة يُؤوِّلونها بنفس الإرادة)[1].

فجميع ما تقدَّم من (طرق الأدلة ـ عقلاً ونقلاً وفطرة وقياساً واعتباراً وذوقاً ووجداً ـ : تدلُّ على إثبات محبَّة العبد لربِّه؛ والربِّ لعبده)[2]، وأما (العشق: وهو إفراط المحبة)[3]، فلا (يوصف به الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ ؛ ولا العبد في محبة ربِّه)[4]، لأن (العبد لا يصل في محبة الله إلى حدِّ الإفراط ألبتة، والله أعلم)[5].

وقد حكى الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ اختلاف الناس في جواز إطلاق اسم (العشق) على الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ ؛ وعلَّة من منع إطلاقه؛ فقال: (قد اختلف الناس: هل يُطلق هذا الاسم في حقِّ الله تعالى؟

فقالت طائفةٌ من الصوفية: لا بأس بإطلاقه، وذكروا فيه أثراً لا يثبت، وفيه: (فإذا فعل ذلك عشقني وعشقته)[6].

وقال جمهور الناس: لا يُطلق ذلك في حقِّه ـ سبحانه وتعالى ـ ، فلا يُقال: إنه يعشق، ولا يقال: عشقه عبده. ثم اختلفوا في سبب المنع على ثلاثة أقوالٍ:

أحدها: عدم التوقيف، بخلاف المحبة.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٨ ـ ١٩.
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٢٠.
(٣) الداء والدواء ص٢٨٢.
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٠.
(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٧.
(٦) لم أقف عليه.

الثاني: أن العشق إفراط المحبة[1]، ولا يُمكن ذلك في حقِّ الربِّ تعالى، فإن الله تعالى لا يُوصف بالإفراط في الشيء، ولا يبلغ عبده ما يستحقُّه من حبِّه؛ فضلاً أن يُقال: أفرط في حبِّه.

الثالث: أنه مأخوذٌ من التغيُّر، كما يقال للشجرة المذكورة: عاشقةٌ[2]، ولا يُطلق ذلك على الله ـ سبحانه وتعالى ـ)[3].

المسألة الثانية:

صفة الكمال (الرّضى).

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير صفة رضى الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ ؛ مُبيِّناً أن هذا الوصف: سلامٌ مما يُضادُّه؛ فقال: (رضاه ـ سبحانه ـ سلامٌ أن يُنازعه الغضب)[4].

والسبب في أن رضى الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ سلامٌ من منازعة غضب الله تعالى له: أنه لا نهاية له في العظمة والوصف، كما أنه مستلزمٌ للمحبة والإحسان والجود والبرِّ والعفو والصفح والمغفرة، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (قوله: «ورضى نفسه»[5]:

---

(١) قال الأزهري في [تهذيب اللغة: ١/ ١٧٠]: (سئل أبو العباس أحمد بن يحيى: عن الحبِّ والعشق؛ أيهما أحمد؟ فقال: الحبُّ، لأن العشق فيه إفراطٌ).
وانظر: الصحاح للجوهري ٤/ ١٥٢٥، لسان العرب لابن منظور ١٠/ ٢٥١، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص١١٧٤ [مادة: عشق].

(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده ١/ ٧٨، لسان العرب لابن منظور ١٠/ ٢٥٢، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص١١٧٤ [مادة: عشق].

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٤٤.

(٤) أحكام أهل الذمة ١/ ١٩٤.

(٥) تقدم تخريجه، وأوله: «ما زلتِ على الحال التي فارقتكِ عليها».

فهو يتضمن أمرين عظيمين[1]:

أحدهما: أن يكون المراد تسبيحاً هو في العظمة والجلال مساوٍ لرضى نفسه؛ كما أنه في الأوَّل مُخبرٌ عن تسبيح مساوٍ لعدد خلقه، ولا ريب أن رضى نفس الربِّ لا نهاية له في العظمة والوصف، والتسبيح ثناءٌ عليه ــ سبحانه ــ يتضمن التعظيم والتنزيه، فإذا كانت أوصاف كماله ونعوت جلاله لا نهاية لها ولا غاية؛ بل هي أعظم من ذلك وأجلُّ: كان الثناء عليه بها كذلك، إذ هو تابعٌ لها ــ إخباراً وإنشاءً ــ ، وهذا المعنى ينتظم المعنى الأول؛ من غير عكس، وإذا كان إحسانه ــ سبحانه ــ وثوابه وبركته وخيره لا مُنتهى له؛ وهو من موجبات رضاه وثمرته: فكيف بصفة الرِّضى؟

وفي الأثر: (إذا باركت لم يكن لبركتي منتهى)[2]. فكيف بالصفة التي صدرت عنها البركة؟

والرِّضى يستلزم: المحبة والإحسان؛ والجود والبرَّ؛ والعفو والصفح والمغفرة، والخلق يستلزم: العلم والقدرة؛ والإرادة والحياة والحكمة، وكلُّ ذلك داخلٌ في رضى نفسه وصفة خلقه)[3].

والعبدُ لا ينال رضى الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ إلا على جسرٍ من الذِّلة والمسكنة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (من تدبَّر حكمته ــ سبحانه ــ

---

(١) نصَّ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على الأمر الأول؛ ولم ينصَّ على الأمر الثاني، ولعلَّ المراد به: قوله: (والرِّضى يستلزم المحبة...).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص٢٧ ــ ٢٨.

ولطفه وبِرِّه بعباده وأهل طاعته في كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار؛ كما يكسر العبدَ بالذنب ويُذِلُّه به ثم يجبره بتوبته عليه ومغفرته له، وكما يكسره بأنواع المصائب والمحن ثم يجبره بالعافية والنعمة: انفتح له بابٌ عظيمٌ من أبواب معرفته ومحبته، وعلم أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأن ذلك الكسر: هو نفس رحمته به وبِرِّه ولطفه، وهو أعلم بمصلحة عبده منه، ولكن العبد لضعف بصيرته ومعرفته بأسماء ربِّه وصفاته لا يكاد يشعر بذلك.

ولا يُنال رضى المحبوب وقربه والابتهاج والفرح بالدُّنوِّ منه والزلفى لديه: إلا على جسر من الذِّلة والمسكنة، وعلى هذا قام أمر المحبة، فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك)[1].

وهذا الرِّضى: هو أعظم نعيمٍ يُدركه العبد في الدار الآخرة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (الإيمان والطاعة في هذه الدار: أفضل ما فيها، ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله ــ جلَّ جلاله ــ وسماع كلامه والفوز برضاه: أفضل ما في الآخرة، فهذا أفضل ما في هذه الدار؛ وهذا أفضل ما في الدار الأخرى)[2].

بل إن رضى الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ أعظم من نعيم الجنة كلِّها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾[3].

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ١٥٦ ــ ١٥٧.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٢٨٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٧٢.

فيسيرٌ من رضوانه ــ ولا يُقال له: يسيرٌ ــ: أكبر من الجنات وما فيها[1])[2].

والسبب في أن (أيسر يسيرٍ من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها)[3]: أن رضى الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ أعظم من نعيم الجنة كلِّها، لأن الرِّضى: من صفات الله تعالى، والجنة: من جملة مخلوقاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن رضى الله عن العبد: أكبر من الجنة وما فيها، لأن الرِّضي: صفة الله؛ والجنة: خلقه[4]، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بعد قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[5].

وهذا الرضى جزاءٌ على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء: كان سببه أفضل الأعمال)[6].

---

(١) تكرَّر ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ لهذا المعنى؛ وأن رضوان الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ أكثر من الجنات ونعيمها وكلِّ ما فيها؛ في: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٨٣.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٩٨.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٨٣.

(٤) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى؛ وأن رضوان الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ: صفته؛ والجنة: ثوابه، وأن ذلك يُبطل قول من جعل هذه الصفة: ثواباً منفصلاً مخلوقاً، وقول من قال: هي إرادته الإحسان؛ في: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٣٤٨.

(٥) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٢٢٦.

وقد دلَّ على أن رضى الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ صفةٌ من صفاته: أن النبـي ﷺ استعاذ بها، وهو لا يستعيذ بمخلوقٍ، وإنما يستعيذ بالله ــ سبحانه وتعالى ــ؛ أو بصفةٍ من صفاته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن النبـي ﷺ استعاذ بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات»[١]. وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوقٍ أبداً، ونظير ذلك قوله: «أعوذ برضاك من سخطك؛ وبعفوك من عقوبتك»[٢]. فدلَّ على أن رضاه وعفوه من صفاته؛ وأنه غير مخلوقٍ.

وكذلك قوله: «أعوذ بعِزَّة الله وقدرته»[٣]، وقوله: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»[٤].

وما استعاذ به النبـي ﷺ غير مخلوقٍ، فإنه لا يستعيذ إلا بالله؛ أو صفةٍ من صفاته)[٥].

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «من نزل منزلاً ثم قال».

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب السلام/ باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء ــ الحديث رقم (٢٢٠٢) ــ ٤/١٧٢٨] من حديث عثمان بن أبـي العاص ــ رضي الله عنه ــ، بلفظ: «أعوذ بالله وقدرته».
وأخرجه بلفظه: أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٦٢٦٨) ــ ٢٦/ ١٩٦ ــ ١٩٧]، وأبو داود في سننه [كتاب الطب/ باب كيف الرقى ــ الحديث رقم (٣٨٩١) ــ ٤/ ٢١٧ ــ ٢١٨]، والترمذي في جامعه [أبواب الطب/ باب (٢٩) ــ الحديث رقم (٢٠٨٠) ــ ٣/ ٥٩٠ ــ ٥٩١]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة/ باب ذكر ما يقول الإنسان على ما يُؤلمه من جسده ــ الحديث رقم (١٠٧٧١) ــ ٩/ ٣٦٧ ــ ٣٦٨]، وابن ماجه في سننه [كتاب الطب/ باب ما عَوَّذ به النبي ﷺ وما عُوِّذ به ــ الحديث رقم (٣٥٢٢) ــ ٤/ ١٢٤].

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّـهُمَّ إليك أشكو ضعف قوتي».

(٥) بدائع الفوائد ٢/ ١٧٤.

المسألة الثالثة:

صفة الكمال (الفَرَح).

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير صفة فرح الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ مُبيِّناً أن الربَّ ــ تبارك وتعالى ــ (يفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرحٍ يخطر بالبال)[1]؛ أو يدور في الخيال، فهو أشدُّ فرحاً بتوبة التائب من فاقد (راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة)[2] إذا وجدها؛ بعد فقده لها ويأسه منها.

وهذه الفرح يُنبىء عن عناية الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بعبده؛ ومحبته له، فالعبد (إن أقبل إليه: تلقَّاه؛ وإنما إقبال العبد عليه من إقباله، وإن أعرض عنه: لم يكله إلى عدوه؛ ولم يدعه في إهماله، بل يكون أرحم به من الوالدة بولدها؛ الرفيقة به في حمله ورضاعه وفصاله، فإن تاب فهو أفرح بتوبته من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المُهلكة إذا وجدها؛ وقد تهيَّأ لموته وانقطاع أوصاله، وإن أصرَّ على الإعراض ولم يتعرض لأسباب الرحمة؛ بل أصرَّ على العصيان في إدباره وإقباله، وصالح عدوَّ الله وقاطع سيِّده فقد استحقَّ الهلاك؛ ولا يهلك على الله إلا الشقيُّ الهالك لعظيم رحمته وسعة إفضاله)[3].

وقد قرَّب النبي ﷺ صفة فرح الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بأعظم ما يكون من الفرح وأكمله، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ : (قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لله أشد فرحاً بتوبة

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٥١.

(٢) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص١٩، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٣٦، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٣٠.

(٣) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ١/ ٣ ــ ٤.

عبده من أحدكم أضل راحلته»[1].

قالوا: وهذا أعظم ما يكون من الفرح وأكمله، فإن صاحب هذه الراحلة كان عليها مادة حياته من الطعام والشراب؛ وهي مركبه الذي يقطع به مسافة سفره، فلو عدمه: لانقطع في طريقه، فكيف إذا عدم مع مركبه: طعامه وشرابه؟ ثم إنه عدمها في أرضٍ دويَّةٍ؛ لا أنيس بها ولا مُعين؛ ولا من يأوي له ويرحمه ويحمله، ثم إنها مهلكةٌ؛ لا ماء بها ولا طعام، فلما أيس من الحياة بفقدها؛ وجلس ينتظر الموت: إذا هو براحلته قد أشرفت عليه؛ ودنت منه، فأيُّ فرحةٍ تعدل فرحة هذا؟

ولو كان في الوجود فرح أعظم من هذا: لَمثَّل به النبيُّ ﷺ، ومع هذا ففرح الله بتوبة عبده إذ تاب إليه: أعظم من فرح هذا براحلته، وتحت هذا سرٌّ عظيمٌ يختصُّ الله بفهمه من يشاء.

فإن كنت ممن غلظ حجابه؛ وكثفت نفسه وطباعه: فعليك بوادي الخفا؛ وهو وادي المُحرِّفين للكلم عن مواضعه؛ الواضعين له على غير المراد منه، فهو وادٍ قد سلكه خلقٌ؛ وتفرَّقوا في شعابه وطرقه ومتاهاته؛ ولم تستقرَّ لهم فيه قدمٌ؛ ولا لجأوا منه إلى ركنٍ وثيقٍ، بل هم كحاطب الليل؛ وحاطم السيل.

وإن نجَّاك الله من هذا الوادي: فتأمَّل هذه الألفاظ النبوية المعصومة؛ التي مقصود المُتكلِّم بها غاية البيان؛ مع مصدرها عن كمال العلم بالله وكمال النصيحة للأمة، ومع هذه المقامات الثلاث؛ أعني: كمال بيان المُتكلِّم وفصاحته وحسن تعبيره عن المعاني؛ وكمال معرفته وعلمه بما يُعبِّر عنه؛ وكمال نصحه وإرادته لهداية الخلائق: يستحيل عليه أن يُخاطبهم بشيءٍ وهو

---

(١) تقدم تخريجه.

لا يُريد منهم ما يدلُّ عليه خطابه؛ بل يُريد منه أمراً بعيداً عن ذلك الخطاب؛ إنما يدلُّ عليه كدلالة الألغاز والأحاجي؛ مع قدرته على التعبير عن ذلك المعنى بأحسن عبارةٍ وأوجزها، فكيف يليق به أن يعدل عن مقتضى البيان الرافع للإشكال المُزيل للإجمال؛ ويُوقع الأمة في أودية التأويلات وشعاب الاحتمالات والتجويزات؟ ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[1].

وهل قدر الرسول حقَّ قدره؛ أو مرسله حقَّ قدره: من نسب كلامه ـ سبحانه ـ أو كلام رسوله إلى مثل ذلك؟ ففصاحة الرسول وبيانه وعلمه ومعرفته ونصحه وشفقته: يُحيل عليه أن يكون مراده من كلامه ما يحمله عليه المُحرِّفون للكلم عن مواضعه؛ المُتأوِّلون له غير تأويله، وأن يكون كلامه من جنس الألغاز والأحاجي، والحمد لله رب العالمين.

فإن قلت: فهل من مسلكٍ غير هذا الوادي الذي ذممته فتُسلك فيه؛ أو من طريقٍ يستقيم عليه السالك؟

قلت: نعم بحمد الله؛ الطريق واضحةُ المنار؛ بيِّنةُ الأعلام؛ مضيئةٌ للسالكين، وأوّلها: أن تحذف خصائص المخلوقين عن إضافتها إلى صفات ربِّ العالمين، فإن هذه العقدة هي أصلُ بلاء الناس، فمن حلَّها: فما بعدها أيسر منها، ومن هلك بها: فما بعدها أشدُّ منها، وهل نفى أحدٌ ما نفى من صفات الربِّ ونعوت جلاله إلا لسبق نظره الضعيف إليها؛ واحتجاجه بها عن أصل الصفة وتجرُّدها عن خصائص المُحدَث، فإن الصفة يلزمها لوازم باختلاف محلِّها، فيظنُّ القاصر إذا رأى ذلك اللازم في المحلِّ المُحدَث: أنه لازمٌ لتلك الصفة مطلقاً، فهو يفرُّ من إثباتها للخالق ـ سبحانه ـ حيث لم يتجرَّد في ظنه عن ذلك اللازم.

---

(١) سورة النور: الآية ١٦.

وهذا كما فعل من نفى عنه ــ سبحانه ــ الفرح والمحبة والرضى والغضب والكراهة والمقت والبغض؛ وردَّها كلَّها إلى الإرادة، فإنه فَهِمَ فرحاً مُستلزماً لخصائص المخلوق؛ من انبساط دم القلب وحصول ما ينفعه، وكذلك فهم غضباً هو غليان دم القلب طلباً للانتقام، وكذلك فهم محبة ورضى وكراهة ورحمة مقرونة بخصائص المخلوقين، فإن ذلك هو السابق إلى فهمه؛ وهو المشهود في علمه الذي لم تصل معرفته إلى سواه؛ ولم يحط علمه بغيره، ولما كان هو السابق إلى فهمه: لم يجد بُداً من نفيه عن الخالق، والصفة لم تتجرد في عقله عن هذا اللازم؛ فلم يُجد بُداً من نفيها)[1].

وفرح الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بتوبة عبده إليه؛ مع عِزِّه ــ سبحانه وتعالى ــ وغناه عنه؛ وذُلِّ عبده وفقره إليه: له سِرٌّ، وقد كشف ــ رحمه الله تعالى ــ الغطاء عنه بقوله: (ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالكٍ ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم؛ كان على راحلةٍ بأرضٍ فلاةٍ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه؛ فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلِّها؛ قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده؛ فأخذ بخطامها، ثم قال ــ من شِدَّة الفرح ــ : اللّٰهُمَّ أنت عبدي؛ وأنا ربُّك: أخطأ من شِدَّة الفرح» هذا لفظ مسلم[2])[3].

ثم ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ عظم شأن فرح الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ فقال: (والقصد: أن هذا الفرح له شأنٌ لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطَّلع عليه إلا من له معرفةٌ خاصةٌ بالله وأسمائه

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٢٤ ــ ٤٢٦.
(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده».
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣١.

وصفاته؛ وما يليق بعزِّ جلاله.

وقد كان الأولى بنا طيُّ الكلام فيه إلى ما هو اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم؛ ونهاية إقدامهم من المعرفة وضعف عقولهم عن احتماله، غير أنا نعلم أن الله ــ عزَّ وجلّ ــ سيسوق هذه البضاعة إلى تُجَّارها؛ ومن هو عارفٌ بقدرها ــ وإن وقعت في الطريق بِيَدِ من ليس عارفاً بها ــ ، «فرُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيهٍ، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقه منه»[1])[2].

ثم بسط ــ رحمه الله تعالى ــ الكلام على سرِّ فرح الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بتوبة عبده؛ فقال: (محبته للجود والإعطاء والإحسان والبرِّ والإنعام والإفضال: فوق ما يخطر ببال الخلق؛ أو يدور في أوهامهم، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله: أشدُّ من فرح الآخذ بما يُعطاه ويأخذه ــ أحوج ما هو إليه؛ وأعظم ما كان قدراً ــ ، فإذا اجتمع شِدَّة الحاجة وعظم قدر العطيَّة والنفع بها: فما الظن بفرح المُعطَى؟ ففرح المُعطِي ــ سبحانه ــ بعطائه أشدُّ وأعظم من فرح هذا بما يأخذه ــ ولله المثل الأعلى ــ ، إذ هذا شأن الجواد من الخلق؛ فإنه يحصل له من الفرح والسرور والابتهاج واللذَّة بعطائه وجوده فوق ما يحصل لمن يُعطيه، ولكنَّ الآخذ غائبٌ بلذَّة أخذه عن لذَّة المُعطي وابتهاجه وسروره، هذا مع كمال حاجته إلى ما يُعطيه وفقره إليه؛ وعدم وثوقه باستخلاف مثله؛ وخوف الحاجة إليه عند ذهابه؛ والتعرُّض لذُلِّ الاستعانة بنظيره ومن هو دونه؛ ونفسه قد طُبِعَتْ على الحرص والشحِّ، فما الظنُّ بمن تقدَّس وتنزَّه عن ذلك كلِّه؟

ولو أنَّ أهل سماواته وأرضه؛ وأوَّل خلقه وآخرهم؛ وإنسهم وجنهم؛ ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوه، فأعطى كلَّ واحدٍ ما سأله:

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «نضَّر الله أمرءاً سمع منا حديثاً».

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣١ ــ ٢٣٢.

ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرةٍ، وهو الجواد لذاته؛ كما أنه الحيُّ لذاته؛ العليم لذاته؛ السميع البصير لذاته، فجوده العالي من لوازم ذاته، والعفو أحبُّ إليه من الانتقام؛ والرحمة أحبُّ إليه من العقوبة؛ والفضل أحبُّ إليه من العدل؛ والعطاء أحبُّ إليه من المنع، فإذا تعرَّض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه؛ وأعدَّ له أنواع كرامته؛ وفضَّله على غيره؛ وجعله محلَّ معرفته، وأنزل إليه كتابه؛ وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يُهمله؛ ولم يتركه سدى، فتعرَّض لغضبه؛ وارتكب مساخطه وما يكرهه؛ وأبق منه، ووالى عدوَّه وظاهره عليه؛ وتحيَّز إليه، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه ــ التي هي أحبُّ شيءٍ إليه ــ ؛ وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوفٌ به من الجود والإحسان والبرِّ، وتعرَّض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه؛ وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه وانتقامه، وعقوبته في موضع كرمه وبرِّه وعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحبُّ إليه منه؛ وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان، فبينما هو حبيبه المُقرَّب المخصوص بالكرامة: إذ انقلب آبقاً شارداً؛ راداً لكرامته؛ مائلاً عنه إلى عدوِّه ــ مع شدَّة حاجته إليه؛ وعدم استغنائه عنه طرفة عينٍ ــ ، فبينما ذلك الحبيب مع العدوِّ في طاعته وخدمته ــ ناسياً لسيده؛ منهمكاً في موافقة عدوه؛ قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله ــ : إذ عرضت له فكرةٌ؛ فتذكَّر بِرَّ سيِّده وعطفه وجوده وكرمه؛ وعلم أنه لا بُدَّ له منه؛ وأن مصيره إليه وعرضه عليه؛ وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه: قُدِمَ به عليه على أسوأ الأحوال، ففرَّ إلى سيده من بلد عدوِّه؛ وجدَّ في الهرب إليه، حتى وصل إلى بابه؛ فوضع خده على عتبة بابه؛ وتوسَّد ثرى أعتابه، مُتذلِّلاً مُتضرِّعاً خاشعاً باكياً آسفاً، يتملَّق سيده ويسترحمه؛ ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقى بيده إليه؛ واستسلم له، وأعطاه قياده؛

وألقى إليه زمامه، فعلم سيِّده ما في قلبه؛ فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه؛ ومكان الشدَّة عليه رحمة به؛ وأبدله بالعقوبة عفواً؛ وبالمنع عطاء؛ وبالمؤاخذة حلماً، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيِّده ما هو أهله؛ وما هو مُوجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

فكيف يكون فرح سيده به؛ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً؛ وراجع ما يُحبُّه سيده منه برضاه؛ وفتح طريق البِرِّ والإحسان والجود ــ التي هي أحبُّ إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة ــ ؟

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه حصل له شرودٌ وإباقٌ من سيِّده، فرأى في بعض السِّكك باباً قد فُتِحَ وخرج منه صبيٌّ؛ يستغيث ويبكي؛ وأمُّه خلفه تطرده، حتى خرج فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبيُّ غير بعيد، ثم وقف مُفكِّراً؛ فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أُخرج منه؛ ولا من يُؤويه غيرُ والدته، فرجع مكسور القلب حزيناً، فوجد الباب مُرتجاً؛ فتوسَّده ووضع خدَّه على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه؛ فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه؛ والتزمته تُقبِّله وتبكي؛ وتقول: يا ولدي أين تذهب عني؛ ومن يُؤويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تُخالفني؛ ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلتُ عليه من الرحمة بك؛ والشفقةِ عليك؛ وإرادتي الخير لك، ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم: لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة والشفقة، وتأمَّل قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»[1]، وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كلَّ شيءٍ؟ فإذا

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «أترون هذه طارحة ولدها في النار».

أغضبه العبدُ بمعصيته: فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه: فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نبذةٌ يسيرةٌ تُطلعك على سرِّ فرح الله بتوبة عبده؛ أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة بعد اليأس منها، ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة؛ وتدقُّ عن إدراكه الأذهان.

وإياكَ وطريقة التعطيل والتمثيل؛ فإنَّ كلاًّ منهما منزلٌ ذميمٌ؛ ومرتعٌ على علاته وخيمٌ، ولا يحلُّ لأحدهما أن يجد روائح هذا الأمر ونَفَسِه، لأن زُكام التعطيل والتمثيل مُفسدٌ لحاسَّة الشمِّ؛ كما هو مُفسدٌ لحاسَّة الذَوْقِ، فلا يذوق طعم الإيمان؛ ولا يجد ريحه، والمحروم كلَّ المحروم من عُرِضَ عليه الغنى والخير فلم يقبله، فلا مانع لما أعطى الله؛ ولا مُعطي لما منع، و ﴿ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[(١)](٢).

وهذا يدلُّ على أن الموجب لفرح الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بتوبة عبده: هو إحسان الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ وبرُّه ولطفه بعبده، لا حاجته إلى توبته؛ وانتفاعه بها، كما قرَّر ذلك ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجلٍ أضلَّ راحلته بأرضٍ مُهلكةٍ دويَّةٍ؛ عليها طعامه وشرابه، فطلبها حتى إذا أيس من حصولها: نام في أصل شجرة ينتظر الموت، فاستيقظ فإذا هي على رأسه؛ قد تعلَّق خطامها بالشجرة، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته»(٣).

وهذه فرحةُ إحسانٍ وبرٍّ ولطفٍ؛ لا فرحة محتاجٍ إلى توبة عبده مُنتفعٍ بها، وكذلك موالاته لعبده إحساناً إليه؛ ومحبة له وبراً به، لا يتكثَّر به من

(١) سورة الحديد: الآية ٢٩.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٦.

(٣) تقدم تخريجه.

قِلَّـة؛ ولا يتعـزَّز بـه مـن ذِلَّـة؛ ولا ينتصـر بـه مـن غلبـةٍ؛ ولا يَعُـدُّه لنـائبـةٍ؛ ولا يستعين به في أمرٍ)[1].

فهذا ما يتعلَّق بفرحِ الله ــ سبحانه وتعالى ــ بتوبة العبد وأَوْبَتِه، (فيا فوزك ويا سعادتك إن اطَّلع ــ سبحانه ــ على ذلك من قلبك، ماذا يُفيض عليك من ملابس نعمه؛ وخلع إفضاله)[2].

ولما كان فرح الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بهذه الصفة: كان وصفه به وصف كمالٍ، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (الفرح: صفةُ كمالٍ، ولهذا يُوصف الربُّ تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة؛ بعد فقده لها واليأس من حصولها)[3].

ولما كان معنى الفرح أكمل من معنى السرور: جاء وصف الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بصفة الفرح دون صفة السرور، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (إن الربَّ ــ تبارك وتعالى ــ يُوصف به؛ ويطلق عليه اسمه دون السرور، فدلَّ على أن معناه أكملُ من معنى السرور)[4].

وفرح الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ بتوبة عبده: موجبٌ لتكفير ذنوبه ومحبته، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (يفرح ــ سبحانه ــ بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرحٍ وأكمله، ويُكفِّر عنه ذنوبه، ويُوجب له محبته بالتوبة، وهو الذي ألهمه إيَّاها؛ ووفَّقه لها؛ وأعانه عليها)[5].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢١٦.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٥ ــ ٥٦.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٦٦.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ١٦٨.

(٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٧٢.

ولمحبة الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ لتوبة عباده؛ وفرحه بها: خلقهم على صفاتٍ وهيئاتٍ وأحوالٍ تقتضي توبتهم إليه واستغفارهم وطلبهم عفوه ومغفرته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (ـ سبحانه ـ لمحبته للعفو والتوبة: خلق خلقه على صفاتٍ وهيئاتٍ وأحوالٍ تقتضي توبتهم إليه واستغفارهم وطلبهم عفوه ومغفرته، وقد روى مسلمٌ في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»[1].

والله تعالى يُحِبُّ التوَّابين، والتوبة من أحبِّ الطاعات إليه، ويكفي في محبَّتها: شدَّة فرحه بها، كما في صحيح مسلمٍ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ـ عزَّ وجلّ ـ: أنا عند ظَن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، والله؛ لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في الفلاة»[2].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجلٍ في أرضٍ دويَّةٍ مُهلكةٍ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أَرْجِعُ إلى المكان الذي كنتُ فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ و عنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشدُّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»[3].

وفي صحيح مسلمٍ عن النعمان بن بشير يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من رجلٍ حمل زاده ومزاده على بعيرٍ، ثم سار حتى كان بفلاةٍ فأدركته القائلة، فنزل فقال تحت شجرةٍ؛ فغلبته عينه وانسل بعيره،

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «والذي نفسي بيده».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

فاستيقظ فسعى شرفاً فلم ير شيئاً، ثم سعى شرفاً ثانياً؛ ثم سعى شرفاً ثالثاً فلم ير شيئاً، فأقبل حتى أتى إلى مكانه الذي قال فيه، فبينما هو قاعدٌ فيه: إذ جاء بعيرُه يمشي؛ حتى وضع خطامه في يده، فالله أشدُّ فرحاً بتوبة العبد من هذا حين وجد بعيره»[1].

فتأمل محبته ــ سبحانه ــ لهذه الطاعة ــ التي هي أصل الطاعات وأساسها ــ ، فإن من زعم أن أحداً من الناس يستغني عنها؛ ولا حاجة به إليها: فقد جهل حقَّ الربوبية ومرتبة العبودية، وينتقص بمن أغناه بزعمه عن التوبة من حيث زعم أنه مُعظِّمٌ له؛ إذ عطَّله عن هذه الطاعة العظيمة ــ التي هي من أجلِّ الطاعات ــ ؛ والقربة الشريفة ــ التي هي من أجلِّ القربات ــ ، وقال: لستَ من أهل هذه الطاعة؛ ولا حاجة بكَ إليها، فلا قَدَرَ الله حقَّ قدره؛ ولا قَدَرَ العبد حقَّ قدره، وقد جعل بعض عباده غنياً عن مغفرة الله وعفوه وتوبته إليه، وزعم أنه لا يحتاج إلى ربِّه في ذلك.

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاةٍ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه؛ فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلِّها؛ وقد يئس من راحلته، فبينا هو كذلك: إذ هو بها قائمة عنده، ثم قال من شدة الفرح: اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدَّة الفرح»[2].

وأكمل الخلق: أكملهم توبة؛ وأكثرهم استغفاراً، وفي صحيح البخاريِّ عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرةٍ»[1])[2].

وإذا كان فرح الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بفعل مأمور التوبة لا فرح يُشبهه: دلَّ على أن هذا المأمور أحبُّ إليه من فوات المحظور؛ الذى تفوت به التوبة وأثرها ومقتضاها، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (إنه ـ سبحانه ـ قَدَّر ما يُبغضه ويكرهه من المنهيات لما يترتَّب عليها مما يُحبُّه ويفرح به من المأمورات، فإنه ـ سبحانه ـ أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد؛ والعقيم الوالد؛ والظمآن الوارد.

وقد ضرب رسول الله ﷺ لفرحه بتوبة العبد: مثلاً ليس في المفروح به أبلغ منه، وهذا الفرح إنما كان بفعل المأمور به وهو التوبة، فقدَّر الذنب لما يترتَّب عليه من هذا الفرح العظيم؛ الذى وجوده أحبُّ إليه من فواته، ووجوده بدون لازمه ممتنعٌ.

فدلَّ على أن وجود ما يُحبُّ أحبُّ إليه من فوات ما يكره، وليس المراد بذلك أن كلَّ فردٍ من أفراد ما يُحبُّ أحبُّ إليه من فوات كلِّ فردٍ مما يكره؛ حتى تكون ركعتا الضحى أحبَّ إليه من فوات قتل المسلم، وإنما المراد أن جنس فعل المأمورات أفضلُ من جنس ترك المحظورات، كما إذا فضَّل الذكر على الأنثى؛ والإنسيَّ على الملك؛ فالمراد الجنس لا عموم الأعيان.

والمقصود: أن هذا الفرح ـ الذى لا فرح يُشبهه ـ بفعل مأمور التوبة يدلُّ على أن هذا المأمور أحبُّ إليه من فوات المحظور؛ الذى تفوت به التوبة وأثرها ومقتضاها)[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٥١ ـ ٣٥٣.

(٣) الفوائد ص١٤١ ـ ١٤٢.

وها هنا لطيفةٌ يحسن التنبيه عليها؛ وهي: أن الربَّ ـ تبارك وتعالى ـ (إذا كان يفرح بتوبة التائب أعظم فرحٍ يُقدَّر: فكيف فرحه ـ سبحانه ـ بالثناء عليه وحمده ومدحه وتمجيده؟)[1]، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (قد عُلِمَ بالاضطرار ـ عقلاً وفطرة وشرعاً ـ: أن المستحقَّ لغاية المدح الكامل المطلق: هو الربُّ ـ سبحانه ـ، فهذا أحقُّ الحقِّ، ولازمه حقٌّ، فإنه لا يلزم من الحقِّ إلا حقٌّ، فإن كان الفرحُ لازماً لهذا المدح: فهو حقٌّ، وقد أثبته له ـ سبحانه ـ: أعلمُ خلقه وأعرفُهم به وبصفاته؛ وما يجب له ويمتنع عليه، وقَرَّب فرحه ـ سبحانه ـ إلى الأذهان بما هو من أعظم أنواع الفرح؛ وهو: فرحه بتوبة التائب إليه، فكيف بما هو أعظم من ذلك من حمد الحامدين له ومدحهم له وثنائهم عليه؟

فإذا كان المدح مُستلزماً للفرح؛ وقد عُلِمَ أنه يستحقُّ المدح: أُجمع على أنه يفرح بمدحه، وإثبات الملزوم ونفي لازمه مُحالٌ)[2].

فهذا يدلُّ على أن فرح الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعبده الذاكر؛ الذي يلهج لسانه بحمد الله تعالى ومدحه والثناء عليه: أعظم من فرحه بعبده الحائر؛ إذا تاب إليه؛ وأقبل عليه.

وعلى هذا؛ فمن أنكر صفة فرح الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ: فقد أنكر حقيقة حمده ومدحه والثناء عليه وتمجيده، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (المقصود أنه إذا كان لا معنى للمدح إلا الإخبار المتضمن فرح الممدوح؛ وليس أحدٌ أحبَّ إليه المدح من الله وحمده والثناء عليه ـ وذلك عنده بالمنزلة التي لا يُمكن وصفها، ولا يحيط بها البشر ـ:

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٩٥.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٥٠٢.

كان المُنْكِرُ لفرحه وما يستلزمه فرحه مُنكراً لحقيقة حمده ومدحه والثناء عليه وتمجيده)[1].

المسألة الرابعة:

صفة الكمال (الضَّحِك).

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير صفة ضحك الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ مُبيِّناً أن النبيَّ ﷺ كان يُجيب من سأله من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ عن هذه الصفة بالإقرار؛ لا بالمجاز والتأويل الباطل؛ فقال: (إنهم يسألونه عما يُشكل عليهم من الصفات، فيُجيبهم بتقريرها؛ لا بالمجاز والتأويل الباطل، كما سأله أبو رزينٍ العقيليُّ عن صفة الضحك؛ لما قال: «ينظر إليكم أزلين مُشفقين؛ فيظلُّ يضحك، يعلم أن فرجكم قريب». فتعجَّب أبو رزينٍ من ضحك الربِّ تعالى؛ وقال: «يا رسول الله؛ أو يضحك الربُّ؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: لن نعدم من ربٍّ يضحك خيراً»[2].

والجهميُّ لو سُئِلَ عن ذلك؛ لقال: لا يجوز عليه الضحك)[3].

وصفة الضحك: من صفات الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ الفعليَّة؛ كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (قوله: «فيظلُّ يضحك»[4]: هو من صفات أفعاله ــ سبحانه وتعالى ــ التي لا يُشبهه فيها شيءٌ من مخلوقاته؛ كصفات ذاته.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٨٧.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «أيها الناس؛ ألا إني قد خبأت لكم صوتي».

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٥١٥.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «ضحك ربنا من قنوط عباده».

وقد وردت هذه الصفة في أحاديث كثيرةٍ[1]؛ لا سبيل إلى ردِّها، كما لا سبيل إلى تشبيهها وتحريفها)[2].

وقد أشار الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى معنى بعض هذه الأحاديث الكثيرة التي تضمنت إثبات صفة ضحك الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ من عباده؛ فرحاً ورضاً بما يأتونه من عبوديته[3]؛ فقال: (ضحكه ـ سبحانه ـ من عبده حين يأتي من عبوديته بأعظم ما يُحبُّه، فيضحك ـ سبحانه ـ فرحاً ورضاً، كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته؛ يتلو آياته ويتملَّقه.

---

(١) وأصحُّ ما في الباب: ما أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الجهاد والسير/ باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم فيُسدَّد بعد ويُقتل ـ الحديث رقم (٢٨٢٦) ـ ٢/ ٨٧٥]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإمارة/ باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة ـ الحديث رقم (١٨٩٠) ـ ٣/ ١٥٠٤] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «يضحك الله إلى رجلين: يقتل أحدهما الآخر؛ يدخلان الجنة، يُقاتل هذا في سبيل الله؛ فيُقتل، ثم يتوب الله على القاتل؛ فيستشهد».

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٦٧٩.

(٣) كما أشار الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى معنى هذه الأحاديث نثراً: فقد أشار إليها نظماً؛ فقال في [الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: الأبيات رقم (٤٣٦ ـ ٤٣٩) ـ ص٥٩] ـ على لسان المُعطِّل في مخاطبته للمُثبت ـ:

(وزَعَمْتَ أن الله يضحك عندما ... يتقابل الصَّفَّان يقتتلانِ
مِنْ عبده يأتي فيُبْدِي نَحْرَهُ ... لعَدُوِّه طَلَباً لنَيْلِ جِنَانِ
وكذاكَ يَضْحَكُ عندما يَثِبُ الفتَى ... مِنْ فُرْشِه لتلاوة القرآنِ
وكذلك يَضْحَكُ من قُنُوطِ عِبَادهِ ... إذ أَجْدَبُوا والغَيث منهم دانِ).

ويضحك من رجلٍ هرب أصحابه عن العدوِّ؛ فأقبل إليه وباع نفسه لله؛ ولقَّاهم نحره؛ حتى قُتِلَ في محبته ورضاه[1].

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائلٍ اعترضهم فلم يُعطوه؛ فتخلَّف بأعقابهم وأعطاه سراً حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاه، فهذا الضحك منه حبًّا له؛ وفرحاً به[2].

---

(1) دليله: ما أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٣٩٤٩) ــ ٧/ ٦١ ــ ٦٢]، وأبو يعلى في مسنده [الحديث رقم (٥٢٥٠) ــ ٥/ ١٢٤]، والطبراني في معجمه الكبير [الحديث رقم (١٠٣٨٣) ــ ١٠/ ١٧٩] من حديث عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال: «عجب ربُّنا ــ عزَّ وجلّ ــ من رجلين: رجل ثار من وطائه ولحافه؛ من بين أهله وحبّه إلى صلاته، فيقول ربُّنا: أيا ملائكتي؛ انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطائه؛ ومن بين حبّه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي؛ وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله ــ عزَّ وجلّ ــ فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار؛ وما له في الرجوع، فرجع حتى أُهريق دمه، رغبة فيما عندي؛ وشفقة مما عندي، فيقول الله ــ عزَّ وجلّ ــ لملائكته؛ انظروا إلى عبدي؛ رجع رغبة فيما عندي؛ ورهبة مما عندي، حتى أُهريق دمه»، واللفظ لأحمد، ولم أقف على دليله مرفوعاً بلفظ: (ضحك).

قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٢/ ٢٥٥]: (رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير، وإسناده حسنٌ. وله عند الطبراني في الكبير نحوه موقوفاً، إلا أنه قال: (ورجل لا يعلم به أحدٌ؛ فأسبغ الوضوء وصلى على محمد ﷺ وحمد الله واستفتح القراءة، فيضحك الله منه، يقول: انظروا إلى عبدي لا يراه أحدٌ غيري) وفيه أبو عبيدة؛ ولم يسمع من أبيه).

(2) دليله: ما أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢١٣٥٥) ــ ٣٥/ ٢٨٥]، والترمذي في جامعه [أبواب صفة الجنة/ باب (٢٥) ــ الحديث رقم (٢٥٦٨) ــ ٤/ ٣٢٥]، والنسائي في سننه الكبرى [كتاب الصلاة/ باب فضل صلاة الليل في السفر ــ الحديث رقم (١٣١٦) ــ ٢/ ١٢١]، وفي المجتبى [كتاب قيام الليل =

وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة؛ فيضحك إليه فرحاً به وبقدومه عليه[1])[2].

فعُلِمَ من معنى هذه الأحاديث الشريفة: أن صفة ضَّحِك الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ لها ارتباطٌ وثيقٌ بما تقدَّمها من صفات: المحبة والرِّضى والفرح، فضحكه ــ سبحانه وتعالى ــ إنما يكون عن محبةٍ ورضى وفرحٍ.



= وتطوع النهار/ باب فضل صلاة الليل في السفر ــ الحديث رقم (١٦١٤) ــ ٣/ ٢٢٩] من حديث أبي ذرٍّ ــ رضي الله عنه ــ عن النبيِّ ﷺ: «ثلاثة يُحبُّهم الله؛ وثلاثةٌ يُبغضهم الله، أما الثلاثة الذين يُحبُّهم الله: فرجلٌ أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابةٍ بينهم؛ فمنعوه، فتخلَّف رجلٌ بأعقابهم فأعطاه سراً؛ لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه. وقومٌ ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحبَّ إليهم مما يُعدل به: نزلوا فوضعوا رؤوسهم، فقام يتملَّقُني ويتلو آياتي. ورجلٌ كان في سريَّة فلقوا العدوَّ فهُزموا، فأقبل بصدره حتى يُقتل أو يفتح الله له» الحديث، واللفظ لأحمد، ولم أقف على دليله بلفظ: (يضحك).

وضعفه الألباني في [ضعيف سنن الترمذي: ص٢٨٢ ــ ٢٨٣].

(١) دليله: ما أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٢٢٤٧٦) ــ ٣٧/ ١٤٤]، وأبو يعلى في مسنده [الحديث رقم (٦٨٢٠) ــ ٦/ ٢١٩ ــ ٢٢٠] من حديث نعيم بن همَّار أن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ: «أيُّ الشهداء أفضل؟ قال: الذين إن يُلْقَوا في الصفِّ لا يلفتون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك يتلبَّطون في الغرف العلى من الجنة، ويضحك إليهم ربُّك، وإذا ضحك ربُّك إلى عبدٍ في الدنيا: فلا حساب عليه».

قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٥/ ٢٩٢]: (رجال أحمد وأبي يعلى: ثقاتٌ).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٨ ــ ٢٣٩.

المطلب التاسع :

جهوده في تقرير صفات الله تعالى: الغضب؛ الغيرة؛ العتب؛ الكيد والمكر والخداع

لمَّا كانت الصِّفات المتقدِّمة؛ مِن المحبَّة والرِّضى والفَرَح والضَّحِك: صفات يحصل عنها الأُنس؛ ناسب أن يعقبها في الذكر: ما يُقابلها من هذه الصفات الفعلية القائمة بالله ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ المضافة إليه إضافة الصفة إلى موصوفها، والدالَّة على معاني القهر والانتقام والعدل.

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه الصفات؛ مُبيِّناً أن ما تقدَّمها من الصفات: أحبُّ إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ منها ــ كما سيأتي بسط ذلك بمشيئة الله تعالى في مبحث تفاضل صفات الله العلى ــ ، إلا أن هذه الصفات إنما تقع بأسباب تُناقض موجب ما يُحبه الله تعالى ويرضاه، فهو ــ سبحانه ــ كما يُحِبُّ أسماءه وصفاته ويُحِبُّ آثارها وموجبها: فهو يكره ما يضادُّها.

ووجود هذه الصفات مُستلزمٌ لما يحبُّه الله تعالى ويرضاه، لذا لم تبق هذه الصفات مقصودة بعد ما يحصل عنها من الآثار والموجبات التي يُحبُّها الله ــ سبحانه وتعالى ــ ويرضاها؛ لا لنفسها ولا لغيرها، فتزول ويخلفها أضدادها؛ التي هي أحبُّ إلى الله تعالى منها، وهي موجب أسمائه وصفاته.

وقد دلَّ النقل والعقل معاً على أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ متصفٌ بهذه الصفات، أما النقل: فالقرآن والسنة مملوءان من وصف الله تعالى نفسه؛ ووصف رسوله ﷺ له بهذه الصفات؛ بما لا يُمكن المكابرة فيه ولا دفعه، لأن هذه الصفات: من أعظم صفات الكمال، لأنه قد استقرَّ في العقل: أن ذات الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ أكمل من كلِّ ذاتٍ على الإطلاق، بل ليس الكمال المطلق التامُّ من كلِّ وجهٍ إلا لها، فيستحيل وصف هذه الذات المقدسة بما يُضادُّ كمالها.

ومعلومٌ قطعاً أنَّ الذَّات التي تتصف بهذه الصفات: أكمل من الذَّات الموصوفة بصفات العدم والموات والجهل؛ الفاقدة للحسِّ، لأن هذه الصفات من صفات الكمال المحمودة عقلاً وشرعاً وعرفاً وفطرة، وأضدادها مذمومةٌ عقلاً وشرعاً وعرفاً وفطرة، فإن الذي لا تقوم فيه صفات القهر والانتقام والعدل؛ بل تستوي عنده الأضداد من الإيمان والكفران؛ والأبرار والفجَّار؛ والفضيلة والرذيلة؛ والمدح والقدح: مذمومٌ غاية الذمِّ.

وهذه الصفات لها أعظم الأثر على أولياء الله المتقين، لأنهم إذا شاهدوا أحوال أعداء الله ورسله من العصاة والظلمة؛ وما نزل بهم من البطش والانتقام والعقوبة والإهانة والإبعاد والخذلان: ازدادوا خضوعاً وذلاً وافتقاراً وانكساراً، وله عبادة وبه استعانة، وإليه إنابة وعليه توكلاً، وفيه رغبة ومنه رهبة، وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يُعيذهم من بأسه إلا هو، ولا يُنجِّيهم من سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولاً وآخراً.

فالعبد إذا علم أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ متصفٌ بهذه الصفات: تفكَّر في أوصافه المخالفة لأمره؛ فاستحيى من ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ أن يراه أو يسمع منه ما لا يُحبُّه ولا يرضاه من قبيح أفعاله وأقواله وأعماله الدالَّة

على هوانه ونقصانه، وكان في ذلك أعظم التهديد وأبلغه؛ ليتجنب ويبتعد عن هذه الأوصاف المُستلزمة للعقوبة.

ومن باشر قلبَه الإيمانُ بهذه الصفات: امتنع أن لا يعمل بموجب هذا العلم، ومن قوي سراج الإيمان في قلبه؛ وأضاءت جهاته كلُّها به؛ وأشرق نوره في أرجائه: سرى ذلك النور إلى الأعضاء؛ وانبعث إليها، فأوجب له ذلك: محبته لربِّه ـ تبارك وتعالى ـ وإقباله عليه وقربه منه وإيثاره على غيره، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع؛ غير مهملةٍ ولا مرسلةٍ تحت حكم الطبيعة والهوى، فتُسرع لداعي الإيمان؛ وتنقاد له طائعة مُذلَّلة غير متثاقلةٍ ولا كارهةٍ؛ بل تفرح بدعوته حين يدعوها، فهي في كلِّ وقتٍ تترقَّب داعيه وتتأهَّب لموافاته، فيفعل العبد حينئذٍ الطاعة لأن ربَّه أمر بها وأحبَّها، ويترك المناهي لكونه نهى عنها وأبغضها.

وهذا الطريق لا يصل إليه إلا خاصة الخاصة، والله ـ سبحانه ـ يُفضِّل بعض خلقه على بعضٍ؛ ويرفع درجات من يشاء، وهو العليم الحكيم.

وإن من حقِّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عبده: أن يرضى به رباً؛ لأن هذا هو حقيقة العبادة؛ وعنوان صدق الإرادة، فيتحرك العبد لمعرفة رضى الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ وسخطه، فيرضى بما يرضى به ربُّه منه ويُحبُّه؛ فيبذل الجهد في فعله، ويسخط ما سخطه ربُّه منه ـ لمنافاته لما يُحبُّه ويرضاه ـ؛ فيبذل الجهد في تركه، وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة؛ لا للأمَّارة ولا للوَّامة، لأنه ليس المراد بالرِّضى بالله رباً: مُجرَّد إطلاق هذا اللفظ؛ وحاله وإرادته: تُكذِّبه وتُخالفه، فكيف يرضى به رباً من يسخط ما يقضيه له إذا لم يكن مُوافقاً لإرادته وهواه؛ فيظلُّ ساخطاً به مُتبرماً؟ يرضى وربُّه غضبان؛ ويغضب وربُّه راضٍ، فهذا إنما رضي بحظِّه من ربِّه حظَّ من لم يرض بالله ربًّا!

والربُّ ــ تبارك وتعالى ــ وإن كانت تُغضبه معصية عبده؛ ويُؤذيه ارتكابها ولا يُنقصه: إلا أنه لو شاء لعصمه منها؛ ولحال بينه وبينها، لأنه ــ سبحانه ــ لا يُعصى قسراً؛ ولا يكون في العالم شيءٌ إلا بمشيئته، وإنما قدَّر الله ــ سبحانه وتعالى ــ ما يُبغضه ويكرهه لما يترتَّب عليه من الخير الذي يُحبُّه ويفرح به، وفي ذلك حكمةٌ باهرةٌ تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها؛ وتكلُّ الألسن عن التعبير عنها، فالله تعالى لحمده العظيم؛ ولبرِّه العميم: خلَّى بين العبد وبين معصيته؛ فنالها بنعمه وإعانته؛ ثم لم يُخلِّ بينه وبين ما تُوجبه من الهلاك والفساد الذي لا يُرجى معه فلاحٌ، بل تداركه بالدواء الشافي؛ فاستخرج منه داء لو استمرَّ معه: لأفضى به إلى الهلاك، ثم تداركه بروح الرَّجاء فقذفها في قلبه؛ وأخبر أنه عند ظنِّه به.

ولو أشهده عظم الجناية وقبح المعصية وغضبه عليه حين عصاه: لأورثه ذلك المرض القتَّال والداء العضال من اليأس من روحه؛ والقنوط من رحمته، وكان ذلك عين هلاكه، ولكن رحمه قبل البلاء، وجعل تلك الآثار التي تُوجبها المعصية من المحن والبلاء والشدائد رحمة له؛ وسبباً إلى عُلُوِّ درجته ونيل الزُّلفى والكرامة عنده، فأشهده بالجناية عِزَّة الربوبية وذُلَّ العبودية، ورقَّاه بآثارها إلى منازل قربه ونيل كرامته، فهو على كلِّ حالٍ يربح عليه، ويتقلَّب في كرمه وإحسانه، وكلُّ قضاء يقضيه للمؤمن فهو خيرٌ به يسوقه إلى كرامته وثوابه.

فالله تعالى مع اتصافه بهذه الصفات القهرية: إلا أنه لا يخرج عن عدله، فهو يجازي عدوَّه بما يفعله من الخير والمعروف فى الدنيا، ويُخفِّف به عنه يوم القيامة، فالله تعالى لا يُضيع على العبد ما يعمله من الإحسان، ولو كان عند ربِّه من أبغض بني الإنسان؛ بل شرٌّ وأضلُّ سبيلاً من الحيوان.

والله تعالى يُنزل العبد من نفسه حيث يُنزله العبد من نفسه، فمن قام

بقلبه شاهدٌ من وصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ بهذه الصفات: كان بالله أعرف؛ وله أطلب؛ وإليه أقرب، فيكرمه ربُّه ــ تبارك وتعالى ــ ويُعطيه من صفات الكمال التي يُحبُّها ما يشاء، ومن عَمِيَ عن مشاهدتها: كان بالله أجهل؛ وله أكره؛ ومنه أبعد، فيُهينه ربُّه ــ تبارك وتعالى ــ ويُمسك عنه صفات الكمال التي يُحبُّها؛ ويجعله على أضدادها من الصفات، فهذا عدله وذاك فضله، والله ذو الفضل العظيم.

لذا نجد أن الجهمية لما اشتدَّ نفيرهم وتنفيرهم عن هذه الصفات والنعوت؛ بل عاقبوا وذمُّوا من يذكرها ويقرؤها ويجمعها ويعتني بها: كان بغضهم ومقتهم وكرههم في قلب كلِّ واحدٍ من الأمة؛ وعلى لسان كلِّ إمامٍ من الأئمة، والله تعالى أشدُّ بغضاً ومقتاً وكرهاً لهم بسبب ما اتصفوا به من الجهل والكره والبعد؛ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[1].

فالجهمية شهدت لله تعالى بضدِّ ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من هذه الصفات القهرية، وردُّوا كلَّ هذه الصفات إلى الإرادة، لأنهم فهموا من هذه الصفات ما هو مقرونٌ بخصائص المخلوقين، فإن ذلك هو السابق إلى فهمهم السقيم؛ وهو المشهود في علمهم المنحرف عن الصراط المستقيم، لذا لم يجدوا بُداً من نفي هذه الصفات عن الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ ، لأن الصفة لم تتجرَّد في عقلهم عن هذا اللازم.

وهذه الشهادة من أعداء الله ورسله: معلومٌ بطلانها بالضرورة والعقل والفطرة الإنسانية واتفاق أهل الأديان كلِّهم وإطباق الرسل، لأن الحقَّ لو كان فيما قالوه: لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به الله تعالى وشهدت به رسله ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ من هذه الصفات، ولم يجز أن يُستفاد من نصوص الديانات الحقُّ واليقين.

---

(١) سورة النبأ: الآية ٢٦.

وما مضى من التوطئة والتمهيد لمسائل هذا المطلب المفيد: مضمنٌ في مجمل كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ المودع في مثاني كتبه[1].

(١) تمهيدٌ مُضمَّنٌ كلام الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه الصفات العلى من: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٢٩٤، بدائع الفوائد ٢/ ٤١، التبيان في أقسام القرآن ص٩٥، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٤، الداء والدواء ص٣١٦، رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٣٩، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ٣٢٣؛ ٣٣١؛ ٣٤٨؛ ٣٨٣ ــ ٣٨٤؛ ٢/ ٥٩٧؛ ٧١٩ ــ ٧٢٠، الصلاة وحكم تاركها ص١٧٣، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٢٠؛ ٢٩٣؛ ٢/ ٤٣٠؛ ٦٥٤؛ ٧٦٣؛ ٣/ ٨٣٢؛ ٨٣٣؛ ٨٧٢؛ ٨٩٨؛ ٩١٦؛ ٩٣٢؛ ٩٤٠؛ ٩٨٦؛ ١٠١٠؛ ١١٥١؛ ٤/ ١٢٢٤؛ ١٤٣٦؛ ١٤٤٥؛ ١٤٤٦؛ ١٤٤٧؛ ١٤٤٩ ــ ١٤٥١؛ ١٤٦٤؛ ١٤٩٥؛ ١٤٩٧، ومختصره ٢/ ٢٩١ ــ ٢٩٢؛ ٣٤٨؛ ٤٠٠؛ ٤٢٢، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٢٨؛ ٢٥٣ ــ ٢٥٦؛ ٢٥٧؛ ٣٩٣؛ ٤٢٦؛ ٤٩٥، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٩٩؛ ٤٢٧، الفوائد ص٢٩؛ ٨١ ــ ٨٢؛ ١٤٠؛ ١٤١؛ ١٤٥؛ ١٨٦؛ ٢٢٥، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص١٧؛ [الأبيات رقم (٤١٥؛ ٤٤٠؛ ٥٤٥)]، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧٦؛ ٢٣٤؛ ٤٣٨ ــ ٤٣٩؛ ٤٤٢؛ ٢/ ٩٠؛ ٢٠٩؛ ٣/ ٣٥؛ ١٦٠؛ ٢٦٣ ــ ٢٦٤؛ ٣٦٤؛ ٣٦٧؛ ٣٧١؛ ٣٩٦؛ ٤٨٢ ــ ٤٨٣؛ ٤٨٨، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١/ ٢٩٢؛ ٥٤٩؛ ٢/ ٥؛ ٤١٢ ــ ٤١٣، الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٤٦.
وهذه الكلمات المُشار إليها في المواطن الآنفة الذكر: تتضمن الإشارة إلى صفات القهر والانتقام والعدل؛ من الغضب والغيرة والعتب والبغض والمقت والسَّخط والكره والأسف والكيد والمكر والخداع والاستهزاء بصفة مجملة، وأما كلماته في صفات الغضب والغيرة والعتب والكيد والمكر والخداع ــ المودعة في مسائل هذا المطلب ــ : فقد جاءت الإشارة إليها بصفة مُفصَّلة، لذا اقتضى =

وأما تفصيل كلامه ـ رحمه الله تعالى ـ : فهو مودعٌ في مسائل هذا المطلب الآتية الذكر، وهي:

المسألة الأولى:

صفة الكمال (الغضب).

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقرير صفة الغضب؛ مُبيِّناً نفي مشابهة غضب الخالق العدل العليم لغضب المخلوق الظلوم الجهول؛ فقال: (غضبه ليس مُشابهاً لغضب خلقه، فإن غضب المخلوق: هو غليان دم قلبه؛ طلباً للانتقام، والله يتعالى عن ذلك)[1].

وصفة الغضب ليست من الصفات الذاتية التي يستحيل انفكاكها عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ وإنما هي من الصفات الفعلية، كما قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (وأما غضبه ـ تبارك وتعالى ـ وسخطه: فليس من صفاته الذاتية التي يستحيل انفكاكه عنها؛ بحيث لم يزل ولا يزال غضبان.

والناس لهم في صفة الغضب قولان:

أحدهما: أنه من صفاته الفعلية القائمة به؛ كسائر أفعاله.

والثاني: أنه صفة فعلٍ منفصلٍ عنه؛ غير قائمٍ به.

وعلى القولين فليس كالحياة والعلم والقدرة التي يستحيل مفارقتها لـه)[2].

= إفرادها في مسائل هذا المطلب؛ دون غيرها من الصفات المقاربة لها في المعنى.

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٥٩٦.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٣.

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ أن ما يحلُّ بالديار من المثلات إنما ينشأ من صفة غضب الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ، فإذا زال غضبه وتبدَّل برضاه: زالت عقوبته وتبدلَّت برحمته؛ فقال: (والعذاب إنما ينشأ من صفة غضبه، وما سُعِّرت النار إلا بغضبه، وقد جاء في أثرٍ مرفوعٍ: «إن الله خلق خلقاً من غضبه، وأسكنهم بالمشرق، وينتقم بهم ممن عصاه»[1].

فمخلوقاته ــ سبحانه ــ نوعان: نوعٌ مخلوقٌ من الرحمة وبالرحمة. ونوعٌ مخلوقٌ من الغضب وبالغضب. فإنه ــ سبحانه ــ له الكمال المطلق من جميع الوجوه؛ الذي يتنزَّه عن تقدير خلافه، ومنها أنه يرضى ويغضب؛ ويُثيب ويُعاقب؛ ويُعطي ويمنع؛ ويُعِزُّ ويُذِلُّ؛ وينتقم ويعفو، بل هذا موجب ملكه الحقِّ؛ وحقيقة الملك المقرون بالحكمة والرحمة والحمد، فإذا زال غضبه ــ سبحانه وتعالى ــ ؛ وتبدَّل برضاه: زالت عقوبته وتبدلَّت برحمته، فانقلبت العقوبة إلى رحمةٍ، بل لم تزل رحمة وإن تنوَّعت صفتها وصورتها، كما كان عقوبة العصاة رحمة؛ وإخراجهم من النار رحمة، فتقلَّبوا في رحمته في الدنيا؛ وتقلَّبوا فيها في الآخرة، لكن تلك الرحمة يُحبُّونها وتُوافق طبائعهم، وهذه رحمةٌ يكرهونها وتشقُّ عليهم، كرحمة الطبيب الذي يُبضِّع[2] لحم المريض و يُلقي عليه المكاوي؛ ليستخرج منه المواد الرديئة الفاسدة.

فإن قيل: هذا اعتبارٌ غير صحيحٍ، فإن الطبيب يفعل ذلك بالعليل؛

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) قال الأزهري في [تهذيب اللغة: ١/ ٤٨٧]: (قال الليث: بَضَعْتُ اللحم بَضْعاً؛ وبضَّعْتُه تبضيعاً: إذا قطَّعته).

وانظر: المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ١/ ٣١٨، الصحاح للجوهري ٣/ ١١٨٦، لسان العرب لابن منظور ٨/ ١٢ [مادة: بضع].

و هو يُحبُّه وهو راضٍ عنه، ولم ينشأ فعله به عن غضبه عليه، ولهذا لا يُسمَّى عقوبة، وأما عذاب هؤلاء: فإنه إنما حصل بغضبه ــ سبحانه ــ عليهم، وهو عقوبةٌ محضةٌ.

قيل: هذا حقٌّ؛ ولكن لا يُنافي كونه رحمة بهم؛ وإن كان عقوبة لهم، وهذا كإقامة الحدود عليهم في الدنيا، فإنه عقوبةٌ ورحمةٌ وتخفيفٌ وطهرةٌ، فالحدود طهرةٌ لأهلها وعقوبةٌ، وهم لما أغضبوا الربَّ تعالى وقابلوه بما لا يليق أن يُقابل به؛ وعاملوه أقبح المعاملة؛ وكذَّبوه وكذَّبوا رسله؛ وجعلوا أقلَّ خلقه وأخبثهم وأمقتهم له ندًّا له وآلهة معه؛ وآثروا رضاهم على رضاه وطاعتهم على طاعته؛ وهو ولي الإنعام عليهم؛ وهو خالقهم ورازقهم ومولاهم الحقُّ: اشتدَّ مقته لهم وغضبه عليهم، وذلك يُوجب كمال أسمائه وصفاته؛ التي يستحيل عليه تقدير خلافها، ويستحيل عليه تخلُّف آثارها ومقتضاها عنها، بل ذلك تعطيلٌ لأحكامها؛ كما أن نفيها عنه تعطيلٌ لحقائقها، وكلا التعطيلين محالٌ عليه ــ سبحانه وتعالى ــ)[1].

وهذا يُبيِّنُ أنَّ ثمة فرقاً بين صفة الغضب والسَّخط القائمة بالربِّ ــ تبارك وتعالى ــ ؛ وبين ما يترتَّب عليها من العذاب واللعنة، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ : (القرآن مملوءٌ بذكر سخطه وغضبه على أعدائه، وذلك صفةٌ قائمةٌ به؛ ويترتَّب عليها العذاب واللعنة، لا أن السَّخط: هو نفس العذاب واللعنة؛ بل هما أثر السَّخط والغضب وموجبهما؛ ولهذا يُفرِّق بينهما، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾[2]. ففرَّق بين عذابه وغضبه ولعنته، وجعل كلَّ واحدٍ غير الآخر.

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٣ ــ ٤٥٤.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٣.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّـهُمَّ إنِّي أعوذ برضاك من سخطك؛ وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك؛ وأعوذ بك منك»[1].

فتأمَّل ذكر استعاذته ﷺ بصفة الرِّضى من صفة السَّخط؛ وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول للصفة؛ والثاني لأثرها المترتِّب عليها، ثم ربط ذلك كلَّه بذاته ـ سبحانه ـ ؛ وأن ذلك كلَّه راجعٌ إليه وحده؛ لا إلى غيره.

فما أعوذ منه: واقعٌ بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك: هو بمشيئتك وإرادتك؛ إن شئت أن ترضى عن عبدك وتُعافيه؛ وإن شئت أن تغضب عليه وتُعاقبه، فإعاذتي مما أكره وأحذر؛ ومنعه أن يحلَّ بي: هو بمشيئتك أيضاً، فالمحبوب والمكروه كلُّه بقضائك ومشيئتك.

فعياذي بك منك: عياذي بحولك وقوتك وقدرتك ورحمتك وإحسانك؛ مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك، ولا أستعيذ إلا بك من شيءٍ هو صادرٌ عن مشيئتك وخلقك؛ بل هو منك، ولا أستعيذ بغيرك من شيءٍ هو صادرٌ عن مشيئتك وقضائك؛ بل أنت الذي تُعيذني بمشيئتك مما هو كائنٌ بمشيئتك، فأعوذ بك منك.

ولا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الرَّاسخون في العلم بالله ومعرفته؛ ومعرفة عبوديته، وأشرنا إلى شيءٍ يسيرٍ من معناها، ولو استقصينا شرحها لقام منه سِفْرٌ ضخمٌ؛ ولكن قد فُتِحَ لك الباب، فإن دخلتَ رأيتَ ما لا عينٌ رأت؛ ولا أذنٌ سمعت؛ ولا خطر على قلب بشرٍ)[2].

---

(١) تقدم تخريجه، ولفظه: «اللَّـهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٢٧٨ ـ ٢٧٩.

وإن من أبلغ الأدب مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ : أن يُوافقه عبده في هذه الصفة؛ فيغضب على من غضب عليهم ربُّه ـ تبارك وتعالى ـ ، كما نبَّه ـ رحمه الله تعالى ـ على هذا الأدب في خطاب المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وسؤاله لربِّه ـ تبارك وتعالى ـ ؛ فقال: (قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1]. ولم يقل: الغفور الرحيم.

وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الربِّ عليهم؛ والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطافٍ ولا شفاعةٍ؛ بل مقام براءةٍ منهم، فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم: لأشعر باستعطافه ربَّه على أعدائه الذين قد اشتدَّ غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقةٍ للربِّ في غضبه على من غضب الربُّ عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يُسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العِزَّة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم: فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم؛ ليست عن عجزٍ عن الانتقام منهم؛ ولا عن خفاءٍ عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه؛ ولجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال: هو مغفرة القادر العالم؛ وهو العزيز الحكيم.

وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام: عين الأدب في الخطاب)[2].

وإن مما يُوقد به العبدُ غضبَ ربِّه ـ تبارك وتعالى ـ : ترك سؤاله من فضله؛ وتماديه في معصيته، (فإن الربَّ تعالى إذا تمادى العبد في معصيته:

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٨.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٣٩٥.

غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيءٌ؛ فضلاً عن هذا العبد الضعيف)[1]، فإذا علَّق العبدُ رجاءَه وأملَه وسؤالَه بربِّه ــ تبارك وتعالى ــ: فقد أطفأ غضب ربِّه ــ تبارك وتعالى ــ عليه، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (ــ سبحانه ــ يُحِبُّ من عباده: أن يُؤمِّلوه ويرجوه ويسألوه من فضله؛ لأنه الملك الحقُّ الجواد، أجود من سُئِلَ؛ وأوسع من أعطى، وأحبُّ ما إلى الجواد: أن يُرجى ويُؤمَّل ويُسأل، وفي الحديث: «من لم يسأل الله: يغضب عليه»[2].

والسائل راجٍ وطالبٌ، فمن لم يرج الله: يغضب عليه، فهذه فائدةٌ أخرى من فوائد الرجاء؛ وهي: التخلُّص به من غضب الله)[3].

المسألة الثانية:

صفة الكمال (الغيرة).

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير صفة الغيرة؛ مُبيِّناً أنه لا أحد أغير من الله ــ جلَّ جلاله ــ؛ كما أنه لا أحد أحبَّ إليه المدحة منه، فهو ــ سبحانه وتعالى ــ يغار؛ ولا يرضى ممن عرفه ووجد حلاوة معرفته واتصل قلبه بمحبته والأُنس به وتعلَّقت روحه بإرادة وجهه الأعلى: أن يكون له التفاتٌ إلى غيره ألبتة، كما أنه يغار أن يأتي أحدٌ من عباده أو إمائه ما حرَّم عليهم من الفواحش.

فغيرة الله ــ سبحانه وتعالى ــ تتضمن البغض والكراهة لما يغار

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٩٣.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٥٢.

منه[1]، (فإياك أيها المُتمرِّد أن يأخذك على غرةٍ؛ فإنه غيورٌ، وإذا أقمت على معصيته وهو يمدُّك بنعمته: فاحذره، فإنه لم يُهملك؛ لكنه صبورٌ، وبُشراك أيها التائب بمغفرته ورحمته؛ إنه غفورٌ شكورٌ)[2].

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الصفة؛ والأصل الدالَّ عليها؛ وما تتضمنه هذه الصفة الكريمة من المعاني العظيمة؛ فقال: (الغيرة من صفات الربِّ ـ جلَّ جلاله ـ، والأصل فيها: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[3].

ومن غيرته تعالى لعبده وعليه: يحميه مما يضرُّه في آخرته، كما في الترمذي وغيره مرفوعاً: «إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا؛ كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب»[4].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الكسوف: «والله يا أُمَّة محمدٍ؛ ما أحدٌ أغير من الله أن يزني عبدُه أو تزني أَمَتُه»[5])[6].

إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (والله ـ سبحانه وتعالى ـ يغار

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/ ١٤٩٧، الفوائد ص٤٣، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٣١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٣٣.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه [أبواب الطبِّ/ باب ما جاء في الحمية ـ الحديث رقم (٢٠٣٦) ـ ٣/ ٥٥٩] من حديث قتادة بن النعمان ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «إذا أحبَّ الله عبداً حماه الدنيا».
وصححه الألباني في [صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٣٩٥].

(٥) تقدم تخريجه، وأوله: «يا أمة محمدٍ؛ والله ما من أحدٍ».

(٦) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٣٠٢.

على قلب عبده أن يُكون مُعطَّلاً من حبِّه وخوفه ورجائه؛ وأن يكون فيه غيرُه، فالله ــ سبحانه وتعالى ــ خلقه لنفسه؛ واختاره من بين خلقه، كما في الأثر الإلـٰهيِّ: (ابن آدم خلقتك لنفسي؛ وخلقتُ كلَّ شيءٍ لك، فبحقِّي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عمَّا خلقتك له)[1].

وفي أثرٍ آخر: (خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفَّلتُ لك برزقك فلا تتعب، يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدتَ كلَّ شيءٍ، وإن فتُّك فاتكَ كلُّ شيءٍ، وأنا خيرٌ لك من كلِّ شيءٍ)[2].

ويغار على لسانه أن يتعطَّل من ذكره؛ ويشتغل بذكر غيره، ويغار على جوارحه أن تتعطَّل من طاعته؛ وتشتغل بمعصيته، فيقبح بالعبد أن يغار مولاه الحقُّ على قلبه ولسانه وجوارحه؛ وهو لا يغار عليها.

وإذا أراد الله بعبده خيراً: سلَّط على قلبه ــ إذا أعرض عنه واشتغل بحبِّ غيره ــ : أنواعَ العذاب؛ حتى يرجع قلبُه إليه، وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته: ابتلاها بأنواع البلاء، وهذا من غيرته ــ سبحانه وتعالى ــ على عبده.

وكما أنه ــ سبحانه وتعالى ــ يغار على عبده المؤمن: فهو يغار له ولحرمته، فلا يُمكِّن المفسدَ أن يتوصَّل إلى حرمته؛ غيرة منه لعبده، فإنه ــ سبحانه وتعالى ــ ﴿يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[3][4]، فيدفع عن قلوبهم

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) سورة الحج: الآية ٣٨.

(٤) قرأ ابن كثيرٍ المكيُّ وأبو عمرٍو ويعقوب البصريان: ﴿يدفع﴾ ــ بفتح الياء والفاء وإسكان الدال بلا ألف ــ ، وقرأ الباقون: ﴿يُدَٰفِعُ﴾ ــ بضم الياء وفتح الدال وألف بعدها مع كسر الفاء ــ . =

وجوارحهم وأهلهم وحريمهم وأموالهم، يتولَّى ــ سبحانه ــ الدَّفع عن ذلك كلِّه؛ غيرة منه لهم، كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم.

والله تعالى يغار على إمائه وعبيده من المفسدين ــ شرعاً وقدراً ــ ، ومن أجل ذلك: حرَّم الفواحش وشرع عليها أعظم العقوبات وأشنع القتلات؛ لشدَّة غيرته على إمائه وعبيده، فإن عُطِّلت هذه العقوبات شرعاً: أجراها ــ سبحانه ــ قدراً.

ومن غيرته ــ سبحانه وتعالى ــ : غيرته على توحيده ودينه وكلامه أن يحظى به من ليس من أهله، بل حال بينهم وبينه غيرة عليه. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾(1).

ولذلك ثبَّط ــ سبحانه ــ أعداءه عن متابعة رسوله واللحاق به غَيْرَة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾(2).

= انظر: الغاية في القراءات العشر للأصبهاني ص٢١٤، النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ٣٢٦، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للبنا ٢/ ٢٧٦.

قال الأزهري في [معاني القراءات ص٣١٧]: (من قرأ (يدافع): فهو من دافع يُدافع؛ بمعنى: دفع، وقد جاءت حروفٌ على فاعل للواحد، منها: قاتله الله؛ وعافاه الله؛ وعاهدت الله. ومن قرأ (يدفع): فهو من دفع يدفع).

وانظر: الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص٩٩، الحجة للقراء السبعة للفارسي ٢/ ٣٥٢ ــ ٣٥٤، إبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة ٢/ ٣٦٣ ــ ٣٦٤.

(1) سورة الأنعام: الآية ٢٥، سورة الإسراء: الآية ٤٦.

(2) سورة التوبة: الآيتان ٤٦ ــ ٤٧.

فغار ـ سبحانه ـ على نبيه ﷺ وأصحابه أن يخرج بينهم المنافقون؛ فيسعوا بينهم بالفتنة، فثبَّطهم وأقعدهم عنهم.

وسمع الشبلي[1] ـ رحمه الله تعالى ـ قارئاً يقرأ: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾[2]. فقال: (أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغيرة، ولا أحد أغير من الله)[3].

يعني: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يجعل الكفار أهلاً لمعرفته.

وها هنا نوعٌ من غيرة الربِّ ـ سبحانه وتعالى ـ لطيف؛ لا تهتدي إليه العقول، وهو: أن العبد يُفتح له بابٌ من الصفاء والأنس والوجود؛ فيساكنه ويطمئنَّ إليه وتلتذَّ به نفسه، فيشتغل به عن المقصود، فيغار عليه مولاه الحقُّ؛ فيخلِّيه منه ويردُّه حينئذ إليه بالفقر والذِّلة والمسكنة؛ ويشهده غاية فقره وإعدامه؛ وأنه ليس معه من نفسه شيءٌ ألبتة، فتعود عِزَّة ذلك الأُنس والصفاء والوجود: ذِلَّة ومسكنة وفقراً وفاقة، وذرةٌ من هذا أحبُّ إليه ـ سبحانه وتعالى ـ وأنفع للعبد من الجبال الرواسي من ذلك الصفاء والأُنس المجرَّد عن شهود الفقر والذِلة والمسكنة، وهذا بابٌ لا يتسع له قلبُ كلِّ أحدٍ)[4].

---

(١) هو: أبو بكر دُلَف بن جَحْدَر، الخرسانيُّ أصلاً؛ السامرَّائيُّ مولداً؛ الشبليُّ قرية؛ البغداديُّ منشأً ووفاة، شيخ الطائفة الصوفية، توفي في يوم الجمعة آخر ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة؛ عن نيِّفٍ وثمانين سنة.

انظر في ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي ص٣٣٧ ـ ٣٤٨، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤/ ٣٨٩ ـ ٣٩٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٥/ ٣٦٧ ـ ٣٦٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٥.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٣١٠ ـ ٣١١.

ووصف الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ بالغيرة: يتضمن غاية المجد والعدل؛ ونهاية الكمال والإحسان، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قرن بين اتصافه بالغيرة وبين محبته للعذر، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (كان النبي ﷺ أَغْيَرَ الخلق على الأُمَّة، والله ـ سبحانه ـ أشدُّ غيرة منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «أتعجبون من غيرة سعدٍ؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني»[1].

وفي الصحيح أيضاً عنه أنه قال ﷺ في خطبة الكسوف: «يا أُمَّة محمدٍ؛ ما أحدٌ أغير من الله أن يزني عبدُه أو تزني أَمَتُه»[2].

وفي الصحيح أيضاً عنه أنه قال: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبَّ إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مُبشِّرين ومُنذرين، ولا أحد أحبَّ إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه»[3].

فجمع في هذا الحديث بين الغيرة ـ التي أصلها كراهة القبائح وبغضها ـ وبين محبة العذر ـ الذي يُوجب كمال العدل والرحمة والإحسان ـ ، والله ـ سبحانه ـ مع شدَّة غيرته: يُحبُّ أن يَعتذر إليه عبدُه، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وأنه لا يُؤاخذ عبدَه بارتكاب ما يغار من ارتكابه؛ حتى يَعذر إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه ـ إعذاراً وإنذاراً ـ .

وهذا غاية المجد والإحسان؛ ونهاية الكمال، فإن كثيراً ممن تشتدُّ غيرته من المخلوقين: تحمله شدَّة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة؛ من

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «ليس أحدٌ أحبَّ إليه المدح من الله».

غير إعذارٍ منه، ومن غير قبول العذر ممن اعتذر إليه، بل قد يكون له فى نفس الأمر عذرٌ؛ ولا تدعه شدَّة الغيرة أن يقبل عذره.

وكثيرٌ ممن يقبل المعاذير: يحمله على قبولها قِلَّة الغيرة؛ حتى يتوسَّع في طريق المعاذير، ويرى عذراً ما ليس بعذرٍ، حتى يعتذر كثيرٌ منهم بالقدر.

وكلٌّ منهما غيرُ ممدوحٍ على الإطلاق، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من الغيرة ما يُحبها الله، ومنها ما يُبغضها الله، فالتي يُبغضها الله: الغيرة من غير ريبةٍ» وذكر الحديث[1].

وإنما الممدوح: اقتران الغيرة بالعذر، فيغار في محلِّ الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومَنْ كان هكذا: فهو الممدوح حقاً.

ولما جمع ــ سبحانه ــ صفات الكمال كلَّها: كان أحقَّ بالمدح من كلِّ أحدٍ، ولايبلغ أحدٌ أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه؛ وأثنى على نفسه، فالغيور قد وافق ربَّه ــ سبحانه ــ في صفةٍ من صفاته، ومن وافق الله في صفةٍ من صفاته: قادته تلك الصفة إليه بزمامها، وأدخلته على ربِّه؛ وأدنته منه، وقرَّبته من رحمته؛ وصيَّرته محبوباً له)[2].

المسألة الثالثة:

صفة الكمال (العتب).

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير صفة العتب؛ مُبيِّناً أن من تأمَّل خطاب الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ في كتابه المبين: شهد منه (عتابه لأحبابه ألطف عتابٍ، وأنه مع ذلك مُقيل عثراتهم؛ وغافر

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الداء والدواء ص١٠٧ ــ ١٠٨.

زلاتهم؛ ومُقيم أعذارهم؛ ومُصلح فسادهم؛ والدافع عنهم والمحامي عنهم والناصر لهم؛ والكفيل بمصالحهم؛ والمُنجّي لهم من كلِّ كربٍ؛ والمُوفي لهم بوعده؛ وأنه وليُّهم الذي لا وليَّ لهم سواه، فهو مولاهم الحقُّ ونصيرهم على عدوهم؛ فنعم المولى ونعم النصير)[1].

والربُّ ــ تبارك وتعالى ــ هو الذي يعتب على عبده؛ لأنه محسنٌ عادلٌ، وأما العبد: فلا يُتصوَّر أن يعتب على ربِّه؛ لأنه ظالمٌ جاهلٌ، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2]. وقول النبي ﷺ في دعاء الطائف: «لك العتبى»[3]. هو: اسمٌ من الإعتاب؛ لا من العتب، أي: أنت المطلوب إعتابه، ولك عليَّ أن أُعتبك وأُرضيك بطاعتك؛ فأفعل ما ترضى به عني؛ وما يزول به عتبك عليَّ، فالعتب منه على عبده، والعتبى والإعتاب له من عبده، فههنا أربعة أمور:

الأول: العتب، وهو من الله تعالى، فإن العبد لا يعتب على ربِّه؛ فإنه المحسن العادل، فلا يُتصور أن يعتب عليه عبده؛ إلا والعبد ظالمٌ، ومن ظنَّ من المفسرين خلاف ذلك: غلط أقبح غلطٍ.

الثاني: الإعتاب، وهو من الله؛ ومن العبد باعتبارين، فإعتاب الله عبده: إزالة عتب نفسه عن عبده، وإعتاب العبد ربَّه: إزالة عتب الله عليه، والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي يزول بها عتب الله تعالى عليه.

---

(١) الفوائد ص٣٧.

(٢) سورة الروم: الآية ٥٧.

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «اللَّهُمَّ إليك أشكو ضعف قوتي».

الثالث: استعتاب، وهو من الله أيضاً ومن العبد بالاعتبارين، فالله تعالى يستعتب عباده؛ أي: يطلب منهم أن يُعتبوه ويُزيلوا عتبه عليهم، ومنه قول ابن مسعود ــ وقد وقعت الزلزلة بالكوفة ــ : (إن ربّكم يستعتبكم فأعتبوه)[1]. والعبد يستعتب ربَّه؛ أي: يطلب منه إزالة عتبه.

الرابع: العتبى، وهي: اسم الإعتاب.

فاشدد يديك بهذا الفصل الذي يعصمك من تخبيط كثيرٍ من المفسدين لهذه المواضع)[2].

فهذه بعض صفات القهر والانتقام والعدل؛ من الغضب والغيرة والعتب التي يفعلها الله ــ سبحانه وتعالى ــ متى شاء؛ وكيف يشاء.

ونظير هذه الصفات الدالَّة على القهر والانتقام والعدل: صفات الكيد والمكر والخداع، إلا أن هذه الصفات الفعلية لا يُوصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ بها مُطلقاً؛ لانقسام معناها إلى معنى صحيح ومعنى قبيح، وإنما يُوصف الربُّ ــ تبارك وتعالى ــ بما صحَّ من هذين المَعنيين؛ وكان على وجه العدل والمجازاة، كما سيأتي تقرير ذلك في المسألة الآتية.

المسألة الرابعة:

صفات الكمال (الكيد والمكر والخداع).

اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذه الصفات الفعلية؛ مُبيِّناً (أن الله تعالى لم يصف نفسه بـ: الكيد والمكر

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن [١٥/١٠٩] عن قتادة، وفيه: (ذُكِرَ لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال).

(٢) بدائع الفوائد ٤/١٥٢ ــ ١٥٣.

والخداع)[1] مطلقاً؛ وإنما وصف نفسه بهذه الصفات على وجه العدل والمجازاة، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يُجازي عباده بحسب ما يقوم بهم من الصفات ـ مدحاً وقدحاً ـ ، فمن كاد: كاده (ومن مكر: مكر به، ومن خادع: خادعه، ومن عامل خلقه بصفةٍ: عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه)[2].

وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ثبوت هذه الصفات لله تعالى على وجه الكمال بقوله: (إن الله ـ سبحانه ـ لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حقٍّ، وقد عُلِمَ أن المجازاة على ذلك حسنةٌ من المخلوق، فكيف من الخالق ـ سبحانه ـ ؟)[3].

ووجه حُسْنِ كيدِ الله تعالى ومكره وخداعه لمن يستحقُّه: أن الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ قابل كيد المخلوق ومكره وخداعه ـ الذي لا شيء أقبح منه ـ بكيده ومكره وخداعه ـ الذي لا شيء أحسن منه ـ ، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ : (المكر الذي وصف به نفسه: فهو مُجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيُقابل مكرهم السيِّء بمكره الحسن، فيكون المكر منهم: أقبحُ شيءٍ، ومنه: أحسن شيءٍ، لأنه عدلٌ ومُجازاةٌ، وكذلك المخادعة منه: جزاءٌ على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر)[4].

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٩١.

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٥٤.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٢٩٢.

(٤) الفوائد ص١٨٢ ـ ١٨٣.

وأصل الكيد والمكر والخداع: هو إيصال الشيء إلى الغير بطريقٍ خفيٍّ، فإن كان هذا الإيصال لمن يستحقُّه: كان هذا الكيد والمكر والخداع مدحاً لفاعله، وإن كان لمن لا يستحقُّه: كان قدحاً لفاعله.

ومن هذا يُعلم أن كيد الله ــ سبحانه وتعالى ــ ومكره وخداعه: صفةُ كمالٍ في حقِّ الربِّ ــ تبارك وتعالى ــ، لأنه يتضمن إيصال العقوبة إلى مَنْ يستحقُّها، كما قال ــ رحمه الله تعالى ــ: (إن المكر: إيصال الشيء إلى الغير بطريقٍ خفيٍّ، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان:

قبيحٌ: وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقُّه.

وحسنٌ: وهو إيصاله إلى مستحقِّه عقوبة له، فالأول: مذمومٌ، والثاني: ممدوحٌ.

والربُّ تعالى إنما يفعل من ذلك ما يُحمد عليه عدلاً منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب، لا كما يفعل الظلمة بعباده)[1].

ثم قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ أن كيد الله ــ سبحانه وتعالى ــ لا يخرج عن نوعين؛ فقال: (وكيد الله تعالى لا يخرج عن نوعين:

أحدهما ــ وهو الأغلب ــ: أن يفعل تعالى فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الكيد قدراً زائداً محضاً؛ ليس هو من باب الشرع كما كاد أعداء الرسل بانتقامه منهم بأنواع العقوبات

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٢١٨.

وكذلك كانت قصة يوسف[1])[2].

ثم ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ثاني نوعي كيد الله تعالى؛ فقال: (النوع الثاني من كيده لعبده المؤمن: هو أن يُلهمه تعالى أمراً مباحاً؛ أو مستحباً؛ أو واجباً يُوصله به إلى المقصود الحسن، فيكون على هذا: إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل؛ هو من كيده تعالى أيضاً، وقد دلَّ على ذلك قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[3].

فإن فيها تنبيهاً على أن العلم الدقيق المُوصل إلى المقصود الشرعيِّ: صفةُ مدحٍ، كما أن العلم الذي يُخصم به المبطل: صفةُ مدحٍ، وعلى هذا فيكون من الكيد ما هو مشروعٌ.

لكن لا يجوز أن يُراد به الكيد الذي تستحلُّ به المُحرَّمات؛ أو تسقط به الواجبات، فإن هذا كيدٌ لله، والله هو الذي يكيد الكائد، ومحالٌ أن يشرع الله تعالى أن يُكاد دينُه، وأيضاً فإن هذا الكيد لا يتمُّ إلا بفعل يُقصد به غير مقصوده الشرعيِّ، ومحالٌ أن يشرع الله لعبده أن يقصد بفعله ما لم يشرع الله ذلك الفعل له)[4].

---

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ قبل هذا الموطن وبعده [٣/ ٢١٢ ـ ٢٢٢]: أربعة فصول في وجه الاحتجاج بقصة يوسف ـ عليه السلام ـ على بطلان الحيل؛ وتحريم العمل بها.
وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ نحو هذه المعاني المودعة في هذا الكتاب في كتابه: [إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان ٢/ ١٤٥ ـ ١٦٢]؛ وجعلها أيضاً في أربعة فصول.
وقد ضَّمن في كلا الكتابين نقولاً من كلام شيخه ابن تيمية ـ رحمهما الله تعالى ـ؛ الواردة في كتابه: [بيان الدليل على بطلان التحليل ص٢٦٣ ـ ٢٧٨].

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٢١٩.

(٣) سورة يوسف: الآية ٧٦.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.

فالربُّ ـ تبارك وتعالى ـ يكيد لمن يُواليه، ويكيد من يُعاديه، وصورة كيده ـ سبحانه وتعالى ـ من يُعاديه: أن يستدرجه من حيث لا يعلم، ويملي له؛ حتى إذا أخذه لم يُفلته، كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (الله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده، وكيده ـ سبحانه ـ: استدراجهم من حيث لا يعلمون؛ والإملاء لهم حتى يأخذهم على غِرَّةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾[1].

فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره: يُظهر له إكرامه وإحسانه إليه؛ حتى يطمئنَّ إليه فيأخذه؛ كما يفعل الملوك، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه: كان كيد الله لهم حسناً؛ لا قبح فيه، فيُعطيهم ويُعافيهم؛ وهو يستدرجهم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾[2])[3].

وبهذا يتبيَّن أن اتصاف الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالكيد والمكر والخداع في مُقابل كيد أعدائه ومكرهم وخداعهم لدينه ورسله وأوليائه: صفةُ مدحٍ؛ لا قدح فيها بوجهٍ من الوجوه.

فهذه خاتمة هذا المبحث المتعلِّق بتقرير تعيين صفات الله العلى؛ وذكر أدلَّة ثبوتها؛ وبيان معانيها، وقد تضمن هذا المبحث ذكر بعض صفات الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ؛ التي في دلالتها على ما سواها من الصفات العلى: (إشارةٌ وكفايةٌ، ومن غلظ حجابه وكثفت طباعه: لا ينفعه التصريح؛ فضلاً عن ضرب الأمثال، والله المستعان؛ وعليه التكلان، ولا قوة إلا بالله)[4].

❑ ❑ ❑

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٣، سورة القلم: الآية ٤٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٤.

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص١٤٠ ـ ١٤١.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣٠٥.

المبحث الرابع:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير تفاضل الصِّفات العُلى

إنَّ صفات الله العُلى كلَّها صفاتُ كمالٍ، وهي مع كمالها وجلالها: تتفاضل تفاضلاً لا يقتضي حطَّ الصفة المفضولة عن درجة الكمال، بل جميع صفات الله العلى: صفات كمالٍ.

وهذا التفاضل كما أنه واقعٌ بين صفات الله العلى؛ فيفضل بعضها بعضاً: فهو واقعٌ بين الصفة الواحدة أيضاً، وكما أنه واقعٌ بين الصفات المتقابلة في المعنى: فهو واقعٌ بين الصفات المتقاربة في المعنى.

والقول بتفاضل صفات الله العلى إنما يستقيم ويُعقل على قول أهل السنة والجماعة؛ القائلين بثبوت الصفات المتعدِّدة لله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأما على قول الجهمية المحضة وأتباعهم: فلا يستقيم ولا يُعقل، لأنهم ينفون عن الله تعالى صفات الكمال الثبوتية، ولا يصفونه إلا بالصفات السلبية؛ التي لا تقتضي إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، فكيف يصحُّ لهم القول بالتفاضل من غير ثبوت صفاتٍ متعدِّدةٍ يقع بينها التفاضل؟

فعُلِمَ أن معتقد أهل السنة والجماعة في مسألة تفاضل صفات الله العلى ـ وفي غيرها من مسائل الأسماء والصفات على وجه الخصوص؛ ومسائل

الاعتقاد الأخرى على وجه العموم ــ : هو الموافق للشِّرْعَة القويمة؛ والفطرة السليمة؛ والعقول المستقيمة، لأن التفاضل إنما يُعقل وقوعه بين شيئين فصاعداً، أما الواحد من كلِّ وجهٍ: فلا يُعقل فيه شيءٌ أفضل من شيءٍ[1].

وقد اجتهد الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ في تقرير هذا المطلب المتضمن لإثبات التفاضل الواقع بين صفات الله العلى، مع العناية بإيراد النصوص الدالَّة عليه، وإيضاح ما تتضمنه هذه النصوص من دلائل على أفراد هذا التفاضل وأنواعه، مع التنبيه على بعض المفاهيم الخاطئة الواقعة في مسألة التفاضل.

وقد نصَّ الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ على مسألة التفاضل بقوله: (إن بعض صفاته وأفعاله ــ سبحانه ــ أفضلُ من بعضٍ، فإن المُستعاذ به أفضلُ من المُستعاذ منه، وهذا كما أن صفة الرحمة أفضلُ من صفة الغضب، ولذلك كان لها الغلبة والسبق).

ثم حذَّر من قول المُنكرين للتفاضل الواقع بين صفات الله العلى؛ فقال: (ولا تصغ إلى قول من غلظ حجابه: إن الصفات قديمةٌ؛ والقديم لا يتفاضل، فإن الأدلة السمعية والعقلية تُبطل قوله[2])[3].

---

(١) انظر: جواب أهل العلم والإيمان أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن لابن تيمية ١٧/ ١٤٠ ــ ١٦٨ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام]، مباحث المفاضلة في العقيدة للدكتور محمد أبو سيف الشظيفي ص٧٨ ــ ٨٥.

(٢) انظر في حكاية القول بأن الصفات قديمةٌ؛ والقديم لا يتفاضل؛ وإبطال قوله: جواب أهل العلم والإيمان أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن لابن تيمية ١٧/ ١٦٢ ــ ١٦٨ [رسالة مودعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام].

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٤٤.

والتفاضل الواقع في صفات الله العلى؛ والذي دلَّ عليه النقل الصحيح الموافق للعقل الصريح يقع باعتبارين:

الاعتبار الأول: وقوع التفاضل في الصفة الواحدة؛ فتكون الصفة الواحدة متفاضلة.

الاعتبار الثاني: وقوع التفاضل بين صفات الله العلى؛ فيفضل بعضها بعضاً.

فأما التفاضل بالاعتبار الأول؛ والواقع في الصفة الواحدة من صفات الله تعالى: فقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ حقيقته؛ وقرَّب صورته، وضرب عليه بعض الأمثلة من صفات الله العلى، فمن ذلك:

١ ــ صفة الكلام، وهذه الصفة مع أنها صفةُ كمالٍ مطلقٍ في حقِّ الله تعالى: إلا أن التفاضل واقعٌ بين أفرادها، وذلك أن القرآن كلام الله تعالى، وقد وقع التفاضل بين سوره وآياته، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى بقوله: (كلامه ــ سبحانه ــ : هو صفته، ومعلومٌ أن كلامه الذي يُثني على نفسه به؛ ويذكر فيه أوصافه وتوحيده: أفضلُ من كلامه الذي يذمُّ به أعداءه؛ ويذكر أوصافهم.

ولهذا كانت سورة (الإخلاص): أفضل من سورة (تبَّت)؛ وكانت تعدل ثلث القرآن دونها[1]، وكانت آية الكرسي أفضلَ

---

(١) كما قال النبي ﷺ: «أقرأُ عليكم ثلث القرآن، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ حتى ختمها»، والحديث مُخرَّجٌ في صحيح مسلم [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ــ الحديث رقم (٨١٢) ــ ١/٥٥٧] من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، كما أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب فضائل القرآن/ باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ =

آيـةٍ في القرآن[1])[2].

٢ ــ صفة اليدين، وهذه الصفة مع أنها كمالٌ مطلقٌ في حقِّ الله تعالى: إلا أن التفاضل واقعٌ بين يدي الله الكريمتين، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى بقوله: (قد جعل ــ سبحانه ــ ما كان من الفضل والعطاء والخير وأهل السعادة: بيده اليمنى، وما كان من العدل والقبض: بيده الأخرى، ولهذا جعل أهل السعادة في قبضة اليمنى؛ وأهل الشقاوة في القبضة الأخرى، والمقسطون على منابر من نور عن يمينه، والسماوات مطوياتٌ بيمينه؛ والأرض باليد الأخرى)[3].

وأما التفاضل بالاعتبار الثاني؛ والواقع بين صفات الله تعالى ــ بعضها مع بعض ــ : فهو واقعٌ في معنيين:

المعنى الأول: وقوع التفاضل بين الصفات المتقابلة في المعنى.

المعنى الثاني: وقوع التفاضل بين الصفات المتقاربة في المعنى.

فأما التفاضل بالمعنى الأول؛ والواقع بين صفات الله العلى المتقابلة

= أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ ــ الحديث رقم (٥٠١٥) ــ ٤/١٦١٦ ــ ١٦١٧] من حديث أبـي سعيد الخدريِّ ــ رضي الله عنه ــ ؛ بلفظٍ نحوه.

(١) كما قال النبـي ﷺ لِأُبَـيِّ بن كعب ــ رضي الله عنه ــ : «يا أبا المُنذر؛ أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: يا أبا المُنذر؛ أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾. قال: فضرب في صدري، وقال: ليهنك العلم أبا المُنذر»، والحديث مُخرَّجٌ في صحيح مسلم [كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ــ الحديث رقم (٨١٠) ــ ١/٥٥٦].

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٤٤.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٤٤.

في المعنى: فقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ حقيقته؛ وقرَّب صورته، وضرب عليه بعض الأمثلة من صفات الله العلى، فمن ذلك:

١ ـ أن صفاتِ الرحمة والحلم والعفو: تفضلُ صفاتِ الغضب والعقوبة والمؤاخذة، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (أخبره في عهده أنه: أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وأنه سبقت رحمته غضبه؛ وحلمه عقوبته؛ وعفوه مؤاخذته، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة؛ وكتب على نفسه الرحمة)[١].

٢ ـ أن صفة الرِّضى: تفضلُ صفة السَّخط، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (استعاذ النبي ﷺ بصفة الرِّضى من صفة السخط؛ وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين فى الذات؛ إذ هما قائمان بها، فقال: «أعوذ برضاك من سخطك؛ وأعوذ بعفوك من عقوبتك؛ وأعوذ بك منك»[٢].

فإن ما يُستعاذ به: هو صادرٌ عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه، فهو الذى أذن فى وقوع الأسباب التي يُستعاذ منها خلقاً وكوناً؛ فمنه السبب والمُسبَّب، وهو الذى حرَّك الأنفس والأبدان؛ وأعطاها قوى التأثير، وهو الذي أوجدها وأعدَّها ومدَّها وسلَّطها على ما شاء، وهو الذى يُمسكها إذا شاء؛ ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

فتأمَّل ما تحت قوله: «أعوذ بك منك»: من محض التوحيد؛ وقطع الالتفات الى غيره؛ وتكميل التوكُّل عليه تعالى؛ والاستعانة به وحده؛ وإفراده بالخوف والرجاء؛ ودفع الضرِّ وجلب الخير، وهو الذى يمس بالضرِّ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٣٣.
(٢) تقدم تخريجه، ولفظه: «اللَّـهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

بمشيئته؛ وهو الذى يدفعه بمشيئته، وهو المُستعاذ بمشيئته من مشيئته؛ وهو المُعيذ من فعله بفعله، وهو الذى ـ سبحانه ـ خلق ما يصبر عليه وما يرضى به، فإذا أغضبه معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم: أرضاه تسبيحُ ملائكته وعباده المؤمنين له؛ وحمدهم إياه؛ وطاعتهم له، فيُعيذ رضاه من غضبه)[1].

٣ ـ أن صفة العطاء: تفضلُ صفة المنع، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن رضاه أحبُّ إليه من غضبه؛ وعفوه أحبُّ إليه من عقوبته؛ ورحمته أحبُّ إليه من عذابه؛ وعطاؤه أحبُّ إليه من منعه، وإنما يقع الغضب والعقوبة والمنع بأسبابٍ تُناقض موجب تلك الصفات والأسماء، وهو ـ سبحانه ـ كما يُحبُّ أسماءه وصفاته؛ ويُحبُّ آثارها وموجبها، كما في الحديث: «إنه وترٌ يُحبُّ الوتر»[2]، «جميلٌ يُحبُّ الجمال»[3]، «نظيفٌ يُحبُّ النظافة»[4]، «عفو يُحبُّ العفو»[5]، وهو شكورٌ يُحبُّ الشاكرين، عليمٌ يُحبُّ العالمين، جوادٌ يُحبُّ أهل الجود، حَيِيٌّ ستيرٌ يُحبُّ أهل الحياء والستر، صبورٌ يُحبُّ الصابرين، رحيمٌ يُحبُّ الرحماء: فهو يكره ما يُضادُّ ذلك.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٢٣ ـ ٤٢٤.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «لله تسعة وتسعون اسماً».

(٣) تقدم تخريجه، وأوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «إن الله طيبٌ يُحبُّ الطيِّب».

(٥) أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٣٩٧٧) ـ ٧/ ٨٤ ـ ٨٥] من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «إن أول رجل قُطِع في الإسلام».
وفي إسناده: أبو ماجد، قال الهيثمي في [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/ ٢٧٥]: (أبو ماجد الحنفي: ضعيف).

وكذلك كره الكفر والفسوق والظلم والجهل لمضادة هذه الأوصاف لأوصاف كماله الموافقة لأسمائه وصفاته، ولكن يُريده ـ سبحانه ـ لاستلزامه ما يُحبُّه ويرضاه، فهو مُرادٌ له إرادة اللوازم المقصودة لغيرها، إذ هي مفضيةٌ إلى ما يُحبُّ، فإذا حصل بها ما يُحبُّه وأدَّت إلى الغاية المقصودة له ـ سبحانه ـ : لم تبق مقصودة؛ لا لنفسها ولا لغيرها، فتزول ويخلفها أضدادها؛ التي هي أحبُّ إليه ـ سبحانه ـ منها، وهي موجب أسمائه وصفاته)[1].

٤ ـ أن صفة الإنعام: تفضلُ صفة الإمساك، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الرحمة غلبت الغضب؛ والعفو سبق العقوبة؛ والنعمة تقدمت المحنة، والخير في الصفات والأفعال؛ والشر في المفعولات لا في الأفعال، فأوصافه كلُّها كمالٌ؛ وأفعاله كلُّها خيراتٌ)[2].

٥ ـ أن صفة الحبِّ: تفضلُ صفة البغض، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الله ـ سبحانه ـ يُحبُّ الكامل من الأفعال والأقوال والأعمال، ومحبته لذلك بحسب كماله، ويُبغض الناقص منها ويمقته، ومقته له بحسب نقصانه.

ولهذا أسلفنا: أن من أصول المسألة: إثبات صفة الحبِّ والبغض لله، فتأمَّل كيف عادت المسألة إليه؛ وتوقفت عليه؟ والله ـ سبحانه ـ يُحبُّ كلَّ ما أمر به؛ ويُبغض كلَّ ما نهى عنه، ولا يُسمى ذلك مُلاءمة أو مُنافرة، بل يُطلق عليه الأسماء التي أطلقها على نفسه وأطلقها عليه رسوله؛ من محبته للفعل الحسن المأمور به، وبغضه للفعل القبيح ومقته له، وما ذاك إلا لكمال

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧١٩ ـ ٧٢٠.
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٨٥.

الأول؛ ونقصان الثاني)[1].

وأما التفاضل بالمعنى الثاني؛ والواقع بين صفات الله العلى المتقاربة في المعنى: فقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ حقيقته؛ وقـرَّب صورته، وضـرب عليـه بعض الأمثلـة مـن صفـات الله العلى، فمـن ذلك:

١ ـ أن صفة الرِّضى: تفضلُ صفة الرحمة، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن رضى الرب ـ تبارك وتعالى ـ ورحمته: صفتان ذاتيتان له، فلا منتهى لرضاه؛ بل كما قال أعلم الخلق به: «سبحان الله وبحمده عدد خلقه؛ ورضى نفسه؛ وزنة عرشه؛ ومداد كلماته»[2].

فإذا كانت رحمته غلبت غضبه: فإن رضى نفسه أعلى وأعظم، فإن رضوانه أكثر من الجنات ونعيمها وكل ما فيها، وقد أخبر أهل الجنة أنه يُحِلُّ عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبداً)[3].

٢ ـ أنَّ صفة الرِّضى: تفضلُ صفة الإحسان وصفة البركة، وقد قرَّر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إذا كان إحسانه سبحانه وثوابه وبركته وخيره لا منتهى له؛ وهو من موجبات رضاه وثمرته، فكيف بصفة الرِّضى؟

وفي الأثر: (إذا باركت لم يكن لبركتي منتهى)[4]. فكيف بالصفة التي صدرت عنها البركة؟)[5].

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣.
(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «ما زلتِ على الحال التي فارقتكِ عليها».
(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٢ ـ ٤٥٤.
(٤) لم أقف عليه.
(٥) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص٢٨.

وهناك مسائل (دقيقةٌ ينبغي التفطُّن لها)[1]؛ والتنبُّه لها في باب تفاضل صفات الله العلى؛ كي لا يقع الزلل والخلل والخطل في فقهه وفهمه، وقد اعتنى الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ بالتنبيه على بعضها، فمن ذلك:

١ ــ أن التفاضل في صفات الله العلى لا يقتضي تدافع الصفتين وتعارضهما، بل الواجب تعظيم كلا الصفتين؛ لأنهما وصفان للربِّ تعالى، وأوصافه لا يُدافع بعضُها ببعضٍ؛ ولا تُعارض، وإن اسْتُعيذ ببعضها من بعضٍ، فالعبد عائذٌ برضى ربِّه (من سخطه؛ وبعفوه من عقوبته؛ وبه منه، مُستجيرٌ ومُلتجىءٌ منه إليه)[2]، وقد نبَّه ــ رحمه الله تعالى ــ على ذلك بقوله: (قضاء الله وقدره وحكمه الكونيُّ لا يُناقض دينه وشرعه وحكمه الدينيَّ؛ بحيث تقع المدافعة بينهما، لأن هذا مشيئته الكونية؛ وهذا إرادته الدينية، وإن كان المرادان قد يتدافعان ويتعارضان، لكن من تعظيم كلٍّ منهما: أن لا يُدافع بالآخر ولا يُعارض، فإنهما وصفان للربِّ تعالى، وأوصافه لا يُدافع بعضُها ببعضٍ؛ وإن استعيذ ببعضها من بعضٍ، فالكلُّ منه ــ سبحانه ــ، وهو المُعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعلم الخلق به: «أعوذ برضاك من سخطك؛ وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك؛ وأعوذ بك منك»[3].

فرضاه وإن أعاذ من سخطه: فإنه لا يُبطله ولا يدفعه؛ وإنما يدفع تعلُّقه بالمستعيذ، وتعلُّقه بأعدائه باقٍ غير زائل؛ فهكذا أمره وقدره سواء، فإن أمره لا يُبطل قدره؛ ولا قدره يُبطل أمره، ولكن يُدفع ما قضاه وقدَّره بما أمر به وأحبَّه؛ وهو أيضاً من قضائه، فما دُفع قضاؤه إلا بقضائه وأمره، فلم

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٣٧.
(٢) الفوائد ص١٢٧.
(٣) تقدم تخريجه، ولفظه: «اللَّـٰهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

يدفع العلمُ الحُكْمَ؛ بل المحكوم به، والعلمُ والحكمُ دفعا المحكومَ به؛ الذي قدَّر دفعه وأمر به.

فتأمَّل هذا؛ فإنه محض العبودية والمعرفة؛ والإيمان بالقدر والاستسلام له؛ والقيام بالأمر والتنفيذ له بالقدر، فما نفَّذ المطيعُ أمرَ الله إلا بقدر الله، ولا دفع مقدورَ الله إلا بقدر الله وأمره)[1].

٢ ــ أن الصفات المتقابلة يُستعاذ بأحدهما من الآخر، بخلاف الصفات المتقاربة؛ فإنه لا يُستعاذ بأحدهما من الآخر، وقد نبَّه ــ رحمه الله تعالى ــ على ذلك بقوله: (إن الغضب والرِّضى والعفو والعقوبة لما كانت مُتقابلة: استعاذ بأحدهما من الآخر، فلما جاء إلى الذات المقدسة ــ التي لا ضدَّ لها ولا مقابل ــ قال: «وأعوذ بك منك»[2]. فاستعاذ بصفة الرِّضى من صفة الغضب؛ وبفعل العفو من فعل العقوبة؛ وبالموصوف بهذه الصفات والأفعال منه، وهذا يتضمن كمال الإثبات للقدر والتوحيد بأوجز لفظٍ وأخصره)[3].

ولما كانت المفاضلة الواقعة بين صفة الرحمة وصفة الغضب؛ والتي جاءت بها النصوص الشرعية القويمة: مما استقرَّ في الفطر السليمة؛ وصدَّقت به العقول المستقيمة: نجد أن الإمام ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ قد أولى هذه المفاضلة ــ على وجه الخصوص ــ جهداً كبيراً؛ واهتماماً كثيراً، فقرَّر أن كلَّ ما كان من صفة الرحمة؛ ولوازمها وآثارها: فهو غالبٌ على صفة الغضب؛ ولوازمها وآثارها، وأن سبب هذه الغلبة يرجع إلى أسبابٍ عدة، فمن ذلك:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٥٢١.

(٢) تقدم تخريجه، ولفظه: «اللَّـٰهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك».

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٧٤٣ ــ ٧٤٤.

١ ــ أن صفة الغضب تسبقها صفة الرحمة؛ وتلحقها صفة الرحمة، فهي متوسطةٌ بينهما، ولن تغلب صفةٌ صفتين، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (تأمَّل كيف وقع الوصف بـ: ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾[1] بين صفة رحمةٍ قبله؛ وصفة رحمةٍ بعده؟ فقبله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾[2]، وبعده: ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾[3].

ففي هذا تصديق الحديث الصحيح؛ وشاهد له، وهو قوله ﷺ: «إن الله كتب كتاباً؛ فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي». وفي لفظ: «سبقت غضبي»[4].

وقد سبقت صفة الرحمة هنا وغلبت)[5].

٢ ــ أن وجود ما كان بالرحمة: أحبُّ إلى الله تعالى من وجود ما كان بالغضب، لأن (رحمته من لوازم ذاته؛ وهي سبقت غضبه)[6] الذي ليس من لوازمها، وقد قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (كلُّ ما كان من صفة الرحمة: فهو غالبٌ لِمَا كان من صفة الغضب، فإنه ــ سبحانه ــ لا يكون إلا رحيماً، ورحمته من لوازم ذاته؛ كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه، فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك، وليس كذلك غضبه؛ فإنه ليس من لوازم ذاته، ولا يكون غضباناً دائماً غضباً؛ لا يُتصوَّر انفكاكه.

بل يقول رسله؛ وأعلم الخلق به يوم القيامة: «إن ربي قد غضب اليوم

---

(١) سورة غافر: الآية ٣.

(٢) سورة غافر: الآية ٣.

(٣) سورة غافر: الآية ٣.

(٤) تقدم تخريجه، وأوله: «لما قضى الله الخلق».

(٥) بدائع الفوائد ١/ ١٧٢.

(٦) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥١٥.

غضباً لم يغضب قبله مثله؛ ولن يغضب بعده مثله»[1].

ورحمته وسعت كلَّ شيءٍ؛ وغضبه لم يسع كلَّ شيءٍ، وهو ـ سبحانه ـ كتب على نفسه الرحمة؛ ولم يكتب على نفسه الغضب، ووسع كلَّ شيءٍ رحمة وعلماً؛ ولم يسع كلَّ شيءٍ غضباً وانتقاماً.

فالرحمة؛ وما كان بها؛ ولوازمها وآثارها: غالبةٌ على الغضب؛ وما كان منه؛ وآثاره، فوجود ما كان بالرحمة: أحبُّ إليه من وجود ما كان من لوازم الغضب.

ولهذا كانت الرحمة: أحبَّ إليه من العذاب، والعفو أحبَّ إليه من الانتقام، فوجود محبوبه أحبُّ إليه من فوات مكروهه؛ ولا سيَّما إذا كان فى فوات مكروهه فوات ما يُحبُّه من لوازمه، فإنه يكره فوات تلك اللوازم المحبوبة؛ كما يكره وجود ذلك الملزوم المكروه)[2].

وغلبة آثار ولوازم صفة الرحمة لآثار ولوازم صفة الغضب: لها مواطنُ ومنازلُ تظهر بها؛ وتتجلى فيها للعيان، فهي في الدار الأولى: تظهر في شرع الله تعالى وقدره، كما أنها في الدار الآخرة: تظهر في ثواب الله تعالى وعقابه، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن العفو أحبُّ إليه ـ سبحانه ـ من الانتقام، والرحمة أحبُّ إليه من العقوبة، والرِّضى أحبُّ إليه من الغضب، والفضل أحبُّ إليه من العدل، و لهذا ظهرت آثار هذه المحبة في: شرعه وقدره، ويظهر كلَّ الظهور لعباده في: ثوابه وعقابه)[3].

---

(١) تقدم تخريجه، وأوله: «أنا سيد الناس يوم القيامة».

(٢) الفوائد ص١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٤ ـ ٤٥٥.

كما قرَّر ــ رحمه الله تعالى ــ بعض الآثار الحميدة؛ واللوازم المجيدة الظاهرة في شرع الله تعالى وقدره؛ وفي ثوابه وعقابه؛ والمترتبة على فضل صفةِ الرحمة؛ وآثارِها ولوازِمها؛ وسبقها وغلبتها: على صفةِ الغضب؛ وآثارِها ولوازِمها، فمن هذه الآثار واللوازم الدالة على (أن الرحمة سبقت العقوبة؛ وغلبت الغضب)[1] ما يأتي:

أولاً: الآثار واللوازم الظاهرة في شرع الله تعالى وقدره، فمن ذلك:

١ ــ أن الهداية مضافةٌ إلى الله تعالى دون الإضلال، لأن الهداية أكملُ من الإضلال؛ وأسبق وأقوى، لأن مصدر الهداية: صفة الرحمة، ومصدر الإضلال: صفة الغضب، وقد نبَّه ــ رحمه الله تعالى ــ على ذلك ــ عند قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[2] ــ؛ فقال: (أضاف النعمة إليه؛ وحذف فاعل الغضب، لوجوهٍ منها:

أن النعمة: هي الخير والفضل، والغضب: من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما.

وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه؛ وحذف الفاعل في مقابلتهما، كقول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ۝١٠﴾[3]. ومنه قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾[4]، وقال في خرق السفينة:

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٣/ ٣٥٨.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ٧.

(٣) سورة الجن: الآية ١٠.

(٤) سورة الكهف: الآية ٨٢.

﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾[(١)]، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾[(٢)])[(٣)].

٢ ــ أن إعانة العبيد على فعل الطاعات؛ وجزاءهم عليها بالثواب: غالبٌ على خذلانهم عن فعلها؛ وجزائهم عليها بالعقاب، لأن الإعانة: من صفة الرحمة، والخذلان: من صفة الغضب، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن فعل ما يُحبُّه؛ والإعانة عليه؛ وجزاؤه؛ وما يترتَّب عليه من المدح والثناء: من رحمته، وفعل مايكره؛ وجزاؤه؛ وما يترتَّب عليه من الذم والألم والعقاب: من غضبه، ورحمته سابقةٌ على غضبه؛ غالبةٌ له)[(٤)].

٣ ــ أن إجابة دعاء الخير أرجى من إجابة دعاء الشرِّ، لأن مصدر دعاء الخير: صفة الرحمة، ومصدر دعاء الشرِّ: صفة الغضب، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إجابة دعاء الخير من صفة الرحمة، وإجابة ضدِّه من صفة الغضب، والرحمة تغلب الغضب)[(٥)].

٤ ــ أن مجيء النعم أكثر من طيِّ النقم، لأن أثر النعم: صفة الرحمة، وأثر النقم: صفة الغضب، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (الرحمة لها السبق والغلبة، فما في طيِّ النقم والعقوبات من الرحمة: أسبق من العقوبة؛ وهي الغاية للغضب، فلا بُدَّ أن يغلب أثرُها الغضبَ؛ كما غلبت الصفة للصفة)[(٦)].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٧٩.

(٢) سورة الكهف: الآية ٨٢.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٨.

(٤) الفوائد ص١٤٠.

(٥) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص٢٦.

(٦) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٢٥٦.

٥ ــ أن أسباب النجاة والمعافاة متقدِّمةٌ على أسباب الهلاك والابتلاء، لأن النجاة والمعافاة: أثر صفة الرحمة، والهلاك والابتلاء: أثر صفة الغضب، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن رحمته ــ سبحانه ــ سبقت غضبه في المُعذَّبين، فإنه أنشأهم برحمته؛ وربَّاهم برحمته؛ ورزقهم وعافاهم برحمته، وأرسل إليهم الرسل برحمته، وأسباب النقمة والعذاب مُتأخِّرٌ عن أسباب الرحمة؛ طارئةٌ عليها، فرحمته سبقت غضبه فيهم، وخَلَقَهم على خِلْقَةٍ تكون رحمته إليهم أقرب من غضبه وعقوبته.

ولهذا ترى الأطفال الكفار قد ألقى عليهم رحمته، فمن رآهم رحمهم، و لهذا نهى عن قتلهم، فرحمته سبقت غضبه فيهم؛ فكانت هي السابقة إليهم، ففي كلِّ حالٍ هم في رحمته؛ في حال مُعافاتهم وابتلائهم.

وإذا كانت الرحمة هي السابقة فيهم: لم يبطل أثرها بالكلية؛ وإن عارضها أثر الغضب والسخط، فذلك لسببٍ منهم، وأما أثر الرحمة فسببه منه ــ سبحانه وتعالى ــ ، فما منه يقتضي: رحمتهم، وما منهم يقتضي: عقوبتهم، والذي منه سابقٌ وغالبٌ، وإذا كانت رحمته تغلب غضبه؛ فلأن يغلب أثر الرحمة أثر الغضب: أولى وأحرى)[1].

٦ ــ أن حفظ السماوات والأرض أن تتزلزل؛ وإمساكهما أن تزولا: أكثر من زلزلتهما وزوالهما، لأن مصدر الحفظ والإمساك: صفة الرحمة، ومصدر الزلزلة والزوال: صفة الغضب، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن الذنب ــ وإن صغر ــ ؛ فإن مقابلة العظيم الذى لاشيء أعظم منه، الكبير الذي لا شيء أكبر منه، الجليل الذى لا أجلَّ منه ولا أجمل، المُنعم بجميع أنواع النعم ــ دقيقها وجليلها ــ : من أقبح الأمور وأفظعها

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٦٠ ــ ٤٦١.

وأشنعها، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك: يستقبحه كلُّ أحدٍ ــ مؤمنٍ وكافرٍ ــ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السماوات والأرض؛ وملك السماوات والأرض؛ وإله أهل السماوات والأرض؟

ولولا أن رحمته سبقت غضبه؛ ومغفرته سبقت عقوبته: وإلا لتزلزلت الأرض بمن قابله بما لا تليق مقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته: لزالت السماوات والأرض من معاصي العباد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤١﴾[1].

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما: (الحليم؛ والغفور)، كيف تجد تحت ذلك: أنه لولا حلمه عن الجناة؛ ومغفرته للعصاة لما استقرت السماوات والأرض؟

وقد أخبر سبحانه عن كفر بعض عباده أنه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾[2].

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنبٍ واحدٍ ارتكباه وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السماوات بذنبٍ واحدٍ ارتكبه وخالف فيه أمره، ونحن ــ معاشر الحمقى ــ كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجي ... درج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من ... ملكوته الأعلى بذنب واحد[3])[4].

---

(١) سورة فاطر: الآية ٤١.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٠.

(٣) لم أقف عليهما.

(٤) الداء والدواء ص١٣٨.

ثانياً: الآثار واللوازم الظاهرة في ثواب الله تعالى وعقابه، فمن ذلك:

١ ـ أنَّ جانب الفضل أرجحُ من جانب العدل، لأن مصدر الفضل: صفة الرحمة، ومصدر العدل: صفة الغضب، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (جانب الفضل أرجحُ من جانب العدل، ولهذا كان في جانب العدل آحادٌ بآحادٍ، وجانب الفضل آحادٌ بعشراتٍ؛ إلى سبعمائةٍ؛ إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

وهذا يدلُّ على رجحان جانب الفضل وغلبته، وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة، فإن رحمة الربِّ تغلب غضبه)[١].

٢ ـ أن الفضل أحبُّ إلى الله تعالى من العدل؛ والعفو أحبُّ إليه من الانتقام؛ والمسامحة أحبُّ إليه من الاستقصاء؛ والترك أحبُّ إليه من الاستيفاء، لأن مرجع الفضل والعفو والمسامحة والترك: إلى صفة الرحمة، ومرجع العدل والانتقام والاستقصاء والاستيفاء: إلى صفة الغضب، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله: (إن الفضل أحبُّ إليه من العدل؛ والعفو أحبُّ إليه من الانتقام؛ والمسامحة أحبُّ إليه من الاستقصاء؛ والترك أحبُّ إليه من الاستيفاء، ورحمته غلبت غضبه)[٢].

٣ ـ أن إمضاء الوعد أحبُّ إلى الله تعالى من إمضاء الوعيد، لأن منشأ آيات الوعد: صفة الرحمة، ومنشأ آيات الوعيد: صفة الغضب، وقد ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ذلك بقوله ـ في حقِّ مؤمني الجنِّ ـ: (دخول مؤمنهم في آيات الوعد: أولى من دخول كافرهم في آيات الوعيد، فإن الوعد: فضله، والوعيد: عدله، وفضله من رحمته؛ وهي تغلب غضبه)[٣].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٤٢١.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٥.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٧٤٨.

٤ ــ أن المجازات على المأمورات بالثواب أعظم من المجازات على المنهيات بالعقاب، لأن الثواب من باب: صفة الرحمة، والعقاب من باب: صفة الغضب، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (إن جزاء المأمورات: الثواب؛ وهو من باب الإحسان والفضل والرحمة، وجزاء المنهيات: العقوبة؛ وهي من باب الغضب والعدل، ورحمته ــ سبحانه ــ تغلب غضبه.

فما تعلَّق بالرحمة والفضل: أحبُّ إليه مما تعلَّق بالغضب والعدل، وتعطيل ما تعلَّق بالرحمة: أكره إليه من فعل ما تعلَّق بالغضب)[١].

٥ ــ أن دخول الجنة أرجى من دخول النار، لأن الجنة: ناشئة عن صفة الرحمة، والنار: ناشئة عن صفة الغضب، وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ ذلك بقوله: (ــ سبحانه وتعالى ــ قال للجنة: «أنت رحمتي؛ أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي؛ أعذب بك من أشاء»[٢].

وعذابه مفعولٌ منفصلٌ؛ وهو ناشىء عن غضبه، ورحمته ههنا هي الجنة، وهي رحمةٌ مخلوقةٌ ناشئةٌ عن الرحمة التي هي صفة الرحمن.

فههنا أربعة أمور: رحمةٌ هي وصفه ــ سبحانه ــ ، وثوابٌ منفصلٌ؛ هو ناشىءٌ عن رحمته، وغضبٌ يقوم به ــ سبحانه ــ ، وعقابٌ منفصلٌ ينشأ عنه.

فإذا غلبت صفة الرحمة صفة الغضب: فلأن يغلب ما كان بالرحمة لِمَا كان بالغضب: أولى وأحرى، فلا تقاوم النار التي نشأت عن الغضب: الجنة التي نشأت عن الرحمة)[٣].

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٧١ ــ ٧٢.

(٢) تقدم تخريجه، وأوله: «احتجَّت الجنة والنار».

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٤٨ ــ ٤٤٩.

فهذه جملةٌ من الآثار الحميدة؛ واللوازم المجيدة الظاهرة في شرع الله تعالى وقدره؛ وفي ثوابه وعقابه؛ والمترتبة على فضل صفةِ الرحمة؛ وآثارِها ولوازمِها؛ وسبقها وغلبتها: على صفةِ الغضب؛ وآثارِها ولوازمِها، فسبحان (من أفاض على عباده النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وأودع الكتاب الذي كتبه: أن رحمته تغلب غضبه)(١).

(وها هنا نكتةٌ بديعةٌ؛ يجب التفطُّن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأمُّلها)(٢)، وهي: أن صفة الرحمة لفضلها على صفة الغضب؛ وسبقها إياها؛ وغلبتها لها: لا تنفكُّ عن العباد في الدارين؛ ولا تُفارقهم في حالٍ من الأحوال، فهم يتقلَّبون في رحمة الله تعالى في يُسرهم وعُسرهم؛ ومنشطهم ومكرهم، وقد قرَّر الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى بقوله: (ـ سبحانه ـ له الكمال المطلق من جميع الوجوه؛ الذي يتنزَّه عن تقدير خلافه، ومنها: أنه يرضى ويغضب؛ ويُثيب ويُعاقب؛ ويُعطي ويمنع؛ ويُعِزُّ ويُذِلُّ؛ وينتقم ويعفو، بل هذا موجب ملكه الحقِّ؛ وحقيقة الملك المقرون بالحكمة والرحمة والحمد، فإذا زال غضبه ـ سبحانه وتعالى ـ؛ وتبدَّل برضاه: زالت عقوبته وتبدَّلت برحمته، فانقلبت العقوبة إلى رحمةٍ.

بل لم تزل رحمة؛ وإن تنوَّعت صفتها وصورتها، كما كان عقوبة العصاة رحمة؛ وإخراجهم من النار رحمة، فتقلَّبوا في رحمته في الدنيا؛ وتقلَّبوا فيها في الآخرة، لكن تلك الرحمة يُحبُّونها وتُوافق طبائعهم، وهذه رحمةٌ يكرهونها وتشقُّ عليهم، كرحمة الطبيب الذي يُبَضِّعُ لحم المريض ويُلقي عليه المكاوي؛ ليستخرج منه المواد الرديئة الفاسدة.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٣.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٥١.

فإن قيل: هذا اعتبارٌ غير صحيح، فإن الطبيب يفعل ذلك بالعليل؛ وهو يُحبُّه وهو راضٍ عنه، ولم يُنشأ فعله به عن غضبه عليه، ولهذا لا يُسمى عقوبة، وأما عذاب هؤلاء: فإنه إنما حصل بغضبه ــ سبحانه ــ عليهم، وهو عقوبةٌ محضةٌ.

قيل: هذا حقٌّ؛ ولكن لا يُنافي كونه رحمة بهم؛ وإن كان عقوبة لهم، وهذا كإقامة الحدود عليهم في الدنيا، فإنه عقوبةٌ ورحمةٌ وتخفيفٌ وطهرةٌ، فالحدود طُهرةٌ لأهلها وعقوبةٌ)[1].

فالواجب على العباد: أن تلهج ألسنتهم بحمد الله تعالى والثناء عليه؛ إذ سبقت رحمتُه غضبَه؛ وفضلُه عدلَه؛ وحلمُه انتقامَه؛ ورضاه سخطَه؛ ومعافاتُه عقوبتَه؛ وعفوُه مؤاخذتَه؛ ومسامحتُه استقصاءَه؛ وتركُه استيفاءَه؛ وعطاؤُه منعَه؛ وعزُّه إذلالَه؛ ونعمتُه نقمتَه؛ ووعدُه وعيدَه؛ وثوابُه عقابَه، ويقولوا بلسان الحال والمقال: (الحمد لله الذي رضي من عباده باليسير من العمل، وتجاوز لهم عن الكثير من الزلل، وأفاض عليهم النعمة؛ وكتب على نفسه الرحمة، وضمَّن الكتاب الذي كتبه: أن رحمته سبقت غضبه)[2].

كما (نسأل الله مثبت القلوب ــ تبارك وتعالى ــ أن يُثبِّت قلوبنا على دينه؛ وما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، إنه قريبٌ مجيبٌ)[3].

وهذا الفصل ــ الذي بختامه تُختتم فصول الكتاب ــ : (هو أنفع

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٣ ــ ٤٥٤.

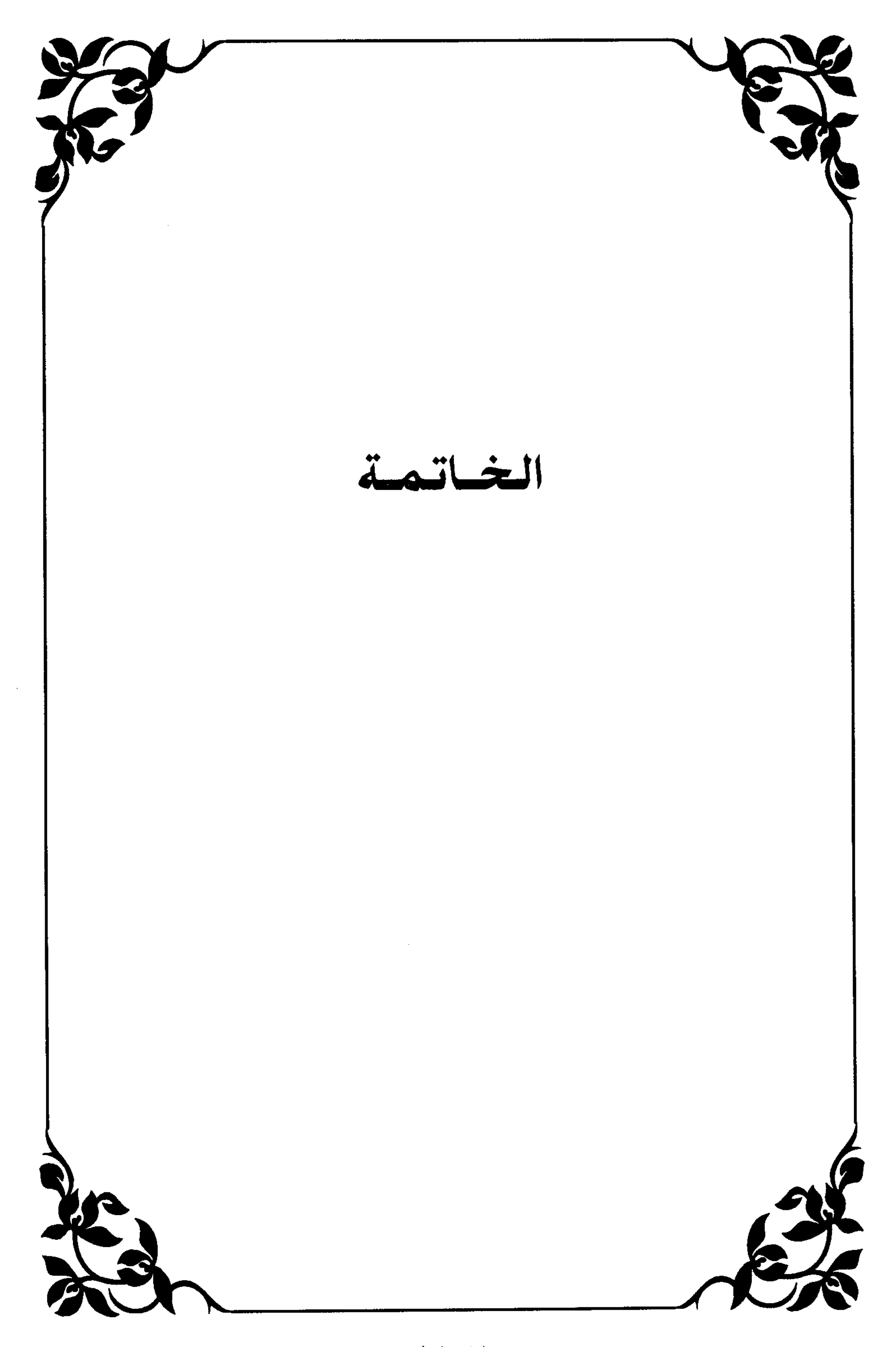
(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٤.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٣٠٤.

فصول الكتاب، ولولا الإطالة لوسَّعنا فيه المقال، وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال، ولقد فتح الله الكريم فيه الباب، وأرشد فيه إلى الصواب، وهو المرجوُّ لتمام نعمته، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[1].

❏❏❏

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٢/ ١٨٢ .



الخاتمة



فـي الختـام: أحمـد الله الملـك العـلَّام علـى حسـن تـوفيقـه للتمـام، وأسأله في خاتمة كلِّ عملٍ: مسك الختام، كما أسأله ــ سبحانه وتعالى ــ أن يُـوزعنـي شكـر نعمتـه علـيَّ، أن وفَّقنـي فـي هـذا البحـث لقـراءة مجمـوع مُؤَلَّفات الإمام ابن قيِّم الجوزية ــ رحمه الله تعالى ــ للغَوْصِ في بحر عِلْمِهِ؛ لاستخراج درر كَلِمِه ولآلىء فَهْمِه المُقَرِّرة لتوحيد أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى.

فكلامه في باب التوحيد ــ وفي غيره من الأبواب ــ: نافعٌ (لكلِّ أحدٍ، وهو حقيقٌ بأن تُثنى عليه الخناصر، ولعلَّك لا تظفر به في)[1] كلام كثيرٍ من علماء القرون المتوسطة، كيف لا؛ وهذا العِلْمُ بالنسبة إليه: (هو العَلَم الذي قد شمَّر إليه؛ ومطلوبه الذي يحوم بطلبه عليه، لا يثني عنانه عنه عذل عاذلٍ؛ ولا تأخذه فيه لومة لائمٍ؛ ولا يصدُّه عنه قول قائلٍ)[2].

وقد تنزَّهت ــ بحمد الله تعالى ــ أثناء قراءتي لمؤلَّفاته في (روضاتٍ مُونقاتٍ؛ وحدائقَ معجباتٍ، زاهيةٍ أزهارُها، مُونقةٍ ثمارُها، قد ذُلِّلت قطـوفهـا تـذليـلاً؛ وسُهِّلـت لمتنـاولهـا تسهيـلاً)[3]، فـاجتنيـتُ ــ بحمـد الله تعالى ــ من (ثمار علومه النافعة ــ الموصلة إلى الله سبحانه ــ من أشجاره؛

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٣١ ــ ٤٣٢.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ٩٥.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢/ ٦٢٩.

ورياحين الحِكَم من بين رياضه وأزهاره)[1]: درراً ولآلىء؛ يحسن ذكرها في (آخر الكتاب.

وقد جلبتُ إليك فيه نفائسَ في مثلها يتنافس المتنافسون، وجلَّيتُ عليكَ فيه عرائس إلى مثلهنَّ بادر الخاطبون، فإن شئت اقتبستَ)[2] من درر تقريراته ولآلىء توضيحاته:

١ ـ أهمية هذا التوحيد؛ وأنَّ معرفة الله تعالى إنما تكون بمعرفته، فهو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو زبدة الكتب الإلـٰهية ومفتاح الدعوة النبوية.

٢ ـ اقتضاء هذا التوحيد لمسمياته ومتعلَّقاته، مع ما له من الآثار على النفس والكون، وما فيه من الثمرات في القلب والجوارح.

٣ ـ إثبات هذا التوحيد بنصوص الكتاب العزيز والسنّة النبوية المُطَهَّرة، مع الاستدلال بإجماع الأمة وبما دلَّت عليه الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

٤ ـ وسطية أهل السنة والجماعة في هذا التوحيد بين أهل التمثيل وأهل التعطيل، وعنايتهم بإثباته بلا تمثيلٍ؛ وتنزيهه بلا تعطيلٍ، مع قطع الطمع عن إدراك كيفيته.

٥ ـ أنَّ أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى توقيفيةٌ وقديمةٌ، وتعدُّدها كمالٌ، وهما مصدر أفعال الله تعالى.

٦ ـ أنَّ الأسماء والصفات التي تُطلق على الله تعالى وعلى العبد ثابتةٌ لهما على الحقيقة، وأنَّ كلَّ كمالٍ ثبت للمخلوق لا نقص فيه فالخالق أحقُّ به وأولى.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٧.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٣/ ٣٨٨.

٧ ــ أنَّ أسماء الله تعالى كلَّها حسنى؛ لا تدخل تحت حصرٍ ولا تُحدُّ بعددٍ، وأن منها ما يُطلق على الله تعالى مفرداً ومقترناً بغيره؛ ومنها ما لا يطلق عليه إلاَّ مقروناً بمقابله، وهي إن دلَّت على وصفٍ مُتَعَدٍّ تضمَّنت ثبوت الاسم لله تعالى وثبوت الصفة التي تضمنها وثبوت حكمها ومقتضاها، كما أنَّ الاسم الواحد منها إن كان دالاًّ على عِدَّة صفاتٍ فإنه يتناولها جميعها تناول الاسم الدالّ على صفة واحدة، ودلالتها على ذات الله تعالى وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن وبالالتزام، كما أنَّ لها دلالةً على العلمية والوصفية، ولها اعتبارٌ من حيث الذات واعتبارٌ من حيث الصفات، وأنه يجب مجانبة الإِلحاد فيها.

٨ ــ أنَّ صفات الله العلى كلَّها صفاتُ كمالٍ، وأنَّ القول فيها كالقول في الذات؛ والقول في بعضها كالقول في البعض الآخر، وأنَّ الصفة الواحدة منها إذا قامت بمحلٍّ عاد حكمها إلى ذلك المحل، فكان هو الموصوف بها، وهي مضافةٌ إلى الله تعالى: من باب إضافة الصفة إلى موصوفها.

٩ ــ أنَّ أسماء الله تعالى وصفاته ثبتت بأدلة الكتاب والسنّة، وظاهرها هو ما يتبادر منها من المعاني، ولما كانت معلومة لنا باعتبارٍ؛ ومجهولةٍ باعتبارٍ آخر: وجب إجراؤها على ظاهرها دون تحريفٍ لها.

١٠ ــ الحث على إحصاء أسماء الله الحسنى؛ ومعرفة ألفاظها، وفهم معانيها ومدلولها، ودعاء الله تعالى بها.

١١ ــ أنَّ أصول الأسماء الحسنى ثلاثة: اسم (اللَّـه) المتضمن لصفات الألوهية، واسم (الربّ) المتضمن لصفات الربوبية، واسم (الرَّحمـٰن) المتضمن لصفات الإِحسان والجود والبرّ.

١٢ ــ أنَّ الصفات تنقسم باعتبار تعلُّقها بالإِثبات والسلب إلى صفات ثبوتية وصفات سلبية، وباعتبار تعلُّقها بذات الله تعالى وأفعاله إلى صفات

ذاتية وصفات فعلية، وباعتبار تعلُّقها بأدلة ثبوتها إلى صفات سمعية عقلية وصفات سمعية خبرية.

١٣ ــ أنَّ أسماء الله تعالى وإن كانت كلُّها حسنى؛ وصفاته وإن كانت كلُّها كمالاً، وهي أسماء وأوصاف لمُسمًّى وموصوفٍ واحد؛ إلَّا أنها تتفاضل فيما بينها.

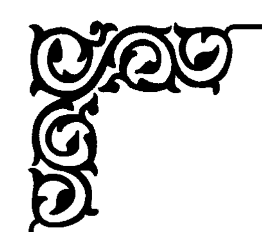
(إلى غير ذلك من الفوائد التي ما كان منها صواباً: فمن الله وحده هو المانُّ به، وما كان منها من خطأ: فمن مؤلّفه ومن الشيطان، والله بريءٌ منه ورسوله.

والله ــ سبحانه ــ المسؤول والمرغوب إليه المأمول: أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يُعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، وأن يُوَفِّقنا لما يُحِبُّه ويرضاه، إنه قريبٌ مجيبٌ.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين؛ وسلَّم تسليماً كثيراً)[1].



(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ٣/ ٣٨٩.




الفهارس العامة





أولاً:

فهرس الآيات القرآنية

طرف الآية ورقمها	الصفحة
سورة الفاتحة	
﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ : ١	١٠٨٤، ١٣٥٠
﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ : ٢	١٣١، ٤٤٣، ٨٩٧، ١٠٨٤، ١٠٨٧، ١١٠٣، ١١٠٧، ١٥٢٨، ١٥٨٢
﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ : ٣	١٣١، ٤٤٣، ١٠٨٤، ١٠٨٧، ١١٠٣، ١٣٨٧، ١٥٨٢
﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ : ٤	١٣١، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٦، ١٠٨٧، ١١٠٣، ١٢٩٧، ١٤٢٩
﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ : ٥	٤٣٤، ٤٣٥، ١٠٨٧، ١١٠٣، ١٢٦١
﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ : ٦	٤٣٥، ١٠٨٧
﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ : ٧	١٠٨٧، ١٣٩٣، ١٨٤٧

طرف الآية ورقمها	الصفحة
﴿ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾: ١٤٨	٩٥٠
﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾: ١٥٧	١٠١٨
﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾: ١٥٨	٩٥٠، ١٢٨٦، ١٥٦٦
﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾: ١٦٣	٥٣٢، ١٧٢١
﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾: ١٦٤	٥٣٢، ١٠٣٠، ١٠٥٤، ١٧٠٥، ١٧٠٧
﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾: ١٦٦	٩٥٦، ١٠٢٧
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾: ١٧٤	٥١٦
سورة المائدة	
﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾: ٣	٥١٥، ٩٦٤
﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾: ٤	١٠٣١
﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾: ٦	٥٥٠، ٨٥٠
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾: ٨	٦٧٢
﴿ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾: ١٣	٨٥٠
﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ﴾: ١٧	٩٥٤، ١١٩٩
﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾: ٣٨	٩١٦، ٩٥٠، ١٢٨٦
﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا ﴾: ٤٨	٢٠٨

طرف الآية ورقمها	الصفحة

سورة الأنعام

طرف الآية ورقمها	الصفحة
﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ : ٣٦	٩٣٣، ٩٦٤
﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ : ٣٨	٧٧٥
﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ : ٤٧	١٤٧٩
سورة الحجر	
﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ : ٢٣	١١٨٦، ١٤٨٠
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ : ٧٥	٢٩٠
﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ : ٩١	٦٨٦
سورة النحل	
﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ : ١٧	٧٠، ٦٠٥، ٨٩١، ١٤٣٤، ١٥٥٣
﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ : ١٨	٤٩
﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ : ٢٦	١٦٤٣
﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ : ٣٣	١٥٢٨، ١٥٤٢
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ : ٣٦	٢٠٧
﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾ : ٤٠	١٥٤٤، ١٧١١
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ : ٤٣	٧٢٧
﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ : ٤٤	٧٢٧
﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ : ٤٩	١٥٩٠
﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ : ٥٠	١٥٦٥، ١٥٩٠، ١٦٠١
﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ : ٦٠	٤١٣، ٤١٧، ٦١١، ٦١٣، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٧٩٩، ٨٧٣

طرف الآية ورقمها	الصفحة
﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾: ٦٦	٦٦٧، ٦٦٧، ٦٧٠، ١٣٥٥
﴿عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾: ٧٠	٩٦٤
﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا... فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾: ٧٣، ٧٤	٧٥٩
﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾: ٧٥	٦١٩، ٨٧٨، ١١٠٧
﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾: ٧٦	٦١٩، ٨٧٨
﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾: ٨٩	٢٥٧
﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾: ٩٣	٧٨٢، ٨٥١
﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾: ١٠٢	٨٩، ١٥٦٧
﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾: ١١٠	٤٢٦
﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: ١٢٣	١٢١
﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾: ١٢٨	١٦٤٦
سورة الإسراء	
﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾: ١	٣٧٠، ١٢٥٤
﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾: ٩	٢٥٧
﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ﴾: ١٦	١٥٢٧
﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾: ٢٩	١٠٣٢
﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾: ٣٦	٧٩٠، ٨٣٣
﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾: ٣٨	٢٧٢
﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾: ٤٤	٤٤٤

طرف الآية ورقمها	الصفحة
﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ : ٥٩	٥٢٥، ١٠٣١، ١٦١٨
﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ : ٧٦	١٠٢٢
سورة الشعراء	
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ : ٧	١٢٢٩
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ : ٨	٢٨٠
﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ : ٩	٢٨٠، ٩٣٠، ٩٣٢
﴿ فَٱذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ : ١٥	١٦٤٦
﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ : ٢٣	٧٩٦، ١٥١٦
﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ : ٢٤	٧٩٦، ١٥١٦
﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ : ٦١	١٦٦٢
﴿ قَالَ كَلَّآ ﴾ : ٦٢	١٦٦٢
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ : ٦٧	٢٨٠
﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ : ٦٨	٢٨٠، ٩٣٠، ٩٣٢
﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ : ٧٨	١١٥٥
﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ : ٩٧	٧٥٨
﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ : ٩٨	٧٥٨
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ : ١٠٣	٢٨٠
﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ : ١٠٤	٢٨٠، ٩٣٠، ٩٣٢
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ : ١٢١	٢٨٠
﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ : ١٢٢	٢٨٠، ٩٣٠، ٩٣٢

طرف الآية ورقمها	الصفحة

سورة السجدة

سورة الأحزاب

طرف الآية ورقمها	الصفحة
﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ : ٤٤	١٦٧٦، ١٦٥٤
﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ : ٥٢	١٢٦١، ٤٣٨
﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ : ٥٣	١٣٧٠، ١٠١٨
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ : ٧٠	٧
﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ : ٧١	٧
سورة سبأ	
﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ : ١	١٥٣١، ١٣٦٠، ١١٠٧
﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ : ٢	١٤٠٧، ١٣٦٠
﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ : ٣	١٥٢١، ٧٦٩
﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا ﴾ : ١٨	٣٧٠
﴿ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ : ٢٣	١٧٠٦، ١٧٠٠، ١٥٦٧
﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ : ٢٦	١٣٨٩
﴿ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ : ٥٠	١٤٥١
سورة فاطر	
﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ : ١	١٥٣٥، ١١٠٧، ١٠٩٠، ٨٩٧
﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ : ٢	٩٢٨، ٤١٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ : ٣	٤١٥
﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ : ٤	٧٢٧
﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ : ١٠	٣٧٨، ٩٥٦، ١٢١٨، ١٢٧٨، ١٤٤٧، ١٥١٩، ١٥٦٦، ١٥٩٧
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ : ٢٢	٦٢٠

سورة الزخرف

طرف الآية ورقمها	الصفحة
سورة الذاريات	
﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ : ٨	٨٢٨
﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ : ٩	٨٢٨
﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ : ٢٠	٥٩٠
﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ : ٢١	٨٨، ٥٩٠، ٥٩١، ١٣٣٨
﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ : ٢٩	٨٩٣
﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ : ٣٠	٨٩٣
﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ : ٤٧	١٠٢٨، ١٢٠٢
﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : ٥٥	١٢٨
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ : ٥٦	١١٦، ١٩٧، ١٧٨٢
﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ : ٥٨	٩٥٦، ٩٦٠، ١٠١٧، ١٠٢٧، ١٢٧١، ١٢٧٦، ١٣٩٠، ١٥١٨
سورة الطور	
﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ : ١٤	٤٠٨
﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ : ١٥	٤٠٨
﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ : ١٦	٤٠٨
﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ : ٢٨	١٣٨٥
﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ : ٤٨	٤٣٨، ١٢٦١
سورة النجم	
﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ : ١	٤٩٨

طرف الآية ورقمها	الصفحة
﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ : ٦	١٤٨٥
﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ : ١٢	١١٦، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠١
سورة التحريم	
﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ : ٣	١٠٣٠
سورة الملك	
﴿ بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ : ١	١٧٦٥
﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ : ٣	٦٠٢
﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ : ٤	٦٠٢
﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ : ١٠	٦٣٣
﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ ﴾ : ١١	١٢٩١
﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ : ١٣	٢٨٢، ١٣٣٩
﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ : ١٤	٧٠، ٢٨٢، ٦٠٥، ٧٣٥، ٩٥٥، ١٣٣٩، ١٥٥٢
سورة القلم	
﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ : ٤٢	٦٨٤، ٦٨٥
سورة الحاقة	
﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ : ٣٨	٥٩١
﴿ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ : ٣٩	٥٩١
﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ : ٤٠	٥٩١، ١٧٣١

طرف الآية ورقمها	الصفحة
﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ : ٥١	٦٢٠
سورة القيامة	
﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ : ٢٢	١٦٧٠، ١٦٥٨
﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : ٢٣	١٦٧٤، ١٦٧٠، ١٦٥٨، ٥٢٦
﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ : ٣٦	١٣٠٥، ٨٩٥
سورة الإنسان	
﴿ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ : ١	١٤٤٦
﴿ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ : ٥	٦٦٩
﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ : ٦	١٠١٨، ٦٦٩
﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ : ٩	١٧٣٩، ١٦٨٧
﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ : ١١	١٦٨٠
﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ﴾ : ٢٢	١٤٠٠
﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ : ٢٩	١٠٢٨
﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ : ٣٠	١٠٥٥، ١٠٢٨
سورة المرسلات	
﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ : ٢٣	٩٣٦، ٨٤٨
سورة النبأ	
﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ : ٢٦	١٨١٥
﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ : ٣٧	١١٥٨

طرف الآية ورقمها	الصفحة
سورة النازعات	
﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ : ١٦	٥٢٦، ١٧٠٥
﴿فَتَخْشَىٰ﴾ : ١٩	١٥٤
سورة التكوير	
﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ : ٢٨	١٠٢٨، ١٠٥٤
﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ : ٢٩	١٠٢٨، ١٠٥٥
سورة الانفطار	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ : ٦	٥٨٩
﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ : ٧	٥٨٩
﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ : ٨	٥٨٩
﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ : ١٩	١١٩٨
سورة المطففين	
﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ : ١٥	١٦٥٥، ١٦٥٧، ١٦٨٥
﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ : ١٦	١٦٨٥
﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ : ٢٢	١٦٨٤
﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ : ٢٣	١٦٨٤
﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ : ٢٦	٤٨٧، ١١٦٩
﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ : ٣٢	١٦٨٥
﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ : ٣٤	١٦٨٥
﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ : ٣٥	١٦٨٥

طرف الآية ورقمها	الصفحة

طرف الآية ورقمها	الصفحة

طرف الآية ورقمها	الصفحة
سورة العلق	
﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ : ١	١٣٣٤
﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ : ٢	١٣٣٤
﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ : ٣	١٢٣٠، ١٣٣٤
﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ : ٤	١٣٣٤
﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ : ٥	١٣٣٤
﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ : ١٤	٤٣٨، ١٢٦١
﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ : ١٩	١٤١٧
سورة القدر	
﴿ سَلَٰمٌ ﴾ : ٥	١٣٢٠
سورة البينة	
﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ : ٨	١٠٢٩
سورة العاديات	
﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ : ١١	١٢٤٧
سورة الكوثر	
﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ : ٢	٣٧٩
سورة الكافرون	
﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ : ١	١٨٦
سورة الإخلاص	
﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : ١	١٨٦، ٧٩٥، ١٥١٦، ١٥٧٣

ثانياً:
فهرس الأحاديث النبوية



ثالثاً:
فهرس الآثار والأقوال

رابعاً:
فهرس الأعلام المترجَمين

العلم	الصفحة

العلم	الصفحة

العلم	الصفحة

العلم	الصفحة

العلم	الصفحة

العلم	الصفحة

العلم	الصفحة

العلم	الصفحة
أبو الوفاء ابن عقيل	١٠٠٩
وكيع	٧٨٨
وكيع بن عدس	١٥٨١
أبو الوليد بن رشد	٧٨
الوليد بن مسلم	١٧٠١
ابن وهب	١٧٦١
يحيى بن بكير	١٣٩٦
يحيى بن سعيد	٣٠٥
يحيى بن معاذ	١٣٧٢
يحيى بن معين	٧١٠
يزيد بن المقدام بن شريح	٨٦٧
يعلى بن عطاء	١٥٨١
ابن يعيش	٦١

❑ ❑ ❑

خامساً:
فهرس المذاهب والفِرَق

❑ ❑ ❑

سادساً:

فهرس الكلمات الغريبة والأمثال العربية والمصطلحات العلميّة

المادة	الصفحة

المادة	الصفحة

المادة	الصفحة

المادة	الصفحة

❏ ❏ ❏

سابعاً:
فهرس الأبيات الشعرية

الشطر	القافية	القائل	الصفحة
شتان بين العسكرين فمن يكن	الفتنان	ابن قيم الجوزية	٧٦٦
دار السلام وجنة المأوى ومنزل	القرآن	ابن قيم الجوزية	١٢٣٠
وكذاك رفع الروح عيسى المرتضى	القرآن	ابن قيم الجوزية	١٥٦٦
ولأجل ذا ضحى بجعد خالد	القربان	ابن قيم الجوزية	٢٤٧
وكذلك الجبار من أوصافه	قسمان	ابن قيم الجوزية	١٣٢٥
والله أكبر جل عن شبه وعن	كفران	ابن قيم الجوزية	٩٠٩
هذا وثانيها صريح علوه	لفظان	ابن قيم الجوزية	١٢٣٣
قوم هم بالله ثم رسوله	للإيمان	ابن قيم الجوزية	٥٧٤
هذا وثامنها بسورة غافر	للرحمن	ابن قيم الجوزية	١٦٠٥
وهذا من أوصافه القدوس ذو	للرحمن	ابن قيم الجوزية	١٣١٣
وهو الودود يحبهم ويحبه	للمنان	ابن قيم الجوزية	١٣٥٦
أسماؤه أوصاف مدح كلها	لمعان	ابن قيم الجوزية	٩٧٦
فالرسل جاؤونا بإثبات العلو	مكان	ابن قيم الجوزية	١٥٨٧
وكذاك يشهد أنه سبحانه	مكان	ابن قيم الجوزية	١٥٩٢
هو قابض هو باسط هو خافض	الميزان	ابن قيم الجوزية	١٤٧٣
يراد من القلب نسيانكم	الناقل	أبو الطيب المتنبي	١٣٢
وهو السلام على الحقيقة سالم	نقصان	ابن قيم الجوزية	١٣٢١
الكامل الأوصاف من كل الوجوه	نقصان	ابن قيم الجوزية	٩٩٢
وهو العلي فكل أنواع العلو	نكران	ابن قيم الجوزية	١٢٣٨
توحيده نوعان علمي وقصدي	النوعان	ابن قيم الجوزية	١٨٨
هذا وثالثها صريح الفوق مصحوباً	نوعان	ابن قيم الجوزية	١٥٦٥
والله أخبر في الكتاب بأنه	نوعان	ابن قيم الجوزية	١٠٢٦
وكذلك التواب من أوصافه	نوعان	ابن قيم الجوزية	١٣٦٧
وهو اللطيف بعبده ولعبده	نوعان	ابن قيم الجوزية	١٣٨٤
هذا هو الإلحاد فاحذره لعل	نيران	ابن قيم الجوزية	٩٧٧

الشطر	القافية	القائل	الصفحة
شتان بين الحالتين فإن ترد	يجتمعان	ابن قيم الجوزية	٧٦٦
وما ذاق طعم العيش من لم يكن	يسكن	ـــ	١٤٨
وزعمت أن الله يضحك عندما	يقتتلان	ابن قيم الجوزية	١٨٠٨
أنّى يقاوم ذا العساكر طمطم	اليونان	ابن قيم الجوزية	٧١٢
عقلان عقل بالنصوص مؤيد	اليونان	ابن قيم الجوزية	٥٧٥
يا من ألوذ به فيما أؤمله	أحاذره	أبو الطيب المتنبي	١٢٩٨
غنيت بلا مال عن الناس كلهم	به	ـــ	٤٢٤
وكل نص أوهم التشبيها	تنزيهاً	برهان الدين اللقاني	١٠٦١
وإن كان أثل الواد يجمع بيننا	خزامه	ـــ	٣١٩
بدا لك سر طال عنك اكتتامه	ظلامه	ـــ	١٥٨
قالوا أتشكو إليه	عليه	ـــ	١١٣٠
نزه فؤادك عن سوانا وائتنا	منزه	ـــ	٤١٤
ونص الحديث إلى أهله	نصه	طرفة بن العبد	٣٩
فأوردتهم ماأسفاً قعره	فاستوى	ـــ	١٦٢٠
وصبحتهم ماء بفيفاء قفرة	فاستوى	ـــ	١٦٢٠
خليلي لا والله ما أنا منكما	ليا	ـــ	٤١٣



ثامناً:
فهرس المراجع والمصادر العلمية

أولاً ــ كتب الإمام ابن قيم الجوزية:

١ ــ **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية**: إعداد وتحقيق/ الدكتور عواد عبد الله المعتق ــ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م).

٢ ــ **أحكام أهل الذمة**: حققه وعلق حواشيه/ الدكتور صبحي الصالح ــ دار العلم للملايين (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الرابعة (١٩٩٤م).

٣ ــ **إعلام الموقعين عن رب العالمين**: راجعه وقدم له وعلق عليه/ طه عبد الرؤوف سعد ــ دار الجيل (بيروت/ لبنان).

٤ ــ **إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان**: تقديم وتحقيق/ الدكتور أحمد حجازي السقا ــ مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٥ ــ **إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان**: تصحيح وتحقيق وتعليق/ محمد عفيفي ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان)؛ دار الخاني (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م).

٦ ــ **بدائع الفوائد**: حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ معروف مصطفى زريق؛ محمد وهبي سليمان؛ علي عبد الحميد بلطه جي ــ دار الخاني (الرياض/ المملكة العربية السعودية)؛ دار الخير (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م).

٧ ـ **التبيان في أقسام القرآن**: قدم له وحققه وعلق عليه/ محمد شريف سكر ـ دار إحياء العلوم (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م).

٨ ـ **تحفة المودود بأحكام المولود**: عناية/ بسام عبد الوهاب الجابي ـ دار البشائر الإسلامية (بيروت/ لبنان)؛ الجفان والجابي (قبرص/ تركيا) ـ الطبعة الثانية (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

٩ ـ **تهذيب مختصر سنن أبي داود**: دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

١٠ ـ **جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام**: قرأه وضبط نصه وعلق عليه وخرج أحاديثه/ مشهور بن حسن آل سلمان ـ دار ابن الجوزي (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثالثة (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

١١ ـ **جواب في صيغ الحمد**: تحقيق وتخريج/ محمد بن إبراهيم السعران ـ دار العاصمة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ).

١٢ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**: حققه وعلق عليه/ علي الشربجي؛ قاسم النوري ـ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

١٣ ـ **الداء والدواء**: حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه/ علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد ـ دار ابن الجوزي (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثالثة (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

١٤ ـ **رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه**: راجعها وعلق عليها/ الدكتور أسامة محمد عبد العظيم حمزة ـ دار الفتح (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م).

١٥ ـ **الرسالة التبوكية**: حققها وضبطها وخرج أحاديثها وعلق عليها/ سليم بن عيد الهلالي ـ مكتبة الخراز (جدة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

١٦ ــ **الروح**: حقق نصوصه وخرجه/ يوسف علي بديوي ــ دار ابن كثير (دمشق/ الجمهورية العربية السورية)؛ (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الرابعة (١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م).

١٧ ــ **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**: تحقيق ودراسة/ الدكتور السيد الجميلي ــ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م).

١٨ ــ **زاد المعاد في هدي خير العباد**: حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعيب الأرناؤوط؛ عبد القادر الأرناؤوط ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان)؛ مكتبة المنار الإسلامية (حولي/ الكويت) ــ الطبعة الثانية (١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م).

١٩ ــ **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**: تحقيق/ عمر بن سليمان الحفيان ــ مكتبة العبيكان (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م).

٢٠ ــ **الصلاة وحكم تاركها**: اعتنى بضبط نصه وتخريج أحاديثه/ محمد نظام الدين الفتيح ــ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م).

٢١ ــ **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**: حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه وقدم له/ الدكتور علي بن محمد الدخيل الله ــ دار العاصمة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤١٢هـ).

٢٢ ــ **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**: خرج آياته وأحاديثه/ زكريا عميرات ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م).

٢٣ ــ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**: حقق نصوصه وخرجه/ يوسف علي بديوي ــ دار ابن كثير (دمشق/ الجمهورية العربية السورية)؛ (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م).

٢٤ ــ **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**: ضبط نصه وعلق عليه وخرج أحاديثه/ سليم بن عيد الهلالي ــ دار ابن الجوزي (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ــ (١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م).

٢٥ ــ **الفروسية**: تحقيق/ مشهور بن حسن بن سلمان ــ دار الأندلس (حائل/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م).

٢٦ ــ **الفوائد**: ضبطها وحققها/ عبد السلام شاهين ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الرابعة (١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م).

٢٧ ــ **فوائد حديثية وفيه فوائد في الكلام على أحاديث الغمامة وحديث الغزالة والضب وغيره**: تحقيق وتخريج/ مشهور بن حسن آل سلمان؛ إياد بن عبد اللطيف القيسي ــ دار ابن الجوزي (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م).

٢٨ ــ **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**: عني بها/ عبد الله بن محمد العمير ــ دار ابن خزيمة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م).

٢٩ ــ **كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء**: تحقيق/ ربيع بن أحمد خلف ــ دار الجيل (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م).

٣٠ ــ **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**: تحقيق/ سيد إبراهيم ــ دار الحديث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م).

٣١ ــ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م).

٣٢ ــ **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة**: قدم له وضبط نصه وعلق عليه وخرج أحاديثه/ علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد ــ دار ابن عفان (الخبر/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م).

٣٣ ــ **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**: حققه/ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ــ أعده وأخرجه/ منصور بن عبد العزيز السماري ــ دار العاصمة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م).

٣٤ ــ **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**: تحقيق ودراسة/ الدكتور محمد أحمد الحاج ــ دار القلم (دمشق/ الجمهورية العربية السورية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م).

٣٥ ــ **الوابل الصيب من الكلم الطيب**: دراسة وتحقيق/ محمد عبد الرحمن عوض ــ دار الكتاب العربـي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثالثة (١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م).

ثانياً ــ الكتب الأخرى:

٣٦ ــ **آداب البحث والمناظرة**: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ــ مكتبة ابن تيمية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية)؛ مكتبة العلم (جدة/ المملكة العربية السعودية).

٣٧ ــ **الإبانة عن أصول الديانة**: علي بن إسماعيل الأشعري ــ مطبوعات الجامعة الإسلامية (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ).

٣٨ ــ **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة (الرد على الجهمية)**: عبيد الله بن بطة العكبري ــ تحقيق ودراسة/ الدكتور يوسف بن عبد الله الوابل ــ دار الراية (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ).

٣٩ ــ **إبراز المعاني من حرز الأماني**: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبـي شامة ــ تحقيق وتعليق/ محمود بن عبد الخالق جادو ــ مطبوعات الجامعة الإسلامية (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ (١٤١٣هـ).

٤٠ ــ **إبطال التأويلات لأخبار الصفات**: محمد بن الحسين بن الفراء ــ تحقيق ودراسة/ محمد بن حمد الحمود النجدي ــ مكتبة دار الإمام الذهبـي (حولي/ الكويت) ــ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ).

٤١ ــ **ابن قيم الجوزية: حياته وآثاره**: بكر بن عبد الله أبو زيد ــ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م).

٤٢ ـ **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر (المسمى منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات)**: أحمد بن محمد البنا ـ حققه وقدم له/ الدكتور شعبان محمد إسماعيل ـ عالم الكتب (بيروت/ لبنان)؛ مكتبة الكليات الأزهرية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

٤٣ ـ **الإتقان في علوم القرآن**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار التراث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٤٤ ـ **إثبات صفة العلو**: عبد الله بن قدامة المقدسي ـ عناية/ بدر بن عبد الله البدر ـ دار ابن الأثير (الجهراء/ الكويت) ـ الطبعة الثانية (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م).

٤٥ ـ **الأثر المشهور عن الإمام مالك في صفة الاستواء**: الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر ـ مجلة الجامعة الإسلامية (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ـ العدد (١١١) ـ (١٤٢١هـ).

٤٦ ـ **أخبار القضاة**: محمد بن خلف بن حيان المعروف بوكيع ـ عالم الكتب (بيروت/ لبنان).

٤٧ ـ **اختيار الأولى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى**: عبد الرحمن بن رجب البغدادي ـ حققه وخرج أحاديثه/ حسين الجمل ـ مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

٤٨ ـ **الأدب المفرد**: محمد بن إسماعيل البخاري ـ مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

٤٩ ـ **الأربعين في صفات رب العالمين**: محمد بن أحمد الذهبي ـ قدم له وحقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ عبد القادر بن محمد عطا صوفى ـ مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ).

٥٠ ـ **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**: عبد الملك بن عبد الله الجويني ـ تحقيق/ أسعد تميم ـ مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

٥١ ــ **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**: أحمد بن محمد القسطلاني ــ دار إحياء التراث العربي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة السادسة (١٣٠٤هـ).

٥٢ ــ **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**: محمد بن علي الشوكاني ــ حققه وعلق عليه/ الدكتور شعبان محمد إسماعيل ــ دار الكتبى (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م).

٥٣ ــ **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**: محمد ناصر الدين الألباني ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م).

٥٤ ــ **أساس البلاغة**: محمود بن عمر الزمخشري ــ دار بيروت (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م).

٥٥ ــ **أسباب النزول**: علي بن أحمد الواحدي ــ تخريج وتدقيق/ عصام بن عبد المحسن الحميدان ــ دار الإصلاح (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١١هـ ــ ١٩٩١م).

٥٦ ــ **أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين**: عبد الفتاح القاضي ــ دار الندوة الجديدة (بيروت/ لبنان) (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م).

٥٧ ــ **الاستغناء في معرفة المشهورين من حملة العلم بالكنى**: يوسف بن عبد البر النمري ــ دراسة وتحقيق وتخريج/ الدكتور عبد الله مرحول السوالمة ــ دار ابن تيمية (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م).

٥٨ ــ **الإستقامة**: أحمد بن تيمية الحراني ــ تحقيق/ الدكتور محمد رشاد سالم ــ مكتبة ابن تيمية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٥٩ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: يوسف بن عبد البر النمري ــ تحقيق وتعليق/ علي محمد معوض؛ عادل أحمد عبد الموجود ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م).

٦٠ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير ــ تحقيق وتعليق/ علي محمد معوض؛ عادل أحمد عبد الموجود ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م).

٦١ ــ **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة**: علي بن محمد بن سلطان المعروف بالملا علي القاري ــ حققه وعلق عليه وشرحه/ محمد بن لطفي الصباغ ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

٦٢ ــ **اسم الله الأعظم**: الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي ــ دار الوطن (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م).

٦٣ ــ **أسماء الله الحسنى**: عبد الله بن صالح الغصن ــ دار الوطن (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م).

٦٤ ــ **الأسماء والصفات**: أحمد بن الحسين البيهقي ــ حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ عبد الله بن محمد الحاشدي ــ مكتبة السوادي (جدة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م).

٦٥ ــ **الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة**: الدكتور عمر سليمان الأشقر ــ دار النفائس (عمان/ المملكة الأردنية الهاشمية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م).

٦٦ ــ **الإسماعيلية (تاريخ وعقائد)**: إحسان إلهي ظهير ــ إدارة ترجمة السنة (لاهور/ باكستان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

٦٧ ــ **الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**: محمد بن أحمد القرطبي ــ ضبط النص وشرح مادته اللغوية/ الأستاذ الدكتور محمد حسن جبل ــ خرج أحاديثه وعلق عليه/ طارق أحمد محمد ــ دار الصحابة للتراث (طنطا/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م).

٦٨ ــ **إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين**: عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني ــ تحقيق/ الدكتور عبد المجيد دياب ــ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

٦٩ ـ **اشتقاق أسماء الله**: عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ـ تحقيق/ الدكتور عبد الحسين المبارك ـ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

٧٠ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: أحمد بن حجر العسقلاني ـ حقق أصوله وضبط أعلامه ووضع فهارسه/ علي محمد البجاوي ـ دار الجيل (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

٧١ ـ **أصول الإسماعيلية (دراسة؛ تحليل؛ نقد)**: الدكتور سليمان بن عبد الله السلومي ـ دار الفضيلة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م).

٧٢ ـ **الأضداد**: محمد بن القاسم الأنباري ـ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبة العصرية (بيروت/ لبنان) ـ (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

٧٣ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ـ مكتبة ابن تيمية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٧٤ ـ **الاقتصاد في الاعتقاد**: عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي ـ حققه وعلق عليه/ الدكتور أحمد بن عطية الغامدي ـ مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).

٧٥ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**: أحمد بن تيمية الحراني ـ تحقيق وتعليق/ الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل ـ دار المسلم (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الخامسة (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م).

٧٦ ـ **إعراب القرآن الكريم وبيانه**: محيي الدين الدرويش ـ اليمامة (دمشق/ الجمهورية العربية السورية)؛ دار ابن كثير (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

٧٧ ـ **إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم**: الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٧٨ ــ **الأعلام**: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي ــ دار العلم للملايين (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثامنة (١٩٨٩م).

٧٩ ــ **أعيان العصر وأعوان النصر**: خليل بن أيبك الصفدي ــ حققه/ الدكتور علي أبو زيد؛ الدكتور نبيل أبو عمشة؛ الدكتور محمد موعد؛ الدكتور محمود سالم محمد ــ دار الفكر المعاصر (بيروت/ لبنان)؛ دار الفكر (دمشق/ الجمهورية العربية السورية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م).

٨٠ ــ **الأغاني**: علي بن الحسين الأصفهاني ــ دار إحياء التراث العربي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م).

٨١ ــ **إكمال المعلم بفوائد مسلم**: عياض بن موسى اليحصبي ــ تحقيق/ الدكتور يحيى إسماعيل ــ دار الوفاء (المنصورة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م).

٨٢ ــ **الألفية في النحو والصرف**: محمد بن مالك الأندلسي ــ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ (١٣٥٨هـ ــ ١٩٤٠م).

٨٣ ــ **الأم**: محمد بن إدريس الشافعي ــ خرج أحاديثه وعلق عليه/ محمود مطرجي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م).

٨٤ ــ **إنباه الرواة على أنباه النحاة**: علي بن يوسف القفطي ــ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار الفكر العربي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية)؛ مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

٨٥ ــ **إنباه الغمر بأبناء العمر في التاريخ**: أحمد بن حجر العسقلاني ــ مراقبة/ الدكتور محمد عبد المعيد خان ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

٨٦ ـ **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين**: عبد الرحمن بن محمد الأنباري ـ المكتبة العصرية (بيروت/ لبنان) ـ (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

٨٧ ـ **إيثار الحق على الخلق**: محمد بن إبراهيم المعروف بالوزير اليماني ـ مكتبة العلم (جدة/ المملكة العربية السعودية)؛ مكتبة ابن تيمية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٨٨ ـ **إيجاز البيان عن معاني القرآن**: محمود بن أبي الحسن النيسابوري ـ دراسة وتحقيق/ الدكتور علي بن سليمان العبيد ـ مكتبة التوبة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

٨٩ ـ **الإيمان**: عبد الله بن أبي شيبة العبسي ـ حققه وقدم له وخرج أحاديثه وعلق عليه/ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).

٩٠ ـ **البدء والتاريخ**: مطهر بن طاهر المقدسي ـ مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٩١ ـ **البداية والنهاية**: إسماعيل بن كثير الدمشقي ـ تحقيق/ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ دار هجر (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

٩٢ ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**: محمد بن علي الشوكاني ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان).

٩٣ ـ **البدع والنهي عنها**: محمد بن وضاح القرطبي ـ تحقيق ودراسة/ عمرو عبد المنعم سليم ـ مكتبة ابن تيمية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ).

٩٤ ـ **البرهان في علوم القرآن**: محمد بن عبد الله الزركشي ـ تحقيق/ الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي؛ جمال حمدي الذهبي؛ إبراهيم عبد الله الكردي ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

٩٥ ــ **البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان**: عباس بن منصور السكسكي ــ تحقيق/ الدكتور بسام علي العموش ــ مكتبة المنار (الزرقاء/ المملكة الأردنية الهاشمية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م).

٩٦ ــ **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ــ المكتبة العصرية (بيروت/ لبنان).

٩٧ ــ **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة**: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ــ حققه/ محمد المصري ــ مركز المخطوطات والتراث (الصفاة/ الكويت) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م).

٩٨ ــ **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**: أحمد بن تيمية الحراني ــ تصحيح وتكميل وتعليق/ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ــ دار القاسم (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٢١هـ).

٩٩ ــ **تأثر اليهودية بالأديان الوثنية**: الدكتور فتحي محمد الزغبي ــ دار البشير (طنطا/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م).

١٠٠ ــ **تاج العروس من جواهر القاموس**: محمد مرتضى الزبيدي ــ راجعته/ لجنة فنية من وزارة الإعلام ــ مطبعة حكومة الكويت ــ الطبعة الأولى (١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٥م).

١٠١ ــ **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول**: صديق بن حسن القنوجي ــ مكتبة دار السلام (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م).

١٠٢ ــ **التاريخ**: خليفة بن خياط العصفري ــ تحقيق/ الدكتور أكرم ضياء العمري ــ دار طيبة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م).

١٠٣ ــ **تاريخ أسماء الثقات ممن نقل عنهم العلم**: عمر بن أحمد بن عثمان المعروف بابن شاهين ــ حققه وعلق عليه/ الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

١٠٤ ـ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: محمد بن أحمد الذهبي ـ تحقيق/ الدكتور عمر عبد السلام تدمري ـ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

١٠٥ ـ **تاريخ الأمم والملوك**: محمد بن جرير الطبري ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

١٠٦ ـ **تاريخ الثقات**: أحمد بن عبد الله العجلي ـ وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه/ الدكتور عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م).

١٠٧ ـ **التاريخ الكبير**: محمد بن إسماعيل البخاري ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

١٠٨ ـ **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**: محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

١٠٩ ـ **تاريخ بغداد**: أحمد بن علي الخطيب البغدادي ـ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان).

١١٠ ـ **التبيان في إعراب القرآن**: عبد الله بن الحسين العكبري ـ تحقيق/ علي محمد البجاوي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي.

١١١ ـ **التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين**: عبد الله بن الحسين العكبري ـ تحقيق ودراسة/ الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ـ دار الغرب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

١١٢ ـ **تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)**: عمر بن مظفر المعروف بابن الوردي ـ المطبعة الحيدرية (النجف/ الجمهورية العربية العراقية) ـ الطبعة الثانية (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م).

١١٣ ـ **التحبير في المعجم الكبير**: عبد الكريم بن محمد السمعاني ـ تحقيق/ منيرة ناجي سالم ـ مطبعة الإرشاد (بغداد/ الجمهورية العربية العراقية) ـ (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م).

١١٤ ــ **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**: محمد عبد الرحمن المباركفوري ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م).

١١٥ ــ **تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف**: يوسف بن عبد الرحمن المزي ــ تحقيق/ عبد الصمد شرف الدين ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان)؛ الدار القيمة (بومباي/ الهند) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م).

١١٦ ــ **تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين**: محمد بن علي الشوكاني ــ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م).

١١٧ ــ **تخجيل من حرف التوراة والإنجيل**: صالح بن الحسين الجعفري ــ دراسة وتحقيق/ الدكتور محمود عبد الرحمن قدح ــ مكتبة العبيكان (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م).

١١٨ ــ **تخريج حديث الأسماء الحسنى**: أحمد بن حجر العسقلاني ــ تحقيق/ مشهور بن حسن بن سلمان ــ مكتبة الغرباء الأثرية (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ).

١١٩ ــ **تذكرة الأريب في تفسير الغريب**: عبد الرحمن بن علي الجوزي ــ تحقيق/ الدكتور علي حسين البواب ــ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٦م).

١٢٠ ــ **تذكرة الحفاظ**: محمد بن أحمد الذهبي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

١٢١ ــ **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**: محمد بن أحمد القرطبي ــ دار الريان للتراث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م).

١٢٢ ــ **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**: عياض بن موسى اليحصبي ــ تحقيق/ الدكتور أحمد بكير محمود ــ دار مكتبة الحياة (بيروت/ لبنان)؛ دار مكتبة الفكر (طرابلس/ ليبيا).

١٢٣ ــ **الترغيب والترهيب**: إسماعيل بن محمد الأصبهاني المعروف بقوام السنة ــ اعتنى به/ أيمن بن صالح بن شعبان ــ دار الحديث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م).

١٢٤ ــ **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ــ ضبط أحاديثه وعلق عليه/ مصطفى محمد عمارة ــ دار إحياء التراث العربي ــ الطبعة الثالثة (١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م).

١٢٥ ــ **التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة**: محمد بن الحسين الآجري ــ حققه وخرج أحاديثه وضبط نصه/ سمير بن أمين الزهيري ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م).

١٢٦ ــ **التعريفات**: علي بن محمد الجرجاني ــ حققه وقدم له ووضع فهارسه/ إبراهيم الأبياري ــ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م).

١٢٧ ــ **تغليق التعليق على صحيح البخاري**: أحمد بن حجر العسقلاني ــ دراسة وتحقيق/ سعيد عبد الرحمن موسى القزقي ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان)؛ دار عمار (عمان/ المملكة الأردنية الهاشمية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م).

١٢٨ ــ **تفسير أسماء الله الحسنى**: إبراهيم بن السري الزجاج ــ تحقيق/ أحمد يوسف الدقاق ــ دار الثقافة العربية (دمشق/ الجمهورية العربية السورية) ــ الطبعة الخامسة (١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م).

١٢٩ ــ **تفسير القرآن**: عبد الرزاق بن همام الصنعاني ــ تحقيق/ الدكتور مصطفى مسلم محمد ــ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ــ ١٩٨٩م).

١٣٠ ــ **تفسير القرآن**: محمد بن منصور السمعاني ــ تحقيق/ ياسر بن إبراهيم؛ غنيم بن عباس بن غنيم ــ دار الوطن (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م).

١٣١ ــ **تفسير القرآن العظيم**: إسماعيل بن كثير الدمشقي ــ تحقيق/ سامي بن محمد السلامة ــ دار طيبة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م).

١٣٢ ــ **تفسير القرآن العظيم**: عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ــ تحقيق/ أسعد محمد الطيب ــ مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م).

١٣٣ ــ **التفسير الكبير**: محمد بن عمر الرازي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١١هـ ــ ١٩٩٠م).

١٣٤ ــ **تفسير المشكل من غريب القرآن العظيم على الإيجاز والاختصار**: مكي بن طالب القيسي ــ دراسة وتحقيق/ هدى الطويل المرعشلي ــ دار النور الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م).

١٣٥ ــ **تفسير غريب القرآن**: عمر بن علي الأنصاري المعروف بابن الملقن ــ تحقيق/ سمير طه المجذوب ــ عالم الكتب (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م).

١٣٦ ــ **تقريب التهذيب**: أحمد بن حجر العسقلاني ــ قدم له وقابله بأصل مؤلفه/ محمد عوامه ــ دار الرشيد (حلب/ الجمهورية العربية السورية) ــ الطبعة الثالثة (١٤١١هـ ــ ١٩٩١م).

١٣٧ ــ **تقرير القواعد وتحرير الفوائد**: عبد الرحمن بن رجب البغدادي ــ ضبط نصه وعلق عليه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه وآثاره/ مشهور بن حسن آل سلمان ــ دار ابن عفان (الخبر/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م).

١٣٨ ــ **التكملة لوفيات النقلة**: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ــ حققه وعلق عليه/ الدكتور بشار عواد معروف ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م).

١٣٩ ــ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: يوسف بن عبد البر النمري ــ حققه وعلق حواشيه وصححه/ مجموعة من المحققين ــ مؤسسة قرطبة.

١٤٠ ــ **التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع**: محمد بن أحمد الملطي ــ تحقيق وتعليق/ يمان بن سعد الدين المياديني ــ رمادي للنشر (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م).

١٤١ ــ **تهذيب الأسماء واللغات**: يحيى بن شرف النووي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

١٤٢ ــ **تهذيب التهذيب**: أحمد بن حجر العسقلاني ــ حققه وعلق عليه/ مصطفى عبد القادر عطا ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤).

١٤٣ ــ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**: يوسف بن عبد الرحمن المزي ــ حققه وضبط نصه وعلق عليه/ الدكتور بشار عواد معروف ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة السادسة (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م).

١٤٤ ــ **تهذيب اللغة**: محمد بن أحمد الأزهري ــ حققه وقدم له/ عبد السلام محمد هارون ــ مكتبة ابن تيمية.

١٤٥ ــ **توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس**: أحمد بن حجر العسقلاني ــ حققه/ عبد الله القاضي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

١٤٦ ــ **التوحيد وإثبات صفات الرب عزَّ وجلّ**: محمد بن إسحاق بن خزيمة ــ الدكتور/ عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان ــ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤١١هـ ــ ١٩٩١م).

١٤٧ ــ **التوحيد ومعرفة أسماء الله عزَّ وجلّ وصفاته على الاتفاق والتفرد**: محمد بن إسحاق بن منده ــ حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه ــ الدكتور/ علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ــ مطابع الجامعة الإسلامية (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية).

١٤٨ ــ **التـوضيـح المبيـن لتـوحيـد الأنبيـاء والمـرسليـن مـن الكـافيـة الشـافيـة**: عبد الرحمن بن ناصر السعدي ــ تصحيح/ محمد بن سليمان آل بسام ــ دار عالم الفوائد (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ).

١٤٩ ــ **توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم**: أحمد بن إبراهيم بن عيسى ــ تحقيق/ زهير الشاويش ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثالثة (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

١٥٠ ــ **التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل**: محمد عبد العزيز النجار ــ أم القرى للطباعة والنشر (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

١٥١ ــ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: عبد الرحمن بن ناصر السعدي ــ تحقيق/ عبد الرحمن بن معلا اللويحق ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م).

١٥٢ ــ **الثقات**: محمد بن حبان البستي ــ مراقبة/ الدكتور محمد بن عبد المعيد خان ــ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية (حيدر أباد/ الهند) ــ الطبعة الأولى (١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م).

١٥٣ ــ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: محمد بن جرير الطبري ــ دار الفكر (بيروت/ لبنان) ــ (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م).

١٥٤ ــ **الجامع الكبير**: محمد بن عيسى الترمذي ــ حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ الدكتور بشار عواد معروف ــ دار الغرب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٩٩٨م).

١٥٥ ــ **الجامع المفهرس لأطراف الأحاديث النبوية والآثار السلفية التي خرجها محدث العصر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في كتبه المطبوعة**: سليم بن عيد الهلالي ــ دار ابن الجوزي (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م).

١٥٦ ــ **جامع بيان العلم وفضله**: يوسف بن عبد البر النمري ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

١٥٧ ـ **الجامع لأحكام القرآن**: محمد بن أحمد القرطبـي ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

١٥٨ ـ **الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون**: محمد عزير شمس؛ علي بن محمد العمران ـ دار عالم الفوائد (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثانية (١٤٢٢هـ).

١٥٩ ـ **الجامع لشعب الإيمان**: أحمد بن الحسين البيهقي ـ حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه/ الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ـ الدار السلفية (بومباي/ الهند) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

١٦٠ ـ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**: محمد بن أبـي نصر الحميدي ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة.

١٦١ ـ **الجرح والتعديل**: عبد الرحمن بن أبـي حاتم الرازي ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م).

١٦٢ ـ **جزء فيه أجوبة الإمام العالم أبـي العباس أحمد بن عمر بن سريج ـ رضي الله عنه ـ في أصول الدين**: نسخة خطية مكبرة مودعة في قسم المخطوطات في عمادة شؤون المكتبات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة تحت الرقم العام: (١٦٩٤/ ٤، وتقع في ٥ ورقات.

١٦٣ ـ **جزء فيه طرق حديث «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً»**: أحمد بن عبد الله الأصفهاني المعروف بأبـي نعيم ـ قدم له وضبط نصه وخرج أحاديثه/ مشهور بن حسن بن سلمان ـ مكتبة الغرباء الأثرية (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ).

١٦٤ ـ **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**: النعمان بن محمود الألوسي ـ قدم له/ علي السيد صبح المدني ـ مطبعة المدني (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).

١٦٥ ـ **جمهرة اللغة**: محمد بن الحسن بن دريد ـ حققه وقدم له/ الدكتور رمزي منير بعلبكي ـ دار العلم للملايين (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٩٨٧م).

١٦٦ ــ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**: أحمد بن تيمية الحراني ــ تحقيق وتعليق/ الدكتور علي حسن بن ناصر؛ الدكتور عبد العزيز ابن إبراهيم العسكر؛ الدكتور حمدان بن محمد الحمدان ــ دار العاصمة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ).

١٦٧ ــ **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**: أحمد الهاشمي ــ دار إحياء التراث العربي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية عشر.

١٦٨ ــ **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**: عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي ــ تحقيق/ الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو ــ هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الثانية (١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م).

١٦٩ ــ **الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد**: يوسف بن الحسن بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد ــ حققه وقدم له وعلق عليه/ الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ــ مكتبة الخانجي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م).

١٧٠ ــ **جوهرة التوحيد**: إبراهيم بن هارون اللقاني ــ مودع ضمن مجموع مهمات المتون ــ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الرابعة (١٣٦٩هـ ــ ١٩٤٩م).

١٧١ ــ **حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**: محمد بن علي الصبان ــ دار إحياء الكتب العربية.

١٧٢ ــ **الحاوي للفتاوي**: جلال الدين بن أبي بكر السيوطي ــ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان).

١٧٣ ــ **الحجة في القراءات السبع**: الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه ــ تحقيق وشرح/ الدكتور عبد العال سالم مكرم ــ مؤسسة الرسالة ــ الطبعة الخامسة (١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م).

١٧٤ ـ **الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة**: إسماعيل بن محمد الأصبهاني المعروف بقوام السنة ـ تحقيق ودراسة/ محمد بن ربيع المدخلي؛ محمد بن محمود أبو رحيم ـ دار الراية (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م).

١٧٥ ـ **الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد**: الحسن بن عبد الغفار الفارسي ـ حققه/ بدر الدين قهوجي؛ بشير جويجاتي ـ دار المأمون للتراث (دمشق/ الجمهورية العربية السورية) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م).

١٧٦ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: أحمد بن عبد الله الأصفهاني المعروف بأبي نعيم ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

١٧٧ ـ **الحيوان**: عمرو بن بحر الجاحظ ـ تحقيق وشرح/ عبد السلام محمد هارون ـ دار الجيل.

١٧٨ ـ **خريدة القصر وجريدة العصر**: العماد محمد الأصفهاني ـ تحقيق/ عمر الدسوقي؛ علي العبد العظيم ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

١٧٩ ـ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**: عبد القادر بن عمر البغدادي ـ تحقيق وشرح/ عبد السلام محمد هارون ـ مكتبة الخانجي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الرابعة (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

١٨٠ ـ **خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه**: محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ).

١٨١ ـ **خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل**: محمد بن إسماعيل البخاري ـ تحقيق ودراسة/ عمرو بن عبد المنعم سليم ـ دار ابن القيم (الدمام/ المملكة العربية السعودية)؛ دار ابن عفان (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م).

١٨٢ ـ **الخوارج (تاريخهم وآراؤهم الاعتقادية وموقف الإسلام منها)**: الدكتور غالب بن علي العواجي ـ (دمنهور/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

١٨٣ ـ **الدارس في تاريخ المدارس**: عبد القادر بن محمد النعيمي ـ أعد فهارسه/ إبراهيم شمس الدين ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

١٨٤ ـ **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ـ تحقيق/ الدكتور أحمد محمد الخراط ـ دار القلم (دمشق/ الجمهورية العربية السورية) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

١٨٥ ـ **الدر المنثور في التفسير المأثور**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م).

١٨٦ ـ **الدر المنضد في ذكر أصحاب الإمام أحمد**: عبد الرحمن بن محمد العليمي ـ حققه وقدم له/ الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ـ مكتبة التوبة (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

١٨٧ ـ **درء تعارض العقل والنقل**: أحمد بن تيمية الحراني ـ تحقيق/ الدكتور محمد رشاد سالم ـ دار الكنوز الأدبية.

١٨٨ ـ **دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية**: الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف ـ مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ).

١٨٩ ـ **دراسات في الفرق (الشيعة، النصيرية، الباطنية، الصوفية، الخوارج)**: الدكتور صابر طعيمة ـ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثالثة (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م).

١٩٠ ـ **دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة)**: الدكتور أحمد محمد أحمد جلي ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

١٩١ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: أحمد بن حجر العسقلاني.

١٩٢ ـ **الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ تحقيق/ محمد لطفي الصباغ ـ مكتبة الوراق (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م).

١٩٣ ـ **الدرة فيما يجب اعتقاده**: علي بن حزم الظاهري ـ دراسة وتحقيق وتعليق/ الدكتور أحمد بن ناصر محمد الحمد؛ الدكتور سعيد بن عبد الرحمن بن موسى القزقي ـ مطبعة المدني (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

١٩٤ ـ **الدعاء**: سليمان بن أحمد الطبراني ـ دراسة وتحقيق وتخريج/ الدكتور محمد سعيد البخاري ـ دار البشائر الإسلامية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

١٩٥ ـ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**: أحمد بن الحسين البيهقي ـ وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه/ الدكتور عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

١٩٦ ـ **دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية**: الدكتور زيد بن عبد المحسن آل حسين ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

١٩٧ ـ **الدليل الشافي على المنهل الصافي**: يوسف بن تغري بردي الأتابكي ـ تحقيق وتقديم/ فهيم محمد شلتوت ـ مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية).

١٩٨ ـ **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**: إبراهيم بن علي بن فرحون ـ تحقيق وتعليق/ الدكتور محمد الأحمدي أبو النور ـ دار التراث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

١٩٩ ـ **ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري**: ضبطه وصححه/ مصطفى السقا؛ إبراهيم الأبياري؛ عبد الحفيظ شلبي ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان).

٢٠٠ ـ **ديوان المعاني**: الحسن بن عبد الله المعروف بأبي هلال العسكري ـ شرحه وضبط نصه/ أحمد حسن بسج ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).

٢٠١ ـ **ديوان طرفة بن العبد**: دار صادر (بيروت/ لبنان).

٢٠٢ ـ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: علي بن بسام الشنتريني ـ تحقيق/ الدكتور إحسان عباس ـ دار الثقافة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

٢٠٣ ـ **ذكر أخبار أصبهان**: أحمد بن عبد الله الأصفهاني المعروف بأبي نعيم ـ دار الكتاب الإسلامي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٢٠٤ ـ **ذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين**: عبد الله بن أسعد اليافعي ـ تحقيق/ الدكتور موسى بن سليمان الدويش ـ دار البخاري (القصيم/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ).

٢٠٥ ـ **ذم التأويل**: عبد الله بن قدامة المقدسي ـ عناية/ بدر بن عبد الله البدر ـ دار ابن الأثير (الجهراء/ الكويت) ـ الطبعة الثانية (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م).

٢٠٦ ـ **ذيل العبر في خبر من غبر**: محمد بن علي الحسيني ـ حققه وضبطه/ محمد السعيد بن بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٢٠٧ ـ **ذيل تذكرة الحفاظ**: محمد بن علي الحسيني ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٢٠٨ ـ **الذيل على طبقات الحنابلة**: عبد الرحمن بن رجب البغدادي ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان).

٢٠٩ ـ **رؤية الله تبارك وتعالى**: عبد الرحمن بن عمر المعروف بابن النحاس ـ تحقيق وتعليق/ الدكتور علاء الدين علي رضا ـ دار المعارج (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

٢١٠ ـ **الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر**: محمد بن ناصر الدين الدمشقي ـ حققه/ زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

٢١١ ـ **الرد على الجهمية**: محمد بن إسحاق بن منده ـ حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه ـ الدكتور/ علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ـ الطبعة الأولى (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).

٢١٢ ـ **الرد على الجهمية والزنادقة**: أحمد بن حنبل الشيباني ـ تحقيق وتعليق/ الدكتور عبد الرحمن بن عميرة ـ دار اللواء (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م).

٢١٣ ـ **الرد على المنطقيين**: أحمد بن تيمية الحراني ـ إدارة ترجمان السنة (لاهور/ باكستان) ـ الطبعة الثانية (١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م).

٢١٤ ـ **الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك**: أحمد بن تيمية الحراني ـ دراسة وتحقيق/ الدكتور محمد بن عبد الله السمهري ـ دار بلنسية (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م).

٢١٥ ـ **الرسالة**: محمد بن إدريس الشافعي ـ تحقيق وشرح/ أحمد محمد شاكر ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٢١٦ ـ **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة**: محمد بن جعفر الكتاني ـ كتب مقدماتها ووضع فهارسها/ محمد المنتصر بن محمد الزمزمي الكتاني ـ الطبعة الثالثة (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م).

٢١٧ ــ **رسالة في الرد على الرافضة**: محمد بن عبد الوهاب ــ تحقيق/ ناصر بن سعد الرشيد ــ مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٠هـ).

٢١٨ ــ **روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**: عبد الله بن قدامة المقدسي ــ قدم له وحققه وعلق عليه/ الدكتور عبد الكريم بن علي بن محمد النملة ــ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م).

٢١٩ ــ **زاد المسير في علم التفسير**: عبد الرحمن بن علي الجوزي ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م).

٢٢٠ ــ **الزهد**: عبد الله بن المبارك المروزي ــ حققه وعلق عليه/ حبيب الرحمن الأعظمي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٢٢١ ــ **الزهد**: هناد بن السري الكوفي ــ حققه وخرج أحاديثه/ عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي ــ دار الخلفاء للكتاب الإسلامي (حولي/ الكويت) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٥م).

٢٢٢ ــ **الزهد الكبير**: أحمد بن الحسين البيهقي ــ حققه وخرج أحاديثه/ عامر أحمد حيدر ــ مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م).

٢٢٣ ــ **السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة**: محمد بن عبد الله بن حميد ــ حققه وقدم له وعلق عليه/ بكر بن عبد الله أبو زيد؛ الدكتور عبد الرحمن سليمان العثيمين ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م).

٢٢٤ ــ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: محمد ناصر الدين الألباني ــ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م).

٢٢٥ ــ **سلسلة الأحاديث الضعيفة**: محمد ناصر الدين الألباني ــ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م).

٢٢٦ ـ **السلوك لمعرفة دول الملوك**: أحمد بن علي المقريزي ـ صححه ووضع حواشيه/ الدكتور محمد مصطفى زيادة.

٢٢٧ ـ **سنن ابن ماجه**: محمد بن يزيد القزويني ـ حقق أصوله وخرج أحاديثه ورقمه/ خليل مأمون شيحا ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

٢٢٨ ـ **سنن أبي داود**: سليمان بن الأشعث السجستاني ـ إعداد وتعليق/ عزت عبيد الدعاس ـ دار الحديث (حمص/ الجمهورية العربية السورية).

٢٢٩ ـ **سنن الدارقطني**: علي بن عمر الدارقطني ـ عالم الكتب (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م).

٢٣٠ ـ **سنن الدارمي**: عبد الله بن بهرام الدارمي ـ حققه وشرح ألفاظه وجمله وعلق عليه ووضع فهارسه/ الدكتور مصطفى ديب البغا ـ دار القلم (دمشق/ الجمهورية العربية السورية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م).

٢٣١ ـ **السنن الكبرى**: أحمد بن الحسين البيهقي ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ـ (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م).

٢٣٢ ـ **السنن الكبرى**: أحمد بن شعيب النسائي ـ حققه وخرج أحاديثه/ مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م).

٢٣٣ ـ **سنن النسائي**: أحمد بن شعيب النسائي ـ حققه ورقمه ووضع فهارسه/ مكتب تحقيق التراث الإسلامي ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).

٢٣٤ ـ **سنن سعيد بن منصور**: سعيد بن منصور المروزي ـ دراسة وتحقيق/ الدكتور سعد بن عبد الله آل حميد ـ دار الصميعي (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).

٢٣٥ ـ **السنة**: أحمد بن هارون الخلال ـ دراسة وتحقيق/ الدكتور عطية الزهراني ـ دار الراية (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م).

٢٣٦ ــ **السنة**: الضحاك بن مخلد الشيباني ــ خرج أحاديثه/ محمد ناصر الدين الألباني ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م).

٢٣٧ ــ **السنة**: عبد الله بن أحمد بن حنبل ــ تحقيق ودراسة/ الدكتور محمد بن سعيد القحطاني ــ دار ابن القيم (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

٢٣٨ ــ **سير أعلام النبلاء**: محمد بن أحمد الذهبي ــ حققه وخرج أحاديثه/ مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثامنة (١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م).

٢٣٩ ــ **السيرة النبوية**: عبد الملك بن هشام الحميري ــ دار الفكر (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٢٤٠ ــ **الشافية في علم التصريف**: عثمان بن عمر الدويني المعروف بابن الحاجب ــ دراسة وتحقيق/ حسن أحمد العثمان ــ المكتبة المكية (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م).

٢٤١ ــ **شأن الدعاء**: حمد بن محمد الخطابي ــ تحقيق/ أحمد يوسف الدقاق ــ دار المأمون للتراث (دمشق/ الجمهورية العربية السورية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م).

٢٤٢ ــ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: عبد الحي بن العماد الحنبلي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٢٤٣ ــ **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم**: هبة الله بن الحسن اللالكائي ــ تحقيق/ الدكتور أحمد سعد حمدان ــ دار طيبة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤١١هـ).

٢٤٤ ــ **شرح العقيدة الأصفهانية**: أحمد بن تيمية الحراني ــ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م).

٢٤٥ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**: علي بن أبي العز الدمشقي ـ خرج أحاديثها/ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة التاسعة (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٢٤٦ ـ **شرح العقيدة الواسطية**: الدكتور محمد خليل هراس ـ ضبط نصه وخرج أحاديثه/ علوي السقاف ـ دار الهجرة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

٢٤٧ ـ **شرح العمدة في الفقه**: أحمد بن تيمية الحراني ـ تحقيق ودراسة/ الدكتور سعود بن صالح العطيشان ـ مكتبة العبيكان (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م).

٢٤٨ ـ **شرح القصيدة النونية**: الدكتور محمد خليل هراس ـ مكتبة ابن تيمية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م).

٢٤٩ ـ **شرح الكوكب المنير (المسمى بمختصر التحرير)**: محمد بن أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار ـ تحقيق/ الدكتور محمد الزحيلي؛ الدكتور نزيه حماد ـ مكتبة العبيكان (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

٢٥٠ ـ **شرح المفصل**: يعيش بن علي بن يعيش ـ عالم الكتب (بيروت/ لبنان).

٢٥١ ـ **شرح الهداية**: أحمد بن عمار المهدوي ـ تحقيق ودراسة/ الدكتور حازم سعيد حيدر ـ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م).

٢٥٢ ـ **شرح ديوان الأعشى الكبير**: ميمون بن قيس ـ قدم له ووضع هوامشه وفهارسه/ الدكتور حنا نصر الحتي ـ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).

٢٥٣ ـ **شرح ديوان الخنساء**: أبو العباس ثعلب ـ قدم له وشرحه/ الدكتور فايز محمد ـ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

٢٥٤ ــ **شرح ديوان زهير بن أبـي سلمى**: أبو العباس ثعلب ــ قدم له ووضع هوامشه وفهارسه/ الدكتور حنا نصر الحتي ــ دار الكتاب العربـي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م).

٢٥٥ ــ **شرح ديوان لبيد بن ربيعة**: الطوسي ــ قدم له ووضع هوامشه وفهارسه/ الدكتور حنا نصر الحتي ــ دار الكتاب العربـي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م).

٢٥٦ ــ **شرح صحيح مسلم**: يحيـى بن شرف النووي ــ دار الريان للتراث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م).

٢٥٧ ــ **شرح مشكل الآثار**: أحمد بن محمد الطحاوي ــ حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعيب الأرناؤوط ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م).

٢٥٨ ــ **الشريعة**: محمد بن الحسين الآجري ــ دراسة وتحقيق/ الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي ــ دار الوطن (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م).

٢٥٩ ــ **الشعر والشعراء**: عبد الله بن مسلم بن قتيبة ــ راجعه وأعد فهارسه/ محمد عبد المنعم العريان ــ دار إحياء العلوم (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الرابعة (١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م).

٢٦٠ ــ **الصحاح**: إسماعيل بن حماد الجوهري ــ تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار ــ دار العلم للملايين (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الرابعة (١٩٩٠م).

٢٦١ ــ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**: علي بن بلبان الفارسي ــ حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعيب الأرناؤوط ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م).

٢٦٢ ــ **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري**: محمد ناصر الدين الألباني ــ دار الصديق (الجبيل/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م).

٢٦٣ ـ **صحيح البخاري**: محمد بن إسماعيل البخاري ـ تحقيق/ محمد علي القطب ـ المكتبة العصرية (بيروت/ لبنان) ـ (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

٢٦٤ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته**: محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

٢٦٥ ـ **صحيح سنن ابن ماجه**: محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

٢٦٦ ـ **صحيح سنن أبي داود**: محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثانية (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م).

٢٦٧ ـ **صحيح سنن الترمذي**: محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثانية (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م).

٢٦٨ ـ **صحيح سنن النسائي**: محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

٢٦٩ ـ **صحيح مسلم**: مسلم بن الحجاج القشيري ـ حقق نصوصه وصححه ورقمه/ محمد فؤاد عبد الباقي ـ المكتبة الفيصلية (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية).

٢٧٠ ـ **صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم**: علي بن أبي طلحة بن المخارق ـ اعتنى بها وحققها وخرجها/ راشد بن عبد المنعم الرَّجال ـ مكتبة السنة (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

٢٧١ ـ **الصفات**: علي بن عمر الدارقطني ـ حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه/ الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ـ الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).

٢٧٢ ــ **الصفات الإلـٰهية في الكتاب والسنة**: محمد أمان بن علي الجامي ــ الطبعة الثانية (١٤١١هـ ــ ١٩٩١م).

٢٧٣ ــ **صفات الله عزَّ وجلّ الواردة في الكتاب والسنة**: علوي بن عبد القادر السقاف ــ دار الهجرة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م).

٢٧٤ ــ **الصفدية**: أحمد بن تيمية الحراني ــ تحقيق/ الدكتور محمد رشاد سالم ــ دار الهدى النبوي (المنصورة/ جمهورية مصر العربية)؛ دار الفضيلة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م).

٢٧٥ ــ **صفة الجنة وما أعد الله لأهلها من النعيم**: عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا ــ حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ عبد الرحيم أحمد عبد الرحيم العساسلة ــ دار البشير (عمان/ المملكة الأردنية الهاشمية)؛ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م).

٢٧٦ ــ **صفة الصفوة**: عبد الرحمن بن علي الجوزي ــ حققه وعلق عليه/ محمود فاخوري ــ خرج أحاديثه/ الدكتور محمد رواس قلعه جي ــ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م).

٢٧٧ ــ **الضعفاء الصغير**: محمد بن إسماعيل البخاري ــ تحقيق/ محمود إبراهيم زايد ــ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

٢٧٨ ــ **الضعفاء الكبير**: محمد بن عمرو العقيلي ــ حققه ووثقه/ الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م).

٢٧٩ ــ **ضعيف الأدب المفرد للإمام البخاري**: محمد ناصر الدين الألباني ــ دار الصديق (الجبيل/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م).

٢٨٠ ــ **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**: محمد ناصر الدين الألباني ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثالثة (١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م).

٢٨١ ــ **ضعيف سنن ابن ماجه**: محمد ناصر الدين الألباني ــ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م).

٢٨٢ ــ **ضعيف سنن أبي داود**: محمد ناصر الدين الألباني ــ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م).

٢٨٣ ــ **ضعيف سنن الترمذي**: محمد ناصر الدين الألباني ــ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠٢م).

٢٨٤ ــ **ضعيف سنن النسائي**: محمد ناصر الدين الألباني ــ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م).

٢٨٥ ــ **ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري عزَّ وجلّ**: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة ــ تحقيق/ الدكتور أحمد عبد الرحمن الشريف ــ دار الصحوة (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م).

٢٨٦ ــ **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**: محمد بن عبد الرحمن السخاوي ــ دار مكتبة الحياة (بيروت/ لبنان).

٢٨٧ ــ **ضياء السالك إلى أوضح المسالك (وهو صفوة الكلام على توضيح ابن هشام)**: محمد عبد العزيز النجار ــ مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية).

٢٨٨ ــ **الطبقات**: خليفة بن خياط العصفري ــ حققه وقدم له/ الدكتور أكرم ضياء العمري ــ دار طيبة للنشر والتوزيع (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م).

٢٨٩ ــ **طبقات الحفاظ**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م).

٢٩٠ ــ **طبقات الحنابلة**: محمد بن أبـي يعلى الفراء ــ دار المعرفة (بيروت/ لبنان).

٢٩١ ــ **طبقات الشافعية**: أبو بكر بن هداية الله الحسيني ــ حققه وعلق عليه/ عادل نويهض ــ دار الآفاق الجديدة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٩٧٩م).

٢٩٢ ــ **طبقات الشافعية الكبرى**: عبد الوهاب بن علي السبكي ــ تحقيق/ عبد الفتاح محمد الحلو؛ محمود محمد الطناحي ــ دار إحياء الكتب العربية.

٢٩٣ ــ **طبقات الصوفية**: محمد بن الحسين السلمي ــ تحقيق/ نور الدين شريبة ــ مكتبة الخانجي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الثالثة (١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م).

٢٩٤ ــ **طبقات المفسرين**: أحمد بن محمد الأدنه وي ــ تحقيق/ سليمان بن صالح الخزي ــ مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م).

٢٩٥ ــ **طبقات المفسرين**: محمد بن علي الداوودي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م).

٢٩٦ ــ **طبقات علماء الحديث**: محمد بن عبد الهادي الصالحي ــ تحقيق/ أكرم البوشي؛ إبراهيم الزيبق ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م).

٢٩٧ ــ **طبقات فحول الشعراء**: محمد بن سلام الجمحي ــ قرأه وشرحه/ محمود محمد شاكر ــ دار المدني (جدة/ المملكة العربية السعودية).

٢٩٨ ــ **طبقات فقهاء اليمن**: عمر بن علي الجعدي ــ تحقيق/ فؤاد سيد ــ دار القلم (بيروت/ لبنان).

٢٩٩ ــ **العبر في خبر من غبر**: محمد بن أحمد الذهبـي ــ حققه وضبطه/ محمد السعيد بن بسيوني زغلول ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٣٠٠ ــ **العدة في أصول الفقه**: محمد بن الحسين بن الفراء ــ حققه وعلق عليه وخرج نصوصه/ الدكتور أحمد بن علي سير المباركي ــ الطبعة الثانية (١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م).

٣٠١ ــ **العرش**: محمد بن أحمد الذهبي ــ دراسة وتحقيق/ الدكتور محمد بن خليفة التميمي ــ أضواء السلف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م).

٣٠٢ ــ **العظمة**: عبد الله بن محمد بن جعفر المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني ــ دراسة وتحقيق/ رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري ــ دار العاصمة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ النشرة الأولى (١٤٠٨هـ).

٣٠٣ ــ **العقائد الباطنية وحكم الإسلام فيها**: الدكتور صابر طعيمة ــ المكتبة الثقافية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١١هـ ــ ١٩٩١م).

٣٠٤ ــ **عقائد الثلاث والسبعين فرقة**: أبو محمد اليمني ــ تحقيق ودراسة/ محمد بن عبد الله زربان الغامدي ــ مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ).

٣٠٥ ــ **العقد الفريد**: أحمد بن عبدربه الأندلسي ــ شرحه وضبطه ورتب فهارسه/ أحمد أمين؛ إبراهيم الأبياري؛ عبد السلام هارون ــ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان).

٣٠٦ ــ **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**: محمد بن عبد الهادي الصالحي ــ مكتبة المؤيد (الرياض/ المملكة العربية السعودية).

٣٠٧ ــ **عقيدة الدروز (عرض ونقض)**: الدكتور محمد أحمد الخطيب ــ دار عالم الكتب (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثالثة (١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م).

٣٠٨ ــ **العلو للعلي العظيم وإيضاح صحيح الأخبار من سقيمها**: محمد بن أحمد الذهبي ــ دراسة وتحقيق وتعليق/ عبد الله بن صالح البراك ــ دار الوطن (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م).

٣٠٩ ــ **علوم القرآن بين البرهان والإتقان**: الدكتور حازم سعيد حيدر ــ دار الزمان (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ (١٤٢٠هـ).

٣١٠ ــ **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ــ حققه وعلق عليه/ الدكتور محمد ألتونخي ــ عالم الكتب (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م).

٣١١ ــ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**: محمود بن أحمد العيني ــ دار الباز (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية).

٣١٢ ــ **العمر والشيب**: عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا ــ قدم له وحققه وعلق عليه/ الدكتور نجم عبد الرحمن خلف ــ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م).

٣١٣ ــ **العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها**: الدكتور أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغيبي ــ مكتبة العبيكان (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م).

٣١٤ ــ **العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم**: محمد بن إبراهيم المعروف بالوزير اليماني ــ حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعيب الأرناؤوط ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م).

٣١٥ ــ **عون المعبود شرح سنن أبي داود**: محمد شمس الحق العظيم آبادي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م).

٣١٦ ــ **العين**: الخليل بن أحمد الفراهيدي ــ تحقيق/ الدكتور مهدي المخزومي؛ الدكتور إبراهيم السامرائي ــ دار ومكتبة الهلال (بيروت/ لبنان).

٣١٧ ــ **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**: محمد ناصر الدين الألباني ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الرابعة (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م).

٣١٨ ــ **غاية النهاية في طبقات القراء**: محمد بن محمد الجزري ــ عني بنشره/ ج. برجستراسر ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثالثة (١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م).

٣١٩ ـ **الغاية في القراءات العشر**: أحمد بن الحسين النيسابوري ـ تحقيق/ محمد غياث الجنباز ـ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٣٢٠ ـ **غريب الحديث**: إبراهيم بن إسحاق الحربي ـ تحقيق ودراسة/ سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد ـ مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٣٢١ ـ **غريب الحديث**: حمد بن إبراهيم الخطابي ـ تحقيق/ عبد الكريم إبراهيم العزباوي ـ مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية) ـ (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م).

٣٢٢ ـ **غريب الحديث**: عبد الرحمن بن علي الجوزي ـ وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه/ الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٣٢٣ ـ **غريب الحديث**: القاسم بن سلام الهروي ـ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م).

٣٢٤ ـ **غريب القرآن وتفسيره**: عبد الله بن يحيى اليزيدي ـ حققه وعلق عليه/ محمد سليم الحاج ـ عالم الكتب (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٣٢٥ ـ **فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى من كتاب بدائع الفوائد لابن القيم**: تحقيق/ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر ـ دار الإمام مالك (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ).

٣٢٦ ـ **الفائق في غريب الحديث**: محمود بن عمر الزمخشري ـ تحقيق/ علي بن محمد البجاوي؛ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر ـ الطبعة الثالثة (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

٣٢٧ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: أحمد بن حجر العسقلاني ـ رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه/ محمد فؤاد عبد الباقي ـ قام بإخراجه وتصحيح تجاربه/

محب الدين الخطيب ـ دار الريان للتراث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م).

٣٢٨ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: عبد الرحمن بن رجب البغدادي ـ تحقيق/ مكتب تحقيق دار الحرمين بإشراف محمد بن عوض المنقوش ـ مكتبة الغرباء الأثرية (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

٣٢٩ ـ **الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني**: محمد بن علي الشوكاني ـ حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه/ محمد صبحي بن حسن حلاق ـ مكتبة الجيل الجديد (صنعاء/ الجمهورية العربية اليمنية) ـ الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م).

٣٣٠ ـ **فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن**: عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ اعتنى به/ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر ـ دار ابن الجوزي (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤٢١هـ).

٣٣١ ـ **فتح الودود على مراقي السعود**: عبد الله بن إبراهيم الشنقيطي ـ المطبعة المولوية (فاس/ المملكة المغربية) ـ الطبعة الأولى (١٣٢٧هـ).

٣٣٢ ـ **الفرق بين الفرق**: عبد القاهر بن طاهر البغدادي ـ حقق أصوله وفصله وضبط مشكله وعلق حواشيه/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مكتبة دار التراث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٣٣٣ ـ **فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها**: غالب بن علي العواجي ـ مكتبة لينة ـ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).

٣٣٤ ـ **الفروق اللغوية**: الحسن بن عبد الله المعروف بأبي هلال العسكري ـ ضبطه وحققه/ حسام الدين القدسي ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٣٣٥ ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل**: علي بن حزم الظاهري ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ـ (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

٣٣٦ ـ **فضائح الباطنية**: محمد بن محمد الغزالي ـ اعتنى به وراجعه/ محمد علي القطب ـ المكتبة العصرية (بيروت/ لبنان) ـ (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م).

٣٣٧ ـ **فضائل الصحابة**: أحمد بن حنبل الشيباني ـ حققه وخرج أحاديثه/ وصي الله بن محمد عباس ـ دار ابن الجوزي (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

٣٣٨ ـ **الفهرست**: محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم ـ اعتنى بها وعلق عليها/ إبراهيم رمضان ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

٣٣٩ ـ **الفوائد المجتمعة في بيان الفرق الضالة والمبتدعة**: إسماعيل بن عبد الباقي اليازجي ـ حققه وعلق عليه/ الدكتور يوسف بن محمد السعيد ـ دار أطلس الخضراء (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م).

٣٤٠ ـ **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**: محمد بن علي الشوكاني ـ تحقيق/ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٣٤١ ـ **القاموس المحيط**: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ـ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

٣٤٢ ـ **القراءة خلف الإمام**: محمد بن إسماعيل البخاري ـ مكتبة الإيمان (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٣٤٣ ـ **قصة الحضارة**: ول وايريل ديورانت ـ ترجمة/ الدكتور زكي نجيب محمود ـ دار الجيل (بيروت/ لبنان) ـ (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م).

٣٤٤ ـ **القواعد**: أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن المعروف بالحصني ـ دراسة وتحقيق/ الدكتور عبد الرحمن بن عبد الله الشعلان ـ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

٣٤٥ ــ **قواعد التفسير**: خالد بن عثمان السبت ــ دار ابن عفان (الخبر/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م).

٣٤٦ ــ **القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن**: عبد الرحمن بن ناصر السعدي ــ اعتنى به/ خالد بن عثمان السبت ــ دار ابن الجوزي (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٢١هـ).

٣٤٧ ــ **القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين**: عبد المجيد جمعة الجزائري ــ دار ابن القيم (الدمام/ المملكة العربية السعودية)؛ دار ابن عفان (الجيزة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤٢١هـ).

٣٤٨ ــ **القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف**: الدكتور إبراهيم بن محمد البريكان ــ دار الهجرة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م).

٣٤٩ ــ **القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى**: محمد بن صالح بن عثيمين ــ حققه وخرج أحاديثه/ أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ــ مكتبة السنة (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤١١هـ ــ ١٩٩٠م).

٣٥٠ ــ **قول فلاسفة اليونان الوثنيين في توحيد الربوبية**: الأستاذ الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف ــ مجلة الجامعة الإسلامية (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ العدد (١٢٠) ــ (١٤٢٣هـ).

٣٥١ ــ **الكامل في التاريخ**: علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير ــ دار صادر (بيروت/ لبنان).

٣٥٢ ــ **الكامل في ضعفاء الرجال**: عبد الله بن عدي الجرجاني ــ دار الفكر (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م).

٣٥٣ ــ **كتاب الضعفاء والمتروكين**: أحمد بن علي النسائي ــ تحقيق/ محمود إبراهيم زايد ــ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

٣٥٤ ـ **كتاب الضعفاء والمتروكين**: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ـ حققه/ عبد الله القاضي ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

٣٥٥ ـ **كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**: محمد بن حبان البستي ـ تحقيق/ محمود إبراهيم زايد ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ـ (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

٣٥٦ ـ **كتاب سيبويه**: عمرو بن عثمان بن قنبر ـ تحقيق وشرح/ عبد السلام محمد هارون ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٣٥٧ ـ **كشاف اصطلاحات الفنون**: محمد علي بن علي التهانوي ـ وضع حواشيه/ أحمد حسن بسج ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م).

٣٥٨ ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**: إسماعيل بن محمد العجلوني ـ أشرف على طبعه وتصحيحه والتعليق عليه/ أحمد القلاش ـ دار التراث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٣٥٩ ـ **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**: مكي بن أبي طالب القيسي ـ تحقيق/ الدكتور محيي الدين رمضان ـ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م).

٣٦٠ ـ **الكلم الطيب**: أحمد بن تيمية الحراني ـ تحقيق/ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الخامسة (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٣٦١ ـ **الكليات**: أيوب بن موسى الكفوي ـ قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه/ الدكتور عدنان درويش؛ محمد المصري ـ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م).

٣٦٢ ـ **الكنى والأسماء**: مسلم بن الحجاج القشيري ـ دراسة وتحقيق/ عبد الرحيم محمد القشقري ـ مطبوعات الجامعة الإسلامية (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م).

٣٦٣ ـ **لباب النقول في أسباب النزول**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ ضبطه وصححه/ أحمد عبد الشافي.

٣٦٤ ـ **اللباب في تهذيب الأنساب**: علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير ـ دار صادر (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).

٣٦٥ ـ **لسان العرب**: محمد بن مكرم بن منظور ـ دار صادر (بيروت/ لبنان) ـ (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

٣٦٦ ـ **لسان الميزان**: أحمد بن حجر العسقلاني ـ دار الكتاب الإسلامي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى.

٣٦٧ ـ **لوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار السنية شرح قصيدة ابن أبي داود الحائية في عقيدة أهل الآثار السلفية**: محمد بن أحمد السفاريني ـ دراسة وتحقيق/ عبد الله بن محمد البصيري ـ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م).

٣٦٨ ـ **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية**: محمد بن أحمد السفاريني ـ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان)؛ دار الخاني (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثالثة (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

٣٦٩ ـ **لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات**: محمد بن عمر الرازي ـ راجعه وقدم له وعلق عليه/ طه عبد الرؤوف سعد ـ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

٣٧٠ ـ **مباحث المفاضلة في العقيدة**: الدكتور محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي ـ دار ابن عفان (الخبر/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨).

٣٧١ ــ **المبسوط في القراءات العشر**: أحمد بن الحسين الأصبهاني ــ تحقيق/ سبيع حمزة حاكمي ــ دار القبلة للثقافة الإسلامية (جدة/ المملكة العربية السعودية)؛ مؤسسة علوم القرآن (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م).

٣٧٢ ــ **متشابه القرآن**: عبد الجبار بن أحمد الهمداني ــ تحقيق/ الدكتور عدنان محمد زرزور ــ مكتبة دار التراث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٣٧٣ ــ **مجاز القرآن**: معمر بن المثنى التيمي ــ عارضه بأصوله وعلق عليه/ الدكتور محمد فؤاد سزكين ــ مكتبة الخانجي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٥م).

٣٧٤ ــ **المجالسة وجواهر العلم**: أحمد بن مروان الدينوري ــ خرج أحاديثه وآثاره ووثق نصوصه وعلق عليه/ مشهور بن حسن آل سلمان ــ جمعية التربية الإسلامية (أم الحصن/ البحرين)؛ دار ابن حزم (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م).

٣٧٥ ــ **مجمع الأمثال**: أحمد بن محمد الميداني ــ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار الجيل (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م).

٣٧٦ ــ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: علي بن أبي بكر الهيثمي ــ دار الريان للتراث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية)؛ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان) ــ (١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م).

٣٧٧ ــ **مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار**: محمد الفتني الكجراتي ــ مكتبة دار الإيمان (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثالثة (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م).

٣٧٨ ــ **المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث**: محمد بن أبي بكر المديني ــ تحقيق/ عبد الكريم إبراهيم العزباوي ــ مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦).

٣٧٩ ــ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**: جمع وترتيب/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد ــ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م).

٣٨٠ ــ **المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي**: مركز صالح بن صالح الثقافي (عنيزة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثانية (١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م).

٣٨١ ــ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: عبد الحق بن عطية الأندلسي ــ تحقيق/ المجلس العلمي بفاس ــ دار الكتاب الإسلامي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ (١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م).

٣٨٢ ــ **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة**: علي بن إسماعيل بن سيده ــ تحقيق/ مصطفى السقا؛ الدكتور حسين نصار ــ المكتبة التجارية (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٣٧٧هـ ــ ١٩٥٨م).

٣٨٣ ــ **المحلى بالآثار**: علي بن حزم الظاهري ــ تحقيق/ الدكتور عبد الغفار سليمان البدراني ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٣٨٤ ــ **محمد بن عثمان بن أبي شيبة وكتابه العرش**: الدكتور محمد بن خليفة التميمي ــ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م).

٣٨٥ ــ **المحيط في اللغة**: الصاحب إسماعيل بن عباد ــ تحقيق/ محمد حسن آل ياسين ــ عالم الكتب (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م).

٣٨٦ ــ **مختار الصحاح**: محمد بن عبد القادر الرازي ــ عني بترتيبه/ محمود خاطر ــ دار الحديث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٣٨٧ ــ **مختصر العلو للعلي الغفار**: محمد ناصر الدين الألباني ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م).

٣٨٨ ـ **مختصر العين**: محمد بن الحسن الزبيدي ـ قدم له وحققه/ الدكتور نور حامد الشاذلي ـ عالم الكتب (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

٣٨٩ ـ **المخصص**: علي بن إسماعيل بن سيده ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان).

٣٩٠ ـ **المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل وتخريجات الأصحاب**: بكر بن عبد الله أبو زيد ـ دار العاصمة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

٣٩١ ـ **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**: عبد الله بن أسعد اليافعي ـ دار الكتاب الإسلامي (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الثانية (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م).

٣٩٢ ـ **المراسيل**: سليمان بن الأشعث السجستاني ـ حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه/ شعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٣٩٣ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: علي بن الحسين المسعودي ـ تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة العصرية (بيروت/ لبنان) ـ (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٣٩٤ ـ **مسائل الإمام أحمد بن حنبل**: إسحاق بن هانىء النيسابوري ـ تحقيق/ زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ـ (١٤٠٠هـ).

٣٩٥ ـ **المسائل عن أبي عبد الله أحمدِ بن محمد بن حنبل وأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي**: إسحاق بن منصور الكوسج ـ تحقيق ودراسة/ الدكتور محمد بن عبد الله الزاحم ـ دار المنار (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

٣٩٦ ـ **المستدرك على الصحيحين**: محمد بن عبد الله الحاكم ـ دراسة وتحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م).

٣٩٧ ــ **المستصفى من علم الأصول**: محمد بن محمد الغزالي ــ تحقيق وتعليق/ الدكتور محمد سليمان الأشقر ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م).

٣٩٨ ــ **المستطرف في كل فن مستظرف**: محمد بن أحمد الأبشيهي ــ شرحها وحققها/ الدكتور مفيد محمد قميحة ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م).

٣٩٩ ــ **المستقصى في أمثال العرب**: محمود بن عمر الزمخشري ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م).

٤٠٠ ــ **مسند أبي يعلى الموصلي**: أحمد بن علي الموصلي ــ تحقيق وتعليق/ إرشاد الحق الأثري ــ دار القبلة للثقافة الإسلامية (جدة/ المملكة العربية السعودية)؛ مؤسسة علوم القرآن (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م).

٤٠١ ــ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: أحمد بن حنبل الشيباني ــ شارك في تحقيقه/ مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م).

٤٠٢ ــ **مسند الروياني**: محمد بن هارون الروياني ــ ضبطه وعلق عليه/ أيمن علي أبو يماني ــ مؤسسة قرطبة ــ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م).

٤٠٣ ــ **مسند الشاميين**: سليمان بن أحمد الطبراني ــ حققه وخرج أحاديثه/ حمدي عبد المجيد السلفي ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م).

٤٠٤ ــ **المسودة في أصول الفقه**: جمعها عن آل تيمية الحراني: أحمد بن محمد الحراني ــ حقق أصوله وفصله وضبط شكله وعلق حواشيه/ محمد محيي الدين عبد الحميد ــ دار الكتاب العربي (بيروت/ لبنان).

٤٠٥ ــ **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**: محمد بن حبان البستي ــ حققه ووثقه وعلق عليه/ مرزوق علي إبراهيم ــ مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م).

٤٠٦ ــ **مشكاة المصابيح**: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ــ محمد ناصر الدين الألباني ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م).

٤٠٧ ــ **المصنف**: عبد الرزاق بن همام الصنعاني ــ عني بتحقيق نصوصه وتخريج أحاديثه والتعليق عليه/ حبيب الرحمن الأعظمي ــ المكتب الإسلامي (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م).

٤٠٨ ــ **المصنف في الأحاديث والآثار**: عبد الله بن أبي شيبة العبسي ــ تقديم وضبط/ كمال يوسف الحوت ــ دار التاج (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م).

٤٠٩ ــ **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**: حافظ بن أحمد حكمي ــ ضبط نصه وعلق عليه وخرج أحاديثه/ عمر بن محمود أبو عمر ــ دار ابن القيم (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م).

٤١٠ ــ **معالم التنزيل**: الحسين بن مسعود البغوي ــ حققه وخرج أحاديثه/ محمد عبد الله النمر؛ عثمان جمعة ضميرية؛ سليمان مسلم الحرش ــ دار طيبة (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ (١٤٠٩هـ).

٤١١ ــ **معاني القراءات**: محمد بن أحمد الأزهري ــ حققه وعلق عليه/ أحمد فريد المزيدي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م).

٤١٢ ــ **معاني القرآن وإعرابه**: إبراهيم بن السري الزجاج ــ شرح وتحقيق/ الدكتور عبد الجليل عبده شلبي ــ خرج أحاديثه/ علي جمال الدين محمد ــ دار الحديث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م).

٤١٣ ــ **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**: عبد الرحيم بن أحمد العباسي ــ حققه وعلق حواشيه وصنع فهارسه/ محمد محيي الدين عبد الحميد ــ عالم الكتب (بيروت/ لبنان) ــ (١٣٦٧هـ ــ ١٩٤٧م).

٤١٤ ـ **المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها**: عواد بن عبد الله المعتق ـ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الثانية (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م).

٤١٥ ـ **معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى**: الدكتور محمد بن خليفة التميمي ـ دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان (الجهراء/ الكويت) ـ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

٤١٦ ـ **معجم الأدباء**: ياقوت بن عبد الله الحموي ـ دار الفكر ـ الطبعة الثالثة (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م).

٤١٧ ـ **المعجم الأوسط**: سليمان بن أحمد الطبراني ـ تحقيق/ الدكتور محمود الطحان ـ مكتبة المعارف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٤١٨ ـ **معجم الشيوخ**: محمد بن أحمد الذهبي ـ تحقيق/ الدكتور محمد الحبيب الهيلة ـ مكتبة الصديق (الطائف/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٤١٩ ـ **معجم ألفاظ العقيدة**: عامر عبد الله فالح ـ مكتبة العبيكان (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

٤٢٠ ـ **المعجم الكبير**: سليمان بن أحمد الطبراني ـ حققه وخرج أحاديثه/ حمدي عبد المجيد السلفي ـ دار إحياء التراث العربي ـ الطبعة الثانية.

٤٢١ ـ **معجم المؤلفين**: عمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).

٤٢٢ ـ **المعجم المختص بالمحدثين**: محمد بن أحمد الذهبي ـ تحقيق/ الدكتور محمد الحبيب الهيلة ـ مكتبة الصديق (الطائف/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٤٢٣ ـ **معجم المطبوعات العربية والمعربة**: يوسف إليان سركيس ـ دار صادر (بيروت/ لبنان).

٤٢٤ ــ **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**: رتبه ونظمه/ لفيف من المستشرقين ونشره الدكتور أ. ي. ونسنك ــ دار الدعوة (إستانبول/ تركيا) ــ (١٩٨٨م).

٤٢٥ ــ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: وضعه/ محمد فؤاد عبد الباقي ــ دار الحديث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م).

٤٢٦ ــ **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ــ الطبعة الثالثة.

٤٢٧ ــ **معجم مقاييس اللغة**: أحمد بن فارس الرازي ــ تحقيق وضبط/ عبد السلام محمد هارون ــ دار الجيل (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١١هـ ــ ١٩٩١م).

٤٢٨ ــ **معرفة السنن والآثار عن الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي**: أحمد بن الحسين البيهقي ــ تحقيق/ سيد كسروي حسن ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م).

٤٢٩ ــ **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**: محمد بن أحمد الذهبي ــ حققه وقيد نصه وعلق عليه/ بشار عواد معروف؛ شعيب الأرناؤوط؛ صالح مهدي عباس ــ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م).

٤٣٠ ــ **المعرفة والتاريخ**: يعقوب بن سفيان البسوي ــ حققه وعلق عليه/ الدكتور أكرم ضياء العمري ــ مكتبة الدار (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ).

٤٣١ ــ **المغني في الضعفاء**: محمد بن أحمد الذهبي ــ تحقيق/ حازم القاضي ــ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م).

٤٣٢ ــ **المغني في تصريف الأفعال**: محمد بن عبد الخالق عضيمة ــ دار الحديث ــ الطبعة الثالثة.

٤٣٣ ـ **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضعات العلوم**: أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبري زاده ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٤٣٤ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني ـ تحقيق/ صفوان عدنان داوودي ـ دار القلم (دمشق/ الجمهورية العربية السورية)؛ الدار الشامية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

٤٣٥ ـ **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**: محمد بن عبد الرحمن السخاوي ـ صححه وعلق حواشيه/ عبد الله محمد الصديق ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

٤٣٦ ـ **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**: علي بن إسماعيل الأشعري ـ تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة العصرية (بيروت/ لبنان) ـ (١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م).

٤٣٧ ـ **مقالة التعطيل والجعد** بن درهم: الدكتور محمد بن خليفة التميمي ـ أضواء السلف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

٤٣٨ ـ **المقتنى في سرد الكنى**: محمد بن أحمد الذهبي ـ تحقيق/ محمد صالح عبد العزيز مراد ـ مطبوعات الجامعة الإسلامية (المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).

٤٣٩ ـ **المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد**: إبراهيم بن محمد بن مفلح ـ تحقيق وتعليق/ الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ـ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

٤٤٠ ـ **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**: محمد بن محمد الغزالي ـ دراسة وتحقيق/ محمد عثمان الخشت ـ مكتبة القرآن (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٤٤١ ـ **الملل والنحل**: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ـ صححه وعلق عليه/ أحمد فهمي محمد ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م).

٤٤٢ ـ **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**: عبد الرحمن بن علي الجوزي ـ تحقيق/ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ هجر (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م).

٤٤٣ ـ **مناقب الإمام الشافعي**: عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي ـ تحقيق/ ساعد بن عمر غازي ـ دار الصحابة للتراث (طنطا/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م).

٤٤٤ ـ **مناقب الشافعي**: أحمد بن الحسين البيهقي ـ تحقيق/ أحمد صقر ـ مكتبة دار التراث.

٤٤٥ ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**: عبد الرحمن بن علي الجوزي ـ دراسة وتحقيق/ محمد عبد القادر عطا؛ مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثانية (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م).

٤٤٦ ـ **المنثور في القواعد**: محمد بن بهادر الزركشي ـ حققه/ الدكتور تيسير فائق أحمد محمود ـ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الصفاة/ الكويت) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٤٤٧ ـ **المنجد في اللغة والأعلام**: دار المشرق (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الثامنة والعشرون.

٤٤٨ ـ **منهاج السنة النبوية**: أحمد بن تيمية الحراني ـ تحقيق/ الدكتور محمد رشاد سالم ـ مكتبة ابن تيمية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ الطبعة الثانية (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م).

٤٤٩ ـ **المنهاج الواضح للبلاغة**: حامد عوني ـ مكتبة الجامعة الأزهرية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٤٥٠ ــ **منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ــ الدار السلفية (حولي/ الكويت) ــ الطبعة الرابعة (١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م).

٤٥١ ــ **الموسوعة العربية الميسرة**: مجموعة خبراء برئاسة الأستاذ محمد شفيق غربال ــ دار الشعب.

٤٥٢ ــ **موسوعة القواعد الفقهية**: الدكتور محمد صدقي البورنو ــ الطبعة الأولى (١٤١٦هـ).

٤٥٣ ــ **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**: إشراف/ الدكتور مانع بن حماد الجهني ــ دار الندوة العالمية (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الثالثة (١٤١٨هـ).

٤٥٤ ــ **موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا**: عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا ــ مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م).

٤٥٥ ــ **الموضوعات**: الحسن بن محمد الصغاني ــ حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ نجم عبد الرحمن خلف ــ دار المأمون للتراث (دمشق/ الجمهورية العربية السورية) ــ الطبعة الثانية (١٤٠١هـ ــ ١٩٨٠م).

٤٥٦ ــ **موقف ابن تيمية من الأشاعرة**: الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود ــ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م).

٤٥٧ ــ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: محمد بن أحمد الذهبي ــ تحقيق/ علي محمد البجاوي ــ دار المعرفة (بيروت/ لبنان).

٤٥٨ ــ **النبوات**: أحمد بن تيمية الحراني ــ تحقيق/ الدكتور عبد العزيز بن صالح الطويان ــ أضواء السلف (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ــ الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م).

٤٥٩ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: يوسف بن تغري بردي الأتابكي ـ تحقيق/ فهيم محمد شلتوت ـ مكتبة ابن تيمية (القاهرة/ جمهورية مصر العربية).

٤٦٠ ـ **نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز**: محمد بن عزيز السجستاني ـ حقق نصوصه وعلق عليه/ الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

٤٦١ ـ **النزول**: علي بن عمر الدارقطني ـ حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه/ الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ـ الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).

٤٦٢ ـ **النشر في القراءات العشر**: محمد بن محمد الجزري ـ أشرف على تصحيحه ومراجعته/ علي بن محمد الضباع ـ دار الفكر.

٤٦٣ ـ **نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افتراه على الله عزَّ وجلّ من التوحيد**: حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره/ الدكتور رشيد بن حسن الألمعي ـ مكتبة الرشد (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م).

٤٦٤ ـ **نكت الهميان في نكت العميان**: خليل بن أيبك الصفدي ـ وقف على طبعه/ أحمد زكي بك ـ دار ابن الجوزي (الدمام/ المملكة العربية السعودية) ـ (١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م).

٤٦٥ ـ **النكت والعيون**: علي بن محمد الماوردي ـ راجعه وعلق عليه/ السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

٤٦٦ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: المبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير ـ تحقيق/ طاهر أحمد الزاوي؛ محمود محمد الطناحي ـ دار الباز (مكة المكرمة/ المملكة العربية السعودية).

٤٦٧ ـ **نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول**: محمد الحكيم الترمذي ـ تحقيق/ أحمد عبد الرحيم السايح؛ السيد الجميلي ـ دار الريان للتراث (القاهرة/ جمهورية مصر العربية) ـ (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٤٦٨ ـ **نيل السول على مرتقى الوصول**: محمد بن محمد بن عاصم الأندلسي ـ المطبعة المولوية (فاس/ المملكة المغربية) ـ الطبعة الأولى (١٣٢٧هـ).

٤٦٩ ـ **الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد الذين أخرج لهم البخاري في جامعه**: أحمد بن محمد الكلاباذي ـ تحقيق/ عبد الله الليثي ـ دار المعرفة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

٤٧٠ ـ **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**: إسماعيل باشا البغدادي ـ دار إحياء التراث العربي (بيروت/ لبنان).

٤٧١ ـ **الواضح في أصول الفقه**: علي بن محمد بن عقيل ـ تحقيق/ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ مؤسسة الرسالة (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

٤٧٢ ـ **الوافي بالوفيات**: خليل بن أيبك الصفدي ـ اعتناء/ هلموت ريتر ـ دار النشر فرانز شتاينز (بفيسبادن/ ألمانيا) ـ الطبعة الثانية (١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م).

٤٧٣ ـ **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: علي بن أحمد الواحدي ـ تحقيق/ صفوان عدنان داوودي ـ دار القلم (دمشق/ الجمهورية العربية السورية)؛ الدار الشامية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م).

٤٧٤ ـ **وسطية أهل السنة بين الفرق**: الدكتور محمد باكريم محمد باعبد الله ـ دار الراية (الرياض/ المملكة العربية السعودية) ـ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م).

٤٧٥ ـ **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**: علي بن أحمد الواحدي ـ تحقيق وتعليق/ عادل أحمد عبد الموجود؛ علي محمد معوض؛ الدكتور أحمد محمد صيرة؛ الدكتور أحمد عبد الغني الجمل ـ دار الكتب العلمية (بيروت/ لبنان) ـ الطبعة الأولى (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م).

٤٧٦ ــ **وضح البرهان**: محمود بن أبـي الحسن النيسابوري ــ تحقيق/ صفوان عدنان داوودي ــ دار القلم (دمشق/ الجمهورية العربية السورية)؛ الدار الشامية (بيروت/ لبنان) ــ الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م).

٤٧٧ ــ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: أحمد بن محمد بن خلكان ــ حققه/ الدكتور إحسان عباس ــ دار صادر (بيروت/ لبنان).

٤٧٨ ــ **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**: عبد الملك بن محمد الثعالبـي ــ شرح وتحقيـق/ الـدكتـور مفيـد محمـد قميحـة ــ دار الكتـب العلميـة (بيـروت/ لبنان) ــ الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م).

❑ ❑ ❑

تاسعاً:

فهرس الموضوعات التفصيلي

الموضوع	الصفحة

فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
المسألة الثانية: تقريره حقيقة معرفة الله سبحانه وتعالى؛ وأنها إنما تتحقَّق للعبد بمعرفته لأسماء الله الحسنى وصفاته العلى	١٢١
المسألة الثالثة: تقريره طرق تحصيل العبد لمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى	١٢٧
المسألة الرابعة: تقريره ثمرة معرفة العبد لأسماء الله الحسنى وصفاته العلى	١٤٣
المسألة الخامسة: تقريره أثر فقد العبد لمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى	١٦٧
المطلب الثاني: جهوده في تقرير أن توحيد الأسماء والصفات أشرف العلوم	١٧٣
المسألة الأولى: تقريره شرف هذا العلم من جهة تعلُّقه بتكميل أعلى درجات الدين	١٧٤
المسألة الثانية: تقريره شرف هذا العلم من جهة دلالته على الإيمان بالكتب المنزلة؛ والأنبياء المرسلة	١٧٨
المسألة الثالثة: تقريره شرف هذا العلم من جهة كونه الأساس الذي يقوم عليه التوحيد العلميُّ	١٨٤
المسألة الرابعة: تقريره شرف هذا العلم من جهة الكمال الذي يلحق العبد بتعلُّمه	١٨٩
المسألة الخامسة: تقريره شرف هذا العلم من جهة كونه أصل العلوم؛ وشدَّة الحاجة إليه	١٩٩
المطلب الثالث: جهوده في تقرير أن الكتب الإلـٰهية اشتملت على توحيد الأسماء والصفات أكثر من اشتمالها على ما عداه . . .	٢٠٧

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
المطلب الثالث: جهوده في تقرير إيمان أهل السنة والجماعة بمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى على الوجه اللائق بالله تعالى	٧٢٩
المسألة الأولى: تقريره أن أهل السنة والجماعة اطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم إلى إثبات صفات الكمال لله تعالى بلا تشبيه؛ وتنزيهها بلا تعطيل، مع الإيمان بحقائقها	٧٣٠
المسألة الثانية: تقريره أن أهل السنة والجماعة يدينون لله تعالى بإثبات حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ والإيمان بمعانيها، ولا تُوحشهم المسمَّيات التي يبتدعها الجاهلون الجاحدون	٧٣١
المسألة الثالثة: تقريره أن أهل السنة والجماعة إنما يفهمون معاني أسماء الله تعالى وصفاته بما ساغ من لغة العرب واصطلاحاتهم .	٧٣١
المطلب الرابع: جهوده في تقرير إثبات أهل السنة والجماعة لكمال الله تعالى المتضمن لنفي ضدِّه	٧٣٣
المبحث الثالث: جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في تنزيه توحيد الأسماء الحسنى والصفات العلى	٧٣٧
المطلب الأول: جهوده في تقرير موافقة أهل السنة والجماعة للرسل عليهم السلام فيما جاءت به من النفي المجمل في الأسماء الحسنى والصفات العلى	٧٣٩
المطلب الثاني: جهوده في تقرير نفي أهل السنة والجماعة لجميع ما نفاه الله تعالى عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ	٧٤٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
المسألة الرابعة: تقريره أن الربَّ تبارك وتعالى يستحيل إدراك كنه ذاته والإحاطة بكيفيتها حتى مع رؤية الأبصار له في دار القرار	٧٩٦
المسألة الخامسة: تقريره أن العبد كما يجهل حقيقة المخلوقات وماهيتها وكيفيَّتها: فجهله لحقيقة خالقها وماهيَّة ذاته وكيفية أسمائه وصفاته أولى	٧٩٨
المطلب الثاني: جهوده في تقرير علم أهل السنة والجماعة أن العقول قاصرة عن معرفة كيفية أسماء الله تعالى وصفاته	٨٠٢
المسألة الأولى: تقريره استحالة استقلال العقول البشرية بمعرفة ربِّها بأسمائه وصفاته؛ وإدراكه على التفصيل	٨٠٣
المسألة الثانية: تقريره أن معاني الأسماء والصفات كلها مفهومة، وأما كيفيتها: فغير معقولةٍ؛ لأنها فرعُ العلم بكيفية الذات وكنهها	٨٠٣
المطلب الثالث: جهوده في تقرير معنى قول السلف: بلا كيف . . .	٨٠٦
المسألة الأولى: تقريره أن معنى قول السلف: (بلا كيف): أي بلا كيف يعقل به البشر كُنْهَ ذات الربِّ تعالى وكيفية أسمائه وصفاته	٨٠٧
المسألة الثانية: تقريره أن معنى قول السلف: (بلا كيف): نفيٌ للتأويل الفاسد في أسماء الله تعالى وصفاته	٨٠٩
المطلب الرابع: جهوده في تقرير أن عدم علم أهل السنة والجماعة بالكيفية لا يقدح في حقيقة الإيمان بالأسماء والصفات ومعرفة معانيها	٨١٠

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	**الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني:
جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير إثبات الصفات العلى على وجه التفصيل

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



عاشراً:
فهرس الموضوعات الإجمالي

الموضوع	الصفحة

الباب الأول:
جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أهمية توحيد الأسماء والصفات وبيان معتقد أهل السنة والجماعة فيه

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني:
جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير قواعد الأسماء الحسنى والصفات العلى وأدلتهما

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث:

جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى على وجه التفصيل

الموضوع	الصفحة

● ● ●